حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الاميركي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

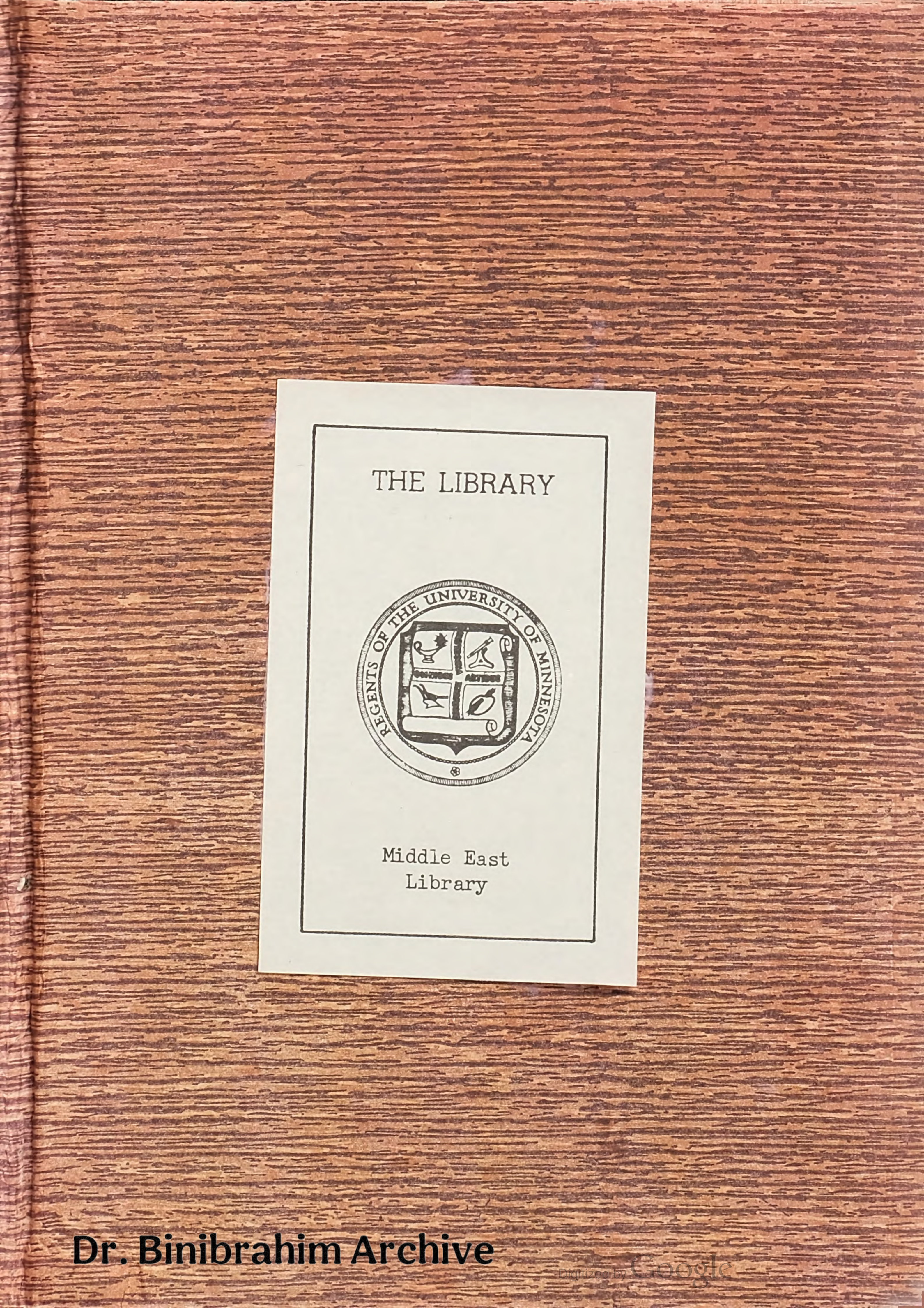
بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الثالث

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عُنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر


THE LIBRARY
REGENTS OF THE UNIVERSITY OF MINNESOTA
Middle East
Library



تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الثالث

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

فهرست

المجلد الثالث

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

الدعوة الاسلامية فى افريقية

للامير شكيب

١ — الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب فى المدنية
٢ — الخلاصة
٣ — الكامرون
٤ — السودان . سكوتو . بورنو . الباقيرمى . السنيغال . واداى . كانم . مملكة مالى
٥ — مسألة الرقيق والشرع
٦ — تتمة ذكر السودان

قال المسيو مورى : فلننظر الآن الى مجارى الدعاية الاسلاميه فى قارة افريقية :

فالمجرى الاول هو التيار المراكشى ، الذى يتحدون من زوايا المغرب العديدة ، ومدارس فاس ومراكش ، ويخترق بلاد الآدرار (بجهة السنيغال) فينشر دعوة الاسلام فى كاآرته ، وفوتاجالون ، والسودان .

والمجرى الثانى هو الذى يخرج من مدارس القادرية فى تمبكتو ، ومن بعض زوايا التيجانية ، ويتبع مجرى النيجر الى بلاد صانقا (من الكونغو الفرنسى) ، فيتلاقى مع مراكز التبشير المسيحى فى ملتقى نهرى النيجر والبنيوى .

والمجرى الثالث هو الذى يصدر عن زوايا السنوسية فى الجغبوب وغدامس منتحيا جهات بحيرة تشاد ، و به أصبحت وادى و بورونو ، مراكز تتأجج فيها حرارة الاسلام .

والمجرى الرابع يخرج من الأزهر بمصر فيتبع النيل الى كردوفان ، الى الاوغاندة حيث ينازع مبشرى البروتستانت والكاثوليك على قيادة الارواح .

وأهم مجارى الدعاية الاسلامية هو ما يقوم به تجار المسلمين ، الذين يقصدون دارفور والسودان تارة من مصر وطورا من طرابلس ، وأفعل من هؤلاء رهط التجار الذى يقوم من زنزيبار قاصدا بلاد البحيراب الكبر الى الكونغو ، تابعا مجرى هذا النهر الى بلاد

البانتو (١) حيث يسابق البعثات المسيحية على أرواح هذا الشعب .

والحق يقال ان الاسلام فى هذه الصفحة الاخيرة من تاريخه قد دل على أنه يملك حيوية عظيمة ، وقابلية شديدة للانتشار . فليتذكر الناس حركات أمة البله (٢) ونشاط الدراويش أتباع الطرق ، وتكاثر الزوايا ، وثورة الحاج عمر الفوتى وخلفائه ، والمهدى السودانى ، وتجارة الرقيق . ولا ينكر أن الرق ألغى وان أحمدو وساموري ومحمد أحمد انكسروا ، وان الغارة الاسلامية توقفت فى السودان الفرنسى وفى السودان المصرى ، ولكن التعصب الاسلامى لم ينطفئ وانما هو يتوقد تحت الرماد ، وتجد الدعوة الاسلامية ماشية بالرغم من كل الحوائل فى الاوغاندة ، ووادى الكونغو ، ووادى النيجر ، ووادى الغامبية ، وساحل غينية ، وسنرى فى الفصل الآتى مواقف الديانتين بعضهما بازاء بعض .

الصراع بين الاسلام والنصرانية

وأيهما الغالب فى أمر المدنية

قال : ان الديانتين الاسلامية والنصرانية ، واقفتان كل منهما فى مقابلة الاخرى على خطين طويلين ، فاذا خططنا خطاً يمتد من مصب السنيغال الدرجة ١٦ من العرض الشمالى ، قاطعا الى شرقى افريقية الدرجة ٢ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبى . وخطا ثانيا ، يمتد من الدرجة ٥ من العرض الشمالى مع الدرجة ١٠ من الطول الغربى الى الدرجة ١٥ من العرض الجنوبى مع الدرجة ٤٠ من الطول الشرقى فى قرب موزامبيق ، تكونت لنا منطقة واسعة جدا ، يضطرب ضمنها مائة مليون نسمة هم معترك النزاع بين الاسلام والنصرانية .

وقد تقدم كون مراكز دعوة الاسلام هى فاس ، وطرابلس ، وجغبوب ، والازهر ، وزنزيبار ، وان طلائعها فى بحيرة تشاد وتمبكتو . وأما النصرانية فدعاتها من فرنسيس ، وطليان والمان ، وسكندينافيين ، وانكليز ، وامريكيين ، قد اخترقوا الكتلة الفتيشية من

(١) شعب زنجى كبير يتألف منه سكان الكونغو ، وأهالى بلدان البحيرات الكبر ، وأقاليم إفريقية الجنوبية كالزولو ، والبتشوانه الخ

(٢) أمة سودانية تسكن ضفة السنيغال الشمالية ، ومنها أهالى فوتاجلون ، وبلاد النيجر العليا والوسطى وسمرة ألوان هذه الأمة مشربة بحمرة ، وشعورهم مائلة الى السباطة ، وسحنتهم تكاد تكون أوربية ، ويقال لهم أيضاً الفولاه والفوله وكلهم مسلمون

ثلاث أو اربع نقاط وهى : وادى غامبيه وأعلى السنيغال ، وسيراليون وساحل غينية ، ومثلث النيجر ، وأعلى الزامبيز ، و بلاد البحيرات الكبر . وأعز مراكز النصرانية اليوم هى السودان الغربى ، والكونغو ، و بلاد الكافر ، والاوغانده ، والزامبيز الاعلى . (١)

أما من جهة العدد فالمتنصرون من السود لا يزيدون على سبعة ملايين وخمسمائة الف ، حال كون المسلمين ٣٦ مليونا اكثرهم مستعمرات فرنسا فانهم فى السنيغال الى شرقى بافولابه ومنهم أكثر أهالى نيورو ، وغومبو ، وسوكوتو وجميع منطقة فاقيبين ، وتمبكتو ، و وادى النيجر ، و بلاد فوتاجالون ، و بلاد كيتا ، و بامباكو ، وستادونغو الخ .

ثم أخذ يسرد المسيو بونه مورى الاسباب التى جعلت للاسلام الفوز فى افريقية بين السود ، وأهم هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، التى تنحصر فى كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، مما يقبله عقل الزنجى بدون عناء كبير ، كذلك الجنة التى عند المسلمين تطابق ميول الزنوج ، أكثر من فردوس النصارى ، كذلك الاسلام ليس فيه طبقات ودرجات ، فالزنجى لا يرى نفسه محتقرا فى الجماعة الاسلامية . قال: ومع كون الفقير والغنى متساويين عند كل الملل فليس عند أغنياء المسلمين هذه العظمة والخشونة اللتان عند أغنيائنا ، بل أغنياء الاسلام أكثر تذكرا لزوال النعم وتحول الاحوال من أغنياء النصارى ، والفقير المسلم لا يعز عليه أن يدخل بيت أى واحد من أغنياء الاسلام وان يجد هناك مضافا .

(١) الكونغو نهر عظيم في أواسط افريقية يخرج من غربى بحيرة نياسا وينتهى فى الأوقيانوس الاطلانتيكى ، طوله ٤٦٠٠ كيلو متر وحجمه مائة من ٤٠ ألف الى ٧٠ ألف متر مكعب ، والبلاد التى تجاوره تسمى بلاد الكونغو وهى أربعة أقسام الكونغو الألمانى فى الشمال وهو الكامرون ، والكونغو البرتقالى وهو انفوله فى الجنوب ، والكونغو الفرنسى ، ثم الكونغو البلجيكى ، وأعظمها البلجيكى الذى عدد سكانه ١٤ مليوناً . وأما الاوغاند فحقها أن تكون من السودان المصرى وهي شمالى بحيرة فيكتوريا نيانزه الى الغرب ، أهلها مليون نسمة حصلت فيها فتن بعد وفاة ملكها ميتزا بسبب الدعوات الدينية ، بين المسلمين والبروتستانت والكاثوليك ويقول موريس فال الفرنسى فى قاموسه ان الغلبة كانت للبروتستانت بسبب عضد الضباط الانكليز لهم . والاوغاندة كما لا يخفى أدخلتها انكلترة في مستعمراتها. وأما بلاد الكافر فهى فى افريقية الجنوبية قد مر ذكرها ، وأما الزامبيز فهو نهر عظيم يتكون من ملتقى ليبا وكامبومبو، اللذين ينبعان فى نحو الدرجة ١٢ من العرض الجنوبى تنسب الى هذا النهر مستعمرة الزامبيز البريطانية وأهلها مليون وثلاثمائة ألف

ثم ان العرب والمغاربة والبربر يتزوجون بالسودانيات ، فتحصل بينهم و بين الزنوج وشائج اسباب وأرحام تزيد نفوذ أولئك عليهم ، حال كونه من النادر الا ندر أن يتزوج أوربى بسمراء أو يرضى بمصاهرة رجل اسود . ثم ان تعدد الازواج ، وجواز الرق (كذا) ، ومنع القرآن للمسكرات ، كلها أسباب تجعل الرجحان فى كفة الاسلام .

وأكثر الذين صنفوا على افريقية حتى الذين منهم اشتهروا بعداوة الاسلام ، اعترفوا بحسن عاقبة اسلام السود من الوجهة الدينية والادبية . لانهم تخلصوا من عبادة الاوثان والحيوانات ، وأقلعوا عن عادة الذبائح البشرية ، وتركوا السحر والسحرة ، وانصرفوا الى عبادة اله واحد عدل ، يعبدونه عبادة روحية منزهة . ثم ان دعاة الاسلام يعلمون المهتدين مبادئ اللغة العربية التى هى فى الاسلام بمثابة اللاتينى فى أمم النصرانية . ومما لا شك فيه ، أن الاسلام يزيد النفس عزة ، وينهض بوجدان الزنجى كما قال آتربورى Atterbury وهو قوله : « بمجرد ما يدخل الزنجى فى الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، و بعد أن كان يعتقد ذاته عبدا ، يصبح فى نظر نفسه حراً . »

وان جميع وصايا جمعيات المبشرين بترك المسكرات ، لم تبلغ شيئا من درجة تأثير الاسلام فى حظر هذه الرذيلة . وربما قيل انه كما كان الامساك عن شرب الخمر يرفع درجة الانسان ، فالتزوج باكثر من واحدة يعمل عكس ذلك . والجواب على هذا أن أكثر المسلمين يقتصرون على الزوجة الواحدة أولا لأن القرآن شرط لتعدد الزوجات شروطا ثقيلة ، ثانيا ، لأن النفوذ الاوربى ازداد فى العالم الاسلامى ، وصار كثيرون من المسلمين ينفرون من تعدد الزوجات — وأتى بونه مورى على ذلك بشواهد كثيرة ، وخاض فى بحث المرأة الجديدة فى الاسلام ، وتكلم على كتاب المرحوم قاسم أمين ، وعلى مدارس الاناث المحدثة فى الاسلام الى أن قال : « أما مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية فمنها تعدد الزوجات . »

لأن تعدد الزوجات بذاته يسقط من مكانة المرأة ، التى هى فى نظر السواد الاعظم من المسلمين واسطة شهوة ، ووسيلة للنسل لا غير . فهذا من مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية ثم هناك ضعف آخر وهو فساد القضاء الاسلامى وفقد العدل فيه ، اذ كل ما هو مشهور عن قضاة الحكومات السابقة فى فرنسا من الرشوة والتزوير والظلم . لا يحسب

شيئا فى جنب مساوىء قضاة الاسلام فى افريقية . فانه يكاد يكون مستحيلا نجاح فقير فى دعوى مع غنى ، أو انصاف أرملة وقاصرين فى نزاع مع وصى

فليفكر جيداً المسلمون فى هذه الكلمة ، وليعلموا أنه اذا كان الله تعالى أباح تعدد الزوجات تحت شروط ، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه. بل الاسلام وضع العدل فوق العبادة ومع هذا فقد صار الأمر الى أن فساد القضاء وفقد العدل فى محاكم الاسلام ، أصبحا حجة على الاسلام ، ونقطة يهاجم بها . ولا شك أن أمثال هؤلاء القضاة من المسلمين ، هم بأعمالهم أفحش نكاية بالاسلام من جميع أعدائه . أفلا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الأحوال ، هى التى رفعت ثقة الاوربيين ، لا بل الشرقيين من المحاكم الشرعية ، وحملت الكثيرين على طلب الغائها ، أو وضعها تحت السيطرة الأوربية ؟ فأى عار على الاسلام أكبر من هذا ؟ وأى جناية على الاسلام أفظع من أن يصوّره رجال الشرع بغير صورته بسوء أعمالهم ، فبدلا من أن يرغب فيه الناس تراهم يرغبون عنه بسببهم .

جعل المسيو بونه مورى استحلال الرق من جملة نقائص الاسلام ، واعترف بان العبيد أبناء العبيد الذين يخدمون فى البيوت ويدينون بالاسلام ، لاتساء معاملتهم ، ولكن أفاض فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها أسرى الحرب ، وطعن كثيراً فى تجار الرقيق لا سيما من العرب ، ووصف القسوة التى تظهر منهم فى معاملة من يصطادونهم من الزنوج . وجعل أصل التبعة فى ذلك على الاسلام . ونسى أن الرق وجد فى جميع الأزمان ، وانه وجد فى النصرانية أيضاً . وان البوير الأوربيين فى جنوبى افريقية ثقل عليهم تحرير الرقيق ، أكثر من تجار العرب . وان الحرب فى أميركا استمرت عدة سنوات ، بسبب أن قسما عظيما من أهالى أميركا أبوا الخضوع لقانون ابطال الرق . ونسى أيضاً صاحبنا أن أكثر الأمة الروسية ، وهم الفلاحون كانوا أرقاء للامراء والأشراف ، ولم يتحرروا الا منذ نحو ١٥٠ سنة وهم من الجنس الأوربى لا من الزنج . كذلك غفل أو تغافل عما أوصى به الاسلام بشأن الرقيق ، وما عظم من فضيلة تحرير الرقاب ، وكيف أن آخر كلام النبى ﷺ وهو على فراش احتضاره كان ، التوصية بالأرقاء . فنظر المؤلف من جهة واحدة ، وذكر السيئات وأغفل الحسنات .

ثم خاض المسيو بونه مورى فى ثمرات الدعوة المسيحية فقال ، ان عدد المتنصرين

من المسلمين لا يكاد يذكر ، ولكن لا يخرج من ذلك أن الدعوة المسيحية لم تكن ذات تأثير على المسلمين بل ان الميل الحاضر عندهم الى الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، والاعتناء بترقية سوىّ المرأة ، واصلاح المحاكم ، كل هذا كان من نتائج الدعوة المسيحية . فاما بين الوثنيين فان دعاة الانجيل قاوموا عبادة الفتيش [1] والاعتقاد بالسحر والتعاويذ ، والذبائح البشرية ، والرق ، وأصلحوا حال المرأة ، واجتهدوا فى تعليم الزنجى ، الاقتصار على الزوجة الواحدة ، وأفهموا السود أن على المرأة واجبات غير الولادة ، وهى تهذيب الأولاد وتمريض المرضى والزمنى ، بخلاف المسلمين الذين يرون فى المرأة واسطة للنسل لا غير . (كذا)

وعلموا السود النظافة وقوانين حفظ الصحة ، ومرنوهم على الأشغال اليدوية والزراعة وأما من جهة المستشفيات ولا سيما ملاجئ المجذومين ، فحدث فى هذا الباب ولا حرج . ثم ان المبشرين هم الذين نشروا فى أوربا فظائع صيد البشر حتى اهتمت الدول بذلك ، وعقدت المؤتمرات التى قررت فيها منع بيع الرقيق . ولم يتوقف المبشرون عن التشهير بمساوئ تجار الرقيق بل شهروا بسيئات المستعمرين الاوربيين أنفسهم فيما لو خبطوا الاهالى بعصا العسف وذلك كما فعل المبشرون الانكليز ، عند ما رأوا أعمال بعض البلجيكيين فى الكونغو . ومما لا يمكن السكوت عنه أن بعض الاوربيين ارتكبوا جريمة بيع المسكرات بين الزنوج ، ومنهم ضباط وحكام استعملوا القسوة فى معاملتهم ، فكانوا مثالا سيئا وان بعض المبشرين أنفسهم ، ارتزقوا من حرف غير لائقة بالعمل الذى بعثوا من أجله ، وان كثيراً من المبشرين تشاجر بعضهم مع بعض ، لا سيما الكاثوليك والبروتستانت ، وحصلت فى الاوغاندة وقائع دموية بسبب نشر الدين ، فهذا مما يقدح الشكوك فى قلوب الذين ذهب المبشرون لهدايتهم ، وما ذا تقول فى حرب الترانسفال التى دارت بين أمتين مسيحيتين تحت أعين الزنوج ، فجاءت بتكذيب دعوى البيض بكون انجيلهم هو واسطة السلام .

قال : وبالجملة فاذا كان الاسلام قد رجح من جهة عدد الذين اتبعوه من السود ، فالنصرانية كانت الرجحى فى أهمية النتائج الأدبية والاقتصادية ، ثم لا يوجد وجه للمقايسة بين المدارس النصرانية وبين كتاتيب الزوايا فضلا عن كون مبشرى الانجيل أسسوا مدارس صناعية مثل باقامويو Bagamoyo ومدرسة لوفيدال Lovedale ومدارس زراعية

(١) لفظة برتقالية الأصل معناها الوثن أو المعبود من الحيوانات

مع انموذجاتها نظير مؤسسة الآباء البيض فى كيتا Kita وأين تجد عند دعاة الاسلام من دور الأيتام وملاجئ العجزة والزمنى ومستشفيات المجاذيم ، ما تجده عند دعاة النصرانية ، وأين فى العالم الاسلامى النسوة اللائى مثل راهبات الرحمة الكاثوليكيات والاخوات الانجيليات ، ونساء المبشرين . لا جرم أن النصرانية فى هذا الموطن هى العليا وان كان الاسلام هو الفائق فى قضية منع الكحول .

فنحن لا ننكر ما قاله المسيو بونه مورى من أنه لا وجه للمقايسة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية فى افريقية وغيرها من جهة الاتقان والتفنن ، وتنوع العلوم ، والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال فى هذه المشروعات الخيرية ، وما تأتى به هذه الراهبات من الخوارق فى خدمة الانسانية. كلا والله لا ننكر ذلك ، (والحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . ولكن مما لاينكر أيضاً أن انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، انما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية فى الاعصر الاخيرة ، اما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر فى الاسلام الا فيها البيمارستانات ، ودور المجاذيم ، والمجاذيب ، وملاجئ الزمنى ، وملاجئ العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دارّة ، ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة .

لا بل الذى خطر ببال المسلمين من جهة اسداء الخير ، واماطة الأذى ، وتخفيف آلام البشر قد وصل من التناهى الى درجات ، لم تبلغها أوربا فى عصر مدنيتها هذه ، ودل على أن فى الاسلام من رقة الشعور ، ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ، ما ليس فى غيره . واليك هذا المثال :

كانت فى دمشق الشام عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ، و يقال ان مرجة دمشق هذه التى هى اليوم متنزه أهل الحاضرة ، كانت وقفا على الخيل التى تعبت فى الجهاد وأسنت ، يطوّل لها فيها دون غيرها .

وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء لم أجد عليها نصاً ، ولكنها قريبة الى التصديق وهى ، أنهم وجدوا فى الوثائق المتروكة عن المستشفى النورى الشهير [1] وظيفة من جلة وظائف المعالجة لم يخطر ببال الاوربيين ، مع تناهيهم فى الترف والعناية بالصحة

(١) محل المحكمة الشرعية الآن وهو منسوب الى الملك العادل نور الدين زنكى رحمه الله

أن يجعلوها وظيفة ، ولا أن يرتبوا لها جعلا معلوماً ، وهى تكاليف اثنين بان يقفا بمسمع من المريض ، و بدون أن يلحظ أن ذلك جار منهما عمداً يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض ، فيجاو به رفيقه بانه لا يوجد فى علته ما يشغل البال ، وأن الطبيب رتب له كذا وكذا من الدواء ، ولا يظن أنه يحتاج الى أكثر من كذا من الوقت حتى ينقه ، وغير ذلك من الحديث ، الذى اذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال وظنه صحيحا ، زاد فى نشاطه ، ونهض من قوته المعنوية بما يفعل فعل انجع الادوية لا سيما عند ذوى الامزجة العصبية . فهذه نكتة ، لم يتنبه الاور بيون الى أن يدخلوها فى جملة وظائف المستشفيات الى هذه الساعة ، مع انها فى منتهى درجات الرقة والفائدة .

ومن أرق وألطف ما وجد فى الاسلام من هذا المعنى وقف الزبادى ، الذى كان فى دمشق ، وقد حدّث عنه ابن بطوطة وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصينى الجليل القدر ، وقفها أصحابها لأجل انه اذا كان غلام كسر آنية لسيده وتعرض بذلك لغضبه ، يذهب الى هذا المكان و يضع الاناء المكسور ، ويأتى باناء صحيح بدلا عنه . فهل لحظ أرباب المبرات من الافرنج معروفاً ، بلغ هذا المبلغ من الكياسة ، والطف الشعور ؟

و وجد فى الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات .

و وقف لسقيا الماء المثلوج فى الصيف لعابرى السبيل ، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة .

و وقف لمستشفى المجاذيم ، من جملة أراضية القرى التى كانت للمرحوم أحمد باشا الشمعة فى حوران .

أما أوقاف البيمارستانات فهذه لاتحصى فى الاسلام .

وفى مكة المكرمة وقف ، مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة .

وقف لاعارة الحلى والزينة فى الاعراس والأفراح ، بحيث ان العامة والفقراء لا بل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا المعهد الخيرى ، فيستعيرون منه مايلزمهم من الحلى لأجل التزين به فى الحفلات ، و يعيدونه الى مكانه بعد انتهائها فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، ولعروسه أن تجلى بحلية رائقة مما يجبر خاطرهما ، وكذلك يستغنى المتوسط فى الثروة عن أن يشترى مالا طاقة له به .

وفى مكة وقف آخر تستعار منه أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم .

و بلغنى أنه يوجد بمصر وقف لسكنى الأيامى . ووقف آخر لكسوة أولاد الفقراء . و وقف لاطعام الكلاب .

و يوجد بتونس الخضراء وقف مرصد ريعه لتزويج بنات الفقراء واليتيمات ، و وقف للصبيان ، لهم يوم مخصوص هو يوم الخميس يسألونهم فيه عن جميع ماقرأوه فى الاسبوع ، و يعطونهم بعد ذلك دراهم بعثاً لهممهم ، وتفريحاً لقلوبهم . و ووقف للاستحمام مجاناً ، توضع فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج الى الاستحمام أو ازالة الجنابة ، و يتناول احدى هذه الصرر ويذهب الى الحمام ، فيدفعها بعينها و يستحم .

و يوجد فى تونس وقف غير الوقف الأول ، لتزويج البنات الا بكار اللائى بمحل الزواج .

وفى تونس وقف لدار المجاذيم . و وقف آخر للمعاتيه .

وفى تونس وقف لختان أولاد الفقراء ، يختن الولد و يعطى كسوة ودراهم . وهناك وقف توزع منه الحلواء فى رمضان مجانا .

وقيل لى ان فى تونس كما فى دمشق وقفا لمن انكسر بيده اناء ، فيذهب و يأخذ منه بدل الاناء الذى انكسر .

و يأتى الى تونس فى بعض أيام السنة نوع من السمك تفيض به شواطئها ، فيوجد فى تونس وقف يشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك ، و يوزع على الفقراء .

و يوجد فى فاس وقف أشبه بالوقف الذى فى دمشق ، والآخر الذى فى تونس ، لمن ينكسر بيده اناء .

وفيها وقف لاحتياط آخر ، وهو أن من وقع عليه زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه بشئ آخر ، يذهب الى هذا الوقف و يأخذ منه مايشترى به ثوبا آخر .

وهناك وقف سيدى أبى العباس السبتى للعميان والزمنى ، يأخذون كل يوم من ريعه مايعيشون به ذكوراً واناثا على كثرة عددهم .

و يوجد وقف اسمه وقف سيدى على أبى غالب ، ينفق منه على ذوى العاهات .

ووقف فى فاس ، ينفق منه لرفع الحجارة من الطرقات .

ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالنوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن « بمؤنس الغرباء » أو « مؤنس المرضى » لأن المريض لايقدر أن ينام ولا يوجد فى كل الاحيان من يحيي الليل لأجله ، فليس له أنيس احسن من هذا المؤذن الذى يشجيه بصوته الرخيم فى تسبيح البارى تعالى فى ساعات الليل الأخيرة .

وفى مدينة مراكش وقف لسقى الماء المثلوج فى أيام القيظ كما فى دمشق .

وفيها مؤسسة اسمها « دار الدقة » وهى ملجأ تذهب اليه النساء اللائى يقع نفور بينهن وبين بعولتهن فلهن ان يقمن به آكلات شاربات ، الى ان يزول مابينهن وبين أزواجهن من النفور . وعلى دار الدقة هذه ، أوقاف عديدة دارة .

ويوجد فى مراكش مكان اسمه « سيدى فرج » عليه أوقاف كثيرة دارة فائضة ، وذلك لايواء المجاذيب والمعاتيه ، ولتجهيز الموتى من الضعفاء والمساكين . ويؤخذ من ريع أوقاف سيدى فرج هذا ، لشراء ملابس توزع على الفقراء فى أول الشتاء .

وروى جان وجيروم تارو الاخوان ، الكاتبان الفرنسيان فى رحلتهما الى مراكش، ان فى مدينة مراكش ملجأ لايوجد مثله فى الدنيا بأسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة ، وله ساحة يكاد الطرف لايأتى على آخرها ، وفى هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ، ويأكلون ويشربون ، ويقرأون ، ولهم أنظمة ، وقوانين ، وهيئة ادارة ، وصندوق الخ .

فهذا مثال مما فى العالم الاسلامى من المشروعات الخيرية والمآثر الانسانية ، مما لم يتفطن لاكثره العالم الأوربى بعد ان وصل الى ما وصل اليه من الغاية القصوى فى العمران ، والدرجة العليا فى الاحتياط لازاحة علل الانسان . وربما كان كثير من هذه الأوقاف والملاجئ قد انحط أودرس ، أو استأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لايمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة، وهذه الخواطر الخيرية الدقيقة قد وجدت فى الاسلام أيام عزه، ولا يزال قسم كبيرمنها موجودا . فافتخار المسيو بونه مورى على الاسلام بوفرة الملاجئ ودور الايتام ، وكثرة معاهد الخير فى النصرانية ، دون الاسلام ليس فى محله . ولو اطلع على هذه المعلومات ، التى هى قليل من كثير مما فى الاسلام من المبرات العامة لرجع عن كلامه .

الخلاصة

استخلص صاحب كتاب الاسلام والنصرانية فى افريقية من ابحاث كتابه هذا ، التى لخصنا أكثرها تلخيصا مطابقا للأصل ، ان الأديان التى جاءت افريقية بأفضل وأسلم مبادئ المدنية هى الاديان الثلاثة ، الموسوية ، والنصرانية ، والاسلامية . وان الوثنية التى كانت عليها قرطاجنة والاسكندرية فى الأعصر القديمة لم تفد افريقية شيئا ، كما أن الفتيشيـة الحاضرة بين الزنوج ، هى مصدر لافظع الأعمال واسخف العبادات .

وقد كان لليهودية دور عظيم بمصر لعهد البطالسة وفى افريقية الرومانيه ، قبل مولد السيد المسيح بقرن و بعده بقرنين . ولكنها الآن انحطت كثيرا فى هذه القارة ، فليس فى شمالى افريقية أكثر من ٢٦٠ ألف نسمة من اليهود ، أقلهم انحطاطا يهود الجزائر ومصر ، وترى جمعية الاتحاد الاسرائيلى عاملة لاعلاء شوبهم بهمة عظيمة .

أما النصرانية فازدهرت كثيراً فى القرن الثانى الى السابع للميلاد وعمت شمالى افريقية من مصر الى أقصى المغرب ، فاما جاء الفتح العربى الأول فى القرن السابع ثم الثانى فى القرن الحادى عشر جرفا كل آثار النصرانية هناك الا ما كان للقبط بمصر والحبشة .

وأما الاسلام فبعد أن أشرقت به أنوار العلوم والصناعات بمصر و بالمغرب توقف على مستوى واحد ، ثم شرع بالتدهور بعد سقوط الاندلس .

ثم عادت النصرانيـة بواسطة جمعيات التبشير المسيحى الى العمـل بين الزنوج الفتيشيين ، ولكنك ترى دعاتها فى سواحل زنجبار ، ونواحى البحيرات الكبرى وفى واداى ، وحول بحيرة تشاد ، وفى البلاد الواقعة بين منحدر النيجر ومنابع السنيغال ، يتصادمون مع رجال الطرق الاسلامية ، وطلبة فاس ، والأزهر الذين يأبون النصرانية بأى وجـه كان . فمنذ بداية القرن التاسع عشر اشتدت المزاحمة بين هاتين الديانتين ، وتسابقتا على السيادة الدينية بل على السيادة الدينية السياسية ، بما لا يقـل حرارة عن مساجلتهما أيام القرون الوسطى .

فماذا ينبغى لنا أن نتمنى من جهة نتيجة هـذه المصارعة بين هاتين الديانتين ؟ وأية خطة يجب أن يتبعها مبشرو النصرانية لاكمال عملهم ؟

الجواب على السؤال الأول : لاينبغى لنا ان نتمنى لافشل الاسلام ولا فوزه . لاينبغى أن نتمنى فشل الاسلام لأنه مما لامشاحة فيه أن دين محمد قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التى دانت به ، وخدم بذلك الانسانية . فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز ، سادت فيها البربرية وعم شرب الخمور . ولا ينبغى لنا أن نشتهى فوزه لأنه اذا فاز ، هاج التعصب الاسلامى وعقبت ذلك حروب دموية ، وربما مذابح يهلك فيها الأوربيون . هذا فضلا عن كون الاسلام اذا رفع مستوى الزنجى فانه يقف به فيما بعد على درجة ، لايتقدم عنها ولا يتأخر . (يشير الى الجمود الحاضر) .

وعندى ان الاولى بقاء الديانتين فى مراكزهما الحاضرة تسعى كل منهما سعيها مع التسامح والتفاهم . فأما فى البلاد التى دخلت فى الاسلام فيجب العدول عن سياسة التنصير والاكتفاء بادخال مبادئ مدنيتنا بواسطة المدارس الفرنسوية العربية ، أو الانجليزية العربية والمستشفيات والملاجئ ، ومدارس تعليم البنات الخ . وكذلك يحسن بالاوربيين أن يقتدوا بالمسلمين فى الامتناع عن المسكرات وفى احترامهم الفتيشى ، الذى يقلع عن عقيدته الأولى ، وعده مساويا للابيض ، وفى الالفة بين الغنى والفقير .

ولكن حيث أباح الأسلام التعذيب فى القضاء ، أو تجارة الرقيق ، أو الشعوذات السحرية ، فيجب على ممثلى النصرانية أن يأذنوا بذلك حكوماتهم ، حتى تبطل هذه الأمور بالقوة .

وعلى دعاة النصرانية أن يسرعوا فى عملهم ، ويضاعفوا همتهم ونشاطهم بحيث يسبقون دعاية الاسلام ، ويعرفوا المائة مليون زنجى الباقين على الفتيشية بانجيل المسيح ، قبل أن يسمع هؤلاء بذكر القرآن . وعليهم أن يتوخوا البساطة فى التعليم المسيحى ، وينهجوا الطريق الذى نهجه حواريو المسيح فى وقتهم عند ماكانوا يهدون الوثنيين . وأما الفضائل فيجب على المبشرين أنفسهم أن يكونوا هم القدوة بها ، ليمحوا سيآت غيرهم من النصارى البيض . اه

التبشير والمبشرون

هذه خلاصة كتاب الاسلام والنصرانية فى افريقية عولنا عليه ، لأنه أجمع ماراينا فى هذا الموضوع . وكان ستودارد قد نقل عنه . واطلعت على كتاب عنوانه « عصر فى افريقية والاوقيانوس » لجمعية التبشير الانجيلية الباريزية مطبوع فى السنة ١٩٢٣ الماضية

فوجدت فيه بعض نبذات تتعلق بالاسلام فى أواسط افريقية .

فذكر ان فى السنيغال خمسة أو ستة أجيال ، مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة ، وان أحصاهم عددا جيل يقال لهم الاولوف Ouolof فقال ان هؤلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ، ولكنهم بمجىء شبابهم أثناء الحرب الكبرى الى فرنسا ، حصلت ثورة فى أفكارهم وتساهلوا فى الدين .قال : ولا نقدر ان نقول ان هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الأدبية . كلا بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لايذوقون الاشربة المتخمرة أصلا ولم تقتصر هذه الثلمة فى سور التعاليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم فى رمضان وترك الصلاة .

قال وحصل منذ نحو عشر سنوات أن شاباً مسلماً ابن عائلة وجيهة فى سور Sor ، تردد كثيراً على المدرسة الانجيلية فى هذه البلدة ، الى أن التمس من المسيو أندرى درانكو تعليمه الدين المسيحى ، ولحظ أهله ذلك فلم يعارضوه فى أول الأمر ظناً بأنه لايصبأ عن دينه ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن الشاب ترك صلاة المسلمين وصيام رمضان ، وانه مرق من الاسلام ، فأرسلوه الى جهة بعيدة لم يرجع منها .

قال فاما فى هذه الأيام فحوادث كهذه لاتقع لالكون الأهالى تركوا الاسلام، بل لكون النشء الجديد تملص من القيود العتيقة . فصار بعض الشبان يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء فى سان لويس ، أو فى داقار ، ويشتركون فى الأناشيد الروحية ، مما يدل على حالة عقلية لم تكن من قبل . فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها الى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضى ، فاننا نحن منذ مدة طويلة مستولون على السنيغال ، وعند ما جاء أول مبشر الى السنيغال منذ ٦٠ سنة ، كانت مقاطعات كثيرة من السنيغال لم يقبل أهلها دين الاسلام . ولكن نقصتنا الثقة وأعوزنا الثبات ، مع أن الأرض اذا كانت خصبة تحتمت فلاحتها وزرعها ولو تأخر الوقت . نعم ان السنيغال بلاد اسلامية ، ولكن فيها طوائف لا يزالون فتيشيين مثل السريريين Sereres ، الذين يبلغ عددهم ٣ الى ٤ مائة ألف ، وكذلك أهالى كازامانس الذين معظمهم وثنيون .

ففى السنيغال مليون ونصف مليون نفس كلها خلائق الله ، وكلها فى حاجة الى المخلص

ولقد كانت تربيتها الى هذا اليوم اسلامية بحتة ، ولكن جرى تحول فى الأفكار بهذه المدة الأخيرة ، فالساعة اذاً قد أزفت للعمل . اه

وكاتب هذا الفصل المبشر البرت درانكورت يحرض قومه على البذل والاهتمام و بث الدعاة فى السنيغال .

ثم اطلعت فى هذا الكتاب نفسه عن فصل آخر ، لمبشر يقال له المسيو فور Faure يتكلم على البعثة الانجيلية فى بلاد الغابون أو الكونغو الفرنسى ، ويقول فيه ان هذه البلاد بعد ان ضُمت اليها مستعمرة الكامرون الألمانية ، صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات ، وان سكانها أقوام مختلفة من سود افريقية منهم مسلمون وأكثرهم فتيشيون . ومن جملة ما ورد فى هذا الفصل قوله :

ان الأوربيين ، قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها . فاذا كانت أمم المبونغوى ، Mpongwé والغالوه ، Galoa والنكومى ، Nakomi وغيرها وقد انقرض كثرها فما ذاك الا لكون النخاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الأقوام ، و يستعبدونهم و يبيعونهم ، ولكون أكثر أرباح التجار البيض ، هى من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، وبالآخر فلنقل الحقيقة وهى ان الزنا مع ما يجره من الأمراض التى كادت تفنى هؤلاء الزنوج ، انما فشا فيهم بواسطة الأوربيين . ولكم من جرم جره الأوربيون بين هؤلاء السود البؤساء ، ومما لا نقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصرى ان هو الا استغلال المستعمرات وأهلها ، بأى وجه كان . فمسئولية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ولا سبيل لانكارها (١) فمن الواجب اذاً علينا . نحن البروتستانت أن نعوض الضرر الذى ألحقه أبناء جنسنا بأهل افريقية ، وان نحمل كلمة الحياة والنور والقوة ، الى حيث الانحطاط والظلمات ولنتذكر ان مئات ألوف من هؤلاء الأهالى لبوا نداء بلادنا فى الحرب الكبرى ، وقتلوا فى سبيلنا ، فان ثلثى هؤلاء الذين سقناهم الى الحرب لم يعودوا الى أوطانهم ، لأن منهم من قتل ومنهم من مات بالأمراض الخ .

ومما يستجلب النظر فى هذا الكتاب فصل لمبشر اسمه فريدريك فرنيه Fréderic Vernier عن التبشير الانجيلى فى ماداغسكر أشار فيه الى نجاح الدعوة فى تلك

(١) فليتأمل القارىء فى شهادة هذا المبشر الانجيلى على قومه

الجزيرة الكبرى ، ولكنه لم يخل كلامه من شكوى مرة من أعمال الجزويت ، الذين لبثوا مدة طويلة مستخدمين قوة الحكومة الفرنسية لاعنات البروتستانت ، ولم يتمكن هؤلاء من رفع الظلم والانتقام عنهم الا ببذل أموال جزيلة ودماء زكية . وكذلك شكا من حملة الملاحدة من الأوربيين الذين كانوا يناوئون الدعوة الدينية من أصلها ، ثم من فساد الأخلاق وفتور العزائم المستولين على سكان ماداغسكر ، ومما يجعل وصاية البعثات الانجلية على الكنائس الوطنية حتماً .

ثم ذكر ان نسبة المسيحيين الى الوثنيين فى مقاطعات ايمرنيه Imérina ، و بيتسليو Betsiléo ، وتاماتاف Tamatave ، و بلاد السكالاف Sakalaves هى نسبة اثنين الى ثلاثة. وشكا من كون الوثنية فى المدة الأخيرة أخذت تتقدم الى الامام ، وان مبشرا انجيلياً فاجأ ٦٠٠ وثنى مجتمعين لعبادتهم . قال : « وان جميع الأهالى فى ماداغسكر يعتقدون باله واحد يسمونه « اندريامانيترا » أو « ادريا ماتاهارى » أى أبدى وخالق . وكما يستدل عليه من أمثالهم وعباراتهم ، لا تخلو دياناتهم من مبادئ أدبية سامية . مثلا يقولون : اندريا ميتراتسى تياراتسى . ومعناها : الله لا يحب الشر . ويقولون عبارات معناها : انه يوجد عدل لابد أن ينتصر يوما . والله لا ينخدع . والله لا يخطئ ولكن الناس هم الذين فى الضلال وغير ذلك . ومع هذا فهذه العقيدة بقيت عاجزة عن اعطاء الماداغسكريين ديانة قيمة قادرة على تزكية النفوس . فانهم يوجهون صلاتهم الى جماجم الموتى ، ويظنون ان أرواح الأهالى الأصليين الذين طردتهم أمة الهوفا Hovas من ديارهم ، عادت فاتخذت مساكن فى بعض الحجارة والينابيع ، فلهذا يقدمون لها القرابين لتسكين غضبها . وهم يعتقدون بالسحر والسحرة ، وبالتعاويذ والرقى ، والطلسمات ، وبالاجال فدينهم دين الخوف ، ولا يعرفون شيئاً عن الاله الكريم العفو الغفار قابل التوب . الى آخر ما قال .

ثم ان فى هذا الكتاب فصلا مهما عن الكامرون نلخص منه بعض معلومات مفيدة وهو من قلم المبشر المسيو الليغره Allegret . قال :

الـكامرون

ان الـكامرون قطر واقع فى داخل خليج غينية ، مساحتها أربعمائة وتسعون ألف كيلو متر مربع أى بقدر مساحة فرنسا ، وهو من بحيرة تشاد الى الاقيانوس من الشرق الى الغرب ، ومن النيجر الى الغابون من الشمال الى الجنـوب . وأما أهالى الـكامرون فعددهم أربعة ملايين أى ضعف أهالى ماداغسكر ، هذا عدا القبائل العاصية المعتصمة بالجبال والمظنون أن نحو ثلثى الأهالى لا يزالون وثنيين . ويسكن فى الآجام الجنوبية جيل متوحش اسمهم البيغمه Pygmé ، والباقون من الأهالى ثلاثة أقسام :

الأول البانتو ، فى السواحل والوسط والجنوب وكلهم فتيشيون ، وهم فرق الدوالة ، والباسة والثورى والبولو الخ . و بين هؤلاء تأسست مراكز التبشير بالانجيل .

الثانى السودانيون الباقى أكثرهم على الفتيشية ، وأصلهم مهاجرون من الشرق وهم سكان شمالى الـكامرون ، ولهم امارات وحكومات وطيدة .

الثالث المسلمون وهم الحاوسة ، والفولبة ، والعرب الذين فى سواحل بحيرة تشاد ، فأما الحاوسه ، فان بأيديهم جميع التجارة من شمالى الـكامرون الى جنوبيها وهم يهود هاتيك البـلاد وتراهم فى كل مكان لا تخلو منهم بقعة ، وفى كل قرية من قرى الجنوب حارة للحاوسة . كما أنه على أبواب المدن الـكبيرة توجد قرى للحاوسة والأهالى لا يحبون الحاوسة ولـكنهم محتاجون الى البضائع التى يأتون بها ، و يظهر أن هذه النفرة منهم ستزول شيئا فشيئاً وسينتهى الأمر بسيادة الهـلال (أى الاسلام) على كل محل ان لم يبادر المسيحيون باتقاء الخطر . وفى الحالة الحاضرة لا تجدهم مفرطين فى التعصب ، فلا يزال عند المبشرين المسيحيين الوقت الـكافى لمسابقة دعايتهم .

ولقد كان احتلال أمة الفولبة لبـلاد الآداموا ، منذ عهد غير بعيد . جاءوا من بلاد السنيغال والنيجر ، و بورنو وانتجعوها ، وكان أصل انتجاعهم لها ارتياد المراعى لمواشيهم ، ولبثوا حقبـة يؤدون اتاوة لملوك الوثنيين ، كما أنه لا يزال طائفة منهم اسمهم البورورو Bororos ، بقرب مدينة فومبان يؤدونها الى اليوم . ولـكن لما تـكاثر الفولبه اعصوصبوا حول زعيم لهم يقـال له آدما وهو الذى انتسبت الى اسمه بلاد الآداموا فاستولى على

المملكة ، وصار الوثنيون هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين وصار هؤلاء يأخذونهم أرقاء ، وانهزم جم من الوثنيين الى الجبال حرصاً على استقلالهم . ومع هذا فقد بقى طوائف من المسلمين تحت سيادة الوثنيين . ويوجد أقوام مثل التيكار والبامون والفوت ، يتكون منهم مناطق حائلة بين المسلمين والفتيشيين .

ثم قال وان الكامرون هى أرض مختارة للتبشير ولها مستقبل عظيم ، كأن نتمكن من تنصير الوثنيين الذين فيها ونقف حاجزاً بينهم و بين الدعوة الاسلامية ، وأخيراً ننشر النصرانية بين المسلمين أنفسهم . انتهى كلامه بحرفه

ثم فى محل آخر تكلم هذا المبشر عن آفات الدعوة الدينية من تزاحم الأوربيين على التجارة والربح المالى . وزعم أن الألمان اغتصبوا الأهالى أراضيهم ، وانهم فى أغسطس سنة ١٩١٤ شنقوا ملك دواله ، بحجة أنه تمرد على السلطة الألمانيـة . ثم انتقل الى ذكر الحرب العامة فقال انها جاءت كصرصر عاتية لم تبق ولم تذر ، تخيل للناس أن عمل المبشرين حبط تماماً بزوال الحكومة الألمانية من الكامرون . إذ أنه لما سيق المبشرون الى الساحل أسارى هجمت العساكر السوداء من الفريقين ، وثار الأهالى وخربوا المؤسسات والمراكز التى كانت للتبشير . وأناس كثيرون هجروا القرى ولاذوا بالجبال فراراً من العساكر وان ١٥ ألفاً من الألمان وأعوانهم قبض عليهم وسيقوا الى دواله حيث كان منهم الى سنة ١٩٢٠ يعملون فى الأرض . فلا حاجة الى ذكر ما حل بالضمائر ونزل بالعقائد من جراء هذه الحوادث ، فقد مات التبشير ودرست معالمه ، وحصل رد فعل استؤنفت به قوة الوثنية ، ورفعت رؤوسها دعاة الكنيسة النصرانية الأهلية ، وصاروا ينادون علناً : لا نريد أن نكون تحت سيطرة البيض ولا أن نكون مسيحيين ، اذ هذه أفعال البيض قد ظهرت للعيان ، فلنعد الى عقائد آبائنا . وهكذا عادت الوثنية الى سطوتهـا الأولى . وانفرد بعض تلاميذ البعثات الأوربية بمذاهب مزجوا بها بين العقائد المسيحية والفتيشية . وعاد كثيرون من الزنوج الى تعدد الزوجات ، واغتنمت هذه الفرصة الكنيسة الافريقيـة التى قاعدتها « افريقية للافريقيين » وأخذت تنفر الأهالى من المبشرين الأوربيين ، وأباحت لأتباعها تعدد الزوجات . فان هذه الكنيسة الأهلية لم تكن فى الحقيقة ثمرة نهضة روحية ، بل هى نتيجة دخول روح الوثنية فى النصرانيـة . فانقسمت الكنائس الى ثلاث كل منها تقاتل

الأخرى . وانتهز دعاة الكاثوليك هذه الغرة ليقولوا للزنوج البروتستانتيين : « أما وقد صرتم من تبعة فرنسا الآن فلا تستطيعون أن تكونوا بروتستانتاً . »

و بينما الوثنية تهاجم النصرانيــة من هذه الجهة اذ هاجمها الاسلام من الجهة الأخرى فان سلطان بامون الذى كان من قبل دعا المبشرين من نفسه ولى وجهه شطر الاسلام و بنى جامعاً ودعا جميع تبعته أن يتخذوا الاسلام ديناً .

ثم ذكر هذا المبشر كيف أن الحكومة الفرنسية أرسلت بعثة لاصلاح هذه الحال ، وما عانوه من الصعاب حتى أعادوا الشئ كما كان أو قريبا ممــا كان ، وكيف وحدوا بين الكنائس وأقاموا جبهة واحدة بازاء الاسلام من جانب ، والوثنية من جانب آخر . ثم ختم فصله بقوله :

أما موضوع الاسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه ، فقد سبق لنا أن بيّنّ كيف أن نجويا Njoya سلطان البامون ولى وجهــه شطر الاسلام ، ولكن اسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية وأخرى مسيحية . وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسماه « طريق الحياة » وفى الحقيقة أنه فتيشى ، لم يسلم الا ليكون القائد المطلق لشعبه . ولو لم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت فى البلاد ، لربما كان الاسلام قد عمها . وقــد خالطت بنفسى أمة البله الذين فى بامون فوجدتهم مسلمين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة ، فظهر لى أنه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الامم التى تغلغل فيها الاسلام ، وان نقف تقدمه بل نهاجمه رأساً فى أماكنه فيلزم أن نعيد الى الكنائس الاهلية الصبغة التبشيرية ، ونجعلها دائما تحت سيطرة رسالات الدعاية ولا ننفك عن الدعوة ، ونذكر كنائس سواحــل الكامرون بان الاسلام الذى أخنى على جميع كنائس شمالى افريقية ، يمكنه أن يخنى عليها هى ان لم تتدارك هذا الخطر عاجلا . انتهى

وقــد اطلعت على كتاب عن المستعمرات الالمانيــة للاستاذ رورباخ Rohrbach الالمانى ذكر فيــه بلاد الآداموا من شمالى الكامرون فقال : « ان هذه البلاد هى مركبة من القسم الذى كان يخص المانية من قبــل ، وأضيف اليه القسم الذى تخلت عنــه فرنسا لالمانية بموجب اتفاق ١٩١١ : فالآداموا من الجنوب تتصل بالقسم الاعلى من الكامرون ، وتشتمل على أعالى بلاد فنو مع النواحى التى بين فنو واراضى لوغونه ، التى هى حــدود

الالمان من جهة الاملاك الفرنسية المتاخمة لبحيرة تشاد . قال ، وفى هذه الجهات أقوام وطنيون كثيرون لهم سلاطين من أنفسهم ، ويقال للسلطان عندهم لاميدوس Lamidos ، والاهالى منذ عهد طويل هنا هم تحت نفوذ التعليم العربى ، واكثرهم مسلمون . وتوجد مدن مهمة مثل غاروه Garua ، وماروه Marrua ، الى الشمال من فنو . وأعظم امارات بلاد الفلاحين أى المسلمين هى ريبوبه Riebnba ، ثم من الآداموا المقتطعة من الاملاك الفرنسية بموجب اتفاق سنة ١٩١١ مدينة ليرة Lere ، و بندر Binder ، وعلى الحدود الالمانية من جهة لونغونه مدينة كوسرى Kusseri ، وفى الشمال على بحيرة تشاد بلدة المونغو Mongo . قال : والاهالى فى الآداوموا حسنو القيام على الزراعة ، وعندهم مواسم حبوب عظيمة ، ويستخرجون زيت الزيتون والسمسم والقطن بكثرة ، وعندهم صناعة النسج مترقية ، وهم يتفننون بها و يكتسون منها ، ولا شك أن للآداموا مستقبلاً عظيما من جهة زراعة القطن .

ثم ذكر بلاد الطوغو من مستعمرات المانية فى خط الاستواء ، وقال ان الاسلام فيها هو فى تقدم مستمر ، ونشر صورة مسجد اسلامى فى مدينة سانزانه مانغو Sansane Mango فى شمالى الطوغو . »

وقد ورد فى كتاب يسمى « المملكة الاستعمارية الألمانية » كلام طويل ، على مسلمى الكامرون وأواسط افريقية نلخص منه مايأتى :

« انه فى القرون الوسطى ، كانوا فى شمالى افريقية يعتقدون بوجود شعوب زنجية سمراء فى بلاد التوارق العليا والتيبستى من جهة وادى دراعة وقزان ، و يظن الرحالة الألمانى ناختيغال Nachtigal ، ان هؤلاء هم الذين يقال لهم كارامانت Karamant ، وكان قد ذكرهم هيرودوتس المؤرخ . ولما فتح العرب شمالى افريقية جاء قسم من البربر وأجلوا الغوبير Gobir الذين هم من أطراف أمة الحاوسة الحاضرين الى السودان فامتدوا هناك وأسسوا الامارات السبع التى يرون انها كانت للحاوسة ، فأما الامارات الخارجة عنهافيظن انها ممالك الأمم التى غلب الحاوسة عليها و يرجح كون مملكة كانم أقدم من ممالك الحاوسة وفى القرن الثانى عشر للمسيح ، جاء الاسلام ودخل بقوة عظيمة ، وانتشر فى جنوبى بحيرة تشاد وفى غربيها ، و بعد حروب شديدة مع أمة تسمى الايزو Eso ، انتهى الأمر بتغلب

الاسلام . وفى القرن الرابع عشر والخامس عشر ، استولى البولالا Bulala ، الذين هم من أصل عربى سودانى مختلط على الكانم . وتراهم اليوم يسكنون فى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد ، وقد تمكنوا من بورنو الى الغرب من البحيرة ، وباختلاط هؤلاء مع الايزو المار ذكرهم تولد الجيل المسمى بالكانورى Kanuri ، ثم عظمت سلطنة بورنو فى القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الى أن سقطت حديثا[1]. وقدحقق المؤرخ دسبلاغنس Desplages انه فى سنة ١٢٠٠ ، جاء شعب من أصل بربرى ، وأجلب بخيله على غربى السودان ، وكان اسمه السوسو ، وكان شعارهم على أسلحتهم الافعى . ويظن انهم أنفس الهيكسوس خرجوا من وادى النيل الى شرقى السودان فهؤلاء السوسو يحتمل أن يكونوا هم أنفس الايزو الذين فى مدة أربع سنوات قتلوا أربعة من ملوك بورنو . والرحالتان بارت وناختيغال يظنان وقوع هذا الحادث فى القرن الرابع عشر . وعلى كل حال فان عددا من القبائل العربية جاءوا من شرقى السودان ، وانتجعوا البلاد الواقعة جنوبى بحيرة تشاد ، واستقروا فى دارفور ووادای واختلطوا بأهلهما ، وهم أصحاب البلاد لهذا العهد . ثم جاء شعب آخر من الغرب من بلاد السنيغال ، وهو الشعب الذى يقال له الفولبه واشتهر باسم الفلانه ، فهؤلاء أسسوا بلاد الكامرون ، ويظن بارت أن أصلهم من جنوبى مراكش ، ويقول دسبلاغنس انهم بدو من القبائل الرحل فى الصحراء فمنذ عدة قرون جاء هؤلاء من السنيغال وأوطنوا بلاد تشارى رعاة لمواشيهم .

وسنة ١٨٠٦ حصل انقلاب فى مملكة سوكوتو ، أساسه حركة زعيم دينى اسمه الشيخ عثمان يوديو ، وظهر من الفولبه هؤلاء تعصب شديد فى الاسلام ، وتأسست حكومة أمراء ممتدة من النيجر الى البلاد العالية ، الى جنوبى بلاد الاداموا . وصارت سكوتو هى العاصمة وصار تحت حكم سكوتو عدة ممالك ، من جملتها الاداموا التى كانت عاصمتها يولا Jola. وكان من توابعها مدينتا تيباتى Tibati وناغاومدره Nagaumdere ، وخضع لمملكة الاسلام جانب من الوثنيين . وجرت حروب كثيرة بين أمة الفولبة ومملكة بورنو ، حضر بعض وقائعها الرحالة الانجليزى دنهام Denham ، وثبت أهالى مدينتى لره Lere ، ولامه Lama ، الوثنيون أمام الفولبة ، ولكن الفولبه استولوا على ناغا ومدره ، وبانقو ، والانحاء

(١) على أيدى المستعمرين الأوربيين

الجنوبية .

ولما سقطت الحكومة المصرية مدة فى السودان الشرقى ظهر الأسود المسمى رابح ، وفتح دارفور ، ودار بنده ، ودار يونقه ، ومملكة الباقرمى وبورنو وبلاد بحيرة تشاد ، وأسس سلطنة عظيمة . (وسيأتى خبر رابح) .

وجاء فى كتاب « المملكة الاستعمارية الألمانية » بمناسبة ذكر الكامرون ، انه يوجد الآن فى جنوبى بحيرة تشاد ، مائة ألف عربى يقال لهم شوا Schua ، جاءوا من أوائل أعصر الاسلام وقد حافظوا على لغتهم طاهرة نقية الى يومنا هذا ، حال كون قبائل عربية أخرى ، جاءت الى الاداموا واندمجت فى الأهالى ، ففقدت لغتها . على انه مما لا ينكر ، ان اللغة العربية تمثل دوراً مهماً فى جميع العالم السودانى الاسلامى ، لكونها لغة مكتوبة ، وهى لغة القرآن .

السودان

ننقل عن المسيو موريس فال Maurice Wahl معلم التاريخ والجغرافية فى مدرسة كوندورسه Condoreet ومفتش المعارف فى المستعمرات الفرنسية تحت عنوان كلمة « سودان » الفصل الآتى ملخصاً :

« بلاد من افريقية تمتد من الصحراء شمالا الى خط الاستواء جنوبا ، (البحيرات الكبر والكونغو) ومن الاوقيانوس الاطلانتيكى غربا الى الحبشة والبحر الأحمر شرقا ، وهو السودان المطلق فى الغرب والوسط ، والسودان المصرى فى الشرق . فالسودان المطلق اذا دخل فيه ساحل الاطلانتيك مثل السنيغامبيه وغينية العليا ، فساحته ثلاثة ملايين كيلو متر مربع واكثره يفاع من الأرض قليل الارتفاع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ متر ، فيه بعض سلاسل من الجبال مثل سلسلة فوتاجالون فى الغرب تعلو من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ، وسلسلة نياورى فى الجنوب الغربى علوها ١٨٠٠ متر ، وسلاسل جبال الادامو ا وسوكوتو فى الوسط وهى تعلو ٢١٠٠ متر ، وجبال دارفور فى الشرق ارتفاعها ١٨٣٠ متراً . وتهطل الأمطار فى هذه البلاد من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ، وهى تنقص كلما أخذت شمالا ، وهذه الأمطار تملأ الأنهار المسماة بالسنيغال والغامبية والكازامانس وريوغراند ومالا كورى ، فى الجانب الغربى ، وكافالى أو باندامه وكوموى وفولتا وويمى ، فى الجنوب . وأهم الجميع

النيجر ، وهناك الشارى والدومادوغو فى نواحى بحيرة تشاد . وأما الساحل الاطلانتيكى فهو شواطئ رملية من الرأس الابيض الى الرأس الاخضر ، وجبال منقطعة مشرفة على البحر من الرأس الأخضر الى جزيرة شربر والمراسى الجيدة فيه قليلة ، والمناخ وبى . وهواء السودان حار مع يبوسة صوب الشمال ، ومع رطوبة نحو الجنوب ، والحراج الكبار لاتوجد الا فى الجنوب الغربى . وأهم المحاصيل الذرة ، والارز ، والقطن ، والتبغ ، وهناك من الحيوانات الخيل والبقر والمعزى والغنم والجواميس ، ومن المعادن الرصاص والنحاس والذهب والفضة ، ويمكن تقسيم السودان الى أربع مناطق ، الاولى فى الشمال الغربى وهى السنيغال والبلاد الواقعة شمالى النيجر ،وأرضها ليست خصبة . والثانية ، بلاد النيجر وجبال كونغ وفوتاجالون ، وهى ذات أرضين مروية وهواء مقبول . والثالثة ، بلاد الغابات المتاخمة خط الاستواء وسواحل غينية . والرابعة ، البلاد التى فى الوسط سوكوتو والآداموا وغيرها وهى خصبة معمورة .

أما الاهالى فانهم من ١٥ الى ٢٠ مليونا ، منهم سود يقال لهم الاولوف Oulofs والسيرير Sèrères والبامباره Bambara والماندينغ Mandinges والكرو Krou والفانتى Fanti والاشانتى Achantis والداهومى الخ فى الغرب والجنوب . ومنهم الحاوسه والسونغاى والكانورى فى الوسط . ومنهم البهل Peuhls والتوكولور Toucouleurs والبربر والتوارق والعرب فى الوسط والشمال . والاكثرية الساحقة فى هذه البلدان كلها للاسلام ، والديانة الاسلامية تكسب دائما من أمم الفتيش . وأكثر السودان أصبح الآن مستعمرات للاوربيين ، فالسنيغال وغينية الفرنسية والسودان الفرنسى وساحل العاج والداهومى لفرنسا . والغامبية وسيراليون وساحل الذهب ولاغوس وأراضى شركة النيجر لانكلترة . وبين السنيغال وغينية الفرنسوية غينية البرتقالية للبرتقال . وللالمانية بلاد توغو على ساحل غينية. وأما الممالك الاهلية المستقلة بعض الاستقلال ، فهى جمهورية ليبريه(١) على الساحل الجنوبى الغربى ، ومملكة كونغ ، وأملاك ساموى على النيجر ومملكة سوكوتو بين البنيوى والنيجر والآداموا جنوبى النيجر ، وبورنو الى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد ، والكانم فى الشمال الشرقى ، والباقيرمى فى الجنوب الشرقى ممتدا الى الشرق

(١) هذه مستقلة تماماً

بواسطة واداى .

وأما السودان الشرقى فهو الواقع شرقى البلاد التى ذكرناها ، يشتمل على جميع وادى النيل من غوندوكورو الى وادى حلفا ماخلا الحبشة ، متوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، والنيل يخترقه من الجنوب الى الشمال ، منضمة اليه من الشمال انهر بحر الغزال ، ومن الجنوب السوبات وأنهر الحبشة و بحر الازرق والعطبرة . والأهالى نحو عشرة ملايين نسمة وهم سود فى ناحية الجنوب يقال لهم دينكا و بونغوس ونوير وشيلوق ، وعرب و بهل فى دارفور ، وأما فى بلاد النوبة فأجناس مختلطة ، برابرة وبجة و بيشارى ممتزجون بالعرب . ويقال للناحية الجنوبية الشرقية من السودان المصرى بلاد سنار ، وللبلاد التى شمالى النيل الكردوفان وللتى الى الغرب منه دار فور ، وللتى فى الشمال بلاد النوبة » . اه

سوكوتو

وقال الجغرافى المذكور عن مملكة سوكوتو :

« مملكة فى السودان بين النيجر الأدنى والبنيوى ، مستوية فى الشمال ، مضرسة فى الجنوب ، يرويها نهرا سوكوتو وكومادوقو الصادران من بحيرة تشاد ، هواؤها ناشف فى الشمال كثير الرطوبة فى الجنوب ، زراعتها الارز والقطن وقصب السكر والتمر ، مساحتها ٤٠٠ ألف كيلو متر ، وعدد الاهالى ١٠ ملايين سود ، من الحاوسه والبهل والتوكولور والسونغاى ، كلهم مسلمون ، الا القليل . أعظم مدنهم كانو واورنو وسوكوتو وكفى ابديسانغه Keffi - Abdes - senga وياقو باوغومبى . وقد كانت تأسست سلطنة سوكوتو على يد عثمان دانغ فوديه سنة ١٨٠٢ ، ومدت رواقها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو و بحيرة تشاد ، فانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو والادامووا وغاندو ونوبى ، ولكنها لاتزال تعترف بسيادة سلطان سوكوتو الدينية » .

بورنو

ثم قال عن مملكة بورنو مايأتى :

« مملكة فى السودان الى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، بين هذه البحيرة

والصحراء وسوكوتو والآداموا والباقـيرمى ، مساحتها ١٥٠ ألف كيـلو متر مربع ، وأهلها خمسة ملايين من جنس الـكانورى الذين هم متولدون من اختلاط السود والبربر والعرب . والبلاد خصيبة تجود فيها زراعة القطن ، وفيها الغنم والبقر والخيل والنحل بكثرة ، وأهلها ينسجون الثياب والسجادات ، وعاصمتها كوكا » .

الباقيرمى

وقال عن مملـكة الباقيرمى ما يأتى :

« مملـكة من السودان الأوسط الى الجنوب الشرقى من بحـيرة تشاد ، يسيقها نهر شارى ، واقعـة اليوم ضمن منطقة النفوذ الفرنسى ، وأهلهـا مليون نسمة ، وعاصمتها ماسينيه Massenya ، ويقيم السلطان ببلدة بوقومان على الضفة اليسرى من الشارى » .

السنيغال

وذكر عن بلاد السنيغال : « انها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وان أهاليها مليون وثلاثمائة ألف ، من الأولوف والسيرير والبامباره والمالينكه الخ . وقال ان الفرنسيس دخلوا الى السنيغال فى القرن السادس عشر ، ولـكنهم لبثوا أحقاباً لا يملـكون غير سان لويس وآرغين وغورى ، ثم أخذوا يوسعون فتوحاتهم شيئاً فشيئاً ، ولم تصر السنيغال مستعمرة حقيقية الا سنة ١٨٧٨ ومن السنيغال تبسط الفرنسيس فى أواسط افريقية » .

واداى

وقال عند ذكر واداى :

« بلاد فى السودان الأوسط بين دافور من الشرق ، والبرقوات من الشمال ، والـكانم والباقيرمى من الغرب ، والـكونغو الفرنساوى من الجنوب ، مساحتها ٤٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب ، كلهم مسلمون والطريقة السنوسية سائدة هناك ، وأرض واداى خصبة فى الوسط والجانب الشرقى منها » .

كانم

وذكر عن كانم « أنها الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ، وان أهلها عرب وتيبو ،

وعددهم مائة ألف وهى اليوم تابعة واداى » . اهـ .

وللفاضل الأديب الشيخ محمد بن عمر التونسى ، رحلة الى دارفور وواداى مترجمة الى اللغة الفرنسوية بقلم الدكتور پرون Perron مدير المدرسة الطبية فى مصر أيام محمد على وأحد أعضاء الجمعية الآسيوية ، وقد تضمنت هذه الرحلة فوائد عظيمة عن تاريخ دارفور وواداى والباقيرمى وما جاورها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وحروبها الداخلية ، نأثر منها نبذة عما يتعلق بسكان واداى ، الذين بينهم قبائل كثيرة من العرب ، وقد اضطررنا لنقل ذلك من الترجمة الفرنسية لعدم وصول يدنا الى الأصل العربى ، قال فى الصفحة ٢٤٥ :

« ان سكان دار صليح (اسم وادى) هم المصاليت والميمة والداجو والكاشمرة والقرعان والكوكا والجنادرة والبيرقيد . وكل من هذه الشعوب يسكن فى ناحية ، فالمصاليت يسكنون فى دار الصباح أى بلاد الشرق وهم انسباء لمصاليت دارفور ، وعددهم كثير سواء فى دارفور أو فى واداى ، وهم مرابيع القامات شديدو السمرة ، وأكثر بلادهم سهول. وأما أهل واداى الأصليون فيسكنون فى وسط البلاد ، ومنهم ينتخب وزراء السلطان وأجناده ، وبلادهم جبلية وأعظمها جبل آبوسنون ، وهم يزعمون أنهم أصل أهل واداى وان سائر أقوام واداى متشعبة منهم ، وهم طوال القامات أشداء كالعمالقة . وأما الكشامرة ، فيسكنون على مسافة أربعة أيام من « واره » عاصمة واداى ، فى واد لطيف تجرى فيه المياه وتسقى أراضيهم ، وهم كثيرو العدد ، وقراهم معمورة جداً ، واذا قرع طبل الحرب خرج من أصغر قراهم ٥٠٠ رجل شاكى السلاح ، وهم اذا اجتمعوا يشكلون وحدهم جيشاً عظيما مع أنهم أطوع من غيرهم للسلطان ، وعندهم وداعة بدون ضعة ، ولونهم بين الأبيض والاسود ، ولغتهم تختلف عن سائر لغات أهل واداى . وأما الكوكا فانهم كثيرو العدد ، ونساؤهم موصوفة بالجمال يضاهين أجمل النساء الحبشيات ، وهم طوال رشيقو القدود أقوياء ، مفتولو السواعد ، وقراهم معمورة وأراضيهم مروية ، والسلاطين تتزوج منهم لجمال نسائهم .

«وأما القرعان فانهم فى شمالى واداى،ونساؤهم أيضاً موصوفات بالجمال ، وعندهم كثير

من المواشى [١] .

«وأما الجادو فانهم فى جنوبى دار صليح جيران للكوكا ، ولكنهم غلاظ الطباع قريبون للتوحش . ويجاورهم الميمة وهؤلاء فى الجنوب . والجناكرة هم عبيد السلطان ، وعددهم وافر ، ومسا كنهم الى الجنوب الشرقى من واداى . والبيرقيد هم شرار أهل واداى ليس عندهم عهد ولا صدق ، يقطعون الطرق وينهبون السابلة ، قصار القامات ، وهم سقاط فى نظر أهل واداى . وحول واداى تسكن قبائل عربية صريحة ، فن الشرق ، الزبيدية ، وعرب البحر والعريقات ، ثلاث قبائل غنية قوية . وقد حقق لى الفقيه موسى زعيم الزبيدية أخو بدر الدين الامام الذى يصلى بالسلطان صابون صاحب واداى أن الزبيدية هم من زبيد فى اليمن ، أصلهم من حمير . أما العريقات فقال لى الفقيه محمد أحدهم وهو ترجمان السلطان ان أصلهم من العراق ، من سلالة لخم وجذام ، وأما عرب البحر فانهم كثيرو ، العدد ، ينقسمون الى عدة بطون ويلى أمرهم زعيم واحد . والى الشمال من واداى المحاميد ، وهم بطون وأفخاذ عديدة ، وعندهم أموال لا تحصى من الابل والخيل وغيرها ، وفى الجنوب يوجد عرب المسيرة والفلاآن وهم كثيرون جداً » . انتهى بتصرف .

وجاء ذكر العرب فى محل آخر من هذه الرحلة فيقول فى صفحة ٢١ : « ان قبائل الكوكا والكودكو والبيقو والداجو والماوبيه والبيرقيد والحمات والبنداله والفيرتى فى الجنوب والغرب والبرتى والميمة والغيمير والمسمجة والمادافو والبلاله والهليلات فى الشمال ، والمصاليت فى الشمال،وغيرهم ، كل قبيلة منها لها ملك والقبائل العربية التى كلها تسكن أرض وادى أو بعضها مثل السلامات والجعاتنة و بنى راشد ، عليهم أيضا مشايخ ، وكلهم تحت نظر ولاة السلطان ، كل زغيم أو ملك تابع لوكيل السلطان الذى يليه » . اهـ .

وكنت سمعت أن سلاطين واداى ينتسبون الى بنى العباس ، وأخبرنى سيدى أحمد الشريف السنوسى أن هذا هو المشهور عند أهل السودان ، وأن أهل واداى لا يدعون على منابرهم الا لسلطانهم ولا يعرفون خليفة ولا اماماً غيره. فلما كنت أطالع رحلة الشيخ محمد بن عمر التونسى وجدته يشير الى انساب سلاطين دارفور وكردوفان و واداى ، فقال ما يأتى ملخصاً :

(١) ذكر لى الاستاذ السنوسى الكبير سيدى أحمد الشريف أن بلاد القرعان هؤلاء تمتد الى أطراف الصحراء والى الواح التى هى بلاد السنوسية جنوبى الكفرة .

« عند ما جئت الى واداى وكنت أصلى الجمعة كنت أسمع الخطيب يدعو دائما بنصر السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جوده ابن السلطان صليح ، فخطر لى أن أسأل شيوخ البلاد عن نسب السلطان صليح ومحتده ، فكانت الأجوبة مختلفة ، فبعضهم قال لى انه سناوى أى من أهل واداى الأصليين سكان جبل آبوسنون . ثم لحظت ان ختم السلطان مكتوبة عليه هذه الكلمات « السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان صالح العباسى » فسألت عن كيفية اتصال نسبه ببنى العباس ، فبعضهم ذهب الى أنها نسبة غير حقيقية ، وآخرون وثقوا هذه النسبة ، فسألت العقيد أحمد من أكابر رجال الدولة وكان متوقد الذهن واسع المعرفة ، فقال انه عند استيلاء التتار على بغداد انهزم العباسيون الى مصر ، ولما غلبت دولة المماليك على مصر تفرقوا أيضا فى الأطراف ، فذهب منهم واحد الى الحجاز وولد له ولد سماه صالحا ، فلما كبر صالح صادف فى مكة حجاجاً من سنار ، وكان فقيها عالماً حكيما ورعاً ، مواظباً على الفروض الدينية ، يحبه العلماء والصلحاء ، فأحبه السناريون ورغبوه فى زيارة بلدهم ، فجاء الى سنار ، فرأى فيها من الفسق والفجور ما اشمأزت منه نفسه فلم يطل المقام عندهم ، وما زال يضرب فى البلاد حتى وصل الى جبل آبوسنون فى واداى . وكان أهل هذا الجبل وثنيين ، فأسلموا على يده لما رأوا من دينه وصلاحه وارشاده ، وأقاموه رئيسا عليهم وكانوا فى كثرة عظيمة ففرض الزكاة على الأغنياء لاعانة الفقراء . ثم دعا الى الجهاد فى المشركين ، فأطاعه الذين شرح الله صدورهم للاسلام وغزوا الكفار . الا أن صالحا قدم بين يدى السيف الدعوة باللطف ، فأجابه الى الاسلام أربع قبائل كبيرة ، قبيلة آبوسنون ثم المالانقه والمادابه والمادالله ، وهم أصل مملكة واداى . ولا يمكن أن يكون سلطان الا اذا كانت أمه من إحدى هذه القبائل . ثم يليهم قبيلة آبو داراغ ، ولا تساوى أولئك فى الشرف لأن اسلامها وقع متؤخراً . ثم شرع صالح فى الجهاد وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فلما اتسع نطاق الاسلام فى تلك البلاد ، بويع صالح سلطانا وصار الملك فى أعقابه

قال : « وسمعت من جهة أخرى من الشريف سميح ، ان ملوك واداى ودارفور وكردوفان ، كانوا ثلاثة اخوة من فزارة . وذكر تفاصيل هذه الرواية ولكنه قال ، انه لا يوجد دليل من خط أو من تاريخ مكتوب على شئ من هذه الروايات ، وكلها

مسموعات وأخبار شفوية غير موثوقة ، ولكن قال ان الذى اشتهر من سجايا السلطان صليح أشبه بمناقب الرشيد والمأمون ، فى العقل والحزم والكرم وشدة البأس . وعلى كل حال فسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فان عهد تأسيس هذه الممالك الثلاث ، وادای ودارفور وكردوفان ليس بقديم ، ولا يزيد على مائتى سنة » انتهى

أقول ان صح كون أهل وادای لم يدينوا بالاسلام الا منذ مائتى سنة كما يذهب اليه الفاضل الشريف الشيخ محمد بن عمر التونسى ، فمن المقرر ان الاسلام دخل السودان قبل ذلك بكثير . فهذا صاحب صبح الأعشى الذى عاش قبل هذا العهد بنحو خمسمائة سنة ، يقول عن أهل برنو انهم مسلمون ، ويذكر أنه وصل كتاب من ملك البرنو فى أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه انه من ذرية سيف بن ذى يزن ، الا انه لم يحقق النسب ، فذكر انه من قريش وهو غلط منهم فان سيف بن ذى يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير . قال : وقاعدتهم مدينة « كاكا » بكافين بعد كل منهما ألف ، فيما ذكر لى رسول سلطانهم ، الواصل الى الديار المصرية صحبة الحجيج فى الدولة الظاهرية برقوق .

واليك ماقال عن الكانم : « والكانم بكاف بعدها ألف ثم نون مكسورة ، وميم فى الآخر وهم مسلمون أيضاً ، والغالب على ألوانهم السواد . قال فى « مسالك الأبصار » : و بلادهم بين افريقية و برقة ، ممتدة فى الجنوب الى سمت الغرب الأوسط . ثم نقل عن « مسالك الأبصار » ان أحوال كانم وأحوال أهلها حسنة و ربما كان فيهم من أخذ فى التعليم ، ثم قال نقلا عن « مسالك الأبصار » وسلطان هذه البلاد رجل مسلم قال فى « تقويم البلدان » وهو من ولد سيف بن ذى يزن . وقال فى « مسالك الأبصار » وأول من بث فيهم الاسلام ، الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزنيين . وذكر فى « التعريف » ان سلطان الكانم من بيت قديم فى الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن . قال فى « مسالك الأبصار » : وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ، فى غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد ، لا يراه أحد الا فى العيدين بكرة وعند العصر ، أما فى سائر أيام السنة ، فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً ، الا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، و يتمذهبون بمذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وهم ذوو اختصار فى اللباس

يابسون فى الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » . اه . قلت من كان العدل به قائماً فلا يعد ملكه حقيراً .

مملكة مالّى

ثم ذكر فى صبح الأعشى مملكة مالى فى السودان قال : « ومالى بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناة تحت فى الآخر وهى المعروفة عند العامة ببلاد التكرور ، قال فى « مسالك الأبصار » وهذه المملكة فى جنوبى المغرب متصلة بالبحر المحيط . قال فى « التعريف » وحدها فى الغرب البحر المحيط (١) وفى الشرق بلاد البرنو ، وفى الشمال جبل البربر ، وفى الجنوب الهمج » ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : « انها تقع فى جنوب مراكش ودواخل بر العدوة ، جنوبا بغرب الى البحر المحيط . قال : وهذه المملكة هى أعظم ممالك السودان المسلمين » : وذكر صاحب « العبر » أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها . الاقليم الأول اقليم مالى ، واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو . صوصو من غربيه وكوكو من شرقيه . ثم ذكر اقليم صوصو (٢) ثم ذكر اقليم غانة (٣) فقال : « بفتح الغين المعجمة ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر وهى غربى اقليم صوصو المقدم ذكره ، تجاور البحر المحيط الغربى » . قال : وقد حكى ابن سعيد : « ان لغانة نيلا شقيق نيل مصر (هو النيجر) ، يصب فى البحر المحيط الغربى عند طول عشر درج ونصف وعرض أربع عشرة . واليها تسير التجار المغاربة من سجلماسة فى بر مقفر ومفاوز عظيمة فى جنوب الغرب نحو خمسين يوما ، فيكون بين غانة و بين مصبه نحو أربع درج ، وهى مبنية على ضفتى نيلها هذا . قال فى العبر : « وكان أهلها قد أسلموا فى أول الفتح الاسلامى . وقد ذكر فى « تقويم البلدان » أنها مدينتان على ضفتى نيلها احداهما ، يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار » .

---

(١) أى الاقيانوس الاطلانتيكي ، والظاهر أن بلاد مالى هى السنيغال ومضافاتها ، فقد مر بك أن الأوربيين يذكرون من أعظم شعوب السنيغال المالينكه ، وبينها وبين كلمة مالى من المشابهة مالا يخفى

(٢) تقدم ذكر أمة السوسو نقلا عن بعض مؤرخى الافرنجة وذهاب بعضهم الى انهم من المكسوس ، وقال ربما أبدلوا الصاد سينا مهملة

(٣) هى التى تقول لها الافرنجة غينية

ثم ذكر اقليم كوكو وقال ان ملكها قائم بنفسه ، له حشم وأجناد وقواد وزى كامل، قال : وقاعدته مدينة كوكو بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها ، وموقعها فى الجنوب عن الاقليم الأول ، قال ابن سعيد حيث الطول أربعوأربعون درجة والعرض عشر درج قال : وهى مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غربيه من مسلمى غانة ومن شرقية من مسلمى الكانم . وذكر المهلبى فى العزيزى أنهم مسلمون و بينها و بين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف » .

وذكر بلاد التكرور وهى الاقليم الخامس . قال فى « الروض المعطار » وهى مدينة على النيل على القرب من ضفافه . قال : « و بينها و بين سجلماسة من بلاد المغرب أربعون يوما بسير القوافل . وأقرب البلاد اليها من بلاد لمتونة بالصحراء (آسفى) بينهما خمس وعشرون مرحلة » . قال فى « مسالك الأبصار » ان هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر اقليما وهى : غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانه وبانبغو وزرنطابنا و بيترا ودمورا وزاغا وكابرا و براغودى وكوكو ومالى . قال : وفى شمالى بلاد مالى ، قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم نيتصر ونتيغراس ومدوسة ولمتونة ». و بعد شروح طويلة ذكر ماقاله صاحب « العبر » وهو : ان هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من أعظمها مملكة غانة ، فاما أسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو ، حتى دان كثير منهم بالاسلام ، وأعطى الجزية آخرون . وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم وملكوا غانة من أيدى أهلها . وكان ملوك مالى قددخلوا فى الاسلام من زمن قديم . قال : ويقال ان أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانه » ثم حج بعد اسلامه ، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده . ثم جاء منهم ملك اسمه « مارى جاطه » ومعنى مارى الأمير الذى يكون من نسل السلطان ، ومعنى جاطه الأسد ، فقوى ملكه وغلب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك غانة الذى يليه الى البحر المحيط ، ثم ملك بعده ابنه « منساولى » ومعنى منسا بلغتهم السلطان ، ومعنى ولى على . وكان من أعظم ملوكهم . وحج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك بعده أخوه « والى » ثم ملك بعده أخوه « خليفة » وكان أحمق ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه . ثم ولى عليهم سبط من أسباط مارى جاطه المقدم ذكره ، اسمه أبو بكر . ثم تغلب على الملك

مولى من مواليهم اسمه « سا كبوره » ويقال « سيكره » فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها الى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربي الى بلاد التكرور ، وحج أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ورجع فقتل فى أثر عوده .

وملك بعده « قو » ابن السلطان مارى جاطه : ثم ملك بعده محمد بن قو . ثم انتقل الملك من ولد مارى جاطه الى ولد أخيه أبى بكر ، فولى منهم « منسى موسى » بن أبى بكر قال فى « العبر » وكان رجلا صالحا وملكا عظيما ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة فى أيامه الى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، انه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : « ان الذى كان قبلى كان يظن ان البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين سفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منهم سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقه ، فجهز الفى سفينة الفا للرجال وألفا للأزواد ، واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخر العهد به وبمن معه ».

قلت : ان صحت هذه الرواية ولا يوجد دليل على كذبها ، فيكون المسلمون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاهما ، عند ما أبحر الاخوة المغرورون من اشبونة عاصمة البرتقال موغلين فى بحر الاطلانتيك ، والثانية ، على يد هذا الملك الذى حاول هذا الأمر مرتين وذهب فى سبيله شهيداً .

قال فى « العبر » وكان حج الملك منسى موسى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى الأيام الناصرية (محمد بن قلاون)

قال فى « مسالك الأبصار » قال لى المهمندار خرجت لملتقاه من جهة السلطان ،

فأكرمنى اكراماً عظيماً وعاملنى بأجل الآداب ، ولكنه كان لايحدثنى الا بترجمان ، مع اجادته اللسان العربى . قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميراً ولارب وظيفة سلطانية الاو بعث اليه بالذهب ، وكنت أحاوله فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية . فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان و يقول : « جئت للحج لا لغيره » . ولم أزل به حتى وافق على ذلك . فلما صار الى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الأرض ، فتوقف وأبى اباء ظاهراً . وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فأسرّ اليه رجل كان الى جانبه كلاما . فقال : « أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ثم سجد » وتقدم الى السلطان . فقام له بعض القيام وأجلسه الى جانبه وتحدثا طويلا . ثم قام السلطان موسى فبعث اليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه (وأفاض فى وصف الخلع) ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الاكوار والعدة لمركبه ، وهجن اتباع لأصحابه وأزواد جمة ، وركز له العليق فى الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه . ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث اليه بالخلع الكاملة له ولأصحابه . وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر انه كان معه مائة حمل ذهبا أنفقها فى سفرته تلك على من بطريقه الى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر الى الحجاز توجها وعوداً حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم فى كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، و بعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده . قال فى « العبر » ودام ملكه خمساً وعشرين سنة ومات فملك بعده ابنه « منسامغا » ومعنى مغا عندهم محمد يعنون السلطان محمداً ، ومات لاربع سنين من ولايته . وملك بعده أخوه « منسا سليمان بن أبى بكر » . قال فى « مسالك الابصار » واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام ، و بنى به المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام به الجمع والجماعات والأذان ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وتفقه فى الدين . قال فى « العبر » ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة ، ثم مات وولى بعده ابنه « قنبتا بن سليمان » ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده « مارى جاطه » بن منسامغا بن منسى موسى ، فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى

انتهى به الحال فى السرف ، أنه كان بخزائنهم حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً منقولا من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار وكانوا يرونه من أنفس ذخائرهم لندور وجود مثله فى المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين اليه بأبخس ثمن وصرف ذلك كله فى الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد ، لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق ، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده ابنه موسى ، فنكب عن طريق أبيه وأقبل على العدل وحسن السيرة . وتغلب على دولته وزيره « مارى جاطه » لحجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير . وبقى « منسا موسى » حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وملك بعده أخوه « منسا مغا » وقتل بعده بسنة أو نحوها . وملك بعده « صندكى » زوج أم موسى المقدم ذكره ومعنى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جاطه . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه محمود ، ينسب الى « منساقو بن منسا ولى بن مارى جاطه » ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة قال فى « التعريف » وصاحب التكرور هذا يدّعى نسباً الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله أبى الكرام بن موسى الجون ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقد ذكر فى تقويم البلدان «أن سلطان غانة ، يدعى النسب الى الحسن بن على عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة ، لأن من جملة من فى طاعته ، غانة . » . انتهى ببعض تصرف .

فأنت ترى ما للاسلام فى تلك الديار من القدم ورسوخ القدم . وجاء فى « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحت عنوان « تلخيص القول فى سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامى الى هذا التاريخ » ما يأتى :

« اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة ، وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السودانى فيه . وتتصل بهم من

جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو (بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين) ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالى ، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو و يقال كاغو ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور و يقال لها أيضاً سغاى (١) ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم ، وهو أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ، ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر ، فأما أهل غانة فقد كانوا فى صدر الاسلام من أعظم أمم السودان ، أسلموا قديماً وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هى غانة ، وهى مدينتان على ضفتى النيل السودانى من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ، ذكرها صاحب نزهة المشتاق (الشريف الادريسى) وصاحب المسالك والممالك وغيرهما . وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى فى شرح المقامات الحريرية ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهى التجار (يعنى من المغرب) والمدخل اليها من سجاماسة ومن سجاماسة اليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجاماسة اياباً مسيرة شهر ونصف ، وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجاماسة بالأمتعة والأثقال فتباع فى غانة بالتبر ، فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة أجمال أو بجملين ، واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التى فى طريقها الخ . الى أن قال : والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة فى خلقهن وخلقهن فوق المراد ، من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف و بياض الأسنان وطيب الروائح . اهـ . وقال ابن خلدون كان فى غانة فيما يقال ملك و دولة لقوم من العلويين ، يعرفون ببنى صالح . قال صاحب الاستقصا الشيخ أحمد الناصرى السلاوى : ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلى البربر ، وزحف اليهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه ، فلما رجع الأمير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الأتاوات ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام ، فدانوا به . ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية ، وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورين لهم ثم ان أهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو ، وملكوا

(١) مر بك ذكر السونغاى فى ما نقلناه عن كتب الأوربيين

ما كان بايديهم و بايدى أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ، ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبى بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما و بين السلطان أبى الحسن المرينى (صاحب المغرب) من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره (١) ، وكان مع السلطان منسا موسى المذكور ، الأديب الشاعر أبو اسحاق الطويجى الأندلسى الذى بنى له القبة المربعة ، العجيبة الصنعة ، البديعة النقش والتخريم ، التى أجازه عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر ، وغير ذلك مما مر فى أخبار الدولة المرينية . وكان منها أيضا السلطان مارى زاطه(٢) ، الذى هادى السلطان أبا سالم المرينى وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذراً بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم (٣) ، ثم مات بمرض النوم . ثم توارث بنوه الملك من بعده ، فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول ، وظهرت دول آل سكية من أهل مملكة كوكو ، و يقال كاغو . قال الامام التكرورى فى كتابه « نصيحة أهل السودان » : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية (بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث) وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز ، بقصد حج بيت الله الحرام و زيارة قبر نبيه ﷺ ، فلقى بمصر الخليفة العباسى ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امارة بلاد السودان ، وان يكون خليفته هناك ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من و راءه من المسلمين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة ، وجرى على منهاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطى فاخذ عنه عقائده ، وتعلم

(١) ومنسى موسى هو الذى حج ومر بمصر فى أيام الناصر ابن قلاوون حسبما تقدم

(٢) وفى صبح الأعشى يقول مارى جاطه

(٣) ونقل الحكايات التى نقلناها عن صبح الأعشى

منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جلا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه . فرجع الى السودان ونصر السنة ، وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسي فى مقعده وملبسه وسائر اموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم ، فصلحت الأحوال ، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب ، رقيق القلب ، خافض الجناح ، شديد التعظيم لأئمة الدين ، محبا للعلماء مكرما لهم ، ولم يكن فى أيامه كلها بؤس ولا بأس ، بل كانت رعيته فى خفض عيش وأمن سرب ، وفرض عليهم شيئا خفيفاً من المغارم وظفه عليهم ، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطى شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكورة الى أن اخترمته المنية . فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد ، فاحسن ما شاء وتبع سيرة أبيه الى أن لحق بربه . فقام بالامر بعده ولده اسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه واستمر حاله الى أن غزته جيوش المنصور (١) ، فنقضت ملكه ونثرت سلكه ، وانقرض آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان . وأما مملكة تكرور وكانم فقال ابن خلكان ، ان كانم (بكسر النون) جنس من السودان وهم بنو عم تكرور ، وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم ، وانما كانم اسم بلدة بنواحى غانة ، وتكرور اسم للارض التى هم فيها . قال فى الاستقصا انه كان لاهل كانم مع الدولة الحفصية (بتونس) فى المائة السابعة وما بعدها ، مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالى مع بنى مرين . ونقل عن الشيخ أحمد بابا السودانى من تقييده المسمى بمعراج الصعود ، أن أهل السودان اسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم ، كاهل كانو وكشى وبرنو وسنغاى ، ماسمعنا قط ان أحداً استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كاهل مالى أسلموا فى القرن الخامس أو قربه ، وكاهل برنو وسنغاى . اه . قال وقد عامت ان أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ

وقال المسيو اندرى آرسين André Arcin مدير القلم المخصوص بوالى غينية فى كتابه المسمى غينية الفرنسية La Guiné Française المطبوع سنة ١٩٠٧ ، ان احمد بابا المذكور ، يزعم انه سنة ٦٠ للهجرة ، كان فى مدينة غانة العظيمة لا أقل من ١٢ جامعا ولكن فى هذا القول مبالغة عظيمة ، والارجح أن مملكة السونغاى لم تدخل فى الاسلام

---

(١) السعدى صاحب المغرب

الا فى القرن الحادى عشر [١] .

اما ياقوت الحموى فيقول فى معجم البلدان عن أهل كانم انهم سودان مشركون ، وقد كان ياقوت فى أواخر القرن السادس الى أوائل السابع فيظهر أن اسلام أهل كانم أحدث عهداً من اسلام أهل مالى وغانه ، أو ان خبر اسلامهم لم يبلغ ياقوت فى وقته . وذكر ياقوت شاعراً بمراكش اسمه الكانمى ، كما أن صاحب الاستقصا ذكر شاعراً هو أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الذى أنشد المنصور الموحدى قوله : —

أزال حجابه عنى وعينى تراه من المهابة فى حجاب
وقربنى تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابى

قلت أظن الشاعر الكانمى الذى ذكره ياقوت هو هذا الذى ذكره صاحب الاستقصا لأن عهد ياقوت هو عهد الموحدين ، وأما هذا المعنى الذى نظمه فقد أخطر ببالى من شعر الحداثة قصيدة نظمتها وأنا ابن ست عشرة سنة ومنها :

لقد أناك بالقدر التدانى وقد أدناك بالحب التناءى
توقد شدة وتذوب لطفاً كطبع السيف من نار وماء

وذكر صاحب الاستقصا من علماء برنو ، الشيخ العارف بالله أبا محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى الكبير أبى فارس عبد العزيز الدباغ قال ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء .

وذكر صاحب الاستقصا دخول ملك برنو فى طاعة السلطان المنصور السعدى صاحب المغرب فى خبر طويل نقلا عن « مناهل الصفا » خلاصته أنه فى سنة تسعين وتسعمائة ، ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول ملك برنو ، ومعه هدايا مما جرت عادتهم بأن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه . وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين . فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة ، جلس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ، ثم منه الى باب المعسكر القبلى وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل

(١) أى القرن الخامس للهجرة

بالديوان، وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً ، وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوباً به ، والمهابة قد اخرست الألسن وأخشعت القلوب والأبصار ، فجلس الرسول هنالك ملياً ، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة ، فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله ، واعترف للمملكة العظيمة بحقها ، وأظهر من الخضوع والاستكانة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولى العهد تاج الاسلام ، وكافل الأمة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء . فأشرف الرسول على دنيا اخرى ، وأبهة مدهشة ، ومحلة هائلة ، فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لقباب ولى العهد ومضاربه ، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه الفخم قعود ، ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه ، حيى وفدّى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له فى حساب . وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار ، لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار . وكان هذا الرسول قد وفد من قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثمانى ، يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان ، واخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول ، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل ، وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء ، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة . وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطرى توات وتكورارين وأمل أن يجعلهما ركابا لبلاد السودان ، والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك . فبلغت مملكة مالى الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب . فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة ، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ، ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته ، وتوجيه هدية من عتاق الخيل بكسى من ملابس الخلافة ، واسباب أخر . ولما بلغ الرسول ، والقى المعذرة ، الى سلطانه ، استأنف الهدية واعرب اذ ذاك عن مراده ، ورد الرسول ثانية الى باب امير المؤمنين

فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش ، فازال اللبس و بين الغرض ، فاما تحقق المنصور بقصده ، صدع له بالحق والدعاء الى التى هى أقوم ، وطالبهم بالبيعة له والدخول فى دعوته النبوية ، التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، ان الجهاد الذى ينتحلونه و يظهرون الميل اليه لا يتم لهم فرضه ، ولا يكتب لهم عمله ما لم يشدوا فى أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ، اذ هو الكافل لهذه الأمة و وارث تراث النبوة ، وقيضه الله لخلافة بيضة الاسلام ، وخصه بالشرف القرشى ، الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام ، وائمة السنة الاعلام ، والزمهم القيام فى اقطارهم بدعوته . ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله (١) الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط ، فالتزمه الرسول و زعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ، فانشأها كاتب الدولة ابو فارس عبد العزيز الفشتالى ونصها : « الحمد لله الذى أعلى لكلمة الحق منارا ، يسامى فى مطالعها النجوم ، وزاح بها عن شمس الهداية المنيرة ، غياهب الغباوة المدلهمة ، وسحاب الغواية المركوم » الخ وارسلوا نص البيعة الى السلطان أبى العلا صاحب مملكة برنو . وانتخب المنصور رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها . و بعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها ، بأن يرتب على معدن الملح الذى فى تغازى بين المغرب والسودان وظيفا ، بأن يجعل على كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار ، لأن ذلك بحر لا ساحل له . وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها ، فأفتوه بما هو المنصوص من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام ، وانه ليس لأحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه . و بعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول ، من انشاء العلامة الأديب مفتى الحضرة المراكشية ، المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجاماسى . ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان

---

(١) صاحب مناهل الصفا محرر هذا الكلام معاصر للمنصور

اسحق سكية واطلع عليها ، شق عليه ذلك وماطل فى الجواب ، وحيث أبطأ الرسول ، فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان . قال الفشتالى لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعاموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وأهل الرأى والتقى فى يوم مشهود . فقال لهم « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو لتجتمع كلمة المسلمين ولأن بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام » الخ فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم اسكتم استصواباً لرأيى ، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى . فأجاب كلهم بلسان واحد ان ذلك رأى عن الصواب منحرف ، وذلك لأن بيننا و بين السوادان مهامه فيحاء ، تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلأ ، فلا يتأتى السفر فيها ، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همة واحد منهم لشئ من ذلك ، وحسبنا أن نقتفى أثر تلك الدول ، فان المتأخر لا يكون أعقل من الأول . فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم قال لهم « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى وفيلتم به رأيى ، فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندى ، فاما قولكم بيننا و بينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدو بتها وعطشها ، فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامه فى كل وقت ، و يخوضون احشاءها مشاة وركبانا وجماعة و وحدانا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل . وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الافرنج ، والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك و زادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو عليها جلة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ماأردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا رامحة و رماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فقاتلتهم سهلة

وحربهم أيسر من كل شئ [١] وأيضا فان السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير فى نفع قليل. فهذا جواب ماعرض لكم،ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعادالقريب ، فانه كم ترك الأول للآخر ».فلما فرغ المنصور من خطابه، انفصل الجمع على البعث الى السودان ومتابعة المنصور فى رأيه عليه . قال صاحب الاستقصا : وفى كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الأول ، ماقاله من ان الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان ، يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب مثل يوسف بن تاشفين و بنيه ، فلا يرد عليه ان الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر ، لان ذلك بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها ، واعراضه عن ملك المغرب . الثانى ، ماقال من أن البارود لم يكن فى تلك الدول الفارطة ، يعنى به لم يكن موجوداً فيها بكثرة ، فلا يرد عليه ان ظهوره كان فى أوائل المائة السابعة لأول دولة بنى مرين . ثم انه فى سنة سبع وتسعين وتسعمائة . اخذ باعداد آلة السفر ومهماته ، وتهيئة المدافع والعجلات التى تحملها ، والبارود والرصاص ، و بقى فى الاستعداد مدة طويلة . وفى اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ٩٩٨ خرجت العساكر وعدتها اثنان وعشرون ألفاً ، منهم ألفان من المدفعية والبحرية وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر ، وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة ، وكتب الى قاضى تنبكتو العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجى ، يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة . فنهض العسكر من تانسيفت الى ثنية الكلاوى الى درعة ودخلوا القفر فقطعوه مائة مرحلة ، ولم يضع لهم عقال بعير الى أن وصلوا الى تنبكتو ثغر السودان ، فأراحوا بها أياما وساروا قاصدين دار اسحق سكية ، فاحتشد لهم أمم السودان وقبائلها ، والملثمين المهادنين لهم يقال انه جمع فوق مائة ألف مقاتل . ولما تقارب الجمعان عبى الباشا جوذر عساكره للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة ، وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر ، وكانت أسلحتهم هى السيوف والرماح ، فلم تغن مع البارود شيئا . ولما كان آخر النهار ، انهزم السودان وحكمت فى رقابهم سيوف جؤذر وجنده ، حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون ، نحن

(١) لله در المنصور السعدى كأنه دولة استعمارية تتكلم

اخوانكم فى الدين ، والسيوف عاملة فيهم [١] ، وتم النصر لعساكر المنصور فى منتصف جمادى الاولى سنة ٩٩٩ ، وراسل ابن سكية جؤذرا فى الصلح على مال معين يدفعه ، فاجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه وكانت العساكر أصابتها الحمى فاتفق رأى الامراء على الرجوع الى تنبكتو ، وكتبوا الى المنصور ولبثوا ينتظرون الجواب . وأخذ جؤذر فى انشاء السفن وتركيبها ، ولما كملت دفعها فى النيل ، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد ، وقوم عسكرا خفيفاً أرسله مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جؤذر ، وقلده أمر العساكر كلها وعزل جؤذرا عنها ، وأمر محمود باشا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العساكر يعاتبهم على الصلح مع ابن سكية ، ويؤكد عليهم فى الرجوع الى بلاده ، واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الأخرى . وخرج محمود باشا فى عسكره فى زمن الحر ، فى وقت لايقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر ، وقطع القفر فى خمسين مرحلة ، ونزل بالعساكر على رأس تنبكتو على رأس سنة الألف . ثم شحنوا السفن وساروا بالملاحين والجند الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك سكية ، وكان هذا حشد لهم أمم السودان ، لكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهاريس ورأوا ارتفاع القنابر فى الجو ، انهزموا وسار اسحق سكية فى فل من جوعه وعبر النيل الى العدوة الأخرى ، فتبعه محمود وعبر النيل خلفه وأوقع به ، ونهب جميع ما احتوى عليه معسكره ، فانهزم الى القفر وهلك فيه . وقام اخو اسحق وجمع جموعا وزحف الى محمود باشا ، فهزمه هذا وقتله . وتمهدت السودان كلها وكتب بخبر الفتح الى المنصور ، فأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة ، وزينت الأسواق وأخرج فيها المنصور الصدقات ، وأعتق الرقاب ، ووصلته من محمود باشا الغنائم مما لايحصى من جملتها أربعون حملا من التبر الخ وانتظمت الممالك السودانية فى سلك طاعته مابين البحر المحيط من أقصى المغرب ، الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر . وكان فى تنبكتو أسرة يقال لها بوآقيت ، ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والقضاة ، وتوارثوا رياسة العلم فى السودان مدة تقرب من مائتى سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد لايبالون بالسلطان فمن دونه ، فاما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم محمود باشا على حالهم الى ان كانت سنة ١٠٠٢ ، فكان أهل السودان

(١) اذاً لم تصدق دعوى المنصور بأنه انما يحارب لأجل الاسلام

سئموا ملكة المغاربة فتخوف المنصور من آل آقيت ، فكتب بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش ، فقبض على جماعة منهم ، فيهم العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو أحمد بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف ، والقاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت ، وغيرهما ، وحملوا مصفدين فى الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم ، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم . واستمروا مدة فى مراكش فى حكم الثقاف الى أن انصرم امد المحنة ، فسرحوا فى ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ وفرحت قلوب المؤمنين لذلك . ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور قال له : أىّ حاجة لك فى نهب متاعى وكتبي وتصفيدى من تنبكتو الى هنا ، حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقى . قال له المنصور : « أردنا ان تجتمع الكلمة ، وانتم فى بلادكم من أعيانها، فان أذعنتم اذعن غيركم » . فقال له الشيخ أبو العباس : فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان ، فانهم أقرب اليك منا ؟ فقال المنصور : « قال النبى صلى الله عليه وسلم ، اتركوا الترك ماتركوكم ، فامتثلنا الحديث . فقال أبو العباس : ذاك زمان ، و بعده قال ابن عباس ، لاتتركوا الترك وان تركوكم . فسكت المنصور وانفض المجلس ، و بقى آل آقيت بمراكش الى أن مات المنصور ، فاذن لهم ابنه بالرجوع الى تنبكتو . » انتهى ببعض تصرف . وعقب على ذلك صاحب الاستقصا بفصل فى مسألة الرقيق والشرع آثرنا تلخيصه

مسئلة الرقيق والشرع

قال : قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من قديم ، وانهم من أحسن الأمم اسلاما وأقومهم دينا ، و بهذا يظهر لك شناعة ماعمت به البلوى المغرب (والمشرق) من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة ، و بيعها فى أسواق المغرب ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب ، بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك ، وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون ، وكونه مجلوبا من تلك الناحية . وهذا لعمرى من أعظم المناكر فى الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون ، فلهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر ، فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم هو الاسلام ، والحكم للغالب . ولو فرضنا أن

لاغالب ، وان الكفر والاسلام هناك متساويان ، فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار . والأصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدعى خلاف الأصل . ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين ، لما تقرر فى الباعة من الكذب مطلقا عند بيع سلعهم ، وفى باعة الرقيق خصوصا ، ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء . لاختلاف الأغراض والأحوال فى ذلك ، فان البائع قد يضربهم حتى لايقروا الا بمالا يقدح فى صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان ، فيهون عليه أن يقر على نفسه كى ينفذ بيعه عاجلا . وقداستفاض عن أهل العدل ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب (والمشرق) فى اغارة بعضهم على بعض ، واختطاف مواشيهم ، والكل مسلمون . وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ماهو من هذا القبيل .(الى أن يقول) أما وضع يد الجالبين لهم عليهم ، فلا تكفى شرعا فى جواز الاقدام على شرائهم . لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها ، وليستفت المرء قلبه فقد قال ﷺ استفت قلبك وان أفتوك . فانه اذا رجع الى قلبه فى هذه المعضلة ، لايقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال . ونقول لولم يكن فى ذلك الاالشبهة القوية وفساد الزمان ، ورقة ديانة أهله ، لكان فى هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذى هو أحد أصول الشريعة لاسيما عند الامام مالك رضى الله عنه ، مايوجب التخلى عن ملابسة هذه المفسدة بالعرض والدين نسأل الله أن يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعى الذى كان على عهد النبى ﷺ والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبى الناشىء عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله ، وسوق الناس الى دينه الذى اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذى شرعه لنا نبينا ﷺ وخلافه خلاف الدين ، وغيره غير المشروع . انتهى ببعض تصرف . والحمد لله على كون الحكومات الاسلامية العصرية ، انتبهت لسد الذريعة وافقت على ابطال الرق .

تتمةُ ذكر السودان

وذكر المسيو اندرى راسين صاحب كتاب « غينية الفرنسية » ما محصله ان البربر هم الذين من الشمال زحفوا على أمم الفتيش ونشروا بينها الاسلام ، فصارت فى الجنوب مراكز عظيمة للدعاية الاسلامية مثل «دييته» Diéné المدينة التى يقطنها السونغاى ، فقد اجتمع فيها بعد اسلامها بقليل سنة ١٠٥٠ مسيحية ، من جميع أصناف مسامى الشمال ، لاسيما الماندە ، وصارت أعظم ملتقى للتجار فى غربى افريقية بل من أعظم مراكز الاسلام التجارية . و بنى فيها كومبورو مسجدا جامعا مدهش البناء ، ثم تأسست مدينة تنبكتو فى الشمال ، فصارت مركزا آخر يتسرب منها دعاة الاسلام الى الجنوب . ودخلوا الى بلاد ساراكوله Sarakholé على ضفاف السنيغال ، و بلاد منابع النيجر (النيل السودانى) وغينية و بورى Bouré وقسم من سانكاران Sankaran ومن وازولو Ouasoulou ، مع المدينة الدينية كانكان Kankan وما زال الاسلام ينمو على النيجر حتى أسلم أكثر أهالى وادى النيجر وسواحل السنيغال وسيراليون ، و بقيت كورة واحدة أكثرها فتيشية لجهة البحر. وأكثر هذا النمو الاسلامى، كان سببه أمة الفوله والحاج عمر وساموری وانما كان الذين أتوا بالاسلام من الأصل، قبائل من البربر المتعامين، مثل القبيلة المسماة أهل سيدى على وأولاد فاضل وأولاد برّى والشيوش والجيلوبة والكونتة وغيرهم . ومن هؤلاء الكونتة البكاءون الذين اشتهروا فى جهات تنبكتو . وأصل الكونتة من زناتة من بلاد التوات هاجروا الى الجنوب فى القرن الثالث عشر للمسيح ، و بنوا فى تنبكتو المدارس والرباطات مما لمعت به تلك المدينة طويلا ، وتراهم الآن متفرقين فى السوادين ، لكن أهم مراكزهم تاغان Tagan واريبنده Aribinda . والبكاءون يزعمون انهم من سلالة عقبة (بن نافع بن عبد القيس الفهرىّ) الفاتح العربى ، ثم انضم الى ذلك تأثير الطرق الصوفية ، لأن هذه الطرق هى من أحسن الأجهزة للنضال . وأحدثها عهدا وأشدها عزما هى السنوسية ، والتيجانية. وهذه الثانية هى فى السودان الغربى والسواحل أعظم انتشارا . وأما الطريقة القادرية فهى أعظم من الجميع ، وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل ، وان كان المهدى السودانى وكثير ممن حاربونا نحن ، هم من أتباعها . وتجد القادرية فى السودان أقساماً منها القادرية البكائية

والقادرية المختارية ، والقادرية أتباع زين العابدين ابن سيدى أحمد ، والقادرية أتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بو . فالسواد الأعظم من مسامى السنيغال وغامبية وغينية والنيجر الأعلى هم قادرية من أتباع هؤلاء ، ثم فى بلاد أولاته Oualata القادرية الرقانية أتباع الشيخ أحمد الرقانى ، وهم ثلاث فرق . أما التيجانية فهى حديثة العهد تأسست فى سنة ١١٨٦ للهجرة ، وأشهر من شهرها فى السودان الحاج عمر ، ومن الغريب انها فى الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيس ، وفى السودان ترفع راية الجهاد . وأما السنوسية فوصوفون بالشدة وعداوة الأجانب أكثر من الجميع ، واتباعهم فى السودان الغربى ليسوا كثيرين ولكن مملكة وادای أكثرها لهم .

ولايوجد فى غينية مرابطون على النحو الذى فى المغرب ، بل يوجد بمقام المرابطين رؤساء سياسيون حولهم أتباع وأعوان ، وطبقة أخرى هم معامو المدارس والفقهاء فى الدين ، ويسمى الواحد من هؤلاء « كاراموكو » Karamokho وعندهم لقب آخر للمجاهدين والذين فتحوا البلدان وهو « المامى » منحوتا من « أمير المؤمنين » (أو نسبة الى الامام) .

وليس عند أهل غينية رغبة عظيمة فى الحج ، بل الذين يحجون الى مكة كل سنةهم عدد قليل بالرغم من كون تورودو الحاج موسى بنى لهم فى مكة رباطا . ولكن لاينبغى أن نغتر ببعض ظواهر الفتور التى تلوح على اسلام غينية ، بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا : فانك لتجدهم شديدى الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرون لا يكتفون بالقرآن ، بل يقرأون السنة وكتاب خليل فى الفقه المالكى وعندهم مكاتب شرعية مهمة . أخبر الدكتور بليدن Blyden انه عرف منهم اناسا يشترون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية ، ولا يجدون ذلك كثيرا . وتجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثر تآليفهم مخطوطة ، ولكن القرآن صار يطبع فى سيراليون وكوناكرى . وان التربية الدينية فى تلك البلاد ، هى أوسع مما يظن لا سيما فى جهات فوته وكنكان ، فالبنات يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات وأحياناً ثمانى سنوات . ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات . ومن التلاميذ من يرغب فى زيادة التفقه ، فيذهب الى الشمال مثل بلد دينيه وتورو أو يقصد المغرب . ولدينا احصاء اداری عن مدارس الاسلام

فى بعض النواحى . ففى الديتين Ditinn ٣٤٦ مدرسة فيها ٢٩٦٢ تلميذاً ، وفى كانكان ٦٠ مدرسة فيها ٨٠٠ تلميذ ، وفى كوين Koïn ٤١ مدرسة فيها ٥٧٤ تلميذا ، وفى سيغورى Sguri ٢٨ مدرسة فيها ١٦٠ طالبا . وكان فى فوكومبه Foukoumba مركز بلاد فوته الدينى سنة ١٨٩١ ثلاثون مدرسة للذكور والاناث . وكان فى دينغيراى Dinguiray سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠ طالب . وهذا العدد فى دينغراى على ٣٢ ألف نسمة لا زيادة . و وظيفة المعلم محترمة موقرة ، وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . و يأخذ المعلم عادة ٢٠ فرنكا على كل سورة يحفظها التلميذ . وعند ما يحفظ نصف القرآن يقدمون له ثوراً ، ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا . والمعلم يعلم الأولاد الكتابة بواسطة ألواح فى أيديهم ، وهذا هو التعليم الابتدائى . ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير . وانما قد تبين من تقرير رسمى فرنساوى على حالة التعليم فى احدى كور وادى النيجر ، انه من بين ألف ولد يخرج ٧٠٠ لايعلمون شيئاً ، و ٢٥٠ يعرفون القراءة والكتابة و ٤٠ يحفظون القرآن كله بدون أن يحسنوا تفسيره بلغتهم ، و ١٠ يمكنهم أن يفسروه بلغتهم . أما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيداً ، واسم الصلاة « سالى » أو « دالى » وساعة الصلاة «ساليفانا» وفى بعض السواحل « سولوفانا » ، وصلاة الفجر فى السواحل « سونغوفو » وصلاة العصر « لانسارا » ، ويقال لها عند المالينكه « لانساما » وصلاة المغرب « سونغومانى » وأما أمم الديولا والسونينكى والماندى فيطلقون عليها أسماءها العربية . ونهار الجمعة يجتمع المسلمون فى المسجد الجامع ، ولكن مما يذكر أن هذه العادة قد خفت كثيراً بعد استيلائنا لا سيما فى فوتا ديالو Fouta Dialo ، وقل ازدحام المصلين فى صلاة الجمعة . و يصومون رمضان لكن لابالتشديد الذى عليه المغاربة ، وعند مايلوح الهلال يكون العيد الصغير ، فيطلقون البواريد. ويسمون عيد الفطر « سونغالو سالى » أو « كالوسالى » وهذا بلغة الماندى ، أما فى لغة الفوله فاسمه « كور يليور و سومابى » ، وفى العيد الكبير يضحون كل واحد كبشا . ويسمى هذا العيد « تاباسكى » بلغة الأولوف و « ساليبا كالو » أو « دونكى سالى » بلغة المالينكه و « باناسالى » بلغة السانينكه. (ثم ذكر اندرى ارسين بعض الحروب التى وقعت بين المسلمين والفتيشيين ، وقال)

ان هؤلاء طالما قاوموا الاسلام بشدة بالغة الحد ، وقد استولى الفتيشيون مرة على كانكان هذه المدينة الاسلامية المقدسة ، ولكن أمة السوننكه الاسلامية كانت تواصل التقدم من الشمال ، وصارت بورى وموسادوغو وموساردو مدنا اسلامية ، وهى أحسن المدن وأعمرها وأنظفها هناك ، ولكن الفتيشيين لبثوا فتيشيين . وكانت غينية العليا أسلمت بتمامها فى أيام المامى ساموري ، ولكن بعد موته رجع الكورما ، والوازولو ، والتورون ، والسانكاران ، والكورانكو ، والكيسى الى أوثانهم ، وعادوا الى شرب المسكر . وأما بلاد التوما فمن البداية لم تطع ساموري .

أما فى الأوان الحاضر فمدن الاسلام فى غينية العليا ممتدة على طول الأنهر ، وفيها كثير من الغرباء الذين يتواردون اليها منذ قرنين . وبالاجمال ففى مقاطعة بورى من غينية أشهر مدن الاسلام ، كيرانه Kérouané ، والاهينا Alahina ، ومدينة Medina ، وكاكاتومبو Kakatoumbo ، وفى مقاطعة سييكه Sieké بيرامفيرا Biramfera ، وسيندوقو Sindougou ، وتوقين Togin ، وفى مقاطعة كولوكالان Kouloukalan دوقوره Dougoura ، وكوبانى Kobani وكينيكرو Kiniékrou ، وفى المادينغ Mading ، أهم مدنهم بالانكوما كونا Balankoumakana وأما فى سائر المدن لا سيما فى مقاطعتى ديوما Diouma ونوغا Nouga ، فالأكثرية ليست للاسلام . وأما كانكان فهى من أعظم كراسى الاسلام فى السودان الفرنسى ، أكثر أهلها سوننكه . وكذلك كونغ ودينه . وقد أسس أشياخ الطريقة التيجانية مدارس فى كانكان ومكاتب ، ونشأ فيها مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى فى نشر الاسلام فى افريقية الغربية والجنوبية . والى هذا اليوم هى مركز جاذبية لبلاد سيفيرى وكرروسه . وفيها آل سريفو الذين يدعون انهم أشراف من آل البيت ، وان اسمهم مشتق من شريف . ومن المدن الاسلامية العظيمة مدينة طوبا Tonba فى ساحل العاج ، وبيلا Beyla وذاكر الله ، وبلال الله ، ونيالا وديا كوليدغو الخ . وأما بلاد الفوته ديالو فان لها تاريخا مهما فى الاسلام هناك ، فقد جاءتها الدعوة من الشمال بواسطة التوكولور ، ومن الشرق بواسطة السوننكه ، ولذلك تألف بها حزبان أحدهما يقال له « ألفيا » Alfaia والثانى « صوريا » Soria ، فالصوريا هم الشرقيون اتخذوا الطريقة القادرية حال كون الألفيا بحسب قول المسيو لوشاتليه

Le Chatelier ، تمسكوا بالسنة ولم يعرفوا الطرق وقد كان مبدأ الاسلام فى فوته على أيدى البهل والسونينكه ، ولكن لما أسلم على أيديهم الديالونكه صار هؤلاء من أشد الدعاة حمية وليست بلاد فوته منقسمة الى كور اسلامية وأخرى وثنية كما هو الحال فى غينية العليا ، بل جميعها دار اسلام . والمدينة المقدسة فيها هى فوكومبا ، وفى جامعها جرت العادة بمبايعة المامى ، وهذا الامتياز لها ، من أجل كون أمير هذه البلدة هو أقدم أمراء تلك البلاد اسلاما ومن البلدان الاسلامية العظيمة « فوتاطورو » وهى أقرب البلاد الى ديالو . و بلاد السارا كولى وهم من الأقوام الشديدة الاعتقاد ، وفيها مدارس للعلوم الدينية . ومن المراكز المشهورة فى تعليم الدين « تمبى » و « لابى » و « دونهول فلاح » و «فوكومبا» و « بارفلاّ » و « دنتارى » و « كولانغى » وغيرها وفيها الجوامع العظيمة

والاسلام ممتد أيضاً فى الجهات الجنوبية الغربية من غينية ، والسبب فى امتداده الى هناك هى فتوحات القبائل الشمالية مثل السونينكه والتورودو والديولا والديا كانكه ، ومن هذه الأقوام جند الحاج عمر أحسن عساكره ، وخلف مريدين قاوموا الفرنسيس أشد المقاومة ، مثل المرابط محمد ، ولامينا درامى . وقد كان اختلاط السونينكة والديولا بأهالى الجنوب سببا فى زيادة نشر الدعوة المحمدية ، حتى لا يكاد يخلو منها مكان فى سواحل غينية . واشتهر بشدة التمسك بالاسلام أمة النالوماندى . حتى ان ملك النالو تلقب بأمير المؤمنين . كذلك زعيم الساراكولى فى بلاد ميلاكورى لقب بمامى موريا أى امام موريا . فوريا وموريبايا وكالوم وسومبويا وبراميا و بونغو ونونز العليا ، الأكثرية فيها هى للاسلام والأهالى من جنس الصوصو . وكان الميكيفورى Mikiforé باقين على الفتيشية ، لكن الضابط بروكارد Brocard قرر بعد فحص أجزاه ، ان الاسلام غلب عليهم اليوم ، حتى قال انهم يعتقدون ان الرجل الحر له وحده الحق بالغاء السلام . وكذلك قبيلة الباغافوره Baga Foré التى هى من أشد قبائل السواحل عتواً . دخلها الاسلام و بدأ كثير من رؤسائها بهجرة الخمرة . وفى بعض الأماكن تجد الزعماء قد صاروا مسلمين وان كان عامة شعبهم باقين على الوثنية . ولقد سرت مع أحد حكام غينية السفلى وهو المسيو نوارو Noirot فى أطراف هذه البلاد ، وكانت مضت عليه سنون طوال فى جنوبى غينية ، فاندهش مما رآه من آثار العقيدة الاسلامية مما لم يكن رآه قبلا ، اذ فى كل قرية حتى فى صغريات القرى تجد

« م ٤ – ثالث »

مصليات للاسلام . نعم ان مسلمى جنوبى غينية ليس عندهم تعصب مسلمى الشمال . ومن المدن الاسلامية المشهورة فى الجنوب « بنا » و « كيسى كيسى » و « كوناكرى » وبلاد « الهوبو » وأما بلاد « كادى » و « كونسوتامى » و « بومبايا » فهى اسلامية بحتة ، ومعدودة من أقسام « فوته » الضاربة فى نحر الاوقيانوس . ومن علامات تقدم الاسلام فى الجنوب شيوع لقب « المامى » فى ملوكهم مما يغضب أهل فوته ديالو ، الذين يقولون : مامن مامى فى كل غينية سوى أميرهم . وقد يعترفون بهذا اللقب لمامى موريا ، ولكن يصعب عليهم اقرار به لملوك « ريوبونعو » و « كانيا » و « تاميسو » و « نالو » و « كالوم » .

وجميع المرابطين الدعاة فى كورة « واسو » هم فى الأصل من السونينكه ، ويقال لهم « السيسى » و « الدارامى » والتورى والى الشرق من ميلاكورى يوجد قوم اسمهم « اليولا » متمسكون جدا بالاسلام ، وكان لهم يد فى نشره بين الأمم المجاورة ، كذلك فى جهة « فارانا » يوجد قوم اسمهم « الفيريا » مقيمون لشعائر الاسلام بكل دقة لاسيما فى « داندو » و « أولادا » .

والشرف الأعظم فى نظر مسلمى السودان هو الانتساب الى العرب ، فالعرب عندهم هم انموذج الشعوب كما قال المسيو فامشون Famechon ، لاسيما الانتماء الى آل البيت . »

وأنهى المسيو اندرى آرسين كلامه على غينية أوغانة بقوله : ان الاسلام انتشر بسرعة عظيمة فى بلاد الزنوج نعم ان تقدمه اليوم أصبح أبطأ من ذى قبل ، لكنه صار أرسخ من ذى قبل بسبب السكون والامان . واذا اعتبر الانسان انه منذ مائة وخمسين سنة لم يكن مسلمون فى غينية السفلى ، وانهم الآن صاروا نحو النصف من الأهالى عرف مقدار سير الاسلام فى هذه الأقطار . كذلك المرابط منذ ثلاثين سنة فقط ، لم يكن يجرؤ ان يتوغل فى هاتيك الاصقاع ، فصار اليوم يسير و بين يديه جماعات وله اتباع . ثم علل مؤلف « غينية الفرنسوية » نمو الاسلام بين السود ببساطة قواعده ، وما أشبه ذلك من الأسباب التى أشار اليها مؤلف كتاب « الاسلام والنصرانية فى افريقية » .

وقد عرفت الرحالة الشيخ عبد الكريم مراد ، نزيل كانو من بلاد النيجر ، أصله من طرابلس الشام زارنى فى لوزان سويسرة فى العام الماضى ١٩٢٣ ، فسألته عن بلاد النيجر والسوادين فقال لى : « ان بلاد النيجر تشتمل على ٢٠ مليون نسمة ، مقسومة بين

الانكليز والفرنسيس ، وان عاصمة النيجر الانكليزى مدينة لاغوس Lagos ، وان سلطان سوكوتو كان كبير سلاطين السودان كلهم قبل دخول الانكليز ، فلما دخل الانكليز أخرجوا كل أولئك السلاطين من طاعته ، فبقيت له سيادة اسمية . وأما السلاطين المذكورون ، فنهم سلطان كشينا حج فى العام الماضى . وسلطان كانو . وسلطان برنو . وسلطان زاريا . وسلطان بدّا . وسلطان آبدان . وسلطان لورى وغيرهم . وأما سلطان لاغوس وسلطان أبى كتا ، فمشركان . ولكن للاسلام قوة فى بلادهما وفى جميع بلاد الفتيشيين . وسلطان هؤلاء يحتفل بعيد الاسلام ، ويلبس فيه الملابس الرسمية وعند سلطان أبى كتا وزير مسلم ، والجوامع كثيرة فى بلاد الكفار تقام فيها ، الجمع والاذان مسموع . وسألته عن مدينة كانو التى كان فيها ، فأجابنى ان أهلها نحو ثلاثين ألف نسمة وهم مسلمون »

وأختم هذا الفصل بنكتة سمعتها من المرحوم الشيخ عبد الجليل براده من علماء المدينة المنورة ، وأدباء عصره ، قال : سأل واحد من أهل الأدب وهو فى موسم الحج حاجاً أسمر عن بلده فى السودان ، فأجابه : غانة . فأنشد السائل على الفور هذا البيت :

كذا كذا فليزر مولاه من عرفه من غانة غاية الدنيا الى عرفه

* * *

وجدنا من تمام الفائدة فى الاعلام عن غربى افريقية عقد فصل خاص بجنوبى الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى والسنيغال واعتمدنا فيه على رحلة المسيو « غاسطون دونه » Gaston Donnet الافرنسى الذى أرسلته وزارة المستعمرات الافرنسية سنة ١٨٩٣ الى تلك البقاع لارتيادها

قال انه كلف اختراق البلاد المسماة « الترارزة » و « أولاد أبو سبع » و « أولاد دليم » و « بلاد الادرار » والاقامة مدة من الزمن فى مستعمرة « ريو دو اورو » الاسبانيولية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقى الى حد « تين دوف » ثم « رأس جوبى » أى وادى دراعة .

وقد كانت هذه الرحلة قبل احتلال فرنسة للمغرب الأقصى . ولصاحبها كتاب آخر اسمه « من السنيغال الى تيريس »

و بلاد السنيغال مأخوذ اسمها من نهر السنيغال . وهذا منسوب الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة التى منها فروع فى تلك الأصقاع ولما كان الأهالى يلفظون جيم « صنهاجة »

كالكاف الفارسية أو الجيم المصرية قالوا « صنهاكة » وجاء الفرنسيس فجعلوا منها اسم بلاد « السنيكال » واصطلح كتاب العرب على كتابتها بالغين أى « سنيغال » وقبيلة صنهاجة هى شعب كبير من البربر قد اختلط بالعرب بالزواج وتولد منه الشعب الذى يسكن الآن فى أطراف الصحراء على حدود السنيغال

وأهم القبائل المجاورة للسنيغال هى ثلاث : الترارزة فى شمالى والو والبراخنة فى شمالى ديمار وفوتا والدويش فى شمالى دمغة الى الشرق والمغاربة فى تلك الديار ينقسمون الى مغاربة شماليين وقبليين فالشماليون هم الذين لا يفارقون أعالى الصحراء والقبليون و يقال لهم القبالة هم الذين يذهبون جنوباً حتى يشرفوا على النهر و يبيعوا هناك الصمغ الذى هو محصولهم الى تجار سان لويس ، وللطرارزة عائلتان وجيهتان فيما بينهم إحداهما أولاد دايمان والأخرى عائد . فأولاد دايمان مرابطون أى لهم الرئاسة الدينية وأولاد عائد محاربون أى لهم إمارة السيف . ولقد تناقصت أهمية هاتين العائلتين بعد أن صار أحمد سلوم أميراً على الطرارزة بمعاونة فرنسا . وأما عائلات المرابطين المشهورة فهم أولاد دامان وعائلة يقال لها أهل أبياى وعائلة يقال لها أهل ريّس وتاغنيت وتاجا كاند والبارك الله وايت أوالى وايت أبو الحسن وتنداغة وايت يعقوب والسويلات وغيرهم .

وأما طبقة المحاربين فهى مختلطة من عرب وبربر وسودان والجيش الذى يعتمد عليه أحمد سلوم أمير الطرارزة هو مؤلف من مغاربة مختلطين بسودان من الجيل الذين يقال لهم ألوف . وأشهر عائلات هذه الطبقة الهيب الله وأولاد أكحر وأولاد بوسبع والعبيدات وأولاد رقيق وأولاد عايد وزنبوقى وأولاد البُلّمية وأولاد عبد الواحد والمبارك والرقيبات والدغمولة والسبحات وأولاد عمران وغيرهم . وأكثر هذه القبائل تدفع ضريبة لأحمد سلوم من غنم و بقر وهجن ومعزى وسكر وسمك مقدّد وتمر وبارود وبعض مسكوكات . أما عائلات المرابطين فهى معفاة من هذه الرسوم ويوجد قبيلة اسمها أليب هذه تكاد تكون مستقلة فلا تخضع لأحمد سلوم وهى ترعى المواشى وتكثر بينها و بين أولاد دليم الحروب لأن هؤلاء تغلب عليهم اللصوصية وهم عرب فى الأصل[1]

وأكثر الخوف فى الصحراء من أولاد دليم وهم يجوبون البيداء من كل جهة و يبدأ

(١) قبائل دليم كثيرة بين المدينة المنورة ونجد

مكان سلطتهم فى قنيطير و ينتهى فى ريو دو أورو

واما أهالى بلاد تاسيست ونيجيريت و إمشيرى ففى تاسيست البركة الله مرابطون والغورا والبنى عمر البود وهم من أولاد دليم والبويلى . وأما فى نيجريت فالبركة الله والفودير و بعض بربر من صنهاجة . وأما فى الامشيرى فيوجد من هذه القبائل ومن أولاد لاب وهم من أولاد دليم فى الأصل . وأولاد لاب هؤلاء متفقون مع الطرارزة . وأما أولاد بوسبع فهم طائفة من المراكشيين المهاجرين الى الرقيبات وتكنه و بلادهم تبدأ بأعالى أغادير وحدُّها الشمالى قيريس . وحدُّها الشرقى تاسيست ونيجريت . وأكثرهم صيادو سمك يصطادون على سواحل طافولىّ وقنيطير وهم تابعون للأمير أحمد سلوم

والعادة فى جميع هذه القبائل أن يسودها صاحب السيف وهو الأمير ثم المرابط وهو الزعيم الدينى و يأتى بعدهما العامة الذين يدفعون الضرائب ولكنهم أحرار تماماً . ثم يأتى الأرقاء وهؤلاء أصلهم من السود غير المسلمين و اذا استرق الانسان زنجياً غير مسلم لا يجبره على الاسلام ، واذا أسلم الزنجى لا يتخلص من الرق ولكن لا يسوغ لصاحبه أن يبيعه من غير مسلم . ويجب على السيد أن يطعم عبده بقدر طاقته ولا يحمله أحمالا شاقة لا يطيقها والعبد يأكل و يلبس نظير سيده و إذا تحقق أن عبداً كان سيده لا يطعمه فانه يجبر على بيعه . وأكثر هؤلاء العبيد لا يريدون الحرية فانه يقدر الواحد منهم أن يفر الى سان لويس فى السنغال ففى الحال ينال حريته . ولكنهم لا يذهبون ليتحرروا لأنهم يرون أنهم لو رجعوا الى السودان وعاشوا بين قبائلهم فان حريتهم فيها لا توازى رقهم عند المغاربة

ومعيشة هذه القبائل هى على وتيرة واحدة دائمة فهم يتنقلون من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . وأرقاؤهم يشتغلون لهم وأكثر أوقاتهم يقضونها بالأحاديث يجتمعون ويضطجعون و يشربون الشاى و يتحدثون تارة عن سلطان المغرب وأحياناً عن استانبول وأحياناً عن الافرنج وكثيراً ما يشنون الغارات على القوافل ثم ذكر صاحب هذا الكتاب أنه بقى مدة عند أحد المرابطين الشيخ باباولْد حمدى وهو من المشايخ المشهورين هناك وكان يقيم فى قرية اسمها « بوزوبرة » قال : وكنت أرى الأهالى يقومون الصبح و يصلون وراء هذا الشيخ وكان يعظهم وطالما نهاهم عن النهب والتعدى ولكنهم قلما ينتهون . وتكلم أيضاً عن الشيخ سعد بو وأصله من الحوض لكنه من ثلاثين

سنة مقيم فى تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الافرنسى « بول سُلْمِيْلِيه » من يد أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسناً عند الافرنج . وهو يسكن فى بيت من الحجر لا فى مضارب و بر كغيره و يجلس على كرسى لا على الأرض و يقرأ القرآن و يفسره . وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير ، وقد ذكر المؤلف تفاصيل كثيرة عن سعد بو وأخيه أهملناها نظراً لمضى زمانها ولكون الفرنسيس بعد ذلك التاريخ احتلوا بلاد المغرب وأصبحوا هم أصحاب الكلمة فى تلك الأصقاع فتغيرت الحالة هناك . وهو يذكر أن هذه القبائل المغربية كانت تنفر من الأوروبى و ترى فيه العدو الدائم وليست أسباب هذه البغضاء هى العداوة بين المسلم والمسيحى فقط بل يظهر أن الافرنج الذين فى سان لويس يسيئون معاملة هؤلاء المغاربة عندما يذهبون الى تلك المدينة و يحتقرونهم و يجرحون عزة أنفسهم والمؤلف ينصح قومه بتبديل هذه المعاملة

و يذكر عن كسل هذه القبائل شيئاً كثيراً و يقول ان شغل أراضيهم ومواشيهم كله بيد العبيد . ولا يمدح منهم غير أولاد بو سبع و يقول انهم القبيلة الوحيدة التى تشتغل وتأخذ وتعطى وأكثر شغلهم بالسمك المقدد . ولا شك أن الحالة قدتغيرت الآن هنالك عما كانت يوم كتب هذا التأليف أى منذ خمس وثلاثين سنة الى أربعين سنة لأنه طرأ على العالم تغييرات كثيرة غير أننا نستبعد أن يكون وقع تغيير فى حالة العلاقات بين المغاربة والأوربيين وربما كانت العداوة اليوم أشد منها قبل أن بسطت فرنسا حمايتها على المغاربة وذلك لأسباب لا تخفى عن أحد

الاسلام فى السودان

مقال قيم للاستاذ ديريش وسترمان الألمانى

فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية

نشر الاستاذ الالمانى المعروف ديريش وسترمان مقالا فى مجلة (العالم الاسلامى) الالمانية عن الاسلام فى السودان ، ننشره فيما يلى .

تقتصر الابحاث الآتية عن الاسلام فى بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكمرون ومنها الى الحدود الغربية للوادى فى اتجاه شمالى شرقى ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولوان نفوذ قبيلتى « الهوسا »و «الفولبا» فى شمالى بحيرة تشاد أقل أثراً ، الا ان اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحى بحيث لا يمكن التفريق بين مقاطعتى « بورنو » وباجيرسى » و بين المقاطعات الاخرى الغربية

يصعب جداً تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد فى بلاد السودان ، من حيث مساحة الاراضى أو من حيث عدد المسلمين ، فان عدد السكان على العموم لم يحص احصاء دقيقاً للآن فى هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم احصاء عدد التابعين لكل دين بالمرة ، وذلك لصعوبة التفرقة فى كثير من الاحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، اذ انه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه مثل قبائل « تيمبوس » و « كانوس » و بين عبيد الغابات التى تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أى معرفة ، الا انه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات فى صالح الاسلام وليس فى صالح الوثنية أو الاديان الاخرى

و بما أن الاسلام دخل الاراضى السودانيةمن الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاما من باقى البقاع ، ويحتل المسلمون اغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو انهم جاسوا خلالها فى كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى

السواحل . و يعتبر العرب فى هذه البلاد اشد القبائل اسلاما وغيرة على دينهم و يليهم مباشرة الحاميون : المغاربة والفولبا والتواريج والهوسا ، ولو اننا نسمع من حين لآخر عن بعض الوثنيين فى قبيلة الفولبا ولكن ذلك يرجع فى الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، و يوجد كذلك القليل من الوثنيين الآن بين من يتكلم بلغة الهوسا ولكنهم ليسوا من أفراد الهوسا الحقيقية .

أما فى افريقيا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتمد على احصائيات دقيقة ، ففى السنغال مثلا يعيش ٧٨٥٠٠ من الفولبا و ١٥٨٠٠٠ من الدكرور وكل من الفريقين فخور معتز بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جداً ، وأما الولوف واليولوف وهم أكبر عنصر فى المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفى الوثنية بينهم على عكس قبيلة السيرر وعددهم ١٩٠ الفاً وهم خليط بين الفولبا والولوف فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل السوننكه التابعين للماندينجو فشديدو الغيرة على اسلامهم . وكذلك أصبح عدد الوثنيين قليلا جداً بين قبائل المالنكه

أما فى غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين الفولبا حوالى ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألفاً من المالنكه وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقى السكان فمنهم ٣٨٥ ألفاً من الجالونكه وكانوا فى الاصل يقطنون فى الجهات الشمالية فى فوتاجالون فأغلبهم من الوثنيين ، الا ان الاسلام يتقدم بينهم تقدما سريعاً بفضل مجهود قبائل الفولبا ، و باقى الاهالى من قبائل تمنا ومندا ونالو وتوما وكيسى يكادون يكونون جميعاً وثنيين

و يبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالى مليونى نسمة ، منهم ٢٤٢ ألفاً مانداجولا من المسلمين والسينوفو وأغلبهم وثنيون و باقى الاهلين يكاد لا يكون للاسلام بينهم اثر ، وكذلك الحال فى داهومى التى يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفاً ، ولا يزيد عدد المسلمين بها على ٧٠ ألفاً ، وأما المقيمون على شواطئ نهر نيجر و يطلق عليهم اسم دندى فهم شديدو التمسك بالدين الاسلامى ، وكذلك قبائل الفولبا الرحل الذين يقيمون فى مقاطعة بار با بجوار قرى الوطنيين ، وأما الاهالى الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغاً بعيداً ففى سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل البامبارا الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، الا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين

السكان على وجه العموم . وكذلك الحال فى مقاطعة موسّى التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هو دين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبعون العادات والتقاليد الوثنية

ويبلغ عــدد سكان سنغال الأعلى من خمسة الى خمسة ملايين ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن مليونين

* * *

وعلى العموم يمكن القول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج وداهومى وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدين فى تقاليدهم وعباداتهم

وأما فى المستعمرات الانجليزية فلا نـكاد نحصل على معلومات بالمرة عن عدد المسلمين ويضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضاً

ويبلغ عدد سكان سيراليونا مليوناً و٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لايتبع الاسلام فيها غير القليل من الفولبا من سكان الجهات الشمالية وغالبية الماندنيجو ، وأما قبائل تمنا ومندا فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضاً

وفى المدن الساحلية يغلب عدد الأهالى المسلمين ، ففى بورت لوكوه سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريباً من المسلمين ، وفى فريتون توجد ٥ مدارس اسلامية حكومية بها مالا يقل عن ٧٦٠ تلميذاً مع أن عدد السكان لايزيد على ٣٤ ألف نسمة

فالحال اذاً فى سيراليونا هى أن الاسلام جاءها من داخـل البلاد الى الشواطئ حتى عم جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنيتها

وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مليوناً وستمائة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، الا أن الاسلام تقدم بينهم تقدماً سريعا ، فانه لاتوجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس اسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينـة تامالا وهى عاصمة المقاطعات الشمالية مالايقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوماً بعديوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحـل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشاراً هى الهوسا والماندينجو الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحى ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بمالا يقل عن مائة ألف وقدأصبح الآن بدون مغالاة لايقل عن ضعف هذا العدد

وأكثرهم فى المقاطعات الشمالية

وقد لاتوجد جهة أخرى فى البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام فى الفترة الأخيرة مثل نيجيريا ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٦ مليوناً ، خصوصاً فى الأقاليم الجنوبية التى كانت حتى زمن قريب تعتبر موطنا للوثنيين ، وأما فى شمال نيجيريا وهى البلاد التى فتحتها قبائل الهوسا والفولبا فان الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التى تقطن جنوب نهر النيجر والبنوى وعلى امتداد الشواطئ الشمالية والشرقية من نهر النيجر فأغلبها من الوثنيين . وفى شمال نيجيريا مالا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، الا انهم فى طريقهم الى الدخول فى الدين الاسلامى بفضل مجاورتهم للأغلبية الاسلامية الساحقة هـذا فضلا عن أثر ثقافة الاسلام فيهم

وأما فى جنوب نيجيريا فان المسلمين لا يكونون شعبا موحداً رغما عن التقدم الباهر الذى أحرزه الاسلام بين الأهالى فى السنوات الأخيرة خصوصا فى المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية فى هذه النواحى ، حتى ان سكان مدينة لاجوس — وهى مركز رئيسى للتبشير المسيحى — يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامى ، وكذلك يتقدم الاسلام فى باقى البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة وفى مستعمرة غامبيا أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها على ١٦ ألف نسمة

أما الحال فى المستعمرات الألمانية السابقة فان توجو تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ ألفاً من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لايذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة . وفى الكمرون يوجد شعب اسلامى موحد لايستثنى منه غير سكان جبال المندرا الوثنيين والذين هم فى عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضاً بالرغم من ذلك . وفى اداماوه تدين البقاع التى احتلتها قبائل الفولبا كذلك بالدين الاسلامى ولو أن الوثنية تعم النواحى الجنوبية .

ويلاحظ أن تقدم الاسلام قدوقف قليلا فى هذه النواحى منذ زالت دولة الفولبا وان كانت التقاليد التى ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسيادهم المسلمين لازالت متبعة ومحبوبة عندهم ، وقدتقدمت قبائل الهوسا المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطئ فى المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيراً ، وعلى الجملة فان الاحصائيات الأخيرة تدل على أن مايقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية

(عن مجلة نور الاسلام)

العرب فى الكونغو

لامير شكيب

اطلعت على رحلة لأحد أدباء البلجيك المسمى فريتزفان در ليندن Fritz Van der Linden استوفى فيها الشرح على الكونغو ، فعثرت فيها على بعض جمل تتعلق بالعرب فى الكونغو ، وعلمت أن الاسلام قد دخل فى هذه المملكة العظيمة التى هى الكونغو البلجيكى . قال فى الصفحة ٢٦١ ، فى بحث عن تداول الأهالى للمسكوكات : « ان أكثر الأهالى المستعربين Arabisés يعرفون النقود ، وان تجار العرب من الكاسونغو وأكبر التجار الذين لهم علاقات مع زنزيبار ، يؤثرون الذهب لا سيما الليرة السترلينية ، لأن علاقاتهم متصلة مع عرب الأوغانده ، والمستعمرات الألمانية فى شرقى افريقية . وتراهم مع شدة مراقبة الحكومة ، يتمكنون من أخذ العاج وادخال البارود الى مستعمراتنا سراً . وأما تجارة الرقيق فانهم لا يتعاطونها الا فى داخل البلاد من قرية الى قرية ومنع ذلك يكاد يكون مستحيلا ، اذ ليس الاسترقاق هو اليوم بالقوة المسلحة كما كان قبلاً ، بل فظائع الاستعباد التى كان يصفها ليفنسون وستورم وهوديستر هذه كلها دخلت فى خبر كان . ولكن العربى أو المستعرب لا يشتغل بيده فلا يستغنى عن العبد ، لأجل الغراس وخدمة البيت والنقل والحمل ، وليست معاملته للعبد بسيئة وقد ينتقل العبد من سيد الى سيد ، والذى يظهر انه لو تحرر هؤلاء العبيد كلهم دفعة واحدة لكانت ضربة قاضية على سعادة البلاد ، وتحول هؤلاء الى رعاع متشردين .

وان العنصر العربى لا يزال عظيما فى جهات كاسونغو ، لكن مجده الماضى قد زال ، والمراكز التى كانت لمونى محره [١] وسعيد بن عبد لى قد ذهبت . أما كاسونغو القديمة ، فهى قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة بالشوارع وهناك عرب صراح يلبسون جبباً بيضاء ، ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزاً بديعاً ، سيماهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم

(١) يظهر انه اسم زعيم عربى

وسكناتهم مقرونة بالأدب التام ، والكياسة المتناهية ، والرصانة الفائقة ، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنزيباريين العبيد القدماء ، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية ، بتقليدهم ساداتهم العرب فى كسوتهم و رفاهيتهم .

ومرة دعانى أحد العرب فى كاسونغو الى منزله قائلا : سفا كيدى كاريبو . ومعناها : صباح الخير تفضل . فدخلت الى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير ومزينا بالمتاع اللطيف ، وأبواب البيت والشبابيك كلها منقوشة ، وعلى أحد الأبواب كتابة عربية أظنها آية من القرآن . فقدم لى العربى طاساً لذيذاً من القهوة ، و باعنى بعض الحصر ، وهو يظهر انه انما أسدى الى مكرمة .

وترى القرى على الطريق المؤدية من كاسونغو القديمة الى كاسونغو كلها جميلة نظيفة والمسحة العربية بادية عليها ، ولكن مرض النوم فاش فى هذه الأنحاء ، وقد نقص كثيراً فى عدد الأهالى فى جوار كاسونغو . ولا تجد فى جوار كاسونغو أكثر من ألف مستعرب من الرجال البالغين ، وثلاثة أو أربعة عرب صراح ، وأربعة أو خمسة زنجباريين . وليس بين الأهالى جامعة يخشى من عواقبها ، فنقدر أن ننظر الى المستقبل باطمئنان .

ثم ذكر مدينة نيانقفة Niangwe، فنقل عن قائم المقام السويدى غليروب Gleerub قوله فى سنة ١٨٨٦ :

« ان نيانقفه هى مقر العرب الأصلى وهى مقسومة الى قسمين يفصل بينهما واد عميق تكثر فيه مزارع الأرز ، فاذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طمت المياه على هذا الوادى . وقد ازدادت هذه المدينة من عهد ستانلى ازدياداً عظيما ، فأهلها اليوم يبلغون نحو عشرة آلاف . وترى على جانبي الوادى أفخر المزارع والمغارس وجميع الأشجار المثمرة المجلوبة من افريقية الشرقية ، كذلك العرب أدخلوا فيها المواشى والحمير الفارهة للركوب » اه . قال فريتزفان درليدن : « أما اليوم فقد نزلت نيانقفه عن درجتها هذه ، بسبب ثورة سنة ١٨٩٣ ، و بمرض النوم أيضا ، ولم يبق فيها الا ألفا رجل . وتحولت تلك المخارف البديعة التى كانت مصطفة بها الأشجار على ضفتى النهر ، الى شعاب سطا عليها العوسج والشوك ، ولم يبق فى نيانقفه منزل يستحق الذكر ، سوى بيت بيانيسنغا Pianisengha

هـذا الزعيم العربى الذى بقى أمينا للحكومة البلجيكية ، وحظى بمقابلة الملك فى قصر بروكسل » .

ثم فى الصفحة ٢٧٤ من الكتاب ذكر المؤلف نهراً يتشعب من الكونغو ، ويمتد نحو ٣١٥ كيلو مترا بعرض يتفاوت من ٢٠٠٠ الى ٦٠٠ متر ، وقال ان على جانبيه القرى ، وان الأهالى هم من العرب والمستعربين ، والطرّاء من أماكن بعيدة . ووصف العرب بالنظافة والاتقان فى العمل ، وقال ان المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز واسعة . ثم أطرى هؤلاء الأهالى فى شدة انهماكهم بالتجارة .

وفى الصفحة ٢٩٠ ذكر قرية مستعربة مدحها بنظافتها ، وبين الفرق العظيم بينها وبين القرى الأخرى التى يسكنها غير المستعربين ، وشاهد فيها سوقاً مهمة تقام كل يوم من الصبح الى نحو الظهر فى ساحة القرية ، ووصف الدكاكين التى فيها ، معروضة أمامها أصناف البضائع ، وحوانيت الخياطين وباعة الخزف والخوص وغير ذلك ، وقال ان المستعربين رحبوا بهم ترحيباً ودعوهم الى منازلهم ، فعاجوا على معلم كتاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن .

وذكر ان سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم ألفى رجل . وقال انه سأل المسيو دومولستر المندوب العام فى الكونغو ،عن عدد المستعربين فى الولاية الشرقية من الكونغو فقال له : لا أقدر أن أجزم بشئ ، ولكننى أظن انهم نحو مائتى ألف . فقال له : أفلا تراهم خطراً دائماً على المستعمرة ؟ فأجابه : كلا . لأنهم متفرقون ، ولاننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة . ثم قال له :

« طالما اتهم هؤلاء العرب والمستعربون تهما باطلة ، فلا أنكر انه يجب علينا مراقبتهم واجبارهم على طاعة القوانين ، ولكن مما لا أنكره أيضا انهم عنصر جيد فى البلاد ، لأنهم قوامون على الزراعة ، مدنيون بطبعهم ، وعندهم ميل الى الجنس الأبيض ، ونحن كل سنة نشترى منهم فى جهات ستانليفيل وبونتيارفيل ولوكاندو وكيرندو ، مقدارا مهما من الأرز » . اهـ

سلطنة رابح

للأمير شكيب

معلوم انه كان رجل يقال له الزبير باشا حاكما من قبل الايالة المصرية على بلاد بحر الغزال من السودان ، فصرفته الحكومة المصرية من هناك برجل ايطالى الأصل ، اسمه غسى باشا ، واعتقلت الزبير باشا بمصر . فثار ابنه سليمان انتقاما لأبيه ، فانهزم وقتل ، وتفرق الجماعة الذين كانوا حوله وحول أبيه ، ومنهم عبد للزبير اسمه رابح ، انفرد بنفسه وتبعه كثير من الضباط الذين كانوا مع الزبير ، فحشد ثمانية بيارق كل بيرق ١٢٠ رجلا الى ١٣٠ رجلا مسلحا . و وقع ذلك سنة ١٨٧٩ فباشر رابح بهذه القوة غزواته الشهيرة ، ولقبه رهطه السلطان رابح وهذا كان مبدأ أمره .

وقد كتب كثير من الأوربيين على رابح هذا ، من جملتهم صديقنا البارون ماكس أو بنهايم الألمانى الذى هو من أشهر الرحالات الذين عرفوا الشرق وأهله ، فانه ألف كتابا اسمه Rabeh und Tchadgebiete أى ، « رابح و بلاد تشاد » ، جاء فيه بخبر هذا الرجل الأفاق على وجهه (١٩٠٢) وكذلك كتاب جنتيل Gentil المسمى « سقوط سلطنة رابح » المطبوع سنة ١٩٠٢ أيضا . وقد جاء ذكر رابح فى كتاب للدكتور دكورس Decorse طبيب الجنود فى المستعمرات الفرنسية ، والمسيو دومبين Demombynes أحد أساتذة مدرسة المستعمرات ، واسم هذا الكتاب « رابح وعرب الشارى » وألف المسيو دوجارى Dujarrie كتابا اسمه « حياة السلطان رابح » وغير ذلك .

وأول مابدأ رابح بالعمل كان فى « دار مانغا » اذ منها غزا غزوة فى دارفور ، ثم فى واداى ، ثم واصل غزواته فى باطن السودان ، وجعل مركزه فى بلاد شارى . ثم صعد فى نهر شارى الى ضفته الشمالية ، ثم نزل الى ضفته الجنوبية وأقام مدة ببلد « كوتى » وغزا بلاد « سومراى » ومازال من غزاة الى غزاة الى سنة ١٨٩٢ فأقام ببلدة « بوسو » على الشارى وجهز حملة على « الباقيرمى » ، فاستولى عليها . والتجأ سلطان الباقيرمى الى بلاد الشارى الأسفل ، ثم الى واداى (١٨٩٤) فوجه رابح حينئذ عزمه الى بورنو واستولى على

« كرناك لوغبون » فأرسل اليه سلطان بورنو قوة يقودها محمد طاهر وما لا كريم ، فهزمها رابح وزحف رابح قاصدا « كوكا » عاصمة بورنو بطريق « نقالة » فخرج هاشم سلطان بورنو لقتاله ، والتقيا فى أم « حبيس » فانكسر هاشم ودخل رابح « كوكا » ، وجعل عاليها سافلها ثم اعتصم ببلدة اسمها « ديكوا » فقام بسلطنة بورنو أبو خيارى عم السلطان هاشم ، وناوش رابحا القتال . ثم انبرى لمقاومة رابح زعيم دينى اسمه الشيخ أبو قنطور ، فصارت بينهما واقعة فى «غاجيبو» الى الشرق من ديكوا ، ومع هذا فبقى رابح سائدا ، وكان سلطان زيندر يدفع اتاوة لسلطان بورنو ، فلما استولى رابح على بورنوا أبى دفعها له ، فزحف فضل الله بن رابح الى سلطان زيندر المذكور وقاتله فلم يظفر منه بطائل .

وبينما الأمور متسقة لرابح وهو يفكر فى تأسيس سلطنة عظيمة اذ زحف اليه الفرنسيس الذين هالهم مستقبل أمره ، فقصدوا خضد شوكته قبل أن يستفحل شأنه ، ففى ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩ وصل الضابط بريتونه Bretonnet الى كونو ، فنهد اليه رابح بقوة صاعدا نهر شارى وما زال من بلد الى بلد حتى وصل الى كونو ، فلما علم الضابط الفرنسى بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية موافقة للدفاع من بلاد « نياليم » ، ولكن رابح استأصل تلك القوة الفرنسية بأسرها مع قوة « غاورانغ » سلطان الباقيرمى ، الذى كان حليفاً للفرنسيس ، وذلك فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وعاد رابح الى كونو فهاجمه الفرنسيس بقيادة جنتيل فى ٢٧ اكتوبر من السنة المذكورة ، فلم يقدروا على أخذ المدينة ، ولكنهم اضطروا رابحا الى اخلائها من نفسه . فانحاز رابح الى بلدة « ميلتو » ثم قصد « لوغون » من جهة بحر الرقيق وعاد الى ديكوا ، فلم يقم بها الا شهرا وذهب يحشد جنوده فى « كوسرى » .

فزحفت اليه معاً جنود البعثة الصحراوية ، و بعثة افريقية الوسطى ، و بعثة شارى ، تحت قيادة جولاند Jolland وما نييه Maynier وذلك فى ١٠ دسمبر سنة ١٨٩٩ ثم فى السنة التالية أردفا بقائدين آخرين ، فورو Foureau ولامى Lamy فجاء فضل الله بن رابح وناوش مانييه القتال ، وكانت قوة فضل الله ستمائة بندقية . ثم بلغه ان لامى استولى على كوسرى . فزحف الى كوسرى من الجنوب ثم اضطر ان أن يرجع الى لوغون . وجاء رابح بنفسه نخيم فى «لختة» ودارت رحى الحرب فانكسر رابح وقتل فى ٢٢ ابريل ، ولكن

رجاله قتلوا من الفرنسيس عدداً كبيرا ، منهم القائد لامى نفسه ، وقائد آخر اسمه «كوانته» .
و بلغ فضل الله خبر مقتل أبيه ، وهو فى لوغون ، فاخلى هذه المدينة قاصدا ديكوا التى كان فيها اخوه « نيابى » ، فقصده الفرنسيس الى ديكوا فخرج منها بدون قتال ، فتعقبه الفرنسيس بقوة أدركته فى ٢ مايو سنة ١٩٠٠ فى مكان يقال له «دغيمبه » فدحرته الى الجنوب فسار وا وراءه الى محل يقال له « ايشيغو ية » فلم يفوزوا منه بطائل ، ثم وقف فضل الله فى بلدة تسمى « برغامه » وأخذ يحشد جنوده مراقبا حوادث بورنو .

وكان سلطان بورنو « عمر ساندا » يكره الفرنسيس فعزله هؤلاء و ولوا مكانه اخاه « غرباى » فقصده فضل الله وتغلب عليه فى واقعة « نقاله » ففر الى جهة كانم . فاشتد عزم فضل الله وكشر عن ناب العداوة للفرنسيس و بعث الى قائد منهم اسمه «رو بيليو » يطالبه باسلاب أبيه التى أخذوها من كوسرى ، فأرسل رو بيليو الى فضل الله ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة فأمر فضل الله بقط رقابهم . فقصده رو بليو بجيشه وهزمه : فالتجأ فضل الله الى مستعمرة النيجر الانكليزية ثم رجع الى معسكره الأصلى فى « برغامه » وهناك دخل فى مفاوضات مع الانكليز وزاره الماجور « ماك كلينتوك » ، ثم بلغ فضل الله ان غرباى عاد الى بورنو واستوى على عرشها . فقصده وهزمه ودخل ديكوا . فزحف الكولونل الفرنسى دستناف الى ديكوا فوجد فضل الله قد برحها فأرسل فى أثره قوة دهمته فى « قوجبه» من أراضى المستعمرة الانكليزية فقتل فضل الله فى المعركة وتشتت الذين معه ، ودخلوا الى بلاد « كيردى » التى أهلها وثنيون فقاتلوهم بالسهام فاضطر نيابى بن رباح أن يستسلم الى الفرنسيس . وهكذا انتهت سلطنة رابح وأولاده بعد أن لمعت سيوفهم لمعانا هائلا فى باطن افريقية.

﴿ تابع للكلام على مملكة واداى ودارفور وباقيرمى
وبونو وغيرها من ممالك أواسط افريقية ﴾

لأمير شكيب

تقدم ما نقلناه عن تأسيس سلطنة واداى من رحلة الشريف بن عمر التونسى ، وقد اطلعنا على رحلة لرجل انكليزى محفوظة عند السادة السنوسية ولم يصرح فيها باسم المؤلف ، ففيها رواية ثانية وهى هذه ملخصة :

فى السنة العشرين بعد الألف أسقط عبد الكريم بن يامى حكومة « تينجر » الكافرة وأسس حكومة واداى . وابنه خاروط الذى خلفه أسس مدينة « وارا » وجعلها عاصمة للملكة المذكورة . وخلفه ابنه خريف الذى قتلته قبيلة « تاما » لثلاث سنين من ملكه . وخلف هذا أخوه الأصغر يعقوب عروس . وهذا هو الذى كان قاتل سلطان دارفور موسى ابن سليمان وسليمان هذا هو أول سلطان مسلم على دارفور . وقد دارت الدائرة على يعقوب سلطان واداى وخلفه ابنه خاروط الثانى الذى استمر ملكه أربعين سنة بالراحة والسعادة . ثم خلفه ابنه جوده الملقب بخريف التيمان ، والملقب أيضاً بمحمد صولاى الذى معناه محمد المنجى ، لأنه نجى واداى من نير دارفور فى مدة السلطان أبى القاسم سلطان دارفور وهذا هو المسلم السادس من سلاطين هذه المملكة . ثم ان محمد صولاى هذا استولى على كانم ، انتزعها من يد السلطان بورنو ، وتولى أربعين سنة . وخلفه ابنه صالح الملقب « بدرّة » ولم يكن محمود السيرة . وفى السنة الثامنة من حكمه ثار عليه ابنه عبد الكريم الملقب بصابون فقتل الوالد وتولى الولد وكانت حكومته أكثر حكمة من جميع الحكومات التى عرفتها واداى . فتقوت فى أيامه واداى وطوّعت الباقرمى وأراد أن يفتح طرقاً الى الشمال الى البحر الأبيض ، لكنه توفى سنة ١٢٣٠ تاركا ستة أولاد من الذكور لعشر سنوات من ملكه . ووقع اختلاف بين أولاد صابون وحروب ، انتهت بظفر حزب ولده يوسف . فهذا تولى ١٦ سنة بالظلم والقهر ثم قتل سنة ١٢٤٥ وخلفه ابنه راكب ، فمات بتلك السنة . وجلس على كرسى الملك

أحد أفراد البيت المالك واسمه عبد العزيز بن راداما ، فتولى نحو خمس سنوات ونصف سنة وتوفى ، فتولى ولده الصغير آدم فهذا بقى سنة واحدة ثم أخذ أسيراً الى دارفور بطلب محمد صالح أخى السلطان عبد الكريم صابون الذى استمد محمد فضل سلطان دارفور لاسترجاع ملكه . فجلس محمد صالح على كرسى واداى سنة ١٢٥٠ وأحسن السياسة ، وفى سنة ١٢٦١ هاجم مملكة بورنو فلم يفز بطائل ثم ثار محمد بن محمد صالح بابيه ونشبت حرب داخلية .

قال الرحالة الانجليزى : ولما برح الناقل باقرمى ، كان سمع أن الابن غلب أباه وجلس مكانه فليس فى هذه الرواية شئ من خبر انتساب سلاطين واداى الى بنى العباس .

وذكر هذا الرحالة فوائد كثيرة عن أواسط افريقية ، فلما كان فى سياحته هناك أى منذ ثمانين سنة ، كان جيش دارفور عشرة آلاف فارس ، وكان فى وسع واداى أن تجهز خمسة أو ستة آلاف من الخيالة ، وكانت مملكة الباقرمى تقدر أن تجند ثلاثة آلاف فارس ، هذا مع العرب الذين يقال لهم « شوا » و يقولون لهم « شيوا » .

قال : وعرب شيوا الذين فى باقرمى ، ينقسمون الى أولاد سلامه و بنى حسن وأولاد موسى وأولاد على وديغاغره

وذكر معلومات أخرى عن تأسيس ممالك دارفور والباقيرمى أو الباجيرمى ما آلها :

انه من السنة التسعمائة الى الألف للهجرة ، كانت أمة التينجر من الكفرة تملك جميع دارفور ووادى والباقيرمى ، ففى نحو السنة الألف غلب على دارفور الأمير المسمى كورد وأسس سلطنة دارفور وكان خلفه الثالث سليمان وهو أول من أسلم من ملوك دارفور . ثم فاز عبد الكريم ابن يامى بسلطنة واداى . وأسلمت سلطنة الباقيرمى بعد واداى بعشر سنوات ، وأول من ملكها من المسلمين السلطان عبد الله ، وخلفه ولده « وانجا » وخلف وانجا « لاونى » وفى مدة لاونى اضطرت الباقيرمى أن تدفع اتاوة لسلطنة بورنو . ثم ملك السلطان بوغوماندا فى الباقيرمى ، ثم الحاج محمد الأمين ، وكان ملكه حليفا للاقبال والمجد وخلفه ابنه عبد الرحمن فخار به عبد الكريم صابون سلطان واداى ، وقهره وقتله بطلب محمد الكانمى شيخ بورنو من عبد الكريم[1] ووضع عبد الكريم على تخت الباقيرمى ابن السلطان المقتول وهو عبد الرحمن وكان صغيراً . فجاءه أخوه الأكبر عثمان وسمل عينيه

---

(١) الرحالة التونسى يذكر أن سبب غزو عبد الكريم صابون للباقرمى ، هو سوء سيرة سلطان هذه البلاد وتماديه فى اتباع شهواته حتى انه تزوج باخته مع نهى علماء الدين له بأجمعهم

وجلس مكانه فعاد سلطان واداى الى الباقيرمى وحارب عثمان وهزمه وأعاد الى السلطنة أخاه الأعمى . ولما عاد عبد الكريم الى بلاده ، ظهر عثمان وغلب أخاه وأغرقه فى النهر وجلس محله ثانيـة . ثم ثار به الأهالى فخلعوه ، ونصبوا أخاً آخر له يسمى الحاج فالتجأ عثمان الى عدوه القديم سلطان واداى . فأعاده عبد الكريم الى ملكه ولكنه ضرب عليه اتاوة أعظم مما كانت تؤدى الباقيرمى الى بورنو . فلما رأى الشيخ سلطان بورنو أن الباقيرمى لا تريد أن تكون تحت سلطة بورنو ، استمد يوسف باشا والى طرابلس لقتال الباقيرمى ، فأرسل اليه أمير فزان مصطفى الأحمر ومعه قوة سنة ١٢٣٣ ، ثم فى سنة ١٢٤٠ كانت حرب انفالا الثانية ولم يوفق سلطان بورنو لتدويخ الباقيرمى . ومات عثمان سنة ١٢٦٠ وخلفه ابنه عبد القادر الذى كان هو الجالس على عرش باقيرمى يوم حرر ذلك السائح رحلته وقال ان سكان باقيرمى يومئذ كانوا مليوناً ونصف مليون نسمة .

وذكر سياحته الى مملكة « لوغون » ومقابلته لسلطانها ، ولكن بدون أن يشاهده وجهاً لوجه بل كان السلطان قاعداً وراء ستر من الحصير ، وكان يترجم بينهما ضابط بورنوى ، اسمه « كاشلا معدى » كان ذهب الى هناك لقبض الاتاوة السنوية التى تدفعها لوغون الى بورنو . ويقال لسلطان لوغون « ميّارا » (بتشديد الياء) فعرض السائح الانكليزى السلطان المذكور ان الدولة الانكليزية كانت أرسلت ضابطا معتمداً من قبلها وهو المسمى بالرئيس خليل ، لاجل تقديم التحية لوالده « ميارا صالح » ، وهى الآن مرسلته هو لاجل تقديم التحية لسعادته السلطانية . فسر السلطان بذلك وكان اسم هذا السلطان ميارا يوسف . وكانت مملكته تدفع اتاوة لبورنو وللباقيرمى معا . ويقول السائح الانكليزى ان مملكة لوغون كانت جديدة ولم يكن مضى على دخولها فى الاسلام أكثر من ستين سنة ، يوم جاءها السائح . وقال ان فيها قبائل من العرب وذكر انه فارق مدينة قارناق لوغون عاصمة لوغون قاصداً الباقيرمى ، وبعد أن ذكر تفاصيل كثيرة عن أحوال تلك البلدان ، وصناعتها وزراعتها وغاباتها وأنهارها ، ومن عرف من رجالها ، ذكر رجلا اسمه الحاج أبو بكر صادق من أهل الباقيرمى كان يحسن العربية ، أنه سهل له أموره وساعده فى شدائد كثيرة عرضت له ، وفى دخول « ماضه » عاصمة الباقيرمى . وكان سلطان الباقيرمى يوم وصول السائح غائبا فتعرف فيها بثلاثة رجال أحدهم الحاج أحمد ، أصله من البامباره

على ساحل البحر المحيط ، كان يتجر بين تنبكتو والتوات ثم قصد المدينة المنورة ، ومنها جاء الى بر الشام وحضر حصار ابراهيم باشا ابن محمد على لعكا ، ثم ذهب الى بغداد والبصرة وأخيراً عاد الى المدينة المنورة ، وكان مجيئه الى الباقيرمى لاجل أخذ عبيد لخدمة الحرم النبوى . والثانى هو المسمى بالفقيه سامبو من الفلاتّه ، كان مكفوفا ، لكنه فى غاية النباهة ، قرأ فى الازهر وتبحر فى الادب والفلسفة ، وكان قصد مدينة زبيد فى اليمن لدرس الحساب والجبر لاشتهار زبيد بهذه العلوم ، لحال دون وصوله الى زبيد ما كان من حروب الوهابية ، فجاء الى دارفور ومنها الى واداى ، واتصل بسلطانها عبد العزيز ، ثم بعد موت هذا السلطان تحول الى الباقيرمى . قال السائح الانكليزى ان فقيه سامبو كان يروى تاريخ الخلافة ، ويحدث عن عظمتها من بغداد الى الاندلس ، ويعرف ذلك حق المعرفة . وأما الثالث ، فكان رجلا مصريا اسمه سليمان هو فى غاية التهذيب ، وقد عرف استانبول ومكة وغيرهما من البلدان . قال وأثناء اقامته بماضة احتبس المطر طويلا ، فتطير به الاهالى وقالوا ان قدوم هذا السائح الانكليزى هو السبب فى امتناع الغيث فقال لهم : ان هذا عيب عليكم لانكم مسلمون ولا يجوز أن تكون لكم أفكار عبدة الاصنام . فقال له أحد رجال تلك الدولة : نعلم انه لا يحتبس المطر بسبب أحد ولكن نرغب اليك أن تشترك أنت مع الاهالى فى الدعاء بنزول الغيث . ثم وردت الى السائح كتب من الحكومة الانكليزية تشكره فيها على عمله ، ومن سلطان بورنو يلتمس منه الرجوع اليه . فوقعت هذه الكتب فى أيدى رجال الحكومة الباقيرمية ، فحصلت لهم فيه شبهة وأرادوا أن يعتقلوه ، وطلبوا منه كتاب الرحلة الذى كان يحرره ، وأحيلت هذه الكتب والرحلة الى جماعة العلماء الذين هناك ومنهم الفقيه سامبو ، فبعد البحث فيها قالوا للحكومة ليس فى هذه المكاتبات شئ يوجب الحذر ، وهذا الرجل انما غايته العلم والاطلاع . وبعد ذلك امكنت السائح مقابلة السلطان عبد القادر الباقيرمى ، فقال للسلطان : ان الدولة الانكليزية هى متفقة مع سلطان استامبول ! ومن هنا يظهر انه طالما تقرب الانكليز الى ملوك الاسلام ، حتى فى السودان ، بدعوى الاتفاق مع سلطان استانبول ....

شرقى افريقية

الأمير شكيب

من البلاد الاسلامية المعدودة فى افريقية ، بلاد سواحل زنجبار والصومال والغالة Gallas والقسم الاسلامى من الحبشة . ولما كان هدفنا الذى نرمى اليه فى هذه التعليقات ليس التعريف بجميع بلدان الاسلام وشؤون الاسلام ، بل التعريف بما نأى من البلاد وغمض من الشؤون وخفى من الأخبار ، مع ترك الحقائق المشهورة والتواريخ التى يعرفها الخاص والعام ، رأينا أن نقول كلمة عن هذه البلاد .

لا يخفى أن سياسة « المناطق » هى الصفحة الأولى من الاستعمار ، ولا يوجد شىء أشد خطراً على الممالك المستقلة من تعيين الدول العظام « المناطق » التى يتفقن على اعطائها لكل منهن ، فقد تكون أعدى من الجذام ، وقد تجر الى الحروب العظام . وما أخذت فرنسا مراكش الا مقابلة لأخذ انكلترة مصر ، وما دخلت ايطالية طرابلس الا مقابلة لأخذ تينك الدولتين مراكش ومصرا . وما شبت حرب البلقان الا على أثر الغارة الايطالية على طرابلس وذلك أن دول البلقان الصغيرة لما رأت ايطالية قد استباحت حمى الدولة العثمانية بدون أدنى تحرج ، وخلافاً للمعاهدات الدولية ، أباحت هى لنفسها ما أباحه غيرها لنفسه ، فكانت الحرب البلقانية التى هى بلا مراء أم الحرب العامة . فأنت ترى ما ولده جشع الدول الكبرى وما نشأ عن تقسيمات فرنسا وانكلترة فى افريقية بموجب عقد سنة ١٩٠٢ ، ولنذكر لك الآن خلاصة استيلاء الألمان على مستعمرة شرقى افريقية ، وقضاءهم على سلطنة تلك البلاد التى كانت للعرب فنقول :

كان بسمارك يكره الاستعمار ويذهب الى كون ألمانيا يجب أن تكتفى باستثمار داخل بلادها ، وتمضى فى طريق ترقيها الصناعى الذى فاقت فيه جميع الأمم ، وكان يتجنب مشكلات الاستعمار التى هى مفاتيح للحروب والمصائب ، ولكن جميع الألمان الذين كانوا يسيحون فى البلدان الشرقية ، ويرون أعلام فرنسا وانكلترة وهولاندة خافقة على بلاد

السود والحمر والصفر ، لم يكونوا يرون رأى بسمارك ، بل كانت تأخذهم الغـيرة من تبسط هاتيك الدول وراء البحار مع انكماش ألمانيا فى داخل بلادها . مع أنه كما قال الشاعر :

فلا كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس فى مجمع

ثم لما اتسعت تجارة ألمانيا وارتقت صناعتها هـذا الارتقاء الهائل ، لم تشأ الشركات الألمانية أن تبقى فى استجلاب المواد الخام عالة على تجار الممالك الأخر ، بل أحبت أن تكون لها مستعمرات هى أيضاً تأخذ منها ما تحتاج اليه رأساً ، وما زال الألمان ببسمارك حتى أنزلوه الى ميدان الاستعمار .

وأول شركة تجارية ألمانية حاولت التملك فى افريقية هى شركة فرمن Wöermann النقالية ، كانت لها مصالح عظيمة فى سواحل افريقية الغربيـة ، فأرادت عام ١٨٨٢ أن تملك لنفسها مرسى على تلك السواحل ، وسـنة ١٨٨٣ أبلغ سفير ألمانية فى لندن حكومة بريطانيـة العظمى ، ان الأراضى التى لا يكون عليها دعوى من انكلترة أو دولة أخرى ، تحفظ ألمانية لنفسها حق وضع اليد عليها . وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٤ أبلغت ألمانية انكلترة أن الأراضى التى تملكها الألمـان داخل مرسى « انغرابكينا » وشمالى نهر الاورانج بموجب صكوك بينهم و بين بعض زعماء الهوتنتوه هذه ، قد صارت تحت الحماية الألمانية . وأبدت حكومة مستعمرة الـكاب معارضة لهـذا التملك الألمـانى فى تلك الناحية ، فأرسل بسمارك بارجتين حربيتين سامتا الالمان هاتيك الأراضى بالقوة .

وفى تلك الاثناء كانت فرنسا قد اتفقت مع انـكلترة على اقتسام البلدان الواقعـة شمالى سيراليون ، وانـكلترة اتفقت مع البرتغال على اقتسام مستعمرات جنوبى افريقية ، فاشتدت حركة الغيرة فى المانية ، وسنة ١٨٨٣ اشترت شركة فرمن السالفة الذكر أرض مالنبا Malinba فى الـكامرون ، وسنة ١٨٨٤ التمس بعض زعماء بلاد توغو باغراء تجار الالمان حماية الامبراطورية الالمانية ، ومنذ ذلك الوقت تأسست مستعمرة الـكامرون واضطرت انـكلترة وفرنسا ان تحددا حـدود مستعمراتهما بينها و بين المانيـة ، التى صارت مالـكة الـكامرون والتوغو ، وتم ذلك سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٦ .

ولم يقتصر الالمان على منافسة الانـكليز والفرنسيس فى غربى افريقيـة بل تبسطوا فى شرقى هذه القارة ، فاشترت « شركة الاستعمار الالمانى » سنة ١٨٨٤ أراضى واسعة فى

بلاد فيتو Witu ، واتفقت مع سلطان فيتو على أن يعترف بحمايتها للاراضى المذكورة . فاحتج سلطان زنجبار على عمل سلطان فيتو وزعم أنه لا يملك حق النزول للالمان عن شي ، وسرح جنودا الى هاتيك الارجاء لحفظ حقوق سيادته عليها . وكان سلطان زنجبار يدعى حق السلطنة على جميع البلاد الممتدة من رأس دلغادو Cap Delgado جنوبا ، الى فارشيخ Warscheich شمالا ، والتى تمتد من البحر الى البحيرات الكبر فى داخل القارة .

فالالمان نالوا من الانكليز الاعتراف بصحة عملهم ، فى اتفاق مؤرخ فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ وفى ٧ أغسطس من تلك السنة جاءت خمس بوارج حربية المانية ، وهددت سلطان زنجبار فى عاصمته بجزيرة زنزيبار . فانتهى الخلاف بعقد معاهدة بين السلطان والالمان ، على أن تعفى من المكوس جميع البضائع والمتاجر المشحونة الى بلاد الالمان ، وجعلت فرضة دار السلام على الساحل الافريقى فى يد المانية . وتأسست مستعمرة شرقى افريقية الالمانية ، وتعينت لجنة المانية مختلطة بانكليز وفرنسيس لتحديد حدود هذه المستعمرة .

وسنة ١٨٨٦ تم تعيين الحدود ، فخرج فى نصيب سلطان زنجبار جزر زنزيبار وبمبا ولامسه Lamce ومافيا Mafia ، وعشرة أميال بحرية من العرض على طول سيف البحر الممتد من مصب نهر الميذيغانى فى جون زونغى Zunghi الى كيبينى Kipini ، مع بلاد كيسماجو K sma u وبارافا Barawa ومركا Merka ومقديشو Makdischu وفارشيخ . وتعين لسلطان فيتو البلاد التى تمتد من كيبينى الى شمالى جون ماندا Manda .

وكان حد المستعمرة الألمانية من الجنوب نهر رفوما Rovuma ومن الشمال خط يمتد من مصب نهر الفانغا Wanga الى بحيرة جيب Jipe ومن هناك فى وسط أراضى زافتا Zaveta ودشاقا Dechagga تابعاً المصب الشرقى من « الكلمانجارو » حتى بحيرة فكتوريا نيانزا وتعهدت المانية بان لا تمتد شمالى هذا الخط ، وانكلترة بان لا تمتد جنوبيه وأما البلاد التى فى الشمال الى زانا Zana ومنها الى معارضة الدرجة ١ من العرض الشمالى مع الدرجة ٣٧ من الطول الشرقى ، فجعلت منطقة نفوذ انكليزية . واتفقت دولتا انكلترة والمانية على اقناع سلطان زنجبار بقبول معاهدة الكونغو ، كما ان المانية رضيت بامضاء الاتفاق الانكليزى الفرنسى ، المتعلق بتمام استقلال زنزيبار . وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦

امضى سلطان زنزيبار هذا الاتفاق الذى امضته فرنسا أيضا . وفى ١٠ ديسمبر رضيت البرتقال أن يكون نهر روفوما حداً بينها و بين المستعمرة الالمانية ولكن الالمان اتبعوا خطة غيرهم فى التوسيع ، فاضطرت انكلترة ان تذكر المانية بكون معاهدة سنة ١٨٦٢ الانكليزية الفرنسية تضمن استقلال سلطنة زنزيبار ليس الجزر فقط ، بل السواحل التى تقابلها . فادعت المانية أن كلا من سلطان زنزيبار وسلطان فيتو عاجز عن توطيد الامن والنظام فى أرضه ، وأرادت ارسال حملة عسكرية بحجة الغاء الرقيق وتنظيم البلاد . ولما كان بسمارك بدهائه لا يريد ايجاد معضلة سياسية بينه و بين دولة عظيمة كانكلترة لاجل مستعمرة ، فقد اختار طريقة اخرى وهو ان يشترى سكوت انكلترة ببعض المسامحات ، فاعترف فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٩ بان المانيا تعتبر الاوغانده ووادلاى والاراضى الواقعة شمالى الدرجة الواحدة من العرض الجنوبى ، خارجة عن دائرة العمل الالمانى .

وفى مدة كاپريفى عقدت المانية مع انكلتره اتفاقا تنزل فيه هذه عن جزيرة هليجولاند التى فى البحر الشمالى ، بمقابلة تخلى المانية لانكلترة عن حماية سلطنة فيتو وساحل الصومالى ، وصار لانكلترة بموجب هذا الاتفاق حق السيطرة على ساطنة زنزيبار . مع جزر بمبا والاراضى التابعة لفيتو ، وأنزل سلطان زنزيبار لالمانية عن جزيرة مافيا وما يقابلها . وذهبت سلطنة فيتو باستيلاء انكلترة عليها ، وهكذا تمزقت هذه السلطنة العربية كل ممزق باتفاق انكلترة مع المانية ، وهو الذى نقضت بموجبه جميع هاتيك العهود السالفة . وكان ينبغى للعرب الذين اغتروا بمواعيد انكلترة لهم فى أثناء الحرب العامة ، أن يطالعوا على ما جريات هذه الدولة ومعاهداتها مع عرب آخرين مثلهم ، فربما كان لهم بذلك عبرة يعتبرون بها ...

ولم تقبل فرنسا ان تصدق هذه المواطآت الانجليزية الالمانية الا ببدل ، هو اعتراف انكلترة بحماية فرنسا لماداغسكر .

وتبلغ مساحة المستعمرة الالمانية المسماة بمستعمرة شرقى افريقية ، ٩٩٥٠٠٠ كيلو متر وعدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة وأحد عشر الف نسمة ، من أصلها ثلاثة ملايين من أمم البانتو والواميهى والمافيتى والفاهوما والمأسايى . وهم سكان البلاد الأصليون ، ومن بقى فهم جنس اسمه السواحلى ، متولد من اختلاط العرب والزنوج ، فهؤلاء يبلغون ثلاثة

ملايين ونصف مليون هذا بحسب تقويم المسيو براديه Prader ناموس مجلس الأمة الفرنسى فى كتابه المسمى « بالمستعمرات الألمانية وقيمتها » المطبوع فى سنة ١٩١٩ ، ويقول المؤلف المذكور ان فى هذه المستعمرة خمسة آلاف عربى . ونحو عشرة آلاف هندى ، ونحو ٥٣٠٠ أوربى أكثرهم ألمان . وهذه البلاد من أوفر بلاد الله محاصيل وغلات ، وفيها معادن كثيرة ، وقبل الحرب بقليل صدر منها الى ألمانية ١٢ ألف بالة قطن ، ونصف مليون كيلو من البن ، وأطال الكتاب .

وقد ورد فى كتاب « السلطنة الاستعمارية الالمانية » ما يأتى ملخصا :

« ان البرتقاليين لما جاءوا الى هذه البلاد فى أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوا فيها كثيرا من التجار الهنود والصينيين ، ولكن هؤلاء لم يتركوا أدنى أثر من مدنيتهم بين الأهالى السود حتى ان مايوجد من الخزف الصينى بهذه البلاد انما وجد بواسطة العرب والفرس .

يقول المؤرخ بطوليموس ان العرب فى النصف الثانى من القرن الأول للمسيح ، كانوا بدأوا يتجرون مع شرقى افريقية بالعاج والعبيد ويصلون الى حدود الموزامبيق . أما بعد ظهور الاسلام فازدادت هذه التجارة فى شرقى افريقية ازدياداً عظيما حتى انقلبت فى نحو القرن الثامن للمسيح استعماراً حقيقياً . وتأسست فى أوائل القرن العاشر «مغدشو» و « بارا كا » وفى السنة ٩٧٥ جاء فرس من شيراز وأسسوا « كيلفا » ، وتوغلوا فى السواحل الى « رودسيا » طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقى ووصلوا الى مغدشو وباراكا وماليندى ومونباسه وتونغونى وزنزيبار وبمبا عند دار السلام الحالية ومافيا وغيرها . ووجدت امارات فارسية صغيرة بين الامارات العربية . ولما ورد البرتقاليون تلك البلاد ، وجدوا فيها المدنية الاسلامية مؤسسة مؤثلة . ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة فى أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس ، مثل المانغو والرمان والاترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندى والبهارات الهندية والأرز واتوا بكثير من حيوانات بلدانهم . وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة فى هذه السواحل ، لكنها فى القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل . على أن البرتقال ، كانوا قد

وضعوا حداً للدور الأول من مدنية العرب عند ما احتلوا زنزيبار سنة ١٥٠٣ ، وبارا كا سنة ١٥٠٤ وكليفا سنة ١٥٠٥ ، ومونباسه فى السنة نفسها . وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند ، ووضع اليد على معادن الذهب فى « سوفالا » وبقى البرتقال هم السادة فى تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر اذ قاتلهم عرب عمان قتالا شديداً ، بدأوا به فى ساحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠ ، فلما جلوهم من هناك ، هاجوهم فى مستعمراتهم بالهند وفى شرقى افريقية ، وفتحوا زنزيبار ومافيا وبمبا ومونباسه فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . ثم ان حروبا داخلية فى عمان حملت السلطان سعيداً على تحويل كرسيه الى زنزيبار ، ثم صار ماجد سلطاناً لشرقى افريقية ، وبقى السلطان توينى على كرسى مسقط . وهذا فى نحو سنة ١٨٥٦ ، ثم توفى ماجد وخلفه أخوه برغش . وفى أيام هذا السلطان بدأت الحوادث ، التى انتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية . وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية ، التى استمرت من آخر القرن السابع عشر الى آخر القرن التاسع عشر ، قد تمكنت من التوغل فى داخل افريقية أكثر من جميع الدول التى قبلها ولم يكن السبب فى ذلك هو التجارة فحسب ، بل الزراعة التى كان العرب يستجلبون لها العملة من داخل البلاد . وازدادت تجارة الرقيق بازدياد الغراس ونمو الزراعة فى السواحل ، وأسس العرب فى البلاد الداخلية فى قسم انجامفيزى Unjamwesi المدينة المسماة « طابوره » و « اودجيدشى » وغيرهما ، ووصلوا الى الكونغو الأعلى وأسسوا فيها مدنا وقرى ، وكانت لهم هناك جنود مسلحة لحماية قوافلهم ولا جرم أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الزنجية السوداء . ولما ألغيت تجارة الرقيق فى زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣ ساءت حالة الزراعة فى السواحل وتقهقرت البلاد الى الوراء بسبب ندورة العملة . اه .

ثم ذكر مؤلفو كتاب « السلطنة الاستعمارية الألمانية » تاريخ بسط انكلترة وألمانية حمايتهما على سلطنة زنجبار وملحقاتها مما لا يخرج عما تقدم ، ولكنهم قالوا : انه فى ٨ ابريل سنة ١٨٨٨ استاجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الزنوج ثورة عظيمة لاسيما مع كراهيتهم من قبل للجنس الأوربى ، وكان مقدام هذه الثورة الشيخ أبو شيرى

وسنة ١٨٩٠ فى الثلاثين من يناير (كانون الثانى) أصدر المجلس الألمانى (الرايستاغ) قراراً بتجنيد جيش من السود واخماد نار الثورة ، وعين الهرفيزمان قائداً عسكريا وواليا ، وكانت حرب شديدة صعبة المراس ، لأنه كان لا بد من ايجاد كل شئ من العدم ، ولكن هذا الجيش بمساعدة الأسطول تمكن من فتح البلاد .

ثم جاء فى هذا الكتاب ذكر أهالى البلاد ، فقيل انهم عرب وعجم وهنود وكومور وزنوج والأمة التى يقال لها السواحليون ، وهم من أصل يقال له فانقفانا Wangvana اختلطوا مع العرب من ألف سنة ، واختلطوا مع السود سكان الداخل ومع سائر الأجناس حتى الأجناس البيضاء . وهم يزعمون كونهم من أصل شيرازى ، وصورهم جميلة ، وتقاطيعهم لطيفة ، وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم و يغتسلون دائماً ولا يستعملون الوشم مثل ازنوج و يختتنون لأنهم مسلمون . ومن عادتهم لبس البياض ، و يجعلون على رؤسهم كمة بيضاء ان لم يلبسوا الطربوش الأحمر . ولكنهم الى اليوم لايلبسون البنطلون . ونساؤهم لا يتنقبن ، ولكنهنّ يأتزرن بشئ اسمه (الشقة) يغطى الجسم ويجعلون على الاكتاف شيئاً اسمه (كسونو) وهم اجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى ، لا يشبهون فى شئ سكان الداخل من الزنوج ، بل عندهم أدب وكياسة ، ومن صفاتهم حسن المعاشرة ، وقرب الألفة ، وسرعة العاطفة والبر بالاهل والحنو على الأولاد ويحبون السكنى بعضهم بقرب بعض ، ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التى بين بيوتهم نظيفة ، و يبنون بيوتهم صفوفا و يغرسون أمامها صفوفا من الأشجار الكبيرة مثل الكوكو والتامار يند ، وأينما وجد السواحلى اعتنى بغرس الشجر . وأكثر شغل الحقول يقوم به نساؤهم وأما الرجال فيصطادون السمك أو يتجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال . و بالاجمال فلا تعد هذه الأمة بين الأمم الموصوفة بالشجاعة ، لكن بين الأمم الموصوفة بالوداعة . و يقال ان عندهم شيئاً من الكذب والكسل ، وان عندهم ميلا عظيما الى الطرب ، يحبون الزفن والغناء ، و يعزفون بالطبول والطنابير ، و يقضون أوقاتهم بالسرور . ولغة السواحليين أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً يقال لها «كيسواحلى» Kistaheli وأنقى هذه اللغة ما يتكلم به فى بلد (لامو) و يسمى (كينغوزى) وهو بمقام لغة ثقيف أو سعد بن بكر فى العربية . وأردأ السواحلى ما يتكلمون به فى جزيرة زنزيبار ، لأنه خليط من العربى والفارسى والاوردو

والانكليزى والبرتغالى، و بعد الاحتلال الألمانى دخل فيه الألمانى أيضا . وليس للغة السواحلية كتابة ولا آداب وكانوا يكتبون بالحروف العربيـة ، وصاروا اليوم يكتبون كثيراً بالالمانى والانكليزى ، واللغة المذكورة غنية بالكلمات الدالة على العواطف والمعانى المجردة . ويوجد فى لغتهم خاصة لاتوجد فى غيرها ، وهى ان بعض الكلمات يتغير معناها بتغير كيفية لفظها كأن تمد الحرف أو تقصره أو ترفع صوتك عند اللفظ أو تخفضه .

أما شعب جزائر الكومور أو القمر فاسمهم (انغاسيغا) أجسامهم حسنة التركيب وعقولهم جيـدة ، ولكن أخلاقهم غير جيـدة ، و بسبب لباقتهم وذكائهم يستخدمهم الأوربيون فى البيوت حشما وفى السفن نواتية .

أما السوماليون فكانوا يأتون الى هـذه السواحل للتجارة ثم استقروا بها ، وهم طوال القامات مع دقة فى العضلات .

وأما العربى العمانى النبيل ، فقـد بدأ يقل وجوده هناك (ويالالأسف) ! وكانت له هيئة جميلة جدا فى زنزيبار وتلك السواحل ، وكانت على العربى سيماء الشرف والسراوة ، حتى الى مابعـد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسى والتجارى . فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم والعبيد ولايعملون بأيديهم . وهم يناظرون الهنود فى التجارة . وكانت منهم بيوتات غنية كثيرة ، هوت فى الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب فى تلك البلاد هم أشراف البـلاد ، لايشتغلون بأيديهم أينما وجـدوا . ويرتدون ملابس بهية منها مايسمونه القفطان ، جوخ أسود مطرز مفتوح من الأمام تحته قميص أبيض طويل يسمى كانزو ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجراً محلى بالفضة ، وهم طوال القامات ، رشاق القدود ، سمر الألوان ظاهرو الرصانة تجد حركاتهم كلها موزونة بدون تملق بل بشئ من الانقباض

ويوجد صنف آخر من العرب اسمه « شحرى » نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهـذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود فى التجارة .

وفى سواحل زنجبار أناس من البلوج ، وهم فقراء ، قليلو العدد . وأناس من الفرس الباقين على عبادة النار ، يعرف الانسان بمجرد رؤيتهم انهم من الجنس الآرى ، ويلبسون

مثل الأور بيين تقريبا ، ويجعلون على رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل وهم تجار ، ومنهم محامون صغار لدى المحاكم

وأكثر الغرباء فى تلك السواحل هم الهنود ، وهم قسمان المسلمون والوثنيون ، فالمسلمون أكثرهم من طائفة « الخوجه » (قسم من الاسماعيلية) وهم تجار وصناع ، منهم صاغة ، ومنهم خياطون وحذاءون وقصارون ، ومتى أثرى الخوجه عاد الى وطنه . وأما الوثنيون فبراهمة وبوذيون ، وكلهم يتعممون كالعرب لكن بعمائم مطرزة بالقصب ، ويستحضرون نساءهم الى تلك البلاد ، وهن جميلات يتحلين بالجواهر الكريمة ، ولكن داخل منازلهم قذر لايعرفون النظافة ، حتى ان الشوارع التى أمام منازلهم تغلب عليها القذارة . ومن الهنود صنف اسمهم البنجان ، ضعفاء لايأكلون لحوم الحيوان ، ولا طعام لهم الا من النباتات ، ولا يقدرون أن يقربوا سائر الأمم ، ولا يأتون بعائلاتهم من الهند . وبالاختصار فانهم مثقلون تحت التكاليف الدينية ، ومنذ مدة بدأ الهنود يدخلون الى الداخل ويوغلون فى البلاد ، فازداد عددهم فى « موروغورو » و « كيلوسا » و « ايرنيغا » و « طابوره » و « موانزه » و « بوكوبا » واجتمع منهم طراء كثيرون .

وهناك صنف اسمهم « الغوانزه » نسبة الى « غوا » بلدة من الهند تولاها البرتقاليون مدة طويلة ، فاختلطوا بالأهالى وتناسلوا وجاء منهم هذا الصنف ، ويسمون أنفسهم بأسماء برتقالية مثل « دوسيلفا » و « دوسوزا » وما أشبه ذلك ، وهم يشتغلون بالتجارة والخياطة والطبخ وخدمة الفنادق .

وفى تلك السواحل عدة آلاف من الألمان ، ثم عدة مئات من الانكليز ، ثم جماعات من الهولانديين والنمسويين والسويسريين والطليان ، وهناك أروام وسوريون ويقال لهم « الاوربيون المتوحشون » وهؤلاء يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وبأيديهم الفنادق ، وهم فى غاية الجد والنشاط وقد تملكوا الأملاك ، ففى الثلاثمائة رجل منهم ١٥ رجلا متملكون . اه ملخصاً وقد آلت مستعمرة شرقى افريقية الألمانية الى مستعمرات انكلترة بموجب معاهدة فرسايل .

مسلمو الحبشة

للأمير شكيب

أما الحبشة فبلاد من شرقى افريقيــة يحدها من الشمال النوبة والبحر الأحمر ومن الشرق بلاد الدناقيل والصومال ومن الجنوب بلاد الغاله ومن الغرب السودان المصرى وهى بلاد جبلية مرتفعة متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وفيها قنن يبلغ عــلوها نحو ٤٦٠٠ متر كالتى فى جبل « أبا » فى الشمال وأخرى يبلغ عــلوها ٤١٢٠ كالتى فى جبل « غونة » فى الجنوب ويوجــد الثلج على قنن الجبــال المتناهيــة فى العلو صيفاً شتاء . وأما الهواء فهو حار فى القسم الأدنى الذى هو دون ارتفاع ١٥٠٠ متر ومعتــدل فى الأماكن الــتى ارتفاعها يقع بين ١٥٠٠ متر و ٢٧٠٠ مــتر وبارد فيما هو أعلى من ذلك . وفى أراضيها الحديد والذهب والصفر وفيهــا زراعات متنوعة ولــكن اعتماد أهلها على المواشى . وفى جنوبى الحبشة بحيرة « تانا » التى يخرج منها بحر الأزرق والى الشمال من هناك يخرج نهر العطبرة الذى مصبه فى النيل ومارب الذى لا ينفذ من صحارى بلاد النوبة . والأحبــاش أجناس مختلفة منها من السلالة السامية ومنها من البهل ومنها من الزنج وهم يفترقون عن الجنس الزنجى بالرغم من شدة سوادهم . وبين اللغة العربية واللغــة الحبشية تشابه يثبت كون اللغة الحبشية هى من اللغات الساميــة . وبلاد الحبشة ثلاثة أقسام ففى الشمال بلاد « التيغرى أو التيجرى » ومدنها عدة واكسوم . وفى الوسط « الآمباره » وعاصمتها غندار وفى الجنوب « الشوا » ومدينتها آنكوبر . والى ولاية الشوا هذه أضيفت بلاد هرر التى أخذها الأحباش من يد أمرائها المسلمين سنة ١٨٨٧ .

وبلاد الحبشة من قديم الزمان هى فى منازعات وحروب دائمة منها ما هو بين الأحباش النصارى والأحباش المسلمين ومنها ما هو بين رؤوس الأحباش بعضهم مع بعض . وفى سنة ١٨٥٥ تنزّى على عرش الحبشة قائد اسمه كاساى بعد أن قهر جميع اقرانه وتتوج ملكا لملوك الحبشة باسم تيودوروس الثالث الا أنه خاشن فى معاملته دولة انــكلترة فساقت عليــه حملة قهرته فانتحر سنة ١٨٦٨ فخلفه فى السلطنة أمير التيغرى وتلقب يوحنا . وحصلت

بينه و بين المصريين حرب كانت الطائلة له فيها آخر مرة فكف الخديوى اسماعيل عن قتاله . ثم خلفه نجاشى آخر اسمه يوحنا فى أيامه دبت دولة ايطاليـة الى هنـاك تبغى الاستعمار فصادمها بقوة الا ان السودانيين جماعة المهدى تغلبوا عليه وقتلوه . فخلفه منليك ملك شوا وصالح الطليان وامتد هؤلاء فى الاريتره وأطراف التيغرى لولا أن الخلاف وقع بينهم سنة ١٨٩٥ فانتهى بواقعة « عدوه » الشهيرة التى انهزم فيها الطليان هزيمة شنيعة عدلوا من بعدها عن استعمار الحبشة واكتفوا بالأريتره .

أما عدد أهالى الحبشة فجغرافيـات الاور بيين تحصيه خمسة ملايين . وهو من باب المتابعة والتقليد لأقوال قديمة العهد اذ مما لاشك فيه أن الحبشة اليوم فيها أكثر من ثمانية ملايين وقد ورد فى جريدة الطان (عددها المؤرخ فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٤) فصل عقدته بمناسبة الرأس تافارى كافل ملك الحبشة لهذا العهد وزيارته لباريز جاء فيه مايأتى :

« ان الحبشة مساحتها نحو ٦٠٠ الف كيلو متر مربع وأهلها نحو ٧ ملايين الى ٨ ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نصارى (على مذهب الكنيسة القبطية) وثلاثة ملايين مسلمون داخلا فى هذا العدد البلاد الاسلامية التى أطاعت مؤخرا . ومليون ونصف مليون وثنيون ونصف مليون يهود و بعض كاثوليك و برتستانت .

« ان البلاد الواقعة فى شرق افريقية المسماة بالحبشة هى أشبه بقلعة طبيعية كبرى شوامخها مطلة على سيف البحر الأحمر و بلاد الصومال الفرنسى والصومال الانكليزى والاريتره الايطالية وأرض النوبة والسودان المصرى ، ولا يدخل الى هذه القلعة الا من منافذ ضيقة تحميها قبائل عاتية .

« أما ملك الحبشة الحديثة فينتهى الى زعيم وصل بغزواته وحروبه الى أن أخذ تاج الحبشة وتلقب بتيودروس الثالث ثم غلبه الانكليز سنة ١٨٦٨ فانتحر فى مغدلة وخلفه أمير آخر تنزى على الملك وتلقب بالنجاشى الأكبر أى ملك ملوك الحبشة . واسمه يوهانس وكان فى زمانه حاكم ولاية شوا واسمه (ساهالا ماريم) قد حارب يوهانس هذا وعانده ثم صاهره وانتهى الأمر بأنه خلفه على العرش باسم منليك الثانى وذلك لأنه ادعى كونه من ذرية سليمان بن داود الذى عشق الملكة سبا وجاءه منها ولد اسمه منليك كان هو النجاشى الأول . ولأجل توطيد وشائج الملك أعطى منليك ابنته (زاوديتو) الى ابن يوهانس فمات

هذا بدون ذرية ولم يكن لمنليك أولاد ذكور وانما كانت له ابنة ثانية (شوارقاد) زوجها من أمير مسلم كان حاربه وتغلب عليه ثم تنصر على يده وهو المسمى بالرأس ميكائيل . وولد له من ابنته هذه ولد اسمه (ليج ياسو) فجعله ولى عهده فلم يرق ذلك للامبراطورة (تايتو) ولا للاهالى ولكن توج بالرغم من ذلك ياسو امبراطورا سنة ١٩١٤ وتسمى أبوه الرأس ميكائيل ملكا على (فولو) و (التيغرى) والنائب العام للمملكة . وكان مولد الامبراطور الفتى سنة ١٨٩٧ فظهرت منه أفعال شاذة أغضبت الأهالى واشتد الغضب عند ما أظهر الاسلام راجعا الى دين أهله فاجتمع الاساقفة والامراء وعظماء المملكة وعقدوا مجمعا خلعوا فيه ياسو وبايعوا زاوديتو ابنة منليك امبراطورة وجعلوا الرأس تافارى كافلا للمملكة ووليا للعهد (٢٧ سبتمبر ١٩١٦) وكان الرأس تافارى متزوجا بابنة الرأس ميكائيل أخت ياسو فعزله ياسو من ولاية هرر فزحف على رأس العساكر الحبشية لقتال حميه وابن حميه فكانت حربا ضروسا طالت واشتدت ولكنها انتهت بتغلب تافارى على حميه وجئ بهذا مصفدا بالحديد الى اديس ابابا بعد ان دارت عليه الدائرة فى وقعة « دبره برهام » (٢٧ اكتوبر ١٩١٦) وفى ٢ نوفمبر استعرضت الامبراطورة الجيوش وجئ بالرأس ميكائيل أيضا مقيدا بالسلاسل امام العرش الامبراطورى فيقال ان صهره وغالبه الرأس تافارى رق لحاله وتذكر ما بينهما من الرحم فقام وأجلسه مكانه . أما ياسو فبعد مقاتلات شديدة أيضا أخذ أسيراً وحبس فى قلعة واستوسقت الأمور للرأس تافارى » انتهى .

فقد ظهر لك ان الحبشة هم مسلمون ونصارى وان المركز الأول فى هذه المملكة للنصارى وجريدة الطان تنقل ان عدد النصارى ثلاثة ملايين ونصف مليون وعدد المسلمين ثلاثة . ولكن الملحوظ ان عدد المسلمين فى مملكة الحبشة بعد ان توسع ملك الحبش الى جهات هرر والصومال والغاله أصبح أكثر من عدد النصارى حتى نقل عن كافل ملك الحبشة يوم كانت الحرب واقعة مع تركية على أثر الحرب العامة انه لايريد زوال تركية لأنها مملكة اسلاميه ولأن المسلمين من رعاياه أكثر من النصارى . وقد اطلعنا على حديث أفاض به رجل من علماء الترك أقام بالحبشة مدة طويلة وعاد الى الاستانة فى العام الماضى فساله أصحاب مجلة سبيل الرشاد ان يفيدهم ماعرفه من أحوال الحبشة فذكر لهم فوائد جمة وقدر عدد مسلمى الحبشة بسبعة ملايين .

وقد يظن بعض القراء ان فى هذا العدد مبالغة وليس هذا الظن بصحيح . فعليك بأن تقرأ ماذكره المسيو موريس فال فى معجمه الجغرافى تحت اسم غاله Gallas : «شعب من افريقية منتشر فى جنوبى الحبشة وفى البلدان الضاربة الى الجنوب أيضا مما يجاور اقليم البحيرات الكبر المنفصل عن البحر ببلاد الصومال . وهم أقوام جيلة الخلقة لونهم نحاسى يختلفون فى الشكل عن الأقوام المجاورين لهم من جنوبيهم كما أنهم يختلفون عن الأحباش والصومال ويقدر عددهم من ٦ الى ثمانية ملايين وأكثرهم سكان مدر والغالب عليهم الزراعة ومعظمهم مسلمون . وقد كانوا أكثر الأحيان مع الاحباش وأخيرا تغلب هؤلاء عليهم فقسم من قبائل الغاله يؤدون أتاوة لملك شوا من الحبشة »

فانت ترى انه ليس فى كلام السائح التركى أدنى مبالغة لأنه عدا القسم الخاضع من الغاله لملكة شوا الحبشية يوجد مملكة هرر التى استلحقها الاحباش بمساعدة بعض الدول الاوربية ويوجد مسلمو نفس الحبشة الذين هم كثيرون فى وسط تلك المملكة منذ وجد الاسلام .

وقد ذكر جغرافيو العرب بلاد المسلمين التى فى أطراف الحبشة فقال ياقوت : زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة جيل من السودان فى طرف أرض الحبشة وهم مسلمون . ثم ذكر غرائب من عاداتهم فى أمر الزواج وغيره .

ونقل صاحب صبح الاعشى جملا كثيرة عن الحبشة القسم المسيحى والقسم الاسلامى منها فنأخذ نتفا مما قال : مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الارجاء فسيحة الجوانب . قال فى مسالك الابصار : وأرضها صعبة المسالك لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباك بعضها ببعض حتى ان ملكها اذا أراد الخروج الى جهة من جهاتها تقدمه قوم مرصدون لاصلاح الطرق بالآت لقطع الأشجار واحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الانسانى لأنهم اجبر بنى حام واخبر بالتوغل فى القتال والاقتحام طول زمنهم فى الأسفار وصيد الوحوش وقتالهم انما يكون عريا من غير لامة تدفع عنهم ولا عن خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لولا ماهم عليه من الشرك لكانوا فى الرتبة العليا من مراتب بنى آدم فذكر أن المشهور عنهم مع ماهم عليه من المجاعة انهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم ومن عادتهم أن من رمى سلاحه فى القتال حرم قتاله

ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه واذا أحبوا أظهروا المحبة واذا أبغضوا أظهروا البغض والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس . ولهم قلم يكتبون به من اليمين الى الشمال كما فى العربى حروفه ستة عشر حرفا لكل حرف منها سبعة فروع فيكون عدتها مائة واثنين وثمانين حرفا سوى حروف أخر مستقلة بذاتها لاتفتقر الى حرف من الحروف المذكورة مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لامنفصلة عنه . ومع كونهم جنسا واحداً فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا الخ ثم ذكر فى صبح الأعشى القسم الأول من الحبشة وهو بلاد النصرانية قال وهو القسم الأوفر عددا الأوسع مجالا . وهو الذى يملكه ملك « أمحرا » بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين والف فى الآخر وهم جنس من الحبشة . ثم ذكر تقاسيم مملكة أمحرا وصفات تلك البلدان بلدا بلدا الى أن قال ان ملكهم فى الزمن المتقدم كان يلقب بالنجاشى وقد ذكر المقر الشهابى ابن فضل الله فى مسالك الأبصار ان الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم « الحطى » بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر ومعناه السلطان اسما موضوعا لكل من قام عليهم ملكاً كبيراً . الى أن قال : ومع ماهم عليه من سعة البلاد وكثرة الخلق والاجناد مفتقرون الى العناية والملاحظة من صاحب مصر لأن المطران الذى هو حاكم شريعتهم فى جميع من أهل النصرانية لايقام الامن الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر للبطرك المذكور بارسال مطران اليهم وذلك بعد تقدم سؤال ملك الحبشة الذى هو الحطى وارسال رسله وهداياه ، قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا لصاحب مصر وقد ذكر ابن العميد مؤرخ النصارى فى تاريخه انه لما توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمى كان ذلك بسبب فساد مجاريه من بلادهم وان المستنصر أرسل البطرك الذى كان فى زمانه الى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه .

ثم ذكر القسم الاسلامى من بلاد الحبشة وقال انه البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له(١)

(١) قرأت فى تاريخ نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ان ساحل فلسطين يقال له أيضا الطراز الأخضر

قال فى مسالك الأبصار وهى البلاد التى يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع قال : والزيلع انما هى قرية من قراها قال الشيخ عبد المؤمن الزيلعى الفقيه : وطولها براً وبحراً خاصاً بها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك لكن الغالب فى عرضها انه مقفر اما مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوماً طولا وأربعون يوماً عرضاً . الى أن قال : ان بلادهم ليست بذات اسوار ولا لها فخامة بناء ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين الا أنه لاتعرف عندهم مدرسة ولاخانقاه ولارباط ولا زاوية وهى بلاد شديدة الحر وألوان أهلها الى الصفاء وليست شعورهم فى غاية التفلفل كما فى أهل مالى وما يليها من جنوب المغرب . وفطنهم أنبه من غيرهم من السودان وفطرهم أذكى وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبى حنيفة خلا « وفات » فان ملكها وغالب أهلها شافعية .

وقال ان هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد : الأولى « وفات » والعامة تقول أوفات ويقال لها أيضاً « جبرة » والنسبة اليها جبرتى وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء . وقال الشيخ عبدالله الزيلعى : وطول مملكتها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة وهى أقرب أخواتها الى الديار المصرية والى السواحل المسامتة لليمن وهى أوسع الممالك السبع أرضا وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من الرجالة . والقاعدة الثانية « دوارو » وطولها خمسة أيام وعرضها يومان وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات فى الفارس والراجل والثالثة «أرابينى» وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس أما الرجالة فكثيرة للغاية . والرابعة « هدية » بالهاء والدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء فى الآخر وموقعها بين الاقليم الأول من الأقاليم السبعة و بين خط الاستواء وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبع وأكثر خيلا ورجالا وأشد بأساً على ضيق بلاده عن مقدار اوفات ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر . والخامسة « شرحا » وطولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل ذلك مرتين فأكثر . والسادسة « بالى » وهى تلى شرحا المتقدمة ولكنها أكثر خصبا

وأطيب سكنا وأبرد هواء . والسابعة « دارة » وهي تلي بالي المقدمة الذكر وطولها ثلاثة وعرضها كذلك وهي أضعف اخواتها حالا وأقلها خيلا ورجالا وعسكرها لايزيد على ألفي فارس ورجالة كذلك . انتهى ملخصاً .

ثم ذكر ان هذه الممالك السبع هي كلها خاضعة « للحطي » أو النجاشي سلطان أمحرا . وان الملك فيها في بيوت محفوظة الا بالي اليوم فان الملك فيها صار الى رجل ليس من بيت الملك تقرب الى سلطان أمحرا حتى ولاه مملكة فاستقل ملكا بها . قال نقلا عن مسالك الأبصار : وجميع ملوك هذه الممالك وان توارثوها لايستقل منهم بملك الا من أقامه سلطان أمحرا واذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أمحرا وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه فاذا ولاه سمع البقية له وأطاعوا فهم له كالنواب وأمرهم راجع اليه ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون اليه . ثم قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ثم حكى عن الشيخ عبدالله الزيلعي وغيره انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعة الحطي أو الماسك معه ولكنهم مع ماهم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس . ثم قال : وقد كان الفقيه عبدالله الزيلعي قد سعى في الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا الى مصر في تنجز كتاب البطريرك اليه بكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وأخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك فكتب اليه عن نفسه كتابا بليغاً شافياً فيه معنى الانكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها . قال : وفي هذا دلالة على الحال . قال : القلقشندي صاحب صبح الأعشى . قلت وقد كتب في أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان في معنى ذلك وقرينه كتاب من البطريرك متى بطريرك الاسكندرية يومئذ وتوجه به الى الحطي سلطان الحبشة برهان الدين الدمياطي الخ ملخصاً .

ثم قال : وأهمل المقر الشهابي بن فضل الله في مسالك الابصار والتعريف عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين منها جزيرة «دهلك» وهي جزيرة مشهورة عن طريق المسافرين في بحر عيذاب الى اليمن و بينها و بين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا . وملك دهلك من الحبش المسلمين . ومنها مدينة « عوان » على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن . واذا كان

وقت الضحى ظهر منها «الجناح» وهو جبل عال فى البحر. ومنها مدينة مقدشو قال فى «مزيل الارتياب» وهى مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة وهى على بحر الهند ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر فى زيادته بالصيف وقد ذكر أنه شقيق لنيل مصر فى مخرجه من بحيرة كورا ومصبه ببحر الهند على القرب من مقدشو. ثم قال القلقشندى : وقد أتى الحطى ملك الحبشة على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف وأكره الكثيرين منهم على الدخول فى دين النصرانية ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الحطى ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة . والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته و بينه و بينه الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين فى كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء اه ملخصاً .

وقد حرر كثير من مؤرخى الافرنج ورحالاتهم كتباً عن الحبشة ملأى بوقائع الحروب بين مملكة الحبشة النصرانية وملوك الحبشة المسلمين كأصحاب هرر و بلاد الزيلع وكما أنه وجد فى ملوك الحبشة النصارى من قهر الاسلام وأثخن فى المسلمين وقتل وسبى وأحرق ودمر كذلك وجد فى أمراء الاسلام هناك من كال لملوك الحبشة بكيلهم وأزيد ومن أشهرهم السلطان سعد الدين هذا وأشهر منه الامام أحمد بن ابراهيم الذى ألف على غزواته وفتوحاته شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الملقب بعرب فقيه كتاباً ممتعاً اسمه فتوح الحبشة نشر الجزء الأول منه بنصه العربى المستشرق الفرنسى « رينه باسه » René Basset مع فذلكة للكتاب باللغة الفرنسية فهذا الامام الغازى أحمد بن ابراهيم يصح أن يقال انه صلاح الدين يوسف الحبشة فقد والى الهزائم على الحبشة النصارى مع شدة بأسهم وصعوبة مراسهم ووعورة جبالهم وكون بلادهم بقيت بكراً لم تطمثها قدم فاتح ولا ترقت اليها همة غاز فكان هو الذى أوغل فى قلب بلادهم وملكهم من نواصيهم واستنزلهم من صياصيهم حتى قال المستشرق « باسه » ان أشهر دور من أدوار تاريخ الحبشة التى بقيت أخبارها محفوظة فى أذهان الغربيين هو دور أحمد جران (لقب الفاتح المذكور) الذى كاد أن يسحق نصرانية الحبشة و يعيدها كبلاد النوبة . وقد كان دخول البرتغاليين فى هذه المعمعة هو الذى استجلب الأنظار الى هذه القطعة من تاريخ المشرق وجاءت كتابات البرتغاليين والطليان

موضحة لها فلهذا نقول : «ان هذا الدور هو أصح أدوار تلك البلاد أخباراً لتضافر الروايات على وقائعه من كل جهة فقد انضمت الى المنابع الغربية المنابع الشرقية مثل الكتاب العربى الذى نحن ناشروه الآن (تأليف عرب فقيه) وكتب مؤرخى الحبشة أنفسهم فيكون لدينا شهادات من جميع الأمم التى اشتركت فى هذه الحرب وتجد الغالب والمغلوب مدلين بالوثائق والبينات التى يكمل بعضها بعضاً و يؤيد واحدها الآخر على أننى أذهب الى كون الموقع الأول فى غزارة التفاصيل هو للتأليف العربى الذى حرره شهاب الدين أحمد عرب فقيه لا من جهة كونه أقل ميلا من غيره الى قومه بل من جهة كونه شهد بنفسه أكثر وقائع الامام غران فلهذا تجد فى مؤلفه تفاصيل دقيقة موضحة لا تجدها فى كتاب آخر من كتب المسيحيين على أن هؤلاء متفقون معه فى الروايات عن الحوادث الواردة فى كتابه » .

ولقد روى عرب فقيه من خبر الامام أحمد بن ابراهيم ما ملخصه :

كان للسلطان سعد الدين من الأولاد أبو بكر و بدلاى فبدلاى له ولدان أحدهما محمد ابن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان .

ولأبى بكر ولدان أحدهما على وهو جد السلطان بركات وحبيب . فعلى له أولاد منهم أظهر الدين وهذا له محمد ومحمد له عمر دين . والولد الثانى لأبى بكر اسمه آزر وهو جد السلطان محمد ابن أبى بكر بن محمد بن آزر بن أبى بكر بن سعد الدين .

والولد الثانى الذى لبدلاى بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرضت ذريته وتولى البلاد السلطان محمد بن آزر بن أبى بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والحبشان فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً . وعاد السلطان محمد الى بلاده فقتله صهره محمد بن أبى بكر ابن محفوظ وملك البلاد بعد سنة فقتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هو بت وملك بعده ثلاثة أشهر فقتله « وسنى » مملوك الجراد محفوظ وملك البلاد ثلاثة أشهر وأسر بعد ذلك أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع وقتل فى زيلع . وملك البلاد بعده الأمير منصور بن محفوظ بن محمد بن الجراد آدش وتحارب الأمير منصور مع الجراد ابون سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف و نهى عن المنكر واستأصل قطاع الطرق وأبطل الخمور واللعب والرقص وعمرت فى زمانه البلاد وصلحت الأحوال . وكان

أحمد بن ابراهيم (مترجم عرب فقيه) يومئذ فارساً من فرسان الجراد ابون وكان ذا عقل ورأى وشور فى صغره وكبره الهاماً من الله تعالى للامر الذى أراده الله على يديه وكان الجراد ابون يحبه حباً شديداً لما رأى من شجاعته وبراعته . وكان السلطان ابو بكر بن السلطان محمد بن آزر من ذرية سعد الدين قد جمع جوعاً من الصومال وغيرهم وقاتل الجراد ابون فقتل الجرادابون بن آدش وتولى السلطان أبو بكر البلاد ولكنه أساء السيرة فى الرعية وظهر قطاع الطرق وحدثت أمور أوجبت انكار العلماء والفقهاء من المظالم وشرب الخمور وكان الامام أحمد (الغازى) فى عسكر الجراد ابون كما تقدم فخرج هو وجماعة من رفاقه واجتمعوا فى محل يسمى هوبت وكانوا نحو مائة فارس وأمروا عليهم الجراد عمر دين فبينما هم كذلك اذ سمعوا بأن بطريقا من بطارقة الحطى ملك الحبشة من النصارى يسمى فانيل من أهل دوار وا ومعه جماعة من البطارقة قصدوا بلاد المسلمين وأسروهم وسبوا عيالهم ونهبوا مواشيهم . فسمع أحمد بن ابراهيم بذلك فقصد جيش النصارى فى مكان يسمى عقم وهو نهر عظيم كثير الماء فاشتبك الفريقان فى قتال شديد انتهى بالدبرة على النصارى وقتل جماعة من البطارقة وغنم المسلمو غنائم كثيرة ورجعوا فرحين مستبشرين الى محل اسمه زيفه بقرب بلد السلطان أبى بكر بن محمد . فلما سمع السلطان بخبرهم وما فعلوه من الجهاد وحازوه من الغنائم انهزم هو ومن معه من الصومال الى بلد يسمى كداد من بلاد الصومال فقصدهم أحمد ابن ابراهيم الى هناك فتلاقى الفريقان عند نهر يقال له قرن فاقتتلوا وانهزم السلطان ومن معه وقتل منهم جماعة . فانثنى أحمد وأصحابه راجعين الى بلادهم هرر من برسعد الدين فلم يستقروا بالجلوس حتى جمع السلطان أبو بكر جوعا من الصومال وغيرهم وجاء بخيول وجيوش لا يحسبها حاسب فاخلى أحمد بن ابراهم هرر وسار الى بلد اسمه هوبت زبرت واعتصم بجبل عظيم فيه فقصدهم السلطان بجموعه وحصرهم وضيق عليهم فنزلوا من الجبل وناجزوا السلطان القتال فانهزموا وقتل أميرهم عمر دين ورجع أحمد بن ابراهيم وأصحابه الى بيوتهم ودخل الناس واصلحوا بينهم . وما طال الصلح حتى غدر السلطان أبو بكر باحمد وجرده من خيله ورجله وقتل أميراً كبيرا اسمه عثمان بن يس ففر أحمد من وجهه لاحقا ببلده زعكه وليس معه الا ثلاثة من الخيل فتلاقى مع غلام للسلطان حدوش بن محفوظ معه اربعة من الخيل فاخذنا منه وخرج الى

مكان اسمه شيح ومعه سبعة من الخيل فانضم اليه أمير يسمى جراد أبو بكر ابن اسماعيل ثم وصل اليه الامير حسين الجاترى فقصدهم السلطان بعساكره فلم يزالوا من بلد الى بلد يغير السلطان عليهم و يغيرون عليه فحدثت بين الفريقين وقائع عديدة انتهت بظفر أحمد ابن ابراهيم ودخوله هرر فاقام الحق وأزال المنكر وصاح المنادى كل أحد يلزم بيته وكل على عادته ولا تخافوا ولا تحزنوا . ولكن السلطان عاد فجمع الجموع من الصومال وغيرهم وقصد أحمد للقتال فرتب هذا عساكره و زحف اليه فاعتصم السلطان بجبل اسمه حون فدخل الناس من الاشراف والفقهاء بينهم بالصلح على ان السلطان يكون سلطانا على حاله وأحمد بن ابراهيم يكون من تحته و يلقب بالامام والبلد بينهم بالسوية فارتضى أحمد بذلك حقنا للدماء واقام ببلدة سيم وأقام السلطان بهرر . وأما وجه تسمية أحمد بالامام فاشهر رواية فيها ان رجلا اسمه سعد ابن يونس العرجى رأى النبي (ﷺ) وعن يمينه أبو بكر الصديق وعن يساره عمر بن الخطاب و بين يديه على بن أبى طالب رضى الله عنهم و بين يدى على ابن أبى طالب أحمد بن ابراهيم فقال الرائى لهذه الرؤيا يا رسول الله من هذا الرجل الذى بين يدى على بن أبى طالب فقال ﷺ هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة . وكانت هذه الرؤيا والامام حينئذ جندى ولم يكن الرائى يعرفه من قبل . فوصل هذا الرائى الى هرر فى زمان الجرادابون فقص رؤياه على أهل البلد فقالوا له هذا الذى رأيته فى منامك فقال لا فلم يزل يتولى البلاد أمير بعد أمير الى ان جاء الرائى فى زمن أحمد بن ابرهيم فلما رآه عرفه وقال لاهل البلد هذا الذى رأيته فى الرؤيا بين يدى على بن ابى طالب فسماه الناس الامام . وقيل ان بعض المشايخ رأى فى المنام الولى الصالح أحمد بن محمد بن عبد الواحد القرشى التونسى والشريف الولى أبا بكر بن العيدروسى وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الامير ولكن سموه امام المسلمين .

وبدأ من ذلك الوقت الامام أحمد بن ابراهيم يغزو الحبشة النصارى لانهم كانو فى زمان سعد الدين وفى زمان من تولى بعده وفى زمان الجراد آبون يغزون بلاد المسلمين وقد خربوها مرارا كثيرة وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج فلما ظهر الامام أحمد منعهم من ذلك وكان يجلس لاقامة العدل ويرفق بالمساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على الارملة واليتيم وينصف المظلوم من الظالم ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

ثم اختلف الامام مع السلطان أبي بكر وتجددت الحرب فقتل السلطان وانفرد الامام بالامر وأقام عمر دين أخا السلطان محل أخيه . وغزا النصارى بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجلجان صهر الملك وتحته بطارقة كثيرة فوصل الى أطراف بلاد المسلمين وخربها ونهب أموالهم وسبى حريمهم وسبى أم أمير من أمراء المسلمين اسمه الامير أبو بكر قطين . فسار الامام اليهم بعسكره فالتقى الجمعان في موضع يقال له الدير (بكسر الدال) وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أسير وعاد الامام الى بلده منصورا محبورا . وكان عمره مع كل ذلك يومئذ احدى وعشرين سنة لا غير . ثم توالت غزواته منها عزاة الفطجار وغزاة قيجي وغزاة وانبار يه في داوارو وغزاة افات التي كانت فيها امرأة الامام مع زوجها . وكانت واقعة هائلة غنم فيها المسلمون ما لا يحصى وسبوا نساء كثيرة منهن بنت خالة الملك فوهبها الامام الى وزيره عدلى ففداها ملك الحبشة بخمسين أوقية من الذهب الأحمر . واستولى الامام بعد هذه الواقعة على أنطوكية ودخل كنيستها العظيمة ومعه زوجته دلونبره بنت الأمير محفوظ وجم غفير من الأمراء مثل الأمير حسين الجاترى صاحب دوارو بعد الفتح والأمير على صاحب عنقوت بعد الفتح والجراد احوش وكوشم أبو بكر والشيخ الزاهد حامد ابن الزاهد الفاضل شيخ واشره ثم خرب الكنيسة وأحرقها . وقصد الامام بلدة جندبلة وهى بلدة يملكها ملك الحبشة ولكن أهلها مسلمون فتلقوا الامام بالفرح والسرور وأعانوه بعشرين أوقية من الذهب وقالوا له نحن نعطى هذا الذهب لزوجتك دلونبره فرفض الامام ذلك وتوسط الأمير حسين الجاترى والوزير عدلى والجرادين والأمير على صاحب عنقوت فى أن يقبل الامام هذه الهدية لزوجته فأصر الامام على الرفض وقال لا يحل هذا وأنفقها على الجهاد واشترى بها ١٠٠ سيف وشهدوا بها وقعة شيزكوره (أول رجب سنة ٩٣٥ هجرية) .

وسار الامام من جندبله فى طريق حار دليله فما درى هو وجيشه الا وهم وسط شجر مشتبك أصبحوا لا يقدرون معه أن يتقدموا فأمرهم الامام بقطع الاشجار فما زالوا يقطعون منها حتى خرجوا الى الطريق الواضحة و وصلوا الى الدير فقسم فيها الغنائم وعاد الى هرر مؤيداً منصورا . ثم استفز قبائل الصومال للجهاد فكانت أول قبيلة لبت نداءه «هبرمفدى» مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين الصومالى فوصلوا الى هرر بعدتهم وخيولهم

وسر بهم الامام سروراً عظيما . ووصل بعدهم قبيلة جرى ومقدمهم متان بن عثمان بن خالد الصومالى فأظهروا آلاتهم وسلاحهم وتنكبوا قسيهم وركبوا جيادهم وكانت معهم أخت الامام فردوسة وهى امرأة كبيرهم . ثم طلعت قبيلة زربه ومقدمهم السلطان محمد بن عمة الامام ومعه من الرجالة الصناديد ألف وستون رجلا وتخلفت قبيلة مريحان بعدم استقامة مقدمها حرابو فعزله الامام وأمر عليها ابن أخيه فجاء منهم نحو ثمانمائة مجاهد بين فارس وراجل . وبعد ذلك تهيأ الامام لغصد بلاد الحبشة وجهز الجيوش وأنفق الأموال وباع حتى حلى نسائه وأثاث بيته وخرج بجيوشه ومعه امرأته دلونبره وكانت حاملا ووصلوا الى زيفه فتلقاهم الجراد دين ابن آدم وكان رجلا صالحا فأضافهم وأكرمهم وكذلك الجراد شمعون والجراد كامل صهر الامام والامير مجاهد فأكرموا الامام اكراماً زائداً . ووضعت امرأة الامام فى زيفه غلاما سماه محمداً وتأخرت بسبب الوضع عن المسير وبقيت فى زيفه عند مؤنسة أخت الامام . وسار الامام قاصداً ملك الحبشة « وناج سجد » وهو فى أرض بادقى فأخذ ملك الحبشة يجمع جوعه قبائل التجرى أو التيغرى وقبائل آقوا وقبائل قجام وأهل العنقوت وأهل جن وأهل قده وغيرهم وانقلبت الحبشة بأسرها وكان بطارقة التجرى أربعة وعشرين بطريقاً كل منهم تحته جيش عظيم . وكان من جملة البطاريق بطريق اسمه عثمان بن دار على كان مسلما وكان أبوه مسلما أسره الاحباش فى زمان السلطان محمد فارتد وصار بطريقا وولد له أولاد كثيرون نصارى ثم فى آخر عمره عاد الى الاسلام وجاهد واستشهد . ثم ان ملك الحبشة ما زال يحشد الجيوش ويستفز القبائل لملاقاة الامام وبقى ينتظره فى أمحره كما أن جيوشاً أخرى كانت معباة فى بادقى . وكان الامام قاصداً كنيسة بادقى ناوياً احراقها والاحباش يقولون لا يصل الى الكنيسة حتى نقتل عن آخرنا . وقيل ان خيل الحبشة كانت ١٦ ألفاً والرجالة كانت نحو مائتى ألف لذلك طالت الوقائع فى شبزكوره وكانت أيام للمسلمين وأيام للنصارى وعبى الامام أحمد جوعه هكذا : السلطان محمد بن السلطان على ابن خالته والشيخ أنس ابن الشيخ شهاب بن عبد الوهاب وقبيلة « زمن برة » وقبيلة « برزرة » وقبيلة « يقله » وقبيلة « جاسار » وقبيلة « عرب تخا » وقبيلة « التى » وغيرهم من قبائل الحرله فى الميمنة . وقبيلة « جرى » وقبيلة « مريحان » وقبيلة « يبرى » وقبيلة « هرتى » وقبيلة « جران » وقبيلة « مزر » وقبيلة « برسوب » وكلهم صومال فى

الميسرة وكل قبيلة بأميرها . وكان الامام فى القلب ومعه أعيان الفرسان مثل الأمير حسين الجاترى والأمير زحربوى محمد . وفرشحم على والوزير نور بن ابراهيم والامير مجاهد وفرشحم السلطان وعبد الناصر والشيخ داوه وأبو بكر قطين وفرشحم دين والجراد احمدوش وصبر الدين وجاسا عمر والجراد عثمان بن جوهر الخ وجع خمسمائة من الابطال ممن حضروا الحروب والغزوات وأمرهم بأن يلازموه . وضم اليهم ثلاثمائة من قبيلة هرتى من الصومال وأربعمائة من قبيلة يبرى لشدة صلابتهم وكان الثلاثمائة من أهل السيوف والاربعمائة من أهل القسى . ثم التقى الجمعان وكان المسلمون كالشامة البيضاء فى جلد الثور الاسود . وقام الامام يخطب فى المسلمين ويحرضهم على الجهاد وقرأ : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فى التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذَّى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » . فحينئذ قال له المسلمون دعنا نحمل عليهم . فمنعهم الامام من الحملة وقال لهم اثبتوا مكانكم ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم به واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق ولا تخطوا بأرجلكم خطوة واحدة الا وأنتم تذكرون الله . ثم حمل الحبشة على المسلمين من جهة الميمنة حملة رجل واحد فصبر المسلمون لهم وحملت ميمنة الحبشة على ميسرة المسلمين من الصوماليين وحملت قبائل التيجرى والبطارقة على القلب الذى فيه الامام واختلط الجمعان واستمر القتل فانكشفت ميسرة المسلمين التى فيها الصومال وقتل الحبشة منهم ثلاثة آلاف واسروا كثيراً وانحاز من ثبت منهم الى القلب وأما ميمنة المسلمين من الحرله فتكاثر عليها الحبشة أيضا وزلزلوها فانحازت أيضا الى القلب فحمل الحبشة بأجمعهم على القلب ودامت الحرب من الضحى الى العصر الاخير فرد الامام الحبشة على أعقابهم وقتل منهم ألوف وامتلأت الارض من جثث القتلى وضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وولى الحبشة الادبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون فقتل من بطارقتهم البطريق روبيل من بطارقة التيجرى قتله أرعدى من خدمة الامام . وقتل البطريق عقبا أخوه وكان من أبطالهم قتله الامام بنفسه طعنه بالرمح فى صدره فخرج السنان يلمع من ورائه وقتل بطريق سيرى شوم قتله الجراد دين . وقتل البطريق زمنجان ابن عم البطريق وسن سجد قتله الوزير عدلى . وقتل بطريق محنطى

رماه رجل من الصومال مقدم الرماة فقتله . وقتل بطريق زونجيل قتله عبد الرازق بن سوحه أخو الأمير مجاهد . وقتل بطريق شوم عجامية . وقتل بطريق النبتين وقتل بطريق عمدو قتله رجل اسمه آداموا . وكان جملة من قتل من الحبشة عشرة آلاف ومن البطارقة مائة وأربعة عشر . وكل بطريق تحته ألف فارس أو خمسمائة أو مائتان وعرقب المسلمون من خيل الحبشة فى المعركة ستمائة فرس . وكانت جملة من قتل من المسلمين من الصومال ومن الحرله ومن الملساى ومن العرب خمسة آلاف ختم الله لهم بالشهادة . وغنم المسلمون غنائم لا تحصى وأسروا بطريقاً كان صهراً للملك اسمه تخلى مدحن ففدى نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب الاحمر .

وبعد هذه النصرة الطائلة أراد الامام أن يسير المسلمين الى قلب بلاد الحبشة ويجهز على الباقى من جيشها فشكا له المسلمون ماحل بهم من الجهد وطلبوا الجمام فعاد الامام الى بلده واستراح شعبان ورمضان ونصفا من شوال ثم نهض غازيا الى جهة دوارو فدخلها من جهة نهر الوبى وهو نهر كبير يكثر فيه التمساح وطواهش كثيرة يسلب فى البحر المالح من ناحية مقدشو وقسم الجيش الى فرقتين فرقة عليها الوزير نور بن ابراهيم والفرقة الثانية قادها الامام بنفسه فوصلوا الى الجواتر وقاتلهم بطريق ادل مبرق فهزموه وأسروه ويقال ان الذى أسره كان رجلا اسمه تكية قد قطع الامام يده اليمنى ورجله اليسرى فى حق الله تعالى فبلغ من شجاعته ان اسر البطريق وهو مقطوع اليد والرجل . وغزا الامام بلاد راس بنيات فاتفق مع بطريقها على أن يقدم له الضيافة وبعض هدايا والامام لا يتعرض له . ثم تقدموا الى بلد اسمه مصيحب نخربوها وخلوها رماداً وساروا الى بلد اسمها « مى فلح » ونهبوها وكان رجل اسمه راجح أصله مسلم تنصر وأعطاه ملك الحبشة أرضا وصار يغير على أطراف بلاد المسلمين فلما قرب الامام من أرضه أرسل اليه الامام قائلا : أنت مسلم وابن مسلم ومجاهد بن مجاهد من أول الزمان وقدر الله بالذى كان فتب وارجع الى الاسلام وكن أخانا ولا تقنط من رحمة الله . فلما وصل اليه الرسول . قال : كم فعلت وقتلت ونهبت من المسلمين وأخشى اذا رجعت ان تأخذونى بما فعلته . فراجعه الامام قائلا قد عفونا عنك فارجع فارسل راجح يقول : ارسلوا لى أميراً بجيوش كثيرة حتى أدلكم على أموال العدو فذهب اليه الوزير عدلى ومعه جيش فقتلوا وأسروا ونهبوا وعادوا وراجح

معهم . وحصلت بعد ذلك عدة غزوات والفريقان يبديان من ضروب الصبر وصدق اللقاء ما يندر مثله فى التواريخ . وعاد الامام الى هرر ثم جمع جوعه وقصد بلاد الحبشة وجمع هؤلاء جوعهم وتلاقوا فى محل اسمه انطاكية وكان المسلمون خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل فاجتمع عليهم من الحبشة ستة آلاف فارس ومائة ألف راجل وكانت مع الامام مدافع وأمر الامام عشرة من شجعان رجاله وهم الأمير زحربوى وأحمد جويتا والأمير على والجراد أحمد بن لاد عثمان والأمير أبو بكرقطين وتكية السابق الذكر مقطوع اليد والرجل بأن يسيروا معه الى جهة «بالى» وكان عسكرهم قد آذى المسلمين كثيرا وأمر بأن يأتوا له بمدفع وأمر مقدم المهرة من العرب بأن يضرب عليهم بالمدفع فضرب فهاج بعضهم فى بعض فحمل عليهم المهرة والملساى فهزموهم وذهبوا فى طريق أخرى ولم يرجعوا الى بطريقهم . وكان تكية مقطوع اليد والرجل قال للامام فى بلده : ان شاء الله هذا السوط الذى فى يدى أضرب به فارسا من الكفرة وانزله عن فرسه وآخذ فرسه . وكان الأمر كما قال ففى ذلك اليوم ضرب فارساً حبشيا بسوطه ورماه عن فرسه وغنم فرسه . ثم ان الحرب دارت رحاها وانتهت بفوز المسلمين وأشبهت وقعة صمبر كورى فى كثرة من قتل فيها من الأحابيش . واحرق المسلمون كنيسة انطاكية وغنموا غنائم لاتحصى وكان ذلك فى الخامس من رجب سنة ٩٣٧ هجرية . وأوغل بعدها الوزير عدلى فى بلاد الحبشة واثخن فيها . وكان ممن أسره اثنان من كبار الحبشة عرضا فدية أنفسهما الواحد بمائتى أوقية ذهب والآخر بمائة أوقية فرفض الوزير الفداء وقتلهما وأقام أياماً بأرض جنبه ثم سار الى أرض شرخه وتلاقى فيها مع الوزير نور واسروا وسبوا . وكان من جملة السبى امرأة البطريق ازماج وأولاده فلما علم هذا بأسرهم دخل وأسلم فردوا عليه امرأته وأولاده وأسلم كثير غيره . و بعد ذلك وصل الامام ومعه وزيراه الى عندورة وفيها كنيسة لوسن من أعظم كنائسهم وأغناها فأحرقوها ونهبوا ماوصلت اليه أيديهم .

فجمع ملك الحبشة جوعاً أخرى وأمر عليهم بطريقاً اسمه تخلى سوس وكان معه ثلاثون بطريقا من التجرى فجاء اثنان من المتنصرة أحدهما اسمه عمر والآخر اسمه سكو كانا ارتدا عن الاسلام وأقطعهما ملك الحبشة بلداً يأكلان خراجه فلما وصل الامام بجيوشه الى قرب بلدهما دخلا على الامام وطلبا العفو ودلاه على عورات النصارى فقصدهم الامام

وتلاقوا فى واد فحمل المسلمون على النصارى وكان أول من حمل منهم صبر الدين صاحب وشلة بعد الفتح ودخل وسطهم ومن بعده على الوزادى وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وآدش ابن ماحى وانضى هذا سيفه وضرب به رأس البطريق تخلى سوس ضربة ابانت رأسه عن جسده وحمل سائر المسلمين فانهزم الأحباش وقتل منهم البطريق اسلامو قتله أبو بكر بن جراد يماج واسر بطريق مرجاى والبطريق شوتلاى أسرهما فرشحم على ثم اسلم شوتلاى وحسن اسلامه وقتل فى الجهاد وكذلك أسلم بطريق مرجاى وجاهد فى صفوف المسلمين . واسر فى ذلك اليوم البطريق كفلى والبطريق أسير واسر البطريق جرجيس صاحب قجام وكان جملة من قتل من البطارقة الكبار مائة وثلاثون واما فرسانهم ورجالهم فقتل منهم الوف وغنم المسلمون خمسمائة فرس وكثيرا من الاثقال . ثم سار الامام فى أثر المهزومين الى عواش ومنها الى دل ميده ثم الى جميت وقسم الامام الغنائم وفرق الخيل والبغال على المجاهدين ثم سار الامام من جميت الى قنبورة وسوق دوارو وكان أهل سوق دوارو مسلمين يدفعون الخراج لبطريق داورو . وفى تلك الاثناء تشاور أهل دوارو بعضهم مع بعض وقر رأيهم على مهادنة الامام وكف الحرب ولو ندبهم النجاشى لم يطيعوه وان يبقى كل منهم على ملكه ودينه ومن أراد منهم الاسلام فله ذلك فكف عنهم الامام وتقبل هداياهم وسار الى الامام فوصل الى أرض الماية ودخلوا المرزير من أرض الماية . وكان فيها كنيسة عظيمة فأحرقوها وكان نجاشى الحبشة على مسافة يومين من هناك فعلم ان الامام يقصده فزحف الامام الى أرض بادقى ظانا ان ملك الحبشة يخرج لصده فيقاتله . فلما وصل الامام الى نهر دوخم نظروا نارا تشتعل فى وسط بادقى فاستدعى الامام بطريق حبيب الذى كان أسلم وصار معه فسأله عن موضع هذه النار فقال له هذه قرى الملك فقال له هل تعرف سبب هذا الحريق فقال له نبيت هنا ولا نلبث أن يأتينا الخبر واذا بتجار مسلمين يسكنون بادقى اخبروا ان الملك كان فى أرض جبرجى فلما علم بقرب وصول المسلمين أرسل بطريقا من بطارقته وقال له سر الى بادقى وحرق بيوتى و بيوت اخوانى قبل أن يسبقك المسلمون اليها فيحرقوها و يقولوا حرقنا بيت الملك أما الكنيسة فلا تحرقها اذ لا يحل لنا تحريقها فى كتبنا . فلما كان الغد أرسل الامام سرية عليها فرشحم على فأحرقوا كنيسة بادقى وكان فى شراريفها ذهب ومن فوقها صليب من الذهب الأحمر . وسار الامام وجيشه الى «اندوتنه»

وهى قرية الملك نفسه وكان له فيها بيت فيه تصاوير كصورة الأسد وصورة الآدمى والطيور فدخل المسلمون البيت وحرقوه وعين الملك تنظر وكان بينه و بين البيت مرحلة واحدة فأصابه من الحزن أشد مما أصابه لتحريق بيوته فى بادقى و بكى وجمع الجوع وعبى الجيوش وسار الى قتال المسلمين وكان نهر عواش فاصلا بين الفريقين وكان فياضا لايقدر أحد أن يقطعه فأخبرت طلائع المسلمين الامام بأن النصارى وصلوا الى نهر عواش فأرسل الامام عبد الناصر صاحب جنز و بشاره وشمعون وصبر الدين وعلى ورادى ومعهم ثلاثون فارساً يستقصى أخبار الحبشة فوصلوا الى النهر فوجدوهم على شاطئه من الجانب الآخر ومعهم الملك بنفسه فتشاتموا بالكلام ولم يصل أحد الى الآخر . ثم رجع النصارى الى أرض «ورب» وجلسوا فيها وانبث المسلمون فى الاطراف ينهبون الكنائس وكان فيها من الذهب والفضة والنفائس مالا يقع عليه احصاء فوقعت كلها فى أيدى المسلمين وأحرقوا الكنائس . ثم تجاوز المسلمون عواش بعد أن قل ماؤه ووصلوا الى جبرجى وحرقوا بيت الملك فيها فانحاز الملك الى « نزارجح » من أرض الداموت و وافاه بطريق كبير اسمه « وسن سجد » كان معظما عندهم يسمونه أبا المساكين و يخافونه أكثر مما يخافون الملك فقال للبطارقة كيف ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذه الفعائل وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم أحد من المسلمين مثل مافعل هذا الرجل (يعنى الامام) وما هذا الا من ظلمكم وجوركم فسلط الله عليكم هؤلاء المسلمين أخربوا عليكم بلاد دواروا وفطجار و بادقى و برارة وحرقوا الكنيسة التى فيها بطرككم والتابوت الذى فيه جسد البطرك الخ فلما سمعوا كلام وسن سجد هذا قالوا له مر بما شئت فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك فقال لهم مضى ما مضى فكونوا بعد الآن رجالا ثم كتب الى الامام كتابا يقول له فيه :

أما بعد انتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير الى بلادكم ونخربها ونحرقها والآن فقد أدالكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم والآن يكفيك مافعلت وارجع الى بلادك وأنت تقول فى نفسك انك هزمت الملك فى صمبركورى وتقول فعلت فى انطاكية وفعلت فى ازرى فلا تغتر بنفسك فان الملك صارت عنده جيوش كثيرة مارأيتها ولا سمعت بها فأرجع الى بلدك بغنيمتك وذهبك والا فالميعاد بيننا و بينك يوم السبت فانا الذى قتل أخاك الجرادابون ابن الجراد ابراهيم وهو أكبر منك وهزمت جيشه وفعلت ذلك مرارا ولا تظن

انى مثل من لغيت من البطارقة . فلما وصل هذا الكتاب الى الامام كان الامام مريضا فقال الأمراء الذين بين يديه لرسول البطريق وسن سجد : أما ماخوفتنا به من لقائنا يوم السبت فقد أعلمنا مشايخنا ان قتلك يكون يوم السبت وان القتال هو بغيتنا ومرادنا وهذه البلاد لسنا بتاركيها حتى نأخذ الحبشة بأسرها ان شاءالله .فرجع الرسول وأخبر البطريق بما سمع فداخله الخوف والجزع وأرسل الى الامام مرة أخرى يقول : انى ماتكلمت بكلامى الأول الا خوفاً من الملك والبطارقة ولقد أعلمنى الرهبان انى سأقع فى يدك فاذا وقعت فارحمنى . فلما جاء رسوله وأخبر الامام بذلك ضحك الامام وقال له ، قل له ، اذا صرت فى أيدينا رحمناك .

وفى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٩٣٧ تعافى الامام من مرضه ونوى أن يقصد ملك الحبشة فى أرض الداموت فراوده من معه عن ذلك فلم يسمع لأحد كلاما وزحف وأول ماحط فى بلدة زرارة وهى بلدة كبيرة يسكنها التجار من نصارى مصر ونصارى الشام ومن تولد منهم بأرض الحبشة يسكنها لطيب هوائها . ثم تقدم منها الى ويز وهى أيضاً مدينة عظيمة فيها سوق ليس فى الحبشة مثلها وجاءت جواسيس للامام تخبره ان الملك دخل أرض الداموت وان البطريق وسن سجد رجع الى وراء فى أرض وج كأنه يتهدد بلاد المسلمين. فمضى الامام يطلب الملك فاعتصم الملك بجبل مانع له طريق واحدة لاغير وعبى جموعه فى الجبل ووكل بمدخل الطريق الواحدة رجلا اسمه أورعى عثمان بن دار على وكان مرتداً فجاء المسلمون وهاجموهم وتسلق فريق منهم الجبل قاصدين الملك فى مكان ظن أن لن يصلوا اليه ففر الملك وجيشه قاصدين بلاد وج والمسلمون فى أثرهم ثم قصدوا بلادشوا لأخذ خزائن الملك وأحرقوا كنيسة اند قبطن وكنيسة داردبنى . وخضع للامام أهل شوى وأهل ورب وأدوا الجزية وصالحوا على بلادهم ووصل الامام الى برارة فقدم له أهلها الطاعة والضيافة . وهطلت فى هاتيك المدة الأمطار الغزيرة واشتدت العواصف وكل هذا لم يثن الامام عن عزيمته فى متابعة الجهاد وأرسل من أحرق كنيسة دير لبانوس على شاطئ نهر أورمه وهى من أعظم وأقدس كنائسهم . ومازال طول هاتيك المدة يضيق على الملك وهو يفر من وجه الامام من مكان الى مكان ومعه أربعون رجلا من الافرنج . ولكن البطريق وسن سجد تلاقى مع المسلمين واشتدت الحرب وجرت عدة وقائع وتبارز البطريق وسن سجد مع فارس

من أمراء المسلمين اسمه الجراد عابد فطعن البطريق الجراد عابدا بالرمح طعنة نافذة فى يده اليسرى وكان عليه عدة مانعة فخرج السنان من يده ومن العدة وأراد البطريق أن ينزع رمحه فانكسر فى يد الجراد عابد فأراد أن يسل سيفه و يضرب الجراد عابداً فكان هذا قد ضربه فى رأسه ثم ثنى فأسقطه عن جواده فقال له لاتقتلنى أنا وسن سجد فنادى الجراد عابد أصحابه ان وسن سجد قد سقط فنادى المسلمون الأحباش ان رئيسكم وسن سجد قد مات فانهزموا وأخذ البطريق يصيح وهو فى الأرض صريع : الخ بلا ، الخ بلا . أى أنا حى ولكن الحبشة كانوا انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وأجهز الجراد عابد على وسن سجد فعاتبه الامام فيما بعد قائلا له : لم قتلته قبل أن أنظره ؟ فأجابه : قلت له أريد أن أوصلك الى سيدى فاضطجع الى شجرة هناك وأبى وقال اقتلنى فى مكانى هذا وشتمنى فقتلته . وبعد هذه الواقعة أمر الامام بالأسارى من البطارقة فكانوا ثلاثين بطريقاً فقتلهم منهم البطريق جان نهد الذى أسره الوزير عدلى والبطريق قاسم وكان مسلماً مرتداً ولاه الملك جان أموره بين التجرى والعنقوت ، وكان من أشد البطارقة أذى للاسلام أسره رجل من الصومال من قبيلة متان . ومنهم بطريق هنه . ومنهم بطريق اسمه جبر اندرياس عمره تسعون سنة مابقى أرض فى الحبشة من زمان الملك ادماس الى اسكندر الى ناود الى أيام الملك وناج سجد الاتولاها .

قال شهاب الدين أحمد الملقب بعرب فقيه : فلما قتل وسن سجد افتتحت البلاد وذلت جيوش الكفرة وأسلم أكثرهم كما سيأتى ذكره . ثم وصل الامام الى جان زلق فهرب أهالى البلد الى بلد شجره فأرسل الامام بعض من أسلم من الأحباش فنصحوهم فجاءوا الى الامام وأسلموا . وأرسل الوزير عدلى الى « زقالة » والى « لال بلا » فسبقه الأمير مجاهد ونهبهم فأسلموا . فلما وصل الوزير وجدهم مسلمين . فسار الوزير عدلى الى « عواش ضبوا » فأسلم أهلها . وسار الامام الى أرض انطيط وكان هناك كنيسة للملك اسكندر مملوءة ذهباً فحط المسلمون عندها وأخذوا مافيها من الذهب ثم أحرقوها . وفر أهالى جان زلق الى الجبال ولم يسلموا فأرسل اليهم الامام خالداً الواردى وكان يعرف مسالك بلادهم فقال لهم : تعرفون أننى أعرف جميع بلادكم فأسلموا قبل أن نقاتلكم . فتشاور بعضهم مع بعض وقالوا ان لم نسلم نحن وقد أسلم أكثر الحبشة يرسل الينا الامام جيشاً يأخذنا كلنا ولايفلت منا أحد

فقدموا على الامام هم وأهل قوت وأسلموا جميعاً . وأسلم من البطارقة بطريق دلو و بطريق دبلى و بطريق اسمه حيزو وحسن اسلامهم وشهدوا المشاهد التى كانت بعد . ولما أسلم أهل قوت كانوا الف فارس وأربعة آلاف راجل كان معهم بطريق اسمه ايبس لحطى أبى أن يسلم وقال أنا ماجئت لهذا ولا أفارق دينى الذى مات عليه آبائى وأجدادى فقال له الامام : أنت أحسن من هؤلاء الذين أسلموا ؟ . فقال البطريق : هؤلاء بدو لايعرفون دينهم ولاديكم فاذا أسلموا لاعار عليهم أما أنا فاذا أسلمت يعيرنى الناس عند الملك والرهبان . فقال له الامام لاتفعل فأنت كبير النصارى و بيننا و بينك مصاهرة . وذلك لأن جارية الامام هاجرة كانت ابنة عمه . فبقى أسيراً ولكنه على دينه فقام البطارقة الذين أسلموا وقالوا له أسلم والا نقتلك أفانت أحسن منا فاسلم وجلس مع الامام ثلاثة أشهر فلما غزا الامام أمجرا هرب ولحق بالملك ورجع الى النصرانية ثم أمر الامام على جان زاق الجراد عثمان بن جوهر وعلى أهل قوت خالداً الورادى فسار اليهم وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن اسلامهم . ثم سار الامام الى بلد شجرة فتقبله الجراد نصر وقال له : بلادنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى و ببركتك . فقال له الامام : أمرتك على الذين أسلموا وأما الذين لم يسلموا فسر اليهم وائتنى بهم فسار اليهم وقتلهم وأتى ببطريقين أسيرين فقال لهما الامام : كل البلاد أسلمت فمالكما لاتسلمان . فابيا الاسلام . فقال الامام : حكمنا بضرب أعناقكما . فقالا : مرحبا . فتعجب الامام من كلامهما وأمر بقتلهما .

وأمر الامام أميراً اسمه شمسو ان يسير الى افات و يفتحها فسار اليهم وقهرهم وحصرهم فى الجبال فأسلموا وأحرق المسلمون كنيسة للملك المتقدم اسكندر كان فيها ذهب كثير وانجيل ورقه من الذهب لايحمله الارجلان . وسار الامام الى ابونه فأسلم أهلها ومعهم بطريقهم اسلامو . فلما سار الامام الى أمحرا ارتد البطريق ولحق بالملك أما عسكره فقد جلسوا على الاسلام وقاتلوا مع شمسو عامة فتوح الحبشة . وكان اورعى عثمان المرتد فى افات فلما رأى جيوش الامام أقبلت وايقن ان قد احيط به قال لعساكره : أنا أقاتل المسلمين ولا يدخلون بلادى . ولكنه من جهة ثانية ارسل الى الامام سراً يقول : أنا مسلم وابن مسلم اسرنى المشركون ونصرونى وقلبى مطمئن بالايمان والآن أنا جار الله وجار رسول الله وجارك أن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملت وهذه الجيوش التى معى أحتال عليهم حتى

يدخلوا عليك و يسلموا . فاجابه الامام : اذا فعلت هذا فقد قال الله تعالى: «قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . لا تخف ولا تحزن . ويكون الميعاد بيننا و بينك ارض طو بيــة فانى سائر اليها . وأرسل اليه الامام مسبحته للامان وطيبة لنفسه . و بعد أيام جاء اورعى عثمان ومعه مرتدان آخران من صبيان الامام يريدان الرجوع الى الاسلام ومعهم نحو عشرين الف نسمة من الحبشة من رجال ونساء واولاد فدخل اورعى عثمان على الامام وقبــل يده وطلب العفو فتقبله الامام تقبلا حسنا وقال له : لا تخف ولا تحزن وقل للعسكر اسلموا . فاسلموا جميعهم من الظهر الى المغرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وكان فرشحم على فى دبر برهان فارسل اليه الامام أن يسير الى أرض « تفلت » والى وقدة والى مجر و يقاتل أهل هــذه البلدان أو يسلموا ففعــل فرشحم على ما امره به وسار الامام الى « جــدم » فاسلم أهلها باجمعهم .

أما ملك الحبشة فقطع الامل من استرجاع البلاد التى ذهبت من يده وانهزم الى بيت امحره أصــل المملـكة وجمع حوله ما بقى من قوته : وكان هناك كنيسة أسس بناءها الملك ناود أبو الملك وناج سجد اشتغل ببنائها ثلاث عشرة سنة ثم خلفه ابنه فقام يجهد فى عملها أحسن مما جهد أبوه و بقى يتمم بناءها خمسا وعشرين سنة . وكان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعــلوها مائة وخمسين ذراعا وكلها بالذهب مرصعا بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبر الملك ناود ابن ادماس بن زراقوب فيها . فاما فرق الملك جيوشــه الى أبواب المــدينة دخل هذه الـكنيسة فنظر اليها يمينا وشمالا وقال : هؤلاء المسلمون يريدون أن يحرقوا هذه الـكنيسة وهى دار ملـكى ودار الملوك المتقــدمة . فقال له من معه : المسلمون لا يصلون الى هنا أبداً ونحن نقاتل دونها حتى نموت .

أما الامام فارسل احد امراء جيشه «جويته نور » الى بلد كسايه من أرض جدم وكان بها كنيسة عظيمة فيها ألف راهب فنهبها وأحرقها . وأرسل أناساً الى بلد جن يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم . ثم وصل الى الامام رجل من النصارى اسمه « وسن جان » ومعــه خمسائة من أهل الدرق الأبيض فأسلموا . وما زال الامام يجد فى أثر ملك الحبشة حتى أدركه ودارت بينهما الوقعة المسماة بوقعة واصل فانهزم الملك ومن معه وقتــل من رجاله خلق كثير و بلغ الأمر به أن فر بنفسه شريداً ماشياً على رجليه ومعه خمس جنائب تقاد أمامه بألجمتها

وعدتها وذلك من وعورة الطريق . وذهب الامام من طريق أخرى هو وأصحابه وقد ترجلوا من صعوبة الطريق أيضاً . ومر الجراد عثمان بن جوهر وأورعى عثمان من على مقربة من الملك وهم لا يعلمون به وهو قد اختفى فى شجرة فى تلك الأوعار الى أن مر المسلمون ففر قاصداً بلد العنبا واحتوى المسلمون على غنائم لا تحصى ووصلوا الى خيمة الملك وهى منصوبة كما هى وفيها سريره وسلاحه وفرحوا فرحاً عظيما وكانت هذه الواقعة فى ١٦ ربيع الأول سنة ٩٣٨

ودخل الامام بعدها بيت امحره فى أيام برد شديد مات فيه بعض عسكره من شدة البرد وكان العسكر يطعنون الماء المتجمد بالحديد حتى يكسروه . ولما وصل الى كنيسة امحره العظيمة التى سبق الكلام عليها دخل اليها هو والمسلمون فاعترتهم الدهشة مما شاهدوا فيها من بدائع الصنعة وروائع العظمة ووفرة الكنوز ونهبوها و بات الامام بجانبها واستدعى من كان معه من العرب وسألهم هل يكون فى الروم أو فى الهند أو غيرها مثل هذه الكنيسة ؟ فأجابوه لا نظن فى الدنيا مثلها . وكانت بجانب الكنيسة ثلاثة بيوت للملك يسكنها وكانت فيها عجائب لمن نظرها فجلس الامام فى أحدها وأعطى بيتاً الى الامير احوشه والأمير أبى بكر بن قطين وجعل البيت الثالث مسجداً . وأما الوزير نور فوصل الى كنيسة اتووس مريم ووصل آخرون الى كنيسة بيت سمايات التى بنتها أم الملك وآخرون الى كنيسة دبر نقدقاد وكان الملك ادماس قد بناها وهو مدفون فيها كما أن أم الملك مدفونة فى كنيسة بيت سمايات فانتهب المسلمون جميع هذه الكنائس وأخرجوا منها من أحمال الذهب والفضة والديباج والحرير ما يعجز وصف الواصفين وأحرقوا الكنائس ووجدوا فى كنيسة بيت سمايات أربعة رهبان لما شبت النار بها دخلوا اليها واحترقوا معها . ووصل عبد الناصر الى كنيسة يقال لها جنت جرجس من بناء الملك اسكندر فلم يجد فيها شيئاً لأن أهلها كانوا أخذوها معهم لخرقها . وأرسل الامام ألفين من أصحابه الى بلد « واله » فوجدوا فيها أربع كنائس منها كنيستان مصفحتان بصفائح الذهب فجعلوا يقلعون الذهب بالقداديم . وأرسل الامام سرية الى جبل العنبا وهو جبل يسكن فيه أولاد الملوك ومن عادتهم أنه اذا ولد للملك ولد ذكر أصعدوه الى هذا الجبل و بقى فيه حتى لا يكون خلاف فى الدولة فاذا مات الملك أنزلوا من يريدون توليته من أبناء الملوك من هذا الجبل وولوه الملك . وهو جبل لا يصعد

اليه الا بالسلالم فوقعت هناك مقاتلات انهزم فى آخرها المسلمون وقتل أورعى عثمان وعلى ورادى والجراد متان الصومالى وعبد الله بن ناصر الدين الحموى وأسر الجراد احوشه . وكانت هذه الهزيمة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٩٣٨ ورجع المنهزمون الى الامام وأخبروه بما جرى فحزن لا سيما على صهره متان واسترجع وبكى ولكنه أراد أن يعاقب المنهزمين فربط أكابرهم فرشحم على والجراد احدوش ومائة فارس معهم وأراد قتلهم فشفع فيهم الفقهاء والأمراء فخلوا كتافهم ولكنه قال لا بد أن تسيروا الى جبل العنبا وتقاتلوا فقال الأمراء للامام أتريد أن تخلص الجميع فى ذلك المكان الضيق فان كنت تريد أن تهلك الجميع فسر أنت بنفسك على أنه ان أعطاك الله النصر وفتحتها لم تجد الا أولاد الملوك اذ ليس فيها شئ غير ذلك ونحن والحمد لله صار عندنا مال مثل التراب والأولى أن نرجع الى الوراء ونجتمع مع الوزير عدلى والجيوش التى خلفناها فى فطبحار . فانقاد الامام لنصيحتهم ورجع وسار يريد عنقوت فحط فى بحر حيق وهو عذب الماء فى وسطه جزيرة وفى وسط الجزيرة كنيسة و بساتين فيها ألذ الفواكه وكان الامام أرسل الأمير زحربوى محمد بن عمه والوزير مجاهداً وعبد الناصر وجيشه والجراد صديقاً وأورعى أحمد وضم اليهم ثلاثمائة فارس فتقاتلوا مع الحبشة عند كنيسة دبرازهير ونهبوها وأخذوا منها من الكنوز ما لا يحصى عدده . وكان لها من التاريخ يوم أحرقوها سبعمائة وعشرون سنة . أرسل الامام الى أهل جزيرة بحر حيق يدعوهم الى الطاعة ويأمرهم بتسليم الأسير المسلم الذى عندهم .

وكان من قصة هذا الأسير انه غزا مع السلطان محمد فلما انهزم المسلمون فى « دل ميده » وقع أسيرا فلما علم الملك انه من حشم السلطان محمد أرسله الى تلك الجزيرة وأمرهم أن ينصروه فتنصر وبقى عندهم ١٦ سنة وقلبه مطمئن بالايمان . فهذه المرة أرسل الامام رسولا سبح فى البحر حتى وصل الى الجزيرة فرماه أهلها بالحجارة فقال لهم : لا ترمونى أنا رسول . فقالوا له : أنت رسول هذا الساحر أى الامام فكلمنا من بعيد . فبلغهم الرسالة فأجابوه : قل لسيدك لا نعطى الجزية ولا الطاعة ولا نترك الاسير يفعل الذى يقدر عليه عرفنا انه يطلع الجبال بالخيل والرجال أما هذا فبحر . فرجع الرسول وأخبر الامام بما وقع فجمع الأشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : نحن ما نعرف أيها العرب الا البر والجبال وأما البحر فهو شغلكم تعرفون أموره فطلب منه العرب الأخشاب والحبال فجمعوا لهم

أخشابا كثيرة ونحو عشرة آلاف حبل فشدوا بها شيئاً يقال له الرمس (١) وأنزلوه فسار سيراً بطيئاً فقال لهم الامام لا تصلون بهذا السير الى قرب الجزيرة حتى يكونوا أهلكوكم بالحجارة والنشاب . فاحتالوا للسرعة بشئ آخر وهو انهم وضعوا تحت الخشب قربا فسارت مثل السهم ففرح الامام وقال هذا ما كنت أريد . وأمر مقدم المهرة احمد بن سليمان المهرى أن يركب البحر هو وأصحابه وأردفهم بغيرهم من الجيش وكان أهل الجزيرة قد نظروا تجربة الارماس وعلموا أن المسلمين واصلون اليهم وقالوا هذا من شغل العرب ومعهم المدافع واذا خالفنا أمرهم أخذونا عنوة ، فعولوا على طلب الأمان وأرسلوا الاسير فى سنبوق ليلا فأوصله رجلان منهم وعادا فى الليل فلما أصبح الصباح شاهده الأمير ابسمابور عند صلاة الصبح فقال له من أنت فقال : أنا حرب أرعد بن اروعى حبر الدين الاسير فى الجزيرة . فأخبر الامام بخبره فأمر بدخوله فلما رآه الامام بكى شفقة عليه لما رآه من تغير حاله بالاسر و بكى الاسير ثم أبلغه أن أهل الجزيرة خافوا من شغل العرب وهم يطلبون الصلح على شرط انك لا تقتلهم ولا تحرق كنيستهم فقبل الامام ذلك وقال له : ارجع اليهم وقل لهم يكون ذلك . فرجع الاسير وأخبرهم وأشار عليهم بأن يرسلوا الأبون الذى عندهم (الرئيس الدينى) و يعقد لهم الامان . فركب الابون سنبوقه وجاء الى الامام وأراد أن يقبل الارض فمنعه الامام وقال له : ياخسيس لاتسجد للناس . ثم قال له : تكلم حاجتك . فقال : جميع الرهبان يريدون أن تعطيهم الامان على أنفسهم وكنيستهم . فقال الامام بشرط أن لا تخفوا المال فقال : السمع والطاعة أنا أذهب الى الجزيرة وأجئ بالمال . فقال الامام : لا نأمن لكم ولابد أن يذهب أصحابى الى الجزيرة و يأتوا بالمال . فقال الابون : اذا كان لابد من دخول أصحابك فأوصهم بأن لا يغيروا على كنيستنا ولا ينقضوا عهدك . فقال له الامام : اذا أعطيتك الأمان أنا فلا أحد يقدر أن ينقض عهدى . فأمر الامام زحربوى محمداً بأن يذهب ومعه رجال من العرب والمهرة والمغاربة وأوصاه بأن لا يفعل شيئاً سوى نقل المال . فكان من الذهب والفضة حمل مائة رجل وأصاب كل رجل من المسلمين ثلاثمائة أوقية ذهب وفضة وأرسلوا الى الامام الارمسة ثلاث مرات مشحونات وليس فى الواحد منها أكثر من خمسة رجال مع انها يسع الواحد منها ١٥٠ رجلا . فرأى الامام أموالا هائلة وقسمها فسهم

---

(١) ارتمس فى الماء انغمس فيه

أعطاه للعرب وسهم أعطاه لزحر بوى ولعسكر بحر والسهمان الباقيان فرقهما على جيوش المسلمين . ثم سار الامام الى بيت امحره وذلك لأنه كان بقى فيها كنيستان فأراد أن يحرقهما احداهما مكان مريم والاخرى دبتره مريم فوصل الى امحره وأحرقهما . وذهب منها الى حنبورة حيث جلس لمرض الشريف أحمد القديمى الذى كان معه فبقى معه الى أن مات رحمه الله وصلى الامام عليه . وأرسل الامام الوزير عدلى الى دوار و فوصلوا الى نهر عواش فوجدوه ملآن وفى جانبه جيش الحبش فجعلوا يرمون المسلمين بالسهام فى الليل فقام من أبطال المسلمين الجراد شمعون وقال نحمل فى الماء وخيولنا تسبح فيه وحمل هو وخيله فى الماء وحمل المسلمون من ورائه والحبشة يرمونهم بالنشاشيب الى أن خرجوا الى الجانب الآخر . فدخل الجراد شمعون وسط صفوفهم وهو يجندل أبطالهم وحمل معه أصحابه فانهزم الاحباش وقتل منهم ثلاثمائة وخمسون . ثم جاءتهم من الاحباش كرة أخرى فتقاتلوا قتالا شديداً وانهزم هؤلاء وقتل منهم نحو ١٥٠ رجلا ثم أعادوا الكرة ثالثة فانهزموا وقتل منهم نحو ٥٠ رجلا .

ثم سار الجراد شمعون الى « دبر برهان » فصادفه البطريق جرجيس فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل من الحبشة ألوف . أما الامام فكان سار الى بلد ملك الحبشة وهزمه هو و بطارقته وسبى نساءهم وفر الملك برأسه . وعاد الامام بالغنائم الى معسكر الوزير عدلى . وكان هذا سار الى دبر برهان فلما وصل الامام أحب الوزير عدلى أن يعرض أمامه الجيوش لأنهم كانوا فى وسط بلاد الحبشة وعليهم جواسيس للعدو فاستحسن الامام رأيه وجاء الوزير عدلى بخمسين راية وكل راية يتقدمها من الجرادات والامراء فكان عدد خيل الوزير يومئذ ثلاثة آلاف فارس لابس وثلاثة آلاف فارس غير لابس وكان عدد أصحاب التروس البيض عشرين ألف تراس وكان عدد أهل القسى مثلهم وكان مع الامام خمسة آلاف فارس كلهم لابسون بتجافيف التماسيح والقطيفة المثقلة بالذهب لا تظهر منهم الا احداق عيونهم من الدروع . ودخل أصحاب عدلى فى الصف الاول من الصومال مع مقدميهم والتقوا مع الامام وسلموا عليه وداروا ناحية الى جنب المحطة . ودخل الصف الثانى من أهل القطبحار والماية وأهل شوا ومن دخل فى الاسلام وسلموا على الامام وداروا ناحية جنب الصف الأول . وجاء الصف الثالث وفيه الوزير عدلى والأمير حسين والأمير شمعون واورعى نور

وكانوا خمسين أميراً فى عـدد عديد وزرد نضيد فجعلهم صفا بعـد صف لـكثرة جيوشهم فتواجهوا مع الامام وسلموا عليه وجلسوا وتحدثوا فبكى الامام بكاء السرور . وكان من يوم فارقهم الامام الى اليوم الذى واجههم فيه سبعة أشهر وأخرج الأمام الغنائم من الذهب والفضة والحرير وفرقها وكثر الذهب بين أيدى الناس حتى صار البغل يباع بأربعين أوقية من الذهب لـكثرة الذهب وابتذاله وكان الرجل يعطى صاحبه مائتى أوقيـة من الفضة فلا يرضى بها .

ولما رجع الامام الى دبر برهان ارسل ملك الحبشـة البطريق راس بنيات وكان من أعاظم البطارقة وأمره بكبس افات والقبض على اورعى ابون الذى كان فيها . وكان الامام أرسل الى افات الوزير عباس مع نجدة فتلاقى الفريقان فى كساية وانهزم البطريق ومن معه . ثم شاور الامام أصحابه فيما يصنع فقال بعضهم ان البـلاد ما أسامت من نهر عواش الى نهر وبى وكذلك أرض بالى والجنز والوج فالرأى أن نسـير اليها . فقال لهم الامام : ان أهل افات وجدم وشجره اسلموا فاذا سرنا عنهم وتركناهم بلا عسكر فقد يرتدون . فقالوا له : المهم هو البلاد التى نقصدها لا التى نحن فيها . فوافقهم الامام وساروا الى أرض امابة وبعد قتال شديد فى الجبال والاوعار قاتل فيه الحبشة بالسهام المسمومة فـلم تنفعهم وتغلب عليهم المسلمون فأسلموا وأرسل فرشحم على الذى كان قائد الحـلة فى جهة المابة بكتاب الى الامام يقول فيه ان أهل «مايه» أسلموا وكذلك أرض «زقاله» وبلاد «جتوا» و «ارحتلو» و « شجن » أسلموا جميعهم ففرح الامام فرحا شديد . وكذلك كان أرسل عبد الناصر الى «جنز» وقال له قاتلهم أو يسلموا أو يعطوا الجزية . وأرسل الوزير مجاهدا الى أرض «وج» والى « جبرجى » وقال له : قاتل وأنا سائر من ورائك . فاهـل وج وجبرجى أعطوا الطاعة وأدوا الجزية واما بطريقهم «اسلام دحر» والبطريق الآخر «وينداب» صهر الملك فأبيا أن يسلما . فاما وينداب فسار بمائة وخمسين فارساً لاحقا ببـلاد الداموت وأما اسلام دحر فأرسـل الى الامام ولده وبطريقا اسـمه عسبو ليتـكلما مع الامام فى الصلح وكان عسبو فصيحا لبيبا فقال للامام : هذا ولد البطريق اسلام دحر وأنا صهره جئناك على أن لاتخرب بلادنا ولا تحرق كنائسنا ونؤدى الجزية ونبقى على ديننا . فرضى الامام بهذا منهما فأظهرا رغبتهما فى الاسلام بعد ذلك فقال لهما الامام : قولوا نشهد ان لااله الا الله وان محمدا رسول

الله . فأما البطريق فقالها وحسن اسلامه . وأما ولد البطريق اسلام دحر فقال انا لاأسلم حتى تحلف لى انك تتخذنى ولدا فضحك الامام من قوله وقال له : أسلم انا أفعل لك ماأردت كله . فقال لا اله الاالله محمد رسول اللهصلى الله عليه وسلم . ثم انه كان معهما ثلاثون فارساً فأسلموا جميعا . واما «تسفو» مقدم بلاد المايه فارسل الى الامام قائلا : لاتخرب بلادى فانى أسلمت على يد فرشحم دين . فأمنه الامام وقدم عليه هو والفى راجل من الرماة فأكرمهم الامام وأقر تسفو على امارته . وجاء الوزير مجاهد مع أهل وج الذين أسلموا و وصل فرشحم دين بعد الوزير مجاهد ومعه من أسلم على يده وهم أهل ستة بلدان بفرسانها وبطارقتها وكانوا الوفا فسجد الامام لله شكرا ودعا لفرشحم دين . وأما عبد الناصر فاقر الجزية على الذين فتح بلادهم و بعضهم تحصنوا بالجبال فسار الى «كنبات» وقاتلهم وقتل منهم خلقا كثيرا الى ان اقر الجزية و رجع الى «جيطو» من أطراف بلاد هديه فقاتلوه فقاتلهم الى ان اقر الجزية .

اما الامام فكان فى أرض وج صام فيها رمضان وأفطر فى «جراجى» وأرسل جيشا فيه عدة امراء تحت قيادة الأمير حسين الى دوار و فدخلوا أرض زرى ثم أرض وطمات وكان هناك سافو ابن البطريق وسن سجد وغيره من البطارقة فانهزموا من وجه المسلمين . ودخل سافو أرض «جان زجرة» فتعقبوه اليها فانهزم الى عنقوت لاحقا بالملك وأخبره بما فعل المسلمون فحزن جداً . أما الأمير أبو بكر فانه دخل جان زجرة وخربها وأحرق كنائسها ثم سار الى أرض «جراو رارى» وحط فوق نهر «بور» فدخل عليه بطريق جراو رارى والبطريق «روبيل» والبطريق «وسن جش» والبطريق «تيدروس» وأسلموا جميعا وحسن اسلامهم . وكذلك أسلم الجراد هنو وتحصن خمسة من البطارقة فى الجبال فقاتلهم الأمير أبو بكر وأسرهم هم ونساءهم وأولادهم .

وأما الأمير حسين والوزير عدلى فدخلا أرض جاتر فجاء أهل «ادل مبرق» اليهما وأسلموا جميعا . وكذلك أهل «اواولده» و «وتن» و «أجيت» و «ارقوى» كل هذه من أرض دوار و فأسلموا جميعا .

اما الامام فسار من جراجى مسيره يومين وحط فوق بحر زواى وهو بحر ماؤه عذب تسير فيه سنابيقهم مسيرة ثلاثة أيام وفيه ثلاث جزائر كل جزيرة فيها ثلاث كنائس فأراد

الامام غزو هذه الجزر فقال له المسلمون دع البحر الآن وسر الى أرض هديه فجاء صاحب هديه وهو مسلم من الأصل وكان يؤدى جزية لملك الحبشة وكان يقدم كل سنة بنتا من أبكارهم جميلة للملك يأخذها و ينصرها . فلما دخل صاحب هديه على الامام مع جنده قال أنا مسلم وأنتم مسلمون فأكرمه الامام وخلع عليه وهو وأهل بلده أضافوا العسكر فسألهم الامام بصنعهم الذى كانوا يصنعونه وهو أن يصطفوا كل سنة بنتا لحسنها وجمالها و يقدموها لملك النصارى . فقالوا له : انه حكم على آبائنا الأولين وحكم علينا أن لانلبس عدة الحرب ولا نمسك السيف ولا نركب الخيل بالسروج وحكم أن نعطيه البنت فكنا نعطيه مخافة أن يقتلنا و يخرب مساجدنا وكنا متى جاءنا الذى يريد أخذ البنت غسلناها وكفناها بثوب وحسبنا أنها ميتة وأعطيناه اياها فانا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك ففعلنا فالآن اتانا الله بكم وقد هزمتم الذى يحكم علينا وقتلتم جيوشه فنحن نجاهد معكم . فسار الامام الى أرض « أى فرس » ومعه صاحب هديه وأرسل «أحمد جويتا» الى «شرخه» فأسلم أهلها وسار الامام الى جاتر فأسلم أهل جاتر . وأهل «جان جى» وهم خلق كثير . وأسلم عثمان بن تخلى وكان أبوه مسلماً فارتد فى أيام السلطان محمد فعاد هذه المرة الى الاسلام هو وأخوه خالد ومعهما عدد عديد جدا من الفرسان والرجالة فولى الامام أرض جاتر شهابا و ولى الأمير عمر ارض «استر جاتر» وفرق خمسين أميرا على البلاد التى فتحها . وجلس الامام فى «عندوره» وأرسل عبد الناصر الى «جينه» وقال له : لا يسعك غيرها لأن معك جيوشاً كثيرة . و بينما الامام فى عندورة أرسل اليه البطريقان « سيمو » و « صبرو »انهما معه لامع أهلهما و يطلبان منه جيوشا حتى يقاتلا فيها فارسل الامام الى الوزير عدلى والأمير حسين بالمجئ بجيوش كافية فحضرا اليه فبلغه ان الاحباش خربوا بلاد هديه و بلاد جنز فاعاد عبد الناصر الى جنز وجعل صهره فى هديه وأسلم البطريق صبرو على يد الامام وأرسل الامام وزيره عدلى الى بالى وولاه عليها فسار اليها ومعه من أبطال المسلمين الوزير عباس ابن أخى الامام والجراد أحمد جويتا واورعى قاط عمر والجراد أحمد وش بن محفوظ وفرشحم سطوت وفرشحم على واورعى أحمد بن هرجاى محمد وحامد بن سوحه . ثم لما بلغ الامام أن صاحب بالى فى قوة عظيمة أرسل عبد الناصر صاحب الجنز والجراد صديق صاحب شرخه وصاحب هديه مدداً للوزير عدلى وكان دليلهم البطريق صبرو الذى أسلم وكان فارسا مشهورا ووافاهم البطريق سيمو واسلم أيضا .

فأرسلوا الى بطريق بالى ينصحونه أن يخضع لئلا يندم و يخوفونه بكثرة جيوش الاسلام فاجاب بانه لا يسلم ولا يؤدى الجزية وانه حاضر للقتال وأمر صاحب بالى جموعه أن يخرجوا للحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وتلاقى الجمعان فى بلدة زلة وأما المسلمون فكان على ميمنتهم الوزير عباس والجراد عثمان وعلى الميسرة عبد الناصر وأصحابه وفى القلب الوزير عدلى وأصحابه وفى المقدمة ابسما نور وصبر الدين البطل المشهور . وأما صاحب بالى فصف التروس قدام الخيول وركب فرسه وقام فى وسط القلب كأنه برج من حديد وجعل نساءه وراءه وعليهن زينتهن وفعل سائر البطاريق مثل فعله . ولما اختلط الجمعان حمل فرشحم على على بطريق بالى حتى اقتلعه من سرج فرسه وضرب به الارض وسقطا معا فنهض فرشحم على واستل خنجرا كان معه وقطع رأس البطريق فاما رأى الحبشة زعيمهم قد قتل ولوا الادبار وتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون فقتل من الحبشة عدة الوف وكانت نساء المسلمين حملن أيضا وراء رجالهن وهن على بغالهم فكانت المرأة منهن تقول بعد الوقعة اسرت اربع نسوة وتلك تقول خمسا وتلك تقول ستا أو سبعا . وكان جملة البطارقة الذين قتلوا مائة بطريق منهم البطريق اسحق قتله ابسمانور . وابيب بطريق جاتر وكان شيطانا شجاعا قتله البطريق سيمو الذى اسلم . و بطريق ليمو صاحب شرخة قتله الجراد احمدوش بن محفوظ . والبطريق غفانى قتله حبشى أسلم . وقتل زمنكر ابن بطريق بالى قتله تماش ابون . والبطريق مجن قتله البطريق صبرو الذى اسلم مع سيمو . واسر نحو مائتى بطريق منهم « ازاج زخره » وكان من خواص الملك . ومنهم البطريق نقدية وكان مسلما مرتداً . ومنهم البطريق جرجيس ومنهم ابن دحرجويته . وقتل من الرجالة والفرسان ممن لم تعرف اسماؤهم ثلاثة آلاف . وملك الله المسلمين خيولهم ومتاعهم ونساءهم واولادهم وما ملكوا جميعا . وحط الوزير عدلى فى بيت البطريق عدلو فى زله وسأل هل بقى من البطارقة أحد فقالوا نعم وعدوا له خمسة بطارقة . قال الآن اين يونون . قال البطريق سيمو : ما يقصدون الا ارض «قاقمة» . عند البطريق ايدبس فارسل الوزير البطريق سيمو ومعه أربعون فارسا فلقيهم مختفين فى الاشجار فاسروهم وأخذوا معهم خمسين فارسا . وكان الوزير عدلى لما سار الى بالى أرسل الامام الجراد « جوشو » ابا بشاره الى باب دارة وقال له الذى يخرج من بالى لا يفلت منك لأنه لا طريق الا من هذا الباب فكان ما توقع وهو ان خمسة بطارقة

ومعهم ستون فارسا قصدوا العبو روهم منهزمون فما شعروا الا والمسلمون عند الباب فاسروهم وضربوا أعناقهم وقطع الجراد جوشو رأس البطريق « حجه » وأرسل به الى الامام لان الامام كان يتحرق عليه غضبا اذ كان ارسل الى الامام يقول له اريد أن أسلم فارسل اليه الامام رسولا فقتله ولحق بارض بالى، فلما وقع هذه المرة فى يد الجراد جوشو قتله وأرسل برأسه الى الامام ففرح به . ولم يكن وصل اليه خبر انتصار الوزير عدلى فى بالى فلما رأى الامام الراس قال للرسول : من أين لقيتم صاحب هذا الراس . فقال الرسول : أما جاءكم الخبر من الوزير عدلى بما جرى . فقال الامام : وما ذا جرى . فاخبره الرسول بالنصر العظيم الذى منّ الله به . فصلى الامام ركعتين شكرا وخلع على البشير خلعة تامة وجلس فى الفلاة وأمر بضرب النقارات والطبول . ثم وصل بشير الوزير عدلى بتفصيل خبر المعركة وهو يسأله كيف يفعل بالاسارى ونساء البطارقة وأولادهم فاجابه : أما البطارقة ونساؤهم وأولادهم والخيول التى غنمتموها فأخرج خمسه وفرق الباقى على المجاهدين . وأما امرأة البطريق عدلو فخذها لك ومن أسلم من البطارقة يكون معك ومن لم يسلم فاقتله . وأما نقديه المرتد فاشنقه بباب البلد زله . وأما خارج وازاج زخره وجرجيس وابن دحر جويته فارسلهم الىّ . ثم ارسل الامام الى البطريق سيمو سيفا من الذهب الاحمر فيه ٢٠ اوقية على مقبضه وذلك لما فعل من الجميل وكونه لم يغدر . فانفذ الوزير أمر مولاه وفرق الاموال ونساء البطارقة واخذ امرأة البطريق عدلو لنفسه . وارسل الى الامام الاسارى الذين طلبهم فامر بضرب أعناقهم . وأما خارج المرتد فشفع به المسلمون وقالوا للامام : هذا قد تربى فى بيتك وهو صغير وقد تاب . فعفا الامام عنه . أما أهل بالى فاسلموا باجمعهم بعد هذه الواقعة . وكانت واقعة بالى يوم الجمعة يوم الحج الاكبر سنة ٩٣٨ .

ثم ارسل الامام الوزير مجاهدا الى أرض وج فقاتله بطريقها « اسلام دحر » صهر الملك اسكندر ومعه ثلاثون بطريقا بجنودهم فهزمهم . وقتل اسلام دحر ومن معه من البطارقة واطاعت وج سهلها وجبلها وارسل الوزير مجاهد بخبر الفتح الى الامام وهو فى جراجى . وكان ملك الحبشة أرسل بطريقا اسمه « أيكر » ومعه جيش الى بلاد جنز فقصده عبد الناصر من أرض هديه وهزمه وأسر عسكره ولم يفلت الا البطريق وحده واسلم العسكر الذين وقعوا فى يد عبد الناصر وحسن اسلامهم وشهدوا فيما بعد عامة الوقائع . وارسل

الامام قائدا اسمه يعقيم الى ارض ورب فاجتمع الحبشة تحت قيادة بطريق اسمه اكليل وقاتلوا يعقيم فهزمهم وقتل منهم الف رجل وكتب الى الامام بالفتح وسأله ماذا يفعل فاجابه بأن يأخذ من أهل ورب جزية سنوية مقدارها ١٥ الف حمل من الحنطة والف اوقية ذهب والف كدوجة من العسل والسمن . فاطاعوا على ذلك وجلس يعقيم فى بلادهم .

فبعد فتح الامام لبلاد دوارو وبالى وهدية وجنز ووج وورب وفطبحار وافات وما حولها لم يبق خارجا عن طاعته الا قدر ثلث الحبشة فارسل الامام الى بر سعد الدين بطلب امرأته وأمر المجاهدين بان يطلبوا نساءهم ويسكنوا ببلاد الحبشة ففعلوا وبعث الوزير عدلى الى بلاد الداموت ففتحها وهزم بطارقتها وفتح بلاد جافات وغنم غنائم لا تحصى . ثم جمع الامام الامراء فى دبر برهان ، وقال لهم : قد انفتحت بلاد الحبشة ولم يبق الا بلاد التيجرى ومدر والقوجام فاما أن نسير اليها واما أن نجلس فى هذه البلاد سنة حتى نقررها . فاشار بعضهم بالجلوس سنة واحدة حتى تتقرر الاحوال وقال الآخرون مثل الوزير عدلى وعبد الناصر والوزير مجاهد وزحربوى محمد لابل الاحزم أن نقصد ملك الحبشة من الآن لاننا فى قوة ومنعة . فقبل الامام رأيهم وسار بجيوشه من عدة طرق وجرت معه وقعة بقرب بيت المحره أخذ فيها أربعة آلاف مع بطريقهم ابن دجلحان فعرض عليهم الاسلام فاسلموا ولبثوا مع الامام الا ان ابن دجلحان فر فيما بعد .

ثم سار الامام الى جبل العنبا الذى تقدم ذكره وهو الذى يحفظون فيه أولاد الملوك ولا يمكن الصعود اليه الا بالسلالم وكان المسلمون عجزوا عنه أول مرة فحط الامام على هذا الجبل وأمر ملك الحبشة جميع جيوش التيجرى أن تقاتل الامام دون هذا الجبل فقاتلهم الامام نحو شهرين وما زال حتى فتح الحصن الأول والصخور والحجارة من فوق المسلمين مثل البرد تقع عليهم . وكان مع النصارى وأهل التيجرى مدافع وبنادق وكان يضرب لهم بالمدافع رجلان من المسلمين أحدهما عربى اسمه حسن البصرى والآخر عبد أصفر تركى كان عند الامام ثم تنصر ولحق بالحبشة . ولكن الامام كان أرسل الى زيلع فاشترى مدفعا كبيراً من نحاس ومدفعين صغيرين من حديد وجيء بها على الجمال الى جندبله ثم حملتها الرجال الى محلة الامام لأن الجمال كانت لا تقدر على السير فى تلك الأوعار وكان مع المدافع مهتاران من الهنود فضربا بالمدافع واشتد القتال وكان حسن البصرى يضرب بالمدافع على

المسلمين فلما رأى الامام أن لا سبيل الى أخذ الحصن الثانى أمر بالرحيل وقصد بلاد التيجرى ومر بكنيسة اسمها « لالبلا » وهى كلها منقورة فى الصخر وأعمدتها من الصخر وفيها صهريج ماء منقور فى الصخر وليس فى هذه الكنيسة خشب سوى التماثيل والتوابيت فأحرق الامام ما فيها من التماثيل . وسارت طلائع المسلمين مع مقدمها شمسو مع مسيرة يومين حتى بلغت نهر حرار وكان الأحباش عبروه وتركوا أثقالهم ومعها بنت أخت ملك الحبشة فوصل المسلمون وأخذوا الأثقال و بنت أخت الملك وعادوا بها الى الامام فتسرى الامام بنت أخت الملك وولدت له . ثم قدم الامام القائد شمسو فسار يومين فتلاقى مع الأحباش وهم فى عدة عظيمة ومن جملة ما معهم حبال كثيرة هيأوها لربط المسلمين فهزمهم شمسو وقتل منهم ثلاثة آلاف وربط كثيراً منهم بحبالهم . وزحف الامام الى الأمام واستشهد معه زحربوى محمد بحربة مسمومة فحزن عليه حزناً شديداً وهزم العدو وحط عند كنيسة ماريه . وولدت له زوجته هناك ولداً أسماه أحمد النجاشى وكان أول ولد فى التيجرى ثم سار لحط فى « قرقاره » وهى كثيرة البر والعسل فأقام الامام بها وسرح جيوشه تغزو البلاد فتلاقى المسلمون مع العدو فى أرض التنبين فهزمهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وسار يريد مدينة أكسوم لحط فى أرض « ارعدة » ودخل عليه أناس من مسلمى بلاد التيجرى من قبيلة بلو وقالوا له : ان الأحباش اجتمعوا بجبل هناك فقسم جيشه قسمين وقصدهم وأفنى منهم أكثر من عشرة آلاف حتى امتلأ السهل والوعر بجيف القتلى ونهبوا من مواشيهم ما لا يقع تحت حصر . ووصل الخبر الى ملك الحبشة أن المسلمين دخلوا الى التيجرى وأخربوها فبكى وحزن حزناً شديداً وجمع جميع بطارقته وجيوشه وسار الى اكسوم وأخرج الصنم الكبير من كنيسة اكسوم وهو حجر أبيض مرصع بالذهب ومن كبره لم يمكن اخراجه من الباب بل نقبوا من الكنيسة على قدره وأخرجوه وحمله أربعمائة رجل وذهبوا به الى حصن اسمه تابر . وسار الامام قاصداً اكسوم فمر بثلاثة حصون صالحه على الجزية أهل حصنين منها نخلاهم . وقاتله أهل الحصن الثالث فقهرهم وقتلهم عن آخرهم وفر ملك الحبشة الى « مزجة » وسلطانها مسلم اسمه مكتر . فأرسل هذا الى الامام يستصرخه قائلا : أدركنى قبل أن يقتلونى لجد الامام فى السير حتى ينقذ مسلمى مزجة ومر بكنيسة اباسامئيل وكان فيها خمسمائة راهب فقتلهم جميعاً وصادف جمعاً من الحبشة مقبلين لنجدة

الملك فاستأصلهم . ووصل اليـه من السلطان مكتر رسول يخبره بأن النصارى ضيقوا عليه وقتلوا كثيراً من رجاله وثلاثة من أولاد أخته وهو ينتظر وصول الامام فأرسل اليه الامام أنه قادم اليه ففرح فرحاً لا مزيد عليـه وخرج وهو مريض وركب فرسه ولبس درعه وسار يلاقى الامام ومعه خمسة عشر ألف مقاتل من النوبة . فنزل الامام بجيشه عند السلطان مكتر فأضافهم عشرة أيام . و بلغ ملك الحبشة أن الامام صار الى هناك فانهزم بجيشه الى أرض قجام وسار الامام وراءه فبعد مسيره بثلاثة أيام مات السلطان مكتر فأخفت أخته « جعوة » خبر موته عن العساكر وأرسلت تخبر الامام بموته فولى الامام ابنه نافع مكانه وهو صغير بكفالة عمته وكانت تدبر الأمور فى حيـاة أخيها . ثم تقدم الامام الى أرض الدنيه وسأل عن ملك الحبشة فقالوا له فاتك من ثمانيـة أيام . فسار الامام وحط عند كنيسة انفراز وأحرقها وقام يتبع الملك ففى الطريق أدركوا فارساً من النصارى فأسروه فاذا هو أبون أخو الوزير مجاهد وكان قد ارتد ولحق بملك الحبشة فسأله الامام عن الملك قائلا : اما نلحقه اذا سرنا وراءه . فقال لا لأنه قطع بلداناً كثيرة . ثم أمر الامام بضرب أبون المرتد هذا وعفا عنه فلم يقتله. و بقى الامام مجداً فى السير فصادف خيام الملك ومطابخه قد رموها فى أرضها ثم لقى صناديقهم مرمية قد تركوها حتى لا يتأخروا بسببها . وأدرك الامام ساقة جيش النصارى وفتك بهم ولم يدرك الملك وهذا نزل على نهر « اباوين » الذى يتصل بنيل مصر وكان الامام فى طليعة جيشه اختلط بعسكر النصارى ولم يشعر الا وهو فى وسطهم فكانوا يتكلمون بكلام النصارى حتى لا يعرفوهم . ولما لم يدرك الملك وقف حتى وصل اليه جيشه . وأسر فى تلك النوبة أحد صبيانه واسمه أنس كان ارتد ولحق بابن البطريق دجلحان فأمر الامام بقطع يديه وأسروا البطريق اقابسات الذى هو قاضى الحبشة وهو عندهم ثانى البطرك فقتله الأمـير ابسمانور وأسروا أخت ملك الحبشة وكان اسمهـا « امتى دنقل » . ودخل الامام بلاد التيجرى وقد اشتد بها الغلاء والجوع فبلغ ثمن كل ثلاثة آصع مثقالين من الذهب وصارت الأحباش تسرق بغال المسلمين . وكانوا لما دخلوا أرض التيجرى كل واحد منهم معه خمسون بغلا فما خرج منها الواحد الا ببغل أو بغلين . وكان الوزير عبـاس ذهب الى أرض السراوى ثم تبعه الوزير عدلى وأهلها مسلمون ومنهم نصارى فأسلموا . وقاتل البطريق « تسفولولو » فى مكان حرج مشتبك الأشجار وهناك طريق ضيقة لا يقدر أن يمر بهـا الفارس الا وحده يتبعه

الفارس . فأراد الوزير عدلى أن يتقدم الجميع فى هـذه الطريق فلمـا توسط الطريق رماه النصـارى بالحراب والمزاريق فأثخنوه بالجراحات فسقط فتقدم من المسامين رجل اسمه بربرى فحمله على ظهره و به حشاشة على أن يهرب به والسهام عليهما مثل المطر فقال الوزير عدلى لبربرى ارمنى عن ظهرك فما بقيت بى روح . فتقدم فارس من صبيان الوزير عدلى يسمى كبير محمد فقتلوه فتقدم آخر اسمه الجراد هيجو من أهل بالى فاستشهد . فلما رأى المسامون أن لا سبيل للمرور رجعوا الى الوراء وحطوا فى مكان فسيح وقطع النصارى رأس الوزير عدلى وأرسلوا به الى ملك الحبشة ولما وصل خبر موت الوزير الى الامام جمع الجيوش وكان أكثرهم من الذين أسلموا جديداً فأمر منادياً ينادى ان عبداً من عبيد الامام مات ويقوم واحد مكانه وهو الوزير عدلى فحينئذ ارتجت المحطـة بالبكاء والنحيب وحزن المسامون حزناً شديداً . أما النصارى فلما وصل رأس الوزير عدلى الى الملك جلسوا ثمانية أيام يضربون طبولهم ونقيرهم ويظهرون زينتهم ويشربون خمورهم .

وجعـل الامام الوزير عباساً مكان الوزير عدلى وأرسله الى أرض السراوى فقصده البطريق « تسفولولو » وأسرع بالمسير آملا الظفر وأمام جيشه راهب على حمار يقول للحبشة اليوم لـكم النصر على الوزير عباس فتلاحم الفريقان وحمـل رجل من المسامين على البطريق تسفولولو فجندله صريعا فلمـا رأى الأحباش بطريقهم قتيلا ولوا الأدبار فتبعهم المسامون فلم يفلت منهم أحد وقتـل الراهب وهو على حماره ، وقتل أولاد البطريق وأخذ الوزير عباس بثأر الوزير عدلى وأرسل برأس البطريق ورؤوس أولاده الى الامام ففرح بالنصر وأخذ الثأر .

وجلس المسامون فى بلاد التيغرى سنة واحدة حتى فرغ زادهم وأضر بهم الجلوس فمات منهم أناس كثيرون فى أرض السراوى بالطاعون مات أورعى أبو بكر ومات أحمد النجاشى ولد الامام وماتت طاوسى امرأة الوزير عدلى ومات الجراد عبد الناصر وامرأته بلقيسة وارتد بعض المسامين ومنهم أخو فرشحم سلطان مع كثير ممن كانوا أسلموا وذلك من الجهد الذى جرى للمسامين . ولم يبق لهم ظهر ولا حمار يحملون عليه فـكان كثير منهم يحمل دبشه على ظهره . فلما رأى الامام ماحل بالمسامين فى أرض تيغرى سار بهم قاصداً أرض « بقى مدر » لـكثرة خـيراتها وولى ولاة من قبـله على بلاد السراوى وبحر نجاش

والحاسين وعزل الشريف بورا عن ذخنو وولى مكانه السلطان أحمد بن اسماعيل الدهلكي ومر الامام بأرض مزجة التي أهلها مسامون وصام عندهم رمضان سنة ٩٤١ ثم سار الى بقي مدر فكمن له الأحابيش فى الطريق وكان عليهم بطريق بقي مدر ومعه ثلاثة بطاريق فهزمهم وأسرهم . وفر منهم بطريق ساول الى بلاد سمين ، وهى جبال لايوجد أعصى منها فى جميع الحبشة وأهلها من يهود الحبشة ويقال لهم بلغتهم فلاشة يقرون بوحدانية الله ولا يعرفون غير ذلك من الايمان . وكان أهل « بحر عنبا » استعبدوهم أربعين سنة يحرثون لهم ويستخدمونهم فلما انتصر الامام على الحبشة جاءوا اليه من كهوف جبالهم وخدموه وصاروا حراثين للمسامين ثم استفتح الامام بقي مدر وصار أهلها فلاحين للمسامين واستفتح « وقرة » وبنى فيها مساجد وولى عليها الجراد صبر الدين واستولى على بلاد « درجه » من بقي مدر وولى عليها فرشحم عليا وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسامين . وأخذ بلاد الوفلة وكنفات الى أرض واق وجعل فيها الأمير أبا بكر قطين مع جيشه وبنى فيها المدن والمساجد ودخل بلاد الدنبيه وهى كثيرة الخيرات وبندر الذهب فاتخذها مسكنا وأصلحها وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسامين . وأعطى بلاد « تاكه » وهى ثغر بلاد الهمج الى الوزير عباس واستراح المسامون وسار الامام الى بلاد قجام فأخربها وتلاقى فيها مع الأمير شمعون وكان لما تركه الامام فى جدم قصده ملك الحبشة بجموعه فهزمه شمعون وأخذ كل مامعه . وكان فى الدنبيه بحر عذب مسيرة أربعة أيام وفى وسطه ثلاثون جزيرة مملوءة فواكه ورياحين وكان كل من لم يطع المسامين من الأحباش التجأ الى هذه الجزائر فغزاهم الامام بالسنابيق الى جزائرهم . انتهى

هذه خلاصة الجزء الأول من كتاب عرب فقيه ولم يعثر المستشرقون على الجزء الثانى وانما مجمل الأخبار التى فى هذا الكتاب مؤيد بكتب الحبشة وتواريخ الافرنج . وقد ظهر هنا أن بلاداً كثيرة مما عده صاحب مسالك الأبصار من ممالك المسامين فى الحبشة ونقله عنه صاحب صبح الأعشى كانت فى أيام الامام أحمد بن ابراهيم من بعض ولايات الحبشة مثل أوفات ودوارو وهديه وشرخه وبالى وان الامام الغازى أحمد انما فتح البلدان التى كان أصلها للمسامين . وأغرب من هذا وذاك المبالغة التى حصلت فى احصاء أجناد تلك الممالك الاسلامية وان هذه فرسانها أربعون ألفاً وهذه عشرون الفاً الى غير ذلك مما لايمكن أن

يكون بدليل أن جميع فرسان الامام الذى هو أكبر غاز فى الحبشة عند ماعرض الجيش الوزير عدلى كانوا أحد عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل وهو الجيش الذى يمثل قوة مسلمى الحبشة بأجمعها ثم ان صاحب « هدية » الذى قال عنه انه أقوى اخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا وان عنده أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم مثل الفرسان مرتين وأكثر هوهو الذى ذكر صاحب « فتوح الحبشة » انه كان يقدم كل سنة لمليك الحبشة بنتا مسلمة يتسراها وينصرها وانه لما وبخهم الامام الغازى أحمد بن ابراهيم على قبول ذلك قالوا له : كان هذا الملك مستبداً بنا ضاربا علينا الذلة والمسكنة محظورا علينامسك السيوف وركوب الخيل بالسروج فكنا نقدم له الطاعة والمال والبنت هذه فداء عن أنفسنا ومساجدنا . فكيف تخاط هذه القصة التى تاريخها فى القرن العاشر للهجرة (٩٣٠) مع قصة الأربعين ألف فارس والثمانين ألف راجل التى يجب أن يكون تاريخها قبل ذلك بقرنين أوقرنين ونصف قرن ولايظهر من حال هاتيك البلاد بحسب وصف عرب فقيه انها تحتمل هذه القوى الهائلة كلها لاسيما ما كان منها مثل مملكة هديه ضيق الرقعة قليل المادة . ولاشك ان عرب فقيه الذى كان فى البلاد نفسها ادرى من الشهابى بن فضل الله ومن القلقشندى ومن المقريزى الذين نقل بعضهم عن بعض .

لقد لخصنا فتوحات الامام أحمد جران وفتكه بالحبشان النصارى وحمله اياهم على الاسلام وليس ذلك الا جزءا مما كان يفعله الحبشة النصارى بالحبشة المسلمين والصومال والنوبة قبل ظهور السلطان سعد الدين والامام أحمد و بعدهما ومما كانوا لايزالون يفعلونه الى عهد قريب وهاك ملخصا تعريب ماجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية تحت اسم الحبشة ، فبعد أن ذكر فيها ان جغرافيي العرب الأولين والمتوسطين مثل ابن خرداذبه والمقدسى والمسعودى والادريسى وأبا الفدا والدمشقى وابن الوردى والحرانى لم يذكروا شيئا طائلا عن الحبشة جاء فيها ان المؤلف الوحيد الذى تكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة فى الأعصر الأخيرة وأخبار ممالك الاسلام فيها هو المقريزى فى رسالته « الاعلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ».

فالمقريزى يتكلم عن اقليم من الحبشة يسمى زيلع يشتمل على سبع امارات : أوفات ودوارو وارابابنى وشرخه وبالى ودراه ومملكة هدية القوية . فكل منهذه الممالك

كان عليها أمير مستقل بها لكنهم جميعا كانوا تحت سيادة الحطى سلطان أمحره وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر دخل مسلمون كثيرون فى أرض شوا ووصلوا الى بقى مدر[١] وأول من أساء معاملة المسلمين من ملوك الحبشة يقال انه الملك يقونوا ملاك (١٢٧٠-١٢٨٥) فجر هذا الاضطهاد الى حروب ووقائع مستمرة اشتهرت كثيراً لاسيما فى أيام الملك عمدسيون الذى انتصر على ملوك عدال صبر الدين وجمال الدين الخ (١٣١٤ - ١٣٤٤) واستمرت هذه الحروب فى أيام خلفاء عمدسيون مثل نوايا كريستوس (١٣٤٤ - ١٣٧٢) ودافيت (١٣٨٢ - ١٤١١) ويسحق (١٤١٤ - ١٤٢٩) وزارا يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨) وبيدامريم (١٤٦٨ - ١٤٧٨) واسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤) الخ وقد أخضع بيدامريم ملك الدناقيل أيضاً وهم أمة مسلمة لاتزال ساكنة الاقاليم بين جبال الحبشة والبحر الأحمر ففى أوائل القرن السادس عشر (أى منذ نيف وثلثمائة) كان الاسلام فى هاتيك الأصقاع فى ذل عظيم .

وكانت تلك الحروب كلها مدة قرنين كاملين خارج الحبشة الأصلية ولكن سنة ١٥٢١ نقل سلطان « عدال » أبو بكر بن محمد كرسيه الى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين شوا والحبشة ثم لم يلبث ان ظهر أحمد بن محمد جران القائد الصومالى [٢] الذى عاونه الترك بالمدافع والجنود [٣] فشن الغارات على الحبشة حتى بلغ أقصى شماليها ونهبها مراراً واحرق كنيسة اكسوم . وكتاب هذه الفتوحات الذى ألفه عرب فقيه (١٥٤٣) هو التأليف العربى الوحيد الذى يذكر كثيراً أقاليم الحبشة . وسنة ١٥٤٤ انتصر الملك غلاديوس على جران هذا وقتله ولكن نور الدين خلف جران أخذ بثأره فغلب غلاديوس وقتله سنة ١٥٥٩ وكان الأتراك قبل ذلك بسنتين احتلوا مصوع وبمساعدة أمير البلاد الساحلية احتلوا عدة مدن من جلتها « دباروه » وثار هذا الأمير واسمه يسحق على الملك « سارسا دنقل » وظاهره الترك فانكسروا جميعا فى واقعة « عبا جريه » وسنة ١٥٨٩ هزم سارسا دنقل الباشا التركى « قداورت » بقرب اركيكو وقتله .

وبسبب هذه الطوائل وغيرها مما احرزه الملك سارسا دنقل على محمد الرابع سلطان

(١) تقدم ذكرها فى فتوحات الامام

(٢) الذى نعرفه أنه أحمد بن ابراهيم

(٣) على كل حال فى الوقائع التى لخصناها عن صاحب تاريخ فتوح الحبشة لا يوجد أثر للترك

عدال و بمساعدة البرتقاليين للحبشة ضعف المسلمون فى الجنوب والشمال ولم يبق منهم خطر. ثم فتح الملك سوسنيوس مملكة سنار (١٦٠٧ — ١٦٣٢) وسنة ١٦٣٢ استنفر المسلمون العصاة سلطانهم طلحة لمقاتلة الحبشة فجاوبهم بأن هذا لم يعد ممكناً . ثم ان البجه الذين كانوا أسسوا سنة ١٦٥٠ مملكة سنحار لم يقدروا على ملوك الحبشة مع اعتدائهم أحياناً على الحدود واضطر النائب موسى بسبب نهب أمتعة تخص الملك ياسو الأول أن يذهب الى اكسوم و يطلب العفو . وسنة ١٦٩٧ تغلب الحبشان على أمير البجة وسنة ١٧٦٩ ثار البجة على ملك الحبشة فدوخ الراس ميكائيل بلادهم على أن غزوات الاسلام لا سيما فتوحات جران فتحت أبواب الحبشة للاسلام وقد فهمنا من كتاب عرب فقيه ان مغازى جران حملت كثيرين فى نفس بلاد الحبشة مثل فاقو ودنبيه الخ على الدخول فى دين الاسلام وشيدت فيها مساجد مما يحمل على الاعتقاد بأن الدخول فى الاسلام لم يقع على حدود الحبشة فقط . وفى سنة ١٦٤٨ وصلت رسل اسماعيل المتوكل امام صنعاء الى الحبشة فوجدوا بقرب غندار مدينة أهلها كلهم مسلمون وشاهدوا فى بلاد اندرته (سبق ذكرها) مسلمين شافعية ، وكان فى نفس غندار حارات للمسلمين . وسنة ١٦٦٨ عقد الملك يوهانس مجمعا قرر منع المسلمين من السكنى مع النصارى ثم تجدد هذا الأمر سنة ١٦٧٨ مما يدل على كثرة المسلمين الذين كانوا بين النصارى .

وفى القرن الثامن عشر انتشر الاسلام فى أمة الغالا الذين الى الجنوب الشرقى من الحبشة والى الشمال من شوا و يقال ان أمة الفولو هداهم الى الاسلام عربى اسمه دبلو . وقد حقق رو بل Rüppel انه سنة ١٨٣٠ كان الاسلام ينمو فى الحبشة و بالفعل ظهر ان أمماً من التيجرى كانوا فى أوائل القرن التاسع عشر نصارى هم اليوم جميعاً مسلمون مثل الحباب والتامار يان والتا كل الخ وان اما أسلم بعضهم مثل المنسا وغيرهم .

ولا يجوز أن نغفل أن التجارة قد أفادت الاسلام فى الحبشة كثيراً فان التجار لأجل الوصول الى هناك كان عليهم أن يمروا ببلاد المسلمين فانحصرت التجارة فى أيدى هؤلاء وازداد عددهم ونفوذهم . وكان الراس على من الغالا الذى نفذت كلمته كثيراً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٥ مع تظاهره بالنصرانية يساعد المسلمين كثيراً مما أوجب حصول رد فعل فى أيام الملك تيودوروس عدو الاسلام الاكبر . وازدادت هذه

العداوة عند احتلال المصريين بعض أقاليم الشمال من الحبشة (١٨٣٠ — ١٨٤٠) فأرسل الخديوى جيشاً الى مصوع فاستأصله يوهانس (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) وسنة ١٨٨٠ أصدر هذا الملك أمراً بموجبه ينبغي فيه للمسلمين أن يتنصروا أو يهاجروا من الحبشة. فهاجر كثير منهم الى القلابات وخلت غندار منهم تماماً. وأما مسلمو سراك وهمازن وغيرها فنالوا الاذن بأن يسكنوا فى بلدين خاصين بهم لكن هذه الاوامر لم يطل بها العمل. وكان المسلمون قبل تيودورس ويوهانس متفرقين بدون نسبة فى العدد فكانوا قلائل فى قوجان (تقدم ذكرها) وكانوا نصف أهالى الفولو وادجو والى اليوم تجد المسلمين كثيرين جداً فى بلاد كوالا حال كون المسيحيين كثيرين فى الداقا. أما فى الشوا فالمسلمون كثيرون جداً ولكنهم ليسوا كثيرين فى دنبيه مثلا. أما مستعمرة الاريتره الايطالية ففيها مائتا ألف مسلم أى ثلثا أهل المستعمرة ولهم أربعة قضاة فى المدن الاربع مصوع وكرن واقوردا واسماره وهناك امامة للحباب متوارثة فى بيت امارة من قبيلة الدركى

وما عدا أهل مصوع فمسلمو الاريتره أربع فرق: الأولى السوحو واتباعهم الى الجنوب الشرقى من الاريتره وكان قسم منهم قد أسلم فى القرن التاسع عشر. والثانية مسلمو الساحل والانسبا الأوسط واسلامهم حديث العهد ولكنهم شديدو التمسك به. الثالثة البجة والحبشان الذين أسلموا من قديم ونشروا الدين المحمدى بين قبائل القيدن والباريا فهؤلاء منذ ٥٠ سنة فقط دخلوا فى الاسلام. الرابعة مسلمو البلاد التيجرية من الاريتره.

على ان اسلام الحبشة المنتشر بين الغاله والسحو والبجة ليس له من القوة والشدة ماله فى البلاد الأخرى فليس ثمة مدارس دينية مربوطة بالمساجد وان وجد بعض افراد من مصوع يحبون أن يتفقهوا فى الدين ذهبوا الى الأزهر بمصر وفى الغالب لا يرجعون الى أوطانهم كما أن الطرق الصوفية التى هى من أعظم أسباب قوة الاسلام فى هذا العصر مجهولة فى الحبشة. انتهى.

وذكرت الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية هرر فقالت ما محصله:

ان هرر مركز تجارى عظيم فى شرق افريقية هى الآن داخلة فى ملك الحبشة وقاعدة ولاية اسمها ولاية هرر. موقعها بين ٤٢ و ٢٤ و ٣٦ من الطول الشرقى و ٩ و٢٣

من العرض الشمالى وعدد سكانها ٥٠ ألفاً منهم الثلث فقط هرريون فى الأصل والباقون صومال وغاله وحبشان وهنود وسوريون وأرمن وأروام وأوربيون وأشهر مساجدها مسجد الشيخ أبى ذر ومسجد عمر الدين . ويقال ان الأول هو الذى أدخل الاسلام فى هرر ونشره فى تلك الأصقاع أما الثانى فكان سلطانا على هرر فى أيام أحمد جران [(١)] وهرر هى مركز الدعاية الاسلامية فى شرق افريقية ومنها يذهب دعاة الاسلام الى بلاد الوثنيين من الغاله وعلاقاتها كثيرة ببلاد العرب ومصر . وقد سقطت هذه الأهمية وخفت هذه الحركة الدينية بعد استيلاء الحبشة النصارى عليها ولكن أهالى هرر لا يزالون متعصبين للدين . وألوان أهالى هرر شديدة السواد لكن ما مال منها الى الصومالى كان أميل الى الصفاء ولما كان الحبشان فى القديم استولوا على هرر فاللغة الامحرية معروفة فيها وان كان دخلها كثير من الصومالى والغالى ولا سيما من العربى . ولا يوجد وثائق تاريخية عن فتح الحبشة الأول لهرر والمظنون أنه كان فى القرن الحادى عشر والذى يليه ثم الذى يليه . أما فى القرن الرابع عشر فقد تدفق السيل الاسلامى الى الغرب حتى وصل الى الحبشة نفسها وطمى عليها فى القرن السادس عشر . وأول ما ذكرت هرر فى تاريخ الحبشة هو فى زمان الملك عمداسيون لأن أمراء هرر تألبوا عليه مع غيرهم فكانت يومئذ هرر قاعدة بلاد الزيلع وأول أمير عرف من أمراء هرر هو عمر ولا شما الذى يظن أنه تولاها سنة ١١٥٠ ثم ان الأمير أبا بكر جعل كرسيه فيها سنة ١٥٢١ ولا شك أن السبب فى ذلك هو قدوم الترك فى زمان سليم الاول اذ استولوا على اليمن وجميع سواحل افريقية الشرقية الى رأس غواردافى فاشتبكوا فى الحرب مع البرتقال . ثم ظهر أحمد جران ومعنى جران الاعسر وكانت ولادته سنة ١٥٠٥ وخدم فارسا فى عسكر الامير ثم دبر مكيدة وعصى سيده وما زال حتى استقل واجبر الصومال أن ينضموا الى عسكره ولا يزال الى يومنا هذا اسمه عظيما فى الحبشة ولم يتخذ لقب سلطان ولا أمير بل اتخذ لقب امام ومنذ عام ١٥٢٦ لم يزل يوالى الغارات على مملكة الحبشة حتى دوخها كلها وأحرق الكنائس والاديرة والكتب ونهبها وسبى النساء والاولاد واسترقهم فدخل كثيرون من النصارى فى الاسلام بحيث انهم فيما بعد التزموا فى الكنيسة الحبشية أن يوجدوا هيئة خاصة لاعادة الذين أسلموا الى النصرانية .

---

(١) تقدم ان جران جعله سلطاناً بعد قتل أخيه

وقتل جران سنة ١٥٤٣ فى حربه مع الحبشان والبرتقال وقد كان الملك غلوديوس ممن اشتهروا فى قتال أمراء الاسلام ولكنه قتل هو فى حرب مع الامير نور صاحب هرر . ثم نزلت هرر عن مقامها الاول وبقيت تضعف الى سنة ١٨٧٥ اذ افتتحها القائد المصرى رؤوف باشا بينما كان الامير حسن باشا ابن الخديوى اسماعيل يقاتل الحبشة من الشمال فاما حملات حسن باشا فقد فشلت وأما رؤوف باشا فقد تمكن فى هرر وزيلع وسنة ١٨٧٨ عزل رؤوف باشا وتوالى على هرر عدة ولاة مصريين الى أن قرروا اخلاءها سنة ١٨٨٤ وسلموها الى الأمير عبدالله فزحف اليها منليك الثانى من شوا واستولى عليها فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧ فحازها الحبشة النصارى بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة من فتحهم الأول . انتهى .

أما بلاد الصومال فهى الممتدة من مرسى تاجورة الى راس غواردافى ومن راس غواردافى على البحر الهندى الى نهر جوبا . وفيها سلسلة جبال تعلو الى نحو ٢٠٠٠ متر عند بربرة وهواؤها حار والامطار فيها غزيرة لا سيما فى السواحل وزراعتهم قليلة وأكثر اعتمادهم انما هو على المواشى والخيل والجمال . وعدد الصوماليين مليون نسمة أصلهم مختلط من الغاله والسودان والعرب وكلهم مسلمون وهم أشداء البأس أعزة . وشمالى بلادهم داخل فى مستعمرة أوبوك الفرنسوية وباقى هذا الساحل مع زيلع وبربرة يخص انكلترة وادارته فى عدن وأما الساحل الشرقى من راس الخيل الى نهر جوبا مع مراسى او بيا ومقدشو ومركا فهو تحت الحماية الايطالية

الاسلام فى ماداغسكر

وجزائر القومور

الامير شكيب

اشرنا فى غير هذا المكان الى كون الغرض الذى توخيناه فى هذه الشروح ، هو التعريف ببلاد الاسلام النائية ، ومطارحه القاصية ، والمواضيع التى تحتاج منه الى ايضاح ، دون البلدان المعروفة ، والمواضيع المطروقة . ولما كان من جملة هذه المواضيع مبحث الاسلام فى ماداغسكر ، وجزائر القومور ، فقد لخصنا منه ما يأتى معتمدين فى أكثره على كتاب « المسلمون فى ماداغسكر وجزائر القومور » للمسيو غابريال فرّان الفرنسى Gabriel Ferrand أحد معتمدى الوزير المقيم من قبل فرنسا فى ماداغسكر ومن أعضاء الجمعية الآسيوية بباريز .

قال فى مقدمة كتابه هذا ما مؤداه :

ان تاريخ الاسلام ونموه فى بلاد خط الاستواء الافريقية ، والجزر المجاورة لها ، لا يجود لنا الا بكلمات قلائل على الأشخاص والاشياء فى بحر الهند . فماداغسكر وجزائر القومور الأربع ، وسائر الجزر التى فى الشمال الغربى من ماداغسكر ، لا تكاد تذكر فى جغرافيات العرب ولا رحلاتهم الا نادراً [1] وقد أثبتنا نقصان معلومات الشرقيين عن هذه الأماكن فى نشر تذكراتنا على الصومال ونحو اللغة الصومالية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٦ . ولم يعرف ساحل افريقية الشرقى الا منذ سنين معدودات ، ومن عرف الشعوب التى تأهله اليوم وقدر حالتهم الاجتماعية علم لماذا أسلافهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فى التاريخ السياسى والدينى

(١) قلت جاء فى معجم البلدان لياقوت قوله : والقمر بالضم ثم السكون جمع أقمر ، وهو الأبيض الشديد البياض ، ومنه سمى القمرى من الطير ؛ وقمر بلد بمصر الى أن قال : والقمر أيضاً جزيرة في وسط بحر الزنج ليس فى ذلك البحر جزيرة أكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر ؛ ويوجد فى سواحلها العنبر وورق القمارى الخ . وأكثر ما تذكر العرب هذه الجزائر فبكلمات قصار كهذه .

فيما مضى من الاعصر، لأن أقواما تتقوت بحفنة من الارز ، وتكتفي من كل اللباس بقطعة من القماش ، وتتحلى بحلقة من النحاس فى الاصبع ، لم تكن لتشاطر غيرها المعارك الحيوية الكبرى ، فلهذا تجدها معتزلة بقية الناس جاهلة غيرها بل جاهلة نفسها ، راغبة فى أن تبقى مجهولة . وهذا هو اكثر السبب فى سكوت مؤلفي العرب عن الكلام عليها أما عن ماداغسكر فان معلوماتهم كانت عدما ، فان اكبر شعب فيها وهو « الهوفا » لم يعرف الكتابة الا مذ زمن قصير وقد كانت قبيلة «الانتيمورونا» استعملت الخط العربى قبل الهوفا بكثير ، وصار عندهم بعد دخولهم فى الاسلام شئ من الادب اللغوى ، فترجمة بعض كتبهم تهدينا الى معرفة أصول القبائل التى تسكن ماداغسكر ان لم يكن كلها .

وأما جزر القومور الثلاث « نجزيجة » و « انجوان » و « موحلى » فالمكتوب عنها نزر جدا . حرر « المستركوست » بعض مقالات عن لغة سكان هذه الجزر . ونقل الربان البحرى « جوان » فى كتابة حررها على القومور عن كتاب عربى مخطوط فى مايوت (١) وذكر المسيو غفراى Gevrey فى بحثه عن القومور ما معناه ان مهاجرة الساميين الى تلك الجزائر هى من عهد سليما بن داود .

وفى « ماجونقه » (٢) جالية قومورية عظيمة من المسلمين السنيين وجميعهم يكتبون لغتهم بالاحرف العربية ، وبعضهم يتكلمون بالعربية جيدا وقد قضت علينا ضرورات الخدمة بان تكون لنا علاقات حبية مع مسلمى ماجونقة اثناء اقامتنا مدة سنتين بهذه البلدة ، فاتيح لنا أن ندرس أحوالهم وأخلاقهم وان نستفيد منهم حصة مما يتعلق بتاريخ هذه الجزر ، واطلعنا عندهم على كتاب مخطوط بلغة نجزيجه ، مع ترجمة عربية له ، يذكر شيئا على وجه الأختصار عن أهالى جزيرة القومور الكبرى قبل الاسلام . ولقد ذكر «فون در ديكن» :«ان لهجات القومور ان هى الا لهجات سواحلية الاصل ، تغيرت عن أصلها باختلاف اللفظ ، وباختلاط القومور مع الماداغسكريين . فان هؤلاء منذ احقاب متطاولة فى صلة مستمرة مع القموريين ، ومنهم من تقلد عندهم مناصب عالية ، فان

(١) مايوت هذه جزيرة من القومور فى المنفذ الشمالى من قناة الموازمبيق بين ١٢ و ٣٩ و ١٢ و ٥٩ من العرض الجنوبى و ٤٢ و ٦ ؛ و٤٣ ؛ و٢ من الطول الشرقى مساحتها ٣٦٦ كيلو مترا مربعا وسكانها تسعة آلاف نسمة عرب وماداغسكريون وسواحليون وهنود وفيها ٢٠٠ فرنسى

(٢) ثغر من ثغور جزيرة ماداغسكر

الامير سولى صار سلطانا على جزيرة مايوت ، وهو الذى نزل عنها لفرنسا . وعندنا ان درسا مدققا فى نفس الجزر المذكورة ياتى بمعلومات ذات بال عن لغات القموريين وآدابهم . وقد اكدوا لنا ان من استقرى هذه الجزر ، وجد كتبا مخطوطة ، منها ما هو عربى ومنها ما هو قومورى ، يؤخذ منها تاريخ القومور السياسى والدينى » .

ثم قال فران « ان تأليفنا هذا ثلاثة أقسام أولها يتكلم عن مسامى ماداغسكر وجزائر القومور ، والثانى عن القبائل الاسلامية الساكنة فى الساحل الشمالى الغربى من ماداغسكر وفى الجزر الاربع نجزيجة وموحلى وانجوان ومايوت الصغيرة . والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها باصلها من السواحلى أو العربى ونضم الى ذلك متن لغة من كلام ماداغسكر الخاص بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلى أو عربى » .

ثم ذكر من القبائل الماداغسكرية الكبيرة التانالا Tanala ، والانتانكارانا Antankarana والانتسيهاناكا Antsihanaka ، والساكالافا Sakalava والبتسميزاراكا Betsïmisaraka والهوفا والانتاآمورونا Antaimorona وقال انها مع اختلاف اصولها متشابهة بعضها مع بعض تشابها شديدا تمثل امة واحدة من كل وجه تقريبا . ولا شك ان الذين دخلوا ماداغسكر من الطراء ، سواء كانوا ممن جاءوها جرد العصا ، مثل امة الهوفا أو ممن قدموا اليها زرافات ووحدانا مثل العرب ، قد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم . ولكن لم يطل الامر حتى امتزجوا بالاهالى الاصليين ولم يبق من عقائدهم ومنازعهم الا الشئ اليسير يحفظه الافراد لا الجماعات فالهوفا الفاتحون تلقوا ديانة الماداغسكريين وعبدوا اصنامهم ، واقتدى الغالب بالمغلوب . وأما العرب فلم يظهر تأثيرهم الا فى قبيلة الانتاآمورونا ، التى اسلمت ولكن اسلاما ضعيفا . واناس منها رجعوا الى كثير من عقائدهم الاصلية التى لا تزال كثير من القبائل متمسكة بها ويجد الانسان آثارها حتى بين المتنصرين من الاهالى .

ثم تكلم المسيو فران على قبيلة الانتاآمورونا الاسلامية ، فقال انها تسكن فى الساحل الجنوبى الشرقى من ماداغسكر بين مصب نهر « المانانجاراه » ومدينة « مازيندرانو » أى على طول ٢٢٥ كيلو متراً . ويسكن الى الشمال من هذه القبيلة قبيلة

البتسيميزاراكا ، والى الشمالى الغربى قبيلة البتسيليو ، والى الجنوب الغربى قبيلة تانالا ، والى الجنوب أقوام متفرقة . وعاصمه الانتاآمورونا هى مدينة ماتيتانانا على ضفة النهر المسمى باسمها . ويوجد فروع كثيرة من الانتاآمورونا مستقلة بعضها عن بعض لكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الاناكارا والاناكارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدم على الجميع ولا يتزوج بعضهم الا من بعض فكأنهم قريش الانتامورونا ، ومنهم ملوك القبيلة كلها . وهم أمناء الديانة وفى أيديهم ادارة الجوامع التى يفرضون لاجل نفقاتها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملتهم . ويزعم الانتاآمورونا ان أصلهم من مكة ويحفظون كتبا خطية عربية متناهية فى القدم ، والوانهم نحاسية ، وأبصارهم حادة ، وشعورهم جعدة وهم أشد الماداغسكريين اعتقادا بالخرافات ، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر الماداغسكريين الى تعليم أولادهم ، كما قرر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتاتيب التى عندهم والقانون الذى هم ملتزموه من ان كل انسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب العربى ليكون أهلا لتقلد منصب أو للزواج . والى الزمن الذى أدخل فيه مبشرو الانكليز استعمال الحروف اللاتينية فى تاناناريث (عاصمة ماداغسكر) كانت جميع الكتابات الرسمية فى قصور ملوك الهوفا يكتبها امناء السر من الانتاآمورونا باللغة العربية . والانتاآمورونا مشهورون بالاعتناء باولادهم ، وعندهم عادة أن يحلقوا شعور أولادهم ما داموا فى حجور آبائهم ، فلا يؤذن للولد بارسال شعره الا بعد الزواج .

وهم رجالا ونساء لا يختلفون فى ازيائهم عن سائر أهالى ماداغسكر وبالرغم من دعواهم شدة التمسك بالاسلام يشربون المسكرات ، ويصنعون هم بانفسهم المسكر المسمى « الروم » من عصير قصب السكر مع اضافة قشر شجر يسمى آمبولوا يعجل فى تخمير قصب السكر .

والخصومات والامور العامة يفصل فيها محتسب معين من قبل الملك . وعندهم مجموعة قواعد فى العقوبات أشبه بقانون جزاء . فالسرقة مثلا يعاقب عليها بالحبس والتكبيل بالحديد من سنتين الى عشر سنوات بحسب درجة الجريمة . وأما سرقة المواشى فيعاقب عليها بالقتل لأن اقتناء المواشى ذات القرون هو عندهم فى غاية الاهمية . وأما القتل فيجزى بمثله ولا يتحرجون من التعذيب فى القتل . ولا ينفذ حكم القتل الا بارادة الملك الذى

عنـده أعوان يتولون أمر القتل ، وهؤلاء الجـلادون يقومون بايصال البرد الملوكية وهم عنـد ملوك الانتا آمو رونا أشبه بطبقة يقال لها « تسيماندو » لدى ملوك الهوفا . واذا قتل الرجل ابنه وكان الولد فى سن الخمس عشرة سنة فما فوق ، عوقب الوالد بالقتل . وان كان الولد دون تلك السن حصروا الوالد فى غلاف من قصب « البامبو » يمنعه من كل حركة ، و بقى محصورا هكذا الى أن يموت . و يقال ان مثل هذا العقاب معروف عنـد الحبشة وأمة الغاله الذين يظن بعض المؤرخين ان أصل الأمة الماداغسكرية منهم . واذا أنكر المتهم الجرم امتحنوه بعدة أمور ليثبت براءته فيسقونه كأس ماء بارد وضعوا فيها قطعة ذهب ، وقرأوا على هذه القطعة نصيبا من العزائم ، فان لم يصبه بعد شربها شئ عد بريئا . وقد يكلفونه أن يقطع نهر الماتيتانا سباحة ، فان وصل الى الضفة الاخرى سالما من أذى التماسيح الكثيرة التى فى ذلك النهر فهو برئ أو يشيرون اليـه باجتياز حقل من الارز ، فان لم تتعرض فى طريقه أفعى ، ولا طار فوق رأسه طائر ، ولا حصل حادث غير معتاد أثناء اجتيازه هـذا ، كان أيضا بريئاً .

واذا أراد الانتا آمورونى الزواج ، تنكب قوسه وحمل ترسه على ذراعه ، وذهب مساء الى من يكون خطب ابنته فيقول له: ادخل . فيدخل ، فيفاجئه بضربة حربة يجب عليه أن يتقيها بلباقة ، وبدون أن يحدث للضارب أذى ، فاذا وفق لذلك جلس بين العائلة وأخـذ الفتاة ، والا فان أصيب أو لم يحسن اتقاء الضربة خرج متعثرا باذيال الحياء . والانتامورونا بحسب قول الأب لافسيار La Vaissiere أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب ، يبالغون فى مراعاتها ، وهم يتزوجون بأكثر من واحدة ، وتسمى المرأة الأولى « فاديب » ومعناه الزوجة الكبرى .

وكان الانتا آمو رونا فى جاهليتهم ، قبل أن دانوا بالاسلام فى أدنى درجات الجهل . وكان عندهم كهنة يحفظون بعض مبادئ أصلية ، و يقدمون قرابين دينية ، و يحتجنون ذلك لأنفسـهم دون أن يطلعوا عليـه العامة ، و يسمون الخالق « زاناهارى » وليس فى ماداغسكر تواريخ عن أصل الأهالى،وما كانوا عليه فى القدم تتجاوز القرن السادس عشر ، فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدا الا ما كان عند الانتا آمو رونا بسبب وجود الكتابة العربية عندهم . والذى قدرنا أن نفهمه من هذه الكتابات ان القبيلة الماداغسكرية ، التى باختلاطها

بالعرب نشأ منها الانتا آمو رونا ، كانت قبل دخولها فى الاسلام تعتقد باله واحد ، أزلى ، أبدى ، خالق الكون كله بيده كل شئ ، لكن كانوا يتصورون لهذا الاله جسما وصورة على منتهى الجمال والكمال بحيث لا يمكن تشبيه تلك الصورة بصور الآدميين . وكانوا يقولون بوجود آلهة صغار حول ذلك الاله الأعظم ، هم الشفعاء لديه وكل منهم له وظيفة خاصة به ، واليهم يلجأ الناس فى حاجاتهم ، لان الاله الأكبر هو أعلى من أن تصل اليه مطالب العباد ، فكان لابد ثمة من الوسطاء [1] فكان أصل تلك العقيدة توحيداً انقلب بسبب هؤلاء الشفعاء والوسطاء شركا . واقبلت العامة على عبادة أولئك الآلهة الصغار و بالغوا فى الأمر حتى انقسمت تلك الامة الى قسمين أحدهما الروساء والعامة والارقاء ، وهم حزب الوسطاء الذين جعلوهم لله أنداداً ، وانتهى الامر بأن رفضوا الاعتقاد بالاله الأعظم . والثانى الكهنة ، وأتباعهم الذين لبثوا على الاعتقاد بالاله الواحد ، ورفض اشراك غيره فى القدرة والتصرف فوقعت بين الحزبين منازعات تغلب فيها المشركون على الموحدين والتزم هؤلاء أن يتظاهروا بعبادة الانداد الا أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد سراً .

وفى تلك الاثناء جاء العرب بتوحيدهم فانتصر بهم حزب الكهنة الموحدين ، لأن العقيدة العربية جاءت مؤيدة لما بين أيديهم فلما أسلم الجميع عاد هؤلاء الى مقامهم الاول بل ازدادوا سناء و رفعة . أما الزمان الذى وقع فيه اهتداء الانتا آمورونا ــ ويقال الانتا آمورو والانتا آمور ــ الى الاسلام فغير معلوم ، وانما يرجح كون هذا التحول لم يصادف معارضة شديدة ، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الجديد بالفرح والنشاط ، ثم لم يطل الأمر حتى عادوا الى كثير من عقائدهم الاولى فصار اسلامهم مختلطا بالوثنية (كذا) وهم مثل العرب يستعملون غالبا جملا عربية ، هى دائما على شفاه المسلمين مثل : ان شاء الله . مكتوب الله . ويبدأون جميع كتاباتهم بجملة : الحمد لله وحده . ويكتبون : بسم الله الرحمن الرحيم . لااله الا الله محمد رسول الله . ولايبدأون بعمل الا بعد تلاوة هذه الجملة .

وهم يحافظون على الصلوات ، ويمتنعون عن أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم . ومن العادات الاسلامية عند الانا كارا الذين فيهم بيت الملك ، أنهم يقرأون أمام

(١) عبارة ما كان عليه العرب فى جاهليتهم بعينها جعلوا لأنفسهم آلهة صغارا نحتوا لهم أصناما ، وقالوا « مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »

كل عمل صلاة تناسبه مثلا اذا أرادوا ذبح حيوان قالوا اللهم اجعل لحمه صالحا ، اللهم اجعل أجسادنا تنعم بهوما أشبه ذلك . واذا مات الانسان جعلوا على جبينه و بطنه وعنقه أوراقا كتبوا عليها أدعية وقال أحدهم : هذه عادة قديمة جداً عندنا جاءتنا من مكة والمدينة . و يقولون للمدينة أحياناً «مدينازى» وأحيانا «مديناتى» و يقولون لمكة والمدينة «المدينتين» و يدعى الانكارا انهم من ذرية على .

و بالاختصار فالانتاآمور اجتازوا عدة أدوار دينية . الأول فى الجاهلية قبل الاسلام ، وهو قسمان : دور توحيد ، ودور شرك . والثانى بعد الاسلام ، وهو أيضا قسمان: اسلام صرف واسلام مشوب بوثنية . فالآلهة الصغار الذين يعتقدون بهم بعد الاسلام هم ستة « جو بوريلينا » و «مينكالو» ، وسيرافيلو » ، و «زار بزلو» ، و « بيزيلو » ، و «شيراكيزيلو » و باللغات السامية يقال جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل . فجبرائيل هو المكلف بالوحى الى الأنبياء وميكائيل هو المكلف بالطبائع والغيم والمطر . وعزرائيل هو ملك الموت . واسرافيل هو الذى ينفخ بالصور فى آخر الزمان . فأما المسلمون الماداغسكريون فيجعلون لهؤلاء مقامات بائنة عن البارى تعالى ، وهى سبع طبقات منفصلة بعضها عن بعض بجدران غليظة بينها أبواب من حديد فالطبقة الاولى منها هى مكان الجزاء الآلهى من الناس من تكون آثامه فظيعة فيخلد فى عذاب النار . ومنهم من تكون آثامه خفيفة ، فيعذب الى أجل مسمى ثم بعد ان يتطهر يدخل الى النعيم المعد للصالحين . وهذه عقيدة تشابه تماما ماعند النصارى . والطبقة الثانية هى التى فيها «شيراكيزيلو » الموكل بالزرع والأشجار وهو الذى يلتمس منه تزكية الزروع والطبقة الثالثة مقر « بيزيلو » وهو الموكل بالمواشى . وفى شهر يناير يقدمون له القرابين من النعاج . ثم ان « زريزلو » هو اله الأنهار والبحيرات ، و« سرافيلو » هو اله الحوادث السماوية والأرضية . ومينكالو هو اله الكواكب والشمس والقمر . وأكبرهم جوبوريلنا ، وهو ذو المقاوم الاول ، ولكنه دون الله ، وهو المبلغ ارادة البارى تعالى الى البشر سواء رأسا أو بواسطة سائر الآلهة (١)

(١) الذى نرجحه ان الذين سماهم المؤلف هنا آلهة ، وزعم أن مسلمى ماداغسكر اتخذوهم آلهة ، ان هم الاملائكة لكل منهم وظيفة كما هو فى سائر الأديان السامية ولكن قد تكون خيالات الماداغسكريين أوسعت هذه الوظائف وزادت عليها .

ويعتقد الانتا آمور بخلود النفس ، ولكن اعتقادا يخالف اعتقاد الهوفا . فان الهوفا يقولون ان النفس يمكنها أن تترك الجسد مدة بدون أن تفنى بذلك شخصية الانسان أما الانتا آمور فيقولون انه بمجرد انقطاع نفس الانسان تصعد نفسه الى السماء ، وتتمثل أمام جو بورلينا الذى يعين لها مثوى بحسب استحقاقها . وان النفس عند تمثلها فى الملكوت تتخذ غلافا شبيها بالجسد الذى تكون فارقته فى هذه الدنيا ، وهذا القالب يشاطر تلك النفس أقدارها كلها من لذة أو ألم فى الدار الآخرة [1] ولاشك ان الانتا آمور بسبب معرفتهم للخط العربى تفوقوا على سائر سكان جزيرة مادا غسكر ، وهؤلاء بجهلهم اعتقدوا أن هذا النوع من من ترجمة الضمائر بالاشارات على الورق لايمكن أن يكون الا سحراً ، وفشا عندهم الرأى بأن الانتا آمور بأيديهم أقفال الغيب وأنهم مطلعون على كل شئ .

وعندهم الممنوع أو النجس اسمه « فادى » وقبيلة السا كالاف تقول « فالى » لعله محرف عن الفال العربى كما ان المقدس يقال له « اودى » ومن اشتهر بالتقوى من المسلمين ولم يعهدوا عليه طول حياته سوءاً يصير بينهم موضوع تقديس حتى فى حال حياته ويذهبون الى تأثير شفاعته لدى البارى تعالى ، ويستشيرونه فى المعضلات ، ويأخذون رقاعاً مكتوبة بيده يتقون بها المصائب .

والكتاب المقدس عند الانتامور يسمى بلسانهم « سوراب » ومعناه الكتابة الكبرى روى المبشر الانكليزى هوكت Huckett الذى كان قاطنا « فيانارانتسوا » قال : ضربنا الى الشمال على طول الساحل فزرنا مدن « نوسيكالى » و « اندرينامبى » و « آمبوهاب » و « آمبوهيبنو » وصرنا بين قوم يقال لهم « تيمورو » أو « نتيمورو » يظن أنهم جالية عربية . ومما لاشك فيه أن أسلاف هؤلاء الناس من جهة الذكور عرب ، قذف بهم البحر الى هذا الساحل وعندهم « السوراب » أى الكتابة المعظمة ، وهى نسخة من القرآن مع التفسير ، وتراهم مفتخرين بأصلهم ومتمسكين جداً بكتابهم . ففى المصائب والأحزان والأمراض يرجعون الى هذا الكتاب ويأخذون منه ماهو فى الموضوع وينسخونه على ورقة من شجر «الرافنيالا» ثم ينقعون الورقة فى الماء ثم يشرب المصاب

(١) هذه النظرية تخلص من مشكل بعث الاجساد يوم الحساب بعد أن تكون بليت ودخلت أجزاؤها فى تراكيب أجسام أخرى

هـذا الماء أما المسيو فران فيقول ان السوراب هو كتاب غير القرآن أتاهم به أسلافهم العرب ، وليس بذى فصول ولا أبواب وقد زيد عليه بتداول أيدى المشايخ له . وفيه تاريخ القبيلة ووقائعها المهمة وتجد فيه آيات كريمة من القرآن وكلاماً على المغيبات ، وأحرفا وطلاسم ، مما يستعمل فى دفع النوائب ومعالجة الأوصاب الى غير ذلك .

وكان جغرافيو العرب ماعلى مايظهر يجعلون جزيرة ماداغسكر من جملة جزائر القمر ويرونها كبرى هـذه الجزائر ، كما ان الأوربيين يسمون « نجزيجه » بجزيرة القمر الكبرى ، حال كون المسلمين الذين يأخذون ويعطون على الساحل الغربى من ماداغسكر لايسمونها الانجزيجه وان الحكومة الفرنسية عند ماضربت النقود لحساب سلطان جزيرة القومور الكبرى، كتبت عليها هذه العبارة : «سيد على بن سيد عمر سلطان نجزيجه حفظه الله تعالى ».

أما ماداغسكر عند أهـل عمان العرب فتسمى جزيرة القمر ، كما كان الجغرافيون الأولون يظنون . وأما باللغة السواحلية فيقال لها « بوكينى » وهى مركبة من « بوكى » التى معناها « غريب » و « نى » وهى حرف بمعنى « فى » أى « فى بلاد الغريب ».

ولقد ذكر الجغرافى العربى ابن سعيد تفاصيل كثيرة على جزيرة القمر تطابق حال ماداغسكر مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة ٢٠ يوماً ومن مدنها مدينـة ليران زارها ابن فاطمة . وقال انها هى وماغداشو تحت حكم المسلمين ولكن أهلها أوشاب من جميع الأجناس وهى مرسى يرفأ اليه ويقلع منه الخ . وقد ذكر شمس الدين أبو عبدالله محمد الدمشقى فى فصل على بحر الزنج جزائر عديدة يظن أن منها ماداغسكر وهى جزيرة قنبلو التى فيها الأبنوس ومعادن الذهب والبحيرات . وجزيرة طايسان التى فيها جبال نار تقذف بالحمم فلايستطيع أحد أن يسكنها بسبب حرارة البراكين وجزيرة بربرة وجزيرة القطربية فيها مدينتان للزنج . وجزيرة زنجه . وجزيرة المحترقة . وجزيرة العور .

وكان البرتقاليون يعرفون أيضا ماداغسكر باسم جزيرة القمر ، وآخرون من البرتقاليين والطليان كانوا يطلقون على ماداغسكر اسم جزيرة سان لورانت St. Laurent انظر الى ماقاله السائح « اندريا كورساله » الذى كان فى خليج موازمبيق سنة ١٥١٤ :

« عند ما كنا فى موازمبيق وجدنا سفينتين برتقاليتين قادمتين من جزيرة سان لورانت الواقعة فى عرض البحر بازاء موازمبيق ، وهى من أعظم الجزائر التى اكتشفت فى أيامنا هذه » و بعد أن وصف مافيها من الحيوانات والحاصلات والمعادن قال : « ان أهلها لا يكادون يفقهون حديثا وانهم يتكلمون بلغة غير لغة الموازمبيق ، وانهم ليسوا بشديدى السواد ، ولكنهم فى جعودة شعرهم كسائر أهل تلك السواحل ، وان المورو (أى المسلمين) هم الذين بأيديهم مراسى هذه الجزيرة يشترون محاصيل البلاد بما يأتون به من القطن ومتاجر الهند ».

وقال « ادوارد وباربوزا » فى نحو سنة ١٥١٦ ما يأتى : « بازاء هذه الأرض على مسافة ٦٠ مرحلة من راس « كوريانت » توجد جزيرة عظيمة جدا اسمها سان لورانت ، يسكنها الوثنيون وفيها بعض مدن للمورو . وفيها ملوك كثيرون من الوثنيين والمورو معاً الخ » وسنة ١٥٢٩ كان اسم ماداغسكر قد صار معروفا ، وقد أشار « بارمانتيه » Parmentier الى وجود مورو بيض فى هذه الجزيرة . وذكر « جان دوس سانتوس » فى تاريخ اتيوبية الشرقية : « ان مورو جزيرة سان لورانت ثاروا على البرتقال ، وان هذه الجزيرة قد اكتشفت فى سنة ١٥٠٦ ، وصل اليها القبطان « تريستان دا كونيا » أثناء سفره الى الهند وسميت سان لورانت لكونهم وطئوا أرضها فى عيد سان لورانت مع ان اسمها الأصلى ماداغسكر » . الى أن قال : « وفى أيام ولاية « جورج دومنيس » فى موازمبيق ثار المورو على البرتقاليين ، وحاولوا منعهم من دخول المراسى ، زاعمين انهم يعارضونهم فى جمع الحبوب . والحقيقة انه كان تعللا مقصدهم به اخراج المسيحيين الذين كانوا يضمرون لهم أشد العداوة . فأرسل جورج دومنيس بارجة حربية معلنا الحرب على المورو فيما لو استمروا على المعارضة ، فلما وصلت البارجة مال المورو الى السلم وادعوا انهم لاينوون شرا ، ولكن البرتقاليين لم يأمنوا شرهم ، ولم ينزلوا الى البر الا راهبا منهم اسمه الأب « دوسان توما » ورجعت البارجة الى موازمبيق بمن فيها . ولكن وردت اذ ذاك بارجة من مكة (كذا) فيها مورو ، فلما علموا بما وقع أرادوا الانتقام وسمموا الراهب المذكور ، فمات ، فانتقم البرتقال عن ذلك فى السنة التالية ، وخربوا البلاد ورجعوا الى موازمبيق وصادف أن مركباً آخر للمورو جاء من مكة فغرق ، فنهبوه وتم بذلك الفوز » .

ومن نكات الأوربيين فى معلوماتهم عن المسلمين لا سيما فى الأعصر الماضية ما ذكره رجل اسمه « جواو دو باروس » قال :

« أول من سكن زنجبار عصائب من بلاد العرب دخلت فى الاسلام يقال لها « امو زيدى » بحسب تاريخ وجد عن مملكة « كيلوا » كانوا نفوهم الى هناك لأنهم اتبعوا مذهب رجل مورو اسمه زيد هو ابن أخى الحسين بن على ، الذى هو ابن عم محمد ، وزوج ابنته عائشة ، فزيد هذا كانت له آراء مخالفة للقرآن . ومن تبعه يقال لهم « امو زيدى » .

يريد أن يقول ان أول من سكن بلاد زنجبار هم أناس من الزيدية ، نفوا الى هناك بحسب اختلاف مذهبهم ، وانهم ينتسبون الى زيد بن على بن الحسين بن على ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء وليس فى مذهب الزيدية شئ يخالف القرآن ولكن معلومات الأربيين عن الاسلام لا سيما بذلك العصر كانت ملأى بمثل هذا الخلط والى هذا اليوم مع تغلب روح التدقيق عليهم لا تخلو من الخلط والخبط أيضاً .

اتفق المؤرخون على جعل مدينة « ماتاتان » أو « ماتيتانانا » هى البلدة الأولى التى نزلتها الجالية العربية . وهى التى صارت عاصمة للقبائل الماداغسكرية التى اتبعت الاسلام ولا تزال الى هذه الساعة المركز السياسى والأدبى للمسلمين الماداغسكريين فى الساحل الشرقى من الجزيرة ، وبها يقيم أشهر المتعامين والمتأدبين من الانتا مور .

وممن أشار الى وجود الاسلام بماداغسكر ، السائح الشهير ماركو بولو الايطالى البندقى . وفى أواسط القرن السابع عشر ذكر الانتآمور المسلمين هؤلاء رجل فرنسى اسمه « فرانسواغوش » خلط فى أخباره عنهم على طريقة قومه فى ذلك الوقت ومما قال : « ان الديانة المحمدية التى يدين بها أهالى السواحل المقابلة لماداغسكر لا شك أنها وصلت الى أهالى ماداغسكر ، فانهم يختتنون ولا يشتغلون يوم الجمعة (١) ولا يأكلون لحم الخنزير وكذلك أهالى جزر القومور القريبة منهم ، أكثرهم عرب وفرس تابعون لدين محمد ﷺ ويكتبون بالعربية ، ولا يأكلون الحيوان الا اذا كان مذبوحاً ، فلا يأكلون المختنقة ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو على الحصير على عادة الترك ، ولا يعملون شيئا من الشعائر بدون أن يغتسلوا » انتهى .

(١) لا حرج فى الشغل يوم الجمعة الا وقت الصلاة

وفى نحو سنة ١٦٥٨ ذكر المؤرخ « فلاكور » Flacourt أن أهالى مقاطعة ماتيتانانا يستعملون الحروف العربية التى كانت معروفة عندهم منذ قرنين ، ولكن الماداغسكريين بدلوا بعض صور التلفظ فيجعلون الياء زايا والثاء تاء .

وقال الكونت « دومانداف » De Mandave الذى عرف ماداغسكر سنة ١٧٦٨ ان جالية عربية وصلت الى ماداغسكر فى أوائل القرن السادس . ومما قاله : ان الروهاندريان حكام بلاد « آنوسى » هم غرباء مثلنا أصلهم عرب جاءوا الى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة ، وعندهم معرفة بالكتابة يستعملون الحروف العربية والورق يصنعونه فى وادى امبول وبدلا من القلم يستعملون البامبو . على أن العربية غير منتشرة فى الجزيرة ما عدا الشمال الغربى . ثم قال : معلوم ان العرب أسسوا ممالك عظيمة على ساحل افريقية المقابل لماداغسكر ثم استولوا على جزائر القومور ويتجرون فى مسقط وعدن وسواحل اليمن ، ولكن أكثر تردد مراكبهم الى ماداغسكر ثم ذكر دومانداف وجود كتب عربية ماداغسكرية ، وقال هو وغيره انه يرجى بواسطة المخطوطات العربية الاطلاع على تاريخ تلك الجزيرة .

ثم ذكر المسيو فران نفسه أنه حصل على بعض مخطوطات عربية بواسطة رجل اسمه رامازينورو (رمضان) هو ابن ملك الانا كارا وشرح مضمونها وتكلم عن الكتب العربية الماداغسكرية التى فى المكتبة الوطنية فى باريز وفى غيرها ثم ذكر عناية الماداغسكريين بعلم الفلك والنجوم والحروف ومعرفة المغيبات وأطال فى ذلك وتكلم على لغة ماداغسكر وامتزاجها بالعربية ثم قال :

« ان قبائل الاسلام فى الجنوب الشرقى من ماداغسكر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسكر من مكة » الى أن يقول « وهذه القصص التى نجدها عند كثير من الأمم التى دخلت فى الاسلام مؤداها أن الانتامورونا قد أسلموا فى زمان النبى ﷺ نفسه . قال المسيو رينيه باسه René Basset يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فمن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر فى الحبشة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن على [1] مع أن عقيلا ما وطىء تلك الأرض .

---

(١) الذى نعرفه أن عقيلا هو أخو على

وأن مسامى كانتون فى الصين يزعمون أن الذى بنى مسجد كنتون هو وهب ابن أبى كبشة خال الرسول ﷺ ، مع أن مؤرخى سيرة الرسول مع احاطتهم بكل ما يخصه لم يذكروا شيئا من هذا » .

قال المسيو فران ان دعوى الانتساب الى آل البيت فاشية عند مسامى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسكر ، ولكنه مما لاينبغى أن يوثق به كثيراً .

ثم ذكر باللغة الماداغسكرية وبالحروف العربية كتابات على سبيل المثال ، اخترنا منها القصة الآتية ننشرها بحروفها وحركاتها ونردفها بترجمتها :ـ

طَطَر طَمين اعَلَى مُحَمَدُ

ططر طَمين اعلى محَمَدُ . نيفّى ركّىُ امين أنـكَرَنى بُواهَنُى . امَكَ امْدينا أمدِيناتىْ نيى دِى طمْين أفى رَوْنى رَوَاً أعَلِىْ مُحَمَدُ بوْنيا طتىّ بُوْ اطوًّ لَوُرًّ . أنـكَرَ . اَطِى وَارّى كِىْ وَاً هوكَـدىْ . نيىً أركَ طَمْينَ ع ى الآّهاطِى ع مَك امديْنا امدَيْنا اتِ . طوْدِىَ طِىْ مَهُورُو امى ايُوْنْ اطوًّ الاّ ورَىْ انفّنير كىْ طَوْ انـكَرَ نَادِىْ هَانى ع تىْ مُوْطَوْ امطيْطَنَا . طِى مَهاتَرَ . ناشِىْ طَاَ كى ع أطِى تى مىْ طبْوُ . طوُفُّو طَيناً طَاوْ اُلوْهَا اطِى تِىْ اميْبطوْ . نى شِىْ طَاكِى . طعَ بطوْناشِى طبكِى . اَطِى اتىْ مُيطبوُ الكَ هى رِنى يواوطُوْمشِنْ انـكَرَاىْ أبى إياهَى طَرَنكَىّ أعَلىْ مُحَمَدُ تِى طِبْ طَا إنيْن ىُ فَنْدا فىْ إع ى الله كبَرُ الله كبَرُ الله كبَرُ .

الترجمة

تاريخ على ومحمد الى أن جاءا الى الانا كارا . جاءا من مكة والمدينة . وتقاتلاهما الاثنان مع فاراونى (فرعون) وابحرا مع الانتا آلوترا ، والانا كارا . والانتا فاندريكى ، شعوب كانت تصحبهما من مكة والمدينة . فوصلوا الى ماهورى ، وميازومبى . أما الانتا آلوترا فلبثوا هناك وأما الانا كارا فاوغلوا فى الجنوب الى ماتيتانانا . ففى ماهاتزارا طردهم الانتا آسيماتو . لأن هؤلاء كانوا أصحاب الارض قبلا فذهبوا الى آمباتو . فطردهم الانتا آسيماتو ثانية . فأقاموا أخيراً بفاتو مازينا حيث هم الى الآن . فنحن ذرية على ومحمد هذه ليست بلادنا انما جئنا من وراء البحر . الله أكبر الله أكبر الله أكبر .

ثم ذكر المسيو فران فى الجزء الثانى من تأليفه قبائل سبعا هن « الزافيندارامينا » و «الانتامباهوا كا» و«الاونجاتسى» والآنتا آيونى و «الزافيكاز يمامبو »و «الانتا آفاندريكا» و « الساهاتنى » وقال انهم يسكنون بين قرى « مانانجارى » و « فارافافانغانا » بين ٢١و٢٣ من العرض الجنوبى . فهؤلاء عقائدهم وأطوارهم تشابه عقائد الانتا آموروونا وأطوارهم قال و يزعمون انهم يرجعون الى أصلين أحدهما : خنى رامينيا . وهم الزافيندارا مينيا والانتامباهوا كا والثانى : أبناء الذين هاجروا من مكة الى ماداغسكر وهم القبائل الخمس الباقية . وذكر المؤلف ما يحيط بهذه المهاجرة من الحكايات والخرافات التى فيها من الخلط ما تقدمت له أمثلة ، ولكن القوم معتقدون بها . ويظهر ان رامينيا محرف من رحمن أو عبد الرحمن ، و يقولون من جملة خرافاتهم ان هذا الرجل كان صهرا للرسول صلى الله عليه وسلم وأنه هاجر مع امرأته الى ماداغسكر على أثر المظالم التى وقعت على آل البيت .

وقد اشتهر الاونجاتسى ، والانا كارا ، والزافيكاز يمامبو ، والزافيتسيماتو ، بالسحر والطلسمات واجراء الخوارق . ويقول بعضهم ان أجدادهم رافقوا رامينيا جد الانتامباهوا كا فى هجرته من مكة وهؤلاء جلودهم مائلة الى الحمرة وشعورهم سبطة وذكر الاب رشون أنهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب على أنه من نسبة عند قبيلة الانتامباهوا كا الى الاسلام سوى ما يدعونه من كونهم من ذرية رامينيا الذى قدم من مكة . فانهم تركوا حتى بقية العبادات الاسلامية التى لا تزال عند الانتا آموروونا ، وكذلك هم يجهلون الخط العربى ، وانما يحترمون التعاويذ والرقى .

وعلى بعض الروايات ، أصل الذين هاجروا من مكة خمسة أمراء « راما كارارو » و « راجوزوفا » و « آندريامار وهالا » و « راليفوازيرى » و « آندريانمبوازيريبه » جلوا من هناك بسبب ثورة أسقطت الأول منهم عن عرشه . وثلاثة من هذه الأسماء أصلها عربى ظاهر وهى راجوزوفا محرف عن يوسف . وراليفوازيرى يظن أنها محرفة عن على الوزير واندريانمبوازيريب يحللونها بأنها من اندريانا وهى بالماداغسكرى الأمير ، ثم الوزير ، ثم البه ومعناه الكبير أى الأمير الصدر الأعظم .

وذكر المسيو فران رحلة لأحد البرتقاليين الى مداغسكر سنة ١٦١٣ جاء فيها : « ان أهالى هذه الجزيرة يزعمون أن أصلهم من مانغالور ومن مكة ، جاءوا من جهة الهند و وطئوا

شاطئ الجزيرة الشمالى ثم انتشروا الى الجنوب ، وكانوا ينسبون قبائلهم الى أصلها ، منها ماعرفوا منها الى حد ١٧ بطناومنها الى حد ١٤ بطنا ، وهم مورو اوسوليا[١] عندهم القرآن مكتوب بالعربى ، ولهم مشايخ يعلمونهم القرءة والكتابة وهم يختتنون و يصومون رمضان ولا يأكلون لحم الخنزير ، ومنهم من يتزوج بأكثر من واحدة ، وألوانهم كألوان مسامى الهند والجاوى ومن أعجب العجب محافظتهم على أصل عقيدتهم ونسبتهم مع تقطع مابينهم و بين المسلمين فى سائر الأقطار اه

وذكر الأب روشون الانكليزى الذى ساح الى ماداغسكر سنة ١٧٩٢ أحوال أهالى هذه الجزيرة فقال « ان السود منهم أربع قبائل : « القوادزيرى » و « اللوهافوهتيز » و«الاونتزوا» و « الاونديفا » وأعلاهم درجة القوادزيرى الذين يقال انهم سلائل ملوك البلاد ، وعندهم كثير من العبيد والمواشى ، وللواحد منهم الحق بأن يملك أكثر من قرية واحدة ، أما اللوها فوهتيز ، فليسوا بدرجة أولئك ولا حق للواحد منهم بأن يملك أكثر من قرية ، ويجوز لهم الاستكثار من الماشية ، ومن العادات المعروفة انهم لا يقدرون على ذبح الحيوان الا بيد واحد من قبيلة الروهاندريان ، أو الانا كاندريان (المنسوبين الى العرب) أما الفوادزيرى ، فيقدرون أن يذبحوا الحيوان بأيديهم الا اذا وجد واحد من هؤلاء ، فتكون الأولية له فى ذلك ، و بعد اللوافوهيتز يأتى الأونتزوا وليس لهم شئ من المكانة . أما الاونديفا ، فهم عبيد منذ ولادتهم . وأما البيض ، فانهم يسكنون مقاطعة أنوسى ، ومقاطعة كاركانوسى ، و يزعمون انهم أنسباء محمد ﷺ و يسمون «زافراهيمبنى» وأما البيض الذين فى «فوليوانت» و «نوسى ابراهيم» وخليج آنتونجيل ، فيقال ان أصل بعضهم قرصان ، وأن الآخرين من أصل يهودى لذلك لقبوهم زافى ابرهيم أى أولاد ابرهيم وهناك طبقة أخرى من البيض يروى أنهم أرسلوا من مكة لأجل هداية أهل ماداغسكر الى الاسلام . فاستولى هؤلاء على ماتانانا و يقال لهم زافى كازيمامبو ومهنتهم تعليم اللغة العربية و يعتقد الزافراهيمينى ان أجدادهم قدموا من مكة وهم ثلاثة أقسام : الروهاندريان ، والانكادريان ، والاونتزاتسى . وأعلاهم درجة الروهاندريان ولهم الحق فى ذبح الحيوان ، ومنهم ينتخب الملوك . وأما الانكادريان ، فأصلهم من الروهاندريان من جهة الأب ،

---

(١) اليوم مسلمو الساحل الغربى من ماداغسكر يقال لهم سوليا ويظن انها محرفة من اسلام

ولكن أمهم كانت أدلى نسبا فلذلك انحطت درجتهم عن الروهاندريان . أما الانزاتسى ، فانهم عسكر لا مزية لهم سوى الحرب » اه

أما مسلمو الساحل الغربى من ماداغسكر فانهم خمس فرق : الانتانكارانا الذين يسكنون فى أعالى راس العنبر من شرقيه ومن غربيه . وقبائل الايبوانا الذين عاصمتهم موجانغا أو ماجونغا . والسا كالافا أصحاب بلاد الآبونغو الذين من أشهر رؤسائهم الملكة « باره رافونى » صاحبة خليج « مارامبيتسى » والملكتان « سافيتامو » و « سافيامبالا » صاحبتا « بالى » و « سوالالا » ثم السا كالافا الذين فى « ميناب » الشمالية حول مدينة « مانتيرانو » وما عدا بعض فصائل من الانتانكارانا والسا كالافا الذين هم فى علاقات دائمة مع مؤسساتنا فى « ديغو سوارس » و « نوسى به » و بعض فرق من سا كالافا خليج « بومبيتوك » الذين معاشرة الأور بيين هذبتهم شيئاً ، فالأهالى الذين يسكنون بين أعالى رأس العنبر ونهر مور ونداڤا ، كلهم فى حالة الهمجية ، والملوك الذين عندهم سلطتهم اسمية تقريبا ، واذا شهروا حربا فلابد لهم من استشارة رعاياهم فيها ، وأ كثر السا كالافا رحل يعيشون فى وسط الغابات ، والحضر منهم الذين فى السواحل على جون « ناريندرى » و « ماهاجاما » وجنوبى موجانغا يزرعون الأرز والبطاطة ، وعندهم بعض المواشى ولكن أراضيهم المزروعة عالية دائما عن البحر ، ولا يقطنون قراهم البحرية الا من شهر ديسمبر الى شهر مايو حينما تبدأ سفن الهند ، ومسقط ، و زنزيبار بالتردد على سواحلهم . ولم يكن الا نزر من هذه القبائل خاضعاً لملوك الانتيماريتا الذين فى تاناناريف ، حتى انه لما دخل الفرنسيس تاناناريف ، وخضعت لهم الملكة رانافالونا ، الثالثة ، وأبلغ الفرنسيس الملكة باره رافونى انه لم يبق امامها الا الخضوع أجابت بكل اباء : « اننى أنا لم أكن خاضعة لهؤلاء « الآمبوالامبو » (١) حتى بمجرد خضوعهم أخضع لكم ، وأن عساكرهم لم تدخل بلادى الا أسرى ، فانتصاركم عليهم لا يمسنى أنا ، فأنا باقية على استقلالى » وباره رافونى هذه ملكة مسلمة كسائر رؤساء الساحل الممتد من رأس العنبر الى مور ونداڤا .

ويقول المسيو فران : « ان الجغرافى العربى المسعودى أشار الى كون العرب فتحوا جزيرة قبلو ، التى يترجح أنها هى انجوان الحاضرة ، من أرخبيل القمر فى أواخر

(١) لفظة تحقير معناها الكلب الخنزير

أيام بنى أمية أى فى نحو ٧٠٠ سنة للميلاد ، فلا يبعد أن يكون فاتحو القمر أو القومور قد وصلوا الى ماداغسكر لمصاقبتها للقمر ، فيكون مضى على العرب أحد عشر قرنا وهم ينشرون عقيدتهم وتجارتهم فى هذه الأرض . ومن هذا يفهم الانسان الموقع الرفيع الذى نالوه فى جزيرة ماداغسكر لا سيما بين السا كالافا .

وهؤلاء نظير الانتا مورونا لم يتعلموا من الاسلام الا ما وافق عاداتهم وأذواقهم ، وتراهم يكتفون بحفظ الشهادتين : « لاإله الا الله محمد رسول الله » . وبجمل مثل بسم الله الرحمن الرحيم . وان شاء الله . و بعضهم يقرأ القرآن ، ولكنهم يجهلون العربية و بعضهم لا يأكل الخنزير ، لكنهم يحبون الأشربة المتخمرة و يصنعونها بأيديهم .

ويوجد فى مدينة موجونغا جوامع ومدارس اسلامية ، والأذان مسموع عندهم فى الأوقات الخمسة ، وأبنية البلدة الحجرية التى على شاطئ البحر تخطر فى البال المدن العربية التى على ساحل الأوقيانوس الهندى أو البحر الأحمر . ولكن المسلمين الهنود يصلون فى مسجد الشيعة ، والمسلمين العمانيين والزنزيباريين والقوموريين يصلون فى مسجد أهل السنة . وأما الأولاد الذين يقرأون فى المدارس ، فجميعهم أبناء المسلمين الغرباء أو أبناء الذين هم متزوجون ببنات ماداغسكريات . ولم يعهد أن أحداً من السا كالافا أرسل ابنه الى هذه المدارس ، وقد زرت بعض قرى هؤلاء مثل انداموتى ، وسوالالا ، وبالى ، وهى القرى التى يزورها العرب والبانتو المسلمون فلم أشاهد فيها مسجداً ولا مدرسة ، ولا رأيتهم يقيمون الصلاة ، ومن الغريب انهم يحتفلون برمضان بدون أن يصوموه ، بل تراهم فى هذا الشهر يقومون قبل طلوع الشمس ويجتمعون فى ساحات قراهم و يشربون و يرقصون وهم على شكل حلقات ، و يعملون بأيديهم وأرجلهم حركات موافقة لأغانى النساء اللائى بجانبهم يغنين و يصفقن بالأيدى ، ويدور فى وسط الحلقة السحرة يتولون ادارة الحلقة و تسمع الراقصين يهتفون معا بكلمة « الله أكبر » واذا ختنوا أولادهم تضرعوا فى وقت واحد الى الله والرسول محمد ﷺ ، والى زاناهارى اله الخير والى انغاترا اله الشر . والغالب على الأمة الماغسكرية انها ولو دخلت فى دين جديد لا تترك عقائدها الأولى . وتجد أعاظم رجالهم مثل « رآنيلياريفونى » الصدر الأعظم الذى كان عند الملكة رانافالونا الثالثة ، يستشيرون العرافين و يستمعون لهم ، وفى ثورة ١٨٩٥ ثبت أن السحرة والعرافين ، هم الذين

دفعوا الشعب الى الرجوع الى عبادة «الصامبي» أى الصنم والى قتل الأوربيين . وفى غربى مقاطعة آمبوديرانو ثاروا ونهبوا بيوت المتنصرين والمبشرين ، وقتلوا أسرة مبشر انكليزى ، فساقت السلطة الفرنسية عليهم تابورا من الجند ، فقاوموه أشد مقاومة ، لأن السحرة كانوا وزعوا عليهم تعاويذ اعتقدوا أنها واقيتهم من النار ، فما زالوا يقاتلون حتى ماتوا عن آخرهم .

وقد وصف بعضهم قبائل الساحل الغربى بالتعصب الاسلامى وليس ذلك بصحيح ، وانما الساكالافا هم لم يزالوا فى الهمجية ، أما القبائل الاسلامية الأخرى مثل الانتآمور الانتآمباهوا كا ، فقد تلطفت طباعهم كثيراً وصار الأبيض يسافر بين قراهم بدون وجل بل يكون له قبول حسن بخلاف القبائل الوثنية مثل « الانتازا كا » (١) وجماعة «مانامبوندور» وجماعة « آفيبولا » وجماعة « مانانتينا » الخ ، فان الغريب بينهم لا يأمن على نفسه وهم لا يحبون الضيف . وكانت البعثة النورجية أرسلت الى ملك «الاندريا باكارا» تلتمس منه رخصة فى فتح مدرسة لتعليم أولادهم ، فأجابها الملك : « ان اندريا باكارا لا حاجة لهم بمدرسة لتعليمهم زراعة الأرز والبطاطة واجتناء الكاوتشوك ونحن لا نحتاج الا الى هذه الأشياء الثلاثة » فبذلوا كل ما يمكن وقدموا له هدايا ليسمح لهم بتأسيس المدرسة ، فاصر على المنع وصرف المبشرين من بلاده ، وكذلك الساكالافا ، المسلم منهم والوثنى يكرهون الغريب وكل أبيض يصادفونه بينهم يظنونه جاسوسا للملكة تانانارينف ، التى تكره استقلال قبائل الساحل الغربى ، وحصل اعتداء فى « مانتيرانو » عاصمة ميناب على بعض الأوربيين . فهذه البلدة هى من أهم المراكز الاسلامية وأهلها يرفضون قبول الأجانب ، وليس هذا الأمر بحديث العهد ، بل منذ القرن السابع عشر وقعت الحرب بين قبيلة الساكالافا هذه والبرتقاليين الذين كانوا يغزونهم من موزامبيق ، ولكن كانت الطائلة أكثر الأحيان للمداغسكريين الذين كان يقودهم العرب من القمر أو زنزيبار ، مما يدل على أن عدد العرب كان يومئذ كثيراً فى تلك الديار

وبالاجمال فان مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى ائتلفوا مع الأوربيين وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف أهالى الساحل الغربى الذين منهم الساكالافا ، والانتيبوانا المسلمون

(١) كلمة انتا معناها جماعة فاذا قيل الانتازا كا فالمعنى جماعة زاكا

المستقلون ، والميناب والمازيكورو ، والماهافالى الوثنيون المستقلون فانهم يكرهون الأور بيين ولا يطيقون وجودهم بينهم . ومن هنا يقـدر الانسان أن يقول ان دخول بعض هـذه الأقوام فى الاســلام لم يزدهم بغضا للاور بيين . قال المسيو فران : « ولا أريد هنا الدفاع عن الاسلام ، بل المسلمون خلقوا أعداء لـكل من ليس بمسلم وما ليس من القرآن ، وان عدم تسامحهم لا حـد له . ولـكن اسلام الوثنيين فى افريقيـة كان مرحلة لهم فى طريق المدنية . نعم هذه المرحلة يقفون عندها ولا يترقون عنها » . وأفاض المؤلف هنا فى شرح هـذه النظرية التى كثيرا مانقرأها فى كتب الاور بيين وهو كون الاسود يترقى بدون شك متى أسلم عما كان عليه وهو وثنى . ولـكن ترقيا محدودا بخلاف مالو دان بدين الافرنج فان رقيه لا حد له . والجواب على هذا ، ان ليس هناك رقى محدود ورقى غير محدود ، بل الرقى كله غير محدود وان كانوا يرون رقى الذين اسلموا من الزنج محدودا ، فالسبب فيه ليس طبيعة الاسلام بل التأخر والجمود اللذان بلى بهما الاســلام فى الأزمنة المتأخرة مما ليس هنا محـل شرحه ، والأشبه أن يكون السبب فيــه قلة العمل بمبادئ الاسلام الحقيقية من أن يكون العمل بها .

ثم قال ما يأتى بحرفه : يكون مخالفاً للسياسة أن نعضد الدعاية الاسلامية فى مستعمرتنا الجديدة (ماداغسكر) أو أن نترك فى ساحلها الغربى أقل نفوذ للبيبى (١) . نعم ان مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى لا يحتاجون الى هذه المراقبة الشديدة ويمكن أن يتمتعوا بحقوق « البتسيميزاراكا » . ولـكن التدابير الاستثنائيــة الشديدة لا بد منها فى معاملة الجماعات الاسلامية فى الساحل الغربى » اهـ

ثم قال : « أما المسلمون الغرباء فى الساحل الغربى الذين أصلهم من زنزيبار والجزائر القمر الاربع نجزيجة ، ومحلى ، وانجوان ، ومايوت ، ومن عمان ، ومن صور (غربى مسقط) ، ومن المـكلا وحضرموت ، فان عددهم قليل ، وهم يجيؤن و يرجعون . وأكثر من يهاجر الى ماداغسكر القوم المسمون بالبانتو من زنزيبار والقومور ، فهؤلاء يظهرون بمظهر عظيم من الصلاح و يلازمون المساجد ، و يحملون المسابح ، و يكحلون أعينهم ، و يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء و يلبسون الجبب الواسعة و يطوفون فى الأسواق ، و يحثون الناس

(١) البيبى هو المسلم القومورى أو الزنزيبارى الذى يتزوج بملكة من السا كالافا

على العبادات ، و يذكرون بالثواب والعقاب ، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند الساكالافا الذين يأخذون منهم التعاويذ والتمائم ، و بسبب معرفتهم الكتابة يتفوقون بالبداهة على السحرة الماداغسكريين وقد يصلون الى أن يتزوجوا ببنات زعماء البلاد وأحيانا بالملكات . فتصير لهم الكلمة النافذة و يأخذون من العوائد والمكوس ، وأحياناً يصيرون هم الوزراء عند ملوك الساكالافا ، وأهل الحل والعقد . »

ولكن مع كون الاسلام معروفا منذ عشرة قرون من تلك الديار ولا يزال الغوموريون والزنزيباريون ، يدعون اليه و يعلمون عقائده ، فلا يبرح فى ماداغسكر تأثيره سطحياً ، فان الساكالافا والانتاآمور والانتامباهوا كا قد تقبلوا الاسلام بدون أن يتركوا عقائدهم الاولى ، ولا تجد جوامع الا فى موجانغا ومانتيرانو ، والذين بنوها هم العرب والهنود .

والحقيقة ان الماداغسكرى لا يقدر أن يغير عقيدته ، فالقبائل الماداغسكرية كلها ، التى هى الانتيماريناوالبتسيليو فى وسط الجزيرة ، والبتسيميزاراكا والسيهاناكا فى الشرق ، والانتاآمورونا والانتامباهواكا فى الجنوب الشرقى ، والانتيبوانا والساكالافا فى الغرب والشمال الغربى ، والبارا فى الجنوب ، والمازيكورو والماهافالى والابتاندروى والانتانوسى والانتازاكا فى الجنوب والجنوب الغربى والجنوب والشرقى ، كلهم غير قابلين للاهتداء .

فالمسلمون يعلمونهم الاسلام منذ قرون . ومن سنة ١٨٢٠ وصلت اليهم جماعات المبشرين من جمعية لندن ، ثم وصل الجزويت واخوان العقيدة المسيحية ، وراهبات ماريوسف وراهبات التبشير بالانجيل ، والمبشرون النورفيجيون والأميركيون والعازريون الفرنسويون ، وأخيراً مبشرو البروتستانت الفرنسيين . وكل هذه الجمعيات حصلت على اتباع ، ورؤساء الانتيمارينا يهذبون أولادهم فيها ، وحركة التنصير ماشية بدون انقطاع منذ ثلاثة أرباع قرن و بحماسة فائقة . وقد تعلم كثير من الماداغسكريين القراءة والكتابة ، وتعلموا كثيراً من الحرف ، ومن اللغات كالانجليزى ، والفرنسوى ، ولكن الايمان لم يدخل فى قلوبهم . واذا ذهبوا الى الكنائس وأبطلوا العمل يوم الأحد ، فذلك اطاعة لأوامر الحكومة وخوفا من العقاب الصارم لأن المبشرين حملوا الحكومة على سن قانون يجبرهم على الصلاة وغشيان الكنائس ، ومن لم يفعل يعاقب بشدة . وأما سريرة

الماداغسكريين ، فهى الاعتقاد بزاناهارى وانغاترا ، والاستماع للعرافين والسحرة لا غير . والآداب المسيحية لم يحصل لهم نصيب منها بل هى عندهم كالاسلام مما لا يطيقون حمل تكاليفه . فانهم شعب عائش تحت قانون الطبيعة . وأما الفضائل الاخلاقية ونقاء العرض والطهارة ، فامور لا يعرفونها ، فالمرأة فى ماداغسكر ، من الملكه الى الأمة ، لا تمنع نفسها من شهوة ولا تجد النساء فى ذلك سوى استعمال وظيفة طبعية . فالرجل والمرأة عندهم وجد كل منهما للآخر . ولذلك لا يقدرون أن يتصوروا التبتل والرهبانية ، بل يجدونهما مخالفين للطهارة . وهم لا يجدون اثما كبيرا فى الكذب والسرقة والسكر وسائر الرذائل ، وفى هذا لا يختلفون عن سائر الأمم الماليزية والبولينيزية ، التى هم واياها من أصل واحد ، ويسمون الذهاب الى الكنائس « فانومبوانا » أى سخرة قهرية ، لأنهم يذهبون اليها بالرغم من أنوفهم . وهم يتساءلون . « أيتها هى الديانة الحقيقية من جميع هذه الديانات التى جاءتنا من وراء البحر ؟ اهى الكاثوليكية أم البروتستانتية ؟ وأيتها من النحل البروتستانتية هى أصحهن قولا ؟ أترى هى الانغليكانية أم المتيودية ، أم الكويكرس ، أم النورفيجية أم اللوثيرية الأميركية ، أم البرتستانتية الفرنسية ؟ أم الاسلام ؟

وكان واعظ كاثوليكى فى كنيسة « فينارانتسوا » يتكلم يوم الأحد على جهاد سيمون دومونتفوره فى أصحاب البدعة الالبيجية Albigeois وكيف أن هذا المجاهد الكاثوليكى صدع بأمر البابا اينوشنسيوس الثالث واستأصل تلك الفئة الخارجة . وفى الأحد الذى يليه ، قام المبشر الانكليزى وتكلم فى المسئلة نفسها وقال ، ان سيمون المذكور لم يكن الا سفاحاً ، قام يستأصل الألبيجيين لكونهم تمسكوا بالحق وتركوا الضلال . ففهم الماداغسكريون من ذلك أن الفرنسيس الكاثوليك كانوا قاتلوا الانكليز البروتستانت ، وان تذكار هذه المنازعات لا يزال حياً . وكذلك سمع الماداغسكريون مبشرى الكاثوليك والبروتستانت يطعنون أفحش الطعن فى المسلمين ، وهؤلاء يسمون اولئك كفارا . فتجد الماداغسكريين يذهبون الى كهنتهم ويسألونهم عما يرون . فيجاوبهم هؤلاء : « لا تصدقوا شيئا من خرافات هؤلاء الأجانب أترى الانسان قادرا أن ينزل الله فى قطعة من الخبز أو قطرات من الخمر ! أيكون شخص واحد ثلاثة ! أيكون الابن مساويا لأبيه ! هذه أضاحيك . والحقيقة ان زاناهارى (اله الخير) وانغاترا (اله الشر) هما المحركان لهذا

الكون قد عرفهما آباؤنا فاقتدوا بهم و باحترامهما تكونون احترمتم آباءكم . »

نعم ان الأصنام الرسمية قد أحرقت سنة ١٨٦٨ عندما دخلت الملكة رانافالونا الثانية فى البروتستانتية ، ولكن العقيدة الأصلية لم تتغير .

وكذلك العمل بأوامر القرآن ونواهيه شاق عليهم ، لاسيما منع الخمر والميسر والانصاب والسحر فهى امور يحبونها حباً جماً . وأما الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والعفة ، فلا يعملون منها شيئا ، ويجدون آلهة ماداغسكر أقل تكاليف من اله النصارى واله المسلمين . فالقبائل الانتانكارانا ، والانيتبوانا ، والانتانبونغو ، والميناب يسمون أنفسهم « سيلامو » أى مسلمين وليس فيهم من الاسلام سوى الاسم .

والخلاصة التى استخلصها المسيو فرّان من المباحث التى أجراها بنفسه ومن الكتب والرحلات التى قرأها عن ماداغسكر ، والكتابات العربية الماداغسكرية التى اطلع عليها ، ان الاسلام دخل الى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من ماداغسكر بواسطة العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية ، مما يستدل عليه من الكلمات العربية الكثيرة التى يجدها الانسان فى لغة ماداغسكر . فلا شك أن العرب الذين كانوا فى الساحل الشرقى من افريقية منذ القرن السابع للميلاد ، نشروا دعوة الاسلام فى بحر الزنج منذ القرن الثامن . فجزيرة قنبالو التى ذكر المسعودى ان العرب فتحوها سنة ٧٥٠ ليست الا على مسيرة ٦٠ ميلا من مايوت و ٢٥٠ ميلا من خليج بومباتوك فى ماداغسكر ، وهى هى انجوان الحالية . ثم ان العرب نزلوا موجانقا ، ووصلوا إلى ماتيتانانا ، ومن هناك أحاط بقصص مجيئهم الى هناك من الخرافات والخيالات ومن خلط قصة باخرى ماتقدم لك مثاله . انتهى .

ونحن نرى أن العرب نزلوا بتلك الجزيرة منذ القرن الثانى والثالث للهجرة ، وان تلك الحكايات التى يروونها دائما من كون مسلمى ماداغسكر أصلهم من مكة هى من جملة الافتخار بالاصل العربى ولم يكفهم ان يكونوا عربا حتى جعلوا أنفسهم قرشيين ، بل من آل البيت — على انه لايوجد مانع من أن يكون أناس من قريش ، أو من الطالبيين وصلوا الى هناك . فاما بقاء المسلمين فى ماداغسكر على ماهم عليه من الجهل ، لايمتازون عن سائر أبناء وطنهم الا قليلا فله سببان أحدهما ، شدة تمسك أهالى ماداغسكر بعقائدهم القديمة ، بحيث انه لا الاسلام ولا النصرانية أمكنهما قلع تلك العقائد من رؤوسهم تماما ،

الثانى قصور المسلمين فى ماداغسكر كما فى سائر الأقطار من جهة التشكيلات اللازمة للدعاية ، ولو كانت لهم هناك مدارس ومكاتب وطرق منتشرة ، لكان الاسلام أرسخ وأنقى مما هو الآن فى ماداغسكر بدون شبهة .

جزائر القومور أو القُمر

العرب الأولون يسمون هذه الجزائر بالقمر بضم القاف وسكون الميم وقد تحرك الميم فتلفظ قُمُر بضمتين ، ومنها قول الافرنج « قومور » ، وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب ان قنبالو أو انجوان فتحت سنة ٨٢٤ (بالحساب المسيحى) على أيدى الازد الاباضيين . وبحسب قول كارتى Carthy فى كتابه « جزر افريقية فى بحر الهند والجزر العربية » المطبوع فى باريز سنة ١٨٨٥ ليس تاريخ هذا الفتح معلوما ، وانما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالبسالة والاقدام جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ولكن بسلطة محدودة . ولا شك ان أعقاب هذا الرجل ، هم الذين اشتبكوا فى الحرب مع البرتقاليين عندما طرأوا على هاتيك البحار . ثم انه بعد ذلك طرأت جالية عديدة من شيراز العجم ، فنزلت بساحل الزنج . وكان لهم زعيم اسمه محمد بن عيسى ، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتى هنجوان ومحلى ، وجعل فيهما ابنتيه ملكتين ، ثم جاء فزار جزيرة مايوت فأحسنوا استقباله ، فاستصحبها على هنجوان ، وتزوج ببنت سلطان مايوت .

ثم نقل المسيو كارتى عبارة حررها كاتب عربى ، اسمه الشيخ يوسف ابن المعلم موسى ، لسائح فرنسوى ، اسمه فيكتور نويل وهى هذه :

« ان جزيرة مايوت كانت تابعة لامراء جزيرة انجوان بحسب قول هؤلاء ، ولكن المايوتيين لم يكونوا يذكرون اسم أمير أنجوان فى خطبة الجمعة الا فى بعض فترات . ولما آل الأمر فى انجوان الى السلطان أحمد الذى ملك من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٨٥ ، جرت حوادث من غارات الساكالافا ومن الفتن الأهلية زعزعت ملك الانجوانيين ، فاضطرب حبل الامن فيها ، وكانت أسرة عربية أصلها من عمان أقامت ببلدة « تشينغونى » حاضرة جزيرة انجوان القديمة ، وكانت ذات ثروة طائلة من تجارتها ، وقد أحسنت استعمال المال فى وجوه الخير والبر ، وتزوج واحد من هذه العائلة واسمه صالح بن محمد بن بشير بن المنظارى

العمانى ، وكان شاباً ماضيا فى الأمور عظيم الجاه بابنة سلطان مايوت . وسنة ١٧٩٠ مات سلطان مايوت ، فخلفه صهره صالح بن محمد بن بشير وتحول عن مذهب الاباضية الذى عليه أهل عمان ، الى مذهب الشافعية أهل السنة والجماعة الذى عليه أهل جزائر القمر الخ » وقال المسيو غافراى : Gevrey ان أصل سكان القومور يهود أو ايدوميون ، جاءوا من البحر الأحمر بعد عهد سليمان ، وجاء اليها فى الوقت نفسه زنوج من زنجبار ، وكانت تختلف اليها كثيراً سفن العرب ، ولكن هؤلاء لم يتوطنوا فيها الا فى القرن الخامس للهجرة . ثم فى القرن السادس عشر للميلاد جاء البرتقاليون وفتحوها ، ولكنهم مروا عليها كعابرى سبيل ، و بعد انصرافهم من هناك جاءت طارئة من الشيرازيين ، فنزلت بها تحت قيادة محمد بن عيسى أما تاريخ جزيرة « محلى » فلا يعلم عنه شئ كثير ، وغاية ما يعلم أن أول من سكنها زنوج جاءوا من افريقية ، ثم جاءها العرب والماداغسكريون ، وفى سنة ١٥٠٦ جاءها طائفة من الشيرازيين تحت قيادة أحد أولاد محمد بن عيسى . وأما جزيرة انجوان أو انزوان فقد عمرت نظير ماعمرت محلى ، وفى العهد نفسه فقد جاءها أولا الزنج ثم العرب ثم الماداغسكريون ولما وصل محمد بن عيسى الى جزيرة القمر الكبرى أرسل ابنه حسن بن محمد ، فاحتل انجوان بشرذمة من الشيرازيين » .

نجزيجة أو جزيرة القُمر الكبرى

نأخذ زبدة معلوماتنا عنها من رسالة للدكتو نيقولا دو بلانتيه Du Plantier رئيس الاطباء فى جيش المستعمرات الفرنسى ، مطبوعة بباريز سنة ١٩٠٤ اسمها « القومور الكبرى La Grande Comore »

قال: «ان ارخبيل القومور مؤلف من أربع جزائر : مايوت وانجوان ومحلى والجزيرة الكبرى ، كلها واقعة فى مضيق موازمبيق طولها نحو ٢٤٥ كيلو مترا ، مع انحراف من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى . فالقومور الكبرى هى بين ٤٠ ر ٥٥ و ٤١ ر ١٢ من الطول الشرقى و ١١ ر ١٣ من العرض الجنوبى ، و بينها و بين شاطئ افريقية ١٦٠ ميلا ، ومنها الى محلى ٢٨ ميلا ، والى انجوان ٥٠ ميلا ، والى مايوت ١٦٩ . وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو مترا فى عرض ٢٤ ، وأكبر مراسيها «مرونى» فى الغرب ، و « ميتساميولى » فى

الشمال الغربى ، « وشيندينى » فى الجنوب الشرقى ، و «ساليمانى» فى الجنوب الغربى . وهى جزيزه مرتفعة فيها جبل يقال له «الكاراتالا » علوه ٢٥٠٠ متر وفى رأسه حطمة نار . وتكثر فى هذه الجزير الحراج ، و يبتدئ القيظ فيها بشهر مايو و ينتهى باكتوبر . وتكثر فى الشتاء العواصف والزوابع ، و يغزر المطر ، ومع هذا فليس فى هذه الجزيرة مياه جارية كما فى اخوانها الجزر الأخرى . وكل مافيها من العيون عينان نضاختان احداهما ، فى مقاطعة بادغينى والأخرى فى مقاطعة ميتساميولى . واعتماد الناس انما هو على الحياض التى تجتمع فيها مياه المطر ، وأهل سيف البحر يحفرون على الشاطئ ، فيستنبطون مايشربون . وبالرغم من قلة المياه فأراضى الجزيرة خصبة جدا ، ومناخها من أجود مايكون يناسب الغريب ، والحميات الملاريه غير معروفة فيها ، والصحة العمومية فيها جيدة جدا . ومن قصد الفرار من الحر يجد فى الأماكن المرتفعة غير البعيدة عن الشاطئ مايرضيه ، وأجسام أهالى هذه الجزيرة فى غاية القوة والنشاط وهم يحبون النظافة كثيرا .

وعدد أهالى القومور الكبرى خمسون ألف نسمة ، لكن النساء أكثر جدا من الرجال حتى انهم حسبوا بازاء كل رجل ثلاث نسوة . وسبب نقصان عدد الرجال عن النساء ، هو الحروب التى كانت قد وقعت فيها بين سلاطينها ، مع كثرة المهاجرة الى زنزيبار . اذ انتقل منهم سنة ١٨٩٩ ، نحو ١٥ ألف رجل الى تلك الجزيرة . و يقال ان العرب نزلوا فى القرن العاشر بهذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها ، ومعهم عبيد كثيرون . و وجدوا فيها زنوجا من أمة « الكافر » لم يعلم عهد مجيئهم . فباختلاط هذه الأجناس من السلالة السامية الخالصة الى المادغسكرية ، الى البانتو ، تكون الجنس القومورى الحالى وكذلك جاء فيما بعد هنود وعرب . والقومورى طويل القامة ، غليظ الشفتين بدون برطمة ، عالى الجبهة ، أقنى الانف ، أسود العينين ، قليل شعر اللحية . أما المرأة القومورية فهى صغيرة ، حسنة التقاطيع ، طويلة الذوائب ، لكن اذا تزوجت حلقت شعرها . وكبار القوم يخضبون أظافرهم بالحناء والنساء يستعملن الوشم والرجال الأغنياء يلبسون القميص الطويل من الجوخ الأسود أو الحرير المزركش وعلى رؤسهم الكوفية المطرزة بالقصب ، ويحملون فى أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة . أما النساء فيلبسن الحرير ضافيا ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلا من الحرير ، ويرخين أحيانا نقابا مزركشا

مفتوحا عند العينين ، ويتحلين با نواع الحلى من عقود اللؤلؤ ، والاساور والخلاخيل ، الذهب منها والفضة ، ويتطيبن بأنواع الطيوب ، وفى النهار تجلس المرأة من هؤلاء فى منزلها محاطة بجواريها ، أو تتنزه على سطح البيت ، فاذا غابت الشمس كان لها ان تخرج من منزلها وتتنزة فى الشوارع متنقبة جيدا . فاما الفقيرات ، فيظهرن فى الاسواق و يشتغلن ويلبسن ثو با واحدا من القطن و ينتطقن عليه .

أما المساكن فمبنية بالحجر والجير ، وأكثرها ذات طبقة واحدة وسطوحها مستوية ، وسقوفها ودورها بالخشب ، والابواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المخرم . وعندهم مقاعد من خشب ذوات أرجل أربع مغطاة بالطنافس والمساند . ويشربون بالنارجيلة ، ويحبون الراحة ، ويقضون جانبا من أوقاتهم إما فى الجوامع أو فى ساحات البلدة مستأنسين للاحاديث ، وكل واحد سبحته فى يده. وهم قوم متوكلون ، لكنهم كسالى لا ينشطون للعمل الا قليلا ، ويميلون الى اللذة والرقص والغناء ، والى الاسراف فى النفقة ، فقد وجد منهم من يرهن عقاراته بمبلغ من المال ويشترى عدة رؤوس من البقر و يتصدق بلحمها على فقراء بلده أو يشترى ثيابا مزركشه بالذهب ، أو يتزوج امرأة جديدة . وللزواج عندهم أفراح طويلة عريضة تستمر أياما ، وقد يكون ذلك شهرا ، وتقدم الهدايا النفيسة الى العروس ، وتذبح الذبائح العديدة ، وتولم الولائم طول مدة الفرح لجميع الاهالى بين الزفن والغناء والطبل والزمر .

والطلاق معروف فى القومور ، ولكن الولد فى هذه الحالة يبقى عند أمه ويتبع حالتها ، فهو أمير اذا كانت أميرة وفقير اذا كانت فقيرة ، وللمرأة حق التصرف المطلق بأملاكها .

ويحتفلون أيضا بالختان ، فاذا ختن أحد الاكابر ولده ، عمل عيداً اشتركت فيه جميع أهالى المدينة . والمآتم عندهم لها شأن كبير أيضاً .

وجميع القوموريين ، أهل الطبقة العالية ، شديدو التمسك بدينهم الاسلامى ، وأهل الطبقات الدنيا يميلون الى الخرافات . والجوامع كثيرة فى المدن والقرى ففى « مرونى » مقر المقيم الفرنسى ١٢ مسجدا، مع أن أهل هذه البلدة لا يزيدون على ٢٥٠٠ نسمة والمشايخ يعلمون الاولاد القراءة والكتابة ، والجميع يراعون الشريعة أتم المراعاة ويوجد مدارس فى كل المدن

والقرى ، أمالغتهم ، فهى نوع من اللغة السواحلية الزنزيبارية وتكتب بالأحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان ، فهى العربية الفصحى .

ولما جاءت فرنسا وبسطت يد حمايتها على القومور الكبرى كان فيها ١٢ مقاطعة ، لكل منها سلطان وأكبرهم اسمه « سلطان تيبه » يخضع له جميعهم . وقد كان السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر صاحب هذا المقام ، وأبوه السيد عمر كان سلطانا على جزيرة انجوان ، وقد قام بخدمات جزيلة لفرنسا ، وذهب على فى صغره الى مايوت وتعلم الفرنسية ، وكان السلطان تيبه فى القومور الكبرى عمه السلطان أحمد ، فقبلما توفى أوصى بأن يكون هو خلفه ، فلما مات أحمد وجاء على يتسلم الملك ، اعترض بقية السلاطين وقالوا انه غريب ، واعصوصبوا حول الامير موسى فومو ، سلطان مقاطعة ايتساندرا ، الذى طمع أن يكون السلطان تيبه . فوقعت الحرب ودارت الدائرة على الامير موسى بسبب معاونة سلاطين انجوان ومحلى ، وسكان مقاطعة بادغيني الكبيرة للسلطان على . وبعد ذلك جاء مركب من قبل سلطان زنزيبار ، عليه قنصل انكلترة يعرض على السلطان على حماية الانكليز ، فرفض على حماية انكلترة ، وأرسل الى قائد مايوت يعرض دخوله تحت حماية فرنسا [١] فلم يحصل يومئذ على جواب ، لكن بعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاء المسيو همبلو Humblot العالم الطبائعي الفرنسوى بمهمة علمية الى القومور الكبرى ، فأعظم السلطان على موصله ، وشاهد المسيو همبلو خصب الاراضى ، فحول مأموريته من علمية الى سياسية .

وكان الأمير موسى فومو قد رضى بحماية انكلترة ، وأرسل له الانكليز ذخيرة وأسلحة ، فتهافت السلطان على على طلب حماية فرنسا ثانية ، فرجع المسيو همبلو الى فرنسا وأدى الرسالة . وفى ٦ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ ، عقدت فرنسا مع سلطان القومور الكبرى معاهدة تتضمن أن يكون لفرنسا الموقع الأول دون سائر الأجانب فى جزيرة القومور الكبرى ، وان السلطان لاينزل عن شئ من الأراضى لدولة أجنبية ، ولا يعقد مع دولة من الدول معاهدة الابرضى فرنسا . ورضى السلطان بابقاء خمس مقاطعات وهى ، بامباو وايتساندرا ، وميتساميولى ، وبودى ، وبادغيني ، كل مقاطعة منها يليها سلطان تابع للسلطان على الذى يلى مقاطعة بامباو رأسا ، جاعلا مركزها بلدة مرونى . وان السلطان

(١) هذه رواية المؤلف الفرنسوى

لايعزل أحداً من أولئك السلاطين ، ولا يعلن حربا الابرضى الحكومة الفرنسوية . وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق فى تعيين الخلف ، أو تعيين شكل ادارة البلاد . وقد تعهد السلطان على باقرار الاعطيات التى أعطاها الفرنسيس من أراضى الجزيرة ، و بتسهيل اعطاء غيرها لهم . وفى السنة المذكورة جاء المسيو و يبر معتمداً من قبل الدولة الفرنسية مقيما بالجزيرة .

فأثارت هذه المعاهدة ثائر القومور يين الذين اتهموا السلطان عليا بأنه ، أتى لهم بالفرنسيس الى الجزيرة و باعها من المسيو همبلو ، وخرب ديارهم وصيرهم عبيدا . وكانت الثورة بدأت سنة ١٨٨٩ فى مقاطعة بادغيني ، وتولاها أمير اسمه آشيمون ، فأرسلت فرنسا قوة وأخمدت نارها ، وقتل آشيمون فى أثنائها ، ولكن أهالى الجزيرة بأجمعهم بقوا ناقمين[1] بحيث اضطر السيد على أن يفر ليلا الى محلى (٢٣ فبراير ١٨٩١) فجاء القائد الفرنسوى من مايوت الى محلى ، وأخذ السيد عليا معه على ظهر بارجة حربية الى القومور الكبرى ، وحاول اقناع الأهالى بكون السيد على لايزال سلطاناً وان فرنسا لاتزال معترفة بسلطنة القومور ، فلم يقبلوا كلامه فاعاده معه الى مايوت وازدادت الثورة ، فارسلت فرنسا قوة ضئيلة قمعت الثورة . وفى ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، عقدت مع السيد على اتفاقا الغت بموجبه السلطنات الخمس وقسمت الجزيرة الى ١٢ مقاطعة ، وجعلت الحكم فى كل مقاطعة لقاض وعلى رأس كل قرية شيخاً ، وصارت السيادة التى كانت للسلطان الى مجلس القضاة الذى ينعقد بحضور معتمد فرنسا المقيم ، وفرض على كل مكلف من الأهالى من سن ١٢ الى سن ٦٠ سنة دفع رو بيتين ونصف رو بية سنويا .

ولكن بعد ذلك جرى اعتداء على بعض الفرنسيس ، وقصد أناس من الأهالى اغتيال المسيو همبلو ، فجرح وجرح صهره المسيو لوغرو ، فاتهم السلطان على انه هو مدبر هذه المؤامرات ، فنفى الى دياغو سوارس ثم الى بور بون ، وخلعته فرنسا[2] وصار الأمر الى المعتمد المقيم وهو المسيو همبلو ، فبقى الى سنة ١٨٩٦ ، ثم خلفه المسيودوكاز De Cazes ثم المسيو بو بيغو ين Pobeguin ، ثم خلفه المسيو بلانتيه (الذى ننقل عنه هذا التاريخ)

(١) ولا نراهم مخطئين

(٢) كما خلعت عبدالحفيظ سلطان الغرب مع انه هو الذى أدخلها الى مملكته وكل منهما لقى جزاءه

وتوالى من بعده المقيمون الى اليوم .

وليس لجزائر القومور حق فى ارسال مبعوثين فى البرلمان الفرنساوى (كما ليس لجزائر الغرب) ، وانما يوجد لها ممثل خاص فى مجلس المستعمرات الأعلى ، ويكون فرنسيا من أصحاب الأملاك المستعمرين فى تلك الجزائر .

وأما الادارة الوطنية فى الجزيرة ، فهى فى أيدى ثمانية قضاة ، و ١٤١ شيخ قرية . فالقاضى يفصل الدعاوى وينفذها ويصدق العقود ، وفى حال استئناف الدعاوى يوجد مجلس مركب من كل القضاة . وأما شيخ القرية فيجبى الأموال ، ويقوم بالضبط والربط فى القرية وله أعوان فى مهمته . واذا وقعت دعاوى مدنية بين الأهالى والفرنسيس ، فالفيصل فيها المعتمد المقيم . أما فى الدعاوى الجزائيـة فالمرجع هو محكمة مختلطة يرأسها المقيم ، ويكون فيها اثنان من القضاة الوطنيين واثنان من الفرنسيس . وفى قصبة مرونى مدرسة فرنسوية يتعلم فيها الاحداث ، ويحضر دروسها كثير من الرجال البالغين ، وفى القوموري ذكاء مفرط واستعداد عظيم للتعلم والتمدن .

وميزانية الجزيرة المالية هى ١٥٠ الف فرنك ، يؤدى منها سنويا خمسة آلاف الى السيد على فى منفاه ، و ٤٥ الفا الى شركة المسيو همبلو عن فائض الدين الذى كان لها عند السيد المشار اليه ، فلا يبقى لادارة الجزيرة كلها سوى مائة الف فرنك .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هى أيضا من أرخبيل القومور ، وكان لها سلطان مستقل بها نلخص أخبارها من كتاب اسمه « سلطنة انجوان » تأليف المسيو جول ر بليكه Repliquet من كبار مأمورى المستعمرات الفرنسية قال : « انها بين ٤١ ، ٥٢ ، ٤٢ ، ١١ ، ١٥ من الطول الشرقى و ١٢ ، ٣ ، ٣٥ و ١٢ ، ٢٢ ، ٣٠ من العرض الجنوبى على ٢٠ مرحلة شمالى مايوت الى الغرب و ٩ مراحل عن محلى الى الشرق ، و ١٥ مرحلة عن القومور الكبرى . ومساحة انجوان ٣٧٨ كيلو مترا مربعاً ، وأعلى قمة فيها ارتفاعها ١٥٧٨ مترا . وهى جزيرة بديعة كثيرة الأشجار ، غنية بالنباتات ، لاسيما المقاطعة المسماة منها بوموني : والقسم الفاصل منها هو القسم الغربى ، والى الشمال الغربى منها جزيرة صغيرة مغطاة

بالشجر ، اسمها جزيرة السرج . وفى أكثر جزيرة انجوان تجد مياها جارية تفيض من بين الأودية ، وتسقى الأراضى الى الساحل سائلة من شلال الى شلال ، وكان الأهالى لجهلهم يسرفون فى قطع الأشجار ، فأصدر السلطان عبد الله برأى المعتمد الفرنسى المقيم المسيو أورمبير أمراً يمنع فيه استئصال الشجر .

ومن جداول انجوان التى تسيل صيفاً وشتاء اكيبانى ، وبوزينى ، وشيكونى ، والباجى الذى له مصب فى جون ترفأ اليه السفن ، ومورويامجينى ، وباتسى عوانى ، وهذه الجداول تجدها من الغرب الى الشرق . وأما فى الشرق فجدول يقال له التاتنغا مجرورة مياهه الى مزارع القصب والجيجى . ثم الى الجنوب جومانى . وأنهار وسواق أخرى أقل بالا من تلك تدلك كلها على غزارة المياه الجارية فى هذه الجزيرة الصغيرة البديعة . وفى جهتها الشرقية ، بحيرة صغيرة مساحتها عشرة آلاف متر متناهية فى العمق وصفاء الماء وبرودته يظن أنها خزان الجداول الشرقية .

وفى انجوان مراس جيدة للسفن مثل فرضة انجوان ، ومرسى فومبانى ، ومرفأ بوزينى وباجى وباتسى ، وهى فى الشمال . ومراسى آجو ، وبومباو ، وغيرها فى الشرق . وبمبينى وسيماسا نغانى فى الغرب . ومرفأ بومونى فى الغرب ، يصلح لايواء البوارج الكبار .

وهواء انجوان معتدل الحرارة ، ففى الصيف متوسط درجة ميزان الحرارة هو ٢٣ فى الظل ، والمناخ فى الجزيرة جيد ، والحميات قليلة مع وفرة المياه والاصطياف فى أعالى الجزيرة يفيد الصحة جداً .

وتنقسم الجزيرة الى نواح ، فمنها فى الشمال الشرقى موتسامودو ، وعوانى ، وباندانى وفى الغرب شيزيوانى . وفى الشرق دومونى . وفى الجنوب بومونى ونيوما كيلى . وفى الوسط يوجد بامباو متونى وكونى . والعاصمة هى موتسامودو ، تنسب الى رجل زنجى كان اسمه موسى مودو أى موسى الاسود ، كان يرعى مواشيه حول جون انجوان ثم استقر هناك ، وكان أول من بنى هناك بيتا ، ثم جاء الآخرون و بنوا بجانبه . وكانت لمدينة موتسامود أيام سعيدة لعهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية وحصنوها بقلاعة. أما الآن فكل

هذه الأسوار متداع الى الخراب . وفى الحارة المسماة « آمومبو »[(١)] التى هى محلة الاشراف تجد قصر سمو السلطان ، والمحكمة المختلطة ، ودار الخزانة القديمة ، و بعض الدور القديمة الباقية على جالها . و بالقرب من هناك « موكيره جيموى » أى الجامع الأعظم بمنارته السوداء ذات المصابيح وفى الخارج من السور على طول نهر موروجامجينى الضواحى المسماة بانداماجى ، فيها أكواخ الفقراء

أما القلعة ، فهى شاهقة مبنية على صخرة سينيجو ، لها برجان عاليان مربعان و برج آخر يرتفع عليه العلم السلطانى الأبيض والأحمر فى الأعياد ، ومن القلعة الى المدينة سلم عدة درجه ٢٨٠ ولكن هذه القلعة تنهار يوماً فيوماً بانهيار السلطنة العربية التى كانت شيدتها . وقد كان آخر عهدها بالقوة سنة ١٨٩١ يوم اطلقت مدافعها النار على البوارج الفرنسوية . والى اليوم فى هذه القلعة ١٠ مدافع قديمة بالية .

وعلى مسافة أربعة كيلو مترات من موتسامودو ، تظهر بلدة عوانى بمنارتها وسورها ومنازلها . وهناك عاصمة ثانية للجزيرة ، اسمها دومونى واقعة فى شبه جزيرة . وهى نظير أختها موتسومودو متداعية الى الخراب . وكانت قبلا كرسى السلاطين . ونظرا لمنعة موقعها ، كان أهلها اذا هاجهم الماداغسكريون من البحر قرعوا طبول الحرب ، فهرع الأهالى من الجوار ودخل رعاة المواشى وآووا الى جدرانها بقطعانهم . فلم يبق اليوم من سابق عظمة دومونى سوى بعض جوامع ، و بعض منازل للاشراف . وفى أحد هذه الجوامع صومعة منحوتة فى الحجر ، داخلها مزخرف بالنقوش العربية . وهو أثر معمارى يستحق الذكر . والى جنوبى الجزيرة فى نيوماكيلى مدينة صغيرة اسمها « مويا » وفى الجزيرة كلها ٨٠ قرية أكثر أهلها من جنس الماكوا الزنوج . وأما مبانى الادارة الفرنسية فهى على ارتفاع ٢٠٠ متر بمحل يقال له « هومبو » يشرف على موتسامودو وقلعتها . وتجد جميع الدوائر الرسمية والمستشفى والسجن مختفية تحت أشجار المانغا وغيرها من الأدواح الكبيرة وتحت اكمة هومبو مقبرة الجنود الفرنسيس ، الذين قتلوا فى حوادث سنة

---

(١) ان العرب من عادتهم أن لا يلفظوا الباء بعد الميم أبداً بل لا يسبق الميم عندهم الا النون مثل تنبكتو مثلا ، ولكن الافرنج يجعلون أبداً محل هذه النون ميما فيقولون تمبكتوا Tombouceto ولما كنا ننقل عن كتب الافرنج حافظنا فى الأسماء على كيفية نطقهم بها مع علمنا بأن الاصطلاح العربى هو لفظ مثل هذه الكلمات بنون بعدها باء كما حقق ذلك العلامة اللغوى ، الأب أنستاس الكرملى

١٨٩١ (يوم استولوا على الجزيرة) .

وجميع سكان هذه الجزيرة ١٥ الف نسمة ، يرجعون الى ثلاثة أجناس ، من العرب والبوزمن والماكوا . ويقال ان أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن ، ثم جاء العرب ومعهم الماكوا . والبوزمن هم من أصل مالى بولينيزى كاهل ماداغسكر . وهم أقوياء شجعان يحبون الحرية أسلموا فى القرن السادس عشر ، ولكنهم لم يقبلوا الرق وذهبوا من وجه العرب الى الجبال أما من جهة التمسك بالاسلام ، فانهم فى الدرجة القصوى يعملون بالأوامر والنواهى القرآنية بحرفها ، ولا يؤولونها بحسب أهوائهم مثل العرب (كذا) .

أما العرب ، فأصلهم من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر ، وعليهم سحنة أهل اليمن ، وفى نسائهم جمال بدقة التقاطيع ، وتدوير الوجه ، وملاسة الشعر ، وسواد العينين ونفوذ اللحظ . وأكثر العرب كسالى أهل مكر ودعوى (كذا) وكلهم تقريبا يدعون الشرف وكونهم من ذرية الرسول ﷺ وأكثر أوقاتهم يقضونها مضطجعين فى داخل بيوتهم بين نسائهم ، حتى اذا أزف الغروب ذهبوا الى الجامع للصلاة ، ومن هناك يفيضون بالأحاديث التى فيها يكثر لعن الكافر الأبيض [1] وهم شديدو البغضاء لنا لاننا نصارى ، ولأننا نحب الشغل وبحركتنا ونشاطنا صار لنا التفوق عليهم . وقد فهموا أنهم كانوا هم المغلوبين ، لكنهم لا يريدون أن يجعلوا كسلهم هو المسؤول عن ذلك وهم مهما تقربوا الينا يكذبون ولا يوثق بظاهر محبتهم (كذا) . أما الماكوا فاصلهم عبيد من الموزامبيق ومن سواحل شرق افريقية ، أتى بهم العرب ليعملوا فى أراضيهم فكانوا هم الحراثين لهم وصاروا الآن الحراثين فى أراضى المستعمرين الأوربيين ، وهم أهل مودة ومعرفة للجميل . ولا تخلو انجوان من الهنود البانيان ومن المداغسكريين . أما لغات انجوان مع صغر حجمها فهى أربع العربية ، ثم السواحلية ، ثم الانجوانية ، ثم الماكوية فالعربية « لاتينية الشرق » هى لغة الديوان والدين ، وبها تصدر الأوامر السلطانية ومضابط القضاة الى هذا اليوم . وأما السواحلية فهى لغة التجارة ، وكثيرا ما تكتب بها أوراق رسمية . وأما الانجوانية فهى خليط ، من العربى والسواحلى والماكوى والبرتقالى

(١) الذى لا يقدرون أن يحبوه لأنه استولى على الجزيرة وسلبهم ملكهم

(٢) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البعكور

والفرنساوى والانكليزى ويتكلمون بها فى كل الجزيرة . وأما الماكوية فهى لغة الزنوج ؛ وهى تتلاشى أمام اللغات الأخرى

وذكر المؤلف عن ملابس أهل انجوان ما يقرب مما تقدم عن ملابس القومور الكبرى وهى فى الحقيقة ملابس العرب الضافية مع الكوفية على الرأس ، والخنجر فى الوسط ، وذكر أن الشبان يحملون بايديهم عصيا يسمى واحدها « البانكوره » من الخشب الصلب [١] ، وقال ان العرب رجالا ونساء يتطيبون ، ويرشون على ثيابهم ماء الورد والمسك ؛ ويكحلون عيونهم ، ويخضبون أظافرهم بالحناء .

والانجوانيون يتبعون الشريعة الاسلامية بجميع أوامرها ونواهيها ، ولكن عندهم عادات غلبت عليهم ولو لم توافق الشرع ، مثلا ، المرأة هى دائما صاحبة البيت الذى تسكن فيه مع بعلها فاذا وقع الطلاق ، وجب على الرجل أن يفارق البيت .

وكذلك الانجوانيون لا يعتبرون رقبة الملك للسلطان ، بل يرون أن تملكهم للأراضى هو من الله تعالى . وحكم القضاة هو بمذهب الامام الشافعى ، والكتب التى يعتمدون عليها من المذهب هى منهاج الطالبين ، والفتح القريب . ولم يبق فى الجزيرة سوى قاض واحد فى موتسامودو . وكان السلطان فى الماضى يبلغ الحكم بمجلس مشهود من الأعيان والقضاة ، أما الآن فلم يبق للسلطان الا اعطاء بعض النصائح لا غير .

ثم تكلم المؤلف عن العادات المألوفة فى انجوان ، فى الولادة والختان والزواج والجنازة مما لا يخرج عما تقدم فى الكلام على القومور الكبرى ، ومما هو معهود فى البلاد العربية مع بعض الزيادات . ولكنه قال ان الخاطب اذا خطب البنت من أهلها وارتضاه والداها ، زوجاه بدون معرفة الفتاة ، اذ الشريعة المحمدية لاتشترط رضى المخطوبة فى الزواج وهذا خطأ فظيع هو من جملة خلط الأوربيين ، الذين يلقفون كل ما يسمعون وأحيانا ما لا يسمعون ، بل ما يتصورون بمجرد خيالاتهم ، فيقررونه وقائع ثابتة . فانه مما لا ينكر كون الوالدين فى كثير من الأحيان يستبدان بالبنت ، ويعقدان عليها بدون استشارتها وهى تطيعهما حرمة وتأدبا معهما . ولكن القول أن هذا هو من الشريعة الاسلامية خطأ فاحش ، فان البنت البالغ لابد من رضاها فى الزواج ، واذا عقد العقد قبل البلوغ وبلغت المعقود عليها ، كان لها الحق أن تفسخه .

---

(١) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البعكور

ثم ذكر ما عند الانجوانيين من حب الرقص والغناء ، والضرب بالمعازف وآلات الطرب وما عندهم من سرعة الخاطر فى ارتجال الأزجال العامية الرقيقة ، التى يطرب لها كل من يسمعها . وقال انهم يضربون بالطمطام (نوع من الدربكة) ، والقابوسى (نوع من العود) وقال انهم مغرمون أيضاً بلعب الورق والشطرنج ، ويحبون المصارعة ولعب السيف والترس وغير ذلك مما هو من أوضاع العرب

وفى السادسة من العمر يرسلون أولادهم الى الكتاب ذكورا واناثا ولا يفصلون بعضهم عن بعض الا فى سن البلوغ ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد ، ويكتب لهم على ألواح بيضاء بقلم من قصب الكامو ، وحبر يقال له نيونغو (١) آيات من القرآن لا بد للاولاد أن يحفظوها . ويواظب أهالى انجوان على الصلوات الخمس ويوم الجمعة يخرج السلطان الى صلاة الجمعة وامامه اثنان يحملان العلم السلطانى والمظلة السلطانية ذات العذبات الخضر ، ومن العادات القديمة أن أهالى قرية ميرونسى يؤلفون موكب السلطان فى ذهابه الى صلاه الجمعة . وجميع الأهالى يصومون رمضان ، حتى الذين ليسوا مسلمين من الزنوج يصومون . وتقل فى انجوان الأوقاف لكن يوجد منها ما هو مربوط بالجوامع ، ومنها ما يقفه الانسان على جهة برّ ويجعل نظارته فى ذريته حفظا لثروة البيت بعدم امكان بيع الوقف . وأما حجاب النساء فهو شديد فى انجوان حتى الذين ليسوا معروفين بشدة العقيدة ، ومن يشرب الخمر سراً ، لا يتسامحون فى أمر الحجاب . وتسود الخرافات عند البوزمن والزنوج فى انجوان حتى ان العرب قلدوهم فيها ، فانهم يمتحنون السارق ، مثلا ، بأن يجبروه على مضغ حفنة من الأرز غير المسلوق وهم يقرأون عليه سورة يس ، فمن لم يمكنه أكلها ثبت أنه سارق (٢) أما الصناعات فى انجوان فهى قليلة ، يعملون الفخار البسيط ، وينسجون الحصر والزنابيل ، وعندهم مطاحن على الهواء ، ويستخرجون عصير السكر ، وكان السلطان عبد الله قد أسس معمل سكر فى بامباو ، وغيره من الأهالى صنعوا السكر ونجحوا فيه . وأما الزراعة فهى فى حال التأخر ، والفضل

---

(١) مركب من البخار المتلبد محولا بالماء

(٢) الغالب على الأوربيين انهم اذا اطلعوا على حادثة أو حادثتين جعلوا ذلك قاعدة فلذلك تقل الثقة فى مروياتهم

فى المحاصيل انما هو لخصب الاراضى . وللعرب فى الاودية مزارع لطيفة من قصب السكر والكوكو ، وكان عندهم كثير من شجر البن . أما التجارة فلهم فيها نفاذ عظيم ، فقد ولدوا من بطون أمهاتهم نواتيه وتجارا . ومنذ القرن السابع عشر ، كان الانجوانيون ينقلون بضائع ماداغسكر وساحل شرقى افريقية الى خليج فارس ومسقط ، أما تجارة الرقيق فقد بطلت منذ سنة ١٨٤١ ، عند ما استولت فرنسا على جزيرة مايوت ، و بعد الغاء هذه التجارة سقطت تجارة انجوان عن درجتها الاولى ، أما سفنهم فهى قوارب ذات قلع واحد وهم فى غاية المهارة فى البحر سواء فى ادارة السفن الشراعية أو ذات المقذاف

أما تاريخ انجوان فهو تابع لتاريخ سائر القومور ، وكان استولى البرتقاليون مدة على هاتيك الجزر ، ثم ثار الاهالى بهم فاخلوها ، وجاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ونشر فيها الاسلام واستقر ابنه حسن بن محمد فى أنجوان ، فتلقاه الاهالى براً وترحيباً ، و بنى جوامع فى جميع القرى ، وأسس هو سلطنة انجوان اذ كان زعيم بلدة موتساموندوا المسمى فانى على قد أعطاه ابنته ، فتزوجها وتلقب بالسلطان ثم خلفه ابنه محمد فتزوج بأمينة ابنة ماسيلاحا ، رئيس جزيرة مايوت ، فألحق بهذه الواسطة مايوت بانجوان ، ثم استضاف محلى واطاعته ملوك القومور الكبرى ، ولكن هذه الطاعة لم تطل كثيراً حتى انقلبت الى طاعة اسمية فى أيام عيسى ابن محمد ، ثم مات عيسى وعهد بالامارة الى امرأته موللانه ، فانتقض أهالى مايوت عليها ولولا حزم « موانيه فانى » زعيم موتسامودو لكانت نجحت ثورتهم ، الا أن موانيه فانى هذا استأثر بالامر وفرت الملكة موللانه الى مدينة دومونى ، وهناك زارها ربان البارجة الهولاندية « ناسو » وتكلم أحد ضباطها فان دن بروك فى رحلة كتبها عن اكرام هذه الملكة لهم ، ثم مات موانيه فانى وخلفته امرأته فاتنة فى الملك فصارت ملكة فى دمونى وملكة فى موتسامودو . و بقيت الاحوال مختلفة الى زمان « عالمة » التى بنت الجامع الكبير فى موتسامودو (١٦٧٠) و بعد ذلك شن الماداغسكريون الغارة على انجوان وا كتسحوها ، وأحرقوا قراها واستباحوا حرمها ، وأسروا رجالها ، وقتلوا اسراها فقام فى وجوههم أحدى حفيد عالمة ودفع غارات الماداغسكريين ثم خلفه الشيخ سليم وملك الى سنة ١٧٩٧ ، فمات و بويع ابنه أحمد وهو دون البلوغ ، فقام عمه علوى وأحدث ثورة ليستأثر هو بالملك ، ففشل أول مرة والتجا الى زنزيبار ، ثم

عاد بعد سنتين وخلع أحمد وتولى مكانه ، و بقى فى الملك الى سنة ١٨٢٠ و بعد موته خلفه عبد الله الاول ، وقضى معظم ملكه فى قتال الزعيم المداغسكرى « راماناتيكا » وهذا الرجل كان ابن عم « رادامـا » ملك الهوفا ، فبعد موت الملك نفى مع جماعته من ماداغسكر فالتجأ الى أنجوان لما كان اشتهر به عبد الله من حسن الوفادة ونجدة الملهوف فتلقاهم عبد الله بالاكرام وأنزلهم أحسن منزل . ولكن راماناتيكا كان كنودا للنعمة كسائر الهوفا ، فلم يلبث أن أخذ يحرك الثورة على مضيفه ، وأخيراً عالنه الحرب ، فدارت الدوائر على الباغى ، وفر هذا من انجوان الى محلى واستولى عليها . فأخذ عبد الله يجهز قوة لاسترداد محلى . وكان فى هذه الجزيرة أمير من الساكالافا ، اسمه سولى ، أبى أن ينقاد الى راماناتيكا ، ولم يلبث عبد الله أن هاجم الضيف الخائن فى مايوت . وطرده منها ، فنصب سولى السكالافى أميراً كما كان وجاء يطارد العدو فى محلى (١٨٣٦) فصادفه اعصار شديد فرق مراكبه وقذف بالسفينة التى كان فيها الى الشاطئ ، فوقع فى يد راماناتيكا ، فقتل جماعته صبراً وأمر بوضعه فى السجن ، ومنع عنه الطعام الى أن مات . فجمع الأمير سولى فل الجند الذى كان لعبد الله وجاء بهم الى انجوان و بايعوا علوى بن عبد الله مكان أبيه بالرغم من دسائس عمه سالم الذى طمع فى الامارة . ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه ، فزحف سالم برجاله ، وحصر علوى فى موتسامودو ، فكان سولى أمير مايوت ينجد علوى برجاله ، فثبت هذا فى وجه عمه نحو أربع سنوات . ولكن سالما أثار ثورة فى نفس مايوت حالت دون ارسال النجدات الى علوى ، ثم تعاهد مع رماناتيكا الذى كان متوليا أمر محلى وهاجمت جنودهما موتسامودو ، فتسلقوا جدران قلعتها ليلا وانسل علوى خفية الى البلدة وركب قاربا أخذه الى القومور الكبرى ومنها ذهب الى موزامبيق ، ثم أخذه الانكليز الى كلكتا ، ثم جعلوا اقامته بجزيرة موريس حيث مات سنة ١٨٤٢ فانفرد سالم بالامارة . ودفعه الانكليز لمقاومة احتلال فرنسا لمايوت باعتبار أنها تابعة لسلطنة انجوان ، فلما نزل الأمير سولى عن مايوت لفرنسا احتج على ذلك بشدة ، فلم تبال وزارة غيزو باحتجاجه واستضافت فرنسا هذه الجزيرة الى مستعمراتها .

و بعد موت سالم خلفه ابنه عبد الله الملقب فى بلده بالكبير . وكان صديقا للانكليز وقد امضى معهم معاهدة رضى فيها بابطال الرق ، وكان يحب تنظيم ادارة بلاده على الطريقة

العصرية الاوربية واتخذ لنفسه مستشاراً طبيبا اميركيا اسمه ويلسون . وفى سنة ١٨٥٤ حاول علوى حسينى اغتياله ليملك مكانه ، فدخل عليه فى القصر فجأة بشرذمة من رجاله ، ولكن جماعة عبدالله استماتوا من دونه وقبضوا على المعتدى وصلب . وسنة ١٨٨٢ عندما امضى عبد الله معاهدة ابطال الرق ، ثار عليه أخوه الأمير محمد واعصوصب حوله جماعة وهاجم أخاه مرتين ، فهزمه السلطان فى كل منهما ، وعفا عنه فيما بعد . ولكن تلك الحرب الأهلية مع علوسن عبد الله أوهنت قواه وفتت فى عضده ، فطلب حماية فرنسا . وفى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٧ أصدر أمراً بقبول نظام الحماية ، وأرسل الفرنسيس معتمداً مقيما عنده اسمه المسيو ترويل . فكانت مذ ذاك الوقت سياسة المقيمين فى أنجوان اقامة النفوذ الفرنساوى مكان النفوذ العربى باسقاط سلطة السلطان تدريجا . ولكن لم تكن هذه الطريقة لتتم بدون صعوبة اذ قدم المقيم للسلطان مرة صورة أمر طلب منه امضاءه ، وهو يقضى بأن تكون الادارة الداخلية فى يد معتمد فرنسا ، فأبى السلطان امضاءه ، وثار العرب وهجموا على مقام المقيم ، وأهانوا العلم الفرنسى وأنزلوه فانسل المقيم المسيو اورمير الى مايوت ليأتى بسفينة حربية وفى هذه الأثناء مات السلطان عبد الله قيل مسموما وقيل مخنوقا . فبايع الماكويون (الزنوج) السيد عثمان أخا عبد الله ، وبايع أهل موتسامودو السيد سالما بن عبد الله ، فهجم الزنوج على البلدة واضطروا سالما والعرب الذين معه أن ينهزموا الى دومونى فسار عثمان خلفهم الى دومونى ونهبها ، وقتل كثيراً من أعيانها ، وقبض على سالم ورهطه وجاء بهم الى موتسامودو . وكان الفرنسيس فى تلك الأثناء أتوا باسطولهم وأنزلوا عساكرهم الى البر ، وسلم سالم الأمر اليهم ، أما عثمان فبقى يقاومهم نحو شهرين الى أن فرغ كل ماعنده فاستسلم اليهم أيضا . فنفى عثمان ونفى سالم معا الى كليدونية الجديدة (١) وأخذت الأسلحة من أيدى الأهالى وجئ بالسيد عمر ، وهو أمير من امراء انجوان خدم سياسة فرنسا كثيرا فى القومور ، وجعل سلطانا فى يوم مشهود سنة ١٨٩١ ، واتحد العلم المثلث الألوان مع علم الهلال والنجمة الانجوانى ، وسنة ١٨٩٢ امضى قبول الحماية تأكيداً لما كان سبق من السلطان عبد الله ، ومات فى تلك السنة وخلفه ابنه السيد محمد ، وفى مدته جعل لسلطنة (!) انجوان وسام اسمه « نجمة أنجوان » وجعلت طوابع بريدية خاصة بانجوان . اهـ .

(١) جزيرة فى البحر المحيط من الجزر البولينيزية تنفى اليها فرنسا المجرمين السياسيين

وأما جزيرة محلى فهى مع انجوان أخصب القومور ، وأما مايوت فأرضها بركانية وقد سبق الكلام عليها .

وربما يقال لماذا أطلنا البحث عن جزر صغيرة كهذه ، سكان أكبرها ٥٠ الفا ، وسكان الأخرى ١٥ الفا . وما هى الفائدة من ذلك ؟ والجواب ، ان الذى حدانا الى اطالة البحث عنها انما هو صغرها مع الأدوار التى مرت بها والحكومات التى تأسست فيها ، والسلاطين الذين لم يمنع ضيق بلادهم وقلة عدد رعاياهم من أن يكونوا مستقلين ذوى شأن وأن تكون لهم جنود وقلاع ومدافع ، مما يدلك على ماتبلغه هذه الأمة العربية ، من النفاذ والمضاء ومعالى الهمم فى الصغير من البلدان فضلا عن كبيرها . هذا اذا سلمت من الشقاق والنفاق اللذين هما آفة عزها وسلطانها .

تصحيح وتوضيح

بقلم عالم حضرمى

نحن عندما نقلنا مانقلناه عن ماداغسكر وجزائر القمر انما اعتمدنا على كتب الاوربيين . وهؤلاء كما لايخفى يخبطون كثيراً عندما يخوضون فى المباحث المتعلقة بالشرقيين ولا يأمن الانسان العثار فى النقل عنهم غير انه مما لامرية فيه ان للاوربيين مزية طرق المواضيع الشرقية التى يستجلب طرقها النظر فاذا جاء الموضوع ناقصاً تداولته الناس الواحد بعد الآخر الى أن يسمل . وهذا مالانراه عند الشرقيين الذين يهملون الاماندر ذكر مايعلمون عن أحوال بلادهم

غير ان من الشرقيين من يشذ عن قاعدة الاهمال هذه . فانه لما انتشر كتابنا حاضر العالم الاسلامى ووصل الى بلاد الجاوى اطلع عليه العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب العلوى الحضرمى فى بتاوى فوجد فيما أثرناه عن الافرنج بشأن ماداغسكر وجزائر القمر مايقتضى التصحيح أو التوضيح ونشر فى جريدة « حضرموت » الصادرة فى سورابايا سلسلة مقالات فى غاية الافادة والاجادة اشتملت على معلومات نفيسة عن تلك الجزائر ومن استعمرها من العرب وعن مآثر السادة العلوية الحضارم وراء تلك الأبحر الخضارم وخاض فى تقاسيم فروع تلك الشجرة الزكية وسلسل أنسابها على الوجه الذى يشفى الغليل والذى يدل على سعة اطلاع لايضطلع بها الا القليل فهو كاتب نقادمدقق مالك لموضوعه

ممتاز بدقة النقل مع سداد المنطق ورجاحة العقل قد سرنا جداً استدراكه على هـذا المقام بما أستدرك به ووعدنا القراء باضافة مقالاته هذه الى الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامى وهانحن أولاء منجزون للوعد قال :

طالعت كتاب حاضر العالم الاسلامى وما عليـه من التعاليق للأمير الـكبير والبحاثة النقاد الشهير ، والبليغ المصقع النحرير شكيب أرسلان . فرأيت فيه فوائد عزيزة . وابحاثا نفيسة ، فنقدم لذلك الأمـير وفير الشكر وعاطر الثناء . ولا ننسى فضـل مترجم الـكتاب عجاج الناهض، فقد قدم لأهل الشرق آراء أهل الغرب فيهم وذلك أمر تهم معرفته ، وقد رأيت فى مواضع من تعاليق الأمير حفظه الله أموراً جديرة بالعناية والتنبيه فأحببت نشرها فى جريدة حضرموت الغراء فأرجو أن تسارع الى نشرها فلعل أن يطلع على ما أكتبه الأمير شكيب فيجد فيه فائدة يحسن السكوت عليها .

من هم الفاتحون لجزيرة مدغسكر وجزائر القمر

جاءت أسماء هذه الجزائر عند الأمير شكيب هكذا (انجزيجه ، انجوان ، او انزوان مهلى) وهى فى شجرات الانساب عندنا وعلى ألسنة العرب بافريقية الشرقية هكذا (جزائر القمر وهنزوان ، وانقيزجه ومولاى) وقد نقل الأمير عافاه الله فى تاريخ هذه الجزائر كلاماً طويلا عن مؤرخى الافرنج من صفحة ٣٦٦ الى صفحة ٣٩٩ من الجزء الأول بالحرف الصغير وتكرر فيما نقله عنهم ذكر الأشراف وأسماء بعض سلاطينها ، وأصل تلك العائلة التى فتحتها ونشرت الاسلام فيهـا ، فمرة يقولون انه محمد بن عيسى من شيراز ، ومرة يقولون انه أحد أولاد محمد بن عيسى وانه بعد استيلائه على جزيرة القمر الـكبرى أرسل ولده حسن بن محمد فاحتل بشرذمة من الشيراز يين مواضع أخرى ، وجاء فى كلامهم ذكر السلطان السيد على ابن السلطان السـيد عمر ، وأبوه السيد عمر ، كان سلطانا على زنجبار والسلطان محمد بن حسن والشيخ سالم واحـمد بن سالم وعمه علوى وعبد الله الأول ، وعلوى بن عبد الله وعبد الله بن سالم الملقب بالـكبير ، وعلوى حسينى الى غير ذلك مع خبط وظنون لا يتحصل المطالع منها على حقيقة ، مما يدل على أن أولئك المؤرخين قد أخذوا ما كتبوه عمن يجهل انساب أولئك السلاطين وأصولهم كل الجهل .

وقد يدهش المطلع منا اذا رأى ذلك وهو يعلم أن أولئك السلاطين الفاتحين انما كانوا

من السادة العلويين الحسينيين الحضرميين المعروفة انسابهم وأسماؤهم وأخبارهم وأنباؤهم والمتضمنة شجرات أنساب السادة العلويين لأسمائهم فرداً فرداً . ويعجب كيف يستحيل التاريخ وتنطمس الحقائق اذا أهملها أهلها وأغفلها وعاتها ودراتها وشوهها نقلتها ورواتها .

أما الأمير شكيب فهو مشكور ومعذور والا فبأى وسيلة يتأتى له الحصول على الحقيقة من أخبار تلك الأطراف النائية والأقطار الشاسعة وليس لها تواريخ منشورة ، ولا آثار مأثورة ، ومن أين يمكنه الاطلاع على تواريخ السادة العلويين الحضرميين وتنقلاتهم وهم من أقصى حجر باليمن بالبلاد الحضرمية التى يرحل منها ولا يرحل اليها ، والتى عرف أهلها باضاعة أخبار اوليهم ومناقب أهليهم وتعفية آثارهم ونسيان ديارهم ، وكيف لا نعذره على عدم اطلاعه على أخبار أهل هذا القطر البعيد وقد شكى انقطاع أخبار أهله أبو الفرج الاصبهانى على شدة تنقيبه عن أخبار العلويين وميله اليهم . فانه قال فى كتابه مقاتل الطالبيين « على أنا لا ننفى أن يكون الشئ من أخبار المتأخرين منهم فاتنا ولم يقع علينا لتفرقهم فى أقاصى المشرق والمغرب ، وحلولهم فى نائى الأطراف وشاسع المحال ، التى يتعذر استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها سيما مع قصور زماننا وأهله وخلوه واياهم من مدون لخبر أو ناقل لأثر ، كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون » وقال فى آخر كتابه أيضاً « على أن بنواحى اليمن فى هذا الوقت وبنواحى طبرستان جماعة من آل أبى طالب (ع) قد ملكوها وغلبوا عليها الا أن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها الينا بل لعدمهم وفقدانهم وما ننفى من أن يكون لهم أخبار قد فاتتنا ولم نقدر على علمها » اه فهذا قول أبى الفرج فى زمانه فكيف بزماننا وكيف لا يعذر الأمير شكيب أرسلان وعذره أوضح وأوضح .

ذكر البطون العلوية المستوطنة بإفريقية

الشرقية والجزائر القمرية

أقدم قبل بسط القول فى ذلك تعديد البطون العلوية الحسينية الحضرمية الساكنة بتلك الديار ومنها كان سلاطين القمر مع الاشارة الى مراجع أنسابها فأقول : يوجد بتلك الجهات منهم ثلاثة عشر بطناً وان شئت قلت فخذاً .

الفخذ الأول يرجع نسبه الى أبى بكر بن احمد بن الحسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية .

الفخذ الثانى يرجع نسبه الى محمد بن سالم المهاجر بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بيته من جزائر القمر .

الفخذ الثالث يرجع نسبه الى صالح بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بهنزوان و بته .

الفخذ الرابع يرجع نسبه الى محمد المجذوب ابن الشيخ على بن أبى بكر السكران العلوى الحسينى بيته وسيوى وزنجبار ، وسلاطين سيع من أرض الملايو أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن عمر بن حسن ابن الشيخ على المذكور .

الفخذ الخامس يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن ابراهيم ابن الامام عبد الرحمن السقاف العلوى الحسينى بالقمر بهنزوان .

الفخذ السادس يرجع نسبه الى شيخان بن الحسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية

الفخذ السابع يرجع نسبه الى محمد بن علوى بن عبد الله بن على بن عبد الله باعلوى الحسينى وهم الفخذ المعروفون بآل المسيلة بافريقية الشرقة بيته ومولاى (مهلى) .

الفخذ الثامن يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله ابن الشيخ محمد الشهير بجمل الليل باحسن العلوى الحسينى المتوفى سنة ٨٤٥ بافريقية الشرقية وبالقمر وفى (آشى) أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن احمد بن عبد الله بن الشيخ محمد المذكور

الفخذ التاسع يرجع نسبه الى أحمد بن عبد الله باحسن بن محمد بن سالم بن احمد ابن عبد الرحمن بن على بن محمد جمل الليل بافريقية الشرقيـة وبملاكة (ملقا) من أرض الملايو ، أبناء عمهم المعروفون بآل القدرى ذرية محمد القدرى ابن سالم بن عبد الله باحسن المذكور .

الفخذ العاشر يرجع نسبه الى محمد جد آل باحسن الحديلى بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه بالقمر .

الفخذ الحادى عشر يرجع نسبه الى حسين بن عبد الله الأعين النساخ بافقيه بن محمد عيديد بن على صاحب الحوطة بن محمد بن عبد الله بن احمد المذكور بالقمر ، بمولاى

(مهلى) . — الفخذ الثانى عشر يرجع نسبه الى عبد الله بن على بن محمد عيديد بن على صاحب الحوطة الخ ما تقدم فى نسب الفخذ الذى قبله بافريقية الشرقية .

الفخذ الثالث عشر يرجع نسبه الى محمد سميط بن على الشنهزى بن عبد الرحمن بن احمد بن علوى عم الفقيه بزنجبار .

فهذه ثلاثة عشر بطناً يرجع نسب أربعة بطون منها الى عم الفقيه وبقيتها الى الفقيه محمد بن على . وهما أعنى الفقيه وعمه مرجعا جميع أفخاذ السادة العلويين وقد بلغ عددها مائة وتسعة وتسعين فخذاً فسكان البادية منهم الذين يعانون حمل السلاح يبلغون ثمانية عشر فخذاً أو يزيدون ، والباقون متحضرون ، ويجتمع نسب الكل على سيدنا محمد صاحب مرباط ابن على خالع قسم بن علوى بن محمد بن علوى بن عبيد الله بن المهاجر الى الله احمد[١] ابن عيسى بن محمد النقيب بن على العريض بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على الوصى المرتضى أخو رسول الله وابن عمه صلوات الله عليهم أجمعين .

عتاب موجع

لا باس أن يقف قلمى برهة قبل انجاز الكلام على سلاطين جزائر القمر لعتاب اخواننا العلويين اذ يقول القائل لماذا لم تنشر مناقب أولئك الأبطال الذين فتحوا تلك الجزائر البعيدة ونشروا فيها الاسلام وشادوا فيها المساجد و بنوا المعاقل و بسطوا لأهلها بسط العدل ؟

فنقول له ولماذا لم تنشر آثار بقية أفخاذهم التى انتشرت فى الشرق فان أفخاذ السادة العلويين كما سبق قد بلغت فى وقتنا مائة وتسعة وتسعين فخذا وقد أحصى عددهم منذ نحو خمسمائة سنة فكان عشرة آلاف نفس ، وقد أضاع اخلافهم آثار اسلافهم . فان أنكرت قولى هذا أيها القارئ واستكبرته وعددته شينا وعيبا . فارنى أى شئ نشر من أخبار وآثار من نزل منهم الديار الهندية فى سالف الدهر كالذين نزلوا

(١) أول من هاجر من البصرة الى حضرموت

أحمد اباد ، وسورت ، وبروج ، حيدراباد الدكن ، و بيجافور ، وكنور وقزرات ودلى و برودة ومان كيسر وكاليكوت و بلقام و بنقراباد ومليبار و بنقاله ، ألم تعلم ان أول داخل منهم الى البلاد الهندية دخلها سنة ٦١٧. فلماذا لم تنشر أخبارهم مع ملوك الهند العظام و وزرائها الكبار ، وما كان لهم من الجاه والمنزلة عندهم وما لهم من الآثار والنفع العام ، ومن أصهر اليهم من السلاطين كالسلطان شاه جهان والسلطان ابراهيم عادل شاه وابنه السلطان محمود بن السلطان ابراهيم عادل شاه والسلطان حبش خان والسلطان فتح خان ، والسلطان برهان نظام شاه ، وكيف حملوا السلطان ابراهيم عادل شاه على أن يلبس لباس العرب . ومن اتصلوا به من الوزراء كالوزير عنبر قبل أن يصير ملكا وبعد تملكه ، ووزير أحمد اباد الأعظم عماد الملك وغيرهما .

ولماذا لم تنشر أخبار أول من دخل آشى منهم فى خلال القرن التاسع اعنى منذ أربعة قرون تقريبا فاكرمته سلطانة آشى فى ذلك الحين وزوجه بعض وزرائها ابنته فاقام هناك واعقب بها . وهو السيد أحمد بن محمد بن أبى بكر الشلى ، بل لعلهم دخلوها قبل ذلك ، وكالسيد أبى بكر بن حسين المتوفى بها سنة الالف وكالسيد محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن علوى الشاطرى الذى أزال ما انتشر بآشى على عهده من القول بالتشبيه دخلها فى أوائل القرن الحادى عشر ، وفى ذلك التاريخ دخل جاوى السيد على بن عمر بن على باعمر فنشر بها الدعوة الدينية والعلم الاسلامى ، ولو نشر مثل هذا لما كنا نرى تخبط المتخبطين من مؤرخى الأفرنج فى أول من دخل البلاد الجاوية واسلم أهلها على يديه .

فهل تحسب ان السيد ابراهيم المقبور بقرسى والذى أسلم على يديه أهل جاوى كان من غير العلويين ? كلا .

لو نشرت لنا الاصول الأولى من شجرات انساب العلويين لا ستدللنا منها على شئ كثير ، ولكن مما يؤسف له انهم اكتفوا فى الشجرات المتداولة بالنقول عن تلك الاصول ولم يعبأوا بذكر من لم تتصل بهم أخباره من النائين فى الأقطار البعيدة ، فان اصل شجرة النسب التى الفها أبو الحسن على بن أبى بكر بن الشيخ السقاف المسماة بالجواهر السنية فى نسبة العترة الحسينية والتى جمعها ونقحها من بعده السيد على بن أحمد بن على بن حسن

أبو جبهات والتى جمعها وحررها وهذبها تاج العارفين زين العابدين العيدروس ، نعم ان الشجرة التى حررها من قبلهما سيدنا شيخ بن عبد الله العيدروس كان يظن انها مفقودة . ولكن قد ظفر الشهم الغيور السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف منها بنسخة ثمينة وجدها فى خزائن السادة العيدروسيين العلويين بالهند ، وفيها ذكر لكثير ممن انتقل عن الجهة الحضرمية من السادة وتديَّر غيرها من البلدان .

ألم تعلم أن بطناً عظيما منهم قد انتشر فى البلاد الهندية منذ سبعة قرون فلم تحتو الشجرات المتعددة على تفصيل أفخاذهم وتسلسل ذريتهم لقدم رحلتهم عن البلاد الحضرمية . وانقطاع أخبارهم وهم بنو عبد الملك بن علوى بن عم الفقيه المتوفى سنة ٦١٣ وغاية ما حفظته لنا الشجرات عن ذرية عبد الملك هذا قولها ان لها عقباً منتشراً بالهند يعرفون بآل عظمت خان معروفين بالشجاعة ، ميالين الى التجند والعسكرية فلم لا يكون السيد ابراهيم منهم

ان أسلافنا قد تفننوا فى ضبط أنسابهم حتى جعلوا للألقاب شجرة خاصة ، وللامهات شجرة خاصة ، وهكذا ولكنهم ما كانوا يميلون الى التنويه بما لهم من الأعمال فى البلاد التى يرحلون اليها و ينشرون الدعوة الاسلامية بها ، ميلا منهم الى التواضع وكسر النفس وعدم الرضا عنها ولكنا قد احتجنا اليوم الى ذكرها ونشرها لما يعلم المنصف الخبير ، ولو ترك القطا ليلا لنامَ .

فمن المطالب والمخاطب بنشر ما بقى بأيدينا من المناقب والاعمال العظيمة ونسخ ما غفلت عنه أيدى الضياع من تواريخهم وطبقاتهم وتحريره وطبعه ونشره ؟

المطالب بذلك أغنياؤنا ولكن أين هم ؟ ! ان الاهمال والاضاعة قد بلغ عندنا مبلغا يفوق حد التصديق فان للسيد أحمد بن عبد الله الشهير بشنبل تاريخا مفيداً فى بابه ألفه فى حدود التسعمائة فهل تحس منه من خبر أو تسمع له ركزاً .

وللسيد عمر بن محمد باشيبان تاريخ لعل أكثر خزائن اخواننا خلية منه ولكنه موجود بخزانة لندن قد نقلته أيدى الاهمال والضياع الى تلك البقاع .

وللوجيه الشيخ عبد الرحمن بن على بن حسان ثلاثة تواريخ أكبر وأوسط وأصغر فاسأل عنها ان أردت أن تتحقق أين بلغت السِّنة والنوم من اخواننا .

وأين تاريخ باعيسى وتاريخ باز رعه وتاريخ أبى شكيل المسعودى . وتاريخ الطيب بافقيه وتاريخ الطيب بامخرمه الى آخر ما يطول عده منها الخاص بالعلويين الحضرميين ، ومنها العام وفيه من ذكرهم الكثير الطيب فهل اعتنى بها أحد منا أو استنسخها أو لخصها كلا .

انما يفتخر أغنياؤنا اليوم باوتوموبيل يقتنيها أحدهم ويبذل الألوف فيها . قد أفنى فيها عمره وجعلها فخره ، أو ببيت يشيده أو ملهى يشهده ، أو امرأة يتزوجها وهم يفتخرون بالمنع والبخل كما يفتخر الكرام بالعطاء والبذل .

فان قال قائل ان هذه التواريخ النافعة كانت موجودة ولكن جاءتها الكارثة العظمى وهو دخول الوهابيين الى تريم سنة ١٢٢٢ فقد جاءوا الى خزائنها المشحونة بنفائس كتب التفسير والسنة والفقه والتاريخ فطموا بها الآبار جفاءً وغلظة وبداوة وغباوة . ولقد أتلفوا من بيت واحد اثنتى عشرة خزانة ومن آخر ست خزائن الى غيرذلك مما يطول عده كما فعلوا ذلك باليمن حينما دخلوها ، قلنا هذا صحيح ولكن هل تداركنا ما فاتنا واستنسخنا ما فقد منها من أيدينا وهو لا يزال فى أقطار أخرى كخزائن العيدروسيين بسورة وبيجافور وغيرها وكالموجود باليمن وعدن ؟ كلا .

لقد أراد بعض اخواننا استنساخ تاريخ القاضى أبى شكيل المسعودى فوجده بصنعاء فاستنسخه من هناك فما رأيك فى تاريخ حضرمى لا يوجد بحضرموت .

دع هذا وارجع بى الى العلويين الموجودين اليوم فى الاقطار المتباعدة ألا يحسن أن يكون بينهم نوع ارتباط وتعاون ومساعدة ، فهل فكر وسعى فى ذلك أحد من علمائنا أو وجهائنا وأغنيائنا ، وما هى المعلومات التى بأيدينا عن اخواننا المتفرقين فى قطر اليمن وهو أقرب الأقطار الينا كالموجودين منهم بحوطة الفقيه على ، ويبعث ، وحبان ، ويشبم وأحور ، وعياذ وانصاب ومرخة ، وحورة ، وردمان ، والسوادية وبلاد الرصاص ، والبيضاء ويافع وبيحان ورداع وابين والجرا وتعز والمكلا (١) والحديدة وبيت الفقيه وبلاد الدريهمى وزبيد والحجرية ونخلة وأبى عريش وحيس والليث والقنفذة ورباط اليمن ورباط الصفا وخنفرا بين ودثينة وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المحل .

---

(١) من أرض اليمن وهى غير المكلا المشهورة

سبحان الله ! لماذا نذهب الى اليمن وهنا أمر أقرب من ذلك ، هؤلاء اخواننا أهل البادية حمال السلاح والمعروفون بالشجاعة والحماسة والذين لن نستغنى عنهم يوما ما . فهل أرسلنا اليهم عالما أو مذكراً أو واعظاً وهل عقدنا بينهم عقداً أو جددنا عهداً أو أسسنا وداً ، وهل واسيناهم ولو مرة واحدة بشىء من الاموال التى تذهب جزافا فيما يرضى النساء والسفهاء . و يغضب جبار السماء وماذا نعرف من حال افخاذهم و رجالهم واعدادهم ؟

منهم بيت سهل و بيت جمودة و بيت مشائخ و بيت قرموص و بيت الكهالى و بيت عقيل و بيت الخشش و بيت محسن و بيت الاخسف و بيت كدحوم وآل البحرى و بيت مسلمة وآل الحكم ، و بيت رزينة و بيت هبارين و بيت الدحه و بيت الهادى .

وماذا نعرف من اخواننا بحول ، وعياذ ، وخورة ، ومرخة ، وهم الشجعان الذين فاقوا أسود خفا وعثر وزادوا على من يليهم شجاعة وفتوة وانوف حمية .

ذكر الامير شكيب عافاه الله فى صفحة ٣٤٢ من الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامى فصلا طويلا عن مسلمى الحبشة والجهاد الذى قام به الامام المجاهد الغازى أحمد بن ابراهيم مما تقرّ به العيون ، جاء فيه انه منقول عن تاريخ عرب فقيه[٢] وتردد فيه ذكر الاشراف والمهرة من الغزاة وهم من العلويين لا محالة ، فأين الذى بيدنا من أخبارهم وماذا نعرف عن اخواننا القاطنين بالحبشة وسواحلها كزيلع وغيرها ومن بهرر وكيلاد وقلب و بوش .

＊＊＊

ذكر عافاه الله فى صفحة ٣٤٣ ج ١ دخول الأشراف فى الصلح بين السلطان أبى بكر ابن محمد من آل سعد الدين الغزاة المجاهدين و بين الغازى المجاهد الامام أحمد بن ابراهيم جران ، وذكر فى صفحة ٣٥٣ منه ان الامام أحمد الغازى جمع الأشراف والعرب والمغاربة ، وذكر فى صفحة ٣٥٤ جلوسه لمرض الشريف أحمد القديمى وفى صفحة ٣٦١ منه انه عزل الشريف نور عن ذخنو الخ كما انه ذكر الشريف أبا بكر العيدروس فى صفحة ٣٤٣ منه.

فهذا كله يدل على مشاركة السادة العلويين و بنى عمهم من بنى قديم فى ذلك الجهاد . وعلى انتشارهم فى تلك النواحى فى ذلك العهد وقد أضيعت أعمالهم وأهمل ذكرها كما أضيع

(٢) لعله بافقيه السيد الطيب أو غيره

غيرها وان كان يوجد فى شجرات أنسابهم ذكر عدد ليس بالقليل ممن كانوا بها أو استشهدوا هناك ، وهاك من ذلك ماتيسر ، ذكروا منهم السيد أبا بكر بن علوى خردتوفى بالحبشة سنة ٨٩٥ والسيد على بن عبدالرحمن المنفر وكان سيدا جليلا سريا ناسكا صالحا توفى بدوار من أرض الحبشة سنة ٩١٥ وقبر بجانب المجاهد محمد مرزوق وقبره بها مشهور ، والسيد عمر بن أحمد بن علوى من آل عبدالله بن علوى قتل شهيداً ببر سعد الدين ، وأحمد بابريك العلوى توفى بزيلع فى الطاعون ، وابنه أحمد وعمه عبدالرحمن بن على ، وممن كان بهرر فى ذلك العصر نور بن عقيل بن علوى بن على من آل عبدالله باعلوى وقالوا فى جده على انه كان وليا صالحا فاضلا له الجاه الواسع ، والصيت الشاسع . وانه توفى بهرر سنة ١٠٢٣ والسيد أبا بكر بن عقيل من آل الشلى قتل شهيداً باوسه وأخاه اسماعيل أيضاً وأخاهما عبد الله ببر سعد الدين ، وعمهما توفى به أيضا ، وذكروا أيضاً السيدين عبد الرحمن وعمر ابنى حسن بروم العلوى توفيا بالطاعون الكبير فى الحبشة الذى مات فيه عشرة آلاف وممن السادة عشرون رجلا ، وكان ذلك سنة ٩١٧ وهو غير الطاعون الصغير الكائن فى حدود سنة ٩٤٠ .

وهذا ذكره الأميرشكيب فى صفحة ٣٦١ من الجزء الأول ، وقد ترجم للسيد عبد الرحمن المذكور فى السنا الباهر تاريخ أهل القرن العاشر ، والسيد محمد بن عمر الشاطرى العلوى توفى بزيلع سنة ٩٧٤ وممن كان من آل الشاطرى بها على عهده أبو بكر بن محمد الشاطرى وأخوه على العلويان والسيد المجاهد محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله السقاف العلوى ووالده أحمد توفى بالحبشة سنة ٩١٦ واعقب بها وحفيده المجاهد أبو بكر بن علوى ابن أحمد المذكور توفى بعده سنة ٩٥٥ وأخواه عمر وعثمان بالحبشة ، ومن هذه العائلة أيضاً ممن كان بالحبشة فى ذلك الوقت السيد عبد الوهاب بن عبدالله السقاف وبنوه عبدالله ومحمد ونور واعقب منهم محمد بها ، والسيد عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين توفى بقلب بالحبشة سنة ٩٤٠ وله عقب هناك ، والسيد محمد بن عبد الله بن حسن بن عبد الله السقاف العلوى وبنوه عبدالرحمن وعامر وحسن وعبدالله وقد توفى أخوهم الخامس على بن محمد بتريم سنة ٩٧٦ ، ومنهم عم السيد محمد المذكور السيد محمد بن حسن وبنوه عمر وعبد الرحمن وعبد الله وأخوه السيد عقيل بن حسن توفى بقلب بالحبشة وعقبه بها وكان من الأسخياء والسيد

عبدالرحمن القارى وأخوه أحمد أبناء ابراهيم بن عبدالله السقاف العلوى والأول منهما توفى ببالى بالحبشة سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن عبد الله المثنى بن عبد الله بن السقاف العلوى السادة محمد وشيخ وخلف بنوعلى بن شيخ بن عبدالله المثنى وجدهم شيخ المذكور ومن عائلة آل عبدالله بن محمد بن مولى الدويلة العلوى السيد سالم بن على بن عبد الله توفى بهرر سنة ٩٧٩ ، وعائلة آل حسن الورع بن محمد مولى الدويلة العلوى عبدالله بن محمد بن عبدالله وجده السيد عبدالله بن عمر الهندوان توفى ببرسعد الدين بقلب سنة ٩١٦ ، ومن عائلة آل باعبود مولى الدويلة العلوى أبو بكر ومحمد وشيخ وأبوهم عبد الرحمن توفى شهيدا بالطاعون بها سنة ٩١٧ والسيد على بن أبى بكر بن عبدالرحمن باعبود العلوى توفى ببرسعد الدين سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن اسمعيل بن ابراهيم بن السقاف العلوى عدة منهم أبو بكر بن ابراهيم بن أبى بكر البيتى كانت وفاة جده أبى بكر سنة ٩٠٥ ، ومن عائلة آل حسين بن السقاف السادة حسين وعلوى ابنى أحمد بن حسين بن السقاف وعمر بن حسين بن محمد توفى سنة ٩١٥ وحسن بن عمر قتل بها سنة ٩١٥ وعبد الله بن سليمان و بنوه حسن وسليمان وعلى ونور وحفدته وهم عدة ، ومن عائلة آل محمد بن السقاف العلوى عبد الرحمن ابن على وأبوه على بن عبدالرحمن و بالجملة فغير هؤلاء كثيرون يضيق بهم نطاق التعديد.

فهل حفظ أحد منا تاريخ هؤلاء الأبطال ؟ دع ذا وقل لى هل حفظناهم فى أعقابهم فعرفناهم بنا و بأنفسهم وحفظنا أنسابهم كلا وحاشا ، انما يقوم بذلك أهل الغيرة والحمية وقد فقد أهلها اليوم ، ولو رحل أحد من هؤلاء المتفرقين فى الأقطار البعيدة وساعدته الفرص فوصل الى (تريم) هل تظن أنه يقدر على اثبات نسبه ؟ لا . لأن الحفظة على الشجرات لايقبلون كلامه حتى يأتى بجملة من أهل بلده يشهدون له و يأتى بقرائن تثبت مدعاه ، ومتى يتيسر ذلك له فلا هو يقدر على ما يطالبونه به ولاهم يحيدون عن القواعد التىهم ملتزموها ، وانى يتيسر ذلك لأهل القمر وهنزوان تلك الجزائر النازحة فلا غرو أن تندرس أنسابهم وتضيع أعقابهم .

وماظنك بهذه الجنود المجندة المتفرقين فىجزائر الشرق فى سيليبس و برنيو وسومترا وجاوى وملقا (ملاكه) وآشى وقد دخل بعضهم منذ أربعة قرون ، ومنهم من لم يكتب اسمه ولا اسم أبيه ولاجده فى الشجرات الى اليوم .

وانى لأعرف قبيلة مشهورة فيها بيت ذوثروة عظيمة وهم لايزالون متصلين ببلادهم الحضرمية لم تكتب أسماؤهم ولااسم أبيهم فى الشجرات الى اليوم . ولوعلموا ذلك لانزعجوا ولكنهم لايعلمون بل يوجد كثير ممن بالبلدان الحضرمية التى تبعد عن تريم بثلاثة أيام أو أربعة لم يكتبوا واذا دام الحال لا يبعد أن يتعذر تقييد أنسابهم فيما بعد فلابد من المبادرة مادام العهد قريباً والشواهد بينة .

والعبرة ظاهرة فيما وقع منذ ٣٥ سنة أو نحوها فى مسئلة آل ابن ناصر وابن شيخان والضوضاء التى قامت حول ميراث بعض المنقرضين منهم بمكة .

ولا حيلة لضبط ذلك الا انتداب جماعة من أذكياء السادة للرحلة والطواف فى سائر البلاد الجاوية والهندية وافريقية واليمن وغيرها لهذا الأمر المهم ولتلافيه قبل فوات وقته . وبهذه المناسبة أقول ان من أعظم الناس منة على السادة العلويين الحضرميين سلطان المغرب الأقصى الادريسى اذ أرسل فى أواخر القرن الحادى عشر مائة ألف ريال لتقسم بينهم بالسوية والحق بها الشريف سرور أمير مكة ستين الفا فانتدب السيد الغيور الهمام الرحالة على بن شيخ بن شهاب الدين لجاب الأقطار واحتمل الاخطار ليقيد أسماءهم ويحفظ أنسابهم ففعل جزاه الله خير الجزاء فكانت هذه الصلة المادية سببا لتلك الفائدة الأدبية الكبرى .

فهل تظن أن الأغنياء من اخواننا العلويين التى تعد ثروتهم بالملايين ومئات الألوف ينتدبون فيفعلوا كما فعل سلطان المغرب ؟ لك أن تظن بهم أيها القارئ ماشئت أما أنا فلا أظن وهم أضعف أخلاقا وأقل توفيقاً من أن يحظوا بهذه المكرمة الجليلة .

العود الى الكلام على سلاطين القمر وهنزوان

نقدم اشارة لطيفة الى الحالة العامة فى ذلك القرن الذى كان فيه رحيل تلك العائلة العلوية الحضرمية الى تلك الأقطار والقرن الذى قبله .

الحضرمى حلف اسفار وركّاب اخطار وأبعد الناس منتوى وأقصاهم رحلة وقد كان ذلك شأن الحضارمة من قبل التاريخ حتى لقد ظن كثير من المؤرخين كالمؤرخ (جمس هنرى بريستيد) ان سكان مصر القدماء ومؤسسى الحضارة فيها و بعض أهل افريقية الشمالية انما جاءوا من تلك البلاد وما جاورها ، ومن نظر فى الفتوحات الاسلامية رأى انهم كانوا

فى مقدمة النازحين الى الفتوحات البعيدة عن بلادهم فكان سدس الجيش الذى فتح الاسكندرية من المهرة وفيه كثير من التجيبيين والصدفيين كما انه قد دخل الأندلس كثير منهم بَلَمْةَ من تديّر العراق والشام ، فهم أشهر من أن يشار اليهم ، فاما نزل السادة العلويون بنو أحمد بن عيسى المهاجر بين ظهرانيهم أخذوا إخذهم بل اناروا لهم السبل فى غرباتهم ووطأوا لهم المسالك الوعرة وسبقوهم فى ذلك سبقاً بينا وقد ساعدهم على ذلك أمور منها مايحصل لهم فى كل بلاد وطئوها من الجاه والاجلال لمكان أهلهم وسلفهم الطاهر ومنها كثرة العلماء منهم بالعلوم الاسلامية فحيثما وقعوا نفعوا ، ومنها تفوقهم فى سبيل الدعوة الى الله والى دينه ومنها لطف اخلاقهم وغلبة آداب التصوف عليهم فهم الين أخلاقاً واسمى تربية ، واذا نظرت الى قديمهم رأيت ان قريشاً عامة كانوا ذوى رحلة وأسفار وقد قص الله ذلك علينا وامتن به فى القرآن العزيز ، وكان هاشم بن عبد مناف هو الذى أخذ الايلاف أى العهد والأمان لقريش وكان رجلا كثير الأسفار ، قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما والله لقد عامت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لها العيرات لهاشم والله ما شدت قريش رحالا ولا حبلا بسفر ولا أناخت بعيرا لحضر الا بهاشم ، والله ان أول من سقى بمكة ماء عذبا وجعل باب الكعبة ذهبا لعبدالمطلب ، فاجتمع لهؤلاء السادة ما ورثوه من آبائهم وما أخذوه من جيرانهم وقد مضى لهم اليوم منذ سكنوا البلاد الحضرمية مايزيد على أحد عشر قرنا ولا نعلم أحدا من القبائل الموجودة اليوم بحضرموت أقدم سكنى بها منهم الا نحو أربع أو خمس قبائل ، وانك لتجد من بعض ذوى الطيش والنزق من الحضارمة من يظن أنه أقدم استيطانا بها منهم ويبنى على ذلك مالانحب ذكره ، ولو حقق تاريخه لرأى انه هو الطارىء الدخيل ولا نحب أن نمثل لذلك فى جريدة سيارة ولكن التاريخ لاينسى .

وقد كان أكثر الحضارمة فى أول ماقدم سيدنا المهاجر الى الله أحمد بن عيسى منعزلين عن العالم الاسلامى لمكان مذهبهم الشاذ الا قليلامنهم ، والحضرمى لابد له من رحلة وسفر فكان أهل الجماعة منهم يرحلون الى اليمن والعراق والشام ومصر ومنهم آل التنعى الذين اوعبوا كلهم الى البصرة وكان الآخرون يرحلون الى جهات افريقية الشمالية والى برقة وقابس وبودّان منهم جمع غفير وكانت لهم قرية تسمى بوصى ، فاما اتحد المذهب الحضرمى وذهب الخلاف عادوا يرحلون الى العالم الاسلامى الى الهند وافريقية الشرقية

والجزائر الملايوية والجاوية وكان السادة الحضارمة فى مقدمتهم .

وقد كان فى أوائل القرن العاشر زمن حرب وسلب، وأمور كثيرة تقتضى نزوح الحضرمى عن بلاده متلبسا لباس المكافحة والمناضلة . وكانت الروح الحربية شائعة فيهم اذ ذاك وكانت البلاد الحضرمية منقسمة قسمين يتنازع السلطان فيها قبيلان مشهوران وكانت المهاجمات بينهما مستمرة وكان أحد القبيلين يتلقى المدد من الأمير التركى بتهامة ، والثانى منهما يتلقاه من امام اليمن ، وانقسمت قبائل حضرموت الى فرقتين فرقة تشايع هذا وفرقة تشايع ذاك ودامت الحال كذلك نحو مائة وعشرين سنة وانتهت بخروج جيش امام اليمن سنة ١٠٦٩ فاصلح بين ذينك القبيلين وحد لهما حدوداً وأبقى كلا منهما على ملكه.

وكان البرتغال قد أخذوا يهاجمون السواحل الحضرمية فى أوائل القرن العاشر وكانت أساطيلهم تمخر البحر من سواحل الهند الى سواحل افريقية الى ساحل حضرموت . وهذا البحر هو مضطرب الحضرمى فكانت سفن الحضارمة والمهرة كثيراً ماتصادفها سفن البرتغال ويقوم بينهم القتال الشديد فتمرن الحضارمة على قتال البحر واذا انذر أهل الشحر (ساحل حضرموت) بأساطيل البرتغال أرسلوا الصريخ الى داخلية البلاد فكان أهل الفقه والعلم يتسابقون للقيام بفريضة الجهاد وتتبعهم العامة فتجتمع منهم الجموع هناك ترابط حتى تنصرف أساطيل العدو .

وفى شجرات أنساب العلويين ذكر عدد منهم ممن أسرهم الافرنج أو قتلوهم فى البحر فحازوا مرتبه الشهادة العلية .

وقد زاد فى حمية الحضارمة القتال القائم ببر سعد الدين والحبشة وفيه كثير منهم ، وكانت أخباره ترد تباعا الى حضرموت حتى كان السيد محمد بن الطيب بافقيه العلوى الشحرى يأتى بها مشروحة يوما فيوما فى تاريخه .

وقد زاد فى ضيق خناقهم القحط الواقع فى سنة ٩٤٥ حتى أكلوا الجلود . والسيول العظيمة التى وقعت سنة ٩٣٩ فانها اتلفت نخيلهم وأرضهم حتى لم يبق منها الا القليل واضرت بالجهات الجنوبية الغربية من حضرموت ضرراً بليغاً .

فزادت هذه الحوادث الحضرمى اذ ذاك محبة فى الرحلة والضرب فى البلاد و بغضا فى البرتغال الذين يقطعون عليه طريقه فعزم على مناوأتهم ومطاردتهم فكان لايسمع بمناوىء لهم

الا وانضم اليه ولا يحل ببلاد الا وشحنها بغضا لهم ، وقد كان للعمانيين فى ذاك القدح المعلى ولكن كان عملهم فى افريقية الشرقية متأخرا عن عمل الحضارمة بنحو ثمانين سنة فلما ابتدأوا فى العمل كان من جملة جنودهم كثير من أهل حضرموت .

وكان عدد العرب بافريقية لذلك العهد كثيراً وكانوا تجاراً قلما يتعرضون للامور السياسية حتى أهاجهم البرتغاليون بعسفهم وظلمهم ، وكان العرب على اتصال ببلادهم وأخبارها ترد اليهم فى سفنهم الأنباء بأفعال البرتغال فى بحر العرب فكان ذلك مما يزيد فى نقمتهم عليهم وتسبب عن ذلك قيام أهالى زنجبار عليهم سنة ١١١٠ فطردوهم منها وهاجت عليهم افريقية الشرقية وجزائر القمر واتصلت بينهم حروب زعزعوا بها مركزهم فلم يستقروا الا بسفالة وما والاها . وكان العرب هناك فى مقدمة الثائرين بل كانوا كثيراً مايتولون قيادتهم .

أما العمانيون فقد تولوا زنجبار سنة ١١٩٩

* * *

مما فاتنى التنبيه عليه امتياز العائلة المعروفة بآل ابن حسن من السادة العلويين ببعد الهمة ونفاذ العزمة ، والاستشراف الى تنفيذ الشرع الاسلامى وجمع الناس عليه ، والتوسل اليه بايجاد القوة المنفذة وأعنى بهم المنتسبين الى سيدنا حسن بن الشيخ على بن أبى بكر فان بنى محمد المجذوب بن حسن هم أكثر الافخاذ الموجودة بجزائر القمر بيتهوسيوى وبزنجبار أيضا ، وقد ذكرناهم و بنى أعمامهم بنى عمر بن حسن هم الذين قد دخلت سومطره سيطرتهم وهم سلاطين سيك وهم المعرفون الآن بآل شهاب الدين (سيع) الى اليوم وان منهم دويلة صغيرة فى (فرليس) فى حماية سيام ، وان ملوك فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى العلويين يعود نسبهم الى سيدنا محمد جمل الدين بن حسن المعلم بن أسد الله وقد ذكرنا اخوانهم بافريقية ، ومنهم نفذ بآشى وآخر بمقدشوه ، ومن سلاطين فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى السيد عبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٣١) بن حسين بن احمد بن حسين بن محمد القدرى المتوفى بتريم سنة ١١٧٩ وقد تقدم بقية نسبهم ، وأما ابنه أبو بكر فتوفى بفنتيانق سنة ١٢٧٧ وفى تلك السنة أيضا توفى أخوه عثمان بن عبد الرحمن ولهما عقب وقد بلغ عدد آل القدرى بفنتيانق آلافاً وانقطعت الآن صلاتهم أو كادت ببلادهم

واخوانهم ، وأكثرهم يجهل حقيقة نسبه وتبعة ذلك واقعة على كواهل أغنيائنا وسرواتنا ، أما سلطان سولوك سندكان فلفاين فهو من آل العيدروس .

ومما ينبغي الاشارة اليه ان العائلة التي ظننا انها أول عائلة من العلويين دخلت الى القمر هي العائلة التي اشتهر كثير من أفرادها بالبطولة والشجاعة في حرب المسلمين مع الحبشة فان السيد احمد خطيب بته بجزائر القمر بن علوى بن محمد بن احمد مرزق بن عبد الله وطب المتقدم ذكره قد اشتهر جده السيد محمد بن احمد بالجهاد كما تقدم ، وأخو جده عبدالله ابن احمد فلا يبعد أن يكون السيد علوى ابن السيد المجاهد محمد بن احمد قد كان مع والده بالحبشة ثم نزع الى القمر مجاهداً وناشراً للاسلام ، وهذه العائلة وعائلة آل ابن حسن آل سيوى و بته هم أول من دخل القمر يقتضيه السبر بخلاف الانخاذ المنتسبة الى الشيخ أبي بكر بن سالم فانما جاءوا بعدهم ولعل أول رحيلهم اليها كان بعد جهاد الشحر والنفير العام الذي نودى به في حضرموت سنة ١٠٩٧ فقد نفر له كثير من المجاهدين من السادة العلويين وغيرهم من الحضارمة وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتقال بعد أن احتل الشحر سنة و بضعة أشهر ، وقد استشهد بتلك المعارك عدة من السادة العلويين منهم السيد عبدالله ابن محمد بن احمد الفقيه على بن المعلم عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٨٧٣ ابن على (المتوفى سنة ٨٤٠) بن سيدنا عبد الرحمن السقاف العلوى الحسيني ، وكانت حضرموت لاتزال لذلك العهد حية معمورة .

قالوا وقد خرج من نواحي هيتن فقط ستمائة فارس فذهبوا مع النفير العام وربما يستغرب بعض اخواننا هذا ويقول كيف تتسع هيتن لهذا القدر ومن أين يجدون لها الحشيش والعلف وهذا كلام من يجهل التاريخ ويجهل كيف كانت حضرموت وما كانت عليه من العمارة ، وليس لأهلها في تلك الاوقات من الاتصال بجهات المعمور وانتشار التجارة والغنى فيهم عشر مالهم اليوم ولكنهم كانوا ذوى محبة لاوطانهم واقتصاد في شؤونهم وكان همهم موجها الى عمارة بلادهم ولم يكونوا كخلفهم اليوم لاهم لهم الا تدمير بلادهم ولا هم لأغنيائهم الا جمع المال جمعا قارونيا أو بذله لاثارة الفتن وقطع السبل أو للترهات والعوائد والموائد والقصف والترف ، وقد كانت ظفار مثابتهم ومتردد تجارهم ومرعى خيلهم ، وكان لهم ضراوة باقتناء الخيل حتى لقد كان لسيدنا الحسين ابن أبي بكر بن سالم

وحده سبعون رأسا من الخيل ، وقد زار نبى الله هود عليه السلام مرة فزار معه من أبنائه وأحفاده أربعون فارساً (وكان معمرا) .

ويكفيك شاهداً على ما ذكرناه انه لما أسر السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر أبو طريوق محمد بن على بن فارس فى سنة ٩٣٨ غضب له نهد فاما أصعد السلطان يريد دوعن اعترضه من السور (١) مائة وستون فارساً من نهد غضبا لصاحبهم ولكن تم الأمر بينهم على اطلاقه وكانوا يستعملون الآلات الحربية القوية فى حروبهم فان ثابت بن على فارس النهدى استولى على القرين (٢) سنة ٩٤٠ باستعمال الرمى بحجر العرادة (٣) ولو جئت اليوم الى بلاد نهد كلها لم تجد فيها فرسا واحداً وأكبر داهية حلت بحضرموت حتى خرب خرابا لا يتصوره العقل هى الداهية التى حلت به سنة ١١١٧ فانها داهية هلكت بها العباد والبلاد وبقيت الى حدود سنة ١٢٧٠ ، وجاء فى أثناء ذلك الوهابية سنة ١٢٢٢ الى سنة ١٢٢٦ تقريباً فكان مجيئهم ضغثا على ابالة وأعنى بتلك الداهية المتغلبين من يافع على السلطان عمر بن جعفر بن على وكان الذى جلبهم هو السلطان بدر ابن محمد بن عمر بن بدر أبو طويرق خرج بهم من هناك سنة ١١١٦ وتم استيلاؤه على حضرموت بهم سنة ١١١٧ وقد غلوا يد ولده السلطان محمد بن بدر ثم استقلوا بالأمر وجرت أمور يطول شرحها .

ومن عجائب ما يراه الناظر فى تاريخ حضرموت ان الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ولكن لم يؤثر ذلك فى خراب حضرموت خرابا يماثل ماوقع فى الزمن الأخير فانهم باحتلالهم حضرموت واستغوائهم أهلها ورميهم بهم فى تلك النحلة قد جعلوا العالم الاسلامى ألباً عليهم فصارت حضرموت ميدانا لهجمات جنود الاسلام اذ ذاك وأعظم واقعة مشهورة كانت سنة ١٤٠ فان معن بن زائدة الشيبانى الجواد المشهور وكان أميراً على اليمن للمنصور العباسى غزا حضرموت بجيش جرار فقتل رئيس الأباضية عبد الله بن يحيى وقتل معه من الخوارج خمسة عشر ألفاً حتى رجز بذلك الرجاز وأشاد بذكره الشعراء فقال الاعرابى :

---

(١) بلد من بلدان نهد قد خرب (٢) بلد بدوعن

(٣) العرادة آلة أصغر من المنجنيق يرمى بها الحصون والأسوار

يامعن من شيبان أنت انتا علمت أهل حضرموت الموتا

وقال شاعره مروان بن أبى حفصة فى قصيدة يمدحه بها أولها :

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعاً و إن كان من عهد الصبا قد تودعا

الى أن قال :

لقد أصبحت فى كل شرق ومغرب بسيفك أعناق المريبين خضعا
وطئت خدود الحضرميين وطأة لها هد ركن منهم فتضعضعا
فاقعوا على الأذناب اقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقى وأودعا
فلو مدت الأيدى الى الحرب كلها لكفوا وما مدوا الى الحرب أصبعا

ثم توالت الأمراء على اليمن وحضرموت من ناحية العباسيين فبلغوا الى سنة ٢٦٣ زهاء نيف وخمسين عاملا أعنى الى ولاية المعتمد بن أحمد المتوكل وكان العامل على عهده محمد بن جعفر فامتنع عليه أهل حضرموت فغزاهم وأخضعهم ، ومعن بن زائدة هو أول من ألزم أهل حضرموت واليمن لبس السواد شعار العباسيين فصار زينتهم الى اليوم ، ولما جاء سادتنا العلويون لبسوا البياض واقتدى بهم وذلك شعارهم وهذا هو السر فى انكار جمهور العلويين على من لبس السواد من اخوانهم والتزامهم لبسه الى اليوم .

***

ومما وقع فيه مؤرخو الأفرنج من الخبط والخلط ما نقله الأمير شكيب عن المسيو فزان والمسيو رينيه باسه فى الجزء الأول من كتاب حاضر العالم الاسلامى فى الصفحة ٣٧٤ فننقل ما يتعلق به الغرض مما قالاه ثم نتعقبه ، قال عن المسيو فزان : ان قبائل الاسلام فى الجنوب الشرقى من ماداغسكر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسكر من مكة — الى أن قال — قال المسيو رينيه باسه : يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فمن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر فى الحبشة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن على [1] مع أن عقيلا ما وطىء تلك الأرض — الى أن قال — عن المسيو فزان : ان دعوى الانتساب الى أهل البيت فاشية عند مسلمى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسكر ولكنه مما لا ينبغى أن يوثق به كثيراً اه ونقول

(١) الذى نعرفه أن عقيلا هو أخو على

ان المسيو رينيه قد استعجل أمراً كان له فيه أناة ، وقد كان الواجب عليه أن يعرف المسمى عقيلا بن على وأن يتفطن لكون عقيل بن على لا بد أن يكون غير عقيل بن أبى طالب أخى على عليهما السلام ، وكثيراً ما يؤتى المؤرخ من العجلة وترك البحث كما يؤتى من الغرض وسوء القصد . وذلك أن هناك عقيلا آخر غير من ظنه وهو عقيل ابن علوى بن على بن محمد بن جدون بن علوى المتوفى سنة ٩١٤ ترجمه فى المشرع والسنا الباهر ابن محمد المترجم فى المشرع أيضاً ابن على الملقب بجحدب بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٨١٦ بن محمد المترجم فى الجوهر والمشرع والمتوفى سنة ٧٤٣ بن سيدنا عبد الله باعلوى المترجم فى الجوهر والغرر والمشرع والترياق وشرح العينية المتوفى سنة ٧٣١ وهو ابن علوى ابن الفقيه المقدم محمد بن على الى آخر النسب المتقدم فى المقالات السابقة ، وقد كان السيد على بن محمد جد عقيل المذكور قد قطن هرر من بلاد الحبشة وكان فاضلا وصار له بها جاه واسع وصيت عظيم ونفوذ مذكور مشهور ، وقد توفى ضحوة يوم الثلاثاء سنة ١٠٢٣ وأعقب هناك والعقب منه فى ابنه علوى ، وأعقب علوى من عقيل المشار اليه وعثمان وجيدون وكلهم لهم عقب هناك والعدد فى ذرية عقيل أكثر من أخويه . ولسنا بصدد التفصيل فانما المراد التنبيه والاشارة . وقد سبق أن السادة العلويين قد ترددوا الى الحبشة ودمثوها بخطاهم للتجارة والدعوة وكان دخول أول داخل منهم اليها سنة ٨٣٧ ـ أى منذ ٥٦٧ سنة وكانت تجارتها من بندر زيلع فكان للسادة العلويين بها مقام سام مالى وأدبى . ومن هذا القبيل تخبط مؤرخى الافرنج فى الدعاة الذين أسلم على يدهم الجاويون فتارة يقولون انهم كجراتيون(١) وتارة يقولون انهم فارسيون ولهم فى هذا الباب جولات لا تخلو عن تجاهل .

وقد يعتذر عنهم بأنهم رأوا هؤلاء الدعاة يأتون من ناحية تلك البلاد ولا يعرفون حقيقتهم وقد كان العرب الحضارمة وفى مقدمتهم السادة العلويون لهم ترددات الى مليبار وكجرات وكاليكوت وغيرها من البلاد الهندية ولهم بها مراكز تجارية ودينية ، وقد كان لكثير من العلويين رباطات مفتوحة لطالبى العلم وكانت السفن تذهب من ساحل حضرموت قاصدة الى مليبار ثم تأخذ شرقاً على السواحل الهندية ومنها الى سومطرا و بلاد آشى منها

(١) أى من كجرات من الهند

وفليمباغ (فولو امباغ) بجاوى ، وقد ترجم فى المشرع لبعض علماء السادة العلويين الذين دخلوا جاوى قبل وصول الهولنديين اليها بمدة طويلة الى آشى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ولا يزال اسم السيد هاشم يدور على ألسنة سكان آشى الى اليوم لأنه كان العامل الأكبر فى الحرب المعروفة بحرب البوقيس قبل أن يطأ بلاد جاوى هولندى ولا غيره ، وآل هاشم هم من السادة العلويين آل عم الفقيه وهم ذوو عدد بينجر (برنيو) و بسيلان يرجع نسبهم الى السيد هاشم بن أحمد بن علوى بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى المشهور بعم الفقيه الخ النسب المتقدم ، وهناك من هو أقدم منهم دخولا الى آشى وهو السيد هاشم ابن محمد المتوفى سنة ٩٧٨ بن عبد الله بن مبارك بن عبد الله المتوفى سنة ٨٨٤ وهو المعروف بوطب ، وهو بن محمد بن سيدنا عبد الله باعلوى فان السيد هاشما قد دخل آشى ومكث بها حتى توفى وفى آشى مقابر محتوية على كثير من السادة العلويين وقد تولى منهم عدة سلاطين فى تلك الجزيرة وهو أمر معروف عند الأهالى وان تعامى عنه المتعامون

ولا يزال أهل آشى يطلقون على كل عربى لفظة حبيب وهذه الكلمة هى اللقب الذى يدعى به كل سيد علوى ولم نرفيما قرأناه مما كتبه الافرنج انصافا الا فى مقالة نشرتها مجلة فانچى فستاكا التى تصدر من ويلتفريدن فى عددها الخامس عشر الصادر فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ فانها ذكرت تعاهد الحبيب حسين القدرى جد سلاطين فنتيانق (فنتيانه) هو وثلاثة من اخوانه من العلويين وهم السيد أبو بكر العيدروس والسيد عثمان باحسين السقاف (١) والسيد أحمد الكوريس (٢) واتفق هؤلاء الاربعة بعد الحصول على الاذن لهم من شيخهم بمليبار (٣) على التوجه الى الشرق للدعوة الى دين الاسلام فاقام السيد أبو بكر العيدروس بآشى وأما باحسين (٤) فاقام فى سيك (سيع) واقام السيد محمد فى ترنقانو (٥) ثم ساقت المجلة ترجمة الحبيب حسين القدرى وتولى ولده عبد الرحمن بن حسين

---

(١) الصواب عثمان بن عبد الرحمن بنحسن وهو أول سلطان بسيك (سيع) بسومطرا من هذه العائلة

(٢) لعل الصواب الكريشة تصغير كرش فيكون هو السيد احمد بن علوى بن بركات بن محمد كريشة العلوي ، وقد توفى بالهند وله عقب بجزائر القمر بهنزوان

(٣) كذا قالت ولعله سيدنا شيخ بن علوى الجفرى مؤلف كنز البراهين وغيره المتوفى سنة ١١٧٢

(٤) الصواب بنحسن ويعرفون الآن فى سيع بآل شهاب

(٥) هكذا قالت ولم يتقدم لمحمد ذكر وقد اشتهر بترنقانو آل محمد وزين ابنى حسين بن مصطفى العيدروس المترجم فى مراءة الشموس فان لهم بترنقانو ذرية مباركة فيهم علماء نفعوا كثيراً ، وكان السيد محمد بن زين ابن حسين اماماً كاملا وعالما عاملا له صيت كبير يحضر درسه نحو ألف نفر فليحرر

سلطنة فنتيانق الخ ما فيها فليراجعه من اراده ، وقد كان بجزيرة سمبه (سومبه) من جزائر التيمو ر سلطان من آل القدرى الى زمن دخول هولندة اليها وله ذرية هناك معروفون ، والمقصود انه من المحتمل أن يكون من تكلم فى هذا الموضوع من الافرنج انما جاءه الوهم من جهة أن اولئك الدعاة انما جاءوا من طريق الهند وهذا صحيح فانه ما كان أحد يلج من حضرموت الى جاوى بل كانوا يسيرون اليها من الهند كما تقدم وكانت الهند مثابتهم بل قد تأسست بها دول كان من العوامل فى تأسيسها بعض السادة العلويين كمملكة الملك عنبر فقد كان من العوامل الكبرى فى تأسيسها ارشادات الحبيب على بن علوى بن محمد الحداد العلوى ، ولذلك قصة غريبة ذكرها فى عقد الجواهر والدرر ونقلها عنه صاحب خلاصة الاثر فلتراجع ، وما كان الامير جوهر سحرتى الا تلميذ الشيخ الامام شيخ بن عبدالله العيدروس العلوى ولذلك لما توفى اعتنى به السادة وجهزوه وكان له مشهد عظيم ودفنوه فى مقبرة السادة والعرب تحت مدينة بيجافور ، ترجمه فى عقد الجواهر والدرر ونقله عنه صاحب خلاصة الأثر ، ولا يحتمل المقام بسط حالهم هناك وتعديد من دخل من انخاذهم الى الهند ، ومن دواعى الوهم لاولئك المؤرخين الذى يستعمله العلويون فانه اشبه شئ بزى علماء فارس وفى كلامهم توهمات وظنون لا تخفى على المتأمل .

ولايزال اناس ممن دخل جاوى منذ قرون ينتسبون الى آل باشيبان أحد أفخاذ السادة العلويين و يصلون أنسابهم بالدعاة المغاربة[١] أعنى الموجودة قبورهم بموجو أقونغ ودونك مثالا واحدا من الانساب التى بايديهم فمنهم الآن كياهى (أى العالم) منصور بن طه بن محمد باقر بن مجاهد بن على اصغر بن على اكبر بن سليمان المقبور فى بلد موجو أقونغ بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الشيبانى العلوى وآل باشيبان منهم عدد كثير بشربون وفكالونقان (باكنقان) وغيرهما وعبد الرحمن الذى ارجعوا انسابهم اليه توفى سنة ٩٧٣ وابنه عبد الله توفى بآشى وله عقب بالهند ببلقام والدكن وله ابن يسمى شهاب الدين قد خفى حاله ولم يذكروا فى الشجرات أعقب أم لا ، ولم يذكروا سليمان هذا فلا بد من بحث وتنقيب فان المواصلات كانت قليلة بين حضرموت وجاوى ولا سيما فى القرن العاشر بسبب حروب البرتقال وغيرها فينبغى أن يبحث عن تاريخ عبد الرحمن هذا والبلاد

(١) لعلهم أطلقوا عليهم المغاربة لأنهم جاءوا من غرب جاوى وكل جزيرة العرب غرب بالنسبة الى جاوى

التى رحل اليها وتزوج بها ولنا عودة الى هذا الموضوع ان شاء الله ، أما عدد الآباء فى نسبهم الى أمير المؤمنين على عليه السلام فيبلغون على ما حكيناه عنهم اثنين وثلاثين أبا على أن عدد الآباء فى نسب الطبقة الحاضرة من العلويين يتراوح بين ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ أبا ، أما السيد عبد الرحمن صاحب المقام بشربون وفاتح بلاد السوندا جميعها وناشر الاسلام فيها وماحى آثار الشرك بها وابنه بصرى[1] المتملك بشربون وابنه حسن المتملك ببانتن من بلاد السوندا بجاوى فقد أقر مؤرخو الافرنج بأنهم لا يعلمون أصله من أى قوم وكانت وفاة السيد آبى بكر باشيبان جد آل باشيبان بعد الثمانمائة ووفاة ولده أحمد سنة ٨٧٠ ، وقد كان السيد عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن باشيبان العلوى المتوفى سنة ١٠٦٦ ببلقام من بلاد الهند ممن تصدر للنفع والقيام بنفقة الطلبة وكان الملك عادل شاه قد سوغ له خراج جرام موضع قرب بلقام وكان ذلك بعد أن أقام مدة بجوار الملك عنبر ملك الدكن وقد قلنا ان أباه عبد الله توفى بآشى فهل يكون السيد عبد الرحمن فاتح السوندا من أحد انسبائه ينبغى اتمام البحث فى هذا الموضوع ولنا اليه عودة ان شاء الله تعالى .

أما الكلام فى بقية أفخاذ السادة العلويين المنتشرة فى سومطرا وبرنيو وجاوى وملاكا (ملقا) وجزائر التيمور فيطول ولا تزال غالب انسابهم محفوظة وان كنا نخاف الآن ضياع أنسابهم وآدابهم وعوائدهم وسائر مميزاتهم اذا طال نومهم ولا سيما وقد سرت العجمة الى أكثرهم ودب داء التفرنج العضال الى كثير منهم ولا قوة الا بالله .

* * *

وقد أهدت الى جريدة حضرموت الغراء ما جاد به اخوانا العلامة عمر بن أحمد ابن سميط العلوى قاضى زنجبار الآن عن بيان نسب السادة المعروفين بآل بتة قال حفظه الله : من أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وممباسه وزنجبار ويدعون بآل بتة ، من الموجودين الآن منهم بلامو سالم بن عبد الرحمن بن أبى بكر وهذا هو الملقب ببتة لكونه ولد بها وهو ابن أحمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر وهذا هو أول من طلع من حضرموت وهو ابن عبد الله بن شيخان .

ومن أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وزنجبار

(١) يحرفه الجاويون فيقولون بصريان

لا ينسبون الى أبى بكر بتة ، من الموجودين منهم الآن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن يجتمع مع أبى بكر بتة فى عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله بن شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم .

وأما أولاد على بن أبى بكر السكران فنهم عدد بلامو وسيوى ويدعون هناك بآل السقاف ، ومن الموجودين منهم الآن بلامو عمر بن محمد بن عمر ينتهى نسبه الى عبد الله ابن عيدروس بن عبد الله بن عيدروس بن حسين بن محمد بن عمر بن حسين بن الشيخ على بن أبى بكر السكران ، ومما تقرر يعلم ان آل بتة هم من ذرية شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم لا من ذرية على بن أبى بكر السكران كما تبادر الى الذهن ، و بتة هى من البلدان الجنوبية (بافريقية الشرقية) الواقعة فى عرض ٢ ر ٢ وطول ٤٠ ر ٦٣ كانت فى الزمن الغابر معمورة بالعلوم والعلماء وأما اليوم فليس بها أحد ممن يشار اليه اهـ فنقدم شكرنا لأخينا السيد عمر ونرجوه أن يمن علينا بشئ من وقته الثمين ويطالع ما جاء فى الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامى صفحات ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٨٤ و ٣٩٠ وما بعدها من أسماء سلاطين هنزوان وانقيزيه وترتيبهم وسلسلة أنسابهم فانه أقدر الناس على حفظ ذلك والبحث عنه أبقاه الله ذخيرة للمسلمين والاسلام .

وقد آن لنا أن نذكر معلومات مهمة عن شاهد عيان خبير تردد الى ماداغسكر وجزائر القمر منذ خمسين سنة وهو الشيخ محمد الكلالى الشهير فقد أبلغنى بعض اخوانى انه لقى الشيخ محمد المذكور ليلة فى بتاوى فى احدى ليالى شعبان سنة ١٣٤٤ مع جماعة من الاخوان وتحادث معه فى المقالات التى نشرتها جريدة حضرموت الغراء فافضى اليه بالمعلومات الآتية وقد كتبها عنه ذلك الاخ واستأذنه فى نشرها فاذن له قال : (مداغسكر) جزيرة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات والغلال يسكنها شعبان عظيمان من شعوب البشر أحدهما يعرف بالسكلافا (بفتح السين والكاف) وهم على سواحل الجزيرة وأطرافها وسحنتهم أشبه شئ بسحنة العرب وكانوا قبل احتلال فرنسا لمداغسكر يكتبون بالحروف العربية واللغة العربية ويزعمون أنهم عرب ، ولكنهم ليسوا بمسلمين ، ثانيهما البلامبو ويقال لهم أيضا الهوته (بضم الهاء) وهم أشبه الناس بالملايو ولغتهم محرفة عن لغة الملايو وأعدادهم مركبة من أعداد الجاوى والسوندا والملايو وهى ريكى . ديوا . تيلو . ايفت .

ديمي شيتو . فيتو . والو . سيوِى . فولو . ويسمون الشراع لاى . والصدر . دا . والتمساح بوى ، فهذا كله محرف عن شبهه من لغة الجاويين والسونداويين والملايو وهو سيجى . دوا . تلو . اوفت . ليمو . فيتو (صحيحة غير محرفة) أولو . سغو [1] سفوله دادا . لايا . بوايا وكانوا رجال حرب شجعانا وتتجند نساؤهم للحرب ويقاتلن بشجاعة وبسالة نادرتين قال وقد رأيت جنداً من نسائهم يقاتلن الفرنسيس متوشحات ومتمنطقات بمناطق رصاص البنادق قال : ولقد كنا مرة فى مرسى مجنقا (بكسر أوله وفتح ثانيه) فى سفننا وقد كومت غلال الارز والذرة على الساحل كأنها الجبال أعدوها لمجيء التجار وقيام السوق فلم نشعر الا بمركب حربى فرنساوى قد وصل الى المرسى وأمرنا بالخروج منه فخرجت السفن كلها فدنا من البلدة وضربها بالمدافع فأحرقها وأحرق غلالها حتى اذا تركها جحيما تتسعر عاد ادراجه والنار تأكلهم وتأكل بيوتهم وغلالهم . أما الجزر الاربع فهذا ترتيبها من الشمال الى الجنوب . انقيزجه موالى (بضم الميم وفتح الواو بعدها ألف ولام مكسورة) هنزوان . ميوتا (بميم مكسورة فياء مشددة مفتوحة فتحا غير محقق فتاء بعدها ألف) أما انقيزجه فقد أدرك بها سلطانا من آل الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى خرجته فرنسا بعد ان وقع فى حبائلها بعد سنة ١٢٩٩ تقريبا فسار منها الى ميوتا وأقام بها حينا فلم تطب له فانتقل الى مداغسكر الى بلد يقال له سلالا (بفتح السين) فلم تطب له أيضا فسار عنها الى زنجبار ومنها الى المكلا ساحل حضرموت . ثم خرج الى سيوون من وادى حضرموت ونزل عند الحبيب العارف بالله على بن محمد الحبشى العلوى وقرأ عليه مدة فى العلوم النافعة ثم بعد مدة احتاجت اليه فرنسا فارسلت مركبا حربيا الى المكلا وطلبته من هناك وأعادته الى انقيزجه ملكا كما كان . ومن كبار ذوى النفوذ سيد من آل الشيخ أبى بكر العلوى فى شيله (بفتح أوله وثالثه وسكون الياء) وكان يسمى مكه بريكى ، قال وهؤلاء هم الذين يعرفون بآل بتة لأنهم نزلوا أول دخولهم الى افريقية الشرقية ببلد بتة وهى بساحلها الجنوبى وهم يدعونه (بانا مكه بريكى) ومعنى بانا سيدى .

---

(١) الغين على هذه الصورة تلفظ فى لغة الملايو والسوندا غينا مشوبة بغنة واضحة وتنقط بثلاث نقط بدلا من نقطة واحدة وهكذا ما تقدم من أسماء البلدان الملايوية والجاوية مثل فكولوغن فحقيقة رسمه فكولونغن فليقس على ماذكرناه مالم نذكره

وأما موالى فسلاطينها السادة آل القدرى (١) فنتيانق (٢)

قال : وأما هنزوان فاردك بها سلطانا من العلويين يسمى السيد عبد الله وكان أعمى وكان عنده عدد من فبريكات السكر ودخلت فرنسا هنزوان على عهده وقد احتلتها فى حدود سنة ١٣٠٠ ثم تولى بعد السيد عبدالله الأعمى صاحب هنزوان السيد علوى ويسمونه منيو علاوى (٣)

وأما ميوتا فهى من أغرب الجزائر وذلك أن الله قد أحاطها وسورها بسور حجرى خلقى يفصله عن الجزيرة خليج مستدير بها فكأنها قد تسورت بسوارين من فضة وزبرجد أوكأنها دارت بها دائرتان من ماء فجر ثم وراء ذلك البحر وليس لهذا السور الطبيعى الخلقى الا منفذان متقابلان ويوجد فيها قصب السكر مثل هنزوان ، وقد أدرك بها السيد عمر من آل الشيخ أبى بكر وكان عالما فاضلا قال دخلت عليه فوجدته محاطا بكتبه العامية من كل ناحية وهو فى قسم الجزيرة المسمى مسفيرا (بكسر الميم وفتح السين والفاء المشددة) والقسمان الآخران فـا نزى (بفتح فألف فنون ساكنة) وممبو (بميمين مفتوحتين وياء مشددة مضمومة) ويوجد بانقيزجه كثير من بنى يعرب و بنى نبهان أهل عمان قد سكنوها وهم من ذوى الثراء بها ، وكان لبنى نبهان بها بلد تسمى مويرا (بضم ففتح فسكون) وكانت ولادة السيد العلامة المحقق الشاعر الناثر قاضى زنجبار أحمد بن أبى بكر بن سميط العلوى المتوفى أوائل العام الماضى بانقيزجه .

وقد ذكر الشيخ محمد الكلالى من أحكام فرنسا الجبروتية ما يعرفه كل أحد وان تجاهله المستأجرون الذين يصفونها بناصرة الأمم الضعيفة والام الحنون ! اه فنشكر الشيخ محمد على ما أفادنا به من ذلك وقد ضبط موالى كما تقدم وهى فى كتب الانساب عندنا مولاى وكذلك ذكرها فى نهاية الارب للنويرى فانه ذكر جزيرة القمر قال وتسمى

(١) قد علم القارئ أنهم أبناء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد الشهير بجمل الليل وآل القدرى سلاطين

(٢) فنتيانه هكذا ينطق بها العرب وهو الصواب فان قاعدة الملايو أن يكتبوا الهاء والهمزة المتطرفة فى لغتهم قافاً وينطقوا بها همزة فلما عانى لغتهم الأوربيون قرأوها قافا فوقع من أجل ذلك خبط فى الأسماء واللغة الملايوية طويل الذيل ، تقدم ذكرهم هم أبناء عمهم يجتمعون معهم فى محمد جمل الليل

(٣) منيو بلغتهم هو السيد وعلاوى محرف عن علوى

جزيرة ملاى وذكر من بلدانها كيدانه وملاى وغيرها راجع الجزء الاول صفحة **٢٤٢** منه فلعل اسمها تحرف على طول الزمان .

وقد استدرك علينا الشيخ الكلالى اهمالنا آل النضير من افخاذ السادة العلويين بمقدشوه وقد صدق فى ذلك وظهر لنا اننا أغفلنا غيرهم أيضاً كآل بافرج وآل على لالا وآل الحداد وآل البار وغيرهم .

فأما آل النضير فهم من آل عم الفقيه ومنهم بمقدشوه عدد ليس بالقليل وعدد بسورت من بلاد الهند وهم بنو محمد النضير بن عبدالله بن عمر المعروف بابن الصنهجية (١) وهذا هو الملقب أحمر العيون أيضاً ابن عبدالرحمن المعروف بصاحب مسجد بابطينة (٢) ابن أحمد بن علوى بن أحمد المتوفى سنة **٧٢٠** بن عبدالرحمن بن علوى المتوفى سنة **٦١٣** وهو عم الفقيه المقدم ويكنى به فيقال عم الفقيه بن محمد صاحب مرباط الخ النسب المعروف ويجتمعون هم و بنو عمهم آل هاشم فى أحمد بن علوى المذكور وآل باهاشم منهم عدد بينجر (برنيو) وسيلان وقد دخلت العجمة فى بعض أسماء آل النضير بمقدشوه فانك تجد فى أسمائهم عددا من أسماء اعتاد البربر (الصومال) التسمية بها مثل حرمين . نور . سعاده دونى . موجود . منيا . مبانى . مقالو . ودخول العجمة فى الأسماء آخر حلقة تنقطع بها صلتهم بماضيهم ويتم معها اندغامهم فى غيرهم وامحاء رسومهم ، وأما آل الحداد فمنهم بمقدشوه آل عبدالله بن عمر بن محمد بن عمر بن علوى بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن علوى ابن أحمد الحداد بن أبى بكر بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه .

وأما آل على لالا فهم من آل عم الفقيه أيضاً ومنهم هناك آل أبى بكر بن علوش ابن نور بن أحمد بن على بن لالا ومنهم آل خلف بن نور بن أحمد بن على لالا وهو ابن أحمد بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه ، وأما آل بافرج فيرجع نسبهم الى فرج المتوفى سنة **٨٧٢** بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن

---

(١) أمه من الصناهجة قبيلة من حمير بحضرموت كانت لهم قارة الصناهجة المعروفة هناك وكان يضرب بها المثل فى العظم فيقال أعظم من صنهاجة

(٢) اسم مسجد مشهور بتريم هو الذى بناه

أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه ومنهم هناك نور ومحمد وأحمد بنو عثمان بن محمد ابن أبى بكر بن نور صادق بن أحمد بن صادق بن أحمد بن نور بن سعد الدين بن محمد بن شيخ بن محمد بن عثمان بن أحمدبن شيخ بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن علوى عم الفقيه ومنهم أناس بقلب وهدله ومقدشوه وبها أناس من آل البار وغيرهم فلا نطيل بذكرهم .

ومما ذكرناه يظهر ان آل النضير وآل بافرج من أقدم من رحل الى افريقية من العلويين الذين تديروها فان لهم هناك ماينيف على ثلاثة قرون ، أما من تردد اليها ولم يتديرها فمنذ مايناهز سبعة قرون ، وأما سلطان انقيزجه الذى ذكر الشيخ محمد الكلالى خروجه الى حضرموت فقد ذكرناه سابقا وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر ذكره فى كتاب شمس الظهيرة وفى شرح الصدور .

ثم ان لنا الى ذكر حاضر العلويين ومستقبلهم لعودة بعد عودة كلما سنحت الفرصة ان شاء الله تعالى .

وانى لأشكر من صميم فؤادى جناب الأمير الشهير والعلم الساطع المنير على ما أظهره من العناية بمقالاتى الملفقة وأسأل الله له عمرا مديداً وخيراً مزيداً وتأييداً على ماوقف نفسه عليه من النفع العام للمسلمين والاسلام والتمس منه أن لايضن على إخوانه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بأمثال تلك البينات الواضحة والهدايات الصريحة وان يزيدنا من ذلك ما وجد الى الزيارة سبيلا فلقد بين لنا من تاريخ حاضر الاسلام وحال أهله فى مختلف الأقاليم ما كشف به عن أبصارنا الغشاوة وأزاح به عن عقولنا حجب الجهالة فجزاه الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

ثم انى أحث اخوانى المسلمين على اقتناء ذلك الكتاب أعنى كتاب حاضر العالم الاسلامى والاطلاع على مافيه مما لا يستغنى عن معرفته من يهمه مستقبل المسلمين والله الموفق والمعين .

بتاوى : محمد بن عبد الرحمن

الامير محمد بن عبد الكريم

زعيم الريف

الأمير شكيب

لا نبالغ اذا قلنا ان الأمير محمد بن عبد الكريم ، متولى كبر الثورة على الأسبانيول فى شمالى سلطنة المغرب ، هو فى التوة الحاضرة ، بطل الاسلام ، وأسده الضرغام ، والعلم المفرد الذى سار بذكره القاصى والدانى والخاص والعام ، لا بل اذا نظر الناس بعين الانصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم .

وذلك أن العبقرية لا يجب أن تحدد على نسبة الأعمال التى يقوم بها الانسان من حيث الأهمية بل على نسبة الأعمال من حيث الوسائل التى يملكها عند العمل . فاذا نظرنا الى رجل عظيم قام فى دولة عظيمة ، و بسط يده الى ما حوله ، فامتلأت بالوسائل والأسباب الكافلة بحصول المرام ، الواقعة على طرف الثمام ، ففاز بالغلبة على العدو ، أو باتمام مقصد من المقاصد العالية ، فليس فى ذلك من دواعى الاعجاب ، ما فى عمل رجل عظيم ، اذا بسط يده وجدها خلاء من كل شئ ، سوى بعض المواهب الفطرية ، واذا نظر فيما حوله ، لم يجد من جميع أسباب القوة سوى قوة الارادة . لهذا لا نجد فى شخصية « المارشال فوش » قائد جيوش دول الحلفاء ، الذى حاز الغلبة القاطعة فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ولا فى شخصية « المارشال هندنبورغ » ، الذى وقف فى وجه قوى تفوق قواه عدة مرات مدة تزيد على أربع سنوات ، ولا فى شخصية الغازى مصطفى كمال ، الذى أحيى الدولة التركية بعد أن أرادت انكلترة أن تطويها طى السجل للكتاب ، ولا فى شخصية لنين ، الذى ثل عرش أعظم قيصرية فى العالم وحل محلها بحكومة صعاليك مفاليس لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة ، ما نجده من حقيقة الرجولية ، والبطولة ، وجد الفضل ، والخصل ، التى فى شخصية محمد بن عبد الكريم الريفى الذى تغلب على دولة اسبانية وأجبرها على الجلاء عن الريف .

فان « فوش » عندما انتصر على جيوش الألمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندى تامة العدد والاعتاد ، ووراءها سبعة وعشرون دولة هنّ أكثر سكان المعمور وأوفرهم ثروة . وان هندنبورغ عند ما توافق مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة ظهرة واحدة على دول أربع لا يساوين ربعها ولا خمسها ، انما كان على رأس الجيش الألمانى الشهير أحسن جيوش العالم دربة ونظاماً واتقان عدة . وان مصطفى كمال نهض بأمة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثة العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مفطورة على حب الغزو والقتال ، مالكة لكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج أن يحرمها كيانها السياسى دفعة واحدة ، وأن ينزلها من السنام الأمجد الى الحضيض الأوهد ، ورماها بدولة صغيرة كالدولة اليونانية ليست بكفء للترك فى قوة ولا منعة ولا عدد ولا نخوة ، فتمكن مصطفى كمال ورفاقه بحسن قيادتهم واستبسال أمتهم التى عرض عليها الموت صلحاً ، فآثرت الموت حرباً وبتراخى ميادين القتال على جيش نظير الجيش اليونانى مدة سنوات متوالية أنقضت ظهره وأوهت صبره ، فقهر مصطفى كمال العدو وأخرجه من الأناضول ، وأخذه أخذاً عزيزاً ، وأعاد لتركية وجودها السياسى الذى لم يكن من السهل نزعه منها . وان لنين كان يمثل ألوفاً ومئات ألوف من الصعاليك الذين كانت لهم جمعيات واشجة العروق فى جميع البلاد ، على حين قد ضرست الروسية الحرب الكبرى تضريساً أتى فيها على الحرث والنسل ، وانشب فيها أنياب الجوع ، فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش بنيت قوائمه على الظلم والغشم ، وامتهان الشورى ، وتقديس ارادة الفرد ، والعمل باهواء اللذات والمودات ، والعبث بحقوق الشعب ، فكان أعظم عامل للانقلاب الهائل هو رد الفعل ، وأقوى نصير للنين على تأسيس الحكومة الشيوعية هو ما ينشأ من تجاوز الحد من تحول الأمر الى الضد ، سنة الله فى الخلق وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الكريم ، فانه قد تغلب على اسبانية ، وهزم جيوشها عن الريف ، وهو بالقياس الى اسبانية بمثابة واحد الى أربعين فى العدد ، وأقل من ذلك فى العتاد . وهذا تقدير قد يكون فيه نقص أو زيادة ، ولكنه على كل حال لا يخرج منطقة الريف بجملتها عن هذه النسبة . فقد قيل ان عدد سكان الريف الذى تدعى اسبانية « حمايته » هو نصف مليون نسمة ، وقيل انه ستمائة ألف ، وقيل انه سبعمائة ألف وقيل بل هو لا يزيد

على أربعمائة ألف . وليس للريف احصاء محرر ، ولا لسلطنة المغرب كلها احصاء وثيق ، وانما الذى نسمعه أن الريف هو سبع السلطنة المغربية ، فاذا كان المغرب سبعة ملايين فيكون الريف مليوناً ، اللهم الا إذا قيل ان رقعة الريف أقل سكاناً من سائر المغرب بالنسبة الى المساحة . فلهذا لم يكن فى الريف مليون نسمة . أما من جهة الثروة فلا ثروة فى هذه المنطقة وفى الحقيقة لاريف فى الريف[1] وسفوح جبال الريف لاتجرى فيها الأنهار كما فى سفوح الجبال الأخرى كالأطلس مثلا . وأعظم مدن الريف هى سبتة ، ومليلا ، وهما من المدن الاسبانية من القديم ، ومنها تطاون ، والعرائش ، وكلها لاأهمية لها فى جانب مدن المغرب . فلهذه الأحوال والظروف كان بدعا لاينظر فى التاريخ ، وسراً تحيرت فيه العقول ، ان يتمكن ابن عبد الكريم من طرد الاسبانيول بعد حرب ضروس استمرت عدة سنوات ، وان يخرج من هذه الهيجاء ظافرا ، فى عصر لم تتعود فيه أوربا أن تجد أمة اسلامية غالبة على أمة مسيحية ، ولا ان ترى أمة متبدية أو غير متمدنة ظاهرة على أمة متمدنة راقية . لاسيما وهوة الفرق بينهما عميقة جداً فى العدد والعدد . فان مملكة اسبانية عدد سكانها ٢٢ مليوناً ، وهى مجهزة بجميع أدوات الحضارة العصرية ، وجيشها معدود من الجيوش المنظمة التى لاتقل عن سائر الجيوش الأوربية دربة ونظاماً ، وجودة سلاح ، وتفنن ضباط . وقد ساقت اسبانية الى ميدان حرب الريف فيالق جرارة . كانت تبلغ مائة ألف جندى أحيانا و ١٥٠ ألفا الى ٢٠٠ ألف . وقرأت ساعة تحرير هذه السطور فى جريدة « الجورنال » الباريزية ، رسالة لمكاتب هذه الجريدة فى الريف ، يصف بها « الخزامى » مركز الأمير محمد بن عبدالكريم ، ويذكر فيها ملاقاته معه . وقد ورد فيها فى موضع الدهشة من أمر هذا الرجل « انه هو الذى قهر جيشا عصريا عدده مائة وخمسة وسبعون ألف جندى اسبانيولى » . فكيف كانت الحال لحرب الريف هذه ، وظهور الريفيين فيها ، هما من بواهر الآيات وخوارق العادات ، ومحمد بن عبدالكريم رجل أخذ مكانه من التاريخ وأخجل جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم فى أعين أنفسهم ، حتى اذا ما أخذت أحدهم هزة بأو وعجب ، فتذكر عظمة عمل ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التى لا يتأتى

(١) الريف فى اللغة هو ما قارب الماء من الأرض ولذلك يطلق أحياناً على الساحل وعلى المكان الذى فيه المياه والخضرة . والريف هو أيضاً الخصب والسعة

الظفر بدونها ، رأى نفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقرى الكبير . ولا جرم أن حرب الريف ومقاومة السنوسيين فى طرابلس ، قد رفعت من شأن الاسلام ، وحدت أوربا على أن تحسب له حسابا ، ولا تسترسل فى الاغترار الى قوتها ، والاحتقار للامم الاسلامية التى كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث ، انما قد انطوى بساطها . فاوربا اليوم . ولا سيما دول الحلفاء « انكلترة وفرنسا وايطالية » صارفة جد اهتمامها الى منع السلاح عن الأمم الاسلامية بجميع الطرق ، ومراقبة سواحل افريقية ، وآسية وامضاء المعاهدات والمواثيق الدولية بعدم بيع الاسلحة الى الأمم التى « مدنيتها من الدرجة الثانية » تريد أن تعبر بذلك عن الأمم الاسلامية ولم يذهب قلق هذه الدول بمجرد منع الآلات والاعتاد الحربية عن هذه الأمم ، حتى قام رجال سياستها يتشاورون ويدوكون فى عمل ما يسمونه « جبهة » بازاء الاسلام ، على أثر تسحب الجيش الاسبانيولى مدحوراً عن الريف ، وثبوت استقلال الحكومة الريفية تحت امارة ابن عبد الكريم . ففرنسا قامت وقعدت ولم تكتم جرائدها كونها لا تطيق استقلالا اسلاميا بجانب المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وعلى ساحل البحر المتوسط . وانكلترة ، خشيب مغبة ظفر الريف فى استئساد الاسلام شرقاً وغرباً ، وصيرورة قصة الريف مثالا يحتذى عليه ، فتهيج له الخواطر فى مصر ، و بلاد العرب ، الى الهند . وايطالية ، واقعة مع طرابلس فى حيص بيص ، فلا تزيد أخبار الريف عزائم الطرابلسيين الا ثباتا .

وقال الكابتن سبنسر برايز على أثر عودته من زيارة الأمير ابن عبد الكريم فى حديث له مع مكاتب جريدة منشستر غارديان :

« ذهبنا براً من طنجة متنكرين بملابس عربية فاجتزنا المناطق الجبلية وأول ما أدركناه هو أن بلاد الريف وعرة المسالك ، كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة ، وهى شقة من الارض يبلغ طولها نحو ثلاثمائة ميل ، وعرضها نحو سبعين ميلا الى الشرق من طنجة ، وهى أوعر الأقطار التى رأيتها فى حياتى . وليس فى داخليتها طريق معبدة ما ، اللهم الا طريقان ينشئهما اسرى الاسبانيين الآن قرب اجدير ، وقد أنشأ الاسبانيون طريقا عسكريا من تطوان الى ششوان ولكن لا يمتد من هذه الطريق فروع الى أماكن أخرى .

« أما نحن فاننا ذهبنا الى أجدير على ظهور البغال ، وكان يرافقنا خمسون خيالا من العرب وقضينا عشرة أيام فى السير من طنجة الى اجدير . وعند عودتنا ، ساءت المسالك فى سبيلنا لأن الأمطار هطلت والأودية فاضت بالأنهر ، فصرنا نتربص فى السير ريثما يهدأ ثوران الطبيعة .

« ومما لحظناه ، أنه على الرغم من الخلاف الذى كان متأصلا بين القبائل ، تمكن عبد الكريم من توحيد نزعاتها ، وجمع شتاتها ، وضم أطرافها ، فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره وتحارب الاسبانيين الى جانبه .

« وقد ذهبنا الى سنادة ، حيث مركز الاسرة الشريفة ، فاستقبلنا سيدى هنيدو الوزانى رئيس هذه الاسرة ، وأدبت لنا المآدب الشائقة حسب عادات القوم ، حتى ضقنا ذرعا بكرم الوفادة ، وحسن الضيافة . وزرنا أماكن لم يزرها أوربى بعد ، مع أنها لا تبعد عن جبل طارق سوى ٣٠٠ ميل .

«أما ما قيل عن ان الريفيين يسيئون معاملة اسرى الحرب ، فقد عرفنا بالاختبار أنه كذب صراح . فالاسرى يعاملون معاملة حسنة ، ويستخدمون فى انشاء الطرق . ولا صحة أيضاً لما يقال عن ان الاسبانيين يكثرون من استعمال الغاز الخانق ، فهم رجال قتال مملوءون شهامة . ولا شك أنهم لا يجدون بداً من القاء القذائف والقنابل على القرى ، لأنه لا يمكن التفريق بين جنود الجيش الريفى وأفراد الأهالى ، ويذهب كل فرد من الأهالى الى الانضمام للجيش والمقاتلة تحت لوائه عند ماياتيه الدور .

« وأما ما يقال عن المركز العسكرى ، فان الاسبانيين قد عملوا بانسحابهم عملا باهراً ، كان معرضاً لكثير من المصاعب والمشقات . فقد انسحبوا من عدد من المراكز المتفرقة انسحاباً منظما ، وعسكروا على خط تطوان — فندق الحصين . فاذا أراد الريفيون مواصلة القتال فانهم سيصطدمون بهذا المركز المنيع ، وهم غير مسلحين بغير البنادق والمدافع التى أخذوها من الجيش الاسبانى ، ومعظمها من بنادق موزر ومدافع شنيدر التى تجرها البغال .

« والريفيون فى حاجة عظيمة الى المساعدة الطبية . نعم انهم لم يصابوا بخسائر جسيمة ، وليس فيما بينهم أمراض وافدة عمومية ، ولكن جميع رجالهم يذهبون الى الحرب

بالدور ، حتى ان البلاد كلها تحارب . وليس فى الريف كله طبيب ما ، ولا عقاقير صحية ما عدا القليل الذى أخذناه نحن معنا ، مرسلا من جمعية الهلال الأحمر البريطانية ، فالحاجة عظيمة جداً الى المساعدة الطبية .

« والريفيون شعب من الزراع والرعاة ، وهم يعيشون فى قرى تبنى منازلها باغصان الأشجار و بالطين .

« ويعزى معظم نجاح عبد الكريم الى مقدرته على بسط سلطته على جميع القبائل . فاستطاع بذلك أن يزيل من بينها الضغائن والخصومات . والريفيون يجيدون الرماية والخطط التى يسلكونها فى مقاتلة الاسبانيين هى مهاجمة المراكز المنفردة ، حتى يتعذر على الاسبانيين أن يحتفظوا بها . أما الآن فقد تبدل الموقف أمامهم بعد انسحاب الاسبانيين التام من تلك المراكز ومرابطتهم على خط واحد . » اه .

والحاصل ان المستعمرات هى سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ، فلا تجد قطرا تحت استعمار أمة أوربية قامت فيه ثورة ، الا وضعت جميع الدول الاستعمارية أيديها على قلوبها الواجفة ، ترجو أن ينتهى الخطب بظفر الدولة المستعمرة ، حتى لا تدب الثورة الى المستعمرات الأخرى ويتبع بعضها اثر بعض . والاسلام فى نظر أهل أوربا أمة واحدة ، مهما تفككت اجزاؤه ، وتباعدت أقطاره ، وقد شبهه المارشال ليوتى معتمد فرنسا فى المغرب « بصندوق رنّان » أى اذا ضربت عليه برأسه رن الى كعبه . فسياسة الدول المستعمرة هى سياسة من يعلم شدة ارتباط الاسلام بعضه ببعض ، ومن يأخذ أخذه لمنع هذا الارتباط بقدر الامكان ، فان لم يتأت منع هذا الارتباط تماماً — وكيف يتأتى وهو مع الضغط الأوربى والعسف الاستعمارى لا يزداد الا شدة — فعلى الأقل العمل على أن لا تظهر له نتائج فعلية . ولقد أصيب المسلمون فى هذه السلسلة الاستعمارية باشد مما أصيبوا به فى كل المواقف ، فانك اذا طالبت باستقلال وطن متمدن راق مستحق للاستقلال ، مثل مصر ، لم تلبث أن تسمع أن الدول التى ليس لها شئ بمصر ، والتى تدعى محبة أهل مصر ، لا ترتاح الى قيام دولة مصرية عزيزة ، خشية عدوى الاستقلال المصرى لسائر المستعمرات . ومثل ذلك سورية ، ومثل ذلك تونس ، ومثل ذلك العراق . ومن شواهده أن (الوفد السورى) الذى محرر هذه السطور من أعضائه كان يراجع البعثة الاسبانيولية فى جمعية الأمم بمدينة جنيف ، فى أمر

استقلال سورية ، فكان جواب المندوب الاسبانيولى لزملائى الذين لم أكن معهم فى ذلك اليوم : «ان اسبانية لاتقدر أن تروج هذا المبدأ لأنه مخالف لمصلحتها ، وعندها من داهية الريف مايكفيها » . فانت ترى ان الشام والريف حلقتان من سلسلة . لابل مصر ، وفلسطين ، والعراق ، والهند ، وزنجبار ، والسودان ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الخ كلها . حلقات من نفس السلسلة . وما اجتهدت دول الحلفاء أن تقضى على الدولة العثمانية التى كانت تحمل الخلافة الاسلامية ، الا على خوف انها قد تكون السبب فى فك هذه السلسلة . فحاولت الدول المذكورة أن تجعلها من جملة تلك الحلقات ، وتضمها للسلسلة ، توثيقا لسلكها ، حتى كان ذلك هو السبب الأعظم فى الغاء الأتراك اسم الدولة العثمانية ، والاكتفاء باسم « تركيا » وابطال الخلافة الاسلامية من عندهم ، فراراً من الوقوع فى هذه السلسلة . ولقد بلغ التضامن الاوربى الاستعمارى بازاء الاسلام ، ان صارت حكوماتهم تخاطب بعضها بعضا فى المسائل الاستعمارية كانها امور مشتركة بينها . ومنذ أيام جمعنى القدر بأحد رجال الحكومة الاسبانيولية ، فتجاذبنا أهداب القضية الريفية ، ولما كنت أنصح لهم بالصلح مع زعيم الريف على قاعدة استقلال هذه المنطقة ، أقسم لى أن اسبانية تود من أعماق قلبها مصالحة هذه الأمة والاعتراف باستقلال الريف رسمياً . ولكن فرنسا وانكلترة تمنعانها من هذا الاعتراف ، وتستظهران عليها بالمعاهدات المشتركة . فترى اسبانية من هذه الجهة متحيرة فى أمرها . فهى قد أخلت الريف الى الساحل ، ولكنها كما لاتقدر على امضاء صلح رسمى مع عبد الكريم لاتقدر أن تستمر على محاربته . ومما لامشاحة فيه ، أنه لولا خشية فرنسا مغبة حرب الريف بأنها تفتح عليها باب ثورة فى المغرب يتعذر عليها سده ، وتبتلع من النفقات الباهظة ما لا قبل لها به مع ماهى عليه من الارتباك فى أحوالها المالية ، لكانت فى هذه الحزة الحرب مشتعلة بينها و بين الريف ، وكانت طيارات الجيش الفرنسى الآن تمطر قرى الريف وابلا من الكرات المحشوة بالمواد السامة — لأن الدول تعاهدت على منع استعمال المواد السامة ، والغاز المخنق فى الحروب الاوربية ، واستثنين من هذا القيد المستعمرات التى تجيز فيها اوربا « المتمدنة » طرق الحرب الوحشية . كما أن الاسبانيول رموا قرى الريف بالغازات السامة ، وقتلوا بها كثيراً من الأطفال والنساء والضعفاء — ولكن فرنسا اجتزأت عن اجتياح الريف كله بانتقاص بعض أطرافه ، وتحصين المراكز

التى على الحدود بين المنطقتين ، والتربص بعبد الكريم الدوائر ، عاملة على اثارة الريفيين بعضهم على بعض ، وفصم عروة وحدتهم ، مما هو أحد وأمضى أسلحة الاستعمار الاوربى فى قتال الأمم الاسلامية .

فقضية الريف حين تحرير هذه الاسطر هى بالمركز الآتى لك تحديده : —

أما فرنسا ، فانها تحصن الحدود التى بين المنطقتين ، وتبنى المسالح والمعاقل ، حيطة وراء الحرب التى تنوى اصلاءها الريفيين فى أول فرصة ، وهى مع ذلك لاتهمل شيئا من الوسائل السياسية لاسقاط سلطة عبد الكريم ، ومنع تأسيس استقلال اسلامى فى الريف ، يكون بحسب زعمها « بؤرة » للجامعة الاسلامية فى افريقية .

وأما انكلترة ، فهى فى حيرة عظيمة من أمر الريف ، لأنها من جهة ترى اسبانية عاجزة عن المضى فى مصارعة أهل الريف ، فلا مندوحة لها من الانكماش فى جوار مليلا وسبتة فى منطقة ضيقة . ومن جهة أخرى تخشى أن فرنسا تفتح الريف فى يوم من الأيام فتصير بازاء جبل طارق ، وفى ذلك من الخطر مافيه ، فتود لو استعصى الريف على فرنسا . ولكنها توجس فى فوز الريف خيفة نشاط ينبعث فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وذلك عندها هو الهلاك الأكبر . وقد عولت أخيراً على منع اسبانية من عقد صلح رسمى مع الريف الى أن تكون ازدادت الحوادث جلاء .

وأما اسبانية ، فانها مخطت الريف من أنفها ورفعته من ذهنها ، بعد تجارب استمرت سنوات عديدة ، فلم تعد عليها الا بالخسارة . وقصارى ماتنويه هو الاحتفاظ بمنطقة ضيقة حول مليلا وسبتة ، ومنع الريفيين عن الاتصال بالبحر ، أملا بأن ينقادوا للحكومة الاسبانية تحت تضييق الحصر ، وأن تلعب بينهم أيدى الشقاق ، فتنال اسبانية بحوادث الدهر ، مالم تنله بوسائل القهر . ولذلك تعلن أن منطقة ابن عبد الكريم لم تبرح تحت « حمايتها » (١) .

---

(١) نشرت (مجلة المجلات) الانكليزية بعددها الصادر فى يناير — فبراير ١٩٢٥ ، ترجمة نداء بليغ لأحد أعاظم الكتاب الاسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا فى بنى قومه فى نوفمبر ١٩٢٤ ، يبين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودى ريفيرا ، فى سياسة الدولة وفى حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب امته لاسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء فى هذا النداء المقيم المقعد الذى كانت طيارتان مستأجرتان تجوبان آفاق اسبانية وترميان الناس به كراديس ، انه لما قام

وأما ايطالية ، فتزعم انه لا حق لفرنسا فيما لو أخلى الاسبانيول الريف أن تجرد زحوفها عليه ، وتبت أمره بدون مشورة الدول . ومرادها بذلك ليس أن تأخذ حصة من الريف الذى لو عرضت جرته على ايطاليا لاعتذرت عن مد يدها اليها ، وانما هى مساومة تقصد بها الحصول على التعويض فى مكان آخر .

وأما العالم الاسلامى ، فقد تخلى بأجمعه عن الريف ، ولم يفكر فى معاضدته بشئ وذلك للاسباب الآتية : —

الأول : انصراف كل من الأقطار الاسلامية الى هم نفسه ، والاشتغال بقضيته الوطنية الداخلية . فما كان منها مستقلا تمام الاستقلال مثل تركيا ، وفارس ، والحجاز ، ونجد ، واليمن ، وافغانستان ، تجده مشغولا بلم شعث نفسه ، عن اغاثة الريف ولو بما يبل الصدى . وما كان استقلاله لما يتم ، مثل مصر والشام ، والعراق أو كان باقيا رهن الاستعمار مثل الهند تجده مشغولا عن النظر الى الريف بمسئلة استكمال استقلاله أو الحصول على الاستقلال الداخلى .

الثانى : الازمة الاقتصادية التى ولدتها الحرب العامة ، ولا تزال تفعل مفعولها شرقا وغربا

الثالث : فشو الاعتقاد فى تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد العرب ، بأن سياسة الاتحاد الاسلامى شئ مضر بالمسلمين ، حافز لأوربا على التألب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم ، حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصائحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت أوربا باساً من اعطائها استقلالها . فاما شعور أوربا بكون الاسلام فى وجهها متماسكا بعضه مع بعض ، فانه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق

ملك أسبانية والجنرال بريمودى ريفيرا ، منذ عدة أشهر ، بزيارة البابا فى الواتيكان ، ألقى الملك الاسبانى خطابا لدى البابا ، ملؤه الغيرة الشديدة على الكثلكة خاصة والنصرانية عامة . ومما جاء فى هذا الخطاب ، قول الملك : —

«ان اسبانية أيضاً قد تجندت لحرب المسلمين فى افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب فى ديار المسلمين ، وجعلت اتباع محمد يخنعون له قهراً » وهذا الخطاب لم يرتجله الملك ارتجالا ، بل سبق له فأعده فى مدريد قبل أن أتى رومية ، وكان الأب توريس الجزويتى الشهير بمدريد هو الذى أنشأ وأعد هذا الخطاب للملك . « المعرب »

فرج فى وجه أبنائه . وقد زاد هذه العقيدة رواجا فى تركيا ، فشو الدعوة التورانيــة التى معناها ان الأتراك ينبغى أن يكونوا تركا فى الأول ثم مسلمين فى التالى ، بل يذهب الغلاة من التورانية الى محاربة الاسلام بكل الوسائل، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك . كما زاد ذلك رواجا بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعمـاء ان ادماجهم الحقيقى فى الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفض اليد من الجامعة الاسلامية فكانت خطة هؤلاء الزعماء مؤثرة فى سياسة الشعب ، لا سيما مع غلو الشعب المصرى فى متابعة ذوى الزعامة فيه . ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضا ، لا سيما بين الحزب الذى انتقض على الاتراك أيام الحرب العامة ، والذى تحالف مع الانكليز وتمنى فوزهم فى الحرب ، بحجة ان الذى ينبغى أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الاسلامية ، وان هذه الجامعة توجب نفور انكلترة التى كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب . . . بخلاف ما لو كانت النزعة عربيــة قومية ، فان انكلترة ترحب بها ترحيبا (!) ولقد خاب ظن هذا الحزب ، وتناقص عدده جداً ، ولكنه ما زال يفر من الجامعة الاسلامية مراعاة لانكلترة ، أما فى الماضى فثقــة واعتقاداً ، وأما فى الحاضر فخوفا ورئاء . ولقد كان لهذا الحزب العربى المناوئ للجامعة الاسلامية ، اليد الطولى فى حمل الاتراك على نبذها ، لأن التورانيين احتجوا بأنه ان كان العرب الذين ظهر الاسلام بهم وظهروا به ، بدأوا بمعاكسة أوامره ونواهيه ، وأخذوا بالسياسة القومية ، ومالأوا الانكليز على الترك ، فالترك الذين لم يكن الاسلام الا دخيلا فيهم ، أولى بترك ما تركه العرب من جهته والخلاصــة أن شيوع هذه المبادئ فى الآونة الحاضرة كان مما صرف الانظار عن مساعدة الريف .

الرابع : ان الاعتقاد بكون نجاح الريفيين موقتا ، وانه لا بد من أن تكون الطائلة الاخيرة لاسبانية . لان المسلمين ، لا سيما المفكرين أو الذين يقال انهم مفكرون منهم ، قد عمهم التشاؤم وفقدوا كل ثقة فى الاسلام ، وصاروا ينظرون الى كل مقاومة اسلامية لسلطة أوربية من قبيل حركة المذبوح تحت السكين . و يقولون ان أوربا نائلة منهم كل مرادها لا محالة ، الى غير ذلك من العقائد السياسية التى زادت الاسلام وهنا على وهن ، والتى كان هؤلاء المفكرون يتبارون فيها اظهاراً لدرجة تعقلهم . و بعد أفكارهم عن الخيالات . . . الا ان مصطفى كمال وعبد الكريم كذبا هـذه المبادئ التى كانت سائدة

بينهم وان انهزام الاسبانيول عن الريف غير متعمدين الكرة عليه آخر مرة ، قد انعش آمال المسلمين ، وأثبت لهم عدم استحالة المقاومة الاسلامية للسلطة الأوربية ، بعد ان كان القول بها عنوان التعقل ودليل بعد النظر . وان ظفر عبد الكريم القاطع ، فتّ فى عضد التشاؤم ، وجذب بضبع التفاؤل ، وصاروا يفكرون بمقتضى قول شاعر الحماسة :

قاتلى القوم يا خزاع ولا يلحقكم من قتالهم وهل
القوم أمثالكم لهم شعر فى الحرب لاينشرون ان قتلوا

نعم انهم لا يزالون خائفين على عبد الكريم من فرنسا ولكنهم أيقنوا بأنه يتأتى للمسلم اذا ترجل وقام بالواجب عليه ، أن يصارع الأوربى ويصرعه . فلهجت الألسن لاسيما فى بلاد العرب والهند ، بذكر محمد بن عبد الكريم وأجمع الناس على أنه أحق انسان بلقب « بطل الاسلام » ونشرت أخباره الجرائد الشرقية بالاعجاب ، والجرائد الأوربية بالعجب العجاب ، والجرائد الفرنسوية خاصة بالتشاؤم والارتياب . وظهرت عند الحزب التورانى من الترك غيرة ونفاسة من عظمة عمل محمد بن عبد الكريم مع قلة وسائله ، فتسلوا على ذلك بزعمهم أنه بربرى غير عربى ، وان أهل الريف هم من جنس البربر . ولكن لحظنا أن الأمير محمد بن عبد الكريم يقال له الخطابى وهذا دليل على نسبته العربية ، وسنشرع الآن فى ترجمة حاله اذ أن كتابا فى حاضر العالم الاسلامى ، لا يجوز أن يخلو من ترجمة الامير محمد بن عبد الكريم فنقول : —

لا شك أنه ستنتشر فيما بعد سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الريفى وتؤلف كتب على وقائعه ، ومنشأه ، وأصله وفصله ، ويستفيض خبره عند الخاص والعام ، ولا يبقى شئ من أمره مجهولا . أما الآن فاننا لا نعرف من خبر نسبه شيئاً ثبتا ، وبلغنى أنه قد أخرج أحد الفلسطينيين فى ترجمة الأمير المشار اليه كتابا اطلعت على وصفه فى جريدة «الشورى» التى ظهرت حديثا بمصر ، ولكنى لم أقرأ فيما قرأته نقلا عن هذا الكتاب فى « الشورى » الا نعته « بالخطابى » ولم أعلم ماوجهه فيجوز أن يكون شريفا فاطميا ، ويجوز أن يكون قرشيا ، ولكن لا بد للمتحقق من الاطلاع . فاما ماعندى من المعلومات عنه ، فهو خلاصة أخذتها من فم رجل شريف ادريسى ، يقال له السيد أحمد بن محمد التمشان من أشراف فاس وله علاقة ببلاد الريف ، وقد وجدت رواية عن وقائع الحرب تطابق أخبار الجرائد

الأوربية والجوائب الطارئة علينا من تلك البلاد .

قال لى ان السيد محمد بن عبد الكريم الذى هو أمير الريف اليوم هو من بنى ورياغل من تاجدرت . و بنو ورياغل هؤلاء هم من القبائل الريفية العاتية على الاسبانيول ، ومعهم بنو تمثامن ، و بنو وليشك ، و بنو تافركسيث ، و بنو توزين ، و بنو سعيد ، [١] ويضم اليهم قسم من بنى الطف ، و بنى بقيوه ، و بنى زرقط ، وهؤلاء هم القائمون بجهاد الريف ، وأكثرهم بربر ومنهم عرب ، ويوجد بجانبهم قبائل مثل قلعية ، والمطالسة ، والعبابدة ، وكبذانة[٢] ، قال : وعدد الجيش الدائم الذى يقاتل الاسبانيول هو ٣٠ ألفاً ، وانما المقاتلة فيه تحضر بالمناوبة ، كل ثلاثة أيام النوبة على قسم . وكثيراً ما قرأت فى الجرائد الأوربية أن الجيش الريفى لا يتجاوز ٣٠ ألفاً ، مع أنه يناوىء من ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندى منظم من الاسبانيول . والأمير هو فى نحو الثالثة والاربعين من العمر ، كان قاضيا عند الاسبانيول فى مليلا ، وكان تحصيله للعلم بمادريد ، وكان الاسبانيول يحبونه جداً ، ولكن وقعت له واقعة فى مليلا تحامل عليه بها الاسبانيول ، نخاصمهم ، فالقوا به فى السجن ، ففر منه بان رمى بنفسه من النافذة ، فانكسرت فخذه واحتمله الاسبانيول الى المستشفى حيث بقى الى أن انجبر كسره ، فلاطفه الاسبانيول وحملوه على البقاء فى منصبه ، ولكنه كان فى نفسه قد آلى أن يفارقهم ويلحق بقومه . ومما هو متواتر أن سبب خصامه مع الاسبانيول ، بعد أن تربى ونشأ وتولى القضاء عندهم ، هو ما كان يراه من عسفهم بأبناء قومه ، واحتقارهم للمسلمين ، ومعاملتهم اياهم بما يعامل به السيد عبده أو بما يعامل به سائر المستعمرين الأوربيين أهالى مستعمراتهم . وقد اطلعت فى جريدة « الأومانيته » الاشتراكية الفرنسية ، على فصل لكاتب اشتراكى اسبانيولى ، بعثت به الى جريدة « السياسة » بمصر فعربته ونشرته ، فان صح جزء من الأخبار الواردة فيه من طغيان الاسبانيول وتعديهم على حقوق المسلمى ، وخبطهم اياهم بعصا القهر الى تجاوزهم على أعراض النساء ، كان كافيا لأشعال هذه الثورة عند شعب مثل هذا الشعب الباسل ،

قال لى الشريف الذى روى لى خبر محمد بن عبد الكريم : وكان الاسبانيول يومئذ

(١) وسلف هؤلاء من الاندلس

(٢) هؤلاء كانوا فى البداية مذبذبين

فى حرب مع أهالى الريف ، على حسب العادة باستمرار الحروب بين الفريقين . وكان لا يقدر مغربى على الخروج من مليلا الا باجازة من الحكومة الاسبانية . وكانت هذه الحكومة قد عهدت باعطاء الاجازات ووضع الاشارات على التذاكر الى ابن عبد الكريم نفسه . فاستأذنهم فى الخروج من مليلا ، فلم يأذنوا له ، ففر من مليلا خفية الى تاجدرت من طريق البحر . والمسافة بينهما فى البحر أربع ساعات . وقبل فراره كان عنده فى البنك ١٧ ألف ريال فسحبها منه ، وقطع علاقته مع مليلا ، ووطن نفسه على قتال الاسبان .

وكان هؤلاء قد بنوا ٤٦٠ معقلا وثكنة للاجناد ، وشحنوها بالمقاتلة والعتاد ، وكانت كل قبيلة تقاتل فى أرضها منفردة بدون نظام يجمع بينها . ولا علم يوحد حركاتها . فبمجرد وصول ابن عبد الكريم أبرم بينها اتفاقا أكيداً على الحركة البا واحدا فى وقت واحد فحصرت القبائل جميع هذه الثكن وهذه الحصون ، وقطعوا عنها الماء فكاد يهلك الجنود الذين فيها عطشا فصارت اسبانيا تبعث اليهم بالجمد والثلج بالطيارات لتبل من ظمأهم . ولكن لم يطل الأمر حتى اضطروا الى التسليم بعد ستة أيام من وقوع الحصار . وكان فى كل ثكنة مئات من العساكر ، فاخذهم المغاربة وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، واستحيوا الضباط وكانوا ٥٧٠ ضابطا فارسل الاسبان الى ابن عبد الكريم يلتمسون منه ارسال الضباط ، ويقولون له ان أرسلت الضباط نخل لك مليلا . فاجابهم . لا نريد ان تخلوا مليلا ، ولكن ارسلوا بمؤونة الضباط والا ماتوا جوعا . فارسلوا اليه بملء باخرة ارزاقا ، ومعها مبلغ عظيم من المال . وقد هدم الريفيون جميع هاتيك الثكن والنقاط العسكرية ، وأخذ كل ما فيها من سلاح وكراع ومتاع ، فكانت جملة الغنائم ١٦٠ مدفعاً ، و ١٥٠ رشاشا ، و بنادق لا تحصى ، . وأمتعة لا يقع عليها حصر . وضيق المغاربة على مليلا ، وأحرقوا قطر السكة الحديدية والمحاط ، وفر كثيرون من الاسبانيول فى البحر الى بلادهم . قال لى الراوى : ورشى الاسبانيول قبيلة « قلعية » و « بو يحى » بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال ، فانحازوا الى الاسبانيول ، ولولا خيانة غمارة و بو يحى وقلعية والعبابدة لم يبق من الاسبانيول أحد فى تلك الديار . قال : و بعد أن فاز الريفيون هذا الفوز اجتمعوا فى محل يقال له « انوال » وانتخبت كل قبيلة قوداها ، ورتبوا ما يلزم للحرب ، وبدأوا بحفر

الخنادق ، وجعلوا جزاء على كل من يتخلف فى النوبة عن الرباط ، وجزاء على كل من يترك الصلاة ، واتفقوا على قتل القاتل ، ورجم الزانى ، وقطع السارق . وهذه الحادثة وقعت من نحو ثلاث سنوات . اه

وسالت الشريف المذكور عن الرسولى وما شأنه ، وما هى نسبته ، وما هى خطته فى الريف فقال لى : ان الرسولى هو من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش الولى الكبير الحسنى الادريسى شيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما . وله مقام بجبل العلم (محركة) على مسيرة ستة أيام من فاس وثلاثة أيام من الريف . ومسكن الرسولى فى الريف هو بجوار غمارة ، والخماس ، ووادرس ، وهى قبائل كثيرة يسكنها الرسولى بأموال يأخذها من الاسبانيول . اه .

والظاهر ان الشريف الذى روى لى هذه الأخبار يشير بما تقدم الى الواقعة التى جرت سنة ١٩٢١ فى شهر يوليو واستأصل الريفيون فيها ٢٥ الف مقاتل ، وقيل بل أكثر من ذلك جداً ، وغنموا ١٧٠ مدفعاً على رواية الجرائد الأوربية ، و ١٠ طيارات و ٧٠ الف بندقية ، ومقدارا لا يقع عليه الاحصاء من القرطاس المحشو ، وارزاقا فى غاية السعة ، وفى الحقيقة أن الريفيين يحاربون اليوم باسلحة الاسبانيول وعددهم وعتادهم . وقد هجع الاسبان بعد هذه الواقعة نحو سنة ، ثم جهزوا بعوثا جديدة نحو مائة وستين الف مقاتل ، فصادمها الريفيون بقلوب من حديد ، وردوها على أعقابها بخسائر فادحة . ثم لما آل الأمر الى الجنرال دو ريفيرا ، الحاكم بأمره اليوم فى اسبانية ، وكان مذهبه ترك الريف، أراد أن يطبق برنامجه هذا من التسحب الى ساحل البحر ، فثارت عليه الضباط والقواد ، ورأوا فى التقهقر الى الوراء امام قبائل بربرية وقوة غير منتظمة ، ذلة ومهانة لا تليقان بدولة أوربية ، فالتزم مجاراة رجال العسكرية ، وذهب بنفسه الى مليلا ، وتولى القيادة ، وظن أنه آخذ قريباً بناصية عبد الكريم ، وصرح بذلك على الملأ . فلما بدأ القتال ، صلى من نار الريف بنار لم يقو على أوارها ، و بعد وقائع متوالية ذهب فيها من الاسبانيول أكثر من ٢٠ الف مقاتل عاد الجنرال المذكور الى رأيه الأول ، وأخرست عظمة الخسائر الاسبانيولية بالمال والرجال أفواه أولئك الذين كانوا يرعدون ويبرقون ، بل صاروا راضين من الغنيمة بالاياب . فسحب الجنرال الجيوش الى الوراء ، واختط خطا فى جوار سبتة

ومليلا ، يدور على منطقة صغيرة لا نعلم مقدار سكانها ، لكن يرجح أنه لا يكون أكثر من ٨٠ أو ٩٠ الف نسمة . وقد كان الاسبانيول أثناء اخلائهم المراكز الريفية ، ونكوصهم على الأعقاب ، عرضة لمهاجمات الريفيين الذين كانوا لا يمهلونهم فواقا ، فاما دخل الأسبانيول المنطقة التى اختطوها لأنفسهم ، عدوا ذلك فوزاً عظيما ، أى حسبوا ظفراً كونهم لم يهلكوا جميعاً . وعاد الجنرال ريفيرا الى مادريد ، بعد أن باء بالفشل وأصيبت جيوشه بالرزايا الوجيعة ، ولكنه قوبل فى عاصمة الاسبان مقابلة فاتح آب من الحرب بفتوحات عذراء وتلقى الأسبانيول خبر الانكماش الى سيف البحر والاكتفاء بمنطقة ضيقة جداً ، كبشرى فرحوا وتهللوا بها . هذا بعد أن كانوا ينزلون صواعق النقم بمن تحدثه نفسه بترك شبر أرض من الريف أو صلح مع عبد الكريم .

والنفس راغبة إذا رغبتها ... واذا ترد الى قليل تقنع

وصدق من قال : السيف وجهه أبيض . ولى فى هذا المعنى من قصيدة :

فداً لجانا كل من يمنع الحمى ... ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش الا أن نموت أعزة ... وما الموت الا أن نعيش ونساما
تأملت فى صرف الزمان فلم أجد ... سوى الصارم البتار للسلم ساما
ولم أر أنأى عن سلام من الذى ... تأخر يعتد السلامة مغنما
يقولون وجه السيف أبيض دائما ... وما ابيض الا وهو أحمر بالدما
فان كان دفع الشر بالرأى حازما ... فما زال دفع الشر بالشر أحزما
تجاهل أهل الغرب كل قضية ... اذا لم يجئ فيها الحسام مترجما
وكابر قوم ينظرون بأعين ... ألاعمه الانسان أعمى من العمى

وقضية الريف هذه هى أيضاً من القضايا التى تجاهلتها أوربا ، ولم تفهم فيها أدنى نغية ، حتى جاء فيها الحسام ترجمانا فصيحا فأصغى اليه الجميع . وأتذكر اننا لما كنا فى لندرة فى يوليو سنة ١٩٢٢ لأجل الاحتجاج على مجلس عصبة الأمم عندما قرر مايسمونه « بالانتداب » الفرنسى على سورية و « الانتداب » البريطانى على فلسطين ، تلاقينا فى عاصمة انكلترة باثنين من جماعة الأمير محمد بن عبد الكريم ، أحدهما السيد عبدالكريم ابن الحاج على ، والثانى السيد محمد بن محمدى صهر الأمير ، وكانا موفدين من قبله الى الدولة

الانكليزية لأجل طلب وساطتها فى الصلح ، فدارت بينى و بينهما أحاديث طويلة ، وكانا لم يحصلا على جواب شاف من انكلترة على ما التمسا ، فقلت لهما : « لا أظن أن انكلترة تقبل هذه الوساطة وهذا محافظة منها على رضى دولة اسبانية أولا[١] ، ولما تعتقده من كون الاسبانيول لابد من أن تكون الغلبة الأخيرة لهم ثانيا . والذى أشير عليكم به هو أن تطلبوا الوساطة ، لكن بدون تهافت يشعر بالضعف ، لأن انكلترة لاتحب ضعيفاً . وانى على يقين بأن الانكليز إذا رأوكم قدثبتم فى مواقفكم الى الآخر يعودون فيستمعون لكم » .وهكذا حصل فبعد أن كانت الجرائد الانكليزية مثل التيمس ونحوها تعرض عن الريف والريفيين ، وتصد عن كل كلمة صلح بينهم و بين الاسبان ، صارت تشير على هؤلاء بحسم هذه المادة ، وتتكلم فى عقم هذه الحرب وضررها باسبانية ، وحسبك ان من جملة من ذهبوا الى وجوب مصالحة الاسبان للريفيين ، أى الوقوف عن التجريدات والحملات ، هو لويد جورج ، فى مقالة حررها بهذه السنة ولم يكن السبب فى ذلك سوى ماشاهده الانكليز من ثبات الريفين مع النجاح .

وهذا لايمنع من كون انكلترة تهوى هذا الصلح بشرط أن لاتتأسس فى الريف دولة اسلامية مستقلة ، يكون شأنها مثالا لغيرها ، وتمتد شرارتها الى سائر المستعمرات ، لأن البلاد الاسلامية مهما تناءت بعضها عن بعض سريعة التأثر بعامل واحد . على أن الجرائد الانكليزية تشبه سياسة النكوص الاسبانى عن الريف بحركة الانكليز فى الهند الشمالية الغربية[٢] اذعول الانكليز هناك على التخلية بعد الدخول، وقد ردت عليها بعض الجرائد الاسبانية بأن الفرق عظيم بين المكانين ، لأن بلدان الهند الشمالية الغربية خارجة عن

---

(١) وهذا هو تصريح مستر تشمبرلين وزير الخارجية يؤكد هذا الرضى والعطف . فقد نشرت جريدة « الاهرام » فى ١٧ فبراير ١٩٢٥ ، برقية لمراسلها الخاص فى لندن تحت عنوان (موقف انكلترا تجاه حرب الريف) مايلى :—

تكلم مستر تشمبرلين فى مجلس النواب البريطاني اليوم . ومما قاله عن حرب الريف مايأتى :

« يسرنى أن أغتنم هذه الفرصة لأنكر صراحة جميع الأنباء التى ذاعت فى طنجة عن حصول الريفيين على عطف الحكومة البريطانية ومساعدتها فى حملتهم على أسبانيا . فالحكومة البريطانية تعطف على الحكومة الاسبانية فى المصاعب التى أمامها فى مراكش وقد رفضت فى كل حين وما زالت ترفض اظهار أي رضى عن علاقات أو مخاطبات بين بعض الرعايا البريطانيين وعبد الكريم » . (المعرب)

(٢) أفغانستان وما جاورها

الطرق العامة العالمية ، بخلاف الريف و « الجباله » الواقعة على مضيق جبل طارق ، وقد حثت هذه الصحف الاسبانية على اتحاد الدول الأوربية فى وجه الاسلام واعتبرت تقهقر الاسبان الحالى أمراً موقتا .

وقد اطلعنا على بعض مقالات واردة فى الصحف الأوربية لمشاهدى عيان ذهبوا بأنفسهم الى الريف وتحادثوا مع الأمير ، وسبروا غور الأمور الريفية ، فمنها رسالة للكابتن سبنسر برايز والكابتن غوردون كانتج ظهر تعريبها فى جريدة الاهرام بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ نقلا عن جريدة « مانشستر غارديان » وهى التى تقدمت فى هذا الكتاب وفيها فوائد شافية .

وجاء فى جريدة الجورنال الفرنسوية رسالة لكاتبها المسيو جاك مارسيلياك ظهرت فى الجورنال بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٢٥ أى منذ خمسة أيام ، يصف فيها الكاتب قرية اجدير مقر ابن عبد الكريم ، ثم يصف الأمير ، ويروى مادار بينهما من الحديث بحضور من يقول ان اسمه « ازرخان » وهو ناظر الأمور الخارجية فى دولة الريف ، وسيدى عبد السلام ناظر المالية فيقول ان عاصمة امارة الريف المستقلة عبارة عن قرية صيادى سمك فيها مساكن عبدالكريم وأعوانه ، وكلها أبنية بسيطة ، ليس فيها شئ من صنعة البناء ولا تطاول البنيان . وذكر منها المقعد الذى استقبله فيه الأمير ، وليس فيه شئ سوى حيطان مجيرة بالكلس البسيط بدون زخرف ولا نقش ، وبعض كراسى من المتاع المأخوذ من الاسبانيول . وذكر ان عبد الكريم هو فى نحو الأربعين من العمر ، وفقا لما تقدم من كلام الشريف أحمد بن محمد الثمثان . وكذلك يقول مارسيلياك انه يعرج من احدى رجليه ، وهذا أيضاً مطابق لما سبق من رواية الشريف ، وانه متوسط القامة ، أسود العينين ، حاد النظر ، أفلج الأسنان ، ذو لحية سوداء خفيفة ، بسيط الملبس كل ماعليه جلابة من تحتها ثوب من القطن وهو محتذ بابوجا أصفر ، وليس فى أصبعه خاتم ولا عليه شئ من الشارات المعتادة للامارة ، وعليه ملامح رجل ساكن ، رابط الجأش ، راجح العقل ، موفق الطالع وكثيراً ما يتبسم قال الكاتب : « صافحنى الامير ، ودخلنا فى الحديث تارة بالاسبانيولى الذى يجيد الكلام فيه ، وطورا بالعربى الذى يختار المكالمة فيه بواسطة الترجمان ، لأجل أن يطلع أصحابه على معنى المحاورة

ولم يطل عليّ الديباجة بل سألني فوراً عن غرضي من هذه الزيارة فقلت له : لما كنت قد عقبت حركات الجيش الاسباني كنت شديد التوق الى معرفة ذلك الذي تمكن من تلك الطوائل الحربية عليه . ونحن نبغي أن نعرف في فرنسا ما هي غايتك من هذه الحرب ؟ أهي نشر لواء القتال لطرد الأجنبي أيا كان ، أم هي مجالدة لأجل الريف فمتى استقل الريف كفى الله المؤمنين القتال ؟

فأصغى عبد الكريم الى الآخر ، شأنه في جميع مفاوضاته ، ثم قال : عرفت ماذا تريد أن تسأل عنه . ان الجنرال دو ريفيرا وأصحابه أرادوا أن يحدثوا شبهة ، بأن يذيعوا كون مرادنا حربا دينية لا حربا وطنيـة ، وأن مرمانا هو ن نطرد من المغرب جميع الافرنج ، فهذا كذب . نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف .

فقلت له : ان بعض الناس ممن لهم خلطـة بك يزعمون أن مرادك الوثوب على المراكز الفرنسـوية في « ورغا » ، واذا خرقتها زحفت الى فاس حيث يبايعك القوم سلطانا على المغرب في جامع سيدي ادريس .

فقال : هذه كلمات مسلوب من العقل ، وأنا والحمد لله أظن نفسي عاقلا .

فقلت : مع ذلك وجد بين المقاتلة التي صدت جنودنا على الحدود التي لم نتجاوز فيها على الريف رجال من ربعك . فأنت تكون في مقاومتك للسلطان قد هاجمت فرنسا .

قال : صحيح انه كان بعض رجال من جماعتي بين الذين قاوموكم في زحفتكم هذه . وذلك أنني كنت راجعتكم بعدة كتب ، أسألكم فيها ماذا تبتغون من هـذا التقدم ، وما هي المراكز التي هي هدفكم ، فأبيتم الجواب . ومن جهة أخرى كان رؤساء الناحيـة يستصرخونني ويتذمرون من عدم اعتنائي بهم ، وعليه فأنتم تدرون المركز الذي وجدت فيـه حينئذ . فانا لست عدوا لفرنسا بل أنا باغي الاتفاق معها . وفي أثناء أزمات شـديدة كنتم تعانونها كان كثير من الزعماء يحرضونني على القيام والزحف عليكم ، فكنت أرفض اقتراحهم لا بل أشير عليهم بمصالحتكم وطالما كتبت لكم عن ذلك ولكن ولا مرة حظيت منكم بجواب ، ولا لمجرد المجاملة .

فقلت له : وأنت أيضا ينبغي لك أن تعرف مركزنا في مسـئلة الريف ، فاننا نحن مقيدون بعهود نعترف بها لاسبانية بأنها هي وحدها صاحبة الريف .

فقال الأمير : الريف هولى ولأصحابى أهل البلاد (١)

فقلت : لماذا لم ترفعوا احتجاجاتكم فى وقتها ؟ ولماذا لم تؤيدوا حقوقكم يوم انفصلت قضية المغرب فى مؤتمر الجزيرة ؟

فقال : ان عهد الجزيرة كان ضامناً لناجميع حرياتنا الاقتصادية ، والتجارة ، والدينية فمنذ ابتدأت اسبانيا بغصب حقوقنا ، رفعنا احتجاجنا . وطالما نبهت أنا الحكومة الاسبانية الى المظالم والمغارم التى كان رجالها يرتكبونها ، و بينت لها الطريق المضلة التى تسير عليها فلم يشأ الاسبان أن يلتفتوا الى كلامى . (٢)

فقلت له : أكدوا لى فى تطاون انك تنوى محاربة فرنسا ، وان نيتك هذه قديمة منذ سنة ١٩١٤ اذ أردت اثارة القبائل علينا وهربت اليهم السلاح .

فثار دم عبد الكريم عند هذا السؤال الخشن وقال بحدة : لما كنتم فى نضال مع عبد المالك كانت سيرتى معكم معروفة . وأما تهريب السلاح فقد كنت عاملا عند الاسبانيول لما حصل وكانت قوافل السلاح تخرج من مليلا تخفرها ضباط الاسبانيول وهى لتجار المان . ولقد أثبت بعد مصير الريف الى رياستى اننى أود الاتفاق مع فرنسا . ولقد جاءتنى كتب من المغرب ومن جميع بلاد الاسلام تحثنى على قيادة الحركة لطرد كل رومى من المغرب (٣) فأبيت ذلك حباً للسلام معكم . أما أنتم فكنتم دائماً تقابلون تقربى اليكم بالانقباض ، ومنعتم أن تمر فى منطقتكم الى أقل الاشياء ، فلم تسمحوا بمرور حتى أدوات الحرث ، والمجارف ، والمعاول ، والجير ، والزيت اللازم للاوتوموبيلات .

فقلت له : أظن اننا اذا تكلمنا بحرية نجد الفرنسيس فى هذا غير مخطئين . اذ متى اعتقدنا أنك ستهاجمنا فى أحد الأيام ، فلماذا نسمح لك بمرور المعاول والمجارف ؟ أفلأجل أن تحفر بها خنادق للقتال ؟ أو نسمح لك بالكلس لأجل أن تشيد به مواقى للرشاشات ، و بمادة لتسير السيارات الكهربائية لاجل سرعة حركة أركان حربك . فهذه المواد ان لم

(١) على قاعدة مصر للمصريين وسورية للسوريين والريف للريفيين

(٢) سيرة الاستعمار واحدة فى جميع البلدان

(٣) هذه رواية مارسيلياك الفرنسوى عن عبد الكريم ، ولا ينبغى أن نتلقى جميع ما يرويه آية منزلة ، لأن الصحفيين الأوربيين لا يرون الا ما فى اذاعته مصلحة لدولهم . واذا لم يجدوا بدا من النقل زادوا ونقصوا ، بحسب مقتضى مصلحة قومهم

تمنعها نحن رعاية للعهود مع الاسبانيول ، منعناها من أجل الشبهات التى عندنا من جهتك أفترى الحرب الدينية مستحيلة الى هذه الدرجة ؟ على أن فرنسا لم تزل تحترم دين البلاد التى تحتلها كما هو فى المغرب وسائر مستعمراتها .

فقال : قلت لك اننى أعتبر فرنسا نوعا من مملكة للاسلام ، ولا أقول انها تضطهد المسلمين وأنا ممن يرى اطلاق الحرية الدينية للمسيحيين أيضا فى بلادنا . فهذه الاديان كلها صالحة ، ديانتكم صالحة لكم وديانتنا صالحة لنا . ويكفى للاتفاق فى هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الارادة من الجانبين

قلت له : اذاً ان صرت أميرا للريف غير مدافع ترضى بدخول الأجانب الى مملكتك

فاجاب : هذا بدون شك . أفلا ترى كيف نعامل من يقدم علينا من الفرنسيس ، وكيف قوبلت أنت . اننا لذوو رغبة أكيدة فى الاخذ والعطاء معكم لتتجروا عندنا ونستفيد من أساليبكم .

قلت له : وفى ورغا ! أفلا ترى لنا حقا أن نصل الى حيث وصلنا ، أم أنت تبغى مهاجتنا هناك ؟

قال : هذا الحد هناك لا أعرفه جيداً ولا أظن ان قد جرى هناك تخطيط حدود بين المنطقتين . مع هذا أنا مستعد للمناقشة فى هذه المسئلة مع الميل الاكيد للتسوية . اننى لست برجل سياسى وأرى الاولى الحرية والصراحة فى القول ، فانا أرجو منك أن تقول علنا اننى أود الاتفاق مع فرنسا واننى أبذل كل ما فى طاقتى فى هذه السبيل .

قلت له: اسمح لى أن أراجعك أيضا فى مفاوضة اسبانية معك فى الصلح واشترطت عدا أداء الغرامة تسليم معدات حربية ، لاسيما من المدافع ذات العيار الكبير ، فالى من توجه هذه المدافع ؟ بديهى ليست موجهة نحو الاسبانيول لأنك ستصالحهم . اذاً مرادك بأخذها حرب فرنسا .

فتبسم عبد الكريم ساعتئذ . وقال: ان المفاوضة المذكورة لم يكن هو الذى تولاها ثم قال : هذه مساومات فعلى فرض اننا لم نحصل على الذى طلبناه كله فلا ينبغى من ذلك تعطيل كل شىء .

وصلت عند ذلك الى مركزه بازاء سلطان مراكش وهى أدق المسائل . وكنت أعلم

ان الكثيرين رغبوه فى اعلان الخروج على السلطان وأن يتخذ هو لقب سلطان لنفسه . ولكن عبد الكريم ظهر بمظهر رجل حكيم موزون العقل ، لم تسكره فتوحاته المدهشة ، ولا أضاع فى ظفره الحزم والروية ، فانه أقنع أصحابه بالاكتفاء بلقب « أمير » ولذلك مغزى كبير اذ لو رضى أن يحمل لقب « سلطان » لصعب عليه فيما بعد أن يطيع سلطان مراكش . ولقد تلطفت كثيراً معه فى المدخل بهذه المسئلة ، وتحوطت كثيراً بحيث لاأسوءه عند ذكر السلطان مولاى يوسف الذى يسميه أعداؤه « بسلطان الفرنسيس » .

فأجابنى : كتبت اليه مراراً بأن يضع حداً لتعدى الاسبانيول بما له من صفة سلطنة المغرب ، فلم يجاوبنى ولا مرة .[1]

فقلت : وهل تابى أن تعترف به الآن سلطاناً للمملكة الشريفية كما قد يطلب منك الفرنسيس ؟

ففكر قليلا ثم قال : ولماذا لا ؟ وان الفرنسيس ماهرون فى ايجاد الصيغ .فليجربوا العمل فقد يجدون صيغة يمكن أن أرضاها » انتهى .

من تأمل فى هذا الحديث مع كونه من الممكن أن يكون الراوى الفرنسوى اختزل بعض مالايوافقه منه ، يحكم بدهاء محمد بن عبد الكريم فى السياسة ، و بعد غوره فى المفاوضات الدولية ، وتحاشيه مالايفيد من الكلام ، و يقول انه أهل لما صار له ، وانه أصبح الخوف عليه قليلا ، الا ان طرأ ماليس فى الحساب .

أما فرنسا ، وهل تقنعها تأكيدات ابن عبد الكريم المكررة بحبه لها وخطبته لولائها ! لاتعتقد ذلك أبدا . انما نعتقد انها مادامت أحوالها المالية غير مساعدة لها فلا تعلن عليه حربا ، وتكتفى بمصانعته ، كما يريد هو ان يصانعها . وما تجده يكرر من خطبته ولاءها الا لما يعلم من ثقل ظفره على كل أوربا ، ولاسيما على فرنسا ، ومالايخفى عليه من تحفزها لصده وتوجسها خيفة مجده . فهو يحاول أن يسكن روعها بالتودد ، ويخدر أعصابها بالقول اللين ، وكل هذا يدل على عبقريته فى ادارة السلم ، كعبقريته فى ادارة الحرب .

فدحت فى أهل الريف الرزايا ، وعظم نقصهم فى الأنفس والثمرات ، وفشت فيهم الجراحات والعاهات ، وعضتهم المسغبة بأنيابها ، مما هو كله بديهى بالنظر الى فقرهم ،

(١) لانه مادام الفرنسيس لايجاوبون فمولاى يوسف لايقدر أن يجاوب

وضيق أراضيهم ، ووعورة مسالكهم ، وتأخر المدنية فى بلادهم ، مع تفوق عدوهم عليهم فى كل الوسائل . ولقد مضت على الريف بضع سنين وهم فى أشد بلاء ، وأعظم كرب ، وتولوا كبر هذه الحرب ، ولم تمتد اليهم يد مسعف ولا منجد من جميع العالم الاسلامى برغيف خبز ، ولا ضمادة جرح ، ولا زجاجة حامض فينيكى . وقد كان الأمير محمد بن عبدالكريم خاطب العالم الاسلامى بمنشور بعث به منذ ثلاث سنوات مختصا به مسامى الهند ، والصين ، والافغان ، والجاوى ، فلم يعج بالترك ، ولا بالعرب ، ولا بالمصريين ، ولا بالمغاربة لعلمه ان الترك هم فى شغل عنه وعن غيره . وان العرب يكفيهم ماهم فيه من التخاذل والتواكل ، فما هو أدنى اليهم من الريف فما ظنك بالريف ، ولا بالمصريين لما هم فيه من الانصراف الى مسئلة مصر دون غيرها ، حتى فى الأمور التى ليست من السياسة . ولا بالمغاربة لثقل الضغط الواقع عليهم الحائل دون أدنى مساعدة للريف من جانبهم . وكذلك لم يكتب فى منشوره الى أولئك كلمة يستمدهم فيها الاعانة بالمال أو القوت ، وانما عرفهم انه مع العدو المعتدى فى جهاد .

وكنت فيما أظن ، أول من نبه فى الصحف السيارة الى وجوب اغاثة الريف بمعالجة الجرحى ، ومسك ارماق الأطفال والعيال الذين برحت بهم هذه الحرب الضروس . وحررت فى ذلك النداء تلو النداء ، فلم أحس أدنى نجدة . ثم تصدى لهذا الموضوع الأستاذ الفاضل الشيخ فراج المنياوى رئيس جمعية تضامن السادة العلماء بمصر بعد خطاب ورده من معتمد امارة الريف بطنجة ، فنشر نداء فى الجرائد المصرية لم يكن فيه الا كالنافخ فى رماد . ولكن وردت الأخبار الأخيرة بأنه جدت حركة فى الهند لارسال بعثة طبية الى الريف لمعالجة الجرحى والمرضى . وقد بدأ بعض الناس بمصر يتبرعون بشىء ، فربما تهتاج الحمية ، وتأخذ القلوب الرأفة ، فيزداد التبرع ولا ينحصر فى مصر والهند . وقد اطلعنا على رسالة واردة الى الاهرام بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥ بامضاء « محمد سعد الدين الجباوى » الذى يقول انه كان هناك فمن الاطلاع عليها غنى عن التعريف بالحال الحاضرة فى الريف وهى هذه :

« عدت من الريف منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن مكثت به مدة من الزمن ، وقد تحملت مشاق ومخاطر فى سبيل الوصول الى تلك الديار يعجز قلمى عن سردها . وأهم تلك الموانع كان اجتياز الحدود الفرنسية الريفية تارة ، واختراق المناطق العسكرية الاسبانيولية ليلا تارة أخرى ، بين الجبال ، وذلك فى منطقة الرسولى التى يطلق عليها اسم « الجبالا » وقد حيل

بيني و بين الوصول الى حدود المنطقة المذكورة من قبل الرسولى ، حتى أرغمت على العودة بعد اجتيازى مائة وخمسين كيلو مترا فى مرتفعات صخرية صعبة المسالك ، الى أن تمكنت من الدخول عن طريق « وجدة » و بلاد « المطلسة » رغما من المراقبة الفرنسية ، وذلك بواسطة مندوب الأمير ورجاله ، الذين يدخلون ويخرجون الى المنطقه المذكورة بقصد شراء مواد اقتصادية .

«وقد كنت ضيفاً مدة وجودى كلها بالريف،فى منزل دارجمهورية الريف ومع وزير الداخلية القائد يزيد ، الى أن اقتضى الحال عودتى الى هذه الديار السعيدة لطلب النجدة والمعونة من هذه الأمة النبيلة ، وهذا الشعب الكريم ، ولاشك انهم ملبون الدعوة لتكوين هيئة صحية ، باقرب مايستطاع ، وارسالها باسم الهلال الاحمر لاسعاف المجاهدين عن أوطانهم والمدافعين عنها بكل ماأوتوا من قوة .

«و بهذه المناسبة ننفى على صفحات جريدتكم الغراء صحة الاشاعات التى أشيعت على لسان الجرائد الأجنبية ، و بالأخص منها الفرنسية من أن بالريف ضباطا من الترك والالمان ، وان هناك أجانب يبيعونهم أسلحة ، وكذلك ننفى ماأشيع منذ مدة من أن الهلال الاحمر العثمانى أرسل بعثة صحية .

«ويعلن الريف الى العالم انه ليس للمجاهدين بالريف كبيرهم وصغيرهم مآرب الا الاستقلال التام ، وهم يدافعون عن أنفسهم غير مأجورين من رئيس جمهوريتهم الأمير عبدالكريم،ولا مرغمين من حكومتهم على ذلك.وهم وحدهم بشجاعتهم وقوتهم المعنوية وأساليبهم الحربية ، وذكائهم الفطرى ، حصلوا على كميات وافرة جداً من أعدائهم الاسبانيين من مدافع ميدان مختلفة العيارات ومدافع مترليوزات تعد بالمئات ، عدا بضع طيارات ، وكذلك لديهم جميع مايحتاج اليه هذا العدد الوافر من الذخائر الحربية المنوعة.

«وقدكان لبعض الجنود الريفيين الذين كانوا يخدمون فى الجيش الاسبانى قبل هذه الحرب نشاط عظيم فى تعليم أبنائهم استعمال هذه الأدوات الحربية بطريقة فنية ، حتى أصبحوا اليوم كما يعلم العالم ، قادرين ان شاء الله على مقاومة أكبر عدو يريد الاعتداء على استقلال بلادهم .

وهم يعلنون للعالم أنهم لايريدون من هذه الحرب الاالاستقلال بلادهم ، وهم يحترمون

المناطق المجاورة لهم إذا احترمت مناطق حدودهم ، والريف يفضل الاتفاق مع أقرب جارة من الدول اليه للاشتراك فى استخراج معادنهم ، اذ تكون المنفعه متبادلة بين الحليفين ، اذ لا يمكن لأمة على الأرض أن تعيش وحدها منقطعة عند العالم .

«والشعب الريفى يرجو تذليل صعوبة الطريق ، ويرجو ذلك من الأمة الفرنسية وحكومتها فى داخل منطقتها للهيئة الصحية المنتظرة اذ يكون هذا التسهيل اعلانا للرغبة فى توثيق عرى المحبة والوداد بين الريف و بين فرنسا .»

محمد سعدالدين الجباوى

ولا نظن الا أن العالم الاسلامى يعطف أخيراً على الريف ، ويلبى استغاثة أهله ، لاسيما وقد جاء منهم هذا البطل العظيم أحسن الله عاقبته .

التعصب الاوربي أم التعصب الاسلامي ؟

الاول هو الأشد بشهادات شهود من أهله

ومائة مشروع لتقسيم تركيا

الامير شكيب

ما زلنا نؤكد أن الأوربيين فى عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا (١) ولا جفاء وان تاريخهم فى الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم فى المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها فى الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الاندلس، وصقلية وجنوبى فرنسا وسردانية، مع انهم كانوا يحصون فى هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول، فقد عفى الاوربيون كل أثر للاسلام فى أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون فى أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب. وقد يقال ان الذى منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه فى الدين ويرضى من المعاهد بالجزية. وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية، وأحب اخراجهم، وقيل بل السلطان سليم، وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية. والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من

(١) راجع صفحة ١٥ من الجزء الاول

ديارهم ، فلماذا ياليت شعرى لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس واساقفة الكنيسة فى اسبانيـة ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع فى العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جلوهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذى أوطنه العرب زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هـذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم . . . . .

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الاوربى مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلا عنهـا أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هى غـير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بنى جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة فى موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد فى الدنيا أقل تسامحاً وسجاحة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الأندلس قالوا ذاك شئ آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شئ آخر . وبعضهم يقول هـذه حوادث جرت فى القرون الوسطى . فاذا سلمنا بكونها جرت فى القرون الوسطى فـماذا يقولون فى الموبقات والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الأوربى فى هذا العصر نفسه سواء فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ممـا فعلوه فى مستعمراتهم بافريقيـة الوسطى وشمالى افريقية والكونغو والسودان المصرى وبما فعلوه فى الهند وغيرها من آسية بل بما وقع بمعرفة منهم فى الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بمـا أوقعه بعضهم ببعض فى الحرب العامة . . . . هذا كله لم يقع فى القرون الوسطى ، ولا فى الجاهليـة الأوربية ، بل جرى فى عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربى . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشا وبربرية وتمتلئ الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجيـة ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمى الروملى واستباحوا حرمهم أو الأروام مسلمى غربى

الأناضول ، لم تجد شيئا من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداآت سبقته ويجتهد كل الاجتهاد فى تغطيتها وجر ذيول النسيان عليها .هذا الذى نعترض عليه وقلما نجد عليه جواباً سديداً ، ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذى يتعمد تعمية الحقائق

***

قد ذكرنا هنا البراهين الساطعة على كون تعصب الأوربيين على المسلمين يفوق مرات تعصب المسلمين على الأوربيين . وأوردنا على هذه القضية الشواهد المحسوسة التى لا تقبل المكابرة . ومما أتذكره أن أحد وزراء الدولة العثمانية ـ رحمها الله وجزاها عن الاسلام خيراً ـ كان مرة فى أحد المجالس فى جدالٍ مع بعض رجال دول أوربة فيما يتعلق بهذا الموضوع . فقال لهم الوزير العثمانى : « اننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب فى الدين فلا يصل بنا الى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مرّت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للاسلام . فما هجس فى ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً وكان اذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثمانى تقوم فى وجهه الملة ويحاجُّه مثل زنبيلى على افندى شيخ الاسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين أظهرنا حتى فى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا أراد البقاء بينكم أن يتنصَّر . ولقد كان فى اسبانية ملايين وملايين من المسلمين وكان فى جنوبى فرنسة وفى شمالى ايطالية وفى جنوبيها مئات ألوف منهم ولبثوا فى هاتيك الأوطان أعصراً مديدة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق فى جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالاسلام . ولقد طفت فى بلاد اسبانية كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم » فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جواباً . وبعد ايراد هذه الرواية

لأحد كبار الاسلام يجمل بنا أن نورد شواهد من كلام رجال النصرانية أنفسهم حتى يصح لنا أن نتمثل بالآية الكريمة من سورة يوسف : « وشهد شاهد من أهلها » أو بالآية الكريمة من سورة الأنعام : « وشهدوا على أنفسهم » فنقول :

قد ألّف « هنرى دوكاسترى» Henry De Castries كتابا اسمه «الاسلام» ذكر فيه الأوهام المتراكمة فى أوربة بحق الاسلام فمن شاء فليرجع الى هذا الكتاب

وقد كتب ڤولتير نفسه فى كتابه « بحث فى عادات الأمم وأرواحها » وفى كتابه الآخر « القاموس الفلسفى » كتابة مؤثرة عن هذه القضية وأشار الى الأغاليط والضلالات التى ارتكبها كتّاب القرون الوسطى بحق المسلمين وأورد حقائق فى هذا الباب لا يزال الأوربيون يجهلونها الى هذه الساعة

وقد نقل اسماعيل حامد مؤلف Les Mosulmans Français Du Nord De L'Afrique فى فصل من كتابه عنوانه «التسامح الاسلامى» عن الأب «برولى» L'Abée De Broglie ما يفيد أن الأب المذكور — وهو قسيس شهير — قد أطرى ما كان عليه أبو بكر وعمر من الصدق والاستقامة وشدة الذكاء وقال انهما كانا أعلى كثيراً من القياصرة والملوك المسيحيين الذين كانوا يقاتلونهما

ونقل اسماعيل حامد — وهو من الجزائريين المتفرنسين — عن الأب ميشون جملة استشهد بها أيضاً « دوكاسترى » والدكتور «غستاف لوبون » وهى هذه : « ان من المحزن للامم المسيحية أن يكون التسامح الدينى الذى هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين »

ونقل دوزى المستشرق الهولاندى عن « بوركارد Burckhard [1] الذى يعده دوزى أعرف سائح بأحوال العرب أنه قال عنهم انهم أشد الأمم الأسيوية تسامحا

وقال الدكتور « برون » Perron فى كتابه L'Islamisme : « ان من احسن فضائل المسلم انه متسامح مع من يخالفه فى الدين تسامحاً عملياً »

وقال الكاتب الاسبانيولى « رافائيل كونتره راس » Contreras : « ان كثيرين

(١) سائح سويسرى ولد فى لوزان كان أول أوربى دخل الى مكة والمدينة وقد كانت وفاته سنه ١٨١٨

من المسيحيين الذين يعدهم الاسبانيول شهداء لم يكونوا ليقتلهم المسلمون لو اكتفوا بان يعتقدوا بالمسيحية و يسكنوا ولم يذهبوا حتى ابواب الجوامع يقذفون بعقيدة المسلمين فى وجوههم »

ثم ذكر اسماعيل حامد الادوار التى مرت بها النصرانية فى بلدان المغرب بعد ان علت فيها كلمة الاسلام وقال انه بعد ان اسلم اهل المغرب بقرون بقيت فيه كنائس واسقفيات أتباعها من اهالى البلاد ولم تزل لهذه الاسقفيات بقايا حتى الى مابعد زحفة بنى هلال على المغرب . وكان فى قلعة بنى حماد مركز اسقفية وقد كان النصارى هناك يعاملون بمزيد الرعاية . ثم انه كانت اسقفيات فى قرطاجنة وغومى والقلعة فى المغرب الشرقى فدرست فى ايام البابا إينوشاينوس الرابع ولكن بقى نصارى متفرقون فى البلاد وصارت امورهم الدينية راجعة الى اسقفية فاس فى المغرب الاقصى . وقد ذكر البكرى انه فى القرن الثانى عشر للمسيح كان فى تلمسان كنيسة وطائفة من المسيحيين وقد نقل « مَاسْلَتْرِى » عن ليون الافريقى انه كان فى سنة ١٥٥٠ قبل مجىء الاتراك الى تونس طائفة من المسيحيين فى هذه البلدة وكان المسلمون يعاملونهم بكل رعاية . فانقراض النصرانية من شمال افريقية لم يكن بسبب اضطهاد واقع من المسلمين على المسيحيين بل كان المسيحيون يعادى بعضهم بعضا كانت أساقفتهم تتزاحم على الرياسات . ثم اخذت علاقات الاساقفة مع روما ترتخى بكرور الايام حتى انتهى الأمر بأن المسيحيين الباقين دخلوا من انفسهم فى الاسلام . واما فى اسبانية فكانت حرية المسيحيين فى ايام العرب اكثر منها فى ايام القوط انفسهم كما يعترف بذلك المؤرخ دوزى الشهير ولم تقتصر الحرية الدينية على المسيحيين بل بلغ منها ان المجوس عبدة النار كانوا يقيمون شعائرهم علنا فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وكان الأمير حَبُّوس البربرى صاحب غرناطة مستوزراً رجلا يهوديا بلغ مقاما عظيماً ولم تشعر اسبانية بشىء من التعصب الاسلامى الا فى عهد المرابطين الذين كانوا أحامس فى الدين . ولكن المرابطين كانوا من البربر وكانت فيهم شدة فطرية ومع هذا فان ابن خلدون يروى انه كان عند المرابطين جيش من المسيحيين كان له قائد يدعى « زُوبُور تايَار » وقد كانت العادة ليست عند المرابطين فقط بل عند جميع الدول التى تعاقبت على

مراكش وتلمسان وتونس واسبانية ان تستخدم جنداً من النصارى وكان هؤلاء يتمتعون بجميع حريتهم الدينية ويقيمون شعائرهم واذا ذهبوا الى الحرب يكونون جيشا مستقلا بنفسه بين جيوش المسلمين وكانت الحكومات المسيحية تأذن لهم فى الخدمة فى بلاد الاسلام . وممن امتاز برعاية المسيحيين عبد المؤمن بن على رأس دولة الموحدين فقد عقد معاهدات مع الجَنَوِيّة واهل بيزا وغيرهم واطلق لهم الحرية أن يتجروا فى بلاده وأذن للرهبان الفر نسيسكانيين والد ومينيكانيين فى دخول بلاده واقامة شعائر الدين المسيحى بين الاور بيين الطارئين اليها للتجارة . وروى ماسلترى Masllatrie ان الاور بيين الذين كانوا فى المغرب تكاثر عددهم سنة ١٢٢٣ مسيحية الى ان استأذن البابا هونوريوس الثالث من سلطان المغرب لذلك العهد ان يجعل على رأسهم اسقفاً فأذن له .

ولما جاء القديس لويس ملك فرنسة يحاصر تونس كان فى جيش المستنصر الحفصى أمراء من المسيحيين الأروبيين مثل « فريديريك القشتالى » « وفريديريك لانزا » وكذلك كان « الفونس غوزمان » قائداً فى جيش أبى يوسف بالمغرب وكان جميع هؤلاء النصارى يعيشون بين المسلمين مع عائلاتهم كأنهم فى بلادهم وطالما كان النصارى والمسلمون فى ذلك العهد فى اسبانية يزوج بعضهم بعضاً ، وكثيراً ماتزوج أمراء المسلمين بمسيحيات ويهوديات . وحسبك أن عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح الأندلس تزوج بارملة لوذريق ملك الأندلس الذى غلبه العرب . وتزوج الأمير عثمان بن أبى نسعة بالأميرة لامبيجيا ابنة دوق اكيتّانيا . وقد كانت فلورا المسيحية التى ماتت شهيدة بحسب قول المسيحيين سنة ٨٥١ مسيحية فى قرطبة مولدة من أب مسلم ووالدة مسيحية وكان اخوتها مسلمين . وكان نبلاء الرومانيين فى اشبيلية قد أسلموا وتزوجوا من المسلمين . مثل « بنى أنجلينو » و « بنى سابار يكو » كما ان بنى حجاج من البطون العربية الشهيرة فى اشبيلية كانوا من جهة الأم سلالة غيطشة ملك اسبانية قبل لوذريق. وكان الأمير بكر من أمراء «شَانْتَمَرِيّة» الغرب، حفيداً من جهة الأم لرجل مسيحى ، وكانت جدة الحاجب الشهير المنصور بن أبى عامر مسيحية أيضا . وكانت زوجة الخليفة الحكم صبيحة المشهورة من أمة الباشْكُونْس. وفى أواسط القرن الحادى عشر للمسيح أسلمت أسرة مالكة فى أرغُون اسمها بنو قِصِيّ أصلهم

من القوط . و يقال أيضا ان عائلة بنى خطاب من مُرسِيَة أصلهم كذلك من القوط و يظنون انهم من سلالة تدمير صاحب أُرْيُوله . ومن المعلوم ان ولد المنصور بن أبى عامر الذى ذهب الملك من يده كان اسمه شَانْجُول لان أمه كانت بنت شانجو ملك ناڤار وقيل ان علىّ بن حزم وزير عبد الرحمن الناصر كان من سلالة عائلة مسيحية من « نبْلَه »

وفى سنة ١٢٣٠ مسيحية كان المأمون سلطانا فى مراكش وكانت عنده حلائل مسيحيات وكانت احداهن حبيب أم ولده الرشيد مسيحية وكان عند المأمون جيش من النصارى نحو من اثنى عشر ألف مقاتل . وطالما طلب الباباوات من ملوك المغرب أن يعطوا هؤلاء القواد من المسيحيين بعض القلاع البحرية ولكن الملوك كانوا أحذر من أن يرضخوا لهم بذلك خوفاً من مغبة هذا الأمر

وقد ورد فى الاستقصا للناصرى السلاوى عن جيش النصارى الذى كان عند المأمون المتقدم الذكر ماملخصه : ان الموحدين بمراكش خنقوا الملك العادل و بايعوا أخاه المأمون وكان فى اشبيلية ثم بعد انفصال البريد ندم الأهالى و بايعوا ابن أخى المأمون يحيى بن الناصر ولكن المأمون نشر بيعته على منابر الأندلس وأعمل فى الحركة الى مراكش ولما وصل الى الجزيرة الخضراء بلغه انتقاض الناس عليه فكتب الى ملك قشتاله يستنصره على الموحدين و يسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدوة لقتال يحيى ومن معه ، فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو وان يبنى بمراكش اذا دخلها كنيسة لجيش النصارى الذين يكونون معه وأن يضربوا فيها نواقيسهم وان من أسلم منهم لايقبل اسلامه و يرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك فأسعفه المأمون فى جميع ماطلب منه . قال : ودخل المأمون الى العدوة ومعه اثنا عشر ألفا من جنود النصارى وقال انه هو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب . وروى أنه لما مات كان فيمن أخذ البيعة لولده الرشيد فرنسيل قائد جيش الفرنج وذكر الناصرى اسم زوجة المأمون أم الرشيد وقال ان اسمها حباب وكانت فرنجية الأصل وكانت من دهاة النساء

وفى مقابلة هذه الشواهد من أخبار تسامح المسلمين وصفاء سرائرهم نذكر الآن مايقابلها من حقد الأورپيين وشدة شنآنهم للمسلمين ويكفى من القلادة ماأحاط بالجيد لان

الاستقصاء متعذر ومما يضيق عنه هذا الكتاب فنأتى أولا على ذكر الحروب الصليبية التى أشار بها البابوات رؤساء الكنيسة الذين هم خلفاء عيسى رسول السلام الناهى عن كل مقاومة والآمر بان من ضرب على خده الأيمن يدير لضارب به الخد الأيسر فنقول :—

جاء فى تاريخ البابوات تأليف المسيو فرناند هايوارد Fernand Hayward وهو مؤرخ كاثوليكى المشرب أن البابا سيلفستر الذى عاش فى أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول من نادى المسيحيين فى أوربا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم وكان البابا المذكور افرنسيا وكان من العلماء فى اللاهوت والطبيعيات والطب والفلسفة وهو الذى كان يدعى جربرت Gerbert تلقى العلوم فى اسبانية أيام العرب عند ما كان راهباً : وهو الذى أدخل الأرقام العربيـة الى أوربة وكانت معارفه فى ذلك الوقت مما يجهله الأوربيون . أما دعوته المسيحيين للزحف الى الشرق واستنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين فلم تصادف فى ذلك الوقت الحماسة اللازمة لها . لأن أوربا لم تكن مستعدة لحرب كهذه . وفى سنة ١٠٧٤ استنجد ميخائيل الثانى قيصر بيزانطية البابا غريغوريوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية . فى ذلك الوقت فكر البابا غريغوريوس فى اصلاء الاسلام حرباً صليبية يهاجم بها الترك فى الشرق والعرب فى الغرب لان العرب كانوا فى صيقيلية وأطراف ايطاليـة . ويقول المؤرخ المذكور ان غريغوريوس السابع هو أول بابا فكر فى مناشبة المسلمين حرباً صليبية ولكن لم تدخل هذه الفكرة فى حيز الاجراء الا فى زمان البابا اربانوس الثانى .

قال انه كان قد مضى قراب مئة سنة وأوربا تحدث نفسها بالزحف صفاً واحداً لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة الا انه لما توالت من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بأن ينصر مسيحيي الشرق على المسلمين توجه البابا اربانوس الى فرنسا وطاف فى كثير من مدنها وعقد مجمعاً فى كليرمون Clermont فى سنة ١٠٩٥ فى ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومئتان وخمسون مطرانا وأربعمائة قسيساً ممن يقال لهم أنصاف مطارين وبعد أن تذاكروا فى مسائل كَنَسيَّة خرج البابا الى ساحة فسيحة تسع الجمهور وخطب الشعب قائلا : ان شعبا ملعوناً قد اجتاح بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وعذّب المسيحيين وهتك الأعراض فمن ينتقم لهـذه الاهانات سواكم أنتم

معشر الفرنسيس الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب فى الشجاعة فتذكروا مآثر آبائكم وأعيدوا ذكرى شارلمان وابنه لويس وملوككم الآخرين الذين قاتلوا ملوك الاسلام وان أهم مايجب أن يحرك شعوركم هو استخلاص قبر المخلص والاستيلاء على الأماكن المقدسة التى استولى عليها شعب غيرطاهر فيا أيها الشجعان سلالة أولئك القوم الذين لم يغلبهم أحدٌ قط شقوا طريقاً الى القبر المقدس وانتزعوا الأرض المقدسة من يد ذلك الشعب الملعون.

فعند ماألقى البابا اربانوس هذا الخطاب قابله الشعب الافرنسى بحماسة زائدة وعلا الصراخ هكذا يريد الله . ووضعوا علامات الصليب على أثوابهم وطاف بطرس الناسك فى البلدان يستنفر الأهالى للزحف وقتال المسلمين فى الشرق ولسنا الآن فى مقام تاريخ الحرب الصليبية وانما نحن فى ذكر كيفية تولّدها . ولقد زحف الصليبيون واستولوا فعلا على بيت المقدس فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وكان منهم ماكان من الفظائع التى يعترف مؤرخوهم بها فى جميع الأماكن التى اجتازوها من بلاد الاسلام ولما سقطت القدس فى أيديهم بعد قتال شديد استمر زيادة على أربعين يوماً ارتكبوا فى ظل القبر المقدس الذى زعموا أنهم زاحفون لتطهيره من أيدى أمة غير طاهرة من القتل العام والتفنن فى القسوة ماينذر وجود مثله فى تاريخ البشرية من أول ماعرف التاريخ . قال أبو الفداء : ولبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعاً وقتل من المسلمين فى المسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألف نفس منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف وغنموا مالا يقع عليه الاحصاء ووصل المستنفرون الى بغداد فى رمضان فاجتمع أهل بغداد فى الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى انهم أفطروا من عظم ماجرى عليهم انتهى .

وكان أبو الفداء قد ذكر فظائع ماعمله الافرنج عند استيلائهم على انطاكية والبلدان التى مروا بها وقال انهم ساروا الى المعرة وقتلوا فيها أكثر من مئة ألف انسان . وفى فاجعة القدس هذه عند ماوصل الصريخ الى بغداد قال المظفر الأبيوردى :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضةٌ للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يُفيضه ... اذا الحرب شُبت نارها بالصوارم
فايها بنى الاسلام ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العينُ ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام صرعى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
يسومهمُ الروم الهوان وأنتمُ تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى توارى حياء حسنها بالمعاصم
و بين اختلاس الطعن والضرب وقعة يظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا ستعمل منا فى الطلى والجماجم
يكاد لهن المستكنُّ بطيبة ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون الى العدا رماحهمُ والدين واهى الدعائم
وتجتنبون النار خوفاً من الردى ولا تحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى وترضى على ذل كماة الأعاجم
فليتهمُ اذ لم يذودوا حمية على الدين ضنوا غيرة للمحارم
وان زهدوا فى الأجر اذ حمى الوغى فهلا أتوه رغبة فى المغانم

هـذا وفى زمان البابا أوجانوس الثالث عادت الحرب الصليبية الى الشدة وذلك ان الأتراك كانوا قد استولوا على الرها سنة ١١٤٤ وعادوا الى مهاجمة الصليبيين وفى سنة ١١٨٧ دعا البابا غريغوريوس الثامن الى حرب صليبية جديدة عند ما بلغه أن صلاح الدين الأيوبى استرجع بيت المقدس .

وقد جاء فى تاريخ البابوات هذا مواقف أخرى لهم فى اثارة الحروب على الاسلام بينما هم رسل السلام على وجه الأرض منها موقف البابا كاليكستيوس الثالث فقد ارتقى كرسى البابوية وهو فى سن الثمانين و برغم شيخوخته هـذه لم يكن عنده مهم أكثر من اثارة المسيحيين على المسلمين . وفى سنة ١٤٥٦ بنى هذا البابا أسطولا بحرياً خمساً وعشرين سفينة حربية ودعا ملوك النصارى ليلتحقوا به و يشنوا الغارات على بلاد الاسلام وتطوع لذلك أناس كثيرون فى انكلترة وفرنسة والمانيـة و بلاد المجر . وفى سنة ١٤٥٨ جمع البابا بيوس الثانى مجمعاً عاما دعا اليه ملوك المسيحيين الى حرب عامة يصلونها الأتراك وفى سنة ١٤٦٠ قرروا أن تستمر هـذه الحرب ثلاث سنوات بالأقل الا ان الملوك لم يتفقوا وخطر ببال البابا بيوس الثانى أن يتولى هو بنفسه قيادة غزوة صليبية برغم مرض النقرس ومرض

الحصى اللذين كانا معه الا انه مات سنة ١٤٦٤ قبل أن أتم عمله . وسنة ١٤٧٠ استولى محمد الفاتح على بلان اليونان وسرّح أسطولا أر بعمائة سفينة تجوس فى سواحل بحر الأرديانيك وكان البابا يومئذ بولس الثانى فدعا ملوك المسيحيين الى صليبية جديدة فلم تتفق كلمتهم . وفى سنه ١٤٨٩ اختلف الأمير جم بن محمد الفاتح مع أخيه بايزيد فالتجا الى رومة وكان البابا يومئذ اينوشانسيوس الثامن فتلقاه بالترحيب أملا بالاستفادة من خلافه مع أخيه . وفى زمن البابا اسكندر السابع اشتد العمل لمحاربة المسلمين وقدم البابا نفسه أسطولا لهذه الحرب المقدسة واجتهد البابا اكليمنصوس التاسع فى توحيد كلمة فرنسة واسبانية وحملهما على محاربة الاتراك الذين كانوا استولوا على جزيرة اقريطش (كريت)

هذه انموذجات مما حرض به رؤساء الكنيسه ابناء ملتهم على حرب المسلمين نقلناها من تاريخ البابوات لمؤلف كاثوليكى ولنأخذ انموذجات اخرى من كتاب مئة مشروع تقسيم لتركيا Cent Projets de Partage de la Turquie تأليف دجوڤارا Djuvara من افاضل وزراء رومانيا قال الوزير دجوڤارا ان اصل العداوة المزمنة التى يشعر بها الاور بيون للأتراك ويميلون ابدا من اجلها الى حصرهم فى آسية هى راجعة الى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والاسلام ونقل عن « غُودْ فروا كورت » Godefroid Kurth كلاماً كتبه هذا فى سنة ١٨٨٩ فى كتاب عنوانه « الصليب والهلال » قال فيه : ان الاسلام قد عمل مالم يقدران يعمله بل مالم يجرؤ ان يعمله دين آخر وذلك بأن الصليب تغلب على كل شئ أمامه وجاء الاسلام أحيانا فتغلب عليه . وكان الصليبيون يقولون فى قتال الاسلام . هكذا يريد الله ، ونحن يمكننا ان نعيد اليوم العبارة نفسها وان نحارب العدو الذى حار به آباؤنا. وقال المسيو دوڤاريك De Varrick من علماء الحقوق : انه من الواجب القيام . بحرب دينية يستخلص بها القبر المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحى وحماية مجموع الدول العظام . ثم قال دجوڤارا : ان المسلمين كانوا أرعبوا اور بة وخنعت لهم اسبانية مع عظمتها وفى أواخر القرن الثانى عشر امتد سلطان العرب من الهند الى الاطلانطيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وارقى من حضارة إكس لاشابل و باريس وكان الفرنج Francs تحت قيادة شارل مارتل هم الذين كسروا المسلمين فى « بواتييه » وانقذوا النصرانية فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون اور بة الا تحت اسم بلاد الفرنج . وكان اول من دعا

الاوربيين الى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثانى وذلك سنة الف واثنين ولم يتوفق الى تحقيق ماأراده ثم جاء البابا غريغوريوس السابع فاستنفر جميع ملوك اوربا لحرب دينية يصلونها الاسلام وذلك سنة ١٠٧٥ الا انها هذه المرةأيضا لم تتحقق هذه الامنية وتأخرت نحو عشرين سنة عن ذلك التاريخ . ثم بدأت الحروب الصليبية فأخرت فتح الاتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ مسيحية الى سنة ١٢٩١ بسقوط عكا وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه من بلاد الاسلام مملكتين مسيحيتين قبرص وارمينية . ثم ان الاتراك دخلوا الى اوربة سنة ١٣٥٦ بعبورهم مضيق الدردنيل وافتتحوا ادرنة فى سنة ١٣٦٠ وفى جميع هذه الازمنة ومن قبل ان يدخل الترك الى اوربة كان كتاب النصارى والمفكرون منهم لا يريدون ان يتعزوا عن اخفاق الحروب الصليبية ولا يفتأون يهيجون خواطر الشعوب الاوربية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الاسلام ولا سيما عن فلسطين واشتهر من بين هؤلاء المحرضين بيردو بوا Pierre Du Bois وماريتو Marino وسانوتو Sanuto وهايتون Hayton وريموندلول Raymond Lulle وغليوم دو نوغارى Guillaume De Nogaret وكذلك الشعراء مثل بترارك Pétrarque كانوا فى مقدمة المحرضين على قتال المسلمين

قال: ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتابا تاريخه ٢٣ اوغسطس سنة ١٢٩١ الى فيليب لو بيل ملك فرنسا يظهر له به أله ويستنجده ليجمع كلمة ملوك النصارى وينتقم من الاسلام ولكن البابا مات قبل تحقيق امله . وكان قد تلقى بَرْنامَجَيْ حرب احدهما من ملك صقلية كارلوس الثانى والثانى من راهب يقال له «فِيدَانس دُو بَّادُو» وكان برنامج كارلوس الثانى العدول عن قتال المسلمين بالسيف الى مقاتلتهم بالتجارة قال لانهم اذا زحف الاوربيون الى بلادهم تركوهم يطؤن السواحل ويعمل فيهم تأثير الاقليم فيضعفوا فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم واعداد اساطيل لهذا المقصد وتوحيد القيادة ويسمى هذا المشروع فى حرب الاسلام بمشروع كارلوس الثانى ملك صقلية. اما مشروع فيدانس دُو بَّادُو فلم يكن مقتصراً على حرب تجارية بل كان يشير بتجريد جيش يطأ البر ويكون وراءه أسطول من ثلاثين الى خمسين بارجة حربية وان تنزل الجنود فى سواحل انطاكية ثم يجعل الصليبيون انطاكية معتصماً لهم وقاعدة لغزواتهم . وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا

باستحالته وفى سنة ١٣٠١ جدّ برنامج آخر صاحبه «كارلوس دوڤالوا» أخو فيليب لو بيل ملك فرنسا وكان هذا الأمير قد تزوج بكاترينة ابنة « فيليب دوكوتنيه» Philippe آخر ملوك اللاتين فى القسطنطينية — لأنه كما لا يخفى ان اللاتين غلبوا الروم على القسطنطينية وملكوها مدة خمسين سنة — فتعلق أمل كارلوس المذكور بالاستيلاء على مملكة حميه وظاهره على ذلك البابا بونيفاس الثامن وبعض ملوك النصرانية ووعدته جمهورية البندقية بقوة بحرية الا ان هذا المشروع اصيب أيضاً بالفشل وكانت معدّاته ضئيلة بالنسبة الى خطره . وأكثر من حرض عليه فيليب لو بيل ملك فرنسة الذى كثيراً ما فكر بفتح فلسطين . ثم ان البابا اكليمانضوس الخامس تقدم الى رئيس نظام الفرسان الهيكليين بترتيب برنامج لمحاربة المسلمين وذلك سنة ١٣٠٧ وكان الرئيس المذكور يدعى «جاك دومولية» Jacque de Molay فاشار هذا بجمع كلمة النصرانية على قتال المسلمين وانه لا يجب أن يقل الجيش عن خمسة وستين ألف مقاتل وأن يكون معززا بأسطول يرسو فى مياه قبرص تحت قيادة الاميرال « روجر دولُورْيا » الأرَغُونى . ثم جد مشروع رابع صاحبه «بييردوبوا» وهو رجل من مدينة « كُوتَنْس » ولد بين سنة ١٢٥٠ و ١٢٦٠ واشتهر سنة ١٣٠٠ وقدم برنامجاً الى البابا اكليمانضوس الخامس لاجل استرداد الاراضى المقدسة وقدم برنامجا آخر الى فيليب لوبيل ملك فرنسا فى الموضوع نفسه وحرَّضه على أن يؤسس مملكة فى الشرق يضع على رأسها ثانى أولاده . وكان من جملة وصاياه أن تتوحد كلمة الملوك الكاثوليكيين وان يحملوا الروم الاورثوذكسيين فى الشرق على الخضوع للكنيسة الرومانية وأن يكون الجميع يداً واحدة فى وجه الاسلام وقال انه يجب تجهيز أربعة جيوش ثلاثة منها تذهب بحراً الى فلسطين والرابع يزحف برّاً وكان من رأيه أنه بعد استتباب الفتح يصير كارلوس دوڤالوا ملكا على جميع المملكة البيزنطية مضمومة اليها بلاد المجر والفلاخ والبودان وهكذا لو تم ما أراده لكانت مملكة رومانيا الحالية من جملة ملحقات فرنسا . وكان من جملة ما أشار به أن يكون البابا هو المصلح بين الامراء المسيحيين وان يجعل مجمعاً عاما وخزانة خاصة بالارض المقدسة يكون لها شعبة فى كل كنيسة مسيحية . وقال المؤرخ الشهير « البير سوريل » Albert Sorel انه كان فى برنامج « پيير دوبوا » هذا كثير من الخيال ولكن هذا الخيال كان فى ذلك الوقت يحوم على خواطر الجميع . ونقل

تجوڤارا فى أثناء كلامه على مشروع دوبوا ان البابا غريغوريوس الحادى عشر أنذر امبراطور بيزنطيه بأنه لا يساعده على المسلمين ان لم يرجع الى الكنيسة الرومانية. ونقل أيضا ان البابا سيلڤيوس كتب الى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣ يدعوه أن يتنصر ويقول له « بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصير نصرانيا خادماً للانجيل . فان فعلت هذا لا يكون على وجه الارض ملك يمكنه أن يفوقك فى المجد والاقتدار »

ثم مشروع ريموند لول Raymond Lulle سنة ١٣٠٦ وهو فيلسوف مسيحى صاحب طريقة خاصة به ولد فى پالما من جزيرة ميورقة وقتله العرب فى تونس سنة ١٣١٥ وله مؤلفات كثيرة فى اللاتينية وقد كان من الدعاة الى الحرب الصليبية وله فى ذلك تأليف موجودة نسخته الاصلية بخط المؤلف فى المكتبة الوطنية فى باريز تحت نمرة ٣٣٢٣ وقد استحسن المجمع العام المنعقد فى « ڤيان » سنة ١٣١١ هذا الكتاب وأوجب العمل به وقرر القيام بصليبية جديدة واجتباء العشر من الحاصلات لاجل هذه الغزاة الصليبية وذلك على مدة ست سنوات ولم يقل ريموند لول شيئاً مما يتعلق بكيفية تقسيم بلاد الاسلام بين الفاتحين الكاثوليكيين ولكنه ذهب الى وجوب تعلم اللغات الشرقية لاسيما اللغة العربية لتسهيل هذه الفتوحات ونشر الدين الكاثوليكى بالوعظ والارشاد . وقال سان مارك جيراردان Saint-Marc Girardin ان ريموند لول كان يرى الاولى هداية غير المؤمنين وهداية المسيحين المنشقين الى الدين الكاثوليكى بدلا من قهرهم بالسيف وقال جيراردان أيضاً انه اعترض نجاح الصليبيات فى المدة الاخيرة ثلاثة أسباب الاول خمود جذوة الحماسة الصليبية القديمة والثانى تنازع الامراء اللاتينيين فى الشرق مع مقاومة الروم لهم والثالث الشقاق بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية . هذا وكان ريموند لول يقترح تجريدتين صليبيتين احداهما تزحف الى مراكش فتونس فطرابلس والثانية تزحف الى القسطنطينية ومنها الى سورية . وقد اختلفت برامج هؤلاء الخياليين فى قضية الزحف على بلاد الاسلام فكان غليوم دادان الدومنيكانى يرى السير من طريق القسطنطينية وقد ألف بين سنة ١٣١٠ وسنة ١٣١٤ كتاباً سماه « كيفية استئصال المسلمين » وأشار فيه بايجاد أسطول مسيحى فى خليج فارس وأما بروكارد فأشار بالزحف من ايطاليا الى بلاد الصرب ومنها الى الشرق وأما سانوتو فكان يرى وجوب الحمل على بلاد الاسلام من البحر ويدخل فى

برنامج ريموند لول الزحف على بلاد الاندلس براً وبحراً وبعد الاستيلاء عليها احتلال مدينة سبتة فى افريقية ثم مدينة تونس وذلك لاجل تسهيل الاستيلاء على مصر والبلاد المقدسة وبينما يكون جانب من القوة الصليبية محاصراً مصر يكون الجانب الآخر زاحفا من القسطنطينية الى سورية ومنها الى جزيرة العرب

فهذه مشروعات خمسة لخصناها تلخيصا من كتاب مئة مشروع لتقسيم تركيا . وأما المشروع السادس فهو مشروع مارينو سانوتو Marino Sanuto وهو رجل ينتسب الى احدى الأسر النبيلة فى البندقية ولد سنة ١٢٦٠ وطاف فى بلاد الشرق مثل المورة وقبرص وأرمينية ورودوس واسكندرية وقد بدأ كتابه فى الحث على محاربة المسلمين سنة ١٣٠٦ ولكنه لم يقدمه الى البابا يوحنا الثاني والعشرين الا" سنة ١٣٢١ وقد ذهب فى كتابه لأجل نجاح المشروع الى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وفى ذلك يقول الفيلسوف ارنست رينان : «ان سانوتو كان يجهل درجة الخلاف بين الكنيستين ولا يعلم ان الروم لم يكن يصعب عليهم الخضوع للعمامة كما يصعب عليهم الخضوع للتاج البابوى . ولم يكن سانوتو يشير باستيلاء اللاتين على القسطنطينيـة بل كان يرى بقاء بيزانطية للروم . وكان من رأيه أن تكون سلطنة البقاع المقدسة لفرنسة وكان يحث كثيراً على حصر الديار المصرية ويعتقد انها اذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلا بد من الأستيلاء عليها وانه اذا استولى المسيحيون على مصر فلا بد من أن يستولوا على بيت المقدس . وكان أكثر مقصد سانوتو تأمين الطرق الاقتصادية امام بلدة البندقية وتمكينها من الاستيلاء الاقتصادى على الشرق» .قال دجوڤارا: « ان انكلترة بعد سبعة قرون من زمان سانوتو قد حققت لنفسها الأمل الذى كان يحلم به سانوتو »

ثم المشروع السابع المنسوب الى هايتون Hayton او هيتوم Hétoum سنة ١٣٠٧ وكان هيتوم أميراً ارمنياً من « كرشى » وهى ثغر بحرى بازاء جزيرة قبرص وكان عمه ملكا على أرمينية فاستولى المسلمون على بلاده ولجأ هيتوم الى البابا اكليمنضوس الخامس وأقام بمدنية بواتيه حيث مات سنة ١٣٠٨ وكتب كتابا باللاتينية ثم ترجم هذا الكتاب سنة ١٣٥١ إلى الافرنسية وأشار فى كتابه الى وجوب فتح بيت المقدس وبيّن الطرق التى بزعمه يتيسر بها هذا الفتح ولكن الوقت الذى كتب فيه كتابه هذا لم يكن الوقت الذى تقبل

فيــه الناس رأياً كهذا الرأى فقد كانوا فى فرنسة تحت تاثير فاجعة القديس لويس ملك فرنسة الذى كان قد أسر فى دمياط ثم عاد فقتل فى تونس وكان برنامج هيتوم تجريد جيش على شمالى افريقية وجيش آخر يزحف الى سورية من طريق القسطنطينية وجيش آخر يزحف بحراً وأ كثر ما كان يهمّ هيتوم هو فتح بلاده أرمينيــة وكان يرى ان المغول يمالئون الصليبيين على المسلمين وانه اذا زحفوا الى حلب يضطر سلطان مصر الى نجدة حلب فيخرج من بلاده ويخلو الجو للافرنج فيمكنهم احتــلال طرابلس الغرب . وكان يشير بعقد محالفة بين المسيحيين والمغول لــكن على شرط أن لا يتلاقى الجيشان من الفريقين لئلا يحدث بينهما قتال بل يزحف المغول الى دمشق و يزحف الصليبيون من طريق الساحل الى القدس و بعــد الأستيلاء على بيت المقدس يزحفون الى مصر ولم يكن نجاح مشروع هيتوم أعظم حظاً من مشروعات الآخرين .

ثم المشروع الثامن وهو المنسوب الى «غليوم دونوغارى» Guilloume De Nogaret وتاريخه سنة ١٣١٠ وكان نوغارى من رجال فيليب لو بل ملك فرنسة وكان هذا الملك شديد الاعتماد عليه ولذلك كان يشير بتولية فيليب لو بل قيادة الحملة الصليبية وان تجبى الأموال اللازمة لتلك الحرب وتوضع بين يديه ولذلك أساء بعضهم الظن فى فيليب لو بل واعتقدوا أنه انما أراد بهذه الصليبية جمع الأموال لا لاعلاء كلمة الصليب . وكان مما أشار به نوغارى محالفة سلاطين المغول ومحالفة امبراطور الروم فى بيزانطية .

ثم المشروع التاسع المنسوب الى غليوم دادام Guilloume D'Adam وتاريخه سنة ١٣١١ وكان المذكور راهباً دومينيكيا قضى معظم حياته يعظ بالانجيل فى بلاد الشرق وذهب الى الحبشة والهنــد وكانت أراؤه فى الموضوع غريبــة فــكان يشير بأن الصليبيين يأخذون القسطنطينية فى طريقهم و يحولونها مملــكة لاتينية وكان يشير أيضاً بعمارة أسطول فى بحر فارس لمنع تجارة الهنــد مع مصر . وحمل حملة شــديدة على المسيحيين الذين كانوا يتجرون مع المسلمين لاسيما الجنوية الذين كانوا يبيعون الرقيق من أهــل مصر فــكان فى ذلك القطر جيش من المماليك نحو أربعين ألفاً أ كثرهم بلغار و يونان ومجر وغيرهم وقال انه يجب على البابا اصدار حرم بحق كل المسيحيين الذين لهم علاقة تجارية مع المسلمين وقال بوجوب عقــد محالفة مع الــكرج ومع ملوك العجم وأن يعهد بالسيطرة فى بحر اليونان

المسمى ببحر الأرخبيل الى أولاد ذكريا الجنويين الذين كانوا يملكون جزيرة شيو. وألح غليوم هذا كثيرا بفتح القسطنطينية قائلا: «إنها مفتاح كل المشرق» وقال ان الروم لم يكونوا أقل عداء للاتين من المسلمين فيجب خضد شوكتهم. وقد اهتم صاحب هذا المشروع كثيراً بالمسألة الاقتصادية نظير سانوتو وقال انه يجب قطع تجارة مصر مع الشرق الأقصى بوضع قوة صليبية فى بحر الهند وفى عدن. وقد كان هذا الأمر فى ذلك الوقت ضربا من المحال.

ثم المشروع العاشر وهو مشروع «هانرى الثانى دولوزينيان» De Lusignan ملك قبرص وتاريخه سنة ١٣١١ وقد تقدم هذا المشروع الى مجمع «ڤيان» مع مشروع نوغارى المتقدم الذكر وكان هذا الملك يشير بتجهيز طليعة مسيحية قوامها ١٥ أوعشرون سفينة حربية تواصل غاراتها البحرية على مصر الى أن تتمكن من تخريبها وبعد ذلك يقدم الجيش الكبير فيطأ أرض مصر ويستولى عليها واذا استولى الصليبيون على مصر هان عليهم فتح سورية وقد أشار الملك المذكور بأن يبدأ الصليبيون باحتلال قبرص وان يتجنبوا احتلال ــ أرمينية يريد بأرمينية بلاد كيليكية واسكندرونة وذلك بقوله ان مناخ تلك البلاد شاق على الأوربيين وان الزحف منها الى سورية فى غاية الصعوبة ــ وقد كان لتقرير ملك قبرص هذا تأثير عظيم فى مجمع «ڤيان» فأعلن هذا المجمع الحرب الصليبية فى ١٩ ديسمبر سنة ١٣١٢ وبينما هم يجهزون الجيوش إذ مات فيليب لوبل ملك فرنسة والبابا اكليمانضوس فتوقف العمل ثم قام الأساقفة يحرضون شارل لوبل على اتمام المشروع فعارض فى ذلك دوق بورغونيه وبقى الأخذ والرد فى هذه المسألة الى سنة ١٣٣٣.

ثم المشروع الحادى عشر المنسوب الى بروكارد وتاريخه سنة ١٣٣٢ وكان بروكارد هذا راهباً المانياً من الرهبان الدومينيكيين فقدم تقريراً الى ملك فرنسة يشير به بحرب صليبية ويبين الطرق الموافقة لها ولم يكن يرى أن تكون الحملة بحرية ولا كان أيضا يستحسن الزحف من جبل طارق وشمالى افريقية الى مصر وكان يرى هذه الطريق طويلة شاقة وانما كان يجد الطريق الحسنى من خليج «اوطرانطو» الى كورفو الى البلقان ويرى أحسن من ذلك الطريق التى اتبعها بطرس الناسك وهى طريق ألمانية الى بلاد المجر الى البلقان الى القسطنطينية. ولم يكن بروكارد يرضى بمهادنة ملك الصرب

وأمبراطور الروم فى بيزانطيه بل كان يقول انه لايجوز الثقة بهما لأن نصارى تلك البلاد منشقون على الكنيسة ويجب فتح بلادهم كما يجب فتح بلاد المسلمين . وكان يقول ان الترك يدور بينهم كلام من قبيل الجفر على انه لابد أن يفتح بلادهم ملك افرنجى وان هذا مما يسهل نجاح هذه الغزاة . ولم يكن فى مشروع بروكارد شئ من الملاحظات الاقتصادية بل كانت جميع الأغراض التى بنى كلامه عليها حربية وسياسية ولذلك كان لتقريره وقع عظيم على المجلس الملوكى فى فرنسة وبعد أن قتلوا المسألة بحثاً رجحوا طريق البحر على الطريق التى اختارها بروكارد بحجة ان هذه طريق خطرة . ثم عرضت جمهورية البندقية عقد عصبة ضد الاتراك ودخل فى هذا التحالف امبراطور القسطنطينية وفرسان رودوس وانعقد الحلف بين فرنسة والبندقية بحضور البابا يوحنا الثانى والعشرين فى آڤينيون وأعلن البابا فيليب السادس المسمى دوڤالوا « De Valois » قائداً للزحفة الصليبية وا كتتب للذهاب ثلاثمائة ألف مقاتل . وكانت السفن التى فى المراسى قد تهيأت لنقل ستين ألف مقاتل دفعة واحدة . وبينما هم على قدم الزحف اذ نشبت الحرب بين انكلترة وفرنسة فتوقف كل شئ ثم جاءت الأخبار بتهافت سلطنة بيزانطيه من كل جهة وتداعيها الى السقوط فخارت العزائم وفى سنة ١٣٨٠ وسنة ١٣٩٠ عقدت البندقية وجنوة وغيرهما من الجمهوريات البحرية معاهدات تجارية مع الترك وفى سنة ١٣٨٩ أحرز الترك ذلك النصر العظيم فى قوصوه ثم فى سنة ١٣٩٦ انتصر الترك انتصاراً باهراً فى نيقوبوليس على الجيوش المجرية والافرنسية وأخذ كثير من أمراء الفرنسيس وفرسانهم أسرى ولم يبق فى القرن الرابع عشر محل لحملات صليبية . واستمر امبراطور القسطنطينية يرسل بالصريخ الى أوربة فأرسل الى كارلوس الرابع ملك فرنسة يستعديه على الاتراك وأعلن البابا غريغوريوس الثانى عشر الحرب الصليبية على المسلمين فى ٩ نوفمبر سنة ١٤٠٧ الا أن الترك استولوا على القسطنطينية وقبرص وازدادت الآمال خيبة وآل الأمر الى أن توما باليولوغ باع من ملك فرنسة كارلوس السابع لقب امبراطور المشرق ولكن لم ينفع هذا شيئاً ولما نشبت الحرب بين ملك فرنسة المذكور وبين البابا اسكندر السادس اضطر البابا الى عقد معاهدة مع السلطان بايزيد العثمانى ضد ملك فرنسة الذى كان ينوى فتح الأراضى المقدسة .

ثم المشروع الثانى عشر وهو منسوب الى «برتراندون دولابر وكيار» Bertrandon de la Broquière وتاريخه سنة ١٤٣٢

وكان هـذا الرجل من أخصّاء « فيليب لوبون » دوق بورغونيا أرسله الدوق الى الشرق رائداً لما كان فى نفسه من القيام بحرب صليبية . فذهب الى القدس سنة ١٤٣٢ وعاد الى فرنسة من طريق البر فمر بدمشق وانطاكية وبرسا وغاليبولى والقسطنطينية وأدرنه وفيلبه وصوفيا وبلغراد وڤينا ووصل الى بلاط سيده دوق بورغونيا فى سنة ١٤٣٣ وهو باللباس الشرقى وعلى جواد كان اشتراه فى دمشق . وقد كتب رحلته هذه بلسان ذلك الوقت ونقحها باللسان الافرنسى الحديث المسيو « لوغران دوسى » Legrand d'aussy ونشرت سنة ١٨٩٢ ونسختها الاصلية هى فى المكتبة الوطنية بباريز ومن رأى «دولابر وكيار» ان الملك المسيحى الذى سيحارب المسلمين لاينبغى له أن يفكر بمجد ولا بحسن أحدوثة وانما ينبغى أن يكون عمله مجرداً لله وانه لايوافق أن تكون أرزاق الجيش الصليبى من النهب والغصب وانما يؤدون ثمن الأقوات كلها الى من يبيعهم اياهم الى أن يدخلوا بلاد الاتراك ومن رأيه أن البابا يقدر أن يقوم بنفقات الحملة الصليبية . وقد تكلم دولابر وكيار عن الروم فطعن فيهم وطعن فى المجر أكثر مما طعن فى الاروام وقال انه يأمن الى تركى أكثر مما يأمن الى مجرى . ولما وصل الى غلطة فى القسطنطينية تلاقى مع «فورلينو» معتمد دوق ميلانو فى الشرق وذهبا معاً الى السلطان مرادالثانى فى أدرنه لأجل تبليغه رسالة من قبل دوق ميلانو معناها أنه يأمل من السلطان أن يتخلى للأمبراطور سيجيسموند عن بلاد المجر والبغدان والبلغار وبوسنه وألبانيا . فأجابهما السلطان قائلا : « سلما على أخى دوق ميلانو وقولا له ان طلبه هـذا غير معقول لا سيما انه ما وجـد الامبراطور أمامى فى معركة الا انهزم أو لاذ بالفرار » .

ثم المشروع الثالث عشر وهو المنسوب الى « فيليب لوبون » دوق بورغونيـا وتاريخه سنة ١٤٥٧

وهـذا الدوق كان ينوى دائماً تجريد حملة صليبية على السلطنة العثمانية قبل فتحها للقسطنطينية وبعده . وكان الامبراطور يوحنا باليولوغ صاحب هذه البلدة استصرخه سنة ١٤٤٢ فجهز أسطولا عاث ونهب وعمل أعمالا قرصانية الا انه لم يقدر على شىء يذكر . ولما

سقطت القسطنطينية فى أيدى الاتراك نذر الدوق أن يزحف بنفسه لحرب الترك وكان مراده أن يقصد القسطنطينية رأساً زاعماً انه يجب قطع جذع الشجرة قبل أغصانها . وكان يبنى آماله على الأمم المسيحية التى فى البلقان . و بعد أن رسموا له خطة السير وعيّن هو القواد و بدأ بالتجهيز و وعده لويس الحادى عشر ملك فرنسة بعشرة آلاف مقاتل لهذه الصليبية جدّت عوائق منعته من اتمام عمله ومات البابا بيوس الثانى الذى كان ظهيراً له فى هذه النية وفى هذه المدة كان الاتراك يسيرون من فتح الى فتح فى شبه جزيرة البلقان حتى استصفوها كلها و بقيت فى أيديهم بعد ذلك أربعمائة وستين سنة

ولهذا لانجد فى القرن الخامس عشر مشروعات صليبية الا قليلا . وما استؤنفت هذه المشروعات الا فى أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة ليبانت البحرية الشهيرة التى انكسرت فيها شوكة الاتراك . وكان من أواخر الدعاة الى الصليبية الراهب «كاسبيستبرانو» Caspistrano الذى حضر حرب بلغراد سنة ١٤٥٦ وطاف فى اسبانية وفرنسة والمانية و بولونية و بلاد المجر داعياً الى الحرب المقدسة ومعه صليب و راية أعطاه اياهما البابا مع صورة القديس برناردينو . ومات هذا الراهب الصليبى سنة ١٤٥٦ بعد واقعة بلغراد بثلاثة أشهر

ثم المشروع الرابع عشر المنسوب الى كارلس الثامن ملك فرنسة وتاريخه سنة ١٤٩٥ وقد كان هذا الملك يفكر فى استخلاص بلاد اليونان من أيدى الترك ثم الزحف الى القسطنطينية ومنها الى الارض المقدسة. وكانت غارته على ايطالية انما هى على نية اتخاذ مدينة نابولى قاعدة بحرية يشحن منها الأساطيل الى الشرق . وأصل هذه الفكرة عند كارلس الثامن هو ان والده لويس الحادى عشر كان قد قال فى سنة ١٤٧٨ لوفد ايطالى : « انى ابتهل الى مريم العذراء المجيدة أن تمنح ولدى العزيز شرفا عظيما ذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه الى الشرق ومعه نبلاء فرنسة وفرسانها لقتال التركى المكروه وغيره من الجاحدين » ولما أرسل « لودڤيك سنورزا » رسله من ميلانو الى كارلس الثامن سنة ١٤٧٨ يستحثه على القدوم الى ايطالية بعث يقول له : ان السلطان العثمانى فى القسطنطينية لايخشى أحداً خشيتَهُ من الأمة الافرنسية . قال « دوفونسمان » De Foncemagne : انه كان من السهل اقناع كارلس الثامن بأن فتح نابولى انما هو مقدمة لفتح القسطنطينية وان لقبه « الملك المسيحى كثيراً » يستدعى ذلك

فزحف كارلس الثامن الى ايطالية فى شهر يوليو سنة ١٤٩٤ وفى شهر دسمبر من تلك السنة كتب الى بعض أساقفة فرنسة قائلا : ليست نيتنا منحصرة فى فتح نابولى وانما هى ترمى الى تأييد الكنيسة والاستيلاء على الارض المقدسة

ونشر كارلس من فلورنسة منشوراً قائلا فيه : « اننا اقتداءً بآبائنا ملوك فرنسة المسيحيين كثيراً نريد أن نمنع بما أوتينا من قوة هذه الموبقات الكثيرة التى يرتكبها الاتراك بحق الديانة المسيحية وقد أخذنا على أنفسنا أن لا نضن بنفسنا ولا بشئ من وسائلنا فى دفع هؤلاء الطواغيت الاتراك والاستيلاء على الارض المقدسة وغيرها من الممالك التى انتزعوها من أيدى المسيحيين »

وذكر انه انما يريد بفتح مملكة نابولى العبور منها الى المشرق . ونظمله « غيليوش دو بوردو » أحد شعراء الوقت قصيدة يقول فيها «انه سيتوج ملكا على الروم ويدخل الى أورشليم ويصعد الى جبل الزيتون »

وكان « اندرى باليولوغ » قد أمضى صكاً مؤرخا فى ٦ سبتمبر سنة ١٤٩٤ ينزل فيه عن حقوقه فى تاج القسطنطينية لملك فرنسة . وكان دخول كارلس الثامن الى رومة فى ٣١ دسمبر سنة ١٤٩٤ وكان استيلاؤه على نابولى ودخوله اليها بالثياب القيصرية فى ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ وطلب من البابا اسكندر السادس (بورجيا الشهير) أن يسامه الأمير جم أخا السلطان بايزيد الذى كان ملتجئاً الى رومة ثم كتب الى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من «نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة واسترداد الأراضى المقدسة المغصوبة »

فأجابه رئيس نظام فرسان رودس متفائلاً متيمنا مؤملاً هذه المرة « استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد . . . »[١]

وكان الأروام منتظرين قدوم ملك فرنسة . ونقل « كلود دو سسل » Claude De Saissel ان الأتراك ارتاعوا لخبر زحفة كارلس الثامن وكان منهم حامية فى

(١) هنا ألفاظ أبينا نقلها وهذه المكتوبات هى فى صفحة ٤٩ من كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » تأليف المسيو دجوڤارا الرومانى

بلاد المورة فأخذوا يشترون قبعات من الأروام ليلبسوها ويتزيوا بزى الافرنج أملا بتسكين حدتهم (١)

ورفع كثير من الأرناؤوط الراية الفرنسوية . وبلغ السلطان خبر عزيمة ملك فرنسة فجهز مائة وعشرين سفينة حربية وحشد ٤٠ ألف مقاتل . وقيل ان كثيرين من رعايا السلطان المسيحيين كانوا متحفزين للثورة . الا أنه حصل ما فتّ فى عضد ملك فرنسة فالأمير جم أخو بايزيد مات فى ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٦ قيل ان السلطان بايزيد رشا البابا اسكندر بورجيا حتى سمّه . وانضم أعداء كارلس الثامن الى السلطان منهم الفونس الأراغونى ومنهم البابا نفسه . وانعقد الحلف المسمى بعصبة البندقية وحاربت هذه العصبة ملك فرنسة وظهر عليها الا أنه اضطر أن يرجع الى فرنسة

غير أن الهيجان على الأتراك فى أوربة بقى يشتد فى أوائل القرن السادس عشر . وكتب البابا يوليوس الثانى فى ٢٧ مارس سنة ١٥٠٨ الى ڤلاديسلاس ملك المجر وبوهيميا بأن الامبراطور مكسيميليان ولويس ملك فرنسة والبنادقة تألبوا يداً واحدة على الأتراك ولم يتم شئ الى زمن البابا لاون العاشر فهو أشهر من اشتهر باغراء النصرانيـة بقتال الأتراك . وعمـله يسمى بالمشروع الخامس عشر وتاريخه من سـنة ١٥١٥ الى سنة ١٥١٧ ومذ أعلن مجمع الكرادلة انتخاب البابا المذكور وأبلغه ملوك المسيحيين استجلب أنظارهم نحو قضية الاتحاد لأجل محاربة الأتراك . ثم كتب البابا نفسه الى الامبراطور مكسيميليان وملك انكلترة وملك بولونية والدوق بازيل المسكوبى . ثم انه كرر هذا الاستنفار سنة ١٥١٥ فى الجلسة التاسعة من مجمع لاتران . ثم وعد ڤلاديسلاس ملك المجر بخمسين ألف دوكا (٢) ثم أنفذ الكردينال « سادوله » Sadolet من قبـله الى لويس الثانى عشر ملك فرنسة ينتدبه ليقود حملة صليبية جديدة كما قاد « غودفروا دوبويون » الصليبية الاولى . ولما آل ملك فرنسة الى فرانسوا الأول تلاقى معه فى مدينة « بولونيه » Bologne وحرضه على قتال

---

(١) يظهر أن فكرة لبس القبعة عند الترك والتزيى بزى الافرنج أملا باكتساب عطفهم لم تكن جديدة فقد تولدت منذ سنة ١٤٩٥ ولكنها لم تتحقق بالفعل الا سنة ١٩٢٥ وما كذب ابن خلدون الذي قال ان المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب

(٢) سكة فى ذلك العهد كانت قيمتها من ١٠ فرنكات الى ١٢ فرنكا فرنسياً

الأتراك . وكتب أيضاً الى ملك البرتغال يدعوه لهذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين ثم عاد الى مطالبة فرنسوا الأول بانجاز وعده . ولما افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصراً وازدادت بسطة السلطنة العثمانية كتب البابا الى فرنسوا الأول يقول له : أما لهذا الليل من آخر ؟ و بعد ذلك اجتهد البابا أن يؤلف بين الامبراطور وملك فرانسة وملك قشتالة و يوحد حركتهم لحرب الأتراك . وقد انتدب لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال الدولة العثمانية كان من جملة ما فيها مداخلة بعض ملوك الاسلام من أعداء هذه الدولة واستعداؤهم عليها

وسنة ١٥١٧ فى ٥ مارس أعلن البابا هدنة خمس سنوات بين ملوك النصارى . وحينئذٍ لبّى نفيره ملك فرانسة فرنسوا الأول وملك اسبانية كارلس وملك انكلترة هنرى الثامن وملك البرتغال عمانوئيل وملك المجر لويس وملك بولونيا سيجيسموند وملك الدانمرك كريستيان وملك اكوسيا جاك وانعقد بينهم اتفاق بتصديق البابا . ثم فى سنة ١٥١٨ انفذ البابا أربعة كرادلة يستحث هؤلاء الملوك فى تجهيز الجيوش وأقام حفلة طواف فى شوارع رومة سار هو فيها والكرادلة حفاة . الا أن جميع هذه التدابير قضى الله يومئذ باحباطها ومات الامبراطور مكسيمليان الأول سنة ١٥١٩ وتوقف مشروع هذه الصليبية . ثم ان الترك استولوا على بودابست واستصفوا كل بلاد المجر التى بقيت فى يدهم مائة وسبعاً وأربعين سنة وحاصروا ڤينا فاضطر شرلكان امبراطور ألمانية الى طلب محالفة ملك فرانسة خوفاً من الترك

الا أنه لم يلبث الترك أن عقدوا الصلح مع اوستريا سنة ١٥٣٣ فاضطر فرنسوا الأول من جهته أن يتودد اليهم وأرسل « لافوره » Laforest فى السفارة الى تركيا وعقد معها معاهدة ولاء . ومن ذلك الوقت بقى فرنسوا الأول يستنصر السلطان سليمان فى حروبه مع شرلكان وسنة ١٥٤١ سرح السلطان أسطوله تحت قيادة خير الدين بربروس الى بحر مرسيلية لانجاد الاسطول الافرنسى . ولما جلس هنرى الثانى على عرش فرنسة بقى محافظا على الولاء لتركيا ولم تتصرّم العهود بين الدولتين الا فى أيام أولاد هنرى الثانى

وما تحالف فرنسوا الأول مع السلطان الا اضطراراً وخوفاً من خصمه شرلكان . قال روسو صاحب تاريخ « العلاقات السياسية بين فرنسة وتركيا » ان نتيجة تلك المحالفة بين تركيا وفرنسة قد كانت انقاذ فرنسا من مطامع شرلكان . ونقل عن أحد أمراء فرنسة

« ان فرنسة لا ينبغى لها أن تهمل أمرين مهما كان من الموانع دونهما : الاتفاق مع الشعب السويسرى والتحالف مع تركيا »

وهناك المشرع المنسوب للامبراطور ماكسيميليان وهو المشروع السابع عشر وتاريخه سنة ١٥١٨

وكان البابا لاون العاشر قد أقنع الامبراطور بلزوم محاربة الترك . وفى معاهدة الامبراطور مع لويس الثانى عشر سنة ١٥١٣ جرى ذكر هذه القضية وكذلك خاطب الامبراطور نواب الامة عند اجتماعهم فى « مالين » قائلاً لهم : « اننا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر فى حملتنا المحمودة المقدسة على الترك » ولما سأله البابا عن الطريقة العملية التى يراها لأجل اشعال هذه الحرب على الأتراك اجابه بتقرير مفصل ذكر فيه لزوم الاتفاق بين ملوك المسيحين ودخول ملك فرنسة فى هذه الحرب وأن تستمر الحملة مدة ثلاث سنوات متواليات وأشار بتحريك العجم من جهة وتحريك سلطنة مراكش من جهة أخرى لمشاغبة آل عثمان . ثم ذكر ملوك النصارى الذين يجب أن يدخلوا فى هذه الحرب المقدسة فقال انهم الامبراطور وملك البرتغال وملوك فرنسة وبولونيا والمجر وان ملك فرنسة يجب أن يسير من طريق ايطاليا فيعبر البحر الى دالماسيا وينضم اليه البولونيون والفلاخيون والبغدانيون ويهاجون جميعاً ادرنة هذا فى السنة الأولى ، وأما فى السنة التالية فيكون ملك البرتغال استولى على شمالى افريقية والاسكندرية ويأتى فيتلاقى مع ملك فرنسة وملك بولونيا فى بلاد اليونان ويحملون جميعاً على القسطنطينية وبعد فتحها يسهل فتح آسية الصغرى والأرض المقدسة . ثم يصير توزيع الممالك المفتوحة على ملوك المسيحيين بمعرفة البابا ومجمع الكرادلة

وقد تمّ عقد هذا الاتفاق وتقرر العمل به ووعد ملك اسبانية بتجهيز ٢٣ الف مقاتل لهذه الحرب وبينما هم فى التأهب اذ مات الامبراطور مكسيمليان فى ١١ يناير سنة ١٥١٩ فتوقف كل شئ الى ما بعد انتخاب قيصر جديد

ثم مشروع « ايرازم » Erasme وهو الثامن عشر وتاريخه سنة ١٥٣٠ وكان ايرازم هذا من مشاهير رجال الأدب ولد فى روتردام سنة ١٤٦٧ ومات فى بازل سنة ١٥٣٦ وقد كانت دعوته لحرب الترك من آثار دعوة البابا لاون العاشر ومن آثار فتح الترك لبلاد

المجر . وكان ينادى ان الترك لم يتقدموا فى اوربة الا بسبب انقسام المسيحيين وكان يغضب لقول بعضهم ان الدين يمنع الحرب ويقول : ان المسيحى لا يمكنه أن يعيش ان لم يصرع الترك . وكان يقول للاوربيين : لا تهولنّكم عظمة السلطنة العثمانية فان السلطنة الرومانية والفتوحات الأسكندرية كانت أيضاً بمنتهى العظمة وقد جاء وقت انقرضت فيه . ولم ينظم ايرازم برنامجاً للعمل وانما كان يثير الأفكار ويحرك الهمم

ومثل مشروع ايرازم هذا مشروع « نانيوس » Nannius وهو التاسع عشر وتاريخه سنة ١٥٣٦ وكان نانيوس هذا راهباً هولاندياً عالماً ولد فى « الكمار » Alkmar سنة ١٥٠٠ ومات فى « لوڤان » Louvain سنة ١٥٥٧ وكانت دعوته بعد دعوة « ايرازم » بثلاث سنوات . وهى تتضمن الجواب على دعوى أن الديانة المسيحية انتشرت بدون سفك دماء فيقول نانيوس : ان المسيحيين الأولين كان عندهم صبر وجلد وكان استشهاد مؤمن واحد فى سبيل الدين سبباً لاهتداء الف نفس . وأما فيما بعد فقد تغيرت الحال وهذه سبعة قرون مضت والأمة الجاحدة تهين المسيحيين ولا يهتدى بهذه الاهانات أحد الى المسيحية . وكلما انتصر الأتراك وتقدموا ازدادوا استمساكاً بعروة ديانتهم . ثم ان الاسلام قد غزا آسية وافريقية واوربة ولذلك أصبحت محاربة المسلمين ضرورة من الضرورات لا مناص منها . والتركى ان لم تحاربه انت كان هو الذى جاء يحاربك فلا بد اذاً من محاربته ولو اتفق المسيحيون لابادوا الأتراك ولكن هؤلاء انتهزوا فرص الاختلاف بين المسيحيين وقد أدخل الاروام الترك فى بلادهم هم بايديهم كما يتجرع الانسان السمّ بيده وما فتوحات الترك الا انتهاز فرص . ومتى قاومهم المسيحيون حق المقاومة هزموهم أفلم ينهزم سليمان عن ڤينّا

ومن قبيل مشروع نانيوس هذا مشروع « كوسبينيانوس » Cuspinianus الطبيب الالمانى من فرانكفونيا كانت ولادته سنة ١٤٧٣ ومات سنة ١٥٥٩ وكان من مستشارى الامبراطور مكسيميليان ومشروعه هو العشرون وتاريخه سنة ١٥٤١ وقد ذكر فى أول كتابه أصل الأتراك وكيف دخلوا شبه جزيرة البلقان وكيف حاولوا فتح ڤينّا . ثم أخذ يتكهن بسقوطهم ويورد العلامات التى تؤذن باسترداد المسيحيين للقسطنطينية قال : ان راهباً تكهن قبل فتح الترك للقسطنطينية بان المسيحيين سيعودون اليها بعد ثمانين

سنة . وقد مضى من المدة تسع وسبعون سنة ولم يبق الا سنة واحدة . واورد كلام متنبئ آخر فلكي من نابولى اسمه « منياتنسيس » نظم نبوته شعراً وهى فى هذا المعنى . ثم اشار الى ملحمة لاتينية قديمة مضى عليها مائة سنة موجودة فى ماغد بورغ مآلها ان رجلاً من اعقاب شارلمان يكون اسمه كارلس هو الذى يعيد السلطنة الشرقية .

ثم ذكر كوسبينيانوس تاريخ آل عثمان الى السلطان سليم عاشر سلطان منهم . ثم أشار الى الطرق التى يمكن المسيحيين أن يدخلوا منها الى شبه جزيرة البلقان ويطردوا الترك من أوربة وقال انه يجب اتخاذ خطة الهجوم اقتداءً بانيبال وقيصر . وذكر مواقف جان هونياد الشهيرة وقال لو اتفق الالمان والمجر بدلاً من أن يتقاتلوا لطردوا الترك الى آسية . ونهاية كلامه حث الامبراطور شرلكان على قتال الترك

ثم المشروع الواحد والعشرون لمحاربة الترك وهو المنسوب الى « جيور جڤيتز » Georgevits تاريخه سنة ١٥٤٢ وكان جيور جڤيتز هذا رحالة مجريا نشأ عند الأتراك وقيل بقى أسيراً عندهم مدة ثلاث عشرة سنة وانتهت حياته فى رومة سنة ١٥٦٠ وكتب تاريخ وقوعه فى الأسر وما عاناه فيه وطعن فى الترك وذكر فى كتابه ملاحم تشير الى انقراض السلطنة العثمانية. وكان يرجو أن يهتدى الترك الى الدين المسيحى . وقد كان نداؤه لمحاربة الترك حرباً صليبية موجها الى الارشيدوق ماكسيميليان النمساوى . وقال : ان السلام الآن بين ملوك المسيحيين كاد يكون عاما فلا يجوز التوقف عن حرب الترك فألمانيا تقدر ان تجند لقتالهم بدون عناء ٥٠ ألف راجل و ٢٠ ألف فارس ومثل ذلك ملوك ايطاليا ويرجى من فرنسة واسبانية ان تجهزا أكثر من هذا العدد ويمكن هولانده ان تجهز ١٠ آلاف فارس و ٢٠ ألف راجل وفى استطاعة المجر ومورافيا وسيليزيا وبوهيميا وبلاد الدانوب تقديم ٦٠ ألف مقاتل . قال المؤرخ دجڤارا : انه لو كان احتشد وقتئذ ٢٢٠ ألف راجل و ٩٠ ألف فارس لكان جيشا عرمرما وكان يرجى منه العمل . ولكن جيور جڤيتز يقع فى التناقض مع نفسه عندما يقول: « إن الجندى المسيحى لا يفكر الا فى الأجرة التى يأخذها وان الجندى المسلم يترك كل رذيلة اذا صار الى ميدان الحرب »

وفى سنة ١٥٤٢ ظهر فى مدينة « انڤرس » (بلجيكا) نشرة فيها نداء للنصرانية ان تتحد وتزحف نحو الأتراك وتقهر هذه الأمة الجاحدة . . .

وفى السنة نفسها ظهر مشروع حرب صليبية للبرنس يواكيم الثانى من أمراء براندبورغ Yoachim II de Brandebourg

ثم المشرع الثانى والعشرون وهو المنسوب الى « غيليوم دو غرانترى دوغرانشان » Guillaume De Grantrye De Grandchamps وتاريخه سنة ١٥٦٦ الى ١٥٦٧

وكان هذا الرجل أقام ثلاث عشرة سنة فى القسطنطينية وعاد منها الى فرنسة مع السفير دارامون D'Aramon سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٦٦ عينته فرنسة سفيراً فى تركيا نظراً لخبرته بأحوال تركيا . ولكن « غرانشان » لم يوفق كثيراً فى سفارته هذه الى حدان الملك كارلس التاسع كتب الى الصدر الاعظم محمد الصوقولى يقول له : «ان غرانشان الذى عهدنا اليه بجميع أشغالنا فى الشرق هو منتظر أن نرسل شخصاً بدلا عنه لانه لا يعجبكم » وسنة ١٥٧٠ رجع الى فرنسة و بيده كتاب من السلطان سليم الثانى الى ملك فرنسة وقد عين هذا مكانه سفيراً « فرانسوا دونواى » Francois De Noailles

وكان غرانشان يحلم أن يتزوج بالاميرة « كيايته » الفلاخية الرومانية ابنة الويفود بترو الثالث أمير رومانيا ثم يرث بعد ذلك امارة رومانيا ولكن حلمه هذا لم يصح فاقترح على الباب العالى أن ينصبه أميراً على الفلاخ والبغدان وانه هو فى مقابلة ذلك يسعى فى تقريب الفرنسيس البروتستانت من الأتراك بحجة ان بين عقيدتى الفريقين تشابهاً وان ينقل البروتستانت الفرنسيس Huguanots الى بلاد الفلاخ والبغدان . وكان يقوى أمله فى ذلك « سجيسموند زابوليا » Zapolya أمير ترانسيلفانيا الذى كان يرجو مساعدة غرانشان له فى الحصول على وعد ملك فرنسة بتزويجه من الأميرة مرغريت أخته . وقد أرسل الصدر الأعظم ترجمانه محمود بك يلتمس من ملك فرنسة تزويج أخته من الأمير سيجيسموند المذكور ليكون فيما بعد ملكا على بولونيا

الا ان أمراء الممالك المسيحية تزاحموا على الأميرة مرغريت هذه فالامبراطور مكسيميليان أرادها لابنه رودولف وملك البرتغال « سباستيان » الذى لم يكن تجاوز السابعة عشرة من العمر أرادها لنفسه وأسعفه فى ذلك البابابيوس الخامس فثارت حماسة هذا الملك الشاب بما حركه من العشق وكتب الى البابا يشكره كثيراً ويقول : «انى ما أريد

بمصاهرة جلالة ملك فرنسة الا أن أبين له مقدار تقديرى لشرف الاصهار له وان أثبت لأوربة ما عندى من الوجد لانقاذ الكنيسة من ظلم الاتراك »

لكن كارلس التاسع ملك فرنسة أبى الا تزويج أخته من « هنرى دوبوربون » أمير ناڤار الذى صار فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسة .

وقد كانت ايزابلا والدة الامير « زابوليا » الترنسلڤانى أرسلت الى هنرى الثانى ملك فرنسة ترجوه أن يتفق مع السلطان سليمان لعل هذا يرد الى ترانسلڤانيا بلاد المجر السفلى ثم ان الامير زابوليا تزوج بابنة أخى الامبراطور شرلكان . وكان زابوليا قد كتب الى السلطان فى ٤ ابريل سنة ١٥٦٤ يستأذنه فى الزواج وظهر من تقرير مقدم الى الامبراطور ان السلطان سليمان كان يعامل الامير زابوليا كأحد أولاده ولذلك كان سليم الثانى يعده كأخ له وكان زابوليا لا يتزوج الا من يرتضيها له السلطان والا يبقى عَزَباً . وكان مراد الترك أن يجعلوا أمير ترانسيلڤانيا ملكا على بولونيا ليقف فى وجه الامبراطورية الالمانية وان يزوجوه بأخت ملك فرنسة لاجل هذا الغرض . وقيل انهم كانوا يطمعون أن يجلسوه على عرش الامبراطورية نفسه وعلى فرض لم يصح حلم الامبراطورية له فيجمعون من بولونيا وترانسيلڤانيا والفلاخ والبغدان قوة تقف فى وجه الامبراطورية الجرمانية . وكانت تركيا تساعد حركة البروتستانت فى أوربة وكان من جملة ما فكرت به الملكة « مارى دومديسيس » ابعاد « الهوغنوت » هؤلاء من فرنسة لاعادة السلام الى البلاد فكانت تفكر تارة فى ايطانهم ترانسيلڤانيا و بلاد الفلاخ والبغدان وطوراً فى ايطانهم جزيرة قبرص وأحياناً فى الجزائر الخ وكان « غرانشان » يعرف مقاصد الملكة ويجتهد فى تحويل هجرة الهوغنوت الى رومانيا ويعد ملك فرنسة بأنه ان أزوج أخته بأمير ترانسيلڤانيا وكان هواى غرانشان تولى على الفلاخ والبغدان فانه ينزل عنهما لصهر ملك فرنسة . وروى المؤرخ هامر Hammar [1] ان الامير الرومانى بطرس الاعرج وأمه « كياينه » كشفا للباب العالى دسائس غرانشان وبذلا فى القسطنطينية ٢٠ ألف دوكا لأجل احباط مساعيه ولكنهما لم يقدرا على استرجاع الامارة لأنفسهما وانما عين السلطان سليم الثانى اسكندر أخا بطرس أميراً على الفلاخ وأرسل بطرس وأمه الى قونية وأجرى عليهما

(١) أشهر مؤرخ أوربى لتركيا

الارزاق اللازمة

ثم ان البابا بيوس الخامس هيأ مشروع الصليبية الثالث والعشرين وتاريخه سنة ١٥٧٠ ويقول المسيو فلامان Flament انه هو التدبير الوحيد الذى وقف تقدم الاسلام . وكانوا فى زمان البابا يوليوس الثالث قد استنفروا الناس أيضاً لقتال الترك ولكن القول لم يقترن بالعمل الا فى عهد بيوس الخامس

وكان الامبراطور ماكسيميليان قد جمع أمراء ألمانيا والنمسا فى اوغسبورغ للتذاكر فى قضية الاتراك وأرسل البابا بيوس الخامس لشهود هذا المجمع من قبله الكردنيال « كوماندون » ومعه « كانيزيوس » اليسوعى . فأجمع الأمراء الكاثوليكيون على الوعد بالسير لقتال الترك واستنكف عن ذلك أمراء البروتستانت . وقدم البابا للامبراطور لأجل تجهيز الحملة على الترك ٥٠ ألف دوكا وتعاهد عمانوئيل دوق ساڤواى و « الفونس رستى » دوق فرارى و « كوم مديسيس » و « غليوم غونزاغا » دوق مانتو وجمهورية « لوك » Lucques وجمهورية جنوة على قتال الترك اجابة لدعوة البابا . وشرع هذا يصلى ويقدس ويذرف الدموع وقيل ان السلطان سليمان قال : « إنى لأخشى من صلوات هذا البابا مالا أخشاه من جميع جيوشهم »

وكان سليمان قد شن الغارة على بلاد المجر وحاصر زيغت Zighet ومات قبل فتحها بثلاثة أيام (٣٠ أغسطس ١٥٦٦) وأخفوا موته عن الجيش الى أن تم الفتح وجاء ابنه سليم الثانى من الأناضول فرأى الأحوال مما يقتضى جنوحه الى الصلح فعقد هدنة الى ثمانى سنوات مع الامبراطور مكسيميليان

أما البابا فلم يفتر ولم يعدل عن مشروعه فى جمع كلمة النصرانية على الترك وكان يقول انه يجب على الأمة المسيحية أن تسير قاطبة لقتالهم . ومما كتبه « ان السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا الى حد أننا أصبحنا لانقدر أن نقف فى وجه اعتدائها الااذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو العام وناشبوه القتال براً وبحراً ولما كنا نحن على ثقة بأنه لايوجد فى المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة لنا من أن ندعوهم جميعاً لقتاله وخضد شوكة الأتراك أعدائهم جميعاً »

فأرسل ملك اسبانية خمسين سفينة بقيادة « اندرى دوريا » (اميرال شهير)

و « بطرس دومونت » رئيس فرسان مالطة ثلاث سفن ودوق سافوای أربعا وكان أسطول البندقية تحت قيادة « زان » Zanne وأسطول البابا تحت قيادة « كولونا » Colonna

وجاء الأسطول العثمانی فرسی أمام جزيرة قبرص فی أوائل يوليو سنة ١٥٧٠ وفی ٨ سبتمبر جری هجوم عام وفتح الترك نيقوسيا قاعدة الجزيرة وفر الأسطول الاسبانی وانكفأ أسطول البنادقة وأسطول البابا الی كورفو

واذ بلغ هذا الفشل البابا أرسل الی ملك فرنسة يقول له : « إن قضية الحلف المقدس هی عندنا من الأهمية بحيث أنها لم تترك لنا راحة لافی الليل ولافی النهار ولا نرجو لنا راحة الا فی دخول جلالتك فی هذا الحلف »

ولما أجابه كارلس التاسع معتذراً بالمعاهدات التی بينه و بين تركيا كتب اليه البابا يقول «ان جلالتك لاتبرأ من اللوم اذا كنت لأجل فائدة شخصية أو أية فائدة كانت تستمر علی علاقاتك الودادية مع الكفار »

ومراد البابا بذلك انه وان كان ملك فرنسة مرتبطاً بعهود مع الاتراك فهو فی حلّ منها وليس عليه أن يرعی عهوداً للمسلمين

فتأمل فی هذا وقابله مع شريعة الاسلام التی هی فی هـذا الموضع محددة بهذه الآية : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

ومعنی ذلك أن علی المسلم نصر أخيه المسلم علی غير المسلم الا اذا كان بين هذا و بينه ميثاق فلا يجوز نقض هذا الميثاق بوجه من الوجوه . وكم جاء فی القرآن الحث علی حفظ العهود بازاء أیّ كان مسلماً كان أو غير مسلم . قال الله تعالی : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) وقال تعالی : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) الآية وقال تعالی : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الی أن

يقول : (وَالذينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون) وقال تعالى : (إلاَّ الذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

فأنت ترى أن الاسلام لايقيد المؤمن بالعهد اذا كان تجاه المؤمن و يطلقه منه اذا كان بازاء غير المؤمن كما فعل البابا بيوس الخامس الذى يصرح فى كتابه لملك فرنسة بأنه لايجوز له لمصلحة شخصية أو لأىّ سبب آخر أن يرعى عهوده للاتراك الذين هم غير مسيحيين .

وقابل قول البابا هـذا بوصية سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه للاشتر النخعى عند ماولاه على مصر وذلك فى كتابه الشهير للأشتر قال كرم الله وجهه :

« وان عقدت بينك و بين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جُنة دون ماأعطيت فانه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين (١) لما استو بلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرنَّ بذمتك ولا تخيسنَّ بعهدك ولا تختلنَّ عدوك فانه لايجترئ على الله الا جاهل شقىّ . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحريماً يسكنون الى منعته و يستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه . ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولنَّ على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدرٍ تخاف تبعتَهُ وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » اه

الخلاصة ان الامام علياً رضى الله عنه استقصى جميع مايخطر بالبال فى باب حفظ العهود و رد عذر كل معتذر فى نقضها ولم يجعل العهد مسؤولا بازاء المؤمن وغير مسؤول تجاه غير المؤمن .

ونعود الى الكلام على حلف ملوك النصارى لمقاتلة الاتراك ونقول ان كارلس التاسع ملك فرنسة أبدى بعض معاذير لكنه كان فى الحقيقة مستعداً لنكث عهده مع تركيا اذا ارتضى المسيحيون بتمليك أخيه على بولونيا . وكذلك الامبراطور مكسيمليان كان إعتذر للبابا بمعاهدة بينه و بين السلطان سليم الثانى فرد البابا عذره هذا وأجاز له الخيس بعهده بحيث لم تمض أيام ثلاثة حتى نقض الامبراطور الميثاق الذى بينه و بين السلطان كما

(١) أى حل كونهم دون المسلمين فى الأخلاق والعوائد

حرر ذلك « دجقارا » فى الصفحة ١٠١ من كتابه

ولما رأى البابا تثاقلا من سجيسموند ملك بولونيا عن اجابة النفير لحرب الاتراك خاطب ايڤان ملك الروسية . ثم انه أرسل الى فيليب الثانى ملك اسبانية يشكو اليه قعود الاسطول الاسبانى عن مناجزة اسطول الترك القتال و يعرض عليه نفقات الحرب فتقبل فيليب ذلك بقبول حسن و وضع اسطوله تحت اشارة البابا . ثم ان هذا اختار الدون جوان النمساوى Don Juan D'Autriche ابن شرلكان من احدى حظاياه قائداً عاما للحملة . وسيَّر أمراء ايطالية بعوثهم فقدم دوق اور بنيو ألف راجل ودوق فرّارى ألف راجل و ٣٠٠ فارس ودوق مانتو ألف راجل و ٢٠٠ فارس ودوق ساڤواى ألفى راجل و ٢٠٠ فارس وقدمت جنوة ولوك ألفى راجل و ٢٠٠ فارس والدوق كوسم دومديسيس أربعة آلاف راجل وألف فارس .

ثم انعقد التحالف فى ٢٥ مايو سنة ١٥٧١ ونشر فى ٢٥ يوليو . وهو الحلف المسيحى الثالث عشر فى وجه الدولة العثمانية منذ تأسيسها الى ذلك العهد . وقد جاء فى صك هذا الحلف « ان البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانية وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الاتراك لأجل أن يستردّوا جميع المواقع التى اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس [1]

وكان البابا نفسه قدم للحرب ١٢ سفينة حربية وثلاثة آلاف راجل و ٢٧٠ فارساً وتقرر توزيع نفقات الحملة على الوجه الآتى : النصف على ملك اسبانية والثلث على جمهورية البندقية والسدس على البابا . ولما احتشدت أساطيل الحلفاء بلغت ٢٢٥ سفينة حربية و ٧٠ مركب نقل وكان اقلاعها من مرسى مسّينى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول العثمانى ٢٤٥ سفينة حربية و ٨٧ مركب نقل أى أرجح من اسطول الحلفاء

وتلاقى الفريقان فى خليج ليپانت ونشبت الواقعة البحرية الشهيرة وقضى الله بتمحيص المسلمين وفقدوا ثلاثين ألف مقاتل وأخذ المسيحيون منهم ١٣٠ سفينة و ١٠ آلاف أسير . وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية

وقيل ان السلطان سليما الثانى قال لسفير البندقية بعد المعركة : « نحن عندما نفتح

---

(١) تأمل كيف اعتبروا هذه الأماكن من بلدان المسيحيين

لكم مملكة نكسر لكم عضواً لايمكنكم تعويضه وأما متى خسرنا اسطولا فلا يكون ذلك الا كالشعر الذى يذهب بالحلاقة ثم ينبت »

والحقيقة ان نجم آل عثمان بعد هذه المعركة بدأ بالأفول وان ركب الاسلام شرع بالقفول وان واقعة ليپانت كان لها مابعدها

ولا تسل عن الأفراح التى عمت أوربة بهذه النصرة وعن القصائد التى نظمها الشعراء والخطب التى شققها الفصحاء و بلغ الفرح من البابا مبلغاً لايحيط به الوصف الا أنه لم يستنم الى الدعة بعد هذا الظفر بل بقى يعلن على النصرانية ان عدوها لايبرح شديداً وانها لاتزال منه بخطر . ولم يكتف باثارة ملوك النصرانية على الترك بل حاول اثارة ملوك المسلمين الذين بينهم و بين الترك ضغائن . ونقل المسيو دجفارا صورة كتاب من البابا المذكور الى طامهاسب شاه العجم من جملة ماجاء فيه : « لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين اذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات »

وأرسل البابا بواسطة البرتغال يستعدى ملك الحبشة والشريف مطهّراً امام اليمن على الدولة العثمانية ولكنه لم يعش طويلا بعد هذه الفرحة لأنه مات فى ١ مايو سنة ١٥٧١ وانحلت بموته تلك الرابطة وتصالحت البندقية مع الباب العالى وغضب البابا غريغوريوس الثالث عشر على البنادقة وكان هذا البابا قد اجتهد أن يقفو أثر سلفه فى حرب الترك وجمع لذلك الاسبانيول والبنادقة الا ان اسطول الحلفاء تقهقر أمام الاسطول العثمانى والتجأ الى ناڤارين (١٥٧٢) وانعقد الصلح بين تركيا والبندقية فى ٧ مارس سنة ١٥٧٢ و بقيت فى أيدى الترك قبرص والمدن التى كانوا افتتحوها من ألبانيا وقدمت البندقية ثلاثمائة ألف دوكا للسلطان و ٥٠ ألف دوكا للصدر الأعظم وزادت ماكانت تؤديه من جزية جزيرة « زانتى » فى المورة

ثم جدّ مشروع ايطالى لمحاربة الترك هو الرابع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧١

قال المسيو دجفارا ان ظفر المسيحيين فى ليپانت أثار الحماسة فى رؤوس كثير من الاوربيين وشرعوا فى ترتيب برامج ورسم خطط لمحو الدولة العثمانية من جملتها برنامجان محفوظان فى خزانة كتب « امبروزياما » فى ميلانو أشار اليهما « جورغا » Jorga فى تاريخ السلطنة العثمانية وأحد هذين البرنامجين مقدم الى البابا بيوس الخامس وأكثر موضوعه

يدور على ايجاد المال اللازم لغزو الترك . وهو يحسب الاديار ١٤٤٠٠٠ والرعويات ٢٨٨٠٠٠ ويفرض عليها مبالغ معينة ويفرض مبالغ أخرى على الأمراء ويبين كيفية اجتباء المال مما لاحاجة بنا الى ذكره . وأما عدد الجيش اللازم فيقدره صاحب أحد البرنامجين بمائة ألف راجل وخمسين ألف فارس وخمسين ألف بحرى . وهو يدخل فى تفاصيل من جهة نفقات الحرب لاحاجة أيضاً الى ذكرها ويشير بسير الامبراطور الجرمانى من جهة البر وبسير اسطول الملك فيليب من جهة البحر وباثارة نصارى الشرق وبتوزيع الأسلحة عليهم وبمكاتبة شاه العجم لمهاجمة الترك من الوراء . وصاحب هذا المشروع يرجو هكذا تدمير السلطنة العثمانية ومن بعد تدميرها الاستيلاء على الأراضى المقدسة ويدخل فى مشروعه الحاق مصر وقسم من بلاد العرب بالحبشة . وأما شاه العجم فيعامل معاملة صاحب ولو كان مسلماً ويجوز أن تكون هذه المعاملة سبباً لاهتدائه الى الكثلكة . . .

وأما المشروع الثانى المحفوظ فى مكتبة ميلانو المذكورة فهو الخامس والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧٢

وصاحبه يذكر استعداد الأتراك للدفاع خوفا من عادية الأوربيين ويقول ان لديهم ٢٥ ألف فارس فى المورة ومثلها فى شمالى بلاد اليونان فهو يشير بمهاجمة الدردنيل والزحف من هناك الى القسطنطينية وهكذا يضطر الترك الى اخلاء المورة ويحتلها الاوربيون وأما بلاد الجزائر فيخشى ان هوجمت أن تقاوم مقاومة شديدة وتأتيها نجدات من سلطان فاس وأما قبرص فهى بعيدة عن أوربة وأما بلاد المورة والأرخبيل فأهلها لا يثورون الا بعد انهزام الترك فالرأى الأولى عنده هو الزحف على الاستانة رأساً . وصاحب هذا المشروع يشكو تخاذل المسيحيين ويقول أنهم لو اتحدوا لما أبقوا للاتراك باقية ولكن دوق موسكو وملك بولونيا لا يعتمد عليهما . والنمسا ضعيفة بنفسها ولولا نجدة الألمان لها لأضافها الترك الى ممالكهم . وفرنسة مشغولة بمنافساتها مع الامبراطورية الجرمانية . وانكلترة وا كوسيا والدانمرك والسويد بعيدات المزار وهن لا يلتفتن الى نداء البابا

قال صاحب هذا البرنامج : ان الذى يمكنه أن يصارع الأتراك هو ملك اسبانية ومعه ملك البرتغال . وأهم عدو للترك فى الشرق هو الشاه الصفوى لكن يحتاج الى المال والمدافع والكرج يمكنهم أن يدافعوا الترك لكنهم لا يقدرون أن يهاجوهم . ولو كان العرب متحدين

لأمكنهم أن ينتزعوا من أيدى الترك مصر والشام . وكذلك عرب ليبيا وافريقية ليسوا متحدين . وملك فاس لا يجرؤ على عمل حذراً من جيرانه . والنجاشى يمكن الاعتماد عليه لكنه لا يملك أسلحة نارية ولا أسطولا . قال : ولو كان عند دوق موسكو سفن بحرية لما كان أحد أقدر منه على مهاجمة الاستانة . والخلاصة أن صاحب هذا المشروع لا يعول فى حرب الترك الا على البابا واسبانية والبرتغال وهو يقترح جمع الأموال وجعلها تحت يد البابا ومن رأيه الخدمة العسكرية الاجبارية لمحاربة الترك وأن يتجند الرهبان والقسيسون لهذه الحرب المقدسة

ثم المشروع السادس والعشرون وهو مشروع الكابيتان « لانو » La Noue وتاريخه سنة ١٥٨٧

هذا الرجل كان من أعوان هنرى الرابع ملك فرنسة جرح فى إحدى الوقائع فى يده فقطعوها له ووضعوا له ذراعاً من حديد لأجل أن يتمكن من مسك اللجام فسمى من ذلك العهد « ذراع من حديد » وقد عاش فى عصر كثر فيه تأوه الأوربيين على شقاء نصارى المشرق من أروام وصرب و بلغار ومكدونيين فكتب « لانو » رسالة أشار فيها باتحاد مسيحى على الأتراك وتقسيم سلطنة آل عثمان ، وقال ان الضرر انما وقع من مخالفات بعض ملوك المسيحيين لملوك المسلمين أعداء اسم المسيح . وقال ان ملوك المسيحيين لو اتحدوا لطردوا الترك فى أربع سنوات ! قال دجقارا : ان « لانو » أفرط فى التفاؤل فقد لزم بدلاً من أربع سنوات أربعمائة سنة حتى أمكن التغلب على تركيا

وكان من رأى لانو أن يزحف الامبراطور الجرمانى ومعه خيالة المجر والبولونيين من طريق بوسنه الى تراقيا وان يجتمع الفرنسيس والسويسريون والطليان و يقطعوا الادرياتيك الى ألبانيا فتثور معهم بلاد الأروام وان تسير أساطيل اسبانية والبرتغال قاصدة غاليبولى وان يضم البابا مائة سفينة حربية الى اسطولها . وكان يشير باستنفار الفلاخيين والبغدانيين أيضاً على الترك الخ

وكان لبرنامج لانو وقع عظيم فى اوربة وقد استؤنف البحث فيه تحت أسماء اخرى

ثم مشروع « رينه دولوزينج » Rene De Lusinge وهو السابع والعشرون وتاريخه ١٥٨٨

هذا الرجل من اسرة نبيلة فى ساڤواى حصل العلم فى جامعة تورينو والتحق بدوق «ميآنزاً» الذى كان مع الامبراطور الجرمانى فى حرب الترك ثم جعله دوق ساڤواى سفيراً له فى باريز وله مؤلفات كثيرة باللاتينية والافرنسية منها كتاب اسمه « تاريخ منشأ الترك وتقدمهم وتقهقرهم » ودعا فرسان النصارى لقتال الأتراك بالفاظ مهيجة تناول فيها الاسلام وصوّر ما يجرى من فظائع القتل والنهب على اخوانهم نصارى الشرق

وقبح اعتذارات المسيحيين عن عدم اتحادهم وقال انهم وان لم يتحدوا بعضهم مع بعض فيجب عليهم الاتحاد على العدو العام وقال انه يجب أن يعقدوا هذا الحلف فيما بينهم فى زمان السلم

وكان يرى رأى « سانوتو » وهو أن الهجوم على تركيا يجب أن يكون من البحر . وقال ان السلطنة العثمانية متداعيــة الى الاضمحلال بعوامل داخلية . قال دجڤارا : ان لوزينج لم يخطئ فى هذا الرأى ولقد كان بعيد النظر فيه لانه تحقق بعد أعصر من ذلك العهد ثم مشروع البابا اكليمنضوس الثامن وهو الثامن والعشرون وتاريخه ١٥٩٤ — ١٦٠٠

وقد كان هذا البابا جادّاً مشيحا فلم يجلس على عرش البابوية فى ٥ يوليو سنة ١٥٩٢ حتى أرسل الى الامبراطور رودولف يستنفره لحرب غير المؤمنين . وامتاز هذا البابا على غيره بكونه أرسل الى الشرق عدداً كبيراً من القصّاد والدعاة لتحريك المسيحيين على الثورة ومقاتلة الترك ومنهم « كوميليو » Cumuleo الذى كانت مهمته أن يجمع على مشاغبة الترك العجم والقوزاق والترانسيلڤانيين والفلاخ والبغدان والبلغار . وأشخص الى مصر « كاميليو كاتانى » Camillo Caetani أسقف سرڤيا فارسل بطريرك الاسكندرية الى البابا بمقابلة ذلك معتمدين من قبله . ثم أرسل الى براغ (بلاد التشيك) « سبيزيانو » أسقف « كريمون » Crémone والكردينال مادروزو Madruzzo وأرسل الى بولونيا « مالاسبينو » أسقف « سان سيڤرو » Saint-Severo وأرسل الى جبل لبنان اليسوعيين « داندينى » Dandini و « برونو » Bruno وراسل الروس وهم أنفذوا اليه بعض مطارينهم . ولم ينس العجم بل أنفذ الى فارس الاب كوستا والاب « دياغوميراندا » وسعى كثيراً باقناع سجيسموند أمير ترانسيلڤانيا بترك الاتراك لأن هذا كان متمسكا بهم وكان يهون أمر الاتراك على ملوك المسيحيين ويبعث اليهم بما يترامى من أخبار دبيب

الفساد والانحلال فى تركيا وكان يوبخ البولونيين كثيراً على قعودهم عن حرب الترك وأرسل « كاميل بورغيز » Borghese الى اسبانية يستعدى هذه الدولة على الترك ثم شفعه بمندوب آخر هو « آلدوبراندينى » Aldobrandini الذى هو ابن أخت البابا وما زال يغرى هنرى الرابع ملك فرنسة بعداوة الترك حتى كتب هذا الى سفيره فى الاستانة « بريڤ » Brèves قائلا له : « ان الأب الاقدس يأبى الا ان أنضم الى ملك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين ونحارب الترك »

وكانت رسائله تترى الى جميع الجهات بالاستعداء على الترك وسنة ١٦٠٠ أرسل « ريموند دلاتورى » الى ڤينا يطلب من الامبراطور الدخول فى حلف مسيحى ضد الترك . وكان يقول ان الواجب جمع كلمة المسيحيين وتفريق كلمة المسلمين (١) وكان يشير بأن يكون الحلف المسيحى عاماً و بأن لا يستثنى منه أحد ولا البروتستانت وأن يكون لأجل مسمى خمس سنوات بالأقل وان تراسل هذه العصبة الكرج والعجم والحبشة والأروام والارناووط والراغوزيين والبولونيين والفلاخ والبغدان وغيرهم . وأرسل الى الامبراطور مع الارشيدوق « ماتياس » برنامجا ثمانية بنود منها بنود تتعلق بكيفية الزحف على تركيا وكان يهم البابا اكليمنضوس أمر الزحف على تركيا الى الحد الأقصى بحيث انه فى مجمع سنة ١٦٠٠ تذكر انشقاق ملوك ايطالية وما يخشى من عدم انتظام كلمتهم على حرب الترك فأجهش بالبكاء . وسنة ١٦٠١ انكسر المجر ومن ذهب لنجدتهم ومن جملتهم دوق « مركور » De Mercoeur والجنرال « آلدوبراندينى » ابن أخت البابا وقتل هذان فازداد حزن البابا وشرع يلح على هنرى الرابع فى محاربة الأتراك وأرسل يسمعه انه يمكن اخراج الامبراطورية من آل « اوتريش » أى عائلة النمسا المالكة وانتخاب هنرى الرابع امبراطوراً وكل هذا ليحفزه على حرب حلفائه الترك ثم أراد أن يوفق بين هنرى الرابع ملك فرنسة وفيليب الثالث ملك اسبانية على شرط أن يتحدا فى محاربة الترك فبينا هو يسعى فى هذا الغرض اذ اطلع ملك فرنسة على دسيسة بحقه كان يدسها ملك اسبانية فخبط بها الاتفاق

ولم يقتصر البابا اكليمنضوس فى مناصبة الترك العداء على العوامل الخارجية بل

(١) على نسق سياسة الاستعمار اليوم

مديده الى داخل سلطنة آل عثمان وذلك كما يأتى :

كان فى السلطنة العثمانية رجل من أعظم أركانها يقال له سنان باشا اشتهر اسمه شرقا وغرباً وكان هذا الوزير العظيم طليانياً مسيحيًّا اسمه « سيبيون سيكالا » Scipion Sicala وقع فى أسر الأتراك فأسلم وحسن اسلامه لأنه كان مسلماً عن عقيدة لا عن غرض دنيوى وأسعفته فيما بعد ذلك الاقدار الى ن صار من أعاظم رجال السلطنة العثمانية وأصبح هنرى الرابع ملك فرنسة يراجعه فى المهمات التى له فى الشرق . فالبابا اكليمنضوس الثامن فكر فى اعادة سنان باشا الى المسيحية وأرسل اليه الراهبين اليسوعيين « انطونيو وڤنسنزو سيكالا » اللذين كانا من أسرته . وقد نشر « رينيرى » Rinieri عن هذه القصة وثائق كانت مجهولة وعلم منها ان لوكريس » Lucrèce والدة سنان باشا كانت شاهدت ابنها فى مسينى وراودته على أن يعود الى النصرانية . وذلك سنة ١٥٩٨ ولما لم تظفر ببغيتها راجعت البابا فى الأمر فاجابها بكتاب هنأها فيه على مساعيها وقال لها انه يرجو رجوع سنان لا الى أمه الدموية فقط بل الى أمه الروحية الكنيسة الكاثوليكية . ثم أرسل البابا الاب انطونيو سيكالا الى ارشيدوق النمسا وملك اسبانية يشاورهما فى مشروع اعادة سنان باشا الى النصرانية

وكان لسنان باشا أخ بقى مسيحياً اسمه « كارلوسيكالا » تولى بواسطة وجاهة سنان فى الدولة امارة جزيرة ناكسوس من جزر الأرخبيل الاغريقى وكان يطمح الى أن يتولى فى يوم من الأيام امارة الفلاخ والبغدان . فكتب البابا الى كارلو سيكالا فى ٨ مايو سنة ١٦٠٠ بمكانه من امارة تلك الجزيرة يرجو منه العمل لاعادة سنان الى المسيحية . وفى اثناء ذلك صدرت الارادة السلطانية الى كارلو سيكالا بامارة جزيرة ناكسوس وبجلب أمّه لتكون بجانبه فلحظ الناس من ذلك أن سنان باشا هو الذى استخرج هذه الارادة أملا بان تجىء امه وتهتدى الى الاسلام وكان قد كتب الى أخيه يستنجزه وعده بجلب امّه . ثم اجتمع سنان باشا وأخوه فى جزيرة ناكسوس وقدم اليهما ابن عمهما «ڤنسنزو سيكالا» اليسوعى واطلع سنان على اقتراحات البابا وفيليب الثالث ملك اسبانية . وبعد ذلك بسنة أنفذ البابا الأب انطونيو سيكالا الى مجريط يلتمس من ملك اسبانية المعاضدة على اسقاط السلطنة العثمانية التى سيقوم سنان باشا ثائراً عليها بعد رجوعه الى النصرانية . وكان برنامج

البابا أن تتولى أسرة مسيحية عرش الاستانة وأن تحمل شعوب تركيا على المسيحية [1] ووعد البابا سنان باشا بأنه إن ثار على تركيا يكون من ورائه ملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين وان جميع ماينتزعه سنان من أيدى الترك من الولايات يصير اقطاعاً له داخلا فى ذلك القسطنطينية وغير مستثنى سوى الأرض المقدسة ودوقية أثينا اللتين ستكونان لملك اسبانية و بلاد المجر وترانسيلفانيا التى ستؤول للامبراطور . وكتب البابا اكليمنضوس الى سنان باشا فى ٥ ابريل سنة ١٦٠٣ كتابين فى أحدهما يعده بأنه يكون ملكاً على البلاد التركية التى يفتحها على شرط أن يحول أهلها الى العقيدة الكاثوليكية ويؤكد له بأنه فى هذا الوعد على وفاق مع الامبراطور رودلف ومع ملك اسبانية اللذين سينجدانه بجيوشهما وهو يدعوه أن يجحد الدين الاسلامى أمام شهود وهكذا يغسله من آثامه السالفة . وأما الكتاب الثانى ففيه تذكير سنان بوعده بالرجوع الى حضن الكنيسة ووعدله بأنه ان ثار على السلطان يكون الامبراطور وملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين ظهراء له ويختم البابا كتابه بوضع سنان باشا وعائلته تحت حماية الرسولين بطرس و بولس [2]

والحق انه لو تم هذا المشروع لكان ضربة شديدة على تركيا لكنه لم يتم . وسنة ١٦٠٣ حدث شغب فى الاستانة ومات محمد الثالث . ثم فى السنة نفسها فتح الشاه عباس كرجستان فزحف سنان باشا فى ١٥ يونيو سنة ١٦٠٤ على رأس جحفل جرار الى أرمينية فهزمه العجم هزيمة شنيعة فى ٦ أغسطس سنة ١٦٠٥ فانحاش سنان الى ديار بكر حيث كان ابنه محمود والياً ومات فيها غماً فى تلك السنة . وكان له عدة أولاد منهم واحد روى « هامر » انه كان قد تزوج بأخت السلطان محمد الثالث

وأما البابا اكليمنضوس الثامن فمات قبل سنان باشا بتسعة أشهر خائب الأمل فيما حلم به

ثم مشروع الأب كوموليو Cumuleo وهو التاسع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٩٤ وكان هذا القسيس مكدونى الأصل عينه البابا غريغوريوس الثالث عشر زائراً رسولياً للكنائس اللاتينية فى تركيا الأوربية وكان بحسب قولهم محمود السجايا ثاقب الفكر نزيه

---

(١) يريد حملهم على ذلك بالقوة كما حصل بمسلمى الأندلس

(٢) كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا صفحة ١٣٧

النفس عالى الهمة لايعرف التعب ولا الملل إلا أنه قضى حياته يتعقب فكرة الانتقاض على الترك ودحرهم الى آسية

ومشروع « كومولیو » مشتق من مشروع البابا اكليمنضوس الثامن إلا أن فيه معلومات خاصة تستحق الذكر

فهذا القسيس أرسله البابا الى موسكو فمر بالبانيا وترانسيلڤانيا فى طريقه ثم عاج ببلاد الفلاخ والبغدان وكان بيده مراسيم من البابا الى ملوك النصارى فيها بيان خطر الترك وتوصية لهم برفض كل معاونة للترك وان لم يمكن الرفض البات فتأجيلها أو وضعها فى شكل سطحى فقط . وكان كومولیو مأموراً أن يعرف هل فى وسع الفلاخ والبغدان والقوزاق أن يثوروا على الترك أولا ؟ وان طلب القوزاق مالا للثورة فكان كومولیو مأموراً بأن يعدهم باثنى عشر الف فلورين لكن على شرط أن لا تؤدى اليهم إلا إذا دخلوا بلاد العدو[1] وكان « كوميليو » مأموراً بأن يسعى ويبقى دائماً على حذر من المسيحيين الأرثوذكسيين وبعد أن طاف فى هذه البلدان أرسل الى البابا بتقرير يقول فيه إن البانيا فيها ٤٠ الف مقاتل وانه يمكن أن يخرج من مكدونية وابيروس مائة الف مقاتل ومن الهرسك وكرواسيا ١٠٠ الف مقاتل ومن بوسنه وضفاف الطونه الى بلغراد ٢٠٠ ألف مقاتل ومن بلغراد الى البحر مائة ألف مقاتل الخ وبالجملة يمكن أن يثور على الترك أربعمائة ألف شاكى السلاح . وكان كوميليو يرى الواسطة لاثارة هذه الأمم هو أن تبدأ الروسية بالزحف لقتال تركيا فاذا زحف مائة ألف مقاتل من الروسية انضمت اليه هذه المقاتلة من أمم البلقان وبلغ عدد الجميع نصف مليون مقاتل . وأما القسطنطينية فان فتحها مستطاع بخمسين سفينة حربية . قال دجوڤارا : يظهر من هنا أن الأب كوميليو كان عظيم الايمان سريع الثقة ويظهر من مطالعة تقارير كوميليو الى الفاتيكان ان أمير البغدان رضى بالدخول فى الحلف المسيحى ضد تركيا وأما أمير الفلاخ فامتنع . وكان هذا الأمير هو الأمير الكبير ميشل الملقب بالشجاع وقد صار فيما بعد أميراً على الفلاخ والبغدان وترانسيلڤانيا معا . واجتهد كوميليو كل الاجتهاد فى منع الصلح بين النمسا وتركيا . ولكنه أخفق فى موسكو وفى بولونيا وعند القوزاق . وآب الى رومة سنة ١٥٩٨ ومات فى أوائل القرن السابع عشر

(١) ماأطبق هذه الدسائس على وصايا الانجيل الذى يبشر به هذا القسيس!

ثم المشروع الثلاثون لتقسيم تركيا المنسوب الى «لوتسيو» Lutcio وتاريخه سنة ١٦٠٠

ويوجد نسخة خطية من كتاب لوتسيو فى مكتبة نابولى وهو مقسوم الى قسمين الأول يبحث فيه بحثاً فلسفياً عن عظمة الممالك وسقوطها ويذكر الاشوريين والماديين والفرس والمكدونيين واليونانيين والرومانيين وغيرهم ويقول ان المسلمين سيصيبهم ما أصاب غيرهم وان سفينة الاسلام العظيمة المشحونة بالذخائر والنفائس لا بد أن تغرق مثل غيرها . وكما ذهبت دولة الرومان ستذهب دولة الاسلام . والثانى يبحث فيه عن آل عثمان ويذكر تاريخ سلطان سلطان منهم ويقول ان السلطان مراد دخل الى بلاد اليونان من آسية ومعه ٦٠ الف مقاتل وان جيش بايزيد كان ٣٠٠ الف وان جيش مراد الثانى كان ١٠٠ الف وجيش محمد الفاتح ٣٠٠ الف وان سليمان حاصر ڤينا بخمسمائة الف . ومن بعد فشله امام ڤينا لم تزل قوة آل عثمان فى هبوط . قال وقد كان قيام السلطنة الرومانية بالفضيلة وبحسن الطالع الذى كان يرافق الفضيلة فاما السلطنة العثمانيـة فليس لها أساس الا حسن الطالع لا غير . ولولا الاختلاف بين الروم واللاتين ما أمكن الترك أن يدخلوا أوربة . ثم أخذ لوتسيو يشرح حالة الدولة العثمانية وما طرأ عليها من الفساد وقال ان السلطان لا يراه أحد وهو عاكف على لذاته وان الوزراء لا شغل لهم الا نهب الرعية وان الديوان ليس بمجلس جد بل كل من فيه لا يعرفون الا التملق للسلطان وكم من وزير قتله السلطان لانه تجرأ على ابداء رأى مخالف لرأيه . وهكذا ساد فى الدولة الكذب والنفاق واستفاض النكث بالعهود. قال «دجوڤارا» وكان «لوتسيو» يورد هذه الانتقادات بحق الدولة العثمانية ثم ينسى غرضه فيعود فيورد أمثلتها عند سائر الدول . وذكر ان مناصب الدولة صارت تطرح بالمزاد وان الجنود كثيراً ما تبقى بدون ارزاق بينما السلطان ووزراؤه وقرناؤه منغمسون فى الترف . وبعد أن وصف كثيراً من مساوئ أحوال تركيا انتهى الى القول بانه محكوم عليها بالانقراض

ولكنه من جهة ثانية كان يئن من اختلاف المسيحيين بعضهم مع بعض ويقول ان سبب بقاء تركيا الى ذلك الوقت هو تنازعهم . وكان يدعوهم الى الاتحاد ويبين لهم سهولة التغلب على تركيا ويقيم الأدلة على أن محاربة تركيا حق وعدل ويقول « أى شئ أفظع من وجود قبر المسيح فى أيدى غير المؤمنين »

وقد أطرى لوتسيو البابوات الذين دعوا الى الحرب الصليبية وعدّ منهم لاون التاسع وأوربانوس الثانى وغريغوريوس الثامن ونيقولا الثانى وجيلاسيوس الثانى واسكندر الثانى وكاليكستوس الثانى وهوموسيوس الثالث ونيقولا الرابع واكليمنضوس الثالث وسلستينوس الثالث واينوشنسيوس الثالث ونيقولا الخامس و بيوس الثانى وسيكستوس الرابع ولاون العاشر و بيوس الخامس

وكان رأى لوتسيو على المسيحيين هو المهاجمة لا المدافعة وقال انهم اذا كانوا بعيدين عن أوطانهم ازدادت حماستهم . ثم أشار لوتسيو بأن يتولى رودولف الامبراطور الجرمانى قيادة الحملة التى يجب أن تزحف الى تركيا وقال ان هذا الامبراطور يستطيع أن يجند ٢٠٠ ألف ماش و ٥٠ ألف فارس وانه يجب أن يدخل فى هذه الحرب ملك فرنسة وملك بولونيا والروس . وقال ان الروس يقدرون أن يسوقوا الى ميدان الحرب ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف فارس و ٦٠ ألف راجل وان بولونيا تقدر أن تسوق ١٠٠ ألف فارس وليتوانيا ٧٠ ألفاً

قال وأما ملك اسبانية فيمكنه أن يصلى الحرب فى افريقية ويطرد الترك منها وانه يجب على البابا أن يجهز الأساطيل لمحاربة الترك فى البحر . وقد أثبت الله فى أيام البابا بيوس الخامس ان التغلب على الترك انما يكون فى البحر(١)

وقال انه يجب على جمهورية البندقية أن تدخل فى هذه الصليبية ان لم يكن تحمسا فى الدين فاخذاً بالثأر عن « كورفو » و « كتارو » و « سرنجو » و « زارد » (٢) وغيرها مما انتزعه الترك من يدها ومما كان يهون به صاحب هذا المشروع من أمر الترك قوله انه ليس عندهم قواد مهرة وان الانكشارية والسباهية أصبحوا لا ينقادون لقوادهم وأن لا أمل لتركيا بنجدة أحد من جيرانها . وأما غنائم الحرب فقد ترك لوتسيو تقسيمها للامبراطور وجعل لملك اسبانية حقاً فى الاستيلاء على افريقية . قال دجوفارا : ان هذه الأفكار التى خطرت لصاحب هذا المشروع كانت منتشرة جداً فى أوربة فى النصف الأول من القرن السابع عشر

ثم مشروع « شاڤينى » chavignty وهو الواحد والثلاثون وتاريخه سنة ١٦٠٦

(١) يشير الى وقعة ليبانت

(٢) بلدة على بحر الادرياتيك يسميها المسعودى زهره

وكان هـذا الرجل منجما ولد فى « بون » Beaune (فرنسة) وقدكتب كتابا يدعو فيـه النصرانية كلها الى الاتحاد على الأتراك ويعدّ الممالك التى ينبغى أن تدخل فى هذه العصبة وكان يتألم أشد الألم لرؤية برابرة كالأتراك مسيطرين على المسيحيين ويقول ان السبب فى ذلك كله انما هو الاختلاف الذى بين ملوك النصرانيـة والذى جعل الجيش التركى يمشى الى الأمام فى أوربة كما فى آسية وافريقية

ومما جاء فى هذا الكتاب فى مقام التقريع للمسيحيين ان جنودهم لا تعرف الا اتباع الشهوات البدنية وان معسكراتهم فيها من النساء أكثر مما فيها من المقاتلة

وجاء فيه أيضاً أنه يجب طرد التركى الى أقاصى آسية الصغرى ويجب حمل الأتراك على الديانة الكاثوليكية

أما تقسيم بلدان الاسلام فهو كما يلى :

الجلالة الامبراطورية يكون لها امبراطوريتا الغرب والشرق وتدخل فى ممالكها بلاد المجر وتراقيا . ويكون لملك فرنسة بلاد الأناضول والشام . ويكون للانكليز مصر . ويكون للاسبانيول افريقيـة . ويكون للطليان جميع مراسى البحر المتوسط وجزائره . ويكون للبولونيين والدانمركيين والنورفيجين والاسوجيين الأقاليم الشمالية وأراضيها الخصيبة

وكأن « شافينى » هذا نظر الى الآتى من قبل ما وقع بثلاثة قرون فان كثيراً من هذا التقسيم الذى تخيّله قد تحقق بسياسة الاستعمار الاوربى الحالى

وأما ما جاء فى كلامه من التحريض على قتال المسلمين فحدث عنـه ولا حرج وقد نقل كلام « جاك سادوليه » Sadolet مطران « كار بنتراس » carpentras فى استجاشة المسيحيين لقتال الترك . ونقل كلام « لويس ڤيڤ » Vives الأسبانيولى عن « آلام المسيحيين المعذبين تحت أظافر التركى » وذكر استصراخ البابا اوربانوس الثانى لاغاثتهم وذهاب كل هذا الصراخ سدى قال : فالتركى لا يزال قوياً وأحد صدور الدولة العثمانية قال انه لا يخشى المسيحيين ما داموا منقسمين وهم لم يبرحوا منقسمين

قال : وينبغى أن يتولى البابا والامبراطور وملك اسبانية كبر هـذه الصليبية وان يدعى ملك فرنسة لنقض عهوده مع الأتراك ... وقال ان الجيش البرّى يجب أن لا يقل عن ١٢٠ الفاً يتكون من الالمان والهولانديين والانكليز والفرنسيس والبولونيين

والبوهيميين والمجر الخ و ينقسم الى قسمين أحدهما يسير تحت لواء الامبراطور والآخر تحت لواء الملك المسيحى كثيراً (أى ملك فرنسة) وأما الجيش البحرى فينبغى أن يجهزه ملك اسبانية الذى هو أقوى ملوك النصرانيـة وان يعضده البابا والبنادقة وسائر ملوك ايطاليـة ولا يجوز أن يقل عدده عن ٣٠ الفاً . وتجب متابعة القتال مدة أربع سنوات

ولما كان « شاڤيني » منجماً كانت أفكاره دائماً مشغولة بالكسوف والخسوف والنجوم ذوات الذنب وقال ان انكساف الشمس لا بد من أن تعقبه حرب كبرى

ثم المشروع الثانى والثلاثون من تقسيم تركيا وهو مشروع « سولى » duc de Sully وتاريخه ١٦٠٧

وقد كانت ولادة هـذا الرجل سنة ١٥٥٩ ووفاته سنة ١٦٤١ واشتهر الى الدرجة القصوى بمعارفه الاقتصادية ولهذا تولى أمور فرنسة المالية . ومشروعه منسوب الى هنرى الرابع ملك فرنسة الا ان تحريره كان من قريحة سولى نفسه . وقد اختلف الناس فى هـذه القضية فذهب « درابيرون » Drapoyron الى أن هنرى الرابع هو الذى فكر فعلاً بافتتاح السلطنة العثمانيـة وتقسيمها وتنظيمها وان هـذا الرأى كان هو الرأى السائد فى وقته

وأما ڤولتير فقال ان تقسيم أوربة الى خمس عشرة مملكة خيال باطل لم يفكر به هنرى الرابع

وأما غيزو Guizot فذهب الى أن الناس نسبوا الى هنرى الرابع احلاماً يبعد عن العقل أن يكون تخيلها . وأما « آلبر سورل » Albert Sorel فيقول ان المشروع هو قدح فكرة « سولى » وكذلك المسيو « هاوزر » Hauser فى الانسيكلوبيديا الكبرى والمسيو هانوتو فى مباحثه التاريخية عن القرن السادس عشر والسابع عشر فى فرنسة يقولان ان سولى هو أبو عذرة هذا المشروع وانه لا يتعداه

وذهب المسيو «بوارسون» Poirson صاحب تاريخ هنرى الرابع أن هـذا الملك كان فكر فى تأليف مجلس عام يفصل خصومات الممالك المسيحية بدلا من فصلها بالسلاح . وهـذه الفكرة الأولى هى لهنرى فجاء سولى وفرّع عنها ما أوصلته اليـه مخيلته من الترتيبات والتشكيلات

وقد جاء فى كتاب سولى الذى نحن بصدده الموسوم « بتدابير هنرى الكبير السلطانية الحكيمة » ان غرض هذا الملك المحارب السياسى الكبير كان تأسيس شئ أشبه بجمهورية تكون دائماً سامية مع المسيحيين وحربيـة بازاء غير المؤمنين Infideles وكانت الجمهورية الحلفية الاوربية بحسب تخيل سولى عبارة عن خمس عشرة حكومة ١ السلطنة الجرمانية ٢ مملكة البابا ٣ فرنسة ٤ اسبانية ٥ انكلترة ٦ المجر ٧ بوهيميا ٨ بولونيا ٩ الدانمرك ١٠ اسوج ١١ لومبارديا ١٢ البندقية ١٣ الجمهورية الايطالية ١٤ هولاندة ١٥ سويسرة

فأنت ترى أنه ليس للروسية ذكر فى هذه المجموعة وذلك لأنهم كانوا يعدونها يومئذٍ مملكة آسيوية

وقد جعل الفلاخ والبغدان تابعتين للمجر ولم يشر الى تقسيم الولايات التركية الأخرى

وبالجملة فالترك نظير الروس لم يدخلهم سولى فى الجمهورية الأوربية المسيحية

الا أنه من مبادئ هذه الجمهورية المخيَّلة أن تؤذن تركيا بحرب دائمة أو تخرج هذه من أوربة . وقد اقترح فى هذا المشروع الزام كل دولة من الدول المذكورة تقديم جيش متناسب مع قوتها وثروتها لأجل اصلاء غـير المؤمنين (أى المسلمين) حربا دائمة وفى هـذه الحرب تكون أرواح الأهالى الأتراك وأموالهم مصونة الا أنهم يعطون مهلة معينة فى خلالها ينتقلون بأشيائهم الى البلاد التى يختارون الجلاء اليها أو يدينون بديانة المملكة التى يكونون بقوا فيها (أى بالنصرانية)

تجد هـذا الشرط فى تاريخ « بوارسون » Poirson كما روى ذلك دجوڤارا وأما الروسية فيجب أن تنتظر الوقت الذى تليق فيه للدخول فى هذا المجتمع الأوربى

ويكون جيش هذه الجمهورية بالغاً ٨٠٠ ر ٢٧٣ جندى و ١١٧ سفينة حربية

وعلى كل من هـذه الممالك الخمس عشرة المتحدة تأليف جيش متناسب مع قوتها لقتال غير المؤمنين Infidèles (أى المسلمين)

ولما كانت الممالك المجاورة لتركيا أشد تعرضا للخطر فيشير سولى بتقوية بلاد المجر وتحصينها وتحصين ڤينا وكرواسيا وسائر بلاد النمسا . ولما كان سولى يخشى أن ينفض بعض المسيحيين من هـذه العصبة أو ان لا يقوموا بما يجب عليهم أشار بوضع شروط عسكرية ورسم خطط لا يتيسر بها قتال غير المؤمنين فحسب بل قتـال المسيحيين الذين

يخالفون شروط العصبة وذلك بتأليف جيش عرمرم مختلط خاص بالجمهورية المسيحية يتولى قيادته ملك فرنسة . وبهذا الاقتراح ظهر انه كان المقصد منه تحت ستار السلام العام اعطاء السيطرة للدولة الافرنسية

وأما هانوتو فيزعم انه كان المراد من ذلك ايجاد الوحدة الدينيـة واخراج الترك والروس من أوربة.

وقد ذهب « سولى » الى انكلترة وقابل الملكة اليصابت ونال منها الموافقة على هذا المشروع وذلك سنة ١٦٠١ وكذلك تم الاتفاق عليه مع البابا وانعقدت به معاهدة وكان أربعة من الأمراء المنتخبين [١] فى ألمانيا أمير « البالاتينا » و « براندبورغ » و « كولن » و « ميانس » وكذلك دوق ساقواى وجمهورية البندقية قد اطلعوا على هذا البرنامج ووافقوا عليه . وممن وافق عليه أيضاً ملك بولونيا وأمراء بوهميا وترانسيلفانيا والمجر ولم يبق معارضاً الا النمسا . وكان هنرى الرابع لأجل أن يقطع حجة المعارضين قد أعلن انه ان دخلت الدول المسيحية فى هذه العصبة فانه يكتفى بحدود فرنسة الحاضرة ولا يتطلب الزيادة عليها بل يتعهد بأن لا يأخذ شيئاً من الفتوحات التى سيفتحها المسيحيون فى البلاد العثمانية

قال دجوقارا : «وقد كان هنرى الرابع هو أول ملك فكر فى اقامة تحكيم دولى بين الدول المسيحية وبقيت هذه الفكرة ثلاثة قرون بعد هنرى الرابع حتى تحققت بتأسيس محكمة لاهارى . »

قلنا وقد تبع محكمة لاهارى تأليف عصبة الأمم التى هى أكبر وأشمل محكمة دولية عرفها التاريخ وقد كانت بنت فكر ويلسون رئيس جمهورية أمريكا ولولا اطماع الدول التى خرجت غالبة من الحرب العامة لكانت أتت بفوائد لا تحصى للمجتمع البشرى

ولقد انتهى مشروع سولى هذا المنسوب الى هنرى الرابع بالحبوط لأن هذا الملك تحقق فيما بعد استحالة تطبيقه بالفعل

ثم المشروع الثالث والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع طليانى وتاريخه سنة ١٦٠٩

---

(١) بكسر الخاء وهم أمراء المانيا الذين ينتخبون الامبراطور

وأصله ان فرديناند دوق توسكانا ساق اسطولا وأنزل جنوداً فى جزيرة قبرص وكان مراده فى ظاهر الحال الغارة على فلسطين للاستيلاء على الأراضى المقدسة ولكن الحقيقة انه كان ينوى احتكار تجارة سورية ومصر . ومن قبرص أخذ دوق توسكانا يراسل الامير فخر الدين المعنى أمير لبنان وعلى باشا جنبلاط والى حلب

نقل دجوفارا عن « غالوزى » Galuzzi صاحب تاريخ دوقية توسكانا ان الدوق فرديناند اتفق فى هذا التدبير مع البابا وأرسلا الوزير « ليونسينى » ومعتمداً آخر اسمه « ميشال انجلو كوراى » الى والى حلب ليطلعا لهم على الأحوال هناك ويلقيا الفتنة بين المسلمين تعجيلا لبوارهم وفى ٢٩ سبتمبر سنة ١٦٠٧ عقدا مع جانبلاط معاهدة ذات ثلاثين بنداً منها بند يتعهد به جانبلاط بتمكين الافرنج من الميناء الذى يختارونه لتنزيل جنودهم وكان أروام قبرص وعدوا أيضاً بالثورة على الترك وبينما الامور جارية على وفق المراد اذ مات الدوق فى ٧ فبراير سنة ١٦٠٩ ومات به المشروع وأما برنامج هذه الغزاة فقد حرَّره رجل طليانى فى القاهرة فى السنة نفسها وقد كشف هذا البرنامج المسيو « جورغا » Jorga أحد أساتيذ جامعة بخارست . وقد بدأ محرر هذا المشروع نظير غيره ممن عالجوا الموضوع نفسه بالتحسر على عدم اتفاق المسيحيين وبالحث على انتهاز هذه الفرصة الموافقة وقال انه بعد موت الدوق التوسكانى لا يوجد غير ملك فرنسة للقيام بحملة كهذه وان أهم شئ انما هو ضرب الترك فى مركز معيشتهم فيجب لذلك الاستيلاء على الاسكندرية فاذا أُخذت من يدهم هذه المدينة سقطوا . ومن هنا يعلم ان المشروع مبنى على أساس تجارى مثل مشروع « سانودو »

وأما كيفية أخذ الاسكندرية فستكون بزعمه بسيطة : يدخل المقاتلون بازياء تجار حتى اذا صاروا داخل البلدة استولوا على الأبراج الأربعة التى تحمى الاسكندرية وذلك لكون الحامية التى فيها ضعيفة جداً . و بعد الاستيلاء على الاسكندرية يزحف المسيحيون الى رشيد ويسيرون الى قبرص حيث الاروام مستعدون أن يثوروا على الأتراك . وكذلك يجب الاستيلاء على برقة . وفى هذه الحرب يمكن الاعتماد على الأمير فخر الدين صاحب صيدا وعلى الموارنة وعلى أهل جبل لبنان وهكذا ينتهى الأمر بفتح بيت المقدس ثم تسترجع

الدول المسيحية ما أخذه منها الترك وتسترد البندقية المورة والبانيا واليونان الخ

ثم المشروع الرابع والثلاثون وهو مشروع « اسبرينشارد » Esprinchard وتاريخه ١٦٠٩

وهو تقرير متقدم الى ولى عهد فرنسة ومآله كمآل غيره من طلب اتحاد ملوك المسيحيين وان أحسن طريقة لحطم قوة الترك هى الحمل عليهم من البحر وان يزحف اليهم مع ذلك جيش برّى وان تثار الأهالى الذين فى داخل السلطنة العثمانية وتوقد حرب أهلية بينهم وان يعقد اتفاق مع العجم والتتر والمسكوب وينهدوا اليهم جميعاً

وليس فى مشروع اسبرينشاد برنامج مفصل بل هو أشبه بامانىّ منه ببرنامج

ثم المشروع الخامس والثلاثون وهو مشروع « مينوتو » Minotto وتاريخه سنة ١٦٠٩

وهو كمشروع سولى وكمشروع « بريڤ » Brèves من آثار أفكار هنرى الرابع الذى طالما فكر فى اصلاء الترك حرباً صليبية .

وقد عثر عليه « زنكيسن » Zinkeisen فى أوراق نظارة الخارجية الافرنسية ونشره كله فى الصفحة ٨٥٩ من الجزء الثالث من تاريخه للسلطنة العثمانية وكان أصل نصه باللغة الطليانية

وكان مينوتو هذا روميا من جزيرة كريد . وقد استهلّ كتابه بنداء استغاثة من نصارى الشرق الى نصارى الغرب لينقذوهم وأكدّ أن جميع الأروام حاضرون لمبايعة ملك فرنسة ملكا عليهم وانه يجب أن يعرف هل ملك فرنسة يود فتح السلطنة الشرقية كلها أو يكتفى ببعض مقاطعات منها . فان كان الشق الأول فيجب اعداد ٨٠ بارجة حربية فيها ١٥ ألف مقاتل وثلاثة آلاف فارس وسلاح كاف لخمسة وعشرين ألف مقاتل يمكن تجنيدهم من نفس البلاد

ويبدأ انزال الجنود فى المورة ثم فى جزيرة اغريبوز فتثور الأهالى فيهما ثم تساق حملة على الاستانة ويثور من فيها من النصارى ويفر السلطان الى اسكدار وتبقى استانبول فى يد الافرنج . وأما رودس فيمكن أخذها بثمانية آلاف ذهب

وان كان الشق الثانى فيكفى ٢٥ بارجة حربية و ١٠ سفن صغار وتختار المقاطعة

التى يراد فتحها . فالمورة فيهامعادن ذهب وسلانيك وقبرص وشيو ومدللى واغريبوز كلها توافق لانزال الجنود والأهالى فيها حاضرة للثورة ولميرة الجملة . وهو يطلب شحن ست سفن بالحدائد والجير لأجل تحصين القلاع التى يكون تم فتحها ومينوتو يؤكد نجاح المشروع ويقسم على ذلك ويفدى حياته وحياة أولاده إن لم يتم

قال« زينكيسن » إن هنرى الرابع لم يكن ممن يتهافت على أىّ اقتراح ليتهافت على قبول برنامج مينوتو ولكن مما لامشاحة فيه انه فى أواخر عهده نقم على الأتراك فى نفسه

ثم المشروع السادس والثلاثون وهو اقتراح « برتوشى » Bertucci وتاريخه ١٦١١

وهو تقرير محرر بالطليانى محفوظ فى « اينسبروك » Insbruck ومحرره « فرانسكو انطونيو برتوشى » قدمه فى ٦ ابريل سنة ١٦١١ الى ملك نابولى و بعث بنسخة منه الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوى . وهو يشير بالاستيلاء على قلعتى اشقودره وكروايا من البانيا لأنهما مفتاح مكدونية . ويقول انه بعد ذلك يمكن الاستيلاء على قلعة كليسا وقلعة كانيسا واثارة ٣٠ ألف ارنأوطى و ٣٠ ألفاً من أهل بوسنة واستجاشة المجر وعند ما تقوم هذه الثورات كلها يتحد أمراء ايطالية والبنادقة ويزحفون على دراج ودلسينو وانتيفارى وغيرها . ثم يزحف البولونيون والقوزاق من جهة ثانية على الأتراك فيضطر هؤلاء الى جمع قوتهم البحرية الى عاصمتهم ويخلو الجو للقوة المسيحية . ويقول برتوشى ان ملك فرنسة كان بالاتفاق مع دوق سافواى قد أرسل معتمدين من قبله يرودون البانيا ويروى ان قائد الجيش البولونى تعهد بتقديم أربعة آلاف فارس لهذا المشروع وهو يوصى كثيراً بكتمان السرخشية ان يصل الى من لا يروقهم اتمام هذا الخير العميم

ثم المشروع السابع والثلاثون وهو المنسوب الى الدوق « شارل دونڤير » Charles de Nevers وتاريخه سنة ١٦١٣ — ١٦١٨

وهذا الدوق هو ابن «لويس دوغونزاغ » من الاميرة « هنرية دوكليڤس » دوقة نڤير . وكانت جدّته من آل باليولوغ ملوك بيزنطية فهو ضارب بعرق ثابت الى مملكة القسطنطينية . وكان من جهة الأب أميراً طليانياً ومن جهة الأم ألمانياً ومن جهة الجدة يونانياً بيزنطياً ومن جهة المنصب افرنسياً وهكذا اجتمعت فيه عدة خصال تؤهله أن يتولى كبر هذه الجملة على مملكة آل عثمان . وكان ورد عليه دعوة لهذا الأمر من أهل الموره

ووعدوه بخمسة عشر ألف مقاتل وأرسل اليهم ثلاثة معتمدين عقدوا معهم اتفاقا . وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٦١٤ أرسل وفداً آخر جمع اناساً من زعماء الصرب والارناؤوط والبوسنيين والهرسكيين والبلغار والدالماتيين وتحالفوا على محاربة الترك وكانوا يرجون عضد أمير الفلاخ والبغدان وكان البابا وملك اسبانية عاضدين هذا المشروع . وكان الدوق دونيڤير اتفق فى هذا الأمر مع الكردينال ريشليو وزير فرنسة الشهير . ونقل « نانى » فى تاريخ جهورية البندقية ان الدوق نيڤير كان ذهب الى رومة واستمد البابا بولس وهذا قد استنفر جهورية البندقية باعتبار انها أقوى دولة بحرية فى ايطاليا فالبنادقة أجابوا البابا أن العمل ليس بسهل وانه لا ينبغى الدخول فيه الا بعد التحوط التام وبعد تمالؤ ملوك النصارى على الترك فعلاً لا قولاً . وقالوا ان العدو الذى يريدون مهاجمته عدو شديد المراس وهكذا لم يتم للدوق دونڤير ما أراد لأن جميع المساعدات التى حصل عليها لم تتجاوز القول والوعد والتمنى . وحبط المشروع بدون أن يكون له أدنى أثر سوى زيادة حذر الترك الذين كانت ترامت اليهم الاخبار عما ينوونه بحقهم

ثم المشروع الثامن والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع الأب يوسف مستشار الكردينال ريشليو ويده اليمنى وتاريخه سنة ١٦١٥ الى ١٦١٨

قال « زنكيسن » ان ريشليو كان قد سعى فى التأليف بين فرنسة واسبانية لأجل القيام بحرب صليبية تنتهى بنصب أمير من بيت ملك النمسا من الفرع الاسبانيولى ملكا على القسطنطينية الا ان رجلا اسمه « جاك بيير » كان فى خدمة الدوق دونڤير ثم فى خدمة دوق سافواى ثم اتصل بخدمة دوق توسكانا ثم خدم البندقية وكان يقال له « الكابتيانو » لأنه من قرصان البحر قد اطلع على هذا السر وافشاه بحجة انه هو افرنسى وانه لا يهون عليه أن يجلس أمير اسبانيولى على عرش القسطنطينية . ولما سمع البنادقة بخبر هذه المؤامرة قاوموها وعدوها مكيدة عليهم . وهكذا حبط مشروع الأب يوسف مستشار ريشليو . وقد تكلم ڤولتير عن الأب يوسف المذكور وطعن فيه وذكره هانوتو فقال انه كان خيالياً أفّاقاً متمسكا بالمشروعات المستحيلة . وقيل انه قضى عمره فى املين : تنصير المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة . ولما لم يتم شىء من تدابيره أخذ ليشفى غليله يرسل المبشرين والدعاة الى الشرق ونظم قصيدة سماها « التركية » Turciade وكتب فى سنة

١٦١٩ كتابا فى تهيئة الحرب ضد الاتراك وتبيين مصالح ملوك أوربة جميعا فى حربهم وكان قلم الاب يوسف لا يفتر عن الكتابة . وكان يعنى دائماً حالة النصرانية فى سكونها وعدم مهاجمتها للمسلمين

وقال « غستاف فانييه » Fagniez فى كتابه « الاب يوسف وريشليو » ان حياة الاب يوسف كانت كلها مستغرقة فى فكر واحد وشعور واحد وهما استخلاص الاراضى المقدسة من أيدى غير المؤمنين والألم من وجودها فى أيديهم وكانت عنده أمنية أخرى يريد تحقيقها بواسطة جمع كلمة الامم المسيحية وهى ادخال غير المؤمنين (أى المسلمين) فى الدين المسيحى

وكان الأب يوسف جاء الى رومة واستحثّ حمية البابا بولس الخامس لكن هذا كان فاتر العزم وبقى الى سنة ١٦١٨ حتى أرسل دعاة من قبله الى « براغ » و « تريف » و « ميانس » و « كولن » و « تورينو » يستنفر الدول المسيحية الى قتال المسلمين . وفى ذلك الوقت كانت اسبانية تتردد فى اصلاء هذه الحرب فذهب الاب يوسف الى مجريط ورجع وقد فاز بمبتغاه وهو عضد الدوق دونفير فى الجملة على تركيا . الا ان الخلاف رجع فنشب بين أوستريا وفرنسة وذهبت المساعى لتحقيق هذه الصليبية بالفعل أدراج الرياح وسنة ١٦٢٥ قرر البابا اوربانوس الثامن والأب يوسف ارجاء المشروع الى أجل غير مسمى

ثم المشروع التاسع والثلاثون وهو المنسوب الى « ڤاليريانو » Valeriano وتاريخه ١٦١٨

وهو مشروع لا يزال مخطوطاً غير مطبوع محفوظا فى خزانة « انسبورغ » المسماة Statthalteri Archio وهو عبارة عن كتاب متقدم من الراهب الكبوشى ڤاليريانو الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوى ومعه مذكرة وهو يقول ان الكونت « دالتان » D'haltan قد تحادث مع أمراء البلدان المجاورة للسلطنة العثمانية ورأى امكان القيام باعمال عظيمة لقهر الأتراك لكن يجب تمكين الجيش المسيحى من المرور ببلاد الأمراء المجاورين للترك وقد عقد الامبراطور وملك بولونيا والبنادقة معاهدات مع آل عثمان منها معاهدات موالاة دائمة ومنها معاهدات هدنة الى مدة عشرين سنة . ومن أجل هذا عند ما عرض الكونت دالتان على ملك بولونيا هذا المشروع أجابه بأنه لا يقدر أن يخفر ذمته ولكنه

يفسح له المجال أن يمر من خليج فنلانده ويأتى من هناك الى البحر الاسود . وكذلك رضى ملك بولونيا بتعيين مكان من بروسيا يحتشد فيه فرسان المسيحيين الذين يقصدون حرب الترك

ثم أخذ «ڤالرياونو» يعد الاماكن التى ينبغى أن تمر بها الحملة الصليبية وقال ان البابا سيكتوس الخامس كان أراد القيام بحملة على الترك يقودها «اتيان باتورى» فاشترط هذا قبل كل شئ الاستيلاء على بلاد المسكوب وقال ان هذا قد يتهيأ فى سنة ثم يساق المسكوب والعجم على التتار ويساق الفلاخيون والبغدانيون والترانسيلڤانيون على الترك . وكان البابا وملك اسبانية يدخران الأموال لهذه الغارة على مدة سنوات الا انها لم تتيسّر بسبب وفاة البابا سيكتوس

ثم المشروع الأربعون المنسوب الى «ساڤارى دوبريڤ» Savary De brèves وتاريخه سنة ١٦٢٠

وكان «دوبريڤ» سفيرا لهنرى الرابع ملك فرنسة فى الاستانة . وكانت سفارته حافلة بالفوائد لفرنسة وطالما كتب اليه هنرى الرابع يشكره على جلائل خدماته . وكان لدوبريڤ مكانة عالية لدى السلطان محمد الثالث . ولما قاد السلطان الجيش العثمانى بنفسه الى بلاد المجر كان دوبريڤ سفير فرنسة وريكارد سفير انكلترة فى معيته وحضرا معه معركة «آغريا»

وكان دوبريڤ من أوسع الافرنج اطلاعا على أحوال تركيا وكان يعلم فساد الأخلاق الذى كان قد تمكن من رجال السلطنة العثمانية وكان يعلم ماهناك من خلل الادارة البالغ الدرجة القصوى الى أن كتب دوبريڤ مرةً الى هنرى الرابع يقول له : ان الرشوة قد وصلت فى هذه الدولة الى حد انه لا يرجى نجاح عمل مهما كان الا بالمال . وأما برنامجه المحرر لتقسيم تركيا فقد كان تأليفاً عنوانه «خلاصة بحث فى أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان» وكان مع هذا التأليف وثيقة تاريخية هى معاهدة منعقدة بين هنرى الكبير ملك فرنسة والسلطان أحمد امبراطور الأتراك بواسطة المسير [١] «فرانسوا ساڤارى دوبريڤ» وكان هذا الكتاب ينتهى بثلاثة مكتوبات من البابا اكليمنضوس الثامن وأما المقدمة

(١) أى الموسيو كما كانت تلفظ فى ذلك الوقت

فكانت موجهة الى لويس الثالث عشر وكان يقول له فيها : ـ

« فى مدة الاثنتين والعشرين سنة التى قضيتها لدى الباب العالى لخدمة المرحوم هنرى الكبير والدك اعتنيت بملاحظة ما تملكه الدولة العثمانية من القوة وما يملكه ملوك المسيحيين من الوسائل لتوهينها أو القضاء التام عليها وحررت ذلك فى خلاصة أقدمها الآن لجلالتك بحيث ترى امكان هذا العمل وانى أكون سعيداً بتحقيق آرآئى هذه بالفعل وهكذا أكون خدمت دينى وخدمت جلالتك »

وقد خمن « دوبريف » قوى الدول المسيحية البحرية كما يلى :

الملك الكاثوليكى [1] يمكنه تجهيز ١٠٠ سفينة وجمهورية البندقية تقدر أن تجهز بكل سهولة ٢٠٠ سفينة وست بوارج كبار مما يسمى بجبال البحر . والبابا يستطيع تجهيز ٨ الى ١٠ سفائن . وفرنسة تقدر أن تسير ٥٠ سفينة . ومملكة سافواى ٥ أو ٦ سفن . والتوسكانا ١٠ أو ١٢ وجنوة ٨ أو ١٠ ومالطة ٦ والجميع ٣٨٠ سفينة وست بوارج .

ولم يذكر « دوبريف » شيئاً عن كيفية توزيع اسلاب السلطنة العثمانية وانما أوجب اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن وعدم انتظار الملحمة الكبرى لأجل اصداره

ولقد جرت لهذا المشروع معارضات من جهة الساسة الذين كانوا يرون ضرورة المحالفة مع تركيا للوقوف فى وجه الامبراطورية الجرمانية . ومن هؤلاء المعارضين كان « لوغاى » LeGay الذى رد على « دوبريف » برسالة اوجب فيها الاتحاد بل الاتحاد التام بين فرنسة والباب العالى ويكفى أن أذكر من هذا الرد بعض عناوين للتعريف بمقاصده . ففى الفصل الثانى يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى القديم . وفى الفصل الخامس يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى الجديد . وفى الفصل السابع يقول ان القياصرة وملوك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين قد اتفقوا مع الأتراك لأسباب هى أقل بالاً من الأسباب التى اتفق معهم من أجلها ملوك فرنسة . وفى الفصل العاشر يذكر أن اتحاد فرنسة مع تركيا لا ينفع فرنسة وحدها فقط بل ينفع النصرانية باسرها . وفى الفصل الحادى عشر يقول انه لا يجوز أبداً أن ترتفع ثقة التركى من المسيحى . وكذلك هذا الرجل يبين أنه اذا غيرت فرنسا سياستها تجاه تركيا جاءت أستريا

[1] أى ملك اسبانية

وحلت محلها فى صداقة تركيا وكذلك أسرعت اسبانيا لموادّة تركيا. ثم انه يقول ان اتفاق فرنسا مع تركيا لم يكن ليضر فرنسا فى شئ بل كان يفيدها وكان هـذا التركى الذى يقال انه غير مؤمن وانه وثنىّ يحارب أعداء فرنسا .

ومن هـذا التاريخ ظهر أن المصالح الدوليـة أصبحت هى العامل الأول فى الصلح والحرب مع الأتراك وصار الشعور الدينى بالمحل الثـانى . وقد جاء فى رسالة أخرى لأحد نبلاء بولونيا يقول فيها : ان الناس يتهمون فرنسا بأنها ناصرت تركيا وانها استخدمت بولونيا فى سبيل أغراضها ولـكنهم نسوا أن فرنسة لم تكن قادرة أن تتخلص من شر اوستريا الا بالاتفاق مع الـترك . وقال المسيو ڤاندال : انه لما وقع فرانسوا الأول أسيراً فى معركة « باڤيا » وانكسر سيفه وسقط فرسان فرنسة من حوله صرعى ولم يجد عند ذلك أية نصرة من أية دولة مسيحية أجمع على محالفة الترك وهو عزم بعثه اليـأس لـكنه صار فيما بعد سياسة متبعة

ثم مشروع ڤازيل لوبو Vasile Lupu وهو المشروع الواحد والأربعون وتاريخه ١٦٤٦ وكان هذا الرجل أميراً على بلاد البغدان من سـنة ١٦٣٤ الى ١٦٥٣ وكان أميراً مشهوراً بكثرة الحركات . وكان أزوج اثنتين من بناته الى بعض أمراء بولونيـا والبنت الثالثة ، وكانت بارعة الجمال ، الى تيموش ابن أمير القوزاق فـكانت له علاقات من شأنها أن تجعل له مركزاً منيعاً بازاء الأتراك . وكان التتار سنة ١٦٤٦ شنوا الغارة على بولونيا وعلى بلاد البغدان . وساقوا أربعين ألف أسير وفرّ الأمير المذكور وتوارى فى الغابات . ثم أخذ يترقب الفرصة للأخذ بالثأر من التتار فاتفق مع ملك بولونيـا على التحالف مع موسكو يداً واحدة على التتار والعثمانيين . وكان يرجو أن يستولى على بلاد القريم ومن هناك يغزو القسطنطينية وجاء يقابل ملك بولونيا فى جاريى الا أن المجلس البولونى لم يوافق على تلك المؤامرات وأرسل البولونيون معتمداً الى الاستانة يؤكد ولاءهم و بقاءهم على عهد الصداقة مع تركيا . و بعد هذا سقط فى يد « ڤازيل لوبو » ورجع يسفر بين الباب العـالى والروس و يتوسط فى اطلاق سراح معتمدى التتار الذين كان الروس قد اعتقلوهم وفى تفريق جموع القوزاق المخيمين بقرب أزوف وهكذا تلاشت صليبية الأمير « لوبو » هذا وكانت مدتها قصيرة

ثم المشروع الثانى والأربعون وهو مشروع افرنسى تاريخه ١٦٦٠ وقد ذكر هذا المشروع جورغا Jorga فى تاريخ السلطنة العثمانية فقال انه فى سنة ١٦٦٠ تصالح الفرنسيس مع الأسبانيول بواسطة الكاردينال مازَرِين وكان هذا ينوى غزو تركيا وترك فى وصيته مائتى ألف ريال لأجل هذا الغرض وانتشرت فى فرنسا فكرة الحرب الصليبية وأخذ فرسان البيوتات الافرنسية يتسابقون فى هذا المضمار وكان فرسان مالطة والبابا ودوق تُوسْكانا قد حشدوا أسطولاً مركباً من اثنتين وثلاثين سفينة وست بوارج واجتمع هذا الأسطول فى « سِيرِيغُو » ومنها قصد جزيرة كريد التى كان الأتراك يحاولون فتحها وأبحر ثلاثة آلاف فارس افرنسى ونزلوا فى ميناء سُودَا من بلاد اليانون واشتدت الحرب فى كريد وقتل فى خانيا القائد حسن باشا وكبير الانكشارية . وكان المسيحيون سائرين الى الأمام واذ جاءهم خبر بأن قوة عثمانية كبيرة قادمة اليهم من قَنْدِيا فلما سمعوا هذا الخبر وقع فيهم الرعب ونكصوا الى الوراء . ثم أقبل باشا « كاترش يُوغْلى » على رأس أربعة آلاف عثمانى وناجز المسيحيين القتال بقرب قنديا الجديدة وقتل منهم ألفاً وخمسمائة مقاتل وخارت عزائم الباقين وأرسل الباب العالى ١٨ سفينة حربية الى كريد فأذعن الأهالى للعثمانيين وخنعوا واكتفى العثمانيون منهم بألف جارية ترسل الى الحرم السلطانى و بألف رأس غنم كل سنة

ثم المشروع الثالث والأربعون وهو المنسوب الى « تورين » Turinne وتاريخه ١٦٦٣ ومن المعلوم أن تورين كان من أشهر قواد فرنسة فهل نسبة هذا المشروع اليه صحيحة أم لا ؟ وهل الخطاب الذى يقال انه ألقاه فى « مَارْسَال » قد صدر منه أم لا ؟ هذا لا نقدر أن نجزم به لا سيما أننا فى جميع الأوراق والوثائق التى خلفها المارشال تورين لم نجد أثراً لهذا الخطاب . وكذلك لم يذكر شيئاً عنه الكونت « غريموار » الذى كتب كثيراً عن تورين . وأما الخطاب كما نُسب الى تورين فهو انه اقترح على لويس الرابع عشر أن يعلن تركيا الحرب وذَكَّرَه بصليبية القديس لويس التاسع الذى ذهب الى مصر وافريقية . وقال ان الجيش الفرنساوى مع الألمان والمجر الذين يمكنهم أن يزحفوا لقتال الترك قد يكون ٣٦ ألف ماش و ١٢ ألف فارس وان جيشاً كهذا يمكنه أن ينازل المائة ألف عثمانى . وهو يتكلم فى مشروعه عن خصب بلاد الفلاّخ والبغدان وترانسلفانيا و يقول انه يمكن فتحها وضمها الى فرنسة وقال ان الامبراطور الجرمانى تكون له بلاد المجر السفلى

واقترح أن يقدم السويسريون ألفي مقاتل والأسبانيول خمسة آلاف وأمراء ايطاليا ثلاثة آلاف فارس والمجر والكرواتيون أربعة آلاف ماش وأربعة آلاف فارس . وقال انه يجب على انجلترة وهولاندة أن تعاونا باساطيلهما لقمع قرصان الجزائر . وقال انه يجب اشراك البرتغال والبولدنيين فى هذه الصليبية وانه لا بأس بادخال القوزاق والمسكوب والعجم فى هذه الحرب . وفى نهاية هذا التقرير يقول تورين بزعمهم ان الضربة القاضية على تركيا لا تكون الا من فرنسا

ثم المشروع الرابع والأربعون وهو مشروع « لِيْبِنِتز » وتاريخه ١٦٧٢

فالفيلسوف الالمانى الشهير ليبنتز كان قد أعد برنامجاً أيضاً لمحو تركيا واستمر يُحرّره أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية الى لويس الرابع عشر ملك فرنسة . وقد اعتنى لويس الرابع عشر باقتراح ليبنتز هذا وتلقى ليبنتز من نظارة الخارجية الافرنسية كتاباً يقول الناظر له فيه : انني قدّمت لجلالة الملك خلاصة كتبك والتقرير الذى معها الذى يتضمن رأياً عظيم الشأن يؤول الى مجد جلالة الملك ومصلحته

وكان ليبنتز يرى قبل كل عمل فتح مصر ويقول : انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار . وكان يشير بتحريك المجر والبولونيين لمناشبة تركيا الحرب فاذا اشتغل الترك بهؤلاء جاءت الدول المسيحية الأخرى وشنت الغارات على بلادهم فلم يكن أمامهم الا السقوط . وخاطب ليبنتز لويس الرابع عشر قائلا : انك انت فى حربك مع هولاندة لاتجد حليفاً الا الحليف الذى تشتريه بالمال أما اذا حاربت تركيا فما أكثر انصارك فاسبانية وأمراء ايطالية والبابا وربما الامبراطور وملك بولونيا يكونون معك . واذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق وقيادة المسيحيين العامة وان لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً

وبرغم جميع هذه الأمانى العظام التى تمناها ليبنتز لملك فرنسة لم يحسن الفرنسيس به الظن ويقول المؤرخ « سوريل » ان ليبنتز لم يقصد بهذا الا ابعاد فرنسا عن الرين وتزيين فتح مصر للويس الرابع عشر حتى يلهو بذلك عن معاركة المانيــة . وأما « دجوفارا » فيقول ان هــذه الأفكار كانت تحوم كثيراً فى ذلك الوقت فى خواطر الناس وكان الفرنسيس بدأوا يحتجون على سياسة فرانسوا الأول والحكومات الافرنسية التى تابعته فى

موالاة الترك . فرأى ليبنتزكان الرأى العام حينئذ . وقد تعرض ليبنتز لقضية الحرب ولكنه أغفل قضية قسمة الأسلاب بعد سقوط تركيا ولم يذكر منها الا اعطاء مصر لفرنسة ولعله كان يضمر أن يكون الباقى راجعاً لأوستريا والمجر وبولونيا

بقى أن نعلم ماذا أجاب لويس الرابع عشر الفيلسوف ليبنتز على اقتراحه هذا فنقول انه ثبت كونه أجابه بان الحروب المقدسة قد مضى وقتها من زمن لويس التاسع

ومن الغريب أن لويس الرابع عشر نفسه بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة عاد ففكر فى مشروع اقتسام تركيا وان تخرج مصر فى نصيب فرنسة فكأنه رجع الى فكرة ليبنتز

ثم المشروع الخامس والاربعون وهو مشروع ميشل « فابفر » Michel Fèbvre وتاريخه ١٦٨٢

وكان هذا الرجل راهباً كبوشياً اسمه الاب يوستينيانوس أصله من « نوفى » بقرب « تور » من فرنسة ارسله الكبوشيون الى حلب حيث أقام ثمانى عشرة سنة وتعلم التركية والعربية والكردية والارمنية وكان يتكلم بها كلها جيداً . والف كتاباً اسمه « حالة تركيا الحاضرة » وضعه باللغة الايطالية ثم ترجمه الى الافرنسية ثم ترجم هذا الكتاب الى الالمانية والاسبانية . وقد قدَّم هذا الكتاب الى لويس الرابع عشر وصدَّره بخطاب له يقول له فيه : ان أهالى البلاد العثمانية بما هو واقع عليهم من الجور والطغيان وما هم مبتلون به من سوء الادارة ينتظرون بذاهب الصبر استيلاءك على بلادهم

قال دجوفارا : ان هذا الأب الكبوشى كان بدون شك مبالغاً فى زعمه ان أهالى تركيا كانوا منتظرين مجئ الفرنسيس الى بلادهم ليخلصوهم

ولم يجد نداء « فبفر » هذا مجيبا . فنشر كتاباً آخر قدمه الى المونسنيور « لوفوا » الذى كان وقتئذ وزيراً وقال له فيه :

« إنك تعلم جيداً الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تعيش برغم كل ماهى سابحة فيه من الفوضى واختلال الادارة . وانه ليجب الاستفادة من هذه الأسباب ومحو هذه الدولة واعادة الديانة المسيحية الى البلدان التى لها علاقة بنا . وان حميتك الدينية ياسيدى ومكانتك من جلالة الملك تساعدان كثيراً على القيام بهذا الفتح المجيد لأن شعور جميع

الأمم هو انه لايوجد دولة سوى فرنسا تقدر أن ترغم أنوف العثمانيين المتكبرين »

ويعود هذا الأب الى قضية حشد المؤمنين من كل فج لقتال غير المؤمنين[١] ويشير بآراء غريبة فى سبيل تدويخ الأمم الاسلامية ومما قال: انه ينبغى لاخضاع هذه الشعوب واستجلابها الى عقيدتنا منعها بتاتاً من حمل الأسلحة وان ينصب حاكم إفرنسى على رأس كل ولاية

ويرى دجوفارا هذه الآراء شاذة والحقيقة أنها سواء كانت شاذة أولم تكن فان الدول الأوربية العصرية لم تعمل شيئاً الا وفق ما كان أشار به الأب يوستيانوس هذا فقد كانوا يتفقون على منع بيع الأسلحة من المسامين لاالمسامين الذين فى المستعمرات الأوربية فقط بل المسامين الذين لايزالون حافظين لاستقلالهم . وقد صح عندهم هذا العزم أكثر من كل وقت مؤخراً بعد الحرب العامة التى سقطت بها السلطنة العثمانية فخيل لهم ان الغرة لائحة لنيل كل ارب من الاسلام . ومنذ سبع أو ثمانى سنوات انعقد فى جنيف مؤتمر دولى لنزع السلاح فكان أكثر نزوع الدول الاستعمارية انما هو لمنع بيع السلاح من تركيا وفارس وافغانستان ومصر و بلاد العرب . ولقد قرر المؤتمر المذكور مناطق ممنوعاً ادخال السلاح اليها Zanes Prohibées من جملتها مصر وجزيرة العرب برغم استقلال الحجاز ونجد واليمن وحاول منع بيع السلاح من فارس . الا أنه فشل فى ذلك لكون أكثرية المؤتمر لم تقدر أن توافق على قرار يمنع تسلح دولة مستقلة بجميع معانى الاستقلال مثل دولة فارس فعادت انكلترة وضربت العجم ضربة ثانية وأبت إلا انفاذها وهى منع تسريب السلاح الى العجم من طريق البحر وان يكون لانكلترة الحق فى تفتيش السفن الواردة الى مراسى ايران . وقد وافق انكلترة على هذا القرار الأعوج فرنسة وايطالية واليونان وبعض دول وأمسكت ألمانية وأكثر الدول عن ابداء رأيهن فتقرر بسبب امساك هذه الدول عن اعطاء الرأى تأييد ماطلبته انكلترة من هذه الجهة .

أما جزيرة العرب فلم يخضع ملوكها لهذا القرار ولم تنتظم كلمة أوربة على منع بيعهم السلاح ولما عقد ابن سعود ملك الحجاز ونجد معاهدة « بحره » مع انكلترة اعترفت فيها هذه بما ينقض قرار ذلك المؤتمر ويجعله حُرّاً فى شراء السلاح . وكذلك اعترفت بحق

(١) أى حشد المسيحيين لقتال المسامين

شراء السلاح لامام اليمن دولة ايطاليا وغيرها من الدول ولم تعترف هذه الدول لملوك العرب بما ينقض قرار المؤتمر المذكور الا بسبب الشقاق الواقع بين الدول الغربية والمانيا و بينها و بين البلاشفة فرأت أنفسها عاجزة عن منع تهريب السلاح الى جزيرة العرب وعادت فوافقت على ما كانت جدّت فى منعه . وعلى كل حال نية هذه الدول كانت معلومة

ومقصودنا ان قضية نزع السلاح من أيدى المسلمين ومنع دخول الأسلحة الى بلدانهم هذه قضية طالما فكر بها الأوربيون قديماً وحديثاً . ولم تفتهم ولا ساعة . ولنعد الى كلام الأب يوستيانوس فى معاملة المسيحيين للمسلمين فنقول :

انه فى الفصل الثلاثين من كتابه يشير بحمل المسلمين على النصرانية و بأن يتوسل ملوك النصارى الى ذلك بوضع جميع الضرائب على المسلمين دون غيرهم(١) وهكذا يضطرون بزعمه من شدة عنائهم و يأسهم أن يتنصّروا . قال دجوفارا : الا ان الأب يوستنيانوس يحذّر من تحويل المسلمين عن الاسلام الى الكنيسة الارثوذكسية بل يشترط أن يكون دخولهم الى الكنيسة الكاثوليكية

قلنا ومسئلة الضرائب التى تصورها يوستنيانوس وحصر أدائها فى المسلمين ان لم تكن نفذت بحذافيرها فى هذا العصر بحق المسلمين المغلوبين على أمرهم فقد نفذ مايشبهها فى جزائر الغرب مثلا لايؤدى الفرنسيس الضرائب التى يؤديها المسلمون بل قطعة الأرض نفسها يؤدى عنها الفرنسى شيئاً زهيداً فاذا صارت الى المسلم أدى أضعافه

ثم قال الأب : وأما مهاجمة الدولة العثمانية فيجب أن تكون من جهة مضيق الدردنيل وهذه أيضاً فكرة قد أجرتها أوربة بالفعل بعد الاب يوستنيانوس بمائتين وثلاث وثلاثين سنة . إذاً آراء هذا القسيس الكبوشى لم تكن سخيفة

أما اقتسام سلطنة آل عثمان بعد الظفر بها فقد شغل بال الأب المؤلف فرأى أخيراً ان أحسن حلّ لها هو أن يسير كل ملك من ملوك النصارى من جهته منفرداً بدون أن يختلط بملك آخر . وهكذا يخلصون من مشكل تقدم الواحد على الآخر . فالامبراطور يزحف على بلاد المجر وجوارها . وملك بولونيا على سواحل البحر الاسود . والبنادقة على دالماسيا والمورة وكريد . وملك اسبانية على المغرب ومصر والقدس . وأما الملك المسيحى

(١) تأمل فى عدالة هذا القسيس

كثيراً (أى ملك فرنسة) فينهد الى القسطنطينية رأسا ويحتلها ويستولى بعد ذلك على الأناضول . وعند ذلك يزحف ملك العجم فيفتح ديار بكر والموصل

ثم يقول « فبفر » انه على فرض حصول منازعات بين ملوك النصارى على تقسيم الاسلاب فان البابا يكون الحكم فيما بينهم عند التقسيم . ولكن احتمال وقوع هذا النزاع لا يجب أن يبحث فيه من الآن خشية أن يحصل تردد فى مهاجمة تركيا وان يضيع الوقت

ثم المشروع السادس والأربعون وهو مشروع لويس الرابع عشر ملك فرنسة بل أعظم ملوكها وتاريخه ١٦٨٥ — ١٦٨٧

كان لويس الرابع عشر قد نسى عضد تركيا لفرنسا فى زمان فرنسوا الأول وغلب عليه الشعور الدينى الصليبى فكان له يد فى حروب المجر وكانت له نجدات لجزيرة كريد عندما فتحها الترك وطارد بحرية الجزائر ورمى تونس والجزائر بالقنابر ولما أراد البابا اسكندر السابع تأليف عصبة مقدسة [1] كان أول من أجاب نداءه لويس الرابع عشر

وكانت حماسة الأوربيين للحروب الصليبية قد بدأت تتراجع لعهد الملك المذكور . ونظم له الشعراء القصائد ودعوه الى محو الاسلام . وألّف المؤرخون والسياسيون كتبا فى استنفار لويس الرابع عشر وملوك النصارى لمحاربة المسلمين ومن هؤلاء « دوفينيو » Du Vignau نشر سنة ١٦٨٧ كتاباً أوضح فيه ضعف الدولة العثمانية وسهولة هدم بنيانها وبين كيفية عبور الدردنيل وتفاءل باقامة صلاة الشكر على ذلك فى كنيسة القديس بطرس فى رومة أو ايا صوفيا فى الاستانة

أما برنامج لويس الرابع عشر فقد كان استيلاءفرنسة على المورة وتساليا وسلانيك وصربيا وبلغاريا والروملى وجزر الارخبيل وأن يكون كل هذا تحت تاج أحد أبناء لويس الرابع عشر . ويكون لبولونيا الفلاخ والبغدان . وللبندقية كرواسيا والبانيا ودالماسيا وبوسنه. وكان أرسل لويس الرابع عشر سفيراً الى الاستانة اسمه « جيراردين » Girardin ومعه « دورتيار » ضابط بحرى نظم خريطة فيها وصف القلاع التركية التى على سواحل البحر المتوسط وبيان العمل لكيفية أخذها . وقدم السفير المذكور للملك تقريراً وافيا عن دخل السلطنة العثمانية وخرجها وعن أصناف جيوشها وكيفية اعاشتهم

(١) أى فى وجه الاسلام

وكان لويس الرابع عشر يحب بولونيا وكانوا فى أيامه فكروا فى تزويج احدى أميرات البيت الملكى بفرنسة من ابن ملك بولونيا وتتويج هذا ملكا على الفلاخ والبغدان

وفى ٥ مارس سنة ١٦٨٤ كان قد انعقد حلف بين بولونيا والنمسا والبندقية والروسية يداً واحدة على تركيا ودعوا شاه العجم للدخول معهم فى هذا الحلف . وكانت فرنسة تريد اعطاء الفلاخ والبغدان الى بولونيا بحجة انه لولا الجيش البولونى لكان الترك فتحوا فينا وان بولونيا مع ذلك لم يكافئها الامبراطور بشئ

ولقد خمن « دورتيار » D'ortière كلفة هذه الصليبية لتقسيم تركيا بواحد وثلاثين مليون جنيه . ولم يكن هذا المبلغ اذ ذاك مما تعجز عنه فرنسة . ولكن مشروع لويس الرابع عشر هذا لم ينفذ منه شئ وكان لهذا الملك من حروبه مع اسبانية وهولاندة وانكلترة والامبراطورية الجرمانية شاغل عنه

ثم مشروع الأب « كوبين » Coppin وهو السابع والاربعون وتاريخه سنة ١٦٨٦

كان هذا الرجل فى مبدأ أمره ضابطاً فى الخيالة بفرنسة ثم تحول قسيساً وصار قنصلا لفرنسة فى دمياط . وبعد ايابه الى وطنه ألف كتابا سماه « ترس أوربة » Bouclier De L'europe فيه الدعوة الى تقسيم السلطنة العثمانية وفى الفصل العشرين من هذا الكتاب يقول : « كيفية تقسيم الولايات المذكورة فى الفصل السابق بين ملوك المسيحيين » . ثم : تقسيم الموره . تقسيم شمالى افريقية . تقسيم أملاك تركيا فى أوربة . تقسيم الجزر وهلم جراً . والأب كوبين يعطى البندقية فى هذا التقسيم بوسنه والبانيا وشمالى اليونان . ويعطى اوستريا المجر وصربيا وقسما من بلغاريا ومكدونية . ويعطى بولونيا الفلاخ والبغدان وقسما من بلغاريا وسواحل البحر الاسود الى أدرنه . ويعطى فرنسة القسطنطينية وأدرنه وبرسا وقورنيته ومن آسية الصغرى البلاد الممتدة من برسا الى طرابزون ومن افريقية مصر وعنابه وتونس . ويعطى انكلترة طنجة ومن بلاد اليونان تساليا . ويعطى اسبانية الجزائر ووهران ثم اثينا وتيبة من بلاد اليونان . ويعطى البرتغال طرابلس الغرب وساحل مكدونية الجنوبى وحلب وقسما من سورية . ولا ينسى هولاندة فيخصها ببرقة وبقسم من المورة . وينعم على دوقية ساڤواى بقبرص وقسم من بلاد اليونان ويقسم البقية على

جنوةوفلورنسة ولوك . وأما البابا فيكون له بيت المقدس وقسم من ارقاديا فى بلاد اليونان ويكون القسم الآخر من ارقاديا لدوقيات « مودين » Modéne و « بارم » Parme وتكون رودس لفرسان مالطة

قال دجوڤارا : ان تقسيمات هذا القسيس العسكرى مختلطة متداخلة جداً كما ترى وكأنه تعمَّد أن لا يترك مملكة مسيحية بدون شقص من هذه الغنيمة . الا أنه نسى فى القسمة دوق موسكو الذى كان مع ذلك كتب الى البابا يستنهضه لحرب صليبية . فالأب « كوبين » يقول : ان هذا المشروع يجوز اطلاع أمير موسكو عليه ليعلم ماذا يقترح من الحصص

أما تخصيص « كوبين » القسطنطينية بفرنسة فيقول : لأنها دخلت فيما مضى فى حوزة الفرنسيس ولأن هؤلاء أقدر على حفظها من غيرهم ولأن فرنسة هى ابنة الكنيسة البكر ولا تليق الامبراطورية الا بها

ثم المشروع الثامن والأربعون من تقسيم تركيا وهو المنسوب الى بطرس الأكبر الروسى وتاريخه سنة ١٧١٠

كثر البحث هل هذا المشروع صحيح النسبة الى بطرس الأكبر قيصر الروس أم لا ؟ فالمؤرخ الروسى « ڤاليزيفسكى » Valiszevski يقول انها اكذوبة . وكل من « جوبير » Joubert و « مورنو » Mornaud يقول ان بطرس الأكبر لم يحرره بخطه لكن أفكاره كانت هى هذه . ولقد نشر هذا المشروع المسيو « لزوّر » Lesur سنة ١٨١٢ ولكن المؤرخين الشهيرين « لاڤيس » Lavisse و « رامبو » Rambaud يذهبان الى أن « لزوّر » لفق هذا المشروع تزلفاً لنابليون الأول . وزعم « بركولز » Berkholz أن أبا عذرة هذا البرنامج هو نابليون نفسه . وقال « سوكولنيكى » Sokolnicki فى كتابه « وصية بطرس الأكبر » ان محرر هذا المشروع هو الجنرال ميشل سوكولنيكى المتوفى سنة ١٨١٦

وكيف كانت الحال فالجميع متفقون على أن خطة الأمة الروسية هى هذه التى تضمنتها هذه الوصية المنسوبة الى بطرس الأكبر . والمؤرخ الروسى « ڤاليزيفسكى » يقول ان المواد الاحدى عشرة الأولى من هذه الوصية المنشورة سنة ١٨١١ قد كانت هى خطة الروسية المتبعة فى سياستها فى الشرق منذ سنة ١٧٢٥

ولقد كان بطرس هو الذى رقى الروسية الى صف الدول العظام ومن قبله و إلى أواسط أيام لويس الرابع عشر فى فرنسة لم تكن الروسية شيئاً مذكوراً .

وقد كان أول من أظهر الطمع من ملوك الروس فى القسطنطينية القيصر ايفان الثالث الذى حرر نفسه من حكم التتار (سنة ١٤٨٢) وتزوج بابنة شقيق الامبراطور ميشل باليولوغ فصار يدّعى ملك بيزنطية بهذه المصاهرة ولكن الذى بدأ بمقاومة الأتراك فعلاً ونصب نفسه لحماية المسيحيين فى الشرق هو بطرس الأكبر . وكان من أول أعماله أنه أرسل الى الفلاخ والبغدان دعاةً يحركونهم الى الثورة وكان هناك أسقف من القدس يشيع أنه وجد على قبر قسطنطين كتابة تشير الى أن الروس هم الذين سيطردون الترك من أوربة

وأما وصية بطرس فهى ١٤ بنداً أهمها البند الخامس وهو أن يصير الاتفاق مع النمسا على طرد الترك من أوربة ويجهز لهذا الغرض جيش دائم فى البر وتبنى دور صنعة لبناء السفن فى سواحل البحر الاسود ويستمر التقدم نحو القسطنطينية .

والبند السابع الذى يوصى بالاتفاق مع انكلترة والعمل للسيادة فى بحر البطليق والبحر الاسود اذ بدون السيادة على هذين البحرين لا يتم للروسية مرادها

والبند الثامن الذى يذكر أن أعظم تجارة فى الدنيا هى تجارة الهند ومن احرزها ساد على أوربة فيجب انتهاز كل فرصة لاصلاء فارس الحروب التى تنهك قواها ومن ثمة يمكن الوصول الى الخليج الفارسى والاستيلاء على تجارة الشرق

والبند الحادى عشر الذى يوصى الروس بجمع كلمة الاروثوذكسيين تحت حمايتهم سواء الذين فى تركيا أو المجر أو بولونيا وبواسطتهم تثار الفتن والحروب على هذه الممالك الثلاث الى أن تتلاشى

والبند الثانى عشر الذى يوصى بايقاد نيران المنافسات بين فرنسا والنمسا وان تتعهد الروسية لكل من هاتين الدولتين سراً وبدهاء عظيم أن تمالئها على قسمة العالم فتقع بينهما الحروب ومن ثمة تتحول حرباً عامة

والبند الثالث عشر الذى يقول فيه إنه بعد أن تنشب الحرب العامة فى كل مكان وتنهك قوى الجميع يصير للروسية الخيار فى ترجيح الجهة التى تريد ترجيحها على عدوتها . وحينئذٍ تجنح الروسية الى جانب النمسا ثم تزحف الجنود الروسية المنظمة نحو الرين ووراءها

تلك العصائب الآسيوية التى تنتشر فى المانية ثم يخرج اسطولان أحدهما من البحر الاسود والآخر من بحر اركانجل وعليهما هذه العصائب الآسيوية فيقذفان بها على ايطالية واسبانية وفرنسة وتأخذ هذه العصائب بالعيث والتدمير وتأخذ قسماً من أهل فرنسة اسرى فيقذف بهم الى سبيريا لاجل عمارة اراضيها الواسعة

هذا أهم ما فى هذه الوصية . وفى نظارة الخارجية الافرنسية نسخة من مشروع السيادة الروسية العالمية المنسوب الى بطرس الأكبر يوصى به خلفاءه والأصل كان فى خزانة أوراق قصر «بترهوف» Peterhof بقرب بطرسبرج

ثم المشروع التاسع والاربعون المنسوب الى الأب « سان بيير » St-Pierre وتاريخه ١٧١٣

هذا الرجل كان من أعضاء الاكادمية الافرنسية الّف كتابا أعاد فيه مشروع سوّلى Sully وهنرى الرابع وقال ان تنفيذه غير مستحيل وان هنرى الرابع لو كان الله فسح فى أجله لنفّذه

إلا ان هذا الرجل امتاز عن سائر أصحاب المشروعات الصليبية بأنه لم يلتزم قضية محو السلطنة العثمانية من الوجود وانما قال انه متى علم الترك بوجود عصبة دفاعية عامة بازائهم لم يجرأوا على مناجزة الامبراطورية ولا بولونيا ولا الروسية ولا البندقية حرباً ما لأنهم يعلمون أن هذه العصبة حينئذ تطردهم من كل أوربة

ثم يفكر هذا الأب فى اختلاف الأديان التى ستشتمل عليها هذا العصبة وما يخشى من تصادمها بعضها مع بعض لكنه يعود فيحلّ هذه المعضلة بقوله انه بواسطة الاختلاط والاحتكاك تكون الديانة الحقيقية هى السائدة على الجميع فى آخر الأمر

ويقول فى موضوع الصلح بين المسلمين والنصارى كلاماً حرياً بالنقل . فيذكر أن بعض النـاس يعترضون قائلين ان الدين الاسلامى يمنع المسلمين من صلح دائم مع النصارى ولا يأذن لهم الا بهدنة مؤقتة. فالأب سان بيير يجيب على هذا الاعتراض قائلاً ان هذا يمنعه الدين الاسلامى فيما اذا كان المسلمون هم الحزب الأقوى أو المساوى بالأقل . فأما اذا كان أعداؤهم أكثر عدداً وأقوى مدداً فلا يمكن أن يكون الصلح ممتنعاً عندهم لأن استمرار الحرب يجعل الاسلام فى خطر شديد . ثم لنفرض أن الصلح الى أمد غير محدود ممنوع على

المسلمين أفليس لهم أن يعقدوا مهادنات الى ٢٠ سنة وأن يجددوها ؟ الجواب لهم ذلك . فاذاً هم يمكنهم أن يعقدوا مهادنات الى ١٠٠ سنة بدلاً من ٢٠ سنة وأن يجددوها . وهل الصلح الدائم غير هذا ؟ قلت لا بأس أن نورد هنا أحكام المهادنة والصلح فى الاسلام نظراً لورود هذا المبحث فى هذا المحل فنقول :

جاء فى « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » للامام الفيلسوف الفقيه الأصولى القاضى أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الاندلسى فى هذا الباب مايلى :

« فاما هل تجوز المهادنة ؟ فان قوماً اجازوها ابتداءً من غير سبب اذا رأى ذلك الامام مصلحة للمسلمين وقوم لم يجيزوها الا لمكان الضرورة الداعية لأهل الاسلام من فتنة أو غير ذلك اما بشىء يأخذونه منهم لاعلى حكم الجزية . اذ كانت الجزية انما شرطها ان تؤخذ منهم وهم بحيث تنفذ عليهم أحكام المسلمين . واما بلا شىء يأخذونه منهم . وكان الأوزاعى يجيز ان يصالح الامام الكفار على شىء يدفعه المسلمون الى الكفار اذا دعت الى ذلك ضرورة فتنة أو غير ذلك من الضرورات . وقال الشافعى لايعطى المسلمون الكفار شيئا الا أن يخافوا ان يصطلموا لكثرة العدو وقلتهم أو لمحنة نزلت بهم. وممن قال باجازة الصلح اذا رأى الامام ذلك مصلحة مالك والشافعى وابو حنيفة . الا ان الشافعى لا يجوز عنده الصلح لأكثر من المدة التى صالح عليها رسول الله ﷺ الكفار عام الحديبية . وسبب اختلافهم فى جواز الصلح من غير ضرورة معارضته ظاهر قوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وقوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) . فمن رأى أن آية الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ناسخة لآية الصلح قال لايجوز الصلح الامن ضرورة . ومن رأى ان آية الصلح مخصصة لتلك قال الصلح جائز اذا رأى ذلك الامام وعضد تأويله بفعله ذلك صلى الله عليه وسلم وذلك ان صلحه ﷺ عام الحديبية لم يكن لموضع الضرورة . واما الشافعى فاما كان الأصل عنده الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وكان هذا مخصصا عنده بفعله عليه السلام عام الحديبية لم ير أن يزاد على المدة التى صالح عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف فى هذه المدة فقيل كانت أربع سنين وقيل ثلاثا وقيل عشر سنين و بذلك قال الشافعى . واما من أجاز أن يسامح المسلمون المشركين بأن يعطى

لهم المسلمون شيئا اذا دعت لذلك ضرورة فتنة أو غيرها فصير الى ما روى انه كان عليه السلام قدهم أن يعطى بعض ثمر المدينة لبعض الكفار الذين كانوا فى جملة الاحزاب لتخييبهم فلم يوافقه على القدر الذى كان سمح له به من ثمر المدينة حتى أفاء الله بنصره . واما من لم يجز ذلك الآن ان يخاف المسلمون أن يصطلموا فقياسا على الاجماع على جواز فداء اسارى المسلمين لأن المسلمين اذا صاروا فى هذا الحد فهم بمنزلة الأسارى» اه .

ثم ذكر الأب سانت پيير اعتراضا لبعضهم معناه انه لايجوز أن يدعى الترك الى الصلح قبل أن يعطى البولونيون بلاد التاتار والقوزاق التى على سواحل البحر الأحمر وقبل أن يعطى البنادقة بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريد وقبل أن يرد الى فرسان مالطة جزيرة رودوس فيجيب الأب سانت پيير على هذا الاعتراض بقوله اننا لانرى فتح هذه الفتوحات ضروريا لأجل تأمين حياة العصبة المسيحية التى نحن بصددها ثم انه لايظن ان أكثر ملوك المسيحيين يفضلون فتح هذه الفتوحات لبولونيا والنمسا والبندقية وفرسان مالطة على ادخال الترك معهم فى المجتمع الأوربى قال دجوفارا انه غريب فى الحقيقة ان نجد قسيسا مثل الأب سانت پيير معارضا لاستئصال غير المؤمنين أى المسلمين وعاملا بالعكس لأجل ادخالهم فى مجتمع الدول المسيحية .

قلت قد مضى علينا الى هنا تسعة وأربعون مشروعا من مشروعات تقسيم تركيا ولم نجد فيها كلها مشروعا واحدا سوى مشروع هذا الأب يتضمن فكرة استبقاء المسلمين . بل جميعها كانت تدابير مقصودا بها محو تركيا والاسلام بأسره وان كان قد ورد فى بعضها اشراك دولة العجم فى حصة من تقسيمات تركيا فيكون هذا من باب السياسة الحربية حتى يدخل العجم فى العصابة ضد الترك ويزيدوهم ضعفا ثم بعد ان تسقط تركيا فمن البديهى انه لابد من سقوط العجم . وليس لنا الآن ان نترحم على الأب سانت پيير الذى كان الوحيد فى ذلك العصر فى طلب توقيف الترك عند حدهم لافى السعى لابادتهم وابادة الاسلام جميعا .

وقدكان مشروع سوللى Sully السابق الذكر تأليف عصبة أوربيه من خمس عشرة دولة قدتقدم بيانها فى محله . فأما سانت پيير فقد جعل تأليف العصبة من ثمانى عشرة دولة ثم اسقط منها واحدة وقال انه يجب ان يدعى الى الدخول فى العصبة الملوك الآتى ذكرهم الأول الأمبراطور الثانى ملك فرنسا الثالث ملك اسبانيا الرابع ملك البرتغال الخامس ملك

انكلترة السادس جمهورية هولاندة السابع ملك الدانيمرك الثامن ملك السويد التاسع ملك بولونيا العاشر قيصر الروسية الحادى عشر ملك بروسية الثانى عشر امير باڤاريا الثالث عشر أمير الپالاتينا الرابع عشر سويسرة الخامس عشر دوق اللورين السادس عشر جمهورية البندقية السابع عشر ملك ساردانية . ولم يتم شئ من هذا المشروع و بقى أثرا تاريخيا فى الآثار

ثم المشروع الخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧١٨ .

وكانت تركيا فى حرب مع النمسا من أجل بلاد المجر والفلاخ وكانت اوستريا أو النمسا احتلت قسما من الفلاخ وفى ١٩ اكتوبر سنة ١٧١٧ كتب الصدر الأعظم الى البرنس أوجين النمساوى يدعوه الى الهدنه فرضيت النمسا بالصلح على الشروط الآتية وهى . ان الباب العالى يرفع سيطرته عن بلاد المجر الثائرة و يمتنع عن بيع الاسرى و يراقب الولايات العثمانيه فى شمالى افريقية و يمنعها عن الاعتداء و يعطى الرهبان الفرنسيسكانيين الاماكن التى يطلبونها فى القدس و يتخلى للنمسا عن قسم من الفلاخ . وفى ٨ فبراير سنة ١٧١٧ عقد الجنرال النمساوى «ستاڤيل» مع «جان ماڤروڤو رداتو» أمير الفلاخ معاهدة يتعهد بها الجيش النمساوى بأن لايقطع نهر «ألوتا» ثم دخلت انكلترا وهولاندة فى الوساطة بالصلح بين النمسا وتركيا فاذا بالنمسا تقترح ضم الفلاخ والبغدان الى الأمبراطورية النمساوية فالترك رفضوا ذلك وجاء الخبر بأن ١٨٠٠٠ إسبانيولى نزلوا فى ساحل ايطاليا الشمالية فقلقت من أجل ذلك النمسا وأسرعت بعقد الصلح .

ثم المشروع الواحد والخمسون وهو مشروع ديسلوڤاى Disloway وتاريخه سنة ١٧٣٢ وكان ديسلوڤاى هذا مجرّياً فى الاصل من حاشية البرنس «راكوتزى» وكان يسمو الى امارة فى الفلاخ والبغدان وكان يقول ان ثمة أرضا بين المجر وترانسيلڤانيا تابعة للفلاخ والبغدان عظيمة الخصب تستطيع أن تمير عددا كبيراً من السكان وانه اذا سمح له بها الباب العالى أمكنه أن يعمرها ويكون للباب العالى بذلك فائدة وهى وضع فاصل بين املاكه والامبراطورية الجرمانية وتكون هذه الامارة الجديدة تابعة فى سياستها للباب العالى ، وتكون كاثوليكية المذهب . الا ان الباب العالى امتنع عن قبول هذا الاقتراح لانه كان اتفق مع النمسا بأن لا يروّج غرضا كهذا يستفيد منه البرنس راكوتزى وقومه المجر . وقيل ان ديسلوڤاى انما كان يعمل ظاهرا لنفسه وباطنا لاميره البرنس المذكور وقد أجمع

الناس على ان هذا المشروع كان خياليا وهو على كل حال ليس فيه شيء مهم من تقسيم تركيا بل كان موجهاً فى الحقيقة لصد النمسا والاستعانة بتركيا عليها .

ثم المشروع الثانى والخمسون المنسوب الى الكردينال « البرونى » Alberoni وتاريخه سنة ١٧٣٦ وكان البرونى هذا طليانياً ولد فى « فيرانزولا » سنة ١٦٦٤ ومات سنة ١٧٥٢ وكان من أعاجيب الدهر .

قال دجوقارا ان فيكتور هوغو يذكر لنا رجلا اسمه روى بلاس Ruy blas كان فى أوليته خادم منزل فصار فى الآخر الوزير الأول فى اسبانية وقد يظن أن هذه الحكاية هى خيالية من نتائج تصورات ذلك الشاعر العظيم ولكن قصة الكردينال البرونى كانت حقيقة واقعية وقد تجاوزت قصة روى بلاس Ruy blas فان هذا الرجل كان من الطبقه الدنيا وكان أبوه حارس بستان وقد تربى فى دير فى مدينة « پلازانس » وتعلم مجاناً ثم صار معلما لابن أخى المطران « برنى » ثم صار ناموساً للمطران « رونكوڤيه رى » ثم دخل فى بلاط دوق پارم Parme وما زال ينال حُظوة حتى أرسلوه معتمداً سياسياً فى مجريط وهناك أبدى مزيد المهارة فى السياسة وذلك ان ملك اسبانية فيليب الخامس كان له حظية قد استبدت بالأمور فما زال البرونى به حتى اقنعه بالزواج بالأميرة « اليصابت فرنيزى » وارثة عرش پارم و بعد ذلك تمكن من نفى معشوقة الملك فلاجرم ان الذى يتصرف بقاب ملك اسبانية الى ذلك الحد يمكنه أن يحمله على السياسة التى يريدها فلم يلبث أن تولى البرونى رئاسة الوزراء فى اسبانية ثم صار رئيس أساقفة اشبيلية .

وقد ازدادت فى أيامه قوة اسبانية ففتحت جزيرتى سردانية وصيقيلية ولكن طرأ فى زمانه أن الأسطول الانكليزى دمّر الأسطول الاسبانى فى « سيرا كوزا » ثم انعقدت معاهدة رباعية بين انكلترة وفرنسا وأوستريا وهولاندة فخطر فى بال البرونى أن يقابل هذه العصبة بعصبة أخرى مؤلفة من اسبانية والروسية وتركيا والسويد . وفى تلك المدة أعلنت فرنسة الحرب على اسبانية أى سنة ١٧١٩ فخاف فيليب الخامس من هذه الخطوب المتوالية وطرد البرونى من اسبانية فخرج ذليلا وهام على وجهه فى الأرض لا يملك شيئاً ثم قبض عليه فى جنوة بأمر البابا اينو شانسيوس الثالث عشر وحكم عليه بالحبس مدة أربع سنوات فى دير ولكنه بدهائه تمكن من نيل العفو وصار فيما بعد معتمداً للبابا .

وقد ألف البرونى هذا كتاباً يحتوى أفكاره السياسية قال فيه ماخلاصته : انه يجب على دولتى فرنسا واسبانيا أن تعضدا دولة النمسا على الدولة العثمانية عدوة المسيحية وهكذا تتمكن النمسا بالاتفاق مع الروسية من طرد الأتراك من أوربا واسترجاع الأراضى المقدسة. وهو يقول انه لواتفقت دول أوربا لم تطرد الترك من أوربا فقط بل أمكنها طردهم من آسية وافريقية وأشار بعقد مؤتمر فى رهغنسبورغ Regensbourg تنعقد فيه معاهدة بين الدول المسيحية ويتأسس صندوق مركزى للمال فى البندقية. وأما الجيوش فيجهز الامبراطور مائة الف مقاتل والروس مائة ألف وبولونيا ثلاثين الفاً والدانيمرك عشرة آلاف والسويد عشرة آلاف وفرنسا ثلاثين ألفاً وكل من حكومات الصيقيليتين والبرتغال وسردانية والبندقية وجنوة وسويسرة عشرة آلاف فجموع القوه يكون ٣٧٠ ألفاً. ثم انه يمكن تجهيز أسطول مسيحى لايقل عن ١٠٠ سفينة حربية و ٤٠ بارجة. وقد اقترح « البرونى » تجهيز أسطول آخر من سفن فرنسة واسبانية والبرتغال لأجل صد أساطيل طرابلس وتونس والجزائر

وذهب « البرونى » الى كون فشل الحروب الصليبية انما كان السبب فيه الخلف الذى وقع بين المسيحيين من أجل تقسيم الفتوحات فيجب أن يضع مؤتمر « رهغنسبورغ » قاعدة يسير عليها المسيحيون فى المستقبل فلا يختلفون

قال البرونى : انه يجب أن يعين الدوق « هولستين غوتورب » Holstein-Gottorb امبراطوراً على القسطنطينية بجميع حقوق هذه الامبراطورية وان يكون ارثها فى عقبه الذكور وان يضاف الى القسطنطينية أملاك تركيا فى آسية وولاية الروملى فى أوروبة

ولما كان الحصن الحصين الأكبر الذى وقى أوربة والنصرانية من غادية الاسلام هو الامبراطورية الرومانية (١) فيجب أن تضاف اليها بوسنة وصربيا واسكلاڤونيا ومكدونية والفلاخ وتكون من جملة أجزاء هذه الامبراطورية وأن يكون للامبراطور الرومانى حق التقدم على امبراطور القسطنطينية وغيره من ملوك النصارى

ثم قال انه لما كان قدثبت كون القيصرة حنة صاحبة الروسية ليس لها هم أعظم من نشر الديانة فاننا نرى من باب المكافأة لها على جهادها اعطاءها بلاد التتار وازوف وبمقابلة ذلك ترد هى بلاد فنلاندة الى مملكة السويد

(١) أى الجرمانية التى خلفت الامبراطورية الرومانية

وتجب مكافأة اسبانية باعطائها الجزائر ومكافأة البرتغال باعطائها طرابلس الغرب .

ويجب تسليم أزمير وجزيرة كريد الى انكلترة وتسليم حلب وجزيرة رودس الى هولاندة

وأما بولونيا فمن حيث كانت مدة طويلة حصناً للنصرانية وقد أصيبت بمصائب كثيرة فيجب أن تكافأ بتسليمها بلاد البغدان و بلاد التتر المسماة « بودزياك » ومامن أحد ينازع فى اعطاء دالماسيا الى البندقية ولا فى اعادة المورة لها وقد انتزعت منها مذ عشرين سنة كما انه يجب اعطاء جنوة قسما من بلاد اليونان

فهذه خلاصة تقسيم الفتوحات بين الفاتحين وأنت ترى أن فرنسة وسويسرة وفرسان مالطة ليس لهم ذكر فى هذه التقاسيم وأغرب من هذا عدم اعطاء شئ للبابا . وكل هذا فيه نظر

ثم ان البرونى يقترح أن تكون ديانة الدولة فى القسطنطينية وفقاً لصلح وستفاليا (سنة ١٦٤٨) ولكن مع مراعاة الكنائس الارثوذكسية والارمنية والقبطية (١) ويقترح أن تكون المعاملات التجارية واحدة لا ترجيح فيها لاناس على آخرين . ومن جملة اقتراحاته طمس قلاع الدردنيل

أما كيفية الهجوم على تركيا فتكون على الوجه الآتى :

يزحف الروس صوب شبه جزيرة القريم ويأخذون آزوف . وفى الوقت نفسه تزحف جيوش بولونيا والدانمرك والسويد وتقطع نهر « دنيستر » وتفتح بلاد البغدان Moldavie وبلاد التتار و بلاد طرابزون

وتحتشد جيوش الألمان فى بلغراد وتهاجم « ودين » و « نيش » وقلاع الطونه

وتهاجم جيوش الفرنسيس وسائر الدول الجنوبية بلاد اليونان . وتجتمع الأساطيل وتهاجم جزيرة مدللى وجزيرة تنيدوس ثم الدردنيل ثم الاستانة و بعد انتهاء هذه الحرب بنيل المنى ينعقد مؤتمر دائم فى « رغنسبورغ » (مدينة فى باڤاريا) تمثل فيه جميع الدول المسيحية وتفصل فيه خصوماتها ومن لا يخضع منها للحكم يجبر على الخضوع بالقوة

قال « دجوڤارا » ان أربع دول بلقانية لم تنته من الحرب مع تركيا حتى اشتبكت فى حرب بعضها مع بعض لأجل قسمة الفتوحات وهذا برغم امبراطور الروسية الذى كان هو

---

(١) أى الاعتراف بكل ديانة الا الاسلام

الحكم فيما بينها . فكيف تريد أن تتفق دول أوربة بأجمعها على تقسيم البلاد العثمانية ؟ يريد أن يقول ان اتفاقات الدول على تقسيم الفتوحات هى أسهل فى النظر منها فى العمل

ثم المشروع الثالث والخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧٣٧

كان الروس اتحدوا مع النمسويين وهاجوا الترك سنة ١٧٣٧ الى سنة ١٧٣٨ وصد الباب العالى هاتين الدولتين معاً وأبدى قوة عظيمة الا أنه طلب توسط الدول الأوربية . وكانت فرنسة تعضده بواسطة سفيرها « ڤيلنوف » Villeneuve الذى كان يشدد الباب العالى ولا سيما فى منع الروس من الاتصال بالبحر الاسود خوفا من وصولهم الى البحر المتوسط . فانعقد مؤتمر الصلح فى « نميروف » من بولونيا وكان طلب الروس أن تكون لهم جميع سواحل البحر الاسود الممتدة من مصب الدانوب الى باطوم مع حرية الملاحة فى هذا البحر . وان تنضم الفلاخ والبغدان مملكة واحدة مستقلة الا ان الديانة الارثوذكسية فيهما تكون تحت حماية الروسية . وأما اوستريا فطلبت جميع بلاد الصرب ونيش وودين وبوسنه ونوفى بازار وكانت تسمو أيضاً الى أخذ الفلاخ Valachie فالباب العالى رفض هذه المطالب كلها واستؤنف القتال . فدخل الاوستريون بلاد الفلاخ ووصلوا الى بخارست الا ان الترك كسروهم فى « مهاديه » Mehadia وأخذوا « ارزوفا » وفى ١٠ نوفمبر سنة ١٧٣٨ تصالحت فرنسة مع السويد وعرضت هذه المحالفة على تركيا

أما الروس فقطعوا نهر « البروت » وفى ١١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ زحف المارشال مونيك الى « جاسى » وكانت فرنسة توسطت فى الصلح مع اوستريا وانعقدت معاهدة بلغراد فى ١ ستمبر سنة ١٧٣٩ و بقيت بلاد الصرب و بوسنه والفلاخ لتركيا . ولما رأت الروسية ان استريا تركت الحرب وصالحت تركيا ورأت السويد تهاجم من الوراء أعادت الى الباب العالى البلاد التى كانت احتلتها من ممالكه ورضيت بطمس قلعة ازوف واقتنعت بما كانت عليه قبل تلك الحرب من عدم الاتصال بالبحر الاسود

وكان صلح بلغراد هذا آخر صلح مجيد عقده الباب العالى مع أوربة وكوفئت فرنسة على عضدها لتركيا فى هذه المصالحة بتجديد الامتيازات الافرنسية فى تركيا وبزيادتها

ثم المشروع الرابع والخمسون وهو المنسوب الى المركيز «دارغنسون» Ditrgenson وتاريخه سنة ١٧٣٨

وكان هذا الرجل ناظراً لخارجية فرنسة لعهد لويس الخامس عشر ويقال انه كان على جانب عظيم من استقامة المبادئ حتى قال عنه ڤولتير : انه أحرى بأن يكون وزيراً فى جمهورية افلاطون من أن يكون وزيراً عند ملك فرنسة

وفى أواخر القرن الثامن عشر عادت فى أوربة حماسة النصرانية وتجددت العزائم لقتال الترك . وكان ڤولتير يدعو الى نصرة الأروام و « شنيه » Shenier ينظم الاشعار الحماسية لمقاتلة الترك . ونشر الكونت « دومارسيغلى » De Marsigli كتاباً اسمه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتقهقرها » وكان هذا الرجل طليانيا اشتهر بالعلم وخدم دولة اوستريا وأسره الترك سنة ١٦٨٣ فقال فى كتابه: «انه اذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانيــة من الوجود» أما الوزير دارغنسون فمع أنه كان يشاطر أبناء عصره هذا الشعور بحق تركيا كان يخالف الجمهور فى قضية تقسيم اسلاب هذه السلطنة فيقول : « انه لا يجوز أن نفتح بلدان تركيا ليستولى عليها الامبراطور بحجة انه هو حامى النصرانية وان تقويتــه لازمة . بل يجب أن يكون لكل واحد حصته من اسلاب تركيا وأن تؤسس على انقاض هذه السلطنة عدة ممالك مسيحية (١) وان لا يحصل خلل بالتوازن الأوربى وأن تعود بلاد اليونان الى مثل ماضى مجدها و يعود وادى النيل الجميل الى ما كان عليه وان تعاد النصرانية الى تلك البلدان وترتب ادارة للاراضى المقدسة الخ »

وقد تكلم دارغنسون عن وجوب اتفاق الدول المسيحية فقال : انه اجدر بها أن تتحد فى شبه جمهورية مسيحية من أن تستمر فى قتال بعضــها بعضاً وهكذا تفتح ممالك الاسلام فى أوربة وما صاقبها من سواحل افريقية الشمالية التى هى مجاورة لاوربة كثيراً كمملكة مراكش المجاورة لاسبانية ومن سواحل آسية الصغرى وسورية وفلسطين حيث الاراضى المقدسة الخ

ولقد تم هذا كله لكن من بعد زهاء مائتى سنة من العصر الذى كان فيه دارغنسون . وهو يعين العروش التى يرى ايجادها فيقول : يكون ملك لمكودنيــة وملك لليونان وامبراطور للقسطنطينية له بلاد الاناضول و يكون ملك لسورية وفلسطين وملك لمصر وملك للجزائر وتونس وملك لمراكش الخ

(١) أما المسلمون فلم يفكر بهم دارغنسون فى شىء بل وظيفتهم دائما أن يكونوا تحت حكم المسيحيين

ثم المشروعان الخامس والخمسون والسادس والخمسون أحدهما لكاترينا الثانية امبراطورة الروسية والآخر ليوسف الثانى امبراطور اوستريا وتاريخه سنة ١٧٧٢

قال دوجوڤارا : سنة ١٧٦٨ أعلنت تركيا الحرب على الروسية فانهزم الجيش العثمانى ودخل الروس الى بلاد الفلاخ واستولوا على اسماعيل و بندر واكرمان وكذلك ساعد الانكليز الروس فى البحر فظهروا على الاسطول العثمانى فى « چشمه » فتدخلت اوستريا فى الخلاف فعرضت عليها تركيا لارضائها تقسيم بولونيا فرضيت بذلك وانعقدت معاهدة تقسيم بولونيا فى ٥ أغسطس سنة ١٧٧٢ وانصرفت بها اوستريا عن البلقان واضطرت الروسية بسبب اتفاق تركيا مع اوستريا ان تخلى الفلاخ والبغدان وتعيدهما لتركيا الا أنه فى المعاهدة الصلحية التى انعقدت فى « كوچوك ڤاينارجى » سنة ١٧٧٤ فى ٢١ يوليو رضيت تركيا بأن يكون للروسية حق الدفاع عن رومانيا أى مملكتى الفلاخ والبغدان

وكانت اوستريا لا تزال طامحة الى الاستيلاء على رومانيا وكتب البارون « توىغوت » Thugut سفير اوستريا فى الاستانة الى حكومته ما يلى : « عند سقوط السلطنة العثمانية القريب ينبغى أن تخرج ولاياتها الشمالية كبوسنة وصربيا والبغدان والفلاخ فى نصيب أوستريا »

وفى أيام كاترينا الثانية قيصرة الروسية ويوسف الثانى امبراطور النمسا اشتد الخطر على السلطنة العثمانية أكثر من كل وقت نظراً لاتفاقهما على تقسيم هذه السلطنة . وكانت كاترينا هذه ألمانية الأصل الا أنها أفادت الروس ما لم يفده أحد من ملوكها وأكملت عمل بطرس الأكبر وأشاد بذكرها كبار العلماء مثل ڤولتير و « ديدرو » و « دالمبر » وغيرهم وحولوا الرأى العام صوبها . وكان ڤولتير يوصى فريدريك ملك بروسية بعدم معارضة كاترينا فى مشروعاتها المتعلقة بفتح القسطنطينية .

وأما يوسف الثانى امبراطور اوستريا ابن فرنسوا الأول ومارى تيريز فكان شديد العاطفة واسع الخيال سريع الحركة وكان فريدريك ملك بروسية يقول عنه : انه يحب العلم لكن ليس له صبر عليه . وقد عرفت كاترينا بدهائها مكان ضعف يوسف الثانى فأخذت تتزلف اليه وتطريه بغير ما فيه . وهكذا استولت على أفكاره وصار له بها اعتقاد شديد . وكانت هى التى اقنعته بتقسيم بولونيا ووافقها على ذلك فريدريك ملك بروسية . وهذا

الملك كان يرى أن اوستريا لا يمكنها أن تترك الروسية تستولى على رومانيا فلذلك سعى فى التعويض على الروسية من جهة بولونيا . ولكن كاترينا لم تكن لتنزل عن مطامعها من جهة تركيا وكانت تطالب ببلاد آزوف وتضيق على السلطان العثمانى فى رفع سيادته عن القريم وتحاول الدخول فى الفلاخ والبغدان . وكانت أوستريا تعاكس جميع مشروعات الروسية هذه ولذلك انتهى الأمر بالسماح للروس بأخذ الجانب الأعظم من بولونيا ووجدت أوستريا هذا الأمر أهون عليها من تقدم الروسية صوب الاستانة . وكانت أوستريا لو رأت من الروسية اصراراً على فتح رومانيا مستعدة لمناجزتها الحرب . وأخيراً رضيت الروسية بان تترك تركيا لرومانيا استقلالها التام و يولى على رومانيا أمير من بروسية . وما تم ذلك الا فيما بعد إذ جاء أمير من بروسية وجلس على عرش رومانيا بعد ذلك التاريخ بقرن كامل فأما فى ذلك الزمن فان النزاع بين الروسية واوستريا على رومانيا قضى ببقاء هذه تحت السيادة العثمانية . وكان فريدريك ملك بروسية يختار هذا الرأى خشية أن يجر هذا الخلاف الى حرب بين الروس والنمسويين . ولقد جرى تقسيم بولونيا كما تقدم الكلام فداء للنزاع على رومانيا الا أن أوستريا بقيت توّاقة الى أخذ رومانيا وخائفة عليها من الروسية

وكان الروس لا يزالون يقترحون اتحاد الدول الثلاث الروسية واوستريا و بروسية لأجل اسقاط تركيا . وكان ناظر الخارجية الروسية يقول ان مسئلة طرد الترك مما وراء نهر « دنيستر » لا تستحق اتحاد ثلاث دول عظام بل اتحاد دول ثلاث كهذه يجب أن يقضى على سلطانهم فى كل أوربة وفى قسم كبير من آسية . الا أن أوستريا كانت تخشى سقوط الدولة العثمانية التام لما وراء ذلك من استفحال أمر السلاف . وقد قال الامبراطور يوسف الثانى للسيو « دوسوغور » Segur ان القسطنطينية ستبقى دائماً محل منافسة بين الدول وتمنع من اقتسام تركيا . وقد كتبت الامبراطورة مارى تيريز الى الكونت « مرسى ارغنتاو » Mercy-Argenteau بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٧٧ ما يلى :

« ان اقتسام السلطنة العثمانيـة لأعظم المشروعات خطراً وأوخمها عواقب . وما ذا نستفيد لعمرى لو فتحنا كل هذه البلدان حتى صرنا على أبواب الاستانة ؟ اننا لا نفتتح هناك الا أقاليم و بيئة الهواء قليلة السكان متأخرة الثقافة أو مسكونة بأروام خبثاء لئام يكون من شأنهم أن يستنزفوا قوى مملكتنا بدلاً من أن يزيدوها . ثم اننا نخسر بهذا العمل ثقة

الناس بعهودنا وهذا هو الخسران المبين . ان تقاسم السلطنة العثمانية أشد ضرراً من تقسيم بولونيا الذى لم أرض به الا مرغمة حتى أجارى به جيرانى . فأنا لا أميــل أبداً الى تقسيم تركيا وأرجو ان احفادنا أنفسهم لا يرونهم خارجين من أوربة »

قلت : قد مضى على هذا الكلام مائة وخمسون سنة ولا يزال الترك فى الاستانة وفى ولاية تراقيا الشرقية من أوربة

ولما ماتت مارى تيريز سنة ١٧٨٠ خلا الجو لكاترينا الثانية وأخذت تعمل دسائسها لدى يوسف الثانى لاقناعه بتقسيم تركيا وأرسلت الى فرنسة أيضاً تقترح عليها الممالأة على هذا التقسيم وأن يكون لها مصر من أصل الأسلاب

وفى ٣٠ مايو ســنة ١٧٨٠ تلاقت كاترينا مع يوسف واتفقا على اسقاط تركيا واستلحاق بعض أجزائها واعادة الجمهوريات اليونانيــة القديمة . ثم فى سنة ١٧٨٢ كتبت الى يوسف صورة معاهدة سرية واقترحت أن يكون التقسيم بحيث لا يقع بسببه تصادم بين الممالك الثلاث بل تؤسس مملكة من الفلاخ والبغدان مستقلة تماما تمنع الاتصال بين الممالك الثلاث التى تخشى تجاورها ويكون ملك هذه المملكة الجديدة على المذهب المسيحى الأكثر عدداً فى الفلاخ والبغدان

أما الامبراطور يوسف فاستشار فى مذكرة كاترينا وزيره البرنس « كونتيز » Kaunitz الذى أجابه بان قبول اقتراح كاترينا على كل حال أقل ضرراً من رفضه وبانه يخشى أن كاترينا ان يئست من اوستريا تعود فتتفق مع بروسية

فاجاب الامبراطور يوسف كاترينا بكتاب مؤرخ فى ١٣ نوفمبر ســنة ١٧٨٢ مؤدّاه انه لا بد لنجاح مشروع التقسيم من قبول فرنسة وانه من جهة تأسيس مملكة ارثوذكسية فى رومانيا وأخرى فى القسطنطينية فإن هذا كله يتوقف على نتائج الحركات الحربية . وأما من جهة ما تقترحه النمسا فى هذا التقسيم لنفسها فهو استلحاق قسم من الفلاخ مع ضفتى الدانوب الى بلغراد ومن بلغراد يكون للنمسا على خط مستقيم الى بحر الادرياتيك مع دالماسيا وايستريا وان تكون حرية التجارة تامة فى نهر الدانوب عنــد مصبه وفى مضيق الدردنيل

ولما بلغ فرنسة هذا المشروع قاومته أشد مقاومة وقالت ان هذا المشروع اشبه بان

يكون اتساع السلطنة الروسية من أن يكون تقسيم السلطنة العثمانية وقال المسيو « ڤرغن » Vergennes للكونت « مرسى ارغنتاو » ما يلى :

« لا يوجد فى اوربة كلها دولة واحدة لا تبذل آخر جندى من جيشها وآخر درهم من مالها فى سبيل منع انهيار السلطنة العثمانية »

أما الامبراطورة كاترينا فاجابت الامبراطور يوسف بانها لا تطلب للروسية من الحقوق فى الدولتين الجديدتين اليونانية والرومانية أكثر مما ترضى به لاوستريا وان حرية الملاحة فى البحرين الاسود والابيض تكون مضمونة . وغاية ما فى الأمر انها تقترح عدم تصغير الدولة اليونانية ووجوب تسليمها الموره والارخبيل

وقد ظهر من هنا أن كاترينا بدأت تتعهد باسم الدولتين الجديدتين كأنهما من الممالك التابعة لها

قلت ان هذا المشروع قد تمَّ فيما بعد فتأسست دولة يونانية بعد هذا التاريخ بنصف قرن ودولة رومانية بعده بنحو من قرن كامل . ولكن لم يكن للروسية أن تسيطر ولا على واحدة منهما . هى قد غرست ولكن الثمرة لم تكن لها

ثم ان كاترينا أعادت السعى الحثيث لدى الامبراطور يوسف فى اتمام مشروع تقسيم تركيا وكان الامبراطور لا يزال يتذبذب فى الموضوع نظرا لشدة اعتراض فرنسة على هذا التقسيم . وجاء من فرنسة الى أوستريا مذكرة صريحة بان مشروع تقسيم كهذا شديد الخطر و بليغ الضرر لا سيما بمصلحة اوستريا .

فاجاب عليها الامبراطور يوسف بانه لم يمكن منع الحرب بين الروسية وتركيا ومن أجل ذلك لا يمكنه لاجل سلامة سلطنته فى الوقت الحاضر وفى المستقبل أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد

فعند ذلك قدم « برتيليمى » سفير فرنسة فى ڤينا مذكرة شديدة للنمسا ينتقد فيها خطتها و يقول : «انه بينما الاتراك يحافظون على عهودهم معها اذا هى تنتهز فرصة ضعفهم وتحاول أن تضربهم ضربة قاضية لتقتسم ميراثهم الخ» وفى آخر المذكرة شئ من التهديد مما ساء وقعه جداً على الحكومة النمسوية واوجب توتّر العلاقات بينها و بين فرنسة

وفى ٨ يناير سنة ١٧٨٤ اضطر الباب العالى أن يعقد مع الروسية معاهدة يتخلّى

بها لها عن شبه جزيرة القريم

ثم حدثت ثورات فى بلاد المجر وترانسيلفانيا حالت دون استيلاء الامبراطور يوسف على قسم من الفلاخ . وأشقّ من هـذا كان عليه خروج بلجيكا من يده . فمات من بعد هذه الحوادث غمّاً وتوقف كل شئ

ثم المشروع السابع والخمسون المنسوب الى «لنغه» Linguet وتاريخه ١٧٧٤ الى ١٧٧٦

كان «لنغه» هذا محامياً صحفياً افرنسياً خدم الامبراطور يوسف عاهل النمسا و بعد أن أقام زمناً فى أوستريا وقعت وحشة بينه و بين الامبراطور ففارقه وعاد الى باريز وهناك قتله رجال الثورة الفرنسوية بحجة أنه كان مؤيداً للملوك الظالمين كامبراطور أوستريا وملك انكلترة . وقد حرّر «لنغه» هذا المشروع أيام اقامته ببروكسل سنة ١٧٧٥ أو ١٧٧٦ وقدمه الى الخارجية الافرنسية وقد بقيت منه نسخة غير مطبوعة فى المكتبة الملوكية ببروكسل . وكان «لنغه» كاتباً شهيراً قال عنه ڤولتير «انه يحترق لكنه فى أثناء حريقه يضئ» .

وقد سمى «لنغه» مشروعه «طرد الترك من أوربة وتأسيس توازن سياسى جديد» فقال فيه انه لا خطر على أوربة الا من غارة تركية أو روسية . وقال كلاماً آخر عميق الغور وهو أنه اذا اقتضت السلم العامة اقتطاع نصف تركيا صار الأتراك أشد خطراً من ذى قبل بشدة تمرسهم بالقتال

وقال ان حصن أوربة من جهة الشرق كان بولونيا وهاهى قد سقطت . ولقد بقيت ألمانيا هى الحصن الحصين لاوربا من غارات الترك ولا شك أن ألمانيا قد أنقذت أوربة من عادية الترك مراراً الا أن الامبراطورية الجرمانية تشتمل على عناصر متعددة هى سبب كبير فى ضعفها . فماذا تستفيد اوستريا من هولاندة مثلاً ؟

ثم أخذ «لنغه» يذكر أمراض أوربة السياسية ويعددها . وأشار بتوسيع اوستريا من جهة تركيا . وقال ان الروسية لا تقدر أن تمنع تدخل أوربة فى هـذه المسألة . واجمال كلامه هو أن بروسية هى معقل أوربة من جهة الروس وان أوستريا هى معقل أوربة من جهة الترك وانه يجب التعويض على فرنسة لأجل التوازن الدولى باضافة هولاندة اليها

ثم المشروع الثامن والخمسون وهو مشروع «دوكارا» De carra وتاريخه سنة ١٧٧٧

كان «دوكارا» هذا ناموساً لأمير البغدان ثم للكردنيال «دو روهان» De Rohan ثم صار قيماً لخزانة كتب الملك فى باريز ولما ثارت الثورة الفرنسوية دخل فى زمرة الجاكوبيين Jacobins ثم انحاز الى الجير ونديين Jirondins ثم قتله رجال الثورة . وله تصنيف اسمه «بحث سياسى يتضمن اقتراح تقسيم تركيا» بدأ فيه بقوله «ان تركيا أصبحت بحالة يمكن فيها الفيلسوف نفسه ان يشير بفتحها» ثم ذكر اتفاق الروسية واوستريا على تركيا وتقدم اوستريا فى رومانيا وتقدم الروسية فى القريم وكرجستان و بلاد التتر والصين . وقال انه يجب تقوية بروسية لتكون حاجزا منيعاً بين الروسية والنمسا وكذلك تنبغى الموازنة بين قوى النمسا والروسية وبروسية وفرنسة . ثم قال : ان الأتراك هم الاعداء الطبيعيون الابديون للمسيحيين كما أنهم هم أعداء العلوم والصناعات فيجب طردهم من أوربة

أما كيفية التقسيم فان «كارا» يشير باعطاء اوستريا الفلاخ و بلاد البلغار والصرب و بوسنه وباعطاء بروسية بلاد البغدان و بسارابيا الى البحر الأسود مع قسم من بولونيا والروسية وباعطاء فرنسة المورة واقريطش وقبرص وجزر الارخبيل وباعطاء القريم وازوف للروسية . واما القسطنطينية وسائر تركيا فيجب أن تكون لجمهورية البندقية الا انه يكون أربعة مجالس فى القسطنطينية كل منها مؤلف من ١٢ عضواً مجلس للاستريين وآخر للفرنسيس وآخر للروس وآخر للبروسيين وأما اسبانيا فلها ان تفتح مراكش والجزائر وتونس . ثم يذكر كارا كيفية هجوم الجيوش المتحالفة لفتح تركيا مما يشبه البرامج التى سبقت فلا لزوم لشرحه

ثم المشروع التاسع والخمسون ولم يعرف اسم صاحبه وتاريخه سنة ١٧٨٨

وهذا المشروع تضمنته رسالة اسمها «خيال سياسى لتقسيم جانب من السلطنة العثمانية»

وقد ذكر هذا الكاتب المجهول انه يجب اخراج الترك من أوربة والاناضول وسورية وفلسطين وجميع شواطئ البحر المتوسط

وانه يجب تأسيس مملكة مؤلفة من تركية أوربة الى حد بوسنة ومعها سواحل الاناضول الى مايقابل رودس وتكون هذه المملكة لفرنسه

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من الاناضول وارمينية وكرجستان تعطى للروسية

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من بولونيا وكورلندة والبوجاق يكون عليها دوق توسكانا ويكون لفرنسة أيضا مصر وللامبراطور الفلاخ والبغدان وللروسية القريم والقوبان ثم تتأسس مملكة مؤلفة من سورية وفلسطين يكون صاحبها الدون فيليب الاسبانى . وتتأسس مملكة لاسبانية أيضاً فى مراكش . وتنقسم ايالات الجزائر وتونس وطرابلس بين اسبانية وصردانية ومودينا (امارة فى ايطالية)

وتكون حرية البحار مضمونة للجميع وكذلك حرية المرور بالبواغيز مثل البوسفور والدردنيل وجبل طارق

وان اتفقت الروسية واوستريا لتمنعا فرنسا من الاستيلاء على الاستانة وتوابعها يجب أن تتحالف فرنسة مع بروسية والسويد والدانمرك وممالك الشمال ويأخذن بيد بولونيا ويضفن اليها الفلاخ والبغدان وباسارابيا

ثم المشروع الستون وهو مشروع « ڤولناى » Volney وتاريخه سنة ١٧٨٦ فالكاتب الافرنسى الشهير ڤولناى أعلن تأييده للسياسة الروسية السلاڤية فى رسالة نشرها تحت عنوان «اعتبارات فى الحرب الواقعة مع الاتراك »

وكان الروس قد أعلنوا الحرب على الترك وحبس الباب العالى سفير الروسية فى الاستانة ثم انضمت اوستريا الى الروسية وأعلنت الحرب أيضا على تركيا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٨٨

فبدأ ڤولناى بذكر الممالك التى افتتحها الترك فى أقل من اربعمائة سنة وقال انهم أحسنوا فتح أجل بلدان العالم وأعظمها . الا انه من نحو مائة سنة ظهرت دولة اسمها الروسية كانت قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت بسرعة مدهشة وأصبح المستقبل لها . وسواء كان فى العالم المادى أو فى العالم الأدبى اذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته

ثم قال ڤولناى : ان تركيا يجب أن تنقرض (١) وانه كما أمكن الاتفاق على تقسيم بولونيا بين حكومتى ڤينا وبطرسبورغ يمكن اتفاقهما على تقسيم تركيا (٢) ولقد أشار

(١) مضى على كلام الفيلسوف ڤولناى هذا مائة وأربع.وأربعون سنة ولم تنقرض تركيا ولم تزل هى صاحبة القسطنطينية والاناضول . وما أصدق تلك الجملة : «الانسان يدبر والقضاء يضحك»

(٢) وهنا أيضا ضحك القضاء من الفيلسوف ڤولناى فقد نشر الله بولونيا من قبرها بينما الروسية جمهورية شيوعية واوستريا سلطنة فى الغابرين لم يبق منها الا الجزء الثامن مما كانت

ڤولناي علـى فرنسة وطنه بالاتفاق مع الروسية وجعلها الحليف الطبيعي لها [١] و بعـدم معارضتها فى نزع القسطنطينة من يد تركيا : اما تاج القسطنطنية فيشير ڤولناى باعطائه الى امـبراطور يونانى وان يكون له الموره والارخبيل وان يكون المرور بالبوسفور حراً . واما اوستريا فتعطى البانيا و بوسنه وسواحل الادرياتيك كما انه يجب ان يؤول الى الروسية بلاد الفلاخ والبغدان والبلغار

وذكر ڤولناى أن الآراء مقسمة فى فرنسة فيما يجب أن تعتاض به فرنسـة على افتراض سقوط تركيا . فبعضهم أشار بأخذ المورة واقريطش وقبرص . وآخرون مالوا الى فتح مصر . وڤولناى لا يرى فى المورة والجزر طائلا كما أنه يخشى اذا تعرضت فرنسة لمصر أن تقع فى حرب مع تركيا وانـكلترة والمصريين [٢] وكان من رأيه أن تتجرد فرنسة وقتئذٍ لاصلاح أمورها الداخلية وتـكتفى بذلك

ومما أصاب به ڤولناى قوله ان مهاجمة هذه الدول لتركيا سيفيد تركيا والشرق ويبعث يقظة عنـد الشرقيين . وقال ان شعوب تركيا أعظم استعداداً فى كثير من الأمور من الشعوب الأوربية لا سيما أهل الشمال منها . قلنا ومما لا مشاحة فيه ان أهل الأقطار الشمالية من أوربة يغلب عليهم شئ من البلادة لـكن هذا الجنس من البشر يمتاز بالثبات والجـد فى العمل وهكذا أصبح فى هذا العصر أرقى الاجناس وأ كملها مدنية برغم بلادته

ولقد رد على ڤولناى رجل يقال له «شارل دو بيسونل» Charles De Peyssonnel كان قنصلا لفرنسة فى ازمير ونشر رسالة قاوم فيها السياسة الروسية مقاومة شديدة وسفه رأى ڤولناى وأظهر تناقض أقواله اذ بينما هو يظهر الخوف من تبسط دول مفرطة الاتساع يشير بزيادة تـكبير الروسية فوق ماهى عليه . ثم قال هذا الرجل ان انـكلترة ستقاوم توسُّع دول كبيرة الى هذا الحد لأن وجودها يوقع خللا بالتوازن الدولى . وان فرنسة يصيبها من ذلك خسار كبير ان رضيت به

ومن أهم ما لحظه « بسيونل » هو انه ان تقدمت الروسية صوب البلدان العثمانية

---

(١) اما هذا فقد حققته الايام من بعد مائة سنة من كلام ڤولناى

(٢) فى هـذه صح كلام هذا الفيلسوف لأن كل هـذا حصل في زمن نابليون بعد كلام ڤولناي ببضع عشرة سنة

ودخلت هذه فى حوزتها جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين فى هذه البلدان على الحرية التى يتمتعون بها فى ظل الترك وذلك بما سيقاسونه من فظائع الاستعباد الروسى الذى يعرفه جميع الشعوب التى دخلت تحت حكم الروسية

وأخذ « بسيونل » يذكر التوحش الذى كان لا يزال عليه الشعب الروسى وكيف ان أكثره ارقّاء للامراء وكيف ان بلادهم أكثرها غابات أشبه تسكنها الوحوش الضارية وخاطب ڤولناى قائلاً : « أمن مثل هؤلاء تنتظر الخير » ؟

ثم أخذ بسيونل يصف المسامحات العظيمة الخارقة للعادة التى يتمتع بها المسيحيون فى ظل سلاطين آل عثمان ويذكر الامتيازات المعطاة للأجانب مما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى وقال : «ان جميع ما فى تركيا من الأوضاع يهيئها لتكون سلطنة عظيمة وانما هى محتاجة الى رجل عظيم ينفذ ذلك». وختم بسيونل كلامه بما ستتعرض له فرنسة من الخطر اذا سمحت للروسية واوستريا بتقاسيم أملاك تركيا

ثم المشروع الواحد والستون وصاحبه « دوبريون دولاتور » De Brion De la Tour وتاريخه ١٧٨٨

وهذا الرجل قد رد أيضاً على ڤولناى واتهمه بالضلع مع الروسية . وحرر هو مشروعا خاصاً به سماه « اقتسام جلد الدب » أو « رسالة الى صاحب حلم تقسيم السلطنة العثمانيه »

وقد بدأ « دولاتور » هذه الرسالة باثبات ان الأتراك لم يكونوا معتدين وان سلطنة الروسية أصبحت واسعة جداً وانه ليس يكون اصلاحا لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا ادخالهم تحت حكم الروسية

وقال انه لا يمكن تقسيم سلطنة عظيمة كالسلطنة العثمانية بدون حروب ومنازعات لا سيما بين الروسية واوستريا

غير ان «دولاتور» أشار بمعالجة المرض باحداث أربع ممالك الأولى القسطنطينية مع تركية أوربة الى بوسنة ومصب الطونة ومعها سواحل الاناضول وقسم من الارخبيل وهذه يتبوأ عرشها أمير افرنسى . الثانية الأناضول والقوقاس ويكون عليها الامير قسطنطين ابن أخى كاترينا امبراطورة الروسية . والثالثة بولونيا وكورلاندة و بسارابيا ويكون عليها

دوق توسكانا ابن أخى الامبراطور يوسف الثانى . والرابعة سورية وفلسطين ويتولاها دوق پارم

ثم يحدث ممالك فى شمالى افريقية تكون منها مصر ومراكش تحت سيطرة فرنسة أما الفلاخ والبغدان أى رومانيا فتكون لاوستريا

وقد حدث يومئذ ان انكلترة أرادت التقرب من كاترينا امبراطورة الروسية واقترحت عليها تقاسم النفوذ فى شرقى أوربة والشرق الاقصى فامتنعت كاترينا من اجابة اقتراحها . فعادت انكلترة واتفقت مع بروسية بموجب معاهدة ١٣ أغسطس سنة ١٧٨٨ وقررتا أن تكونا يداً واحدة فى أمور الشرق . ثم أخذت انكلترة تدافع من ذلك الوقت عن وجود تركيا توقيفاً لامتداد الروسية. وقد استفادت تركيا مدة طويلة من هذه السياسة

ثم المشروع الثانى والستون وهو مشروع « هرتزبرغ » Hertzberg وتاريخه سنة ١٧٩٢

وكان هذا الرجل ألمانيًّا من « بومرانيا » وكان من العلماء والمؤلفين وتقلد نظارة الخارجية البروسية لعهد فريدريك الكبير ثم لعهد فريدريك ويلهلم الثانى وصار له الحول والطول وفى أيامه صارت برلين مركز السياسة فى أوربة

وكانت خلاصة اقتراح هرتزبرغ أن تأخذ الروسية سواحل البحر الاسود الى مصب الطونه وأن تأخذ اوستريا الفلاخ والبغدان وترد فى مقابلة ذلك غاليسيا للبولونيين وهؤلاء يتخلون عن « تورن » و «دانتزيغ» لبروسية

وكان هرتزبرغ قد كتب الى سفير بروسية فى الاستانة فى ٣ ابريل سنة ١٧٨٨ قائلا له : «اذا كان الباب العالى سيضطر للنزول عن احدى ولاياته فليعمل ذلك بواسطة بروسية ليمكن هذه أن تنال عوضاً من جهة أخرى فان لم يفعل اضطرت بروسية الى التحالف مع الامبراطوريتين والدخول فى الحرب معه»

الا أن الأتراك كانوا فى أول هذه الحرب غالبين فلم يرعهم هذا الانذار واشترطوا على هوتزبرغ لقبول اقتراحه أن يعلن الحرب على النمسا . وفى ٣٠ يناير سنة ١٧٩٠ انعقدت معاهدة الصلح على أن تعود الى تركيا جميع الولايات التى كانت خسرتها ومن جملتها القريم

فخاب أمل هرتز برغ من جهة استلحاق بلدان كان يرجو الاستيلاء عليها بواسطة هذه الحرب . وكان الامبراطور يوسف الثانى أشد الناس معارضة لتبسُّط بروسية وكتب فى ٧ يناير سنة ١٧٨٨ الى « مرسى ارغنتاو » يقول له : « لا أقدر أن أرى فى ملك بروسية الا عدواً لبيتى ولا أرى فى كل زيادة يزدادها الا نقصاً من قوتى »

أما فرنسة فقد كانت استحسنت عدم توسيع بروسية من أملاك بولونيا واتفقت فى هذه المسئلة مع الروسية . ولم ينفذ شئ من مشروع هرتز برغ هذا

ثم المشروع الثالث والستون وهو مشروع « تاليران » Talleyrand وتاريخه ١٨٠٥

كان تاليران أشهر من أن يعرَّف ولد فى باريز فى ١٣ فبراير سنة ١٧٥٤ ومات فيها فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٨ وكان ناظراً للخارجية الافرنسية مدة طويلة فى أيام نابليون الاول ولويس الثامن عشر . وهو من نوابغ الدهر فى السياسة يضرب به المثل . وقد كثر فى زمان تاليران التحدث بتقسيم السلطنة العثمانية أكثر من ذى قبل لان عصر نابليون كان عصر حروب وانقلابات وثلّ عروش وهدم ممالك وتأسيس ممالك فلا عجب أن يكون تقسيم هذه السلطنة أصبح محور الكلام . قال « ڤندال » : « لم يكن فى ذلك الدور رجل سياسة الا وعنده برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية هو محتفظ به لوقت الحاجة »

أما تاليران فلم تكن سياسته ترمى الى غرض الاتحاد مع الروسية بل كان يرى تقوية العنصر السلافى خطراً ويحب أن يعزز اوستريا فى وجه السلاف . ولتاليران تقرير حرره فى ستراسبورغ فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٥ وقدمه لنابليون ومآله الاتفاق مع اوستريا دون بروسية كما أنه يفصل مصالح اوستريا عن مصالح انكلترة ويحاول توجيه الجميع الى مقاومة الروسية . وقاعدة تاليران السياسية فى الشرق كانت هى أن الترك صاروا الآن لا تخشى غائلتهم بل صاروا هم يخشون غوائل الآخرين وقد قام مقامهم الروس وصاروا خطرا على أوربة . وليس لاوربة الآن فى وجه الروس حصن أمنع من النمسا فيجب تقويتها لتثبت امام الروسية .

وكان تاليران يريد اعطاء الفلاخ والبغدان و بسارابيا وشمالى بلغاريا للنمسا منعا لامتداد الروسية الى الجهة الاوربية . وكان يقول لبونابرت : « بعد أن تهزم جيوش النمسا فى معركة فاصلة يكون من باب الجزم أن تقول للنمسا : احتلّى الفلاخ والبغدان و بسارابيا

وأنا أحمل الباب العالى على تخليتها لك . وان عارض الروس فى ذلك كنت معك عليهم . وهكذا تعقد مع النمسا أمتن صلح بعد أن تكون أحرزت عليها أبهر نصر »

وكان تاليران قاطعاً الأمل من نهضة تركيا ذاهباً الى أن اقتطاع كثير من ولاياتها يزيدها قوة ولا يُضعفها كما يُظن وانه يمكن اعطاء هذه الولايات الدانوبية لامبراطورية أوستريا وعقد معاهدة بينها و بين الباب العالى تتعهد بها هذه الامبراطورية بالمحافظة على سلامة السلطنة العثمانية . ولكنه كان يريدان يقتطع من أوستريا بعض مقاطعات من جهة ايطالية بمقابلة ماكان يقترحه من اضافة الفلاخ والبغدان و بسارابيا الى أوستريا

وقد كان رأى تاليران هذا من الصواب بمكان . ولكنه لم يكن ضروريا اعطاء رومانيا و بلغاريا لامبراطورية النمسا من أجل وضع هذه فى وجه الروسية فان المناظرة بين هاتين الدولتين كانت واقعة لا محالة بهذا وعدمه

على أن الامبراطور نابليون رد اقتراح تاليران ومال الى التحالف مع الروسية كما سترى

ثم المشروع الرابع والستون وهو مشروع نابليون الأول واسكندر الأول وتاريخه سنة ١٨٠٨

قال نابليون فى منفاه بجزيرة القديسة هيلانة : « تذاكرت مراراً مع الروس فى أمر قسمة السلطنة العثمانية وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التى كانت دائما سببا لمنع الاتفاق فقد كان الروس يريدونها وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها فان القسطنطينية وحدها مملكة ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا »

وقال نابليون مرة أخرى « القسطنطينية مفتاح العالم »

الا انه فى قضية السلطنة العثمانية لم يكن على رأى ثابت فتارة كان يميل الى مجاراة الروسية فى فصم عراها وطوراً كان يأبى ذلك كل الاباء . وقد كتب الى سباستيانى سنة ١٨٠٦ بخط يده : « انى لاأريد أبداً تقسيم السلطنة العثمانية ولو أخرجونى بثلاثة أرباعها انى لاأرضى بذلك أصلا . وكل ماأريده انما هو تقوية هذه السلطنة فى وجه الروسية »

ولكن نابليون كان سنة ١٧٩٧ كتب الى الحكومة المركزية يقول : « اننا من جزر اليونان ومالطة الخ يمكننا أن نراقب أحوال السلطنة العثمانية حتى اذا انهارت كان لنا

نصيب منها »

وقد كانت علاقات نابليون مع اسكندر الأول قيصر الروسية بادئ ذى بدء غير متينة بل كانت أقرب الى التراخى . وكان جماعة اسكندر مثل الكونت « كوتشوبى » و « نوڤوسيلتزوف » و « كزارتوريسكى » و « ستروغونوف » أعضاء جمعية الخلاص أضداد سياسة الاتفاق مع فرنسة وأنصاراً لسياسة الاتفاق مع انكلترة . الا أن نابليون كان يتزلف الى اسكندر وقال لسفيره ماركوف سنة ١٨٠٢ « الا يوجد فى أمراء الأسرة المالكة فى الروسية من يرث عرش القسطنطينية »

ولما توج نابليون امبراطوراً على فرنسة حصل تحالف دولى عليها مؤلف من الروسية والسويد وانكلترة والنمسا وبروسية وتركيا ونابولى واقترح تاليران على نابليون عقد اتفاق مع النمسا الا أن نابليون بقى يؤثر سياسة التقرب الى الروسية وقال للبرنس « دولغوروكى » Dolgorouki : « لماذا يحاربنى الامبراطور اسكندر ؟ ماذا يريد منى ؟ ماعليه الا أن يوسع حدود مملكته من جهة ممالك جيرانه لاسيما الترك وحينئذ يرى أن ليس بيننا و بينه خلاف »

ولما انتصر نابليون فى وقعة « اوسترليتز » الشهيرة (٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥) عقد اتفاقاً مع بروسية تقررت فيه سلامة أملاك السلطنة العثمانية .

وأغرى نابليون الترك بمحاربة الروس فآذنوهم بحربهم فى ٢٧ ديسمبر سنة١٨٠٦ وهزموهم وبعد ذلك رضى الامبراطور اسكندر بتدخل فرنسة فى الصلح بين الروسية وتركيا

وكتب نابليون من ڤارشوڤا الى مجلس السنات فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٧ يقول لهم : « إذا سقطت مملكة القسطنطينية لم يمكن أحداً أن يعرف مايتبع ذلك من المصائب والحروب . . . وان ارتفع تاج هذه البلدة على رأس يملك من البلطيك الى البحر المتوسط لم يبعد أن نجد أقواماً من البرابرة هاجين على فرنسة من جهة البحر » يعنى بذلك الروس

غير ان نابليون برغم هذه العبارات لو علم أنه يخرج بشقص يرضيه من انقاض السلطنة العثمانية لما كان يأبى الموافقة على قسمتها

وكتب تاليران فى ٢٧ يناير سنة ١٨٠٧ الى سفير فرنسة فى ڤينا يقول له ان عقدة

العقد كلها هى تركيا وانه من الواجب المحافظة على وجـودها الى أن نرى أمكان حفظها بأجمعها مستحيلا فيجب حينئذ الاتفاق بين النمسا وفرنسا على قضية تقسيم انقاضها

ثم انه بعد معركة « فريدلاند » وغلبة نابليون على الجيع تلاقى مع اسكندر فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ فى نهر « نيمون » بقرب « تيلسيت » وحضر الاجتماع فريد ريك ويلهلم ملك بروسية ومعه وزير خارجيته البرنس « دوهاردنبرغ » فكانت بروسية هى التى اقترحت تقسيم تركيا وذلك على ان الروسية تأخذ قسما من الفلاخ والبغدان و بلغاريا والروملى مع البواغيز واوستريا تأخذ دالماسيا وبوسنه وصربيا وفرنسة تأخذ بلاد اليونان والجزر وان بولونيا تصير تحت تاج ملك الساكس ومملكةالساكس تؤول الى بروسية

وقدرضى نابليون وقتئذ بصيرورة رومانيا و بلغاريا الى الروسية الاانه أراد توسيع حصة فرنسة باضافة البانيا أو بوسنة الى بلاد اليونان التى ستكون لفرنسة . وفى ٧ يوليو سنة ١٨٠٧ انعقدت ثلاث معاهدات وتقرر خروج العساكر الروسية من رومانيا الا ان نابليون قال لاسكندر الأول انه لاينبغى له أن يكترث لهذه المسئلة واتفق معه على مقاسمة سرية هذا نصها :

« ان كان الباب العالى لم يقبل وساطة فرنسة أو قبلها ومضت ثلاثة أشهر على المفاوضات ولم تأت بنتيجة حسنة تتفق فرنسة مع الروسية وتخلصان من يد تركيا جميع ولاياتها الأوربية مستثنى من ذلك الاستانة وولاية الروملى [1]

وفى أثناء ذلك مات السلطان سليم الثالث حليف نابليون فقال هذا لامبراطور الروسية : « هذا ايذان لى من الله بأنى صرت فى حِلّ من معاهدتى مع تركيا التى أصبحت لاتقدر على البقاء » وأرسل تهديداً بواسطة ناظر الخارجية الى الباب العالى فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٠٧ مآله انه ان كانت تركيا صالحت انكلترة وانفصلت عن فرنسة فقد بحثت عن حتفها بظلفها ويعود الامبراطور (أى نابليون) ويقبل التقسيم الذى عُرض عليه فى تيلسيت وتنتهى حياة تركيا

وأرسل اسكندر الاول الى الكونت « تولستوى » سفيره فى باريز يطلب بسارابيا والفلاخ والبغدان وقلاع بندر واكرمان وكيليا واسماعيل وهوتين وساحلا من الساحل

(١) هذا قريب مما هى الحالة اليوم

الشرقى من البحر الأسود وان تؤسس امارة لصربيا ونقل « ساڤارى » سفير فرنسة فى بطرسبرج عن اسكندر الأول انه قال له :

« ان الامبراطور قد بدأ يعرف ان بقاء الترك فى أوربة مستحيل وانه ان كان لابد من سقوط سلطنتهم فى أوربة فالروسية يجب أن ترث قسما منها . وهذا ما فهمته منه فى أثناء كلامى معه فانا ماذكره الا بوعده »

ثم ان سفير الخارجية الروسية «رومیانتزوف» قال لساڤارى سفير فرنسة «ان السرعة فى العمل أصبحت متحتمة ويجوز ان تسقط السلطنة العثمانية من نفسها بدون هزاهز فنوجد بازاء انقاضها شئنا أم أبينا »

وكان نابليون لايزال متردداً فى الموضوع خائفا من أنه اذا اسقطت السلطنة العثمانية تقوى الروسية كثيراً وتستفيد انكلترة من تلك الفرصة فتستولى على مصر

وكان يجتهد فى اقناع الروسية بعدم التهافت على هذا المشروع وكتب مرة الى الجنرال « كولنكوره » Colaincourt الذى خلف « ساڤارى » فى سفارة فرنسة فى بطرسبورج يقول له :«ان مراده بقاء السلطنة العثمانية كما هى وان تكون عائشة فى سلام مع الروسية وفرنسة ويكون للترك القلاع التى على الدانوب مثل اسماعيل . ولكن ان كانوا فى بطرسبرج مستعجلين كثيراً فى هذا المشروع فانه لايعاكسهم فيه غير أنه يؤثر ان تقع قسمة السلطنة العثمانية بين الروسية وفرنسة لاغير وذلك بموجب اتفاق من قبل »

ثم ان نابليون كان يبعث الى القيصر اسكندر بأنه هو لا يخلى البلاد التى يحتلها من بروسية الا اذا اخلت الروسية الفلاخ والبغدان

وكان نابليون يقترح على قيصر الروسية ثلاثة وجوه أحدها أن يخلى الروس الفلاخ والبغدان و بمقابلة ذلك يخلى الفرنسيس مااحتلوه من أراضى بروسية . الثانى أن يأخذ الروس هذه الويالات الرومانية وتأخذ فرنسة فى مقابلتها ولاية سيليزيا من بروسية الثالث أن يجرى تقاسم السلطنة العثمانية على وجه تعرف فيه فرنسة من قبل ماذا سيخرج فى نصيبها ؟

اما اسكندر الأول فكان لايسمح لنابليون بتمزيق بروسية . وكان يبعث الى نابليون بأنه ان كان أخذ الروسية للفلاخ والبغدان يستلزم ان يكون العوض عنه من ملك بروسية فانه يقلع عنه ولا يرضى بمبادلة كهذه ولو كان البدل هو سلطنة آل عثمان كلها

وكان اسكندر الأول يعرض عـلى نابليون بمقابلة سليزيا ولايات عثمانية مثل المورة والبانيا ولـكن نابليون كان متمسكاً بسيليزيا . وكان معظم سبب خوف اسكندر من بقاء الفرنسيس فى سيليزيا انه يتقى جوارهم للروسية وأرسل الى نابليون قائلاً له : «انت قلت لى ان تجاور الدول الـكبرى غير مستحب لأنه يؤدى الى النزاع»

وكان نابليون يوصى سفرآءه فى بطرسبوج بأن لا يقطعوا أمـل الروس من تقسيم سلطنة آل عثمان لـكن يجتهدوا ان يعلموا ماذا سيكون نصيب فرنسة من هذه القسمة

وأخيراً أرسل الى الروس يقول لهم انه يؤثر تأخير هذا المشروع الى مابعد صلحه مع الانـكليز أو الى مابعد نزعه من أيديهم السيادة على البحر المتوسط لأنه ان وقع هـذا التقسيم وهم على ماهم عليه من سيادة هذا البحر كانوا هم المستأثرين بانفس اسلاب السلطنة العثمانية

وقد أشار نابليون الى هذا المعنى فى كتاب شهير حرره الى القيصر اسكندر فى ٢ فبراير سنة ١٨٠٨ يعرض عليه اقتسام سلطنة آل عثمان وهدم دولة الانـكليز فى الهند ويقول له انه يحسن إغزاء جيش مؤلف من ٥٠ ألف جـندى افرنسى وروسى ونمسوى يزحف الى القسطنطينية فيأخذها ويتقدم صوب الفرات فهو لايصل الى هناك حتى ترجف انـكلترة خوفا فترضى بالصلح . وطلب نابليون من اسكندر المواجهة لعقد هذا التدبير

ولـكن اسكندر كان يأبى الا حمل نابليون عـلى اخلاء سيليزيا . وكان يقول ان فى يد فرنسة بلداناً مثل « هانوفر » و « البرتغال » و « اترورIا » (من ايطالية) هى كافية للتعويض من الفلاخ والبغدان اللتين يقـدر اسكندر أن ينتزعهما من تركيا بدون رضى نابليون اذا شاء

وقيل ان نابليون رضى احدى المرار بأن يعطى استانبول للروسية زاعماً انه يبعدها الى آسية . ولـكن هذا لاينطبق على تصريحاته المتعددة بشأن أهمية الاستانة . وذهب المسيو «ڤندال» الى أنه ان كان ثبت ان نابليون رضى باستيلاء الروسية على القسطنطينية فيكون على شرط ان لايكون لها الا البلدة ومضيق البوسفور فقط وان يكون مضيق الدردنيل بيد فرنسة

وفى سنة ١٨٠٨ كان هناك برنامجان أحـدهما فرنسوى والآخر روسى . فالبرنامج الفرنسوى كان يعطى فرنسة جميع سواحـل الادرياتيك واليونان الى سلانيك مع هذه

البلدة . أما الروسى فكان يعطى الروسية الامارات الرومانية وقسما من صربيا الى نهر المريج الى البحر الرومى مع ساحل مرمرة الأوربى مع القسطنطينية و بعض سواحلها الأسيوية. و يبقى للترك ساحل مرمره الآسيوى . واما اوستريا فيكون لها الأراضى الواقعة بين حصتى فرنسة والروسية بحيث هاتان الحصتان لاتتماسّان . و يكون لفرنسة الخيار فى تحديد حدود حصتها مع اوستريا سواء كان فى بوسنة او مكدونية اوكرواسية . ثم يؤول الى فرنسة عدا سلانيك و بلاد اليونان والبانيا جزائر الارخبيل ومصر وسورية والسواحل الغربية من الاناضول (بر القرمان

و برغم هذا كله بقى نابليون يضن على الروسية ببلدة القسطنطينية والدردنيل الى أن رضى اسكندر الأول بجعل القسطنطينية مدينة حرّة . وهى فكرة طالما اقترحها الصحفيون فى القرن التاسع عشر

قال «دجوڤارا» الرومانى صاحب كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » : «تأمل فى القسطنطينية مدينة حرة محاطة من كل جانب بمملكة عظيمة تعمل للسيادة على الشرق باسره »

ثم قال : «ان الروسية لم تفتأ فى كل فرصة تعمل للوصول الى القسطنطينية وقد جرى محاورة بين ناظر الخارجية الروسية رومانيتزوف وسفير فرنسة كالنكور قال فيها الناظر ما يلى ملخصاً : —

« كانت فرنسة تتوق دائماً الى الاستيلاء على مصر وفى أيام كاترينا الثانية سمحت لنا بأخذ القسطنطينية على شريطة أن نسمح لها بأخذ مصر . وفى الملاقاة التى جرت بتيلسيت تقرر أن نأخذ نحن الفلاخ والبغدان و بلغاريا وتأخذ فرنسة البانيا واقريطش . وأما اوستريا فلم تعمل شيئاً لتأخذ مكافأة . ولكننا نرى أن لا بأس بالاستعانة بها فلتأخذ كرواسيا أو فليجلس ارشيدوق نمسوى على كرسى امارة الصرب . اننا نحن لانبغى الاستانة الا بمقتضى جغرافية البحر الاسود الذى هو بحرنا »

وفى مجلس آخر وقع بين هذا الناظر وهذا السفير كلام فقال الناظر للسفير : «يمكن فرنسة أن تأخذ عدا البانيا والمورة والارخبيل مصر وسورية . أما نحن فلا نبغى الا الفلاخ والبغدان و بلغاريا وصربيا . وأما اوستريا فتأخذ كرواسيا وقسما من بوسنه »

فقال له السفير : «أرى حصتكم ازدادت عما كانت فى مجلسنا الأول فاذا كان هذا هو المنهج فانى أراكم آكلين كل شئ» . فقال الناظر الروسى : «لنتكلم عن القسطنطينية انه ان كان لا مناص من تقسيم تام لتركيا فهذه المدينة مع مضيق البوسفور والدردنيل يجب أن تكون لنا . وتكون الصرب يومئذ لاوستريا مع الروملى وقسم من مكدونية لتفصل بيننا وبينكم . وأنتم الفرنسيس يبقى لكم قسم من مكدونية وقسم من الروملى ومعهما مصر وسورية» . فقال السفير : «ان هذه القسمة لضيزى والقسطنطينية وحدها أحسن من كل ما تعرضونه فى أوربة وأنا لا أرى سهلا فتح القسطنطينية لكن لنفرضه ممكنا فلا أرى موافقا أن يكون الدردنيل فى يد الدولة التى تملك الاستانة». فقال الناظر : «لمن يكون الدردنيل اذاً»؟ فقال السفير : «يكون لفرنسة». فقال الناظر : «اذا كنتم تأبون الا الدردنيل فيجب أن تكون صربيا لنا» . فقال السفير : «وماذا تبقون لاوستريا ؟ ان الجغرافية تأبى أن تجعل صربيا لكم »

وأما اسكندر الأول فلم يكن يرضى باعطاء الدردنيل الى فرنسة وقال لكولنكور : «أنا لاأريد أن أصير الى جوار أصعب علىّ من مجاورة الترك . فالروسية تريد القسطنطينية مع الدردنيل »

وكتب كولنكور الى نابليون فى ١٦ مارس سنة ١٨٠٨ يقول له : «لنفرض انك ضممت ايطالية واسبانية الى فرنسة وقلبت الدول واشترطت معاونة الاسطول الروسى فى البحر الاسود وقسم من الجيش البرى فى فتح مصر ونلت جميع التأمينات اللازمة وعملت جميع ماتشاء من المعاوضات مع اوستريا فان الروسية اذا صارت الى يدها الاستانة والدردنيل عملت فيما بعد كل ما تريد »

وفى ذلك الوقت كتب السلطان كتاباً خاصاً الى نابليون يستمده فيه أن يحافظ على سلامة السلطنة العثمانية . فأخذ نابليون يشوق الامبراطور اسكندر فى التبسط الى جهة الشمال وهكذا استولت الروسية على فنلاندة . وبقى الخلاف مشتداً بين الروسية وفرنسة على حيازة الدردنيل. وأخيراً تحررت اقتراحات بالكتابة فكانت اقتراحات الروسية مايلى:—

ان كان الاتفاق على محالفة بسيطة يكون للروسية بسارابيا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ولفرنسة البانيا وقسم من بوسنه والمورة واقريطش . ولاوستريا قسم من بوسنه

مع كرواسيا. وتصير صربيا امارة مستقلة يليها ارشيدوق نمسوى متزوج بغراندوقة روسية»

«وان كان الاتفاق على تقسيم السلطنة العثمانية فالروسية تأخذ الفلاخ والبغدان و بسارابيا و بلغاريا وقسما من الروملى الى نهر المريج . وفرنسة تأخذ بوسنه والبانيا والموره واقريطش وقبرص ورودس وجميع جزر الارخبيل وازمير وسواحل الشرق الأدنى وسورية ومصر . واوستريا تأخذ الصرب ومكدونية الى البحر الاسلانيك وما تبعها مما يجب أن يبقى لفرنسة . وكرواسيا تكون لاوستريا أو لفرنسة. والدول الثلاث يشتركن فى حملة على الهند»

وكان كولنكور سفير فرنسة فى بطرسبورج يبدى اعتراضات ويحتفظ فى الأمور الآتية ١ قضية استيلاء الروس على القسطنطينية ٢ ضرورة استيلاء فرنسة على الدردنيل ٣ تأسيس حكومة مستقلة فى الاستانة ٤ وجوب اشتراك الروسية فى الحملة التى ستساق على مصر وسورية وتأخذ عوضاً عن ذلك بلادا مما يلى طرابزون

وفى ١٠ مارس سنة ١٨٠٨ انعقدت الجلسة الخامسة بينهم فاعلن ناظر الخارجية الروسية رومیانتزوف أن الروسية مصرة على أخذ الاستانة والدردنيل معاً . فالسفير كولنكور لم يسعه الا أن يترك الشاطئ الاوربى من الدردنيل مع بقاء الشاطئ الآسيوى لفرنسة . وقد رفض ناظر الخارجية الروسية اشتراك الروس فى الحملة على مصر وسورية الا اذا كانت نفقات الاسطول الروسى على فرنسة

ولما اشتدت صعوبات التقسيم رغب الامبراطور اسكندر فى مقابلة نابليون . و بقى كولنكور يعارض فى استيلاء الروسية على القسطنطينيه والدردنيل ويكتب الى نابليون مخوفاً اياه من عواقب وجود الروسية فى القسطنطينية و بيدها تلك المضايق

وفى ٢٤ يونيو ١٨٠٨ جرى بين الامبراطور اسكندر الأول وسفير فرنسة المحاورة التالية :

الامبراطور — القسطنطينية بعد خروج الترك منها لا تكون الا مدينة متطرفة والجغرافية تقضى بوجودها بيدى لانها ان كانت بيد غيرى لا أكون حراً فى منزلى بعكس غيرى الذى لا تهمه . فالقسطنطينية مفتاح بيتى والامبراطور (يعنى نابليون) لا يقدر أن ينكر ذلك .

السفير — الا أن هذا المفتاح هو مفتاح تولون وكورفو ومفتاح تجارة العالم .

الامبراطور — يمكننا الاتفاق على أن هذا الممرّ يبقى حرا للتجارة ولا يجوز سدّه

بوقت من الأوقات .

السفير — لوكان ملك جلالتك دائماً لما كان لنا شبهة فى هذه التأمينات ولكن قد يأتى امبراطور للروسية لا يدون حليفاً لفرنسة ... فاذا كان لا بد من مجاراة الوزير رومیانتزوف لا يبقى قوة فى الشرق الا للروسية ويختل التوازن الذى هو ضرورى لحفظ السلام . فالدردنيل أو الاستانة نفسها فى يد فرنسة لا محذور منهما اذ هما بعيدتان عن فرنسة وأما فى يد الروسية فهما قوة هائلة . اه

هذا و بينما كانت الروسية وفرنسة تتنازعان على هذه القسمة وكل منهما تشد من جهتها اذ جدّت حوادث ذات بال فى تركيا واسبانية وأوستريا وكثرت المشكلات على نابليون فمال الى التساهل وأرسل الى سفيره كالنكور بانه حاضر لاخلاء البلاد التى يحتلها من بروسية بدون مطالبة الروسية باخلاء الفلاخ والبغدان

ثم تقرر أن الامبراطورين يلتقيان فى ارفور Erfurt (من الساكس) وقد وصل اليها نابليون فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ ووصل اسكندر وأقاما بها ١٨ يوماً . وابتدأت المفاوضات فى ٢٩ سبتمبر وتقرر أن الامبراطور نابليون يرضى بأن الفلاخ والبغدان تصيران ملكاً للروسية و يصير الدانوب هو الحد الفاصل . ولكن اشترط حفظ هذا السر موقتاً وعدم القيام بحركات عسكرية الى ١ يناير سنة ١٨٠٩

ثم تقرر بين الامبراطورين انه ان وجدت صعوبات لم تتمهّد بينهما يعودان فيلتقيان مرة ثانية وأما من جهة سائر أملاك تركيا أى ما عدا الفلاخ والبغدان فتقرر بينهما عدم البت فى شئ بدون اتفاق سابق

ورجع الامبراطور اسكندر غير راضٍ باطناً من الامبراطور نابليون وصار يتربص به الدوائر . ولما انكسر جيش نابليون فى « اسلينغ » Essling [1] كان أول شامت به الامبراطور اسكندر و بلغ هذا نابليون فحقد عليه . ثم فى سنة ١٨١٠ حاول نابليون أن يتزوج بالغراندوقة الروسية حنة باقلوفنا فامتنع الامبراطور اسكندر عن مصاهرته وتزوج نابليون بابنة امبراطور النمسا مارى لويزة وكان بذلك انتهاء الصداقة بين نابليون واسكندر ثم جاءت بعدها الحرب بينهما

ثم المشروع السادس والستون من تقسيم تركيا المنسوب الى « ميترنيخ »

---

(١) فى حرب مع أوستريا

Metternich وتاريخه ١٨٠٨

قال دجوڤارا : ليس هنا محل ميترنيخ وزير أوستريا الشهير الذى قضى حياته يجتهد فى تثبيت تركيا كما هو معلوم الا أنه اضطر فى آخر الأمر أن يلقى دلوه فى الدلاء من جهة هذه المسئلة

وكان ميترنيخ يقول : « ان وجود السلطنة العثمانيــة والمحافظة عليها وان كان فيهما كثير من المخالفة للمدنية المسيحية فهما خير لأوربة »

وكان ميترنيخ ممن ساعد انكلترة على منع استيلاء فرنسة على وادى النيل . وكان يشهد للباب العالى بحسن المحافظة على المعاهدات ويقول ان متاخمة تركيا كمتاخمة البحر لا تتغير بهـا الحدود بل تبقى على وتيرة واحدة . وكان اذ فكر فى استحالة بقاء السلطنة العثمانية وانه لا بد من أن تحل فى الاستانة دولة مسيحية يقول : « ان تلك الدولة ستكون خليفة للنمسا » يعنى بذلك أن الدولة المسيحية التى ستتولى القسطنطينية استئنافاً ستكون اليونان أو البلغار

وقال تالليران لمترنيخ فى ١٨ يناير سنة ١٨٠٨ ما يأتى :

« ان الامبراطور (أى نابليون) يفكر فى مشروعين أحدهما مؤسس على قواعد صحيحة والثانى هو من باب القَصَص والخيال . فالأول هو تقسيم تركيا . والثانى هو غزو الهند . وعلى كل حال ففرنسة والروسـية ينويان اقتسام تركيا » فأظهر ميترنيخ لتاليران عدم ارتياحه لمشروع تقسيم تركيا . وقال له : « اننا نحن أصح حكما فى مسائل تركيا لأننا نحكم فيهـا بدون ضلع ولأننا بناءً على ذلك نبغى بقاءها أما الروس فيرون تركيا بنظارات يونانية والنظارات فى العادة لا تصلح للسياسة . وانى لأؤكد لك أن فتح تركيـا يكلف ثلاثمائة ألف جندى قتلاً وموتاً بالأمراض وانه تمضى بعد ذلك ثلاثون سنة على تلك البلدان ولا تكون لمّت شعثها ولا عرفت المدنية تحت أيّ حكم كان »

ثم سأل ميترنيخ تاليران عن كيفية تقسيم تركيا ؟ فقال له تاليران : « المورة والجزر ومصر توافقنا (أى الفرنسيس) وأنتم يلزم لـكم وادى الدانوب وبوسنه و بلغاريا . ولو لا كون الروس فى القريم لـكانت القسطنطينية أولى بأن تكون لـكم ولـكنهم هم الآن أولى بها منكم » .

وكان تاليران سفيراً للنمسا فى باريز فكتب الى حكومته قائلاً : « لا نقدر أن ننقذ تركيا فلنجتهد أن نستأثر منها بالنصيب الأوفر »

ثم بعد هذا الحديث مع تاليران بثلاثة أيام تلاقى ميترينيخ مع نابليون . فقال له الامبراطور : « ما صرتم تحبون بقاء تركيا الا من بعد أن صارت الى حالة العدم التام » ثم صرح نابليون بأنه هو أيضاً يريد بقاء تركيا لو لا عداوة الانكليز له فهو يريد مهاجمة الانكليز أينما كانوا

ثم بدر من نابليون كلام يظهر منه أنه مقتنع باستيلاء الروس على استانبول وقال لميترنيخ : « متى صار الروس فى استانبول لم يكن لكم غنى عن فرنسة لتساعدكم فى وجه الروسية . والذى أراه هو ان نكون معكم متفقين فى مسئلة تقسيم تركيا . نعم لا ينبغى أن تكتب الى حكومتك أن التقسيم تقرر لكن ينبغى أن تكتب أنه متى تقرر تكون أوستريا معنا لندافع عن مصالحنا ومصالحها معاً فانتم لكم ادعاءات صحيحة وجغرافية على وادى الطونه . وهذه الادعاءات هى التى لها دائماً القيمة الحقيقية »

فاجابه ميترنيخ قائلاً : « اذا كانت فرنسة ستترك صديقتها القديمة تركيا فنحن لا نقدر وحدنا أن نحميها »

ثم سأل ميترنيخ حكومته عن المشروع فجاءه الجواب بالسلب وأبلغه الى الحكومة الفرنسوية وكان معناه :« أنه لن يجد الامبراطور عملاً أخسر وأوجب للندم من الموافقة على هدم تركيا . وان تقسيم تركيا يمكن اذا كان انهيارها أمراً واقعاً ولكن الحالة ليست كذلك » .

وأما تاليران فقال لميترنيخ انه هو شخصياً ضد فكرة تقسيم تركيا ولكن الامبراطور مصمم عليه . فسال ميترنيخ سفير الروسية فى باريز عما يعامه عن هذه القضية فأجابه الكونت تولستوى : « نعم ان الكلام قد دار بين نابليون واسكندر على هذا التقسيم وانه ان كان لا مفر من سقوط تركيا فينبغى الاتفاق على اقتسامها »

وفى سنة ١٨١٠ كان ميترنيخ يقول : ان مركزنا منيع جداً لأن الجهات كلها تطلب عضدنا . وبالاجمال كان ميترنيخ ضد فكرة تقسيم تركيا الا أنه كان يرى أنه ان حُمَّ أجل هذه الدولة ينبغى أن تقوم مقامها دولة مسيحية صديقة لاوستريا

ثم المشروع السابع والستون وهو المنسوب الى « دوتريف » D'hauterive وتاريخه سنة ١٨٠٨

وكان « دوتريف » من أنصار سياسة تاليران وممن يرون الضرر كل الضرر فى دخول نابليون فى تقسيم السلطنة التركية وكتب للامبراطور تقريراً ١٥ صفحة عن عواقب هذا التقسيم المشؤومة . الا أنه اذا كان هذا الأمر لا بد منه فهو يشير بقسمة شبه جزيرة البلقان الى نصفين من الشمال الى الجنوب فيكون النصف الشرقى مع القسطنطينية والدردنيل نصيب الروسية . ويكون النصف الغربى مقسّماً بين فرنسة وأوستريا . وتختص بفرنسة الجزر ومصر . ثم ان هذا المشروع يبلغ الى انكلترة لعلها تجنح للسلم وتريح العالم

وبعد هذا التقرير اقترح تاليران على دوتريف تقريراً ثانيا قبل ذهابه الى «ارفور» فى أثناء تلاقى الأمبراطورين نابليون واسكندر . فكتب دوتريف تقريراً قال فيه ان تقسيم تركيا وغزوالهند آتيان لا محالة لكنه يجب تأخيرهما بقدر الاستطاعة

غير أن الاتفاق بين الامبراطورين لم يتم وكان لتاليران اليد الطولى فى ذلك لأنه كان يعمل دائما لابعاد فرنسة عن الروسية

ثم المشروع الثامن والستون المنسوب « لبوزودى بورغو » Pozo di Porgo وتاريخه سنة ١٨٠٩

وكان هذا الرجل من كورسيكا وقضى حياته عدواً لنابليون خدم الروسية وبروسية وانكلترة واوستريا فى جميع سياساتها العائدة لاسقاط بونابرت . وكان لهذا الرجل مشروع خاص به فى تقسيم تركيا مآله ان الروسية يكون لها بسارابيا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ويكون لفرنسة البانيا وتساليا والموره وكريد . ويكون للنمسا بوسنه وصربيا . ويبقى لتركيا القسطنطينية مع الروملى

وقد روى « دومنتون باك » De Menthon bake بناء على تأكيد السير « روبرت آدير » Robert Adair سفير انكلترة فى ڤينا ان الامبراطور اسكندر الأول قد وافق على هذا المشروع . وفى هذا القول نظر لمخالفته لكل ما سبق . ومما رواه « دومنتون باك » ان الامبراطور نقولا الأول قال : «انى لا أريد الاستانة وأنا من ملكى الواسع فى غنى عنها . ولكنى على ثقة بأن هذه المدينة صائرة الى أو الى أولادى فى أحد

الايام . وانه لاهون أن يمنع الناس انحدار شلال من جبـل من منع الروس أن يصلوا الى البواغيز »

ومن غريب التكهنات ان « بوزو دوبورغو » هذا كتب سنة ١٨٠٦ « ان المشاة والمدفعية الفرنسويين سيقاتلون الروس جنباً الى جنب مع خيالة الأتراك». ولقد وقع هذا فى حرب القريم بعد هذا القول بنصف قرن

ثم المشروع التاسع والستون المنسوب الى « دوفو » Dufau وتاريخه سنة ١٨٢٢

وكان « دوفو » كاتبا افرنسياً أشار بوجوب رئاسة فرنسة على عصبة أوربية تقف فى وجـه الروس . وقال انه يجب لذلك تعزيز السويد واعادة دولة بولونيا . أما تركيا فقال انها يجب أن تتقسم بين دول أوربة واليونان فتـكون سلطنة يونانية تحت حماية الروس فاصلة بين هؤلاء والنمسويين . ويكون للنمسا صربيا والبانيا وتتأسس امارات يونانية فى يانيا والموره الخ وتعطى كريد مع الجزر كورفو واخواتها الى انـكلترة وتـكون جمهورية جزر فى الارخبيل

ثم المشروع السبعون وصاحبه « دوكابوديستريا ياس » De Capodistrias وتاريخه سنة ١٨٢٨

وكان هذا الرجل يونانياً مولوداً فى جزيرة كورفو خدم الروس عند ما بسطوا حمايتهم على تلك الجزر وبقى يتقلب فى المناصب السياسية عندهم الى أن استقلت بلاد اليونان فانتخب رئيساً لحـكومة اليونان سنة ١٨٢٧ ولم تطل المدة حتى نقم عليه الأهالى ونشبت حرب داخلية وأخيراً فتك بعضهم بكابوديستيراس سنة ١٨٣١

ولما انعقد مؤتمر فيينّا الدولى سنة ١٨١٥ قدمت الروسية الى ذلك المؤتمر احتجاجاً على أعمال الأتراك القاسية فى صربيا لكن المؤتمر لم يطل النظر فى هذه المسئلة وسنة ١٨٢١ توسطت الروسية لدى الباب العالى فى أمر اليونان وطلبت رفع الجور عنهم ولما لم تقترن هذه الوساطة بنتيجة أعلنت الروسية الحرب على تركيا وظهرت عليها فى تلك الحرب واجبرتها على عقد معاهدة أدرنه . وكانت الروسية هذه المرة لا تطالب بنثر عقد السلطنة العثمانية كالعادة وكان ناظر خارجيتها يقول : « لا شىء أنفع لنا من مجاورة دولة ضعيفة كهذه » فـكانت فى هذه النوبة متفقة مع النمسا على عدم التقسيم

وكان « كابوديستيرياس » وقتئذٍ رئيساً لحكومة يونان فقدم الى الامبراطور نقولا تقريراً فى ٣١ مارس سنة ١٨٢٨ يقترح فيه التشكيلات الآتية :

(١) مملكة للفلاخ والبغدان مستقلة (٢) مملكة ثانية مؤلفة من صربيا و بلغاريا وبوسنه (٣) مملكة ثالثة مركبة من تراقيا ومقدونية والجزر التى أمامها فى الأرخبيل (٤) مملكة مشتملة على ابيروس والبانيا (٥) مملكة مركبة من بلاد اليونان والجزر (٦) القسطنطينية مدنية حرة ومركز لهذه الممالك الخمس المرتبطة.

ولقد أعيد البحث فى برنامج كهذا سنة ١٨٥٣ . وان كان « كابوديستيرياس » لم يطلب ضم مقدونية وتراقيا الى بلاد اليونان فقد اعتاض من ذلك باقتراح خمس ممالك ثلاث منها يونانية لحفظ الأكثرية فى العاصمة لقومه . وقد أمر الامبراطور نقولا بتأليف لجنة للبحث فى اقتراحات الرئيس اليونانى مؤلفة من البرنس « كوتشوبى » والمسيو «داشكوف» و « بوزودى بورغو » فقرروا بالاتفاق ان استقباء السلطنة العثمانية أولى وأقل ضرراً من القضاء عليها وغاية مافى الأمر انه يجب عقد صلح شريف معها . فانعقد الصلح فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩

ثم المشروع الواحد والسبعون وصاحبه المطران « دو برادت » De Pradt وتاريخه ١٨٢٨

وكان هذا المطران سفيراً لفرنسة فى بولونيا وقد كتب سنة ١٨٢٨ كتاباً استجلب فيه نظر دول أوربة الى الاكتراث للخطر السلافى . وقال ان لأوربة سيدين أحدهما بحرى وهو انكلترة والآخر برى وهو الروسية . وتذكر كلمة نابليون وهى : «من الآن الى ٥٠ سنة تكون أوربة اما قوزاقاً أو جمهورية»

قال « دجوڤارا » كل التكهنات لاتصح ولو تكهنها عبقرى كبير مثل نابليون .

قلت: قد مضى على هذا الكلام نحو من ١٢٠ سنة ولم تتحول أوربة قوزاقاً ولاصارت كلها جمهوريات بل صارت نفس الروسية جمهورية . واية جمهورية ! جمهورية شيوعية

أما « دو برادت » فكان برنامجه الاستعانة لصد خطر السلاڤ باليونان لابالترك وان هؤلاء تكون لهم السيادة التى للترك فى البلقان . ونسى حضرة الاسقف الجليل رومانيا و بلغاريا وصربيا والبانيا الخ كأن كل هذه لم تكن

ثم المشروع الثانى والسبعون وصاحبه افرنسى مجهول وتاريخه ١٨٢٨

ومحرر هذا البرنامج معتقد انه لامناص من زوال تركيا وانه يخشى من استئثار الروسية بالقسطنطينية واستيلائها على المشرق . فلذلك هو يقترح اعطاء النمسا بلادالبلغار والصرب وبوسنه وكرواسيا والبانيا العليا على أن تعطى النمسا الى ايطالية الولايات التى أهلها طليان من بلاد النمسا . ثم يقترح اعطاء عائلة ساڤواى بلاد لومبارديا والبندقية و پارم ومودين . وبمقابلة ذلك تتخلى مملكة ساڤواى عن صردانية لفرنسة . ثم يقترح تأسيس مملكة اسمها مملكة البوسفور مركبة من الاستانة والروملى ومقدونية وشواطئ البوسفور وتكون هذه المملكة تحت تكافل جميع أوربة ويكون المرور بالبواغيز حراً وبدون دفع رسوم . وملك الاستانة يكون دوق مودين . وأما الروسية فيكون لها الفلاخ والبغدان فقط

ثم المشروع الثالث والسبعون وصاحبه « دوبولينياك » De Polignac وتاريخه ١٨٢٩

وكان هذا من نظار دولة فرنسة تولى نظارة الخارجية ورئاسة الوزراء وفى أيامه ساد الاعتقاد بأن تركيا مُنْهارَة لامحالة ولذلك حرر ميترنيخ وزير النمسا برنامج تقسيم لتركيا قدمه الى بطرسبرج وبرلين وخشية أن تتفق فرنسة مع الروسية أخرج فرنسة بلا حصة . فأسرع امبراطور الروسية باطلاع فرنسة على اقتراح النمسا وردَّ هذا الاقتراح بتاتاً .

وكان « نسيلرود » وزير الخارجية الروسية أرسل سؤالا باسم الامبراطور الى جميع الدول وذلك سنة ١٨٢١ يسأل كلا منها رأيها فى كيفية تقسيم سلطنة آل عثمان . وكان معنى ذلك اظهاره الرغبة فى القضاء عليها . فأجابت فرنسة بطلب برنامج هذا التقسيم من الروسية فى ضمن معاهدة . فامتنع القيصر عن اعطاء ذلك . ثم مات القيصر اسكندر وخلفه القيصر نقولا . وكان شاتوبريان الكاتب الشهير مديراً لزمام الخارجية الافرنسية وكان هواه مع الروسية فأرسل الى القيصر يقول له : « اذا شئت الذهاب الى الاستانة فادخل مع الدول المسيحية فى قسمة عادلة لتركية أوربا »

ولما كان بولينياك فى وزارة فرنسة سنة ١٨٢٩ وبلغه اقتراح أوستريا تقسيم تركيا بدون انصاف فرنسة عهد الى المسيو « بوالوكونت » Bois-le-Comte مدير الأمور السياسية

فى الخارجية بتحرير لائحة فى هذا الموضوع . فحرر هذا لائحة مؤداها أنه ما من دولة ترضى باستيلاء الروس على الاستانة والبواغيز . ولذلك يجب تأسيس دولة مسيحية فى القسطنطينية وان تُرضى الروسية بالفلاخ والبغدان و بارمينية وطرابزون . وتُرضى بروسية بالساكس وهولاندة وان تكون المستعمرات الهولاندية لانكلترة وان يرسل ملك هولاندة ملكاً على القسطنطينية وان تخرج أوستريا من اسلاب تركيا ببوسنه وكرواسيا ودالماسيا والهرسك . وأما فرنسة فتأخذ بلجيكا ولوكسمبورغ والالزاس واللورين وقسماً من هولاندة

و بعد أن تذاكر مجلس نظار فرنسة مدة ثمانية أيام فى هذا المشروع صدَّقه وأرسل بولينياك الى الروسية يسألها رأيها فيه . ولكن كانت الروسية اذ ذاك قد قررت الصلح مع تركيا . فحبط هذا المشروع واعتاضت فرنسة بفتح جزائر الغرب فى أيام كارلس العاشر

ولقد ثبت أن بروسية اعترضت على برنامج بولينياك هذا وأبلغت اعتراضها عليه الى باريز و بطرسبرج . وقد كان لهذا المشروع أعظم نصيب من انتقاد المؤرخين حتى الفرنسيس منهم وقالوا : «لو لم توجد وثائقه فى أوراق نظارة الخارجية لما كان الانسان يصدق أن حكومة فرنسة تقترحه . وقالوا انه لو بوشر بشر به لأدَّى الى حرب عامة »

وكتب الكولونل « روتيه » Rottiers سنة ١٨٢٩ فى « رحلة من تفليس الى القسطنطينية » الجملة التالية :

« لقد بينت مراراً الضلالات الشنيعة التى يبنى عليها بعضهم برامج استئصال جميع المسلمين أو اجبارهم على الجلاء »

ثم المشروع الرابع والسبعون وصاحبه الجنرال « دوريشمون » De Richemont وتاريخه سنة ١٨٢٩

وكان هذا من نواب البرلمان الافرنسى واقتراحه هو أن تأخذ الروسية الاستانة وان تاخذ اوستريا البانيا العليا وصربيا و بوسنة وتنزل عن سيليزيا لبروسية . وان تأخذ بروسية ماعدا سيليزيا مملكة الساكس ونصف هنوفر . وتأخذ هولاندة النصف الثانى من هنوفر . وتأخذ باڤاريا بلاد سالتزبورغ . وتأخذ انكلترة جزيرة كريد . ويكون نصيب فرنسة بلاد الرين ولوكسمبورغ و بلجيكا

ثم المشروع الخامس والسبعون وصاحبه « برونيكوفسكى » De Rronikoveski وتاريخه سنة ١٨٣٣

وقد كان هذا الرجل كاتبا ألمانيّا من درسدن وخدم فى جيش بروسية ثم فى جيش فرنسة عند ما كان الفرنسيس فى بولونيا وبرنامجه يقرب من برنامج « دوفو » المتقدم الذكر وهو مبنى على تقسيم تركية أوربة وتجديد قوة بولونيا ووضعها حاجزاً حصيناً فى وجه الروسية . ولا يشير هذا الرجل بهدم السلطنة العثمانية فى آسية بل يقتصر على ايجاب تسليم ولايات الدانوب لاوستريا بمقابلة اعادة اوستريا بلاد غاليسيا لبولونيا . ويقول انه يجب أن تعاض تركيا من ذلك بأخذ بسارابيا والقريم وبلاد القوقاس . فكأن مقصوده كله هو توقيف تقدم الروسية

ثم المشروع السادس والسبعون وهو المنسوب الى الامبراطور الروسى نقولا الأول وتاريخه سنة ١٨٥٣

كانت نظارة الخارجية الانكليزية نشرت وثائق فى احدى جلسات البرلمان سنة ١٨٥٤ يظهر منها ان القيصر الروسى نقولا اقترح على انكلترة اقتسام سلطنة آل عثمان لكن الوزراء كتموا هذا الاقتراح ولم يفشوه الا فى جواب على كتابة ظهرت فى « جورنال دوصان بطرسبورغ »

ففى ليلة سمر عند الغراندوقة هيلانة الروسية ٩ يناير سنة ١٨٥٣ قال الامبراطور نقولا للسير هاميلتون سيموز سفير انكلترة مايلى :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض ومريض جداً ويكون بالفعل وبالا عظيماً علينا ان خرج أمره ومن ايدينا »

ثم استدعى الوزير « نسارود » السفير المذكور الى حضرة القيصر فى ١٤ يناير فقال له أيضا : —

« انت لاتجهل المقاصد والمرامى التى لاتزال فى الروسية من عهد كاترينا . وخلاصة الأمر ان تركيا هى على مقربة منا وان فيها عدة ملايين من المسيحيين من وظيفتى السهر على مصالحهم وبيدى معاهدات تعطينى هذا الحق . ونحن أمة تلقينا ديانتنا عن الشرق وعلينا واجبات لايمكن التغابى عنها . وحالة تركيا هى كما قلت لك من قبل وبرغم مااريده

من بقائها يجوز أن تموت بالرغم منا وتبقى عبئا علينا وليس فى استطاعتنا نشر الموتى (١) أفلا يكون الأفضل بحقنا تفادياً من حرب أوربيــة ان نتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرّة ؟ وانى أقول لك بكل صراحة اننا ان استطعنا انا وانـكلترة ان نتفق فى هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون . وانا لااكتمك انه ان كان فى نية انـكلترة الاستيــلاء على الاستانة فلن أتحمل ذلك . لاأقول ان لـكم هذه النية ولـكنى أقول ان صحت هــذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسى أتعهد أيضاً بأن لا أحتلّها مالـكا وأما بصورة موقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى . وأما اذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقــد يجوز انى احتلها قولاً واحداً »

فالانـكليز لم يأمنوا للفرق الذى بين « التملك » و « الاستيداع » الموقت و رفضوا مطالب القيصر . وفى ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٣ تلاقى السفير سيمور مع القيصر عند القيصرة وقال له :

« ليسمح لى جلالتك بالقول بانه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على شرف الهلاك »

فاخذ القيصر شئ من الحدة وأجابه : « اذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لاتزال فيها عناصر حياة فتـكون المعلومات التى لديها غير صحيحة . وانا اؤكد لك ان المريض هو فى حالة الاختصار وانه لايجوز أن يموت ونحن غافلون بل يجب أن نتفق من قبل وأنا واثق بأننا نقدر أن نتفق ولست اكلفـكم عقد معاهدة أو تحريرصك وانما أطلب كلمة اتفاق عامة وهذا كاف فيما بين الرجال الاكياس » وقد كـتب السير سيمور لحـكومته بعد سماعه خطاب القيصر للمرة الثانية بهذا الالحاح قائلاً : « لم يبق شك فى أن الملك الذى يتكلم بهذا الاصرار كله على موت دولة تجاوره يكون مقصده لاانتظار موتها كما يزعم بل تعجيله . ومرمى القيصر هو جرّ انكلترا واوستريا الى اتفاق مع الروسية على تقسيم تركيا بدون أن تدخل فى ذلك فرنسة »

وقد صرح القيصر مرة أخرى بجميع أفـكاره قائلا « انه لايوافق أبداً على احتلال فرنسة أو انـكلترة للقسطنطينية ولا يوافق أيضاً أبدا على تجديد سلطنة بيزنطية ولا عــلى توسيع مملـكة اليونان بحيث تصبح دولة منيعة الجانب ولا يوافق أيضاً عــلى تقسيم تركيا

(١) مضى على هذا الـكلام تسع وسبعون سنة ولا تزال تركيا فى الحياة و بيدها القسطنطينية

جمهوريات يتسلم أزمتها ثوار من أمثال «كوشوت» Kossuth (زعيم مجرى) و «مازينى» Mazzini (زعيم طليانى) وغيرهم . وانه يحارب الى أن لايبقى عنده جندى واحد ولا بندقية واحدة ولا يرضى بحل مسئلة تركيا على وجه من هذه الوجوه المذكورة

ومعنى هذا ان القسطنطينية يجب أن تدخل فى حوزة الروسية

ثم انه يدخل القيصر فى التفاصيل مخاطبا سفير انكلترة فيقول :

« تكون الفلاخ والبغدان مملكة مستقلة تحت حمايتى . وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً . وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط اذلا مانع يمنع من استقلالها . وأما مصر فانى لاأجهل أهميتها بالنسبة الى انكلترة ولا أرى مانعاً من أنه اذا سقطت السلطنة العثمانية ووقعت المقاسمة بيننا تخرج مصر فى نصيب انكلترة . وكذلك جزيرة كريد التى توافقكم »

فاما انكلترة فمن أول الأمر رفضت تقسيم تركيا . وأرسل اللورد « جون روسل » ناظر الخارجية جوابا فى ٩ فبراير سنة ١٨٥٣ صريحاً فى الرفض . فأجابه نسلرود وزير الروسية بمذكرة تاريخها ٧ مارس يحاول فيها تسكين خاطر الحكومة الانكليزية ويقول ان الأحاديث التىجرت بشأن تركيا « انهى الا تبادل أفكار والامبراطور لايرى من الضرورة الكلام فى هذه المسئلة قبل حلول أوانها »

بيد أن الحكومة الانكليزية التزمت فى هذه المسئلة الجلى تمام الصراحة خشية سوء التفاهم فيما بعد . فأرسلت الى الروسية مذكرة واضحة تاريخها ٢٥ مارس سنة ١٨٥٣ تقول فيها :

« ان حكومة الملكة عامت بمزيد السرور ان الامبراطور يكترث أكثر من انكلترة نفسها لمنع نازلة تنزل بتركيا لأن حكومة الملكة مقتنعة بأنه على سياسة جلالة الامبراطور يتوقف تعجيل أو تأجيل هذا الحادث الذى لجميع الدول الاوربية مصلحة فى منع وقوعه . ثم ان انكلترة لاتريد تبسطاً فى الارض ولا تقدر أن تدخل فى اتفاق من هذا القبيل ولا أن تشترك فى مفاوضات ومكاشفات يجب أن تبقى مكتومة عن بقية الدول . وكل ماتراه حكومة الملكة هو أن تركيا لاتحتاج الا الى شئ من التسامح من جهة حلفائها وان هؤلاء لايتخذون بازائها خطة تمس من كرامة السلطان أو استقلاله وانه يجب أن تعامل بالرفق الذى هو حق الضعفاء على الأقوياء سواء كان بين الدول أو بين الأشخاص » اه

وفى ٥ ابريل سنة ١٨٥٣ أرسل اللورد « كلارندون » باسم انكلترة الى الروسية مذكرة جديدةمعناها « انه من العبث وضع هذهالمسئلة موضع المذاكرة » فأجابه « نسلرود» وزير الروسية جواباً متغير اللهجة عن ذى قبل قائلا فيه : « ان الامبراطور مستعد للسعى بالاتفاق مع انكلترة فى اطالة حياة تركيا وترك كل سبب ارجاف من جهة انحلالها »

وكانت جميع هذه المحاورات سرية ولم يكن متوقعا أن تتعدى خارجيتى لندن و بطرسبورغ لولا حادث طرأ .

وهذا الحادث هو أن الحكومة الروسية قرأت خطبة للورد جون روسل ألقاها فى مجلس العموم الانكليزى سنة ١٨٥٤ فأجابت عليها بمقالة مآلها الاشارة الى المفاوضات المار ذكرها والادعاء بأن القيصر كان دائماً صريح اللهجة صادقاً بحق انكلترة

فعند ذلك اضطرت الحكومة الانكليزيةالى نشر جميع المذكرات التى تبودلت بشأن تقسيم تركيا . وكان لذلك دوى عظيم فى العالم . وقال المسيو « روسه » Rousset صاحب تاريخ حرب القريم : « انه لم يوجد أمام العالم وأمام التاريخ ملك حمل عمداً واختياراً من التبعة ماحمله الامبراطور نقولا »

وقد عقب ذلك حرب القريم وتحالف فرنسة وانكلترة وتركيا على الروسية وانتهاء الحرب بصلح باريز سنة ١٨٥٦ و بعد هذه الحرب نالت رومانيا استقلالها الداخلى

ثم المشروع السابع والسبعون وصاحبه « داندولو » Dandolo وتاريخه سنة ١٨٥٣ وهذا المشروع يقرب من مشروع « كابوديسترياس) ومؤداه انه بعد طرد الترك من أوربة تؤسس الدول العظام خمس ممالك فى الشرق ١ بلاد اليونان مع سلانيك وجبل آتوس والجزر المصاقبة ٢ ابيروس والروملى الى أدرنة الى البحر الأسود ٣ الفلاخ والبغدان الى حدود الروسية من جهة واوستريا من جهة أخرى ٤ بوسنه وصربيا والجبل الأسود والهرسك ٥ جزائر اقريطش وقبرص وساموس وما يتبعها والقسطنطينية مدينة حرة لكن يونانية وكان « داندولو » من اليونانيين المتحمسين

ثم المشروع الثامن والسبعون وصاحبه « دالبونو » D'Al.Bonneau وتاريخه سنة ١٨٦٠

وكان « دالبونو) كاتباً افرنسياً له تآليف عن المشرق

وكان يذهب الى وجوب سد طريق البوسفور على الروسية حتى لاتصل الى البحر المتوسط . ولكنه كان يريد ارجاع المملكة البيزنطية الرومية بحجة أن الروم هم كانوا السبب فى مجيء الترك وانه يوجد بين الروم والسلاف عداوة شديدة . وأما نصب أمير أجنبى على القسطنطينية كما كان يشير به لويس الرابع عشر فلا يورث عنده الا الفوضى. وكذلك تقسيم تركيا دونه مشكلات ومعضلات لايمكن حلها . والخلاصة انه يوافق على جعل الاستانة مدينة أوربية تحت ملاحظة مجموع الدول التى ترسل كل منها اليها مندوباً وتكون حرية المرور بالبواغيز مطلقة للجميع . وتؤسس دولة سلافية واحدة وتستولى الروسيه على ارمينية . وتضاف تساليا ومقدونية والبانيا واقريطش الى مملكة اليونان . وتكون قبرص لبلجيكا ورودس للملكة البيامون

ثم المشروع التاسع والسبعون وصاحبه « بيتزيبيوس Pitzipios » وتاريخه أيضا سنة ١٨٦٠

وهذا رجل يونانى كان أشد أصحاب هذه المشروعات التقسيمية تخيُّلاً كما سترى : —

١ القسطنطينية مدينة حرة ومركز للدولة الحلفية الشرقية وفيها مؤتمر دائم تتمثل فيه جميع دول أوربة وافريقية وآسية وأمريكا
٢ مملكة الفلاخ والبغدان
٣ مملكة السلاف : الصرب والبلغار والجبل الاسود وبوسنه والهرسك
٤ مملكة الأروام : تراقيا ومقدونية وابيروس وتساليا وألبانيا والمورة
٥ مملكة جزائر الارخبيل : كريد . قبرص . رودس . مدللى . ساموس . كورفو
٦ مملكة مصر
٧ مملكة تونس وطرابلس
٨ مملكة يون من اليونان
٩ مملكة الأرمن
١٠ الممالك السورية أى المملكة الساوقية القديمة
١١ مملكة قرمان والأكراد أى ممالك الماديين والفريجيين والغلاطيين والكبادوقيين
١٢ مملكة العراق أى عرب آسية والاثوريين والكلدانيين

١٣ مملكة التركمان

١٤ المملكة العبرانية أى فلسطين

١٥ مملكة اللاز

قال دجوقارا : انه لم يكن كافياً وجود مقدونية التى لم تزل شغلاً شاغلاً لأوربة حتى جاء « بيتزيبيوس » يخلق لها مقدونيات جديدة يزعم أنه يتحالف فيها السلوقيون والماديون والفريجيون والغلاطيون والكبودقيون والكلدانيون والاثوريون واليهود واللاز ويجلس معهم ممثلو افريقية وأمريكا ! فياللحماقة

ثم المشروع الثامنون وصاحبه « راتوس » Rattos وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠

وهو يونانى حذا حذو « بيتزيبيوس » فى كثرة تقسيماته وانما امتاز عنه ببقية عقل وانصاف حملته أن يترك شيئا للاتراك العثمانيين

وبرنامجه هو هذا :

١ الاستانة مدينة حرة مع شواطئ البوسفور والدردنيل

٢ المملكة التركية تصير مشتملة على جميع البلدان التى جنوبى جبل طورس مثل سورية وفلسطين وبلاد العرب ومصر وطرابلس وتونس . وقال ان العاصمة يجب أن تكون دمشق أو القاهرة أو الاسكندرية

٣ الممالك التى تؤخذ من الترك فى الأناضول ومعها أرمينية

٤ مملكة اليونان ومعها تساليا والبانيا ومكدونية

٥ مملكة الفلاخ والبغدان ويكون لها أمير

٦ مملكة الصرب ولها أمير

٧ بوسنه والهرسك ولها أمير أو أميران

٨ الجبل الاسود وله أمير

٩ بلغاريا والروملى ولها أمير أو أميران

١٠ أرمينية وعاصمتها ارضروم ولها ملك

١١ مملكتان يونانيتان فى الأناضول لكل منهما ملك

١٢ مجلس عام لهذه الممالك يكون التمثيل فيه على نسبة عدد الآهالى

قال دجوڤارا : ان راتوس جعل فى برنامجه ملوكاً للاروام بل للارمن لكنه لم يسمح للفلاخ والبغدان والصرب والبلغار الا بامراء

قلت : هذا البرنامج والذى قبله لا يستحقان الذكر الا كأُطروفة

ثم المشروع الواحد والثمانون وصاحبه « ستفانوڤيتش » Stephanowitch وليس له تاريخ .

وهو على نمط المشروعين السابقين تقسيمات خيالية . وصاحبه يقترح حكومة حلفية يونانية سلاڤية ذات مجلس مركب من ثمانية أعضاء رئيسه نائب للقيصر الروسى

ثم هناك سلطنة يونانيــة مركبة من تراقيا وتساليا و بلاد اليونان وجزر الأرخبيل

ومملكة مركبة من صربيا ونوڤى بازار

ومملكة تتألف من دالماسيا والهرسك والجبل الاسود يليها أمير الجبل

ومملكة ألبانيا و يتولاها أمير روسى

ومملكة رومانيا

وامارة بلغاريا و يليها أمير روسى

ومملكة فريجيا (فى الأناضول)

ومملكة البونت (طرابزون)

ومملكة ارمينية

والسلطان العثمانى يذهب الى بغداد

وسورية تعطى الى الأمير عبد القادر الجزائرى

ومصر تصير ولاية فرنسوية

وقبرص تكون مملكة

وأزمير تكون مدينة حرة . والقسطنطينية مدينة حرة وفيهــا مركز المجلس العام لجميع هذه الممالك

ثم المشروع الثانى والثمانون وصاحبــه الكومندور « نيغرا » Nigra وتاريخه سنة ١٨٦٦

وكان نيغرا هذا طليانيا ومبدأ ظهوره فى خدمة « كاڤور » وزير ايطاليا المشهور

ثم صار سفيراً لايطاليا فى باريز ثم فى بطرسبوغ ثم فى ڤينا ومات فى « رابالو » سنة ١٩٠٧

وكانت الحكومة الروسية سنة ١٨٦٣ أجرت احصاء فى بولونيا تبعه من العسف والظلم ما حمل البولونيين على العصيان وتدخلت الدول فى الأمر . فاقترح نابليون الثالث عقد مؤتمر فى باريز وأجابه اليه الانكليز والبابا وايطاليا واسبانيا والسويد . وأرسل نابليون الثالث الى اوستريا يعرض عليها أخذ سيليزيا والتخلى عن غاليسيا التى كان يريد اعادتها الى بولونيا واحياء مملكة بولونيا من جديد . وكذلك عرض على اوستريا امارتى الفلاخ والبغدان على شريطة أن تترك البندقية لايطاليا ويقال ان هذه الأفكار كانت أفكار نيغرا وكان هو الذى يروجها فى باريز

ولكن انكلترة واوستريا كانتا معارضتين لهذه الفكرة . وكانت ايطاليا اتفقت مع بروسية سنة ١٨٦٦ على اوستريا وفى الوقت نفسه استدعى أهل رومانيا الأمير كارول من آل هونصولرن وجعلوه أميراً عليهم ثم صار فيما بعد ملك رومانيا . ولم يفلح نيغرا فى تقديم رومانيا لاوستريا عوضاً عن البندقية

ثم المشروع الثالث والثمانون المنسوب لغاريبالدى Garibaldi وتاريخه ١٨٧٣

يقال ان القائد الايطالى الشهير غاريبالدى ترك بين أوراقه برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية وقد تكلم عن هذا البرنامج « انريكو كروس » فى رسالة نشرها تحت عنوان « وصية سياسية للجنرال غاريبالدى »

مآل هذه الوصية اتحاد بين اللاتين والسلاف على الجرمانيين . ففرنسة يجب أن تصل الى الرين وايطالية يجب أن تأخذ تريستى وكاتارو وبولونيا يجب أن تعيش وتشيكوسلوڤا كيا ينبغى أن تكون جمهورية عاصمتها براغ . ثم تكون جمهورية بلقانية سلافية عاصمتها الاستانة وتتوسع حدود رومانيا . وتكون اليونان دولة قوية وترفع عن البحر المتوسط السلطة التى لانكلترة وتعود الدانمرك فتحتل « شلسڤيك هولشتين » وتحصر ألمانيا بين نهرى الرين و « الاودر » Oder ويرجع الترك الى برسا ثم يذهبون مع طول الوقت تماما وتتقسم اوستريا أقساما على حسب الأجناس التى فيها

قلت قد صح كثير من هذا البروغرام مثل أخذ ايطاليا لتريستى واستئناف استقلال بولونيا واستقلال بلاد التشيك وتوسع مملكتى رومانيا واليونان واسترداد الدانمرك ولاية

« شلسفيك هولشتين » وتمزق اوستريا قطعا متعددة بحسب الأجناس التى فيها . كل هذا قد تم على أثر الحرب العامة الا ان اتصال فرنسة بالرين واخراج الترك من القسطنطينية وخضد شوكة انكلترة فى البحر المتوسط فلم يتم منها شئ

ثم المشروع الرابع والثمانون وصاحبه الكونت « غريبى » وتاريخه ١٨٧٣

وكان غريبى Greppi هذا مستخدما فى سفارة اوستريا فى رومة و بعد ذلك صار سفيراً لايطالية

ونشر رسالة عن المسئلة الشرقية قال فيها : ان القسطنطينية يجب أن تكون للجميع مدينة حرة مستقلة ولا يتبعها الا البوسفور

ثم يجلس فى الاستانة ممثلو الاتحاد اليونانى السلافى وتضاف مقدونية وتساليا وابيروس الى اليونان ويكون لجزر الارخبيل استقلال داخلى لكن ضمن دائرة الاتحاد المذكور ولكن يكون لكل من الدول العظام قاعدة بحرية فى إحدى الجزر لتتمكن من السهر على التوازن فى الشرق ؟

ثم المشروع الخامس والثمانون وتاريخه ١٨٧٥ وصاحبه مجهول

وقد ظهرت به نشرة أثناء الحرب الروسية التركية ومآلها انه يحصل قريبا انقلابات فى شرقى أوربة فبوسنه والهرسك تصيران الى اوستريا أو الى الجبل الاسود والصرب . والفلاخ والبغدان والروملى وتراقيا تصير الى الروسية . والبانيا ومقدونية وتساليا تضاف الى مملكة اليونان . والصرب والجبل الاسود يستقلان تماما . ومصر تصير مملكة

ولكن صاحب النشره يشير بجعل الاستانة مركزاً لاتحاد شرقى مركب من خمس ممالك اليونان ومعها البانيا ومقدونية وتراقيا والجزر . ثم الصرب و بوسنه . ثم الهرسك والجبل الاسود . ثم البلغار . ثم رومانيا

ثم المشروع السادس والثمانون وصاحبه أيضا مجهول وهو محرر بالألمانية و بدون تاريخ

وصاحبه يريد دحر الاتراك الى آسية وتخليص صربيا ورومانيا ومصر وتونس وطرابلس منهم . و يشير بجعل الدردنيل والبوسفور وقناة السويس ونهر الدانوب ممار حرة للجميع وان تأخذ الروسية بلغاريا والدبروجه وارمينية وتأخذ اوستريا قسما من البانيا

مع بوسنه والهرسك وتأخذ اليونان تساليا ومقدونية وقسما من البانيا وتعتاض فرنسة وايطالية من جهة افريقية وتعتاض انكلترة من جهة آسية الصغرى

ولقد صح من هذا البروغرام أشياء مثل اعتياض فرنسة وايطالية من افريقية فان فرنسة من بعد الجزائر استولت على تونس ثم على مراكش وايطالية استولت على طرابلس وانكلترة بدلا من آسية الصغرى احتلت مصر وفلسطين وتكبير بلاد اليونان قد حصل كما قال

ثم المشروع السابع والثمانون وصاحبه « رولين » Rollin وتاريخه ١٨٧٦

وهو منشور فى رسالة عنوانها « الحل العملى لمسئلة الشرق » نشرها صاحبها عند ثورة الصرب والرومانيين على تركيا

وهو يقترح طرد الترك الى آسية وان تحتل أملاكهم فى أوربة انكلترة وأوستريا و بروسية والروسية . وان تحتل هذه الدول أيضاً القسطنطينية وادرنه والروملى وكريد . وان يعطى الاستقلال لجميع أقسام تركية أوربة ويكون لها مجلس عام

ومن تأمل فى هذا البروغرام الذى انتحل له صاحبه اسم « الحل العملى » وجده أبعد الأشيا عن « الحل العملى » لاسباب لا تحصى لا تخفى عن السياسى الخبير

ثم المشروع الثامن والثمانون وأصحابه آل تستا Testa وتاريخه ١٨٧٦

وهم يشيرون باراء لم نجدها الا من باب التسكين الموقت وذلك كاعطاء بوسنه الى صربيا لكن مع بقاء سيادة الباب العالى عليهما . واعطاء الهرسك الى الجبل الاسود . وان تجعل مجالس كبيرة للروملى والبانيا و بلغاريا ينتخب السلطان رؤساءها بشرط أن يكونوا من المسيحيين

وال تستا من الالمان

ثم المشروع التاسع والثمانون وصاحبه « ماتياس بان » Mathias Ban وتاريخه سنة ١٨٨٥

وولد « بان » هذا فى راغوزا ومات فى بلغراد سنة ١٩٠٣

ورأيه أن الاتفاق متعذر فى شبه جزيرة البلقان الا أنه يمكن أن يصار الى التشكيلات الكنسيَّة . ففى القديم لم يكن الا الكنيسة البيزنطية الرومانية ثم جعلوا كنيسة

صربية وكنيسة بلغارية ثم عند دخول الترك الى القسطنطينية الغوا بطريركيتي البلغار والصرب . فيجب أن تعادا كما بدأنا وان تضاف الروملي الى بلغاريا تحت سيادة الباب العالى . وتعطى الى الصرب « ودين » و « ساموكوف » و بعض أماكن من بلاد البلغار . وتسلم الى اليونان والجبل الاسود البلاد التى تقررت لهما بموجب معاهدة برلين

ثم المشروع التسعون وهو خبر جرائد تاريخه سنة ١٨٩٦

نشرت جريدة الداليينوز الانكليزية والبرلينرتاغبلاط الالمانية خبراً معناه أن الروسية متحفزة لاحتلال ارمينية وحمل الدول على تقسيم تركيا . وذلك على أن تأخذ الروسية القسطنطينية والولايات التركية الشرقية الىأن تنفذ من اسكندرونة.وأن تأخذ فرنسة سورية وفلسطين . وتأخذ انكلترة مصر وسواحل الخليج الفارسي والكويت . وتستولى النمسا والمجر على بوسنه ومكدونية . وايطالية على طرابلس . واليونان على كريد والجزر

ثم المشروع الواحد والتسعون وصاحبه « فون سيكادوف » Von Sydakof وتاريخه سنة ١٨٩٨

وهو محرر بالالمانية وكان محرره من كتاب الصحف فى ڤينا . و بعد أن ذكر ثورات البلقان وكريد وغيرها والحرب التركية اليونانية قال ان الروسية ستعود الى تأريث نار الحرب الصليبية على الاسلام . كما أن الالبانيين من مسيحيين ومسلمين يطلبون استقلالاً داخلياً تحت سيادة الباب العالى . وكما أن المسيحيين فى مقدونية لا يزالون يطالبون باصلاحات لا يعمل منها الباب العالى شيئاً . فلا مناص من النظر الى هذه الحالة . فهو يرى قسمة البلقان الى شطرين شرقى وغربى (١) الفاصل بينهما « الستروما » و « الواردار » بحسب استعداد الأرض . فتكون حصتها اليونان والصرب فى الشطر الغربى . وتبقى البانيا وقسم من مقدونية فتديرهما أوستريا كما أدارت بوسنه والهرسك . وتتحد هذه الممالك البلقانية مع أوستريا ـ هنكاريا اتحاداً اقتصادياً

وأما فى الشطر البلقانى الشرقى فتتحد بلغاريا مع رومانيا تحت تاج الملك كارول ويكون لهما مقدونية الشرقية وتكون لهما القسطنطينية . وقال انه انلم تكن البلقان أوربية صارت أوربة كلها روسية . فهذا هو الحل الوحيد للمسئلة والطريقة الوحيدة لمنع الروسية

(١) قد تقدم مثل هذا الرأى

من تكدير صفو السلام العالمى

و بعد ظهور هذه النشرة بسنة ظهرت نشرة بامضاء « غورلوف » فيها أنه يجب اعطاء الاستانة والبوسفور وغاليسيا للروسية . وترانسيلفانيا لرومانيا . وجنوبى البانيا لليونان . والجبل الاسود و بوسنه والهرسك للصرب . وتراقيا مع ادرنه الى تشاطلجه لبلغاريا . وأن تستقل كل من المجر و بوهيميا . وما يبقى من اوستريا مع ڤينا يضاف لألمانية

قلت : وقد صح من هذا بعد الحرب العامة اعطاء ترانسيلفانيا لرومانيا وجنوبى البانيا لليونان والجبل الاسود و بوسنه وهرسك للصرب واستقلال كل من المجر و بوهيميا (بلاد التشيك) ويرجح أن ڤينا وما بقى من اوستريا سينضم الى ألمانية فى عهد غير بعيد

ثم المشروع الثانى والتسعون وهو رومانى Roumain وتاريخه ١٩٠٤

وصاحبه وزير سياسى يخفى اسمه . وهو يشير باتحاد بلقانى تحت رئاسة ايطاليا وذلك لأن الدول البلقانية لا يرضى بعضها رئاسة بعض . والروسية عظيمة جداً ومخوفة . واوستريا قريبة . وانكلترة وفرنسة بعيدتان . فايطالية لهذه الرئاسة أوفق من الجميع

وتتألف هذه الحكومات المتحدة من الولايات التركية القديمة ومن تركية آسية نفسها وتنقسم ولايات تركيا الى ثلاث مناطق : الأولى ألبانيا ومركزها اشقودرة . الثانية مقدونية ومركزها سلانيك . والثالثة تركيــة أوربة مع القسطنطينية وادرنة . وينصب فى البانيا ومقدونية حكام طليان و يتخذون طرز ادارة سويسرة وتكون شرطة مسيحية محل الجيش . وتكون الوظائف على نسبة أجناس الأهالى . ويكون مجلس عام مركزه سلانيك أو رومة . ويكون ملك ايطالية هو حامى هذا الاتحاد .

قلت : لعل موسولينى فيما يحلم به من الفتوحات الرومانية يحلم بهذا أيضاً

ثم المشروع الثالث والتسعون وهو قسمة القسطنطينية وتاريخه ١٩١٢

لما كان أهم عقدة فى قسمة أملاك تركيا هى الاستانة فقد فكر بعضهم فى قسمة هذه المدينة نفسها . وسبق الى ذلك جريدة « الاندبندانس بلج » فى ٧ يناير سنة ١٩١٢ عن رسالة من سلانيك يقول كاتبها ان الأتراك لا يقدرون أن يصلحوا هذه البلدة الطيبة كما يجب وانه يلزم لهم لذلك عشرة مليارات على مدة ١٥ سنة فلا تجدهم يقدرون على انفاق مبلغ كهذا

فاحسن طريقة هي جعلها دولية . فيكون للالمان حيدر باشا وقسم من الارض الى جهة آسية . وللفرنسيس بك اوغلي وضواحيها . وللروسية أعالي البوسفور . وللاوستريا غلطه الى البحر وللانكليز استانبول أما ايطالية فقد أغارت على طرابلس الغرب فلم يبق لها حق في حصة من عاصمة تركيا

وهذا الكاتب لم يفكر في كونه أدخل في الاستانة دولاً سبق أنها أخذت كثيراً من أملاك تركيا وأكثر مما أخذت ايطالية ولا حسب حساب تنازع الدول المذكورة على الحدود ولا تأمل في وجود البوسفور في يد الروسية وما فيه من المحذور

وقد أبقى لآل عثمان حق رئاسة المجلس الدولي وان تبقى لهم القصور التي لهم في الاستانة . فأما عاصمة تركيا الحقيقية فتصير برسا

ثم المشروع الرابع والتسعون وصاحبه المسيو « رالف دونريكت » Ralf De Nerick وهو يشير باعطاء القسطنطينية للبابا ويكون مركزه بها . قال وهذه كانت فكرة قسطنطين الكبير فتأمل

المشروعان الخامس والتسعون والسادس والتسعون هما معاهدتا باريز وبرلين الاولى سنة ١٨٥٦ والثانية ١٨٧٨

قال دجوفارا : هذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين ومحاولاتهم لمحو السلطنة العثمانية التي كانت من أعظم الممالك التي عرفها تاريخ البشرية . وان لم يكن قد تنفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيرة بحذافيره فما زال تكرار هذه المساعي وتداول هذه الأفكار في كل أوربة خلفا عن سلف يعمل عمله تدريجاً وينقض من بناء السلطنة التركية الى أن انهارت جوانبها

وقال : بعدواقعة ليپانت (١٥٧١)بدأت الدولة العثمانية تتقهقر . وقد أخذت أملاكها في افريقية كمصر وطرابلس والجزائر وتونس تنفصل عنها ولم يبق لها عليها الاسيادة اسمية ثم ان الحروب الكثيرة التي أصلتها اياها كل من الروسية واوستريا نزعت منها المجر (١٦٩٩) وبانات وطمشوار (١٧١٨) وقسماً من الصرب وقسماً من الفلاخ والقريم (١٧٧٤) وبوكوڤين (١٧٧٥) ثم خسر الباب العالي جزر كورفو وأخواتها (١٧٩٧) وكرجستان

(١٧٩٩) و بسارابيا الى حد نهر البروت (١٨١٢) و بلاد اليونان (١٨٢٩) وارمينية القوقاسية . ثم خسر جزائر الغرب (١٨٣١) وسنة ١٨٤١ استقلت مصر استقلالا داخلياً وسنة ١٨٥١ استقل الجبل الأسود استقلالا داخلياً أيضاً .

و بمعاهدة باريز ٣٠ مارس ١٨٥٦ نالت الاستقلال الداخلى رومانيا وصربيا وتقررت حرية الملاحة فى البحر الأسود والمرور بالدانوب . ثم أخذ الانهيار يتتابع ولاسيما بعد حرب سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ مع الروسية اذ وصل الروس الى ادرنه وأجبروا الباب العالى على قبول شروطهم فى ايا استفانو ولكن أوربة لم تصدق هذه المعاهدة وتبدلت بها معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) فتقرر الاستقلال التام لرومانيا وصربيا والجبل الأسود وصارت بلغاريا امارة تؤدى الى الباب العالى الجزية وانفصلت ولاية اسمها الروملى الشرقية لكن تحت سيادة الباب العالى ثم استلحقها البلغار (١٨٨٥) واحتلت أوستريا بوسنه والهرسك مدة مديدة ثم اعلنت (١٩٠٨) استلحاقهما . ونزل الباب العالى فى آسية للروسية عن باطوم وقارص واردهان . وتخلى عن قبرص لانكلترة

وسنة ١٨٨١ تخلى عن تساليا وقسم من ابيروس لليونان وسنة ١٨٨٢ احتل الانكليز مصر وكانت قبل ذلك بسنتين احتلت فرنسة تونس . وسنة ١٨٩٦ نالت كريد استقلالها الداخلى

و بقيت برغم كل هذا بلاد البلقان غير ساكنة والنار تضطرم تحت الرماد الى أن سقط السلطان عبد الحميد (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وتولت عصبة تركيا الفتاة فاستلحقت أوستريا بوسنه وهرسك

ثم شنت ايطالية الغارة على طرابلس الغرب وهذه الغارة هى المشروع السابع والتسعون من تقسيم سلطنة آل عثمان

وكان قبل ذلك فى سنة ١٨٩٤ تألفت فى باريز عصبة بروغرامها الحاق كريد باليونان وتأسيس حكومة لمكدونية والبانيا وأخرى لارمينية والأناضول وأخرى للقسطنطينية وتراقيا وان تكون البلدة بلدة حرة ومركزاً للحكومات المتحدة

ثم ظهرت حركة أخرى اتفق فيها بعض البلغار والارناؤوط على أن تكون مكدونية وألبانيا حكومتين مستقلتين تحت سيادة السلطان لكن الباب العالى رفض هذا المشروع

وكانت الحوادث والثورات تتوالى فى البانيا والروملى والقلق يشتد فى شبه جزيرة البلقان فاهتبلت ايطالية هذه الغرة وشنت الغارة على طرابلس و برقة بعد انذار أبلغته الباب العالى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ فاستمرت تركيا فى الحرب مع ايطالية نحواً من سنة وانعقد بينهما صلح لوزان فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وخسرت تركيا بقية ما كان بقى لها فى افريقية.

واهتبلت دويلات البلقان الغرة من حرب أيطاليا مع تركيا فتحالفن وهجمن على تركيا : الجبل الاسود فبلغاريا فاليونان فالصرب

قلت واعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشورا على العالم يذكر كل فيه الأسباب التى دعت المسيحيين أن يحملوا السلاح لمقاتلة الترك ويشير الى مصارعة الصليب للهلال وغير ذلك من العبارات التى كان ملوك المسيحيين يستعملونها فى الحروب الصليبية وتبعهم فى ذلك ملك الصرب وسرد تاريخ الجلاد بين الترك والصربيين وزعم أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب وتعارضهم فى حريتهم الدينية وتجبرهم على الاسلام ! وامثال ذلك من العبارات المهيجة.

و بينما مناشير الملوك الثلاثة المذكورين ملأى بذكر العداوة بين النصرانية وتركيا والمصارعة بين الصليب والهلال وجميع الكلمات المثيرة للعواطف اذ صدر منشور السلطان محمد الخامس ليس فيه كلمة واحدة مهيجة ولا جارحة بل كله حث على حفظ ذمار السلطنة وتوطيد نفوذ الحكومة مع الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الأعداء والتحرج عن سفك الدماء بدون موجب والمحافظة على الأموال والأرواح وأماكن العبادة

وقد نقل المسيو دجوڤارا المناشير الأربعة بنصوصها

ثم ذكر خلاصة الحوادث : —

فى ٨ اكتوبر ١٩١٢ اعلان ملك الجبل الاسود الحرب على تركيا

فى ١٨ « « اعلان ملوك البلغار والصرب واليونان الحرب واحتلال البلغار جسر مصطفى باشا

فى ٢٠ اكتوبر « استيلاء الصرب على بريشتينه

فى ٢٢ « « الصربيون ينتصرون على الترك فى كومانوڤو

في ٢٢ اكتوبر ١٩١٢	الأتراك ينهزمون على قرق كليسه
في ٢٦ « «	استيلاء الصرب على اسكوب
في ٢٨ « «	انتصار البلغار في لوله بورغاز
في ٥ نوفمبر «	فوز اليونان في وقعة بنتبيغاديا
في ٨ « «	سقوط سلانيك
في ١٣-١٦ « «	معركة مناستير
في ١٧ « «	معركة شتالجه
في ١٨ « «	جيش الجبل الاسود يحتل آلسيو
في ٣ ديسمبر «	عقد متاركة
في ١٦ « «	اجتماع مندوبي الصلح في لندن
في ٦ ينـاير ١٩١٣	توقف مفاوضات الصلح
في ٢٠ « «	معركة تنيدوس البحرية
في ٢٣ « «	أنور ومن معـه يسقطون كامل باشا ويسقط ناظم باشا قتيلاً
في ٢٤ « «	تأليف وزارة محمود شوكة
في ٢٦ « «	قطع المفاوضات في لندن
في ٣٠ « «	رفض تركيا التخلي عن أدرنه
في ٣٠ فبراير «	رجوع المعارك
في ١ مارس «	قبول الترك وساطة الدول
في ٦ « «	فتح اليونان ليانيا
في ١٨ « «	اشتداد المعارك في شتالجه
في ٢٥ « «	استسلام جاويد باشا للصرب في «سكومبي»
في ٢٦ « «	تسليم أدرنه
في ١ ابريل «	تركيا ترضى باقتراحات الدول

فى ١٠	ابريل ١٩١٣	حصار الدول لساحل الجبل الاسود
فى ٢٢	«	«	احتلال الجبليين لشقودره
فى ٢٥	«	«	اجبار الدول لملك الجبل الاسود على اخلاء شقودره
فى ٣٠	«	«	عقد مواد الصلح الاساسية

وزبدة هذا الصلح ان السلطان يترك جميع الأرضين الواقعة شمالى خط يضرب من أنوس الى ميديا ماعدا البانيا . ويترك لامبراطور ألمانيا وامبراطور اوستريا هنكاريا ورئيس الجمهورية الفرنسوية وملك انكلترة وامبراطور الروسية وملك ايطاليا الاعتناء بتحديد حدود البانيا مع البلاد المجاورة لها

وكذلك يتخلى لملوك الدول المذكورة عن جميع حقوقه على جزيرة كريد ويترك لهم تسوية القرار اللازم بشأن الجزر العثمانية فى الأرخبيل

ولكن هذه المعاهدة بقيت بدون امضاء لأن الدول البلقانية تحاربت بعضها مع بعض بسبب الاختلاف فيما بينها على تقاسم البلاد . وهى حرب لسنا الآن فى صددها وقد استوفى حوادثها المسيو دجوڤارا فعادت تركيا واستفادت من هذه الفرصة وسيرت جيشا استرجع ادرنه فبقيت لها فى أوربة القسطنطينية وادرنه وما بينهما

أى بقى لتركيا فى أوربة زهاء مليون ونصف من السكان بعد أن كان لها أملاك يسكنها اليوم زهاء ٤٠ مليون نسمة فى أوربة خلا آسية وافريقية

بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوڤارا الرومانى مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة من رجل أجنبى عنا بل رجل سياسى مسيحى بلقانى كانت الأمة التى ينتمى اليها من جملة الأمم التى تحررت من حكم تركيا

الخلاصة

قال المسيو دجوڤارا مايلى :

« مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الاقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مائة

الا ان الحماسة الدينية التى كانت تلتهب فى القديم فترت بمرور الأعصر فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التى كانت تجمعها على غير المسيحيين . وصارت المصالح الاقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلف بينهم من قبل . فلما جاء الوقت الذى صاروا فيه يتكلمون عن « الرجل المريض » تنبهت المنافسات وثارت المنازعات وتحقق ان احتلالاً عسكرياً لتركيا سيجرّ بلا نزاع الى حرب عامة

ولا نعنى بهذا ان كل فكر فى تقسيم السلطنة العثمانية انقضى أو ان كل أمل فى الاتفاق على اسلابها قد انقطع . فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقوّل على سقوط سلطنة آل عثمان وفى سنة ١٧٨٤ كتب « ديبز » Diez سفير بروسية فى الاستانة ان الروس لايلبثون أن يأخذوا تركيا فى مدة ١٠ سنوات . وكذلك تنبّأ نابليون بمثل هذا ولم تصدق نبوته

وكانت الدول العظام لاتفكر ان هذه الأمم التى تتألف منها السلطنة العثمانية يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها . بل كان عندها ان هذه الشعوب لم توجد الا لتكون تحت حكم الأجنبى . وبقى هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمه الى أيامنا هذه فاذا قلت لبعض رجال السياسة : ان هذه شعوب يمكنها ان تتحرر وتستقل بأنفسها هزأوا بك . ولم أجد سوى رجل واحد نظر الى بعيد وهو المسيو كونستان سفير فرنسة سابقاً فى الاستانة فقد كان يقول : «ان المستقبل فى الشرق انما هو للشعوب الصغيرة »

على ان السلطنة العثمانية ان لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة فى مدة هذه الأعصر الطوال التى كانت أوربة تناصبها فيها العداء

فماذا كان السبب فى هذا السقوط ؟

الجواب ان الأسباب كثيرة منها السبب الذى نشأ عنه سقوط اكثر الممالك العظمى فى العالم وهو سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة واختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها فى بوتقة واحدة وصعوبة اعطائها كلها فكرة قومية متحدة ثم فساد الادارة وارتخاء النظام وتردّى القوة العسكرية

واضف الى ذلك اختلاف الاديان بين سكان هذه السلطنة فالاسلام لايأتلف مع النصرانية لاسيما انه لا يكتفى بأن يكون دينا روحياً يعزى الأنفس بل هو مسيطر على

الادارة ويتدخل فى أمور الحكومة [١]

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سماوى : ولم يكن القرآن مانعاً لامن العلوم ولا من المعارف ولا من الصناعات . ولو كان ذلك لما كانت المدنية العربية الباهرة ممكنة

وكذلك لولا التسامح الدينى العظيم عند الاتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً . ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخوّلتهم أيضا الحرية المدرسية ومما يجب أن نعترف به أن هذه الحرية الدينية التى منحتها الدولة العثمانية لرعاياها المسيحيين مع حرية التعليم هى التى كفلت نموهم وترقيهم وجعلتهم يسيرون فى طريق الاستقلال المطلق ولا جدال فى ان النصرانية عروة دينية وثيقة كانت جامعة للأمم البلقانية فصارت هذه الأمم تتأهب للمقاومة وما كان من الأمور يقبل العذر فيه من فى مملكة مختلفة الأجناس مثل اوستريا – هنكاريا أو سويسرة كانوا لايقبلون العذر فيه اذا صدر من مملكة غير مسيحية . على انه قد جرت حوادث كثيرة كان فيها النصارى على النصارى أغلظ من المسلمين على النصارى . وذلك كما جرى من البنادقة على أهل أثينا . ولكن الغيظ فى أواسط العائلات سريع الزوال فالعداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية . وقد قال المؤرخان «لافيس» Lavisse و «رامبو» Rambaud [٢] : «ان محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد دينى . وكانت حكومة الترك لاتعارض أحداً فى دينه وكان الاتراك لايمسون امتيازات الكنيسة الارثوذكسية» ثم نقل هذان المؤرخان من القرآن هاتين الآيتين الكريمتين : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ثم : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

الا أن العداوة الدينية للاسلام لم تكن لتنسى . فكل ما كان يفعله المسيحيون بالمسيحيين من الجور والطغيان كان منسياً . وأى شىء وقع من الترك على النصارى كان

(١) سيأتى فصل فى هذا الموضوع نبين فيه وجهة الاسلام الحقيقية

(٢) هذان من أشهر مؤرخى فرنسة وكتبهما تدرس فى مدارس الحكومة

يقابل بالصيحة : ياللانتقام

وهناك سبب آخر لعدم الائتلاف وهو اختلاف السلائل فالترك طورانيون فى السلالة ومثلهم البلغار . اما الروم والصرب والرومانيون فآريون . ثم ان هناك اختلافاً فى المشارب والأوضاع فالتركى جواد يكره ادخار المال والشح. والقرآن يمنع المسلم من الدين بالربا [١] ولذلك كان من الصعب أن يثبت التركى فى مجتمع مبنى على المضاربات وتثمير رؤس الأموال . ولا جرم فى ان هذه المبادئ شريفة فى ذاتها ولكن الحكومة التى تأخذ بها لاتلبث ان تجد خزانتها فارغة وان كان لايسع الانسان الا الأعجاب بمنازع عالية نادرة كهذه

ثم ان احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ العثمانى كله . فان كان الشعب التركى الآن قد غُلب فانه قد فقد كل شئ الا الشرف

ثم ذكر دجوڤارا ملخص تاريخ الحركات الوطنية البلقانية وخروج الروملى من أيدى الترك وانتهاء هذا الخلاف الذى استمر هذه القرون المتطاولة بين الترك المسلمين والبلقانيين المسيحيين وقال فى الختام انه لا يزال فى أيدى الترك القسطنطينية وادرنه والبواغيز وبهذا السبب لهم دور عظيم ويبعد كثيراً اتفاق الدول العظام على اخراج هذه الأماكن من أيديهم

قلت : قد تحقق قول هذا السياسى الرومانى بعد الحرب العامة . فقد جدّ بعد الحرب العامة مشروعا تقسيم لتركيا هما أهم كل ما ذكره من مشروعات التقسيم : أولهما معاهدة سيڤر Sèvre التى أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على امضائها والتى نزعت من يد تركيا جميع البلدان العربية وجعلت بلاد الأناضول التركية مناطق مقسّمة بين دول الحلفاء وجعلت القسطنطينية نفسها ـ وان كان سيبقى فيها السلطان مقيما ـ تحت حكم لجنة دولية . فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركت تركيا أثراً بعد عين

ولكن الأتراك ثاروا عليها واعتصموا بالأناضول وجعلوا مركزهم أنقرة ورماهم الحلفاء بجيش اليونان فقاوموه واحتل اليونان قسما من بلاد الأناضول الا أن الأتراك نهضوا

---

(١) ويذكر هنا دجوڤارا الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا وتحث على امهال المديون الى وقت الميسرة وتنهى عن البخل

ونشطوا واستماتوا فى سبيل استقلالهم فما زالوا حتى دحروا اليونان وأخرجوهم ومزقوا شملهم فاضطرت الدول أن تعود لمصالحة تركيا على غير قاعدة معاهدة سيفر المنبوذة وعقدت مع تركيا معاهدة لوزان التى أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وادرنه وأخرجت من يدها البلاد العربية كلها وكل ما كان لها فى افريقية وجزائر بحر الارخبيل الا الجزر المصاقبة للدردنيل تنيدوس وما جاورها

ولقد كان العامل الأعظم فى بقاء تركيا وعدم اخراج الترك من الاستانة هذه المرة أيضاً هو اختلاف الدول وخوفهن من أن تحتل انكلترة الاستانة ولا تخرج منها فآثروا أن تبقى تركيا فى الوجود وأن تبقى لها القسطنطينية على أن تكون لانكلترة وألفوا لجنة للبواغيز دولية ومنعوا تحصينها . وهكذا ثبت أن هذا الموقع العظيم الذى هو استانبول لا يزال بأهمّيته الجغرافية والسياسية والعسكرية هو السبب الأكبر فى وجود تركيا

* * *

ولنعد الآن الى ذكر التسامح والتعصب وأىّ الفريقين أحق بان يقال انه متسامح الاسلام أم أوربة ؟ مما كان هو أصل البحث الذى ساقنا الى تلخيص « مائة مشروع تقسيم لتركيا » فنقول :

قد شهد هذا الرجل الضليع فى علم السياسة المطلع على تاريخها بما يندر أن يطلع عليه عالم آخر ان أشد التبعة فى هذه العداوة المستمرة بين الاسلام والنصرانية انما هى واقعة على المسيحيين . قال هذا فى مقدمة كتابه هذا المصدّر بمقدمة من قلم « لويس رنول » Lauis Renault من مشاهير أساتيذ الحقوق والعلوم السياسية .

ثم ذكر فى خلاصة كتابه أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للامم المسيحية التى كانت خاضعة لها لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحرّيتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالأ وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فانها الحقيقة التى لا شائبة فيها . ولذلك نجد ملاحدة انقرة يجعلون من جملة حججهم فى التفصى من الشريعة الاسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التى لزمتها مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين وبأن

الشريعة كانت تمنع السلاطين من اجبارهم على الدخول فى الاسلام أو الجلاء

وقالوا ان السلطان سليما الأول أراد توحيد عناصر السلطنة واجبار المسيحيين على احدى خطتين الاسلام أو الرحيل فقام فى وجهه زنبيللى على افندى شيخ الاسلام وقال له : « لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم »

ولقد كانت فى السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون وافرين مترفهين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الاسلامى . فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة و بطل العمل بالشرع وأخذ الترك باوضاع الافرنج وقلدوهم فى كل شىء وعولوا على سياسة « التمغرب » (غر بلاشمق) لم يبق فى جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان بقى فى الاستانة نحو من مائة وخمسين الف نسمة فهؤلاء قد أبقاهم الدول بالاتفاق مع تركيا فى مقابلة مسلمى تراقيا الغربية الذين أبوا أن يتركوا أوطانهم و يرحلوا الى تركيا عندما تقررت مبادلة السكان وأجات الدول بمقتضى معاهدة لوزان المنعقدة سنة ١٩٢٣ المسلمين الذين فى الروملى الى الأناضول والمسيحيين الذين فى الأناضول الى الروملى والمورة

وهذا برهان ساطع على سماحة الشرع الاسلامى وامكان تساكن المسلم والمسيحى واليهودى فى ظله بالأمان والاطمئنان وعدم سماحة الطريقة الأوربية التى منذ أخذ بها الترك أصبحوا لا يقدرون أن يساكنوا المسيحيين ورفضوا أن يدخلوا فى مجلسهم النيابى نائبا واحداً مسيحياً أو يهودياً . وقد كنت أُحصى عندما كنا فى مجلس الأمة أيام الدولة العثمانية عدد نواب الأروام بخمسة عشر ونواب الأرمن بخمسة عشر وكان بيننا خمسة نواب من مسيحيى العرب أربعة منهم عن سورية ولبنان وواحد عن الموصل . وكان أيضاً عدد من نواب اليهود . وقبل الحرب البلقانية التى ذهبت بست ولايات من الولايات العثمانية سلانيك ومناستر وقوصوه واسكوب واشقودرة ويانيا و بقسم من ولاية ادرنه كان نواب المسيحيين فى المجلس ضعف ما كانوا يوم كان محرر هذه السطور نائباً عن حوران من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٨

و بالاجمال لما كان العمل فى تركيا بمقتضى الشريعة الاسلامية كانت روح التسامح

والمساواة فى الحقوق والوظائف هى السائدة فى هذه المملكة. فلما اتخذ الأتراك خطة التفريج أو « التمغرب » على رأيهم حصروا تركيا كلها بالترك وحدهم بدون نظر الى الأجناس الباقية عندهم . وكأنهم عاملوا بقية المسيحيين واليهود الذين فى تركيا معاملة فرنسة لمسلمى الجزائر وايطالية لمسلمى طرابلس مثلاً

ومن طالع تاريخ الاستعمار الأوربى وتاريخ الاستيلاء الأوربى سواء كان فى القديم أو فى الحديث علم أن الأوربى بمقتضى فطرته لا يطيق وجود غيره ولا يرى اذا ساد حقاً الا لنفسه . فهو لا يقف بمجرد الوجدان كما يقف المسلم عن استصفاء حقوق من يستولى على بلاده بل اذا وقف لا يقف الا بسبب قوة تصادمه أو بسبب موازنة يترجح بها عنده نفع الوقوف على ضرره . فأمّا اذا وجد نفسه قادراً أن يفعل ولا يلحق به ضرر فانه قلما يتوقف عن هضم حقوق الذين تغلب عليهم الا نادراً . ولقد تراه من شدة اثرته وطمعه واعتقاده ان له أن يحصر كل شئ فى نفسه ان سمح لرعاياه بان يمارسوا شعائر دينهم مثلاً عدّ ذلك منةً كبرى وأقامها حجة على تسامحه الدينى . فقد قرأنا كثيراً من الخطب والمقالات لرجال الفرنسيس يمنّون فيها على مسلمى المغرب بانهم لم يعارضوهم فى دينهم .... وكأنهم يرون ذلك فى الذروة العليا من العدل والنزاهة وكمال المدنية.

وقد نسوا أن الحرية الدينية حق طبيعى لكل انسان وانها من أقدس الحقوق المقررة فى تاريخ البشر منذ وجد البشر وان لكل انسان بحسب علم الحقوق العامة أن يدافع عن اية حرية دينية جرى عليها حجر أو تضييق فى اية بقعة من الأرض وانه لم يعهد أن أمة مهما بلغ بها التوحش ان قامت وعارضت قوماً فى دينهم . وان فعلت ذلك كما فعل الاسبانيول بمسلمى الاندلس مثلاً أصبح هذا الأمر حديث الاجيال وعدّه التاريخ وصمة أبدية لفاعليه على ممر الأيام والليالى

ويا ليت الفرنسيس وقد تبجحوا باعطاء مسلمى المغارب حريتهم الدينية قد فعلوا وقرنوا القول بالعمل . والحقيقة أنهم منذ نصف قرن سائرون فى افريقية على خطة الكردينال لافيجرى والأب فوكو واضرابهم ممن زرعوا فى عقولهم أنه ما دام مسلمو المغرب مسلمين تبقى سيادة فرنسة على هذا القطر تحت خطر الزوال . وانه لأجل أن تأمن فرنسة على مستقبل أمرها فى شمالى افريقية لا مندوحة لها عن تنصير المسلمين . ولقد

بدأوا بهذه السياسة فى الجزائر ورأوا أن الأمة البربرية بكونها أبعد عن الاسلام من الأمة العربية تكون أكثر قبولاً للنصرانية فبثّوا الدعاة والقسوس فى كل مكان ولا سيما فى جبل زواوة والبلاد التى يكثر فيها البربر وشادوا المستشفيات والملاجئ والمدارس الافرنسية الاكايريكية وكل ذلك على نية تنصير الأهالى وفرنستهم وتعمدوا رفع التعليم الدينى الاسلامى بقدر الاستطاعة. وهذا قد أشرنا اليه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى بحث جزائر الغرب وفى الرد على روجر لابون (١) . ولقد جدّ بعد ذلك حادث عظيم أبلغ الحنق فى العالم الاسلامى منتهاه وهو أن السلطة الافرنسية أجبرت سلطان المغرب مولاى محمداً الشاب لمضى أيام قلائل على توليه السلطنة أن يوقع على ظهير يلغى العمل بالشريعة الاسلامية بين البربر و باشرت ذلك بالفعل وألغت المحاكم الشرعية فى قسم كبير من بلاد البربر بالمغرب وسنت لهم قانونا من العرف البربرى يسيرون عليه بحجة أن البرابر طلبوا ذلك .

وأصبح البربر أجانب عن الاسلام لا فى الأحوال الشخصية ولا فى المعاملات المدنية . وفى الوقت نفسه أصدر الفرنسيس أوامر بعدم دخول الفقهاء والقرّاء ومشايخ الطرق الى بلاد البربر لاجل عزل هؤلاء عن الاسلام بالمرة وتسهيل عمل القسوس فى تنصيرهم . وقد بلغ بالسلطة الافرنسية الهوس فى هذا الموضوع ان أصبحوا لايسمحون لأىّ مسلم من العرب أو من سكان المدن عامة تاجراً كان أو صانعا أو زارعاً أو غير ذلك أن يدخل بلاد البربر الا برخصة خاصة ومن يقدم على الاختلاط بالبربر أو يذهب الى قراهم بدون رخصة من الحكومة يعاقب . وفى أثناء ذلك تركوا الرهبان الفرنسيسكانيين وغيرهم من الدعاة يجولون فى بلاد البربر كما يشاءون و يبنون المدارس الدينية والملاجئ والمستشفيات ووقع أن مسلمى قصبة اسمها زمور كانوا مباشرين بناء مسجد لهم فمنعهم من بنائه الحاكم الافرنسى الذى يلى أمورهم وأعطى فسحة الأرض التى كانوا يريدون أن يبنوا فيها الجامع الى الرهبان ليبنوا فيها كنيسة . والحال أنه ليس فى هذه البلدة مسيحى واحد الا الحاكم الافرنسى . ووقع أيضاً أن أناساً من البربر استدعوا اماماً يصلى بهم فى رمضان فلما بلغ الضابط الافرنسى الذى فى ذلك المكان هذا الأمر قبض على الامام وحبسه ثم طرده . ووقع أن بعض زعماء البربر جاءوا الى مدينة رباط الفتح لأجل طلب ابقاء قضاتهم الشرعيين فألقتهم السلطة فى

(١) راجع صفحات ١٧٥ — ١٨٧ وصفحات ٣٠ — ٣٥٩ من الجزء الثاني

السجن . وكان بعض زعماء البربر يرسلون أولادهم الى فاس ليتعلموا العقيدة الاسلامية واللسان العربى فمنعوهم من ذلك وأنذروهم ان فعلوا بعزلهم عن القيادة . والحاصل أن السلطة الافرنسية باشرت عملاً كان يحلم به لافيجرى وفوكو والآباء البيض وتستنكف الحكومة عن الموافقة عليه بصورة رسمية فهذه المرة لم تستنكف عن ذلك وحاولت تطبيق البروغرام الذى طالما حام فى خواطر الكاثوليكيين الافرنسيين وأرادوا الحكومة الافرنسية عليه ولم يتمكنوا . وقد أصدرت فرنسة هذا الظهير الذى انطلق عليه اسم « الظهير البربرى » فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ أى منذ سنتين وزيادة وكان بطل هذه المعركة المقيم الافرنسى العام فى المغرب المسيو سان الذى اشتهر بالتحامل على الاسلام وكان من قبل المقيم الافرنسى العام فى تونس وفى أيامه انعقد مؤتمر الافخارستيًا — أى استحالة الخبز والخمر بالتقديس الى جسد المسيح ودمه — فى قرطاجنة وأنكر المسلمون ذلك وعدوه مظاهرة مسيحية دينية فى بلاد اسلامية وكان للمسيو سان هذا اليد الطولى فى جعل هذه المظاهرة الصليبية فى تونس ثم ان الفرنسيس رفعوا درجته وجعلوه المقيم العام فى المغرب فجمع حوله عدة من متعصبة الكاثوليك كالجنرال « نوغيس » Nayues والمسيو « سوردون » والمسيو « كورديه » واضرابهم واندرأوا يهيئون الطرق اللازمة لما أملوه من تنصير البربر وتحقيق حلم كان المتشددة من كاثوليك الفرنسيس يحلمون به من زمن طويل . وجرّأهم على هذه الخطوة الغريبة ما رأوه من استنامة شيوخ المغرب والفئة المعممة الى كل ما يراد بهم وعدم معارضتهم فى قليل ولا كثير لارادة السلطة المحتلة ومن ممالأة أكثر رجال « المخزن » أى الحكومة المغربية مثل الوزير المقرى وغيره ممن لا يفكرون الا فى مآربهم الخاصة ويخشون على وظائفهم فيما اذا وقفوا فى وجه السلطة المحتلة . وزاد جرأتهم على العمل انهم وضعوا على كرسى السلطنة شابا هو ثالث أولاد المرحوم مولاى يوسف لا الأول ولا الثانى وجعلوا له مرشداً جزائرياً اسمه « المعمرى » يسوق السلطان الشاب الى ترويج مراضى السلطة الافرنسية فى الدقيق والجليل بلا نزاع بل بلا تردد ويبين له انه ان أبدى أقل تلكؤ فى تنفيذ ارادة الدولة الحامية كان نصيبه الخلع والنفى وما أشبه ذلك . ولكن الفرنسيس فى هذه النوبة لم يصح حسبانهم ولا أصاب تقديرهم ورأوا من أهل المغرب فى الحركة البربرية هذه غير ما كانوا ينتظرون . وقد كان الفرنسيس أرادوا مولاى يوسف

على اصدار الظهير الذى اجبروا ابنه على توقيعه فأبى أشد الآباء فما كاد يوارى التراب حتى جاءوا يضغطون على ابنه مولاى محمد فى امضاء هـذا الظهير الغريب و بواسـطة المعمرى والمقرى تمـكنوا من مرادهم وحسب لوسيان سان هذا فوزاً مبينا . و يؤكد العارفون انه كان بين الفاتيكان ولوسيان سان مراسلات خفية فى قضية البر بر وان الفاتيكان وعـد سان اذا منع الاسـلام من دخول بلاد البر بر بدفع مبالغ طائلة نفقة بناء مدارس وكنائس ومستشفيات تبشيرية . وأخيراً صحت نيتهم على العمل وأرادوا أن يلبسوا هذه المسئلة ثو باً غير ثو بها الحقيقى وهو ان جل مرادهم بهذا الظهير هو ادخال اصلاحات عدلية واقامة البر بر على اعرافهم كما يشتهون . الا ان هذا لم يقنع أحداً لأنه لوكانت المسئلة مسئلة اصـلاحات عدلية لـكان ذلك ممـكنا بدون الغاء المحاكم الشرعية التى كانت تفصـل فى قضايا الأحوال الشخصية ولما كانت السلطة الافرنسية تمنع اختلاط العرب وأهل الحواضر بالبربر ولاتتعرض لمنع التعليم الاسلامى واللسان العربى بين البرابر وتصد عن بناء المساجد الى غير ذلك

فأهل المغرب ثاروا بأجمهم من أجل قضية البر بر هذه . فقد وجدوا السلطة المحتلة لم تـكتف بالاستئثار باراضيهم ومرافقهم ومعادنهم وحقوقهم السياسية والاقتصادية بل مدت يدها الى دينهم الذى تعهدت فرنسة فى معاهدة «الحماية»التى بسطتها على المغرب باحترامه قائلة «ان جميع الاصلاحات التى تقوم بها داخل المغرب لاتمس الدين الاسلامى فى شىء ولا تجلب أى ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان» وعليه كانت ضوضاء شديدة لهذه القضية وأ كثر ما اهتاج لها الشبان والطلبة وخطبوا فى جامع القرويين وجوامع اخر احتجاجاً على الظهير وطلبوا الغاءه وساروا جماعات فى الشوارع صاخبين فلجأت السـلطة الى القسوة وجلدت بالسياط نحو مائة شاب من الطلبة القرويين والقت فى السجون مئات وقيل ألوفاً وغربت عدة من رؤوساء الحركة وكل هذا لم يفد فتيلا فى تسكينها . وأوفدت فاس وفداً الى السلطان فى الرباط مؤلفا من أعيان البلدة وعلمائها وقـدموا له عرض حال وبكوا على الدين وعلى مساس سلطة السلطان التى حلت محلها على البر بر السلطة المحتلة . ولـكن لم يكن فى يد السـلطان شىء . و بقى لوسيان سان متمسكا بتنفيذ ظهيره . فوصـل صريخ المغاربة الى مصر والشام والعراق والهند والجاوى وغيرها وأيقن المسلمون انهم ان خذلوا مسامى المغرب فى هذه المسئلة لم يمض زمن حتى تعرضت جميع الدول المسيحية للدين

الاسلامى أما على سواء أو بخط منحن وحاولت تحويل المسلمين عنه . ولذلك نشر أعيان مصر احتجاجا شديداً على عمل فرنسة فى قضية البربر أمضاه منهم الأمير الكبير عماد الاسلام وثمال كل مستضام الأمير عمر طوسون وزهاء مائة من كبار مصر وعلمائها وزعمائها وتوالت الاحتجاجات على فرنسة من كل فج والى جمعية الأمم وقامت الصحف الاسلامية وقعدت لهذا الحادث . ولما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف فى أواخر السنة الماضية أصدر قراراً بالاحتجاج على الظهير البربرى وكل قانون تقصد به احدى دول الاستعمار رأساً أو بالواسطة تحويل المسلمين عن الاسلام وأبلغه المؤتمر الى جمعية الأمم بواسطة الوفد السورى الفلسطينى فى جنيف . وكان قد بسط القضية البربرية المذكورة فى المؤتمر الشاب الأديب الفاضل السيد مكى الناصرى الذى كان من ممثلى المغرب فى المؤتمر . كما انه نشر بعد ذلك رسالة قيمة عنوانها « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » جمعت كل الوثائق والأدلة التى لا تقبل الرد ولا المماحكة على المراد الحقيقى من قضية هذا الظهير البربرى وهو تحويل البرابر عن الاسلام الى النصرانية بطول الزمن و بقطع شأفة الشرع الاسلامى والتعليم العربى من بينهم . وكان شبان المغاربة فى باريز نشروا رسالة بالافرنسية فى هذا الحادث عنوانها « عاصفة فوق مراكش » Tempete sur Le Maroc فمن شاء الاطلاع الوافى على هذا البحث فليقرأ هذه الرسالة ورسالة السيد مكى الناصرى المار ذكرها . وفى ٦ صفر سنة ١٣٥١ نشر كاتب هذه الأسطر رسالة فى «الجامعة العربية» فى القدس الشريف فى هذا الموضوع آثرت أن أنقلها الى هذا الكتاب لنستغنى بها عن اعادة الشئ نفسه وهى :

ان الحكومة الافرنسية عندما تتبرأ من دسيسة تنصير البربر وتزعم أنها بالغائها المحاكم الشرعية من بين البربر لم تقصد اخراجهم من الاسلام وانما قصدت معاملتهم بمقتضى عرفهم الذى هم متمسكون به ! تدخل فى مأزق ضيق لا مخرج لها منه الا بالرجوع عن هذه السياسة العقيمة السقيمة التى ثامت اسم فرنسا فى العالم وألحقت بها ضرراً كبيراً

أولاً — ان مسلمى المغرب بالاجمال متفقون على أن هذا الظهير لم يكن الا دسيسة لاخراج البربر من عقائدهم وأوضاعهم الاسلامية وانه ليستحيل تواطؤ أمة عدة ملايين على الكذب

ثانيا — انه من سنتين كاملتين لا تزال احتجاجات أهل المغرب متواصلة منها ما هو

بتلاوة الأدعية العامة فى المساجد ومنها بالخطب ومنها بالكتابة فى جرائد فرنسة ومنها بنشر كتب خاصة بالافرنسية وبالعربية ومنها بتوزيع مناشير بين الأهالى ومنها بغير ذلك .

ثالثاً — قد ضرب من أجل القيام على هذا الظهير نحو من مائة شاب من طلبة القرويين بفاس وجلدوا بالسياط جلداً مبرحا وحبس مئات فى فاس والرباط والدار البيضاء ومكناس ونفى عدد كبير من الوجوه والطلبة والادباء ولا يزال بعضهم منفيين الى هذه الساعة ويستحيل أن يكون كل هذا من أجل محض توهم .

رابعاً — قد تألف وفد بعد صدور الظهير بشهرين وذلك من أعيان فاس وعلمائها وتجارها وقصدوا السلطان فى الرباط وشكوا له من هذه الفادحة التى فيها ما فيها من الخطر على الدين الاسلامى فى المغرب وعلى سلطنة السلطان نفسه وأبدوا له ما فيها من التناقض مع تعهد فرنسة فى المعاهدة الافرنسية المراكشية باحترام الدين الاسلامى وأوضاعه وقدموا له عريضة وصلت الينا صورة فوتوغرافية منها فنشرناها فى مجلتنا « لاناسيون آراب » فى العدد الثامن من اعداد سنة ١٩٣٠ وشاع يومئذ ان السلطان الشاب كان يبكى مما سمعه من وفد فاس ولكنه لم يقدر على شىء كما لا يخفى

خامساً — لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين شهدوا بأن قضية الظهير هى قضية مقصود بها اخراج البربر من الاسلام ، بل شهد بذلك عدد كبير من كتاب الفرنسيس أنفسهم من الأحرار ومن ذوى الوجدان لأن فى هذه الأمة من الشرف والنزاهة وحرية الفكر ما لا ينكره أحد ، ولم يكن هؤلاء الذين كتبوا واحتجوا فى الجرائد هم الاشتراكيين فقط بل احتج على قضية الظهير البربرى رجال ليس بينهم وبين الاشتراكيين أدنى صلة مثل المسيو اوجين يونغ ومثل المسيو درمنغهم العالم الفاضل الذى هو معدود من كتاب المسيحيين . . . وقيل لى ان المستشرق الشهير المسيو ماسينيون وهو كاثوليكى النزعة أيضاً يريد خلاص فرنسة من قضية هذا الظهير الذى شان سمعتها

وكل من يحب فرنسة ويحب كرامتها لا يرضى لها بهذه الدسيسة البربرية التى جرها اليها المسيو سان وبعض أشخاص من الفئة الاستعمارية الذين يقولون بقول الكردينال لافيجرى وأمثاله بأنه لا يمكن أن تأمن فرنسة على شمال افريقية الا بتحويل مسلمى المغرب الى الدين المسيحى . . . ان هذه المبادىء لو أعلنت فى القرون الوسطى لأنكرها

الناس وأكبروها فكيف فى هذا العصر وانه ليستحيل على المسلمين أن يرضوا بتعرض فرنسة للدين الاسلامى فى المغرب لأن المسلمين لو قدر وساموا كل شئ يملكونه على وجه الأرض فان أمرين لايتساهلون فيهما أبداً ما دام فى الدنيا مسلم واحد وهما عرضهم ودينهم

سادساً — انه غير معقول وغير متطابق وغير منطقى أصلاً قول الحكومة الافرنسية اننا نحن لم نقصد اخراج البربر من الاسلام وانما ألغينا المحاكم الشرعية من بينهم نظراً لتمسكهم بعرفهم ! فان المسلم لا سيما فى الأحوال الشخصية لا يكون مسلما الا اذا اتبع شريعة الاسلام ومادام البربر يقولون انهم مسلمون فلا بد من أن يكون لهم قضاة مسلمون والا فيكونون معدودين قد خرجوا من الاسلام أو يكون المقصود تهيئة خروجهم منه ويكون بقاؤهم على الاسلام بالاسم موقتا الى أن يكون انقرض منهم طبقة البالغين الحاضرين

سابعا — لنفرض المحال وان الغاء المحاكم الشرعية لايعنى به الغاء الاسلام من أصله فنحب أن نسأل الحكومة الافرنسية مامعنى منع فقهاء المسلمين وحفاظ القرآن الكريم والأئمة والمؤذنين وكل خادم للدين الاسلامى من التجوال فى بلاد البربر ؟ فان هذا المنع قد وقع فعلاً وكان كل انسان يريد الذهاب الى قرية من قرى البربر لشغل خاص أو لتجارة أو أى عمل من الأعمال لايؤذن له فى الذهاب الى هناك الا بتذكرة جواز يعلم عليها. وقد شددت الحكومة الافرنسية فى المغرب فى هذا المنع تشديداً ارتفع به عويل الناس الى السماء لأن البلاد مختلطة بعضها ببعض وعلاقات العرب والبربر وأهل المدن متشابكة وبرغم هذا كله بقى المسيو سان مصراً على منع الاختلاط بين العرب والبربر ولم نسمع انه بدأ الناس يجولون فى القطر المغربى بدون تذاكر جواز وعاد مشايخ الدين وحملة القرآن يترددون الى قرى البربر التى كانوا يترددون اليها الا منذ عهد قريب وذلك أيضاً تحت المراقبة

ثامناً — بمقابلة منع الفقهاء وحفاظ القرآن من التجول فى بلاد البربر كان القسوس والمبشرون قد ملأوا السهل والوعر وباشروا بناء الكنائس والمدارس وذلك فى أماكن ليس فيها مسيحى واحد وقد حصل ان أناساً من البربر كانوا يريدون بناء مساجد جمعوا لها أموالا فأوقفتهم السلطة الافرنسية عن بنائها . وحصل أيضا ، وعندنا اسم المكان والحاكم الذى فعل ذلك ، ان أهالى قصبة كانوا مباشرين بناء مسجد فى أرض خاصة بالوقف الاسلامى فنعهم الحاكم الافرنسى الذى بتلك القصبة من البناء وأعطى قطعة الأرض نفسها للرهبان

الفرنسيسكانيين و بنوا فيها كنيسة وهذا وليس فى تلك القصبة التى يقال لها زمور مسيحى واحد . ان الفرنسيس يحتجون على عملهم هذا بكون الاتراك الانقريين أبطلوا العمل بالشريعة الاسلامية وانهم هم لا يجب عليهم أن يحافظوا على الشرع أكثر من الاتراك المسلمين أنفسهم ، والجواب على هذا ان الاتراك وان كانوا خالفوا الشريعة فى بعض القوانين التى أدخلوها فى حكومتهم فلا يزال أهالى تركيا مسلمين ولا يزال لهم رئاسات دينية فى كل بلدة ولا يزال المفتون هم المنفذين للشريعة والحكومة تمنع اية دعاية دينية مسيحية بين المسلمين كما تمنع أية دعاية اسلامية بين المسيحيين أو اليهود فالمسلمون فى المغرب لا يحاولون بث الدعاية الدينية الاسلامية بين المسيحيين ولكنهم يطالبون فرنسا بعدم ترويج الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين و بعدم حمايتها بالقوة العسكرية والسياسية فان فرنسا تزعم انها دخلت المغرب لأجل أن تحمى السلطان وتحافظ على الدين الاسلامى وشعائره وهذا صريح فى المعاهدة التى وقعت بينها و بين مولاى عبد الحفيظ والحال اننا نراها اليوم كأنها انما دخلت لترويج دعاية دينية كاثوليكية وتحميها بالقوة السياسية والعسكرية . وغريب جداً ان أمة تعد نفسها فى مقدمة الأمم المتمدنة تنقاد الى سياسة كهذه ارضاء لخواطر بعض الاكابريكيين من الفئة الاستعمارية .

تاسعاً — ان المؤامرة فى قضية الظهير البربرى لم تقع على الدين الاسلامى وحده بل على الثقافة العربية بأجمعها فانهم منعوا التعليم العربى بين البربر بتاتاً وقد ثبت أن بعض زعماء قبائل البربر كان لهم أولاد يتعلمون العربية فى فاس فأنذروهم بسحب أولادهم من هناك أو يقطعوا لهم رواتبهم وقد ثبت أيضاً انهم لايريدون ان يتعلم البربرى الا اللغة البربرية و بجانبها اللغة الفرنسية فقط وهذا كما ثبت ان بعض زعماء من البربر جاءوا الى الرباط يلتمسون ابقاء القضاء الشرعى فى ديارهم فقبضوا عليهم والقوهم فى السجون ارهاباً لهم ولغيرهم وسداً لهذا الباب .

عاشراً — ان كثرين من الافرنسيس كانوا لايصدقون باجراء هذه السياسة المقصود منها تحويل البربرى عن الاسلام و يعتقدون ان المسئلة عبارة عن اصلاحات عدلية مماله عادة ان يجرى فى تركيا ومصر اللتين أدخلتا فى بلادهما كثيرا من القوانين الاوربية . ولكن لما مضى على ذلك زمن واطلعوا على الحقيقة وعرفوا ان المسألة ليست مسألة

اصلاحات عدلية وان كل المقصود هو انسلاخ الامة البربرية من الدين الاسلامى ، ولما كان التعرض للاديان من الامور التى يستقبحها الرأى العام بأسره والتى هى مخالفة للدستور الافرنسى فقد شرعوا يقبحون هذه السياسية فى المغرب وقد اطلعنا منذ أشهر على مجلة راديكالية تطالب الحكومة بالرجوع عن هذه السياسة وتقول ان فرنسا لم تكن قط دولة دينية ، بل حرية الاديان فيها مقدسة . وأخيراً اجتمعت الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان فى باريس وقررت ما يلى :

«ان الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان بعد أن اطلعت على ماجريات القضية البربرية وعرفت ماحصل فى المغرب على أثر الاحتجاجات التى قام بها الاهالى على الظهير الصادر فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ طلبت من اللجنة المركزية ان تسعى لدى الحكومة الافرنسية فى المغرب بتخلية سراح المنفيين محمد اليزيدى وعبد اللطيف الصبيحى وعبد اللطيف العتابى ومحمد شماعو الذين أبعدوا بسبب القضية البربرية وبالاحتجاج على خطة السلطة الافرنسية فى المغرب بتكافلها مع الرهبان الفرنسيسكانيين فى تعرضهم للاسلام مما أقام العالم الاسلامى كله على فرنسا . وان الشعبة المذكورة تطلب من جميع جمعيات حقوق الانسان الفرنسية أن تقوم عصبة واحدة وتذكر الحكومة الافرنسية بان حرمة العقائد والضمائر ينبغى أن تكون أساساً لعلاقات فرنسا مع جميع الامم من كل الاجناس والاديان وان تحتج على سياسة الادماج التى هى جارية فى المغرب وذلك بناء على أنه من الحق الطبيعى لكل شعب أن يترقى ضمن دائرة ثقافته الخاصة »

فمن هذه الأسباب كلها نقول ان سياسة فرنسا فى القضية البربرية كانت سياسة تهور حملها عليها ماجد بعد الحرب العامة من الاعتقاد عند بعض الاوربيين ان سياج الاسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مد اليد الى دين المسلمين كما امتدت الى دنياهم . وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الاوربى بحقائق أحوال العالم الاسلامى مهما زعم انه مطلع عليها . ومن حيث انه كما قلنا نجد كثيراً من الافرنسيين حتى من غير الاحزاب الاشتراكية يستنكرون هذه السياسية البربرية و يودون لو ترجع حكومتهم عنها ، فقد صرنا بعد فوز الفرق الشمالية فى الانتخابات نرجو ان تتألف حكومة راديكالية تبتعد عن الصبغة الاكليريكية أكثر من الحكومات السابقة وتقضى على هذا الظهير البربرى الذى ألحق

باسم فرنسا عيباً كبيراً وآسف كل محبيها

ومن قبل ان تأتى هذه الحكومة الجديدة وصلت الينا معلومات جديرة بالتأمل وهى مطابقة لما كنا نعتقده من ان الحكومة الافرنسية لابد أن تعود الى التبصر ولن ترضى لنفسها بهذه الضوضاء القائمة حول الظهير البربرى وذلك ان نظارة الخارجية الافرنسية قد استفتت بعض العلماء المتخصصين فى الامور الاستعمارية وسألتهم عن رأيهم فيما يجب أن يكون العمل به فى العدلية البربرية وعلمنا ان من جملة من استفتتهم فرنسا العلامة سنوك هوركرونييه المستشرق الهولاندى الشهير المعدود الآن رأس المستشرقين فى أوروبا فقد سألته هكذا : «ماذا كان موقف الحكومة الهولاندية أمام القانون العرفى المعروف عند الاهالى بالعادات فى الجاوة وماقولكم فى جمع عوائد البربر بشكل قانون وتطبيقها عليهم مع العلم بانهم مسلمون لاشك فى اسلامهم ؟ »

فاجاب الأستاذ هوركرونييه بتقرير طويل قائلا فيه : « ان هولاندا لم تحاول قط أن تجعل من العادات الأصلية القديمة قوانين رسمية تعاقب من يخالفها وجل ما عملته فى هذا الباب أنها جمعت فى بعض النواحى طائفة من العادات وأعطتها اسم قانون خاص Gode Privé ولم تجبر الأهالى على الخضوع له . أما فى القضية البربرية فان جمع عوائد البربر بشكل قانون ومحاولة تطبيقها يعد خطأ فاحشاً وذلك أن الفائدة هى فى تحويل العرف وتطبيقه على روح المجتمع الحاضر فاما اذا جمعت تلك العوائد وجعلت قانوناً فانها تصير عقبة فى وجه ترقى المجتمع لأن العرف البربرى هو عبارة عن عادات وأوضاع نشأت فى وسط متأخر بسيط فتطبيقها الآن بعد أن ارتقى المجتمع وكثرت المعاملات واشتبكت المصالح وصار البربر أهل عقار وتجارة هو مما يرجع بهذا القوم الى الوراء وقد يضر الفرنسيين أيضا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان وسطاً متمدينا كالوسط المغربى لا يفيد فيه الا قانون له صبغة مقدسة بحيث يعد خرقه جريمة لا أمام ضمير الانسان فقط بل أمام الله تعالى . وليس العرف البربرى بذى صبغة دينية بل هو ، مع تأخره وسذاجته وعدم موافقته لمجتمع راق ، فاقد الصفة المقدسة التى تجعل من خالفه يخاف من ربه» وقال العلامة هوركرونييه : «ان من مصلحة فرنسا الحقيقية أن لا تحكم فى المغرب الا بالقانون الذى له أكبر حرمة فى نفوس أهل المغرب والذى هو مرتبط بعقيدتهم الدينية وان بذلك لو تأملت فرنسة زيادة فى تأمين

حقوق المستعمرين . »

فلجنة المصالح الاسلامية فى الخارجية الفرنسية نصحت المسيو سان المقيم العام فى المغرب بالرجوع عن خطئه واستشهدت له بما فعلته هولاندا فى الجاوة . فكان جواب المسيو سان بالاصرار على تطبيق الظهير البربرى زاعماً أن هولاندا طبقت العوائد القديمة على كثيرين من مسلمى الجاوة وتأتى لها ذلك . وحقيقة الحال أن هذه المحاولات ان كانت من فرنسا أو من هولاندا هى صادرة عن مبدأ واحد وهى محاربة الشريعة الاسلامية التى تزرع فى قلوب المسلمين روح الاستقلال . ولكن لا فرنسا ولا هولاندا تجنى من هذه المحاولات سوى عداوة الاسلام ويجوز أن تكون هولاندا فى بعض أماكن من الجاوة قد أرادت أن تجرب هذه التجربة من بعد ما بدأت بها فرنسا فى المغرب لا من قبل ذلك ، نستدل على هذا من الاحتجاجات التى حصلت من مسلمى الجاوة فى المؤتمر العظيم الذى عقدوه مؤخراً والذى احتجوا فيه أيضا على عمل فرنسا فى المغرب (١)

فالمسلمون غير مخطئين فى خوفهم من التساهل مع فرنسا فى القضية البربرية لأنها قضية متعلقة بالدين الاسلامى فاذا ساغ لفرنسا أن تقطع وتصل فيما يتعلق بالدين الاسلامى فى شمالى افريقية لم تبق دولة أوربية لها رعايا مسلمون الا حذت حذوها وربما زادت عليها ومن المعلوم أن ثمانين فى المائة من الثلاثمائة والخمسين مليون مسلم الذين على وجه الأرض هم رعايا لدول غير اسلامية . فاذا بدأ البثق الدينى كما بدأ البثق الدنيوى ولم يصده المسلمون من الآن بكل شدة كان الخطر على الملة الاسلامية باجمعها أكثر مما يتصور المتصورون وذابت ذوباناً فى الأمم الأخرى بعد أن كان القرآن لها جامعاً مانعاً

حدانا الى هذه المقالة ما نأمله من الحكومة الافرنسية الآتية قريباً من المحافظة على شرف فرنسا والرجوع مع الاسلام الى السياسة التى تزول بها هذه الضوضاء القائمة من أجل قضية البربر وبهذه المناسبة نوصى القراء بمطالعة الرسالة الأخيرة التى ظهرت فى هذه المسألة تحت عنوان « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » المتضمنة تقريراً مقدماً الى المؤتمر الاسلامى العام وجميع مسلمى العالم من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب والمصدر بمقدمة لمندوب الأمة المغربية فى المؤتمر الاسلامى السيد محمد المكى الناصرى الذى شفا

(١) اقرأ جريدة حضرموت عن جلسات هذا المؤتمر

الغليل من هذا الموضوع بحسن بيانه وقوة برهانه وبالوثائق التى لا تمكن المكابرة فيها وبأدلة لا يستطيع الخصم نفسه أن يمارى فى شئ منها . فعسى أن الحكومة الافرنسية الجديدة تتوخى فى هذه المسألة الخطة التى ترضى العالم الاسلامى وتحفظ المبدأ العام الذى اتفقت عليه الأمم والاقوام من عدم المساس بالاديان وتلغى الظهير البربرى الذى تدهورت فيه بدلالة أناس اكليريكيين كان من أقبح الآراء أن يعهدوا اليهم بالادارة فى بلاد اسلامية . « انتهت المقالة »

***

فمن كان يظن أن حكومة تقول انها لادينية وتدير أمة راقية من أرقى الأمم كالأمة الفرنسية ترضى لنفسها ولأمتها بالسير على خطة دينية تبشيرية مخالفة للنزاهة وللحرية الدينية المقدسة ولعهود فرنسة نفسها . ومن كان يظن أن لوسيان سان وهذه الزمرة التى حوله يتغلبون على الحكومة الافرنسية الراقية ويسوقونها الى ما لا يليق بسمعتها فضلاً عما يضر بمصلحتها

وهذا كله انما هو راشح من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التى لم يتمكن العلم العصرى من اقتلاع جذورها من رؤوس الاوربيين لا سيما الأمم اللاتينية منهم

وتأمل فى الأعمال التى أقدمت عليها ايطالية فى طرابلس الغرب والموبقات التى ارتكبتها جنودها منذ عشرين سنة فى ذلك القطر البائس (١) مما لم يسبق له مثيل الا فى القرون الوسطى وقد يكون من باب النادر فى القرون الوسطى نفسها

ومن جملة ذلك أنهم أخرجوا ثمانين ألف عربى من الجبل الأخضر من أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة وأسكنوهم فى صحراء قاحلة من أرض « سرت » وأماتوا بذلك جانباً كبيراً منهم وجميع مواشيهم وارتكبوا فى هؤلاء المساكين من الفظائع والشنائع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأخيراً اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور واناث ممن فوق سن الأربع الى سن ١٥ سنة وحملوهم الى ايطالية لأجل تنشئتهم فى الدين المسيحى وهذا برغم آبائهم وأمهاتهم وبرغم الصراخ الذى ملأ الفضاء فى ذلك اليوم . وقد فصلوا الطفل عن أبيه وأخذوا الطفلة عن ذراع أمها ولم ترق قلوب الطليان لبكاء ولا لعويل ولا تأملوا فى عار ولا شنار ولا فى مخالفة هذا العمل لحقوق الأمم التى لا تجعل للحكومة سلطة

---

(١) راجع رسالة الفظائع السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار التى انتشرت فى هذه السنة

على القاصرين فى وجود آبائهم وأمهاتهم ولا فى مخالفته للمعاهدة التى بين تركيا وايطاليا على طرابلس والتى تعهدت فيها ايطاليا بحفظ حقوق المسلمين فى عقائدهم وأعراضهم ودمائهم وأموالهم . وأغرب من هذا كله أنهم يعترفون بعملهم هـذا ولا يرجعون عنه وتفتخر به حكومة الفاشيست فى مجلس الامة الطليانية وتصدر به القرارات وتنشر فى الجرائد . وقد عم الصريخ العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه بمـا جرى من الطليان على مسلمى طرابلس وملأت الاحتجاجات رومة وجنيف وغيرهما ولم يزل الفاسيشت على غيّهم ولم يزل العرب المطرودون من الجبل الأخضر ساكنين فى بادية سرت ورواية جرائد ايطاليا هى أن منهم خمسة آلاف نسمة أذنت لهم الحكومة فى الرجوع الى بيوتهم . وما كان المقصد من اقصاء هؤلاء الثمانين ألفاً من العرب الا أخذ أراضيهم وتسليمها للمستعمرين الطليان يتمكنون منها ولا ينازعهم أحد

اننا اذا تأملنا فى هذه الاعمال وعلمنا أنها صادرة من أمم تزعم أنها تريد أن تلقى دروس التهـذيب على العالم وجدنا أن أعرق الامم الاسلامية فى الغباوة والبداوة لا تتنزل الى مثلها . فلا وجه اذاً للمقايسة بين العـالم الاسلامى والعالم المسيحى فى التسامح وعدم التسامح . ان الاستبداد المطلق لا سيما فى الدين هو منزع أوربى محض ولا يقاس المسلمون بالاوربيين فى هذا الامر فى قليل ولا كثير

ولم يستطع الفيلسوف الافرنسى ارنست رنان Renan انـكار ذلك لـكنه حاول تعليله بكونه تراثاً مسيحياً أخذه النصارى عن اليهود . قال فى الصفحة ٢٣٨ من « حياة يسوع » طبعة سنة ١٩٢٥ ما يلى

« نعم قد كانت المسيحية غير متسامحة فى الدين ولـكن عدم تسامحها هـذا لم يكن مسيحياً فى جوهره بل هو وضع يهودى فان اليهود هم أول من قرروا الحصر المطلق فى الديانة وزعموا أن كل مبتدع ولو جاء بالمعجزات أدلة بين يديه تجب المسارعة الى رجمه وبدون محاكمة .ولا انـكار أن العالم الوثنى كان أيضاً غير متسامح احيانا لـكن لو كانت عنده هذه القاعـدة لما كان ممكننا أن يتنصَّر. فاليهودية هى التى أعلنت عقيدة سرمدية مسلحة بالسيف . فلو كانت النصرانية لم تتابع اليهود فى بغضائهم العمياء ولو كانت الغت ذلك النظام

الذى كان السبب فى موت مؤسسها لكانت بدون شك أثبت مبدأ ولنفعت النوع الانسانى أكثر بكثير » اه

ونحن لا نوافق رنان على هذا التعليل من جهة حصر منشأ هذا التعصب الاعمى فى تراث المسيحيين عن اليهود . بل نقول ان أعظم السبب فيه هو الغريزة الاوربية المبنية على الأثرة والطمع والجشع وحب التسلط فى كل شئ مما يثبت بالحروب الكثيرة الاوربية التى منشؤها الاطماع وناهيك بالحرب العامة شاهداً . فالنصرانية كانت دين سلام ورفق وحلم وتوصية بالقريب و بكاء على الحزين وفيها هذا المبدأ الشريف : « أحبوا أعداءكم فان كنتم تحبون أصدقاءكم فأى فضل لكم » فاما دانت بها الامم الاوربية تلونت بلون الآنية التى انصبت بها وانقلبت الى ما نراه عليه الآن من الاستبداد والحصر وامتاز أتباعها من الاوربيين لا سيما اللاتين بشدة العداوة والشنآن خلافا لما كان يأمر به السيد المسيح على خط مستقيم

مباحث اجتماعية

تدخل فى غرض هـــذا الكتاب

للأمير شكيب

خلط الاوربيين فى قضية الشرع الاسلامى ورميهم إياه بالجمود
لتعلقه بالمعاد والمعاش معاً

قرأنا وقرأ غيرنا وما زلنا نقرأ هذه الخرافة التى معناها أن سبب تقهقر المسلمين هو الشريعة الاسلاميــة بسبب كونها أحاطت بامور المعاد والمعاش معا وجاءت بأحكام سرمدية لا تتغيَّر ولا تتبدَّل وقضت بتطبيقها فى كل زمان ومكان بدون نظر الى اختــلاف الأزمنة والأمكنة الى غير ذلك من الأقاويل التى منهم من يلقفها من دون روية ولا انعام نظر ومنهم من يعلم سر المسئلة لـكنه يتجاهل ذلك عمداً كراهيــة منه للاسلام وعملاً لهدمه ، ومنهم من يرويه كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير فى الحالة التى آل اليها المسلمون وهؤلاء كصاحب كتاب « مائة مشروع لتقسيم تركيا ».

وأغرب من هــذا أن بعض المسلمين الجغرافيين وفى طليعتهم الأتراك الانقريون شيعة مصطفى كمال قد وافقوا هذه الفئة من الأوربيين على مزاعمها هــذه وذهبوا الى أن تأخر الممالك الاسلامية وتأخر تركيا انما جاء عن اختــلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفرداً وأن يجعلوه سرمداً وأن يردّوا اليه كل شئ ولهذا كان لا مندوحة للامم الاسلاميــة بزعمهم اذا أرادت الرقى فى معارج الفلاح من أن تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التى أصبحت لا تصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من الأخذ بشرائع وقوانين انما صلحت لهــذا العصر لـكونها وُضعت بهــذا العصر . وطابت للاتراك الـكماليين كلمة أخــذوا يلوكونها بألسنتهم ويظنون أنهــم أتوا فيها بالقول الفصل ! وهى :«نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولـكن شرعاً فيه قلنا ونقول» . وطاب

لمقلدة الاتراك الانقريين من أهل مصر وغيرهم وان كانوا نزراً فى عددهم أن يرددوا ما يردده الكماليون بدون تأمل فى حقائق الامور ولا فى حقائق تلك الالفاظ التى يلوكونها

وحقيقة الحال أنه ليس فى الدنيا شرع ولا قانون يخلو من « قال » و « قالوا » ولا يستقى فى منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئين من السنين وربما من آلاف من السنين .

فكون الانقريين عملوا بمقتضى « قلنا » و « نقول » وأرادوا مساوقة العصر الحالى هو غير صحيح . وهم ما أرادوا الا « التفرنج » لا غير . ولم يكن عمل الاتراك بمجلة الاحكام العدلية هو الذى منع تركيا من الرقى بل كان عملها بمجلة الأحكام العدلية فى المعاملات المدنية هو عين الحكمة والصواب لان القاعدة فى القوانين هى أنها لا تفيد الا اذا كانت مطابقة لأذواق الأقوام التى تطبَّق فى محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم .

فعندما أخذ الاتراك بقانون سويسرة المدنى وبقانون الجزاء الايطالى أخذوا بقوانين بعيدة عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم بعد المشرق عن المغرب وما اخالهم استفادوا منها شيئاً الا التحيُّر فى القضاء والصعوبة فى التطبيق وقد بلغنى أنهم اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة فى هذه القوانين بعد ان كانوا قبلوها على علاتها وحاولوا تطبيق قوانين جارية فى زوريخ وبرن على أهالى وان وبتلس ومعمورة العزيز . . . .

فأما خلو القوانين التركية الجديدة من « قال » و « قالوا » فقد كفانا اظهار ما فى ذلك من السفسطة « موريس برنو » Pernot الكاتب الافرنسى فى رحلته المسماة « فى آسية الاسلامية » على كون هذا الكاتب المفكر هو من أشد الاوربيين ابتهاجاً بخلع أنقرة للتقاليد والقواعد الاسلامية . لم يلم الاتراك الكماليين على العمل بقوانين أوربية وانما انتقد زعمهم أنهم انما أخذوا بقوانين لا تستند على أقوال ماضية .

ففى الصفحة ١٩٠ من كتابه هذا يذكر برنو جلسة فى مجلس النواب بانقرة ألقى فيها الغازى مصطفى كمال خطبة فى معنى التجدد قال فيها : « ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لاحوال الزمان لا للمبادئ ولا للتقاليد »

قال برنو : « وبعد رئيس الجمهورية قام محمود أسعد بك ناظر العدلية ورقى المنبر

وقال : « ان الشعب التركى جدير بان يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة « قال » المقدسة . فاما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا فى الماضى بل يهمنا أن نفكر نحن وان نقول نحن » وقد قوبلت هذه الجمل بعد كلام الغازى بابتهاج شديد وأشد من رأيته مبتهجا بها أحمد أغايف القوقاسى ويونس نادى ومختار بك وذلك لأن هذه الافكار هى أفكارهم وفى تصفيقهم كانوا يصفقون لفوزها » قال موريس برنو :

« الا أن هذه القضية التى قررها الغازى ومحمود أسعد فيها نظر . فاذا نظرنا الى القانون المدنى الذى استعارته تركيا من سويسرة فهل يجهل مصطفى كمال أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما رومانى والآخر مسيحى ؟ وهل يجهل الدور الذى تلعبه فى هذه القوانين العادات القديمة والعرف الجارى الذى يريد هو الغاءهُ ؟ لعمرى أن كنا نريد أن نأخذ بمبدأ الغازى هذا لزم أن نقول أن على أهل كل عصر أن يلغوا الاحكام القضائية التى كان يعمل بها أهل العصر الذى سبقه وان لا يعملوا الا باحكام جديدة بحجة أنها أوفق للزمان الذى يعيشون فيه » . اهـ

ان موريس برنو هو من الفئة التى استحسنت كل ما فعلته أنقرة من الخروج على العقائد والقواعد الاسلامية ومع هذا فلم يقدر أن يهضم هذه السفسطة التى معناها أن القوانين العصرية لا يجوز أن يكون فيها مبادئ وأصول قديمة . وان هذا القانون المدنى السويسرى التى اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع ان التشريع الرومانى القديم فهى أقدم عهداً من الفقه الاسلامى الذى يزعم مصطفى كمال أنه الغاه بسبب توغله فى القِدَم(١)

وأما قانون العقوبات الايطالى الذى اتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون رومانى مسيحى وايطالى كاثوليكى وفيه من الاوضاع اللاتينية القديمة والاعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره الا المكابر فكيف يكون مصطفى كمال سيَّر أمته على نهج عصرى محض لا مدخل فيه لقال ولقالوا ولا لرأى عتيق ؟ ولقد نسى الغازى أن القوانين ينبغى أن تكون لا وفقا للزمان فقط بل للمكان أيضا وان بين المكانين تركيا وسويسرة وتركيا وايطالية

(١) فكيف يكون القديم مكروهاً منبوذاً والأقدم منه مقبولاً معولاً عليه فى وقت واحد .

بونا شاسعا فى المشرب والمذهب والعرف والعادة . وناهيك أن جميع سويسرة بلاد مرتبطة بعضها ببعض وسكانها لا يبلغون أربعة ملايين وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد بل تجد فى المقاطعة الواحدة قانوناً غير قانون المقاطعة الثانية وذلك بحجة اختلاف الاعراف والعادات بين المقاطعتين . فاذا كان هذا هو تأثير الخلاف بين مقاطعة ومقاطعة فى سويسرة فكيف تكون لعمرى درجة الاختلاف بين سويسرة وتركيا . واذا كان القانون الذى تمشى عليه جنيف لا يوافق أهل لوسرن مثلاً وكل المسافة التى بينهما بضع ساعات فكيف يوافق قانون سويسرة أهالى ديار بكر وسيواس وقره حصار مع أنك اذا عرفت هذه وعرفت تلك ظننت أن الارض غير الارض والسماوات.

ان الذى قصده مصطفى كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج وان تفهم أوربة انهم هم نبذوا التقاليد الاسلامية ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أوربية . وليس أدل على ذلك من كون المجلس الانقرى يوم قرر اتخاذ قانون سويسرة المدنى قرر قبوله بأصباره بدون مناقشة ولا تعديل و بقيت قضاة تركيا مدة طويلة لا تكاد تفهم من هذا القانون شيئاً . وما باشروا تعديل القانون السويسرى الذى اتخذوه قانونا مدنياً الا بعد اتخاذه ببضع سنوات . أما قانون العقوبات الايطالى الذى اتخذوه للأمور الجزائية فان ايطالية نفسها عادت فأدخلت فيه تعديلات توخت فيها زيادة المطابقة بينه و بين مبادئ الكنيسة.

وسواء كان هذا أو ذاك فليس فى أوربة قانون غير متأثر بالتعليم المسيحى والتشريع الرومانى . وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأوربية هى كلها من باب التشريع الانسانى الصرف وأنه لا مدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكما القول بأن الشريعة الاسلامية وحدها هى التى جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة ! ومن طالع الشرائع الانسانية عرف أنها بأجمعها سماوية بشرية أى أنها راجعة الى أصول دينية واجتهادات بشرية معلقة عليها . وليس الشرع الاسلامى وحده ناصاً على أمور الدنيا والآخرة بل الشرع الموسوى أيضاً وديانة سيوا التى هى عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التى هى عقيدة أهل الصين . وأما الانجيل فليس كتاب تشريع وانما هو كتاب مواعظ وآداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق واعادة الخلق الى روح

الشريعة الموسوية فلم يرد الاتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد اكمال للعهد القديم لا نقضٌ له كما صرح بذلك المسيح نفسه . فيكون الانجيل أيضا لم يخرج عن الشرع السماوى وتكون دعوى بعضهم من أن الانجيل لم يتعرض لأمور الدنيا غير صحيحة . وبعبارة أخرى اذا نظرنا الى الحقيقة نجد الشرائع كلها راجعة الى أصلٍ سماوى ولكن قد فرّع الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب احتياجهم وبعد التجاريب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس فى هذا عن بعض فكل قبيل قلد قبيلا فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترعين انما يقصدون الرفق بالعباد وحياطة الحق ما أمكن ويرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة . وهذا ما يسميه المسلمون بالاجتهاد وقد بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم وقد عظم على من تضيق صدورهم بالاسلام أن يكون فقهاء الاسلام بلغوا من الاحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجوه أحكامها ما بلغوه فزعموا أن أئمة الاسلام انما أخذوا ماأتوا به عن الفقه الرومانى . وهذا من أغرق المزاعم فى الباطل ولقد تقدم لنا فى هذا الكتاب البحث فى هذه المسئلة ونقلنا فيها كلام العلامة صاوا باشا الرومى الذى فنّد هذا الزعم وأثبت كون أئمة الاسلام انما فرعوا على أصلين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا اليهما الاجماع والقياس فتوسعوا فى الفقه ما ندر أن يكون تيسّر لغيرهم وكل من زعم ان الفقه الاسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى لا يكون اطلع على شئ من تاريخ الرسول ولا أصحابه ولا التابعين . فالشرع الاسلامى هو شرع سماوى باعتبار الأصل وتشريع انسانى باعتبار الاجتهاد والتفريع . وكذلك القانون الرومانى نفسه بعد ظهور النصرانية تلوّن بلونها . وصاوا باشا يقول طبق ما أسلفناه فى أول هذا الفصل وهو : ان السيد المسيح قد اقتصر على الوعظ بآداب عالية كانت أعلى من كل ماعهده البشر من نوعها ولكنه لم يقصد تبديل الشرائع التى كانت موجودة فى عصره وانما تأثر الفقه الموسوى والفقه الرومانى بالعقيدة المسيحية التى كانت قد بدأت تنتشر فى المجتمع وما كان لشريعة قوم من الأقوام الا أن تتأثر بدياناتهم . فالآداب المسيحية قد كان لها تأثير عميق فى الفقه « الرومانى البريتورى » وأما الفقه اليوستنيانى (١) فقد كان تشريعا مسيحياً بحتاً الخ »

(١) نسبة الى الامبراطور الرومانى يوستنيانوس

وقد ألف فائز بك الخورى من أدباء المسيحية السوريين والحقوقيين البارعين تأليفا فى الفقه الرومانى والفقه الاسلامى وأثبت عدم اشتقاق هذا من ذاك . وعلى أىّ الأحوال لم يكن الفقه الاسلامى وحده هو الذى يرجع الى وحى سماوى بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها . وهذه الأصول الدينية قسمان عبادات ومعاملات فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلى الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مماجرت العادة أن تتغير أصوله بحسب الزمان والمكان . وأما قسم المعاملات فهو وان كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هى المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد . وأينما تكون المصلحة فثمّ دين الله .

ومن نظر الى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف قاضٍ والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات واذا ضاق الأمر اتسع وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم ان المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلة أدرك من مرونة الشرع الاسلامى ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت . ولا شك أن جمود بعض فقهاء الشرع الاسلامى وشدة تعصبهم لكل شىء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر محدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم اجازتهم العمل الا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهافتهم على الجزم بحرمة مالم تثبت حرمته برغم ماورد من التشديد والتدمير على كل من يقول بالحلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذه اعداء الاسلام حجة على الشريعة الاسلامية بأنها جامدة و بأنها لاتلتوى مع الوقت و بأنها لاتسع جميع الحوادث و بأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون الى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمى به الشريعة ظلماً وعدواناً . والحق فيه ان الشريعة لايمكن أن تخالف المصلحة لأن هذه انما جاءت لمصالح العباد والله لايشرع لهم الا مايّيسر أمورهم ولا يجعل عليهم فى الدين من حرج . وكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون مخالفة للشريعة وما يقال انه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة فان تعين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن

بعضهم المصلحة فى شئ يظن غيرهم انها فى خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هى فى الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجماعهم على الربا الذى مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال ان تحريم الشرع اياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأبى الشرع بضدها وقد رأينا أموراً عدل فيها الفقهاء الى العرف وتركوا نصوص الكتب الشرعية وذلك بعد أن تبيّن لهم ان المصلحة هى فى اتباع العرف الجارى فى ذلك المكان المعين وقد رأينا أموراً ترك فيها المسلمون ظاهر الشرع لضرورة قضت عملاً بكون الضرورات تبيح المحظورات وبأن الأمر اذا ضاق اتسع . وليس بصحيح ان المسلمين لايعملون الا بنص من الكتاب أو السنة بل هم يعملون بالنص ما وجدوه فان لم يجدوه عملوا بالقياس . وما منع علماء الاسلام العمل بالرأى لافى القديم ولا فى الحديث . وغاية مافى الامر انهم اشترطوا فى الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى . وهذا لايقدر أحد أن يقول فيه شيئا لأن الاجتهاد له شروط لايصح بدونها . وليس لكل انسان أن يجتهد وان يستنبط أحكاماً شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لايرقاها الا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا الى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشرى ماتتجلى لهم به وجوه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة . واما الرأى فى نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه احد وكل رأى اتفقت عليه الامة اجازوه وقالوا ان الامة لاتتفق الا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأى الامة بقوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) وقال ابن قيم الجوزية فى « اعلام الموقعين » كانت النازلة اذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم . وعن شريح القاضى قال قال لى عمر بن الخطاب : «اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ فان لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فان لم تعلم كل ماقضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح». وكتب عمر الى شريح : «اذا حضرك أمر لابد منه فانظر مافى كتاب الله فاقض به فان لم يكن ففيما قضى به رسول الله فان لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فان لم يكن فانت بالخيار . فان شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك وان شئت أن تؤامرنى ولا ارى مؤامرتك اياى الا خيراً لك . »

ومن كتاب لعمر الى أبي موسى الاشعرى : «ثم الفهم الفهم فيما ادلى اليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ثم قايس الامور واعرف الامثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق»

ولما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل والياً على اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال اقضى بما فى كتاب الله : قال : فان لم يكن فى كتاب الله؟ . قال فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيى لا آلو . ففرح رسول الله ﷺ بقوله هذا وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله

وربما قيل : الا ان الرأى فى الفقه الاسلامى لا يصح الا اذا كان ضمن دائرة الاسلام ولم يصادم الكتاب ولا السنة . وكأنهم لا يرون القضاء موافقاً للمدنية العصرية الا اذا كان غير مقيد بالكتاب والسنة . وليس هذا الافلات بضرورى أصلا اذا كان الكتاب والسنة لا يأمران الا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على مافيه ضرر لهم ومادام خير الأمة اينما كان هو رائد الشريعة فمن الظلم ان نتهم الشريعة بضيق العطن ونقول انها لاتسع النوازل وهى قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الاصول الكلية التى يرجع اليها والحاصل ان جميع الشرائع تقريباً لها أصول دينية مرعية مقدسة عند اتباعها ولم تختص بذلك الشريعة المحمدية . وجميع الشرائع أيضا قد توسعت وتكملت بالاجتهادات البشرية التى اختصت منها شريعة الاسلام بالقسط الأوفى . ولم تختص بذلك القوانين الأوربية وحكاية جمود الشرع الاسلامى على وتيرة واحدة وأنه لا يتقدم ولا يتأخر ولا يراعى تغير زمان ولا مكان هذه من جملة الدعايات التى يبثها أعداء الاسلام وروّاد الاستعمار الأوربى ويدخلون بها على ناشئة المسلمين بالشبه التى تكره اليهم هذا الشرع وتحبب اليهم المروق منه وهذا جل ما تبغيه أوربة من الدعاية فى هذا العصر بين المسلمين لمعرفتها انه ما دام الشرع المحمدى هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم الا بالاستقلال التام وعاراً لا يرحضه الا طرد الأجنبى المتغلب من المستعمرات التى تغلب فيها عليهم . وأية مصيبة على أوربة أعظم من هذه !

قضية فصل الدين عن السياسة

ويدخل فى هذا الباب قضية « فصل الدين عن السياسة » وزعم الفئة الدسّاسة من رواد الاستعمار وأعداء الاسلام ان أوربة قد فصلت الدين عن السياسة بتاتاً وطلقت هذه من هذا ثلاثا وانه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية الا المسلمون الذين لم ينظروا الى ما حولهم من المحدثات العصرية التى من جملتها جعل الدين فى واد والسياسة فى واد . وقد مشت هذه الأغلوطة على كثير من المسلمين وآمنوا وصدقوا ان الدول الأوربية تفصّت من كل نزعة مسيحية وأنها لا تعرف شيئا سوى الانسانية العامة وان الدين المسيحى لا تهتم به حكومة من حكومات أوربة أكثر مما تهتم بغيره من الأديان ! وانه ان كان المسلمون يريدون أن يفلحوا فلا مناص لهم من الاقتداء بالأوربيين فى هذا المشرب ولما كان الأوربيون قد نزعوا من حكوماتهم كل صفة مسيحية كان على المسلمين المقتدين بهم فى طلب الفلاح أن ينزعوا عن حكوماتهم كل صبغة اسلامية بحيث تنظر الى الدين نظر من لا ناقة له فى الأمر ولا جمل . ويسمون هذا المنزع « باللاييقية » Laïcisme ومعناها ماليس « باكليريكى » ويجزمون بأن أوربة قد نزعت هذا المنزع وعضت عليه بالنواجذ وانه لم يبق من يقيم للدين وزناً الا دول الاسلام ومن أجل هذا هى متأخرة متقهقرة !

ولقد روَّج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقرة لغرض فى نفسه من جهة سلخ الترك تدريجا من العقيدة الاسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الاسلامى أجنبيا عن الحكومة التركية كما ان الدين المسيحى هو بزعمه أجنبى عن الحكومات الاوربية الراقية ! وتابعه فى ذلك الحزب الذى يسمى فى تركيا «خلق فرقه سى» والذى هو من أوله الى آخره أشبه بجند لمصطفى كمال تحت قيادته لا يملكون معه قبضا ولا بسطا . فألغوا جميع ما تشتمّ منه رائحة الاسلام من أوضاع الحكومة التركية وأبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشريعة وألغوا الوزارة التى كان اسمها « مشيخة الاسلام » وجعلوا مكانها دائرة صغيرة تابعة لنظارة الداخلية سموها « ديانت ايشى » أى أمور الديانة . وحذفوا من دستور تركيا المادة التى فيها « ان الاسلام هو دين الجمهورية التركية » وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا اقامة مراسيم العيدين النحر

والفطر وقالوا ان الحكومة التركية لا تعرفهما ولكنهم وجدوا فيما بعد أن المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبى لا بد لهم من الاحتفال بهذين العيدين فعادوا فى السنة الماضية يعطلون دوائر الحكومة فيهما وعاد رئيس الجمهورية يقبل فيهما التهانىء

وأما الكتابة التركية بالحروف العربية برغم كل ما جرى لها من المعارضة فقد كان تعليلها فى ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقصير المدة اللازمة للقراءة ولكن الغرض الحقيقى منها كان اقصاء الترك عن العرب وابطال قراءة القرآن تدريجاً وأهم من ذا وذا اقناع أوربة بأن تركيا قد تفرنجت تماماً وانه صار من العدل أن تدخل فى العائلة الاوربية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى كمال الاتراك على لبس القبعة ليزدادوا اندماجاً فى الاوربيين . ولقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا فى حياتها العلمية والأدبية والاقتصادية والتجارية وتعذرت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية فانحصرت فى فئة قليلة وقلت المكاتبات والمراسلات بين الناس وقل جداً عدد القراء للكتب والجرائد وأصبحت الجريدة التى كان عدد قرائها يحصى بالالوف لا يقرأها ولا خمسمائة شخص وصارت الحكومة مضطرة أن تقوم باودها .

وازدادت الكتابات الرسمية صعوبة فتأخرت أشغال الناس لدى الحكومة . ودثرت ملايين من الكتب فخربت بذلك بيوت لا تحصى . وأما من الجهة الفنية فالحروف اللاتينية برغم ما أدخلوا من العلامات على بعضها لايتاء اللفظ التركى حقه لا تؤدى اللفظ التركى الصحيح فى كثير من المواضع فلذلك قد تغير بها اللفظ التركى عن أصله وصارت كأنها لغة جديدة . ثم ان الحروف اللاتينية المنفصلة وان كانت أسهل فى القراءة والكتابة فانها تأخذ من الفسحة على القرطاس وتستغرق من الوقت للكتابة أكثر مما تستغرق الحروف العربية بكثير وان الكتابة العربية هى أشبه شىء بالاختزال Sténographie وانها أوقع على مبدأ الاقتصاد فى الزمن والمكان وأقرب أن تكون كتابة العصر الحالى المبنى كل وضع فيه على الاختصار والاقتصاد

ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة فى تركيا ولكن الغازى لا يزال مصمماً على حمل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حباً بالتفرنج

والذين لا يعلمون حقائق الأحوال يظنون أن الأتراك راضون مغتبطون بالغاء

الشريعة الاسلامية من المحاكم ورفع التعليم الدينى من الكتاتيب والمدارس واجبار النساء على السفور وخلط الاناث والذكور فى دور العلم وحمل الأوانس على الزفن مع الشبان ولبس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية الى غير ذلك مما أحدثته الحكومة الأنقرية الكمالية ويقولون انه لولا رضى الترك بذلك لثاروا بحكومتهم ولأسقطوها ولردوها عن ثنيَّات الطرق ! ولكن الذى يتأمل فيما تحمله الشعب التركى من المصائب وما نوجز من الحروب المستمرة بدون انقطاع ويعلم أن جيران الاتراك كلهم واقفون لهم بالمرصاد ينتظرون أول غرة ليهتبلوها وينقضوا عليهم ويعيدوهم أثراً بعد عين والذى يفكر فى أن آمال الاتراك كانت بعد الحرب العامة قد انقطعت من الاستقلال وان كثيرين منهم ومن جملتهم عصمة باشا رئيس وزارتهم الحالية كانوا يذهبون الى طلب « انتداب » أمريكا أى وصايتها على تركيا ومع هذا فقد أذن الله بأسباب متعددة يطول شرحها أن تتمكن تركيا من استرجاع استقلالها وأن تعود دولة كسائر الدول ولو من الدرجة الثانية نعم الذى يستعرض أمام نظره جميع ما أناخ على تركيا من المصائب والنوائب التى تدك الجبال يفهم لماذا هى صابرة على مرارة هذه الاوضاع الاجتماعية التى هى مخالفة لمذهبها ومشربها وعادتها وذوقها ولماذا هى تفضل الخضوع لها على الثورة والانتقاض والتطريق للاعداء أن يعودوا فيقضوا على تركيا كما كانوا قرروا على أثر الحرب العامة

أما العقيدة الاسلامية فلم تزعزعها حتى الآن فى تركيا هذه السياسة اللادينية ولا يزال الشعب التركى شديد الاعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية فى استانبول وغيرها مما لم يخفَ على الافرنج الذين أشاروا اليه فى جرائدهم . ولن يكون خطر على اسلام الشعب التركى الا ان استمر الحكم الحالى مدة طويلة ونشأت الافواج الجديدة على ما هى عليه من فقد التعليم الدينى . والانقريون يزعمون أن المدارس الاميرية فى فرنسة ليس فيها تعليم دينى وانهم هم انما يقتدون بفرنسة . ولكنهم يتجاهلون أن المدارس الخاصة والمدارس العائدة للرهبان وللاساقفة وللجمعيات الدينية من كاثوليك وبروتستانت هى فى فرنسة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولذلك التربية الدينية لا يمكن أن يخشى عليها هناك . هذا من جهة فرنسة . ونعود فنقول من حيث ان تركيا اتخذت لنفسها قانون الجزاء الايطالى ومن حيث انها على أتم الموالاة لايطالية وبين الدولتين اتفاق سياسى كما لا

يخفى فلماذا لا تريد ان تقتدى بايطالية فى جعل التعليم الدينى من أهم برامج المدارس الاميرية . وأيضاً فالأمة الالمانية التى هى فى الذروة العليا من المدنية تفرض التعليم الدينى فى جميع مدارسها . وأيضاً فالأمة ألانكليزية التى هى أعظم الدول قوة وسلطاناً فى الارض تعتنى مزيد الاعتناء بالتعليم الدينى فى مدارسها الابتدائية والثانية والعالية . ولا نعلم من حكومات الارض كلها الا ثلاثاً يحاربن الديانات وقد الغين التعليم الدينى من مدارسهن وهن الروسية والمكسيك وتركيا

ثم ان فرنسة وان كانت حكومتها ذات صفة لادينية فى القانون فانها تظهر فى كل فرصة بمظهر دينى مسيحى لايقدر القائل ان يجد فيه مقالاً . ولما مات المسيو بريان استدعت الحكومة رئيس اساقفة باريز وصلى على جنازته فى نفس نظارة الخارجية . ولمامات المارشال فوش والمارشال جوفر أقيمت لهما مراسم دينية فى فرنسة وفى سفارات فرنسة فى الخارج . ومن شهرين أقاموا حفلة دينية فى كنيسة الانفاليد بباريز تمثلت فيها الحكومة الافرنسية وذلك شكراً لله على انتصار الجيش الفونسوى فى المغرب وافتتاحه لواحة تافيلالت واستمطاراً للرحمة على أرواح الذين قتلوا منه فى المعارك . الى غير ذلك من المظاهر الدينية التى تقوم بها الحكومة الافرنسية والتى شهدنا منها نحن فى سورية أيضاً مالا مجال فيه للمراء . ولولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الافرنسية تعضد الآباء البيض والفرنسيسكانيين وسائر المبشرين الجائلين فى الجزائر وتونس والصحراء والسودان الغربى وتمد بضبعهم وتسهل امامهم عقبات تنصير الأمم الاسلامية وغيرها . وهذه القضية البربرية التى قام لها العالم الاسلامى وقعد ولا يزال الفرنسيس متمسكين بها ان هى الامظهر تحت حكم الجمهورية الثالثة من مظاهر فرنسة فى أيام لويس التاسع . فكيف تكون فرنسة الرسمية قد خلعت عنها الرداء الكاثوليكى وكيف يسوغ فى الاذهان قول ينفيه ظاهر الحال

وهذه الدولة البلجيكية قد جعلت فى بروغرام حكومتها الرسمى العمل لتنصير زنوج مستعمرتها الكونغو . وهذه الدولة الايطالية — صديقة تركيا — جمعت الوفا من أطفال عرب طرابلس أخذتهم من بين أيدى والديهم بالقوة وحملتهم الى ايطالية لأجل تربيتهم فى الديانة الكاثوليكية ولم تبال مافى ذلك من خرق العهود والاعتداء على أقدس حرية بشرية وهى الحرية الدينية . وهذه الحكومة الالمانية الحاضرة قد ضبطت منذ أشهر نشرات شيوعية

بحجة انها تتضمن دعاية لهدم الدين المسيحى.وكان الدكتور شترزمان قد أعلن فى الرايخستاغ قائلاً : «ان الثقافة الالمانية مبنية على النصرانية» . وقبل الحرب العامة كان امبراطور المانية وملك بروسية هو الرئيس الرسمى للكنيسة اللوثيرية كما ان ملك انكلترة الآن هو الرئيس الرسمى للكنيسة الانكليكانية

وماذا يقول الانسان فى تديّن الامة الانكليزية الشديد كبارا وصغاراً ومن جميع الطبقات حتى من طبقة الاشتراكيين . وكل أحد يعلم المناقشات التى ثارت فى مجلس اللوردة الانكليزى ومجلس البرلمان الانكليزى من أجل سر استحالة الخبز والخمر بتقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فانه لم يعلم الناس مسئلة أخذت من الأهمية فى انكلترة ما أخذته هذه المسئلة حتى ان المرضى من اللوردة حضروا جلسة هذه المسئلة محمولين بالأسرّة . وتحرير الخبر ان فى الكنيسة الانكليكانية التى عليها دين المملكة الرسمى خلافاً قديماً فى قضية الخبز والخمر . فالجناح الأيمن من رجال الكنيسة يقولون بما تقول به الكثلكة وهو انه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز الى جسد الرب والخمر الى دمه بناء على كون المسيح فى العشاء السرّى مع الحواريين ناولهم من الخبز وقال لهم : «هوذا جسدى ومن الخمر» وقال : « هوذا دمى »

فالكنيسة الكاثوليكية والمحافظون من الكنيسة الانكليكانية المنشقّة عنها يقولون انه كلما قدّس الكاهن على الخبز والخمر ولفظ هذه الجملة التى قالها السيد المسيح ينقلب الخبز الى نفس جسد المسيح الحقيقى والخمر الى دمه . وأما الوسط والجناح الأيسر فيقولون ان هذه الاستحالة مستحيلة بذاتها مخالفة للعلم والفن وأن الخبز لا يمكن أن يتحول الى جسد المسيح ولا الخمر الى دمه بالمعنى الحقيقى وانه يقدس كل يوم ملايين من القسوس فكم مليون مرة كل يوم يقع هذا التحول لجسد واحد ؟ فلا يمكن أن يكون كلام المسيح هذا الارمزاً بحيث إذا حصل التقديس يتذكر الناس جسد الرب ودمه تحت صورة الخبز والخمر . وقد طال هذا الجدال بين الفريقين ولم تكن فئة منهما توافق الثانية واستظهر حزب الوسط والشمال بكتاب الصلاة الذى فيه عقيدة الكنيسة الانكليكانية والذى بمقتضاه لايكون هذا الكلام الا رمزاً . فاعترض حزب اليمين على ذلك وطلبوا تعديل هذا البند من كتاب الصلاة .

ولما كان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة وفيه نص بأنه لايجوز أن يعدّل منه لا كثير ولاقليل الا باقرار مجلسى اللوردة والعموم جاءت هذه المسئلة الى هذين المجلسين.

وكانت الحكومة قدحولت هذه المسئلة الى مجلس مؤلف من كبار المطارين وذلك من سبع وعشرين سنة فجرت المذاكرة فى هذا المجلس الأسقفى ولم يحصل اتفاق بين المطارين أنفسهم على هذه النقطة وهى : «هل استحالة الخبز والخمر حقيقية أم رمز»؟ ثم قرر المجلس الأسقفى بالأكثرية كون الاستحالة حقيقية وطلب تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بها . وعند ذلك عرضتها الحكومة على مجلس اللوردة فبعد مناقشات شديدة قرر اللوردة بالأكثرية تنفيذ قرار المجلس الأسقفى الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربرى أكبر أساقفة انكلترة . ولما كان لابد لأجل تعديل كتاب الصلاة من قرار مجلس العموم أيضاً طرحت الحكومة هذه القضية فيه وانبرى ناظر الداخلية واعترض على اقتراح تعديل كتاب الصلاة وصرح بأنه لايرضى بالرجوع الى عقيدة الكنيسة الرومانية وان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة فلا يمكن تعديل شئ منه الابرضى أكثرية الأمة ثم ردّ على مزاعم الفئة الثانية وقال إن هذه الاستحالة المسماة عند الكاثوليك بسر الافخارستيا مشروط فيها الابتهال الى روح القدس وان هذا الابتهال الى روح القدس لم يكن واقعاً فى الكنيسة الانكليزية فلا يمكن تمام هذه الاستحالة مع فقد هذا الشرط . وأبدى الناظر المذكور وأعاد فى هذا الموضوع بحيث عند الاقتراع كانت الأكثرية فى جانب عدم التعديل لكتاب الصلاة وفى جانب ان قضية الخبز والخمر لم تكن الا شيئاً مجازياً . وماانفق مجلس العموم يومئذ الاعلى اضافة جمل دعائية جديدة تتلى لأجل الملك والعائلة المالكة ويبتهل فيها الى البارى تعالى بنصرهم وتأييدهم الخ . فالبرلمان الانكليزى المؤلف من نواب ليست لهم صبغة دينية نقض قراراً دينياً محضاً متعلقاً بالعقيدة كان قد قرره مجلس أساقفة تحت رئاسة رئيس أساقفة كنتربرى

فأنت ترى أن مسئلة دينية صرفة كهذه قد كانت مدار جميع هذه المناقشات فى مجلسى الشيوخ والنواب فى أعظم دولة أوربية وأعلاها كعباً فى المدنية . وترى أيضاً أن ملك هذه الدولة هو نفسه رئيس كنيستها وهو الذى يُدعى له على منابر كنائسها بموجب دستور ايمانها كما يدعى للخليفة على منابر الاسلام . بل الدعاء للخلفاء والملوك فى المساجد لم يتفق على وجوبه جميع مجتهدى الاسلام . وأما الدعاء لملك الانكليز فى الكنائس فقد اتفقت عليه شيوخ الأمة الانكليزية ونوابها . فهذا الذى يسمونه بفصل الدين عن السياسة ؟ ويزعمون أن أوربة اتخذته قاعدة أساسية لسياستها . لاجرم أن هذا تضليل للأذهان وبهتان

ما وراءه بهتان

ان فصل الدين عن السياسة هو فصل ادارى كما هناك فواصل فى سائر فروع الادراة بعضها عن بعض وانه ليس من المعقول ان الدول الراقية لاتكترث لامور الدين وهو الذى عليه يحيا ويموت السواد الاعظم من رعاياها . فالدولة التى لاتهتم بأمور رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرة . وأما ان تنفصل الامور الدينية عن الامور الدنيوية فذلك ضرورى لا نزاع فيه الا أنه لايفيد ان الدولة بفصلها هذا عن ذاك قد أهملت تعزيز ديانة قومها . بل نحن أولاء نجد ملوك أوربة ورؤساء جمهورياتها ورؤساء جمهوريات امريكا لايدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحى والتصريح على الملأ بالعمل فى سبيله الا انتهزوها . ولقد مرّت بى خطبة لرئيس جمهورية الولايات المتحدة وخطبة أخرى لما زار يك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا كل منهما صريحة فى هذا المعنى

وهذه هى الامة اليابانية التى هى اليوم أرقى أمة شرقية ومن أرقى أمم البسيطة أمة شديدة التمسك بعرى دينها وعاهلها هو رئيس الكهنة الاعظم وايام تتويجه اقامت له الحكومة مراسم احتفال استمرت شهراً وكانت كلها مراسم دينية . ومما يعتقدون به ان العاهل هو من سلالة الآلهة ابنة الشمس وانه لابد ان يؤاكلها فى احدى الحفلات الارز المقدس وهم يزرعون هذا الارز من قبل الاحتفال بأشهر وتزرعه الحكومة تحت إشراف الكهنة حتى لاتشوب قدسيته شائبة . ولقد كنت من بضع سنوات نشرت فى الصحف نقلاً عن « الجورنال » الباريزى بقلم المسيو « سان بريس » تفاصيل المراسم الدينية الملوكية التى أقيمت لعاهل اليابان عند تتويجه . وكذلك نشرت فى الصحف خلاصة مناقشات الخبز والخمر فى مجلسى اللوردة والعموم فى انكلترة . وهذا ليفهم الشرقيون وبخاصة المسلمون تضليل أولئك المضللين الذين يحاولون اقناعهم بهذه المغالطة وهى انه لما كانت الامور الدينية منفصلة بحكم الضرورة عن الامور الدنيوية كان يجب الاستنتاج من هذه التفرقة الادارية البراءة من الدين ونفض اليد منه !

وأما عضد الدول الأوربية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحى فهذا موضوع ذو بال وطويل الأذيال قد نذكر له خلاصة فى مكان آخر الا اننا نوصى فيه القراء بمطالعة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » تأليف المسيو « لُ شاتليه » رئيس تحرير مجلة « العالم

الاسلامى » الافرنسية المترجم بقلم السيدين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب صاحب جريدة « الفتح » التى لها فى النضال عن الاسلام المواقف العظام والخدمات التى لا يمحوها كرور الايام

وخلاصة القول ان فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه فى أوربة والممالك المتمدنة اهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته اذ أن الحكومات انما هى ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوربة وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولا واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوذية فحكومتها بوذية وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الابيض فحكومتهم تسجد للفيل الابيض

وليس فى الدنيا سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطناً وظاهراً وهى الجمهورية الحمراء الروسية والجمهورية الكمالية الانقرية وحكومة المكسيك وذلك كما قال المسيو « شارل موراس » الكاتب الافرنسى المشهور

أما سبب محاربة البلاشفة للأديان فهو انهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين فى مملكة عدد أهلها ١٤٢ مليوناً كلهم متدينون وهم يعلمون انه ان عادت الكنيسة الارثوذكسية الى الظهور كان لا بد من اعادة الحكم القيصرى أو تأسيس حكومة جمهورية مسيحية فلا تبقى منهم ولا تذر وستثأر من البلاشفة عن كل ما سفكوه من الدماء التى أسالوها أنهاراً . فالبلاشفة فى محاربة الدين يحاحشون عن خيوط رقابهم لا أكثر ولا أقل

وأما المكسيك فان أحبار الكثلكة كان لهم فيها الكلمة العليا وكانوا مستبدين بكل الأمور فوقع الخصام بينهم و بين رجال الحكومة واشتد الى أن تحولت الحكومة نفسها الى عدو لدود للديانة . وهذا أمر لا يلبث أن يزول و يعود الدين هناك كما فى سائر البلاد الامريكية . وأما أنقرة فان الغازى يعلم أن المبدأ الدينى فى تركيا هو والسلطنة توأمان فهو يعمل لتوهينه اتقاء رجوع آل عثمان الى السلطنة والقضاء على الجمهورية التى هو الالف والياء فيها . فهو يعمل لتوهين مبدأ ان عزّ وتغلب كان فيه سقوطه وسقوط الحزب الذى برأسه فى شر مستطير و يوم عبوس قمطرير

* * *

يكثر فى الشرق الآن كلام الخلق فى « فصل الدين عن السياسة » ويظن بعضهم ان الأوربيين فصلوا الدين عن السياسة فصلا تاما وان الحكومات فى الغرب لا تعنى بشئ من أمر الدين وغير ذلك من الترهات التى هى أبعد الأمور عن الواقع

ومن أغرب الأمور ان حكومة انقرة هى التى أعلنت كونها حكومة لا دينية عملا بمبدأ فصل الدين عن السياسة وهى نفسها لا تزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينية محضة من جملتها الصلاة باللغة التركية التى من أجلها ثارت الافكار فى تركيا فى هذه الأيام ورفض الاكثرون امتثال أوامر الحكومة بها وقالوا انه لا بأس بأن يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركى فأما الصلاة نفسها بالتركى فهى مخالفة للسنة

وعلى كل حال فحكومة تركيا الكمالية تناقض نفسها بنفسها عندما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية فى فصل الدين عن السياسة وهى تتدخل كل يوم فى الأمور الدينية الصرفة على حين ان « فصل الدين عن السياسة » معناه ان الحكومة لا تتدخل أصلا فى أمور الدين وتترك هذه الامور لرؤوساء الدين وحدهم

وحكومة تركيا الكمالية لا تصدق رعيتها القول أصلا عندما تقول لهم ان دول أوربة قد نبذت الديانة المسيحية ظهريا وان رقيها المادى لم يتهيأ لها الا بنبذ العقائد الدينية .

فأوربة وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة اليها باقية على نصرانيتها تماما لم يتغير شئ من صبغتها المسيحية بل لم يتغير شئ من عقائدها الكَنَسيّة التى كانت عليها من قرون

نعم يوجد فى أوربة أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الاديان وبخاصةٍ الديانة المسيحية . ولكن هذا الجنس من الاوربيين لا يزال قليلا بالنسبة الى السواد الأعظم والاوربيون يعلنون بأجمعهم ان ثقافتهم هى الثقافة المسيحية وأن مدنيتهم هى المدنية المسيحية وان حكوماتهم — ما عدا الحكومة البلشفية الروسية — هى الحكومات التى يتألف منها ما يقال له « العالم المسيحى »

وان المكابرة فى هذه الحقيقة هى مكابرة فى المحسوس لا غير

ولقد استرعينا أنظار المسلمين مراراً فى مقالات متتابعة فى الجرائد وفى الفصول المتقدمة الى مظاهر الحكومات الاوربية المسيحية من قبيل المناقشات التى وقعت فى قضية الخبز والخمر وقول أصحاب الجناح الايمن من أبناء الكنيسة الانكليكانية الانكليزية — أى الكنيسة الرسمية — ان الخبز والخمر يستحيلان بتقديس القسيس فعلا الى جسد المسيح ودمه . مما لا نحتاج لاعادة ذكره

فهل رأى القارئ المسلم الآن كم يخدعه المضللون بقولهم ان الحكومات الاوربية لا سيما الراقية منها لا تعنى بامور الديانة المسيحية وان الديانة عندها منحصرة فى الكنائس لا غير ! فهل مجلس اللوردية ومجلس الامة الانكليزية من الكنائس ؟ وهل فى أوربة حكومة أرقى من الحكومة البريطانية ؟

مما لا مشاحة فيه ان بين الديانة والسياسة فصلا إداريا بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع الى الحكومة . والحال فى بلاد الاسلام لا تختلف عن ذلك . فمشيخة الاسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية

إذاً خرافة فصل الدين عن السياسة فى أوربة التى لايزال يتشدق بها بعض المضللين فى الشرق ليس لها أصل الا بالمعنى الادارى الذى هو جارٍ أيضاً فى بلاد الاسلام .

والحكومات الكاثوليكية بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكى . ولا يشذ عن ذلك الا الحكومة الافرنسية التى اتفقت مع الفاتيكان اتفاقاً يحدد العلاقات بين الكنيسة والحكومة والتى لاتوجب التعليم الدينى فى المدارس الرسمية . ولا يجب أن يؤخذ من ذلك أن الحكومة الافرنسية تعارض التعليم الدينى فى غير المدارس الرسمية بل التعليم الدينى مالئ فرنسة بواسطة المدارس الأهلية . والحكومة الافرنسية فى مستعمراتها ومناطق نفوذها تحمى الدين المسيحى ولا سيما المذهب الكاثوليكى أكثر من كل حكومة مسيحية وهى تعلن نفسها حامية النصرانية فى الشرق وتوجب على رجالها شهود الشعائر الدينية الكاثوليكية فى جميع الأعياد والمواسم وتحافظ على الرسالات الدينية والرهبانيات بأجمعها كاليسوعية والعازرية وغيرهما . ومما لايحتاج الى التعريف أخذها بيد الكردينال لافيجرى والآباء البيض وأصناف المبشرين بالدين المسيحى فى الجزائر وتونس والمغرب و بلاد النيجر وعدم مراعاتها شعور المسلمين الذين هم أهل هذه الأقطار بما تظهر به من هذه المظاهر

الكاثوليكية فيما بينهم الى حد أن بعض الجوامع الكبرى فى مدينة الجزائر قد تحولت الى كنائس وان بعض البربر من سكان الجرجرة من الجزائر هم حسبما روى المؤرخ الثقة السيد أحمد توفيق المدنى فى « كتاب الجزائر » هم على شفا التحول عن الاسلام بما نشبت فيهم من براثن الرسالات التبشيرية فأما قضية الغاء فرنسة الشريعة الاسلامية من بين البربر وحمايتها للرهبان الفرنسيسكانيين الذين يعملون لتنصير البربر ولغيرهم من الرهبان فهى مشروع قديم العهد بقى الفرنسيس يحدثون أنفسهم به مدة طويلة الى أن أنفذوه من ثلاث سنوات فى أيام المسيو لوسيان سان الذى كان مقيما عاماً فى تونس وفى أيامه و بمساعيه عقد الكاثوليك مؤتمراً دينياً اسمه مؤتمر الانخار يستيا فى تونس فكانت لذلك ضجة شديدة بين المسلمين الا أنها لم تبلغ درجة ضجتهم شرقاً وغرباً عند ما أجبر المسيو سان حكومة سلطان المغرب بعد أن صار مقيماً عاما عندهذه الحكومة على اصدار ذلك الظهير البربرى الذى يُخرج عدة ملايين من البربر من الاسلام و بعد أن منع تجوال فقهاء الاسلام وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق من التجوال فى قرى البربر وحظر على قواد البربر وزعمائهم أن يرسلوا أولادهم الى فاس أو غيرها من المدن لتعلم العقيدة الاسلامية واللغة العربية . كما تقدم

وبالاختصار فان الدولة الافرنسية التى يزعم بعضهم أنها حكومة لادينية أو لاييكية كما يقال هى أشد الدول حماية للنصرانية عموماً وللكثلكة خصوصاً . وان الحزب الحرّ الذى يلتزم الحرية الدينية التامة و وقوف فرنسا موقف الحياد التام بازاء الأديان لايزال فى فرنسة ضعيفاً .

وأما ايطالية فبعد أن غلب عليها حكم الفاشيست أعادت الى المدارس الأميرية التعليم الدينى الكاثوليكى ونصبت الصلبان فى المدارس وفى المحاكم وعدلت قوانين العدلية تعديلا موافقاً لمبادئ الكنيسة . وأعلنت بدون محاباة أنها دولة مسيحية كاثوليكية و بثّت أيضاً فى مستعمراتها القسوس والمبشرين وزادت على غيرها أنها أخذت صغار المسلمين من حجور أمهاتهم قسراً لأجل أن تربيهم فى الكاثوليكية فى نفس ايطاليا كما ذكرنا من قبل . وهذا لم تفعله فرنسة حتى الآن وغاية مافعلت هو أنها تركت الكردينال لافيجرى ورهبانه البيض يصطادون بعض أحداث من المسلمين فى أثناء المساغب التى هى كثيرة الوقوع فى الجزائر ويربونهم فى النصرانية . وقد ذكر السيد توفيق المدنى فى كتاب

الجزائر أن هؤلاء بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص وان منهم من رجع الى الاسلام بعد أن بلغ رشده ومنهم من بقى مسيحياً حقيقيا

ولنعد الى سائر الدول الكاثوليكية ومواقفها بازاء الدين المسيحى فنقول انها باجمعها على أشد ما يكون من الاعتصام به . ومنذ أربع سنوات تشكلت فى بلجيكا وزارة أعلنت من جملة بروغرامها العمل لتنصير أهالى مستعمرة الكونغو . وكان فى هذه الوزارة وزراء من السوسياليست ولم يعترضوا على دخول الحكومة فى قضية التنصير . ففى هذا مجال للتأمل . ولم تكن بلجيكا الى الآن مهملة هذا العمل الدينى لأنه من التسعة الملايين الزنوج الذين تتألف منهم مستعمرة الكونغو قد تنصَّر حتى اليوم نحو من مليون منهم ثمانمائة كاثوليكى ومائتا الف بروتستانتى وكل ذلك بمساعى القسوس وعضد الحكومة . ولا يخفى ان فى مستعمرة الكونغو عرباً ومستعربين يبلغ عددهم حسبما قرأنا فى كتب البلجيكيين الذين كتبوا عن الكونغو نحواً من مائتى الف نسمة . ولكن الحكومة تراقبهم أشد المراقبة . ومن البديهى انها تمنعهم من بث الدعاية الاسلامية . وهذا دليل آخر على كون الحكومات الأوربية الراقية غير مهملة العمل لنشر الدين المسيحى كما يزعم أولئك الذين لا يفتأون ينصحون الحكومات الاسلامية باتخاذ الصبغة اللاييكية أو اللايقيية كما يقول الترك . ويزعمون أن رقى رعاياها متوقف على هذا الشرط !

ان بلجيكا هى من أرقى ممالك أوربة بلا نزاع والحكومة البلجيكية هى هذه التى تنص فى بروغرامها على قضية تنصير أهالى الكونغو

وأما الدول البروتستانتية فكلها تعلن أن ثقافتها مسيحية وان مدنيتها انجيلية وانها لا تحيد عن هذا الطريق . وكثيراً ما تعلن هذه الدول ذلك فى برامجها أمام المجالس النيابية . وناظر معارف هولاندة افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب قال فيه : ان هولاندة لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحى . ولقد كنا ممن سمعوا هذا الخطاب وصرح شترزمان ناظر الخارجية الالمانية فى احدى خطبه امام الريخستاغ قائلاً : «ان ثقافة المانيا مبنية على الدين المسيحى »

ولم يمض الى غاية تحرير هذه السطور الا أيام قلائل (فبراير ١٩٣٣) على اعلان هيتلر رئيس الحزب القومى الاشتراكى الالمانى عندما ولاه المارشال هيندنبورغ رئاسة

الوزارة برنامجا وزاريًا صدقه جميع الوزراء استهلاله : « ان أول واجب ستقوم به الحكومة القوميــة الالمانية هو العمل لأجـل الوحدة الروحيــة واحياء العقيـدة النصرانية فى الأمة والتقاليد المجيدة الماضية » كما قدمنا

ومن قبل مجيء هيتلر الى رئاسة الوزارة كان فون بابن رئيس الوزارة سابقا والذى هو الرئيس الثانى للوزارة لاحقاً قد خطب خطبة شهيرة أودعها الكلام نفسه

وكان الشيوعيون الالمان قد بثوا منشورات حملوا فيها على الدين المسيحى فامرت الحكومة بجمعها ومنعها وأصدرت بلاغاً رسمياً قالت فيـه : انها منعت توزيع هـذه النشرات لما فيها من التحامل على الدين المسيحى

هذا وغير خاف ان امبراطور المانيا وملك بروسيا كان الرئيس الأعلى للكنيسة اللوثيرية ولا يزال حتى الآن برغم نزوله عن العرش لأن أتباع هـذه الكنيسة لايزالون يرجون اعادة الامبراطورية . كذلك غير خاف أيضاً ان الكاثوليكيين فى المانيا الذين هم ثلث المملكة لهم حزب فى الرايستاغ يقال له « الوسط » أساس تأليفه هو المحافظة على الكثلكة

ولدىّ كتاب وافٍ اسمة « الأديان فى المانيـا » ان سمح لى الوقت ونسأ الله فى الأجل أريد أن أترجمه الى العربية ليعلم أهل الشرق لاسيما المغرورون منهم أية قوة للدين المسيحى فى المانيا وكيف ان التعليم الدينى مقرون بالتعليم المدنى فى جميع المدارس الرسمية وغير الرسمية وانه لايوجد مع ذلك أحد يقدر أن يزعم ان الأمة الالمانية أمة غير راقيـة أو أمة غير عصرية بل لاأحد يقدرأن يقول انه يوجد أمة أرسخ منها قدماً فى العلوم والصنائع وأعلى كعباً فى المدنية

ان المصلح المسيحى الأشهر كالفين الذى كان هو ولوثير سبب وجود البروتستانتية فى العالم كان يقول مايلى :

« ان الدولة المسيحية رأسها هو الله . فلأجل أن يكون الانسان تابعاً لهـذه الدولة ينبغى له أن يقسم الايمان بعدم الحيد عن خطة الانجيل وبالمواظبة على اقامة الشعائر المسيحية وبتناول القربان أربع مرات فى العام. وذلك لأن الاشتراك فى المائدة الالهية هو عبادة لله

رأس الدولة المسيحية وليسوع المسيح رأس الكنيسة . فهاتان السلطتان الدنيوية والروحية باتحادهما من شأنهما تنفيذ ارادة البارى تعالى . فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص ان لزم . كما ان السلطة الروحية لها حق الوعظ وحق التحريم والتحليل وكلا نوعى الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبنى على الكتاب المقدس

« والرئاسة الأولى هى للسلطة السياسية خلافاً لرأى البابا غريغوريوس السابع وذلك لأنه يجب أن تتحد السلطة المذكورة من الرق الاكليريكى . ولكن لايعنى بذلك ان الدولة يجب أن تنفصل عن الكنيسة بل يجب أن تلازمها »

ويقول كلفين : « ان الملك الذى لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وانما هو يقيم لصوصية . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لاالنظام المدنى فقط بل النظام الدينى أيضاً والنظام الأدبى والاجتماعى وعليه أن يعاقب اللصوص والفساق والمومسات والقتلة والقاذفين بالدين واتباع البابا الذين يشهدون القداس وأن يحرق بالنار السحَرَة ويجزى بالصرامة من يشتغلون يوم الاحد ومن يهملون إقامة الشعائر الدينية الخ » (١)

فروح هذا البروغرام هو السارى الى هذه الساعة فى الحكومات البروتستانتينة ولن تجد الحكومة الكمالية فى تركيا ولا مقلدوها فى البلاد العربية جواباً واحداً مقنعا على هذه القضايا التى قدمناها . وما بعد الحق الا الضلال

---

(١) (اقرأ بروغرام كلفين فى كتاب ويلفريد موندو Wilfred Mondo المسمى La Nuée de Femains المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٩)

احصاء المسلمين

للامير شكيب

سبق لنا تعليق[١] على قول ستودارد ان المسلمين ٢٥٠ مليونا وقلنا إن المؤلف تابع غيره من المؤلفين الأوربيين الذين يخطئون في احصاء المسلمين وان الحقيقة هي أن المسلمين يزيدون اليوم على ثلاثة ثلثمائة مليون

ولقد ظهر لنا بعد ذلك اننا نحن أيضاً أخطأنا في تقدير عدد المسلمين وانه أكثر من ٣٠٠ مليون بكثير وقد يناهز ٤٠٠ مليون

فمسلمو الجاوي وسومطرة بلغوا في احصائهم الاخير ٥٠ مليوناً وليسوا ٣٥ مليوناً كما ذكرناه نقلاً عن احصاء قديم لا يزال جغرافيو أوربة يحررونه . ولقد نشر في العام الماضي رجل سويسري كان في الجاوي مقالة في « جورنال دو جنيف » قال فيها ان مسلمي المستعمرات الهولاندية بلغوا ٦٤ مليوناً

أما مسلمو الصين فلا تزال الاقوال متضاربة في عددهم فمن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليوناً ومنهم من يحزرهم باكثر من ذلك بكثير . وفي هذه الايام لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشوريا أبرقت الجمعية الاسلامية في الصين الى أوربة بتلغراف احتجاج على اليابان قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليوناً من مسلمي الصين

ثم ورد تلغراف من توكيو يرد على مسلمي الصين زاعماً أنهم ١٥ مليوناً لا ٥٠ مليوناً . وفيه أن في منشوريا مليونين من المسلمين ينزعون الى تحرير منشوريا

ومما لا شك فيه أن التلغراف الياباني بخس مسلمي الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان .

ولقد حزرنا عدد المسلمين في العالم في مجلتنا « الأمة العربية » La nation arabe التي نصدرها أنا وسعادة أخي احسان بك الجابري في جنيف نحن الوفد السوري الفلسطيني

(١) انظر صفحة ٢٢ من الجزء الاول

فى أوربة وذلك بنحو من ٣٣٣ مليوناً هذا على تقدير أن مسلمى الصين ٢٠ مليونا فقط أما اذا ثبت أنهم خمسون مليونا فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة

وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليوناً . وسورية ٣ ملايين . وفلسطين وشرقى الاردن مليون . والعراق ثلاثة ملايين ونصف . وتركيا أربعة عشر مليونا . وايران ١٠ ملايين وأفغانستان ٩ ملايين . والهند الانكليزية ٧٨ مليوناً . والصين ٢٠ مليوناً . وصيام نصف مليون . والروسية الآسيوية ٢٥ مليوناً

فهذه ٢٧٦ مليوناً فى آسية

والروسية الأوربية قازان والقريم ٤ ملايين . وليتوانيا وبولونيا ٢٠ ألف نسمة . ويوغوسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفاً . والمجار ثلاثة آلاف . ورومانيا ٢٥٠ ألفاً . و بلغاريا نصف مليون . و بلاد اليونان ١٠٠ ألف . وألبانيا ٩٠٠ ألف

فهذه سبعة ملايين و٢٣ ألفاً

ومصر مع سودانها ١٨ مليونا . وطرابلس ٧٠٠ ألف وتونس مليونان . والجزائر خمسة ملايين ومراكش ٨ ملايين . والصحراء الكبرى ٣ ملايين . والحبشة ٣ ملايين . والغالا والصومال ٦ ملايين . وشرقى افريقية (زنجبار وسواحلها ودار السلام) ٦ ملايين . والكونغو والأوغاندة مليون . والآداموا والكامرون مليونان . وغينية وفوتاجالون مليون والسنيغال مليون . وسلطنة سوكوتو ١٥ مليوناً . وبورنو ٥ ملايين . ووادای ٥ ملايين . وكانم مائة ألف

فهذه ثلاثة وثمانون مليوناً فى افريقية

والمستعمرات الهولاندية (أندونيسيا) ٦٤ مليوناً . والفيلبين مليونان

فهذه ستة وستون مليوناً فى البحر المحيط الباسيفيك

فيكون جملة المسلمين ٣٣٣ مليوناً و ٣٢٣ ألفاً . أما ان صح أن المسلمين فى الصين ٥٠ مليوناً فيكون الجميع ٣٦٣ مليوناً هذا بالتقريب لأن بعض الممالك احصاؤها مضبوط كمصر وتركيا وسورية والعراق وطرابلس والجزائر وتونس وايران والروسية والجاوى والهند وبعضها نصف مضبوط كجزيرة العرب والحبشة ومراكش وسوكوتو ووادای الخ وهذه تؤخذ بالتقريب من الجغرافيات والرحلات على أن بعض الناس يرون احصاءنا لجزيرة

العرب ناقصاً ويرون فيها ١٥ مليونا وأكثر. ثم اننا علمنا فيما بعد أن مسلمي يوغوسلافيا مليون وثمانمائة ألف نسمة وان مسلمي البلغار ثمانمائة ألف وان مسلمي رومانيا أربعمائة ألف أي أكثر مما ذكرنا بما يقرب من مليون في الممالك الثلاث المذكورة وقد فاتنا ذكر مسلمي قبرص وهم ٧٠ ألفاً ورودس واستانكوي وهم ٢٠ ألف نسمة

مسلمو الفيلبين

جاء في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية تحت عنوان « السياسة الاسلامية » بقلم الكاتب المطلع على أحوال الشرق المسيو شاتليهChatelier الجملة الآتية : —

« ان الحروب التي كان الكاثوليكيون الذين افتتحوا الفيلبين[1] يصلونها مسلمي « سولو » لم تأت بثمرة من جهة منع أولئك القرصان عن اجتياح جزر ذلك الأرخبيل ، الا في أواسط القرن التاسع عشر ، بعد وصول السفن الحربية على البخار . ولكن لما استولى الأميركيون على الفيلبين ، وكانوا ألطف ملكة من الاسبانيول ، تحولت حركة تلك المقاطعة الاسلامية من الاوقيانوس عن الدعارة الى التجارة .

«و بينما كان الماليزيون في برونى Bruneiوسارافاك Saravak وبورنيو يترقون في درجات المدنية ، ويقتدون بالأوربيين مثل مسلمي ملقا ، وتجد منهم أعضاء الأندية والتجار والسماسرة ، كان مسلمو الهند النيرلاندية يعرجون أيضا في مراقي الحضارة الا في آتجهAtjeh حيث قوة التدين لا تبرح ظاهرة بمظاهر المقاومة الحربية ، أما فيما عدا هذا المكان من الجاوى وسومطرة والجزر القريبة ، فانك ترى الاسلام أبعد عن التفتن من الهيئات الاجتماعية التي ترجع الى نصاب هندي . ومضى زمن طويل على الماليزيين كانوا فيه تحت ضغط اداري هولاندي من مبادئه القهر والاحتكار . فكانوا لا يتجاوزون أفق العمل لغيرهم كرها ، فأما في هذه الآونة الأخيرة فقد نالوا شيئاً من الحرية ، وبدأوا بالصعود المادي والمعنوي والاجتماعي ، فاتسعت أنظارهم الى ما يشمل عالم القارات الكبرى ولا ينحصر في عالم هاتيك الجزائر .

---

(١) راجع صفحات ٣٥٨ — ٣٦٣ من الجزء الأول

« وفيما يتجاوز الجزر التى تملكها هولاندة توجد جاليات من المسلمين مبعثرة فى جزر الباسيفيك كلما تباعدت من القاعدة الماليزية قل عددها ، ولكنها على كل الأحوال أكثر فى هذه الأصقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهى تبث الاسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء عوضا عن الفتح والغزو . وهكذا ففى نفس استراليا من جالة الافغان وتجار الهنود وصيارفة الماليزية ، جالية اسلامية لها جامع شهير فى برث Perth ، كما أنك تجد مسلمين كثيرين من الهند فى فانكوفر Vancouver من أميركا ، وتجد مسلمين ومسيحيين من أبناء اللغة العربية من سورية فى الولايات المتحدة والارجنتين وزنوجا مسلمين من افريقية فى البرازيل » اه ثم قال : ان اسلام الشرق الاقصى نقطته النهائية فى ماليزيا ويقدر بنحو ٤٠ مليوناً عدد المسلمين فى مستعمرات هولاندة وبورنيو وسائر الجزر الى « بابوازيا » الى « الفيلبين »

قفقاسيا

ومما وجدته فى كناشاتى التى أخذت ما فيها عن أوثق المصادر ما يلى :(١)

ان قافقاسيا ثلاثة أقسام كرجستان والطاغستان و بلاد الچركس

فكرجستان تحتوى أمة الكرج وهى أمة لها لسان خاص بها ومنهم مسلمون ومنهم نصارى ولكن النصارى أكثر . وعاصمة كرجستان تفليس ومن مدنها باطوم ومن أشهر أمراء الكرج المسلمين سنجاق بكى زاده ابراهيم بك وحسين بك ولابرهيم بك ولد اسمه أرسلان بك وولد اسمه حسن بك وولد اسمه محمد بك . وهذا قد نفته الروسية الى موسكو فى أثناء هذه الحرب العامة ولهذه الاسرة مناسبة مع أسرة چوروك صو على باشا زاده محمود باشا وأخوه أحمد باشا فى تركيا . ومن مشاهير الرجال الذين خرجوا من الكرج المرحوم حسن فهمى باشا ناظر العدلية السابق فى تركيا وكان من أعز أصدقائنا . وجميع الكرج ثلاثة ملايين المسلم منهم وغير المسلم . وفى كرجستان لا سيما فى جوار تفليس مليون ونصف أرمنى . وفى كرجستان قوم يقال لهم (اجاره) مسلمون أصابهم ضرر كبير أثناء هذه الحرب وأفنى الروس أكثرهم بحد السيف بحجة ميلهم الى الدولة العثمانية . أما الطاغستان فهى

(١) راجع صفحات ١٨٨ ـ ١٩٣ من الجزء الثانى

قسمان طاغستان لزكى والثانى طاغستان التركى فاللزكيون يتكلمون ويكتبون بالعربية ومحاكمهم لسانها العربى . وأما الطاغستان التركى فيتكلمون ويكتبون بالتركى أما الشيخ شامل فهو من اللزكيين من قرية «كمره» كان من مريدى القاضى ذى الجناحين محمد الكمراوى تلقى عنه العلم والفقه وهما من قبيلة (اوار) التى منها الامير حمزة الخنزاخى وهذا كان من الامراء . وكلهم قد جاهدوا فى حرب الروس جهاداً شديداً . وأول من استشهد القاضى محمد فلما استشهد نصب الطاغستان مكانه الامير حمزة فاستشهد بعد سنة من الحرب فانتخبوا مكانه الشيخ شامل . وعدد الطاغستان من ٧ الى ٨ ملايين وكلهم من أصل واحد ولكن بعضهم يتكلم بالتركى لكون الاتراك تولوا البلاد قبلاً و بعضهم يتكلم العربى من زمان الفتح العربى اذ اختلطوا بالعرب و بلادهم باب الابواب مدفون فيها كثير من الصحابة وفى الطاغستان اليوم كثير من السادات . ومن عاداتهم ان الانسان لا يدخل مقبرة لهم بدون وضوء . وأما الچركس فهم من مليون الى مليونين وهم قبارتاى وابزاخ وشابسخ واوبوخ . أما القوموق والشاشان والخيداك وتابسران وكراه وكوباه والجار وشكيشروان وباكو وكنجه وقره باك واغداش وطاليش جيلان فكلها من الداغستان

ترجمة القرآن

ثم انه بعد تحرير هذا الفصل[١] ظهرت كتابات فى موضوع ترجمة القرآن الكريم لجهبذين عظيمين من جهابذة الاسلام السيد رشيد رضا صاحب المنار ومصطفى صبرى افندى التركى شيخ الاسلام السابق فى السلطنة العثمانية رحمها الله لايجوز لمن أراد أن يرتوى من هذا الموضوع أن يعرّد عنها

ولقد اشتمل كتاب مصطفى صبرى افندى على كلام شديد بحق الأستاذ فريد وجدى المصرى الذى سوّغ للاتراك الكماليين ترجمة القرآن والصلاة بها بدون قيد ولا شرط وآلم الناس أن يكون مثل فريد وجدى من يذهب هذا المذهب وهو صاحب المواقف المشهورة فى الذب عن الحقيقة الاسلامية ولا سيما فى مقالاته الأخيرة « الاسلام دين عام خالد » ولا جرم ان التساهل فى أمر الصلاة بترجمة القرآن بدون ثبوت العجز التام عن قراءة آية من آياته لايلتئم مع تأييد الدين الاسلامى الذى يقتضى تأييده قدسية نص الكتاب الالهى والمحافظة

(١) راجع صفحات ٢٠٥ ـ ٢١٣ من الجزء الاول

عليه كما نزل والاعتقاد بأن الصلاة بترجمته بدون عذر مقبول انما هى فك من عراه الوثق وماآل ذلك الى التصرف بالصلاة الى الحد الذى لايعرف منتهاه

ان زعم بعضهم ان الدين هو مجرد علاقة بين العبد ور به وانه مسئلة قلبية يكفى فيها الخلوص وحسن النية الى ماأشبه ذلك من الأقاويل هو قول داحض اذا دقق المفكر فيه النظر ظهر له بطلانه فان الدين لأجل أن يصان فى القلوب وان تعتصم به الشعوب يجب أن توقر شعائره الظاهرة كما يجب أن تخلص فيه النية الباطنة وان يكون بعيداً عن التصرف والتغيير والتبديل الذى يؤول بالعقائد الى الفوضى وربما انتهى بزوالها بالمرة . لقد سنت البشر كلها قوانين تجزى بالشدة كل من يخرق هيبة الملك أو يمس مقام الحكومة ملكية كانت أو جمهورية وما كان ذلك الا حرصاً على بقاء تلك الهيبة فى صدور الناس وتفاديا من ان تقتحمها العامة فيضعف بذلك الوازع الضرورى بين البشر . وكما كانت هيبة الملك واجبة ضرورية فهيبة الدين أيضاً ضرورية ومن أهم شروطها حرمة نصوصه وتقديس آياته كما نزلت

وأما ترجمة القرآن لأجل فهمه وتفسيره بكل اللغات فليس ذلك بجائز فحسب بل نراه واجبا على الأمة الاسلامية

مسألة الصلب وقول ابن حزم

وأما ابن حزم الأندلسى الفيلسوف الشهير البحاثة الكبير فرأيه فى مسئلة الصلب[1] هو مايلى :—

إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط لأن الكافة التى يلزم قبول نقلها هى إما الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ لتنابذ طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرهم على الخبر الذى نقلوه عن مشاهدة أو رجع الى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً . واما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق فى الطبيعة على التمادى على سنن ماتواطأوا عليه فأخبروا بخبر شاهدوه ولم يختلفوا فيه . فما نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ الى مشاهدة فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلها و يضطر

[1] راجع صفحات ٦٢ ــ ٧٣ من الجزء الاول

خبرها سامعها الى تصديقه وسواء كانوا عدولا أو فساقا أو كفاراً ولايقطع على صحته إلا ببرهان .

فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام فوجدنا كوافّ عظيمةً صادقة بلا شك فى نقلها جيلا بعد جيل الى الذين ادعوا مشاهدة صلبه فان هنالك تبدلت الصفة ورجعت الى شُرَط مأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهاراً خوف العامة وانما أخذوه ليلا عند افتراق الناس عن الفصح وانه لم يبق فى الخشبة إلا ست ساعات من النهار وانه أنزل أثر ذلك وانه لم يصلب إلافى مكان نازح عن المدينة فى بستان فخار متملك للفخار ليس موضعاً معروفا بصلب من يُصلب ولا موقوفا لذلك . وأنه بعد هذا كله رشى الشُّرَط على أن يقولوا ان أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك وان مريم المجدلانية وهى امرأة من العامة لم تقدم على حضور موضع صلبه بل كانت واقفة على بعد تنظر هذا كله فى نص الانجيل عندهم فبطل أن يكون صلبه منقولا بكافة بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطأ عليه وما كان الحواريون ليلتئذ بنص الانجيل إلا خائفين على أنفسهم غيّبا عن ذلك المشهد هار بين بأرواحهم مستترين وان شمعون الصفا غرّر ودخل دار قيقان الكاهن أيضا بضوء النهار فقال له أنت من أصحابه فانتفى وجحد وخرج هاربا عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه على أن نظن به الصدق فكيف أن ينقله كافةٌ و (هذا) معنى قوله تعالى (وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطأوا عليه هم شبهوا على من قلدهم فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون فى ذلك عالمون أنهم كذبة ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذى حاسة سليمة لبطلت النبوات كلها إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفى حيث هو فلعله نائم أو مشبه على حواسه وفى هذا خروج الى السخف وقول السوفسطائية والحماقة وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا اندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن وقدشاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة فى بيت وخارج البيت أبى رحمه الله وجماعة عظماء البلد ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا وبويع بعد ذلك بالخلافة ودخلت أنا عليه وغيرى وجلست بين يديه ورأيته وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام . انتهى

عود الى رأى المستشرق هورغرونيه

من بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتيح لنا أن نتلاقى مع الاستاذ المستشرق الشهير سنوك هورغرونيه[١]

وذلك أنه فى أواخر سنة ١٩٣١ انعقد مؤتمر المستشرقين فى ليدن من هولاندة وجاءه نحو من ألف مستشرق من جميع الأقطار وكانت رئاسته معقودة اللواء للاستاذ هورغرونيه . وكان محرر هذه السطور من أعضاء هذا المؤتمر وألقيت فى منتدى القسم الاسلامى منه محاضرة فى علاقة اللهجات العربية بالتاريخ نشرتها مجلة المقتطف . ومما لا مرية فيه أن هذا المؤتمر كان حافلاً بالفوائد وانه قد ألقيت فيه نفائس من المحاضرات فى كل قسم من أقسامه نادرة فى بابها

ولما حصلت المعارفة بينى و بين الاستاذ المشار اليه قال لى ان بيننا نقطة خلاف لا بد من ازالة الشبهة فيها ولكن بعد أن يتسع لنا الوقت . فقلت له : انى منتظر هذه الفرصة

وانفضّ المؤتمر بعد عشرة أيام من انعقاده لكن لم يتيسّر لنا الاجتماع من كثرة الاشتغال وشدة الازدحام . وغاية ما حصل أنى لما ودعت الرجل قال لى : اننى أنا لم أقل شيئاً ماسا بالاسلام . فقلت له : أنا انصفتك وذكرت ما لك وما عليك . فقلت انك عارضت القائلين من الهولانديين بأن جميع المسلمين فى أندونسيا ليسوا بمسلمين والقائلين بأن لهولاندة أن تحملهم على النصرانية . وهذه مأثرة لا تُنسى لك . وكذلك عارضت القائلين بمنع الحج وقلت انه لا ضرر على هولاندة من الحج . ولكنك قلت ان سن القوانين من الشريعة الاسلامية هو غير موافق لأنه ينبغى لنا أن نفهم المسلم أنه لا يقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية وهو متمسك بشريعته . . . وانه يجب أن يعلم أن شريعة الاسلام لا تتسع لقبول المدنية الحاضرة . وهذا غير صحيح لأن المدنية التى أمكنها أن تنطبق على النصرانية يمكنها أن تنطبق على الاسلام . فقال : لكن القانون يحتم العمل بوجه واحد والشريعة لا تحتم الأخذ بمذهب واحد من مذاهب الفقهاء . فقلت : للسلطان أن يرجح أحد المذاهب و يوجب العمل به وهكذا فعلت الدولة العثمانية . فسكت . ثم قال لى : ان الملاحدة من مسلمى الجاوى هم أشد تعصباً على هولاندة من المتدينين . قلت : نعم ومع ذلك فأنتم وجميع الاوربيين لا تكرهون الالحاد والملاحدة كما تكرهون الاسلام والمسلمين بل العدو الاكبر

---

(١) راجع صفحات ٣٣٨ ـ ٣٥٧ من الجزء الاول

عنـدكم هو الاسلام والحال ان الاسلام كدين يتفق مع النصرانية فى مبدأ مقاومة الالحاد والاباحة وفى معارضة الشيوعيـة . وانى لانصحك أن تنصح قومك الهولانديين لانك مسموع الكلمة بينهم فى الامور الاسلامية أن لا يروجوا فى بلاد أندونيسا سياسة التنصير وأن يلزموا الحيـاد فى الدين ولا يجعلوا الحكومة آلة لأجل دعاية دينية فلا تجنى هولاندة من سياسة كهذه سوى الضرر لنفسها . فأومأ لى بأن هذا صحيح

ثم كتبت اليه وكتب لى عدة مرار . وأرسلت اليـه برسالة « لمـاذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » فقرأها وأجابنى بأنه يوافقنى على كثير من نظرياتى الا أنه يخالفنى فى بعضها وذلك مثل قولى ان اليابانيين تقدموا الى أقصى ما تقدم اليه الاوربيون من المدنية الحاضرة ولبثوا من أشد الامم اعتصاماً بعقيدتهم وتقاليدهم . فقال : ان اليـابانيين ساكنون فى جزائر ليس بينهم أمم أخرى تخالطهم الخ

فأجبته : ان موضوع البحث هو هـذا : هل يمكن المسلمين أن يترقوا ترقى الأمم الاوربية أو الامة اليابانية مع بقائهم مسلمين ومعتصمين بعقيدتهم وتقاليدهم أم لا ؟ فنحن نقول : نعم : ممكن ونضرب مثالاً على ذلك هو كون أوربة ترقت هذا الترقى المادّى كله وبقيت متمسكة بديانة هى أقدم عهداً من الاسلام باكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان ترقت هذا الترقى نفسه وهى معتصمة أشد الاعتصام بعقائد وتقاليد هى أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون . فياليت شعرى لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى الا بخلع الدين الاسلامى ؟ كما يزعم بعض أعداء هذا الدين . ولماذا هذا الاستثناء للاسلام ؟

فلم يحر الاستاذ على هذا جواباً

وفاتنى أن أذكر أن ناظر معارف هولاندة عند ما افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن فى خامس يوليو سـنة ١٩٣١ قرأ على ذلك الحشد الكبير من العلماء من كل قطر خطبة ترحيب فيها قال :

« ان تبسُّط الأمة الهولاندية فى المشرق لم يكن المقصد منه مجرد المكاسب المادية بل أكثر ما قصدته هولاندة بذلك هو نشر فضائل النصرانية »

فذكرت هذا فى حديثى لسنوك هورغرونيه وقلت له : كيف تدعون المسلمين الى ترك الاهتمام بأمر دينهم ورجالكم الرسميون يعلنون مثل هذا الكلام فى محفل كهذا المحفل.

فوجم الأستاذ من سماع كلامى هذا ولحظت من وجهه انه كان متألماً من هذا التظاهر الرسمى بالدعاية المسيحية . فان الحكمة عندهم هى فى العمل بدون اعلان

ولقد سمع كل من كان فى المحفل هذه الجملة ومنهم الوفد التركى الانقرى الذى كان يمثل حكومة لا تفتأ تقول للمسلمين : ما دمتم متمسكين بالعقيدة الاسلامية فلا يرجى لكم نجاح أفلا ترون الأوربيين كيف نجحوا وأفلحوا بعد أن نبذوا النصرانية ؟

وأين نبذ الأوربيين النصرانية ؟ لا نعلم أين ! ولا متى !

وكان فى هذا المحفل حاضراً هذا الخطاب أيضاً الوفد المصرى و بينهم الدكتور طه حسين

السيد احمد الشريف السنوسى

إنه من بعد ظهور الطبعة الأولى[1] من هذا الكتاب قد جد من أخبار السيد أحمد الشريف السنوسى ما يلى :

إنه كان آخر إقامته بتركيا فى قرية خريستيان كوى بظاهر مرسين وكانت الحكومة التركية تجرى عليه الأرزاق التى تكفيه كضيف كريم كان حليفاً للدولة العثمانية ثم بعد سقوطها انحاز الى جهة الحكومة الوطنية فى أنقره واستعمل نفوذ كلمته فى الأناضول سواء كان فى قونية أو فى بلاد الأكراد لأجل تأييد الحكومة الكمالية التى كانت تمثل الاستقلال التركى . و بقى الأتراك الكماليون يكرمون الأستاذ السنوسى و يحسنون معاملته إلى أن فازوا على اليونانيين وتم الفوز بعقد معاهدة لوزان التى ضمنت استقلال تركيا . فمن بعد ذلك فترت تلك المودة التى كانوا يظهرونها للسنوسى وصاروا يتربصون فرصة لأجل التخلص منه والاشارة إليه بالخروج من تركيا التى وجوده فيها قد يغيظ إيطاليا . ورأوا بالاختصار أنه لم يبق عوز إليه كالماضى عندما كان مصطفى كمال يقول له إن تركيا كلها طوع إرادته و إنهم هم إنما ينوبون عنه فى الحكم وانه لو شاء يبايعونه بالخلافة . و بينما هم يفكرون فى التخلص من السنوسى إذ سنحت لهم هذه الفرصة بهفوة صغيرة جسّموها عمداً وهى أنه قد جاءه فى أحد الأيام شاب تركى من طلبة العلم كان تلقى الطريقة السنوسية وقال له إنه متوجه الى بيروت لزيارة الأمير سليم كبير أولاد السلطان عبد الحميد المقيم بتلك البلدة و إنه يلتمس منه كتابا الى الأمير سليم توصية به فاعتذر له السيد بأنه لم تسبق مراسلة بينه و بين الأمير فألح الشاب المذكور عليه وبكونه مريداً للطريقة لم يجد السيد

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى

بدءاً من إعطائه ذلك الكتاب الذى ختمه السيد بقوله (والله مع الصابرين) وهى آية كريمة توافق الحالة التى عليها الأمراء آل عثمان بعد سقوطهم هذا من أعلى الدرجات الى الهاوية التى أصبحوا فيها الآن . فذهب الشاب التركى بهذه الوصاة من مرسين قاصداً بيروت ففى اجتيازه الحدود بين ولاية أطنه وحلب قبض عليه الخفراء الأتراك الذين على الحدود وفتشوا فى جيوبه فوجدوا ذلك المكتوب فقدموه الى أنقرة فصدر الأمر من أنقرة بارسال الرجل إليها حيث استنطقوه بمزيد التدقيق والتشديد فاخبرهم بأنه هو الذى ألح على السيد باعطائه هذه التوصية واعترف بأنه كان قاصداً زيارة الأمير سليم أفندى ابن السلطان عبد الحميد . فأحالوه الى محكمة الاستقلال التى كانت تحكم بدون استناد على مواد قانونية بل بمجرد الوجدان بزعمها وقتلت على هذه الصورة ألوفا من الابرياء الذين لاذنب لهم سوى كونهم فى ذات صدورهم لا يحبون الحكومة الجمهورية ومن جملتهم هذا المسكين الذى أصر وأبرم حتى نال تلك الوصاة من السيد السنوسى بدون ارتياح منه . ولما فرغوا من قتل الرجل عادوا الى السيد فأمروا والى مرسين بأن يقول له ليخرج حالا من تركيا . فلما أبلغه الوالى الأمر وكان لم يوجد فى يده مايساعده على السفر استمهل الحكومة بعض أيام حتى يتمكن من بيع بعض أشياء يستعين بها على الرحيل فصدر الامر ثانية بعدم إمهاله ولا ساعة واحدة : وكانت حكومة أنقره وعدته بأنه إذا أراد مغادرة تركيا بانها تؤدى اليه الفى جنيه يستعين بها على السفر فنسيت الحكومة الأنقرية هذا الوعد وعدّت هذا الكتاب الذى كتبه السيد السنوسى الى الامير سليم أفندى خيانة فظيعة لها ولا سيما استشهاده بالآية الكريمة (وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . ورأوا فى ذلك إشارة الى كون السنوسى يتمنى رجوع آل عثمان الى الملك فاكبروا هذا الأمر إكباراً ونشروا صورة السيد فى بعض جرائدهم ووضعوا تحتها هذه الجملة (بزى خيانت ايدن سنوسى) وبالجملة فقد حققوا ماينسب اليهم من قلة الوفاء وقلبوا ظهر المجن لاجل هفوة غير مقصودة لرجل بقيت تركيا فى طرابلس الغرب عدة سنوات تقاتل بسيفه وسيوف رجاله وتحافظ على شرفها بين الدول بواسطة اتباعه . ثم بعد ذلك أعملت لديه الوسائل حتى حملته على ترك مدينة بورصة والمجىء الى الاناضول منحازا الى الحكومة الانقرية ثم لجأت إليه فى تسكين ثورة قونية ثم فى تسكين قبائل الاكراد عند مابدءوا بالعصيان على أنقرة وتمكن السيد ذلك اليوم

من ابقائهم فى دائرة الطاعة . هذا وخرج السيد مبادرا وقصد دمشق الشام ومنها جاء الى بيروت ثم زار القدس الشريف ثم عاد إلى الشام ومنها ذهب بالسيارات الى المدينة المنورة . وقد قام الأمير سعيد الجزائرى من إضافته واكرامه مقاماً يحمد . و بعد أن استقر السيد السنوسى فى المدينة المنورة مدة من الزمن جاء الى الحج وأقام عدة أشهر فى مكة ثم قصد بلاد عسير ضيفا على السيد حسن الادريسى أمير صبيا وجيزان . و بقى عنده زمناً لما بين هاتين الاسرتين من القرابة والعلاقة ثم عاد السيد الى مكة وأقام مدة بالطائف ومدة بالزواية السنوسية فى جعرانة بقرب مكة ولما حججنا سنة ١٣٤٨ تلاقينا معه فى مكة وكان أوانئذ على أوفاز قاصداً المدينة المنورة وهو فى هذه الايام أيضاً مقيم بها. قصدنا الحاق هذه الاخبار بترجمته إذ لاتتم الا بها. وهو خاتمة كبار السادة السنوسية و بقية السلف الصالح رحمه الله رحمة واسعة

تقرير

عن القضية الطرابلسية البرقاوية

نضم الى هذا المبحث (١) هذا التقرير الذى تقدم الى المؤتمر الاسلامى فى القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أن أخذ الاوربيون يشنون الغارة على البلاد الاسلامة بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد اسلامية — بعد الأندلس — بمثل ما فجعت به طرابلس — برقة ، تلك البلاد التى منذ سطا عليها الايطاليون وسيوف نقمتهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة ، حتى آلت الى مجزرة بشرية ومرسح تمثل فيه أفظع الأدوار الهمجية .

لا نريد أن نطيل البحث فى مناقشة الوسائل التى تذرعت بها الدولة الايطالية لاحتلال طرابلس - برقة التى لا تربطها بهما أية علاقة ، ونكتفى هنا بنظرة عامة فى تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الايطالى الى يومنا هذا ، اذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة :

لقد أغارت الدولة الايطالية على القطر الطرابلسى - البرقاوى فى ٥ تشرين الأول سنة ٩١١ على حين غفلة من أهله ، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحامية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندى مبعثرين فى عدة مناطق . بيد أن سكان تلك

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى

البلاد الذين كلهم كتلة عربية ـ اسلامية واحدة قد فطروا على عزة النفس والاباء . لذلك قاموا فى وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياضهم بقلوب ملؤها الايمان بالله والاعتماد عليه .

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن فى خلالها الجنود الايطالية من التقدم شبراً عن مرمى مدافع اسطولهم ، الى أن اضطرت الدولة العثمانيـة الى عقد صلح مع الايطاليين منحت فيه الطرابلسيين استقلالهم الادارى وسحبت جنودها وهى مرغمة

وعقب ذلك أخذ الايطاليون يدعون أهالى البلاد الى السكينة ويظهرون لهم حسن النية لخير تلك البـلاد فوضعت الحرب أوزارها وألقى أكثر أهالى طرابلس ـ برقة السلاح وعادت السيوف الى أغمادها . ولكن رجال الدولة الايطاليـة ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن واخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرض النـاس على قتالهم فيخلقون لهم تهما واهية ويزجون بعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض الى جزر ايطاليا .

فثارت ثائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود فانقضوا على ايطاليا . وكانت أول وقعة دموية جرت وقعة تسمى بوقعة « القرضابية » وهو مكان قرب خليج سرت . جرت تلك الوقعة فى أوائل سـنة ١٩١٤ أضاع فيها الايطاليون ما ينيف على « ٨٠٠٠ » جنـدى . وعقب ذلك ازداد حقد الايطاليين على الأهلين فانهالوا على العزل منهم بالقتـل والتعذيب فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص ٣٠٠ نسمة فى قضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال من النساء والرجال

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى البلاد نار حرب سرى لهيبها فى كل ناحية من النواحى وظلت الفتن تتقد الى أن نشبت الحرب العالميـة فارسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير . عندئذ اضطرت الجنود الايطالية أن تنسحب من كل المواقع التى أشغلتها أثناء السـلم وتتحصن فى مدينـة طرابلس . زواره ، الخمس ، بنغازى ، درنه ، طبرق ، الى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت ايطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمـة تلو الهزيمة فى ساحات الحرب الاوربيـة .

ورغم ذلك ساقت عدة فيالق من جيوشها الى طرابلس — برقة وجهزت منهم مائة الف جندى زحفت بهم على خطوط المجاهدين فى منطقة طرابلس . وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة

ولما باءت الدولة الايطالية فى تلك التجربة بالفشل وعلمت أنها غير قادرة على اخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت الى التضليل والتمويه فسنت قانوناً سمته « القانون الأساسى » وأعلنته فى سنة ١٩١٩ ومع انه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين وانتظروا من رجال الحكومة الايطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يبثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لايقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن و بنيه والاخ وأخيه . وكادوا يصلون الى رغائبهم ويوقعون البعض فى تلك الحبائل التى نسجتها أياديهم الاثيمة ، لو لا ان عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام فى مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلاد فى سنة ١٩٢٠ فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى . وكان الجيش الايطالى وقتئذ كما ذكرنا آنفاً منحصراً فى بعض المدن الساحلية.

و بعد المداولة فى جلسات متوالية قرروا بالاجماع مايلى :

« ان الحالة التى آلت اليها البلاد لا يمكن تحسنها الا باقامة حكومة قادرة ومؤسسة على مايحتمه الشرع الاسلامى من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لايعزل الا بحجة شرعية واقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وان يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة .

وقد تناقش المؤتمر فى أن ذلك لا ينافى منافع دولة ايطاليا التى جاءت الى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعى لراحتنا وسلامتنا و بين ثقة فى أن الشعب الايطالى لا يرضى فى هذا الزمن الذى تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيها ، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة فى سبيل النظام والامن والعدل فى طرابلس الغرب ولذلك لا تزال للامة

ثقة فى أن تسعف بضروريانها وان لا تصادم فى أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال بغيرها

وقد أنبنا للمطالبة بذلك وفداً من حضرات نورى بك السعداوى ومحمد خالد بك القرقنى ومحمد فرحات بك ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة فى القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم وأن يحقق أمانى أمتنا حرر فى ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومة عهد اليها ادارة شؤون البلاد الداخلية التى عمت فيها الفوضى بسبب الفتن التى خلقها رجال الحكومة الايطالية . وذهب الوفد المشار اليه فى ذلك الحين الى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الايطالية سوى الاعراض والاستخفاف بمهمته .

أما هيئة الحكومة الوطنية التى عهدت اليها ادارة شؤون البلاد فانها أخذت فى اقرار دعائم الامن وتنظيم الشؤون الادارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث من الطوارئ فساد الامن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذى استولى على النفوس وانصرف الاهلون الى معائشهم ومصالحهم

أما منطقة بنغازى فان نورى باشا الذى أوفدته الحكومة العثمانيه اليها خلال الحرب العالمية حمل الاهالى على التعرض على القطر المصرى وهى خطة رسمتها وزارة الحربية العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من « ٥٠٠٠ » مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسى وتجاوزا به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه فى برقة ابن عمه السيد ادريس السنوسى .

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الانكليزية وبعد حروب بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة واشتدت المجاعة

فرأى السيد ادريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الايطاليين وأوقف رحى الحرب وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوى بالامارة ووافقت على ذلك الحكومة الايطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين .

بيد أن رجال الحكومة الايطالية كعادتهم فى كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود ، فاضطر الأمير السيد ادريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية « سرت » المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والتضامن على المطالبة بحقوقهما معاً ? وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين .

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الايطاليون سواحل مصراته فى منطقة طرابلس سنة ١٩٢٢ فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب فى كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الايطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلو متراً وضحت البلاد بالوف من الخلق فى سبيل الدفاع ، كما ان الايطاليين خسروا اضعاف ذلك لأنهم كانوا المهاجين . ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وانتدبوا للمذاكرة السنيور « بيلا » والسنيور « رابكس » وخرجا فى الموعد المضروب الذى قررته الحكومة الوطنية فى مكان يسمى « فندق الشريف »

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى : « باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت فى البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الايطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة الى عقد مؤتمر فى غريان بلغت مقرراته الصائبة الى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه الا الاعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرة على تلك السياسة المنفورة . وتحقق أهل القطرين طرابلس — برقة ان حياتهما محفوفة بالخطر فى الحال والاستقبال وان ما دهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما ان ادارتهما الى عهد الاحتلال واحدة عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الاخاء ويسهل سير الأمتين العربية والايطالية فى سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق ايطاليا السياسى .

فقرر الفريقان بالاجماع فى سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد ادارة

القطرين وهو الحل النهائى الذى لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التى لا تزيدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد الا تحكما فى عقد الخلاف فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الامتان من الخسار وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى

أما نحن أهل القطرين فان الادوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا الى صورة حل هذه المشكلة حلا لاحظنا فيه المنافع الايطالية سياسية كانت أو اقتصادية وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الامة وتكون له السلطات الادارية جميعها مع السلطة الدينية ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد ان تجردت عن ملاحظة الاشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها الى الحقائق والجوهريات . كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعامنا خلالها ان سفركم الى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحية واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول الى ماىرفع الخلاف الذى لا تتحمل البلاد دوامه ورعاية لاحكام اتفاقية سرت المذكورة فانا فى انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لاشعار سمو الأمير السيد محمد ادريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التى لا نشك أنها ستبنى على أساس الاخلاص وحسن النية والأمل وطيد فى أن دولتكم ستضمون الى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر فى حل المشكلات واقبلوا يادولة الوالى عاطر التحية وفائق الاحترام

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والايطاليون يراوغون فى أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لاعداد العدة للحرب وقد تجلت فكرتهم هذه فى تكاليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذى بيد الأهلين قبل كل حل والا الحرب ، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدأ من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب ، واستؤنف القتال الذى لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ الى يومنا هذا

ان الحكومة الايطالية بعد ان اتخذت كل ما فى وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتا فى سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه عمدت الى تنفيذ سياسة الشدة والارهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم فانهم أضافو الى تلك الشدة فكرة ابادة ذلك الشعب واحائه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا

فيها المستعمرين من أبناء جلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم وهكذا أخذ الفاشيست فى تنفيذ سياستهم الغاشمة وما برحوا ينزلون بذلك الشعب العربى ضروب العذاب فلا يرحمون طفلا صغيراً ولا شيخا كبيراً

فانهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة فى كل بلد من ذلك القطر فادارة البلاد تحت حاكم عسكرى مطلق اليد لا يسئل عما يفعل وله فى كل لواء وقضاء وناحية حاكم ادارى وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم وليس للأهلين مشاركة فى شؤون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الابواب وجميع المعاملة باللغة الايطالية والأغرب من هذا كله ان جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونها من المكلف وهو لايدرى ما عليه ولا يعرف باية نسبة تجبى منه تلك الضريبة بل انه مرغم على ادائها عن يد وهو صاغر واذا سأل سائل عن أساس الضريبة يعد خائنا ويعاقب العقاب الأليم .

وبالجملة فان السياسة المرهقة التى تتمشى عليها الحكومة الفاشستية لم يسبق لها مثيل منذ ان عرف التاريخ ، فسفك الدماء وقتل النفوس البريئة والتجاوز على الاعراض والنفى والحكم بالسجن المؤبد وسلب الأموال وغصب الاملاك والأراضى من أيدى أصحابها وقذف البشر من الطيارات والقاء بعضهم مكبلين بالاغلال فى لجج البحر وقتل الاسرى وهتك حرمات الدين ودوس القرآن الكريم تحت الاقدام امام جماهير من المسلمين وهدم اضرحة بعض الصحابة الكرام والاولياء واتخاذها اصطبلات للحيوانات والترنم بالاناشيد فى الطعن بالدين الاسلامى فحدث عن ذلك ولا حرج ؛ ولانريد أن نأتى فى هذه العجالة على ذكر الفظائع التى كتب فيها تأليف خاص يغنينا عن التفصيل فان فيه من الفظائع ماتتفطر منه الاكباد ويذيب الفؤاد

ومنه يعلم القارئ أن سياسة الفاشيست فى ذلك القطر ترمى الى ابادة أهله فقد كان عدد الشعب الطرابلسى — البرقاوى قبل الاحتلال الايطالى يربو على « ١٬٥٠٠٬٠٠٠ » نسمة وقد صرح الجنرال غرتسيانى قائد الحركات العسكرية انه بعد الاحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس — برقة لم يتجاوز عددهم « ٧٠٠ » ألف ولا ريب فى أنهم قد قضوا

على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الاعناق لابد أن يؤدى الى تلك النتيجة وعدا ذلك فان مرافق الحياة فى تلك البلاد قد استولوا عليها جميعا فالمسلم لايتمكن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة ولا بأية حرفة تؤمن معاشه فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول فى البلاد لتوسيع نطاق عمله بل أنهم يحددون له المبالغ التى يمكنه أن يتاجر بها والايام التى يتغيبها فى الاقطار المجاورة وصنف البضاعة واذا تغيب عن الاجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له بها تسحب من يده اجازة التجارة و يعاقب ، زد على ذلك انهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط فى دياجير الجهل فلم تكن فى تلك البلاد الا بضع مدارس ابتدائية أسست فى عهد الترك يعامون فيها الاطفال باللغة الايطالية للوصول الى اماتة اللغة العربية حتى لاتبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب الا و يقضى عليها القضاء المبرم

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التى تقطن مختلف الاقطار الاسلامية ماأحاط ببلادها من الاخطار فكرت فى تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع وانتخبت هذه اللجنة و وضعت أساسا لعملها «الميثاق الوطنى» وهذه مواده :

١ — تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس ـ برقه يرأسها زعيم مسلم تختاره الامة

٢ — دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد

٣ — انتجاب الامة مجلساً حائزاً على الصلاحية التى يخوله اياها الدستور

٤ — اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم .

٥ — المحافظة على شعائر الدين الاسلامى وتقاليد القطر فى جميع ارجائه

٦ — العناية بالاوقاف وادارتها من قبل لجنة اسلامية

٧ — العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه

٨ — تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطاليه بمعاهدة يعقدها الطرفان و يصدقها المجلس النيابى

ومنذ تاسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها معالجة القضية بشتى الوسائل الداخلية فى حيز امكانها فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التى تتمشى عليها الدولة الايطالية فى تلك

البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل وهى ترسل فى كل موسم حج الى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين فى جميع الأقطار علماً بما هو حادث فى تلك الديار النائية ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست و بينت له عقم سياسة الحديد والنار التى يتعقبها فى طرابلس برقة ولكن نصحها له لم يزده الاغروراً وعتواً كبيراً وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لايرضيهم الا تمزيق اللحوم والولوغ فى دم البشر

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام باخوانهم فى الدين والقومية فى تلك البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت فى وجوههم السبل الا سبل الموت وفى الموت راحة البائسين ولطالما ملأنا الفضاء بأصواتنا و رفعنا شكوانا الى العالم الاسلامى ليصرخ فى وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم و يؤوبون الى رشدهم رحمة بالانسانية وشفقة على البشرية ولكن انى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعتهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب ، ولما كان المؤتمر الاسلامى الموقر من ضمن واجبه التفكير فى مثل هذه الشؤون الهامة فها اننا نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التى يجب العناية بها فان ذلك الشعب المفجوع فى وطنه ودينه اذا لم تشمله عناية المخلصين من اخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح « لاسمح الله » أثراً بعد عين وفى ذلك مافيه من المسئولية الكبرى والبلاء العظيم

فيا أيها السادة الأكارم

إن الشعب الواقف فى وجود أعدائكم منذ احدى وعشرين سنة هو منكم ، والدين المهان فى تلك الديار هو دينكم . وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الله هم شهداؤكم ، هنالك فى تلك الصحارى المحرقة والفيافى المقفرة اخوان لكم « صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً »

أجل . إن اخوانكم فى تلك الديار النائية يستصرخونكم و يناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شؤونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا و بذلك تفقدون قطرا اسلاميا فتحه جدودكم الكرام ورفعوا فيه راية الاسلام منذ أربعة عشر قرناً .

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التى خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء تمطر ظلما وجوراً على اخوانكم البؤساء ، هنالك تسمعون الصراخ والعويل والبكاء والنحيب ، هنالك الانسانية المعذبة ، هنالك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار ، ولامنجد ، ولا مغيث ، ولا منقذ ، ولا معين .

فان فى تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم ويدافعون عن كيانهم وعدوهم الجائر يتربص بهم الدوائر ، فنرجو أن تفكروا فيما يخفف عنهم المصائب التى تحل بهم قبل أن تمزقهم القوى الغاشمة ولا نخال أنها تعوزكم الوسائل لمد يد المساعدة لاولئك البؤساء وأنتم رجال الاسلام الذين تمثلون « ٤٠٠ » مليون مسلم فى الكرة الأرضية والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه

٢٦ رجب سنة ١٣٥٠ — رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات

٦ كانون اول سنة ٩٣١ — الطرابلسية البرقاوية

بشير السعداوى

رئيس الجامعة الاسلامية

بجمهورية ليبيريا

تكرم بزيارة هذه الجريدة[1] سيدى أفاريل رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيريا . وقد كان سيادته وزير الحربية ثم رئيس الوزارة . وكان فى وسعه أن يكون رئيساً للجمهورية لولا أنه آثر رياسة الجامعة الاسلامية وهى أكبر منصب دينى فى البلاد عين فيه سيدى أفاريل هذا لمدى حياته كلها فى حين أن رئيس الجمهورية تنتهى مدة رياسته فى مدى أربع سنوات ولا يستطيع تولى منصبه الا بموافقة سيدى أفاريل بوصفه أكبر رئيس دينى لمسامى الجمهورية

وسيدى أفاريل يمثل اللون الافريقى الأصلى ولكن ملامح وجهه وسيماءه وتناسقه غير ما تراه فى بعض الزنوج فهو أقرب الى سماحة الوجوه العربية وفيه جاذبية تستريح اليها النفس وطيبة مرتسمة فى محياه لا يشك فيها أحد

(١) نقلا عن جريدة السياسة الغراء

وسيدى افاريل يزور الديار المصرية للمرة الثانية . فقد زارها فى العام الماضى وظل فيها أياماً معدودة وكذلك تكون زيارته قصيرة هذا العام . ومهمته تجارية فهو بالرغم من صفته الدينية يحمل تفويضاً من حكومته فى عقد الاتفاقات التجارية مع الحكومات الأخرى .

وسيدى أفاريل يرتدى ملابس عسكرية رشيقة على الطراز الحضرى وهو فى مصر يلبس « الطربوش » ويزدان صدره بنياشين عدة يأخذك بريقها الجذاب ترى بينها نيشان اللوجيون دونير الفرنسى ونيشاناً فرنسياً آخر وثلاثة نياشين أمريكية ونيشاناً انجليزياً واثنين من ملك الحجاز وواحداً من الحكومة التونسية

وهو يتكلم اللغتين الفرنسية والانجليزية ويعرف بعض العربية وقد تلا علينا المعوذتين وسورة الفتح من دون لحن ولا غموض

وسيدى أفاريل من سلالة الملوك الذين تعاقبوا على عروش السنغال وليبريا وسيراليون ستة قرون ونصف قرن وقد بلغ عددهم ستين ملكا . ولقد كان آخرهم والد ضيفنا المحترم كان ملكا على السنغال وحارب الفرنسيين ثلاثين عاماً . وما زال والده حياً وقد بلغ من العمر مائة عام وتسعة أعوام ولم تنفرط ثنية من ثناياه حتى اليوم . وكذلك والدة سيدى افاريل . بلغت من العمر ثمانية وتسعين عاماً وهى كزوجها فى عافية وصحة

ولقد اضطرت الظروف القاهرة سيدى افاريل أن يحارب جنبا لجنب مع الجنرال غورو فى سوريا أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٧

ومن مهامه فى زيارته الحاضرة لمصر أن يخاطب ذوى الاختصاص فى تعيين قناصل يمثلون مصالح ليبريا التجارة فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد . وسيدى افاريل ينوى كذلك أن يعقد اتفاقا مع بعض المدرسين المصريين الذين يحسنون اللغة العربية ليسافروا الى ليبريا ويتولوا التعليم فى مدارسها .

ولما كان سيدى افاريل قد أصبح الرئيس الدينى الأكبر فى البلاد فسترسل حكومة الجمهورية ولديه الى الازهر الشريف فى العام القادم لكى يدرسا العلوم الاسلامية دراسة متقنة تمكن احدهما من أن يتولى منصب قاضى قضاة المسلمين هناك وتمكن الآخر من

تولى منصب دينى آخر حتى اذا وافى الأجل أباهما خلفه أحدهما فى رياسة الجامعة الاسلامية بديار ليبريا

وحكومة ليبريا وأهلوها قوم أشداء فى الاحتفاظ باستقلالهم غاية فى الغيرة على مرافقهم وحقوقهم القومية لايفرطون فيها ولا ينزلون عنها لأحد . ولقد بلغ من حرصهم على بلادهم انهم لايسمحون لاجنبى كائنا من كان ولا سيما الغربيين بأن يشترى شبراً من الارض فى ديارهم .

حدثنا رفيق كان يصحب سيدى افاريل فى زيارته لجريدتنا قال : — توصل أحد المستعمرين الانكليز الى أن يستحوذ على منجم لتعدين الذهب فى ليبيريا فاما توجس خيفة على نفسه وعماله استنجد بمائتى جندى بريطانى فلم يكد هذا النبأ يصل الى مسامع حكومة الجمهورية حتى أنذرت الرجل بأن ينسحب هو وجنوده من البلاد والا نزل بهم من المكاره مالا يحبون فى أربع وعشرين ساعة . فانسحب الجند ووقف العمل ولم يسع القنصل الانكليزى سوى ان ينصح للجنود بسرعة الخروج من البلاد والا لم يكن أحد مسئولا عن حياتهم سواهم

وقد أخبرنا سيدى افاريل أن عدد أهل ليبريا يبلغ خمسة ملايين وان كانت المراجع الجغرافية تحدد العدد الأقصى بمليونين وربع مليون . لكننا قد نرجح صحة الرواية التى رواها سيدى افاريل لعلمنا ان الاحصاء الدقيق فى مثل تلك الأصقاع يكاد يتعذر .

ومما ذكره سيدى افاريل وأقرته عليه المراجع الجغرافية أن الأجانب لايزيدون فى بلاد الجمهورية عن مائتى شخص كلهم فى البلاد الكبرى وفى هذا دليل واضح على أن أهل الجمهورية ينفرون من العناصر الأجنبية كل النفور .

ولا عجب فان أمريكا التى تعهدت هذا الشعب منذ حوالى مائة عام أسلمته قياد نفسه فى النهاية وعلمته الحذر الشديد من تدخل الأجانب فى شئونه فأحسن الشعب الليبيرى تلقن هذا الدرس الثمين وجرى عليه حتى يومنا هذا .

وفى ليبيريا زهاء ١٢٠٠٠ من الزنوج الامريكان لعل الشفيع لهم فى البقاء بين أبناء الجمهورية أنهم من طائفة الزنوج فلهم باهل افريقيا قرابة الجنس وانهم ينتمون الى الأمة الامريكية التى أحسنت رعاية ليبيريا يوم كانت قائمة بشئونهم القومية منذ مائة من السنين .

وسألنا سيدى أفاريل كم عـدد المسلمين بين أبناء الجمهورية فقال ان من الخمسة الملايين الذين يتألف منهم أهل ليبيريا ثلاثة ملايين لا يزالون فى حالة البداوة الاولى لا تكاد تكون لهم حضارة أو دين . و بينهم زهاء مليون ونصف مليون من المسلمين وزهاء نصف مليون من المسيحيين الذين اعتنقوا المسيحية بجهود المبشرين الامريكان وغير الامريكان

وسألنا سيدى افاريل من ذا يقوم بنشر التعاليم الاسلامية فى بلاد الجمهورية فاجاب . بأن بين مسلمى السنغال رجالا متفقهين فى الاسلام الذى هو دينهم فنهم نستمد المعلمين الدينيين .

وفهمنا من سيدى افاريل أن فى الجمهورية نهضة حديثة ترمى الى ترقية البلاد فى نواحى مرافقها المختلفة من تجارة وتعليم ومواصلات . والخدمة العسكرية عندهم تتناول أبناء الجمهورية جيعا وقت الضرورة من سن السادسة عشرة الى سن الخمسين

وحكومة الجمهورية تشترى آلات مدرعة حربية كبرى من أمريكا يبلغ ثمنها ١١ مليون دولار كما أخبرنا سيدى افاريل

وقد ظل سيادته فى دار الجريدة زهاء خمس وأربعين دقيقة ثم نهض منصرفا فودع بمثل ما استقبل به من الاكرام . والشرق على الشرق عطوف . وقد طلب الينا سيادته أن نرسل اليه أعداد السياسة فى مقره بليبيريا التى يصل اليها بعد شهر من الزمان يقضيه فى رحلته من القاهرة الى بورسعيد الى جبل طارق الى اسبانيا ومن ثمت يركب السفينة الى بلاده بسلام

***

أما من جهة عدد سكان جمهورية ليبيريا فقد سمعنا روايات تختلف عن رواية سيدى افاريل صاحب هذا الحديث وذلك اننا كنا اجتمعنا مع مندوب ليبيرنا فى جمعية الأمم وهو معتمد هذه الجمهورية فى باريز هولاندى الاصل وقد توفى منذ ثلاث سنوات ولما اجتمعنا به سألناه عن عدد أهالى ليبيريا والمسلمين منهم فقال لنا انهم مليون ونصف مليون. المسلمون منهم مليون ومائتا ألف نسمة والمسيحيون ٣٠٠ ألف وربما يكون أهل الوثنيين لأننا لا نزال نعتقد أن رواية سيدى افاريل رئيس الجماعة الاسلامية فى ليبيريا هى الصحيحة «وصاحب البيت أدرى بما فيه »

الدفاع عن الحروف العربية

بينا لقرائنا [1] فى رسالة سالفة تلك التيارات الحائمة حول قبول الحروف اللاتينية والاحتفاظ بالحروف الحالية بتعديل أو بغير تعديل . واليوم قد سنحت لنا الفرصة للدفاع عن الحروف العربية حيث قد اطلعنا على رسالة تركية حديثة الظهور ، يصح لنا أن نعتبرها حجة قوية لم يستطع أنصار الحروف اللاتينية أن يقابلوها بمثلها بعد .

وهذه الرسالة عبارة عن محاضرة شائقة ألقاها الأستاذ اللغوى عالمجان شرف بك فى مؤتمر باكو الذى انعقد فى أوائل العام الحالى من مندوبى جميع الشعوب التركية للنظر فى تاريخ الأمم التركية ولغاتها وآدابها واصلاح حروفها . انما كانت أهم مسئلة وضعت على بساط البحث هنالك مسألة الحروف ، وكان حضرة الاستاذ السالف الذكر أبلغ مدافع عن الحروف العربية . لقد ألم حضرته بالموضوع من جميع جهاته وخرج من بحثه مبرهناً أن الحروف العربية أفضل من الحروف اللاتينية من وجهة الرسم والخط وسرعة القراءة والموافقة للصحة وسهولة الطباعة وجمال الشكل وهلم جرا

لهذا رأينا من الموافق أن نلخص هذه الرسالة للقراء نظراً لأهمية الموضوع من جهة ولاتصاله بجميع الامم التى تستعمل الحروف العربية من جهة أخرى

الشعوب التركية والحروف العربية

ان تسعين فى المائة من أفراد الشعوب التركية يستعملون الحروف العربية أما البقية وهم جماعة على الديانة المسيحية فانهم يستعملون الحروف الروسية المعدلة . ومع ذلك فان فريقاً من هؤلاء الاتراك المسيحيين القاطنين فى قازان قرروا ترك الحروف الروسية وعادوا الى استعمال الحروف العربية ، كما ان فريقا آخر وهم قبيلة « الياقوت » تركوا الحروف الروسية وقبلوا الحرف اللاتينية

نتائج تبديل الحروف

فاذا ما اتجهت الأنظار اليوم الى تبديل الحروف العربية بغيرها فلا شك أن سيكون لهذا التبديل نتائج مدنية واقتصادية واجتماعية عظيمة . وأولى هذه النتائج ضرورة تعليم

(١) لمراسل السياسة فى الاستانة بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦

المتعلمين أجمعين مرة أخرى ، ونشر المؤلفات بالحروف العربية والحروف اللاتينية سنين عديدة وبذل الجهود لتعليم الناس القراءة بنوعين من الحروف ، وتهذيب المعلمين وتربيتهم من جديد واصلاح جميع الآلات الفنية والعملية وتعديلها . أضف الى ذلك ، تلك الزلزلة الروحية الاجتماعية التى تقع بين الشعوب التركية بتبديل الحروف العربية والتى تجعل مسألة الحروف أهم مسألة اجتماعية اقتصادية تهم الشعوب التركية

مقارنة الحروف العربية بالحروف اللاتينية

اننا إذا قارنا الحروف العربية بالحروف اللاتينية وجب علينا أن نقرر أولا ان الحروف العربية أوفق لافادة الكلمات التركية . كانت تتكون الحروف العربية من ثمانية وعشرين حرفا . زاد عليها الأتراك ثمانيـة حروف فبلغت ستة وثلاثين حرفا أربعـة منها حروف متحركة وباقيها حروف ساكنة ، أما الحروف اللاتينية فعبارة عن ستة وعشرين حرفا فى الأصـل ستة منها متحركة وعشرون ساكنة . لذلك فانه لما شرع الآذريون فى قبول الحروف اللاتينية لم يجدوا فيها الا تسعة عشر حرفا (أى ٥٦ فى المائة) من أربعة وثلاثين حرفاً تلزمهم لتكوين حروفهم الهجائية .

وعليه فانهم زادوا عليها حروفاً روسية وحروفاً أرمنية لتفى بالمطلوب .

أما قبيلة الياقوت التركية فانهم لم يستطيعوا أن يجدوا فى اللاتينية الاسبعة عشر حرفا تنفعهم ، ثم زادوا عليها حروفاً أخرى لا كمالها وكذلك أتراك (قازان) و (باشقيرد) لم يستطيعوا أن يقتبسوا من الحروف اللاتينية إلا تسعة عشر حرفاً . وقد ثبت من ذلك أن الحروف اللاتينية لا تفى بحاجة اللغة التركية إلابدرجة (٤٧) فى المائة أو (٥٦) فى المائة على أعظم تقدير . وهذا أسطع دليل على أن الحروف العربية أوفق للغة التركية .

سرعة القراءة

اذا تبين ذلك أمكننا أن ننتقل الى موضوع « سرعة القراءة » . اننا اذا قرأنا لاننظر الى الكلمة حرفاً حرفاً بل يقع بصرنا على الكلمة بأجمعها دفعة واحـدة فنميزها كما نميز الأشياء والأشخاص .

ان الحروف اللاتينية ترسم فى الغالب بخطوط مستقيمة ويمزج قسم منها برسم حرف()

فتتجلى كزوايا مستقيمة . فيكون السطر المطبوع مصفوفاً بين خطين متوازيين وترصف الكلمات كأحجار مرصوصة .

أما الحروف العربية فليس لها خطان متوازيان أو زوايا مستقيمة . بل ليس للسطور فيها الا خطاً أساسياً تمتد منه خطوط مستقيمة أو معوجة الى أعلاه وأسفله بحيث تكون مجهزة النقط أو الاشارات الصغيرة . وهذه الحالة الخاصة بالحروف العربية تسهل لنا تمييز الكلمات دفعة واحدة بخلاف الحروف اللاتينية التى ليست كذلك .

أى الحروف أوفق للصحة

يدعى بعضهم ومن بينهم الشيخ (جوزى مندلى) وهو عربى مسيحى تعلم فى المدارس الدينية الروسية ثم كان رقيباً على الصحف التركية أيام القيصرية الروسية أن كثرة النقط والخطوط فى الحزوف العربية تجعلها ضارة بصحة البصر . وذلك خطأ . وقد دلت التجارب على انه خطأ . ويكفى أن يجئ الانسان بشئ مكتوب بالعربية وآخر مكتوب باللاتينية وأن يقرب كل منهما الى بصره ثم ينظر فيهما ليتبين له انه يستطيع قراءة الحروف العربية من مسافة أبعد من المسافة التى يستطيع بها قراءة الحروف اللاتينية . وقد تبارى طلاب مدرسة المعلمين التركية فى قازان مع طلاب مدرسة المعلمين الروسية فى موضوع سرعة القراءة والكتابة ففاز الأتراك بنسبة ٢٦ فى المائة فى القراءة ونسبة ٣٢ فى المائة فى الكتابة .

قراءة المخطوطات اليدوية

ثم إن المخطوطات اليدوية العربية تشبه الخطوط المطبعية كثيراً ولذلك تسهل قراءتها هذا بخلاف المخطوطات اليدوية اللاتينية والروسية فانها تصعب قراءتها . وتسهل قراءة المخطوطات العربية من جراء النقط ومن اتحاد الرسم المطبعى والرسم اليدوى .

سرعة الكتابة

ان الحروف العربية كالعلامات الستنوغرافية ولذلك فانها تكتب بكل سرعة . واذا ماجربتم الكتابة بالحروف العربية واللاتينية ألفيتم أن فرق السرعة بينهما بنسبة ٣٠ فى المائة .

الحروف والطباعة

يمكننا بعد ذلك أن نقارن الحروف العربيــة والحروف اللاتينية من وجهة الطباعة ان الحروف اللاتينية الكبيرة والصغيرة التى تستعمل فى المطابع الآزرية اليوم يبلغ عددها (١١٠) حروف مع الأرقام

أما الحروف التركية فرغما من أن لكل منها أربعة أشكال فانها لاتزيد على (١٥٠) حرفا وليس هذا بالفرق العظيم الذى يلجئ الى تبديل الحروف . وقد استطاع عبدالرحمن بورناش افندى تقليل عـدد الحروف التركية بحيث ساوى ما بينهـما وبين الحروف اللاتينية. واذا مانجح عبـد الرحمن أفندى فى وضـع شـكلين لكل حرف كما هى غايته فسيكون عدد الحروف العربية أنقص من عدد الحروف اللاتينية وهنالك لايبقى اعتراض من وجهة الطباعة أيضاً

تعليم الحروف

أما اذا نظرنا الى مسألة تعليم الحروف وجب علينا أن نعترف قبل كل شئ أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة بين الأتراك ليسوا كثيرين ، بل انهم تتراوح نسبتهم بين خمسة فى المائة وخمسة وعشرين فى المائة . انما اذا تبدلت الحروف فقد هؤلاء كذلك . لكن المسألة مسألة سهولة التعليم

ان لكل حرف من الحروف اللاتينية أربعة أشكال : كبير وصغير للطباعة وكبير وصغير للكتابة . وأكثر هذه الحروف غير متشابهة فى الرسم . أما الحروف العربية فلثلاثة عشر منها شكلان ولبقيتها أربعــة أشكال انما تتشابه جميع الاشكال ولهذا فان تعلم الحروف العربية أسهل بكثير من تعلم الحروف اللاتينية

الشعوب المتآخية والحروف الهجائية

لا جرم ان لاستعمال الشعوب المتكلمة بلغة واحدة أو بلغة متقاربة حروفا مشتركة قيمة عظيمة . لا سيما اذا كانت هـذه الشعوب مرتبطة بروابط جغرافيــة واقتصادية ، اذ هنا لك يسهل لهذه الشعوب تبادل كل شئ كما تقوى بينها العـلاقات المدنية والاقتصادية

وحيث ان أحسن الحروف التى توافق اللغة التركية هى الحروف العربية وجب على جميع الشعوب التركية الاحتفاظ بهذه الحروف

أى الحروف أجمل ؟

ثم اننا اذا سئلنا بعد ذلك عن أى الحروف أجمل ، وجب علينا أن نعترف أن هذه المسألة مسألة شعور شخصى . بيد اننا رأينا ان الشيخ (جوزى) السالف الذكر يدعى أن الحروف العربية قبيحة المنظر ، فى حين ان الكثيرين من كتاب الأوربيين ينقضون قوله ويقولون ان الحروف العربية التى تتنوع أشكالها أجمل بكثير من الحروف اللاتينية التى ليست الا عبارة عن أشكال هندسية . وعليه فان الحروف العربية تمتاز على غيرها بانها :

مزايا الحروف العربية

١ — تقرأ الكلمات العربية بها بكل سهولة
٢ — تكتب الكلمات العربية بها بكل سرعة .
٣ — ومن الممكن اصلاح الحروف العربية بلا عبث يصيب شكلها وهنالك تسهل الطباعة .
٤ — والحروف العربية أسهل للتعليم . كما ان
٥ — الحروف العربية هى الحروف التى تستعملها الشعوب التركية المتجاورة ، المتكلمة بلغة واحدة فينبغى الاحتفاظ بها .

الجهة السياسية

ان تسعين فى المائة من الشعوب التركية يشتغلون بالفلاحة . فلا شك أن الاقدام على تغيير الحروف يؤثر فى جميع هؤلاء الفلاحين أسوأ تأثير . وقد فطن (لنين) الى هذه النقطة فقال (لاغا معلى الاذرى) الذى يستهدف لتغيير الحروف « كيف يرى الفلاح هذا العمل ؟ » وهذا سؤال لا يصح الاستخفاف به . نعم ان الفلاح التركى متأخر . لكن تأخره غير ناجم من الحروف الهجائية بل من حالته الاقتصادية .

ومن الارهاق الذى يصيبه وليس للحروف الهجائية أى تأثير فى انحطاطه . ولهذا فلن يفيد تغيير الحروف فى رقيه المدنى والاقتصادى بل يضاعف فى تأخره . وهذا ما لا يصح اقترافه .

اظهار محاسن الاسلام

للعالم الايطالى لورا فكشيا فاليرى

من الكتب المهمة التى ظهرت فى الأيام الأخيرة فى الدفاع عن الدين الاسلامى كتاب اسمه « إظهار محاسن الاسلام Oppalogie de L'Islamisme بقلم « لورا ڤكشا ڤاليرى من علماء ايطالية Laura Veccia Valglieri وهو يقول فى مقدمة كتابه هذا المترجم الى الافرنسية إنه مما لا شك فيه أن وصف محمد بتلك الأكاذيب التى كانوا يشيعونها فى القرون الوسطى عنه وعن ديانته قد خفت كثيراً فى هذا العصر وصار الناس ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذى قلب وجه العالم . ولكن مما لامراء فيه أن صوت المسلم الحر الذى يحب الله ورسوله ويرى فى الاسلام الحسنات التى لا نهاية لها فى الدنيا والآخرة لا يزال غير مسموع تماما والنادر من الأوربيين يعلم هذا الصوت

فمحاسن الاسلام لا يمكنها أن تظهر بتدقيقات المؤرخين من الافرنج مهما كانوا منصفين لأنها تدقيقات جارية على أقلام أناس غير معتقدين بالاسلام وبحسب طرق ومفاهيم خاصة بالأوربيين . ومع ذلك فان مستشرقين مشاهير مثل مويرMuir واسبرنجر Sprenger وغولد سيهر Gold-Ziher ونولدكه Noldek وكاتانى Caetani وغيرهم قد وصلوا بعد التمحيص الى الاعتراف بصدق محمد فى دعوته والى الحكم بانه كان ملهما إلهاما اختلفوا فى سره ولم يفسروه على وجه واحد بل علله كل واحد بشكل . وبعض هذه الأشكال لا يقبلها حتى غير المسلم. فمن هؤلاء من يقول ان العقائد التى بنى عليها الاسلام أكثرها نتيجة نمو هذا الدين بعد وفاة واضعه وأنه هو لم يضع إلا أسساً أولية فقط وأن المسلمين فيما بعد قد فرعوا عليها . ثم بعد أن جردوا صاحب الشريعة الاسلامية نفسه من وضع هذه العقائد وردوا إليه مبادئها فقط عادوا فمحصوا أقواله وأعماله التى لم يشكوا فى نسبتها إليه وفصلوا هنا بين الوحى الذى كان يوحى إليه وبين المعلومات الشخصية التى اتصل بها بثمرة اجتهاده واطلاعه على الأديان الأخرى واحتكاكه بالحوادث أى إنهم فصلوا بين الالهى والبشرى فى الدعاية المحمدية

قال كاتاني : إن محمدا لم يجمد على حالة واحدة بل مر بأطوار متعددة بحسب مقتضيات الزمان ووفقا للحوادث . وتغير هذه الأطوار ملحوظ جداً سواء فى القرآن أو فى السنة لمن عرف أن يفهمها حق الفهم . فالفرق عظيم بين محمد فى أوائل بعثته و بينه بعد أن هاجر إلى المدينة واضطر أن يعلن المقاومة بالقوة لمن أشركوا بالله

فالمسلمون متفقون مع هذه الطبقة من المستشرقين على أن فى ديانتهم نقاطا كثيرة متفقة مع النصرانية واليهودية ولكنهم يرون هذا زيادة فى تأييد رسالة محمد و برهانا على أنه خاتم الرسل. ولكن بين المسلمين و بين هؤلاء المستشرقين اختلافا فى كيفية فهم القرآن. فعند المسلمين أنه كتاب قديم غير مخلوق وغير قابل للمعارضة . وقد نزل على رجل أمى لم يتعلم شيئاً إلا ما أوحاه الله إليه وقد أوحى اليه هذا القرآن وألهمه أيضاً أعمالا لا يجوز الجدال فيها على حين المستشرقين الذين نعنيهم يرون القرآن تمثيلا لحالة محمد الروحية ويزعمون أن فيه تفاوتا وأن محمدا أضاف من نفسه الى ما هو من ربه بحسب مصلحته وأن هناك تناقضا بين بعض أقواله الى غير ذلك من الآراء . فلأجل هذا الفرق العميق بين المسلمين و بين مؤرخى الاسلام من غير المسلمين اقتصرت كثيراً فى إيراد آراء المستشرقين المحدثين إلا ما أخذته من تدقيقات غولد سيهر وعولت على أقوال المسلمين أنفسهم تاركا أقوال الطبقة الماضية من علمائهم حتى أقوال مثل الامام الغزالى ولو كانت آراؤه توافق مبحثى بما فيها من المعانى العالية . عولت على المسلمين المحدثين الذين احتكوا بالحياة الغربية وأحبوا الاسلام حباً جماً ورأوا فيه ديناً يأتلف مع الأعصر الحديثة و يقبل كل ثقافة فقد كتب هؤلاء كتباً تعجز جميع انتقاداتنا العصرية عن المكابرة فيها . فأخذت اذاً من الكتب الآتية :

الاسلام والرد على منتقديه للشيخ محمد عبده . والاسلام والنصرانية لمحمد عبده أيضاً . والعروة الوثقى لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده . والرسالة الحميدية لحسين الجسر . والمدنية والاسلام لمحمد فريد وجدى . و إظهار الحق لرحمة الله بن خليل . ومقال للزهراوى فى ائتلاف الاسلام مع المدنية . وروح الاسلام لأمير على الهندى . وعبقرية الاسلام لعثمان بك قبرصلى زاده . وتقرير لنعمان كامل بك فى مؤتمر المستشرقين العاشر . وتقرير آخر فى المؤتمر المذكور لعمر لطفى

وقد استقيت من هـذه المنابع كلها مختاراً منها ما أريده بدون مراعاة الترتيب بل بمراعاة المعنى و إيراد الشواهد المتطابقة فيه من أى موضع من الـكتب المذكورة

ثم ذكر صاحب هـذا الـكتاب فصلا فصلا عن الاسلام فالأول سرعة انتشار الاسلام و إن ذلك بيد الهية والثانى بساطة العقيدة الاسلامية وانطباقها على العقل . والثالث حكمة كل شعيرة من الشعائر الاسلامية . والرابع معالى الفضائل والآداب الاسلامية و بعد تأثيرها فى الخلق . والخامس ائتـلاف الشريعة الاسـلامية مع المدينة والسادس قيمة التصوف فى الاسلام . والسابع الاسلام فى مناسباته مع العلم

فنحن نوصى ناشئة المسلمين باقتناء هذا الـكتاب وهو ١٢٥ صفحة مختصر مع الافادة معتدل مع الاجادة

طرابلس و برقة أيضا

ولاتمام الفائدة نذكرهنا كتابا مطبوعا فى مرسيلية سنة ١٨٦٣ بقلم «شارل ادوارد غيز» Charles — Edouard Guys قنصل فرنسة فى الشرق ومن أعضاء جمعيات عامية متعددة وعنوان هذا الكتاب « معلومات عن جزائر بومبا و بلات وخليج بومبا ونواحيه[١] » قد أخذها هذا الكاتب عن أبيه الذى كان قنصل فرنسة فى طرابلس الغرب ومنه علمنا أمراً غريبا وهو أن الحكومة الروسية تدخلت لدى والى طرابلس سنة ١٧٧٢ حتى ينزل لها عن جزيرة بومبا بمقابلة شئ تؤديه له لكنه أبى اجابتها الى طلبها هذا خوفاً من تركيا وفرنسة (كذا) وكان طلب الروسية هذا فى اثناء حروبها مع تركيا

ويقول المسيو غيز ان الامريكيين أيضاأرادوا أن يكون لهم مرسى فى البحر المتوسط فحاولوا الاستيلاء على جزيرتىْ بومبا لكنهم لم يأتوا اليهما بقوة كافية وانصرفوا

وهو يصف ما فى خليج بومبا من المراسى الامينة للسفن ويرى فى هذا المكان مركز علائق بين الغرب والشرق ذا بال عظيم

ويقول ان جزيرة بومبا بنفسها صغيرة صخرية لكنها تشتمل على ميناء من أحسن مايوجد وكان اللاسيديمونيون (من اليونان) قد عمروها قديماً وجعلوها مرسى لاصلاح سفنهم وصارت مدينة وهى تبعد عن الساحل أربعة فراسخ وموقعها شمالى غربى من الخليج وشرقيها جزيرة صغيرة اسمها « باردة » والبحر هناك كثير السمك ومحيط الجزيره الكبيرة ثلاثة فراسخ ونصف وفيها أراضٍ قابلة للزراعة وأشجار . و يقول ان العرب لاوائل مجيئهم الى برقة كانوا يقيظون فى هاتين الجزيرتين نظراً للطف هوائهما وبرودة نسماتهما . ومن هنا سموا الصغرى منها باردة . وهو يمتدح عرب برقة بحسن الضيافة وجودة الاخلاق

ثم يقول ان جزيرتى بومبا تقابلان رأس التين أى مرسى درنه ويذكر انه مرَّ بنفسه من هناك فى سفينة فرنسوية استقلها فى «لارنكا» (قبرص) قاصدة مرسيلية وذلك

---

(١) انظر صفحات ٦٤ من الجزء الثانى وما بعدها

فى شهر يوليو سنة ١٨١٧ فساقتهم الريح نحو جزيرة اقريطش ثم بعد ذلك اضطروا ان يتقدموا نحو ساحل برقة ومنها ساروا امام السواحل حتى وصلوا الى مدينة طرابلس لعهد يوسف باشا القرمانلى

وهو يذكر ان الامريكيين كانوا نزلوا براس التين وقصدوا الاستقرار بدرنه لكن والى طرابلس كتب الى متصرف درنه لحشد العرب وطردوهم . ثم انعقدت معاهدة بين والى طرابلس وأمريكا بأن يكون لها قنصل صغير فى درنه لملاحظة تجارتها

وهذا المؤلف يشير على أوربة بأن ترسل الى جزيرة بومبا فرسان مار يوحنا أورشليم الذين أخرجهم الانكليز من مالطةوتراهم يرتادون لانفسهم محلاً يلجأون اليه ويقول انه لماكانت ترعة السويس ستُفتح (١) فيتسع مجال الحركة البحرية فان عمارة هذه الجزيرة بالاوربيين أصبحت ضرورية (تأمل)

ومن أهم ماقرأته فى هذا السفر الصغير هو ان سكان حضر برقة كان يقدّر عددهم لذلك العهد بثلاثمائة ألف نسمة عدا العرب البوادى

والحال انه عند مجىء الطليان كان عددهم ٣٠٠ ألف داخلاً فى ذلك العرب البوادى . واما الآن فقد نزل عددهم عن هذا المقدار

ولقد شاهد محرر هذه السطور جزيرتى بومبا وخليج بومبا يوم ذهبت الى جهاد طرابلس وبتنا بساحل هذا الخليج ليلة وفى زاوية أم أرزم ليلة وفى زاوية مرطوبة ليلة وذلك قبل وصولنا الى معسكر أنور فوق درنه

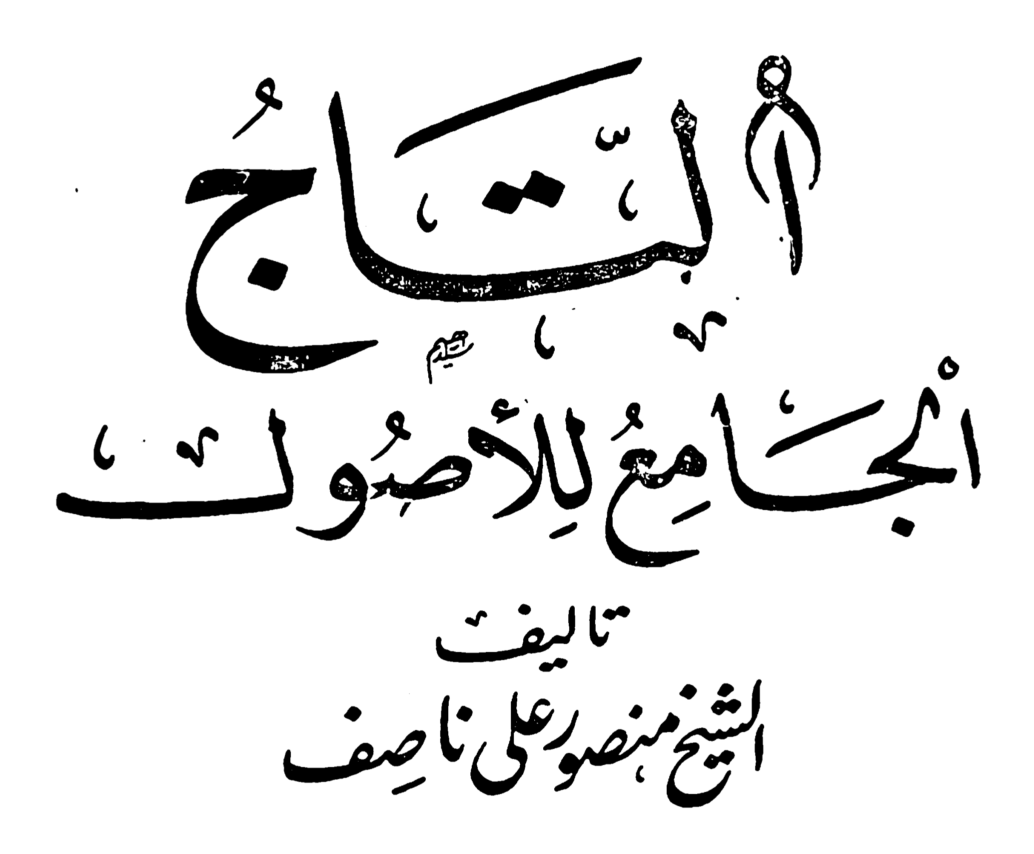
(١) قد فتحت بعد طبع هذا الكتاب بأربع سنوات



تاليف الكاتب الكبير

محمد لطفي جمعه المحامي وعضو المجمع العلمي العربي

احتاج لمراجعة ٥٠ كتاباً من أنفس ما ألف باللغات العربية والافرنسية والانجليزية وما كتب فى أمهات الجرائد العربية والافرنجي وهو فى ٣٨٤ صفحة من القطع المعتاد مطبوع على ورق أبيض ناعم عال ومهما قيل فى الكتاب فلا يكفى للتعريف به لذلك نكتفى بأن نحث كل مشتغل بالقضايا الشرقية أو العربية أو الاسلامية بمراجعة هذا السفر النفيس فيجد فيه زبده ابحاث مؤلفه الفاضل ويغنيهم عن مراجعة كتب عديده ويوفر عليهم أوقاتهم



ألف هذا الكتاب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ منصور على ناصف من علماء الأزهر الشريف والمدرس بالجامع الزينبي وقد جمعه من كتب الحديث الخمسة المعتمدة . وقسم الكتاب الى أربعة أقسام . الأول فى الايمان والعلم والعبادات وهو موضوع الجزء الأول الذى تم طبعه . والكتاب مزدان بشرح جامع يوضح الغامض ويشتمل على تراجم الذين ورد ذكرهم فى المتن والشرح ولقد توسع المؤلف الفاضل فى بعض الأبواب فافتتحها بآيات من القرآن الكريم وزاد فى الأحاديث ماجاء فى موطأ الامام مالك ومسند الامام الشافعى والامام أحمد وغيرها والكتاب مطبوع طبعاً متقناً بالشكل الكامل على ورق جيد . ويقع فى ٤٤٤ صفحة بالقطع الأكبر فنحث رجال العلم وطلاب الحديث على اقتنائه لاجتناء ثمراته . وجارى طبع الجزء الثانى الذى قارب على التمام ويتلوه باقى الأجزاء

حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي
LOTHROP STODDARD
نقله الى العربية
الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير
الأمير شكيب أرسلان

المجلد الرابع

القاهرة — ١٣٥٢ — هجريه

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

فهرست

المجلد الرابع

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيراً فى تطوّر الشرق فى هذا العصر ، و بسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرب [1] من أكبر عوامل التبدل والانقلاب فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة . وسنبسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوربية من التأثير الشديد فى تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحترازَ الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوربية هى السبب والعامل فى جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة فى العالم الاسلامى . فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً ، مبيناً فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامى ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديداً ، فيدثر منها ما يدثر ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتتلاشى قوىً وتتولد أخرى ، وذلك جميعه ، على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، انما هو بحد ذاته تجددٌ قائم فى الباطن ، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره

(١) مرادنا « بالتغرب » Westernism التخلق بأخلاق الفرنجة والتشبه بهم وأخذ أخذهم فى طراز المعيشة وأساليب الحياة . ويشمل ذلك المحسوس كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقتباس الأفكار والآراء الاجتماعية والسياسية . والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة . « المعرب »

مما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محا كاةٍ للغرب وتشبه به فحسبُ ، بل انما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشئ جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الاذهان ان الشعوب الاسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هى نتاج اسلامى صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالى ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل فى العالم الاسلامى تجدداً حقيقياً ، صحيحا رائعا ، ولا غرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبلُ من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لا يعدُّ بالاضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكوراً . والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبُرُدُ ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد فى كل مصر شرقى . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو فى كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفْرَ البضاعات والارزاق الغربية فى كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعا . فالامم والشعوب التى ظلت حتى منتصف القرن الخالى تحيا حياة الثلاثين قرناً التى كرت من قبلُ ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائى فى مغداها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيراً . وسنفصل الكلام

فى الفصول التالية على ما هية سيطرة الغرب على العالم الاسلامى من جميع وجوهها : جاعلين الـكلام فى هذا الفصل تمهيداً لما سيجىء فنقول : —

ان عوامل التغرّب هى أكثر تغلغلا وانبثاثاً فى الأقطار الاسلامية الطويلة العهد فى الحـكم الأوربى ، منها فى سائر الأقطار . وهـذا الأمر ظاهر مثاله فقـد كان انتشار الحـكم المعروف بحكم « الراجا » فى المقاطعات الهنـدية السحيقة ضرباً من العجائب ، فسيادة الحـكم والادارة فى الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود ، والبرد ، والقطر الحديدية ، ومحاكم القضاء ، والمساعدة على نشر التعليم والتهذيب ، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك . ولم يكن انتشار عوامل التغرب فى الأقاليم حيث السلطة الاوروبيـة اسمية بطيئاً ، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلا ، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط فى شؤون الحياة كمصابيح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعا عاما ، ونشأت بطبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثـة لم تـكن تعرف من قبل ، وتحسنت حالات المعيشة تحسنا مذكوراً ، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً .

وكان الارتقاء العقلى والخلقى والتهذيبى مشرباً روح التغرب ، وقد سبق لنا الـكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضـارة الأوروبيـة من التأثير العميق فى نفوس الأحرار من المصلحين المسلمين . غير أن الأمم الاسلامية فى الشرق على العموم لم تقبـل على انتحال الأفـكار والآراء الغربية انتحالا شديداً مأخوذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها وأخـلاقها ، مثل إقبالها على استعمال الادوات المادية للحضارة الغربية ، ولا سيما ما كان شأنه من هذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء ، فشيوع التبغ مثلا انما كان سريعاً فى كل أمة شرقية وفى مدة نصف قرن باتت مصابيح الغاز مستعملة فى كل صقع اسيوى ، حتى فى أواسط آسية والصين . وأما العادات الغربية كتلك التى فى أزياء الملابس والتعلم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلا ، الا عند طبقة معروفة . وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذافيره على صورته الاصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعـله على ايلاف للبيئة . وما زال الشرق الاسـلامى يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضروب التفنن والاكتناه ، لـكن قابلية الامم الاسلامية

مما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب، بل انما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الاذهان ان الشعوب الاسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هى نتاج اسلامى صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالى ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل فى العالم الاسلامى تجدداً حقيقياً ، صحيحا رائعا ، ولا غرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبلُ من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لا يعدُّ بالاضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكوراً . والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبُرُد ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد فى كل مصر شرقى . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو فى كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفرَ البضاعات والارزاق الغربية فى كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعا . فالامم والشعوب التى ظلت حتى منتصف القرن الخالى تحيا حياة الثلاثين قرناً التى كرت من قبلُ ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائى فى مغداها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيراً . وسنفصل الكلام

فى الفصول التالية على ما هية سيطرة الغرب على العالم الاسلامى من جميع وجوهها : جاعلين الـكلام فى هذا الفصل تمهيداً لما سيجىء فنقول : —

ان عوامل التغرّب هى أكثر تغلغلا وانبثاثاً فى الأقطار الاسلامية الطويلة العهد فى الحكم الأوربى ، منها فى سائر الأقطار . وهـذا الأمر ظاهر مثاله فقـد كان انتشار الحكم المعروف بحكم « الراجا » فى المقاطعات الهنـدية السحيقة ضرباً من العجائب ، فسيادة الحـكم والادارة فى الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود ، والبرد ، والقطر الحديدية ، ومحاكم القضاء ، والمساعدة على نشر التعليم والتهذيب ، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك . ولم يكن انتشار عوامل التغرب فى الأقاليم حيث السلطة الاوروبيـة اسمية بطيئاً ، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلا ، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط فى شؤون الحياة كمصابيح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعا عاما ، ونشأت بطبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثـة لم تـكن تعرف من قبل ، وتحسنت حالات المعيشة تحسنا مذكوراً ، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً .

وكان الارتقاء العقلى والخلقى والتهذيبى مشرباً روح التغرب ، وقد سبق لنا الـكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضـارة الأوروبيـة من التأثير العميق فى نفوس الأحرار من المصلحين المسلمين . غير أن الأمم الاسلامية فى الشرق على العموم لم تقبـل على انتحال الأفـكار والآراء الغربية انتحالا شديداً مأخوذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها وأخـلاقها ، مثل إقبالها على استعمال الادوات المادية للحضارة الغربية ، ولا سيما ما كان شأنه من هذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء ، فشيوع التبغ مثلا انما كان سريعاً فى كل أمة شرقية وفى مدة نصف قرن باتت مصابيح الغاز مستعملة فى كل صقع اسيوى ، حتى فى أواسط آسية والصين . وأما العادات الغربية كتلك التى فى أزياء الملابس والتعلم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلا ، الا عند طبقة معروفة . وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذفاره على صورته الاصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعـله على ايلاف للبيئة . وما زال الشرق الاسـلامى يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضروب التفنن والاكتناه ، لـكن قابلية الامم الاسلامية

للأخذ عن الحضارة الغربية قد ونت وضعفت ، وكاد الميل الى اقتباس مبتكرات الغرب من الآراء والافكار يضمحل ، فتلا ذلك روح عدائية شديدة للحضارة الاوروبية وأبنائها .

وأظهر ما يكون التغرب فى الطبقتين العليا والوسطى ، ولا سيما فى أولئك المتهذبين على الطراز الغربى ، وهم الاقلون فى كل بلد من بلدان المسلمين ، وعددهم ومبلغ مالهم من السلطة ونفاذ الكلمة فعلى تفاوت فى موضع موضع : يقولون باقتباس الافكار والآراء الغربية ، ولكنهم يختلفون فى القدر الذى يقتضى الحصول عليه . فنهم من يقول باقتباس الفضائل الغربية الصحيحة مضافة الى ما فى تراث آبائهم وأجدادهم من الفضائل العليا والفلسفة السامية بحيث يكون لهم من هذا وذاك مزيج جامع بعناصره ومواده لاحاسن الحضارتين الشرقية والغربية ، ومنهم من يقول باهمال هذا التراث ولو كان شأنه حسناً مهما كان ، وبالاندفاع للتغرب والانكباب عليه بأوسع نطاق ومنهم من يتظاهر بالتغرب تظاهراً من ورائه المقت والشنأة للحضارة الغربية .

يؤخذ من هذا التغرب ان غالبه هو فى الظواهر . فالهندى مثلا ، والتركى والمصرى الحائز اجازة جامعة غربية والذى يفصح التكلم بعدة ألسنة أوروبية والامير والباشا والمثرى المقتنى عدداً من السيارات ومن عادته أن يؤم حمامات أوروبة كل عام ، جميع هؤلاء انما يبدون للعين فى أول الامر كأنهم غربيون ، فيرتدون الأثواب الغربية ، ويتناولون على موائدهم الاطعمة الغربية . ولكن وراء هذه المظاهر والاعراض تفاوتا تفاوتا فى أسلوب الحياة ، تفاوتا تظهر عنده الخواص والميزات الخلقية ، فتبتدأ هذه المظاهر باهرة مغشاة بتعشق التغرب ، ثم تأخذ بالتلاشى حتى تنتهى عند مقته وكرهه .

على أن هذه الصور المختلفة للتغرب لا ترى مستقلة متمايزة فى طبقة معينة ومكان معلوم ، بل انها فى كل طبقة من طبقات الأمة وفى كل بلد شرقى فلذلك ترى الشرق من أقصاه الى أقصاه سائراً فى سبيل تحول عجيب ، عظيم الماهية ، سريع الحصول ، حتى حد الطفرة ، مما لم ير الغرب له مثيلا فى جميع ما مضى من الأدوار . ان حضارتنا الغربية قد نشات ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها . نشوءاً طبيعيا متدرجاً ، مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء . أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب

يطفر فى تحوله طفوراً ، اذ ان ما يأخذه عنا و يقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة ان غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك .

فاختلطت الجواهر بالاعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، و بدت أمور وشؤون بعضها قبل أوانه و بعضها الآخر بعد أوانه : وفى مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . فصارت الآباء لا تفهم أغراض أبنائها والابناء تتنكر لآبائها . وأنشأ التناحر يشتد بين القديم والجديد ، . بين المولّى الفانى والحديث الطريف ، ور بما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته سجيته وخلقه خلقه . وقد وصف السر ڤالنتين تشيرول هذا العراك الهائل فى الهند بقوله : « أمواج وغمارٌ تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وأفكار غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال . فبعض يأخذ ولا يحسن الأخذ ، و بعض يعرض و يلعن ، وعقائد تتبدد ثم تعود فتحيا ونظم صناعية مضطربة ، ومناهج تعليم وتهذيب غير مستمسكة ، ومبادئ غريبة فى أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر فى مجتمع متنافر الوحدات ، وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارتها على الحالة الأولى من السذاجة ، وتصادم عنيف مستمر لا بد منه بين أقوام السكان ، والحكام الغرباء ، وحروب مستديمة الانتقاد . و بعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقى جبار فى الشرق الأقصى » .

ان هذه الكلمات وان كان قائلها قد عنى بها وصف الحالة فى الهند على الخصوص ، فهى تصح أن تتخذ تمثيلا لصفة الحال فى كل بقعة من بقاع الشرقين الأدنى والاوسط . قال أحد كتاب الفرنسيس فى هذا الشان : « الحق أن الشرق على العموم ، والعالم الاسلامى على الخصوص ، لفى دور من الانتقال عظيم . يجوز الشرق اليوم برزخاً فيه يعارك الماضى الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

هذا هو السبب فى تنكر اخلاق الكثير من متغربة الشرقيين « كالبابو » الهندى و « الأفندى » التركى . ولا جرم ، فكل انقلاب عظيم وتحول كبير لا بد من أن يرافقه قدر من المفاسد والسموم ، فتغرّب الشرق اليوم هذا التغرب الذى سيقف بالضرورة عند

حد ، انما فيه حسنات وسيئات . والاصلاح والانقلاب فى أمة ، ولو اقتضتهما الضرورة أشد اقتضاء ، ان هما فى الواقع الا القضاء على القديم وادخال الجديد الذى لا يخلو من البذور الفاسدة التى لم تكن من قبل . وقد قال اللورد كرومر فى هذا الصدد : « انه ليرتاب فيما اذا كانت هذه الشعوب الشرقية المتدلية تعترف بالثمن الذى ينبغى أن يؤدى لقاء ما هو منقول اليها من الحضارة الغربية . أما المنافع المادية التى أصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهى عظيمة بلا جدال . وأما المنافع المعنوية فلا يستطاع حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها فى الفرد والمجموع »

وسيئات التغرب وحسناته ظاهرة ظهوراً بيناً فى طبقة الاقلين الذين يعرف فيهم التهذيب الراقى . أما هؤلاء فبعضهم يرتاحون كل الارتياح الى الروح الغربية ، والبعض وهم أكثر عدداً ، قد أدركوا برزخ التنازع بين القديم والجديد فذهبوا فريسة القوتين المتناصرتين . قال اللورد كرومر يصف متغربة المصريين : « انهم مسلمون وليس فيهم خواص اسلامية ، واوربيون وليس فيهم خواص اوروبية » . وقال كاتب انكليزى واصفاً ماهو منتشر فى الهند من مظاهر التغرب : « قصور مغولية فخمة مزدانة بالمتاع والأثاث المجلوب من بريطانية . . . . هذا جميع مااستطعنا عمله فى الهند ، فاننا لم نحمل الهندى على أن يمقت حضارته الشرقية وينبذها نبذاً فحسب ، بل جملناه فوق ذلك على اتخاذ الاعراض والغث من حضارتنا بديلا منها ، فبات الهندى وحالته العقلية تمثل مزيجاً من مجموع عناصر ضارة ، بعضها أسيوى باق وبعضها الآخر أوروبى مجلوب . وليس ذلك بالمستغرب وقد أصبحت حضارة الهند خليطا لامثيل له فى العالم ماضياً وحاضراً ، بحيث انقلب الهندى اليوم متطوحاً واستمسك بأمور عدها فضائل وليست من الفضائل بشئ ، وغرته الخدع وأخذت بلبه الاعراض . . . نحن حاولنا أن نرقى بالعقل الشرقى الى مستوى الكمال الغربى والبيئة الغربية ، فخبطنا دون ذلك شر حبوط ، اذ قد أفضينا به الى حالة عقلية أدبية الفساد يغشاها وعوامل الخلل والدخل ضاربة فيها » .

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التغرب انما هى من الأسباب الكبرى فى انتشار روح البغضاء والكره فى أصقاع الشرق لكل شئ غربى ، وقد عمت هذه الروح حتى شملت الكثير من أولئك الواقفين على طبائع حضارة الغرب وعمرانه حق الوقوف ، فساعد ذلك

كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية .

حقاً ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق لهى الأمر الشاغل من الخطورة والشأن أكبر مكان . وقد أتينا فيما أسلفنا من الكلام على بيان موجز فى فتح اوروبة للشرقين الأدنى والأوسط خلال القرن الماضى ، وكيف كان العالم الاسلامى اذ ذاك متدلياً لاحول له ولا قوة حيال ذلك السيل من الفتح السياسى والاقتصادى . وفى الواقع ، فان ذلك الفتح الاقتصادى قد كان العامل الأكبر فى سرعة تقدم اوروبة و بلوغها أوج الكمال وقنة العظمة أما أمر اخضاع البلدان الشرقية فقد كان بعضه يتم على يدى القوى العسكرية كحملة فرنسة على الجزائر ، وفتح روسية لأواسط آسية ، وغزوة ايطالية لطرابلس الغرب ، و بعضه الآخر على يد الوسائل الاقتصادية الصرفة وذلك ماهو معروف : « الفتح السامى » أعنى به القبض على خناق بلاد شرقية مستقلة استقلالا مخترق السياج ، برؤوس الأموال الغربية تمدبها الدولة الفاتحة تلك البلاد على شكل القروض والامتيازات ، ومتى ماتم ذلك أخذت السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً حتى تنتشر انتشاراً يطبق البلاد ، وعلى هذه الطريقة تم فتح مصر ومراكش و بلاد العجم ، بينما كانت الهند من قبل ذلك تستعمرها « شركة الهند الشرقية » بوسائل تجارية بحتة . على ان خطورة هذا الفتح السامى لايعتبر قدرها على الغالب حق الاعتبار .

فلننظر فى شىء من وسائل هذا الفتح وهو امتيازات القطر الحديدية ، فقد قال الدكتور ا . ج . ديولون الرجل الخبير بالسياسة الدولية فى هذا الشان : « القطر الحديدية اليوم باتت من أفضل الوسائل لانتشار الاستعمار وامتداده ، إذ متى ماأنشئت هذه الشرايين فى جسم بلاد منحطة وتغلغلت فى أحشائها وأطرافها ، لاتلبث أن تنقلب أذرعاً حديدية خناقة حول عنق البلاد ، ممتصة من دماها وسالبة من قواها ماستطاعت » .

ليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نخوض فى البحث هل كان الغرب على حق أو باطل فى تسلطه على الشرق هذا التسلط الاقتصادى الهائل ، فقد بحث الباحثون فى هذا الموضوع واستقصوه من جميع وجوهه ، والقارىء الكريم مطلع على مثل هذه المباحث مما نحن بغنى عن ذكره . غير ان هناك أمراً لايحتمل الجدال ، وهو ان هذا التسلط انما كان مما لابد منه ولا حيدة عنه . فقد طلع القرن التاسع عشر على العالم والشرق والغرب

شتان ماهما تقـدماً وعمراناً ، و بأساً وقوةً ، الغرب جبار عنيد ، شـديد البأس ، مجدول الساعدين ، يتدفق قوة ونشاطاً ونمواً ، يتخطى حاملاً على منـكبيه أكبر حضارة عرفها الانسان سائراً بها نحو معقل الغاية العليا ، والشرق متثاقل متحامل ، قليل المنة ، سليب العزم . فـكان المتوقع انقضاض الأول على الآخر و إنشاب مخالبه فى كل موضع من مواضعه وما يعنينا جدّ العناية بهذا المقام الا اعتبار ماهيةالتأثير الذى كان للسيطرة الغر بيةالسياسية فى مجرى انقلاب الشرق على العموم ، ومبلغ تأثر الشرق بتلك العوامل المتسلطة عليـه . ومما لاشك فيه ان السبب الأكبر فى مبلغ هـذا التأثر انما هو التغرب على ماسبق وصفه . وقد كان من ديدن الحـكام والمتسلطين الغر بيين انهم متى قبضوا على أعنة الحـكم فى بلاد شرقية يشرعون بمقتضى الضرورة فى نشر المؤثرات والعوامل الغر بية جاهدين فى تقريب متناولها وفى ذلك أسباب . ففى المقام الأول كانت الدولةالمتسلطة ترى من مصلحتها أن تحمل السكان على طأطئة رؤوسهم لها وانقيادهم الى حكمها وأمرها ، وأن تسعى فى توفير أسباب العمران المادى ، وصيانة السلم والأمن ، لـكيما يتسنى لها بذلك كله الانتفاع واستدرار الخيرات وابتزازها ، وذلك لايتم لها الا بالقضاء على الحـكومة الأهلية المستبدة،القليلة الحول والطول وأن تقيم مقامها حكومات استعمار ية منيعة الجوانب ، شاكية السلاح ، شديدة الشـكيمة ، فتقوم هذه بتثبيت النظام وتمهيد سبل الصناعة ، وانشاء أسباب العمران كقطر الحديد والبرد والمعاهد الصحية وغير ذلك . ولـكن هـذه الحـكومات الغر بيـة لم تقصر همها على الترقية المادية فحسب ، بل سعت فى سبيل ترقية الأمم الداخلة فى حكمها الترقيـة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

فبهذا الاعتبار قد عرفت فى الدول الغر بية التى شيدت ممالك الاستعمار خلال القرن التاسع عشر روح أرقى من تلك التى عرفت من قبل فى الدول الاستعمار ية السابقة من اسبانيـة والبرتغال وهولندة وشركة الهند الشرقيـة الانـكليز ية وهى روح الجشع والنهم والاستنزاف . ففى القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخـذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهى « واجب الانسان الأبيض » ، وكان بناة الممالك الاستعمار ية فى القرن الماضى يشتملون فى نفوسهم على عواطف حب المصلحة وابتغاء المعالى والمطامح فى سبيل اعلاء شان الوطن ، وفوق ذلك على شعور أنبل وأشرف الا وهو الشعور

بالواجب الكبير ، واجب ترقية الشعوب والأمم التي دانوها لهم وأدخلوها في حكمهم ، يحملهم على ذلك سبب كونهم حملة مصابيح العلم والعرفان ، فشرعوا ينشرون أسباب الحضارة الغربيـة و يعممون طرق فوائدها ، معتقدين الاعتقاد الراسخ كله ان امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى ، و ربما الوحيدة ، لانهاض الجانب المنحط المتدلى من العالم وللأخذ بنصرته في سبيل التجدد والارتقاء .

وقد وصف العلامة « رمسى موير » وهو من كرماء أرباب مذهب التوسع الامبراطورى ، هذه الحقيقة بقوله : « من الحق الذى لايمارى فيه ان توسع الأمم الاوروبية التوسع الاستعمارى ، كاد يكون الذريعة الوحيدة التي انتشرت على يدها الحضارة الغربية فى جميع رقاع العالم المعمور ، فبات على أثر ذلك وحدة اقتصادية كالحلقة المفرغة ، وأمست جميع شعوبه وأممه تسير على نظم سياسية أدناها صائر الى مماثلة أرقاها . وهذا مما يحملنا على الاعتقاد أن العالم بأسره هو مسوق الى الانضواء تحت نظام عالمى عامّ ، قائم على طراز شامل لم يحلم بمثله المتقدمون . فلولا الفتوح الاستعمارية الغربية لظلت الاميركتان واسترالية وجنوب أفريقية بلداناً مقفرة يضرب فى أرضها شتات الهمج ، ولبقيت الهند وغيرها من بلدان منابت الحضارات القديمة ومناشئ العمران السالف ، عرضة لدواهي الاجتياح والتدويخ ومستقراً للبغي والاستبداد على نحو ما كانت الحال عليه فى الحقب المتطاولة فى القدم ، ولكان العدل والقسط والقانون والحرية السياسية شيئاً غير مذكور ، ولأمست الشعوب التي كانت متدلية تتخبط حتى اليوم فى معاثرها ، مستغرقة فى حالة البربرية . فاذا غدونا نرى اليوم فى الشرق هذه العقائد السياسية الغربية ، عقائد الجنسيات والاستقلال والحكم الذاتى هائجة غالية المراجل — مما هو فى الواقع من خير نتاج الحضارة الغربية وثمراتها الطيبة فما ذلك لعمرى الا نتيجة من نتائج فتح أوروبة الاستعمارى » :

وقد أصاب اللورد كرومر فى وصفه أدب الاستعمار الحديث بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة . و يجب أن تكون أصول أحكامنا التي هى الصلة بيننا و بين جميع الشعوب الداخلة فى حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسىّ والاقتصادى والأدبى ، قواعدَ صحيحةً سليمةً منزهةً عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية فى بناء الامبراطورية . ان المبرّر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جليا فى حسن

التصرف بما فى أيدى هذه الامبراطورية من القوى . فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء ، ولينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعى الجباه لانخشى أن يعرونا ماعرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل ، وان لم نستطعه فكنا فيه من الجهلاء الأغبياء ، فقد استحقت الامبراطورية البريطانية الانهيار من عل ، ولسرعان ماتتناثر حلقاتها وتتبدد بعد الاجتماع ».

على هذه القواعد قامت مبررات الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر . وسواء أكان مقدراً لهذا الاستعمار البقاء طويلا أم التلاشى فالاضمحلال ، فما لاريب فيه أن امتداد سيطرة الغرب السياسية وانتشارها فى آفاق الأرض قد ساعدا على انتشار المؤثرات الغربية مساعدة كبيرة . على ان الأمر الذى يتساءل فيه هوهذا : هل كان الشرق يستطيع بنفسه ، فيما لو ترك حراً من هذا الخناق الشديد والسلطان القاهر والسيطرة المكرهة ، أن ينهج مناهج الغرب ويأخذه إخذه فى النهوض والارتقاء ؟ فعلى التسليم بهذا ، يجب ألا يغرب عن البال أن الشرق لوترك وشأنه لكان حتى اليوم مابرح بطىء التحدى والأخذ عن الغرب متثاقل النهوض . زد على هذا أن الزمان ليأبى كل الاباء أن يوسع أمة فى يومها على حساب غدها ، فعلى هذا من قال انه كان على الغرب الشديد النامى ، الآخذ سلطانه فى الامتداد والانتشار مشرقاً ومغرباً فى القرن التاسع عشر ، ان يربأ بنفسه فيتنكب طريق التسلط على الشرق ، بل يتركه وشأنه ينفعل كيف شاء قدر ماشاء بالمؤثرات والعوامل الغربية فيقبل ويرفض ، يجذب ويدفع ، يحب ويكره ، يتقبل الأرزاق والبضاعات غير مؤد لأثمانها يستقرض القروض المالية ويبذرها تبذيراً ، يدعو الغربيين اليوم الى دياره وغداً يهب لطردهم أوحز غلاصمهم ، فمن قال هذا ، فانما قوله لاتجيزه المنبآت الصادقات من حقائق التاريخ ، ولا تؤيده سنة العمران البشرى .

فالحق أن الضغط الغربى انما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوى على الضعيف . وهذا الضغط العميم العنيف الذى طال عهده قد دك أسوار جمود الشرق دكاً ، وحطم سلاسل رق الشعوب الشرقية تحطيماً ، وهز المشرق من أقصاه الى أقصاه فاهتز وتناثرت منه باليات أثوابه ، وأخرجه من الظلمات الى النور ، وساقه فى طريق العمل ، وأراه من الحقائق فى اليقظة غير ما كان يراه من أضغاث الأحلام فى الهجعة . واننا سنفصل

الكلام فى الفصول التاليـة على ما كان لسيطرة الغرب على الشرق من التأثير فى نفوس الأمم الشرقية فأخذت تنفعل وتتبدل وتتحول طيلة جميع القرن الحالى . ولكننا فى هذا المقام نسير فى مجمل المراد من القول قاصرين الكلام على السيطرة الغربية فى دورها الحديث الذى وليه انقلاب الشرق بعامل رد التأثير مقاوماً معادياً للغرب .

ان الضلالة الكبرى والمزاعم الباطلة التى اشتملت عليها نقود النقدة فى شأن سيطرة الغرب على الأقطار الشرقية ، انما هى ناجة بجملتها عن عدم التمييز والفرق بين ماهية استعمار القرن التاسع عشر واستعمار القرن العشرين . أما استعمار الأول فقد كان ضرورة لابد منها ولامندوحة عنها ، وقد أتى غالبه بنفع وخير كما قدمنا الكلام على هذا . وأما استعمار هذا القرن فلا يمكن أن يحمد مسيره ولا مصيره . ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافةً قد نفضت عنها خلقانها ، وبددت غيهب جهلها وتعصبها ، وحطمت عقال خمولها ، وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة التى لم تحو غير آثار حضارات مندرسة ومدنيات منقرضة ، وأنشأت تمهد لها مهيعاً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . وكان الشرق قد أكمل تلقى دروسه ، وأنهى أخذها عن الغرب ، فشرع من بعد ذلك فى تطبيق العلم على العمل لايهاب ولا يوجل فكان يجب على الغرب ، من قِبل العقل والمنطق ، أن يوقن ان هذه الشعوب الشرقية ذات التواريخ المجيدة الحافلة بصور المجد والمعالى ، والتى قد استيقظت الآن فهبت تواقةً متعطشةً لاستعادة ماضى شأنها وغرر سالف أيامها ، يجب الرفق بحالها ، واقامة الوزن لنهضاتها ، وانتهاج المناهج الفضلى فى مراعاتها ، واعتبار الفرق بين بارحتها ويومها وكراها ويقظتها ، وان شئت فقل كان يجب على الغرب من حسن النظر والحكمة أن يبدل موقفه على مقتضى تبدل الأحوال ، فيزيد فى توسيع نطاق الحرية الصحيحة لأمم الشرق وشعوبه فيكون لهن فى سيرهن وجهادهن نصيراً ، لا حائلا دون مبتغاهن وعدواً لآمالهن .

ان الشرق قد تبدلت شؤونه ، غير ان سياسة الغرب الجائرة لم تتبدل . بل ان مبادىء الحرية التى سادت فى الغرب ، ونودى بها غالب القرن التاسع عشر ، هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شر ممزق وبددت صورها كل مبدد . اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب

الـكونية العظمى . وكانت قد اشتدت نهمة أورو بة وجشعها للتوسع فى الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتـداداً وحشياً غـير مسبوق المثيل . فنجم عن ذلك أن باتت سيطرة الغرب على الشرق فى صدر القرن العشرين غاية مابعدها غاية فى الارهاق وشد الخناق ، من حيث يجب اللين والرهو ، وطفقت أورو بة تتجهم فى وجه الشرق المستيقظ الناهض ، وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائجة ، فأساءت اليه بذلك فى سنوات معدودات اساءة تفوق جميع مانالـه منها من الشر والهوان طيلة مئتى سنة خلت . وكانت السياسة التى جرى عليها ساسة أورو بة الحدثاء فى مناجزة نهضات الأقطار الشرقية المجاهدة فى سبيل الاصلاح والذود عن حياض استقلالها كتركية و بلاد فارس ، عاراً وشناراً على الساسة الأحرار السابقين الذين كانوا منـذ جيل مضى ، وجناية كبيرة على الأحرار المعاصرين ، كما تشهد بهذا كلمات خالدات قالها الـكاتب الانـكليزى الشهير « سدنى لو » سنة ١٩١٢ وهى :—

« ما أشبه غالب الدول النصرانية فى سلوكها هذا الذى ما برحت سالـكته منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية ، بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل ، فيثخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب . مابال هذه الدول لا تنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة فى سبيل النهضة ، وعلام هـذا العسف الذى تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الـكلبى لانتياش ما بين أيدها وما خلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هى بعملها هـذا مؤيدة للدعوى الباطلة أن القوى الشاكى السـلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة . أجل ، ان هذه الدول قد تجردت عن كل حسنة فى معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشـد الجيوش الشرقية همجية فى الزمن القديم .

« ان أعجب ما رآه تاريخ العالم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هو يقظة آسية هذه اليقظة الـكبرى ، بعـد رقدة استغرقت فيها قروناً . قد استفاق الشرق مذعوراً فأخذ يجهد الغرب و يزحمه فى حلبة العمران ، وكانت اليابان أولى الأمم الشرقيـة المنبرية الى هذا الميدان ، فـكان انبراؤها هـذا — لحسن طالعها — فى عهد ما بلغ فيـه الجشع

الاستعمارى مبلغه اليوم ، وكانت حقوق الأمم والمعاهدات ما برحت تحترم بعض الاحترام . فعلى ذلك لما هب ساسة اليابان الدهاة فى القرن التاسع عشر يشيدون و يبنون ، ويذودون و يزاحمون [١] لم تذعن أور و بة لهم ولم تبادر لسد السبل فى وجوههم ، بل اننا نحن الغرب رأينا الى النهضة اليابانية بعين الرضى والارتياح ، والاعجاب والاعظام ، فتركنا أبناء « نيبون » وشأنهم يغامرون الصعاب و يذللونها فى سبيل الحياة . غير انه لمن اليقين الثابت لو استأخرت ثورة النهضة اليابانية ثلاثة عقود من السنين ، لكان نبأ اليابان لدينا اليوم غير نبأ ، ولكانت اليابان الحديثة وهى اذ ذاك فى ابان مخاضها ، قد أحاطت بها من كل جانب الدول الغربية العظمى المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، ومدت كل منها يدها الى شئ من المتاع تغتصبه اغتصابا . حقا انه قد كتب لليابان السلامة والنجاة من مخالب الاستعمار الذى انتشب فى العالم بعيدئذ ايما انتشاب ثم لما أخذت الاقطار الشرقية الاخرى تهب جاهدة لاقتفاء أثر اليابان واحتذاء حذوها ، طفقت تاقى جداً عاثراً وحظاً منحوساً ، وفى خلال العشرين سنة الخالية ثارت ثائرة الاستعمار فى أور و بة ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً ، وخلعت وزارات المستعمرات العذار تريد التهام العالم التهاما ، فأحدث ذلك رد فعل أسوأ ما يكون فى الامم الشرقية المجاهدة مشتعلة بنار اليأس لانشاء النظم الدستورية واقامة سلطان الشورى . وما كان ذنب هذه الامم التى انهالت عليها حملات أور و بة المنكرة سوى أنها أخذت تسعى فى أن تقوم بالارشادات والتعليم التى ظل المستشارون والحكماء الغربيون النصارى يلقنونها الشرق تلقينا طيلة سلسلة من الاجيال .

«وان الفرد ليخال عند الوهلة الاولى أن متى ما أخذت هذه الشعوب والامم الحافظة لتعاليم أور بة عن ظهر القلب ، تسير فى سبيل الاصلاح والترقى مع الشدائد الصعاب تسارعت الحكومات الاور و بية للأخذ بنصرتها وشد أزرها والارتياح الى نهضتها ، أو على الاقل تركها وشأنها تغالب ما تغالب وتجاهد ما تجاهد فى سبيل تشييد بنائها بأيديها ، غير أنه ما كان أبعد هذا عن الواقع ، إذ أنشأت الدول الغربية الواحدة تلو الاخرى تنقض عند ما

---

(١) اقرأ ماحررناه فى الرد على مقالة « مجلة باريز » فى عرض الاستشهاد من كلام ذلك الوزير اليابانى لعثمان نظامى باشا مما يؤول الى كون الغرب لايعرف سوى القوة (ش)

تلوح لها سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتنتاش بلاداً ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار » .

وقد أسلفنا كلاما فى موضعه بينا فيه كيف كانت تتوالى حملات الاستعمار على العالم الاسلامى آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكيف محت دول الحلفاء الظافرة استقلال ما كان لم يزل باقيا من الممالك الاسلامية عند ختام الحرب العامة ، وكيف أشعلت أوروبة بذلك نار غضب المسلمين فباتت قلوبهم مكتواة تحتدم غيظا وحنقا ويأسا من الغرب ومقتاله . وقد تقدم الكلام مسهبا فى الفصل السابق على نشوء الجامعة الاسلامية وعملها وتأثيرها فى نفوس المسلمين . وفى الفصول التالية سنبسط الكلام على نشوء العصبيات الجنسية الشرقية. غير أنه يجب ألا يتبادر الى الذهن أن هذه الحركات السياسية الدينية انما هى جميع الصورة التى تتجلى فيها روح عداء الشرق للغرب : إذ أن هناك غير ما ذكرنا تطورات اقتصادية واجتماعية ، ونشوء حركات قومية ذات تأثير عميق . ولبيان طبائع عداء الشرق للغرب هذا العداء المسوق اليه الأول بعامل رد التأثير نأتى للكلام على هذا موجزاً فنقول :

ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضى تشتد فى مكان ومكان على تفاوت . ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام فما برح الكره للغرب شائعا عمياء بيد أنه — على توالى الأيام — صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان . وقد كان الأحرار المسلمون فى بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول . وقد أسلفنا الكلام فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التى جرى عليها الغرب فى تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساساً للقيام بما أنشأوه من الاصلاح الاسلامى باعتبار جهتيه الدينية والمدنية فقد جهد ساسة تركية الاحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة فى الربع الاخير من القرن الماضى جهداً كبيراً للقيام بالاصلاح فى السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم فى الاقطار الاسلامية الاخرى فى سبيل الغاية عينها . وخير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا فى سبيل اصلاح تونس ، والى القارئ الكريم لباب الخبر : ان هذا القائد المقدام ، الجركسى الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباى ، ويتمكن عنده تمكنا كبيراً ، فاستوزره وسلم اليه مقاليد الأمور . وفى سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا

بسياحة الى أوروبة فطاف فى ممالكها وشاهد صور عمرانها وحضارتها، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه ، و إذ اقتنع بتفوق أورو بة وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل الى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعيناً بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد ان هذا العمل سهل القيام به قياما يتلوه تجدد تونس فى عهد قريب . ولم يكن خير الدين بغيضاً للغرب ، غير انه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذى سيحيق بالعالم الاسلامى ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا اتوانت الممالك الاسلامية فى الاصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغى شديد الابتغا ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد ، أن يسوق أهل بلاده و بنى قومه فى طريق التجدد والعلى والارتقاء ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمى كيانها وتقوم بالذياد عن حياض حريتها واستقلالها .

واقتنع الباى كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض اليه تنظيم شؤون البلاد وأطلق يده لاتعلوها يد فى القيام بضروب الاصلاح فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع فى هذا السبيل مذللا جميع مالقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين، غير أن منيته عاجلته باكراً فانتقل الى جوار ر به تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسة فبسطت سيطرتها على تونس . وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها انه ألف كتابا قيما موسوما بـ «أقرب المسالك فى معرفة أحوال الامم والممالك»(١) استنهض فيه همم أبناء بلاده

(١) يوجد شيء من النقص فى تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسى الذى كان من أوائل المصلحين الاسلاميين فى القرن الماضى . وكتابه أقوم المسالك هو من خيرة ماألف لكسر قيود الجمود الضار القاتل وحطم سلاسل التقليد الاعمى المنهى عنه فى الشرع وايقاظ المسلمين الى انهم ان لم يبادروا الى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل فجاءت دعوة خير الدين متأخرة اذ كان تكالب أوربا شديداً وضربها وحياً وسبات الاسلام لايزال عميقاً فتم جميع ماتكهن به خير الدين . ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين الى الاستانة وولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى منتدبا اياه لاصلاح المملكة الا انه لم يعمل برأيه فانتهى الأمر باقالته وبقى فى الاستانة الى أن توفى وذلك فى نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك وهو من الأدباء الافاضل وصالح باشا الدماد الذى شنقه الاتحاديون بتهمة الكون بمؤامرة قتل المرحوم محمود شوكت باشا وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الاسرة المالكة فلم تثمر شفاعته ولخير الدين باشا أيضاً ولد سمه محمد بك وهو وأخوه طاهر الآن بتونس . (ش)

واستفزهم الى التجدد والترقي وحذرهم من سوء عقبى التواني . فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الأحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة وافريقية الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر اذ كان باعثاً قويا على استيقاظ العصبية الجنسية . ففيه استصرخ خير الدين بني قومه لتحطيم الاغلال القديمة ، و بسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي افتخاراً بالغاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلى طريفاً ، ودعاهم للوقوف على مافي العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوربة وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم واكتناه أسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا انما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في افاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الأجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان في بحبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقي والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات ، ومازال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل — روح الحرية والعمل والارتقاء .

اننا قد آثرنا ايراد ذكر خير الدين باشا التونسي على ذكر غيره من أحرار الترك وسائر المسلمين مثالا لكلامنا لأن في هذا المثال تتجلى الصفة العامة التي كان عليها سائر أحرار المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر للأخذ عن الغرب ، وقد كانوا حتى عهدئذ بعداء من البغض له . غير انه على توالي الأيام انقلب كثير من الأحرار اعداء أشد للغرب لأسباب عديدة أهمها توالي الاعتداء الاوربي السياسي ، فباتوا بسبب ذلك يكرهون ويمتقون روح الحضارة الغربية بأسرها .

وقد اشتدت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالي . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة (١) في هذا الصدد : « ان هذه الدواهي التي دهتنا والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة . قد جددت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتوائق الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرهاً وعداء للبغاة المعتدين علينا »

---

(١) حزيران سنة ١٩١٤

وللدلالة على مبلغ الكشاحة والعداوة اللتين اتقدت نارهما فى قلوب المسلمين نورد كلمة قالها أحد كبار كتاب الترك بعيد ان وضعت الحرب البلقانية أوزارها : « أجل ! اننا قد بؤنا بالكسرة والحيف ، بعد ان هب العالم بأسره يجالدنا ويقاتلنا ، والسبب فى ذلك انما هو لاننا قد صرنا الف التأنى فى آرائنا نبتغى تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين عن الباطل فى سبيل الحضارة والانسانية . ان الجيش البلغارى قد علمنا درسا لا ننساه ، وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب أن يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحاً ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم ، وعلى ذلك فلنبح هراقة الدماء والبغى ، ثم نصرخ من بعد ذلك : الوحشية الوحشية ! كما فعل جيش الملك فرديناند . لسرعان مايلتفت العالم المتمدن الينا [1] ويرعى من كرامتنا ويعلى من مقامنا ويحبنا حباً جماً [2] !! »

ولما نشبت الحرب العامة هلل كثير من المسلمين وكبروا فرحاً وابتهاجاً بأن الدول الغربية قد أدركت اليوم الذى فيه انبرت تفنى بعضها بعضا ، وتلقى جزاء عجبها وغطرستها ، وتجبرها وبغيها ، وقد وصفت صحيفة من كبرى الصحف التركية الدول الاوربية فقالت : « ان الدول الأوربية لا يحلو لها أن تتفقد معايبها وشرورها ومفاسدها فتصلحها . ولكنها غيور علينا حتى التناهى ، فلا قلب يطيب لها الا بمعالجة شؤوننا ولا عين تقر لها الا بالقيام على طرق اصلاحنا ، فلذا نجدها على الدوام تتدخل فى كل حال من أحوالنا وأمر من أمورنا ، بل لاتنى تأمرنا وتنهانا ، وفى كل يوم تنشب مخالبها فى حق من حقوقنا وشطر من مملكتنا وتغرس مباضعها فى لحوم أجسامنا الحية وتقتطع منها ماشاءت كيف شاءت ،

---

(١) أرسلت احدى الجمعيات الاميركية بعثة الى البلقان للفحص عما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار واليونانيون والصرب بالمسلمين سنة ١٩١٢ فثبت لديها كل ماقيل بل زيادة على ماشاع وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك كانوا ارحم جداً وأرأف وأشرف فى حربهم من الأمم البلقانية المسيحية . لكن الصحف الاوربية لم تنشر هذا التحقيق ولا اشارت اليه وكان اكثر الأوربيين ينظرون الى ماحل بمسلمى الروملى بنظر شماتة ونادر منهم من قبح تلك الفظائع أو احتج عليها . (ش)

(٢) احمد امين كتابه « ارتقاء تركية الجديدة مقيساً بارتقاء صحافتها » نيويورك ١٩١٤
The Development of modern Turkey as measuret by its press .

ونحن حيال ذلك نكظم غيظنا ونحبس على ما فى نفوسنا من روح الثوران والجيشان ونثنى بعض سواعدنا على بعض وندمدم والنار تكوى جوانحنا : عسى الله يسلط بعض هذه الدول على بعض شر التسليط ! فتتذابح وتتناجز ! وها انظروا ــ هاهى الدول الغربية النصرانية تنهش بعضها بعضاً كما ابتغى التركى » .(١)

وليس الساسة ورجال الصحف هم وحدهم المتضرّمة صدورهم عداء للغرب واسيطرته السياسية ، بل ان هذا العداء عميم فى كل أمة اسلامية على اختلاف الطبقات من الأمراء حتى السوقة . وكل طبقة على أسباب فى هذا ، أما الأمراء والحكام الوطنيون فانهم وان استبقوا على عروشهم ومناصبهم ، وأعليت مظاهر كرامتهم ومنزلتهم ، وحفظت مرتباتهم ومخصصاتهم فانهم مع ذلك كله لم ينفكوا يحنون الى سابق عهدهم وسالف حالهم ، ويندبون خسارةً خسروها هى ذهاب ماكان فى أيديهم من أزمة الرق والبعودية والاستبداد . قال أحد « راجوات » الهند آسفا منفعلاً بألم الذكرى : « أتعلم يا صاح ! انى لقد فقدت جميع ماكان فى يدى من السلطة ، فبت اذا شئت اليوم ابتياع قلم لدواتى أو نصل لرمحى وجب على ان أستأذن المندوب المقيم عندنا فى هذا الأمر » . وحقاً ما أشبه هذه الكلمة بأخرى قالها ذات يوم الخديوى توفيق باشا الى أحد وزرائه فى أوائل عهد الاحتلال ، وكان يشهد استعراض الجنود البريطانية : « أتحسبنى أنى مرتاح الى هذا المشهد ؟ انى والله ما رأيت قط خفيراً بريطانياً فى سوق من أسواق هذه المدينة الا حدثتنى نفسى بالوثوب من مركبتى خارجاً والانقضاض عليه فلا أنفك عنه حتى أخنقه بكلتا يدى خنقاً »

وأما أهل الطبقة العليا فهم على مذهب أمرائهم وملوكهم ، ولا جرم فانهم يأسفون للعهد المنقضى وقد كانوا فيه أصحاب الكرامة والمناصب والخطط فى الحكومة والدولة . وأما المتهذبون تهذيباً غربياً وهم أهل الطبقة الراقية فانما يشاركون غيرهم فى العداء للغرب ، لأنهم يعتقدون أنهم أنفسهم أرباب الحق الجدُر بتولى مناصب الحكومة ، فلذلك يمقتون شر المقت ان يروا المناصب الادارية الكبرى يشغلها الغربيون الأجانب ويتقاضون عنها

(١) مجلة « ليترارى ديجست The Literary Digest » ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٤ نقلا عن جريدة (طنين) التركية الصادرة فى القسطنطينية . والحق يقال ان هذه الحال التى تمثلت فيها جميع صور المقت والكره للغرب عند شبوب الحرب العامة لم تكن مقصورة على المسلمين فحسب ، بل شملت العالم وجميع الشعوب غير البيضاء .

فاحش المرتبات . وهناك عـدد من الأحرار العارفين الذين يعتبرون قيمة التدريب المكتسب من السيطرة الأوربية حق الاعتبار ، ويتلقونها مع فقدان الاستقلال الى أجل ما ، على أمل انه متى ما رسخت أصول الادارة والتدبير فى الحكومة ، واستقامت مجاريها ، واتسق سننها اتساقاً يكفل معه رد الفعل والفوضى ، انتهت هذه السيطرة وانقضى عهدها لخلت محلها الحكومة المنتظمة المقتدرة وسدت جميع فراغها . غـير أن هؤلاء الاحرار هم الأقلون فلا يستطيعون امتلاك الكلمة النافـذة فى المجموع ، وهم فوق جميع هـذا مكروهون ومعيرون انهم عشاق الزلفى من الأجانب ببيع الشمم والاباء ، دائرون مع الأيام كيف دارت دون استقرار على حال ، ولذلك باتوا على شقة خـلاف متسعة بينهم و بين الكافة والسواد الأعظم .

وربما يتبادر الى الأذهان عنـد أول وهلة ان الكافة من المسلمين ليرتاحون ويطمئنون الى السيطرة الغربية ، ولا سيما عنـد مايقارنون بين عهد ماض وعهد حاضر ، بيد أن الواقع على خلاف هذا ، اذ أنه مع ماأتت به السيطرة من الفوائد الاقتصادية فنجا أهل الطبقة العاملة فى الأقاليم والمدن من استبداد الأمراء والطبقة العليا ، فأصبحوا من بعد ذلك فى بحبوحة من الدعة والأمن ، والنظام والعدل ، بحيث عادوا لايخشون أحداً ينازعهم مافى أيديهم وثمرات تعبهم ، فانهم مع كل هذا ينفرون من الغربيين و ينظرون اليهم شزراً على أنه ليس من العدل أن يقال ان المسلمين أجمعين لايقدرون قدر شئ من فوائد السيطرة فالواقع انهم يفعلون ذلك ولكنهم عند مايراد اعتبار صلاتهم المعنوية بأرباب السيطرة فهم لايعدون حد احترام الحكام الغربيين الذين بين ظهرانيهم احتراماً قليلا ، وهم عن حبهم حباً بعداء كل البعد مالاح صبح وذر شارق . زد على جميع هـذا ، فان الأيام تذهب على التوالى بأهل الجيـل الذين كانوا على نعم فى العهد الماضى ، ثم يخلف من بعـدهم خلف يتناولون خيرات العصر على غير مانصب ، ثم يشكون من نقائص النظام الحالى ، ويعيرون الوطنيين الهائجين آذاناً صاغية ، ويتشاركون ويتواثقون جميعاً على طلب الاستقلال ، ويندبون عزاً غاب ومجداً فات .

وحقيقة الأمر ان الشرق على العموم لم يزل يحن الى منهج حياته القـديم ، وعلى كونه يعترف بحسنات العصر الحـديث وفوائد مستحدثاته ، فانه ليتوجد للماضى ويحى

ذكرياته مااستطاع . فالمثل المشهور عند المسلم من هذا القبيل هو : الحاكم المسلم ظالما خير من الحاكم الأجنبي « الكافر » عادلا . فعلى هذا الابد لكل حكومة استعمارية ، ولو كانت منورة مهما كانت ، من أن تصطدم اصطداماً عنيفاً بمقت المسلمين للحكم النصراني . قال أحد الحكام الروسيين فى أواسط آسية ينبه الحكام الأوروبيين عامة الى أمر : ان المسلم الورع لايطيق حكم الكافرين[1]

زد على هذا ان الكثيرين من الشرقيين قد يعترفون بفائدة تذكر من الحكم الأوروبى ، واذا اعترفوا بذلك حسبوه أشبه بالغرم يفوق الغنم أضعافاً . على ان الأشياء التى كثيراً مانفخر باعطائها للشرق ــ راحة ونظاماً وعدلا وأمناً ــ لايعتبر الشرق قيمتها حق الاعتبار ، وماينزلها المنزلة العليا من الشأن كما نخال نحن . ذلك ليس لأنه لايبالى جد المبالاة بهذه الأمور ، بل لأنه يؤثر نيل الأقل منها على يد الحكام الوطنيين من أبناء قومه الذين يشاطرونه سراءه وضراءه ، و بؤسه ونعيمه ، على الكثير منها بنيله على يد المتسلطين الأجانب . ولنعتبر شأن «العدل» وهوأساس الحكم : قال كاتب انكليزى بهذا الصدد : ان الاسيوى لا تطيب نفسه بالعدل من حيث ان العدل تطيب به النفوس ، فهو لايعبأ بهذا كثيراً متى مااستطاع أن ينال عوض العدل عطف الحاكم عليه ، عطفاً مفهوماً عنده كالعدل غير المفهوم . . . هذا هو السبب الحقيقى فى كون الأسيوى يؤثر كل الايثار حكم حاكمه الوطنى وان سيئاً على حكم الأجنبي وان بالغاً حد الكمال . فانه متى ما كان فى حكم أبناء وطنه شعر بكونه محكوماً من قبل حكام يحسنون تفهم شؤونه وأحواله عن كثب ، و يعتبرون بعين العطف الأسباب والدواعى التى حملته على ارتكاب الذنب والجناح وان أنزلوا به أليم القصاص .

ولننظر فى شأن النظام أيضاً ، ان الشرق على العموم لايعتبر مافى حياتنا هذه من السير المنظم المنسق ، بل هو ينفر من ذلك نفوراً . والسبب فى ذلك انما العهد الذى ظل طيلته فيما مضى الفا لحياة التوانى والكسل والفتور ، تلك الحياة التى وان كان فيها الظلم

(١) لم يصادف الى الآن انأمة غير مسلمة تولت أمور أمةمسلمة بالعدل والإحسان لنعلم كيف يكون شعور المسلمين بازائها ونظن انه لو وفقت أمة غير مسلمة الى ذلك لهان الأمر جداً وساد الوئام وتحابت هاتان الأمتان تحابا تاماً فان العدل يغلب كل الموانع ولكن أين هذا العدل ... (ش)

والجور فقد كان فيها العطف والشفقة . بسبب ذلك هو لم يبرح حتى اليوم يكره النظم المستحدثة كقوانين الصحة والأمن العام كرهاً غريزياً ، بل يريد أن يبقى على منهجه القديم العهد ، وان ناله من ورائه ماناله من الضرر ، ضرر يستطيع دفعه عنه بالرشوة والاستعطاف تارة والمكابرة والاستقصاء طوراً . قال أميركى مرة لأحد أهل الفيليپين فى عرض حديث جرى بينهما فى شأن الاستقلال :

ـ ماذا ترى تستطيع عمله مستقلا مالا تستطيع عمله الآن تابعاً محكوماً ؟

فأجابه :ـ لوأردت أن أبنى بيتى فى وسط هذه الجادة لاستطعت ذلك مستسهلا .

ـ وان هب جارك لمعارضتك فى مرادك واستطاع أن يحول بينك و بينه ؟

ـ لأوقعتُ به

ـ وان أوقع بك ؟

فأجاب بهز منكبيه .

فسواد الشرقيين مابرحوا ، بالرغم مما يتدفق على الشرق من الغرب منذ أول القرن الماضى من الأفكار والآراء والمناهج والاساليب والمؤثرات والعوامل المختلفة ، يرتاحون الى البقاء على القديم البالى ، وانهم يعتقدون فوق هذا أن من أكبر مبتغيات الحكم الغربى حملهم على التغرب عادات ومجتمعاً ، وعلى تبديل الموروث من منازعهم وأساليب معايشهم ، الأمر الذى يحملهم على مقاومة التيار الغربى مااستطاعوا الى المقاومة سبيلا . وكلما أتت الحكومات المستعمرة اليهم بشئ جديد وأمر مستحدث قاموا فى وجهها يفسدون ذلك عليها بالعناد والمشاقة . من ذلك على سبيل المثال أمر التلقيح الاجبارى الذى ظل أهل الجزائر يقاومونه عدة سنوات ، وقد كانت الحكومة الفرنسية تبسط لهم منافع التلقيح وفوائده اتقاء من سريان وباء الجدرى فيهم ، فكانوا يجيبونها انها انما تريد بتلك الحيلة المصطنعة تعقيمهم لاتلقيحهم ، بحيث يتناقص عددهم على التوالى ويكثر سواد المستعمرين الفرنسيين . فأخذت الحكومة تبين لهم فساد وهمهم مستدلة بارتفاع مستوى المواليد الأهلية ارتفاعا غير مسبوق المثيل ، ومستعينة بأرقام الاحصاء ، فهزوا مناكبهم مستهزئين ،

وظلوا على المقاومة مثابرين [١]

وقد وصف الكاتب الفرنسي « لويس برتران » [٢] ، العالم الخبير بشؤون الأقطار الاسلامية ، مثل هذه الحالة بقوله : ـ

« ان جميع هذه الشعوب ، ولها من شعائرها الموروثة وعاداتها وفواعل البيئة كثير من المنفرات التي تحملها على استنكار فضائلنا الاجتماعية ، فلا تطيقن احتمال شيء من أعباء أنظمتنا وادارتنا ولا من أي نوع من أنواع الحكومة المنظمة ولو كانت عادلة وشريفة مهما كانت . وظاهر السبب في ذلك ان الشعوب هذه قد أنقذت فجأة من عهود المظالم والشقاء والفوضى فما برحت باعتبار صفاتها النفسانية على مستوى ليس أرفع من مستوى سوقة بلادنا ، وما زالت تنفر من النظام وتحاول ان تلوذ بالفرار من رجال الدرك والضابطة . فانه لضرب من العبث كلما حاولنا اقناع عرب افريقية الشمالية أن الفضل في انجائهم من عمال الترك المستبدين القاهرين انما هو عائد للحماية الفرنسية اذ باتوا في ظلها من بعد ذلك لايخشون منهبة ولا مذبحة ولانار نزاع تؤرث فيما بينهم ، أعرضوا عنا وأساءوا ظنهم فينا . والأمر الذي يحارون عند فهمه أكثر من سائر الأمور هو : دفع الضرائب في سبيل أمور وشؤون لا يعرفون لها من قيمة . وما كان أعظم السخط الذي اشتعلت ناره في المدن الجزائرية عند ما أصدرت دائرة الصحة قانونها الموجب القاء الكناسات في مواقيت مضروبة . وقد لاحظت شيئاً من حال على هذه الصفة في القاهرة عند ساقة الحمير والعجلات المسوقين بقوانين الشرطة البريطانية .

«على أنه ليست أنظمتنا البلدية والادارية هي جميع مالا قبل لهذه الشعوب باحتماله ، بل ينطوي تحت ذلك جميع عاداتنا ، بل جميع النظام السائد في حياتنا المدنية . مثال هذا : يسير القطار بين يافا والقدس و يقف في مسيره عند محطة بالقرب منها قبر أحد الأولياء . والقطار لايستطيع بحكم القانون ان يطيل موقفه عند هذه المحطة اكثر من دقيقة . فاما

(١) هذا شأن كل عامة جاهلة ولا أظن الا أن عامة الافرنج لأول عهد حضارتهم قد قاوموا هذه التدابير النافعة كما قاومها الجزائريون في هذا العصر . (ش)

(٢) كتاب : «السراب الشرقي» (باريس ١٩١٠) Louis Bertrand, „Le Mirage Oriental"

وصلنا اليها دهشنا اذ رأينا جميع الركاب المسلمين قد هبطوا من القطار فافترشوا البسط فأخذوا فى السجود والركوع فأخذ مدير المحطة يناديهم بصفارته ، وتلاه مسير القطار يستصرخهم مشيراً اليهم انه سائر بدونهم ، فلم يبالوا بجميع ذلك أقل المبالاة ، فاضطر نفر من عملة القطار الى النزول مستشاطين غضباً وأرجعوا المصلين الورعين قسراً الى القطار . فدام الأمر ربع ساعة على عناء ومشقة (١) .

« هذا مثال شوهد اتفاقا . فالغريب فى أمر هذه الشعوب انها لم تفقه معنى رقابة النظام ولا ألفت فى حياتها سيراً منظما بعد» .

ان هذا الكلام انما لوصف السواد الجاهل ، ولكنه يدل على تلك الصورة العقلية النوعية التى مابرحت ترى فى سائر الطبقات من الشعوب الشرقية على تفاوت . لأن العادات التى عرفت قرونا عديدة لايستطاع تبدلها سهلا . ويجب ألا يغرب عن البال ، ان الطبقات العليا كانت مستطيعة ، فى الادوار السابقة قبل ان أخذ الشرق ينقلب ويتحول ، ان تستمتع حق الاستمتاع بالحرية الذاتية « أو الحرية الشخصية » المملوءة تخيلات ووساوس. فلذلك وان كان أهل هذه الطبقات اليوم اكثر من غيرهم استعداداً لاعتبار قيمة مايجب أخذه عن الغرب ، فهم من حيث اضافة حاضرهم الى ماضيهم ، يحسبون انهم خاسرون شيئاً كثيراً .

فالشرقيون كافة على اختلاف الطبقات ، مابرحوا اذا ماجرت على ألسنتهم ذكريات الماضى السعيد ، أسفوا لفواته وتوجدوا على انقضائه ، وقالوا نعمة فاتت وسعادة طويت . فكل من الامير والباشا والنديم يعدالحياة على نحو ماكان يستلذها فردوساً شرقيا . وفوق جميع هذا كان الامير على الدوام معرضاً ليحوق به بلاء سلطانه القاهر أو ملكه العاتى قتلاً أو ذبحاً ، وكان الباشا لايعلم متى يصدر أمر مولاه بأن تنتزع روحه من بين جنبيه ، وكان النديم يلقى شر التعذيب عند ماتهب فى رأس سيده عاصفة الهوى . ومع كل هذا فقد كانت « الحياة الشرقية » حياة غبطة وحبرة وكان كل فرد من هؤلاء متميز المرتبة عن سواه

(١) فى هذه الحكايات مبالغات واطلاقات لاصحة لها وانما يبتغون بها تبرير سياسة تسلطهم على الشرقيين . ولكن من الجهة الاخرى لها أصل كاف لأن ينفر منه ذوو الاسلام الصحيح الذى ينهى عن العبادة عند القبور لاسيما اذا كان القطار على وشك المسير . (ش)

باخلاقه وصفاته وبماله من الذكر فى ابناء بلاده ، فكان من على هذه المرتبة التى لاشبيه لها فى أوربة باستطاعته أن ينتهك حرمة القانون ، فيركب رأسه فى كل ماشتهى وابتغى أخيرا أم شراً ، ودأبه الملق والمداجنة والمداهنة الاسيوية ، والخنوع المقرون بالطاعة العمياء لعات كبير لايرى لنفسه من سعادة غير سعادة التحكم بالرقاب واستذلال النفوس . وكان حول كل متسلط قاهر لفيف من العشراء والجلساء يشاطرونه فى نعمه وترفه ، ومستلذاته ومنغمساته . وكانت سلطة السيد على المسود والحاكم على المحكوم سلطة معلقا بها حبل الموت العاجل أو الحياة المفعمة قلقاً وجزعاً . وكان اقتناء الحظايا من أشيع ضروب مشتهيات الحياة ، وكان تقبيل الذيول وحنو الاعناق ، والتذلل وبذل ماء الوجوه مما لاحد له ولا قياس .

ولرب سائل يسأل كيف كانت حال الطبقة الدنيا ، الفقيرة المسكينة ، بين أيدى هؤلاء المستبدين الجائرين ؟ كان الفقير الضعيف فى غالب أحواله على لاشئ ولكنه كان يستطيع أن ينال كل شئ ، اذ أن الحياة الماضية فى الشرق كانت ماتأتى به القرعة ويجود به البخت والطالع ؛ فكان كل فرد وان صعلوكا يستطيع ان ساقه الجد والحظ لاسترضاء سيد غطريف ، أن يصيب نعمة بعيدة الصفوة وشهرة جوابة . وهذا فى الواقع مما يتقبله الشرق تقبلا ملائما لطبائع مزاجه . ولا جرم فالحظ وسرعة تقلبه ودوران دولابه فى الشرق انما هو أمر مألوف شائع مرغوب فيه ، وله من الشأن ماليس للثبات والاقدام الموقن فيه والطمأنينه فى الغرب [1] .

وأحب السير فى الشرق تلك التى تقص فيها أحاديث السعود والنحوس التى نجمت أو غابت على حين غرة ودارت دورتها فى ليلة وضحاها ، كصعلوك استوزر أو وزير تصعلك . وما برحت الكثرة الغالبة فى الشرقيين تعتبر أن الحياة انما هى تقلبات الأيام ، والزلفى من ذوى الجاه ، وسعود الحظوظ ونحوسها ، وليس المعول فيها على الاعتماد على النفس وحسن القيام بالأمور على أمانة وكفاية . هذه هى صور الحياة التى كان يغتبط بها الشرقيون من قبل ، غير أنه بعد انتشار التغرب بدأت الحياة الشرقية تنتقل من دور البخت والحظ الى دور العمل الذى لا يصح فيه الا الصحيح . قال أحد كتاب الانكليز عانيا

(١) مع الأسف نقول ان أكثر مايصفه المؤلف هنا صحيح وهو السبب الأول فى انحطاط الشرق عن الغرب واستيلاء الغرب على الشرق . (ش)

شان مصر الحديثة : « قد يمكن أن يكون حكمنا وافيا بيد أن الشرقيين يستثقلونه ويتبرمون منه . كان الحكم القديم أشبه بثوب خلق بال من أى موضع جذبته تناثر قطعاً ، ولكن الشرقيين كانوا يحسبون نفوسهم أنهم به مختالون ، وكان متقلباً كريشة فى مهب العاصفة ولكن كانت فيه قوى سحرية تأخذ بالالباب ، مرة قال مصرى لأحد حكام الانكليز : « نعم ! ولكن فى الدور الماضى كان المتسول يقف على باب أحد العظماء فان رأته سيدة ذات شأن ومال فهويته ، جعلته فى اليوم التالى أميرا يجر مطارف النعم الكبرى والسعادة العظمى ، فالماضى — ماضى التملق والمداهنة — كانت تحل فيه المراءاة محل العدل ، وكانت الحياة كثيرة النحوس والسعود فى مصر ، بلاد يوسف وهرون الرشيد واسماعيل باشا » (١) .

واذ قد بات كثير من الشرقيين يخشون ضياع جميع ما فى أيديهم من العزيز الغالى ، فليس من الغرابة فى شئ أن نرى المحافظين وهم كثر يندبون الماضى ويبكون « عصراً ذهبيا » ودوراً كان فيه من الخير أكثر من جميع ما أتاهم الغرب به ، وان تراهم وقد ارتبطت عروتهم بعروة فريق الأحرار ، فباتوا جميعاً ناقمين على التغرب أشدّ النقمة ، فهبوا الى قتاله ومقاومته ومناهضته بسلاح الرجعية وأسباب رد التأثير . فكانت النتيجة استقواء روح العداء لكل شئ غربى ، وظهور هذه الروح احياناً مظاهر الغلو والتشدد البالغ الحد . قال « لويس برتران » الآنف الذكر : « حضرت يوماً مجلساً من مجالس أهل القاهرة فسمعت فيه خطيبا يقول فى الناس ان فرنسة هى مدينة للاسلام بثلاثة أمور ذات شأن : (١) بحضارتها وعلومها ، (٢) بنصف مواد معجمها ، (٣) بجميع ما هم عليه الفرنسيون من الفضائل الخلقية والعقلية ، اذ يحتمل أن يكون جميع المصلحين الذين جاهدوا فى سبيل الحرية منذ الأجيال الوسطى حتى عهد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ — مثل الالبيجيين والكلفينيين وسواهم — من نسل عرب الأندلس . وعلى ذلك فلم يبق سوى أن تلحق فرنسة بمراكش . وقد بات غلاة الوطنيين من أهل مصر مشغوفين بزيارة اسپانية للطواف فى حدائق قصور اشبيلية وقصر الحمراء فى غرناطة والبكاء على عز الاسلام الدفين

(١) ه . سبندر : « انكلترة ومصر وتركية » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦
H. Spender, "Contemporary Review"

ومجد العرب الفقيد في ربوع هاتيك البلاد » .

أضف الى ذلك أن شأن الهندويين (الهندوس) في هذا الأمر كشأن المسلمين . فهم أيضاً يتفجعون حزناً على « عصرهم الذهبي » الفائت ، بل يفوقون جيرانهم مغالاة واغراقاً في هذا . اذ يعتقدون الاعتقاد الراسخ كله ان هندستان انما هي منشأ جميع الأديان الصحيحة ، وموطن ضروب الفلسفة والتهذيب والحضارات والعلوم والاختراعات وغير ذلك ، ويحتمون القول بانه متى ما انقضى عصر الانكساف الحالي في الهند (هذا الانكساف الناشئ بطبيعة الأمر عن الحكم البريطاني) عادت الهند مشرقة الشموس وهاجة الضياء رافلة بحلل المجد الزاهر ، مجاهدة في سبيل تنجية العالم باسره ، وانه مامن شئ جديد تحت الشمس . أما السبب في هذا الغلو فهو أنهم على ما زعموا قد عثروا في الكتب الڤيدية المقدسة وغيرها من كتب الهنود الدينية على بينة لا تدحض ولا تنقض مآلها أن حكماء الهند الأقدمين قد سبق لهم فأنبئوا بمستحدثات هذه العصور الجديدة . ومن ذلك ما هو حديث الانشاء كالطيارات التي تلقي القنابل المفرقعة من عل ، وكعصبة الأمم الممثلة لجميع شعوب الدنيا وأممها .

على ان جميع هذا التبجح بفخر زائل وعز منقض ليس من شانه أن يجدي أهل الشرق نفعاً وأن يعود عليهم بطائل . فالشرق مثل الغرب ، له فضائل وحسنات ، وشرور وسيئات ، غير أن هذه الأخيرة قد ظلت طيلة الالف السنة الأخيرة تمتد بأفقها فوق أفق الأولى حتى أمسى الشرق متعثراً متخبطاً في مهاوى الانحطاط . أما اليوم ، وقد تغلغلت فيه المؤثرات الغربية من كل صوب أبعد متغلغل فانتشى ريح الحياة ثانية . فأخذ يستيقظ وينهض . على أن نتيجة هذا لن تكون ان الشرق سيتغرب تغربا تاماً مشتملا على التحدي الكلي والانقلاب المطلق العام . فليعلم العلم اليقين أن الشرق شرق ثم شرق ، متميز بما في أمزجة شعوبه من الطبائع والعناصر ما كر الملوان وتعاقب الجديدان . غير انه لابد لهذه الأمزجة من التطور تطوراً مؤالفاً لروح العصر والبيئة وذلك بالضرورة لما هو متسلط عليها من الطوارئ الغربية ذات الفواعل والعوامل والمؤثرات . فعلى ذلك اذا مابرح الرجعيون على حالهم من الرد والمقاومة للأفكار الغربية ، كانوا بعملهم هذا كأنهم يطيلون

عهد انحطاط الشرق و وهنه ، ويجذبون بأطراف الأمم الشرقية الى الوراء فيوقفونها عن السير والتقدم .

ليس أمر هـذه الروح الرجعية بالغريب . فان عوامل التغرب ، أعنى عوامـل التجدد التى فى عالم الفعل لاعالم القوة لتتغلغل فى بيئات فيها الداثر والبالى مرغو بين فيهما والخلق والمتلاشى مستمسكا بهما ، فالرجعية لابدمنها فىدور مثل هذا الدور ، حتى ولوكانت السيطرة الغربية خـيراً كل الخير وكان الغربيون المتسلطون ملائكة من نور . غير ان التغرب لهسيئات تصاحبه لأن ذلك منطبيعة الانقلاب . أضف الىهذا أن الفساد قد تسرب وانتشر فى تلك البواعث التى كانت تحمل حملة الألوية للحضارة الغربية على خدمة الانسانية والأخذ بنصرة المستضعف . وهذا الأمر مما قوى ساعد الرجعيين فزادوا فى ادلاء الحجة الأدبية قائلين هذه معايبكم مكشوفة تـكذبكم فيما تدعون . وفوق جميع هذا فان الانتقال من دور الى دور لابد له من أن يجتاز مخاضاً شديداً ، ولاسيما متى ما كان التطور اقتصادياً واجتماعيا . وقـد يطرأ عليه من الأسباب والقواعد الخارجيـة ماليس فى الحسبان فيزيده ذلك ألماً وشـدة . ان مجرد وجود الغربى فى الشرق متسلطاً بغاشم قوته وباهر تقـدمه وعجيب آلاته وأدواته ، لداعية دائمة تنغص على الشرق عيشه ، وتغضبه وتثير منه ماتثير ، فينقلب يريد لنفسه العزة ، وكيف ينالها وهو كيف مادار دارت معه أغـلال الذل وقيود الاستعباد . هذا هو الواقع . ولـكن لعل وجود الغربى هكذا هو من شروط الضرورة فى تجدد الشرق كما أن ذلك مما لامندوحة عنه بسبب انحطاط الشرق وقلة ماهو عليه من القوة والحول . على ان السيطرة بجملتها لم تبرح علة النقمة والهياج والاضطراب ولوكان فيها من نفع وفائدة وخير مهما كان . واليك السبب : ان الأوروبيين فى الشرق من شأنهم أن يشوبوا كل شئ ويغـيروا صورته ، ويبدلوا العادات تبديلاً متـدرجاً ، ويرقوا المعايش فيرتقى مستوى الحياة ، ويبنوا المنازل والمساكن فى النواحى المعتزلة عن سائر المدائن والحواضر ويقيموا فيها متنعمين ولهم من قوانين الاستثناء والامتيازات والاعفاء مايكسبهم الميزة العليا على أهـل البلاد . ففى قلب القاهرة مدينـة انـكليزية ، وفى الجزائر المزخرفة بالنقوش المغربية الشرقية « باريس الصغرى » ، « وبيرا » الأوروبية فى القسطنطينية تباهى القسم المعروف باسلامبول التركية . فلم لا يكون ذلك من أسباب التـبرم فالغضب فالاضطراب ؟

وأما الهند فرصعة ترصيعا بالضواحى البريطانية ، وما الحواضر الكبرى مثل كلكتة وبومباى ومدرس سوى مدائن أوربية مختطة فى بلاد هندية فيها جميع الأبنية الفخمة الغربية الطراز والاسلوب ، دون بعض الأبنية الحديثة التى أخذ يظهر فيها الأسلوب العربى الهندى . وأما الشوارع والجواد فجميعها معروف باسماء انكليزية ، أسماء نواب الملك ومن سلف من الحكام والمتسلطين والقواد الذين شهدوا فتح البلاد (١) ، والذين اشتركوا فى اخماد الثورة — أبطال تقع العين على تماثيلهم المنصوبة فى كل ساحة ومنعطف وثنية . والبيوت التجارية هى انكليزية وجميع من فيها من المدبرين من الانكليز والاوراسيويين (مزيج الأوربيين والاسيويين) يتجرون بالبضاعات الانكليزية والمركبات والسيارات الانكليزية تنساب رائحةً جائيةً فى أسواق المحل المعروف « بانكلترة القديمة ». وحيثما بحث المستقصى فى سائر دوائر الحياة وجد مساعى الانكليز وافرة وجهودهم كبيرة لاحداث أسباب الانقلاب الاجتماعى على حسب ما يستصلحون لشؤونهم ويريدون لحياتهم وأما الهنود فكلهم الا القليل يقيمون فى النواحى القديمة القذرة ، كتلك المعروفة فى مدرس « بالمدينة السوداء » . أضف الى هذا ان ليس هناك من الوسائل والأسباب ما يسهل الاختلاط الاجتماعى بين الانكليزى الغريب والهندى الوطنى ، سوى القليل الذى لا كبير شأن له كالندية الرياضية البدنية حيثما يتلاقى هذان كلاهما على مستوى واحد من المنزلة الاجتماعية . أما غير هذه الأسباب النزرة فيكاد يكون معدوما . وقليل من الغرباء من يلذ له التجوال فى الأسواق الوطنية اللهم سوى المبشرين ورجال جيش الانقاذ والسياح الذين مرادهم رؤية كل غريب . وأما سواد الغربيين المقيمين فى الهند فقد أمسوا لا يحفلون البتة برؤية تلك الأقوام الهندية السمراء .

وهذه الحال فى الحواضر والمدن تشاهد على صفتها هذه فى جميع الأقاليم وسائر المقاطعات بنطاق أضيق ولكن مع قيام الميزة واعتبار الفروق . فعلى ذلك ، الاوربى فى أى قطر من أقطار الشرق إنما هو غريب أجنبى دخيل ، حياته مختلفة عن حياة أهل البلاد وفى الامر موضع للنكاية وهو أن هذا الاوربى المختلف بأسلوب حياته وطراز معيشته ،

(١) كما سموا شوارع بيروت باسم المارشال فلان والجنرال فلان ممن غاب على البلاد العربية وابتزها استقلالها ؛ وهذا منتهى الحقارة لاهل البلاد (ش)

المنفرد بمنزله ومجتمعه ، غريب دخيل وحاكم متسلط معاً ، وظاهر أبداً مظهر السيد المطاع والآمر الناهي . ومن تدبر الأمر وجد ان ذلك ناشئ عن طبيعة الحال ولا مرد له . ومن المعلوم ان هناك كثيراً من الأورو بيين الذين يعدون من فسدة الأخلاق وأردياء الطباع والسجايا ، ولكن أمر هؤلاء لا يحمل على الرجوع عن تقرير السبب الحقيقي وهو : أن الأوروبي قد استطاع ، وان كانت الليالي حبالى يحملن من الأجنة ما يحملن ، أن ينشئ سيطرته وسلطانه فى الشرق لهبوط هذا عن مستوى الغرب وقصوره عنه قصوراً كبيراً ، وما دامت هذه حال الشرق فالأوروبي فى ربوعه لا يبرح الحاكم فيه المتسلط عليه . ولكن يجب على هذا المتسلط الغريب أن يحكم حكماً حكيماً عادلاً ويقيم وزناً سياسيا حقا لارتفاع مستوى الشرق فى التقدم والعمران والارتقاء ، وأن يدأب فى نفث القوة فيه وشد أزره حتى تكتمل قوة شعوبه وأممه ، الى حد تمسي عنده جديرةً باطلاق حبلها على غاربها والقيام على شؤون حكم نفسها بنفسها فالغربي ما دام فى الشرق فهو فيه الحاكم السياسي المسيطر والا فليس له سوى أحد الامرين اما الحكم حكما صالحا هذه صفته واما زم الحقائب والرحيل . زد على هذا يجب على الغربي ما دام فى الاقطار الشرقية أن يحكم بحسب حكمته الخالصة ومداركه الصحيحة ونيته الصالحة ، راعياً لشعوب أهل البلاد الشعور القومي المزداد ، معتبراً للعاطفة الجنسية ومنزلها المنزلة اللائقة . فكلمة اللورد كرومر التى قالها فى هذا الصدد وتجاوبت أصداؤها فى جميع آفاق الحكومات الاستعمارية لن تنسى وهى : « فى حال حكم الشعوب الشرقية يجب فى المقام الاول إنباع ما هو خير وصالح لهذه الشعوب ، ولكن ليس من الضرورة على الدوام اتباع ما تخاله هى لنفسها خيراً ومصلحةً » .

أجل ، لم يكن بدٌّ مما كان وهذه الحقيقة لا تحتاج الى زيادة ايضاح . ومع هذا فان كثيراً من متهذبة الشرقيين لايعدون السيطرة الغربية سوى دواء مر المذاق تعافه النفس وتنقبض منه شديداً ، بينما كثير سواهم لا يحسبون السيطرة سوى أداة للاذلال والهوان والاصغار ، والحكم القاهر الذى لا يطيقون النزول عليه . وليعتبر فى هذا المقام ان بعض ما هو عليه الغربي من الفضائل انما هو من جملة الأسباب التى تحمل سواد الشرقيين على استثقال وطأته والنفور منه . قال مرديث طونسند [1] : « ان مثل الغربي فى آسية مثل

(١) Meredith Townsend.

رجل شأنه أبداً أن يدعو جاره ليعمل على أثر تناول الطعام ، وليكون شديد اليقظة عند اشتداد الوسنة ، وليقوم على شؤون واجبة ميقات الطرب ونهب اللذات ـ هذا هو الغربي في آسية وهو مع ذلك الحاكم المتسلط » .

أضف الى ما تقدم من الاسباب التي من أجلها يلقى الغربي في الشرق كرها ومقتا ، سبباً آخر هو من الخطورة بمكان : ان هذا المسيطر الغريب الدخيل الحالّ بين ظهراني القوم هو المتسلط القاهر من حيث كونه غريباً عنهم جنساً ودما وعرقا . ان لهذه القضية الجنسية شأنا كبيرا لا يستهان به ، وهي على خطورتها التي لاريب فيها مستعجمة المذاهب الى حد بعيد . اذ أن غالب شعوب الشرق الادنى والاوسط التي نعنى بشأنها في هذا البحث هي على الجملة من الصنف المعروف « بالصنف الاسمر » من أصناف البشر . ولكن هذا ليس بالصحيح كل الصحة عند من يريد التعمق والاستقصاء في علم الاجناس البشرية ، لانه لا يسعنا باعتبار حقائق هذا العلم أن نعد جميع العروق التي يتألف منها النوع الاسمر عروقا سمراء من حيث الأرومة والاصل ، متمايزة بفوارقها وخواصها ، ونطلق عليها اسم «الجيل الاسمر» ، كما يسعنا أن نفعل ذلك في قضية العروق التي يتألف منها «الجيل الأبيض» أو تلك التي يتألف منها « الجيل الأصفر أو المغولي » في الشرق الاقصى ، والسبب في ذلك أن أقطار الشرقين الأدنى والاوسط لم تبرح على كرور الازمنة المضطرب الكبير الذي أخذت تختلط فيه عروق الاجيال المختلفة اختلاطا متواليا شديداً ، لان كثرة الفتوح والهجرات كانت على الدوام سببا في تدفق العناصر الجديدة الغريبة على هذه الاقطار والامصار ، فكثرت تباينات الاصول واختلطت عروق الانساب ، وتعددت طبائع الامزجة المكتسب بعضها عن بعض ، فعلى ذلك غدت شعوب الشرقين الادنى والاوسط اليوم متشابهة الالوان . فمنها ما غالب لونه اسود كالهنود الجنوبيين وعرب اليمن ، ومنها ماغالب لونه أصفر كشعوب بلاد حملايا وأواسط آسية الذين يجري في عروقهم كثير من دم الشعوب الصفراء في الشرق الاقصى ، وقد كان من شأن هذا الاختلاط المتباين انه نفى نشوء مثال جامع لتمام الحقيقة والاوصاف التي ينبغي أن تشاهد في عروق « الجيل الاسمر » الضاربة في الشرقين الادنى والاوسط ، كما يشاهد مثل ذلك في عروق الشعوب البيضاء والصفراء ، ولما كان المثال على هذه الصفة معدوما في هذه العروق ، ومثله كائنا في الجيلين الآخرين ، فلم

ينشأ بطبيعة الحال مثال من الحضارة ونموذج من التهذيب جامعين للعناصر والفوارق التى تتميز بها العروق السمراء عن سواها . على أن هناك نزعة عصبية قد قامت مقام ذلك المثال العنصرى المعدوم ، نزعة دينية رابطة لجميع الشعوب السمراء بعضها مع بعض انما هى الاسلام وجامعته المتماسكة وعروته الوثقى . ولكن الاسلام فى الهند وهى أكبر مضطرب للشعوب السمراء لا يدين به هناك أكثر من خمس السكان . ولما كانت حدود العالم الاسلامى قد ماشت فى الغالب الحدود الاثنولوجية لعالم الشعوب السمراء ، فقد أخذت من بعد ذلك أمواج بحر الاسلام تمتد الى جهات غير تلك فطما الاسلام على بعض الشعوب البيضاء الصرفة فى شرقى أوربة وكثير من الشعوب الصفراء البحتة فى الشرق الاقصى ، وأقوام لا عد لها من زنوج افريقية

بيد أن قولنا على الاصطلاح « الجيل الاسمر » أو « العالم الاسمر » لا يبرح دالا على حقائق ثابتة من حيث أصلية هذه الشعوب ومنحدرها ، حقائق يعترف بها العلم وتقر بها السياسة على ما هناك من تكاثر الامتزاج والاختلاط . اذ أنه لمن المقرر أن هناك صلة امتزاج متبادلةً فيما بين هذه الشعوب السمراء ، صلة ترد الى أصلها الأول ومنشأها الأقدم ، وهى وان كانت مستعجمة الصفات لبعد متغلغلها ومستسرة الآثار لتنكر مسالكها ، فكائنة حية متى ما تهيأت لها الأسباب بدت بارزة عن ظل الاشكال وظهرت آذنة بالجلاء . وأوضح مظاهر هذه الصلة فى جميع شعوب الشرقين الأدنى والاوسط انما هو انسياق جميع الشعوب بفعل الطبع والغريزة الى الاعتقاد فى نفسها والتبادل فيما بينها انها مؤلفة من سلسلة من الشعوب الاسيوية متصلة الحلقات متواثقة الأجزاء . ولو كان هناك ما كان من التعادى بين قبيل منها وآخر . وما برح هذا الشعور الاسيوى الذى بات من العوامل المستقرة فى عناصر الامزجة يراقبه المؤرخون ويشيرون اليه منذ أكثر من عشرين مئةً من السنين ، وهو ما انفك حتى اليوم كما كان فى الأمس صحيحاً ثابتاً ، حياً نامياً .

فهذه الاختلافات الكبرى فى عروق الأجيال البشرية انما هى الاختلافات التى هى أعرق قدما وأبعد أساسا ومنشئا ، وأبقى عهداً وتاريخا ، وأشق استئصالاً اذا أريد استئصالها وأشد مقاومة لكل طارئ عليها ، فى جميع هذا الوجود الانسانى والعمران.

الاجتماعى . وليس أمرها مقصوراً على اختلاف ألوان البشرة فحسب ، فان السحنة وطول القامة وتكوين الشعر وغير ذلك انما هى اختلافات ظاهرة مرئية وليست عند الاعتبار حق الاعتبار الا رموزاً الى الاختلافات العقلية والذهنية والنفسانية الباطنة ، الدالة على اختلاف فى الطبائع والأمزجة والمدارك والآراء ، ذلك الاختلاف الذى غدا بسببه كل جيل مكتسبا من الفوارق والخواص مايتميز به عن سواه تميزاً ترى معه شقة البون والفرق قصية بين هذا وذاك .

إذاً فالفوارق التى تفرق بين الشرق والغرب انما هى فوارق عرقية جيلية عنصرية دموية . وعلى الجملة فان الشرقين الأدنى والأوسط اللذين يتألف منهما « العالم الأسمر » هما يختلفان اختلافاً هذه صفته عن « العالم الأبيض » مامن سبيل البتة لازالته ومحوه . أما محاولة القضاء على هذا الاختلاف بوسائل الاختلاط الدموى والالتحام النسبى كما يتوهم بعضهم فهو ضرب من الجنون والمستحيل الذى لايدرك . ان الشرق والغرب ليستطيعان تقارض المعاونة والأخذ بنصرة بعضهما بعضاً وأمر ذلك متيسر بالمفاهمة وحسن الوقوف على الآراء والمقاصد والغايات . الشرق والغرب كلاهما قد خدم بنى الانسان والحضارة فيما مضى من الدهر خدمة جليلة باقية ، وكلاهما مستطيع بعد خدمة أوفى وأجل فى المستقبل . غير ان ذلك ليس بالمستطاع الا إذا روعيت الشريعة الكبرى وهى أن يظل الشرق شرقاً والغرب غرباً ، عنصراً ومزاجاً . فان الاختلاط الاثنولوجى النسبى مفسدة لنفسانية كل منهما فيتلو ذلك فساد دموى هائل لابد من أن يعقبه انحطاط فسقوط .

ان الشرق والغرب كلاهما يعلم هذا الأمر حق العلم بسائق الطبع والغريزة والدليل المؤيد لهذا هو هذا الاستهجان الذى يظهره كل منهما لما هو مشاهد بعض المشاهدة اليوم من اختلاط الجيلين الشرقى والغربى الاختلاط الدموى المعروف نسله بالنسل «الاوراسيوى» قال مرديث طونسند : « ان شقة الاختلاف بين الانسانين الأسمر والأبيض لتفوق القياس والحد ، وقد كانت طيلة جميع ما كر من العصور فارقاً عظيما وما برحت هكذا حتى اليوم . فالرجل الأبيض لايتزوج المرأة السمراء والأسمر لايتزوج البيضاء مالم يكره على ذلك اكراها لاقبل له بدفعه » .

وما تقدم من موجز الكلام على الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والجيلية بين الشرق والغرب كاف لتمثيل الفوارق المتباينة الناشئ عنها التباين فى العلاقات بين العالمين ، والتى من شأنها أن تعمل عملها حائلة دون الاقتباس من الغرب ، الاقتباس الذى ماانفك سائراً سيره . واننا سنبين فى الفصول التالية مجال هذا الاقتباس ومبلغ ماوصل اليه حتى اليوم . غير ان عوامل الاختلافات المذكورة تدل عند تدبر ماهيتها حق التدبر على امكان حصول الرجعيــة ورد الفعل شديدين بحيث يستطاع بهما الوقوف على مبلغ مايؤخذ عن الغرب و يقتبس منه بعض الوقوف .

بقيت الحقيقة الثابتة يجب أن تقال : ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق ، وان طال أمدها ماطال وتبدلت صورها وأشكالها ماتبدلت ، هى قائمة على أساس متداعى الأركان متضعضع الجوانب سريع التقوض والتزلزل . وما دام المتسلطون الغربيون فى الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولـكنهم لن يلقوا شيئاً من الود والمحبة والاخلاص ، ولاغرابه فى الأمر ماظلت منزلتهم أبداً منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المـكروه . زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحـكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقصان و يتقلصان ظلا ويخفان وطأة ، بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها فى الارتقاء . ولا يغربن عن البال ان الذى كان عند أهل جيل سالف داعية للرضى والارتياح ، قد غدا عند أهـل الجيل التالى ، سبباً للتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبـديله والانتقال الى ماهو خـير منه وأفضل . هذا هو من أسباب الانقلاب السريع فى الشرق .

على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهى ، واخـذت أوصالها تتفكك ، و بناؤها يتداعى ، وضعفها الـكامن فيها يبدو مزداداً ، وفسادها يظهر ، جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية . فقـد كان لتلك الحرب فى نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوى الشديد مالا يستطاع وصفه ولايعلم حده . وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيال أوروبة المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبنى أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحـة خضوعا مشؤوماً . غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضـدت شوكتها ودقت عنقها دقاً ، كان لذلك دوى هائل و وقع عظيم فى كل جانب من جوانب

المشارق ورقعة من رقاعها ، فادت آسية وأفريقية من اقصاهما طرباً ، وجرت فى عروقهما نشوة الظفر وحميا النصر ، وعدوا الانتصار اليابانى العجيبة العظمى والآية الكبرى (١) ، وصف مبشر اسكتلندى ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير فى نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً ، وترنحت ترنح الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر اليابانى فى حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد والهياكل . وقد قال لى أحد شيوخهم فى تلك الغضون : لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ اليابانى منذ الثورة الهندية . وأخبرنى قنصل عثمانى أقام طويلا فى آسية الغربية ان الأهالى فى داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم وجعلوا لايهتمون بأمر سوى ارتقاب الانباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها . أجل ! مادت آسية من أقصاها الى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً فاستيقظت الحياة ثانية فى الشرق تواقة لمغامرة الأهوال فى سبيل بقائها ، وهبت آسية هبة أخرى لتسطر لها فى التاريخ ذكراً جديداً ونبأ حديثاً » .

ومما لايحتاج الى برهان ان الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة فى الشرق ، الروح الممتدة أصولها الى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه انما كانت وسيلة عارضة لاعلة فى تنبه آسية وافريقية تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدّان جد الواثق بنفسه ، الساعى فى مطلب أمر لايلوى على شئ دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الافكار التى كانت تتمخض فى أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة الى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لايسع مكابراً انكارها على

---

(١) للاطلاع على ما كان للحرب الروسية اليابانية من شديد التأثير العجيب فى نفوس الشرقيين على العموم والمسلمين على الخصوص اقرأ :—

«اليابان والاسلام» تشرين الثانى ١٩٠٦ F . Farjanel , " Le Japon et L' Islam " (Revue du Monde Musulman)

« اليابان والعالم الاسلامي » نيسان ١٩٠٥ A . Vambéry , " Japan and the Mohammedan World " (Nineteenth Century and After)

اختمار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة فى الشرق ـ هى حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف الى ماتقدم ان هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً فى قضية الشرق وتطورها ازاء سلسلة حملات الاعتداء الاوروبى التى استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافا شديداً . ومن الغريب العجيب انه بعيد ان ظفر الشرق الأقصى فى رد عادية الاعتداء الاوربى عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ماأخذت حملات الاعتداء الاوربى تتوالى على الشرقين الادنى والاوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق . وقد وصفنا فى ماتقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التى زأرها العالم الاسلامى متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الادبية الفريدة المثال ، عند ماأنشأت السياسة الاوروبية الحديثة تنقلب غاية فى الجشع والنهم . فلذلك جدير بنا الآن ان نعلم علما صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير فى هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة فى جميع الاقطار الشرقية . من المعلوم ان الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعمارى بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ ، انما كان فى دور عصيب . قال ارمينيوس ڤامبارى بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب فى العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثاقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة احكاما بين الامم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبة والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك فى قرارات صدور المشارقة أيما توغل . أمن العدل والحصافة فى شىء ياترى أن نرى نار العداء تزداد تأريثاً وايقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التى ماأنزل الله بها من سلطان ، وان نستعجل العالمين الشرقى والغربى للاشتباك فى نضال هائل ومعمعان رائع ، وان ننفث سماً زعافا فى برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذى أخذ يتفتح عن اكمامه فى اقطار المشرق كافة ؟ »

ومما لامشاحة فيه ان الحرب الكونية العظمى قد أفضت بالحالة الى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، اذا التفت الشرق سنة ١٩١٤ فرأى الامم الاوربية التى كانت مابرحت حافظة لشىء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية ، قد انبرت تتناحر فى سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناجز مدفعة بعضها بعضاً نحو

الجزرة الهائلة والنيران الجهنمية . ورأى وحدة الجيل الابيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية والنقائص الادبية فزعزتها وهدمتها تهديماً ، فوقفت كل أمة من الاخرى و بينهما غور سحيق وهوة بعيدة . ولم يكن لدى الامم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذى نقش ساسة الحلفاء حروفه فى أعلام دولهم ورايات جيوشهم . ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الاسرار تنفضح ، فذاع للكافة انه فى الحين الذى كان فيه اقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون الى انحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التى فى سبيلها آثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون ، غاية تحرير الشعوب المستعبدة واطلاق الامر للأمم المستضعفة فى اختيار حكمها وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الاقطاب والساسة فى الوقت عينه يتفاوضون و يعقدون و يبرمون فيما بينهم سلسلةً من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الادنى ، مدفوعين الى ذلك بروح الجشع الكابى ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها من مثيل فى تاريخ الانسان (١) . ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب ، أتى بطائفة تلك المعاهدات ، لابالخطب الحرة التى أذاعها الاقطاب والساسة ، وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤادها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الادنى والاوسط اخضاعاً تاماً ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ماأفظعها .

فاشتعل الشرق حنقا وغلت مراجل غضبه غلياناً هائلاً ، وطفق يهتاج اهتياجا جاوز فيه فى وقت قليل حدود الشكوى الاسمية الكلامية التى كانت من شأنه قبل الحرب ، الى المقاومة العملية الفعلية ، وشق عصا الطاعة على المستعمرين ، وعمد الى الوقوف فى وجههم موقفاً ما سمع بمثله من قبل . وما هى الا فترة حتى انقلب ثوران الشرق قتالا وجدالا جلاداً قد أكرها الدول الأوربية على التقليل من غلوائها ومطامعها الاشعبية ، ومما لا ريب فيه أنها ستكره من جراء هذا القتال أيضا للاقلاع عن سائر مطامعها عما قريب . واننا سنفصل الكلام على هذا الثوران المتأجج النار اليوم فى الشرق فى ما يتلو من

(١) من جملة هذه المعاهدات اتفاق فرنسا وانكلترة سرا على اقتسام سورية وفلسطين بينما انكلترة تعاهد صاحب الحجاز على استقلالهما من جملة البلاد العربية (ش)

الفصول ، مجتزئين بصفوة القول فى هذا المقام أن الحرب الكونية العظمى قد مزقت السيطرة الأوروبية فى ربوع المشرق شر ممزق ، وكشفت عن عيون الشرقيين فرأوا تضعضع الغرب ووهن عظمه . حقاً قد اقتبس الشرق من الحرب العامة طائفة من بليغ الدروس والعظات . نذكر على سبيل المثال أمراً واحداً وهو أن قد جندت الملايين من المشارقة والزنوج من كل صقع من أصقاع آسية وأفريقية ، وسيقت مقاتلة وعملة الى ميادين الحرب التى أشعل نارها أبناء الجيل الأبيض . ومع أن غالب هذه الكتائب قد استخدم للقيام بأعمال فى المستعمرات ، فقد أتى بأكثر من مليون منها الى ساحات الحرب فى أوروبة ، حيثما اشتركوا فى تقتيل أبناء الجيل الأبيض ، وهتكوا حرمات النساء البيضاء ، وذاقوا لذة الشرف الوطنى الذى يتنعم به أبناء أوروبة ووقفوا على مواطن الوهن والضعف فيهم ثم قفلوا الى أوطانهم يخبرون أبناء قومهم عما شاهدوا وخبروا ، ويتلون عليهم النبأ العظيم من أوله الى آخره [١] وقد عرفت آسية وافريقية اليوم ما كانتا لا تعرفانه من قبل ، ومن الثابت الذى لا يرتاب فيه انهما ستحسنان كل الاحسان الانتفاع من هذه المعرفة الثمينة . والأمر الأعظم شأنا وخطورة فى جميع القضية أن الشرق قد بات يوقن شديد الايقان أن سلم مؤتمر ڤرسايل ، تلك السلم الموهومة التى من مزاعمها أنها بسطت الطمأنينة والراحة فوق أوروبة ، ليست بسلم البتة ، ولكنها الجشع وحب الذات والأنانيه والطمع يتبرأ منها العدل وتنكرها السياسة الرشيدة ، جميع ذلك مما أبقى الجروح القديمة على فسادها فلم ينلها برء ولا شفاء ، وفوق ذلك كله جرح الشرق جروحا جديدة راحت أمم الشرق وشعوبه من بعدها نزفى ترى بعينيها دماءها سيالة . فأوروبة اليوم وهى على حالها هذه

(١) من أراد التوسع فى الاطلاع على ما كان للحرب العامة من التأثير فى شعوب آسية وافريقية فليطالع : —

« انحطاط اوروبة » (باريس ١٩٢٠) A - Demangere, "Le Déclin de L' Europe"

« يقظة آسية » (نيويورك ١٩١٩) H . M . Hyndman . "The awa Kening of Asia"

« الثورة الصامتة فى الهند » (نيويورك ١٩١٩) A.B. Aishes . "India' s Silent Revolution"

كتاب المؤلف : " Rising Tide of colour against white world souprenaecy ,,

مضطجعة على فراشها مسلو بة القوة ، متململة من شدة الآلام والبرحاء ، وآسية وأفريقية واقفتان حيالها موقفا كثرت فيه العوامل والأسباب التى تحملهما على تمزيق ما هو حائق بهما من الأطماع الاورو بية ، واقصاء البلاء النازل المنتشر والداهية الحالة الشاملة .

هذه هى الحالة اليوم : الشرق يهتاج و يتنازعه عاملا القديم والجديد مواجها الغرب المتقطع المتقسم المتعثر فى اذيال خزيه وعاره . ور بما ما اجتازت علاقات العالمين الشر قى والغر بى فى يوم سالف مأزقا حرجا كانت فيه معرضة مستهدفة لخطر عميم مثـل هذا المأزق المجتاز اليوم وهو منـذر بالنوازل اذا قدر لها النزول لا سمح الله كانت البلاء العام طباق الدنيا . والأمر الذى يجب ألا يغرب عن البال بعـد جميع ما تقدم أن هذا الشرق الجديد العجيب القائم فى وجهنا اليوم انما غالب السبب فى قيامه هذا هو السيطرة الغر بية المنتشرة فيه انتشاراً لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة خلت . ولبيان العوامل الـكبرى فى انتشار هذه السيطرة ونتائجها ننتقل للـكلام على ذلك فى الفصل التالى

الفصل الرابع
في
التطور السياسى

سنن الشرق وتقاليده السياسية الفاسدة انما هى الآفة التى كانت وما برحت ناخرة فى عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الاولى والحقب القدمى أغلب صفة ، وأبرز صورة فى آفاق الحكومات المشرقيـة ـ أعنى به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقا للرعية ، متصرفا فى شؤون الناس ومتاعهم وحطامهم وجميع ماملكت أيديهم ، وممتهنا لشرف نفوسهم وكرامتهم ، وجاسوسا على حياتهم حركاتها وسكناتها فى مغداهم ومراحهم ، كما شاء و بغى . ولم يكن هناك غير الدين زاجرا للاستبداد ومنهنها عن التمادى فى بعض المواضع . و بعض النقدة من أهل العلم يضيفون العادة الى الدين و يعتبرونها عاملا مشتركا معه فى كف المستبدين وردعهم ، غير ان ذلك ولو لم يخصص بالذكر فانه مما ينطوى تحت الدين ، لأن العادة فى الشرق من شأنها دائمـا أن تتخذ لها من الدين كنفا ومتقى ، ومن المعلوم أن المقصود برجال الدين هم جميع الوزعة والخدمة الدينيين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم بحيث يتألف من مجموعهم طبقـة من الناس لها امتيازات ، وحقوق مستثناة ، ولكن الاستبداد الشرقى ، مع كل ما كان للدين من قوة حائلة دون طغيانه ، لم يقف عند حد وما عرف له قياس ، اذ كان فى استطاعة العاتى المستبد مادام خاضعا لمعتقد الدين ومحترما لرجاله ، ان يفعـل ما شاء متى ما شاء من الافاعيل على غير حساب . هـذا ، واننا نرى فرعون فى فجر التاريخ يرهق المصريين أشد الارهاق كما تطيب نفسه وتقر عينـه برؤية قبور الاهرام الضخمة العظيمة . وما برحت الحياة الشرقية فى جميع أدوار التاريخ حياة الذل والاستعباد والرق السياسى .

على أن الاختبار البشرى قد أفاد الافادة التامة ، الجامعـة المانعة ، ان الاستبداد

لشر مطيــة تمتطيها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوح فى البغى والجور والعتو . ولـكن بعضهم يقول هناك « المستبد العادل » النازل من الرعية منزلة الأب من الأسرة ، يحيط به المشيرون الحكماء والأعوان الحصفاء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بكلمة تجرى على لسانه أو يجرى بها قامه انما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لهما من الحقيقة اذ قليل ثم قليل هو « المستبد العادل » الذى صدق خبره خبره ، وأقل منـه من يخلفه خلافة نعمت الخلافة . فالمستبد العادل له فى الغالب ولد فاسد الخلف والتربية لا يروقه شئ فى جميع ملك أبيه سوى الفخمية والعجب والزهو ، وحفيد أسوأ خلقاً وأشد فسادا ركبت فيـه طباع الذأم والمنكر ، فيأخذ كل منهما بدوره فى ارهاق الرعية وسومها ضروب الذل والهوان حتى يوردها بالتالى موارد الدهورة والتهلكة . وكثيرا ما شوهدت الثلاثيات المشؤومة ـ داود فسليمان فرحبعام ـ تتكرر تاليا بعضها بعضا فى جميع العصور التاريخية

زد على ذلك فان المستبد العادل ، ولو كان على حسن عمل واستقامة مسلك فلا يكون خالصاً من طائفة من العيوب والشوائب . والبليـة فى جميع المستبـدين ، الصالحين والطالحين ، ان أعز مراد يملكه كل منهم هو أن يحكم فرداً مطلقاً سيداً مطاعاً ، منه العفو اذا شاء ، وله الأمر والنهى فى جميع الأمور . وربما افتتن بغانية أو حبيب معشوق فى ليلة تهب فى رأسه سورة الهوى ، أو أصابه سوء هضم أفسدعليه تصوره ، أو عرته سـويداء ذهبت بصفوه وحبرته فراح راكبا رأسه فى متطوح فاسد ، تاركا عرشه ومملكته عرضـة للسقوط والانهيار

الحق أننا معشر الغربيين ، لم نذق شيئا من مر الاستبداد كالاستبداد الشرقى ، فى عصر من عصورنا الخالية ، حتى ولا ذاق أجدادنا القدماء شيئا من مثل ذلك فى عهد الأمبراطورية الرومانية . فلذلك يصعب علينا أن نتصور الاستبداد بجميع طبائعه تصوراً تاما ونتمثل أهواله تمثلا كاملا . اننا فى جارى العادة متى ما ذكرنا سير المستبدين العادلين ، جئنا على ذكر الحكام المطلقين المنورين الذين حلت أوربة عروشـهم فى القرن الثامن عشر مثـل فردريك الكبير وأنداده . غير أن هؤلاء لم يكن طراز استبدادهم على نحو ذاك الذى كان عليـه مستبدة الشرق ، فان فردريك مثلا كان ملكا مطلقا ولكنه لم يستبعد رعيته ويسترق شعبه ، اذ الشمم والاباء كانا ملء نفس كل ضابط وأمير ونائب من

الخاصة حتى وكل فرد من أفراد العامة ؛ فلم تكن طاعتهم العمياء لفردريك انما لسبب كونه ملكا عليهم فحسب ، بل لأنه كان أبعد أهل بروسية همة وأشدهم عزما وأنفذهم حزما وأبلغهم مناداة فى سبيل الذياد عن سياج الوطن والدولة . فلو اعوج يوما من الأيام والتوى عن القصد بحيث انقلب ملكا مستبدا كسولا ، عاتيا باغيا ، لهب البروسيون الأباة الطائعون ، ومشوا اليه يقوّمون اعوجاجه بسيوفهم و يقيدون سلطته وسلطانه .

انما الحالة فى الشرق على خلاف هذا . ففيه قد كتبت شريعة موجزة فى جبهة كل شرقى ، شريعة ليس لها مثيل « فى الوصايا الأوربية العشر » وهى : « عليك أيها الشرقى أن تجلّ الرجل الذى يقيمه الله عليك ملكا ، وتقدسه وتعبده . فاذا أحبك أحبه ، واذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك أيضا ، واياك أن تحول عن هذا له لأنه سيدك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الاداة بأداته[1]

ان الملك الشرقى من شأنه أن ينقبع فى زاوية من زوايا قصره على كثير من حرمه ، تاركا شؤون الدولة واعباءها على كاهل وزير من وزرائه مطلق اليد والمشيئة ، فاعل ماشاء فى مصالح الرعية وحياة أفرادها . وقد يحدث فى ذات ليلة أن يبتغى الملك أو السلطان استرضاء راقصة من الراقصات الواقفات بين يديه فى مقصورة من مقاصير حرمه ، فيبعث الى وزيره زنجيا خصيا شاكى السلاح ، واذ يصل هذا الى الوزير و يبلغه أمر مولاه لسرعان ما يهبّ الوزير فيخلع عنه رداء الوزراء و يمد بعنقه ليرشف كأس حمامه خنقاً أو غير ذلك من ضروب الموت . هذا هو الاستبداد الذى عرفه الشرق .

بل هذه هى سنن الشرق وتقاليده السياسية التى حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله ، فأقصته عن كل سبيل من سبل الارتقاء والعمران ، فتاريخه فى الواقع انما هو تاريخ السعود والنحوس ، والصعود والهبوط ، والظهور والاختفاء ، مابين غمضة عين وانتباهتها . فالرجل المقدام هو الذى كان يقارع غيره فى ساعة يشتد فيها الاضطراب والقلق ، لنيل

---

(١) الشريعة المحمدية لاتعرف شيئاً من هذه الاوصاف للملوك ولا للخلفاء . ومثال الخلفاء الراشدين كاف لبيان أحكام هذه الشريعة . وان كون السلطان هو ذاتاً مقدساً غير مسؤول ليس هو من أوضاع الاسلام فى شىء بل أخذه الترك عن الافرنج . وان الامة العربية خليصة هى من فطرتها : لا تقيم على الضيم ، ولا تعرف الذل للملوك والسلاطين ، ولا يبهر أعينها التاج والصولجان . وقد أوضح كل ذلك ستودارد فيما يلى . (ش)

منصب يستطيع به القبض على وسائل السلطة ، فان أحجم جبانا هيابا ، سبقه خصيمه الى نيل ماقصر هوعنه . ثم يأخذ هذا الفائز الظافر يقوم بشؤون الحكومة والدولة على أساليب مضطربة فاسدة ، مستحثاً من كان فى أمره من العمال والموظفين على حسن العمل منذرا إياهم بشديد العقاب عند وقوع شئ من التفريط أو الخيانة ، عقاب كسرى فارس الذى أتى بأحد مرازبته الظالمة حياً فسلخ جلده ثم جعل الجلد شيئاً من فراش الأريكة التى دعا مرزبانا آخر عادلا للجلوس عليها وأمره بأن يقضى فى مصالح الرعية .

وما دام الملك حياً فالأمور سائرة هذا المسير . ولكن بعدموته يخلفه ابن يتظاهر فى أول أمره بأنه مقتف لآثار أبيه اقتداراً وعدلا ، وهمة وحسن سيرة ، ثم لايلبث أن يبرح خفاؤه عن صريحه فيكون فاسد التربية والخلق . ولاغرابة فى شأنه اذقد ربى وترعرع فى مقاصير الحرم ومن حوله حاشية من اذلاء العبيد وسيدات الغوانى ، فألفت نفسه العجب والزهو ، وأطلق لهواه العنان ، فنشأ رضيع الاستبداد منغمساً فى المآثم والمفاسد ، فولدّ هذه خلاقه وطراز تربيته وتثقيفه أيستطيع خلافة والده وانتهاج منهجه فى تدبير الأمور وسياسة شؤون الدولة ؟ اذ بعيد مايطبق الموت جفنى والده ثم يستولى هو على العرش الموروث لن يلبث أن يدهم الملك فساد يفضى به الى الوهن والتفكك . والأمر طبيعى لا يمكن أن يكون بخلاف هذا ، لأن الملك الراحل لم ينشئ حكومة صحيحة منتظمة متماسكة القوى ، سائرة بذاتها بفعل نظامها ، نامية نمو الجسم السليم الأعضاء ، كما هو شأن الحكومات فى الغرب . فضباط الجيش مثلا كانوا يؤدون خدمتهم عهد الملك السابق يحملهم على ذلك داعى الخيفة والرهبة ، أو الود والاخلاص ، لسبب ماقد يكون بين سيد ومسوده ، ولكن ليس قياماً بواجب يحمل عليه الشعور القومى والروح الوطنية . ومتى جاء دور الحفيد بلغت الأمور منتهى الفساد ، فذهبت بقية السلطة من بين يديه الواهيتين ، وخرج عليه كثير من الأمراء المستبدين فى أنحاء مختلفة وتقدم أعظمهم وأشدهم بأساً للجلوس على كرسى الملك المتضعضع المتزلزل ، وتقلد أزمة الأحكام ، مدعياً أن ذلك هو خير للملكة وأفضل من أن تتلاشى كل التلاشى فتغدو عرضة لجائحة غارة أجنبية ، وهكذا دواليك ، حلقات تكر الواحدة تلو الأخرى ، وكل مؤلفة من داود فسليمان فرحبعام .

هذا هو تاريخ الشرق السياسى على الايجاز . غير أن الشؤون والأحوال أخذت

تتبدل وتستقيم ، والاعوجاج يقل و يقوّم . ذلك نتيجة فعل العوامل السياسية الناحية منحى الحرية ، وثمرة الصدمات الضاربة فى مقاتل الاستبداد . وهذه الصدمات المقاومة بعضها بعضاً ناشئة عن عوامل داخلية و بعضها ناشئ عن عوامل غريبة طارئة من خارج .

على أن الواقع أحرى بأن يعلم ، فالشرق لم يمن جميعه فى يوم من ماضيه مستقراً للاستبداد ومنبتاً للظلم والجور . بل ان بعض شعوبه وأممه فى بعض الأصقاع (وغالبهم بدو ومن أهل الجبال) قدعافت نفوسهم الضيم وأبت الخنوع لحكم الاستبداد . وقد كان العرب دائما هم الأمة الشرقية الحرة التى احتفظت حريتها وصانتها بدماء مهجها على توالى العصور .

وقد سبق لنا فى مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة فى عهدها الأول على أساس الشورو ية والشريعة الدينية وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورو ية ملكاً عضوضاً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب ــ عشاق الحرية والاستقلال ــ يعودون أدراجهم الى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقى معظم ذكريات خلافة الراشدين ، والمعتزلة الحرة ، حية فى زوايا الأدمغة وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعيا غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عربى ذياد قُرّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء . وهناك فى شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والاسلام اسلاماً . فمن تُرى يستطيع أن يتعامى عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « انما المؤمنون إخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مدّون فى صحف التاريخ الاسلامى فى غرر أنباء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة ». أو لم يظل المسلمون الأحرار النازعون نزعة الاستقلال، حتى فى أشد الليالى حلكا ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبى بكر التى خطبها فى العرب بعيد مبايعته بالخلافة :

« قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم فاذا استَقَمْتُ فأَعِينُونى واذا زُغْتُ فقوّمُونى »

فالاسلام فى عهده الأول انما كان شمس الحرية مشرقة وهّاجة ، ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى

بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفائه . فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « انما هى ديموقراطية شورويه جوهراً واصلا ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجمل ڤامبارى هذه الحقيقة فى شأن الاسلام بقوله . « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضى بآسية الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب فى ذلك انما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسبيل السوى ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا فى انتحال التأويل القرآنية انتحالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشددوا فى الدين تشدداً باطلا برئ منه الاسلام (١) وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فحالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (٢) » .

---

(١) من أكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التى يقال لها العلماء ، فانهم الا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا وجعلوا ديدنهم التزلف الى الأمراء بتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المستبدين عملا منكراً الا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتحريف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف والموضوعات الى غير ذلك من الاستشهادات التى يتوخون بها الزلفى والجائزة . وما زالوا يتمادون فى غيهم هذا ــ والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا ــ حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها الى الحكومات غير المسلمة فى المسائل التى فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية فى يد دولة أجنبية أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة الأجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لاغراضها المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى اهوائها . وحسبك ان عدداً عديداً من علماء سورية افتوا أثناء الحرب العامة ببغى الشريف حسين أمير مكة تقرباً الى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء فى الحرب واحتلوا سورية بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسيناً الذى كان عندها من قبل باغياً خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيس الشام نقضت ايديها ثانية من صاحب الحجاز وجعلت تفتى بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسينا أجنبياً . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون وكلما عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : انما هذه تقية نبتغى بها النجاة من الظلام . والصحيح ان عذرهم غير مقبول وان عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وان دعواهم مداراة الظلام هى باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتياً وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقداً دراهم معدودة ، ولا نعلم الى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، و ينظرون الى العزائم لا الى العمائم . (ش)

(٢) سنة ١٩٠٦

وقد أبنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه فى القرن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الاصلاح الدينى فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة . ونقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسى الحر سائراً مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار فاذا بتيار سياسى جديد قد هب عليه من جو أوروبة فاعترض سبيله وقام فى وجهه . وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين ، وقد أيقنوا بحال تضعضع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدم أوروبة وشدة حولها و بأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح متذرعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذ راموا صدق المسعى وابتغوا التجدد الحقيقى فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامى انما غالبها مستقرٌّ فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم . وشارك الأمراء الحكام ، أهلَ الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية واكتناه أساليبها والوقوف على جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها وتنجيتها من شر المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء . وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركية ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه فى أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه الى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبدين العادلين الأوروبيين والمستبدين الشرقيين . وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين ، طالبى التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك تنظيماً صحيحاً خاليا من المفسدة والعيب ، كيما يتسنى للحكومة هذه أن تسير — بنفسها وفعل نظامها — سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب الاخشية العقاب .

وثابر محمود الثانى ومحمد على ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج

هذه السياسة الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هـذا الاصلاح الذى بدىء بعاليه وظاهره قبل أساسه و باطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ولا جرم ، فانه قد كان فى استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبى ، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والاحكام المتزيين بازياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثـل تلك التى تأتى بها الحكومات الغربيـة ، لان معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون فى الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالاعمال على الطريقة الغربية الصحية ، لانه ليس فيهم الـكثير الكافى من روح الاقدام والمضى فى العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم غيراً على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ولا ألفوها بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الاعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لامر مولاهم وسلطانهم . هكذا كانت الحالة فى بدء الامر : بيد أنه على توالى الايام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجـدارة الحديثتين . وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلاً فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية من خارج ، لانها لم تنل كثيرا من أسرار المعاصرة والجدة التى هى شرط لازم فى حال كون كل حكومة منظمة راقية .

أضف الى هذا أنه فى غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرازاً عمن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة ، وغايتهم انما هى اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال . وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، و بعضها الآخر تلقوه بأسباب التعليم والتهذيب فى المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربى . وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية فى تركيا نشوءاً محسوساً . وفى سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور .

بيد انه قد عقب هذا الفلاح الذى نيل على يد الأحزاب الاسلامية السياسية الحرة ، دور ظهر فيه رد الفعل ، اذ بات الحكام المسلمون الجالسون على أرائك عروشهم يخشون كل الخشية عقبى انتشار المنازع الحرة فى رعاياهم ، فوطنوا نفوسهم على استبقاء سلطتهم المطلقة فى أيديهم ، لا ينزلون عنها ، ولا يرغبون فيما دونها . فلهذا لما ارتقى السلطان عبد الحميد العرش لم يلبث أن فض البرلمان العثمانى وقوض بناءه تقويضاً ، ثم طفق يضطهد الأحرار و يتناولهم بكل ضرب من ضروب التعذيب ، حتى تسنى له استرداد معظم السلطة المطلقة فعض عليها بالنواجذ . وظهرت فى بلاد العجم حركة سياسية حرة فأضمر الشاه لها المناهضة فخنقها وليدة فى مهدها ناهجاً بذلك منهج عبد الحميد . وفى مصر كان حكم الخديوى اسماعيل اسرافا وتبذيراً ، فجاء خاتمة للحياة السياسية الوطنية فى مصر ، فآل الأمر الى التدخل الأوروبى فى شؤون البلاد ، ثم بسط الاحتلال الانكليزى ، وظلت حتى ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، أمارات المنازع السياسية الحرة تظهر ظهوراً بيناً فى هذه الأقطار الاسلامية التى كانت بعد محتفظة استقلالها ، وكانت الحركات الاصلاحية سائرة سيراً حسناً وراء ستار من الخفاء . وأخذ الشبان المسلمون المتمشية فى عروقهم روح الوطنية يفرون الى ديار الغربة سعياً وراء غرضين : طلب العلم ، وانشاء الدعوات السياسية الحرة المنظمة . فلجأوا الى أكناف عديدة مثل سويسرة ، واتخذوا فيها ملاذاً لهم . ثم شرعوا ، وفيهم شبان « تركيا الفتاة » و « ايران الفتاة » يصدرون مئات النشرات والكتب الأدبية الثورية ، ويبعثون بها خفية الى أبناء أوطانهم المسومين الذل والهوان ، فيتلوها هؤلاء باشتياق ملتهب .

وما انفكت أصوات طلب الحرية تتعالى على توالى الأيام ، وتشتد قوة و بأساً ، وتجوب البلاد وتخترق الآفاق ، وتعم طبقات الناس . فقد قال أحد شعراء الترك ، شادياً باسم الحرية فى ذلك العهد : « ان مانجل ونعظم من جميع ماناراه من نتاج التهذيب الأوروبى والحضارة وثمرة العلوم والفنون انما هو الحرية . كل شئ يستمد نوره من كوكب الحرية المنير . الأمة المسلوبة الحرية فلا حول لها ولا أمل فى ارتقاء معارج العمران . السعادة بلا الحرية مستحيل لايدرك والوجود الانسانى والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية انما هى وهم باطل وخيال خادع . عش أبداً ياكوكب الحرية ماالتهبت القلوب شوقاً اليك وتزاحمت أنفس عشاقك على فدائك » .

ومنذ ختام القرن التاسع عشر أخذ كبار أهل الرأى الصحيح والنظر السديد من الاوروبيين يراقبون الحركات السياسية الحرة تضطرب كالبحر جاشت غوار به من جانب الى جانب ، تحت وجه الاضطهاد وسطح الاستبداد . ولما زار المستشرق الكبير ارمينيوس ڤامبارى القسطنطينية ثانية سنة ١٨٩٦ دهش دهشاً عظيماً لما استبانه من التطور السياسى الحر الذى حصل خلال الحقبة المنقضية بين زيارته الأولى منذ أربعين سنة من قبل ، وهذه . ومع ان القسطنطينية كانت مباءة الاستبداد الحيدى ، فقد كتب ڤامبارى فى شأنها مايأتى : « قد انقضى المنزع القديم الذى كانت عليه تركية من قبل للحكم المطلق . كانت تبلغ مسامعنا ونحن فى أوروبة أشياء عديدة عن حزب تركية الفتاة ، وعن حركة دستورية ونضال سياسى ونفى وابعاد ، ونشرات وكتب ثورية . ولكن الأمر الذى يفوق خبره خَبره هو هذا الاضطراب الهائل والتطور العظيم المنتشر اليوم فى جميع الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مما يحملنا على الايقان ان التركى قد شرع يسير سير التقدم والارتقاء ، بعد أن انقضى الدور الذى كان فيه كل فرد من أفراد الرعية طينه بين يدى الخزاف العاتى المستبد وحزب « تركية الفتاة » وما أدراكه ؟ انما هو الشعب بأسره والملة قاطبة [١] » .

وجدير بنا فى هذا الصدد أن نلاحظ بعين الاعتبار شأن الاضطراب الذى كان فى هذه الآونة يشتد اشتداداً سريعاً فى الأقطار الشرقية الخاضعة للسيطرة السياسية الأوروبية . عند ختام القرن التاسع عشر كانت الممالك الاسلامية الكبرى ــ المستمتعة بشئ من الاستقلال بمنجاة من السيطرة الغربية ــ أربعاً : تركية ، والعجم ، ومراكش ، وأفغانستان أما هاتان الأخيرتان فقد كانتا على جانب من الانحطاط والتدلى بحيث كادتا لاتعدان فى مصاف البلاد المتمدنة . وأما الأوليان فكانتا أرقى حالا ، ولذلك غدتا المضطرب الوحيد الذى يتوقع فيه نشوء الاضطراب وحركات الانقلاب السياسية الحرة المقاومة للاستبداد والجور . وأما البلدان الاسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الأوروبى مثل الهند ، ومصر ، والجزائر ، فقد كانت بلغت من التهذيب والثقافة والارتقاء مستوى عالياً فيه من الكفاية مايبعث على القيام بالحركات السياسية الحرة المنتظمة ، والسعى وراء تحقيق المطامح الوطنية والآمال القومية ، ولكن يرافق جميع ذلك كره الأجنبى الشديد الشائع فى جميع الطبقات على السواء .

---

(١) سنة ١٨٩٨

وقد كان من أمر الحركات التى كانت قائمةً يومئذ فى تركية والعجم مقاومةللاستبداد أنهـا هاجت المطامح الحرة وأشعلتها اشعالاً فى نفوس المسلمين . بيدانه يجب الفرق التام بين أفقين كبيرين ظهرا فى العـالم الاسـلامى ابانئذٍ ، فرقاً هو من حيث اعتبار ماهيـة الحركات الوطنية والاطوار التى اجتازتها والغايات التى اتخذتها أهدافاً لها . أما جوهر السبب ومرماه فى الاضطراب السياسىّ الناشى يومئذٍ فى تركية والعجم فقد كان حركات وطنية غايتها الاصـلاح الحرّ . وأما جوهر السبب ومرماه فى اضطراب الهند ومصر والجزائر فقد كان حركات وطنية غايتها الاستقلال . ولـكن لم يكن هناك من خطةٍ معينة مقررة تبين شـكل هـذا الاستقلال والصورة التى يراد أن يكون عليها بعـد مايتم الحصول عليه . وقد كانت هـذه الحركات الأخيرة بحقيقة الواقع أقرب الى أن تـكون قوميةً جنسيةً منها الى أن تـكون مكتسبة لصفة الاصـلاح الحر كما فى الأولى ، فلذلك سنتـكلم عليها مسهباً فى فصل العصبيه الجنسيةالتالى . فجميع مايجدر بنا أن نعامه ونعتبره فى هذا المقام هو أن القائمين بهذه الحركات هم فى الواقع أحزاب مؤتلفة متفقة على حطم النير الأجنبى ، والتحرر من رق الغرب . وكان رجال هـذه الأحزاب على مذاهب سياسية عديدة متشعبة ، يشتملون على الاحرار ، ودعاة العصبية الجنسية ، والجامعة الاسلامية ، والرجعيين ، حتى وعلى زعماء من العامة صلاب العود ، يؤثرون الرجوع الى عهد الاستبداد على البقاء فى حكم الأجنبى ومن المعلوم أن أتباع مذهب العصبية الجنسية مافتئوا ينادون بالـكلمة المألوفة « الحرية ! الحرية ! » المعنىّ بها عندهم التحرر من « ربقةالأجنبى » أو ان شئتَ فقل «الاستقلال» وفى هذا الموضع من البيان يجب ألا يغرب عن بالنا ان ليس هناك من صلة جوهرية تصل بين مذهب « الوطنية » ومذهب « الحرية » صلةً قريبة الجوار منهما . فأهل الطبقة العامة من الاسبان الذين صاحوا : الحرية الحرية ! لما هبوا يقاتلون جيوش نابليون ، عادوا فرحبوا بملـكهم الطاغية المزدرى ترحيباً ملؤه الحماسـة والغيرة المشتعلة ، واستقبلوه ، وهو يبجل الاستبداد ، بصراخ بلغ عنان السماء « لتحى السلاسل ! لتحى الأغلال ! »

واستمرّ دور ردّ الفعل الاستبدادى الذى أناخ بساحة تركية والعجم منذ أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٨ اذ انتهى سنتئذ آخر قسم من هذا الدور الذى اشتمل على ضروب الارهاق وصنوف البلايا . فانفجر فى كلا البلادين بركان الثورة ،

خلع الترك عبد الحميد المستبد ، وخلع أهل فارس محمد على شاه الطاغية الذى « جمع كثيراً من مشائن الفساد والجبن والحطة ، ولطخ عرش العجم بفاحش العار » . وحطمت الثورة فى البلادين أغلال الجور وقيود الاستعباد ، فانطلقت قوة الأحرار التى كانت تمتد وتشتد على التوالى تحت سطح الاستبداد ، فى الدور المنقضى ، وانتقلت كل من تركية والعجم الى دور جديد بزغت فيه شموس جديدة ، فأنشئ الدستور ومجلس النواب وسائر الأجهزة السياسية اللازمة لكل من الدولتين على الطراز الغربى الحديث .

أما التساؤل فيما يمكن أن يكون لهذين الانقلابين من حقيق الأمر وصحيح العمل فى تبديل الحال والانتقال بها من دور الى دور ، والقيام بتدبير شؤون الدولتين والنهج بهما على المناهج الحديثة التى يقدر لها أن تكون فى جارى الحال خالية من مفاسد الاضطراب الضار وطوارئ الحدثان . فهو ضرب من الجدال الفارغ لايفضى بصاحبه الى ادراك حقيقة يصح الاطمئنان اليها ، والسبب فى ذلك انه منذ شبوب نار الثورتين التركية والفارسية ، وقلب النظام الاستبدادى واعلان الدستور فيهما ، أخذ جوُّ السياسة العامة يعتكر ويربد بالسحب السوداء ، وتتراكم فيه منذرات السوء ، وما زال هذا كالح الجبين حتى قصفت الرعود فأخذت نيران الصواعق تتساقط من سماء الحرب الكونية العظمى مطبقة العالم بأسره فلم يكن لتركية ولا للعجم بعد انقلابهما السياسى متسع تستطيعان فيه مراس التطور السياسى مراسا حقا ، ومؤالفة الحياة الجديدة . وفوق ذلك فقد وقف لهما الدهاة الغربيون بالمرصاد يتحينون عثارهما الذى لاجرم اذا عثرتاه ، والدور دور جديد يقتضى كثرة المران عليه . فكان غرض هؤلاء الدهاة المتنكرين بأثواب الساسة أن يرقبوا زلة الدولة بعض الشئ ، حتى اذا كان ذلك انقضوا عليها بنفوس شرهة ، وأفسدوا عليها عملها مااستطاعوا .

فلما فتقت الحرب العامة كان فتوقها فى الواقع انما هو تتمة للاعتداء والجور الغربيين اللذين كان قد بدئ فيهما منذ عدة سنوات .

فلذلك اذا اعتبرنا عدم استقرار الحال ، وأقمنا الوزن لتوالى الطوارئ العدائية على غير انقطاع ، أصبح البحث بدون قيمة جوهرية له تكشف عن حقيقة المسألة الكبرى التى أمعن البحثة فيها وقلبوا وجوهها ، وهى : أجديرة شعوب الشرق الأدنى والأوسط ياترى أو ليست بجديرة بنيل الحكم الذاتى ، أعنى بأن تنشئ النظم الدستورية وتحيا الحياة

السياسية الحرة ؟ وقد اختلفت آراء البحثة فى هذا اختلافاً كبيراً . أما نحن فلم نذهب الى أن نبسط رأياً خاصاً ، بل آثرنا ايراد طائفة من الآراء والأقوال النافية والمثبتة ، دون أن نجنح الى تقرير خلاصة ما . بيد اننا قبل الشروع فى ايراد ما نورده من الآراء المختلفة علينا أن نسترعى شديد الانتباه الى اعتبار ماهناك من الفرق والاختلاف بين حال الشعوب الاسلامية والشعوب الهندوية غير الاسلامية فى الهند . فان المسلمين قاطبة ، فى كل قطر من أقطارهم ، مثالهم فى الديموقراطية والشورى السياسية مثال أهل بلاد العرب ، اذ لهم دينهم الاسلامى الدينى ، باعتباره على الأقل فيما يختص منه بأبنائه ، دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة . أما الهندويون فلا شئ من هذا فى دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة فى حمأة الاستبداد الشرقى ، وخير ماسطره التاريخ بين دفتيه لهم هو قيام بعض الدول فيهم فى الأزمنة الخالية ، وهى دول استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها حقبة قصيرة على نطاق ضيق محدود السلطان والسيطرة ، ثم مالبثت هذه الدول الهندوية أن ذهبت ريحها ، وأدال الله لغيرها منها ، فأدركها التلاشى والاضمحلال . وأما البرهمية ، أعنى دين الهندويين فالراجح انها أضر معتقد نشأ فى الارض ، بعيداً من الحرية الصحيحة التى يجب أن يكون عليها الانسان منفرداً ومجتمعاً ، وقصياً عن المساواة الاجتماعية ، فكان بلية حلت ببنى الانسان ، قاسماً المجتمع الى سلسلة لانهاية لها من الطوائف والطبقات المتقاطعة بفوارق لا تحصى ، المحرم على جميعها الاختلاط والامتزاج بعضها مع بعض فباتت كل طائفة تعد من دونها من الطوائف الأخرى غاية فى الدنس والرجس تكاد لا تفرق بينها و بين الأنعام السائمة . فالمعتقد الهندوى اذاً هو عائق كبير من شأنه أن يجعل أمر الحكومة الذاتية أصعب انشاء ومنالا فى الشعوب الهندوية منه فى الشعوب الاسلامية . فعلى القارئ الكريم أن يستوعب هذه الحقيقة ذاكراً لها فى سياق مايأتى من الكلام .

نعتبر الآن فى المقام الأول مقالات الذين يعتقدون أن شعوب الشرقين الادنى والاوسط ليست بجديرة اليوم ولا فى المستقبل القريب بنيل الاستقلال والحكم الذاتى على صحيح ما لهما من المعنى عند أهل الغرب . واللورد كرومر فى طليعة الفريق الذاهب فى الاعتقاد هذا المذهب ، لأنه يرى أن التقاليد الاستبدادية القديمة متأصلة فى الشرق ، صعب أمر استئصال شأفتها ، ولا سيما اذا ابتغى ذلك تاماً وريم حصوله فى مدة قريبة من الزمن ،

فقال : « ما برحت السياسات الشرقية منذ فجر التاريخ تعتورها الآفات القاتلة وينخر فيها سوس الفساد ، فلذلك لا يسعنا القول بامكان تلاشى الاستبداد واضمحلال طبائعه وأصوله فى مدة قليلة ، لشدة تمكن ذلك فى تربة الشرق قرونا وعصوراً . فبعيد هو اليوم الذى تصبح فيه عقائد الحرية المنظمة ، الواسعة النطاق ، حالة حلولا راسخاً فى شعوب الشرق وأممه : لأن التطور والانقلاب لا يمكن أن تجنى ثمارهما الناضجة فى عدة عقود من السنين بل فى قرون .... فالواجب علينا اذا فى المقام الأول أن نجتنب الاتيان بالأنظمة والقوانين الحرة ، الرحبة المجال ، الواسعة المدى ، لشعوب لا تستأهل جميع ذلك ، فتتمكن بسببه الفئة القليلة فى كل شعب من الاستئثار بالحكم الجائر الفاسد ، فتعود الحالة شراً من قبل ، بل يجب علينا أن ننشئ نظاماً فيه من الخير والكفاية ما تستطيع كل طبقة أن تنال منه قسطها ، نظاماً قائماً على قواعد شريعة الاداب النصرانية . فلو افترضنا أنه من الممكن انشاء مجلس نواب مصرى ، أعضاؤه منتخبون انتخاباً حراً ، لكان من الغالب أن هذا المجلس لا يتناول فيما يتناول من الاعمال اشتراع القوانين وسنّ الانظمة لمنع الاسترقاق على جميع ضروبه . ولو افترضنا أيضاً انشاء مجلس « الراجپوت » فى الهند ، فهذا المجلس لا يكون من شأنه الاهتمام بالقضاء على العادة الكريهة ، عادة اقدام الأرامل على الموت فى نار ذات لهب ، قياماً بعهد الوفاء لازواجهنّ . يؤخذ من هذا أنه يجب على الحكومة الصالحة أن تمهد الطريق وتقوّم السبيل أمام الشعوب الشرقية للوصول الى غايات وأغراض ممكن الحصول عليها على توالى الايام . فعلى الشرقيين أن يجتازوا كثيراً من التطور الصحيح المتدرج فى أدوار الحياة السياسية ، قبلما يقتربون من أفق الحكم الذاتى التام ، مدركين غاياته وفضائله ومثله العليا حق الادراك » . وقال اللورد كرومر متشائماً : « يصلح الشرق للحكم الذاتى متى صلحت خيوط العنكبوت لتتخذ نسيجا يلبس » .

وبعد الثورتين التركية والفارسية ، كتب الكاتب الانكليزى الشهير الدكتور « ديلون [1] » يبين من الآراء ما يشبه كل الشبه تلك التى بينها اللورد كرومر فى هذا الشأن ، فأعرب عن قليل أمله فى أن تينك الثورتين آتيتان بثمار طيبة ، وسخر بالمتفائلين قائلاً : « كأن الروح القدسية ستهبط على الحكومتين الدستوريتين الجديدتين من الملأ

(١) نيسان ١٩١٠ E.T. Dillon

الأعلى » ثم قال « ترى أتستطيع دساتير الحرية ولو سنتها أعظم قوة بشرية فى بلاد لا أثر للصناعة فيها ، أن تزحزح شيئا من جبلات أهل تلك البلاد وتغير من غرائزهم وأخلاقهم وتقاليدهم الموروثة منذ الحقب المتطاولة تغييراً ذاهباً بالقديم الفاسد وآتيا بالجديد الصحيح ؟ اللهم لا . فجميع ما فى الأمر أن هذا الانقلاب فى تركية وفارس لم يشتمل بحقيقة واقعة على شئ سوى تبادل طلىّ الأقوال وبهرج الكلام وأنيق الخطب ، الأمر الذى ليس به تنقلب الحال الراسخة منذ القديم انقلابا لامراء فى حصوله بالحقيقة والفعل . وتدل الدلائل الظاهرة على أن فارس ليست على شئ من الخلقة والجدرة لنيل الحكم الذاتى » ثم قال فى موضع آخر : « وصفوة القول أن غاية ما حصل انما كان مقصوراً على اتخاذ طائفة من الأسماء الجديدة بديلا من غيرها لبعض الاشخاص والمسميات بحيث يتراءى للناظر أن هناك شيئا جديداً وما هناك فى الواقع سوى القديم المعهود . أما الفوضى فما برحت ضاربة أطنابها الى ما شاء الله وأما قضية القيام باعانة الحكومتين الجديدتين الاعانة المالية فليس بالمستطاع ، لأن المتمولين الأجانب لا يرون من الحكمة فى شئ أن يقرضوا أموالهم ليبذرها العابثون الذين هم فى بلاد غير مستقرة الحال كتركية وفارس أشبه بفقاقيع الماء تطفو لحظة ثم لا تلبث أن تختفى وتتلاشى . »

وكتب موظف استعمارى من الفرنسيين (١) يصف أهل الجزائر وغيرهم من المسلمين فى مستعمرات افريقية الشمالية الخاضعة للحكم الفرنسى يقول : « ينبغى لهذه الشعوب التى فى مستعمراتنا أن يحكمها غيرها ، لأنها صبية دون اليفاع فلا تستطيع ادارة شؤون نفسها بنفسها . فيجب علينا أن نقودها السبيل قيادة ثابتة شديدة ، وألا نتخلى عنها تاركينها وشأنها لئلا تعثر عثرة كبيرة ، وألا نتوانى لحظة فى سحق من فيها من المفسدين وأهل الكيد والسجس (٢) ، من حيث يجب علينا أيضا أن نحميها ونذود عنها ونقوم على تدريبها قيام الوالد على شؤون أولاده فنتناولها بالسطوة والسيطرة بيد ، وبالترقية والتعليم بالأخرى ، ونكون لها مثالا حسناً فى التفوق الأدبى الصحيح . وفوق كل هذا يجب علينا الاقلاع عن التمويه الباطل والمزاعم الفارغة الخلابة . فليكن رائدنا

---

(١) أ . مرسيه . كتابه « القضية الوطنية » باريس ١٩٠١ E. Morcier - "La Question Indigène"

(٢) الفساد والكدر (الناشر)

الاخلاص فى سبيل مصلحة فرنسة ومصلحة أهل البلاد كذلك . »

وقد استاء كثير من أهل الرأى ، وجلهم من الموظفين الأجانب فى الحكومات المستعمرة مما شاهدوه من النهج المختل الذى ينهجه الشرقيون فى الطور الأول من الحكم الذاتى ، طور المران والمراس على يد التجربة ، وذلك كالمجالس الاستشارية التى تجيز الحكومات الأوربية لأهل البلاد انشاءها ، فيتخذونها ميادين سياسية يتذرعون بها لانتياش السلطة من أيدى المسيطرين انتياشاً مجاوزين فى ذلك حدود نطاق ما أعطى لهم قال اللورد كتشنر فى تقريره الموضوع سنة ١٩١٣ فى شأن مصر : « ليس فى المستطاع تنشئة الهيئات النيابية وترقيتها خير ما يكون ، مالم تؤكد صفة الحال الراهنة ان هذه الهيئات هى من الاقتدار الصحيح بحيث تستطيع القيام بوظائفها التى بين يديها حق القيام وان هناك كبير رجاء فى أنها كلما اتسع نطاق الاعباء الحكومية أمامها وانفسح لها مجال لمراس الشؤون الخطيرة الحيوية ، ازدادت حنكةً وخبرة واقتداراً ، فلذلك أن وجدت الحكومات النيابية وهى على أبسط أشكالها وفى أول أطوارها غير مقتدرة على العمل والاجراء ، وغير متنكبة المداحض والمعاثر ، قل الأمل اذ ذاك فى أن تكون من الجدارة بحيث تحسن القيام بمهمتها الكبرى ، متى ما غدا مجال شؤونها أوسع ونطاق المهمات أبعد مدًى . فعلى هذا الاعتبار ليس من حكومة وفيها مسكة من العقل تعتزم توسيع نطاق المجالس الاستشارية وتخويلها سلطة أقصى أمداً وأبعد نفاذاً من بعد مابدا من قصور هذه المجالس عن احسان القيام بما قلدته من الوظائف والأعمال احساناً داعياً للرضى والارتياح » .

أما الذين يقومون باشعال الاضطرابات الوطنية فى بدء الأمر فأهل الطبقات العالية من أهل البلاد والمتهذبون على الطراز الغربى ، ثم يأخذ الجعان معاً يهيجون سواد الشعب الجاهل ويلهبون صدوره إلهاباً ، فى حين انه كثيرا ما يكون على حال من الهدوء والسكينة راضياً عن شأنه مكتفياً بما يتناوله من المرافق والمنافع فى ظل الحكم الأوروبى [1] . منذ

---

(١) لا والله قلما يكون هذا الشعب راضياً عن الحال التى هو فيها تحت الحكم الاوربى ولكن العامة لا تقدر أن تقوم بشىء من نفسها مالم يتقدمها النبهاء والطبقة الراقية . فمن عادة الأوروبيين المستعمرين ان يزعموا في مثل هذه الحالة ان الشعب كان راضياً ساكناً ساكتاً مغتبطا لا يطلب سوى استمرار الادارة التى هو تحتها ، فجاء نفر من الأعيان أفسدوا قلوب العوام والفلاحين وحملوهم على الثورة أو النفرة ، فان

سنوات معدودات قال أحد كبار المبشرين الاميركان (١) فى الهند بعد اختبار طال معظم حياته فى تلك البلاد : « يغلب أن يكون الشعب الهندى اليوم أكثر ارتضاء بحكومته منه فى أى يوم خال . أما العلة الحقيقية فى استثارة روح السخط والغضب انما مصدرها الطوائف والطبقات العليا . فلو ترك المستثيرون عامة الشعب وشأنهم ، وكفوا عن هياجهم وتحريضهم ، وجلبهم واستصراخهم ، لبات أهل الهند أشد شعوب الأرض إخلاصا ووفاء . غير أن أهل الطبقات الراقية المتهذبة المشتعلة صدورهم بنار المطامح السياسية الحديثة ، الذين لن يناموا بعد على ما ناموا عليه من قبل ، ولن يكون لهم قبل باحتمال الضعة والاكتفاء بالمراتب الدنيئة الحقيرة التبعة ، وبالوظائف القليلة الشأن والمنفعة . . . . فهم يكادون لا يعتبرون شيئاً من قدر الحكومة التى تسلم اليهم مقاليدها ويولون مناصبها وكراسيها على التوالى . بعد جميع ذلك فليس من مرادهم الوقوف عند حد الاكتفاء بنيل الأنظمة الدستورية النيابية التى توسع نطاق اشتراكهم فى حكومة بلادهم ، بل انهم اذ ذاك لطلاب الاستقلال بشؤون حكومتهم بأسرها استقلالا تاما لا يعتريه نقص ولا يشوبه شائبة . فالبرهمى (والبراهمة خمسة فى المئة من مجموع السكان) كان يعتقد انه هو ذو المقام الأعلى وابنُ الطائفة التى اختيرت من لدن الاله لتحكم البلاد ، فيحمله ذلك على أن يمسك عن الآخرين حريتهم وما لهم من الحقوق على اختلافها . و « السودرا » (أهل الطبقة الرابعة الدنية) كانوا لا يرضون بأن ينتخبوا أحداً من أهل طبقة « البارياه » (سفالة أهل الهند) . ومازالت الحال هكذا حتى جاءت الحكومة البريطانية فقضت بالتساوى فى الحقوق والواجبات وجعلت أهل الهند عامة وخاصة دون اعتبار الطوائف والطبقات على مستوى اجتماعى متماثل ، هذه هى الحالة حتى اليوم » . عند هذا تبدو المحاذير جمة باعثة على

كان هؤلاء الأعيان من شيوخ الدين أو الطبقة المسلمة المتدينة ، كان هذا من أثر التعصب الاسلامي ، والحرب المقدسة وتعليم القرآن أو دعوة الشيخ السنوسى أو التيجانى أو الشاذلى الخ ، وان كانوا من طبقة المتعلمين بأوربا والناشئة الجديدة الذين لا يمكن اتهامهم بالدعوة الدينية كانوا من أولئك الطامحين المتطالين الى الوظائف ذوى الاغراض الشخصية ، أو من الوطنيين الذين قد « قرأوا أشياء أساءوا هضمها » تلك الجمله المخصصة — فى لغة الاستعمار — لكل فئة شرقية متعلمة على النسق الأوربى لكنها متمسكة باستقلال وطنها . (ش)

(١) سنة ١٩١٠

الاختشاء . ذلك أن يعود الاستبداد الاوليفارقى (١) فينشر فى الهنـد متى ما حررت من الحـكم البريطانى تحريراً تلاه قيام البراهمة وقبضهم على أزمة الأحكام . ولم ينفرد أرباب الرأى الغربيون فى تصـديق هـذه المحاذير ، بل شاركهم فى ذلك عـدد كبير من أبناء الطبقات الهنـدوية الدينيـة المعروف مجموعها « بالطبقات المضطهدة » فأخـذوا يقاومون الحركة الوطنية الهندية خشية أن يضيعوا ما هم متمتعون به اليوم من الحماية والرعاية فى ظل حكم «الراجا» البريطانى ، وهم على اعتقاد ان الهند لم تبرح قاصرة عن نيل الاستقلال الصحيح ، فيجب عليها أن تدأب أجيالا فى سبيل العـلم والتهذيب والارتقاء والاصلاح الاجتماعى دأباً متوالياً حتى تغدو من بعده جديرة بنيل الحـكم الوطنى « هوم رول » (٢) وقد أنشأوا لهم جمعية كبيرة سموها « الناما سدرا » غايتها موالاة التاج البريطانى ومقاومة الحركة الوطنية .

قال الدكتور « نايرِ » (٣) زعيم هذه الجمعية مبينا غايتها وغرضها : «الديموقراطية باعتبارها كلمة سائرة وعبارة مألوفة ، قد ذاعت فى الهنـد قاطبة وجرت على لسان كل انسان ، غير أن مدلول الـكلمة ، أعنى روح الديموقراطية الصحيحة ، لم يزل مجهولا فى هذه البلاد جهلا شديداً . فلذلك ليس من المتوقع أن نرى فى مدة قليلة الديموقراطية بحق معناها قد نشأت فى الهند نشوءها فى الغرب ، لأن تعصب الطوائف ذلك التعصب القاتل هو حائل دونها الى ما شاء الله . . . ليس من مرادى ان اتهم طائفة مخصوصة دون أخرى بمضايقة الطوائف الوضيعة والازدراء بها ، بل جميع الطوائف والطبقات العليا انما هى فى هذا الأمر المستنـكر سواء . فالبرهمى لن ينفك يضايق كل من ليس ببرهمى ، وكذلك شأن كل فرد من أهل الطبقات العليا غير البراهمة الذين لم يعدلوا عن مقت جميع من دونهم طائفـة وطبقة ... نحن نبتغى ديموقراطية صحيحة لا حكم طبقة ممتازة مستبدة ، اذ عن هذه الأخيرة نحن معرضون ، ولها مقاومون ، ولو رفلت مارفلت بحلل من مزخرفات الأقوال والعبارات فان قيض لها أن تعود فتنشأ ثانياً فهى باقية من بعد ذلك الى الأبد . . . اننا وايم الحق لنؤثر الديموقراطية الآجلة البعيدة على نيل هذه الاوليفارقية العاجلة . ونحن أكثر ثقـة

(١) حكم تستأثر به فئة مخصوصة من الأمة (٢) Home Rule
(٣) تشرين الأول ١٩١٨ Dr. Madavan Nair

بالحكم البريطانى منا بالاوليفارقية المستبدة التى شأنها معروف فى أهل الطبقات العليا الذين كانوا على الدوام قائمين على مضايقتنا والنيل منا ، وهاهم اليوم يسعون فى سبيل الرجوع الى ماضيهم لولا الحكومة البريطانية فوقفنا هذا اليوم هو موقف دفاع عن كياننا ، وذياد عن بقائنا ، لا يخدعنا عنه أمل كاذب ولا مرتجى خير بعيد المنال »

وهناك كثير من المسلمين والهندويين الذين يعلمون أن الهند لم تغد للآن نضيجة للحكم الذاتى ، وانه اذا ماأخذ ظل السلطة البريطانية يتقلص ، سواء فى المستقبل البعيد أم فى المستقبل القريب ، لأصاب الهند من جراء ذلك شر بلوى . فلذلك لايتردد المسلمون الموالون للتاج البريطانى فى الدعاء على القائمين بالحركات الوطنية بالويل والثبور ، لأسباب جلاها أحد زعمائهم السيد « خوجه بوخش »[١] بقوله : « سواء كنت أحسنت صنعاً أم أسأت ، فانى لم أبرح معتزلا مزاولة الشؤون السياسية هذه المدة الأخيرة . غير انى لم أحل عن اعتقادى قيد شعرة انه يجب علينا أن نجهد فى سبيل ترقية مستوانا الاجتماعى والعقلى والأدبى أضعاف مانجهد فى سبيل تحقيق مانبتغيه من الغايات والمطامح السياسية . إنى لشديد الاعتقاد ان فى انصرافنا عن السياسة الى ترقية سائر أحوالنا وشؤوننا الضرورية لنا بطبيعة هذا العصر ، لخدمةً جليلة فى سبيل مصلحة بلادنا . . . . ليست جميع قضيتنا مقصورة على أن يكون فى الهند فئة قليلة هى وحدها مسلحة بسلاح العلوم والتهذيب الغربى ، بل قضيتنا بجملتها تقتضى أن يكون سواد الشعب على مختلف المراتب والدرجات من العلم بماهية مصالح البلاد والشعور بخطورة أمرها بحيث يكون له من ذلك حامل صحيح على خدمتها والمفاداة فى سبيل صيانتها وترقيتها . فان الفئة المتهذبة الراقية ، وهى أقل من القليل ، لايتألف منها ذلك السواد الذى يجب علينا أن نقوم بترقيته وتهذيبه ، وتدريبه وتثقيفه ، ورفعه الى المستوى الذى تصبح عنده عقائد التضحية الوطنية راسخة فى النفوس إننا ، وأمرنا ظاهر ، لم نبلغ هذا المستوى بعد ، ومادمنا دونه وغير واجين أبوابه لجميع مافى صدورنا من الآمال ، وما نجهده فى المواضع الأخرى ، هو طلب باطل وسعى على غير ماجدوى . زد على هذا أن الفئة القليلة المتهذبة فينا لم تبرح وليدة فى المهد من حيث ماهى عليه من المران السياسى الحديث . أجل ، يجب علينا أن نتعلم قدسية المبادىء الوطنية

(١) محاضراته : « الهند والاسلام » لندن ١٩١٢

وتسديد الخطى فى نهج المناهج الصادقة . وليس لنا من مرتجى فى ترقيـة مستوى آدابنا الخاصـة والعامة ، مادمنا لانربأ بنفوسنا عن افناء المصلحة العامة ، وتضحيتها فى سبيل المصلحة الخاصة » .

لحرى بمثل هـذه الأقوال والتصريحات التى يوافق عليها كثير من أهل البلاد أن تسترعى سمع عدد كبير من رجال الرأى ، حـتى من عظماء الأحرار الانكليز المزاولين للشؤون السياسية الهندية ، وأرباب الاعتقاد الراسخ أن الهند تزداد استعداداً متوالياً للحكم الوطنى ، حتى يأتى يوم تغدو فيه جديرة بنيل الاستقلال التام . قال أحد هؤلاء الأحرار ، « ادوين بيفان[١] » : « متى ماقام أرباب الحركة الوطنية من أهل الهند يطالبون بالحرية فما يعنون بهذا الا الحكم الذاتى الذى يبتغون على يده التحرر من ربقة الأجنبى . فينبغى أن نجيبهم كما أجبناهم[٢] : نعم حكما ذاتياً ستعطون و به ستتمتعون ، انما ذلك على شريطة واحدة ، هى أن تكون الديموقراطية مصاحبة للحكم الذاتى . اننا لنتخلى لكم عن الحكم عند مانرى فيكم شعباً هندياً يستطيع أن ينزل أمراءه وحكامه الوطنيين على أمره وكلمته . ولكننا لن نتخلى لكم عن الحكم هـذا مادمنا نعلم ان من ورائه نشوب الاوليفارقية وانتشارها . هذه علة الخـلاف بين من يقولون بوجوب منح الهند الحكم الذاتى عاجلا ، ومن يقولون بأن الهنـد غير نضيجة له حتى اليوم ولكنها آخذة بالاستعداد المتزايد لتصبح يوماً جديرة كل الجـدارة بنيل الحكم الذاتى والاستقلال التام . أما الفريق الأول فيعنى بالحكم الذاتى أن يحكم الشعب الشعبَ وهو يرى من الواجب أن تمنح الهند حكما ذاتياً فى المستقبل القريب . ويقول الفريق الآخر : اذا ارتفع الحكم الأجنبى وزال للحال ، نشأت عـدة حكومات على أثر ذلك على جانب من العيوب والنقص ، فتعود الفوضى والاضطراب منتشرين فى الهند ، وفوق ذلك لن تكون هـذه الحكومات ديموقراطية بل استبدادية يجور فيها القوى على الضعيف »

هـذه صفوة آراء النقـدة الغربيين والشرقيين الذين لايقولون باستئهال شعوب الشرقين الأدنى والأوسط اليوم ، ولافى المستقبل القريب ، للحكم الذاتى . ثم نأتى الآن على

(١) E. Bevan من مقال له « الاصلاح فى الهند » ١٩١٠

(٢) أى توسيع نطاق الحكومة الذاتية الممنوح للهند على مقتضى تقرير « مونتاغو ــ شلمز فورد » .

ايراد آراء الفريق الآخر وأربابه من أهل الانصاف والتفاؤل ، الذين يقولون ، مؤيدين قولهم بالحجة والبرهان : ان المنازع الحرة فى الاسلام انما هى خير أساس يصح أن تبنى عليه الأنظمة السياسية الحديثة تامة الأجهزة وافية بمقتضيات الحضارة والعصر . قال الحجة الثقة أرمينيوس ڤامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية — الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فان كان العالم قد شهد حقاً ، منذ أول عهد العمران البشرى الى اليوم ، حكومة شورو ية دستو رية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزى كبير[1] خبير فى شؤون الشرق الأدنى :

« ان بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار[2] فى شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم ان تركية لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة . انما ذلك وهمٌ شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة الى انشاء الحكومة النيابية وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، ان النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركية انما هى أفضل اس يشيد عليه الحكم النيابى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه و بين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون و يسترئ بعضهم بعضاً فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . و باعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها اذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها اغراقاً فى التدلى من ادراك معنى الشورى والدستورى والنظام النيابى » . ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم «ديوان» وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) A. H Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، وامداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشئ فى العهد الاخير مجلسان الاول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء (١) ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين الاولى فى سنة ١٨٧٧ والاخرى فى ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا اذ قضى عليهما الاستبداد الحميدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى . » وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : «فلذلك يجب الا يعتبر اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن الى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شصطر الأميركى ليقوم بتنظيم الشؤون المالية فى بلادها فلم يطل مقامه فى فارس الى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الادارى الكبير مبيناً استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسى لانشاء النظام الدستورى وهو متفائل فى ذلك كل التفاؤل :

« انى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل مايحوى من ذلك للأمة الفارسية التى انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة الى دور الحكم الدستورى النيابى ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يدل على أن أمة ذات مقام عال فى فى الحكمة السياسية وفى معرفة أصول الاشتراع الى حد يكاد لايصدق (٢) أما أعضاء المجلس

---

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طولمه بغجه و يلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراؤه كل يوم للنظر فى أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الاناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكار مز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لاتزال الى الآن (ش)

(٢) ومن فى الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدنة منذ آلاف من السنين التى اوتيت فى العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة من الأمم (ش)

النيابى الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً فى تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله فى حرز حريز من طوارئ الاستبداد . . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع مايسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء .

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى اعرف اعضاءه معرفة شخصية صحيحة ، فما كان على كل حال ليعد فى رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الاميركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، فى بلاد استطالت رقدتها اجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدبير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً . لاينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج الى كثير من المعارف الا كتناهية فى كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة ، بيد ان الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف معتبراً هو أن هذا المجلس النيابى الفارسى يمثل حقاً رأى الامة الفارسية ، و به نوطة جميع أمانيها ومبتغياتها التى تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم والرأى السديد والشجاعة الحقة . يحنون أضلاعهم على قلوب تتضرم اخلاصا و وطنية ، يبحثون بجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية واذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخلص ، يمحضونهم الود و يجعلونهم موضع ثقتهم ومحقق آمالهم و يفوضون اليهم أمور التنظيم ، هذا اذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكايد السياسية والرشوة ومبادلة الامة الفارسية الود والاخلاص ، والصدق فى الاقوال والأعمال

« وليس من العدل ولا الانصاف فى شئ أن يقال ان المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجاراة الحقة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الازر وامته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يبتغى جواز نطاقها بغير حق ، واعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها واعلاء شأنها .

« اما الامة الفارسية فليست على مستوى تتناوله صفة عامة . فالسواد الاعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة فى الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والاخذ عن الحضارة الاوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديموقراطية خفاقاً ، بعد ان ذللوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدى الحكومة التى انشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفى من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الاخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وانشئت الصحف الحرة فانبرى حذق الكتاب شارعين اقلامهم يهدون الامة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر فى الامة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والادبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الامة باسرها بتلك الروح الاسيوية التى ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة الى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعا فى انشاء الجمهورية الصينية »

ثم انهى المستر شسطر كلامه قائلا : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كپلنغ) ناصحاً مراراً ان الشرق لن يطيق بعد المناخس معملة فى جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوماً مقاومة رجعية عظيمة . ولكن باستطاعة رجال الغرب ، اذا تذرعوا بالفضائل الغربيــة وغايات الحضارة الأوروبيــة الصحيحة أن يستسرعوا الشرق فى سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون انذلك هو خيرهم ومصلحتهم. على ان الحق الذى لايمارى فيــه ان روح التضامن الأدبى والعزة القومية والعصبية الجنسية جميع ذلك قد غدا شـديداً فى الشرق شـدته فى الغرب ، فبات الشرقيون بسبب ذلك صعاب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا مادامت أوروبة سائقة لهم فى سبيل واحد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها (١) »

حقاً ، يعتقد كثير من الأحرار الغربيين ان التسلط الأوروبى ليس من شأنه أن

(١) shuster كتابه : « خنق العجم » The Strangling of Persia

يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتى والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان [١] بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار ان الطريقة الوحيدة المثلى التى أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هى أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرّج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أجاد « ليونل كرتس [٢] » الكاتب الانكليزى الذائع الصيت ايما اجادة فى جلاء هذا القول وتصريحه فى كلام له فى شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التى جاء بها الحكم البريطانى ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطرا كبيرا و بلية ايجابية ، مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً . ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية الا فى حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافى حيز النظر والتصور والخيال .

« قد يقول بعضهم انى لجوج فى طلبى الذى بينت فيه انه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية الى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة الى هذه الحكومة الفتية وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التى سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتى وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى . فان لم

---

(١) جميع المسيطرين الاورو بيين فى الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وان يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التى فيها . وان ماجاهدته مصر فى أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون فى وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . اما فى الجزائر فابقاء الاهلين فى الجهل وحرمان أطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك

(٢) كتابه : « رسائل الى أهل الهند فى شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)
Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government,,

يكن هذا ، فليس من سبيل اذاً لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بانها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال ان يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكماً ذاتياً لايتسنى له الوصول الى غرضه السامى وغايته الكبيرة الا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال وربما الى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

«انى لأفخر فخراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى الى الهند من الخير والنفع ، من انشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بان الحكومة المنتظمة ماأعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لاأعتقد ان النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون أن ينقلب الى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى الى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ماحملناه على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

«يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن: نقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لايتم الا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل الى نطاقهم نقلاً مزداداً . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوساً على المقاعد .

«لاوصول الى الغاية التى بينها حديثاً وزير الهند (١) الا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول الى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ، والانتهاء الى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الالتئام مع ماهو معروف لنا من التقاليد . وان مابقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

---

(١) اشارة الى الغاية المبينة فى تقرير مونتاغو ــ شلمزفورد من منح الحكم الذاتى

ان كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقية . ان الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوروبة على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامردّ له ولا مدفع ، مما يدل على انه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . اما التساؤل أتسىء هذه الشعوب التى ستصبح حرةً ، اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقاً عالية الجبين فى انشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ذلك أمر سيكشفه المستقبل . واذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق التطور السياسى ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور دور التحول . وننتقل للكلام على العصبية الجنسية .

اللورد كرومر

الأمير شكيب

ان هذا الرجل المسمى باللورد كرومر [١] يصح أن يكون مثالا للاوربى المستعمر المتسلط الذى تنحصر سياسته فى تذليل جميع العقبات القائمة فى وجه استيلاء أمته على قطر من الأقطار الشرقية ، ولما كان ميدان عمله مصر وكان لايمكن أن يجرى فيها من ضروب الاستبداد الاستعمارى بقوة السلاح مايجرى فى السودان أو الصومال مثلا ، لجأ فى الاستئثار بأمر مصر الى الجدل واقامة الأدلة على كون مصر وكل بلاد شرقية أو اسلامية لاتصلح للحكم الذاتى ، ولا يجوز أن تخلو فى يوم من الأيام من السيطرة الأوربية . ولأجل أن يعلل وجوب هذه الديمومة الاستعمارية التى لانهاية لها ، حال كون كثير من المستعمرة الأوربيين يجعلون الأمد بينهم و بين حرية البلاد التى استولوا عليها وصول هذه الى درجة الكفاية والأهلية للحكم الذاتى كان يزعم هو أنه لا يمكن وصول شعب مسلم الى درجة كهذه أبداً لموانع قائمة فى طبيعة الاسلام نفسه ، وكان مقام اللورد كرومر فى انكلترة بسبب كونه هو الآخذ بزمام مصر يجعل له كلمة نافذة وقولا مسموعا، فكان كل سنة يصدر تقريراً ينطف سما على مصر وعلى الشرق وعلى روح الاسلام ، ويتلقى الناس ذلك منه أنه نتيجة خبرة طويلة ومعاركة دهر فى بلاد الشرق،ويحفلون بكلامه ويتخذونه دستوراً. والحق انه لم يكن الا عبارة عن رجل مستعمر مستبد عدو للشرق عموماً وللاسلام خصوصا يتأجج بغض الاسلام فى قلبه نظير ماكان عليه غلادسطون ، وأخيراً ظهر عدوانه هذا بكل جلاء فى حادثة « دنشواى » التى تغلب فيها هواه على مهارته ، فكانت سبب سقوطه وصرفه عن مصر ، فانتقم لنفسه بتأليف كتاب خاطرات حمل فيه على الاسلام حملة شديدة . وان جميع مايدعيه هذا الرجل وأمثاله من عدم قابلية الشعوب الشرقية للرقى ، ان هو الا من الاستدلالات الاستعمارية التى مرماهم فيها معروف ، وهو أن يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمداً ،

(١) انظر صفحات ٥١و٥٢ وما بعدهما من هذا الجزء

لانه صار يصعب عليهم ترك هذا الحكم برضاهم بعد أن ذاقوا لذته وجنوا ثماره . جاءني مرة وأنا منذ سنتين فى برلين اثنان من سفارتين من سفارات الانكليز الكبرى فى أوروبا يريدان أن يباحثانى فى المسائل الشرقية ، فكان من جملة ماقال لى أحدهما : قل لنا بشرفك هل تعتقد كون هذه الشعوب الشرقية القائمة كلها بطلب الاستقلال هى أهلا له . فأجبته : قل لى بشرفك هل بلاد اليونان منذ قرن والبلغار منذ ٤٠ سنة والجبل الاسود والصرب كانت أرقى مما هى مصر وسورية وتونس الآن ؟ فلماذا يطلب لتلك الاستقلال مع مساعدة جميع أوروبا وأثناء تصفيقها وابتهاجها وينكر على هذه بحجة أنها لم تصل الى درجة الكفاءة . . . .

قال الانكليزى : أفلا تعترف بكوننا أقدر على ادارة مصر من أهلها وان وجودنا فيها أضمن لمرافقها المادية . قلت له : أفلا تعترف بأن النمسا أقدر على ادارة يوغوسلافيا من الصرب وانها أرقى بدرجات من الصرب ؟ أفلا تعترف بأن النمسا هى التى هذبت ورقت مستوى جميع تلك الامم التى انسلخت عنها بمساعدتكم ؟ أفلا تسلم بكون الرومان الذين كانوا فى المجر هم أرقى من رومان نفس رومانيا وان حكومة بودابست هى أعلى مراراً من حكومة بخارست ؟ أفلا تقر بكون الالمان هم أقدر من البولونيين على ادارة سليزيا العليا ؟ وان مرافق سليزيا العليا تكون تحت ادارة المانية مضمونة أكثر مما تكون تحت ادارة بولونية ؟ فلماذا اذا سلختم يوغوسلافيا عن اوستريا وترانسيلفانيا عن المجر وقسما من سيليزيا عن المانية ؟ ربما تقولون لملاحظات أخرى وطنية واعتبارات قومية لابد منها اذ كل أمة لها حق فى أن تدير نفسها بنفسها فلماذا هذه الاعتبارات القومية والوطنية تبقى مرعية مادامت فى أوروبا فاذا كانت المسئلة فى الشرق لم يبق هناك من سبب يجب اعتباره سوى حسن الادارة ؟ قلت له : أنا لا أشك فى انه لو استولت المانية على استونيه أو ليتوانيه أو لتونيه لادارتها أحسن مما يديرها أهلها اليوم ، ولو استوليتم أنتم على البرتغال لكانت حال البرتغال المالية والادارية أحسن منها فى أيدى البرتغاليين وهلم جرا ، أفتسمح أوربا لالمانيه بحجة علوية الادارة أن تستولى على بلاد البلطيك أولكم بأن تستولوا على البرتغال ؟ لاأظن ذلك . فلماذا بحجة أفضلية الادارة تتمسكون بالبقاء بمصر ولا تنظرون الى ماهنالك من العوامل القومية والوطنية ؟ ولماذا جمهورية اريفان الارمنية تستحق الاستقلال

وكرجستان هى أهل للحرية ، ومصر وسورية لاتستحقان الاستقلال ولا الحرية؟ أترى اريفان هذه بل كرجستان أرقى من مصر أو سورية أو العراق أو تونس ، كلا . فلماذا تحللونه عاما وتحرمونه عاما . وأغرب من هذا أن آذر بيجان التى هى أرقى جداً من اريفان لم نجد دولة من دول أوربا طلبت لها الاستقلال وهن باجمعهن يطلبنه لاريفان . مع أن اذر بيجان أربعة ملايين واريفان أربعمائة ألف وأذر بيجان متمدنة واريفان بجانبها تعد متوحشة . وكذلك جميع الدول مهتمة بدفع البولشفيك عن اريفان وكرجستان وليس من واحدة تطلب دفعهم عن اذر بيجان والطاغستان هل فى ذلك سبب الاكون الأولين مسيحيتين والاخريين مسلمتين ؟ افبمثل هذا العدل وهذه المساواة تطمع أوربا أن يكون بينها و بين الاسلام سلام ؟ فاما لم يجد على كلامى جوابا يليق برجل عاقل دخل فى واد آخر وقال : طالما قيل لنا عن ذكائك وقوة حجتك الخ (وأخذ بالتقريظ والاطراء) فالآن صدق الخبر الخبر . و بالجملة فلا يظنن ظان أن كلام اللورد كروم وأمثاله هو كلام ناقد خبير مجرب فى ادارة الشرق يتكلم بخلوص نية ونفى للغرض بل هو كلام ناقد خبير بادارة الشرق على الاسلوب الذى يضمن بقاء السلطة الاوربية و يزيد دخل الاستعمار المالى ويقتل العواطف الوطنية ، و يقوى حس الافتتان بالتفرنج و يصرف الشرقيين عن المطالب القومية . والذى يقال دائما هو أن اللورد كروم خدم أمته أجل خدمة وأنا أقول انه مهما جلت خدمته بالاخلاص لقومه فخدمته للشرقيين بما ظهر من تعصبه وسوء نيته كانت أجل وأعظم

العرب ديمقراطيون

للأمير شكيب

ليس من عادة العرب قديما ولا حديثا التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لامرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لايخاطبونهم بالالقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التى يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم . وانما كانوا فى أيام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لاغير . فكل مادخل فى العربية والعرب من ألقاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال أهل البادية ـ الى يومنا هذا ـ ينادون شيوخهم وأمراءهم بمجرد اسمائهم، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : ياأبا فلان . هكذا يخاطبون الملك ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل بن الحسين مؤخرا وهو بدمشق فيخاطبونه دائما : ياأبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هى الديموقراطية الصحيحة . وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» . وكان الاحنف يقول لمعاوية : «والله يامعاوية ان السيوف التى قاتلناك بها لهى فى اغمادها» . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : «أيها الناس اتقوا الله» . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : «اذكرك الذى ذكرتنا به» . فاجابه الخليفة : « سمعا سمعا لمن ذكر بالله »

نعم ان كان فى الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لايزالون فرقاً وحزقاً ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوسا وأحمى أنوفاً من أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية فى تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض

مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الاندلس وغربى أوربا

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديموقراطية بما فى الاسـلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفر قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، واثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالى اليوم لايعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لابل فرض اوجبه الله فى كتابه قال تعالى : «وشاورهم فى الأمر» . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشـدون يعملون كل شئ عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر » . لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبـداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

الفصل الخامس

في

العصبية الجنسية

العصبية الجنسية أعظم مظهر من مظاهر المجتمع البشرى فى هذا العصر ولا مراء فى ذلك . نشأت فى أوروبة أول منشأها خلال القرن التاسع عشر ، ولما اشتد دبيب فعلها فى العروق ، و بلغت أعظم مبلغ من التأثير فى الامزجة ، لم تلبث أن غدت عامل التغيير والتبديل والانقلاب فى القارة الاوروبية ، حتى بات القرن الحالى يعرف على الغالب بعصر القوميات أو العصبيات الجنسية . غير أن العصبية الجنسية ليست بالظاهرة الاجتماعية التى نشأت فى الأفق الاوروبى ولزمت حدود هذا الأفق لا تجوزها ولا تتعداها ، بل انها التيار العجيب الذى بدأ فى أوروبة ثم أخذ ينتشر فى الارض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة فى الشرق والغرب ، وما زال على جدّ فى مسراه ومتغلغله فى الشعوب والأمم ، يفتح طريق الانقلابات الكبرى ويمتهد سبيل التطورات العظمى فى هذا المجتمع الانسانى .

واذا غدت العصبية الجنسية على ما هى عليه من بعد الخطورة وعظم الشأن ، وأصبح عاملها أكبر عاملٍ فى تطور الأمم ومسيرها ومصيرها ، كان لا بدّ للباحث أن يسأل ، ما هى العصبية الجنسية ؟ سؤال لم يبرح مبحثاً واسع المجال لأهل العلم والاستقصاء ، فتعددت فى ذلك آراؤهم ، وتنوعت أقوالهم ، واختلفت مذاهبهم . فحددت طائفة منهم العصبية باللغة ، وطائفة أخرى بالتهذيب متناولا الطباع والسجايا ، وغيرها بالجنس والعرق ، وغيرها بالوحدة السياسية ، وغيرها بالاقليم الجغرافى ، وغيرها بالوحدة الاقتصادية ، وغيرها بالدين . فجميع هذه التحديدات على اختلافها ، وربما ينطوى تحتها غير ذلك ، يمكن اعتبارها على الجملة عوامل ممهدة ، وأسباباً وتحليلاً تُعد بفعلها وتأثيرها ما تعد ، مفضية الى خروج العصبية من عالم القوة الى عالم الفعل، ولكن من رام اكتناه سر هذه العصبية رآها تبدو فى أفق أعلى وأسمى ، أفق تتجلى فيه صورتها مزاجاً معنوياً جامعاً لمفعول جميع العناصر التى

تتكون منها تلك العصبيــة . فالعصبية الجنسية ليس فى شأنها غامض لا يستبان أو سر لا يدرك ، وذلك على مختلف المذاهب التى ذهبها أهل العـلم فى تحديدها وتبيين ماهيتها ، فهى بحقيقة معناها حالة وجدانية عقلية ، انما هى معتقد مشترك عند عدد كبير من الناس يعقدون عليـه قلوبهم وضمائرهم انهم يؤلفون « جنسية » متمايزة عن سواها ، انما هى شعور بكيانهم أمةً متضامنة متماسكة (١) وهذه الأمة ، باعتبار ما هو قائم من معناها بفكر أبنائها ، ومتصور من شخصها بعين العقل والذهن لديهم ، هى شعب أفراده مشتركون مجتمعا ومنظمون حالا فى ظل حكومة واحدة ، و يسكنون معا بلاداً معينة . ومتى ما أدركنا ماهية العصبية ومرماها وغايتها ، وتقرر ذلك جليا ، حصل ما هو معروف عنـد أهل العلم « بالجسم السياسى » أعنى به الدولة . غير أنه لا يندنّ عن البال بتة أن هـذه « الدولة » ان هى الا المظهر المادى الذى تجسمت فيـه غاية سامية ومنزع شريف ليسا بحديثى النشأة بل هما على الغالب ذلك المطمح القومى الذى ما انفكت نفوس القوم تشره اليـه حقبا وعصورا متطاولة ، وهو اذ ذاك فى عالم القوة مجرداً عن شرطه المحسوس وصفة المادة كالعـرش والسلطان والحـدود الجغرافية . وأيضا لا يندن عن البال أمر آخر ، وهو أن الدولة ليس من شرطها أن تكون أمة . وشاهدنا على ذلك امبراطورية « أوسترية‌هنغارية » الهبسبرغية . التى كانت مجموعا من الجنسيات المتنافرة الاجزاء المتضاربة المنازع ، فلما فتقت ريح الحرب العامة مزقت من هـذه الجنسيات مجموعها شر ممزق ، وفككت جملة أوصالها ، وقوضت بنيانها ، ونثرت حلقاتها .

على أن الحرب العامة كانت درساً بليغاً كشف عن كثير من الحقائق فى ماهية ظواهر العصبيات الجنسية فى هذا العصر ، ولا سيما العصبيات الاوروبية ، الأمر الذى نقض كثيراً من فاسد المذهب و باطل القول مما شاع من قبل فى تحديد طبائع العصبية . ولنا مثال على هـذا سويسرة البلاد التى يدحض اعتبار شأنها تلك المذاهب والأقوال المختلفة ، فى

(١) الفيلسوف رنان يقول ان الأمم لا تجتمع باللغة لأنه طالما اتحـدت أمم باللغة ولم تشأ أن تجتمع فى الحكومة . ولا بالدين لأن أمماً كثيرة متحدة فى الدين هى مختلفة فى السياسة . ولا بالجغرافيـة لأنه قد توجب مواقع البلاد وحدة أقوام تراهم متفرقين دولا متعددة . ولا بالمرافق لأنها ليست جامعة فى كثير من الأحيان . ولا بالجنس لأنه كم من أمة مركبة من عدة أصول تجدها متحدة وأخرى أصلها واحد من جهة الدم تجدها متجزئة . انما الرابطة الوحيدة بين الناس هى ارادتهم أن يتحدوا . (ش)

جعل نصاب العصبية الدين أو التهذيب أو لاقليم الجغرافى وغير ذلك ، اذ قد هاجت روح العصبية الجنسية فى سويسرة هياجاً شديداً رائعا بسبب الحرب العامة ومحنها وأهوالها .

هذه حقائق جلية شائعة ، تعلمها الخاصة ولا تجهلها العامة ، مما لسنا بحاجة الى تقريره واقامة الأدلة عليه . غير ان هناك أمراً جوهرياً حرياً بالتقرير والتبيين ألا وهو : الفرق بين العصبية و بين الجنس أو العرق . اذ من أسباب الأشكال وعلل الالتباس ان قد استعملت هاتان الكلمتان فى غير مواضعهما بلا تدبر ولا احكام ، بل ربما استعملت الاولى فى موضع الأخرى مع اعتبار العكس ، فغدا معناهما على جانب من الاشتباه والاستبهام عند ما يراد التعبير عنهما فى جارى العادة ومطلق البيان . وفى الحقيقة والواقع ان كل كلمة منهما لتدل على معنى بعينه لا تدل عليه الأخرى . فالعصبية انما هى مزاج معنوى ، وشعور وجدانى نفسانى « پسيكولوجى » ، والجنس انما هو شئ جسمانى كائن محسوس « فسيولوجى » يحدده العلم تحديداً محكماً ، ويعرفه تعريفا صحيحا ، ويفرق بين أنواعه وأجناسه وصفاته ، كما هو الأمر فى شكل الجمجمة وتركيبها ، وتكون الشعر ، ولون العينين والبشرة وغير ذلك . ذلك بعبارة أخرى ، فالجنس انما هو الشعب أو الأمة المقرر الاصل والحقيقة تقريراً عاميا انثروپولوجيا ، والعصبية هى ما يعتقده ذلك الشعب أو الامة فى شأن حقيقة أصله ومتسلسل تحدره اعتقاداً سياسيا .

وفى هذا الموضع من الاعتبار يبدو لنا تناقض بالغ منتهى الغرابة بلا ريب . فما لا يحتمل الجدال انه عند اعتبار شان الجنس والعصبية ، فالاول هو ما ينبغى عدّه الاساس المعوّل عليه والذى يصح الركون اليه ، لانه الأبعد عرقا واصلاً ، والاشد شأنا وخطورة على كل حال وطور . اذ ليس بمستور بعدُ ان ما يكون فى الانسان من الاستعداد النفسانى الفطرى انما هو ما يتحدر اليه بالوراثة من آبائه وأجداده ، وينتقل اليه من متواصل الارحام وتسلسل الانساب ، ولا مذكور أمر للبيئة مهما كانت فواعلها شديدة ، فالانسان هو ابن الوراثة ، ذلك الواقع لامراء فيه ، لا ابن البيئة ولا ابن الوسط الذى ينشأ فيه . غير أن الناس قلما يعتبرون شأن الجنس حق الاعتبار وقلما يقيمون له من الوزن الصحيح بل تراهم على الضد من هذا يقومون ويقعدون للعصبية الجنسية الهائجة منها نفوسهم حتى

أعماقها . والسبب الاكبر فى هذا ـ على ما هو ظاهر ـ هو ظهور علم الاجناس البشرية حديثا ، بعد استمراره عهداً طويلاً حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، العهد الذى منذ تاريخه شرع اقطاب العلم يوقنون بماهية حقيقة الجنس وخطورة شأنه وأصله ومبلغ ماله فى الواقع من بالغ التأثير فى حال المزاج . زد على هذا أن الحقائق التى يكشف عنها العلم ، ويثبت دعامتها ، يقتضى لها مدة من الزمن ليست بالقليلة لتندرج فى مستقر موسوعات علم الكافة ، وتلابس أفق الجمهور والعوامّ من الناس . وما من سبيل لارتسام هذه الحقائق فى اجرياء الافراد وطبائعهم ، مؤثرةً فى مناهج سلوكهم وتعاملهم ، الا بعد أن ينقضى على تقريرها العامىّ ردح طويل من الدهر . واعتبر فوق هذا أن عقيدة العصبية وهى أقدم عهداً وأبعد منشأً وأصلاً ، قد تغلغلت فى آفاق الانفس من الناس كافة ، وانتقشت فى أذهانهم ، ودارجت طباعهم ، ولابست حالات أمزجتهم ، حتى غدت مرئية الآثار المحسوسة فى جميع ما يأتونه من الاعمال والحركات . فلذلك ما برحت حياتنا السياسية على الجملة اليوم خاضعة خانعة لعوامل العصبية الجنسية لا لحقيقة الدم والجنس ، وأيضا ما انفكت السياسة العملية الواقعة مسيرة تسييرها المشهود هذا بعوامل العصبية ، أعنى ليس بعامل العلم بحقيقة الأصل . بل بعامل ما يعتقده القوم من حقيقة أصلهم اعتقاداً سياسيا لا أكثر .

انما لنا عبرة فى الحرب العامة ، الحرب التى عرفت على الغالب « بحرب الأجناس » الأمر الذى كان يزيد حقاً فى انبعاث الاقران لقتال الاقران ، وهول المجزرة وانتثار الاشلاء فى المعمعان الاكبر . ومع هذا كله فان الحرب لم تكن فى الحقيقة والواقع مقصورة على شئ من معنى حرب الاجناس فحسب ، بل على شئ أكثر من ذلك . فقد أجمع أئمة البحث فى علم أصول الاجناس البشرية على أن أوروبة انما يسكنها اليوم ، ما خلا بعض الاقوام المختلفة من العصر الحجرى القديم و بعض بقايا المجتاحين الاسيويين فى زمن التاريخ ثلاثة عروق : (١) العرق الشمالى الاصهب اللون المستطيل الرأس . (٢) العرق الجنوبى المدوّر الرأس . (٣) العرق المتوسط المفلطح الرأس أسمر اللون أو حنطيه . غير أنه قد انتشرت هذه العروق وتفرقت ، واختلط بعضها ببعض اختلاطا رحميا ، فتوشجت متحدرات الأنسال جيلاً بعد جيل ، بحيث غدت كل أمة من هذه الأمم الأوروبية اليوم مؤلفة

على الاقل من عرقين من هذه العروق الثلاثة ، فضلاً عن أن كثيراً من هذه الامم أيضا مؤلف من العروق الثلاثة معا ، جامع لها فى جيل واحد . فبهذا الاعتبار لم تكن الحرب العامة فى أوروبة ، عند احكام القول وتحريه ، حرب أجناس كما قال القائلون فحسب ، بل حربا أهلية بين عيال وأسر ذات قربى واشجة وصلات رحمية مشتبكة .

وقد عرف كثير من الاوروبيين أهل العلم الصحيح هذه الحقيقة حق المعرفه وأيقنوا بها وانتحلوا عقيدتها قبل سنة ١٩١٤ بعهد طويل . بيد أن ذلك لم يكن له شئ من التأثير فى تدارك الجائحة الكبرى ودرئها ، أو على الأقل فى التخفيف من هولها بعد وقوعها . والسبب فى ذلك أن الكثرة الساحقة والسواد الأعظم من أهل أوروبة ما برحوا يعتقدون انهم انما متسلسلو العروق من أجناس مختلفة وأصول صحيحة الأرومة ، سليمة من الاختلاط . فهذا الجنس يقول بأنه متحدر من أصل « توتونى » ، وذاك من أصل « لاتينى » ، وآخر من أصل « سلافى » ، وآخر من أصل « انغلوسكسونى » . والحقيقة أن هذه الأصول المعروفة بهذه الأسماء ليست بكائنة كيانا صحيحا كما يزعم الزعمة الأوروبيون ، لاختلاط أنسابها اختلاطا ذهب بسلامة العرق وصحة أصله ، وما هذه الفوارق الظاهرة سوى اختلافات تاريخية ناشئة عن اختلاف اللغات والتهذيب فقط . ولكن من لنا بمؤمن بهذه الحقيقة إيمانا صحيحا . فالأوروبى يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة المقررة إدراكا عقليا نظريا ، ولكنه ما دام لا يتعدى بذلك حدود هذا الحيز الوهمى التصورى ، الى الحيز الفعلى العملى ، فليس إذاً لادراكه هذه الحقيقة شئ من عامل التأثير المحسوس فى نفسه . وهو لذلك ما برح يعتقد من صميم قلبه انه يتحدر من أصل « لاتينى » أو « توتونى » أو « انغلوسكسونى » أو « سلافى » ، بحيث انك اذا استفززته بداعى دمه الجنسى ، الدم الجارى فى عروقه والمتحدر اليه من اصلاب أجداده الأولين ، وأسلافه الأقدمين ، لم يبد لك سوى الزراية والمهزأة ، وليس هو كذلك اذا استفززته بداعى عقيدة عصبيته فانه ليقتحم الموت اقتحاما مستعذبا ورد الردى . وأيضا فانك اذا استفززته بداعى نصرة بنى أصله الشماليين ذوى الرؤوس المستطيلة ، أو الجنوبيين ذى الرؤوس المفلطحة ، فلا تهيجه من ذلك هيعة ولا ينفر له صيد . ولكن الأمر يكون على الضد من هذا اذا استنصرته للذياد عن حمى « التوتونية » أو « السلافية » فانه يهتاج ويثور ويشتعل ويهرق دم

مهجته مستبسلا . وصفوة القول ، إن الشعوب والأمم اليوم هى عصبية لعوامل حقيقة أصلها وما هيته . من حيث هى طيعة لعوامل ما تعتقد من حقيقة ذلك الأصل وماهيته اعتقاداً .

قد يستغرب القارىء بداهة أن أوروبة اليوم تسودها عقيدة الجنس النظرية ، وتقتادها اقتياد الراعى للسائمة ، من حيث أن لاشأن مقيداً ماكان لعقيدة الأصل وحقيقته المقررة بالعلم الصحيح وللأرومة الجنسية الثابتة بالدم المتحدر من أصلاب الأسلاف الأولين انما فى ذلك أسباب جة وجيهة فان عقيدة الجنس النظرية لم يقصر أمرها على كونها بحد ذاتها أكبر عامل فى تطور أوروبة الحديث فحسب ، بل قد طغى سيلها وطبق تيارها الأعمى حتى جرف فى سبيله تلك العقيدة الوليدة التى كشف عنها العلم حديثا أعنى حقيقة أصول الاجناس، وكاد يخنقها خنقا قاضياً . واعتبر أيضا أن عقيدة الجنس النظرية قد ظلت حتى عهد قريب عقيدة مستقلة واسعة المضطرب رحبة الحيز ، تدل غالبا على متقارب الوحدة فى التهذيب والثقافة واللغة والماضى التاريخى.وقد كان ذلك بجملته نتيجة منطقية ناشئة عن ضيق وقصر فى مرمى المدارك الاوروبية وأفهام أهل النظر.ولا بدع فان منشأ هذه العقيدة الجنسية النظرية يمتد الى حقب بعيدة العهد ، حقب الاجيال الوسطى ، حيث كانت الحدود الجغرافية والاقطاعية والاختلافات فى اللهجات اللغوية تعتبر من أسباب التمييز بين أمة وأمة ودواعى الفرق بين شعب وشعب.وما برحت هذه العقيدة الجنسية حية نامية حتى منتصف القرن التاسع عشر، فاذ ذاك تطورت حالها ، واتسع مضطربها، وامتد أفقها ، حتى طما على القارة الاوروبية لا بل العالم بأسره . فباتت وقد انتقلت من دور الى دور ، أبعد مرمى وأوسع مدى ومجالا ، يقصد بها تماسك الاقوام التى يجمع بعضها مع بعض أواصر القربى اللغوية ، وصلات التهذيب والتقاليد التاريخية ، ولو كانت هذه الأقوام على شقة بعيدة ما بين الطرفين ما كانت . فاقتضى الامر عندئذ أن يختار تعبير يؤدى المعنى ويدل دلالة كافية على متآلب العروق المتحدرة من أصل واحد ، المتماسكة بعصبية جنسية شاملة ، فقيل « الجامعة الجرمانية » و « الجامعة السلافية » ، و« الجامعة الانكليزية » و « الجامعة اللاتينية » وغير ذلك من الجامعات الجنسية المتعددة . على أنه من المعلوم المقرر ، كما قدمنا ذلك ، أن هذه الجامعات ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل صحيح الارومة ، خالص

من الاختلاطات ، وبرىء من شوائب الالتحامات النسبية ، إذ ما هي في الواقع سوى عصبيات قومية عنصرية ، متطورة ظاهرة مظهراً عصريا . ولكن ما دامت أمم أوروبة وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فانى لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هي الجامعات الجنسية الخالصة التي لاريب فيها . فلذلك ترى السياسة العملية قد أصبحت في هذا الدور الجديد للعصبية ، مغشاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها أنها مشتملة على عروق سليمة التحدر من الارومة على حين أن هذا ليس الصحيح ، ولن تزال هذه السياسة جارية هذا المجرى ماقيض للعصبية البقاء .

وهذا الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه في بدء التطور شاملاً للبلاد الأوربية المعدودة انها المواطن القديمة للحضارة ، ثم مالبث أن أخذ أفق هذا المضطرب يمتد ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقاً ومغرباً . فلما وصل الى البلقان مثلا تولدت في هذه الأقطار للحال الدعوات النزّاعة العرق الى الاصل ، الراقية الى التألب العنصري والاستمساك بعصبية الجنس ، فنشأت الجامعة الاغريقية أو اليونانية ، والجامعة الصربية وغيرها . فغدت البلاد البلقانية قاطبة من بعد ذلك مربدة الجواء بقاتم السحب لايسمع فيها سوى قاصفات الرعود ولشدّ ماانقلبت بعد ذلك معمعانا رائعاً ومثاراً هائلا .

ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبة وبلغت الاقطار الاسيوية ، وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً ، فنشأت حركة «تركية الفتاة» و«مصر الفتاة» وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر وايران والهند وجميع هذه النهضات الوطنية العنيفة انما كانت أدلة صادقة بينة على أن آسية قد اختمرت شديد الاختمار بعوامل التنبه القومي والعصبية الجنسية . وما كاد يطلع القرن العشرون حتى أيدت صادقات الأدلة وواقعات الحال أن العصبية الجنسية في آسية كما في البلقان من قبل ذلك ، قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور عصبية التئام العروق وتألبها الجنسي ، فنشأت جامعات جنسية عديدة «كالجامعة الطورانية» و«الجامعة العربية» وأخرى غاية في الخطورة هي «جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية» التي ترمي الى وحدة المعمور الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وانضوائه تحت لواء اسلامي عام .

— ١ —

ونشرع الآن فى الكلام على كيفية نشوء العصبيات الجنسية وقيام النهضات القومية فى الشرقين الأدنى والأوسط ، متتبعين ماقد اجتازته هذه العصبيات من مختلف الحالات والأدوار ، وجاعلين البيان فى هذا الفصل الذى أمامنا متناولا شأن كل عصبية فى رقاع العالم الاسلامى رقعة رقعة ، ماعدا الهند ، إذ أننا قد أفردنا للعصبية الهندية فصلا مستقلا بذاته. والسبب فى هذا الافراد هو أن رجال العصبية فى الهند غالبهم من غير المسلمين ، أضف الى هذا أن النهضة الوطنية فى تلك البلاد لمشتملة على عناصر وفواعل وصفات لم تشتمل على مثلها عصبية فى قطر آخر من الأقطار الاسلامية .

كان العالم الاسلامى - قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر - هاجعاً هجعته التى قدتقدم الكلام عليها ، بعيداً من التنبة القومىّ وثورة العصبية الجنسية وكان غالبه منقسما الى امارات متناثرة ولكن قوية المراس شديدة الشكيمة . وان ما كان فى نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية انما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين . غيرانه كانت مظاهر العزة القومية ، ومبادئ الشمم والاباء جلية فى غالب العناصر كالأمة العربية ، «أمة الرسالة » اذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوة فى الانفعال والنمو ، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظما كافلا لائتلاف المزاج الذى تغدو به العصبية عاملة فعالة . أما الشعب الاسلامى الفذ الذى كان حقاً يتمشى فى عروقه ماينبغى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده وعاشق موطنه القديم . وأماسائر الشعوب الاسلامية فقدكانت على شئ من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية ، والروح النزاعة الى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة .

على ان فى الأمر اعتباراً آخر . ان الاسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية فلما انتهت الشعوب الاسلامية الى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوةً متضامنين متساوين لافرق بين عربيهم وعجميهم ، وأضحت الغاية السياسية المقصودة فى الاسلام من وحدة « الامامة » الكبرى ،

أو الشورى الشرعية العامـة ، أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن بسبب انشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة فى الملة الاسلامية ، كما كانت الحال فى مبدإ عصر النهضة فى أوروبة اذ كانت النهضات القوميـة فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية و « المملكة الرومانية المقدسة » .

لهذا ليس من الغرابة فى شئ أن نرى المنازع القومية والمطامح الوطنية فى الشعوب الاسلامية تنشأ فى أول عهـدها نشوءاً يعروه الابهام والالتباس خـلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فلم تنجل عقيدة العصبية الجنسية الافى خلال النصف الآخر من القرن اذظهرت المنازع الجنسية الرامية الى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية فى تعاليم جمال الدين الافغانى[1] وظهرت أيضاً روح العصبية الجنسية فى المصلحين الترك فى منتصف القرن الماضى لتشربهم المبادئ الغربية واقتباسهم الآراء والافكار الأوروبية فى الجنسية ، مما كان السبب فى ظهور العصبية الجنسية فيهم قبل ظهورها فى سواهم من الشعوب الاسلامية وقد استطاع أولئك المصلحون من رجالات الترك ، بمعاناتهم الصعاب وتفانيهم فى سبيل خدمة سلالتهم وعنصرهم ، و بظهورهم مظهر المدلين المعجبين بصفة اعتبارهم العنصر الذى فى يده زمام الحكم والسلطة على غيره من العناصر الخاضعة له من نصارى ومسلمين ، أن يلقوا نجحاً كبيراً فى نشر دعوتهم وفلاحاً عظيماً فى القيام بنهضتهم .

وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غـيرها من نوعها فى أوروبة ، وذلك على الجملة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن اسفار العز والمجد ، و بتجديد اللغة على مقتضى حاجـة العصر . فقد ظل الترك العثمانيون حـتى نصف القرن الذى خـلا يكادون لايعرفون شيئا من ماضيهم وتاريخهم ، وأصلهم ومنتسبهم بل كانوا اذا تذكروا المجـد العسكرى الذى شيده أجدادهم ، وتلوا صحف تاريخ ملكهم الضخم الذى قد زال معظمه ، فعلوا ذلك على غير مانشوة تصيب مزاج أرواحهم ، وتهيج منهم نفوسهم ، وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم ، اذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية ، الأحاديث عن مجمل ماضى الاسـلام ، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أنباء انتشار الفتوح العثمانية فى القارات الثلاث . فلما انبرى رواد الاصلاح من أرباب النهضة يوقظون

(١) وهو من حيث اعتبار فلسفته صلة الوصل بين الجامعة الاسلامية والعصبية الجنسية الاسلامية

أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخى وذكريات عزهم الخالى ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشى رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طماحة .

وقد كان شأن اللغة التركية منحطاً كشأن الأمة . فلما قام رجال الهمة يبتغون النهضة ابتغاء صحيحاً ، وجدوا اللغة على شطرين : الأول التركية الرسمية وهى خليط مضطرب جامع بين خشن الألفاظ التركية الأصلية ، وبين مأنوس التعبيرات المأخوذة من اللغتين العربية والفارسية ، فكانت هذه اللغة الرسمية المبرقعة رطينى غير مفهومة عند العامة من الأمة . والآخر هو التركية القديمة المحدودة المادة ، المنقسمة الى عدة لهجات تستهجنها الطبقة المتهذبة الراقية وتتجافاها لحوشية ألفاظها وخشونة تعابيرها . فلما شرع رجال النهضة فى العمل ، بدلوا هذا تبديلاً ، واذ آثروا السهولة وتوخوا قرب التأدية فى اللسان التركى أخذ العلماء الترك الغير من رجال النهضة الذين حصلوا علم اللغات فى أوروبة ، يضعون لسانا تركياً جديداً ، مهذباً مأنوساً ، نهجوا فى وضعه نهجا غربياً . فلم ينقض على شروعهم فى هذا العمل مايقرب من ثلاثة عقود من السنين حتى استطاعوا أن أخرجوا للناس لغة تركية ، مشتملة على السلاسة وسهولة المتناول ، فأقبل أرباب الأقلام من الكتاب والشعراء على ارتياد نجعتها وورود شرعتها ، فشاعت فى حقبة قليلة شيوعاً كبيراً عاماً فى المجتمع التركى على اختلاف طبقاته ، وغدت اداةً يتنافس فى اقتنائها ، وحلية ظرف يتجمل بها (١)

من المعلوم المقرر أن معظم السبب فى النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التئام العروق العنصرية ، انما كان جور أوروبة على تركية جوراً سياسياً شديداً . لذا كان الترك كلما ازدادت الحملات الاوروبية على الأقطار العثمانية تقتطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانياً فى سبيله ، وذياداً عنه وحرصاً على مستقبله ، كأنما ذلك الاعتداء كان للترك مستحثا يسوقهم فى سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك فى عصبيتهم الجنسية تتريك جميع العناصر التى

(١) من أراد زيادة الوقوف على تطور النهضة الوطنية التركية يجد مراده فى كتاب «تركية منذ أربعين سنة حتى اليوم » وكتاب « التهذيب الغربى فى الأقطار الشرقية » للمستشرق الكبير ارمينيوس ڤمبارى :
“ La Turaquie D'aujourd'hui et D'avant Quarant ans,, .“Western Culture in Eastern Lands,,

تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف النحلة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركيـة صبغة ولسانا وتفانيا فى الوطنيـة التركية

فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيراً بالعصبيات الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهوراً) فى المملـكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التى كانت قـد شرعت تظهرظهوراً بينا لامراء فيه فى هذا العهد. أضف الى ذلك أن السلطان عبدالحميد كان مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتا بطبيعته وغريزته مقتا كبيراً لـكل عصبية جنسية اية كانت ماهيتها ، لانه كان يخشى من وراء ذلك خسرانا لسلطانه المستبد المطلق ، أو على الاقل قسراً له ليكون فيـه مقيداً ، وكان يرى أن من شأن هـذه العصبيات أن تحول بينه و بين الوصول الى غايته الـكبرى وهى الجامعة الاسلامية التى ولى وجهه شطرها، واتخذها له قبلة ولسياسته أساسا يقوم عليه ذلك البناء الذى جهد فى تشييده . جميع ذلك حمـله على أن يـكون مرتابا شديداً فى رجال النهضة التركيـة ، على معالنتهم اياه بالاخلاص وصدق الولاء فنفى واضطهـد جميع الذين نادوا بالمنازع الحرة وطلبوا الشورى والديموقراطية .

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت اركان الاستبداد الحميدى دكاً ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وانشأت تشتد وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركية الفتاة » ، على احتـلافهم فى شؤون أخرى ، يدعون الى هـذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون . غير أن تلك الاستماتة الـكبرى التى قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر فى حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وحاق بهم من الفواجع اللاحقة . فقـد اندفع رجال « تركية الفتاة » اندفاعاً كانوا فيه بعداء من التروى والحـكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسى الأعمى ، محاولين تتريك المملـكة قاطبة فى فترة من الزمن يسيرة . فهاج هـذا الأمر الهائل ابناء العصبيات الأخرى هياجاً كبيراً حملهم على التنكر لثورة سنـة ١٩٠٨ ، و به سنحت للدول البلقانية النصرانية الفرصة فاهتبلتها فاخذت تـكر على تركية المتضعضعة كرات عنيفة ما برحت تتوالى حتى سنة ١٩١٢

وحقيقة الواقع أن العصبية الجنسية التركيـة انما كانت تنتشر فى أفق غـير أفقها ، وتبتغى أن تمور فى مضطرب غـير مضطربها ، فـكان بينها و بين سائر العصبيات مصطـدم

هائل ، فاشتعلت نار العداء بين العنصر التركى من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفى هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثانى ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المنشعبة من أرومة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا تجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايتها تتريك سائر العناصر غير التركية فى المملكة فحسب ، باتت ترمى الى غاية أرحب مجالاً وغرض أبعد مدًى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الارومة ، فنشأت على أثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » وسنتكلم على شأن هاتين الجامعتين فى غير موضع من هذا الفصل ، أما الآن فاننا نسوق الكلام على مناشئ العصبيات الجنسية فى الاقطار الأخرى من العالم الاسلامى ، ونتتبع معتبرين كيفية اجتياز هذه العصبيات للدور الأول .

بعيد أن أنشأت تباشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى فى الترك ، أنشأت أيضا تباشير مثل تلك تتبدى فى العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة مثلها يبتغيها شعب محكوم ، أعنى كان غالبها بطبيعة الحال انتقاضاً على الترك وقياماً فى وجههم . وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام أن تلك البلاد العربية الصحراوية (نجد) لم تبرح محتفظة استقلالها وحريتها ، وان سائر الأقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركى ، متجهمة فى وجه الترك ، نافرة غضبى ، موغرة الصدر عليهم ، لأن أهلها العرب وهم من « أمة الرسالة » ، قد بات من شق الأنفس عندهم ان يظلوا خاضعين لنير التركى الغريب ، وهو فى عينهم مثال الفظاظة . وقد انقضى ألف سنة منذ أخذ الترك يدخلون فى العرب ويمدون عليهم سلطانهم ، وعلى هذا كله فقد ظل العنصران على عداء ونفور لتضادّ المزاجين تضاداً بعيداً لا يستطاع معه تآلف الطباع ولا التقارب ومحض الود . وقد وصف الكاتب الفرنسى « فيكتور برار (١) » مبلغ ما هما عليه العربى والتركى من اختلاف المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركى من أدرنة أو اطنة يظل بعيداً أقصى البعد شمالا ويظل العربىّ فى سائر الاقطار وعلى مختلف الحالات بعيداً أقصى البعد جنوباً ، فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فان العربى الدمث الخلق

(١) كتابه : Le Sultan l'Islam te le Puissance , 1907

اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن فى شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المغرق فى احتفاظ حريته الفردية الى حد الفوضى ، من التركى البطئ المتثاقل ، الميال الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية . لذلك ظل التركى الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربى ويزدريه لما هو عليه هذا من حب الفن والابتكار والرشاقة ويكره فيه اباءه لرقابة النظام ، من حيث ظل العربى يرى التركى هجعاً جلفاً ، ويحسب هدوءه واطمئنانه بلادة وجهلا وخمولا ، واحترامه القانون ذلا ، وانغماسه فى الرخاء المادى فجورا ، ووحشية . وما انفك العربى يزرى على التركى وينعى عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذ كما كان أحمق جاهلا غبياً » (١)

أضف الى هذا ان العرب باتوا يحسبون الترك متنكبين عن النهج السوى فى ملة الاسلام ، ولذلك لاجرم ان كان شأن العرب على الدوام شأن المتأهب للانتقاض ، المتحفز للخروج على الحاكم الغريب . وقد أسلفنا الكلام فى غير موضع كيف نشأت الحركة الوهابية وما كانت تقصده وتبتغيه من تقويض الحكم التركى وتحرير الأماكن المقدسة . ومع ان الوهابيين قد سقطوا دون أمنيتهم فقد ظلت صدور العرب موغرة يريدون الانتقاض والثورة . نحو سنة ١٨٢٠ كتب السائح بركهردت الالمانى فى شأن بلاد العرب كلمة مأثورة : « متى أخذ الحكم التركى يولى وينحل ويتضعضع فى الحجاز يهب العرب آخذين بالثأر (٢) » . وبعد ذلك الحين بما يقرب من عشرين سنة قال شريف مكة لسائح فرنسى : «ماأشقها علينا من حال ان نكره اكراها، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة، على حناية رؤوسنا لهؤلاء « الباشوات » الأدنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسى الحكم وتقلد أزمة الأعمال الا بأحط الذرائع وأشين الوسائل (٣) » . وكانت تركية طيلة القرن التاسع عشر كلما خاضت حربا فى أوربة وخرجت

---

(١) فى كلام ڤيكتور بيرار هذا مبالغة شديدة زينها له حب الانقسام بين هاتين الأمتين ، ومن أحب شيئاً تجسم له فى خياله ، فلا العرب ينظرون الى الترك ولا الترك ينظرون الى العرب بكل هذا المقت وكل هذا الاحتقار ، وان كان هناك تباين بين الفريقين فى خلائق كثيرة (ش)

(٢) برار ــ كتابه المذكور . (٣) برار ــ كتابه المذكور .

منها مقهورة مفتوتاً فى عضدها ، عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها ، أو انتقاض تشب ناره فى قطر من الأقطار العربية .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالى الثورات غير المنتظمة التى لم تعد نطاق الانتقاضات والاختلافات فى موضع موضع ، حملت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والاقليم ، أو شعور ثائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقررة عقد عليها الرأى ، ووضعت لتنظيم العمل فى سبيل غاية قومية ومطمح جنسى . الا انه فى خلال العقود الستة بعد منتصف القرن الخالى طفقت الروح الجنسية والشعور القومى يظهران ويشتدان فى العرب . وقد كانت سورية منشأ هذه الروح وذلك الشعور . فلم يكن هذا الأمر غريباً بل متوقعاً ، لأن سورية هى القطر العربى الخاضع لتركية عهدئذ ، والأكثر من سائر الأقطار العربية تعرضاً لتاقى الروح الغربية والمؤثرات الأوربية . بيد ان هذه الحركة الأولى التى قام بها العرب فى سبيل جنسيتهم وعصبيتهم لم تأت بالثمرة الطيبة ولا أدركت بها الغاية لأن الذين قاموا بها انما كانوا عصبة قليلة العدد ، والعزم والحزم ، فاستطاعت الحكومة التركية إخماد الحركة والقضاء عليها دون كبير مشقة .

فلما نشبت الحرب الروسية التركية عاد العرب ينفخون فى الضرم . فظلت الأقطار العربية تقوم وتقعد ويستطار منها الشرر عدة سنوات . فانبرى رجال النهضة وأهل العصبية يرفعون عقيرتهم وينادون بتحطيم النير التركى وانشاء مملكة عربية متحدة الأقطار اتحاداً قائماً على استقلال كل قطر فى داخله (كونفدراسيون) تشمل جميع الأقطار العربية وعلى رأسها زعيم دينى كبير غالب أن يكون شريف مكة . وأمر هذه الحركة كان ظاهراً ، اذ كان من شأنها أن تسلك مسلكا بين العصبيه الجنسية بمعناها الغربى و بين المنزع التقليدى الذى لم يبرح العرب ينزعون اليه منذ القديم غايته الرجوع الى الشورى الشرعية التى كانت عليها حكومة الخلفاء الراشدين ، وظهرت ثانية فى الحكومة الوهابية فى نجد .

وقد كانت هذه الحركة العربية الثانية فى سبيل النهضة والعصبية مثل سابقتها نشوءا ونموا ، اذ كان السلطان المستوى على العرش العثمانى عهدئذ هو داهى الدهاة عبد الحميد الذى اقتضت سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية أن يستميل العرب ويوطئ لهم أكنافه ويحسن اليهم صنعاً ، وقد أفلح بذلك حقاً ، فغدت رجالات العرب تفد على القسطنطينية

لاقية من دار الخلافة كل رحب وسعة ، ومنزلةً منزل الاجلال والاكرام ، وطفق عبد الحميد يغدق كثيراً من نعمه وآلائه على أمراء العرب وأشرافهم ، وزعمائهم وسراتهم ، ويجهد كل المستطاع لزيادة إرضاء الأمة العربية وطمئنة بالها وتطييب نفسها ، وفى الوقت هذا كانت المسالك الحديدية التى تفى بأغراض عسكرية عند الحاجة تنشأ فى سورية والحجاز ، فسهل ذلك على الحكومة التركية أن ترسخ قدمها وتعز موقفها وشأنها فى الأقطار العربية اعزازاً ماعرفت مثله قط من قبل من حيث كان للعرب فى أمر إنشاء المسالك الحديدية خير وبركة (١) ، فزادت أسباب التواصل بين الأقطار العربية بعضها مع بعض ، فتوفرت وسائل الثورة وكثرت عدتها . زد على هذا ان عبد الحميد عند قيامه بالدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية وضع نصب عينيه إيقاظ الشعور الاسلامى لانشاء وحدة اسلامية بين العرب والترك كيما يستطيع بذلك مقاومة الغرب النصرانى . وحقاً جاء جهد عبد الحميد هذا الجهد الكبير بثمرة طيبة فكانت كل حملة من حملات الاعتداء الغربى على الشرق الأدنى عبرة كبيرة وعظة بالغة للترك والعرب تحملانهم على أن ينسوا أو على الأقل يتناسوا الأمر الذى يتنازعون فيه ، وينصرفون عنه للوقوف جنباً الى جنب ، وجمعاً الى جمع ، ازاء العدو الخارجى المشترك

على انه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب ونفور ، على ما استطاعه عبد الحميد من التوفيق والاستمالة والارضاء. فعند أواخر القرن التاسع عشر عادت الحركة العربية فظهرت مظهراً جديداً دلّ على شدة سخط العرب وشنأتهم للترك ، فسارعت الحكومة التركية للحال فى اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصبية من العرب شر اضطهاد ، وأكثرهم من السوريين فنفتهم وأبعدتهم لتأمن من شرهم ، فاستقر حال بعضهم فى مصر (وهى فى الحكم البريطانى) و بعضهم الآخر فى غربى أوروبة ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية . فأنشأوا « الجمعية الوطنية العربية » فى باريز سنة ١٨٩٥ وكان ذلك مبدأ رسمياً لعملهم الذى اعتزموا على إنجازه .فانقضى عقد من السنين ودعوتهم تنتشر انتشاراً غامضا ملتبساً ولكن مؤثراً تأثيراً ظاهراً ، ففى سنة ١٩٠٥ شبت نار الفتنة المسلحة فى

(١) كانت السكة الحديدية الحجازية من خير ما أنشئ لفائدة العرب لاسيما أهل سورية ، وكانوا يقدرون ماتستفيده دمشق وحدها من هذه السكة بمائة وخمسين ألف جنيه سنويا (ش)

القطرين العربيين الحجاز واليمن ، الفتنة التي لم يخمد أجيجها كل الجمود مع جميع ماقد تكبدته الحكومة التركية من بالغ العناء والمشقة لتسكين ثائرها وقعها ، بل ظلت الثورة مضطرمة النار اضطراما متقطعاً سنة بعد أخرى ، فقدمت تركية خسارات المال والنفوس مما كان له كبير شأن وتأثير فى ضعف تركية المالى واستنزاف قوتها عند مانزلت بها نازلة طرابلس الغرب والبلقان سنة ١٩١١ — ١٩١٢ .

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النار سنة ١٩٠٥ رنيناً هائلا فى الاندية السياسية الخارجية . فانتبه العالم إذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترص رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ماستطاعوا فى تقوية دعوتهم ببثها ونشرها فى جميع الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شأناً خطيراً فى عالم السياسة ، إذ وقفت دول أوروبة حق الوقوف على يقظة « الأمة العربية الفتاة » وأدركت جلياً آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم . وكان من خير الوسائل لاسماع الدول الغربية صوت العرب وايقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية » أخرجه للناس أحد قادة الحركة الوطنية [١] ، فكان له كبير وقع وتأثير فى المقامات السياسية الغربية . ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » فى باريس سنة ١٩٠٦ منشوراً موجهاً الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبييناً غايات العرب وأغراضهم التى يبتغونها ، وقد جاء فيه : —

« ان انقلاباً سامياً هائلا حادث عما قريب فى تركية . والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين فى إرهاقهم وتفريق حزمتهم تفريقا دينياً ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافاً وطنياً وقومياً وتاريخياً ، وهم يرغبون الآن فى الانسلاخ عن الأرومة العثمانيــة النخرة لينشئوا لهم دولةً مستقلةً ، وهذه هى الأمبراطورية العربية التى تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادى دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربى ذو حكومة دستورية حرة . واما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينــة المنورة فيتألف منها مملكة

---

(١) وضعه بالفرنسية نجيب عازورى وطبع فى باريس ١٩٠٥

" Le Reveil de la Nation Arabe ,,

مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفة جميع المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى فى الاسلام وهى التفريق بين السلطتين المدنية والدينية » .

وفى المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأعزاء : كل منا يرى بأم عينيه عظم ماصار يلقاه العربى الشريف الكريم من المذلة والزراية اليوم حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك . وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، فى عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسية الوسطى . فبلادنا ، وهى جنة الله فى أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها . فلما كنا أمة حرة فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا فى أمم الأرض مختلف العلوم والفنون والأداب ، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة ومهدى سبل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا غدونا نقيم على القهر والذل ، فخربت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعضعت حالنا تضعضعاً مارأى مثله شعب آخر فى الأرض » (١)

غير ان البلاد العربية لم تنل إذ ذاك استقلالها ، فظلت الثورة لاتعدو نطاقا معلوما ، وظلت تركية قابضة على أزمة الحكم فى غالب الأقطار العربية . ولكن وقوع الاضطراب والاختلال كان يتوالى على غير ماانقطاع . وفى أواخر عهد عبد الحميد كانت الأقطار العربية قد أصبحت على حال من القلق شديدة يتنازع قواها عاملان : عامل الفتنة والثورة فى سبيل النهضة القومية والجنسية العربية ، وعامل الجامعة الاسلامية المقتضية جمع كلمة المسلمين لمقاومة الاعتداء الأوروبى .

فلما كانت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيراً كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحاً وحبوراً بانهيار صرح الاستبداد وتقوضه حتى الاساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأمانى وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم فى « البرلمان » العثمانى ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسطاً معلوماً من الاستقلال الداخلى « اللامركزى » ، فرفض رجال تركية الفتاة مطالب نواب العرب رفضاً باتاً دون أن يجيبوهم الى شئ منه ،

(١) يمكن الاطلاع على كامل هذا المنشور فى كتاب E. Jung :
" Les Puissances devant la Revolte Arabe :
La Crise mondiale de Demain ,, (Paris 1906)

ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتتريك العناصر فى جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر ان أدرك العرب وأيقنوا محق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتداداً بالغاً فى الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع و يشتد ، رامياً الى الانفصال على ان هناك أمراً حرياً بالاعتبار التام وهو ان جميع الحركات والمساعى التى طفق العرب يجهدون فى القيام بها فى سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشيةً على خطة أوسع مجالا ونطاقاً ، وأبعد أفقاً ومرمىً ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية فى أقطارهم الخاضعة لتركية على صلة وثيقة تصل بينهم و بين أمثالهم من رجال النهضة القومية فى مصر وأفريقية الشمالية الخاضعة لفرنسة ، تلك الأقطار العربية التى أقل مايقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دماً وعرقاً وأصلا. لذلك بعد ان كان ذكر العصبية العربية همسة تفرغ فى الأذن أو سراً يتناجى ، صار صوتاً عالياً وصرخة جوابة الآفاق رنانة الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطمح كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربى شاملة شمال أفريقية وجنوبى آسية ، وممتدةً من الاوقيانوس الاتلنتيكى حتى الاوقيانوس الهندى . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تجتاز دورها الثانى دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

وقبل أن نتوسع فى الكلام على الجامعة العربية توسعا عاما يجدر بنا أن نبسط كلمة نبين فيها الجرى الذى جرته العصبية الجنسية فى المملكة العثمانية وذلك أنه فى الحين الذى أثار فيه الأعتداء الغربى سنة ١٩١٠ — ١٩١٢ العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومى العربى يهتاج اهتياجا شديداً متوالياً دون انقطاع بسبب ما أنشأت تركية الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فثار ثائر الاستقلال فى العرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل . ففى سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربى فى باريز وضع أعضاؤه خطة وشرعوا فى القيام على مقتضاها بدعوة ثورية واسعة النطاق . فلما نشبت الحرب العامة فى السنة التى تلت كانت الأقطار العربية الخاضعة للحكم التركى تقوم وتقعد مضطربة أشد الاضطراب ، فأربد الجو بقاتم

السحب المنذرة بزلزال الثورة (١). فخشيت الحكومة العثمانية شبوب النار فاحتاطت للامر احتياطا تاما وأعدت له عدته الكاملة ، فسجنت من سجنت وشنقت من شنقت من زعماء العرب وكبرائهم وأحرارهم القائمين بالنهضة القومية العربية ، الذين استطاعت القبض عليهم . فعلت ذلك بينما كانت تنفخ فى نفير الجهاد مستنفرة المسلمين للذب عن بيضة الاسلام ، ذلك الاستنفار الذى حمل جانباً من الرأى العام العربى على الجنوح الى الترك ، ولا سيما لما كان فتح مصر يحسب متناولا قريبا وممكنا من الممكنات . بيد أنه لما طبقت الحرب وأخذت فى الاستمرار كالحة الجبين مكشرةً عن الأنياب ، عادت عوامل العصبية الجنسية تثور قاذفة حمم السخط والغضب . ففى سنة ١٩١٦ قدح شريف مكة زناد الثورة العربية ، فكانت ثورةً منذرةً بانهيار الحكم التركى مقوضة له تقويضاً ، وقد كانت بريطانية العظمى ظهيرة للثورة العربية هذه تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء ، فسارعت الاقوام العربية العديدة فى نصرة الثورة وتأريث نارها قوة وعملا . ولما كانت العرب قد هاجتهم وعود الحلفاء ايما هياج : وعود تقرير المصير ، والاستقلال الداخلى ، والاستقلال التام ، وهى غاية فى الاغراء والتغرير ما بعدها غاية ، انبعثوا يقاتلون الترك قتال الاستماتة والاستبسال فكانوا العامل الأكبر فى تبدد الجيش العثمانى وتلاشيه فى خريف سنة ١٩١٨ (٢)

---

(١) بيان واف فى مساعى العرب وجهودهم لنيل الاستقلال متضمن فى مقال ممتع نشره الكاتب الثقة فى الشؤون الاسلامية « X » موسوماً « بالسياسة الجارية فى العالم العربي » فى « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية . كانون الاول سنة ١٩١٣

Les Courants politiques dans les monde Arabe, “ Revue du Monde musulman ,,

واقرأ كتاب ج . و . بورى لندن ١٩١٥

Arabia Infelix , or the Turks in Yemen ·

(٢) للاطلاع الوافى على أعمال العرب خلال الحرب العامة اقرأ : —

« الاستقلال العربى والثورة الواقعة » للكاتب جنغ فى « المجاد » الفرنسية آب ١٩١٦

E . Jung , “ L ’ Indérendance Arabe et la Revolte actuelle ,, “ la Revue ”

« العرب ضد الترك » للكاتب لفين « مجلة المجلات الأميركية » . كانون الأول ١٩١٦

I . D . Levine , “ Arabes versus Turks ” American Reviw of Reviews ,,

كتاب أ . موزيل ١٩١٨ (ليبزيك)

A , Musil , “ Zur Zeitgeschichte von Arabien

وقبل أن نشرع فى تتبع الحوادث المهمة التى حدثت فى الأقطار العربية المنفصلة عن تركية منذ سنة ١٩١٨ ، نؤثر أن نسوق الكلام على النهضات القومية والحركات الوطنية فى اقطار العالم العربى الغربى ، أقطار شمالى افريقية ، بادئين فى الكلام على القطر الأخطر شأنا الا وهو مصر .

ان السواد الأعظم فى الشعب المصرى لهذا العهد كما فى عهد الفراعنة ، متحدرو السلالة من المصريين القدماء ، من الارومة النيليــة (نسبة الى النيل) القدمى . واذ كان هذا السواد من «فلاحة» المصريين على خلق البطء والقناعة ، فقد خضعوا لعديد الفاتحين الغرباء الذين ملكوا مصر على التوالى فى أدوار مختلفة . وكاد يكون خضوع المصريين هذا الخضوع أشبه بسلسلة متصلة الحلقات ، الا ما كان يتخلل ذلك فى بعض الفترات من ثورة ينفجر بركانها أو فتنة تشب نارها ، ولكن عجلان ما تعود العاصفة فتهدأ والنار فتخمد ، ثم تبتدئ حلقة من الخضوع جديدة . وهناك فوق سواد المصريين المتحدرين من الأرومة « النيلية » طبقة قليلة العدد أرفع منزلة وشأناً ، أكثرها متحدر من ذرارى أواخر الفاتحين الأسيويين ، العرب والكرد والجركس والألبانيين والترك . زد على هذا أن هناك بجانب هذه الطبقة العلية التى ظلت حتى الاحتلال البريطانى صاحبة الحكم والسلطان ، والأمر والنهى ، ومحتجنة جميع السلطة السياسية ، عددا « من المستعمرات » الأجنبية المتمتعة « بحقوق الاستثناء » ، وأيضا عنصراً نصرانيا قديم الارومة هم الاقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربى ، وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر .

فبلاد مثل مصر ، مختلط لمختلف الاجناس والاصول والعقائد وصنوف الثقافة

كتاب « الجامعة الاسلامية » لبورى لندن ١٩١٩ "Pan - Islam ,,

«الحالة السياسية والدينية فى بلاد العرب» ميلريا مجلة «العالم الاسلامى» الانكليزية تموز (يوليو) ١٩١٩

S. Mylrea, "The Politico — Religious situation in Arabia ,, "The Moslem World ,,

« لورانس : روح الثورة العربية » ل . توماس مجلة « آسيا » نيسان وايار وحزيران ١٩٢٠

L. Thomas, "Lawrance : The Soul of the Arabian Revolution," "asia"

والتهذيب ، كرّت عليها أزمان متطاولة وهى حانية عنقها للغريب حتى لا بستها تقاليد الخضوع ورئمت الانقياد ، قد تبدو بادئ الرأى كأنها ليست بالبلاد الصالحة البيئة والمضطرب لنشوء العصبية الجنسية . على أننا اذا اعتبرنا شأن مصر ومن وجه آخر ، رأيناها البلاد التى ما برحت أكثر أقطار الشرق الأدنى تعرضاً لتيار المؤثرات الغربية ولواقح الحضارة الأوروبية . وقد كان للفتح النابليونى عند ختام القرن الثامن عشر تأثير شديد فى وادى النيل . ولما نهض محمد على ، البطل الالبانى المقدام ، وسود نفسه على مصر بعد زوال الحكم الفرنسى ، أيقن من ذاته بأن أوروبة فائقة غيرها فى عالم العمران بحذق المنهج وحسن الأسلوب ، فشرع يأخذ عنها ويقتبس منها ، وينتهج طرقها انتهاجا وان كان عرضيا فقد كانت نتيجته انبثاث الأفكار الغربية وذيوع الآراء والمؤثرات الأوروبية ، وقد سار خلفاء محمد على على أثره وسننه من بعده فى هذه السياسة ، غير أن الخديوى اسماعيل المبذر المنفاق الذى كان اشتطاطه فى عقد القروض المالية مع الدول الأوروبية السبب الأكبر فى التدخل الأوروبى ، كان نخوراً كبيراً ومختالا عظيما متظاهراً بالروح الأوربية التى لا تجاوز العرض والقشور ، ومغاليا فى ذلك كل المغالاة ، فأكثر من حوله من الأوروبيين حتى بات عددهم كثيراً .

وظهرت الحركة الاولى التى تبدت فيها باديات العصبية الجنسية المصرية ، ظهوراً صورته احتجاجٌ ونقمةٌ على اغراق الخديوى اسماعيل فى تشرب « الاوروبية » اغراقا مشؤوما يضر البلاد ويرهقها ويفقرها ، وأيضا على اكثاره من البطانة المضياعة للمال . فبات عقلاء المصريين وحكماؤهم فى هذه الحال على اختشاء مزداد لنهج اسماعيل ذلك النهج الوخيم العاقبة ، القائم على رهن استقلال مصر الذى بات معرضا للمحق والزوال ، بسبب ما عقده الخديوى من القروض المالية الاوروبية الكبرى المستنزفة لدم البلاد بالضرائب الفادحة الباهظة الاعباء . واذ كان أولئك القوم الصادقون قد تشربوا على وعى أم غير وعى منهم العقائد الاوروبية « كالجنسية » و « الوطنية » ، فقد أزمعوا أن يقفوا اسماعيل عند حد فى نهجه الجارّ لمصر كبير البلاء ، وأن يجعلوا مستقبل مصر فى مأمن من طوارق الحدثان ، وفوق ذلك فانهم لم يقصروا سعيهم وجهدهم على مقاومة أولئك الارهاط من الأوروبيين أهل الابتزاز والانتفاع على طرق فيها حذق ودهاء ، أولئك الذين كان دأبهم استغواء

الخديوى والتزيين له فى تبديد المال واستدراجه من مغرق مالى الى آخر ، بل أراد القوم أيضا مقاومة « الباشوات » المتملقين من ترك وجركس ، والمرابين من الارمن والسوريين الذين كانوا جيعا آلة اسماعيل ومواليه ومصطنعيه . هذا هو مبدأ الحركة الوطنية والنهضة القومية فى مصر ، احتجاج « وطنى » عنيف وصرخة شعبية شديدة على جميع الذين كانوا يجرون بالبلاد الى شر المهالك ، سواء أ كانوا من الاجانب أم من أبناء البلاد ، وفى مطلع هذه الحركة ظهر شعار مصر ينادى به القوم الحاضون الوطنيون ، الشعار الذى لم يسمع فى مصر من قبل ، الا وهو : « مصر للمصريين ! » .

وفى ابان مثار هذه الحركة الوطنية الوليدة ، التى طفقت فواعلها تقوى وتشتد ، ظهر جمال الدين بسلطانه النفسانى الهائل وروحه الاجتماعية الكبرى يوقظ مصر ويستثيرها بتعاليمه ، حتى غدت نفوس القوم مترعة بنشوة الانفعال . على أن جمال الدين ، هذا الرجل القطب الفرد ، لم يتجل من سلطانه ويبد من بالغ تأثيره وعظم منزلته ما تجلى وبدا منه فى مصر . وليس من المغالاة أن نقول انه هو حقاً أبو جميع ما فى مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية . فهو قد استطاع حق الاستطاعة أن يحكم بسلطانه ويستولى بشدة عارضته ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابى باشا فحسب ، بل أيضا على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير الذى أدرك وهن مصر وضعف أمرها فانشأ يعمل ويجد ثبت الجنان رابط الجأش فى سبيل الاصلاح ، متوخيا وسائل الترقية وذرائع التنشئة على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود .

وفى هذه الآونة ظهر رسل الدعوة الثورية يؤدون واجبهم الذى أخذوا نفوسهم به ففى سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة يرأس القائمين بها عرابى باشا ، وهو ضابط من ضباط الجيش ومن عامة الشعب ، فكان هو أول رجل متحدر من أهل مصر القدماء ، من الأرومة « النيلية » (١) نهض ليسود مقدرات مصر فى هذه العصور الحديثة ، وما أسرع ما لبى نداءه أهل الثورة الهائجون ، وهم يصرخون « مصر للمصريين » يحاولون طرد « الاجانب » من أوروبيين وأسيويين ، من مصر بلاد الفراعنة . لكن حبطوا فى مسعاهم وسقطوا قبل الوصول الى الغاية المبتغاة ، وحدثت مذبحة الأوروبيين فى ثغر

---

(١) سمعت عن عرابى أنه عربي صميم وانه ينسب الى النبعة الفاطمية (ش)

الاسكندرية فكانت للحال داعيا للتدخل الأوروبى . فنزل جيش بريطانى الى البلاد وقاتل الثوار فبدد قوتهم فى واقعة « التل الكبير » ، وبعد هذه الوقعة التى جرت بين أهل مصر وجيش الاحتلال ، خضعت مصر المشتتة الاحوال الفارغة الخزانة من المال للحكم البريطانى الحكم الذى تمثل كل التمثل بأ ڤالين بارنغ أعنى اللورد كرومر . وأبقيت السلالة الخديوية على أريكة العرش ، من حيث روعى شكل الحكومة الوطنية ، لكن جميع السلطة النافذة الحقيقية قد استقر نصابها فى « المستشار المالى » البريطانى ، الناطق بلسان الامبراطورية البريطانية فى مصر والقائم بالغاية الاستعمارية .

وحكم اللورد كرومر مصر خمسا وعشرين سنة . وتاريخ هذا الحاكم المقتدر الحازم يكسبه أبداً مقاماً رفيعاً فى مستوى أعاظم رجال الادارة والتدبير وولاية الأحكام فى العالم فانه قد استطاع حقاً أن ينقذ مصر بساعديه القويتين من مأزق الافلاس ويرقى شأنها الى ذروة النجح والفلاح . غير ان الرخاء المادى ، ولو بلغ فى مصر مهما بلغ ، ما كان ليطفئ فيها جذوة القومية واعتلاج روح العصبية الجنسية . فاذ كانت بذور النهضة قد بذرت فى بلاد الفراعنة قبل الاحتلال البريطانى ، فقد أخذت هذه البذور تنمو نمواً بطيئاً ولكن نمواً ماضياً مضياً مستمراً فى تربة وادى النيل الممرعة الخصبة ، وطفق الشعور القومى فى المصريين ، وقد كان عهد واقعة « التل الكبير » وليداً ، يزداد نمواً ويشتد قوة واستقراراً وايغالا فى النفوس على توالى الأيام ، حتى بات عند نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر أثراً محسوساً بيناً جليا ، يوقن به أهل النظر وأرباب الادراك من المستطلعين الأوروبيين ولما عاج المستكشف الافريقى « شوينفرت »[١] على مصر سنة ١٨٩٥ ، راعه حقا ماشاهده من مبلغ التطور النفسانى الذى حدث فى وادى النيل خلال المدة المنقضية منذ زيارته الأولى فما قال : « ان التنبه القومى واليقظة الجنسية ينموان فى مصر نمواً بطيئا ولكن مستمراً . ان المصريين وان كانوا مابرحوا على بعد من العصبية الجنسية الصحيحة فان طلائع ذلك قد بدت ولا تلبث أن تتكامل » .

وفى مطلع القرن العشرين أخذت الواقعات تحقق ماكان قد سبق لأهل النظر الصادق وأولى الألباب الثاقبة فانبأوا به ، فتطورت الحال تطوراً فجائيا كبيراً وانقلبت

---

(١) Georg Schweinfurth

مصر بؤرة تغلى فيها مراجل العصبية الجنسية ، وقد كان فى القائمين بهذه الحركة القومية التى بعثت بعثا جديداً ، حزب معتدل مؤلف من المحافظين مثل الشيخ محمد عبده مصلح جامعة الأزهر والصديق الصفى للورد كرومر[1] ، المصلح الذى جاهد حق الجهاد فى سبيل تعليم أبناء بلاده وأمته ان أقرب الوسائل وأوفى الذرائع لبلوغ غاية الحرية الصحيحة التى تنشدها الأمة المصرية انما أمرها لايتم الا بتنوير الأذهان وتثقيف الألباب ، وتربية النفوس التربية الصحيحة ، والترقية العلمية . أما الحركة المصرية الجديدة فقد كانت على الجملة احتجاجا شديداً عنيفا على استمرار الحكم البريطانى فى مصر وطلبا لجوجا لامنصرف عنه لنيل الاستقلال العاجل . ولعل الأمر الأحرى بالاعتبار والأجدر بالتدبر فى جميع القضية ، ان المصريين قاطبة كانوا ، وقد تغلغلت فى نفوسهم نشوة العصبية ، على اختلاف أحزابهم من محافظين وغلاة ، متفقين اتفاقا تاما على أن لايعتبروا مصر قطراً تابعا للامبراطورية تبعا دائما ، وقد كان لرجال النهضة والحركة أساس قانونى ، مشروع صحيح ، يبنون عليه حججهم وبراهينهم فى وقوفهم فى وجه بريطانية ، وذلك فى الواقع أن الحكم البريطانى انما قام على أسس سياسية واهية متضعضعة غير ثابتة باعتبار أن بريطانية قد انبرت تتدخل فى شؤون مصر من تلقاء نفسها ، جاعلة ذاتها كأنها « منتدبة » لرعاية المصالح المالية الأوروبية . فكان عملها هذا موضوع خلاف بعيد الشقة ، وسبب تشادّ شديد فى أوروبة ولا سيما بين بريطانية وفرنسة . فلما أيقنت الأولى باشتداد الأمر وتفاقم الخطب عمدت الى تسكين ثائر الحال فأعلنت مراراً وتكراراً أن احتلالها مصر انما كان على صفة موقتة لاصبغة دائمة له . والواقع ان سخط المصريين السخط البالغ الحد ، قد كانت فرنسة من الهائجين لثورته والموقدين لناره وذلك على عمد منها . وما انفك هذا شأنها حتى عقدت عروة الود والمصافاة بينها وبين بريطانية سنة ١٩٠٤ ، مع هذا كان العطف الذى تعطفه فرنسة على الآمال المصرية عاملا كبيراً فى ترقى النهضة الوطنية فى مصر ، فعظمت مكانة فرنسة فى وادى النيل ، من الجهة الأدبية التهذيبية ، حتى بات نسيج التعليم الفرنسى فى أعين المصريين أجمعين أصلا ، وجميع ماعداه من أنساق التعليم الأوروبى نسخا عنه

(١) الذى ظهر فيما بعد من خاطرات كرومر أن المرحوم الأستاذ كان يصانع اللورد مصانعة لينال منه بعض المساعدات لوطنه . والذى يعرفه هذا العاجز من نفس الأستاذ أن قلبه كان يلتهب تحرقاً على حالة مصر . (ش)

ومحاكاة له . فجعلت الناشئة المصرية تأخذ العلوم عن أساتيذ فرنسيين ، سواء أفى مصر أم فى فرنسة ، ولما كان هؤلاء الاساتيذ على الغالب من أهل المقت لبريطانية ، كانوا لا يفترون عن اهتبال كل سانحة لبذر بذور الشنأة للانكليز فى نفوس الطلبة المصريين وحملهم على أن يقوموا بالمناوءة والمناهضة للمحتلين.

وقد كان رجال النهضة وأهل العصبية من الغلاة يرأسهم فتى من فتيان وادى النيل هو مصطفى كامل . كان هـذا الفتى الفرد مقيم مصر ومقعدها ، زعيم المحرضين والهائجين دون منازع ، لوذعيا حديد الفؤاد ، شديد العارضة ، متوقد الجنان وطنية ، خطيباً مصقعا ساحر البيان نارىّ الكلام ، يقتاد سامعيه وقرّاءه متى شاء وأنى شاء والى ماشاء . وفوق ذلك كان ناشراً مقداماً من الطراز الأول لدعوة العصبية الجنسية ، لاينى له عزم ولا يفل له حزم ، وكان يقوم بتحرير طائفة من الصحف والمجلات معاً حتى اذا ماعطات له السلطة البريطانية واحدة منها اعتاض عنها فى الحال بسواها بحيث لايقف سعيه ولا ينقطع جهاده وعلى الجملة فانه كان لانظير له فى العصبية الجنسية المصرية ، ويمكن الاطلاع على شىء من روحه فى ذلك بالوقوف على بعض ماكتبه ، فما دبجه يراعه أوائل سنة ١٨٩٦ ، متخذاً شعاره « المصريون لمصر ومصر للمصريين » مايلى : —

« ان الحضارة المصرية لن يستوى لها ساق فى المستقبل ولن يشيد لها بناء الا اذا قامت على سواعد أهل مصر واشترك فيها كل مصرى وعلم الفلاح والتاجر والأستاذ والطالب ان الانسان ذو حقوق معنوية مقدسة ، وانه ماخلق ليكون آلة مسخرة فى يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية ، وان حب الوطن لأسمى عاطفة تشرف بها النفس وتعتز وتفخر ، وان أمة غير مستقلة لهى والعدم سيان ! انما بالوطنية ارتقت الأمم من دركات الانحطاط الى ذروة العلى وسارت سريعة الخطى فى سبيل الحضارة والمجد والقوة والسلطان . انما بالوطنية يتكون الدم الجارى فى عروق كل أمة حية. انما بالوطنية يحيا كل مخلوق عاقل »

وماكان احتقار الانكليز فى مثل هذه المقالات قليلا . والى القارىء كلمة من إحدى فواتح « اللواء » : « نحن المغتصب حقهم والانكليز هم المغتصبون . نحن نطلب حقاً مقدساً والانكليز هم أعداء هذا الحق . لهذا اننا على ثقة بالفوز عاجلا أم آجلا ، ومتى كان امرؤ ذا حق فلا بد أن يناله ، وليس بينه و بين ادراكه الا شطر من الزمن » .

على ان مصطفى كامل كان فى رحابة صدره و بعد مطمحه وآماله ، طلاّعاً الى الجواهر لاتاخذ بلبه الاعراض ، درّاكاً للحقائق لايسع نظره الأوهام ، فأيقن وهو الرجل الحكيم بان ليس من المستطاع ولا سيما فى ذلك الحين إكراه الانكليز على الجلوة عن وادى النيل ، لهذا هو لم يحاول معالنتهم بالعداء أو مصارحتهم بالمناهضة الأمر الذى علم من ورائه جر البلوى الى نفسه وأبناء أمته . وانتقل الى جوار ربه فى أوائل سنة ١٩٠٨ غضاً رطيباً فى الرابعة والثلاثين من عمره ، فوقع رداؤه من بعده على مريده الزعيم محمد فريد بك . أما هذا الرجل فلم يكن ندّ مصطفى طرازاً ، فحاول أن يغنى عما كان يعوزه من بلاغة الخطابة وسحر الكلام ، بشدة التنديد ومرارة الطعن (١) ، ويمكن ادراك الفرق والتفاوت بين نسيج الزعيمين بالتنظير بين الفواتح التى حبرها كل منهما فى صحيفة « اللواء » فقد جاء فى مقال بقلم محمد فريد بك نشر فى ايلول سنة ١٩٠٩ مايلى : —

« بماذا نذكرك أيها اليوم ، وفيك تدنست هذه الأرض بأقدام الانكليز ، وتلوثت بجرائمهم ، وتلطخت بفظائعهم ، فقضوا على دستورنا ، وكموا أفواهنا ، وعقدوا ألسنتنا ، وحرقوا الأحياء منا ، وشتتوا الأبرياءَ من أهلنا ، وجاءوا شيئاً اداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا » (٢)

ففى هذا الدور الذى بات فيه العنف أشد وأعظم ، ازدادت الأسباب المشجعة لرجال النهضة الوطنية وتضاعفت جرأتهم واشتد اقدامهم ، وذلك لعدة أسباب : منها ان اللورد كرومر زايل كرسيه سنة ١٩٠٧ فخلفه من بعده السر « ألدون غورست » . وإذ كان هذا الحاكم الجديد من حزب الأحرار الانكليز الذين كانوا عهدئذ أصحاب الحول والطول والسلطة القائمة فى الدولة البريطانية ، أخذ فى التمشى على قواعد مذهبه الانكليزى الحر متوخيا دائما تسكين هائج مصر وتهدئة ثائرها بالرفق والاستمالة والتوفيق ، لابمثل ماكان يتمشى

---

(١) كان المرحوم محمد فريد ممن يشار اليهم بالبنان بين زعماء النهضة الشرقية ، وكانت فيه مناقب عديدة تستحق له حرمة كل من عرفه. (ش)

(٢) هذا مقتبس من مقال نشر فى « اللواء » الصادر فى ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان (ذكرى اليوم العصيب . الحداد أيتها الأمة !) بتوقيع « امين الرافعى المحامى » ، وخلاصة المقال دعوة الأمة المصرية للحداد احتجاجاً على الاحتلال الانكليزى الذى كان مضى عليه سبعة وعشرون عاماً . (المعرب)

عليه اللورد كرومر من الاتوقراطية غير المتحيزة ، ومنها ان ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ قد كسبت المصريين صولةً هائلة وحدّة شديدة ، فازداد صراخهم و بلغت أصواتهم عنان السماء ، يريدون حكومة دستورية شوروية نيابية . ومنها ان اعزاز ميثاق الود والولاء بين فرنسة و بريطانية كان قد محق أمل المصريين محقاً ، ذلك الأمل الذى كثيراً ماعللوا أنفسهم بتحقيقه وهو ان تكره بريطانية إكراهاً بقوة السلاح على الجلوة عن وادى النيل قياماً بتحقيق عهودها السياسية . وفى هذا الموضع أدرك المصريون حقيقة الحال والواقع فازدادوا اعتمادا على نفوسهم ، وانقلبوا يضاعفون جهودهم واثقين أن لا ناصر لهم سوى أنفسهم ولا حاكّ لجلدهم غير ظفرهم .

ولما بلغت الحال هذا المبلغ من اشتداد روح القومية والعصبية الجنسية بات من المتوقع حبوط سياسة التوفيق ، والاخفاق فى نهج الاستمالة ، لأن السر ألدون غورست ، وان كان ذا اقتدار على التأليف والاستمالة فى فرعىّ الأمور وجزئىّ الشؤون ، فلم يكن يستطيع أمراً واحداً هو غاية الغايات عند رجال النهضة ومرادهم فوق كل مراد ومبتغاهم فوق كل مبتغى ، وذلك أن يقطع للمصريين وعداً باعطائهم الاستقلال ومنحهم الحكومة النيابية الدستورية . قد رفضت بريطانية هذا الأمر برمته بل أبت طرحه على بساط البحث والمناقشة ، وغدا الانكليز قاطبة مقتنعين اقتناعاً راسخاً ان مصر مع قناة السويس انما هما الصلة الحيوية بين قسمى الأمبراطورية البريطانية فى الشرق والغرب ، وان بقاء الحكم البريطانى من حيث هذا الاعتبار قد غدا ضرباً من ضروب الضرورة الكلية التى لامندوحة عنها فى أى وجه من الوجوه ، فنشأ عن ذلك عقبة سياسية تورطت عندها الأمور ، بين سياسة حب التوسع الأمبراطورى البريطانى و بين مطلب المصريين الشديد ، لهذا أخفقت سياسة أحرار الانكليز التى قد يرجى نيل الائتلاف على يدها ، بل عدت عقما مابعده من عقم ، وقد اعترف السر ألدون غورست نفسه بهذا فى بياناته الرسمية ان الاذعان فى القضية المصرية من جانب بريطانية انما بات دليل العجز وبرهان الضعف .

ثم باتت الحكومة البريطانية من بعدئذ تتوقع نزول النازلة وسوء العقبى على أثر مااستحال عليها من حوص الشق ، ورأب الصدع ، فاقتنعت أن لاذريعة لها لدفع الخطر الداهم ودرء الخطب المقبل الا باتخاذ وسائل الاحتياط الشديد لقمع كل حركة تبدو فى وادى

النيل ، فاستبدلت سنة ١٩١١ بالسر ألدون غورست اللورد كتشنر - اللورد الذى جاء نذيراً صارخاً فى ملأ رجال النهضة الوطنية فى مصر ان الفتنة ان غلى مرجلها قمعتها تلك اليد الحديدية واستأصلت شأفتها ، اليد التى سحقت الخليفة وجوعه من الدراويش عند « أم درمان » سحقاً . ووصل كتشنر الى مصر معلناً مبيناً انه انما جاء لاقرار الأمن والنظام فى نصابهما حتى يستتب الأمر وتصفو الحال ، وحقاً فان اللورد كتشنر قد أنجز القيام بهذا بدقة واحكام و بلغ المصريين تبليغاً صريحاً ان بريطانية لاتنوى الجلوة عن وادى النيل ولا تعد أهل مصر أهلا للحكومة الشورو ية النيابية حاضراً ولا فى مستقبل معلوم الميقات . وأنذر المصريين إنذاراً ان الأجدر بهم أن ينصرفوا عن مزاولة السياسة التى ما كانوا فيها على مزعم الانكليز أبناء بجدتها ، الى الزراعة وهى الفن الذى يجيدونه على مهارة . وأما الدعوة الى الفتنة والثورة فقد استطاع اللورد كتشنر بما خولته القوانين الجديدة التى سنت فى تلك الغضون أن يتناولها بالقضاء عليها متناولا قريباً . زد على ذلك ان الحكومة البريطانية عطلت جميع الصحف الوطنية المجاهدة فى سبيل النهضه والاستقلال وشتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة بزج فريق منهم فى غيابات السجون ، واعتقال بعضهم ، ونفى البعض الآخر . وفى الواقع فان الحكومة البريطانية قد جهدت جهداً كبيراً لتصرف الانتباه فى الخارج عن أمر مصر ، وأخذت فى تمويه شؤون وادى النيل على العالم ، وقد انبرت الصحف البريطانية تظاهر الحكومة فى هذا الأمر مظاهرة الاخلاص وتمالئها على تلك المزاعم ممالأة النصير المعين ، فامتد رواق السكينة فى مصر واستتب الحال استتباباً ما كان مثله منذ عقود من السنين .

على أن ذلك كان أشبه بسكون العاصفة لاتلبث أن تتناوح أرياحها فى الجو المربدّ ، فعادت مراجل الاضطراب فى مصر تغلى مادون أغطيتها غلياناً شديداً ، حمل أرباب التدبر والاستطلاع على الاختشاء البالغ والتشاؤم الشديد . قال سدنى لو الكاتب الانكليزى الذائع الصيت سنة ١٩١٣ بعد استقصائه حال مصر مدقق الاستقصاء مايأتى : « ليس لنا لعمرى شئ من مقام الاكرام والاعتبار عند الأمة المصرية ، التى بعضها يخشوننا خشية و بعض يحترموننا احتراماً ، و بعض وهم أقل من القليل يحبوننا حباً [1] »

---

(١) كتابه « مصر فى دور الانتقال » (لندن ١٩١٤) Egypt in Transition.

وأكثر من هـذا صراحة و بيانا مقال موسوم بـ« الظـلام المخيم فوق مصر » نشر قبيل انفجار بركان الحرب العامة ، فى احدى مجلات العلوم الـكبرى [١] التى يدبج فصولها ومقالاتها العلماء الاختصاصيون النحارير فى شؤون الشرق ، فـكان لهذا المقال كبير وقع و بعيد دوى ، ومما جاء فيه قول الـكاتب الضليع صاحب المقال : «ان هذا الامساك الطويل ، والانقطاع المديد فى عالم الصحف البريطانية عن كل بحث فى جميع مايتعلق بالشؤون الداخلية فى مصر ، ليس دليلا على حسن الحال وصحتها بل على سقمها واعتلالها ، بل هذا السكون الظاهر البادى ماهو الا السخط مضغوطاً عليه أشد الضغط لئلا ينفجر ، انما هو عدم الثقة بالحـكومة البريطانية المحتلة ، و وغر الصدور عليها . وقد كان من شأن الواقعات الحديثـة انها شددت الاعتقاد والايقان فى نفوس المصريين ان الحـكومة البريطانية انما تعد العدة كلها لاستلحاق مصر بالامـبراطورية استلحاقا تاماً باقياً . وليس من شأننا فى هذا المقام ان نتساءل فى مبلغ ماهى عليه هـذه الأمور المنسوبة الى الحـكومة البريطانية من الصحة والوقوع . انما الحقيقة الجوهرية المشهورة ان حكومة الاحتـلال لما تفلح فى اكتساب الرضى والقبول من لدن المصريين ، بل مابرحت على الضـد من ذلك ولم تنفك هى مظنة السوء وشاهد العداء بينها و بين أبناء النيل » ويحمل هذا المقال القيم البين على الارتياب الشديد فيما اذا كانت التدبيرات الجائرة التى اتخذها اللورد كتشنر قد أتت بنتيجة ماسوى ان قد سببت استفحال السخط وغليان مراجله غليانا هائلا تحت اسـداد لاتلبث أن تتخرق . ويوضح هذا المقال أيضاً «ماقد بلغته الروح الوطنية والعصبية من الشدة الـكبرى فى مصر اليوم ، وذلك على ما هو متخـذ من ضروب المحاولة والتذرع للقضاء على جميع الحرية السياسية قضاء تاماً . وكان من شأن كم أفواه الصحف الوطنية هذا الـكم الخانق ما قد توقعه ارباب النظر الصادق وهو انه قـد حمـل سواد المسلمين على الانقلاب الى حال هياج داخلى واضطراب هائل ، بل أوصـل الاقباط المخلصين للدولة البريـطانيـة الى المجافاة فالمغاضبة ووغر الصدور . قد يمكن أن تـكون الحـكومة البريطانية عاجزة عن أن تتذرع بذرائع هى أفضل وأجدى مما تذرعت به لاكتساب ثقة الأمة المصرية وحسن نيتها ، فلهذا هى فى مثل هذه الحال ترى أن القضاء العاجل على كل حركة تبدو دليلاً على السخط والمغاضبة

(١) « المجلة الاسيوية » نيسان ١٩١٤ The Asiatic Review

من أفضل الوسائل وأوفاها للذياد عن حوض الاحتلال ، ولـكن اذا كان هـذا هو الواقع بعينه فانما هو اعتراف صريح بمنتهى ما وصلت اليـه الحـكومة من التلاشى والوهن ، بل بتضعضع الحـكم البريطانى بين أيدينا وتداعى أركانه تداعياً مآله الانهيار » وختام المقال انذار أن القضية المصرية مزدادة تورطاً واعضالا ، ذلك : «أن قضية مصر وان كانت لتختلف عن غيرها اختلافاً بعيداً فى رأى البريطانى ، فان مسلمى الهند مرتقبون مجاريها ارتقاباً شديداً دائماً اذ هم يقومون لها ويقعدون ، وكذلك شأن جميع رعايانا من المسلمين فى المغربين الأفريقيين الأقصى والأوسط ، وهؤلاء هم من أشـد مسلمى الدنيا عاطفة دينيـة وبغضاً للاعتداء الأوروبى وملء صدورهم ونفوسهم الارتياب من جراء الأعمال السياسية التى تقوم بها الدول النصرانية الجادّة فى سبيل الفتح والاستعمار . »

الى هذه الحال كانت قد انتهت النهضة المصرية سنة ١٩١٤ فاما فتقت الحرب العامة كان ذلك سببا فى تعاظم الاضطراب واشتداد الهياج ، فغدا موقف بريطانية فى مصر وايم الحق صعبا ، ومع أن بريطانية قد تقلدت فى الواقع ازمة الحـكم تقلداً تاما ، وتشددت فى ولاية سلطانها تشدداً بالغا ، فان مصر كانت ما برحت باعتبارها — من حيث الصفـة القانونية — تابعة للمملـكة العثمانية ، وكانت بريطانية انما تعتبر فيها دولة محتـلة احتلالاً موقتا . وقد بدا من الحال بعد نشوب الحرب أن تركـية مائلة الى محالفة أعداء بريطانية لتخوض والدول التوتونيـة المعمعان الهائل جنبا الى جنب ، ووضح أيضا اذ ذاك أن المصريين الاشداء العطف على تركية ، حتى ان الخديوى عباس حامى ما كان قط ليبطن شيئا من ميوله ونزعته الى الترك . وخلال عدة الشهور الأولى من الحرب العامة ، بينما كانت تركية لم تبرح محايدة فى الظاهر ، غدت الصحف المصرية ، على شدة الرقابة البريطانية ، تنفث سم الفتنة نفثا فى تضاعيف سطورها ، وبات موقف الشعب المصرى ذلك الموقف المتزعزع المضطرب ، وأضحى انتشار السجس الشديد والقلق فى كتائب الجنود المصرية ، دليلا صريحا على قرب هبوب العاصفة وانفجار البركان ، فخشيت بريطانية أمر مصر الخشية الـكبرى ، فاما دخلت تركية فى المعمعان فى شهر تشرين الثانى سنة ١٩١٤ ، لم يكن أعجل من بريطانية فى خطوتها الأخيرة فى مصر فخلعت عباس حامى ونادت بعمه حسـين كامل سلطاناً وأعلنت أن مصر باتت بلاداً محميـة تابعة للأمبراطورية البريطانية .

فكان ذلك كالسهم أصاب بعض المقتل ، فاشتعل غضب رجال النهضة ايما اشتعال . أما الفتنة المنظمة فكانت غير مستطاعة لأن البلاد كان قد غمرها طوفان الجيوش البريطانية والاستعمارية التى تدفقت على وادى النيل من كل جانب ، وعلى جميع هذا فقد اشتد الهرج والمرج ونشبت اضطرابات عديدة غير منتظمة لم يستطع قمعها الا باعلان الحكم العسكرى (العرفى) الجائر الشديد وقد وصف مستقص فرنسى هذه الايام العصيبة فى مصر وصفا محكماً فقال . « ان الجهاد ليهيج روح التعصب على النصارى هياجاً كبيراً ، ذلك التعصب الثائر فى نفس كل مسلم اليوم ، وقد بات المستطلع منذ شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩١٤ يستطيع أن يقرأ تلك السيم التى أخذت تتبدّى فى وجوه الطبقة العامة من أهل البلاد المسلمين ، سيم الأمل فى ذبح النصارى ، اذ غدا أهل هذه الطبقة ينظرون شزراً الى الأوروبى العابر فى أسواق القاهرة ، و بعضهم قد هللوا تهليلاً وفرحوا فرحاً عظيما عند ما بلغهم أن سلطان تركية قد أعلن الجهاد واستنفر المسلمين للقتال فى سبيله منضوين تحت راية الخليفة . ومع أن السلطة البريطانية كانت تشدد عقاب الجلد الموجع بكل من جئ به الى مقر من مقارّ الشرط مشكوا انه قد أذاع أنباء فى شأن الجهاد ، فقد ظلت الحال على أشد ما يكون من الاضطراب . ولم يقصر أمر الهياج بسبب الجهاد على العامة فحسب بل تعداهم الى الأزهر . وقد أخبرت أن الأوروبى الزائر لهذه الجامعة الاسلامية الكبرى بات عند ولوجه أبوابها لا يسمع سوى اطايب المدائح وغرر النشائد الفخرية فى شأن العرب والمسلمين والجهاد (١) »

وانبرى رجال النهضة الوطنية الذين فى الخارج ينشرون مالا يستطيع أخوانهم نشره فى مصر ، ويجهرون بما لا سبيل الى الجهر بمثله فى وادى النيل فأصدر محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى وكان فى جنيف احتجاجا رسميا على « التغييرات السياسية غير القانونية ولا الشرعية التى أعلنتها بريطانية فى شان مصر فى ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٤ » جاء فيه : « انه يجب على بريطانية الزاعمة انها انما تحارب المانية دفاعا عن بلجيكا الا تدوس حقوق مصر بقدميها والا تعد صكوك المعاهدات فى شأن مصر قصاصات من الورق لاشأن لها (٢) »

(١) « مصر فى أوائل الحماية » — مجلة العلوم السياسية » ١٥ حزيران ١٩١٥

(٢) محمد فريد بك ـ مقاله « مصر والحرب » « المجلة السياسية الدولية ايار ١٩١٥
L' Egypt et la Guerre,, " Revue politique Internationale

وأخذ هؤلاء القادة الذين خارج مصر يعقدون الصلات الوثقى بينهم و بين ألمانيــة كما يستبان ذلك من مقال نشره عبد الملك حمزة أمين الحزب الوطنى فى مجلة ألمانية ذات شأن جاء فيــه ما يلى : « ليس من مصرى الا ويتوسل الى الله عز وجل أن يديل ألمانيــة من أعدائها ويكسر بريطانيــة شر كسرة ويقوض أركان امبراطوريتها تقويضاً . انى لما كنت لم أزل فى مصر فى أوائل الحرب قد وقفت على هذا الشعور الذى يكنه المصريون فى صدورهم وقوفا تاما وشاهدت الحال عن كثب مشاهدة صحيحــة . فان أهل البــلاد طراً سواء أفى المدن أم فى القرى ، من أرفع الخاصة حتى أدنى العامة ليثقون الثقة كلها بصداقة القيصر وولائه للاسلام وخليفة المسلمين ، ويتضرعون الى المولى الـكريم أن يمد ألمانية من لدنه بظفر شامل ونصر مبين [١] »

نعود الآن للـكلام على النهضات القومية والعصبية الجنسية فى سائر الأقطار الافريقية الشمالية التى لا نرى قطراً منها قــد ظهرت فيه روح العصبية ظهوراً بيناً وبرزت فيــه المنازع القومية بروزاً متمايزاً كما هى الحال فى مصر . على أن البغضاء والشنآءة للاور بيين لشديدتان كل الشدة حدّث عنها ولا حرج ، من حيث ان الحركات الوطنية المشهودة اليوم فى المغربين الأقصى والأدنى انما هى على الغالب ضروب من الشعور العام المنتشر انتشاراً كبيراً بوجوب التضامن القومى الشامل والالتئام الجنسى العام المعروفين «بالجامعةالعربية» و « الجامعة الاسلامية » اللتين نسوق الـكلام عليهما الآن .

على أن حقيقة السبب فى كون الشعور القومى فى الأقطار الافريقية الشمالية أقــل منه فى غيرها هو أن ليس هناك من بلاد ما عدا مصر كان شعبها فيما مضى أمــة تامة الوحدة . وفوق ذلك فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على أن أحد هــذه الشعوب العــديدة سائر فى سبيل يصير بها « أمة صحيحة » ، إذ أن معظم ســواد الشعوب القاطنة سلسلة البلدان بين البحر المتوسط وصحراء افريقية انما هم من البربر القدماء الأصل والأرومة فهم باعتبار الجنس الى الأوروبيين أقرب منهم الى الاسيويين أو الزنوج ، ويعدون أنسباء للشعوب « اللاتينيــة » عبر البحر المتوسط [٢] وأمر هؤلاء البربر شبيه

(١) تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ “ Die agyptische Frage,, Aaien

(٢) يكاد يكون محققاً أن البربر من أهل مراكش والجزائر وأهل الزاب في المغرب الاوسط وقسما

كل الشبه بأمر الألبانيين فى شبه جزيرة البلقان ، بسبب كونهم منقسمين انقسامات عديدة متأصلة فيهم متمكنة منهم فغدوا قبائل متفرقة كان من شأنها فى بعض الفترات أن ألفت شيئا من الاتحاد ولكن لم يكن من شأنها ترقية عوامل العصبية القومية الصحيحة (١)

ويخالط البربر فى الأقطار الافريقية كلها العرب الذين جاءوها من آسية مخالطة على أقدار مختلفة. فالعرب قد استطاعوا حقا أن يستعمروا افريقية الشمالية كلها عند الفتح الاسلامى أى منذ أكثر من اثنى عشر قرنا ، وأن يجعلوا البربر يدينون بالرسالة الاسلامية ويستعربون تهذيبا وأخلاقا ، ولكنهم لم يستطيعوا تصيير شمالى افريقية قسما من العالم العربى ومن رسوخ العروبية وبمكان سورية والعراق ومصر وان تكن هذه الأخيرة دون القطرين الأولين قليلا فى ذلك ، فالجنسان العرب والبربر لم يمتزجا فى شمالى افريقية بعضهم ببعض امتزاجا حقيقيا تاما ، ولذلك ظل البربر على كرور ألف سنة بل أكثر خاضعين للسيادة العربية ، ولكن مختلفين متميزين عن العرب عادات وأخلاقاً ، وهم يحتفظون بلغتهم احتفاظاً شديداً . ولم تقع صلات التزواج بين العنصرين الا قليلا ، وظل العرب الصرحاء قبائل كبيرة البطون والأفخاذ حتى اليوم ، ولكن غرباء فى بعض الأحوال والاعتبارات (٢)

لذلك غدت الحياة السياسية فى أقطار شمالى افريقية المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعتورها الانشقاقات والانقسامات . وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار

من أهل تونس وطرابلس وأهل جالو من برقة ثم الطوارق فى الصحراء وأهالى الجزر الخالدات (كنارى) المصاقبة للمغرب الاقصى كلهم من أصل واحد وبعض المؤرخين يضم اليهم بربر النوبة والدر الذين بأعلى أسوان ولم يثبت أصلا ان هؤلاء الاقوام هم من أصل أوربى بل تاريخ أصلهم لا يزال مجهولا . «ش»

(١) ويزجربر — تاريخه « بيض افريقية » يشتمل على بيان واف موجز فى شأن البربر (باريس ١٩١٠) H. Wejsgerber. "Les Blauce d' Afrique

(٢) للاطلاع على ماهية الفروق بين العرب والبربر اقرأ كتاب « العرب والقبائل » لمؤلفه كاى دى سانت آمور (باريس ١٩١٩) Caix de Saint Aymour, " Arabes et Kabyles ,, " Coup d' aeil sur l'Islam en Berberie ,, Paris 1917 وكتاب بل

الافريقية الشمالية وحدة والتئاماً وثباتاً فى مجموعها السياسى ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً الى الجبال التى تقطنها القبائل المختلفة . وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل وأما البلاد الورائية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوى التام . على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسى يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم (١) . ان فرنسة قد أرخت على البلاد سكينة وكسبتها نظاماً ونجحاً مادياً (٢) غير ان

(١) اقرأ « الفتح الاوروبى الثانى في شمالى افريقية » (تموز ١٩١٢)

A . C . Coolidge, "The Europcau Reconquest of North Africa,, "American Historical Reviw ,,

(٢) بينما أنا أحرر هذه السطور قرأت فى الجرائد الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر ، حيث كانوا ذهبوا للاطلاع على حقيقة أحوالها ، فكان من جملة خلاصة تحقيقاتهم ان من الأربعة الملايين ونصف المليون الذين هم مسلمو الجزائر ، أربعة ملايين نسمة لايملكون شيئاً من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعون وأجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين . وان هذه الملايين الأربعة يتكففون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوأ حال من المعيشة ، ويموت من أطفالهم ٨٠ فى المائة من سوء الغذاء .

ومعلوم أنه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر ، وكان جميع فتكها بالمسلمين ، وفى كل سنة تقول الحكومة الفرنسوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئاً ، ولا يزال مسلمو الجزائر من سنة ١٩٢٠ الى اليوم يموت منهم الالوف من الجوع ، كأنما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين ألف قتيل التى سقط منهم فى الحرب العامة . . . وأغرب من ترك المسغبة تعمل عملها فيهم ان الجزائر فى حال من اليسر وفيض الموارد التجارية لايقدر الانسان أن يفهم معها كيف أهلها يموتون جوعاً . فقدصرح المسيو ستيغ Steeg والى الجزائر العام فى لجنة المكوس ان تجارة الجزائر تزداد بسرعة فائقة ، حتى انها ارتفعت من ٦٠٠ مليون فرنك الى مليار وستمائة مليون فرنك سنة ١٩٢١ ، فصارت واردات جمارك الجزائر تفوق واردات المستعمرات الفرنسوية كلها مجتمعة . وصرح الحاكم المشار اليه أيضاً ان مستعمري الجزائر الفرنسويين (الكولون) اكتبوا فى قرضى سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٢٠ بمبلغ قدره مليار و ٧٦٦ مليون فرنك . فبعد هذا لاعجب أن يموت الوطنيون جوعاً اذ عند ما يكون ثلاثمائة أو أربعمائة ألف فرنساوى قادرين ان يكتتبوا فى بعض القروض الفرنسوية بنحو ثمانين مليون جنيه ، أى بمثل ايراد الدولة المصريه السنوى مرتين ، فماذا يكون لعمرى مجموع ثروة هؤلاء المستعمرين ! ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التى لاتقبل أدنى جدال ، أن يبقى أربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك لايملكون شروى نقير ويعيشون باجرة عملهم اليومى أو بالأحرى لايعيشون . . .

هذه المنافع والفوائد التى أتت بها السيادة الأوروبية فى هـذه الأقطار الافريقية كما فى غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعاً على مستوى متماثل فى الاجماع على شنأة الفاتح الأوروبى ، وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الأجنبية بتة . لذلك قد شهـد العالم خلال الجيـل الماضى نشوء «الجزائر الفتاة» و «تونس» وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتى والحرية [١]

أما المتجه الذى تتجهه هذه الأقوام فى نهضتها فهو بغايته أميل الى انشاء الوحـدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم الى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا ، منه

ان الاحصاء المتقـدم الذى كنا ذكرناه فى الطبعة الأولى لمسلمى الجزائر هو احصاء قديم وناقص جداً عن الحقيقة . وقد علمنا فيما بعد أن مسلمى الجزائر يناهزون ستة ملايين نسمة

وبينما نحن نتحرى لنعرف الحقيقة اذ ظهر كتاب «الجزائر» بقلم الوطنى الفاضل المحقق السيد أحمد توفيق المدنى المقيم اليوم بمدينة الجزائر ــ بأمر الحكومة الافرنسية التى أبعدته من تونس ــ وهذا الكتاب قد جمع كل ماتلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لايصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط ومن جملة هذه المعلومات التى كفلها هذا الكتاب النفيس احصاء الاهالى

فتجد جدول احصاء مدققاً لكل عمالة من عمالات الجزائر ولكل بلد من كل عمالة شاملا جميع أصناف الاهالى مأخوذة كلها من دفاتر الاحصاء الرسمى سنة ١٩٣١

و بحسب هذا الاحصاء العام يكون عدد مسلمى عمالة قسنطينة مليونين ومائتين وواحـداً وسبعين ألف نسمة . وعدد مسلمى عمالة الجزائر مليوناً وستمائة وأربعة وتسعين ألفاً . وعدد مسلمى عمالة وهران مليوناً وستين ألفاً وثمانمائة وستين نسمة . وعدد مسلمى الجزائر الجنوبية خمسمائة وستة وستـين ألفاً . فمجموع مسلمى القطر الجزائرى خمسة ملايين وستمائة واثنان وعشرون ألفاً وأربعمائة وثلاث وأربعون نسمة

وأما الاوربيون فى القطر الجزائرى ففى قسنطينة ١٨٩و ١٨٩ نسمة وفى الجزائر ٣٥٠٠٤٥ وفى وهران ٣٥٥ ٩٠٢ وفى الجـزائر الجنوبية ٨٥٨٩ وجملة الاوربيين تسعمائة وثلاثة عشر ألفا وأربعمائة وتسع وسبعون نسمة . (ش)

(١) لزيادة الاطلاع على النهضات الوطنية فى الاقطار المغربية الخاضعـة لفرنسة اقرأ : — «العصبية الجنسية الاسلامية» (قسنطينة والجزائر ١٩١٣) A. Servier, "Le Nationalisme musulman,,

الحضارة التونسية (باريس ١٨٩٨) P. Lapie, "Les Civilezations tunisienne,,

«الجزائر الفتاة» (تشرين الثانى ١٩١٣) P. Millet, "Les Jeunes — Algeriens,, "Revue de Paris,,

الى انشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية . ولا يغربنّ عن البال ان جميع هذه الشعوب والأمم انما هي على صلات شديدة وروابط متواثقة تواثقا كبيراً مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

واذا استوفينا الكلام على النهضات الوطنية والحركات القومية للدور الأول في مختلف الأقطار العربية والمتعربة ، بقي علينا أن نبسط الكلام على مركز خطير آخر من مراكز العصبية الجنسية في العالم الاسلامي ألا وهو بلاد ايران أو فارس أو العجم . ايران انما هي البلاد التي يتوقع فيها نشوء النهضة القومية الصحيحة توقعاً عظيما لأن الايرانيين مابرحوا منذ أجيال متطاولة يعرفون بشدة حب الوطن ، فائقين في ذلك كل شعب سواهم من شعوب الشرق الأدنى .

وقد انحطت ايران خلال القرن التاسع عشر انحطاطا كبيراً وتدلت تدلياً عظيما حتى غدا تشتت حالها الظاهر وتبدد حولها وقوتها ، واستغراقها في الوهن والضعف ، هائجاً فعالا هاج من روسية القيصرية في المقام الأول ومن بريطانية في المقام الثاني جشعهما الاستعماري الهائل ونهمتهما الكلبية في حب التوسع والفتح . غير أن قادة الفكر من الايرانيين قد انتبهوا انتباهاً صحيحاً لما سيحلّ بالبلاد من ضروب البلاء ويحوق بها من الدواهي الدهماء من جراء استفحال الخطب واشتداد الوهن والانحطاط في الدولة ودنو المخاطر الآتية من خارج ، فشرعوا يجاهدون في سبيل الاصلاح داعين موقظين ، ومحذرين منذرين ، فحدثت الفتن الاصلاحية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وأولها الحركة البابية (البهائية) في أوائل القرن التاسع عشر ، وما انفكت البلاد تتمخض في الفتن والاضطرابات حتى شبت ثورة سنة ١٩٠٨ (١)

(١) لزيادة الاطلاع على الحركات الاصلاحية الثورية في العجم اقرأ : — « الحال السياسية في ايران للمستشرق العلامة الكبير « X » حزيران ١٩١٤

" La Situation Politique de la Perse ,,

" Revue du Monde Musulman ,,

« التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » للمستشرق العلامة الكبير أرمينيوس ڤمباري

" Western culture in Eastern lands ,,

وقد كان السبب الأكبر فى شبوب نار هذه الثورة واندلاع السنتها هو المعاهدة « الروسية البريطانية » المعقودة سنة ١٩٠٧ التى اتفقت بموجبها الدولتان المتعاقدتان على قسمة ايران بينهما الى منطقتى سيطرة ، الأولى لروسية فى الشمال والأخرى لبريطانية فى الجنوب ، يتوسط بينهما منطقة حياد . لذلك كانت الثورة فى غالبها ثورة القنوط والاستماتة قام بها رجال الوطنية الايرانية الأشداء الأبطال ، كيما يصلحوا شأن بلادهم وينظموا أمر حكومتهم ودولتهم ، ويدفعوا عنهم ، ولكن بعد استئخار كبير ، شبح السيطرة الأوروبية الهائل الذى أخذ يدب وينتشر فى البلاد انتشاراً وجفت منه القلوب فرقاً ورعباً . ولم تقصر غاية الثورة على الوقوف فى وجه الاعتداء الأوروبى ودرء المطامع الأجنبية الكاشرة عن الأنياب ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك وهو نزع الملك من السلالة القاجارية الغريبة الأصل وهى الحاكمة فى البلاد حكما سيئاً فاسداً منذ حقب مديدة ، والتى ليست بايرانية الاصل بل تركمانية ، فانها معما طال من جلوسها على عرش المملكة ، لم تمتزج قط بالايرانيين وهم أهل البلاد ، نسباً ورحماً ، كما تدل على هذا حقيقة الأمر من كون لغة البلاط هى تركمانية فارسية . وعلى الجملة فان مقام السلالة القاجارية فى ايران كان مماثلا كل المماثلة للسلالة المانشوية التى كانت على عرش الصين قبل الثورة . فالثورة الفارسية كانت بماهيتها وجوهرها شبوب نار الوطنية الايرانية شبوبا مقاوماً لجميع القوات الغريبة القاضية على الوطن سواء أكانت شرقية دخيلة أم غريبة طارئة .

وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نزل التدخل الممقوت فى شؤون ايران ، التدخل الناشئ عن نهمة أوروبة فى التوسع الاستعمارى الوحشى ، نزول الصاعقة القاضية على النهضة الوطنية الايرانية فسحقتها سحقاً . وفى سنة ١٩١٢ كانت روسية وبريطانية قد غدتا قابضتين على أزمة السيطرة الحقيقية النافذة تتصرفان فيها كيفما شاءتا تحقيقاً لمطامعهما الشائنة ، فاضطهد رجال النهضة اضطهاداً ، وعذبوا تعذيباً ، وأبعدوا من البلاد ، وظلت ايران تصعد زفراتها مصطبرة على اعتلاج النار بين جوانحها ، مكرهة مكعومة ، ساكنة

« الحركة الاصلاحية فى العجم » للجنرال السر غوردون فى كتاب « اعمال جمعية آسية الوسطى » ١٣ آذار ١٩٠٧

General Sir T. E- Gordon. "The Reform Movement in Persia", "Proceedings of the central asia Society„

لاتستطيع شيئاً . وقد قال كاتب انكليزى فى هذا الشأن قولا بليغاً هذا بعضه : « ان روسية وبريطانية العظمى هما المتحملتان كل التحمل لجميع التبعة فى تمزيق الآمال الايرانية ، مناهضة للروح الوطنية وقضاء على النهضة القومية ، وأيضاً لتبعة هذه الفوضى المنتشرة فى كل ناحية وجانب فى المملكة ، إذ لابد من أن يأتى يوم تقف فيه هاتان الدولتان الطامعتان لتناقشا الحساب فى جميع ماجنته أيديهما ولتنالا جزاء وفاقاً على مافعلتا . ان الأمل فى تحسين الحال وايم الحق لضربٌ من المهزأة والباطل ، مادامت الحكومة فى ايران مؤلفة من وزارة لاتملك ضراً ولا نفعاً ، وليست بنائلة شيئاً من ثقة الشعب بل ان الحكومة فى ايران إن هى الا وزارة قد قذفت روسية كل روع شديد فى قلبها وكل عرق من عروقها ، وأرتها الموت أشكالا والعذاب ضروباً ، وفوق جميع هذا تريد الدولتان روسية وبريطانية ان تقضيا عليها القضاء الأخير ذلك بجرها إياها الى أزمة مالية ، وهاهى الحكومة الايرانية تستصرخ الملأ فلا تناولها الدولتان المسيطرتان سوى بعض اللقيمات المالية التى لاتدفع غرثاً والجريعات التى لاتنقع غلاً ولا تبرّد صدى ، وذلك على شرائط هى غاية فى الربا الفاحش المهلك ، وتمنعانها عن استخدام النزهاء الكفاة من الخبراء الأجانب مثل المستر شصطر . فكيف يرجى الاصلاح فى بلاد متى ما كان ملكها صبياً ووكيله متخلفاً أبداً عن القيام بواجباته ، وكان مجلسها النيابى معطلاً دائماً ، ورجال الوطنية الأكرمون الأشجعون الأشرفون ، يقتلون تقتيلا أو ينفون نفياً بينما الذئاب المفترسة من الماليين وأرباب الامتيازات التجارية والزراعية ينهشون الفريسة نهشاً ، ويغلغون فى أحشائها الأنياب . حقاً اذا ماقيض لايران الخلاصُ الحقيقى وكتب لها النجاة فان ذلك لن يكون الا بأعجوبة سماوية ومعجزة عظيمة (١)

هنا ينتهى كلامنا العام الشامل لوصف أكبر النهضات القومية الوطنية ويقظات العصبية الجنسية فى العالم الاسلامى . على أنه يجب ألاّ ننسى ان النهضة القومية الجنسية فى الهند متمشية وسائر النهضات الاسلامية جنباً الى جنب ، ولكنها مضطربة فى أفق مختلف عما سواه من آفاق النهضات فى سائر العالم الاسلامى . ويجب أن نعلم أيضاً ان هناك نهضات أصغر نطاقاً وأضيق مضطرباً ، قائمة فى الشعوب والأمم الاسلامية غير التى أتينا على ذكرها

(١) و . مورغان شصطر كتابه : « خنق العجم »

كالتتر فى روسية ومسلمى الصين ومسلمى جاوة فى الجزائر الهولندية . وعلينا ان نضع فى البال فوق جميع ما تقدم ان هذه النهضات القومية الجنسية جميعها متصل قليلا أو كثيراً بمجرى الحركة العامة الرامية الى الجامعة الاسلامية و بالدور الثانى للعصبيات الجنسية ، وهى العصبيات النزاعة الى التئام العروق الجنسية المتفرعة من أرومة واحدة ، وها نحن شارعون الآن فى الكلام على هذا .

— ٢ —

قد بينا فى مقدم هذا الفصل ان فى مطلع القرن العشرين شهد العالم اجتياز العصبيات الجنسية لدورها الأول و بلوغها الدور الثانى فى الشعوب الأسيوية ولا سيما فى الأمتين التركية والعربية ، ونحن نرى الآن العصبية الجنسية فى الترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أفقها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول وهى إذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثمانى المحدود كما علمنا ذلك فى موضعه ، وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ . ومنذ ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل فى دورها الثانى ، دور العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل فى العالم .

فى هذا الحين أى فى أوائل الدور الثانى للعصبية أخذ الترك العثمانيون يوقنون انهم ليسوا بالأمة الفذة المنفردة المنقطعة عن كل نسيب وقريب فى العالم ، بل انهم فى الصحيح الواقع ، العرق الغربى الأقصى المتفرّع من أرومة عظيمة تمتد سائر فروعها وعروقها العديدة مالئة شرقى أوروبة وآسية ، من البلطيك حتى الباسفيك ، ومن البحر المتوسط حتى القطب الشمالى . وقد أطلق الاثنولوجيون ، علماء البحث فى أصول الأجناس البشرية على هذا الشعوب اسم (الاورالو — ألطايك) ولكن الاسم الأغلب والأشهر لهذه الشعوب المذكورة شاع تعبيره « بالجنس الطورانى » وهو يشتمل على شعوب عديدة متفرقة — الترك العثمانيون فى القسطنطينية والاناضول ، والتركمان فى ايران وآسية الوسطى ، والتتر فى جنوب روسية وعبر القوقاس ، والمجر فى هنغارية ، والفنلنديين فى فنلندة وولايات البلطيك وقبائل السكان الأصليين فى سيبيريا ، حتى والمغول والمنشوس فى شرقى آسية . فهذه الشعوب

على مابين بعضها والبعض الآخر من الاختلاف فى التهذيب والتقاليد حتى وفى السحن الخلقية هى مشتركة اشتراكاً عاما فى طبائع وسجايا معلومة متشابهة فى كل منها تشابهاً بينا ولغات هـذه الشعوب متشابهة أيضاً ، من حيث ان التركيب الطبيعى والمزاج العقلى فى كل شعب منها يدلان دلالة بينة على النسابة الأصلية العامة الجامعة بين جميع هذه الشعوب الطورانية المشهورة برشاقة البنية وشـدة الأعصاب ، وهى وان كانت على بعض من النقص فى سعة المدارك و بعدها وعلو التصور ، وامتلاك حاسة الشعور الفنى ، الشعور الذاهب الى الابداع والابتـكار ، فهى موهوبة جليل مواهب الصبر والجلد وشدة البأس الى حد الغلاظة ، وفوق جميع هذا قد اشتهرت هذه الشعوب اشتهاراً منقطع النظير بالصبر على القتال والجلاد وخوض غمرات الحروب ، و بالاقتدار الفائق على سيادة من يخضع لهـا من الشعوب . ومما لامراء فى صحته ان الطورانيين هم أعظم من شهد الورى وعرف التاريخ من المدوخين والفاتحين فأتلا والهنز ، وارپاد والمجريون ، واسبريتش والبلغاريون ، والب ارسلان والسلجوقيون. وارطغرل والعثمانيون ، وجنـكيزخان وتيمورلنك ، وجيوش المغول التى « لاتغلب » وبابر فى الهند حتى وقبلاى خان ونورهاشو فى كاشاى ، انمـا جميعهم من نسيج واحـد . وصور الآثار لسنابك خيول الفرسان الطورانيين مابرحت منقوشة فى رقوق التاريخ القـديم الى ماشاء الله .

على انه سواء كان تاريخ الطورانيين مجيداً أم محزناً ، فهو على كل حال هائل عظيم والقارىء قد يتساءل ، أحقاً شتيت هذه الشعوب الطورانية المتفرقة المبعثرة متحدرة من أصل واحد بين ، وجنس ثبت لأهل العلم معرفة منشأه الأول ومتفرعه الأقدم ، وأرومة صحيحة معلومة ؟ اننا قد علمنا علم اليقين فى مقدم هـذا الفصل ان هذا الأمر قد بات مما ليس كبير شأن له عند الشعوب الثملة بخمرة العصبية الجنسية مادامت السياسة العاملة مسيرة تسييراً على الصفة التى أسلفنا الكلام عليها فى موضعه . فلذلك ان مابين هـذه الشعوب الطورانية بعضها مع بعض من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية ، وما هى عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية ، الهائجة منها نفوسها ايما هياج ، كاف أن يحملها على الاعتقاد انها متحدرة من أصل واحد ، فيدفعها ذلك الى التعاطف فالتشاكى فالتنبه الجنسى فانشاء بناء العصبية الجنسية البعيدة الآفاق ، الشديدة الصولة والمنعة .

من قبل ثلاثة عقود الى أربعة عقود من السنين ، لم يكن هناك شئ من طوالع هذه الحركة ، ولا مما يدل على ظهورها ، إذ كانت جميع هذه الشعوب الطورانية المتباعدة المتفرقة ، تجهل وحدة ارومتها الطورانية العامة ، جهلاً تاماً ، ولم يكن هذا الجهل مقصوراً أمره على العروق التى شتان مابينها من الصلة والقرابة مثل الفنلنديين فى فنلندة و ولايات البلطيك والمنشوسيين فى آسية الشرقية ، بل ان العروق المتقاربة الأقاليم ، الظاهرة النسابة بعضها مع بعض كالترك العثمانيين فى القسطنطينية والاناضول وتركمان أواسط آسية ، كان كل عرق منها على جهل من نسابته للآخر ، لا بل يعده غريباً عنه جنساً ، وأدنى وأحط منه شأناً . فى ذلك الحين كان الترك العثمانيون لم يزالوا بعداء من روح العصبية الجنسية كبعدهم عن روح القومية والشعور العنصرى . وقد أخبرنا ارمينيوس ڤمبارى انه لما زار القسطنطينية لأول مرة سنة ١٨٥٦ « كانت كلمة « تركلك » (ترك) تفهم وتعد من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية . « ولما كنت أقدم على تنبيه الناس الى الخطورة العظمى التى يجب اعتبارها فى شأن متحدّر الجنس التركى (المنتشر من أدرنة حتى الباسفيك) كانوا يجيبوننى : ولكن بالله عليك لا تجعلنا فى مصاف الكيرغيز وجفاة التتر . . . . وكدت لا أرى الا أقل من القليل من الترك فى القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام فى شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية »

وظلت الحقائق وراء الحجاب حتى انبرى الاثنولوجيون الغربيون يستقصون ويحققون وفى طليعتهم مثل أرمينيوس ڤمبارى الهنغارى وليون كوهين الفرنسى ، اللذين يرجع اليهما كبير الفضل فى كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الارومة الطورانية . فظهر العالم الطورانى من أقصاه الى أقصاه هائلا بعيد الآفاق . وكان لأعمال هذين العالمين القطبين ڤمبارى وكوهين أ كبر دوى فى أنحاء العالم . فطفقت كتب ڤمبارى و زملائه تنتشر فى كل بقعة من بقاع العالم الطورانى الجديد انتشاراً سريعاً كبيراً ، فاقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للاخذ عنها والاقتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما أنشأت طوالع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر فى أقطار مختلفة ، وكان ظهورها بادئ الأمر فى مركزين منفصل كل منهما عن الآخر ، وهما القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور ، و بلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا

غير أن الباكورة السابقة قد كانت فى هذا المركز الأخير قبلما بدت على ضفاف البوسفور. ان هذه النهضة الترية ، وان كانت أقل شهرة من غيرها ، هى احدى الخوارق فى تاريخ العصبيات الجنسية . فالتتر الذين كانوا فيما مضى سادة روسية وحكامها ، وقد طال ما طال من العهد على تلاشى حكمهم وانهيار دولتهم وسلطانهم ، قد استطاعوا البقاء والكينونة ، فلم تبتلعهم مبتلعات الأوقيانوس السلافى ، ومع أن بعضهم قد أمسوا خاضعين للحكم الروسى منذ أربعة قرون فما انفكوا مع ذلك محتفظين بوحدتهم فى الدين والجنس والتهذيب ، وقد استطاعوا أن يظلوا ، وغالب مزدحم قطينهم فى ولايات الفولكا ولا سيما فى قطرى « قازان واستراخان » ، وفى أيديهم غالب بلاد القريم ، ويؤلفون أقلية عظيمة فى عبر القوقاس ، مستمسكين بمستقل وحدتهم ومجموعهم بمنجاة من أن يبتلعوا فى يم الامبراطورية السلافية وانهم على تفرقهم فى هذه الاقطار العديدة ، لم يبرحوا الاشداء النشطاء فى المناطق التى هم حالون بها ، ولا عيب فيهم سوى انهم شم الانوف أباة الضيم فلا ينال منهم ولا تغمز قناتهم.

كان تبدّى تباشير اليقظة القومية واستفاقة العصبية الجنسية فى تتر روسية سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نمواً هائلا عجيبا . وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ انها حطمت الاغلال الاستبدادية ، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شموس الآداب أيما اشراق . فكثر نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد النهضة الترية على النمو المطرد ، فاعتزت اعتزازا كبيراً . ولما كان التتر فى روسية على جانب كبير من الاثراء فقد كان من السهل اعداد جميع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية فى سبيل النهضة . وحقاً قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين فى باكو بقسط وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة علية ، اذ ما عرفوا التردد قط فى بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء فى سبيل الغاية المباركة . وقد أبدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين فى عالم السياسة . فغدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان فى أواسط آسية الروسية الذين كانوا قد دبت فيهم أيضاً نشوة العصبية الجنسية ، واشتمل مجلس « الدوما » الأول فى روسية على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا فى جهادهم السياسى عصبة متحدة متعاضدة يشد بعضها بعضا ، لاينى لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة الترية ، فغالبوا الصعاب مغالبة غاية

فى بذل النفس والدهاء والحنكة ، حتى غدا الرأى العام الروسى على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من عدد النواب المسلمين التتر كما يقل بذلك نفاذهم فى دور الحياة الدستورية الجديد (١)

وقد كان المسلمون فى روسية حكماء فى السعى وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير أن بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامح التترية الخفية وصرحت عن الآمال التى كان التتر يدأبون جاهدين فى سبيل تحقيقها ، ذلك أنهم أخذوا فى السعى وراء الغاية سعياً حراً فى جو أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلا أعنى فى القسطنطينية حيث قد قيض حقاً لتتر روسية أن يكون لهم شأن عظيم فى أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية . وفى الواقع أن أول منشئ لجمعية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها فى القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلى ، المسلم التترى من أهالى الفولكا . وكتابه القيم المشهور المرسوم بـ« الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساساً عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومناراً يهتدون به فى جميع ما كتبوا الى اليوم فى شأن الجامعة الطورانية (٢)

وظلت الجامعة الطورانية تكتنفها بعض الغمامات فى القسطنطينية حتى ثورة تركية

---

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة التترية اقرأ :—

« المسلمون فى روسية » (كانون الأول ١٩١١)

S. Brobovnikov, " Moslems in Russia,, The Moslem World,.

« تتر القريم » (اب ١٩٠٧)

Févret , " Les Tatars de crimée ,, " Revue du Mond Musulman,.

كتاب « التهذيب الغربى فى الأقطار الشرقية » ذكر قبلا

« الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » (آذار ١٩١٣)

"X"," Le Pan - Islamisme et le Pan - Turquisme,,
' Revne du Monde Musulman "

« المسلمون الروسيون » (شباط ١٩١٤)

H. Williams , " The Russian Mohammedans '
" Russian Review

(٢) لزيادة الاطلاع على الجهود الطورانية اقرأ مقالة (X) المذكورة آنفاً وكتاب أحمد أمين بالانكليزية (نيويورك ١٩١٤) :

The Developmen of Modern Turkey - as Measured by its Press

الفتاة سنة ١٩٠٨ اذ أن السلطان عبد الحميد كان ، كما علمنا فى غير موضع من هذا الكتاب مجاهداً كبيراً فى سبيل الجامعة الاسلامية ، ومقاوما شديداً لجميع الحركات الرامية الى العصبيات الجنسية ، فلذلك لم يكن رجال الجامعة الطورانية ، قبل نزول الاضطهاد بهم ، ليلقوا شيئاً من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلى من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدى ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تتريك العناصر فى المملكة ، يصيخون كل الأصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدّون فى سبيل نشرها والتبشير بها انجيلا جديداً ، حتى خرج منهم بالتالى أبطال وقادة يدعون الى هذه العصبية . وجدير بنا فى هذا المقام أن لا ننسى أن تتروسية قد استمروا على جهادهم الأكبر فى سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك آغايف ، مسلم من تتر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (تورك يوردى) — « الوطن التركى » التى انتشرت فى كل بقعة من بقاع العالم الطورانى ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مستولية على نفوس قرائها نازلة منهم منزلة المقيم المقعد .

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك آغايف واضرابه الذين امتدت أطماعهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطورانى طراً من فنلندة الى منشورية توحيداً تاماً ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير فى سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة فى مبادىء الأمر على توثيق العرى بين الترك والتتر اللصقاء ، أعنى بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركمان فى أواسط آسية وايران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ما عدا صفتها الجنسية صفة دينية أيضاً تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية فى اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الدينى ، ان الحركة التى كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا .

وجاءت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ — ١٣ فكانت هائجا كبيراً هاج الجامعة الطورانية ودفعها الى الامام دفعة شديدة ، ولم تكن نتيجة هذه الحروب البلقانية أن أخرج الترك

من البلقان فتقلص ظلهم عن تلك الديار فأخذوا بسبب ذلك يتلفتون فقط نحو آسية ، بل كانت النتيجة الكبرى هياج هائج الغضب الشديد فى صدور الهنغاريين والبلغاريين (١) على الصربيين النصارى ، فطفق الأولون يجاهرون بتحدرهم من الارومة الطورانية ويذودون عن وحدة الجامعة الطورانية ، ازاء التهديد الذى بدا من ناحية الجامعة السلافية الصربية الروسية (٢)

وطفق رجال الفكر العاملون فى سبيل الجامعة الطورانية يجدون عن ثقة وايقان فى نشر التعاليم والعقائد البعيدة فى الاغراق والمغالاة ، سعياً وراء تحقيق مطامعهم الكبرى وآمالهم العظمى ، وباتوا يعظمون كل الاعظام شدة البأس والروع والبسالة المتجلية فى جميع الشعوب الطورانية الى حد غدوا عنده يوقنون ايقاناً تاماً أن الجنس الطورانى انما هو الجنس الذى سيسود غداً العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع ، وهب الاقطاب الغير فيهم الراسخون عاما فى الفلسفة الغربية وفى النشوء والارتقاء والبحث فى أصول الشعوب يبسطون آراءهم ونظرياتهم المخصوصة بهم فى كيفية ارتقاء الشعوب واعتزازها ، وأسباب انحطاطها وتدليها ، وعلى حسب التعاليم التى يجاهر بها علماء الجامعة الطورانية بان الشعوب والأمم التاريخية فى جنوبى آسية ـ العرب والفرس والهند ـ انما هى شعوب على جانب كبير من الانحطاط ، وان الشعوب والأمم الاوروبية قد أخذت تنحدر عن الاوج الذى بلغته منهوكة القوى خائرة العزم مأكولة الحشى بنار الصناعة الحديثة . لذلك على رأى هؤلاء العلماء يجب على الطورانيين الاشداء الاقوياء الذين لم ينغمسوا فى الحضارة الغربية ولا دبّت فيهم مفاسدها ولا رئموا مآثمها ، ان يكونوا هم قادة الأمم والشعوب فى

(١) كون البلغاريين أو قسم منهم ينتسبون الى أصل طورانى هذا لا ريب فيه . أما كونهم يتمسكون بالجامعة الطورانية ففيه نظر ، فان كانت بدرت من هذا القبيل بعض كلمات اثناء الحروب التي وقعت بين البلغاريين والصربيين حنقاً على الروس الذين كانوا يفضلون الصرب على البلغار دائماً فلم يكن ذلك بالدرجة التى تجعل البلغار عضواً عاملا فى الجمعية الطورانية وقلما سمعنا الاتراك يعتمدون فى هذه الجامعة على البلغار كما يعتمدون على المجر الذين منهم من يجاهر بالاستمساك بحبل الطورانية . (ش)

(٢) للوقوف على المنازع الهنغارية والبلغارية للجامعة الطورانية اقرأ مقال « الجامعة الطورانية . » "Pan - Turanism" , "American Political Science Review" (شباط ١٩١٧)

المستقبل . و بعض رجال الفكر من الطورانيين يستغرقون الغاية بصارحتهم أن من أقدس واجبات الجنس الطورانى اعادة احياء هذا العالم الهرم المتضعضع ، وذلك انما يتم بتلقيحه بالملقحات الطورانية الدموية ، المصلحة المجدّدة ، التى تبعث فيه صحة و برءاً [١] .

وقد أيقن رجال الجامعة الطورانية انه اذا كان مقدرا لهم التأليف فى شئ من مطامحهم التى ذهبوا بها الى ما فوق الاغراق والمغالاة ، فلن يكون ذلك مستطاعاً الا بانهيار الامبراطورية الروسية وتزلزلها ، لهذا بات رجال الحركة الطورانية يرون روسية بقاطنيها من التتر والتركمان والكيرغيز والفنلنديين والقبائل العديدة الجامعة صلات الانساب بعضها مع بعض ، ان هى الا بلاد طورانية بحتة يغشى تربتها طبقة من الراسب السلافى متفاوت الرقة والكثافة ، ولذلك كانت الغاية التى رامها الطورانيون ، وهى جعل روسية موطناً طورانياً ، غاية هائلة حقا . ومع هذا فان دعاة الجامعة الطورانية قد حسبوا انهم يلقون عونا على بلوغ غرضهم وتحقيق أمنيتهم من بعض الدول الغربية العظمى فايقنوا أن ألمانية وأوسترية ـ هنغارية انما كانتا تقتربان ـ أكثر فأكثر من ولوج حرب مع روسية ، وانه متى ما اشتدت جائحة هذه الحرب وكشرت عن أنيابها ، سنحت اذ ذاك الفرص الكبرى لادراك الغاية ونيل المبتغى .

ومما لا ريب فيه ان قد كان لهذه المطامح الدائرة حول محور الجامعة الطورانية شأن كبير فى انجذاب تركية الى جانب الدول المركزية وخوضها معهن معمعان الحروب ، ومن المؤكد أن أنور باشا قد كان منذ عهد بعيد يجهد فى سبيل الجامعة الطورانية ويذود عن حوضها ما استطاع [٢] ومن المقرر المعلوم أيضا أن الحكومة التركية كان لقوسها وتران

١ اقرأ المقالة المذكورة قبلا للمستشرق «X» . واخرى عنوانها « السياسة الجارية فى تركية المعاصرة كانون الاول ١٩١٢

Les courants Politiques dans La Turquie contemporaine Revue du Monde Musulman

(٢) كان أشد رجال تركيا الفتاة تمسكا بالقضية الطورانية أيام الحرب العامة جمال باشا ، ويليه طلعت باشا ، والدكتور ناظم وضياء كوك آلب ، وشكرى بك ناظر المعارف ، وغيرهم . وكان أقل الناس اهتماما بها هو أنور باشا ، وكان جهاده فى الاتحاد مع الاتراك الذين بالروسية والحرب التى أصلاها فى اذربيجان سنة ١٩١٨ وجلى بها الانكليز عن باكو ، وكسر بها شوكة الأرمن ، وأسس للآذريين دولة مستقلة استمرت مستقلة عدة سنوات ؛ وأرسل ضباطا قادوا مقاتلة الطاغستان الثائرين فى وجه الروس

أرادت أن ترمى عنهما سهاما لنيـل غرضين معا . وذلك انها حاولت أن تسوق الجامعـة الطورانية والجامعة الاسلامية معا فى طريق واحد ، عامدة الى استنفار جميع المسـلمين الغير الجنس فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى للجهاد المقدس ، من حيث هى لاجئـة فى الوقت عينه الى مضاعفة نشر دعوتها للجامعة الطورانية فى الشعوب التركية التترية . وقد بين « تـكين الب » الـكاتب المشهور هذه المطامح الـكبرى التى امتـدت اليها أنظار دعاة الجامعة الطورانية فى أوائل كتاب له موسوم بـ« التركى وغاية الجامعة التركية » نشره ١٩١٥ ، ومما قال فيه : « متى ما سحقت بسل الجيوش الألمانية والأوسترية والتركـية الاستبداد الروسى الغاشم سـحقاً ، واستطاع ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ الى ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية . ثم يضاف الى هذا العدد ١٠،٠٠٠،٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوى مع الحضارة الألمانيـة فتغـدو هـذه الأمة اذ ذاك شـديدة القوة والبأس ، مستسهلة كل صعب لتوالى الصعود بمعراج الارتقاء ، وستفوق هـذه الحضارة الحديثة فى بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانـكليزية المنحطتين »

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البولشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامح الطورانية وامتدت فى كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانيـة موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خـدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهذا عن حفائظ صدورهم تلك الحفائظ التى يكنونها أبداً للغربيين . وقد ذكر ضابط المانى من أركان الحرب (١) ، حديثاً جرى على

الى حربه الأخيرة سنة ١٩٢٢ مع الروس فى بخارى وهى الحرب التى سقط فيها رحمه الله شهيدا فى بولجوان شرقى بخارى بعد ان كان أشعل الثورة العامة من سواحل بحر الخزر الى حدود كاشغر واضطر الروس البولشفيين الى تسير مئات ألوف من العساكر لاخماد هذه الثورة الـكبرى كل ذلك كان منه حركة اسلامية محضة من قبيل جهاده فى طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ثم ارساله اليها أخاه نورى أثناء الحرب العامة مع أن أهالى طرابلس الغرب ليسو أتراكا ولا طورانيـين وانما يربطـه بهم الاسلام لا غير . وكان يقول لى مرارا ان أنفس الترك والتتر الذين يحنون الينا فى تركستان ويعقـدون آمالهم بنا انما يحنـون الينا لـكوننا مسلمين لا لـكوننا اتراكا . فلو كنا من الترك الباقين على الوثنية فى سيبيريا ماعرفونا ولا سألوا عنا . (ش)

(١) كان رئيس أركان الحرب فى الجيش العثمانى « ارنست پاراكوين » من مقال له نشر فى « برلينر تاجبلاط » (كانون الثانى ١٩٢٠) Ernest Paraquin — “ Berliner Tageblatt ”

المائدة بينه و بين خليل باشا قائد الجيش التركي في جهة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، والى القارئ بعض ذلك الحديث : « يجب في المقام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم احدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ، ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضربا من الضرورة التي لا منتدح عنها ، وهي فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فاذا ما تم هذا كان أساساً منيعا يبنى عليه صرح فخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » في سيبيرية ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقا ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة في القوقاس أن تندمج في الأمة التركستانية اندماجا تاما . وذلك يتمُّ بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية في كل قطر من قطريهم أن يندغموا أيضا في هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطوريةً تركيةً . ضخمةً منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامي يكون في استطاعتها حينئذ أن تسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان وايران . . . وفي كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب في الجهة العراقية وضويق الجيش التركي مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لي خليل باشا مازحا جاداً : وافرض مزحا اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المهلكة وتخلينا عنها لجاء اليها الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشئ امبراطورية جديدة، لابني هذا الأصغر ، وكان قد سمى ابنه باسم الفاتح المخرب - جنكيزخان (١) »

(١) لزيادة الاطلاع على الجهود التي بذلها الترك خلال الحرب العامة في سبيل عصبيتهم الجنسية اقرأ : — « رسالة في الطورانيين والجامعة الطورانية » جمعها الفرع الجغراني في قسم الاستخبارات البحرية لأركان الحرب في امارة البحر العامة (لندن ١٩١٩)

A " Manual on the Turanians and Pan-Turanianism ,, " Compiled By the Geographical Section of the Naval Intelligence Division, Naval Staff. Admiralty ,,

وكتاب « الهلال والصليب الحديدي » (لندن ١٩١٨)

E. F. Benson , " Crescent and Iron Cross ,,

وكتاب « ترك آسية الوسطى : أو بحث في الجامعة الطورانية » (اكسفورد ١٩١٨)

M. A, czaplicka, " The Turks of Central asia : An Inquiry into the Pan - Turanian Problem ,,

وفى صيف ١٩١٨ اجتاحت العساكر التركية(١) عبر القوقاس وشمالى ايران متخذة آسية الوسطى وجهتها . ثم بعيد ذلك نزلت النازلة الكبرى بالمانية فتضعضعت وتزلزلت ، وانتهت الحرب العامة انتهاء جلب على تركية الخراب والتلاشى ، فصرع رجال الجامعة الطورانية صرعة كبيرة ، وحلت بساحتهم الحيرة ، غير انه قد قيض لآمالهم الانتعاش من بعد ذلك بمدة قريبة كما ترى كيفية ذلك فى موضع قريب من هذا الفصل

يجدر بنا قبل أن نأتى على البيان والوصف لمجارى الحوادث فى الشرق الأدنى منذ سنة ١٩١٨ ، الحوادث التى يجب أن تعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، أن نسوق الكلام على الدور الثانى لترقيات العصبيات الجنسية والنهضات القومية فى سائر العالم الاسلامى . وقد سبق لنا العلم بأنه لما كانت العصبية الجنسية التركية تنمو مجتازة دورها الثانى كانت العصبية العربية تنمو معها جنباً الى جنب مجتازة دورها الثانى كذلك ، رامية الى انشاء امبراطورية الجامعة العربية المشتملة ليس على البلدان العربية المعدودة الموطن الاثنولوجى للعرب من شبه الجزيرة وسورية والعراق فحسب بل أيضاً على الاقطار المتعربة من مصر وطرابلس وسائر بلدان افريقية الشمالى الخاضعة لفرنسا وعلى السودان .

على أن الجامعة العربية لم ترقَّ الترقية الأدبية كما رقيت الجامعة الطورانية ، مع أن متجهها العام شبيه بمتجه تلك شبهاً يغنينا عن تفصيل مباديها وتعاليمها . انما هناك فرق كبير بين مجرى العصبيتين ، وهو ان الجامعة العربية قد ظهر فى صفاتها وحالاتها من صبغة الدين والجامعة الاسلامية أكثر مما ظهر فى تلك . لان العرب يفخرون بأن مبعث النبى كان فيهم ، و يعدون أنفسهم « أمة الرسالة » التى قدر لها من قبل السيادة على جميع العالم الاسلامى . وينقص الجامعة العربية التنظيم ووحدة السير والمتجه ، تلك الوحدة التى عرفت

وكتاب « قصة السفير مورغنتو » (نيويورك ١٩١٨)

H. Morgenthau, "ambassador Morgenthau's Story",

ومقال « الروح التركية » نيسان ١٩٢٠

a. Mandelstam, "The Turkish Spirit", "New Europe",

(١) صادفت خليل باشا مرة بالاستانة عند تحسين بك والى الشام السابق فسمعته ينادى ابنه الصغير باسم جنكيز . فقلت له : ألم تجد له اسماً غير هذا . فقال لى : سميناه محمد جنكيز ، فجمعنا بين الأمرين . يريد أن يقول بين الاسلام والطورانية . فهززت رأسى لهذا الجواب . (ش)

فى الجامعــة الطورانية . ولم تبرح سورية ومصر المركزين المعروفين اللذين تنبعث منهما قوة الحركة للجامعة العربية (١) . وفى الواقع الصحيح ان التدابير والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت تنظيماً وأنضجت فى مصر . وأما البرنامج المصرى للجامعة فهو يرمى الى توحيد جميع الاقطار العربية وعلى رأسها الخديوى – وربما صارت هــذه الأقطار العربية المتحدة خاضعة للوصاية البريطانية أول العهد ثم بالتالى تنفض عنها هــذه الوصاية وتمزقها بمقاومة عامة تقوم بها جميع أقطار الجامعة العربية . ويعزى الى الخديوى عباس حلمى الذى خلعه الانكليز سنة ١٩١٤ تشجيعه لهذه الحركة (٢)

ومما لاريب فيه ان الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديدا ، وبعثت فيها قوةً كبيرةً ، ولا سيما بما قضت به الحرب من انشاء مملكة عربية مستقلة فى الحجاز ، مدلية بحقوق لها فى سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثارت تطلب الاستقــلال ، متطلعة نحو اسقاط السيادة الاجنبية ومحوها محواً تاماً ، وهى السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة فى مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الاقطار العربية . وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعــل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربيــة ،

---

(١) المركز الوحيد الذى يمكن ان تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من أفريقية وجانب آخر عظيم من آسية ويستأنف به مجد العرب والشرق أجمع وتحفظ به الموازنة الضرورية لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر القاهرة . اذ بمصر جميع مايلزم من مواد بناء الدول الضخمة من وفرة الاهالى ، وخصب الاراضى ، وثروة البــلاد ، وتوسط الاقليم وآثار المدنيتين الشرقية والغربيــة ، وكثرة المبانى الاميرية والمعاهد العلميــة والخيرية ، الى غير ذلك من اشراط قيام الدول العظام . وبمصر كانت دول يفتخر بوجودها التاريخ قبل الاسلام وبعده ، ولمصر من الوسائل لتحقيق أمــل العرب ماليس لغيرها ولا ينقص مصراً سوى الاستقلال الحقيقي وحسن نية المستعمرين (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على سير الجامعة العربية وترقيها اقرأ : —

A.Musil. " Zur Zeitgeschichte von Arabien , (Leipzig 1918) M Pickthell

« تركية وانكلترة والازمة اليوم » اكتوبر ١٩١٤

" Turkey, England and The present Crisis. (Asiatic Review)

الشيخ عبد العزيز جاويش — مقاله

- Das Machtgebiet der Arabischen Sprache Preussische Jahrbücher

سبتمبر ١٩٦

وان كانت لم تبرح عاملاً شديداً ، غير ظاهرة كما كانت من قبل ، فى صدر البرامج التى فى أيدى رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية .

زد على ذلك ان الجامعة العربيــة مشتبكة النسيج ، كما قلنا قبلاً ، بمبدأين عامين شاملين ، لايختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعل هــذا المبدأ الأخير يبدو لنــا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب ، من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين . ان الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفــكارنا فى الجنسية والوطنية ، وانتحل ماانتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفــكار والعقائد اذا انتقلت الى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملاًى بصنف آخر من المبادئ والعقائد الرامية الى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق ، بحيث نشأ عن ذلك التلابس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف الى حــد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الـكلمات التى نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ، ذهبوا فى فهم معنييهما مذهباً مخالفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التى بيننا و بين الشرقيين ، ماهو شائع فى أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية . خــذ لك مثلا كلمــة « الدولة » ، فان الدولة الاسلامية التى يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ، ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحــدة معينة من الناس ، وأرض يسكنونها مقررة الحدود ، وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ فى كل مكان داخل حدودالدولة . بل ان الدولة فى الشرق الاسلامى انما هى كناية عن كتلة ، قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشــكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لهــا نواة مركزية هى مصدر السلطة المنبعثة منها ، انبعاثاً مشتملا على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتوره آفات الفوضى و يشو به الاختلال . ومن المعلوم ان غالب الدول الاسلامية مابرحت منذ نصف قرن تجــد فى تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها وسائر أحوالها ، ناسجة فى ذلك على منوال الدول الغربيــة . غير ان المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما فى أفغانستان حيث القبائل التى عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهى قبائل أفغانية متملكة استقلالا عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها فى المــدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانــكليز ،

غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتنا تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكليز .

والأمر كذلك فى الجنسية عند المسلمين . ليست الولادة فى البلاد ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة اسلامية فى قطر من الأقطار ، متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية . فوطن المسلم هو العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أى وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ، ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم . فالعبارة : «مصر للمصريين» مثلاً لاتعنى ذلك المعنى بعينه الذى نتصوره نحن فى الجارى المعتاد . فاذا ماأقام مسلم جزائرى أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح معنى العبارة . والسبب فى ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، فجميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون ، يجب عليهم باعتبارهم أمةً واحدةً متحدةً ، الذب عن سياجها والذياد عن حياضها وهذا هو السبب فى اننا نرى انه كلما أصاب اعتداء أجنبى طرفا من العالم الاسلامى ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كأنما المعمور الاسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء .

ترانا بعد جميع ماتقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين المسلمين الجامعين لمبدإ الجنسية الغربية وسنة « دار الاسلام » التقليدية ، الذين قد ألفوا بين هذا وتلك تأليفاً مشتركا نجم عنه مزيج فكرى جديد ومعتقد عام عرفا بجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، وقد بين مسلم هندى متجه هذا المعتقد بقوله : « ان جميع علوم الغرب فى فن الحكومات قائم على قاعدة ان الفروق الجوهرية فى بنى الانسان مقررة على اعتبارات جنسية وجغرافية . على أن هذه القاعدة ليست بمعروفة هكذا عند الشرقيين ، فعندهم أن الفروق الانسانية هى قائمة على اختلاف فى المعتقدات الدينية ، فليست الوحدة لعمرى فى الأمة ولافى الدولة بل فى الملة . ويرى الأوروبيون فى مثل هذه الحال فى الشرق اليوم مثيلا

لتلك الحال التى اجتازتها أوروبة فى القرون الوسطى ، اذ أن العالم الاسلامى ليجتاز دوراً لامندوحة له عن اجتيازه وهو دور التجدد السليم والانتقال الصحيح . وعلى هذا فما أسوأ فهم الغربيين لتلك الصورة الجامعة المتجلية للمسلم فى دينه ! ! ان الغربيين لينسون ان الاسلام ليس مقصوراً على كونه دينا فحسب ، بل انما هو نظام اجتماعى ، ونهج تهذيبى ، تضاف اليهما الجنسية . ان قاعدة التآخى الاسلامى ، وان شئت فقل الجامعة الاسلامية ، هى مقارنة « للوطنية » ومماثلة لها ولكن بينهما فروقا : وهى ان هذه الجامعة الاسلامية وان أدت الحال الى التحاكى فى الشرائع والقوانين والعادات ، فانها ليست (كالجنسية الغربية) قائمة على الوحدة فى الجنس والاقليم والتاريخ ، بل انها قد تلقيت من الله تلقينا تواً على حسب معتقدنا »[1].

ان جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، لظاهرة حديثة النشأة ، لم تقرر تعاليمها بعد ، غير انها بادية جلية فى العالم الاسلامى قاطبة ، وهى أبداً تزداد اعتزازاً ومنعة ولاسيما فى أقطار شمالى افريقية والهند حيث لم تكن هناك الوطنية الاقليمية الشديدة لسبب ما مترقية ترقى غيرها فى سائر الأقطار . قال كاتب فرنسى فى هذا الصدد : « ان العصبية الجنسية الاسلامية ليست هياجا موضعيا فى قطر معدوما فى آخر ، أو اضطرابا موضعيا غير منظم ، بل انما هى تيار جارف بعيد الأفق ، وطوفان طام العالم الاسلامى طراً من آسية والهند وافريقية فالعصبية الجنسية انما هى شكل حديث للاسلام له منعة فى ذاته لايقوى على زعزتها الاصطدام بالحضارة الغربية . وهذه العصبية سائرة سيرها مستعينة بكل عامل شديد من الغيرة الدينية ، ومستعدة للامتداد والانتشار ورد الناس الى دين الرسالة ، ونزاعة الى تحقيق وحدتها باشعال تعصب العامة من المسلمين وبالسيطرة على المرامى السياسية التى تدير دفتها الخاصة ، وببذر بذور الهياج الهائل فى كل صقع وقطر[2] » فجامعة العصبيات الجنسية

---

(١) محمد على رئيس « وفد الخلافة » الوفد الذى أوفده مسلمو الهند الى بريطانيا سنة ١٩١٩ ليحتج على تقسيم الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدات الصلح — من مقال لهذا الرئيس « الحركة الاسلامية فى الهند » (كانون الثانى ١٩١٤)

"Le Mouvement Musulman dans L'Inde ,, (Revue Politique Internationale).

(٢) كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » المذكور قبلا لسرفيه .

الاسلامية ستكون فى المستقبل عاملا أكبر وركناً أعظم ، يقام له و يقعد فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه[١].

— ٣ —

هنا ينتهى وصفنا للعصبيات الجنسية فى العالم الاسلامى . ولعمر الحق ليس من الغرابة فى شئ أن نرى الشرق ، وقد ارتوت نفوس شعو به وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التى هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التى نزلت عليه و يلاً عميماً و بلاء شاملا ، مرجلا شديد الغليان فوّاراً ، و بركاناً ثائراً . من المعلوم البين انه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائض والمشاين . وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج . لكن مؤتمر فرسايل السلمى كان و يا للأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة فى الرأى ، ونظر بالعواقب فنجم عن ذلك أن تلك « التسويات » الفاسدة التى وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر حبوط ، ليس فى ضمان السلم لأوروبة فحسبُ بل كان من شأنه اماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب الحقيقى ازاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذى عادت فظهرت فيه تلك الروح التى عرفت ما قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطورى والجشع الاستعمارى ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب ما بين أيديها وما خلفها ، واستنزاف دمائها ، وشد الاخنقة على ما حول رقابها . زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمه ، غير معتبرين شيئا التطورات النفسانية الهائلة التى حدثت فى الأمم الشرقية من جراء الحرب ، فلم يلجأوا الى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، والى انتهاج نهج سياسى خير

(١) لزيادة الاطلاع على جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اقرأ بعد سرفيه ومحمد على :ــ « الاسلام فى القرن التاسع عشر » (باريس ١٨٨٨)

a. Le chatelier, L'islam au dix - Neuvième Siècle

« انكلترا والاسلام » (حزيران ١٩١٩)

Sir T. Morison " England and Islam' - " Nineteenth centur and after..

« القضية الايرانية » (باريس ١٩١٦) G.Démorgny, " La Question Persanne ,,

« عبر القوقاس ماضياً وحاضراً » (اكتوبر ١٩٢٠)

W. E. D. allen, " Transcaucasia. Past and Present ,, " Quarterly Review

من ذلك الذى انتهجوه قبلاً ، بل ظلوا على المضى فى معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التى أنّ من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسية ما برحت ذلك الجبار المستغرق فى هجعته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التى قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التى قطعوها لشعوب الشرق الأدنى ، فى تقرير المصير ، خلال المعمعان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض و بعض منهم فى الحين الذى كانوا فيه يصرحون بالذياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأمبراطورية العثمانية ، إشباعاً لشرههم الكلبى ونهمتهم الوحشية ، ممتهنين شر امتهان إرادة أهالى البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة . وكان مؤتمر فرسايل كشافاً عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التى انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التى التزم جانبها المؤتمر فى رفضه قبول وفد ايران الذى أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) . فكان من الأمر أن حمل المؤتمرُ الوفدَ على البقاء فى باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذى يراه المسافر فيحسبه ماء ، بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عنق حكومة الشاه فى طهران الى أن أكرهتها اكراهاً على إبرام « اتفاق » باتت ايران كلها بمقتضاه بلاداً محمية فى كنف الامبراطورية البريطانية . وأما المصريون ــ الذين كان دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التى أعلنتها بريطانية منفردة ، من تلقاء نفسها ، فى مصر سنة ١٩١٤ ــ فقد أوفدوا الى باريس وفداً ليبسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرسايل الأصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر انما يعتبر الحماية البريطانية فى مصر أمراً قضى وحكماً أبرم . فنجم عن جميع ذلك ما عدّ نتيجة من نتائج الحرب ، وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين الأدنى والأوسط قد شدت أطنابها ، وتوطدت عمدها واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

على ان الأمر الأغرب والأعجب فى جميع القضية لم نبسطه بعد . قد يخال بعضهم أن قادة الحلفاء ما كانوا الا ليدركوا أنهم كانوا فى نهجهم هذا النهج يركبون مركباً خشناً ، ويعانون صعباً فى سبيل أمر لايستطيعون بلوغ الغاية منه الا بصف الجانب الى الجانب ، وتعاقد الأيدى على التعاون ، وتقارض شد الأزر ، وسرعة الامضاء . غير ان الواقع كان الضد كل الضد من هذا . إذ انهم لم يكادوا يمدون أيديهم بعضهم لبعض حتى ذعر الشرق ايما ذعر ، واجفل ايما اجفال ، متقداً حنقاً وغضباً و بأساً . فما كانوا ليقيموا لهذا شيئاً من الوزن والاعتبار ، بل ركبوا رؤوسهم فى طريق السوء وشرعوا يتخاصمون و يتقاتلون على اقتسام الغنيمة ، بحيث صار كل منهم يتهجم للآخر ، ويريد أن يفوز على سائر شركائه بالسهم الأربح والنصيب الأوفر . فانقضت سنتان دون أن تستطيع بريطانية وفرنسة وايطالية الوصول الى إبرام اتفاق بينهن ولو ظاهراً ، يرتضين بمقتضاه خطةً فى تقسيم الامبراطورية العثمانيـة ، بل ظللن طول هـذه المدة ينهش بعضهم أقفية بعض ، وتكيد الواحدة المكايد وتاقى الأحابيل والاشراك فى سبيل الأخرى . وكذلك كان شأنهن فى جميع الشرق الأدنى . قل الحق ولا تخش لوماً . انمـا ذلك كان خفة وطيشاً وجنوناً ، فباتت الشعوب التى قضى عليها بأن تكون ضحايا بريئةً ، تمزقها مخالب الاستعمار ، تدرك جيداً من وراء ذلك التطاحن الذى شرع يتطاحنه الحلفاء على مشهد منها فى سبيل امتصاص دمائها ، أن السيطرة الاوروبيـة قائمـة ليس فقط على « الافلاس » فى الآداب الصحيحة والأخـلاق الكريمة بل فى السياسـة أيضاً ، واضحت النتيجة جليةً ، وهى أن سيطرة متهدجة مثل هذه السيطرة القائمة على أساس المفاسد والعيوب ، لعجلان ما تزلزل شر زلزلة ، وتقوض تقويضاً يصيرها أثراً بعد عين .

هذه هى الحالة العامة التى يفقهها الشرقيون اليوم ، على أن شعورهم بحولهم وقوتهم و بتضعضع الغرب وتقاطعه وتفكك أوصاله ، لم يكن الهائج الفذ الذى هاج منهم هذه النفوس الثائرة ، بل ظهر لهم هناك حليف جديد وقف من ورائهم وما فتئ يجدّ فى تشجيعهم على القيام فى وجه الغرب ، يؤرث نار العداء بينهم و بينه ــ ألا وهو الروسية البلشفية ، التى قلبت لاوروبة ظهر المجن وانبرت تبتغى نزال الحضارة الغربيـة . فلما اشتد الخطب واستحكمت حلقاته ، وحرج المأذق بين الشعوب الشرقية والدول الغربية ، وجـد القادة

البلشفيون الفرص الكثيرة قد لاحت فى الشرق آخذاً بعضها برقاب بعض ممهدة لهم سبل الوصول الى غايتهم ، فهللوا لها فرحاً وسروراً ، وشرعوا يبثون دعوتهم المعروفة ، وسنفصل الكلام على المساعى البلشفية والأعمال التى قام بها قادتها فى الشرق فى فصل « القلق الاجتماعى » من هذا الكتاب . غير ان مايعنينا علمه الآن هو ان الدعوة البلشفية انما هى عامل كبير فى هذا الغليان الشديد البعيد الغور ، والثوران الشامل المنتشر فى الشرقين الأدنى والأوسط ، الذى جر فادح البلايا الى بعض الأقطار وجلب عليها الخراب والدمار ، وما زال منذراً بالتزايد والتفاقم فى المستقبل القريب .

اننا لو شئنا التفصيل فى شأن هذا الاضطراب المشهود اليوم فى الشرق لاستغرق ذلك أسفاراً ضخاماً . لذلك نقصر الكلام فى هذا المقام على المراكز الكبرى التى هى مناشئ هذا الاضطراب ومبعثه ومصدره ، عالمين ان هذا الغليان عامّ الطوفان ، مطبق الطمو فى جميع العالم الاسلامى ، من الأقطار الافريقية الشمالية الفرنسية الى أواسط آسية والجزائر الهولندية . وأما المراكز التى نبسط الكلام عليها الآن فهى مصر وايران وتركية والأقطار العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وهناك غير هذه المراكز مركز خامس كبير — هو الهند . غير اننا سنبسط الكلام على هذا المركز الأخير فى الفصل الذى يتلو .

ان العاصفة الأولى قد عصفت فى مصر . ظلت مصر مدة الحرب وهى مغمورة بطوفان الجيوش البريطانية ، ومصفدة شر تصفيد بالأغلال العسكرية (العرفية) ساكنة هادئة ، ولكن تحت ضغط الجور الهائل وارهاق الحد والقسوة العسكرية ، لاعن طاعة مختارة ولا عن طيب نفس ، وقد علمنا فيما سلف من الكلام فى غير موضع كيف أضحى جمهور متهذبة المصريين عند مطلع القرن العشرين ، متشربين قليلا أو كثيراً لمبادئ القومية والعصبية الجنسية ، من حيث كان جانب كبير منهم يعتقدون نهج مناهج الارتقاء المتدرج ، لانهج العنف والثورة . وكان المعتدلون من المصريين أقوياء الأمل بحسن العقبى والسبب فى ذلك كون الحكم البريطانى ذا صفة موقتة لادائمة . كما أن بريطانية قدأعلنت من ذاتها مراراً انها محتلة مصر « احتلالاً موقتاً » ، مما جعل المصريين يعتقدون ان جميع مايرجون نيله لمستطاع . غير ان اعلان الحماية سنة ١٩١٤ اعلاناً جعلت مصر بمقتضاه قسما من الامبراطورية البريطانية ، كان من شأنه انه بدل بصورة القضية تبديلا تاماً ، ونقض

شكلها نقضاً كلياً ، فأيقن جميع أهل مصر حتى أكثر الوطنيين اعتدالا ان قد قضى على مستقبل مصر بالويل قضاء مبرماً ، وسبق السيف العذل ، وان الأبواب قد أغلقت دون النجح شر إغلاق ، وأوصدت دون بلوغ آمالهم ونيل مطامحهم ، وحيل بينهم و بين مايبتغون فنجم عن ذلك ان انحاز المعتدلون الى جانب الغلاة و باتوا جميعاً من بعد ما كانوا شتى ، على استعداد للقيام بأعمال الشدة والعنف والمقاومة والمشاكسة عند سنوح الفرصة ولوح النهزة .

وكان غلاة الوطنيين مافتئوا منذ بدء الأمر يوالون احتجاجاتهم على اعلان الحماية ، فعند ختام الحرب العامة أوفدت مصر وفداً مؤلفاً من المعتدلين والغلاة الى باريس ليقوم ببسط القضية المصرية لدى مؤتمر فرسايل ، فخيب المؤتمر الوفد كما ذكرنا ذلك فى موضع قريب ، وأبى الاصاخة لأقواله واستماع شكواه ، معترفاً بالحماية البريطانية فى مصر جزءاً مندمجاً فى التسويات التى بنى عليها عقد الصلح . فرفع الوفد المصرى احتجاجاً رسميا منذراً فيه الحلفاء بنشوء الاضطراب فى مصر ، جاء فيه : —

« لقد قرعنا الباب اثر الباب لكن على غير طائل . وانه بالرغم من العهود المؤكدة والوعود الموثقة ، التى قطعها رجال السياسة الذين كانوا على رأس الأمم التى جنت ثمار الظفر ، بأن فوز الحلفاء انما هو نتيجة لنصر الحق على القوة ، ولتأييد مبدأ « تقرير المصير » بحيث تترك الامم الصغيرة وشأنها تختار لنفسها من أنواع الحكم ماتراه موافقاً لمصلحتها ، — بالرغم من جميع ذلك — فان الحماية الانكليزية على مصر قد أدخلت فى نص معاهدتى « فرسايل » و « سان جرمن » ، دون الوقوف على رأى الشعب المصرى فى أمر موقفه السياسى .

« فنحن ازاء هذه الجريمة الواقعة على أمتنا ، والتى هى فى الواقع خيس بالعهود من قبل الدول التى أعلنت للملأ كافة انها واضعة فى تلك المعاهدة نفسها بناء « عصبة الأمم » ، لابدّ لنا من التحذير الشديد الى أن الشعب المصرى ليعتبر هذا الحكم الصادر عليه فى باريز باطلاً لا وزن له البتة . . . . واذا لم يسمع تحذيرنا هذا فانما ذلك لأن الدماء التى أهرقت من قبل فى سبيل حرية الأمم لاتزال غير كافية لقلب النظام العالمى القديم ، واحلال نظام عالمى جديد محله » .

فما كاد حبر هذا الاحتجاج يجف حتى أخذ الاضطراب ينشأ و ينتشر فى مصر . وفى الحين الذى فيه وصل الوفد الى باريس ليبسط القضية ، رفع الوطنيون فى مصر مطالبهم الى السلطة البريطانية ، واشتمل برنامج الوطنيين على مطلب الحكومة الذاتيـة الناجزة لمصر مبقياً لبريطانية حق المشارفة عـلى الديون العامة وقناة السويس . وظهرت قوة الوطنيين مظهراً شديداً مؤيداً ، وذلك ان مطالب البرنامج بجملتها هى مما وافقت عليـه الوزارة المصرية التى عينها الخديوى قبيل ذلك تعييناً نائـلا لرضى الحكومة البريطانية . فطلب رئيس الوزارة المصرية رشـدى باشا أن يؤذن له ولبعض زملائه فى الشخوص الى لندن لمفاوضة مع حكومتها ، فأمست السلطة البريطانية عند هـذا الطلب فى موقف حرج ، لكنها اختارت أن تعتزم التصلب فى موقفها ، وعلى ذلك أجابت أن الحكومة البريطانية ليس فى وسعها أن تتخلى عن التبعة الملقاة على عاتقها وهى التبعـة المقتضية استمرار الأمن والنظام والحكومة الصالحة فى مصر ، وهى البلاد التى أصبحت تحت حماية بريطانية وصارت جزءاً متمما للامبراطورية لاينفصل عنها ، وان ليس هناك عائد خـير يستفاد من السماح للزعماء المصريين بالذهاب الى لندن حيث يبسطون مطالب غير معتـدلة لايستطاع الاصغاء اليها ولا مما يحتمل وضعه على بساط البحث والاعتبار .

ان موقف الانكليز فى مصر كان شديداً صلباً ولكن ما كان موقف الأمة المصرية بأقل منه شـدة وصلابة . فاستقالت الوزارة للحال ولم يعد من المستطاع تأليف وزارة تخلفها ، الامر الذى اكره المندوب السامى البريطانى الجنرال اللنبى على الاخذ بأزمة الحال بيد شديدة على غير هيبة ولا وجل . وفى هذه الغضون جاهر رجال النهضة انهم انما يريدون استفتاء الامـة المصرية استفتاء تعرب فيـه عن مقرر موقفها فى ذلك البرزخ . فأبت السلطة البريطانية على الوطنيين ذلك وشرعت تحول دون نيل مرادهم ، ولكن على جميع هذا قد استطيع الاستفتاء وان كان غير قانونى ، فكانت نتيجته على ماأراد رجال النهضة ، وهى تأييد الشعب تأييداً عاما للمطالب الوطنية . فحمل ذلك الموقف ـ الذى وقفتـه الامة متضامنة يشد بعضها بعضاً ـ الحكومةَ البريطانية على ارهاف الحـد والاستعانة بوسائل القسوة والعنف ، فقبضت السلطة البريطانية فى مصر على أكثر القادة الوطنيين وأبعـدتهم الى مالطة فى ربيع ١٩١٩ وزعقت فى آذان الامة المصرية زعقة ما كان أشدها .

على أن مصر أجابت المرعب المهدّد بالانفجار الهائل فالتهبت نار الثورة فى البلاد من أولها الى آخرها وما كان شبوب النار فى موضع أقل منه فى آخر نخربت المسالك الحديدية تخريباً ، وقطعت الاسلاك البرقية تقطيعا ، وهوجمت القطر واستلبت استلاباً ، وقتل الضباط والجنود البريطانيون حيث كانوا يثقفون على انفراد تقتيلا ، وفى القاهرة وحدها نهب الغوغاء ألوفاً من البيوتات والمنازل ، وزاد الخوف واشتد البلاء بتدفق عرب البادية مغيرين للغنيمة والسلب ، فظلت مصر فى هرج ومرج تتهدج على شفا جرف الفوضى ، واعترفت الحكومة البريطانية أن مصر انما كانت فى فتنة صماء .

فاستقبلت السلطة البريطانية المأزق الحرج برباطة جأش وشدة مضاء وكان عدد الجنود البريطانية فى مصر كثيراً ، واستقدمت الكتائب السوداء الامينة من السودان . وقام الشرط الوطنيون المصريون ، المدربون تدريباً حسناً ، بطاعة الامر فى الساعة العصيبة . وكانت بضعة أسابيع اشتد فيها الاضطراب واستحرّ القتال ، وعظمت الخسارة فى النفوس والثمرات ، ثم سكنت مصر واقتيدت تحت جناح الحكم .

وأعيد النظام ، غير ان البلاد ظلت ظاهرة مظهراً غاية فى التشاؤم مملوءاً بنذر السوء وشر العقبى ، وما كان حفظ النظام مستطاعاً البتة لولا العدد الكبير من العساكر البريطانية والسودانية ، وما كان التشدد الهائل بتطبيق الاحكام العسكرية (العرفية) الجائرة بحائل لأهل مصر دون القيام بالتظاهرات الوطنية بعضها يتلو بعضاً ، مما كان ينتهى أحياناً بالهرج والمرج ، والاختلال والقتال ، وازهاق الارواح العديدة . غير أن الامر الأهم فى جميع هذه الحالة هو أن أهل الطبقات العليا فى الامة لم يكونوا وحدهم المشتعلين بنار الوطنية والمتعاقدين بعضهم مع بعض على الذياد عن حوض العصبية المصرية ، بل كانت من ورائهم الملايين العديدة من الفلاحين الذين كانوا من قبل معروفين بصدق طاعتهم والاخلاد الى السكينة ، لكن الحرب العامة كانت ألقت بجرانها عليهم وعانوا من جرائها الويل الأكبر ، اذ حملت الضرورات العسكرية الدولة البريطانية على تجنيد مليون واف من المصريين الذين ساقتهم للقيام بالأعمال الاجبارية فى الشرق الادنى حتى وفى أوروبة ، وجمعت بريطانية من مصر المقادير العظيمة من أنواع الحبوب والاعلاف والميرة اللازمة للجيوش ، الامر الذى هاج نقمة الفلاحين ايما هياج ، وأضرم فيهم فى الباطن الشنآة الكبرى

للحكم البريطانى مما أخذ يظهر بالفعل والحس والعمل فبات ثقات خبر الانكليز المنضلعين من شؤون مصر يتشاءمون من الحال شديد التشاؤم . قال السروليم ويلكوكس المهندس المشهور ، بعيد الفتنة ، فى بيان عام له : « ان الفلاحين فى مصر كانوا حجر الزواية التى قام عليها الاحتلال البريطانى ، وأما الشيوخ ورجال العمد وأهل الاحكام ورجال الدين فقد كان شأنهم من حيث زعزعة الاحتلال لايؤبه له ، لانه سواء ناصبنا هؤلاء العداء أم لا فقد كان وراءنا ملايين من الفلاحين سنداً للاحتلال كبيراً . بيد أنه مما لاريب فيه البتة اليوم أن الحكومة البريطانية قد اضاعت ولاء هذه الملايين لها وفقدت ثقتهم بها » . وقال السرفالنتين تشيرول فى مقال له نشره فى « التيمس » اللندنية : « ان هناك حقيقة جارحة أمسينا اليوم نراها مصرحة عن محضها ، الا وهى قيام سواد الفلاحين المصريين للمرة الاولى منذ أول عهد الاحتلال ، وهم مدينون لنا بنعمتهم وحسن حالهم أكثر من سائر طبقات الشعب ، ينتقضون علينا وينقلبون لهبة من النار مندلعة يريدون التهامنا . انى أعتقد أن الواقفين حق الوقوف من أبناء قومى حتى من أهل الحل والعقد من أرباب المقامات الرسمية على حقيقة حرج الموقف واشتداد المأزق فى مصر لقليلون جدا . فقد طفح الكيل ونحن عن ذلك غافلون »

وقد راع الشعور الوطنى الشديد أرباب النظر والاستقصاء روعا كبيرا ، وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية هولا عظيما ، تلك الثورة التى كان من شأنها أن وحدت جميع طبقات الأمة وألفت بين الاسلام والنصرانية . قال كاتب ايطالى فى شأن التظاهرات الكبرى الهائلة التى أقيمت فى مصر خلال سنة ١٩١٩ معظما مكبراً : « إن هذه المرة لهى الأولى فى التاريخ رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة فى مصر وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت فى وادى النيل ، فقد ظل العنصران الاسلامى والنصرانى فى مصر حتى العهد القريب متقاطعين متدابرين ، ينفر كلاهما من الآخر كما ينفر من اليهود ، أما اليوم فقد حدث فى مصر كما حدث فى الهند بين المسلمين والهندويين ، من امحاء آثار التعصب وزوال الانشقاقات الدينية . المختلفة . ان المصريين قاطبة قد غدوا يتظللون عاماً وطنياً واحداً ، وبات كل منهم متقداً بروح التآخى والتصافى ، شديد الثقة بأنه متحداً مع أخيه وبنى قومه لا بد له

من ادراك الفوز واحراز الفلاح (١) » وقالت سيدة فرنسية قضت فى مصر غالب حياتها « اننا وايم الله قد أصبحنا نشهد العجائب والغرائب فى هذه البلاد التى كانت فيما مضى موطن الانشقاقات المذهبية ومباءة المشاحنات الدينية : فما هذا لعمر الحق ! ! قسيسون أقباط يعظون فى المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون فى الكنائس النصرانية طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين فى سبيل القضية الوطنية . كل فرد من الأمة يتشوق متلهبا غيرةً وطنية الى رؤية بلاده حرة ينبلج عليها الاستقلال انبلاج الصبح المبين ، مفيضا عليها الخيرات والبركات . ان مثلى ممن عرف مصر فى عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد اليوم بعينه من تطور شأن المرأة المصرية هذه السنوات الأخيرة ، هذا التطور الا عجب فى جميع ما حدث من ضروب الانقلاب والترقى فى وادى النيل . ان من كان يعرف صفات حياة المرأة فى مصر ، حياة الاهمال والانقباع فى اكسار البيوت والمنازل بمعزل عن أى شأن تشتم منه رائحة سياسية ، ليدهش دهشاً كبيراً حيال ما قد حدث من التطور فى هذه الأشهر الأخيرة . خذلك مثلا . قامت السيدات فى مصر الصيف الماضى بتظاهر كبير . فاحتشدن وسرن فى القاهرة مواكب جليلة ، فهرعت فرق الجنود البريطانية للحال ، واصطفت نطاقا من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفى رؤوسها الحراب المسددة اللامعة ، واذ هدد جندى سيدة لسرعان مادارت اليه زائرة زأرة اللبوءة تحمى أشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به : اغرس ياجندى حربة بندقيتك فى صدرى فيعرف العالم أن هناك غير واحدة من النساء أمثال الآنسة كافيل »(٢)

فحمل اشتداد هذه الثورة الوطنية التى لم يسبق لها مثيل فى مصر ، رجال الانكليز

(١) ٣٠ ديسمبر ١٩١٩ G. Civimini, in the " corriere della Sera

(٢) مدام جهان دى فراى من مقال لها : « فى مصر » ١٥ سبتمبر ١٩٢٠

Madame Jehan d'Ivray, " En Egypte", "Revue de Paris ,,

ووصفت هذه السيدة طائفة من الحوادث الرائعة على هذا الطراز . ولزيادة الاطلاع اقرأ « الملحقات للكتاب المصرى الأبيض » المشتملة على شواهد عديدة معززة بالصور ولرسوم مما يدل على المظالم والفواحش والكبائر التى اقترفتها الجنود الانكليزية .

على الانقسام فريقين مختلفين : فريق مثل السر وليم ولكوكس والمسز فالنتين تشيرول وانداده‍ما ، ينادون بوجوب الاذعان العاجل ، للمطالب الوطنية التى ينادى بها أهل مصر . وفريق آخر من أرباب الاستقصاء يؤكدون أن الاذعان للمطالب المصرية انما هو دليل الضعف ومجلبة البلاء . قال السر م . مكئيلرايث . « اذا انتقل الحكم من أيدينا الى أيدى الحكومة الوطنية فلا يمضى على ذلك أكثر من خمس سنوات حتى ينتشر الاختلال ويعم الاضطراب . . . اننا اذا شئنا ألا ندع مصر تنقلب مستغرقة فى حمأة الافلاس وبؤرة الفوضى اللتين نجيناها منهما سنة ١٨٨٢ وهى الآن محاطة بأهوال البلشفية كما تؤيد هذا الأدلة المشؤومة الآخذة فى الازدياد ، وجب على بريطانية ألا تترك أعنة الحكم فى مصر ولو على وجه الارخاء » [1] ثم اشتدت حالة مصر اشتداداً عظيما قلقت من أجله بريطانية قلقا كبيراً ، ففى صيف سنة ١٩١٩ أعلنت الحكومة البريطانية انها قد عينت لجنة تحقيق يرأسها اللورد ملنر لتشخص الى مصر وتتولى القيام بالتحقيق التام فى الشؤون المصرية .

فكان أمر تعيين اللجنة التحقيقية الحكمة عينها . أما اللورد ملنر فهو من أعاظم الرجال الانكليز فى عالم السياسة البريطانية ، كثير الاختبار والحنكة فى معالجة معضلات الامبراطورية ومن جلتها معضلة مصر . وهو ذو مزاج خاق يبعده من آراء الأحرار الخيالية القليلة التحقيق ، ويقصيه عن التشدد تشدد المحافظين بقواعد مذهبهم ، بحيث يجعله وسطاً بين المذهبين على مذهب أهل الحقيقة ، الذين يقولون بأنه لايصح الا الصحيح هذه هى صفة الرجل كما دل عمله على ذلك بعيد حين . فلما وصل وزملاؤه الى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠ رأوا أنهم ازاء حالة من أكثر الحالات حرجا ، ومأزق من أشد المآزق عناء ، اذ قبل وصولهم كانت الاذاعات قد انتشرت فى وادى النيل تدعو الأمة لايجاب مقاطعة اللجنة . وأجمع الساسة الوطنيون وفيهم رجال الدين على رأسهم مفتى الديار المصرية على رفض الدخول فى المفاوضة والمناقشة فى أى شأن من الشؤون ما لم توافق اللجنة مقدماً على استقلال مصر . فظهر ذلك بجملته عقبة كأداء ، ومعضلة شديدة ، غير أن اللورد ملنر قد استطاع على كل هذا بوافر الحنكة وشديد الصبر أن يفاوض سعد باشا وغيره

---

(١) العصبية الجنسية المصرية » يوليو ١٩١٩

Sir M. Mc Ilwraith, "Egyptian Nationalism" "Edingberg Review,.

« مستقبل مصر » ٦ نوفمبر ١٩١٩

Hon. W. Ormsby-Gore, " The Future in Egypt ., " New Europe ..

من القادة الوطنيين أهل الحل والعقد ، مفاوضة حرة ، و يباحثهم مباحثة صريحة طلقة .

ومما لا ريب فيه أن بعض تطورات الحال التى حدثت فى مصر فى تلك الغضون قد كان من شأنها انها كانت للورد ملنر معوانا فى مجاهيده . اذ فى مصر كما فى سائر الأقطار الشرقية كانت الأعراض والظواهر أخذت تبدو جلية دالة ليس على الاضطراب السياسى فحسب ، بل على الاجتماعى أيضاً ، فانبرى كثير من الهائجين وأهل السجس ، أهل الطراز الجديد فى مصر ، ينظرون فى عامة الشعب الآراء والمبادئ الثورية على منتهى الغلو ، فاقلق هؤلاء الفتيان الهائجون بال القادة الوطنيين المتمشين على الخطط المعينة ، والناهجين المناهج المنظمة ، حتى باتوا مهددين من ناحيتين : الأولى من حيث هم زعماء أحزاب سياسية ، والأخرى من حيث هم من أرباب الشأن والمكانة الاجتماعية وعلية القوم . فنجم فى خريف سنة ١٩٢٠ ان اللورد وزغلول باشا توصلا الى الاتفاق على قواعد أساسية دلت على التراضى المتبادل الصحيح . وكانت خلاصة هذا الاتفاق الممهد لما يتلو ، على حسب ما بلغته الصحف وأيدته صفة البيان الرسمى الذى وضعه اللورد ملنر ما يأتى : أن ترفع بريطانية الحماية عن مصر وتعلن أن مصر هى مستقلة ، أن يكون الاستقلال الذى تملكه مصر مساوياً بكفايته لاستقلال « كوبا » ازاء الولايات المتحدة الامريكية ، أن تمنح مصر حكومة ذاتية ناجزة ، أن تسحب بريطانية الحامية البريطانية والموظفين الملكيين ، أن تعقد مصر على كل حال معاهدة محالفة مع بريطانيه العظمى ، أن تتعهد مصر ألا تعقد هى معاهدات مع الدول الأخرى الا برضى بريطانية وموافقتها ، وأخيراً أن تمنح مصر بريطانية موقعاً عسكرياً وبحريا بحيث تستطيع هذه الأخيرة حماية قناة السويس ومصر فى حالة هجوم مفاجئ يقوم به عدو أجنبى على حين غرة . أما قضية السودان المشكلة فقد تركت معلقة موقتاً غير مبتوت فى شأنها .

فهذه المقترحات كانت تحمل الأدلة البينة على الوفاق المرجو له الخير ولكنها لسوء الطالع لم تقترن بنفاذ للحال (١) . فنشأت الاعتراضات الشديدة عليها وكثرت المقاومة لها

(١) للاطلاع على ما نجم عن هذا التأخر من سوء العقبى اقرأ مقالة السرفالنتين تشيرول « السياسات المتضاربة فى الشرق » اول يوليو ١٩٢٠

Sir Valeutine Chirol " Conflicting Policies in the East ,, (New Europe)

فى كلا بريطانية ومصر . أما فى بريطانية فقد ضبط المقاومون السياسيون من أهل السلطة الرسمية تقرير اللجنة حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٢١ ، وأما فى مصر فهبَّ الوطنيون الغلاة وقالوا : سعد باشا خائن ، من حيث كان المعتدلون يبدون ارتياحاً تاماً الى الذى اتفق عليه . ولما نشر تقرير اللجنة الملنرية بالتالى جاء فيه على التبيين والتصريح ان منح مصر حكومة ذاتية لما لا يستطاع ارجاؤه ارجاءً تكفل معه سلامة العقبى ، وان الروح الوطنية والعصبية القومية لمن المتسحيل محوها والقضاء عليها ، وان محاولة حكم مصر حكماً ممزوجاً بالعداء المرّ لهو « أمرٌ صعب شائن » ، وان التقاعس عن انتهاز الفرصة لاجراء التسوية المرضية هو من الشؤم ونكد الطالع . غير أن الحكومة البريطانية لم توافق على التقرير بجميع مشتملاته ومضامينه ، الأمر الذى حمل اللورد ملنر على الاستقالة للحال . أما زغلول باشا فما برح على مقامه من زعامة الأمة ، وان تكن سلطته قد تزعزعت . هذه هى صفة الحال فى مصر ونحن نكتب هذه السطور ، حال والحق يقال ليس فيها من الفأل ما كان فيها السنة الخالية .

على انه فى تلك الاثناء امتد تيار العاصفة التى هبت هبوبها الاول فى مصر ، الى كل رقعة من رقاع الشرق الأدنى فطبقها . ففى أوائل سنة ١٩٢٠ انتقل مركز العاصفة الى الامبراطورية العثمانية حيث الحلفاء هم أنفسهم الملومون وأهل الجناية فى هذا الخطب الكبير . أجل لا ينكر أن التوصل الى وضع تسوية ايجابية فى شؤون هذه الاقطار الهائجة المضطربة لم يكن من السهل الهين ، غير أنه مع جميع ذلك لم يكن وضع هذه التسوية من المستحيل الذى لا يدرك لو كانت سياسة الحلفاء ملتزمة جانب الصحة والحكمة والعدل . فعند ختام الحرب الكبرى أمست الشعوب المختلفة فى الامبراطورية العثمانية راجية رجاءً كبيراً فى ان الغايات والمقاصد الحرة التى صرح بها علناً ساسة الحلفاء ستحقق تحقيقا لا ريب فيه . أما العرب خاصة فقد كانوا أشد الجميع رجاء والسبب فى ذلك ان الحلفاء كانوا قد أشبعوهم من براق الوعود وخلاب العهود ما أشبعوهم ، ومنوهم بأن يمنحوهم جميع نعمة الاستقلال جميع ذلك انما قد شجب فيما بعد شجباً شائناً كما سترى فى موضعه القريب من حيث أن الترك فى ذلك الحين لم يكن رجاؤهم فى خير المستقبل قد انقطع انقطاعاً تاماً ، اذ كان لديهم ، الى جانب التصريحات العامة الضامنة لحرية الأمم

والشعوب المصوغة فى برنامج « الاربع عشرة مادة » للرئيس ولسون والتى وافق عليها الحلفاء موافقة تامة ، تصريحات أخرى أضمن للغاية وأكفل للقصد ، من ذلك ما قد صرّحه رئيس الوزارة البريطانيـة المستر لويد جورج فى ٥ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٨ اذ قال « ... ولسنا بخائضين غمرات هـذه الحروب لننتزع من تركيـة عاصمتها وأقطارها الغنية المشهورة فى آسية الصغرى وتراقية ، تلك الاقطار التى غالبها من العنصر التركى » وذلك بعبارة أخرى أن الترك قد فهموا تفهيما بيناً باتاً انه فى الحين الذى لا بد لحكمهم من التقلص والزوال عن الاقطار غير التركية كالبلاد العربية،فان البلاد التركية فى الامبراطورية لن يراد اخضاعها لسيادة أجنبية ، بل يتألف منها دولة تركية وطنية . ولكن الترك لم يطلعوا على سلسلة من المعاهدات السرية التى عقدها الحلفاء فيما بينهم منـذ سنة ١٩١٥ واتفقوا بمقتضاها على تقسيم جميع آسية الصغرى بين الدول المتحالفة . واذ لم تنشر سلسلة هـذه المعاهدات الا بعـد زمن ، فقد ظل الترك هذه المدة راجين خـيراً ومرتقبين عدلاً وفراً .

أما العرب فقد كان المجال لمطالبهم القومية أرحب ، ولثوران عصبيتهم الجنسية أدعى من حيث كان الحلفاء فى سياستهم معهم أشـد مخاتلة وخداعاً ، وأفظع مكراً ورياء . وقد قدمنا الكلام على الثورة العربية التى شبت نارها سنة ١٩١٦ فى الحجاز بأمرة شريف مكة ، ثم أخذت ألسنتها تندلع وتنتشر فى جميع الأقطار العربية فى الامبراطورية العثمانية ، فكانت فى الواقع من أكبر العوامل فى هزيمة الجيوش التركية وتمزيقها . ولم تكن الثورة العربيـة طفرة على غير هدى ، ولا وثبة غير معدة لها الأسباب والوسائل ، بل قامت على خطط محكمة ، ومناهج موثقة ، مستندة فى غالبها الى مظاهرة الحلفاء وتلقى عضدهم ، ومعتمدة على وعودهم وعهودهم . فمنذ أول نشوب الحرب العامة بات رجال العرب الساخطين فى سبيل قوميتهم ، الغاضبين لعصبيتهم ، على صلة مع السلطة البريطانيـة فى مصر ، التى تلقتهم بالترحيب والكرامة ، وأقبلت عليهم تشجعهم على المضى فى امضاء التدابير وتمهيد الطرق للانشقاق والقيام بالفتنة ، إذ أن بريطانيـة أيقنت إذ ذاك ايقاناً ان ثورة العرب اذا شبت نارها كانت بلا ريب سنداً وعوناً لها فى الذياد عن مصر وقناة السويس ، دع عنك ماتنيل تلك الثورة الجيوش البريطانيـة من ذرائع القوة . وتكسبها من وسائل

القدرة على الزحف والفتح فى البلاد العثمانية .

فالعرب اذاً لم يطلبوا المساعدة المادية فقط ، بل طلبو قطع العهود والوعود الباتة التى لاريب فيها بان ثورتهم هذه التى يشبون نارها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية ، يرفع لواؤها على جميع الأقطار العربيــة فى المملكة العثمانيــة . غير انه لمن نكد الطالع ، على ماشرهت اليه نفوسهم من نيل المطامح الجنسيةوتحقيق الآمال القومية ، كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تنويان فى شأن مستقبل الأقطار العربية الخاضعة لتركية ، أمراً آخر غير ذاك الذى استماتوا هم فى سبيله ، إذ كانت كلتا الحكومتين منذ عهد من الزمن حائزة « منطقة سيطرة أو نفوذ » (١) فى هــذه الأقطار ، فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم ، وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان وهو كور جبلية فى شمال سورية ممتدة على ساحل البحر المتوسط ، حيث غالب الأهلين من الكاثوليك المعروفين بالموارنة الذين شملتهم فرنسة حقبة مديدة بالحماية السياســية . ومن المعلوم انهاتين المنطقتين كانتا من بلاد الدولة العثمانية بالاعتبار القانونى ، مساحة كل منهما قليلة ، بيــد ان « مناطق النفوذ » من شأنها أن تكون متمغطة متمططة ، قابلة للامتداد والاتساع لجأة الى مالا حدّ له ولا نهاية عند الحالات المناسبة . لذلك قد كانت الحرب العامة خير فرصة وأفضل نهزة ، فبادرت وزارتا الخارجية ، البريطانية والفرنسيةفى عقد المواثقات والمصافقات على السلع ، فوقعت الحكومتان فى ٥ آذار (مارس) ١٩١٥ معاهدة سرية ، خولت فرنسا بمقتضى شرائطها و بنودها حق التمتع بالتقدم على سواها فى سورية ، وخولت بريطانية مثل ذلك فى العراق . ولم تقرر الحكومتان إذ ذاك حدوداً معينة ، بل اكتفتا بالتراضى على مطامعهما التى عولتا على تحقيقها باقتسام الأقطار العربيــة الخاضعة لتركية .

على ان عقد هذه المعاهدة السرية قد أوقع رجال السلطة البريطانيــة الذين كانوا فى مصر يفاوضون العرب لايقاد نار الثورة ، فى الحيرة والارتباك . وقد أيقن هؤلاء المفاوضون البريطانيون ان الثورة العربية هى نهزة ثمينة ، ترجو بريطانية من ورائها عوناً كبيراً

---

(١) منذ أكثر من عشرين سنة نشرت فى بعض المجلات جملا وخواطر منها « لايوجد شىء أشبه بالسل فى جسم ، من منطقة نفوذ فى بلاد » (ش)

ورفقاً عظيماً ، فيكون من الخرق ان لم تهتبلها ، بل ان أضاعتها فقد أضاعت سنداً قوياً وخسرت خسارة لاتقدر ، فاستطاعت السلطة البريطانية فى مصر بالتالى وضع خطة مصوغة صوغاً كافلاً لارضاء قادة العرب وزعمائهم . وفى ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ سلم حاكم مصر العام السر هنرى مكماهون ممثل شريف مكة فى القاهرة صك عهد تعهدت بموجبه بريطانية العظمى ، على شريطة قيام العرب بالثورة ، الاعتراف باستقلال العرب فى الامبراطورية العثمانيـة ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضى اتخاذ تدابير مخصوصة فى شأن السلطة الادارية ، وأيضاً فيما عدا المناطق التى ليست بريطانية العظمى « حرة فى التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسة » . فكانت هذه العبارة الأخيرة على كل حال ضرباً من المزاح والرقاعة لكنها قد وفت بالغرض الذى قصد منها ، وإذ كان العرب غير واقفين البتة على المعاهدة السرية ، خالوا ان هـذه العبارة الاستثنائية فى صك عهد السر هنرى مكماهون انما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة ، فتهللوا فرحاً وانتشوا سروراً [1] ، ثم انتشروا يبتغون اعداد العدد ، واستكمال الذرائع والوسائل لقدح زناد الثورة التى شبت نارها السنة التى تلت .

أجل ، نشبت الثورة العربية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ ، بيـد أنه لو كان العرب قد علموا من قبل ماقد تم من عقد المعاهدة السرية فى شهر ايار (مايو) من السنة الخالية بين بريطانية وفرنسة ، لما قدحوا لثورتهم زناداً ، ولا أضرموا لها ناراً . وفى ذلك الشهر الذى شبت فيه الثورة العربية ، عقدت الدولتان المذكورتان معاهدة سرية أخرى ، هى معاهدة سايكس — بيكو المشهورة ، اتفقتا بمقتضاها اتفاقاً باتاً على تقسيم الأقطار العربية فى الامبراطورية العثمانية ، تقسيماً مبرماً قائماً على الأساس المبين فى المعاهدة السرية التمهيدية المعقودة بينهما فى السنة التى قبل ، فبات العراق على مقتضى معاهدة سايكس — بيكو هذه ، عراقاً بريطانياً لاشك فى أمره ، وباتت سورية من صور حتى اسكندرونة سورية فرنسية لاريب فى شأنها تتبعها الأقاليم الأرمنية وأقاليم شماليـة أخرى من آسية

(١) هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وانتشوا وفرحوا ليسوا كل العرب . . . بل ان قسما من العرب كانوا يعرفون ماوراء الاكمة وطالما نبهوا وحذروا قومهم من الوقوع في الشرك فـلم يجد تحذيرهم فتيلا . وما لنا وما للتذكير بما كل أحد يعرفه ، فما يوم حليمة بسر (ش.)

الصغرى . أما فلسطين فقد اعتبرت دولية واعتبرت حيفا مع مينائها البحرى لبريطانيــة ، بحيث ان هذه المطوحة كانت نهايتها صيرورة فلسطين تابعة للمنطقة البريطانية . وأما البلاد الداخلية الواقعة بين العراق وسواحل سورية فقد اعتبرت « بلاداً عربيــة مستقلة تقسم الى منطقتى سيطرة » بريطانية وفرنسية ، فالمنطقة الفرنسية تشتمل على سائر سورية من حلب حتى دمشق ، والمنطقة البريطانية تشتمل على سائر العراق حتى اقليم الموصل . و بعبارة أخرى ان الاستقلال الذى وعد العرب به السرهنرى مكماهون انما غدا بين سمع الأرض و بصرها .

من المعلوم أن هــذه الخدعة الـكبرى التى قامت بها بريطانية وفرنسة على مسرح المكر من وراء الستار ، لم يكن للعرب علم بها ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم ، من حيث ان بريطانية جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية فى صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية فى نفوسهم . فـكان ذلك خير وسيلة وانجع ذريعة لاستثارة نخوتهم فى الثورة فجعلوا يتسارعون الى مجال الحرب و ينبعثون الى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم . وأنفذت الحـكومة البريطانية الى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير آلاى لورانس الفتى الاوذعى النابه الشأن ، الذى ماأسرع مانال من نفاذ الـكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم (١) ، مما لاحدّ له ولاغاية ، حتى دعى « روح الثورة العربية » (٢) لـكن هؤلاء الضباط الأكفياء العارفين شؤون العرب والمعروفين بميلهم اليهم وعطفهم عليهم ، انما قد اختيروا ليقوموا بما انتدبوا اليه ، من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولااطلعوا على المعاهدات السرية التى عقدت خفية عن العرب . وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لايعرو همة هؤلاء المستثيرين فتور ، ولا انكسار ، ولا ينثلم وفاؤهم للعرب بينماهم يستثيرونهم همتهم و يستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا

---

(١) سماه لويد جورج ملك العرب غير المتوج . (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على الأعمال التي قام بها لورانس اقرأ سلسلة مقالات « لورانس : روح الثورة العربية » نشرت تباعا فى مجلة « آسية » نيسان (ابريل) ايار (مايو) حزيران (يونيو) تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrence : The Soul of the Arab revolution,, Asia

يذيعونها آخذاً بعضها برقاب بعض[١] ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فاصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معاً منشوراً أذاعتاه فى جميع الاقطار العربية. جاء فيه : « ان الغاية التى من أجلها خاضت فرنسة و بريطانية فى معمعان الحرب فى الشرق الحرب التى أثارتها على العالم المطامع الالمانية ، هى أن تضمنا لجميع الشعوب التى طال عليها عهد الجور من الترك ، تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً ، وان تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع »

فلم يلبث أن برح الخفاء وانجلى المستور و بان الصبح لذى عينين ، فتبدلت الحال غير الحال . عند ماوضعت الحرب أوزارها و رجعت السيوف الى أغمادها ومزق العدو شر ممزق ، وانتهت الرواية وأرخى الستار ــ الستار الذى تبدّت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جليا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ووقفوا على بواطن الأمور بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتلُّ شاطىء سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة فى نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ولاسيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بنى قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان ، لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ماالهب البلاد جميعها . لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم انما هو مركب خشن وغاية فى الاستهداف والمخاطرة ولاسيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الادراك قوة العرب المعنوية والادبية فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه ، طلب من أبناء قومه و بلاده أن يقوم ببسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد . فقام بهذا الامر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الاقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب والنار تحت الرماد

(١) من ذلك على سبيل المثال منشور اذاعه الجنرال مود General Maud فى عرب العراق فى آذار (مارس) ١٩١٧

بسط الامير فيصل لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى ، وفصيح منطق ، يحف بموقفه الوقار ، لكنه لقي خيبة فى المسعى . اذ اشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على « الرفق والعطف » ، وذلك : « ان الاقوام المعلومة التى كانت من قبلُ فى الحكم التركى وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلالا معلقا ، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها(١) »

ثم فقه العرب معنى « الانتداب » واكتنهوا ماهيته وسره . وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة مثل قوله: «ان العرب قد وفوا حقا بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً أن نقابل الاحسان بمثله فنفى بعهودنا ونبر بوعودنا لهم(٢) » . غير أن العرب كانوا قد قرأوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد ، محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، اذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخدع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا ، انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ، ومساعيهم ومجاهيدهم وذلك اما فى مجال السياسة واما فى مجال الحرب .

أما فيصل فظل يؤثر المساعى السلمية على التهور فى الحرب . ولعل الباعث له على هذا ليس مارأى من الاستهداف وركوب المخاطر فى المقاومة فحسب ، بل ان الحلفاء كانوا حينئذ على حال من التنازع الشديد والمشادة الكبيرة فى كل قطر من أقطار الشرق الادنى ، مما حمل فيصلا على أن يرجو نيل النجح على يد السياسة . وكان التنازع الأمرّ الأشدّ فى جميع ذلك ، هو الذى نشأ بين بريطانية وفرنسة عندما جاءتا تقتسمان غنيمة الاقطار العربية . والسبب فى هذا الخلاف العظيم منشأوه السخط الذى سخطه الفرنسيون من أجل المعاهدات السرية . اذ لم يكد يكشف الغطاء عن معاهدة سايكس ـ پيكو فانتشرت وذاعت ، حتى هب جانب كبير ذو بأس من الرأى العام الفرنسى يصرخ أشد الصراخ ان فرنسة انما غبنت فى الصفقة غبنا فاحشاً فلذلك ليست هى بالراضية بهذه القسمة الضيزى .

(١) المادة الثانية والعشرون من عهد عصبة الأمم

(٢) من خطاب القاه فى ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩

فقد ظل انصار التوسع الاستعماری من الفرنسيين - قروناً طويلة - يحدجون سورية بانظارهم ويهوون اليها بقلوبهم [١] . فلما نشبت الحرب العامة طفقت الصحف الاستعمارية الفرنسية تقوم بنشر دعوة شديدة تحريضا على استلحاق بعض أقطار الشرق الأدنى بفرنسة ، وكانت «سورية كلها» موضوع الصراخ وغاية الدعوة ، ولم يكن معنى «كلها» مقصوراً عند المستعمرين الفرنسيين على شاطئ سورية الذى أصاب فرنسة على مقتضى معاهدة سايكس - پيكو ، بل أرادوا ان يشمل معنى هذه الكلمة فلسطين والبلاد الداخلية من حلب الى دمشق ، ممتدة حتى أقاليم الموصل الغنية بالزيت . وشرع أهل التوسع الاستعمارى ينادون ويصرخون ان لفرنسة «حقوقاً تاريخية ثابتة يرجع منشؤها الى عهد الحروب الصليبية ، بل الى عهد شرلمان» تتعلق بهذا القطر الكامل الذى بات يعرف فى المحافل والأندية الاستعمارية «بفرنسة المشرقية» فغدت سورية «الزاساً ثانية» فى هذا الاعتبار ، ومستنداً شديداً لا ينفصل بوجه من الوجوه عن سياسة فرنسة الخارجية ، وقد ظاهرت دوائر الحكومة الفرنسية هذه المطامح الاستعمارية مظاهرة عظيمة وعضدتها عضداً كبيراً . مثال ذلك ما صرحه المسيو ليغ فى مجلس النواب سنة ١٩١٥ اذ قال : « ان محور السياسة الفرنسية هو فى البحر المتوسط ، قطبه الواحد فى المغرب المشتمل على الجزائر وتونس

---

(١) للاطلاع على ما قام به أنصار التوسع الاستعمارى قبل الحرب من نشر الدعاية فى هذا السبيل اقرأ مقالة ج يوانيان «المصالح الفرنسية فى سورية» آذار (مارس) ١ - ١٦ ، ١٩١٣

G. Poignant, " Les Intérêts Françair en Syrie ,,

" Question diplo matipues et Coloniales ,,

ومما جاء على ذكره صاحب هذا المقال تصريح لرئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاره فاه به فى مجلس النواب فى ٢١ كانون الأول (دسمبر) ١٩١٢ منه : « ولست أراني بحاجة الى بيان ما لنا فى لبنان وسورية خاصة من المصالح التقليدية ، وما يجب علينا القيام به لاعزاز هذه المصالح واعلاء شأنها »

واقرأ مقالة ج عطاء الله : « التسويات الثلاث للقضية السورية » تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣

" Les Trois Solutions de la Question syrienne ,, " Questions Diplomatiques et Coloniales ,,

واقرأ كتاب ل . لى . فير «حماية فرنسة للكاثوليك فى الشرق» (باريس ١٩١٤)

L. Le Fur, " Le Protectorat de la France sur les Catholiques d' Orient

مراكش وقطبه الآخر فى المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين (١)

بعد الوقوف على هذه المطامع الكبرى التى قضى على جانب منها بالخيبة والفشل يمكننا أن نتصور مبلغ التأثير السيء الشديد الذى أثرته معاهدة سايكس – پيكو فى نفوس رجال التوسع الاستعمارى من الفرنسيين ، فارتدوا بغضبهم المشتعل ، وذلك بطبيعة الحال على البريطانيين ، فأخذوا فى النيل منهم والقدح بهم وذمهم على جميع الأمور الجارية اذ ذاك فى الشرق ، قائلين ان هياج المطامح العربية وثورة آمالهم وعصبيتهم الجنسية انما ذلك جميعه ناشىء عن السياسة البريطانية ، بل ضرب من ضروب الدعاية الانكليزية . قال كاتب فرنسى فى هذا الصدد : «يحتاج بعض أطباء الأمراض الدماغية الى كتابة الفصول الصويله فى شأن هؤلاء الموظفين البريطانيين الاستعماريين المنطوية جوانحهم على الأحقاد والضغائن ، المتبجحين المتعظمين ، الذين لاينفكون بياض نهارهم وسواد ليلهم يجدّون فى سبيل خدمة بلادهم ، راكبين رؤوسهم دون ان يبالوا باستشارة حكومة لندن ، والذين دأبهم دوماً القضاء على التفوق الفرنسى فى سورية كما قضوا من قبل على مثاله فى مصر (٢).
فأجاب الكتاب الانكليز على هذا السخط والقذف مستهجنين استهجاناً « جشع فرنسة ونهمتها الوحشية وخبلها» ونهجها نهجاً من شأنه تعريض مكانة بريطانية للخطر

---

(١) ذكر هذا فلاندين العضوفى مجلس الشيوخ الفرنسى فى مقال له «حقوقنا فى سورية وفلسطين» ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥

Senator E. Flandrin. " Nos droits en Syrie et en Palestine
" Revue Hebdomadaire ,,

ولزيادة الاطلاع على الدعاية الاستعمارية الفرنسية اقرأ غير ماذكر : –

«سورية أو ميدان الحرب السياسية» (شباط «فبراير» ١ – ١٥ ، ١٩٢٠)

H, Baudouin. "La syrie : Champ de Bataille Politique" (La Revue Mondiale)

« قضية لبنان» (باريس ١٩١٥) C. G, Bassim. " La Question du Liban"

«سورية الفرنسية» (باريس ١٩١٦) comte cressaty. " La syrie Française "

« فرنسة المشرقية» (اذار «مارس» ١٩١٩)

F. Landet. " La France du Levant ,, " Revue Hebdomadaire ,,

(٢) لزيادة الاطلاع اقرأ مقالة « سورية . أو ميدان الحرب السياسية » المذكورة قبلا

والانهيار ، والانذار بالهاب الشرق اجمع الهاباً لايبقى ولا يذر [١] . وعلى الايجاز ان الدولتين بريطانية وفرنسة اللتين قد كانتا من قبل بسنة محالفتين (محالفة مقدسة) باقيــة ، انقلبتا الى المطاحنة والمشاحنة وكيــد المـكايد وايقاع النـكاية . فـكان للعرب من وراء ذلك كله دروس قيمة وعظات بليغة ، فاستقوت آمالهم واشتدت مطامحهم ، وصلبت قناتهم ، ومثـل هذا حدث أيضاً لسائر الشعوب والأمم الشرقية .

فـكان هذا التشاحن الشديد السبب الأكبر فى ابطاء الحلفاء طول سنة ١٩١٩ عن القيام بالعمل على الخطة التى كانوا قد وضعوها من قبل بالاتفاق على اقتسام الشرق الأدنى ولـكن قد توصلوا فى ربيع سنة ١٩٢٠ الى تدبير محدود ، اذ عقد رؤساء وزارات الحلفاء مؤتمراً فى سان ريمو وضعوا فيه شروط معاهدة الصلح التى راموا حمل تركية على توقيعها ، وبموجبها اتفقوا على اقتسام آسية الصغرى مناطق سيطرة واستثمار ، وعلى اقتسام الأقطار العربية بمقتضى معاهدة سايكس - بيكو تلك المعاهدة التى عدت مزخرفة العبارات تذكر هاتين الدولتين فيهما انهما بطبيعة الحال « منتدبتان » من قبل عصبة الأمم [٢] ثم شرعت كل من بريطانية وفرنسة واليونان الشريكة اللاحقة ، فى التأهب والاستعداد للعمل ، فساقت بريطانية القوات العسكرية الى العراق وفلسطين وساقت فرنسة القوات العسكرية أيضاً الى سورية ، وأعدت حملة مشتركة مؤلفة من قوات « بريطانية وفرنسية ويونانية » لاحتلال القسطنطينية ، ووعـد فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية باعـداد جيش يونانى لغزو آسية الصغرى عند ماتدعو الحال . ولم تاق ايطالية دلوها بين الدلاء لأنها رأت خلل الرماد وميض

---

(١) لزيادة الاطلاع على الحملات الانتقادية الشديدة التى حملها الانـكليز على فرنسة فى سورية اقرأ :—
« مجازفتنا الهائلة فى سورية » (ايلول) سبتمبر (١٩٢٠)
Beckles Wilson, "Our Amazing syrian Adventure," (Nation Review)
« القضية العربية » (ايلول « سبتمبر » ١٩٢٠)
W. Urinowski, " The Arab cause ", Balkan Review
كاتبا هذين المقالين كانا ضابطين فى الجيش البريطانى فى الأقطار العربية .
واقرأ أيضاً مقالات أخرى فى غاية الشدة نشرت فى آب (أوغسطس) وايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ فى مجلة "The balkan Review" بتوقيع "Taira"

(٢) ولم تـكن عصبة الأمم قررت يومئذ أدنى شيء بشأن الانتداب فافتأتوا على عصـبة الأمم قبل أن تقرر بل قبل أن تجتمع .

نار ، فاعتزمت على ألا تشترك فى الأمر مباشرة . قال « نيتى » رئيس الوزارة الايطالية لصحافى بريطانى عقب مؤتمر سان ريمو : « انكم ستنغمسون فى حرب فى آسية الصغرى ، فايطالية لن ترسل جنديا واحداً ولن تدفع « ليرا » واحدة . انكم قد انتزعتم من الترك أدرنة مدينتهم المقدسة ، وجعلتم سلامة عاصمتهم معلقة على رحمة السلطة الأجنبية وأخذتم منهم جميع موانيهم البحرية والجانب الأكبر من بلادهم ، وأولئك المندبون الخمسة الذين ستختارونهم سيوقعون معاهدة لن ترضى بها الأمة التركية ولا البرلمان العثمانى » .

كان نيتى رئيس الوزارة الايطالية فى الواقع متكهنا صادقا . فقضى رجال الوطنية من الترك عدة أشهر ، وقد علموا بما خبأه الحلفاء لأمتهم و بلادهم ، يؤهبون الأهب و يعدون العدد و ينشئون الأسباب فى داخل آسية الصغرى للقيام بالمقاومة . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين الأول مثل أنور باشا و زملائه كانوا قد لاذوا بالفرار الى بلاد سحيقة ، كعبر القوقاس وروسية البلشفية . غير أن قادة وطنيين جدداً قد ظهروا فى الأمة ، أشهرهم القائد المقدام المجرب والعسكرى المحنك مصطفى كمال باشا ، البطل المتوقد العزم ، الذى قد استطاع حقاً أن ينظم جيشاً و يثقفه ويدرِّبه ، حتى قويت شوكته ، ثم اتخذ أنقرة الواقعة فى قلب آسية الصغرى مقره ، وشرع يناوئ الحلفاء و يناصبهم العداء فأخذت حركته تشتد وتقوى وتشتهر بهجومه على العساكر الفرنسية فى كيليكية (وهى منطقة ساحلية فى آسية الصغرى للشمال من سورية) مبلياً بلاء حسناً ومنزلا بالعدو خسائر فادحة .

وكان العرب أيضا يتأهبون للقيام بالمناوأة والمقاومة ، فعقدوا فى شهر آذار (مارس) « مؤتمراً سوريا عاما » وأعلنوا فيه بالاتفاق استقلال سورية وملكوا عليهم فيصلاً ، فتكهربت للحال جميع الأقطار العربية من جراء اعلان هذا الاستقلال ، فنشبت الاضطرابات الشديدة عداء للفرنسيين فى المنطقة الساحلية التى يحتلها الفرنسيس ، وشبت الفتن فى فلسطين يقوم بها العرب المسلمون والنصارى عداء لليهود الصهيونيين ، وأخذت قبائل العراق توقد نار الثورة غير المنظمة .

فبات موقف الدولتين « المنتدبتين » حرجا مشؤوما منذراً بعظيم الشر ، فلجأتا الى الضرب بسيف القوة العسكرية وتسكين الحال بالحديد والنار ، ولا سيما فرنسة فانها فاقت سواها باتخاذ ذرائع العنف والقسوة . وفى ذلك الحين كان لديها نحو من ١٠٠٠٠٠ جندى

فى سورية وكيليكية بقيادة الجنرال غورو القائد المجرب فى كثير من ميادين الحروب الاستعمارية ، وصاحب الاعتقاد بوسائل « السلاح والحديد والنار »

ففى ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ بعث غورو ببلاغ أخير الى فيصل طالبا منه تسليما تاما ، فاجابه فيصل الى ذلك فى الواقع بعد فراغ جهده السياسى ، معربا عن قبوله بالبلاغ ، غير أن غورو قد أنكر هذا فجاء انكاره خدعة حربيه ، ومشى نحو دمشق بجيش عدده ٦٠،٠٠٠ مقاتل ، فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية ، بل قاتل قتالا طفيفا بعد أوانه ، ثم تسحب الى الصحراء . وفى ٢٥ تموز (يوليو) دخل الفرنسيون دمشق عاصمة ملك العرب ، وخلعوا فيصلا وأسسوا حكما فرنسيا تاما وجازوا العرب على المقاومة التى قاموا بها مجازاة أهول ما كانت من الشدة والعنف ، وغرموا دمشق ١٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك غرامة حربية ، ناسجين فى عملهم هذا فى سورية على منوال الألمان فى بلجيكا ، وزجوا فى غيابات السجون وقتلوا كثيراً من القادة الوطنيين ، وأعلن غورو أن موت « فرنسى واحد أو نصرانى واحد » يعقبه « أخذ الثار الأهول والانتقام الأفحش » ، بالطيارات الحربية ذات القنابل (١)

فامست سورية من جراء هذه الصاعقة « النابليونية » مهيضة الجناح تضطرب من أثر الرعب . أما الانكليز فى العراق فما كانوا على كل حال ليلقوا إلا حظاً مشؤوما وجداً عاثراً ، اذ ظلت الفتنة دائرة الرحى عدة شهور . وفى شهر آذار (مارس) صرح القائد البريطانى مينا « شدة دهشته من استعداد البلاد للانفجار البركانى » . وفى شهر تموز (يوليو) التهبت العراق من أولها الى آخرها بنار الثورة الآكلة ، ومع أن عدد الجيوش البريطانية كان ينيف على ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، فقد ذاقت بريطانية الأمرين فى تسكين الحال واخماد نار الثورة .

وفى غضون ذلك احتل الحلفاء القسطنطينية يبتغون اكراه تركية على قبول الصيغة التى كانوا قد وضعوها لمعاهدة الصلح . فكان الاحتلال بطبيعة الحال سهلا دون مقاومة ، ولا غرابة فى ذلك فان القسطنطينية انما كانت تحت رحمة أساطيل الحلفاء . غير أن السكون الذى ساد أهل العاصمة الذين كانوا بالألوف المؤلفة متجمهرين بغية شهود الجنود المحتلة

(١) للاطلاع عن مظالم الفرنسيين وقسوتهم اقرأ المقالات المذكورة أخيراً .

نازلة الى البر ، كان أبلغ وأفصح من ألسنة المفاويه من الخطباء . وقد راقب بعض أرباب الاستقصاء من الحلفاء هذه الحالة ، فأوجسوا خيفة وقلقوا بالا منها . قال صحافى فرنسى فى هذا الصدد : « ان سكوت الجماهير من الخلق كان وايم الحق أشد تأثيراً من صخب الاحتجاجات البالغة أصواتها عنان السماء . كان الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير ، غير أن عيونهم كانت تقدح شرر العداء والبغضاء . وكان بعض القوم من الذين أخذ اليأس من نفوسهم كل مأخذ ورأوا الذل مخيما فوق مدينتهم ، منبثين فى أفواج الناس ، يرسلون الرسل و يبعثون الدعاة الى جميع الأمم الاسلامية فى أقطار العالم الاسلامى لينقلوا اليهم نبأ النازلة الكبرى والداعية الدهماء ففى بضع ساعات تصل الأنباء الى الأناضول ، و بعد ذلك بيومين تنتشر فى قونية وأنقرة وسيواس ، و بعد مدة وجيزة تجوب أنباء هذه الفجيعة جميع الأقطار التى تشملها السيطرة البلشفية حتى القوقاس وعبر القوقاس ، و بعد عدة أسابيع تمسى جميع هذه الأقطار الوسطية ملتهبة استعداداً لأخذ الثار ، فان آسية وافريقية ستعودان فتوثقان عرى الاسلام توثيقا لم يعرف مثله من قبل ، وسيقوم هؤلاء الرسل النجباء البلغاء بنقش أنباء هذه الغزوة التى قمنا بها ، فى نفوس العامة والكافة من المسلمين الذين لا يقرأون ولا يكتبون . فهؤلاء الرسل هم دعاة الثورة وهاجة التعصب الدينى ، متجندون للقيام بهذه الدعاية ، متألفون من كل جنس وطبقة من طبقات المجتمع ، منهم المتعامون المتهذبون يتنكرون فيرتدون خلقان الأثواب و يتظاهرون سؤالا ومتشردين ومطرودين ومنفيين ، كيما يتسنى لهم بذلك نشر الأنباء فى جميع الآفاق واستثارة الهمم والغيرة ابتغاء ايقاد الثورة ذياداً عن بيضة الاسلام » (١)

جرت الأمور فى تركية مجاريها التى سبق لنيتى رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها . فاكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة (مصافية) ، ففعل السلطان ذلك فشجبت هذه الوزارة حركة مصطفى كمال و (رجاله العصاة) وأوفدت وفداً اختير أعضاؤه اختياراً لى مؤتمر سان ريمو فى فرنسة حيث وقعوا بالرضى والتسليم المعاهدة التى أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك (تأييد مرادهم) على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك بالأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع

---

(١) ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ B. G. Gaulis. "L'Opinion,,

هذه الصفقة التى رام الحلفاء عقدها انما هى ضرب من الخبل والجنون ، وان كل فرد من أفراد الحكومة (المصافية) ، من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو الا كمصطفى كمال يتلهب غيرة وطنية ، وان العاصمة التركية الحقيقية انما باتت انقرة لا القسطنطينية وان قوة الحلفاء لا تجاوز فى الواقع غاية مرامى مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال فى شأن معاهدة سيفر : « أمعاهدة صلح تلك ؟ انى مستعد لقتال العالم باسره مشرقاً ومغرباً » .

فبات الحلفاء فى مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانية وفرنسة لا غير . أما ايطالية فلم تشترك فى القاء دلوها فى الدلاء بل فعلت كما قال نيتى ، ولم « ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرا واحدة » . لذلك لم تستطع فرنسة ولا بريطانية حشد الجيوش الكافية لسحق مصطفى كمال ، فى الحين الذى تتكبدان فيه نفقة ٢٠٠،٠٠٠ جندى لتسكين الحال فى الاقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوى الكمالية بالأمر السهل ، اذ قدر اركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك ب ٣٠٠،٠٠٠ مقاتل تام العدة . على انه قد بقى فى ايدى الحلفاء سلاح آخر — هو اليونان . فتقدم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان فى مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة فى مناطق آسية الصغرى ، فقبل ذلك منه وبعد حين نزل جيش يونانى الى برازمير عدده ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، غير ان هذا الجيش قد لقى الخيبة والفشل اذ ان المئة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء واجتنب مصطفى كمال الاشتباك مع اليونان فى معركة فاصلة ، ولكنه ثابر على مضايقتهم وايقاع الحيف بهم بالحرب غير النظامية ، كما كان شأنه أيضاً مع الفرنسيين فى كيليكية فى الطرف الآخر من الميدان . فتوغل اليونان فى البلاد توغلاً فاحشاً وتورطوا تورطاً شديداً كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا وإشكالاً ، وعلى ما ظهر أن فنزيلوس ظل يبتغى نزال الترك والمضى معهم فى الحرب وذلك بصفة كونه « المنتدَب » الثانى من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليونانى أبى عليه ذلك ، لان اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان الى آخر ، حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فراموا الاستراحة ولو قليلا . فلما كانت انتخابات تشرين الثانى (نوفبر) اسقطوا فنزيلوس بنحو ٩٩٠،٠٠٠ صوت ازاء ١٠،٠٠٠ صوت ثم دعوا ملكهم

قسطنطين الذى كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوّأ العرش . فكانت النتيجة الصافية ان اليونان باتت كايطالية خارجة عن ارباب الصفقة . أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه (١) ، فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذى وقفوه فى عهد فنزيلوس . وعلى الجملة فان الحلفاء باءُوا بالخسران فردُ كيدهم فى نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التى حسبوها من الهنات الهينات .

فى ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته فى آسية الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له فى الخارج . ففى المقام الأول كان ينشىءُ علاقات وثيقة مع العرب ، الأمر الذى قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى ان العرب والترك وهما العدوان بعضهم لبعض ينقلبون من العداوة المرة الى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس فى الواقع بالغريب البتة لأن السياسة الفرنسية البريطانية هى التى قد خلقت هذه الأعجوبة وأتت بهذه الخارقة . والسبب الذى من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « روح الثورة العربية » حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغة من الخدمة العسكرية فى بيان له نشر فى الصحف البريطانية : « ان العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العامة ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً (٢) ، بل لانهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا المعمعة لكى يستبدلوا سادة بسادة ، كأن يخضعوا لبريطانية أو فرنسة ، كلا ، بل لكى ينشئوا لهم دولة عربية » على ان هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب ، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية (٣) ، فى قالب أبين عن القصد وأفصح عن الغرض ، وذلك فى مقال نشره فى صحيفة

---

(١) قسطنطين لم يكن ليريد الحرب مع الاتراك ، بل كان صرح اولا بان سياسته هى المصالحة معهم . ولكن اشترطت عليه احدى دول الحلفاء متابعة هذه الحرب ان كان يريد ان تساعده فى تبوء العرش ، فاضطر الى ذلك مكرها لا بطلا . (ش)

(٢) ليس من محل احتله الاوربيون بعد الحرب العامة فى الشرق الأدنى وأتوا فيه بادارة تفوق الادارة العثمانية التى كانت قبل الحرب ، بل أتوا فيه بادارة تترقى الى درجة محاكاة الادارة العثمانية ، التى وان لم تكن المثل الأعلى فقد ثبت عند الجميع انها كانت أعدل وأحكم وأعف وأضبط من ادارة الحلفاء فى البلدان التى جاءوا لتنظيم أمورها بزعمهم . . . فخدموا الاتراك بادارتهم هذه أجل خدمة من حيث لايشعرون (ش)

(٣) هذه المقالة هى احدى المقالات التى كنت نشرتها فى جريدة (البوبولار) الاشتراكية الفرنسوية سنة ١٩٢٠ . (ش)

فرنسية راديكالية مقاومة للمطوحة السورية جاء فيه : « ينبغى لفرنسة و بريطانية أن تعلما علم اليقين ان العرب انما هم للترك اخوان فى الدين ، توحدوا واياهم توحداً سياسيا قروناً عديدة ، بحيث هم لايرغبون البتة فى الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين وشركائهم المسلمين وأترابهم المجاهدين الذين واياهم كانوا فى الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً الى جنب وصفاً الى صف ، انشقاقاً ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنير دولة أوروبية ، مهما كان شكل سلطان الحكم الذى تتقلده هذه الدولة . . . . فلذلك أى جدوى يا ترى من الغول الذى يقوله المسيو مياران : « لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية » فليس أحد من العرب اليوم يمكن اضلاله بمثل هذا التمويه وأخذه بمثل هذا الخداع . ان الهدنة قد وقعت على حسب الشروط والمبادئ التى أعلنها الرئيس ولسون ، ولكن لما تضعضعت المانية وتضعضع احلافها معها ، ديست شروط الهدنة وعهودها ، كما ديست الأربع عشرة مادة ، بالأقدام . على ان النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جازماً لازماً فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرار ، قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الاخاء ، فعاد حبل الولاء بينهم بعد التصرم موصولا ، بحيث لم تمض الا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين . . . . قد تستطيع فرنسة بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠٠ جندى فى سورية ، و بتكبدها انفاق البلايين من الفرنكات ، أن تخضع عرب سورية الى ميقات ، بيد ان ذلك ليس جميع مافى الأمر ولا الضامن لسلامة العقبى ، فحدود سورية مترامية الى مايليها من البلاد التى قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدة الى الصحراء الكبيرة . فاذا ما شرعت فرنسة فى قتال الأربعة الملايين من عرب سورية ، لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسبُ بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥٠٠٠٠٠٠ عربى ، منتشرين فى جميع الأقطار المشرقية ، غالبهم من القبائل المسلحة ، الشديدة الشكيمة الحمية الأنف الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الاسلامية الأخرى ، المتدانية لهم ، الداخلة فى الوحدة المتراصة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك انما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ولا شفقة . فان قال قائل ان فى هذا غلواً ، فما عليه الا أن يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصراً مستقصياً ، ولكن لعمرى أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء

فى الأقطار العربية انهراً وغدرانا [١] » .

وفى الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جلية فى مواضع عديدة . غير ان هذا الوفاق الماضى بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل عن عرشه وجاء من بعد خروجه من دمشق الى ايطالية حيث طفق يوالى القيام بمثاقفات سياسية ، مع هذا فقد اصطف العرب مع الترك جنباً الى جنب فى كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين فى ايقاد الفتن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع . واما ما كان لمصطفى كمال من اليد فى اشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغنى عن البيان .

وان هذا الوفاق العربى التركى لم يكن جميع مارمت اليه السياسة الخارجية التى اتبعها مصطفى كمال ، فهو فى ذاك الحين عينه كان يبعد بمرمى سياسته الى الشمال الشرقى ، ليتناول التتر فى عبر القوقاس والتركمان فى اذر بيجان الفارسية وكانت القوقاس فى هذا الوقت ميداناً لنزاع شديد وخصام عنيف بين فريق التتر والتركمان المسلمين ، و بين فريق الأرمن والكرج النصارى ، و بين طائفة من الأحزاب الروسية البلاشفة ، مما كاد يحول ذلك القطر الى بؤر شديد السعير . وقد لقى مصطفى كمال فى التتر التركمان ، المختمرين جد الاختمار بالدعوة الطورانية ، أعواناً حمساً وأنصاراً غيراً ، ثم لقى نصيراً ثالثاً مد اليه يد العون وهو روسية البلشفية . فالسياسة البلشفية التى قد سبق لنا بيان غرضها وغايتها ، والتى كانت تجهد لاشعال الفتن والثورات فى وجه الدول الغربية فى جميع أقطار الشرق ، قد ارتاحت كل الانياح لثورة مصطفى كمال وأعظمتها وأكبرتها . أما فى بدء الأمر فلم يكن باستطاعة البلاشفة القيام بعون كبير لرجال الثورة الوطنية التركية ، لأنهم لم يكونوا على صلة مباشرة مع القائمين بها . غير أن الدائرة النامة التى دارت على جيش « ورانجل » الأبيض فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠ ، واجتياح الجيوش الحمراء على أثر ذلك لروسية الجنوبية بحذافيرها ، قد مهد طريق الصلات المباشرة بين موسكو وأنقرة على طريق القوقاس ، ومن ذلك الحين بات مصطفى كمال مشدود الأزر من قبل البلاشفة بالسلاح والمال وقليل من الرجال .

(١) نشر هذا المقال فى Le Populaire فى ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠

زد على ذلك أن كمالا والبلاشفة كانوا جميعاً يوقدون نار الفتنة فى ايران تلك البلاد التى كانت وايم الحق فى حالة يرثى لها . فقد ظلت هذه البلاد خلال الحرب العامة ، على كونها محايدة تمام الحياد ، ميدان نزاع بين البريطانيين والروسيين من جانب ، والترك والالمان من جانب آخر . فلما انهارت الروسية انهيارها الأكبر سنة ١٩١٧ حملها ذلك على أن تجلو جلاء عسكرياً عن ايران ، فاهتبلت بريطانية الفرصة إذ ذاك ، فأعزت سيطرتها وأعلت شأن نفوذها وأيدت كلمتها وكسبت موقفها صفة قانونية بذلك « الاتفاق » المشهور الذى دبرته مع حكومة الشاه فى شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١٩ [1] ولكن هذا الاتفاق مع كونه مبرماً وموقعاً على الوجه المرضىّ قد استنكرته الأمة الايرانية استنكاراً وحسبت من جرائه ألف حساب . فانقلبت الحال بذلك فرصة ثمينة لعود الدعوة البلشفية الى العمل والانتشار . فأعلنت الحكومة البلشفية نزولها عن جميع الحقوق التى كانت الحكومة الروسية القيصرية قد اكتسبتها فى ايران ، وجاهرت بولائها ومصافاتها للأمة الايرانية ووقفت فى جانبها لمقاومة التوسع الاستعمارى الغربى . فأفلح المسعى حقاً بطبيعة الحال ، فباتت ايران مضطرباً يكثر فيه نشوب الفتن العسكرية . وفى أوائل صيف سنة ١٩٢٠ عبرت قوة بلشفية بحر قزبين ونزلت الى الساحل الايرانى . غير أن هذه القوة لم توغل ايغالا بعيداً فى البلاد إذ لم تكن بحاجة الى هذا لأن البلاد بدأت تمور فى بحر من الارغاء والازباد ، مما جعل الموقف البريطانى متزلزلا زلزالا شديداً . فانقضت عدة شهور والاضطراب سائد فى طول ايران وعرضها وما برحت هكذا حتى الحين الذى نكتب فيه هذه السطور . على أنه ليس هناك من ريب أن موقف بريطانية فى ايران صار بجملته وشيك الانهيار ، وأن بريطانية ستكره لذلك عما قريب حتى تجلو عن البلاد كلها ماعدا القسم الجنوبى الأقصى الذى يمكنها فيه احتفاظ موقفها .

نعود الآن الى خريف سنة ١٩٢٠ حيث موقف بريطانية وفرنسة فى الشرق الأدنى بات ينقلب على التوالى من سئ الى أسوأ . فالدولتان غدا موقفهما منذراً بالويل والثبور ، ولا سيما من بعد ماتخلت عنهما ايطالية واليونان ، وزحمهما الترك زحمة شديدة ، وثار فى

---

(١) لزيادة الاطلاع على مجارى هذه الوقعات اقرأ مقالة للمؤلف نشرت (كانون الثانى ــ ديسمبر ١٩٢٠) فى مجلة The Century

وجههما العرب، وانتقض عليهما المصريون والفرس ، وانتشرت الدعوات البلشفية ضدهما فى سائر الأقطار ، فبهظ العبء وثقل الحمل ، ونهكت القوى وشقت الأنفس . ففى العراق وحدها بلغت النفقة التى تكبدتها بريطانية ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية . والحالة لم تبرح متجهمة الجوّ لاتدل على كثير من الانفراج .

لذلك ليس من الغرابة فى شئ فى مثل هذا الأوان العصيب ان غدت السياستان المتبعتان فى الشرق الأدنى هدفاً لسهام الانتقاد المرّ والقذف الشديد ، ولانصباب جام الغضب عليهما من كل قوم وناد فى كل من بلاد بريطانية وفرنسة . أما فى بريطانية على الخصوص فقد بات الانتقاد طوفاناً أعمى يجرف فى سبيله كل شئ حتى عدّت المحاولة التى تحاولها بريطانية فى العراق جناية وخطراً ما أنزل الله بهما من سلطان . مثال من ذلك الانتقاد ما قاله الأمير آلاى لورانس : « لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهياء وصارت حكومتنا أسوأ وشراً من الحكومة التركية البائدة ، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا فى البلاد ويوطدوا الأحكام بنحو ١٤٠٠٠ جندى من أهل البلاد ، و بقتل عدد من العرب لايزيد على المئتين كل سنة أما نحن فانا نحفظ جيشاً عدده ٩٠٠٠٠ مقاتل ، تام العدة مجهز بالطيارات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة ، وقد قتلنا نحواً من ١٠٠٠٠ عربى فى ثورة هذا الصيف (١) » فحملت هذه الانتقادات المرة المؤثرة ، والصفة العامة لمجارى الأمور ، الحكومةَ البريطانيه على تقويم موقفها ، فانفذت الى العراق السر پرسى كوكس للمفاوضة مع العرب ، وهو ند للمتروس طرازه ، لايقيم وزناً الا للحقائق ، كثير الخبرة والحنكة فى معالجة الشؤون الشرقية . ولما كان قد فُوض اليه القيام بالمناقشة والمفاوضة فى شأن انفاقات كبيرة فقد اجتمع بالقادة الوطنيين على انبساط وحرية ، فكان له فى نفوسهم تأثير كبير . وعند كتابة هذه السطور كانت الحال لم تزل قلقة ، غير أنها تدل على أن بريطانية عاملة على اختطاط خطة جديدة يكون لها بموجبها الحكم المباشر على الطرف الجنوبى الأقصى من العراق حيث رأس الخليج الفارسى ، أعنى على منطقة سيطرتها القديمة المعروفة قبل سنة ١٩١٤ .

وفى تلك الغضون استطاعت فرنسة أن تحفظ شيئاً من النظام فى سورية لكن بطرق

(١) من بيان له نشر فى الصحف آب (اغسطس) ١٩٢٠ .

السلاح والنار ، ومع هذا لم يزل الموقف متزعزعا ، فقد نفت السلطة الفرنسية كثيراً من أبناء البلاد على اختلاف الطبقات فغدا جميع أهالى البلاد ، حتى الموارنة الكاثوليك الذين كانوا يميلون الى فرنسا ميلاً تقليدياً ، يهيجون و يصخبون ، فسكن الجنرال غورو بسرعة هذه الحركة بنفيه القادة والزعماء الى كورسكا . وعلى الجملة فالحقيقة الراهنة التى يجب ان تقال وتعلم هى أن أصدقاء فرنسة الاوفياء فى سورية قد غدوا على فرنسة ساخطين ولها مبغضين . وكل هذا لم يكن ليحمل فرنسة على تقويم سياستها حتى اليوم . قال المسيو ليغ رئيس الوزارة الفرنسية منذ عهد قريب فى شأن سورية : « ان فرنسة ستحتل سورية بأجمعها احتلالاً دائماً » وصرح الجنرال غورو منذ عهد أقرب : « يجب على فرنسة ان تبقى فى سورية لأسباب سياسية واقتصادية ، فلو تخلينا عن البلاد لجرّت علينا النتائج السياسية التى تنجم عن ذلك الرزيئة الفاجعة ، ولقضى القضاء الاخير على مكانتنا وسيطرتنا فى الشرق والبحر المتوسط . زد على ذلك ان المطامح الفرنسية الاقتصادية تدعونا للبقاء فى تلك البلاد ، ومتى ما وفر العمران وعم التقدم والفلاح فى سورية وكيليكية كان لهذين القطرين شأن اقتصادى يضاهى الذى لمصر » .

بيد انه ، مع تصلب الحكومة الفرنسية الشديد لا تزال حملات الانتقاد على « المطوحة السورية » ، من الرأى العام الفرنسى فى ازدياد . وليس الذين يقومون بهذه الحملات هم الغلاة المقاومين للتوسع الاستعمارى فحسب ، بل أيضاً منهم المحافظون الابرياء من كل تهمة وغرض . قالت الصحف السياسية الفرنسية فى هذا الصدد : « ان العرب ، وهم يغارون أشد الغيرة على الاستقلال والحكم الذاتى ، قد تحرروا من النير التركى ، لكن لا يبتغون حكماً أجنبياً جديداً . فالقول اذاً ان سورية تطلب حمايتنا لها ، انما هو كذب واختلاق . ان سورية تريد الاستقلال التام وتطلبه » . ومن عهد ليس ببعيد وقف فكتور برار خطيباً فى مجلس الأعيان وهو من أعضائه و يعد من ثقات فرنسة المشهود لهم بالاضطلاع والخبرة فى الشؤون الشرقية فانتقد سياسة حكومته فى سورية انتقاداً شديداً مراً وكشف الغطاء عن معايبها ومشاينها وصرح تصريحا ان « سورية الحرة » قد أمست قضيتها « قضية مصلحة وشرف معاً » .

و بالرغم من هذا كله فالحكومة الفرنسوية باقية لم يلن جانبها للعرب ، من حيث

انها قد فعلت ذلك ازاء الترك ، فبدلت موقفها عندهم تبديلا تاماً ، فضربت بمعاهدة سيفر عرض الحائط ، وأبرمت منذ عهد قريب شروط صلح موقت مع الترك ، موافقة كل الموافقة في الواقع على اخلاء كيليكية . وقد باتت بريطانية وفرنسة تعلمان جيداً أن معاهدة سيفر صارت عقيمة لا يستطاع العمل بمقتضاها ، وان امتلاك الترك لآسية الصغرى من أقصاها الى أقصاها أمر لابد منه ولا منتدح لهم عن الاعتراف به .

ان فرنسة باتفاقها مع مصطفى كمال لترجو بلا ريب رجاء كبيراً ، ألا وهو حفز مصطفى كمال أن يكر على العرب يوما ، بيد أن ذلك بعيد ، فان مرامي جميع الحوادث والواقعات تشير اشارة بينة الى صيرورة الوحدة متراصة الجوانب موثقة العرى بين شعوب الشرق الأدنى لمقاومة التسلط الغربي السياسي . وأقوى الأدلة وأعظمها على سير الوحدة هذا السير واتجاهها متجها تتدانى به الشعوب في جميع أقطار الشرق الأدنى بعضها من بعض ، هو المؤتمر الاسلامي العام الذي عقد في سيواس في أوائل سنة ١٩٢١ . وكان الغرض من عقده وضع خطة راهنة باتة يستطاع بها توثيق عرى التآخي الاسلامي في العالم الاسلامي مشارق ومغارب . وقد حضره الأمراء ، والقادة السياسيون السنيون من المسلمين ، وأمراء من سائر الملة الاسلامية مثل أمير كربلاء الشيعي ، والامام يحيى [1] ، أمير الزيدية في اليمن — الزعماء الذين لم يكن التعاضد والتقارب مستطاعا بينهم و بين السنيين من قبل ، وأعظم ما في الأمر هو ما أذاعته الصحف من أن الأمير السنوسي الكبير هو الذي قد ترأس هذا المؤتمر . ولا جرم فاننا قد عرفنا مما تقدم من الكلام ان السنوسي لم يبرح دائباً جاداً في سبيل اعزاز الجامعة الاسلامية والوحدة المحمدية الكبرى في المعمور الاسلامي ، لمقاومة التسلط الغربي . هذه هي صفة الحال اليوم في الشرق الأدنى — حالة عصبية كلها اضطراب ، ومحفوفة ببذر السوء . الا أن هناك أمراً فيه علامات حسنة ، الا وهو انتباه الحكومة البريطانية لحرج الساعة واشتداد المأزق ، انتباهاً يحملها بالتالي على تقويم موقفها . فلذلك ان جهداً يبذله مثل اللورد ملنر والسر پرسي كوكس ، ولو اعترض سبيله كثير من المصاعب والمشاق ، يستبعد أن لا يكون مثمراً ولو بعض الثمار . ان هذين الرجلين لظاهر فيهما التحدر السياسي من نشا تام ودرهام ، الداهيتين اللذين رفعا عماد

(١) الامام يحيى لم يحضر مؤتمراً كهذا ولعل اناساً من جهته حضروا . (ش)

تلك التقاليد السياسية الكبرى التى وسعت جميع شؤون الامبراطورية البريطانية حزماً وتدبيراً فى مآزق مستحكمة الحلقات وأزمات مربدة الجواء .

أما من الجهة الأخرى فلا تزال الحالة مؤذنة الخطر فى الشرق الأدنى حيث فرنسة لم تبرح على عنادها السياسى راكبة فيه رأسها منقادة لهواها ، وما دامت فرنسة مستغرقة فى بحر تقاليدها القديمة ، فهى على هذه الحالة معرضة بسياستها عن مواقعة الحقائق التى لا بد لها أن ترغم على الوقوف عندها بعد حين معتبرة مستبصرة . فلذلك اذا ما انفجر البركان وملأت حممه الجو ، وهو الذى لا مناص من انفجاره ، مالم تقدم فرنسة فى الواقع على تقويم سياستها ، واذا جاء ذلك اليوم الاسود الذى تلتهم فيه سموم العرب الهابة من الصحراء ثلاثين الى أربعين كتيبة من الكتائب الفرنسية ، يقضى حينئذ الكثيرون من المضطلعين بالشؤون الشرقية قضاء عدلا ، بأن : « السياسة الفرنسوية قد نالت جزاءً وفاقاً » .

ندع قضية الشرق الأدنى فى هذه الحزّة الى أن تبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ، وندخل فى الكلام على المعضلة السياسية الكبرى فى الشرق المتوسط ـ الا وهى العصبية الجنسية والنهضة القومية فى الهند .

المساواة فى الشريعة الاسلامية

الأمير شكيب

ان الشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول ﷺ خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية التامة بين جميع الأمم[1] ، العربى منهم والعجمى ، والاحمر والاسود . وترى صورة الاسلام كلها فى هذه الآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » يقول تعالى انه خلق البشر كلهم من أب وأم وما جعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض كلا بل ليعرف كل من أى قبيل هو ، أما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الاسلام ، وفتح العرب تحت ظل رأيته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الأمم فى الاسلام ، ولا تزال تدخل فيه الى يومنا هذا . وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤيدة للآية الكريمة فمنها « ليس منا من دعا الى عصبية » ومنها « ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى الا بالتقوى » . ومنها قوله ﷺ « سلمان منا آل البيت » وذلك انه عد سلمان الفارسى نظراً لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت ومنها قوله ﷺ لفاطمة ابنته : « اعملى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئاً يوم القيامة » . أوكما قال . وهذا فى معنى قوله تعالى « لا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسنى المغربى نزيل دمشق وهو قوله ﷺ : « ألا ان بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك انما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا . ألا انى لا أحل لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت » أوكما قال . وليس فى هذه الآيات والآثار ما يتصادم مع شئ من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين . كما انه وردت أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل « لو علق

(١) انظر صفحة ٧٨ من هذا الجزء

العلم بالثريا لنالته رجال من فارس »

ولا يكون الدين إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها وأدناها وأبعدها ، الا اذا كان مؤسساً على مثل هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة . وليس التضامن الاسلامى الذى حار فى أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، الا نتيجة قوله تعالى «انما المؤمنون اخوة» وقد ظهرت فى هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لايريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا انه هو الذى كان منشأ ضرر هذه الأمم . فالذين هم من العرب يعلنون انه لولا اخوة العرب مع الترك بالاسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الاخوة الاسلامية التى فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها فى الذب عن القضية الاسلامية ، بل كانت حصرتها فى الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون مالنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة ، فيجب أن نعود فرساً كما كنا . والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الاخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة فى صدر الاسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبيهم نبيها . فان كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه الا بتنازعهم وتنافسهم والفتن المستمرة بينهم مما مثاله أمام عيننا الآن ، فلا يلوموا بذلك الا أنفسهم ، ولعل الاخوة الشرعية التى يشكون ضررها قد لطفت الضرر الذى أصابهم من أثر السقوط ، بحيث ان الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الاسلام. فاما أديل منها بدول غير اسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الاسلامية والدول الأجنبية التى خلفتها فى الحكم على العرب . والجواب على الفئة الثانية ان الأواصر الاسلامية لم تضر الترك فى شئ بل أعطتهم ملكا طويلا عريضا، وجاها كباراً لبثوا يستطيلون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الاتابك والطولونيين الى السلاجقة الى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الاسلامية أى على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها وكانت الدولة العثمانية قد طوت جناحيها على جميع البلدان الواقعة بين تلمسان غربا ، وايران شرقا ،

والصومال جنوبا ، والقريم شمالا ، فانضوى تحت هلالها نحو ١٢٠ مليون نسمة من عرب ، وبربر ، ونوبة ، وحبش ، وكرد ، وطاغستانيين ، ولاز ، وأرناؤوط ، هذا عدا الأمم المسيحية كالروم ، والأرمن ، والبلغار ، والصرب ، والمجار ، والفلاخ ، والبغدان ، والخراوت فأنت ترى ان الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة الى المجموع جزءاً يسيراً فى المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الاسلامية التى جمعت بينه و بين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الاسلامى تلك الحياطة التى هى عنوان الدولة العثمانية . وليس بصحيح مايذهب اليه بعض الطورانيين من كون الترك لم يحتاجوا لعصبية الاسلام فى فتوحاتهم هذه بل كانوا قادرين أن يقوموا بها سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا . وكذلك ليس بصحيح ان فتوحات السلطان سليم انما اتسقت بحد السيف وحده ، وان الدولة العثمانية ابثت هى الدولة الحاكمة فى بلاد العرب بآسية وأفريقية بحد السيف أيضا . بل لم تتسق تلك الفتوحات للسلجوقيين ولا للعثمانيين الا بقوة الرابطة الاسلامية ، واتخاذهم الدفاع عن حوض هذه الملة شعاراً لهم . اما استشهادهم بفتوحات جنكيز وهولاكو وكونها طبقت الآفاق بدون دعوة اسلامية ، فهذه كانت أشبه بسيل طمى مدة قصيرة ثم قر وما أسرع ماذهب ، وقد عاموا هم انه لما شعر أعقاب جنكيز بقلق مركزهم واضطراب حبالهم التجأوا الى الاسلام ودخلوا فيه ، وجعلوا أنفسهم حماته وكفوا به أنفسهم كرة المسلمين عليهم ولولا ذلك لم تثبت فى بلاد الاسلام دولة مغولية . ونحن نعلم ان بعض غلاة الطورانيين شارعون فى تعليم الناشئة التركية تاريخ الشرق على وجه لم يؤرخه عربى ولا تركى ولا فارسى ولا أوربى ، ولكن على الوجه المطابق لسياستهم الجديدة ، مع ان التاريخ علم كسائر العلوم ليس له شغل بالسياسة ، بل لابد فيه من تمحيص الحقائق فقط . وجوابنا على الفئة الثالثة ان الاسلام لم يضر فارس بشىء فى دين ولا فى دنيا ، اما من جهة الدين فانه نقلها عن عبادة النار الى عبادة الواحد الأحد . واما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الاسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل الا قليلا ، لا بل استونت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هى روح تلك الدولة برابطة الاسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها ، ولو جاءت تضع يدها على دولة بنى العباس بقوة فارس المجوسية لأصابها ماأصاب الأفشين الذى عصى الخليفة العباسى فقتل

وأحرقت جثته وقال فيه أبو تمام مشيراً الى نار المجوس :

« صلى لها حيا وبات بحرها وكذاك يدخلها مع الفجار »

هذا مانراه فى الجواب على هـذه الفرق الثلاث وفيه خطاب لفئة من المصريين أيضا يذهبون الى انه « ليس فيهم شئ غير مصرى » وان المسئلة المصرية ينبغى أن تبقى منفصلة عن كل مسئلة شرقية اسلامية أو غـيرها . ولـكننا نضيف اليه أن الوقت زعيم باظهار صحة هذا المنحى فى السياسة وعدمها ، فان هذه الفئات انما هى قادمة على تجارب وليس للانسان أن يحكم على الشئ الجديد الابعد التجربة. فلننتظر نتيجة تجاربهم بسياسة الانفراد ومن رأينا أنه اذا كان مثل هؤلاء لايرون الاستمساك بجامعـة اسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدلوا على الأقل الى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمـة كانوا اذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء فى وجـه القوى ، فليست الجامعة الاسلامية هى العروة الوحيدة التى يقدرون أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية اذا اتسقت على الوجه المطلوب فى آسية كانت أوسع نطاقاً ولـكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب . ومما لامشاحة فيه انه لاأمل باستقلال الشرق مادام مفكك الاجزاء

تاريخ نجد الحديث

آل سعود وآل الرشيد

للأمير شكيب

جرى من قبل ذكر الوهابيين(١) وها نحن الآن نسرد زبده تاريخ هذه الفرقة واخبار أمراء نجد الذين قاموا بنشر دعوتها ملخصة من مصادر عديدة : ولد محمد بن عبد الوهاب فى العونية من نجد فى العام المائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال ان جده سليمان وكان منسوباً الى آل البيت وناشئاً فى بنى تميم ، قد رأى فيما يرى النائم ناراً خرجت من سرته فأضاءت البوادى كلها ، فعبر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من صلبه رجل يهدى الأقوام ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم فى دمشق ، وتشرب مبادئ الامام الحافظ حجة الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن عروة الحنبلى وغيرهم من فحول أئمة الحنابلة . ثم رحل الى بغداد والبصرة ، وهناك أيضاً ازداد رياً من موارد المذهب الحنبلى ، وأخذ يفكر فى اعادة الاسلام الى نقاوته الأولى ، عقيدة الصحابة والتابعين . فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ماأورده ابن تيمية . وكان فى ذلك الوقت رجل يقال له محمد بن سعود قد أعصوصبت حوله قبائل « العتوب » و « عنزه » وهى القبيلة التى ينتسب هو الى أحد أفخاذها ولد على وتولى زعامتها ولقب بالأمير . فتلقى دعوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبة الدرعية ويقال ان ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتائب سلحها بالحراب وبنادق الفتيل ، وجعل

(١) راجع صفحة ٨٢ ومابعدها من هذا الجزء

معها طائفة مراديف أي ركاب الذلل ، مثنى مثنى كل خلف الآخر ، وأخذ بعد ذلك يغزو البلاد المجاورة ويبث الدعوة لعقيدة السلف ، ففي سنة ١١٥٩ استولى على العوينة وحريملة ، ولكن عصت دعوته الرياض التى كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة من بلاده ، و بقي الفريقان يتصاولان عدة سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان محمد بن سعود قد اصيب بمرض فسلم مقاليد الأمور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا فى عزو جواره و بث الدعوة فكانت الحرب معه سجالا ، وحدث أنه وقعت فى يده أسرى من اليمن فأساء معاملتهم فزحف اليه أحد أمراء اليمن حسن بن هيبة الله ، وانضمت اليه عدة زعماء من الاطراف ومن جلتهم ابن دواس الذى انتقض على ابن سعود فى الرياض ، فحصروا هذا فى الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس على «الدرعية» ، وانتهت الحرب بعقد الصلح . على ان ابن دواس بعد ذلك عانى كثيراً من مقاومة ابن سعود ، حتى اختار الرحيل الى الاحساء ، وتبعه أكثر سكان الرياض فدخلها عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين آل سعود و بنى خالد أصحاب الاحساء و بنى المكرمى أصحاب نجران اليمن وسنة ١٧٦٥ توفى محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذى كان لايقصر عن أبيه حزما وعزما و بسالة واقداما ، فأخذ يجبى من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب والسرايا ، واستولى على بلاد وارجاء واسعة من جلتها مدينة الدلم ، ووقعت الوقائع بينه و بين حاكم الاحساء سعدون ، فامتنعت مدينة بريدة من القصيم على سعدون و بقيت فى يد الوهابى .

وتوفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ فى الخامسة والتسعين من العمر ، وقد كاد يكف بصره ، وكان قد نسل ١٨ ولداً اذ كان تزوج بعدة نساء ولزم الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستاً وأربعين سنة .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخاص من همها وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب أمير مكة . ولما بلغ الباب العالى استفحال أمر الوهابيين أمر سليمان باشا والى بغداد بتجهيز حملة عليهم ، فسير جيشاً الى الاحساء فلم يفز منهم بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق ، وفى ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دهم منهم ١٥ ألف مقاتل مدينة كربلاء فذبحوا قسما من أهلها ، ونهبوا مشهد

الحسين بن على رضى الله عنه ، وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التى تأتى من زوار العجم . ولم يثقل ذلك على ضمائرهم لأنهم ينظرون الى كل من يعظم القبور نظرهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ و بالحساب العربى فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النكبة هو تعدى قبيلة الخزاعل الشيعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه الفاجعة جميع العالم الاسلامى لاسيما فارس وازمع فتح على شاه تجهيز جحفل عدته مائة ألف مقاتل يغزو به الوهابيين فى عقر دراهم وكذلك سليمان باشا والى بغداد أخذ فى اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ، ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة فى بلاد الاكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابى . وفى ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على امارة مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المعين بابن سعود ، فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامى تحت امرة عبد الله باشا والى الشام قد قاربت البلد الأمين فأرسل عبد الله باشا الى ابن سعود يسأله ماذا يريد أن يفعل فأجابه الأمير عبد العزيز ان موكب الحج الشامى له أن يدخل ويقضى مناسك الحج و بعد ثلاثة أيام يمكنه أن يبرح وكان الأمر كذلك . فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر أن ينصره لقلة مامعه من القوة ، وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فنصب الأمير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم أضرحة الأولياء ، ورفع التحف والنفائس التى كانت مودعة فى الحرم الشريف ، وطرد الباعة من صحنه . ووقع ذلك فى ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٨٠٣ أما الشريف غالب فانهزم الى جدة عند القائد شريف باشا فصمد ابن سعود اليهما ، فلم يقدر على فتح جدة ، وظهر الطاعون فى تلك الجهات فكف عن الحصار وانكفأ قاصداً المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذها ، فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فثار بهم أهل مكة وذبحوهم .

وكان رجل شيعى فارسى وقيل من العمادية قتل اولاده فى واقعة كربلاء وعزم على الاخذ بثأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية و بقى على ذلك سنة وهو يترصد عبد العزيز ابن سعود ليفتك به . وفى ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثانى ١٨٠٣) بينما كان الامير عبد العزيز يصلى العصر طعنه الشيعى بخنجر ارداه قتيلا وكان عمره ٨٢

سنة فقبضوا على القاتل واحتزوا رأسه وقيل احرقوه . فقام بالامارة بعده ولده سعود ، فاقتفى أثر أبيه فى الغزو والفتوحات ، فاستولى على البحرين و بلاد الجوازم (١٨٠٤) وغزا بلاد عمان . فراع ذلك الباب العالى ، فصدرت الاوامر الى على باشا والى بغداد بتجهيز حملة على الوهابيين من عرب وكرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والى الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا ان التجهيزات الحربية ابطأت ابطاء سئم منه امام مسقط فآب الى بلاده وفى الطريق صادمه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم العسكر الذى جهزه على باشا مدة اشهر فى الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ، ثم استدعى الى كردستان لاخماد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الغرة وعادوا الى الحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الاولياء ، ونهبوا ما فى الحرم الشريف النبوى بالمدينة من الجواهر والتحف و باعوها بالمزاد العلنى ، واذابوا قناديل الفضة والشمعدانات والآنية الفضية كلها ، ووزعوا أثمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة ١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد على رضى الله عنه فى العراق وكبسوه بياتا فاحس بهم الخفراء فايقظوا أهل البلد فثاروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريخ الى الاعراب الذين حول النجف فجدوا فى اثر الوهابيين فكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ، فلم يكن حظهم فيها اسعد وانصرفوا الى ديارهم ووقع ذلك سنة ١٨٠٧ .

الا انه فى السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنج (الشاب) ، فأخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بان يقبل الدعوة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وأدى اليهم مبلغا من المال على شرط أن لا يعارضوا قافلة الحج فى مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفارة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا ان تخاصموا مع الحجاج ، فنهبوا امتعة هؤلاء وعادت القافلة ادراجها وعاد الوهابيون يحاصرون دمشق فكان الوالى فى أثناء ذلك اعد عدة الدفاع فلم يقدروا عليها فنهبوا قرى الغوطة وارتحلوا .

وكان الامير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً فى السياسة ، فرأى انه مادام مقاوما للسلطنة العثمانية فلا بد له من ان يصافى اعداءها فتودد الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وامر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسى تزلفا الى فتح على شاه ثم كر

الوهابيون على العراق فوجدوا من واليها الجديد سليمان باشا غير ما وجدوه من على باشا من الحزم والقوة وانقلبوا على اعقابهم ، وهزمتهم قبيلة المنتفق فى سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سورية ففشلوا عند حلب و بين حماه وحمص . وكان قرصان الجوازم ملأوا خليج فارس عيثاً فسرح اليهم الانكليز من الهند اسطولاً انضم اليه اسطول مسقط ، فدمروهم وازالوا معرتهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكبهم

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهابيين رمتهم بمحمد على باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشاً عقد لواءه لابنه طوسون باشا ، فسار براً الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة ووافته الرجالة بالسفن من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقى العدو بالجديدة ، فحمل فى البداية حملة صادقة لكنه لم يلبث ان وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسأمه فخارت قوته وانهزم تاركا فى يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد على الى ولده مدداً واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهابيين اسمه ابن شديد كان سفر الجو بينه و بين ابن سعود ، فزحف طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوماً . و بعد ان استقرت العساكر المصرية بالمدينة صمدت الى قتال الوهابى بمكة ، فانهزم عبدالله ابن الأمير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصرى أيضا وفر أيضاً عثمان المضايفى قائد الوهابيين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصرى الى طرابه (التى وقعت فيها الواقعة منذ ثلاث أو أربع سنوات بين الامير ابن سعود والامير عبد الله بن ملك الحجاز وأمير شرقى الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فالتقى فيصل بن الامير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهابيون وامامهم امرأة شيخ قبيلة صبيح وصدقوا الحملة فهزموا المصريين واستولوا على مدافعهم وعدتهم .

فلما رأى محمد على وعورة التجريد ركب بنفسه البحر الى جدة فنزلها فى ١٨ أغسطس عام ١٩١٣ وعزل الشريف غالباً من امارة مكة ، ووضع مكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة ان غالب اساء السياسة فأرسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفى سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهابيين فى طرابه ولكن لم يتمكن المصريون من

خضد شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد على وانهيال اعطياته وجوائزه للمستبسلين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بساحل البحر الأحمر فطردهم منها الجيش المصرى لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفى ٨ جمادى الأولى عام ١٢٢٩ (٢٨ ابريل ١٨١٤) توفى الأمير سعود فى الدرعية عن ٦٨ سنة ، ويقال انه كان شهماً مقداماً عادلا فى الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بقوة مصرية الى زهران (باليمن) فانهزم . وتقدم الوهابيون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتحرج موقف الأمير طوسون بن محمد على فتقدم محمد على بنفسه ورد فيصل بن سعود الى الوراء ، واسترجعت عساكر مصر قنفذة ، وسار طوسون من المدينة المنورة بألفين وخمسمائة فارس فاستولى على جانب من القصيم ، فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فأجيب اليه على شرط أن يعترف بسيادة السلطان ، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد على وولده طوسون الى مصر . الا ان محمد على طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الاستانة لعرض طاعته للسلطان فتلكأ ابن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد على الا ان يشخصه فعرف ابن سعود أن لابد من استئناف الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد على من الجهة الثانية يتأهب لحملة ثانية يقودها ولده ابراهيم باشا . وفى ٢٨ ايلول سنة ١٨١٦ وصل ابراهيم الى ينبع بحراً وصعد الى المدينة المنورة ، ومن هناك صار بجيشه قاصداً ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهابيون قتال أبطال ، ثم زحف الى بريدة وعنيزة من القصيم واستولى عليهما ثم على شقرا وبعد أن دوخ جميع هذه الأطراف قصد الدرعية فوافاها فى ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ بحصارها فكانت وقائع وأهوال تشيب الأطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم بنفسه على ابراهيم فأكرمه وأرسله الى أبيه بمصر فأرسله محمد على الى الاستانة وقيل انه أوصى الدولة أن لاتقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل فى ساحة ايا صوفيا فى ١٧ كانون الأول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمين خزانته . ولما عاد ابراهيم باشا من نجد وثب مشارى أخو عبد الله ابن سعود على الدرعية واستولى عليها فأرسل محمد على قائداً اسمه حسين بك فظفر بمشارى وقبض عليه وأرسله الى مصر فمات فى الطريق . وهدم المصريون أسوار الدرعية ووضعوا فيها حامية وقائداً اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وأرسلوا

محله خالد باشا ، وكان هذا عاتياً جباراً أخش فى ظلم النجديين ، فثاروا واعصوصبوا حول تركى بن عبد الله الذى كان مخبأ فى البصرة ، فبرز من مخبئه وتولى القيادة ، وذبح جميع العساكر المصرية التى كانت فى الدرعية وجوارها ، ففر خالد باشا الى القصيم ، وأقام تركى ابن عبد الله بن سعود بالرياض وجعلها كرسى امارته ، و بنى بها قصراً وجامعاً كبيراً وحكم أسوارها وكان الخبر وصل الى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشاً بقيادة حسين باشا ، فتسحب الوهابيون الى الوراء ودخلوا صحارى اليمامة ، فتعقبهم حسين باشا الى تلك الفيافى فخانه الادلاء فهلك أكثر عسكره من العطش ، ورجع هو بشرذمة من حاشيته . فلما رأى محمد على ماحل بالعسكر سئم قتال الوهابيين وترك تركى وشأنه فبقى هذا فى الرياض أميراً . ونحو سنة ١٨٣٠ أرسل ابنه فيصلا لفتح الاحساء ، فبينما هو سائر اليها ورده الخبر ان أحد أقاربهم مشارى بن عبد الرحمن بن حسن بن مشارى بن سعود طعن والده تركى وهو يصلى فقتله فعاد فيصل أدراجه فوجد مشارى متحصناً بالقصر فقاتله وشدد الحملة الى أن هجم على مشارى عبدالله الرشيد (جد أمراء حائل) فقتله . ولما بلغ الحكومة المصرية ماحدث بالرياض وجدت الغرة لائحة ، فأرسلت خورشيد باشا بقوة أغارت على وادى حنيفه وتقدمت نحو الرياض ، ففر فيصل مسرعاً وأقام المصريون مكانه خالداً أحد أحفاد أخ لعبد العزيز ابن سعود فلما فارق المصريون البلاد طرده عبد الله بن ثنيان فجاء الى جده . أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء الى الشام ينافث علماء الحنابلة وظهر منه انه أقلع عن الامارة وزهد فى الحكم الا ان النجديين عادوا فانتدبوه للأمر فعاد الى الرياض وأراد أن يستقر بها واذا بخورشيد باشا دهم الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وأرسله الى مصر ، فوضعوه فى قلعة بقرب السويس ، وأقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم ثنيان بن سعود .

و بعد أن بقى فيصل نحو خمس سنين فى الاعتقال تسنى له الانسلال من القلعة ليلاً لأوائل امارة عباس باشا الأول ، فجاء الى نجد وثارت معه الأهالى ، وكان خورشيد أصبح لايقدر أن يعتمد على الحكومة الجديدة بمصر فجلا عن القصيم وعاد كل شئ الى فيصل وردت البضاعة الى أهلها وقبض على ابن ثنيان فمات فى الحبس واستولى فيصل على الاحساء والقطيف ، وغزا بلاد عمان وكان يقود جيشه ولده عبد الله الا ان المنافسة وقعت بين هذا

و بين أخيه سعود على الامارة فضعف بسبب انقسامهما أمر الدولة الوهابيــة وانتهز هــذه الفرصة آل الرشيد من شمر وأسسوا امارتهم بحائل ، وجاذبوا آل سعود الحبل وصاروا لهم أقراناً ، ثم غلبوا على آل سعود وانتزعوا منهم ملـكهم وكادوا يعفون آثارهم ، ثم عاد آل سعود فى هذه السنين الأخيرة فاستأنفوا امارتهم واستردوا جانباً من بلادهم ، فصارت الحرب بين آل سعود وآل رشيد سجالا الى أن أدال الله للسعوديين من الرشيديين أخيراً وعاد الأمر كما بدا .

فتاريخ الدولة السعودية الوهابيــة ينقسم الى ثلاثة أدوار : أولهــا منذ نشأة حكومة الدرعية الى أن احتلها المصريون سنة ١٨١٦ . الثانى منذ تجديد دولة آل سعود على يدى تركى وولده فيصل الى أيام ابن الرشيد الشمرى سنة ١٨٩١ . الثالث منذ استرداد ابن سعود للرياض من يد ابن الرشيد سنة ١٩٠٢ .

ولنتم الـكلام على فيصل بن تركى فانه فى امارته الثانيــة أحسن التدبير وأحسن العلاقات مع الدولة ومع مصر . وفى زمانه كانت سياحة بالغراف الى نجد سنة ١٨٦٢ . وكان مع بالغراف فى تلك السياحة رجل من زحلة بلبنان صار فيما بعد كاهناً ثم مطراناً ثم بطريركا على الروم الـكاثوليك هو البطريرك بطرس الجريجيرى. وقد روى يومئذ انهم دعوا ابن سعود لتأسيس علاقة مع بعض دول أوروبا . . . على ان هــذه تساعده على الدولة العثمانية ، فأجابهم انى وان كنت عدواً لسلطان استانبول فلا أرضى أن أستعين عليه بالأجنبى . . . روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجريجيرى . وكانت وفاة فيصــل بن تركى فى ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ (٢ كانون الأول ١٨٦٥) .

فخلفه ولده عبد الله للمرة الأولى فثار عليه اخوته وطردوه فاستنصر الاتراك فاحتلوا الاحساء والقطيف ، واجتهد اخوته أن يسترجعوهما فلم يفلحوا وبقى سعود أخو عبد الله أميراً على الرياض منذ سنة ١٢٨٧ الى سنة ١٢٩١ (١٨٧١ الى ١٨٧٤) إذ مات وتمـكن عبد الله من استرداد ملـكه فاستؤنفت العداوة بينه و بين أولاد أخيه سعود ومنذ ١٨٨٣ صار الخطر الأعظم عليه من الأمير محمد بن رشيد أمير حائل . وسنة ١٨٨٤ وثب على عبد الله أولاد أخيه وخلعوه وتأمر محمد بن سعود بن فيصل فلم يطل أمره وخلع ، وقام بالامارة عمه عبد الرحمن ابن فيصل فبقى الى عام ١٨٨٦ فطرده الأمير محمــد بن رشيد وأعاد الأمير

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة ، فبقى فى الامارة الى ١٨٨٨ إذ توفى وضم ابن رشيد الرياض الى امارته . فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الأمير محمد بن رشيد أميراً على الرياض محمداً ثالث أولاد فيصل بن تركى فلبث فيها الى أن مات ، فأقام عليها ابن رشيد عاملا من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت ، وانتزع الرياض من يد آل الرشيد ، ونشبت بين الفريقين الحرب فاستعان آل الرشيد بالاتراك ولكن لم ترض الدولة أن تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت فى حفظ الموازنة .

فبقيت امارتا الرياض وحائل متناظرتين لاتكاد الحرب بينهما تخمد وكان أكثر النزاع على بلاد القصيم التى منها مدينتا بريدة وعنيزة . ومما لا شك فيه أنه بعد وفاة محمد ابن رشيد ، أكبر أمير خرج من هذا البيت ، استجد ابن سعود قوته الماضية وصارت امارة حائل تحت خطر ابتلاعه اياها لولا صريخ شمر لابن رشيد والقاء الدولة العثمانية نظرها عليه . وما زال الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل يتقوى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الاحساء والقطيف ونواحيهما . وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة ولاية البصرة . فانتظرت الدولة ريثما انعقدت السلم ، وشرعت تفكر فى أمر استرداد هذه البلاد ، ولو أدى الأمر الى استلال الحسام . وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحربية المرحوم أنور باشا ، وكان برنامج سياسته اتحاد المسلمين كما يعلم كل أحد ، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لا سيما مع الأخطار المحدقة بجميعهم . ولم يكن عنده روح النفاسة لقوة العرب كما كان عند غيره ، فكان يرسل بالاسلحة والعدد الحربية الى ابن رشيد والى الامام يحيى . وقد عذله بعض الأتراك على عمله هذا فقال له : اتسلح رجالاً قد يجيء يوم يستعملون فيه هذا السلاح فى قتالنا . قال له أنور : أترى لو هاجت اليمن أو نجداً دولة أجنبية نقدر أن ندفعها نحن من هنا . قال : لا . قال أنور : اذا كنا لا نقدر أن نحافظ عليهم أفلا نمكنهم على الأقل من المحافظة على أنفسهم . فاخرسه أنور بهذا الجوب . ثم استشارنى مرة فى أمر ابن سعود فأبديت له رأيى وهو أن تصافى الدولة ابن سعود وتجعله من أعضادها بدلا من أن يكون من أعدائها فوجدته متشبعا بهذا الرأى عازما على مصالحة ابن سعود والادريسى ، وكان يريد انفاذ

الأستاذ المرحوم الشيخ صالح الشريف التونسى لمخاطبة الادريسى فى الصلح على أن تبقى بيده المقاطعة التى كان فيها من بلاد عسير ، ثم أخر سفره الى عسير نشوب الحرب العامة .
وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة أنور رحمه الله مع الامير عبد العزيز السعودى على اقطاعه الاحساء والقطيف وسائر لواء نجد ، والاعتراف بامارته على ما كان فى يده من قبل وما دخل فيها من بعد ، على شرط أن يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية وأحسن السلطان اليه برتبة المشيرية السامية . ورغب الىّ على منيف بك مستشار الداخلية يومئذ فى تحرير كتاب بالعربية الى الأمير عبد العزيز المشار اليه ، توضح فيه الدولة خطة سياستها فى نجد وبلاد العرب ، فحررته له فكل ما أوصوه به هو اقامة العدل ، وتأمين المسالك ، ورفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض ، وان الدولة تمده بكل ما يلتمسه منها لأجل تحقيق هذه المقاصد . ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود فى خوض غمراتها الى جانبها ، فلم يجب طلبها لا كرهاً بها بل خوفا على بلاده من الانكليز لا سيما بعد أن رأى تقدمهم فى العراق . على أنه من الجهة الثانية لم يأت عملا تقدر أن تعاتبه الدولة عليه بالرغم من مساعى الانكليز لديه فى ذلك ، فكانت خطته فى هذه الحرب التزام الحياد التام ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لذكرها نظراً لحداثة عهدها ، وكنا نود أن تكون كلمة أمراء العرب مجموعة لتمكين هيبة هذه الأمة من قلوب أعدائها ، وانقاذها من الورطة التى وقعت فيها بعد الحرب العامة . . . هذا وان ابن سعود استولى على حائل وأزال امارة الرشيد وتلقب الأمير عبد العزيز بسلطان نجد ، وهو فى الواقع ممن تنعقد بهم آمال الأمة العربية ، فعسى أنه لا يخيبها وأن يوفق الى تحقيقها قبل أن تمتد الأيدى الغربية الى نفس الجزيرة ويتسع الخرق على الراقع .

وحيث اننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بخلاصة أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فنقول :

عبد الله بن على الرشيد من بنى جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل ، وقتل شيخها صالحا من بنى على الذى كان عاملا على جبل شمر من قبل آل سعود ، ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفيصل بن تركى من

آل سعود بقتله مشارى ابن عمهم الذى قتل تركى غيلة ونزا على ملكهم ، كافأه فيصل باقراره على امارة حائل ، فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم امارتهما حتى أطاعتهما جميع شمر . ولما احتل خو رشيد باشا المصرى القصيم طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقى مطروداً الى سنة ١٨٤١ إذ برح المصريون تلك الأرض فرجع عبد الله الى امارته بحائل ، ثم توفى عبدالله فخلفه ولده طلال ، فاستولى هذا على الجوف ، وتيماء ، وخيبر ، وجانب من القصيم ، وأحسن الادارة وأمن الطرق وكف غارات الاعراب ، وفى أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود . وتوفى طلال فى صفر عام ١٢٨٣ وقيل فى ١٧ ذى القعدة عام ١٢٨٤ (١١ آذار ١٨٦٨) قيل منتحراً .

وخلف طلالا أخوه متعب فنزا على هذا ولدا أخيه بندر وبدر فقتلاه فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثانى ١٨٦٩) .

وفى ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله وألحق به اخوته وأبناء اخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد ، وامتد حكمه الى أطراف العراق والى مشارف الشام ، والى نواحى المدينة ، والى اليمامة وما يلى اليمن وغلب على نجد كلها ، وأدخل ابن سعود فى طاعته بعد ان كان الرشيد تبعاً لآل سعود . وكل هذا التبسط الذى تبسطه فى الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه و بعد همته وحسن سياسته ، وكان صارما فى الحكومة لكنه كان عادلا ، فأمنت المسالك فى أيامه بما لم يسبق له مثيل وكانت الأعراب تخشى مجرد ذكر اسمه فأصبح هو سلطان البرية . ومن جملة تدبيره انه تقرب جداً من رضى السلطان عبد الحميد ، وكان من أشد الناس تعلقا بطاعته ، وكل سنة كان يقدم الى السلطان عدداً كبيراً من الجياد العراب فحظى عند السلطان حظوة لم تكن لأحد من أمراء العرب ، وعضدته الدولة العلية عضداً تاما اتسع به ملكه وقويت شوكته . وفى أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجداً عدة من سياح الافرنجة مثل البارون نولده Nolde و بلونت Blunt وهوبر Huber واوتنغ Euting وغيرهم . ومات محمد فى كانون الأول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولداً .

فخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكا للدماء سيء الادارة فوقعت الفتنة

بينه و بين جيرانه ، وتألب عليه ابن صباح صاحب الكويت ، وابن سعود ، وأمير المنتفق ، وقاتلوه قتالاً شديداً . وسنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد فى قتال مع أعدائه حتى قتل فى ١٤ صفر عام ١٣٢٤ (١٣ نيسان ١٩٠٦) .

فخلفه ولده متعب ولم يطل أمره أكثر من سنة . وذلك ان سلطان بن حمود بن عبيد بن على الرشيد كان متطالا الى الامارة فذهب الى الاستانة يتقرب الى الدولة ، فأرسل الأمير متعب يخبر الدولة بمقاصد سلطان هذا ، فاعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام ، و بينما هو بدمشق التمس الأمير متعب من الدولة اعتقال سلطان ، فصدر الأمر لناظم باشا واليها يومئذ بالقبض عليه ، فوجد من أنذر سلطاناً فى الحال ففر مغذاً السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهى من وادى اللوى على مسافة ٧ ساعات من دمشق . فامرع ناظم باشا بارسال خيل فى أثر سلطان فلم تدركه الا فى الصورة فى منزل ابن ظهر الدين ، فلما عرف هذا انه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شهبا ، فنزل عند شيخها أبى طلال العامرى ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلى عند صاحبنا مصطفى باشا الأطرش شيخ ذلك المقرن ، فاقام بضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب فى أن يعود الى نجد فزوده بما يلزمه وأرسل معه رفاقا يرأسهم الشيخ العيسى رتعان بن ماضى حتى وصلوا به الى نجد . و بعد وصوله بمدة تنزى على متعب فقتله فى ذى القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل فى شعبان من تلك السنة وصار أميراً محله لكنه لم يطل أمره ، و بعد أشهر قلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن حمود . ثم ثار على هذا حمود بن سبهان وجلس مكانه ، و بعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبد العزيز الذى كان قاصراً مخبأ فى المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشد أجلسوه على كرسى الامارة سنة ١٣٢٦ ، و بقى أميراً الى الحرب العامة فجعلت الدولة عنده البكباشى عزيز بك الكردى معتمداً ، ثم أرسلت المرحوم الشيخ صالح التونسى بمأمورية ، ثم جعلت عبد الحميد بك بن ابراهيم باشا سعيد المصرى ، فبقى أكثر سنى الحرب فى حائل ، يجتهد فى منع الدسائس الأجنبية من التأثير فى ابن رشيد ، لا سيما ان السبهان كانوا باطنا ممالئين للانكليز ، فبقى سعود بالرغم من مساعى اخواله السبهان معتصما بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن على حليف دول الحلفاء . وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله السبهان وقتلوه منذ أكثر من عشر سنوات وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقى من آل رشيد وطوى بساطهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

الترك أيضا

الامير شكيب

الترك (١) من أكبر وأشهر الأمم الأسيوية معدودون من الشعوب التورانية . وهم متشابهون فى الخلقة مع الصين والتيبت واليابان . ولا عبرة بما تجده من سحناء أتراك الاستانة والأناضول فان هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا فى غربى آسية من قرون متطاولة واختلطوا بالامم الاخرى كالقوقازيين والمكدونيين والارناؤوط والروم والبلغار والاكراد والعرب و بقايا أهالى الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لا تشبه المغول ولا الصين . ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الامم الغريبة يشبهون كثيراً أتراك بخارى وخيوه وكاشغر وهم ذو و ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين والتيبت والمغول

كان الترك من على عنق الدهر فى جبل الذهب بين سيبيريا والصين . ثم أخذوا ينتشرون فى الاقطار فهاجروا الى شمالى سيحون وجيحون والى الشرق الشمالى من بحر خوارزم والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب وهم المجار والفينيون — أهل فنلاندا على البلطيك — والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم الاوراليون . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم المانشو والتونغوز . وقسم فى الجنوب الشرقى وهم المغول

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الامة الفارسية وقيل ان هيرودتس أبا المؤرخين أشار اليهم تحت اسم تاركيتاوس

و بانى أول دولةٍ منهم أوغوز خان بن قره خان . وكان له ستة أولاد وهم كون خان وآى خان و يلديز خان وكول خان وطاغ خان ودكز خان . فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد فصار لاوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية هكذا قال نسّابوهم . ومن البداية انقسم الترك الى قسمين . الساكنين فى شرقى تركستان وهم الاويغور والساكنين فى الغرب منها وهم الترك أو التركمان . وكان الاويغور بادئ ذى بدء أرقى وأكثر مدنية . وكان لسانهم لسان

(١) انظر صفحة ١١١ من هذا الجزء

الترك الادنى . وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصّروا بعضهم وعلموهم خطاً مأخوذاً من السريانية . وموجود بهذا الخط كتب تركية الى اليوم

وفى سـنة ٨٥ للهجرة غزا قتيبة الباهلى بالمسلمين العرب بلاد الترك وافتتح بخارى ومرو وخوارزم وسمرقند وغيرها واجتمع عليه ملك السغد وملك الشاش وغيرهما فهزمهم وأثخن فى الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه وكان فى صلحه بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسلبت حليتها وكانوا يقولون ان هناك أصناماً من استخف بها هلك فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول اسلامهم

وفى خلافة هشام بن عبدالملك تولى خالد بن عبدالله القسرى العراق وأخوه أسد بن عبـدالله خراسان وغزا أسد بلاد الترك ومنها جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبدالله السلمى فدعا أهـل ماوراء النهر الى الاسلام وطرح الجزية عن الذين أسلموا فسارعوا الى الاسلام . ثم لما صارت الخلافة الى بنى العباس وتولى المأمون خراسان وذلك قبل خلافته أخذ يغزو السغد واشروسنة وفرغانة ويقول البلاذرى فى « فتوح البلدان » انه كان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخـل فى الاسلام كاوس ملك اشروسنة بعـد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالى تلك البلدان . وكان المأمون رحمـه الله بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم الى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « كان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فـكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ماوراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اه

ولايخفى ان البلاذرى كان قريب العهد من هـذه الحوادث لأن الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى مات سنة ٢٧٩

وسنة ٣٥٠ أسلم سالور خان سلطان التركمان سلالة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم

معه قومه وجاء إبنه فبنى جوامع وفتح عمه بغراخان كاشغر وأخذ بخارى من السامانية وجاء بعده أحمد خان بن أبى نصر فأكمل اسلام من لم يهتد من الأتراك وازداد تردد الترك الى بغداد وامتلأت منهم العراق وارضروم واذربيجان ووصلوا الى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربى و بعضهم اتخذ اللسان الفارسى ولم يهتم أحد منهم بلسان الاويغور التركى القديم . ولم يجعلوا التركى لساناً رسمياً الا فى زمان بنى سلجوق فى الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان فى زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق لاسيما فى أيام محمد الفاتح وسليم وسليمان . وفكر سليم فى جعل العربى لسان الدولة الرسمى فلم يطيعوه لكنه بقى لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان فى زمن جنكيز خان ترقى كثيراً لكنه عراه بعد ذلك التوقف . وهو الذى يعرف بجغطاى . ثم بتوالى الزمن تباعد التركى الغربى العثمانى عن التركى الجغطائى كثيراً . ثم هناك تركى تتر القريم وهو متوسط بين الفريقين

وعلماء الالسن يجعلون التركى خمسة أقسام : الأول الاويغورى أو الجغطاى . الثانى التتارى . الثالث القيرقيز . الرابع الياقوتى . الخامس العثمانى . وليس للقيرقيز والياقوت أدبيات فى ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لايزالون وثنيين . وقيل ان الياقوتى هو أصل التركى والباقى فروع عنه . ويقول المدققون : ان التركى يشبه فى الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة التورانية وفى الدرجة الثانية لسان المغول وفى الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين

هذا والفرقة الانقرية من الاتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم فى مكاتب تركيا مذهباً جديداً فى التاريخ وهو ان أصل الترك الذين فى الاناضول وغربى آسية هم من الحثيين ؟ وان هذه البلدان هى لهم من اربعة آلاف سنة . وهم فى هذا الاكتشاف الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة فى اوربة ولكن شيئاً من هذا لم يثبت . وأكثر مؤرخى الاوربيين يقولون ان أصل الحثيين من جهة الدم لم يتحقق بعد . وغاية ما تقرر تاريخاً انهم أخذوا مدنيتهم عن السومريين والاكاديين أهل بابل وقلدوهم فى الكتابة والديانة والشعائر الدينية ومزجوها كلها بمدنيتهم وديانتهم . وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين ان الحثيين هم كانوا الواسطة بين المدنية

السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثيين فى اول عهده ولا تزال العلماء لم تحل الكتابات الباقية عنهم ولا يعلمو ن هل لغة الحثيين هى هندية او ر بية ام قوقاسية ؟ وغاية ما لحظوا ان فيها دخيلاً من لغات أخر ى . أما الآ كاديو ن من أهل بابل فانهم ساميو ن بلا نزاع ولغتهم سامية والارجح انهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين . وأما السومر يو ن فلا يعرف أصلهم وقصار ى ما ترجح من أمرهم انهم غير ساميين وانه وجدت مدنية معاصرة لمدنيتهم فى جهات بحر الخزر

ولا يعلم أحد ما فائدة اتراك انقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لا تستند على قواعد متينة . وهل اذا كان ترك الاناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من الف سنة فقط يسقط حقهم بالاناضول ولا بد من ان يثبتوا ان هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من السنين حتى يستحقوها ؟ كل هذا من جملة الغرائب التى ولدت مع الانقلاب الانقر ى

الفصل السادس

في

العصبية الجنسية في الهند

الهند بلاد الغرائب والمتناقضات ، تشتمل على وحدةٍ جغرافية طبيعية ، من حيث انها لم يتألف فيها شئ من الوحدة السياسة فى عصرٍ من خاليات عصورها ، اللهم الا ماحصل لها من صبغة الوحدة حديثا على يد حكم «الراجوات» فى العهد البريطانى . ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرةمن الأروم المتنازعة والعروق المتقاطعة فى كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقو على الوقوف فى وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعد دور . وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عرقاً وأرومة لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لاتحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على مالا نهاية له من الفوارق دماً ولغة وتهذيباً وديناً . فالهند ، وهى تستوى بمساحتها وساكنها مع أوروبة أو الصين ، لم يتألف فيها كما فى هذه الأخيرة من وحدةٍ جنسية عنصرية عامة ذات مستقر ونصاب ، ولا كما فى الأولى من وحدات وطنية تامة الصورة ، مستقلة متمايزه ، بل قد غبر عليها ماغبر من الدهر وهى مبعثرة الحال مشتتة الشأن لاتعرف اطمئنانا ولا سكوناً ، وجل مااستطاعت ان تملك هو شئ من المنزع نحو الوحدة التى لم تدركها قط .

يشتمل تاريخ الهند على ثلاثة فتوح كبيرة : الفتح الآرى وأوله حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . ، والفتح الاسلامى من سنة ١٠٠٠ ب . م . الى سنة ١٧٠٠ ب . م . ، والفتح البريطانى أوائله سنة ١٧٠٥ ب . م . ثم ماانفك يمتد ويتسع ، وينتشر ويرسخ مدة قرن تال حتى طبق الهند بأسرها ولم يزل قائما الى اليوم .

أما الآريون فشعب صبح البشرة ، من اليقين انهم على الجملة يتحدرون من الأصل الذى نتحدر منه نحن . نزحوا من أواسط آسية مجتازين المعابر الشمالية الغربية ، وهى

المعابر الوحيدة المفضية الى الهند من تلك الجهة وليس هناك من سواها ، لأن جبال حلايا الشامخة العالية الذرى ، هى فاصل للبلاد عما يليها . ولما بلغ الآريون الهند على طريق تلك المعابر فاتحين مجتاحين ، أخذوا يتغلبون على أهل البلاد الأصليين الدراڤيديين السمر البشرة ، ويخضعونهم ، ويقيمون هم فى البلاد سادة حكاما . غير أن هذا الفتح كان فاشيا رقيق الظل من حيث كان غير مطبق للبلاد . فاستقر غالب الآريين فى الشمالى الغربى ، وأما سائرهم وهم أكثر اقداما وأركب للاهوال فقد انتشروا فى سائر شبه الجزيرة بعض الانتشار . واعلم فوق هذا أن قد بقى حتى فى الشمال كور جبلية كبيرة وآجام عظيمة فى أيدى أهل البلاد الأصليين ، بينما الذين توغلوا من الآريين فى جنوب البلاد كانوا نزراً . وعلى الجملة فقد كان الآريون فى غالب الهند الطبقة القليلة ولكن كانوا أصحاب الغلب والحكم على سائر شعوب البلاد وان كانت هذه أكثر عدداً . واذ خشى هؤلاء الآريون لقتلهم أن يبتلعهم الدراڤيديون لكثرتهم ، فقد ابتغوا احتفاظ تفوقهم السياسى وصروحة تحدرهم الجنسى بانشاء نظام الطوائف أو الطبقات ، النظام الذى لم يبرح منذ ذلك العهد حتى اليوم قاعدة الحياة الاجتماعية فى الهند . فانقسم المجتمع الى ثلاث طوائف : البراهمة أو الكهنة ، والمحاربين ، والسفلة أو العملة المعروفين «بالسدراز» واحتاز الآريون الطبقتين الأولين . وأما الطبقة الثالثة ، السدراز فقد قصرت على الدراڤيديين الخاضعين المحكومين وظلت هذه الطوائف والطبقات بعيدة بعضها من بعض بفوارق عديدة شديدة ، ثم هذه الفوارق ازدادت تأيداً وتمكناً بسلسلة من النواهى والمحرمات الدينية . فغدا التزاوج والاشتراك فى المآكل والمشارب حتى فى الجوار ، وصار اقتراب شخص من آخر بين أهل الطوائف المختلفة والطبقات المتباينة يعد نجاسة لا تزول عن صاحبها فى بعض الأحيان ولو كفر عنها أشد التكفير . وكانت المعصية فى خرق هذه النواهى والمحرمات تقتضى انزال العقاب الهائل بالمرتكب فينبذ نبذاً من مرتبته الطائفية ويدنى ليس الى مرتبة أدنى منها من المراتب المتسلسلة النظام ، بل الى طبقة أدنى من السدراز ، فيعرف اذ ذاك بالعاصى المنبوذ المجرد من المرتبة الطائفية ، ثم يكره على القيام بأحط أعمال الخدمة وليس له من الحقوق حتى ولا ماتلك التى عليها السدراز . فنجم عن ذلك ، ان الشريعة الدينية ذات الطقوس ، لا الشريعة المدنية ، هى التى سادت المجتمع الهندى سيادة تامة ، فبات الدين

الهندى الوليد (أعنى البرهمية) صبغته اجتماعية لا أدبية أخلاقية .

فنتجت عن جميع هـذه الأمور النتائج الـكبرى . أما فى أفق النسل فان نظام الطوائف لم يكن له كبير شأن يحمل على احتفاظ الدم واللون والسلالة ، اذ أن البرهميين أنفسهم أخذوا على التوالى يختلطون اختلاطاً دموياً ، قليلا أوكثيرا ، بالدراڤيديين[1] وذلك على شـدة النواهي والمحرمات . وأما فى أفق المجتمع فقد ظل نظام الطوائف يعمـل عمله ويسير سيراً غريباً ، فدرجت الطوائف الثلاث الأولى تنقسم ثم تنقسم حتى أصبحت الطبقات الثانوية والتى ما دونها على التتابع مئات وألوفاً ، ففقدت أو كادت تفقد ما كانت عليه فى أول العهد من العزة القومية . ثم ان جميع هذه الطوائف الثانوية أخـذت تحتفظ بمراتبها وحقوق مراتبها تشبهاً بالطوائف الثلاث الـكبرى ومحاكاة لها ، فنتج عن ذلك أن المجتمع الهندى قد تناثر تناثراً ، وتمزقت وحداته تمزقاً بات معه التعاون بل التفاهم بين أهل البلاد ضرباً من المستحيل . فعدت على التاريخ الهندى من جراء ذلك عادية لاتزال حتى اليوم . قال مؤرخ ثقة من البريطانيين : ــ « كان عاقبـة التنابذ والتقاطع الدائمين والاعتزال الاجتماعى المستمر ، أن غـدا الشعب بأجمعه مؤلفاً من عناصر متنا كرة كل التنا كر ، ولم يقف الأمر عند حد غنى وفقير ، وأمير وصعلوك ، ومدينة ورستاق ، وخادم ومخدوم ، وسيد ومسود ، بل بلغ أ كثر من هذا ، اذ بات سكان كل مقاطعة من المقاطعات أومدينة من المدن مجموعا من مختلف الجنسيات ــ وغالبا من مختلف الأنواع الانسـانية ــ لا يتزاوجون ولا يشترك بعضهم مع بعض فى مأ كل ولا فى مشرب وفى الخطير من شؤونهم الحيوية تحكم فيهم لجان من قومهم تدبر لهم أمورهم وتقيم أحكامهم . وليس من المغالاة فى شئ أن نقول ان أهل الهند قد غدوا بسبب نظام الطوائف منقسمين الى ما فوق الألفى طائفة ليس بين بعضـها مع بعض من الألفة أ كثر مما بين ضروب البهائم المتآلفـة فى حدائق الحيوانات . »

---

(١) يقول بعض المؤرخين ان هذا الاختلاط فى الدم والانساب لم يعتم أن ظهر بعيد الفتح الآرى ، والرأى المبنى عليه هـذا القول هو أن الآريين الفاتحين لم يكن فيهم ما يكفيهم من النساء من بنات جنسهم وهم لم يزالوا خارج البلاد الشمالية الغربية ، لذا طفقوا يتخذون من النساء الدراڤيديات أزواجا وحظايا ، ثم يثبتون حقهم فى تبنيهم أبناءهم غـير الشرعيين ، بحيث جعلت ذراريهم تنشأ طائفة واحـدة مؤلفة من الاقحـاح والاخلاط على التحام فى العرق وامتزاج فى الدم . ثم منعت زيادة الاختـلاط ولـكن من بعـد أن ذهبت بحوتة الأصول والانساب الآرية

لذلك لاعجب اذا غدت الهنـد ، وقد تمزق مجتمعها هذا المتمزق وتناثرت وحدتها السياسية الى امارات عديدة ، لاتستطيع الوقوف فى وجه أول فاتح عظيم يكرّ عليها فتسقط بين يديه متضعضعةً متلاشية ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان هذا الفاتح هو الاسـلام . ان المسلمين أخذوا يكرون على الهند من بعد ماتم لهم فتح فارس ، كرات لم يكن لها من الشأن والخطورة فى أول الأمر أكثر من الذى يكون للغارات التى تُشنّ على العدو عند الحدود دون أن يكون لها أثر باق . على أن الفتح الاسلامى الخطير قـد قام به محمود الغزنى الامير الافغانى (١) سنة ١٠٠١ ب . م . ، فسار محمود فى الطريق التى سار فيها من قبله الآريون منذ أجيال وحقب متطاولة ، ودوخ بلاد الهند الشمالية الغربية المعروفـة بالبنجاب حيث رسخت قدم الاسلام رسوخاً ثم طفق القواد المسلمون يوالون توسيع الفتح أكثر فأكثر من جهة الشرق حتى غدا غالب الهند الشمالية فى قبضة أيدى المسلمين . وقـد كان لهؤلاء الفاتحين المسلمين عاملان قويان ساعداهم على هذا الفتح الذى قاموا به ، أولاً انهم كانوا متحدين اتحاداً مشوباً بالتعصب الدينى لقتال عبدة الأوثان ، ثانياً انهم استطاعوا أن يحملوا الـكثير من أهالى البلاد على الديانة بالاسلام . فان الاسلام المعطل للبرهمية الجاعل جميع المؤمنين اخوة قد فاز حقاً فى هداية الناس اليه فدخلوا فيه أفواجاً من أهل الطبقات الحقيرة والمنبوذة ، الذين كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين . وهـذا هو السبب الـكبير فى أن المسلمين الذين فى الهند اليوم ليربون على السبعين مليوناً . بحيث ينيفون على خمس مجموع السكان . وهم يتحـدرون ليس من الفاتحين الافغـان والترك والعرب والفرس فحسب بل أيضاً من ملايين الهنود الذين دانوا بالاسلام بعد الفتح .

وقد انقضت أجيال عديدة وحكم المسلمين فى الهند مقصور على الشمالى من البلاد . ففى أوائل القرن السادس عشر زحف القائد بابر التركى المغولى الى الهند وأنشأ المملـكة المغولية ، ثم دوّخ بابر ثم خلفاؤه من بعـده جنوبى البلاد ووحـدوا الهند توحيداً سياسياً غير مسبوق المثيل . ولـكن هذا التدويخ كان فاشياً كالفتح الآرى من قبل ، ثم إذ شعر البراهمة بانهم مهددون بالخراب والاندثار ، شرعوا يبشرون بدعوةٍ لليقظة الهندية فآل الأمر الى تضعضع سلطان السلالة المغولية ، وفى أوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملـكة المغولية .

---

(١) اقرأ تعليقا كبيراً فى تاريخ الممالك الاسلامية الهندية فى آخر هذا الجزء ــ المعرب

عند هده الفوضى الشاملة ظهرت بريطانية الى عالم السلطان صاحبة الحول والطول . ولم تـكن فى بدء الأمر هى وحدها فى حلبة الميدان بل كانت فى عداد الدول الاوروبية ـ من البورتوغال وهولندة وفرنسة ـ صاحبات الطارئات الصغيرة المنتشرة على السواحل الهندية وهده الدول الاوروبية لم تـكن لتنوى القيام بفتح الهند إذ ذاك مادامت الدولة المغولية فى عالم الـكيان . لهـذا السبب ما كانت علاقة بريطانيـة بالهند فى أول العهد سوى مجازفة تجارية عُرفت « بشركة الهند الشرقية » . ولـكن لما استفحلت الفوضى فى البلاد اضطر الأوروبيون للحال ، الى ان تـكون فى أيديهم سلطة محلية يستطيعون بها حماية مصالحهم ومصانعهم ، ثم من بعد ذلك جعلوا يوسعون مطامحهم ويجترئون على وضع المشروعات التى هى أبعد مرمى وأكبر غرضاً ، وانما كان وهن الحكام الوطنيين هو الباعث لهم على هذا الأمر ، وتضعضع سلطان هؤلاء وفقدانهم الحول والقوة هيئا لهم الأسباب فأخذت بريطانية على التوالى تقهر مزاحماتها الاوروبيات عنوةً حتى استوسق لهـا الأمر وتمّ لهـا الغلب السياسى ، فوطدت قدمها وأعزت سيطرتها ، وكان لابد لها ، كلما نشب اختلال وغلى مرجل اضطراب ، من أن تبسط سيطرتها وتوسع سلطانها ، وقد كانت تقوم بهذا فى أول الأمر على الهونى والتؤدة إذ ظلت شركة الهند الشرقية عهداً طويلاً ساعيةً السعى الأكبر وراءَ غاية تجارية . مدارها جنى الأرباح واكتساب الأموال فـكانت فى هذا السبيل أبذل جهداً منها فى سبيل احراز السيطرة والسلطة . بيد انها شرعت تتحول من بعد ذلك الى حكومة تامة الشرط ذات سياسة طامحة ترمى الى الفتح والاستلحاق ، فـكان من شأن هذا التحول والانقلاب ان أيقظ الـكثير من أهل الهند وأحمى أنوفهم احماءً كان السبب فى انفجار بركان الثورة سنة ١٨٥٧ . ثم أخمدت بريطانية هذه الثورة وألغت شركة الهند الشرقية وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطانى ، ونودى بعد ذلك بالملـكة فكتوريا أمبراطورة الهند .

فلم ينجم عن جميع هـذه التطورات تقوية السلطة السياسية البريطانيـة فقط ، بل زيادة تغلغل النفوذ الغربى على كل نوع وصفة ، فأنشئت الطرق والمسالك الحديدية والأقنية ، وربطت أجزاء الهند بعضها ببعض فتدانت أطراف البلاد ، وقربت الأبعاد ، وسهل افتتاح ترعة السويس التواصل مع أوروبة ، من حيث بات التعليم والتهذيب على الأصول الحديثة وسيلة لانتشار الآراء والمبادىء الغربية .

ثم بعد هذا الانقلاب الهندى السريع والتطور الحثيث جاء حكم « الراجا » البريطانى فطبق البلاد قاطبة ، وهو ضربٌ من الأنظمة الحكومية فريد النوع فى جميع العالم ، إذ هو حكومة يقوم بأعبائها بضع مئات من الخبراء المدربين أهل الدربة والحنكة ، يعضدهم جيش صغير مدرب فى حكم تلك المئات من الملايين المختلفة ، على ان حكومة « الراجوات » هذه هى إرثية مطلقة ، تنهج فى سلطانها النهج الذى تستصلحه وتراه ملائماً لها وموافقاً ، غير متخذة من التبعة إزاء الشعب أكثر من تلك التى كان يتخذها الحكام الوطنيون المستبدون من قبل . فهذه الحكومة المنشأة على هذا الطراز المحدث قد حكمت حكماً حسناً صحيحاً ، وربما كانت حكومة الهند هذه من حيث اعتبار الأمانة والكفاية والشعور بواجب الوظيفة خير مثال من أمثلة الحكومات « المستبدة العادلة » التى عرفها العالم ، فقد نشرت هذه الحكومة فى ربوع الهند الراحة والأمن مكينين ، وترفعت عن المحاباة والغرض وأقامت قسطاس العدل بين جميع الأقوام والطوائف والطبقات المتباينة فى الاعتقاد المختلفة فى المزاج ، وفوق جميع هذا جعلت للهند كينونة سياسية حقيقية لم تعرفها الهند فى جميع ماضى أدوارها . فتوحدت ممالك الهند توحداً وثيقاً للمرة الأولى فى جميع تاريخها فى ظل حكم واحد — هو حكم « السلام البريطانى »

على ان حسنات الحكم البريطانى هى هى التى بذرت بذور الاضطراب التى قد نمت نمواً هائلاً ، فوفر الساكن وعمر النسل ونشأت طوائف الناس من أهل البلاد تعيش متسالمة متحابة ، متعارفةً بعد التقاطع والتدابر تعارفاً لم تذق طعمه فيما غبر من الدهر ، ناسية ما كان بين بعضها والبعض الآخر من الاحن والشحناء ، قوامة على شؤونها ، غير غافلة عن النقائص الاوروبية . وفوق جميع هذا صارت الهند إلفاً شديدا للآراء الغربية كالحكومة الذاتية والحرية الجنسية . وفى الهند ، شأن سائر أقطار الشرق ، كان لابد حتما من نشوء حركة المقاومة للحكم الغربى والسخط عليه سخطاً متفاوت الدرجات ، من المطالب المعتدلة للحكم الذاتى ، الى مطالب الغلو الناحية منحى الاستقلال التام .

دامت الحال هكذا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والمقاومة السياسية المنظمة لحكم « الراجوات » البريطانى غير معروفة بتة سوى ما كان يقوم به بعض الأفراد القلائل والجماعات النزرة ، من رفع بعض الاحتجاجات المنخفضة الصوت دون أن تلق صدى

مرجعاً من الشعب . إذ ان معظم سواد الهنود ، الدائبين أبدا فى طلب الرزق ابتغاء الأقوات مما لا يزيد على الكفاف والمؤونة ، قد ارتاحوا الى هذه الحكومة غير الجائرة ولا المستبدة ، والتى هى أعظم كفاية وأقوم على شؤون الرعية من سابقتها البائدة . وعلى الجلة ان ظهور العصبية الجنسية الهندية لم يكن له من أثر قط . حتى ولا مما يدل عليه ، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

على ان أول أمارة من أمارات المقاومة المنظمة ظهرت فى تأليف « المؤتمر الهندى الوطنى » سنة ١٨٨٥ (١) ومجرد اسم هذا المؤتمر يدل على أن « الراجا » البريطانى المطبق حكمه الهند انما كان هو نفسه الداعى لاستيقاظ العناصر الهندية المختلفة وتنبهها ، ثم تطلعها نحو غايات معينة ومطامح وطنية معروفة . ولكن هذا المؤتمر ما كان ليمثل الرأى العام الهندى تمثيلاً صحيحاً بالمعنى المعروف ، اذ لم يشتمل الا على جانب قليل من الشعب كأرباب الصناعات العالية والصحافيين والساسة ، ممن تم لهم الوقوف الكامل على الآراء الغربية والمناهج الأوروبية ، لأن أساليب التهذيب الغربية التى أتى بها البريطانيون الى البلاد قد أثمرت أطيب الثمار ، فنشأت فى الهند طبقة متهذبة راقية شديدة التضلع من الغة الانكليزية ، بالغة الارتواء من الروح الغربية .

ولما كان أهل هذه الطبقة الراقية الجديدة على اعتقاد حسن فى الأعمال والغايات الغربية ، وكانوا يقدرون ما لذلك من الشأن والقيمة حق قدره لم يكن لهم مندوحة بطبيعة الحال عن السخط والتغضب على الكثير من صور الحياة الهندية وشؤونها . فلذلك لم يكن الجهد الذى بذله أهل هذه الطبقة أول عهد اليقظة موجهاً نحو غاية سياسية بمقدار ما كان موجهاً نحو غاية الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، كقضية منع الزواج الباكر ، وتزوج الأرامل ، ونشر التعليم والتهذيب . غير انه على توالى الأيام طفقت قضايا الاصلاح السياسى تتكاثر وتشغل مكاناً خطيراً . ولما كان أرباب الفكر من الهنود هم من ذوى الاطلاع الواسع على التاريخ الانكليزى والفلسفة السياسية ، أخذ شعورهم يزداد بما ينقص بلادهم من الحكومة الذاتية ، وشرعوا يطمحون الى منح الهند بركات الحرية التى يعظمها حكام

(١) بلغنا مؤخراً من أحد أعضاء هذا المؤتمر الوطنى من البراهمة ان عدد أعضاء هذا المؤتمر ستة آلاف شخص يمثلون جميع الهند وان من هؤلاء ألفين هم من المسلمين (ش)

البلاد الانكليز و يعلون قدرها و ينزلونها المنزلة الفريدة . فنشأت فى الهند للحال الصحف الوطنية الصادقة العزم والغيرة تنهج مناهج الارتقاء والتقدم ، مبشرة بانجيل الوطنية الجديد ، حاملة جميع أرباب الفكر على الاتحاد عصبة واحدة ، عصبة الايقاظ والتنبيه ، ومكونة فى فى البلاد رأياً عاماً متماسك الاطراف مشدود الأركان . وقبيل اختتام القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة الهندية الراقية تملأ الفضاء صياحاً وتجهر علانية فى سبيل نيل النظم السياسية الحديثة كالمجالس النيابية ، والاستزادة من السلطة التنفيذية ، والاشتراك فى وضع قوانين الضرائب ، وتوسيع المجال لأهل البلاد كيما يتسنى لهم القيام بالخدمة المدنية وغير ذلك . وعند اختتام القرن كان الجاهدون فى سبيل هذه المطالب والمطامح ، كما قلنا قبلاً ، هم رجال الطبقة المنورة المتشبعين بالآراء والمبادئ الغربية ، الذين مع انتحالهم اسم الوطنيين كانوا لم يدركوا بعد المستوى الذين يستحقون به ان يطلق عليهم اسم القائمين بالعصبية الجنسية بالمعنى الصحيح . ولم تكن غايتهم ، اللهم الا فى بعض المواضع ، الاستقلال ، ولا محو السيطرة البريطانية الفعالة ، بل بالأكثر القيام بالاصلاح فى أفق الحياة الهندية على المناهج الغربية . و ينطوى تحت ذلك توسيع المجال للحكومة الذاتية الخاضعة لمشارفة السلطة البريطانية .

على أنه عند نهاية القرن التاسع عشر تطورت الحال تطوراً كبيراً . فطفقت الهند شأن سائر الشرق تضطرب اضطراباً شديداً وتهيج فيها عوامل الانقلاب والانتقال وتتمخض عن حركات عنيفة ، واستيقظت روح جديدة تدل على التنبه السياسى واليقظة الجنسية والنهضة القومية . وظهرت أدلة وأمائر تؤيد منشأ هذا تأييداً لاريب فيه . فانكب العلماء والبحثة الهنديون على خزائن الأسفار من تواريخهم البالية وكتبهم المقدسة ينقبون فى بطونها تنقيباً ، ويحيون من بين دفاتها انباء عن عز الهند التليد ومجدها الغابر وماضيها الجيد ، وقامت بعض الطوائف المصلحة مثل « الآرياسوماج» توجب القيام بالاصلاح ايجاباً دينياً ، ثم انضم الى جماعات أهل الفكر والروية المنتشر بين الروح الغربية ، عناصر أخرى ، فاتحد الجميع معاً وانبروا يدبرون الذرائع والوسائل ليس لبلوغ الاصلاح المتدرج على المناهج الغربية ، بل لاحياء الهند كلها ، الهند الجديدة ، احياء حديثاً من شأنه أن يجدد قواها النفسانية الحيوية تجديداً ، ويحررها من اغلالها وقيودها تحريراً ، فتسير

اذ ذاك فى سبيلها وراء مقاديرها تسوق نفسها بنفسها . ومنذ ذلك الحين ارتفعت الأصوات من جوانب طبقات الوطنيين وهى تردد ترديداً بالغاً عنان السماء « باندىماتارام » - ليحي الوطن ! !

بيد أن هناك أمراً أحرى بالاعتبار وهو ان هذه النهضة الجنسية الهندية انما كانت لأول عهدها حركة قام بها أبناء الهندويين أما المسلمون فقد حذروا منها ونظروا اليها بعين الريب أو العداء . وانهم فى الواقع كانوا على حق فى هذا ، لان غاية أولئك الوطنيين الجدد كانت « الهند الآرية» « هند العصور الذهبية » ، وبات شعارهم : « رجوعاً فى الڤيدا ! رجوعاً الى الڤيدا ! » وهذا بطبيعته يقتضى احياء ذكريات الايام الخالية احياء تندرج تحته يقظة البرهمية الغاشمة . فتطورت حال أهل الطبقة الراقية تطوراً هائلاً اذ ان الرجال الذين كانوا منذ بضع سنوات ينادون بتفوق الآراء الغربية وسمو المبادئ الأوروبية ، ويسخرون من أباطيل عبادة الاوثان وسواها ، باتوا اليوم يشنأون كل شئ غربى ، ثم انقلبوا يقربون القرابين ويقدّمون الذبائح للآلهة الهندية ، وأمست « تربة الهند المقدسة » فى نظرهم يجب أن تطهر تطهيراً من الاجانب (١) . والاجانب الذين قد عناهم الوطنيون لم يكونوا الانكليز فقط بل أيضاً المسلمين ، الامر الذى هاجت بسببه الذكريات العتيقة وثارت لأجله روح الانتقام فقد ظل الخلاف الهندوى الاسلامى اجيالاً طويلة شقاً لايستطاع حوصه وصدعاً لا يمكن رأبه ، وما كانت تلك الجروح لتلتئم ، لكن تغشت بغشاء لطيف هو سيادة « الراجا » البريطانية لجميع أهل البلاد الهندية سيادةً غير محابية ولا متحيزة : اما الآن فقد تمزق هذا الغشاء فاذا بالمسلمين يرون أنفسهم مهددين بعداء الهندويين عداء متجدداً وهو العداء الذى كان سبباً فى اضمحلال الدولة المغولية بعد موت الامبراطور « اورنغزيب» منذ مئتى سنة خلت ، ولم يحمل هذا العداء المسلمين على الحذر والخشية فقط ، بل أشعلهم غضباً وحنقاً ، فطفقوا يتذكرون مجد المملكة المغولية ، كدأب الهنود يتذكرون مجد الهند الآرية ، وشرعوا يحسبون أنفسهم سادة البلاد بحق ، ويأبون الخنوع بتةً لحكم « عبدة الاوثان » المزدرى بهم . وما كانوا اذ ذاك ليحبوا البريطانيين ، بيد انهم اضطروا الى محبتهم بسبب عود العداء بينهم و بين الهندويين ،

(١) سبق لنا الكلام على «العصور الذهبية » الهندية ومنازعها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

فوجدوا فى الراجا البريطانى حرزاً حريزاً يتقون به شر تلك العداوة المزمنة الكامنة فى الرماد ، وفوق هذا فالهندويون يفوقونهم عدداً كخمسة الى واحد . لهذا السبب أخذ المسلمون يقاومون النهضة الجنسية الهندية ، ويقبلون على موالاة الراجوات موالاةً شديدةً . وكانوا فى هذا الدور قدر أصبحوا على حال من التأثر بروح الاضطراب والقلق المنتشرين فى العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ، فدبت فيهم روح العصبية الشديدة التى بسبب كونهم الاقلين عدداً لم تتخذ لها شكل الوطنية الاقليمية ، بل نزعت الى تلك العواطف الاسلامية المتلاطمة الرامية الى الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اللتين قدمنا الكلام عليهما .

فالعصبية الجنسية الهندية فى أول عهدها لم تكن ذات صفة هندوية فقط بل أيضا برهمية يلابسها النزوع الى العرق ، فجعل البراهمة يزدادون حولاً وقوةً فى تسيير الحركة وسوقها فى مجراها يبتغون من وراء ذلك تشييد عزهم ورفع لواء تفوقهم ، فى هند الغد ، حتى يستطيعوا بذلك ان يعيدوا سيرتهم الأولى ، فأثار ذلك خوفَ جانب كبير من المجتمع الهندوى ، فشرعت طوائف كثيرة من الطوائف السفلى والبارياه تخشى ان الهند اذا ما استقلت أو نالت حكومة ذاتيةً يعود الحكم البرهمى الاوليغارقى الطاغى الى الوجود ، ويكون ذلك سبباً فى ان تفقد تلك الطوائف المنافع والفوائد التى هى حاصلة عليها الآن فى ظل الحكم البريطانى (١) . وفوق ذلك فقد هب كثير من الأمراء الهندويين يقاومون فكرة الرجوع الى الحكم التيوقراطى بعامل الوجل من انهم سيسلبون باستقلال الهند جميع ما فى أيديهم من السلطة . لذلك باتت الحركة الوطنية الهندية أشبه بتواثق بين البراهمة والطبقة الراقية المتشبعة تهذيباً غربياً ، وهؤلاء جميعاً وضعوا خطةً وجعلوها تشتمل على مطامحهم الرامية الى غاية حكم الهند حكماً مشتركاً .

واذ غدت الحركة الوطنية تهيجها هذه المطامح وتشعلها الغيرة الدينية فقد كان من شأنها فى هذه الحال ان اكتسبت طبائع التعصب واتصفت بشدة المقت والشنأة للغربيين وكل شئ غربى . وقد كانت الحرب الروسية اليابانية العامل الأكبر فى نفخ هذه الروح ففى السنة التى تلت تلك الحرب (١٩٠٥) ظهرت الأدلة منذرةً بقرب هبوب العاصفة ،

(١) ان شأن الطبقات المضطهدة فى الهند قد بيناه فى الفصل الثالث ، واننا نزيد فى بيانه فى هذا الفصل .

وكان ذلك على أثر قرار وضعته الحكومة فى تقسيم البنغال ذلك التقسيم الذى كانت الغاية منه ادارية صرفة مجردة عن كل صبغة سياسية ، فرجال الحركة الوطنية حسبوه أمراً مقيماً مقعداً ، فطفقوا يشعلون نار دعوة كبيرة ألهبت الهند كلها ، فعم الاضطراب وساد القلق . وكان زعيم هذه الدعوة الباعثة على الهياج والفتنة « بال غانغدر هار تيلاك » الذى دُعى بأبى الاضطراب الهندى . فان تيلاك هذا وهو برهمى كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق ، نال حظاً وافراً من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدواً شديداً للحكم البريطانى والحضارة الاوروبية ، وداعياً عظيماً يتسلط على القلوب فتنقاد اليه ، وخطيباً بليغا وارى الزند تثير خطبه سواكن النفوس . وكانت صحيفته « ياغنتار » فى كلكتا تقذف حمم المقت والشنآة للغربيين قذفاً وتحمل الشعب على الهياج والاغتيال والثورة . فأنتجت طائفة تلك العوامل التى أثارها تيلاك النتائج المحسوسة الأثر للحال ، فاشتد الهرج والمرج وكثرت الفتن وحوادث قتل الانكليز واغتيالهم ، وما كانت « ياغنتار » الا واحدة من عديد الصحف الوطنية التى نهجت هذا المنهج وكان بعضها يكتب بلغة أهل البلاد والبعض الآخر بالانكليزية وجميعها متبار فى حلبة الهياج والاثارة .

والى القارىء مثال مما كانت تنشره الصحف الوطنية تتبين منه شدة النقمة وهول الشنآة . قالت « ياغنتار » : « ان الثورة انما هى الذريعة الوحيدة التى تستطيع بها الأمم المستعبدة المقودة بأغلال الذل والقهر الدفاع عن كيانها والذياد عن ذمارها . ان كنت لاتستطيع يابن الهند أن تكون رجلاً كل الرجل فى الحياة فاستطع أن تكونه بالموت فى سبيل الوطن . ان الأجانب الدخلاء ، يا ابن الهند ، قد هبطوا بلادنا وجاسوا خلال ديارنا ، وحتموا عليك كيف يجب أن تعيش ذليلاً وشددوا فى ذلك مااستطاعوا ، اما كيف يجب أن تموت فذلك أمره فى يدك فاختر الموت موت الأبطال فداء لهذا الوطن ، هيا بنا أبناء الهند ! أعدوا عددكم وامشوا لاضرام نيران الثورة العامة التى لاتبقى ولا تذر ، تلهب الهند من جانب الى جانب ! ان هذه الشراذم من الشرط والجنود لهى أعجز عن الوقوف فى وجه الثوار يتمورون تمور البحر الزاخر المتلاطم اللاجج ، ويملأون الهند السهل منها والجبل . قد يزج الثوار فى المحابس والسجون ، ويحتسون كؤوس الحمام ضروباً وألواناً غير ان ذلك كله ليس بالموهن من عزمنا وحزمنا ولا بالمضعف من شدتنا وبأسنا . يقتل ألف فتنبرى

من بعدهم الآلاف المؤلفة للقيام بواجب الوطن . ايه أبناء هندستان ! عضوا على النواجذ ولا ترهبوا ! ان تربة هندستان مريعة المرابع أبداً بدماء الأبطال . لاتيأسوا ولا تقنطوا ، هـذه أبطالنا وهـذه أموالنا فالمجـد المجـد اقتطفوا ثماره يانعة طيبة . اعلموا ان طائفةً من القذائف رميتم بها العدو قد شقت كبده شقاً . هو الهول والظلم مما ملأ الجواء وغطى السماء فسيروا قُدُماً وخوضوا بصادق الغشمشمة عباب بحر من الدماء القانية ! » وقد كثرت حوادث الاغتيال كثرةً هائلةفقال « س . كريشنافارما » فى صحيفة «انديان صوسيوجيست» Indian Sociologist : « ان الاغتيال السياسى لايعد قتلا البتة . إذ ان الاستعمال الحق لمثل هذه القوة انما هو دفاع تجاه قوة معتدية » وقالت « باغنتار » فى موضع آخر : « انما بدل الاشتراك الواجب على جميع قراء هـذه الجريدة هو أن يأتى الينا كل منهم برأس أوروبى » وما كانت النساء والأولاد من الانكليز مستثنيات من الرجال إذ قالت «باغنتار» فرحة مبتهجة فى تعليق لها على مقتل سيدة انكليزية وابنتها : « يجب أن تقتل على توالى الأيام عفاريت عديدة من هؤلاء النساء ذوات الأرواح الشريرة الخبيثة ، وتجتث شأفتهن كما تجتث شأفة جنس « الاسوراز » من على وجه الأرض » . واليك كلمة تدل على مبلغ تعصب الرجال الذين طفقوا يدأبون على القتل والاغتيال (وغالبهم من الشبان) قالها شاب هندى قتل موظفاً انكليزياً كبيراً هو السر كرزن ديلى ، وهو على دكة المشنقة : « انى أيها الملأ لأعتقد أن أمة يتحكم فيها الأجانب الغرباء بالحراب اللوامع انما هى على حرب مشبوبة النار أبداً . ولما كانت الحرب المنظمة التى تعبأ فيها الصفوف ليست بالأمر المستطاع عند أمة عزلاء من السلاح ، فانى لم أجد بداً من الهجوم على حين غرة . ولما لم يكن لدى مدافع أصلى بها العدو صواعق نارية فقد لجأت الى مسدسى وأطلقت منه بعض العيارات انى بصفة كونى هندياً لأشعر أن الاساءة الى بلادى هى الاساءة الى الآلهـة ، وان مصلحة الوطن هى مصلحة « شريرام » ، وخدمة الهند هى خدمة « شرى كريشنا » . على ان من كان مثلى صفر اليدين خالى الوطاب ليس عنده كثير مال ولا غزير عـلم ، فليس بوسعه أن يجود لأمه بشئ سوى دمه الهندى الجارى فى عروقه ، فلذلك انى أسفك دمى هذا قرباناً على مذبحها المقدس . وليعلم سائر بنى أمى أن العظة التى يجب تلقينها فى الهند اليوم انما هى معرفة كيف يجب على الهندى أن يموت ، والوسيلة الوحيدة الفضلى لتلقن هـذه العظة هو

أن أشرب أنا وأمثالى كا س الردى ، فرحباً بهـذا الموت الذى ألقاه الآن شهيداً . وهـذه الحرب القائمة فى ديارنا اليوم ستظل مشتعلة فى ربوع الهند مادام الجنسان الهندى والانـكليزى على هذا العداء وما لم تتبدل هذه الحالة بأفضل منها »

على ان جواب الحكومة على شبوب هـذه الفتنة الهائلة المملوءة بحوادث القتل والاغتيال ، قد كان المبادرة فى الأخذ بأسباب الاخماد بيد من حديد ونار . فعطلت الحكومة الصحف الوطنية ، وسجنت رجال الفتنة وقتلتهم تقتيلاً ، وجعلت ترهف الحد بسن قوانين جزائية شديدة ، وكانت بسبب الفتنة قد هاجت الجماعات الاوروبية أيما هياج وقامت وقعدت لما يقوم به الوطنيون من إزهاق الأرواح وسلب النفوس ، فحمل الأمر كثيراً من الانـكليز على أن يطلبوا شـديداً استرداد الامتيازات السياسية ، وجعل التعليم الجارى على الطراز الغربى لايعدو حدوداً معلومة ، ولا يتخطى حكماً مطلقاً شديد الاستبداد فلما رأى الوطنيون هـذا انباعوا الى الفتنة فعادوا يشعلونها فى كل موضع ، فلقوا الجزاء الأهول والعقاب الأشد . وفى الواقع ، ان الغلاة من الفريقين ، فريق الوطنيين وفريق الانـكليز ، كانوا بغلوهم يزيدون النار وقوداً ، فعمت البلوى وشملت المحنة ، وظلت الهند بضع سنوات تضطرم فى جوانبها الفتن ، وما كانت السجون ولا أعواد المشانق ولا النفى ولا الابعاد بالذريعة الـكافية لتسكين الحال ومنع الفوران

ثم هدأت العاصفة هدوءاً غير طويل الأمد فتحسنت الحال وجرت مجرى حسناً ، إذ قل عدد الغلاة ، من حيث أخذ أرباب الحصافة والروية من البريطانيين والهنود يبتغون مخرجاً من ذلك المأزق الحرج . وقام القادة المحافظون من الهنود مثل المستر غوكهال وأنداده يشجبون الهول والرعب ، ويدعون أبناء وطنهم للسعى وراء تحقيق أمانيهم الوطنية على المناهج السلمية . ثم ان أحرار الانـكليز وهم لم يزالوا إذ ذاك يأبون الأوبة بالفشل والخسران شرعوا يبتغون الوصول الى خطة يتمّ بها الاتفاق والوئام ، فندب السياسى الحر الـكبير جون مورلى وفوض اليه مهمة القيام بتسوية شؤون الهند فأخذ يجهد حتى وصل بالتالى الى وضع « لائحة المجالس الهندية لسنة ١٩٠٩ » وكان مشتمل هذه اللائحة الاقلاع التام عن الحـكم البريطانى فى الهند ذلك الحـكم الشبيه بالمطلق الشديد وتوسيع المجال بالتدريج لأهل الاعتراض من الهنود بحيث يستطيعون بذلك ابداء الرأى والمشورة

والاقـدام على النقد والمناقشة . وكان من محتوى اللائحة وضع نظام ذى قيود وحـدود لانتخاب الهيئات الاشتراعية التى تنشأ على مقتضى هـذه اللائحة . فـكانت النتيجة ان الوطنيين المعتدلين ، على كونهم غير مرتضين الارتضاء كله ، قبلوا باللائحـة وحسبوها باكورة تتلوها المنح الاستقلالية ، وبرهاناً على حسن نية بريطانية ، من حيث ان أعمال الغلاة القائمة على الرعب والهول والـكيد أصابتها صدمة كبيرة ولـكنها لم تنقطع انقطاعاً كلياً . وكانت زيارة الملك جورج للهند سنة ١٩١١ سبباً فى مد حبل الولاء والاخـلاص ، فارتاحت شبه جزيرة الهند الى هذه الزيارة واتخذتها فألا تيمنت به .

ولـكن كانت سـنة ١٩١١ منتهى الفترة التى ساد فيها السكون بعد العواصف التى توالى هبوبها من سنة ١٩٠٥ – ١٩٠٩ . ثم عاد الاضطراب يتجدد شيئاً فشيئاً بعـد سنة ١٩١١ لأن التأثير الذى كان قد حصل فى بدء الأمر بسبب لائحـة المجالس ، قد ذهب الآن وعفا . فغدا الشعور بالخيبة حاملا على التوسع فى المطامح والتطوح فى الآمال . والحقيقة ان العصبية الجنسية كانت هـذه السنوات مطردة الاشتداد ومتوالية الاتساع ، فبعد أفقها ورحب مضطربها ، فرسخ مستقرها واعتز نصابها ، فغدت الحركة الوطنية غـير مقصورة الشأن على الفئة القليلة المؤلفة من الغلاة ، بل انضوى تحت لوائها القادة المعتدلون مثـل المستر غوكهال وأمثاله الذين اعتزموا العمل فى سبيل ادراك الغاية الوطنية على طرق متدرجة ومناهج على مقتضى الحال ، ولـكن على كل حال كان من أمر هؤلاء المعتدلين الالحاح على الحـكومة بمساعدات جـديدة يتسع بها المجال للوطنيين فى تقلد الأحكام وولاية الأمور .
وكانت العلامة الـكبرى من علامات تعالى النهضة الهندية هو جنوح جانب من الرأى الاسلامى العام الى الأخذ بنصرة الحركة الوطنية . اذ أن المسلمين كانوا من قبل ذلك الحين أنشأوا « الميثاق الاسلامى الهنـدى العام » الذى كان يختلف بطبيعته عن منهاج الحركة الوطنية ، لان الغرض من انشائه فى المقام الاول هو الدفاع عن مصالح المسلمين ازاء ما كان يقدر عهدئذ من تفوق الهنـدويين واستفحال سلطانهم . ولـكن على توالى الايام طفق بعض المسلمين يرتجعون عن موقف المقاومة للهندويين . ويقلعون عن المشادة معهم خلافاً لمقتضى الميثاق الاسلامى ، وانقلبوا ينضمون الى معتدلة الوطنيين لـكن دون الاشتراك فى ايقاد الفتن والعبث بالأمن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعد ماقطع لهم معتدلة الهندويين

الوعود والعهود وأكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفى . وفى ذلك الحين كان رجال النهضة الوطنية قد انقسموا قسمين : المعتدلين والغلاة . أما الغلاة ، وقد نقم عليهم نظراؤهم ، فقد استمروا على الهياج والاثارة والقيام بحملات العنف والشدة ، وكان أكبر المديرين لوسائل هذه الحركات والأعمال هم القادة الغلاة المنفيين الذين كانوا لايفتأون ، وهم فى البلاد الأجنبية ، يبعثون دعاة الشغب والفتنة الى الهند فيقوم هؤلاء بتحريض أبناء بلادهم واستثارتهم مااستطاعوا الى ذلك سبيلا .

هكذا كانت الحالة فى الهند عند نشوب الحرب العامة ، وهى والحق يقال حالة ليس قليلاً مافيها من الشؤم والخطر ، ولكنها على كل هذا كانت اذ ذاك خيراً منها منذ عدة سنوات خلت . ومن المعلوم أن الحرب قد كانت سبباً فى زيادة القلاقل والأهوال ولكن على مقدار معلوم ، فظلت الهند على الجملة مدة الحرب العامة تجود برجالها وأموالها على غير انقطاع فى سبيل نصر الامبراطورية البريطانية ، فملأت الجيوش الهندية ميادين أوروبة وآسية وافريقية .

على أنه وان كانت الحرب العامة قد انقضت والهند لم تنشب فيها الفتن والثورات المصطلمة العامة ، فلا يؤخذن من هذا ان الحركة الوطنية كانت خامدة ساكنة تماماً أو انه قل السعى وراء توسيع نطاق الحكومة الذاتية ، كلا ثم كلا ، فان الحرب الكبرى ما كانت الا لتكسب الحركة الوطنية صولةً وبأساً ، وشدة وعنفاً ، فطفق الصراخ يتعالى واللجاج يتزايد طلباً لانشاء حكومة ليس يجب أن تكون صالحة فقط بل أن تكون بماهيتها وصفتها عند رضى رجال الحركة الوطنية وتنتهى اليهم . ولما كانت الهند قد برهنت فى الواقع على حسن ولائها للامبراطورية البريطانية ببذلها فى سبيلها النفوس والثمرات عن جود وسخاء فقد كان ذلك باعثاً على عود البحث فى منح الهند قسطاً أكبر وقدراً أوفر فى الحكومة الذاتية ، فطفق الرأى العام الهندوى على اختلاف أقسامه وطبقاته يرفع البرامج العديدة الى الحكومة البريطانية فى هذا الشأن ، فكانت جميع هذه البرامج المتنوعة أشبه بمنعكس ظهرت فيه صور العصبية الجنسية الهندية أجلى ظهور ، وكانت غاية الغايات التى رمى اليها الجميع واحدة : هى التحرر من الوصاية البريطانية تحرراً تاماً ، غير ان الاختلاف قد شجر بين أهل البلاد فى كيف ومتى يدرك هذا التحرر . أما أشد المحافظين فقد قصروا

أمرهم على طلب حكومة ذاتية خاضعة للارشاد البريطانى ، بينما غيرهم من الذين هم أوسع مطامح وآمالاً طلبوا نظام الحكم التام المعطى للاملاك المستقلة فى الامبراطورية البريطانية مثل أوسترالية وكندا . وأما أصحاب العنصر الثورى فقد ظلوا بعداء مصرين على أن العنف والشدة هما الوسيلة خير الوسيلة لادراك الغاية الوطنية أعنى بها الاستقلال التام .

ومن مقتضى مطالب المعتدلين القيام بتغييرات كبيرة فى نظام الحكومة الحالى ، والتقليل من السلطة البريطانية الى حد معلوم فى المواضع التى لم تغد عندها الحكومة الهندية الوطنية ناضجة كل النضج . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذه المطالب بروح العطف الدال على ابتغاء الاجابة والتوفيق ، والمنبئ باهداء المنح الاستقلالية فى المستقبل القريب . فى هذا الصدد قال نائب الملك فى الهند اللورد هاردنغ سنة ١٩١٦ : « اننى لأود الاخذ بنصرة هذا المطلب الذى تطلبونه من حكومة ذاتية فى الهند ، لأن هذا هو غاية وطنية شريفة . ان الحكومة الذاتية لهى مطلب حق صريح يعطف عليه و يشترك فيه جميع المعتدلين ، غير أن الحالة اليوم فى الهند تقتضى بطبيعتها النهج على سياسة عملية بعيدة من الغاية القصية . لذلك ينبغى لنا ان نستمسك جهدنا بما هو واقع محسوس ، ونعرض عن متطوح الآمال التى ليس من نتيجة التشجيع عليها سوى الابطاء والتأخير عوضاً عن سرعة التوفيق والفلاح فى ميدان السياسة . ومعلوم عندى ان هذا هو رأى العقلاء وارباب الحصافة والروية من رجال الهند . وليس هناك من هو أرغب منى فى رؤية آمال الهند الحقة الصريحة محققةً عما قريب ، من حيث انى أحاذر كل خطر ينجم عنه رد الفعل بانشاء النظم الجديدة التى يدل الاختبار على كونها سابقة لأوانها » .

وفى أواخر سنة ١٩١٧ قدم الهند من بريطانية المستر مونتاغو وزير الهند مبتغيا الوقوف التام على الرأى العام فى الهند بشأن قضية الاصلاح الدستورى ، فصرف عدة أشهر يباحث و يناقش و يكتنه و يستبطن ، و يعقد المؤتمرات الممثلة لجميع الاجناس والطبقات والأديان ، و بالتالى وضع تقريراً أودعه نتائج هذا الاستطلاع المدقق ، وقعه هو ونائب الملك فى الهند اللورد « شامزفورد » ، ونشر فى تموز (يوليو) سنة ١٩١٨

واشتمل هذا التقرير على بيان ميثاق يوضح جدارة أهل الهند لنيل المنح الاستقلالية مما يفوق جميع ما قد منحته بريطانية الهند من قبل ، و يبين صريحاً أن تمنح

الهند الحكم المعروف « بالحكم الوطنى » (Home Rule هومرول) فى المستقبل القريب ، وان هذه المنحة ليست تعد النتيجة الناشئة عن الاضطرابات الهندية ، بل عملا بمقتضى « الاعتقاد والوجدان المستقرين فينا » . ثم يتلو ذلك كلمات حق أن تكتب بماء الذهب ، ألا وهى : « اننا نعتقد اعتقاداً راسخاً ان قد حان الوقت الذى أصبحت فيه اطالة حمايتنا للهند لا يستطاع القيام بها دون ان نصيب حياة الهند ، الحياة القومية الوطنية بضرر وخطر ، وان لدينا الآن منحة لأهل الهند هى أثمن من جميع المنح المتقدمة منا لهم ، فان حياة أهل الهند باعتبارهم أمة صحيحة البنيان ، فى كنف الامبراطورية ، ليتمثل فيها شئ هو أنفس حقاً من سائر ما قد اكتسبته الهند فى الماضى ، وان السكون البادى على السواد الأعظم اليوم ليس بالتربة الصالحة التى تنمو فيها حياة الهند الجديدة ، فاستحثاثنا القوم من تلقاء أنفسنا ليتأهبوا لالقاء عصر جديد انما هو الخير كل الخير للهند » .

وصفوة التقرير بيان فى أن طراز « الحكومة المشتركة » يصلح اتخاذه قاعدة ومبدأ لتسوية القضية الهندية ، وهذا الطراز انما هو ضرب من الحكومة تقسم بمقتضاه النبعة الحكومية بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية وبين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية الاشتراعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم . أما السلطة الاشتراعية فينتخب أعضاؤها انتخابا على نطاق تغدو فيه حقوق الانتخابات رحبة وافية الى حد لم يعرف من قبل ، وتخول المجالس الاشتراعية سلطة كبيرة واسعة ، اذ فى الماضى لم تكن سلطة هذه المجالس لتزيد الا القليل على سلطة المجالس الاستشارية ، أما الآن فانها معتبرة بمقتضى التقرير اشتراعية تامة الصفة بالمعنى الغربى الصحيح ، على كون سلطتها لم تزل محدودة فى مواضع أخصها المالية التى ظلت القوة التنفيذية تحتفظها احتفاظا يكسبها الكلمة العليا والقول الفصل فى بعض الشؤون ، وبهذا لا يكون هناك شئ من توازن السلطات ، بل تكون كفة الراجا البريطانى هى الراجحة أبداً على ماسواها . ثم يبين التقرير أن هذا المنهاج الحكومى لن يكون أبدياً ، بل انما هو بدليل شكله وظاهره وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة الراجوية الى الحكومة الوطنية ، أو هو أشبه بمدرسة يتخرج فيها الشعب الهندى المدة المقتضاة ، حتى اذا ما نال

قسطه من الخبرة والمران ، واستوفى ما ينبغى أن يكون عليه من الحنكة والمراس ، واقتبس ما فيه الكفاية من هذه الدروس الأولية فى الحكومة الذاتية ، منح حكومة نيابية تامة الجهاز كاملة الشرط بوسعها وطاقتها ليس الاقتدار على المباشرة والانشاء والاشتراع فحسب ، بل أيضاً القبض التام على أزمة السلطة التنفيذية وتسيير دفتها .

ثم بات التقرير موضوع البحث والمناقشة المدققة فى الهند وبريطانية . وبالوقوف على مادار حول شأنه من مختلف المباحثات وضروب الأقوال ، تتجلى لنا ماهية القضية الهندية مع ما هى عليه من التناقض والتباين . أما رجال النهضة الوطنية فقد ذهبوا حينئذ مذهبين مختلفين الأول مذهب المعتدلة الذين ارتاحوا الى التقرير ارتياحا ووافقوا على محتواه ومقترحاته ، وأيدوا ما تضمنه من المنهاج الحكومى وشرعوا يعضدونه عضد المعاونة والولاء ، والآخر مذهب الغلاة الذين مالبثوا أن فندوا التقرير تفنيداً شديداً وقالوا ان مقترحاته ليست الا احبولة وشركا . وصرح المعتدلة صفة حالهم ببيان أصدروه موقعا من زعمائهم وقادتهم ، وفى طليعتهم الاقتصادى الهندى المشهور « السر دانشوواشا » ، ومما جاء فى هذا البيان : « ان المنهاج المقترح فى التقرير هو أشبه بصورة مركبة الأجزاء بعضها قابل للتحسين والترقية ولا سيما القسم الأعلى منها ، والمنهاج مع ذلك يحسب مشروعا ظاهراً فيه التقدم والتحسن ، ومن شأن الاصلاحات المقترحة فيه أن تمهد السبل للاقاليم الهندية للوصول يوما الى غاية الحكومة النيابية التامة . وعلى الجملة ففى هذه المقترحات من صدق النظر وروح العطف على الآمال الهندية ما يستحق به صاحبا التقرير الكفيان الاشهران ، شكر أهل الهند وامتنانهم » . وكان تفنيد الغلاة للتقرير شديداً جداً ، وقد جهد بهذا زعماؤهم وقادتهم ، فقال المستر تيلاك : « الاعتصام الاعتصام بالغاية التى وضعها نصب عينيه المؤتمر الهندى الوطنى » . وقال المستر بين شندر پال : « لن أحول عن رأيى الصريح وهو أن ما قبل بهذا المشروع المقترح ونفذ فان الحكومة ستصبح يومذاك أشد عنفا واستبداداً منها اليوم » .

ومما هو احرى بالاطلاع عليه هو اعتراضات الاحزاب المقاومة للحركة الوطنية ، ولا سيما الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوية الدنيا ، اذ أن من الأمور الدالة على شدة تعقد القضية الهندية ومناقضة بعض وجوهها لبعض هو خشية الملايين العديدة من الهنود

للحركة الوطنية أشد خشية ، واتخاذهم حكم الراجا البريطانى مجناً يتقون به اضطهاد رجال الوطنية وعسفهم وتسلطهم . أما المسلمون الهنود فكانوا لم يبرحوا على خلاف شديد فيما بينهم فى شأن قضية الحكومة الذاتية . وكانت الفئة الكبيرة فيهم تمقت الحركة الوطنية وتحذرها لما اكتسبته بالتالى من الصبغة الهندوية الحاملة على التعصب ، غير ان جانباً منهم أى من المسلمين أخذوا شيئا فشيئا يجنحون الى مناصرة الحركة والجهد فى سبيلها ، كما سبق لنا بيان هذا ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً فاحشاً طول الحرب العامة ، فجعلت العرى بين العنصرين تتوثق ، ولكن ما كان السبب فى هذا التآخى الاسلامى الهندوى مقصوراً على رغبة المسلمين فى نيل الحكومة الذاتية بل لأنهم فوق ذلك قد ابتغوا مقاومة دول الحلفاء فى سياستها التى وضعتها وطفقت تتمشى عليها لاقتسام الامبراطورية العثمانية واشعال الشرقين الادنى والاوسط [1]، لذلك أمسى الوطنيون الهندويون على استعداد شديد لمقاسمة المسلمين شعورهم فى الشؤون الاسلامية الخارجية فنجم عن جميع هذا ان استحكمت عرى الولاء بين الهندويين والمسلمين استحكاماً ، وتأكدت روابط الاتحاد بين العنصرين تأكداً ما عرف له من شبه من قبل .

وتدل الحال التى بلغ عندها اعتزاز الطوائف البرهمية بالحركة الوطنية اعظم مبلغ ، على أن المقاومة التى قامت بها الطوائف الهندوية الدنيا للحكم الهندى الوطنى (هومرول) هى فى الواقع عظيمة . فاشتد وجل هذه الطوائف حتى حسب أهلها انهم كادوا يخسرون الحماية التى هم حاصلون عليها اليوم فى ظل الراجا البريطانى ، فتقضى بهم الحال اذ ذاك الى معاناة الذل والاقامة على الضيم والقهر ، وذلك مما لا ريب فيه متى ماعاد الاستبداد البرهمى الى الكيان وهو كما لا يخفى استبداد الطوائف العليا . فدعاهم ذلك كله الى اتخاذ وسائل الذياد عن حماهم ، فألفوا جمعية دعوها « الناماسودرا » وسلموا زعامتها والقيام على شأنها الى رجل كبير مشهور من آحاد رجالهم هو الدكتور ناير [2] ، فاخذت هذه الجمعية تبين وتوضح ما سيقع من البغى والاستبداد البرهمى اذا ماتسنى لأهل الطوائف البرهمية العليا القبض على أزمة الأحكام فى البلاد ، مستدلة بما هو واقع فى الحال على ما هو

---

(١) كما سبق لنا بيان هذا فى الفصل الخامس .

(٢) ذكر فى الفصل الرابع .

متوقع حدوثه فى المستقبل ، مثال ذلك قولها : « ان البرهميين قد أفشوا فى رعب المنتخبين (بكسر الخاء) من الطوائف الدنيا فى عدة مواسم انتخابية وهددوهم شر تهديد بأن ينبذوهم من مراتبهم الطائفية نبذاً ان تقاعسوا عن انتخاب المرشحين البرهميين من الطوائف العليا ، فاذا كانت هذه صفة الحال اليوم فكيف تكون غداً اذا ماتم للبراهمة الاستبداد فى مجال أوسع ونطاق أرحب ، فيفقد « الپارياه » المنبوذون اذ ذاك كل حق فى المجتمع الهندوى » .

فهذه الاعتراضات التى قام بها اقسام كبيرة من أهالى الهند مقاومة للحكم الوطنى «هومرول» المقترح فى التقرير ، كان من شأنها انها استرعت انتباه عدد كبير من الانكليز أهل الاضطلاع فى القضية الهندية الذين كانوا قد كشفوا عن قناعتهم واعتقادهم فى استعداد الهند للحكم الوطنى ، من حيث انها قوّت حجج طائفة عظيمة من الانكليز ، ولا سيما أولئك المتهندين [انجلو انديان] القائلين بان الهند ليست الى الآن ناضجةً نضجاً كافيا لنيل الحكومة الذاتية . قال أحد أصحاب هذا الرأى فى مجلة (Round Table) «المائدة المستديرة»: «ان الحشوة من أهل الهند لايحفلون البتة بشؤون السياسة ولا يفقهون شيئا من الحكم الوطنى . بل انهم يؤثرون البقاء فى ظل قضاة الصلح الانكليز على كل شئ سواه وهذا الأمر هو مبتغاهم أبداً ، وهم واثقون كل الثقة بالانكليزى لأنه كان دوماً « حامى الضعفاء » لايحابى هندوياً ولا مسلماً وقد عرف بالنزاهة والأمانة » . وقال اللورد سيدنهام فى نقد مسهب فند فيه مقترحات تقرير مونتاغو شلمز فورد : «ان هناك نقائص عديدة فى منهاج حكومتنا فى الهند يحمل على الاصلاح الواجب أن يقدم على قاعدة المصلحة لجميع سكان الهند بدون تمييز . ولكن اذا مانفذت سياسة « استحثاث القوم من تلقاء أنفسنا لكى يتأهبوا للقاء عصر جديد » ، كما يقول نائب الملك فى الهند ووزيرها فى بريطانية، واذا ماانتشر النبأ فى الزوايا المتهامسة فى الشرق ان تلك السلطة الوحيدة الكافلة لسير القانون والنظام والآخذة للامة الهندية بيد المعونة فى سبيل الارتقاء المتدرج ، قد وهنت وتضعضعت ، قضى بذلك على المصالح العامة القضاء المبرم ، فعادت الاحن والأحقاد تشتعل جديداً ، ثم يكون على الأثر رد فعل عظيم تقوى به البراهمة ـ وتذهب به جميع الترقيات والأعمال الشريفة التى قام بها الانكليز فى الهند » .

على أن هناك كثيراً من ثقات الانكليز المضطلعين فى الشؤون الهندية ، ذهبوا يؤيدون مقترحات التقرير و يبينون ماهى عليه من الحكمة الصادقة و يلحون على الحكومة طالبين أن يشترع البرلمان قانوناً لها و يضع نظاماً لتنفيذها هذا اذا رامت بريطانية حقا اتقاء الاخطار العظمى والبلايا الكبرى . وكان زعماء هذا الرأى والمذهب هم مثل ليونل كرتس والسر ڤالنتين تشيرول [1] فقال هذا الأخير : « انه لمن عزم الأمور ألا يؤخر العمل على مقتضى مقترحات التقرير ، فلنتعظ ولنعتبر بما قد جرى حتى اليوم فذلك لعمرى كاف أن يحملنا على الانتباه لمخاطر التسويف والارجاء . أيا ترى يغيب عنا بعد جميع الذى جرى ان الزمان اليوم فى الهند كما فى سائر المشرق أصبح أكبر معين وأعظم عامل على انفجار براكين الفتن ؟ . . . ليس بوسعنا البتة ان نأمل التوصل الى توفيق مُرض بيننا و بين الغلاة ، فجل مانستطيع الامل فيه هو ان نطاق لأهل الهند قواهم الحيوية من اغلالها ، تلك القوى المرتقبة يوماً فيوماً الافلات من أسرها ، فتنطلق فى سبيلها وحبلها على غاربها ، فتأخذ بالجد والانكماش فى العمل ولها من نفسها مسيطر عليها » .

و بالتالى قبل البرلمان البريطانى بتقرير مونتاغو شلمز فورد قاعدة للبحث والمناقشة وفى أواخر سنة ١٩١٩ اشترع البرلمان مقترحاته قانوناً رسميا ، بيد انه خلال المدة المنقضية منذ نشر التقرير الى اشتراع مقترحاته ، وهى ثمانية عشر شهراً ، قد تبدلت الحال فى الهند انكد الطالع تبدلا هائلا وانقلبت انقلاباً عظيماً فاربدّ الجوّ وعادت الفتن والثورات تنفجر ونيران الكوارث تندلع فى طول البلاد وعرضها ، ففاقت جميع ماعرف من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٩ .

والاسباب فى ذلك جمة . ففى المقام الاول شرعت جميع العناصر الوطنية الشديدة السخط على التقرير تستثير أصحاب المنازع الثورية وتحرضهم على استئناف أعمال الهول والرعب ، ولعل الغرض من هذا كان حمل البرلمان البريطانى على التوسع فى المنح الاستقلالية ونطاق الحكم الذاتى فوق ما اشتمل عليه التقرير من المقترحات والمرامى . وهناك من الاسباب ماهو أعم صفة . ذلك ان سنة ١٩١٨ انما كانت سنة بلايا ورزايا طبقت الهند من أقصاها الى أقصاها ، فاجتاح وباء الحمى الصدرية الهند اجتياحاً ، وفتك بأهلها فتكا

(١) Lionel Curtis . Sir Valentine Chirol.

ذريعا وجرف نحواً من ٧٠٠٠٠٠٠ نفس . ثم قحطت الهند قحطاً شديداً باحتباس الامطار عنها ، فاضمحلت الحاصلات والغلال ، فانتشرت المجاعة وطغت شقوتها على البلاد . ثم جاءت سنة ١٩١٩ فكانت شراً من أختها الغابرة ، وافدح بلوى وأشدّ قحطاً وسغبا ، وقرر أهل الخبر صيف السنة الماضية ان خلقاً عظيما ذهبوا فريسة المجاعة وان ملايين من الناس سواهم أمسوا على شفا جرف الهلاك . ثم جاءت الحرب الافغانية تزيد البلاء بلاء ، فالتهبت البلاد عند الحدود الشمالية الغربية ، وانقلبت بؤرة شديدة السعير ، فازداد هياج المسلمين وعظمت نقمتهم الى حد يقصر دونه الوصف .

فكانت نتيجة جميع ذلك ان طبقت الهند عواصف الفتن ، وعانت السلطة البريطانية الأمرين من هذه الأحوال . فعينت بريطانية لجنة للقيام بالتحقيق فى ماهية الهياج الهندى العظيم ، فقامت اللجنة بمهمتها ووضعت تقريراً فى صفة الحال موقعا من رئيس اللجنة القاضى « رولاط » صور فيه عظمة الاضطراب الظاهر مظهر الثورة تصويراً جامعاً مانعاً . ومما ذكر فيه ان العدو الأكبر لبريطانية ليس هم شبان الطبقات العليا المتهذبين المتواثقين بعضهم مع بعض فى إشعال الحركة الفوضوية ، بل ان معظم الجند قد أضحى يخالطهم رجال عسكريون وغير عسكريين يدأبون على القيام بالأعمال الوطنية تحت ستار الجندية ، وذكر أيضا ان الأمر الأخطر هو ان هناك دلالة واضحة على جعل القوى الجندية الوطنية تخرج من طاعة الانكليز فتنحاز الى جانب الوطنيين . ثم بين صاحب التقرير فى النهاية ان جميع ذلك يقتضى سنّ قوانين جديدة تكون غاية فى الحزم والشدة تداركاً للخطر واتقاء للويل .

وإذ أيقنت حكومة الهند باهمية البيان الذى اشتمل عليه تقرير اللجنة ، وضعت مشروعا لسن قانون سمته رسمياً « بقانون الجنايات الثورية والفوضوية » ولكن شاع ذكره باسم « لائحة ارولاط » وخول هذا القانون الحكومة البريطانية سلطة فائقة عظيمة ، كحق التفتيش فى المنازل والبيوت والقبض على من يشتبه بهم أقل اشتباه انهم من أهل السجس والاضطراب على غير مبالاة بالتثبت أو اجراء التحقيق .

فهاجت لائحة رولاط هائج الوطنيين فهبوا يقاومونها فزاد المرجل غلياناً وبحر الهرج والمرج ارغاء وازباداً . وقام الغلاة والمعتدلون يفندون اللائحة تفنيداً ويحسبونها رجوع

القهقرى وباعثا على ازدياد الفتنة . ولما جئ باللائحة للبحث فيها فى المجلس الاشتراعى الهندى ، أى المجلس الاشتراعى الامبراطورى ، هب جميع الأعضاء الوطنيين يعارضون اجازة اللائحة أشد المعارضة ، ولكن الحكومة تمكنت بالتالى من اجازتها بعد احتدام الخلاف مستعينة بأصوات الأكثرية الانكليزية المعينين تعييناً . وحسبت الحكومة اجازة هذه اللائحة ضربة لازب لامناص لها منها ، لكى يتسنى لها بها حفظ النظام والأمن. وفى ربيع سنة ١٩١٩ اشترعت اللائحة وصيغت قانونا رسمياً .

فازدادت الحال شدة . ودعا الوطنيون هذا القانون « بقانون الأفاعى السوداء » ، واشتعل السخط من كل جانب . وطفق الغلاة يقومون بحملات الاحتجاج المستطير من لهب النقمة والعداء . وارّخ أهل الهند اليوم الذى اشترعت فيه هذه اللائحة قانوناً ، وهو السادس من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٩ ، بأنه « يوم الذل الوطنى » . وفيه اجتمعت الخلائق ألوفاً مؤلفة لايحصيها عد اجتماعات كبيرة ، وقام فى الجموع المتراصة الخطباء الوطنيون يستثيرون الناس بالخطب الهائجة المفزعة ويشعلون صدورهم بنار حماسية مستعرة . فكان « يوم الذل » فى الواقع شر يوم عرف باستفحال الفتن الشديدة منذ ثورة العصيان سنة ١٨٥٧ . فعاد الرعب والهول يطبقان الهند ولاسيما فى الأقاليم الشمالية ، فاغتيل الموظفون ورجال الخدمة المدنية من الانكليز ، وانتشر التخريب والتدمير ، كأن ليس لمرجل الهند الغالى من سكون .

ومضت الحكومة تستقبل الخطوب تترى والفتن المتوالية رابطة الجأش . تخمد وتسكن بيد من حديد ونار . فانطلقت بنادق الحكومة البريطانية ومدافعها الرشاشة تحصد الخلائق حصداً ، وطفقت أسراب الطيارات تملأ الفضاء سابحة جيئة وذهاباً تمطر الجماهير سحب القذائف ومزن المفرقعات . ومن أشهر هذه الحوادث الهائلة « مذبحة أمرتسار » حيث هجمت الجنود الانكليزية بالمدافع الرشاشة على جمهور كان محتشداً احتشاد القائمين بالفتنة فحصدت منه النيران ٥٠٠ نفس وجرحت ١٥٠٠ نفس فى لمحة بصر . ولم تستطع الحكومة تهدئة الحال الابشق الانفس ، فعاد النظام الى مجراه وزجت الحكومة قادة الفتنة فى السجون ، فباتت الفتنة ساكنة ولكن سكون النار تحت الرماد . وكان اشتراع البرلمان البريطانى لتقرير مونتاغو شلمز فورد الاصلاحى أواخر السنة عاملا فى استرخاء حلقات

الضيق والشدة وممكناً من نيران الغضب والسخط ، ومع ذلك فقد ظلت الحال عصيبة اذ لم تعد جميع المياه الى مجاريها ، لأن الحوادث المشؤومة التى حدثت أوائل سنة ١٩١٩ كان من شأنها أن هاجت الاحن والشحناء والأحقاد هياجاً شديداً لاانطفاء له ، فباتت العناصر الثورية من تحت الغطاء أشد عنفاً ومراساً ، وظل المعارضون المقاومون للحكم الوطنى مستمسكين باعتقادهم ان الهند ليست بالجديرة لذلك الحكم اذ متى ما تقلص ظل الحكومة الراجوية المطلقة عادت الفوضى الى الانتشار .

لهذا انقلبت الحال غير صالحة للقيام بتنفيذ الاصلاح المقترح فى تقرير مونتاغو شلمز فورد . فهب الغلاة يقاومون تنفيذ مقترحات التقرير قائلين ان الاصلاح انما هو شرك يجب اتقاؤه ولو عانت الهند فى سبيل ذلك ماعانت . ثم أخذوا يبتغون ادراك الغرض ، ولما كانوا يعلمون أن الثورة المسلحة غير مستطاعة لديهم ولاسيما فى حال مثل تلك الحال ، عمدوا الى الذريعة الجديدة المعروفة «باللاتعاون» ، وهى فى حقيقة معناها مقاطعة شاملة بانة «هائلة» لكل شئ بريطانى أو عليه سمة بريطانية . ولم تقف المقاطعة عند هذا الحد ، اذ تجند لها المنتخبون فقاطعوا الانتخاب للمجالس الجديدة ، والمحامون وأرباب القضايا فقاطعوا المحاكم والمكلفون فامتنعوا عن تأدية الضرائب ، والعمال فاضربوا عن العمل ، والتجار فرفضوا تعاطى البيع والشراء بالبضاعات الانكليزية ، والطلاب فانقطعوا عن المداومة على المدارس والكليات . وكان الغرض من هذه المقاطعة مضايقة الانكليز على هذه الطريقة حتى تتدلى منزلتهم فى الهند فيصبحوا ضرباً من « البارياه » المنبوذين ، فيضيق الأمر بالحكومة البريطانية والجاعات البريطانية من شدة الاعتزال ، ويغدو الراجوات ضعاف القوة والسلطة قليلين بأنفسهم ، فيضطرون الى اجابة الغلاة الى مطالبهم وينزلون على حكمهم فى شأن الحكومة الذاتية التامة .

هذه غاية اللاتعاون . ثم سرعان ماانبرى للسعى وراءها والجهد فى سبيل نشرها زعيم كبير مقتدر هو (موهانداس كارامشودغاندى) الذائع الصيت والذكر المشهور بشدة ورعه وتقواه . فقد استطاع هذا الزعيم العظيم ان الهب الطوائف الهندوية بأسرها ناراً دينية ، مماعتاد اضرام مثله نساك الهنود ومتقشفتهم الذين على هذا الطراز . ويمكن القارئ أن يقف على ماهية الدعوة التى قام بها غاندى بالاطلاع على هذا المقتبس التالى وهو من احدى

خطبه التى خطبها فى الناس : « انه لمن العجب العجاب بقدر ماهو داع للذل والصغارة ، أن يستطيع أقل من ١٠٠٠٠٠ من الرجال البيض أن يتحكموا فى ٣١٥٠٠٠٠٠٠ من الهنود . أجل ان البريطانيين يستطيعون هذا بالقوة الغاشمة العمياء ، ولكن على الاغلب بما ينالونه منا من التعاون الذى يستفيدونه بالوف الذرائع والوسائل ، وباستنفاد حولنا وقوتنا كيما نصبح عالة عليهم فى كل أمر من أمورنا وشأن من شؤوننا على مضى الأيام وكر السنين . اياكم ثم اياكم الوقوع فى أشراك هذا الاصلاح فتحسبونه سِمَنا وهو ورم وماء وهو سراب . اياكم ثم اياكم اوثوق بهذه المجالس الاشتراعية والمحاكم القضائية وكراسى الأحكام فتبيعون بذلك سلطتكم الحقيقية التى هى نصاب حريتكم واستقلالكم . ان جميع هذه الذرائع التى يتوسل بها الانكليز معنا إن هى الا مستدرجات لاحتلاب قوتكم وأيدكم ، واستنزاف دمائكم وامتكاك عظمكم . ان البريطانيين لا عجز عن ان يحكمونا بعد بالقوة ، فلذلك ترونهم يلجأون من وسيلة الى أختها سواءٌ كانت شريفة أم شائنة ، لكى يتسنى لهم البقاء فى الهند . اعلموا أن الانكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثمراتنا والانتفاع بقوة رجالنا واولادنا كل ذلك فى سبيل جشعهم الامبراطورى ونهمتهم الاستعمارية . فاذا كنا ما يجب علينا أن نكون من العصبة المستمسك بعضها ببعض ، وأبينا ثم أبينا امدادهم بما يريدون منا من المال والرجال ، استطعنا ادراك غايتنا الكبرى الا وهى : السوراج (١) والمساواة القائمة على صدق المروءة

على ان الغايات التى قد ابتغاها الغلاة من حركة اللا تعاون لم تتحقق كلها فشرع فى تنفيذ الاصلاح المقترح فى تقرير مونتاغور شلمز فورد ، وأجريت الانتخابات الاولية على مقتضى التقرير أوائل سنة ١٩٢١ . غير ان الظواهر بعيدة بعداً كبيراً من الدلالة على استقرار نصاب الحال ، اذ لم يكد يشرع فى الانتخابات حتى ظفقت مؤثرات الحركة اللاتعاونية تظهر عاملة عملها بآلاف من مختلف الوسائل ، تبتدئ باضراب العمال فى المعامل وتنتهى باضراب الطلاب عن المدارس والمعاهد العامية . فالهند اليوم انما هى فى مخاض شديد ليس فيها الا الفتنة والاضطراب . والامر الاحرى بالاعتبار ان ليس هذا الغليان الهائل مقصوراً على الافق السياسى فقط ، بل يتناول الأفق الاجتماعى كذلك . فان التطورات

(١) معناها الحكومة الذاتية فى مراد الغلاة ثم شاع استعمالها فى الهند بمعنى الاستقلال .

الاقتصادية الكبرى التى لم تنفك تزداد وتنتشر فى الهند منذ نصف قرن الى اليوم ، قد نقضت هيكل المجتمع الهندى نقضا عاماً فتبدلت الأرض غير الارض . وسنتكلم على هذه التطورات فيما يلى من الفصول ، والأمر الذى ينبغى لنا استيعابه فى هذا المقام هو ان القادة الغلاة لعلى جد فى اضرام الثورة الاجتماعية وبلا ريب على صلة بروسية البلشفية ، زد على ذلك ان عوامل الانشقاق القديمة الأصل لم تضمحل بعد ولا تلاشت ، فان المذبحة الاخيرة التى ذبح فيها المتعصبة من طائفة السيخ أهل الجماعة حجاج السيخ المنشقين عن الجماعة ، والفتنة المثلثة التى نشبت فى تلك الآونة بين الهندويين والمسلمين والنصارى الوطنيين فى الهند الجنوبية ، جميع ذلك يدل على ان نار التعصب الدينى والجنسى لم تبرح كامنة . وصفوة الكلام ان الهند اليوم هى أشبه بميدان تتصارع فيه قوى التطورات والانقلابات : النشوئية المتدرجة ، والثورية الهائلة . القديم يموت ويفنى ، والجديد يظهر الى الوجود ولكن لم يتكامل بعد : هذه صفة الحال العامة فى الهند اليوم ، جومربد وانقلاب عظيم ، فول وجهك شطر المستقبل فسبحان علام الغيوب .

الفصل السابع
فى
التطور الاقتصادى

من أعظم الواقعات وأدعاها للعجب فى تاريخ العالم الحديث ، هو فتح الغرب للشرق فتحاً مزدوجاً . فكلمة «فتح» قد شاع استعمالها بالمعنى السياسىّ بحيث يتصور من ذلك زحف واستيلاء ، وجيوش معبأة وعساكر منظمة تدوخ بلاداً أجنبية وتخضعها لسلطان غريب . وظاهر لايحتاج الى بيان ان مثل هذه الفتوح السياسية قد تكررت فى الشرق وتعدّدت ، وقد رأينا فيما تقدم من الكلام كيف كانت الممالك المنحطة فى الشرقين الأدنى والأوسط تتساقط خلال القرن الماضى الواحدة تلو الأخرى أمام الدول الغربية ذات الحول والطول والقوى القاهرة المسلحة .

على ان الأمر الذى يجب النظر فيه هو ان هذا الفتح السياسى قد كان يماشيه جنبا الى جنب فتح اقتصادى أعمّ عدة من ذاك وأوسع مضطرباً وحدوداً ، وقد قدر له أن يكون سبباً فى تطورات جمة أشد فعلاً وأرسخ حالا وصبغة .

وأما السبب الأصلى فى هذا الفتح الاقتصادى فهو بلا مراء الثورة الصناعية فى أوروبة فى القرن الماضى . فانه مثلما اكسبت الاسفار البحرية التى قام بها كولومبوس ودى غاما أوروبة السيادة على الاقيانوس ثم تلت ذلك السيادة السياسة على العالم طراً ، فهكذا قد كان شأن الاختراعات الفنية التى كانت ما بعد القرن الثامن عشر علة الثورة الصناعية ، فانها قد أكسبت أوروبة السيادة الاقتصادية على العالم بأسره . وقد كانت هذه الاختراعات فى الواقع بشيراً بعصر جديد من عصور الرياد والاستكشاف ، ولكن ليس فى مجاهل الأرضين وأبكار الاقطار ، بل فى آفاق العلوم وممالك الفنون . فكانت النتائج فى هذا العصر عصر الاختراعات أعظم وأجل من تلك التى حصلت فى عصر الاستكشافات الجغرافية منذ ثلاثة قرون خلت ، لانها جعلت بنى عرقنا وقومنا ذوى سيادة

فوق قوى الطبيعة بحيث كان من شأن الانقلابات الكبرى التى حدثت فى الحياة الاقتصادية على الاثر ان بدلت وجه العمران تبديلاً تاماً وغيرت صورته من حال الى حال .

ان هذه الانقلابات العظمى هى بلا ريب مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم . فان ارتقاء الانسان المادى كان لم يبرح حتى ذلك العهد سائراً سيرا متدرجاً بطيئاً ، واذا استثنينا البارود الذى كان معروفاً من قبل نرى الانسان كان لم يزل على حال تكاد لم تتغير منذ عصور متطاولة وأحقاب مديدة ، اذ لم يكن هو قد شد الى تذليل القوى الطبيعية رحاله بعد ، ولا استطاع ان يفوق أجداده الاقدمين فى التسلط على قوى المادة ، فالمركبات والعجلات التى كانت شائعة فى عصر أجدادنا لم تكن لتختلف عن تلك التى كانت فى عصور المصريين الاولين ، وأيضاً السفن الشراعية كانت كالسفن التى كانت معروفة فى العالم القديم من قبل الحرب التروادية ، فالصناعة الاوروبية قبل القرن الماضى كانت قائمة على قوة عضل الانسان والحيوان ، وعلى الريح وقوة انحدار الماء ، واذا بالحال تطورت فجأة تطوراً تاماً هائلاً ، فظهر البخار والكهربائية والبترول واللاسلكى ، فبدأ الانسان يكون جباراً يسخر القوى الطبيعية المخبوءة ، ويقرب الابعاد ، ويضع يده على مناكب الكرة الارضية ، ويخرق جبالها ويتغلغل فى احشائها ، ويذللها ويروضها فى سبيل مصالحه ومنافعه ، ولم يزل يصارع قوى الطبيعة حتى ظهر على الكثير منها ، ثم رأى نفسه فاذا هو بعالم مادى جديد ما كان ليعرفه من قبل ، مختلف عن ذاك السابق اختلافاً لم ينحصر فى الحيز والحد بل جاوز ذلك الى النوع والصفة .

نقول الانسان انما بات فى عالم مادى جديد ، ونعنى به انسان القرن التاسع عشر ، أو الرجل الابيض ابن أوروبة هو وجالياته التى انتشرت فى الارض وجعلت تنشئ لها طوارئ ما وراء البحار ، اذ ان المبتدع لاسباب هذا الانقلاب والتطور والاختراع هو ثم هو دماغ الانسان الاوروبى الابيض الذى كان المجلى فى حلبة هذا الميدان والجانى للطيبات والخيرات قبل غيره من سائر الانسان ، على انه قد كان لهذا العصر الجديد ميزتان هائلتان : هما نشوء الصناعة الآلية التى طفقت بها المنتجات الصناعيّة تتدفق تدفقاً جاوز الغاية واستغرق الحد ، وترقى وسائل النقل وشيوعها ورخص أجورها . فهذان العاملان قد زادا زيادة فاحشة فى القوة الاقتصادية واستفحال الثروة فى أوروبة التى غدت منذ

ذلك العهد مصنع العالم غير منازع . وفى الواقع انما كانت أوروبة خلال القرن التاسع عشر تنتقل من عهد كانت فيه القارة شبه زراعية الى آخر أصبحت فيه معملاً صناعياً هائلا ملؤه الارزاق ورؤوس المال والعمال ، منه أخذت تصدر البضاعات والسلع والامتعة على اختلافها مقادير عظيمه الى كل حدب وجهه فى الارض ، واليه تجلب ارزاق جديدة من المواد الخام لتحوّل وتصنع وتبادل .

هكذا كانت حالة الغرب الثائر ثورته الصناعية لماوقف ازاء الشرق المتقهقر المتضعضع الساكن الحركة فى حياته الاقتصادية فضلاً عن السياسية وفنون الحرب . ولا عجب فالشرق كان إذ ذاك فاقداً للصناعة والتجارة بمعنييهما المعروفين عندنا اليوم ، وما كان له من حياةٍ اقتصادية على الجملة فانما كان قائماً على الزراعة . وبهذا الاعتبار كانت الوحدة الاقتصادية هى القرية أو البلدة القائمة على عول نفسها بنفسها حتى كادت تكون فى عزلة عن غالب جوارها . وأما الصناعات والمهن والحرف فى الشرق فقد كانت يدوية ، يقوم بها قليل من أبناء الفن أو الصنعة يشتغلون فى الأكثر كل بمفرده فى نطاق ضيق الحدود . وكان الجانب الأكبر من منتجاتهم النفيسة النوع فى الغالب ، حاجات كمالية تستنفد فى سبيل التنعم والترف ، تصنع على طرق بطيئة وأساليب قديمة بحيث ان الكمّ المنتج كان على مقدار معروف ، وأسعاره فى السوق غالية بالاضافة اليه . لهذا السبب ما كانت المنتجات الاسيوية ، على نزارة الاجور وقلة النفقة ، لتستطيع مباراة البضاعات الأوروبية والأميركية المصنوعة بوسائل الآلات والزاخرة فى أسواق العالم المختلفة ، بل كانت فوق جميع هذا مخسرة وكاسدة فى الأسواق الشرقية الوطنية .

على أن عدم استطاعة الشرق مباراة الغرب مباراة صناعية لم يكن كل السبب فيه قلة كفاية فى طرق الانتاج وجمود فى أساليب الصناعة ، بل ان ذلك ليشتمل على أسباب أخرى ، وعوامل ليس شأنها بقليل ، كحالة العمال العقلية وقلة رؤوس المال ، إذ أن الحياة الاقتصادية فى جميع الشرقين الأدنى والأوسط كانت قائمة على قاعدة الارتضاء بهذا الحال وابقاء القديم على قدمه . أما القواعد الاقتصادية الغربية فى العقود الكبرى وفى المنافسة والمزاحمة لم تكن فى الواقع معروفة ، فالزارع وذو الحرفة والمتفنن والصانع جميعا كانوا لا يجيدون مصنوعاتهم زيادة على القدر الذى أخذوه عن معاميهم بحيث وهم هذا شأنهم

لا يحيدون قيد فتر عن طريق التقفو لآثار أسلافهم ومتقدميهم ، مرددين القول انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . لذلك لم يكن هناك من عامل المزاحمة ولا من داعى التفوق ما يحمل على الاجادة والتحسين و زيادة التعشق والابداع . وقد كادت الاجور تكون دوما لازمة مضطربا لا تعدوه ، فلم يكن من رغبة فى ترقية أساليب الحياة ولا فى طلب المزيد من الرخاء والرفاهية ، وكانت الصناعات جميعها نمطية مماثلة النهج لا تخرج عن حد المشابهة والمحاكاة ، بحيث كان جميع همّ الصانع المتخرج أن ينسج عن منوال مخرجه دون أن يشحذ فكره فى تحسين آلة أو اختراع أخرى أو ترقية أسلوب أو استنباط جديد حتى يتسنى له بذلك تسهيل عمله وتوفير انتاجه ، بل كان عوضا عن أن يجد ليجنى المرابح والمكاسب مما يمهد له طريق التقدم والترقى ، منكباً على اتباع السبيل الذى اتبعه آباؤه وأجداده من قبل ، وفوق جميع هذا كان فى غالب أمره على نزوع الى تقديس هذه السبيل المورونة تقديسا يكاد يكون دينيا اقتداء بأسلافه الذين هكذا كانت حالهم أعصراً وقرونا ، غير مريد الحيدة عن أخذ اخذتهم ، ولا متحولا عن قفو سبيلهم لازيادة ولا نقصان ، راعيا وكاتما لأساليب صنعته أو فنه حاسباً ذلك كأنه من مقدسات الأسرار ومحرمات الاستار .

أما الفئة القليلة التى اشتملت على الأشداء الأحرناء المقادم الذين كانوا من الهمة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والأوضاع القديمة البالية ، ويبتغون الخروج مما تقيدوا به حقبا وأجيالا ، فكانت قلة رؤوس المال تحول بينهم و بين مبتغاهم ، وتثنيهم عن ولوج الباب الذى يرومونه لأن رؤوس المال الفياضة، السهلة الانتقال من موضع الى آخر، المرصدة للأعمال المدرارة خيراً ، والمشروعات الوافرة ريعا ، لم تكن فى الشرق . لأن الشرقى على اختلاف طبقته ، أميراً كان أم صعلوكا ، كان لا يحسب المال وسيلة للجنى والكسب ، أو ذريعة لتقارض المنافع والتعاوض بالأرزاق ، بل كان يحسبه كنزاً ينبغى لصاحبه أن يحرص على خزنه ليوم عصيب يضطر هو فيه فيكون « هذا الدرهم الأبيض لذاك اليوم الاسود » . لهذه العلة الحرية بالاعتبار لم يبرح الشرق مستودعاً للمعادن الثمينة والجواهر الكريمة منذ قدمى العصور حتى اليوم . ففى الهند وحدها مقادير عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، بعضها مكنوز فى الصناديق الدفينة فى جوف الأرض و بعضها الآخر مما تتشنف به النساء الهنديات أقراطا ويتحلين به عقوداً ، مما تبلغ قيمته على اليقين

ملايين من الدنانير . فى هذا الشأن قال كاتب حديث : « قيض لى سانحة فأخذت لكى أشاهد السراديب التى فيها الخزائن والدفائن من الجواهر لأحد المهارجات ، فأرسلت ذراعى حتى المنكب فى وعاء ذهبى مملوء بالالماس واللآلئ والزمرد واليواقيت ، ورأيت الجدران مرصعة بالكلاليب الذهبية ، وعلى كل كلا بين حزمة من قضبان الذهب طول كل واحد من ثلاثة الى أربعة أقدام وقطره قيراطان و بعض القيراط . ثم رأيت وعاء آخر مملوءاً ألماسا فاحتفنت منه بكلتا كفى حفنة وطفقت أنثرها من بين فرج أصابعى فكانت قطع الالماس تتناثر مؤتلقة ائتلاق قطرات السحاب وقد انعكس عليها نور الشمس . فنى الهند نحو من سبع مئة امارة وطنية على رأس كل منها أمير ، كل أمير له سراديب على طراز هذه السراديب وكنوز على صفة هذه الكنوز زد على هذا أن كل دهقان (زمندار) وهندى وطنى اذا مارام توفير شئ فلا يرومه الا معدنا كريما ، من حيث ان الهندى لايثق بقيمة الاوراق النقدية ولا يحب التعامل بها . أما النقود المعدنية فتارة يسبكها خلاخيل لزوجته وطوراً يكنزها تحت لبنة متزعزعة فى الحائط أو حجر مبسوط من أحجار التنور الارضية ، أو فى حفرة فى موضع معين » .

على أن هذا الوصف انما هو لثراء الهند المعاصرة ، من بعد ما انقضى عليها أكثر من قرن وهى فى الحكم البريطانى ، و بعد أن انتشرت فيها الآراء والمبادئ الغربية التى كما سنرى قد سببت كثيراً من التطور فى البلاد . وينبغى أن لا نغفل أن شنشنة كنز المال لم تكن مخصوصة بأهل الهند دون غيرهم بل هى شاملة لجميع الشعوب المشرقية . فيسهل علينا بعد الوقوف على هذه الحقيقة أن ندرك السبب فى ذلك الافتقار الشديد الذى كان عليه المشارقة الى رؤوس المال الكافية للقيام باستثمار المشروعات الحيوية مما كان الى حد مئة سنة خلت . ونزداد علما بالسبب متى ماعرفنا أيضا أن الاضطرابات السياسية والنواهى الدينية الحائلة دون ادانة المال بالعائدة ، قد وقفت حجر عثرة فى سبيل الافراد الطامحين من ذوى الهمة والنشاط الذين يبتغون استدرار القناطير المقنطرة من أموالهم بوسائل المشروعات الكبرى ذات الريع الجزيل . فلم يبق هناك من وسيلة مستطاعة لاستدرار الاموال غير المراباة التى عمت بها البلوى فأصبحت جميع رؤوس المال الشرقية النزرة تستدر على هذه الطريقة ولكن البلية هى أن رؤوس مال كهذه ، لم تدن للقيام بالاعمال المنتجة

الرابحة والمشروعات القيمة بل للانغماس فى الترف والاسترسال الى الملاذ البدنية ولسد الحاجة ، لكن مع الاسراف والتبذير فكانت مضرة قاتلة ، لا محيية منجحة ، وزادت رؤوس المال على اختلافها اجحافاً .

هكذا كانت حياة الشرق الاقتصادية منذ قرن ومن المحقق أن هذه الحياة المتضعضعة ذات النظام المعتل قد أفضت بالشرق على التوالى الى العجز وفقد القوة والحول امام تيار المزاحمة الهائل الذى اندفع به الغرب الثائر ثورته الصناعية ، فغدا طوفان البضاعات الغربية ، الآلية الصنع ، الرخيصة الاسعار ، يطمو على كل قطر من أقطار المشرق ، جارفاً ما كان أمامه من البضاعات والمصنوعات الوطنية جرفاً . وما كانت الطريقة التى لاشت بها المزاحمة الغربية العظيمة ، الصناعات اليدوية الشرقية القديمة ملاشاة تامة ، كما لاشى قطن « لنكشير » صناعة النسج اليدوية الا مثالاً يقاس عليه انهيار كل ركن من أركان الحياة الاقتصادية فى الشرق . على أنه قد قام بعض الكتاب الشرقيين وقالوا ان هذه الغلبة التى قد نالتها المصنوعات الغربية فى الاسواق الشرقية كانت الأسباب فيها سياسية أكثر منها اقتصادية ، ويستشهد رجالا النهضة الوطنية فى الهند على صدق كلامهم فى هذا الشأن بالمساعى التى تبذلها حكومة الهند فى سبيل توفير الوسائل وتعبيد الطرق لتفوق أقطان « لنكشير » المذكورة ، ويؤكدون القول ان هذا وليس سوى هذا من سبب لاضمحلال صناعة النسج فى بلادهم . على ان هذا القول ليس بصحيح . فان المساعى التى قامت بها السلطة البريطانية قد تكون عجلت فى حصول ما قد حصل من تفوق المصنوعات البريطانية على تلك الوطنية فى الهند ، ولكن هذا التفوق كان بطبيعة الحال والزمن مما لا بد منه بوجه من الوجوه . وخير دليل على انه لم يكن بد لتيار المصنوعات الغربية من التغلب انما هو الطريقة التى تلاشت بها صناعات النسج فى بعض الممالك الشرقية المستقلة مثل تركية وايران ، تلاشياً شبيهاً بذاك الذى حصل فى الهند امام تيار المزاحمة الغربية الجارف .

ونزيد برهاناً آخر على هذا ، وهو تلك الحقيقة الراهنة بأن الشعوب الشرقية اجالاً كان من عجيب أمرها انها طفقت تقبل كل الاقبال على شراء المنتجات والمصنوعات الغربية ، مؤثرة اياها على تلك الوطنية المصنوعة صنعاً يدوياً متقناً . وقد حمل هذا الأمر الذى لا مراء فيه كثيراً من أهل الغرب على الدهش والاستغراب ، اذ كادوا لا

يفقهون كيف ان الشرقيين يقبلون على شراء الرخيص الردئ من البضاعات الغربية المصنوعة صنعاً على طراز مخصوص بالاسواق الشرقية ، يرونها أفضل من بضاعاتهم الوطنية من حيث ان هذه بالحق أجود وأجل . فالجواب على هذا ان الشرقى بالجملة ليس بالخبير الفنى الماهر ، وانما هو رجل رقيق الحالة ادركته الخصاصة ، فبات يجدّ جداً ليتوفر على عيالة أهله اذ لو توانى بعض التوانى فى السعى وطلب الرزق كادت تنشب به مخالب المسغبة . فهو بهذا السبب ليس يقصد الاسترخاص فقط بل لا مفرّ له من ذلك سواءٌ شاء أم أبى ، لأن رخص الأسعار هو العامل القاهر الذى يسوقه الى ذلك . ولا شك ان جدة البضاعة هى أيضاً سبب من الأسباب التى تحمل الشرقى على ايثا تلك البضاعة الجديدة . اضف الى هذا ان البضاعة الغربية من حيث الكمّ والمقدار لم تقف عند حد الحاجات والادوات الشرقية التى كان قد اعتاد الشرقى استعمالها حقباً واجيالاً بل أخذت تزداد ضروباً وأنواعاً مما لم يعرفه الشرقى من قبل . ثم ان ما هى عليه هذه الضروب والانواع الحديثة من التفنن المقترن بسهولة الاستعمال كان مما يدعو الشرقى لشرائها والارتفاق بها واستنفادها ، فصارت بطبيعة الحال تندمج فى مجموع حاجاته الاقتصادية اندماجاً لا غنى له عنه . وقد ذكرنا فى موضع تقدم كيف قد شاعت المطارز ومصابيح غاز الاستصباح فى الشرق بلداً بلداً ، فقس على ذلك سائر الحاجات التى اخضعتها السنن الاقتصادية فشاعت مثل ذلك الشيوع . ان انتشار البضاعات والمصنوعات الغربية كان بلا ريب علة فى تطورات جمة فى كل صورة من صُور الحياة الاقتصادية الشرقية فنشأت بطبيعة هذه التطورات حاجات اقتصادية حديثة لم تكن لتُعرف من قبل بتةً ، وتحسن مستوى الحياة تحسناً بيناً ، وترقى مقياس النيقة والذوق ترقياً كبيراً . قال عالم اميركى اقام فى الشرق غالب حياته . « ان الاطلاع على المخترعات العصرية ، وانواع الاغذية والآنية الحديثة مما لم يكن له وجود من قبل ، قد دعا الى نشوء حاجات جديدة ما لبثت ان ساوقت المنازع النفسانية حتى رسخت واستقرت فى أفق الحياة ، فالفلاح الصينى بات لا يرتضى بعد ان يسهر ليله على مصباح زيته المستخرج من اللوبياء والفول ، بل يبغى غاز الاستصباح بديلا . والاسيوى على الجملة لا ينفك يتطلب المصابيح الحديثة الطراز تطلباً شديداً ورغبته لا تقل فى ذلك عن رغبته فى تطلب الساعات الحديثة أيضاً . وخذلك مثلاً ، السورى الطموح الذى بات يستنكف السكنى ببيت سكنه آباؤه

واجداده من قبله مسقوفاً بالروافد والطين وأصبح لا يرتضيه بعد اليوم الا بسقف من الآجر الصقيل الوارد من فرنسة . وفى كل مكان ترى القوم يتطلبون الأدوات والمصنوعات الاجنبية . . . . فالاطلاع يخلق الحاجة والشرقى لم يزل يزداد اطلاعاً ومعرفة ، لذلك بات يتطلب اليوم مئات الحاجات التى ما كان اسلافه يعرفونها أو يسمعون بها »

وحيثما تقلبت فى أقطار المشرق رأيت هذا التطور والانقلاب على هذه الصفة . قال كاتب اقتصادى هندى ، وهو عدو شديد للحضارة الصناعية الغربية يندب كون ذوى الفنون والمهن باتت أعمالهم لاتجدى نفعاً فطفقوا ينقبلون الى القيام على الزراعة ، وان غاز الاستصباح الوارد من باكو أو نيويورك أمسى يهدد حياة باعة الزيت الوطنى (المستخرج من طائفة من أنواع الخضروات الوطنية) ، وان المصنوعات الحديدية الرخيصة الأثمان ، الصقيلة المزخرفة من الخارج ، الواردة من أوروبة ، قد أخذت تلاشى التجارة الوطنية فى الأوانى والأوعية النحاسية التى ظلت معروفة فى البلاد منذ الحقب القدمى . . . . زد على ذلك ان هناك تطوراً كبيراً فى أذواق المستهلكين على ترق متعال مستمر . فان أهل البلاد قد أقلعوا عن استعمال « الغير » (ضرب من الحلواء) الى السكر الأوروبى ، وعن الأقمشة المصنوعة من النسيج الوطنى الخشن الصفيق الى تلك الغربية الناعمة ، وان جميع الصناعات الأهلية أصبحت على شفا جرف البوار حتى قضى على كثير من أربابها ، وان القرى التى ظلت قروناً عديدةً على مطرد عاداتها ومنساق عرفها انبرت تقلع عن ذلك إقلاعاً سريعاً ، وكثر تعاملها مع كل سوق من أسواق العالم ، وان السفن والقطر الحديدية التى ربطت أنحاء البلاد بعضها ببعض قد أمست فى البلاد شبه شبكة أو عروق واشجة فتدانت القرى وصارت كل قرية على صلة من الأخرى . وصفوة القول ان المزاحمة الغربية التى ظهرت وانتشرت هذا الانتشار الهائل فى عهد ماأقله من عهد ، انما كانت علة تطورات عظيمة تغيرت بها صورة الحياة .

ولم يكن السبب فى هذه التطورات العظيمة هو تدفق الصناعات الغربية فحسب ، بل أيضاً تدفق رؤوس المال الغربية . ذلك لأن الفرص الطيبة لاستدرار الأموال كانت عديدة فأخذت رؤوس المال الغربية تفيض فيضاناً مطبقاً كل قطر من أقطار الشرق . ولما لم يكن للشرق من وليجة عن الاستعانة برؤوس الأموال الاوروبية لمباشرة جميع الأعمال

الاقتصادية والمشروعات النافعة بالمعنى المعروف اليوم ، فقد كثرت القطر الحديدية واستخرجت المعادن ، وأحييت الزراعة على الأساليب الحديثة ، وأنشئت مشروعات أخرى تنمى الثروة . ولا مراء ان أعظم ماأنشئ هو تأسيس معامل صناعية عديدة منتشرة من أفريقية الشمالية حتى الصين ، فازداد عمران « المدن الصناعية » ازدياداً حتى بات دوى أصوات الآلات ودخان المعامل الصاعد فى الفضاء يبشران بان الشرق قد شرع يحذو حذو الغرب فى الحياة الصناعية .

أما النتائج الاجتماعية العظيمة التى حصلت من دبيب روح الصناعة فى الشرق دبيباً منتشراً فى كل عرقٍ من عروقه فسنتكلم عليها فى الفصول التالية . لذلك نقصر – فى هذا الفصل – كلامنا على شأن التطور الاقتصادى ونتائجه . زد على ذلك ان هذا الكتاب انما جعلنا موضوعاته مقصورة على شؤون الشرقين الأدنى والأوسط بحيث لا نستطيع التوسع فيه حتى نتناول الكلام على الصين واليابان ، فينبغى للقارئ الكريم أن لاينسى كون تطورات الشرق الأقصى وانقلاباته غالبها سبل ودهاليز لما نحن آتون على ذكره فى هذا المقام .

ان المستحدثات والمنشآت الصناعية جميعها كانت فى بادئ الأمر أشبه بمغروسات غربية صرفة فى تربة شرقية ، قائمة على رؤوس المال الغربية ، تدبر أمورها وتدير شؤونها أدمغة أوروبية ، ذلك الواقع الذى لاريب فيه . وما كان الغربى ذو رأس المال ليغرر بنفسه ولا ليجازف بماله ويضعه فى أيدى ابن الشرق الفاقد معرفة أسرار الصناعة وخفاياها الدائب على الاسراف والتبذير ، الجانح أبداً الى المراعاة والمحاباة ، اللجوج فى مراد جنى الثمار قبل أوانها ، القليل الحنكة فى سبيل الاجادة والخبرة فى طرق المنافسة . بيد أنه على ممر الزمن أصبح للمشروعات الغربية التى ضربت من النجح والفلاح بسهم تأثير شديد فى نفوس الشرقيين مما حمل الطامحين منهم وذوى النظر البعيد فيهم على إبراز رؤوس مالهم والمنافسة بها فى عالم الصناعة ، وقادهم الأمر الى الاطلاع على وسائل النجاح واكتناه أسرار الفلاح وقد وصفنا فى أواخر الفصل الأول من هذا الكتاب ترقى الأعمال التجارية على الطراز الحديث فى العالم الاسلامى وفى الهند عند المسلمين وغير المسلمين . ففى الهند عناصر عديدة مثل المجوس والمرابين الهندويين الذين غدوا اليوم جميعاً غائصين فى لجة الأعمال المالية

والصناعية بالمعنى الحديث . والسبب فى ذلك أن هـذه العناصر الوطنية انمـا كانت من قبل قائمة على تعاطى الربا وضروب الفائدة . فاكتسبت بذلك على توالى الأيام خبرةً فى طبائع الأعمال أهلتها لولوج هـذه الأبواب الحديثة . ومن غالب هـذه الطوائف ظهرت الجماعات القائمـة اليوم بمشروعات الأعمال الوطنية فى الهند وأكبر هـذه الأعمـال وأعظمها معامل نسج الأقمشة فى كلكتا وبومبىء ، ومعامل صنع الأوانى والأدوات الحديديةفى بنغال . وهذه الاعمال جميعها قائمـة على رؤوس مال وطنية يديرها وطنيون خبراء . على أنه لاينكر ان هذه المشروعات كانت تلقى فى ابتداء سبيلها كثيراً من المشقة والعناء . ولكن ممـا لاريب فيه ألبتة ان مغروسات الصناعة الغربية فى تربة الشرق أخذت تتلاشى تلاشياً سيستمرحتى يختفى ظلها الأجنبى من على وجـه المشرق من حيث ان الصناعات الوطنية أخـذت تتأصل وتعرق فى كل تربة صالحة .

ثم نتج عن جميع المشروعات والأعمال الغربيـة والشرقيـة . ان نشأت مراكز صناعية خطيرة فى مختلف الأقطار الشرقية . قال كاتب فرنسى فى شأن مصر (سنة ١٩١٠) « باتت ضفتا النيل مرصعتين بخطوط مؤلفة من معامل السكر والقطن الباسقة المداخن فوق أخصاص الفلاحين وأكواخهم » . وقال السر ثيودور موريسون فى شأن الهند : « فى مدينة بومبىء قد بلغت الثورة الصناعية حـد النجاز والاكتمال . بومبىء مدينـة صناعية حديثـة ، ترى فيها حسنات الحضارة الصناعية الحديثـة وسيآتها ، فيها الأسواق والأزقة المزدحمة غير الجيدة الهواء كما هو الحال فى كل مدينة وحاضرة أوروبية . وفيها طبقات من أهل الثراء ذوى الملايين قد زينوا شوارع المدينة بما أنشأوه وشيدوه من بيوت البر والاحسان فالزائر القادم من الأقاليم ليدهش حقاً من جميع مايراه فى بومبىء من مظاهر الأبهة المنطوية على الاسراف والافراط ، ويفتتن افتتاناً بترقى المقاييس الذوقيـة . اما القرى التى نشأ فيها وترعرع ، والحقول الرحبة الواسعة الأرجاء التى تظلل سماءها وشرب ماءها ، فانها فى نظره اليوم هى الهند الآخذة فى التطور والانقلاب . بومبىء بشير المستقبل الزاهر والغد الباهر »

على أن قرب متناول الثروة الطبيعية وكثرة العمال ونزارة أجورهم جميع ذلك قد حمل أرباب النظر من الشرقيين على التوسع فى المطامح الكبرى والآمال البعيـدة ، حتى قامت طائفة منهم تأمل أن تضم رؤوس المال الغربيـة الى الأيدى الشرقية العاملة ، كما

أوضح هـذا أحد أكابر الاقتصاديين الهنود بقوله : « الأموال الانـكليزية والأيدى العاملة الهندية هما أرخص مافى العالم ». وقامت طائفة أخرى أشد مطمحاً وأبعد غرضاً وغايةتفـكر فى تحويل المشرق من أقصاه الى أقصاه ، الى معمل صناعى ، فتنبذ المصنوعات الغربية نبذاً ويحرم الغرب حرماناً منهذه النعم التى يجتنيها فى الأقطار الشرقية . وقد بين هذا المطمح كاتب هندوى فى مقال نشره فى احدى المجلات الهندية قال فيه : « ان الشرق ليهدّد الغرب ويناوئه مناوءة مرة غـير هياب ولا وجل . لأن الشرقيين قد انبروا الى الميدان الصناعى ينازلون ويكافحون ، وقد قدر لآسية الجبارة منذ الآن أن تقوم بحرب تجارية عوان ، لها مثار وليس لها ختام ، تطبق أقطار المشرق قطراً قطراً . فهذه الحالة الشاقة لن تدوم مادام الغربى يركب من الهول مايركب لـكيما يظل قابضاً على أزمة التجارة فى الأسواق الشرقية ، اذ أن الشرقى غدا لاقبل لهباحتمال ذلك فانبرى لنزال الغربى وصدامه ، وهو لاينفك يصارعه حتى يجند له فى معركة كان الشرقى من قبل يسقط فيها للأجنبى غنيمة باردةً . . . زد على ذلك أن الشرق فى زحامه التجارة الغربية اليوم قدأيقن كل الايقان أن الوسائل التى كانت فى يده فيمامضى كانت عقيمة لاتجدى أقل نفع ، فأقلع عن استعمال تلك الآلات والأساليب القـديمة وأقام مقامها الآلات الغربية الحديثة الطراز حـتى يتسنى له بذلك قهر عدوه وطعن منازله فى كبده ، لذلك اشتـدت والحق يقال عزيمته وعاد لايرتضى اليوم لنفسه ما كان يرتضيه بالأمس ، وطفق يدرس العلوم والفنون التى هى للغرب ذريعة فلاحه المادى ونجحه الـكبير ، وماانفك يقرن العلم بالعمل ويتمشى على نتائج استقصائه واكتناهه تمشيا صحيحا مطرداً ، ويفرغ الأساليب الغربيـة فى قالب شرقى على مايلائم مطلبه ويوافق شأنه ، ويتفنن فى ترقية هذه الأساليب ترقيةً حسنةً . »

ثم هب كثير من أهل الاستقصاء الغربيين يؤكدون هذه اليقظة الصناعية الـكبيرة فى الشرق . وفى الحين الذى كان فيه الـكاتب الآنف الذكر يدبج مقاله هـذا كان كاتب اقتصادى أميركى مشهور يقوم برحلة استقصاء فى ربوع الشرق ومما كتبه فى الحالة الاقتصادية قوله :« ان السبب الجوهرى فى فاقة آسية وخصاصتها انما هو ناشئ عن أمرين لاثالث لهما : عجز الحـكومات الشرقية عن تعليم شعوبها ، وعجز هـذه الشعوب نفسها عن توسيع طاقتها لزيادة الانتاج باستعمال الآلات والأدوات الحديثـة . فالجهل اذن وقلة

الآلات هما وحدهما علة افتقار آسية وانحطاطها ، كما أن العلم والآلات الحديثة هما وحدهما علة فلاح أمريكا وارتقائها أوج السعادة والعمران ». ثم يسوق الكاتب كلامه مبيناً انه يجب علينا أن نرتقب نهضة آسية ارتقاباً شديداً ، فان آسية مذ باتت ترى هذه الحقائق الواقعة بعينها انطلقت تجد" جداً هائلاً لترقية شؤونها وأحوالها ، لذلك « من الواجب علينا أن نستعد أكثر فاكثر لمباراة هذه الشعوب المستيقظة ، الشديدة البأس والأيد بسبب انها تغالب الخصاصة وانها معتادة تذليل الصعاب ، وهى التى قد شمرت عن السواعد للتذرع بجميع ذرائعنا ، وأعدت العدة للاطلاع على جميع أسرار قوتنا وفلاحنا ، متاهبة للاستفادة من العراك الذى سيكون فى سبيل التفوق الصناعى والاصلاح الجنسى ». وقال مستقص أميركى آخر فى كلامه على الشؤون الاقتصادية فى آسية (سنة ١٩١٤) : « ان جميع آسية من شرقها الى غربها قد امتدت فيها عروق الصناعة الحديثة وأسباب الفلاح الصناعى الحديث ». وقال السر ثيودور موريسون فى شأن مستقبل الهند الاقتصادى : « ان الانقلاب الصناعى الهائل فى الهند قد أمسى على قاب قوسين أو أدنى ، فقد اضمحلت العقبات التى كانت الى اليوم حائلا دون نهج المناهج الحديثة فى الصناعة العصرية ، وانتشرت وسائل النقل انتشاراً عاما فى طول البلاد وعرضها ، وبات استقراض رؤوس المال لشراء الآلات وتشييد المعامل والمصانع أمراً ميسوراً ، اذ يمكن أرباب المشروعات أن يجلبوا الأدوات والمواعين ، واستئجار المهندسين ورجال الادارة والتدبير من أهل الغرب ليقوموا بتخريج ربابنة بحر الصناعة لهند المستقبل . وباتت اللغة الانكليزية وسيلة سهلة للتعامل التجارى فى الأقاليم الهندية بعضها مع بعض ، وبين الهند وغالب العالم الغربى . ومادامت الهند آمنة من أن تفاجأ بفتح أجنبى أو ثورة داخلية فلها من الزمن نصير على القيام بالمشروعات الكبرى على اختلافها . فجميع الأحوال المحيطه ملائمة كل الملائمة لثورة صناعية عظيمة اذا قيض لها الاكتمال وبلوغ الحد زادت فى ثروة الهند كل سنة زيادة فاحشة لم يحلم بمثلها من قبل ».

على أن العامل الكبير الذى ينبغى الاستفادة منه حق الاستفادة لاكمال عدة الشرق فى المواضع التى لم تزل تنقصها الخبرة والحذاقة فى عالم الصناعة ، انما هو كثرة العمال ونزارة اجورهم ، الأمر الذى يبدو لأهل الاستقصاء من الغربيين بالغاً منتهى الغرابة . فلنعتبر

هذا فى شأن مصر والهند على سبيل المثال الذى يصح أن تقاس عليه فى سائر أقطار الشرقين الأدنى والاوسط . كتب الاقتصادى الانكليزى هـ . ن برايلسفورد سنة ١٩٠٨ فى أمر مصر يقول : « ولم يكن اذ ذاك قانون للمعامل والعمال فى مصر ، من حيث ان فى البلاد معامل لحلج القطن تستخدم العملة مياومة ليقوموا باعداد القطن للشحن والاصدار ، ويستغرق هذا العمل أربعة الى خمسة أشهر كل سنة . وكانت أجور هؤلاء العمال نزرة تتراوح بين ٧ ½ و ١٠ بنسات للبالغ و ٦ بنسات للحدث ، وكان البالغون والأحداث يشتغلون فى بعض الاحايين اثنتى عشرة ساعة وفى الغالب خمس عشرة ساعة ، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة الى ثمان عشرة ساعة فى اليوم . وفى بعض فصول السنة كان العمال حتى الاحداث يشتغلون اثنتى عشرة ساعة فى المساء فضلاً عن النهار » . والحالة فى الهند شبيهة بهذه الحالة فى مصر . فان أول تحقيق فى شؤون المعامل الصناعية فى الهند قد قامت به لجنة من لجان العمال الصناعية سنة ١٩٠٧ واليك بعض الحقائق التى اشتمل عليها تقرير هذه اللجنة : ان ساعات العمل فى معامل القطن فى بومبىء هى من ثلاث عشرة ساعة الى أربع عشرة ساعة على اطراد وانتظام . وفى معامل القنب فى كلكتا يشتغل بعض العمال غالبا خمس عشرة ساعة وفى معامل القطن يجب على العمال أن يشتغلوا سبع عشرة ساعة الى ثمان عشرة ساعة فى اليوم . وفى معامل الارز والمطاحن يشتغل العمال عشرين الى اثنتين وعشرين ساعة ، وفى المطابع يشتغل العمال عند اختلاف المعتاد اثنتين وعشرين ساعة سبعة أيام متوالية . أما الاجور فكانت للعامل البالغ الذى يشتغل ثلاث عشرة ساعة الى خمس عشرة ساعة فى اليوم ١٥ — ٢٠ روبية فى الشهر . وكان العمال الأحداث كثيرى العدد لم تجاوز اسنانهم السادسة والسابعة ويشتغلون فى أحيان عديدة ثمان ساعات فى اليوم . وكانت نتيجة هذ التقرير ان حكومة الهند سنت قانوناً حسنت به حالة العمال بعض التحسين ولا سيما حالة النساء والأحداث . بيد انه فى سنة ١٩١٤ كتب الاقتصادى الفرنسى « البرت ماتان » بعد استقصاء مدقق قام به يقول : ان حالة عمال المعامل لم تتحسن تحسناً مذكوراً اذ فقد القانون الذى وضعته الحكومة مفعوله وما روعى مراعاة صحيحة ، فعاد عدد ساعات العمل فزاد والاجور فنزرت ، وبات العمال الرجال فى بومبىء لا يتناولون أكثر من ١٠ الى ٢٠ سنتاً فى اليوم ولم يجاوز الحد

الاعلى لاجورهم ٣٠ سنتاً والحد الاعلى لاجور النساء والاحداث لم يجاوز ١٠ سنتات فى اليوم .

وقد يخيل الى المفكر المتدبر لأول وهلة هذا الحد الذى تبلغه نزارة الاجور ، والمتأمل هذا العدد الكبير لساعات العمل ، أن الشرق لو يسر له رؤوس المال الكافية والآلات والأدوات الحديثة لاستطاع ليس منافسة المصنوعات والمنتجات الغربية فى الاسواق الشرقية منافسة الاغراق فحسب ، بل ربما استطاع غزو الاسواق الغربية فى مواطنها . وقد حمل هذا الأمر كثيراً من كتاب الغرب على الخشية والحذر ، اذ منذ ثلاثة ارباع القرن (سنة ١٨٥٨) تنبأ غو بينو بان آسية ستفتح أوروبة فتحاً اقتصادياً هائلاً . ثم قام من بعده كثير من الاقتصاديين مثل برايلسفورد وغيره ينذرون العالم الغربى بسوء العقبى من جراء تسرب رؤوس المال الغربية الى الاقطار الشرقية حيث جوّ الاستثمار والعمل جذاب مستهو للنفوس ، على ان هذا الأمر من حيث علاقته بالشرق الأدنى والاوسط لم يتحقق عملياً بعد ولا يوجد ما يدل على ان خُبره على قدر خَبَره . فالصين قد يكون مكتوباً لها فى اللوح المسطور ان تقوم بمفاجأة الغرب مفاجأة كريهة يقام لها حقاً ويقعد . وأما العالم الاسلامى والهند فلم تبلغ الصناعة الحديثة فيهما من الترقى مبلغاً رفيع المستوى ظهر فيه الحذق الصحيح والحزامة والمثابرة الى حد يستطاع به اشلال صناعة أوروبة وأمريكة . ففى الهند مثلاً ، البلاد الزاخرة بالسكان المحاويج ، لم تبرح المعامل ينقصها العمال الخبراء الحذّق ممن يتعشقون الصنعة ويبحثون عن اسرار الآلة . قال البرت ماتان : « قد يظن بعض القوم متى ما رأوا ساعات العمل عديدة طويلةً والاجور نزرةً ان الصناعة الهندية ستنقلب عما قريب منافسةً شديدةً ومنازعةً قاهرة للصناعة الغربية ، فالامر فى الواقع بخلاف ما يظنون ، والسبب الحائل دون صدق وهمهم هذا انما هو رداءة النوع . فان العمال الذين يتناولون نزر الاجور ويعيشون العيش الشظف ويأكلون الطعام القشف يغدون بسبب ذلك ضعاف المنة قلال الهمة ، فثلاثة منهم يكادون يعجزون عن القيام بعمل يقوم به أوروبى واحد . زد على هذا ان العمال الهنود لا تنقصهم قوة العزم والحزم فحسب بل يعوزهم الحذق ، وشدة الاعتناء ، وحسن القيام والتوفر على العمل ، وتعشق الصنعة . . . وان الهندى ليؤثر القيام بأى عمل آخر على ان يكون عاملا داخل جدران المعمل . فلهذا ترى الذين يؤمونه

المعامل هم من حثالة الطبقة العاملة ، ولا يدخلون فى حظيرة المعمل الا بعد ان تسد فى وجوههم سُبل الرزق وتغلق عليهم أبوابه ولا تبقى الا تلك السبيل فيضطرون اذ ذاك الى اللجوء الى المعمل ، ومتى ما فتح له باب الرزق فى مطلب أقرب متناولاً وأدرّ خيراً ونفعاً ، برح المعمل الى حيث ابتغى . لذلك لا يتيسر للمعامل الاعتماد على قدر من العمال منتظم ترقى به الحال وتتوفق . وقد أخذ بعض الكتاب يتساءلون أبزيادة الأجور يستطاع ياترى تحسين الحال ؟ فيجيب كثير من المستخدمين . كلا . فان العمال متى ما رأوا حالهم قد تحسنت قليلا اسرعوا الى مزايلة المعامل اما الى أجل قصير حتى ينفد موفر دراهمهم وتنضب جيوبهم فيعودون الى المعمل ويكررون شأنهم الأول ، واما الى أجل لا رجوع بعده اذا وفقوا الى عمل أفضل وأفيد . وقد كتب اقتصادى هندى يؤيد هذه الحقيقة فقال : « ان من أكبر الآفات والنقائص التى تعتور انشاء المعامل الصناعية الكبرى فى الهند هو قلة الايدى العاملة وكفايتها للقيام بالعمل فالعمل لقاء نزر الاجور اذا كان خالياً من آثار الثبات والحذق والتفنن والمهارة هو مخسر لا مربح بدون ريب . فالعامل الهندى على الغالب جاهل لم يتناوله التهذيب ولا الثقافة ، فليس هو مكتنهاً لأسرار العمل ولا على صلة قريبة بمستخدمه . وعمال المدن دأبهم التنقل من عمل الى آخر ، وهم على ميلهم الى تعاطى المهن والحرَف والفنون قليلو الثبات والمثابرة على العمل » (من مقال ليوسف على سنة ١٩٠٧)

فلهذا السبب ترى الصناعية فى الهند على نموها هذا النمو الفائق لم تكن عند جميع الآمال التى أملها أرباب النظر لها . فقد ورد فى «الكتاب السنوى» الرسمى عبارة صريحة: « ان الهند بالاختصار انما هى بلاد غنية بالمواد الخام كثيره الاستعداد للحياة الصناعية ولكن تنقصها المثابرة وحسن القيام على العمل . » ويرى بعض أهل الاستقصاء أن مستقبل الهند الصناعى لن يكون ذلك المستقبل الباهر الزاهر . فقد كتب فى المدة الأخيرة عالم انكليزى خبير فى شؤون الهند يقول (سنة ١٩٢٠) : « قد كان ممكناً منذ عدة سنوات أن الهند تستطيع بتشربها العلوم الغربية واقتباسها وسائل المهارة الفنية فى أجل قريب أن تمارس أساليب الصناعة الحديثة على مايلائم شؤونها وأحوالها فترتقى ذروة عالية من التقدم الاقتصادى . ولم يبرح بعضهم الى الآن ينذر العالم الغربى بالرؤيا الشرقية وهى نهضة الهند والصين نهضة جليلة قائمة على

أفضل التنظيم وأجود التدبير ، مستعينة بالمصادر الكبرى للثروة الطبيعية وباجور العمال النزرة ، بحيث اذا ماتم هذا استطاعت آسية منازعة الغرب وخلعت عليه أسمال الفقر بعد أن جر مطارف الاثراء الفاحش . ان كاتب هذه السطور لايحسب هذه الرؤيا سوى حديث خرافة . فالخطر الأسيوى انما يراه من نوع آخر ليست هذه صفته ، فهو يرى اتساعاً مزداداً فى شقة البون من حيث لايرى ارتقاء مفضياً الى التساوى فى أفق واحد ، ويعتقد أنه كلما خطت الهند خطوة فى سبيل الترقى والكفاية فى عالم الآلة ، خطا الغرب خطوتين ومتى ما شرعت الهند تستعمل الدراجات والسيارات (دون أن تصنعهما) يكون الغرب قد أنجز اصطناع الطيارة والمنطاد وأبلغ فن الطيران حد الكمال وقس على هذا . ان الحرب العامة قد عجلت تعجيلا كبيراً فى ازدياد الاختراعات الجهازية ، كما نعلم هذا حق العلم ، فاجتاز الغرب بذلك مرحلة طويلة ، بينما الهند لم تبرح مكانها منذ الحرب دون أن تعرج فى سلم هذا الارتقاء حتى كأنها اليوم ، بالقياس الى أوروبة فى الأجيال الوسطى ، بلاد لم تنشب صناعاتها وفنونها بدوية محضة . زد على هذا أن الهند لم تستعمل بعد أبسط القوات الآلية وأحقرها فى أعمالها الزراعية . نعم ان عصر العزلة قد انقضى على كل حال ، ولكن شقة المستوى بين الشرق والغرب لم تزل بعيدة ، فما هو مصير أهل الهند الذين يبلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة مليون ياترى ؟ اننا فى الشرق بازاء خطر خطير الا وهو استفحال الآفات الصناعية التجارية مما يقف عنده الباحث مدهوشاً ، ان أهل الهند باتوا حقاً على طريق التهلكة بسبب هذا الخطر الكبير ، والشرق بالجملة يصير فى هذا العصر مزدحماً مختلطاً يستغرق فيه الصحيح والفاسد (كتاب « الهند فى سنة ١٩١٧ و١٩١٨ »)

وسواء أأصاب هذا الكاتب المتشائم أم أخطأ ، فما لاريب فيه أن ليس الهند وحدها بل الشرق كله هو فى دور التطور الهائل والانقلاب العظيم وان هذا الدور حقاً لعصيب ضنك وقد استوفينا الكلام الى الآن على شؤون العمال الصناعيين من الطبقات المدقعة فى المدن والحواضر ، غير أن الطبقات الاجتماعية الأخرى قد تأثرت بعامل هذا التطور عينه ، وكان فيها من الانقلاب والتبدل مثلما كان فى غيرها ، ذلك بسنة المجتمع التى لا مدفع لانتشار عواملها . فالتجار وأهل الحرف القديمة والمهن العتيقة الطراز راحوا لاحول لهم ولا قوة عند ظهور الأساليب المحدثة فى التجارة والصناعة ، ولكن غدا سواد الفلاحين أحسن

حالا وأفضل شأناً . ثم لم يكن هذا التطور قاصراً على اكتناه اسرار العمل والوقوف على طرقه الحديثة المؤدية الى الاتقان والتجويد ، بل هو فى الواقع أكثر من ذلك : هو انقلاب محض من الأصل فى وجهة النظر واعتبار صور الحياة وفهم ماهيتها وادراك حقيقة شؤونها وأسرارها فى كل أفق من أفاقها . كان من عادة التاجر فيما مضى أن يجلس محتبياً فى حانوته بين طائفة قليلة من البضاعة المبعثرة حواليه ، متكاسلاً خاملاً ، يفنى الوقت فى مساومة عميله مساومة فارغة ، سيان عنده راجت السوق أم بارت . وكان المتفنن الصنّاع اليد يشتغل منفرداً عدداً من الساعات على قدر ماتمده طاقته المتوانية ثم يترك عمله ويذهب الى حيث شاء . وكان الفلاح ينهض مع الفجر لمباشرة عمله فاذا ماجاءت الظهيرة استنام هو وحيواناته الى قيلولة طويلة الى أن يهب نسيم العصر فيستيقظ ويتمطى ثم يستأنف شغله متراخيا بطيئاً .

لذلك ليس من الغريب فى شئ أن يبدو لأهل الشرق فى بادئ الأمر جميع ماهو معروف فى حياتنا الاقتصادية من النظام والسرعة والرقابة والانكماش فى العمل أموراً مستكرهة ممقوتة ، لاقبل لهم باحتمالها كلها معاً والمثابرة عليها ، لأن أمر اكتساب هذه الصفات الجوهرية فى النفس ورعايتها والتمشى عليها فى مجال العمل لايتم الا على بطء وتؤدة ، يرافق ذلك سائق الضرورة والقهر الناجم عن طبيعة الانقلاب . زد على ذلك ان المشارقة ليتألمون حقاً شديد التألم من مزاحمة الأجانب لهم ، وهؤلاء لم يبرحوا منتشرين بين ظهرانيهم بعدّة أفضل وذخيرة أوفر وحنكة أشد فى الميدان الاقتصادى الهائل . وقد وصف السر وليم رمزى وصفاً أجاد فيه كل الاجادة ، كيف طفق الترك فى آسية الصغرى على اختلاف طبقاتهم من السادة والكبراء حتى الفلاحين ومن دونهم ، يتدلون وينحطون طيلة الخمسين سنة الأخيرة إزاء الزحام الاقتصادى الذى أخذوا يعانونه ليس من الاوروبيين خاصة ، بل من قبل العناصر الوطنية النصرانية كالأرمن واليونان الذين قد تشربوا قدراً من حديث الأصول والطرق والأساليب فى فن التجارة الغربية . ففى الأيام القديمة ، قال السر وليم رمزى ، لم يكن فى آسية الصغرى « شئ من التقدم الاقتصادى والترقى التجارى بل كانت شؤون الأعمال على اختلاف ضروبها منحطةً جارية اطراداً مجراها القديم المعروف منذ الحقب المتطاولة . على انه لمن المعلوم أن حياة اقتصادية على هذه الصفة لم

تكن لتقف فى وجه النظام التجارى الغربى البالغ من الترقى مبلغاً عظيماً ، أو تعارض معارضة فعلية تيار الحضارة الغربية الحديثة ، ولكن تلك الحياة وهى على نمطها القديم ما كانت بشاقة على أهل البلاد ولا بالثقيلة كما انه لم يكن أمر الاثراء وادخار المال مستطاعاً فى عهد مثل ذلك العهد ، ولا كانت الفرص الطيبة سانحة لمثل هذا وكان من المستحيل على الفرد أن يستميل اليه عدداً كبيراً من الناس ويستخدمهم فى عمله ثم يأخذ بالمثابرة على هذا العمل فيوسع نطاقه على التوالى حتى يزداد هو بذلك نجحاً وفلاحاً ، فيجنى من وراء ذلك ثماراً شهية . وانما كان هناك عدد من أرباب الأعمال الفردية يشتغلون فى حيز ضيق لايجدى صاحبه كبير نفع » (١٩١٨) . ثم يسوق السر وليم رمزى كلامه واصفاً كيف قد تمزق ذلك النظام الاقتصادى القديم المختل كل ممزق . فتبدلت الحال غير الحال وتغير الشأن غير الشأن ، وأخذت تظهر الأساليب التجارية الحديثة المنظمة على الطرز الحديثة ، فشرع العنصر التركى يرقى مستواه ويتقدم فى مضمار التزاحم متفوقاً على من سواه تفوقاً بيناً .

ولأجل الوقوف التام على كيفية ماعانته الطبقات المشتغلة بالزراعة ، من فلاحين ومزارعين وملاكين وأصحاب أرضين من مر الشدائد من جراء هذا التطور الاقتصادى ، عليك بالاطلاع على تاريخ الهند للعهد الحديث المشتمل على أحسن بيان فى هذا الباب . قال الكاتب الفرنسى شلى ، وهو من العلماء الثقات فى الشؤون الهندية : « لم تبرح أقسام كبيرة من أهل الطبقات المشتغلة بالزراعة طوال الخمسة العقود الأخيرة تسلب منها أراضيها أو تضطر هى قهراً الى أن تزارع فى أرض غيرها على خصاصة وضيق ذات يد ثم بانحطاط الطبقات الزراعية هذا الانحطاط نشأت طبقات جديدة أخذت تستولى على الأرضين . . . ان الفلاحين المزارعين والملاك لسواء حقاً فى المصيبة والشقاء ، لأنهم قصروا عن مجاراة التقدم الزراعى على ممر الزمن بل قعدوا عن ذلك وانقلبوا مكاسيل مضاييع للمال ، هذا من حيث ان الفلاح المزارع ، الغريق فى بحر من التقاليد الحية منذ أقدم الأجيال ، هو جاهل لايحسن التدبير ، ولا يعرف الثبات ولا ينظر فى العواقب . واعتبر من وجهة أخرى ان الحال الاقتصادية فى الهند البريطانية كانت فى الواقع علة فى نشوء طبقة من المتمولين الذين طفقوا يبتغون مستثمراً لأموالهم ، فنشأ العراك يشتد بينهم و بين أصحاب الأرضين القدماء ، وكان

هـذا متوقعاً ونتيجته لابد منها . فجعلت الثروة تتسرب أكثر فأكثر الى أهل الطبقة الذين هم أذكى وأنبه ، والأرضين تستولى عليها أيدى سادة جدد ، فكان ذلك على الجملة أشبه بسهم أصاب أهل الطبقات الزراعية فى أشرف مقاتلهم ، فغدا جانب كبيرمنهم حراثين وعمالاً مأجورين ، من بعد ماكانوا سادة الأرضين وأساطين المزارعين (١٩١٠) .

وقد وصف الاقتصادى الهندى « موكرجى » كيف تشتت حال القريةالهندية وتفرق ساكنها فى البلاد فقال : « آراء وأفكار اقتصادية جديدة شرعت تستولى على عقول القرويين وتبلغ من نفوسهم مبلغا كبيراً ، فطفقوا يتركون صناعاتهم وأعمالهم ويضربون فى البلاد ، اما بسبب المزاحمة الأجنبية القاتلة ، واما بغير هـذا السبب فيذرون أشغالهم من تلقاء أنفسهم و يطوفون الجهات . فالبراهمة يهبطون المـدن ليطلبوا أسباب معايشهم من وراء الأعمال فى الحكومة أو الاحتراف الحرّ ، وأهل الطبقات الوسطى يبرحون قراهم و يتشتتون فى طول البـلاد وعرضها لتحصيل القوت وطروق باب الرزق على ما يكفى سد الخلة ، والفلاحون يزايلون أراضيهم التى ورثوها من آبائهم وأجدادهم فتتألف منهم ، وهم عطل عن العمل ، طبقة من العمال الزراعيين الذين لاأرض لهم . فأصبحت القرى وقد امتصت دماؤها وجفت عروقها خربةً منحطةً الى العدم . على ان هذه الهجرة من القرى الى المـدن ليست أهميتها مقصورة على كونها هى السبب فى حصول ثورة اجتماعية فى العادات والأفكار ، بل ان نتائج هذه الهجرة الاقتصادية لأخطر وأجل مما يتصور المتصور لأول وهـلة ، فقد جرّت أهل الطبقات الوسطى من أهل بلادنا الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبداناً أقناناً ، وقتلت استقلال الفلاح المزارع قتلا ذريعاً حتى سلبته جميع حوله وقوته ، وفوق جميع هـذا فانها قد عرقلت الأسباب والوسائل التى على يدها تجتنى أقواتنا وهددتها تهديداً عظيماً . وعلى الجملة فالهجرة هى مشحونة بأشد المخاطر القاضية على مهننا وحرفنا ولا سيما الزراعة ــ وهى صناعتنا الوطنية » .

على ان هناك بعض الدلائل الحسنة ، فى عالم الزراعة الهندية على الأقل ، تدل على ان دور الانتقال والتطور أخذت حاله تستقر ، ومفعوله يصطبغ بالصبغة الوطنية ، وان الحالة على الجـملة متحسنة عن قريب ومتجهة الى الخير والصـلاح . فقد تعاضدت الحكومة البريطانيـة والأمراء الوطنيون على نشر الأساليب والطرق الفنية الحديثة للزراعة ، ومنذ

شرعوا بذلك أخذ يظهر ان المزارع الهندى هو أكثر استعداداً من سواه من أهل الحرف والفنون والصناعات ، للأخذ والاقتباس . ثم بدأت طبقة جديدة من المزارعين تنشأ على هذا الطراز الحديث وتنمو ، وهى أكثر حذقاً وأشد قدرة على مماشاة الزمن والاستفادة الصحيحة من المستحدثات الفنية . وخير مثال على هذا قيام الجمعيات الزراعية التعاونية التى شرعت الحكومة البريطانية فى انشائها وترقيتها منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد أفلحت هذه الجمعيات كبيراً و بلغ عددها فى الهند سنة ١٩١٥ نحو ١٧٠٠٠ جمعية مجموع أعداد أعضائها ٨٢٥٠٠٠ عضو و بلغ مالديها من مجموع رؤوس المال ٣٠٠٠٠٠٠٠ ريال . ومن دأب هذه الجمعيات أن تقرض أرباب الأعمال الزراعية قروضاً مالية يستعينون بها على شراء الحيوانات والاعلاف والحبوب والأسمدة وحفر الآبار وابتياع المواعين والأدوات الزراعية العربية ، وأن تمدّ المحتاجين وأهل العوز للقيام بأسباب معايشهم عند الأزمة . ومن أعمال هذه الجمعيات التى فى المقاطعات والرساتيق مكافحتها وباء الربا حق المكافحة ، فهبط من جراء ذلك معدل الفائدة الذى كان ٢٠ — ٧٥ بالمئة الى ٩ — ١٨ بالمئة . وانه وان كان لم يزل فى البلاد مقدار من الضيق فالدلائل الظاهرة تدل على مستقبل حسن وافر النعمة والخير .

بيد أن هذا المستقبل الزراعى الباهر لم يزل بعيداً وأبعد منه المستقبل الصناعى ، بينما الشرق لهذا العهد يتطور تطوراً ملؤه الألم والشدة ، والأمر الغريب فى كل هذا ان كثيرين من الشرقيين يقولون ان السبب فى شقائهم و بلائهم ليس منشؤه التطور الاقتصادى الحادث بل الحكم السياسى الآتى من قبل الحكومات الأوروبية مقترناً بالاستثمار الاقتصادى القائم على رؤوس المال الغربية . أما النتيجة التى تنتج عن جميع هذا فاضطراب وقلق وهيجان ، وقيام وقعود ، وارغاء وازباد جميع ذلك للتحرر من ربقة الحكم الغربى اقتصاديا وسياسياً . وقد سبق لنا فبينا فى أواخر الفصل الثانى من هذا الكتاب شأن الحركة المتمشية اليوم فى الأمم والشعوب الاسلامية ، ونعنى بها حركة الجامعة الاسلامية الاقتصادية . إذ قد نشأت حركة شبيهة بهذه فى الهندويين فى الهند وعرفت بالحركة « السوادشية » [1] و يقول اتباع هذه الحركة والقائمون بها ان العلل

(١) « سوادشى » كلمة بنغالية معناها الاصلى المنتجات الوطنية ومدلولها الشائع اليوم مقاطعة البضاعات الأجنبية . وأول ما ظهرت حركة المقاطعة فى أقاليم البنغال . « المعرب »

الاقتصادية فى الهند سببها استنزاف بريطانية العظمى وغيرها من الحكومات الغربية لثروة الهند استنزافاً لا يبقى ولا يذر . وغايتهم التحريض على مقاطعة البضاعات البريطانية مقاطعة ترغم بريطانية بالتالى على أن تمنح الهند حكومة ذاتية ، ومتى ماتم ذلك وضعت هذه الحكومة الهندية الوطنية الضرائب الحامية للاقتصاديات الهندية ، ولاشت رؤوس المال البريطانية ، وتبدلت بالموظفين البريطانيين الذين يتناولون فاحش المرتبات موظفين وطنيين ، فاستطاعت حينئذ حفظ ثروة الهند للهند

ولو تدبرنا الحجج والبراهين التى يدلى بها أرباب الحركة السوادشية لرأيناها ليست بالصحيحة كل الصحة بل الأولى أن تبنى عليها أسباب علل الهند وأمراضها الاقتصادية ، مما هو فى الواقع ناشئ عن طبائع السير الاقتصادى العام الخاضع لعوامل الدور وسنة الانقلاب أكثر مما هو ناشئ عن النقائص والاضرار التى أتى بها الحكم البريطانى . أجل ، ان الحكم البريطانى ورأس المال البريطانى ليكلفان نفقة باهظة ، غير أن ماهما عليه من الجدارة فى حفظ الأمن والنظام وفى الترقية يعد موازياً لتلك النفقة التى يقتضيها الحكم الوطنى لا جدال فى هذا . قال السرثيودور موريسون : « ان ما تناله الهند من المنافع والفوائد على يد الأسطول البريطانى ورأس المال البريطانى يعدل ما يتناوله الموظفون البريطانيون من مرتبات العجز والمكافئات المالية . . . . ان الهند تتناول فوائد مادية من علاقتها وارتباطها بالأمبراطورية البريطانية . وما هى تلك الفوائد الاقتصادية التى تنالها الهند موازية لما تتكبده من النفقة المالية التى تؤديها الى الأجانب مرتبات ومكافئات ؟ فالجواب على هذا هو أن الهند تناول عدداً وأجهزة للصناعة الحديثة ، وادارة منعطفة على الترقية الاقتصادية بثمن ونفقة أقل مما لو كانت الهند هى المباشرة لذلك بنفسها لنفسها » . زد على هذا أن المقارنة بين شأن الهند واليابان فى نفقة الجباية والدفاع ومعدل فوائد رؤوس المال العامة والخاصة كافل لنا جلاء الحقيقة فى حال الهند جلاء مانعاً للشك .

وهناك من الهنود من يعترفون بفساد الحجج والبراهين السوادشية . فقد قال أحد المفندين (سنة ١٩٠٨) : « ان ما يدعونه استنزافا اقتصاديا قول فارغ من المعنى ، لأن منشأ أكثر الشقاء فى هذه السنوات الأخيرة هو غلاء المعيشة واستحكام حلقات الضيق وذلك لعمرى طامة مطبقة العالم من المشرق الى المغرب » . ثم يأتى الكاتب على وصف

الحالة الاقتصادية فى اليابان للبرهنة على هذه الحقيقة . وقال « رمزى مكدونلد » صديق الهنود الحميم ، وزعيم العمال فى بريطانية (سنة ١٩٢٠) : « هناك أمر جلى لامراء فيه ، وهو أن تعرفة الضرائب لن يكون من شأنها ايجاد الوسيلة لتجديد الصناعات اليدوية القديمة الأصل فى الهند ، ولا المساعدة على احياء الصناعات القروية ، إذ أن المعامل والادوات الصناعية الحديثة بوسعها أن تتغلب على جميع الصناعات القديمة ، بحيث يحدث فى الهند مثلما حدث فى لنكشير وبرمنهام من قبل » .

وأبين مما تقدم هو الانتقاد الذى نشره الكاتب الهندوى « براماثاناث بوز » إذ قال ان الاستنزاف يسوق الهند الى درك الخراب سوقا ، ولكن هل يجدى الهند مع هذا برنامج «الحكم الوطنى» (هومرول) الذى يبتغيه سواد السوادشيين جداء كبيراً ويبرئها من عللها وأسقامها الاقتصادية ؟ ليعلم من يريد العلم انه متى ماتم أمر الحكم الوطنى واستتب حاله فعل هؤلاء القوم ما يلى : (١) يتبدلون الهنود البريطانيين فى الحكومة . (٢) ويضعون الضرائب الحامية للمنتجات الهندية. (٣) ويحملون الحكومة على أن تقوم بتنشيط الصناعات الهندية والاخذ بنصرتها وشد أزرها . (٤) وأن تشرع فى نشر التعليم الفنى فى البلاد . وعلى تسليم ان كان جميع هذا فماذا عساه أن يحسن فى الحالة العامة شيئا يذكر . أما التبديل بالموظفين البريطانيين واقامة موظفين من البلاد فلن يكون السبب فى تناقص الاستنزاف وتقلصه على مقدار ما يتصور القوم أشياع الحكم الوطنى وأنصاره ، إذ أن الموظفين الهنود أرباب المناصب العالية والخطط السنية قد اعتادوا أساليب المعيشة ومرافقها الحديثة على المستوى الاوروبى والطراز الغربى ، فاذا حلوا محل البريطانيين لزم لهم من النفقة مالا يقل عن النفقة التى تؤدى الى البريطانيين اليوم ، ثم يأخذ إخذهم غيرهم ويقلدهم سواهم ، فيزداد تطلب المواد والبضاعات الغربية على نسبة ما يفشو وينتشر فى أفق المجتمع من العادات الجديدة بطبيعة الحال . وعلى هذا الاعتبار فالاستثمار التجارى الذى يقوم به الاجانب لايبقى على قدره الحالى بل يزداد ويستفحل . وأما الضرائب الحامية فسيكون من شأنها اجتذاب رؤوس المال الاوروبية الى الهند ، فيتسنى للاجانب بهذه الذريعة الاستيلاء على المشروعات والاعمال ويلتهمون الارباح دون أن يكون للهند نصيب فيها . واعتبر من وجهة أخرى أن الهند لم تظهر الى اليوم من الجدارة لترقية

الصناعات الوطنية الا قليلا . نعم لا ينكر أن جانباً من أهل البلاد ليستطيعون ، حتى فى مثل هذا العهد المعروف بنزارة الاجور ، أن يستثمروا الموارد و يؤثلوا الثروات ولكنهم بالاضافة الى سائر قطاين البلاد هم أقل من عشر معشار الملايين الناشبة بهم مخالب المجاعة اليوم . وفوق جميع هذا فان الانغماس فى بحر الصناعة سيجر على البلاد بلايا وشروراً اجتماعية قتالة . وأما قيام الحكومة بتنشيط الصناعات الوطنية فسيكون أكثر اجتذابا لرؤوس المال الاجنبية من الضرائب الحامية مما يفضى الى النتائج التى ذكرناها . وأما نشر التعليم الفنى فمشروع وايم الحق ذو شأن خطير ، ولكن جاء متأخراً بعد فوات الميقات ، فان الغربيين واليابانيين قد سبقونا أشواطا ومراحل شاسعة فى عالم الصناعة بحيث اننا لو رمنا الآن اللحاق بهم فادراكهم فمزاحمتهم بالمناكب شق علينا ذلك أولاً ثم ازداد الامر صعوبة على التوالى بسبب شقة البون بيننا و بينهم .

ثم يسوق المستر بوز الكلام منتقداً جميع نظام التعليم الغربى الذى اتبع فى الهند ، ومبينا ان ليس التعليم العالى ولا الابتدائى هو الدواء الناجع فى سقم البلاد . أما العالى فقد أفضى الى النجح المادى ولكن على نطاق ضيق لم يتناول أكثر من جانب من جمهور الامة فيهم عدة آلاف من المحامين والاطباء وأصحاب الوظائف فى الحكومة . ولكن لما كانت أعمال هؤلاء القوم وصناعاتهم وفنونهم عالة بطبيعة التعاون العمرانى على ما سواها ، وليست على جملتها مما يحسب من موارد الانتاج الكبيرة فى ترقى البلاد ، فقد ظلت قاصرةً عن أن تكون عاملا حيوياً كبيراً فى عداد العوامل التى يقوم عليها ترقى الهند بصفة عامة لذلك جاءت النتيجة على ضد المراد ، لأنه لما كان هؤلاء القوم يتشبهون بالغربيين ذوقاً و رغبة فى اقتناء البضاعات الأجنبية والمرافق الغربية التى يكثر النزوع اليها وتعم بها البلوى على مقدار ازدياد التبسط فى رفاهية العيش وانتشار الرخاء ، فقد كان ذلك كله سبباً فى ازدياد الاستنزاف لافى تناقصه وفى افتقار البلاد لافى ارتياشها . وأما التعليم الأولى فلم يكن منه تثقيف العقول لسواد الناس ولا تحسين مرفق من مرافق الحياة الزراعية ، بل أفقد أهل الفلح والحراثة ما كان فيهم من حزم وكفاية وجدّ ، كما أنه أشبع نفوس أهل الطبقات العاملة المتدلية الذين يتألف منهم جانب كبير من الأمة ، صفاتٍ تبعثهم على النقمة والتذمر ومقت ماهم عليه من تراث آبائهم وأجدادهم المشتمل على طراز المعيشة والصنعة والحرفة ،

ويجعلهم ينزعون الى تطلب المزيد من كل جديد ، ويشتدون سعياً وراء الزخارف والاعراض ، وينصرفون الى الحرف والمهن التى هى بطبيعتها عالة على سواها من الصناعات والأعمال البشرية . فانحطت بسبب هؤلاء الصناعات الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، وكانوا هم بلا ريب علة استفحال الضيق الاقتصادى الذى عمهم وسائر الأمة معهم . ومن البلية أن ما كان يبتغيه هؤلاء فى أول الأمر هو زيادة الأقوات والأغذية ـ ولكن الهند الجديدة وحكومتها قد أجابتاهم الى مبتغاهم بتجهيزهم بهذا الضرب من غذاء «التعليم» الذى لم يكن له تأثير ولاشأن فى توفير الوسائل التى يستطاع بها التماس العيش وطلب أسباب الرزق ، بل غرس فى نفوسهم صفاتٍ وعاداتٍ فسدبها مزاجهم وكانت السبب فى انقلابهم شعباً كسولا ، تستنزفه رؤوس المال الاجنبية وتمتص دماء عروقه المتصات الغربية عرقاً فعرقاً . وبهذا الاعتبار لم تكن الأسباب السياسية والاقتصادية هى وحدها الفاعلة فى ملاشاة الصناعات الوطنية لو لم يقترن بها التطور فى العادات والأذواق ، ذلك التطور الذى نشأ عن البيئة الغربية التى كان من أهم عواملها ومؤثراتها « التعليم الاوربى على هذه الصفة التى أرادها الانكليز ».

وصفوة أقوال المستر بوز وآرائه أن ليس فى برنامج الحكم الوطنى من سبيل من سبل الاصلاح المنشود والترقية المبتغاة ما يكفل حقاً شفاء الهند من عللها وابراءها من أوجاعها ، « بل ان الهند ستزداد تورطاً فى أشراك المدنية الغربية وأحابيلها الخداعة ، دون أن تلقى من النفع والفائدة مايعدل معاناتها المشقة والنصب ، وسيشتد خناق الغرب على عنق الهند اشتداداً يضيق أنفاسها تضييقاً » ، فالذريعة الوحيدة للهند ، على مايذهب اليه المستر بوز ، هى أن تدابر كل شئٍ غربىّ ، وتولى وجهها شطر ماضيها فتنقلب سابحةً فى لجج من تقاليدها وسننها التاريخية ، وتوضح معالم حضارتها المطوية فى سجل الدهر ، وتستثير دفائنها ثم تخلع عليها ثوب البهاء والرونق . وفى هذا الصدد قال المستر بوز :« ان نجاة الهند ليست مرتجاةً فى أفق السياسة ولافى مطمحنا الى أن نصير أمة من أمم الارض العظمى ذات الحول والطول ، والقوة والايد ، بل فى رجوع الهند الى ما كانت عليه قبلاً من منزلة الاتضاع ـ تلك المنزلة الحافلة بجلال العزلة مع العظموت والهيبة . لسنا بالمدركين غايتنا بنحونا نحو الحضارة الغربية ، بل بالاعراض عنها مااستطعنا الى ذلك سبيلا ، ولسنا

بالبالغين غرضنا بزيادة الاشتباك بأشراك تلك الحضارة المزركشة ذات الخيوط الماعة من الدمقس والابريسم ، بل فى الادبار عنها واجتنابها فى كل طريق تراءت لنا فيه ».

هـذه خلاصة ماأوضحه المستر بوز ، وله من المناصرين فى آرائه عـدة رهط من المفـكرين الخياليين مثل رابندرانات طاغور ومن نسج على منواله . غير أن الامر الذى لامراء فيه هو أن هذه الآراء على مااشتملت عليه من ملذوذ الخيال وبديع التصور ، هى ضرب من العبث والباطل ، اذ أن شعباً بأجمعه يعد بمئات الملايين ليس يستطيع بعد اليوم الانقطاع عنوةً عن سائر العالم ، ويتجلبب جلباب العزلة على نحو ما كان هكذا فى غابر الدهر ، منـكراً ماهنالك من الصلات والروابط بينه وبين المجتمع الانسانى ، ومنفرداً انفراد النساك فى الصوامع والغيران . ان زمن « عزلة الشعوب » قد انقضى وطويت صفحته ، فلن يعود الى الوجود ولا سيما فى بلاد مترامية الأطراف كالهنـد وهى ملتقى طرق الشرق يحيط بها البحر من أكثر جهاتها . وزد فى الاعتبار أن هذه البلاد قد تغلغلت فيها الآراء الغربية تغلغلاً بعيـداً وانتشرت فى أهلها الأفـكار الاوروبية انتشاراً كبيراً

وكان لتلك الاقوال المضروبة على أوتار التقشف ، الأوتار الحساسة الـكامنة أبداً فى مزاج الهندى وطبائعه ، أكبر تأثير فى نفوس العـدد العديد من أهل الهند حرك من نفوسهم الساكنات ، فباتوا وقد أدركوا امتناع تحقيق آمالهم كلها ، يحاولون أمرين أولهما اتخاذ سبيل وسط يستطيعون به احتفاظ كل شئ ورثوه من النظام القديم مما لا بستهم على كرور الايام صبغته ومازجتهم بفعل العادة طبيعته . والآخر اقتباس الاحسن واختيار الصالح الملائم من الحضارة الغربية ، ثم افراغ ذلك فى القالب الذى يوافق شأنهم ويجارى مستوى حالهم ، موسوماً بميسم هندى ومعلقاً عليـه شارة الوطنية الهندية . وعلى هذا الرأى وضع ارباب هذا المذهب برامج لانشاء نظام جديد قائم على مزيجٍ من التصوف الهندى ، ونظام الطوائف ، والصناعة الغربية ، والاشتراكية .

ولـكن هذه البرامج على ما فيها من فائق البراعة وثقوب الرأى ليست بالجامعة المانعة ، اذ لو استبصر واضعوها لعلموا المثـل الغربى انه « لا يستطاع أكل الحـلواء واحتفاظها معاً » . ومتى ما فقهنا شأن الطبائع المتضادة ، والصفات المتخالفة بين الشرق القديم والغرب الحـديث فى نظامهما الاقتصادى ، تبـدى لنا ان كل محاولة يبتغى بهـا التوفيق بين وجوه

النظامين توفيقاً مقصوراً على المواضع التى كثر التشابه فى صفاتها والتجانس فى طبائعها ومزاياها ، مع عدم النظر فى مواقع النقص وفى الكثير من الاختلافات والمتناقضات ، هى محاولة للتأليف بين الممتنع تأليفه أو الملاءمة بين لونين متخالفين ، لا يجدى ذلك نفعاً أكثر مما تجدى محاولة المريد تربيع الدائرة أو تدوير المربع . وقد قال لويس دكنسن فى هذا الشأن قولاً حكيماً (سنة ١٩١٤) : « ان الحضارة انما هى جهاز تام كامل ، وكل ما فيها من فن وأسلوب ودين جميعه معلق على صفة النوع الذى يكون به ترقيها فى الاقتصاد وأصول الصناعات . انى لا أكاد أصدق ان أمة من أمم الأرض تستطيع الترقى بأن تأخذ من هذا عند ما تريد وتعرض عن ذاك عند ما تأبى ، كما هو شأن الشرق الذى قد يقول ، انى لآخذ من الغرب سفنه الحربية ، وجواريه المنشآت ، ومعامله الصناعية ، وعلومه الطبية ، ولن آخذ عنه اختلاط مجتمعه وانكماشه وهرعه ونصبه ، وشناعته وقبحه ، وافراطه وطمعه . . . كلا انى لا أكاد أصدق هذا ، بل أرجو ان الشرق يقتفى سبلنا ويتبع مناهجنا ، اشاء أم أبى ، وهو سيجتاز ما قد اجتزناه نحن من مشقة وعناء ، وسيسير القدمية لا يلوى على شئ ، ولا يعرج بين السبيلين حتى يدرك مستوى من الحضارة رفيعاً » .

هـذا هو القول الصحيح . فان الشرق باعتبار ما لا يحصى من الشواهد والأدلة الظاهرة على شأنه اليوم ، سيقتفى آثار الغرب فى سبيل هـذا التطور الذى سيقف عند حد ، وقد يعرض عن بعض نقائصنا وعيوبنا الظاهرة ، ولكن فى غالب الأمر سيمشى على صراط شبيه بصراطنا . وهذا التطور كما قلنا فى شأنه فى مواضع تقدمت انما هو مكيف لكل أفق من آفاق الحياة الشرقية ، وقد بينا مجارى هذا التطور العظيم من وجهاته الدينية والسياسية والاقتصادية ، وبقى الكلام على الوجهة الاجتماعيـة التى انتهينا اليها فى الفصل التالى .

الفصل الثامن

التطور الاجتماعى

كفى دليلاً على ماهذا التطور الذى نشهده اليوم فى الشرق من الشأن والعظمة ، ماهو متجلٍ فى أفق الحياة الشرقية من ضروب الانقلاب ، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة ، إذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم فى تحول اشكال الحكومات ، والأوضاع السياسية ، والمعتقدات الدينية ، والتطورات الاقتصادية ، هى فاعلة أيضاً فى أطوار النظام الاجتماعى ، وليس شأنها فى هذا المقام بأقل منه فى سائر مواضع الانقلاب الشرقى . وقد أتينا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن فى الأطوار والتارات التى تقدم الكلام عليها . وغايتنا فى هذا الفصل أن نبسط الكلام على التطور الاجتماعى الحادث اليوم فى العالم الاسلامى .

لامراءَ فى أن هذا التبدّل خطير عظيم ، على كونه لايخلو من غموض يظهر فى بعض المواضع ، خلافاً لسائر آفاق الانقلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح . والسبب فى هذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة فى حياة الفرد والأسرة والجماعة فى المشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة ، يحملان غير المتعمقين من أهل الاستقصاء فى شؤون المشرق على أن يجنحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير ، بحيث على زعمهم ، لم يتناول التطور الحقيقى داخلها مثلما تناول خارجها ، ولا تغلغلت روح الانقلاب فى باطنها كما أحاطت بظاهرها ، ولو بلغ الانقلاب المادى وتحول ظاهر الحياة مابلغا . على ان هذا الرأى الذى يقول به هؤلاء القوم الذين لايعولون على التحقيق فى المسائل ، هو مما لايجيزه أهل العلم والبحث ذوو النظر النافذ فى أسرار الانقلابات ، وان الشرقيين أنفسهم ليستهزئون بهذا القول وأمثاله ، ويفندونه بالحجة

والبرهان ، ويؤيدون حدوث التطور الاجتماعى ونتائجه بسنة التحول التى لن يجد لها الناس تبديلا .

وأهل الشرق لعمرى على حق فيما يقولون ويبينون ، فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقى ماديا ، من حيث هو لم يزل على حاله من السكون والجمود والغرارة من الجهة الاجتماعية فانما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة فى الحقيقة التى بات لايختلف فى ثبوتها من أهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، إذ أن الأنظمة الاجتماعية تتبدل أبداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبدلا لايقل عن ذلك الذى يتم بقوة المؤثرات الأدبية المعنوية ، والآراء والمجردات . أيستطيع من ينظر فى مادون العرض الغاشى ، نظر المتأمل المستبصر ، ان ينكر ماللقطر الحديدية والبرد والأسلاك البرقيـة من قوة العمل والتأثير فى سير الترقى الاجتماعى والأدبى والحضارى ؟ أما من شأن ، اجتماعى ومادى باتى ، لما يقتبسه الشرق من الغرب ويأخذ عنه من مئات المحدثات والمخترعات ، بين ثمين وتافه ، وخطير وحقير ، وضار ونافع ؟ أيخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية فى المدينـة المنورة غدا كالكوكب تتلألأ فيه المصابيح والأضواء الكهربائيـة ، وان الرقاع البريدية المصورة صارت تباع على أبواب الكعبة المقدسـة فى مكة المكرمة ؟ أجل ، قد يستغرب المدقق أول الأمر من أن المؤذن أضحى يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم أخذ يخرج من مخدع حرمه فيتناول صحف الصباح فيقف على أنبائها وأخبارها ، ثم يمتطى سيارة الى بيت تجارته ومعه سجادة الصلاة . ثم اذا مافرغ من إقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونه وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية . فلماذا نحن نسلم بأن للمسجد ومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً فى حياة المسلم وتكييف معيشته على الجملة ، حينما ننكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التى أخذها الشرق عن الغرب من التأثير فى تكييف حياة المسلم الاجتماعية ؟ أضف الى هـذه الأسباب الحسية المادية الأسباب الأدبية المعنوية مثل العلوم الطبيعيـة ، والرسائل الغربية الحديثـة ، التى جعلت للتلهى والراحـة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، فتبدو لك للحال أهمية التطور الاجتماعى الحادث اليوم ، واتساع أفقه .

على أن هـذا التطور الاجتماعى قد اتسع نطاقه فى الأقطار الشرقية التى هى أكثر تعرضاً من سواها لتيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن . لما عاد

المستشرق الهنغارى ڤمبارى الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت أربعين سنة دهش حقاً مما شاهده من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذ راسفة بالأغلال الحميدية ، فقال : « عند ذلك طفقتُ أسائل نفسى أهؤلاء ياترى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى؟ ولشد ماكان عجبى لما أخذت أقلب نظرى فى مظاهر المدنيـة وصورها فرأيت المبانى الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمـة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة دبيباً ، فجرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائية تنساب فى جميع الأنحاء ، كل ذلك ممـا لم أره فى مثل هـذه الأسواق والشوارع وهى إذ ذاك مختلط تزدحم فيه الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخالطها أصوات المؤذنين الذين يلجأون الى الله من على رؤوس المآذن . فظهر لى من جميع ماشاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ؟ ما هو مناقض للقول المأثور ان « لابدعة فى الاسلام » . وقد كان دهشى أشد وعجبى أبلغ لمـا دخلت المنازل والبيوت فلم يكن بوسعى سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهدته من كيفيات التحول الظاهرة فقط ، بل أيضاً لما هو أجل قدراً من التطور المعنوى الكبير . فبدا لى ان طبقة الافندية (أى المتهذبة) فى الاستانة قد تبدلت من حال الى حال ، وانتقلت من دور الى دور ، فى مجتمعها وطرازها الخارجى وطرق اتصالها بالغربيين »

ويعظم ڤمبارى شأن الارتقاء الداخلى كما يعظم شأن الارتقاء الخارجى . فى الطبقات التركية التى تناولها التهذيب والتعليم ، فقال فى هذا المعنى : « قد غدا التركى اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحاً كبيرا مشهوداً ليس فى المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل فى أسلوب المعيشة المنزليـة أيضاً ، وذلك من صـفة الأثاث والمتاع . وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد لجليل الشأن ، لأنه معلوم ان الشعب الذى يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربيـة السائقة الى الترقى العقلى ، عند مايصفو اعتقاده بأن هذه المؤثرات انمـا هى صالحة له ، لايستطيع الاقلاع عن مألوف عاداته الثابتـة الصبغة ، المتأصله فى مزاجه وطبيعته ، الا بشق الأنفس . والترك قد لقوا الشدائد فى هـذه السبيل ، فذللوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابسة الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم

المجتمع التركى بأسره حتى رجال الدين . ولكن جماعة أهل الرأى على اختلاف فى كيفية التطبع وأسلوبه ، فبعضهم يبتغون اعطاء مايودون أخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ، والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، إذ يبتغون انتحال تهذيبنا العقلى على علاته ، ويأبون كل تكييف له ولو قليلا » .

والأمر الأهم هو ماشاهده ڤمبارى من شان النساء المخدرات القابعات فى أكسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضى بالعجب . قال ڤمبارى : « وأزيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد تبدلت أساليب حياتها تبدلا شاملاً عفا معه كل أصل قديم خلال الأربعين سنة الأخيرة . ثم ان هذا التطور قد تمّ أمره بسببين : الأول اعتقاد الترك بان التجدد ضرورى لهم فى هذا العصر ، والثانى الضغط الشديد الطارئ من الخارج » . واذ لاحظ ڤمبارى انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة فى القيام بتدبير الحركات الاصلاحية وتنظيم الدعوات وبثها فى هذه السبيل ، قال : « ان هذا لأمر حيوىّ للأمة لأنه متى ماشرعت المرأة تقوم بواجباتها فى الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الاصلاح الحقيقى لابدّ له من أن يثمر ثمره فى المجتمع والدولة والحكومة » .

ويبين «خوجة بوخش» ، المسلم الهندى الحر ، وهو من أهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية فى الهند غدت فى تطور كبير وذلك بسبب ماتشربته من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما هى الحال فى تركية ، ويوضح خطورة هذه الأدوار الشديدة التى لابد من اجتيازها ، أدوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج فى الجديد . وهو متشائم من هذا ، لأنه يعترف بأن « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معلوم ، دور فساد فى الآداب ، وانحطاط فى الاخلاق ، وعبث بالدين ، مما قد يحسبونه عرضاً ويزول ، ومرضاً ويبرأ ، ولكن لا مبرئ لهذا سوى كرور الأيام » . ولكن هذا الخبير الكبير ، مع علمه بجميع ماذكر فانه لايقلل من خطورة الدور الحالى الذى أقل مايقال فيه انه هادم لاركان النظام الاجتماعى القديم هدماً فقد قال : « ان أوضح نتيجة لهذا التطور هى تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية ، وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الامر الواقع أظهر مايكون فى موضعين :

معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبه كان مشتملا على فضائل جمة وافية» . أما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك لا بل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحل محله « استقلال فكرى عملى غريب . فعفت صفة احترام الماضى ، واكرام الكبار والشيوخ ، واعتبار قال فلان وروى فلان . كان الأب فى ظل النظام القديم ربّ العترة ووليها الحيم ، وكانت كلمته فيها شريعة مطاعة وأمراً مقضياً ، وكان حارس مقامها وراعى حرمتها ، وحافظ شأنها . أما الآن فقد أصبح مجرداً من جميع المنزلة التى كان عليها من قبل ، وراح أصغر فرد من أفراد الاسرة يبتغى الاستواء معه فى كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة فى كل أمر من الامور » .

ويأسف المستر بوخش أسفا لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس فى الترف ، وذلك ولاشك ناشئ عن اقتباس عادات الأوروبين وتقليدهم فى جميع أساليب المعيشة تقليداً أعمى جامعاً للضار والفاسد والغث والسمين . ثم يسائل المستر بوخش نفسه : « ماذا لعمرى ثم فى الهند ؟ اننا قد اتخذنا أزياء أوروبية فى لباسنا ، وأساليب أوروبية فى معيشتنا ، ولم نكتف بذلك بل جاوزناه الى عادات شرب الخمر والمقامرة والميسر ، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحالها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا أن نتعلم من أوروبة ولكن دون أن نهدر فى سبيل ذلك كينونتنا الأدبية ووجودنا المعنوى . اننا لم ننتبه الى الخطر الذى حاق بنا فسرنا فى التقليد سير ضلال ، وجلّ ماحصلناه أننا خضنا خوضة قليلة فى التاريخ الانكليزى والأوروبى ، ثم طفقنا نزدرى ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدنا . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على انباء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولاشيدنا لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً يثبت به غير متزعزع على صروف الدهر وتقلبات الأزمان . وعلى الجملة فاننا قد أفسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاحاً » .

ويؤكد المستر بوخش القول مثل ڤمبارى ، ان المرأة الهندية سائرة فى سبيل التحرر ، اذ انقضى العصر الذى كانت هى فيه سلعة تباع وتشترى « فصارت المرأة المسلمة اليوم فى الهند تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة[١] » لم يزل شائعاً ولكنه ليس من الشدة وايجاب العزلة كما كان منذ

(١) البردة بلغة أهل الهند معناها الستر يمد للمخدرة فى ناحية من المنزل .

خمسين سنة خلت ، بل انه أوشك يسقط و يندثر ، وشرعت النساء يتدرجن فى نيل حقوقهن الى أن يبلغن اليوم الذى يدركن فيه السوى الكامل لتحرر المرأة الشرقية . كانت نساء بلادنا منذ أربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من أزواجهن . أما اليوم فقد تبدلت حالهن كثيراً ، و بتن يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعزاز مقامهن .

بهذين البيانين ـ الموصوف بهما التطور الاجتماعى فى الشرقين الأدنى والأوسط ـ ندرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم فى الشرق . ثم ينبغى لنا أن نذكر أن هذين الكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة فى المدن والحواضر الكبرى ، والحقيقة أن الاختمار سار سريانا عظيما ومنبث انبثاثا شاملاً ، فى جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الأمة الواحدة بعد الأخرى ، وتراه دائماً على اتساع وامتداد .

ان انتشار التعليم الغربى فى الأقطار الشرقية خلال بضعة العقود الأخيرة ليدعو للاعتبار لأنه قد نقض ماهو معهود فى الشرق منذ القديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت أصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد فى جميع الشرق ، من مراكش حتى الصين ، لاتخرج عن حد تحفيظ الكتب الدينية والأسفار المقدسة تحفيظاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسلم أو الهندوى يقضى سنين عديدة يتلو على معلمه أو مدرسه فصولاً من الكتب الموضوعة بالعربية الفصحى أو السنسكريتية ، الكتب التى لايستطاع ادراك معانى عباراتها وتراكيبها ، ولافهم أغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع المدارك العقلية، فتتبلد القوى الدماغية جميعها ماعدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلى .

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعا حتى اليوم فى بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النشء الشرقى تفنى الأوقات الثمينة فى معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على أن نظاما جديداً شرع يماشى ذاك القديم منازعا له وملاشيا اياه وهو يشيع وينتشر فى جميع المحيط التعليمى ، من كتاتيب الأطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشىء الشرقى يرتضع أفاويق العلوم على مناهج غربية صحيحة وهذه المنشآت العامية الحديثة الطراز هى على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات ـ التى تعلم تعليما حراً وتعد الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية أو المهن

الحرة – عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعداداً حسنا يتأهلون به لتعليم النشء المقبل وتثقيف عقولهم على الأصول الصحيحة والأساليب السليمة . والمدارس الأميرية والخاصة لاتنى فى توسيع التعليم على الطراز الغربى وفى زيادة نشره فى الشرق وقدكان من شأن جميع الحكومات الأوروبية الأخذ بنصرة التعليم الغربى فى الأقطار الداخلة فى سيطرتها وحكمها ، ولاسيما الحكومة البريطانية فى الهند ومصر ، بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قدانتشرت وانبثت فى آفاق المشرق ، وأنشأت عدداً كبيراً من المدارس والكليات ، وبينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركية والحكومات الوطنية فى الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربى فى شعوبها ورعاياها نشراً متواليا مباركا .

على أن النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية فى الكمال المطلوب . ولا غرابة فى ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولأن التقاليد الفاسدة المتسلسلة من ماضى الأجيال ما انفكت تعترض جهد الأقوام الساعية بجد فى سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التى لم تزل عالقة به لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، أميل الى الاعتماد على ذاكرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطالب سرعانا حتى يدركوا ماتشره اليه نفوسهم من تقلد الوظائف والأعمال الحكومية ، على التضلع من العلوم والتمكن فى المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التى لا بد أن تكون بمقتضى سنة الترقى الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان أخذ كثير منهم يحبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الابتئاس ، ويخفقون سعيا وراء أمانيهم فتشق عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الأعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يسيرون فى الحياة على غير هدى لايسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضا بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب أعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث أسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضوى . فى هذا الصدد أجاد « السر ألفرد ليل » فى وصفه سيئات التعليم الغربى فى ربوع الشرق فقال فى شأن الهند :

« لامراء أن الجهل انما هو علة شرور كثيرة و بلايا عديدة فى دائرة المجتمع ، وقد قام كثير

من الفلاسفة وحملة العلم فى القرن الماضى ينادون أن التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الاذهان هو أنجع دواء وأفضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلال والجهل » ، وقام ساسة خبراء مثل « ما كولى » يبينون للملأ أن التعليم على هذه الصفة هو السبيل الفضلى لخلاص العالم بأسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التى قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والاحكام . فلذلك بات ضربة لازب على الحكومة البريطانية أن تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقليا ، حاسبة هذا العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم ، مع كونه الدواء الشافى لامراض عديدة وكونه ضروريا لابد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعى الصحيح ، فانه إذا لم تحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تدبيره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعله وعمله سماً قاتلا تتولد منه جراثيم الفساد والاضطراب ، بعد أن كان خير دواء يرجى به الشفاء . ولاغرابة فى ذلك لأن التعليم على هذه الحال أخذ مفعوله يسرى وفواعله تشتد اختماراً فى مجتمع متزلزل الأركان متداعى الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مساريع الاطماع وبعيدى الآمال مما لايستطاع تحقيقه فى الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراما » .

غير أن بعضاً من الغربيين أهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، أخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبعثة من جانب هذه الطبقات المشتملة على الذين أتينا على ذكرهم من ذى العلم الناقص [١] وأنشأ المستعمرون

(١) كثير من مؤلفى الأوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم فى المستعمرات ، بحجة أن الغالب على النشء المتعلم هو النزوع الى الثورة ، إذ كانوا يقرأون اموراً « تسىء عقولهم هضمها » ويقيسون اقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التى عربناها عن « مجلة باريز » (راجع صفحة ٣٠٤ من الجزء الثانى) والتى صاحبها يشير باماتة اللغة العربية من المغرب واقامة الفرنسوية مقامها بشرط أن يكون التعليم مقصوراً على ما يلزم لاماتة هذه واحياء تلك لاغير . والحاصل انهم يريدون قلع العلوم الشرعية من بين المسلمين ، ولكن يضنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية ، لئلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، اذ يعلمون انه لا يجتمع العلم والذل فى محيط واحد سواء كان علما شرعياً اسلامياً أو علماً أوربياً عصرياً أو علماً جامعا للامرين . (ش)

يعزون السبب فى انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذى جاءوا بمناهجه وأساليبه . فاللورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب فى شان المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية .وقال موظف بريطانى هندى شهير ان علة الاضطراب فى الهندى ناشئة عن « نظام التعليم الذى نشرته بريطانية فى البلاد » .

وهؤلاء المرتابون المتشائمون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من أن التعليم هو سبب نشوء الاضطراب فى الشرق ، يغفلون عن انه لا بد لادوار التطور والانقلاب من أن يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مرد . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف عن الحكماء من أهل الاستقصاء ، فكان شأنهم فى درس تطور الشرق خلاف شأن أولئك المرتابين ، اذ قالوا ان التبدل والتغير فى أنظمة هذا المجتمع الانسانى لا يكون خاليا من نقائص تعتوره وعيوب تصاحبه ، ومن هؤلاء الحكماء ڤمبارى الثقة الكبير الذى أحاط بالشرق وشؤونه علماً ، وأدرك أن فى الشرق اليوم مستوىً علياً تتجلى فيه جدارة الموظفين الوطنيين ، وبه يظهر صدق أمانتهم ، وهم الموظفون القائمون بأعمال الخدمة المدنية فى حكومة الهند البريطانية وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربيـة) ، ففى هـذا المعنى قال ڤمبارى : « ان الشرقيين المحافظين المتشددين والأوربيين المتعصبين ، ليخالون أن الاتيان بتهذيبنا الغربى الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرقى غير المهذب أكثر أمانة وأعز شرفاً وأشد اباء ، وأجدر بالثقة من الاسيوى المهذب على الأساليب الغربية . ان هـذا الخيال لأفن وخبال فلعل هذه الأوهام تصدق على أولئك النائلين قسطا قليلا من التعليم والتهذيب ، ولكن لا تصدق على الاسيوى التام التهذيب الذى وقر فى نفسه ان الارتقاء العقلى قائم بجملته على الأساس المكين ، وهو التعليم الوافى الصحيح ، والتهذيب المنظم الطريقة والتثقيف السليم والأسلوب والمنهج » .

ثم مهما كان شأن النقص الذى صاحب أساليب التعليم الغربى فى الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذى لا يستطاع الانهجه ، والباب الذى لا حيدة عن ولوجه . وعلى كل فان ما قد بلغته الروح الغربية فى الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو أردنا الكلام عليـه تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً أن

الحكومات الاستعمارية قد كان فى وسعها أن تحول دون التعليم الغربى الصحيح ، أفلم يكن الشرقى على كل حال قادراً أن يتعلم ما يتعلمه على طرق أخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرقى وأفضل ان يتلقى العلوم والمعارف فى كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الاكفياء من المدرسين والمعلمين ، من ان يترك وشأنه يتتبع الأساليب الفاسدة والطرق الملتوية ويخبط خبط عشواء .

وتتضح لنا خطورة التعليم الغربى فى الشرق أحسن اتضاح بما هو ظاهر ومشهود من النتائج الاجتماعية الكبرى ، الا وهى ترقية شأن المرأة واعلاء مقامها ورفعها من تلك الحالة التى كانت عليها . ومعلوم أن تلك الحالة التاعسة التى كانت تنزل بمقامها فى جميع البلدان الشرقية تحتاج الى الاصلاح الحقيقى الذى هو قوام المجتمع الناجح . ان هذه الحالة السيئة فى الاقطار الاسلامية هى اسوأ منها عند الهندويين القوم المنتشر فيهم الزواج الباكر واستعباد الارامل والأيامى (اللواتى كان من العادة أن يحرقن أحياء وظلت هذه العادة شائعة حتى قضى عليها الانكليز بسيف القانون) وتحجب المرأة تحجباً أشد من تحجب المسلمات واثقل وطأة . قال كاتب انكليزى : « نحن فى الغرب نقول السيدات أولاً والرجال ثانياً ، وفى الشرق يقولون الرجال أولا والسيدات ثانياً . ولعل هذا كاف لتبيين مبلغ الاختلاف فى صفات البيئة المنزلية بين الحضارتين الشرقية والغربية » .

وقد يبدو للمتأمل لأول وهلة أن حالة المرأة على هذه الصفة لم تزل تحت تأثير بحيث لم تفش فيها لحد الآن المؤثرات الغربية التى تبعث فى مجتمع النساء روح اصلاح حقيقى . كلا ، فان الأمر على خلاف ما يتبادر الى الذهن ، اذ ان المؤثرات الغربية قد انبثت وذاعت ، وكان لها ما كان من بالغ التأثير فى افق نساء الطبقات العليا ، فانتشر تعليم الاناث انتشاراً كبيراً ، ولكن على نطاق أضيق من نطاق تعليم الذكور . وقد ظهر فى الأقطار الشرقية التى هى أسبق من غيرها ترقياً وعمراناً اجتماعياً مثل القسطنطينية والقاهرة ومدن الهند ، طراز جديد من النساء العصريات ، المتهذبات الراقيات ، ولا سيما من معلمات المدارس اللواتى نزلن منزلة رفيعة فى المجتمع الذى أخذن يعملن فيه .

وقد جاء تطور المرأة المسلمة فى الشرق بنتائج حسنة لم يكن نفعها مقصوراً على النساء فحسب ، بل تناول المجتمع بأسره . وكيف لا يكون هذا التطور خطيراً والمرأة

الشرقية ، كما قال ڤمبارى ، مستغرقة فى الجهل والغباوة ، واذا كانت هكذا . فما أسوأ التربية التى تنشئ بها أولادها الذين على صدرها و بين ذراعيها . وهل من بلية أعظم من هذه البلية التى تحول دون ارتقاء الفتى الشرقى والفتاة الشرقية ارتقاءً عقلياً ، وهما يشبان فى مخادع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطرى ، وتضيق المدارك ، فهذا الأمر أخذ يحمل الآباء الشرقيين أولى الرأى والمعرفة ، على ارسال ابنائهم الى المدارس أبكر ما يكونون سناً للطلب والتحصيل ، انتشالا لهم من تلك الحياة التى اذا طالت عليهم وهم فى مخادع الحرم ، أفضت عليهم بالخمول وفتور كل قوة حيوية فيهم . ولكن هذه الوسيلة على الجملة لم يكن من شأنها سوى تخفيف الوطأة الواقرة ، لأن ما ينطبع فى نفس الابن ويرتسم فى لوح ذهنه وهو يرتضع ثدبى أمه فى السن التى يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه فى سائر العمر لأبقى أثراً من جميع ما يتلقاه الابن فيما بعد عن المعلم . فبهذا الاعتبار ، ما دام نصف الشرق لم تعمل فيه عوامل الارتقاء على الدوام ، فنهضة الشرق الاسلامى على الجملة تظل ناقصة بتراء ، ولا سبيل الى كمالها ما لم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً فى هذا الدور وكل دور مقبل .

ولكن ازدياد عدد النساء الشرقيات المهذبات ازدياداً متوالياً فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، هو الدواء الناجع المبرئ من هذه العلة الكبرى والمتمم للنهضة الشرقية . قال كاتب غربى فى هذا الصدد : « علموا الامهات وهذبوهن تتبدل حالة المشرق تبدلاً تاماً من أقصاه الى أقصاه ، فان الفتيات متى ما تلقين معارف وعلوماً صحيحة مع ما يحفظنه من السور والآى القرآنية استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً ، سواء كن بنات أم اخوات أم أمهات . ولا شك فى أن النساء اللواتى تعلمن القبالة وأصول الطبخ والخياطة وقواعد عامة فى علم الصحة فى مدارس الاقتصاد المنزلى ، كانت حياه المنزل الذى يكنّ فيه حياة طيبةً هنيئة ، فى جو تذاق فيه لذة السعادة البيتية . ان الحياة القديمة التى كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديون لاهية ، لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الحلواء آونة بعد أخرى ، وماجنةً مع الخوادم اللواتى حواليها تارةً ، وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ، ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكا امينا ، لا عبدة له ولا سلعة بين يديه . وشأن الزوج آخذ فى التبدل من

كونه تجارة خسيسة لتعاوض النساء كما تتعاوض الأمتعة والعروض فى الاسواق ، الى اتحاد زوجى وثيق العروة قائم على احترام المرأة من قبل زوجها وابنائها ، وهى سائرة فى ظل هذه الحياة الجديدة الى أن تكون ربة مقام رفيع وشأن اجتماعى كبير » .

وفى هذا العصر الجديد ترى الرجل والمرأة تتبدل أفكارهما وآراؤهما تبدلاً ظاهر الأثر فى انقلاب مستوى المعيشة ، المستوى الآخذ فى الارتقاء تبعاً لتطور الآراء والأفكار بطبيعة الحال . وهذا جميعه وان كان أظهر ما يكون فى أهل الطبقات المثرية فى المدن والحواضر ، فهو جار مجراه من الشيوع فى جميع طبقات الشعب . فالشرقيون كافةً ، من غنى وفقير ، وقروى ومدنى ، آخذون فى تبديل نمط معايشهم تحدياً بالغربيين ومحاكاةً لهم . وهذا التبديل يصحبه تطور اجتماعى بعيد الافق واسع الميدان . والسبب فى ذلك ان بعض وجوه التباين والاختلاف بين الحالتين المقلع عنها والمنتقل اليها ، لأشد تأثيرا ومفعولاً من جارى الحالات المعتادة فى طريق الحياة ، ذلك حق لا ريب فيه سواء كان فى العالم الشرقى الحافل بالتقاليد الموروثة ، أم فى العالم الغربى الحديث . وهذا التباين والاختلاف ليسا ناشئين كل النشوء عن أمر الغنى و بسطة الحال (لان الشرق مثل الغرب من حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع) بل بالاكثر عن وسائل الرغادة والرفاهية بمعنييهما عند أهل الغرب فالشرقى المثرى فى سالف العهد لم يكن غالب دأبه الا فى تبذير ماله فى سبيل الترف الشرقى المشتمل على الأثواب الفاخرة والالبسة الثمينة والجواهر الكريمة والنساء الغوانى ، والخيول المهطمة ، والخدم والحاشية وغير ذلك ، وما كان ليعرف شيئاً من أسباب الرغادة الغربية الحديثة ، لهذا يصح القول فى هذا المعنى ان الشرقى المثرى فيما مضى كانت عيشته المنزلية على مستوى أقل مما يرضى به سواد الغربيين أهل الحرف والصناعات .

غير ان الشرقى اليوم طفق يعتاد أسباب الرغادة الغربية ، و يقبل على هذه الاسباب مااستطاع الى الاقبال سبيلا . فالاشياء العديدة التى جرينا نحن على استعمالها ترفيهاً لحالنا وتوفيراً لراحتنا وهنائنا ، وهى شائعة فى حياتنا شيوعاً لاغنية لنا عنه ، كالمصابيح ، والانوار الكهربائية ، والمطارز ، والساعات ، والجعة ، والمظلات ، وأدوات الصحة ، وكثير سواها ، باتت جميعها عند الشرقى اليوم من ضرورياته الجديدة التى لا يطيب له عيش بعدُ الا بها ، وهو لا ينفك يبتغى التمتع بضروبها واشكالها و يطلب المزيد منها . لكن اقباله عليها الى

هذا الحد قد أفضى به بالتالى الى الوقوع فى ضنك شديد ، وان رمت الوقوف على العلة فاعلم أن الشرقى ليس الاقتصاد من شنشنته ، ولا التوفير من طبعه ، فلما أخذت حاله تتبدل منتقلا الى دور طافح بالحاجات الجديدة المستطابة والاسباب المستلذة ، كان لابد بالضرورة من ارتفاع سوىّ معيشته ارتفاعا كبيراً ، فكيف يستطيع والحالة هذه أن يتوفر له المال الذى يكفيه نفقته الجديدة ؟ فاذا كان فقيراً تعين عليه أن يقتر على نفسه تقتيراً ، لكى يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة ، واذا كان غنياً شق عليه الاقلاع عن الترف الذى اعتاده ، وصعبت عليه مزايلة ذلك الطراز الذى ورثه من آبائه وأجداده ، فنجم عن جميع ذلك زيادة فى السرف وغلو فى الترف . وفى هذا المقام ينبغى لنا ألا نغفل الحقيقة الراهنة وهى أن شعوب الشرق الادنى والاوسط على الجملة لم تكن يوما بعارفة للاقتصاد من غاية ولا للتوفير من معنى . فالعامة من المشارقة ولو كانوا فقراء الى حد هم مكرهون به على رعاية الاقتصاد فى النفقة ، هم والحق يقال مبذرون مسرفون متى ما تيسر لهم شئ من السعة والوفر. والطريقة التى يبذر بها الفلاح التركى أو الهندوى دراهمه الموفرة لاقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم وما أشبه ذلك ، تبذيراً يجره الى الرزوح تحت اعباء الديون ، مما يدهش له الغربى أيما دهش . أضف الى هذه الحقيقة ان نفقة الضروريات التى لايستغنى عنها أهل الشرق ولا الغرب ، كالطعام واللباس والدفء والكنّ ، قد ارتفع مقدارها خلال العقدين الماضيين ارتفاعاً كبيراً ، نستطيع أن نتصور به مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والازمة ، بما يقتضيه ارتفاع نسبة المعيشة فى هذا الدور .

يتضح لنا من جميع ما تقدم أن التنازع فى سبيل البقاء يتضاعف شدة ، والتناحر تزداد حلقاته استحكاماً ، بحيث ان الفلاح فى حقله والعامل فى معمله ، باق فى هذه الحال التى قد ارتفعت فيها أثمان الضروريات المعدودة قوام الحياة ارتفاعاً لا قبل لهما باحتماله ، وأمسيا بعد ما اعتادا صنوفاً من الحاجات العديدة المستحدثة التى ما كانا يعرفانها منذ عدة عقود خلت اعتياداً جعلها من الضروريات ، يقاسيان أعظم ما يكون من القلة وضيق ذات اليد ، مماشاةً للحال وجريا مع الدور . قال أحد الكتاب فى هذا الشأن : « إن الأحوال الاقتصادية قد تطورت فى الشرق تطورا كبيرا لم يستطع معه المشارقة حتى اليوم

القيام باعباء جيع الحاجات المستجدة عندهم بسبب هذا التحول ، فازداد غلاء المعيشة ازدياداً أسرع سيراً من نمو الثروة فاتسع البون وطالت الشقة » .

ومن الأسباب الكبيرة فى هذا البحران الاقتصادى السياسى الذى يجتازه الشرق اليوم ، تعاظم عدد القطين (وان كان هذا السبب غير متفق عليه لدى الجيع) فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد . وهذا ليس ناشئاً عن شدة العاطفة الجنسية فحسبُ ، بل له أسباب اقتصادية كالانتفاع من شغل النساء والأولاد شغلا قاسياً اداً ، وأسباب ناجة عن التعاليم الدينية الحاملة على الزواج الباكر وكثرة النسل . لهذه العلة كانت الشعوب الشرقية دائماً فى همٍ ناصبٍ من الدأب وراء مواد المعيشة ولو لم تنل منها سوى الكفاف . وقد كانت فى الزمن الماضى طائفة من العلل الفاعلة من ذاتها فى تقليل عدد القطين ، كالحرب وجور الحكومات ، والاوبئة ، والمجاعات ، جيع ذلك مما كان يجتاح البلاد اجتياحاً فيجرف فى سبيله الخلق الكثير ، بحيث ان عدد الساكن كان على الجلة ، مع ارتفاع عدد المواليد ارتفاعا كبيراً ، على نسبة كادت تكون سوية . ولكن لما كان للمؤثرات الغربية عمل عظيم فى هذا الافق من الحياة الشرقية فقد تغيرت الحال من أساسها . فان امتداد التسلط الأوروبى السياسى فوق الأقطار الشرقية قد كان سببا فى وضع حد للمنازعات الاهلية ، وتقليل ظلم الحاكم ، وكفاح الاوبئة والامراض ، وتدارك وسائل درء المجاعات (١) . وبعبارة أخرى ان العوامل التى كادت تكون من قبل سببا

(١) على أن المجاعات المتعددة التى اجتاحت الهند منذ دخلها الانكليز بل فى أيامنا نحن فضلا عن المائة سنة التى خلت من زمان استيلائهم ، هى فوق كل تصور بشري . وقد نشرت احدى المجلات الايطالية منذ سنوات احصاء عن مجاعات الهند بهذا العصر ، وما جرفته من عشرات الملايين من الاناسى ، وتناقلته عنها الجرائد ؛ فكان شيئاً تورث قراءته القشعريرة والتياث النفس . وأكثر السبب فى ذلك هو سياسة الاستعمار المبنية على استئثار المستعمرين بالأرباح والمكاسب واستنزافهم منابع الثروة الوطنية بضاعاتهم وأدواتهم ، وتركهم السواد الأعظم من الهنود عالة عليهم بحيث اذا احتبس المطر قليلا ، أو هبت على الزروع لافحة سموم فقل المحصول ؛ وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الاهالى سوى الموت جوعا أو بالأمراض التى سببها سوء الغذاء ، لان الذى يأخذونه بدل عملهم لا يعود كافيا لشراء قوتهم الضرورى . ولو فحصنا فى تاريخ مجاعات الهند ، أو مجاعات الجزائر التى منها المجاعة الحاضرة المستمرة منذ ثلاث سنوات ، لا تجد انكليزياً فى الهند ولا فرنسوياً فى الجزائر مسه الجوع أو مات سغباً ، فهو دليل كاف على أن الاستعمار هو من أعظم العوامل فى مساغب المستعمرات . (ش)

فى استواء عدد القطين مستوىً معلوما ، قد تخففت أو تلاشت ، فكانت نتيجة جهد الحكومات الغربية فى درء العوادى الطامة ووقاية الأنفس من الهلاك ، ان قد هبط مستوى عدد الوفيات الذى كان هائلا فيما مضى وحائلا دون نمو عدد الساكن نمواً مطرداً الى حد قريب من مستوى عدد الوفيات ، بحيث صار المستويان متقاربين كما فى أحوال الامم الغربية . على أن الطريقة الى اهباط عدد المواليد الذى ينمو ذلك النمو الفاحش لاعلاقة له بمسئلة الوفيات ، لذا ما برح مستوى المواليد يتصاعد ويتعاظم حتى ضاقت الارض بقطينها على رحبها فى غالب أقطار المشرق الممتد فوقها التسلط الغربى السياسى . ثم ان سائر الاقطار الشرقية التى احتفظت باستقلالها ، وأخذت من الوسائل الغربية بنصيب لوقاية الانفس وصيانة الحياة ، قد زاد عدد ساكنها زيادة كبيرة فى قليل من الزمن كما هو الامر فى غيرها من الاقطار (١) .

والبلاد التى زخر فيها عدد القطين أكثر من غيرها هى الهند . فهذه البلاد لم يبرح غالبها خاضعاً للتسلط البريطانى مدة تقرب من قرن . وكانت كلها من قبل ذلك العهد كثيفة الساكن ، ثم ازدادوا خلال القرن الأخير ضعفين أو ثلاثة (٢) . ومن المعلوم البين ان هناك عوامل كالزراعة الحديثة والرى والقطر الحديدية والآلات الصناعية الحديثة ، كان من شأنها توفير استعداد الهند لكيلا تضيق بزيادة أهلها هذه الزيادة الفاحشة ، وهذا هو السبب الذى جعلها أرحب لقبول الزيادة بعد الفتح البريطانى منها قبله ، ولكن النتيجة واقعة

(١) طالما زعم المستعمرون ان البرهان الساطع على عدم الظلم ، وعلى انتظام الادارة وتوفر الاحتياطات الصحية فى مستعمراتهم ، هو ازدياد عدد الاهالى ، فهذه هى الهند قد ازداد سكانها كثيرا على ما كانوا قبل الحكم البريطانى ، وها هى جزائر الغرب كان أهلها مليوناً ونصف مليون يوم فتح فرنسا لها ، فصار فيها اليوم خمسة ملايين وهلم جرا . والحقيقة فى هذه الزيادة أنها نتيجة الشرائع والطبائع وأساليب العيشة التى عليها الأهالى ، بدليل ان هذه الزيادة جري مثلها وأعظم منها فى تركية ومصر وبلاد العرب والافغان وغيرها من الممالك التى لم تتمتع « بنعمة الاستعمار » ولا علا فوقها بساط تلك الرحمة . فكل أحد يعلم ان مصر لأول حكم محمد على لم يكن فيها أكثر مما كان فى الجزائر من السكان وها أهلها اليوم ١٤ مليوناً . فدعاوى المستعمرين من هذه الجهة ساقطة من ذاتها ، وهى من جملة تمويهاتهم العديدة لتغفل الناس عن حقيقة ادارتهم الغاشمة هناك ومما لاجدال فيه ان أهالى الجزائر لولا الاستعمار كان عددهم ضعف ماهو اليوم ، ولك أن تقول مثل ذلك عن سائر المستعمرات (ش)

(٢) فى أوائل القرن التاسع عشر كان مقدر قطين الهند ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فبلغ ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠ على ماأفاد احصاء سنة ١٩١١

على كل حال وهى هذا التعاظم الهائل . وكاد جميع العلماء من أهل الخبرة والثقة يتفقون على هذه الحقيقة التى لا ريب فيها . قال «دوق ارغيل» منذ أربعين سنة : « ليست كثرة النسل والولد فى البلاد التى أهلها على قـلة بصر بادخار المؤن والأقوات وليس فيها غنى ولا ثروة ، ويعيش أهلها على الـكفاف من فصل الى آخر ، دليلاً على الدعة ورخاء العيش» .

وعند آخر القرن الماضى تـكلم السر وليم هنطر على قضية تزايد السا كن فى الهند فاطلق عليها اسم «القضية الاساسية الـكبرى» وفى هذا الصدد قال : « من نتائج الحـكم المـدنى فى الهند تعاظم عدد السا كن الى حد لم يعرف له مثيـل من قبل ، حتى بات من الحقيقة التى يؤيدها الاحصاء الهندى كل التأييد ان ازالة النوائب الجتاحة والنوازل الفادحة التى كانت تنتاب الشعوب الاسيوية على التوالى هو كل البركة والخير » . وقال اللورد كرومر فى كلام له على فاقة الهنـد : « وليس الأمر كله مقصورا على أن الفاقة لا تستطاع ملاشاتها بسلاح حب الانسانيـة فحسب ، اذ من الثابت ان حب الانسانية على الاطلاق هو سبب فى تعاظم الشر واستفحال البلوى (ولو بدا هذا القول غليظاً متناقضاً ما بدا) . ففى عهـد « أكبر » و « شاه جهان » كانت الأوبئة من الهواء الأصفر والمجاعات سبباً فى تناقص القطين تناقصاً جعل الحياة عهدئذ حياة تنازع فى سبيل بقاء الأنسب . أما الآن فقد قضى على هذا التنازع والتناحر ، ثم جاء سلاح حب الانسانية ونزل منزلةً من عمران البلاد امتنع معها ذهاب ضحايا الأنفس وهراقة الدماء ، فازداد عدد الساكن زيادةً فائقةً ، حتى بات جانب كبير من أهل البلاد يعيشون على الـكفاف بجهد وعناء [1] . الحقيقة أولى ان تعلم ، وهى أن الصعوبة فى حكم الشعوب الشرقية الـكثيرة التوالد والتناسل لناشئة عن الحـكومة الصالحة المشتملة على عاطفة حب الانسانية ولا ريب فى هذا الأمر الذى تجاهلناه من قبل غير مرة » .

وقد أجاد «وليم اليشر» فى تبيان القضية فى جوابه على المسألة : ماهى العلة فى أن ترقى الأحوال الظاهرة لم يفض بالهند الى محجة النجح والفلاح ؟ اذ قال : العلة فى رأيى انما هى بسيطة لا تدعو الى كثير استقصاء . فان المنافع الحاصـلة والفوائد المجتناة من الحـكومة

(١) فتش فى معيشة الـكفاف هـذه ــ في بلاد غنية فى طبيعتها كبلاد الهند ــ عن آفة الاستعمار ، وسحب ثروة البلاد الى الخارج ، لا عن وفرة حب الانسانية . . . . الذى امتاز به المستعمرون . . . والذى لو قدرنا وجوده من جهة لم يسد شيئا من الخرق الذى تخرقه سياسة الاستعمار فى الثروة الوطنية . وهل يوزن الخردل بالجندل ! (ش)

الصالحة هى أشياء لاقيمة لها البتة فى بعض المواضع ، اذ شأن الشعب الذى تكون فيه تلك الحكومة ، ان يستعين بها لالترقية مستوى معيشته وتحسين أسلوب حياته ، بل للاكثار من النسل والذرية حتى يغدو ذو العائلة مستغرقاً فى العيلة والفقر ، لايصيب من الرزق سوى مايسد الرمق . نعم ، أبان هنرى جورج ان كل فم واحد يخلق فى هذا العالم يخلق معه يدان اثنتان . ولكن مع أن هذه الحقيقة الفسيولوجية لاتنكر ، فان الاستنتاج الذى يستنتجه الاقتصادى من هذا القول ، وهو ان مقدار انتاج اليدين يقتضى أن يفوق مقدار ما يستهلكه الفم ، لايصدق من الوجهة الاقتصادية الا فى المواضع التى تنطلق فيها اليدان عاملتين عملاً مثمراً نافعاً . . . . ولكن ان زادت الافواه الآكلة على الأيدى العاملة فالمصير هو لامحالة الى فقر مدقع ومسغبة شديدة » .

على انه من نكد الطالع ان المفكرين الذين يوقنون بأن زيادة القطين هذه الزيادة الفاحشة هى السبب الأشد فى فاقة الشرق والضيق النازل به ، هم عدد قليل بل جميع أرباب النظر ، يردون السبب المذكور الى العوامل السياسية و بالأخص الى السيطرة الغربية السياسية ولم نعرف الى اليوم سوى مفكر شرقى واحد أزاح النقاب عن محيا هذه الحقيقة فجلاها لبنى قومه بدون محاباة ، وخاض فى هذا الحديث مقترحاً بالحاح أن ينشأ نظام يتعين به مستوى المواليد ، وهذا الكاتب الحكيم هو ب . ك . وطال الهندى ، أحد الموظفين الوطنيين فى ديوان المالية فى حكومة الهند ، وضع كتاباً ، هو باكورة المؤلفات الشرقية من هذا النوع ، و وسمه « بقضية القطين فى الهند [1] » ونهج فيه منهجاً دل على اقتداره وطول باعه و بعد بصره بالأمور . فجاء الكتاب دليلاً على ان المشارقة شرعوا ينتبهون الى قضية هى من جلالة الشأن بمكان ، بل هى من أعظم قضاياهم الحيوية .

استهل المستر وطال كتابه بنداء بنى قومه أن يعيروا الأمر اهتماما و يقدموا على علاجه علاجاً صحيحاً لاتحيف فيه ولا اضرار ، ومما قاله : « اريد أن يعلم كل قارئ ان الغرض المتوخى فى هذا الكتاب ليس الطعن فى حضارتنا الروحية الشرقية ، ولا إعلاء شأن الحضارة المادية الغربية ، سواء أكان مباشرة أم ضمناً ، بل ان الغاية المقصودة هى أنه يجب

(١) المستر وطال هو من موظفى ديوان المالية فى الهند يشغل منصب معاون المحاسب العام . نشر كتابه سنة ١٩١٦ وطبع فى بومبىء .

علينا أن ننتبه حد الانتباه الى مسئلة أساسية فنستبطنها وننحرها علماً ، ونكتنه باطنها ونجلو غامضها ، ألا وهى قضية المعيشة ، وكيف نبتغى أسباب الرزق فى هذه الدنيا . لاينكر اننا شعب فقير ، ولفقرنا هذا الذى نعانيه أسباب عديدة أريد إيضاحها إيضاحاً شافياً كما يطلع عليها كل مواطن من بنى بلادى ، سواءٌ أكان ممن لم تصبهم النائبات يوماً ولا ذاقوا من العذاب فى سبيل المعيشة،أم ممن قد نالهم الضنك بهذا السبب وعضهم الفقر بنابه،ولكن ذلك لحسن الطالع ما كان بالعقبة الكأداء الحائلة دون إدراك النجح والفلاح لأسباب دبرتها العناية . ان هذه القضية لقائمة بذاتها ، وهى حقيقة مشهودة وواقع محسوس ، ولا علاقة لها البتة فى شأن من شؤون السياسة أو الدين . ياقوم ! أإذا كنا قد عانينا الأمرّين من جراء نتائج تلك الخطيئة ، أليس من الواجب علينا بعد ذلك كله أن نبادر للتخفيف من وخامة العاقبة وتدارك الشر قبل استفحاله وقاية لنا ولأولادنا من بعدنا ؟ ان أكبر بلية فى الأرض لهى الفقر والفقر أبو البلايا (١) . أقول هذا صريحاً ، على إجلال وتعظيم لحضارتنا الروحية ، وغير مريد تنقص الحياة الزوجية على الاطلاق ، بل انما غاية غاياتى فى هذا الكتاب أن أنادى بنى قومى أن يحفلوا بهذه القضية الخطيرة الحيوية ، وقد حملنى على ذلك وقوفى التام على ماهو منتشر فى البلاد من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين على كثرة النسل والولد ، وشعورى العميق بما يقاسيه جانب كبير من بنى وطنى ذوى الشأن والمكانة من النصب والمضض فى ابتغاء أسباب الرزق ، لهذا كان من الواجب علىّ أن أبين الكلام بدون محاباة ولا تردد وأوضح أسباب شقاء الناشىء الهندى وما ينتابه من الضيق الخانق والعسر المستحكم ، وهو على هذه الحال لايسعى فى النجاة من ذلك سعياً يرجى به الخير القريب ودرء البلاء » .

ثم يشرع المستر وطال بعد هذا النداء ، بالبحث فيقول ان السبب الكبير فى تعاظم عدد القطين فى الهند هو الزواج الباكر . ففى البلاد الأوروبية لايبلغ هذا التعاظم مثله فى الهند لأن الزواج الباكر ليس معروفاً فى تلك البلاد ، ولأن لنسبة المواليد متراوحاً معلوماً « أما الزواج عند الهندويين فواجب دينى مقدس لامفر منه ، سواءٌ أكان الزوجان أهلاً له وللقيام بتبعته ، أم كانا غير ذلك دون أن يدركا للحياة الزوجية من معنى ، فالابن الهندوى

(١) من الأحاديث النبوية الشريفة. «الفقر الموت الأكبر .» و « كاد الفقر أن يكون كفراً». (ش)

يجب عليه أن يتزوج و ينسل الأولاد العديدة لكي يقوموا بالشعائر الدينية عن نفسه عند موته ، فاذا لم يكن ذلك ، راحت نفسه بائسة شقية تهيم فى الفقر . فان مجرد اسم الابن وهو « پوترا » معناه المخلص لنفس أبيه من جهنم التى اسمها « پوثا » والبنت الهندوية العذراء اذا أدركت سن البلوغ فلم تتزوج بعد ، كانت عاراً وشناراً اجتماعياً على أهلها ولعنةً أبديةً حلت باجدادها وأسلافها . وهذه الحالة فى أمر الزواج تكاد تكون عند المسلمين الذين وان كانوا لايعرفون شيئاً من مثل هذه التعبدات والاعتقادات فانهم يقتدون بالهندويين . وهناك سبب آخر ناشئ منذ زمن بعيد عما كانت قد اقتضته الحالة الاجتماعية أيام الفتوحات الاسلامية إذ كانت الزوجة عهدئذ ضرورة من الضرورات لتقوم بالخدمة البيتية ولتساعد زوجها فى حرث الحقول والأشغال اليدوية » وشر البلية ان الزواج الباكر أعنى زواج الأولاد دون سن الرشد ، لم يزل شائعاً ومتزايداً حتى اليوم ، على جميع مابذل من الجهد الكبير فى الاصلاح الاجتماعى . فقد أفادت أرقام الاحصاء لسنة ١٩١١ ان خلال العقد الأول من القرن العشرين زاد عدد الزوجات الاناث ذوات الأسنان . — ٥ من ١٣ الى ١٤ بالألف ، وذوات الأسنان ١٠ — ١٥ من ٤٢٣ الى ٤٣٠ بالألف وذوات الأسنان ١٥ — ٢٠ من ٧٧٠ الى ٨٠٠ بالألف . و بعبارة أخرى ان فى سنة ١٩١١ كان أكثر من العشر من كل ألف من بنات الهنود متزوجات دون سن العاشرة ، ونحو النصف متزوجات دون الخامسة عشرة وأربعة أخماس متزوجات دون العشرين » .

لهذا السبب ارتفع مستوى المواليد ارتفاعا هائلا . قال وطال : « غير أن هذا الارتفاع ماكان للبلاد أمراً تغبط عليه ولا تسر له . اننا قد عرفنا أسباب ارتفاع مستوى الوفيات فجعلنا نتداركه بوسائل التخفيف ، ولكن هل يعقل أننا نستطيع احتمال هذه الحال طويلا ما دامت جارية هذا المجرى بحيث ان مستوى المواليد يبلغ ٣٠ بالاف ومستوى الوفيات هابط الى حدّ يقرب من ذاك الذى فى انجلندة وسكوتلندة ؟ أنرحب بلاد الهند بزيادة الساكن ٢٠ بالاف كل سنة ؟ اننا بلا ريب نلقى جزاء مراً على جلبنا الى هذا العالم نسلاً أكثر مما نستطيع حقا بعوله وتربيته . فان رمنا ارتفاع مستوى الوفيات فى البلاد وجب علينا إهباط مستوى المواليد الى الحد الذى يتساوى عنده مع السويات النازلة فى البلدان الاخرى . من هذا يعلم أن ارتفاع مستوى المواليد فى الهند هو علة بلائنا وأصل

شقائنا ، وسبب هذا الخطر الاجتماعى الهائل الحائق بنا . فارتفاع مستوى الوفيات وان كان من دواعى الاسف فهو ناشئ بطبيعة الحال على ارتفاع مستوى المواليد » .

ثم يصف المستر وطال مستوى الوفيات الهائل ، ولا سيما وفيات الاناث مما غالبه ناشئ عن الولادة الباكرة . ويصف أيضاً وفيات الاطفال التى تقشعر منها الابدان اذ نحو ٥٠ بالمئة منها سببه الاسقاط والاجهاض . هذا جزاء الزواج الباكر ، الجزاء الوفاق ولا بد منه .

« اذ يجب على كل شخص فى الهند ذكراً كان أم انثى أن يتزوج سواء كان صالحا لذلك أم لم يكن . لهذا ترى الصبيان والبنات يصبحون آباء وامهات ا بكر ما يكون » . على أنه من المعلوم أن الزواج الباكر هو غاية ما بعدها غاية فى الضرر ، ومفسدة لضلاعة الجنس وصحة الجرثومة وقاض على سلامة المزاج . وهذا الزواج الباكر هو أشيع ما يكون فى العناصر الدنيا من أهل البلاد الاصليين « كالبارياه » والمنبوذين . وقد بات من الواقع أن حيوية أهل الهند على الجملة أخذت تنحط وتتدلى . وتفيد أرقام الاحصاء أن عدد المسنين والشيوخ فى تناقص وهبوط . وتؤيد ظواهر الحال هذه الحقيقة ، اذ غدا من يعمرون ويهرمون أقل من القليل فى بلاد يبلغ عدد ساكنها مئات الملايين ، قال وطال : « ان الجيل المقبل تعتوره آفات شديدة وهو فى طلائع الحياة ، فالاعمار تقصر ، وحبال الحياة تتصرّم ، وشيوخنا اليوم أقل منهم بكثير منذ ثلاثين أو أربعين سنة . فهل تأملنا فى جسامة الخطر الحائق بحياة الامة جمعاء ، وتبصرنا فى اعداد الوسائل التى نستطيع بها درء ذلك ، ان الوطنيين الشيوخ الذى هم وحدهم يستطيعو بطول خبرتهم وواسع حكمتهم وسديد رأيهم ، تولى مناصب الأمر والنهى ، والقيام بالشؤون العامة الكبرى فى البلاد ، بات الموت يختطفهم الواحد تلو الآخر . فغدت مصالح التدبير والقيادة والزعامة والارشاد فى بلادنا ، المصالح التى لا يقوم بها فى بلاد الغرب غالباً الا اخو النهى الراجحة واصحاب الحنكة العظيمة ، يتولاها عندنا فتية لم تصقلهم التجربة والخبرة ولا كسبتهم الايام حنكة صادقة ولا بصيرة نافذة » .

وبعد أن أنذر المستر وطال ابناء بلاده بأن ترقية الطرق الزراعية ، ونمو الصناعة والهجرة من مقاطعة الى أخرى ، كل ذلك ليس من شأنه انقاذ البلاد من شر هذه الزيادة

فى عدد القطين ، الزيادة التى بات بسببها غالب أهل البلاد لاينالون من الرزق أكثر مما يسد خلتهم وينتشلهم من أنياب المسغبة ، أشار الى ظهور بعض التباشير الحسنة الدالة ، مع شدة رسوخ الدين والعادات ، على أن أهل البلاد شرعوا يدركون خطر الحالة ، وعلى أن هناك أمارات فى بعض البلاد تنبئ بأن مستوى المواليد أخذ يكون عند حد . ومثال لذلك فقد اقتطف المستر وطال من البيان الرسمى لاحصاء سنة ١٩٠١ هذه العبارة المشيرة الى شئ من الهبوط فى مستوى المواليد فى بنغال : « ليس تأخير الزواج هو كل السبب فى تناقص المواليد ، بل من جملة الأسباب الرغبة فى تقليل النسل رغبة ناشئة عن تبصر وروية . . . ومما هو جدير بالملاحظة ان بعض الطوائف فى « أسام » قد شاعت فيهم عادة استعمال الوسائل لاسقاط الحمل ». وجاء فى تقرير اللجنة الصحية فى « أسام » سنة ١٩١٣ : « يظهر أن السبب الخطير فى هبوط مستوى المواليد ناشئ عن اختيار ورغبة فى تقليل النسل » .

على أن هذه التباشير واللوائح الدالة على صيرورة مستوى المواليد متراوحاً فى حدود محتملة انما هى موضعية ، فليست بالوسيلة الكافية لانقاذ الهند من خطر جاوز الحد . فالحالة تدعو الى مزيد التبصر بالعاقبة وتقتضى السرعة فى اتخاذ الذرائع الناجعة . قال المستر وطال : « ان النتيجة لواقعة دون مردّ ، فلا نستطيع بعد التغاضى عن هذه الآفات الاجتماعية التى تقرض جسم الأمة . فلنعلم أن الآلة المحركة قد حلت محل عجلة الثيران فى بلادنا بحيث بتنا بسبب هذا التغير نتنازع البقاء مع الشعوب الأوروبية وهى أشد منا حولاً وأرقى سوياً ، فلا نستطيع بعد أن نقول لهذه الشعوب ماقال ديوجينوس للاسكندر « حدْ من شمسى ». ومن الراجح أن سيعود أهل العلم بعد أن تضع هذه الحرب العالمية أوزارها فيبحثون فى مسئلة زيادة السكان ، وربما ذهبوا فى آرائهم الى الرغبة فى تحبيذ الزواج الباكر وتكثير النسل تعويضاً عما اجتاحته الحرب من الأنفس ، ولكن ذلك أولاً ليس من طبيعته تسوية قضية الساكن فى بلادنا ، وثانياً سيكون رد الفعل الذى يدعو اليه أهلم العلم قريب الأجل ».

والكتاب حافل بمثل هذه الحقائق الجلية . وعدا ذلك فلا نغفل عن أن الهند وان كانت أكثر البلدان عناءً من زيادة عدد الساكن فالحالة فى سائر الأقطار الشرقية مثلها فى الهند ، اذ أن التبصر فى تحديد مستوى للمواليد مفقود من الشرق كله . وهناك الى جانب

هـذا الازدياد فى عدد الأهلين ، تلك الشرور الاجتماعية والاقتصادية التى تقـدم الكلام عليها . لهذا نرى فقراً شديداً ، وضعفاً بيناً مرافقين هـذا الدور دور التطور والانقلاب فى جميع أقطار المشرق .

على أن المشارقة جميعاً ، سواء كانوا من سكان المدن أم من أهل الرساتيق والقرى يكادون لايجاوزون فى ابتغاء الرزق حد الكفاف . قال الاقتصادى الانكليزى برايلسفورد يصف حالة الفـلاح المصرى : « ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشاهد مثلها قط فى جبال مكدونية ولافى بقاع دونيغال . . . فهـذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ المبنية من الطين ، لايتخللها أشجار ولاأزهار ولاغياض ولاجنان ، والأكواخ من الداخل ليست مستوية الأرض وليس لها نوافذ فهى أشبه بالسراديب الصغيرة مؤلفة فى الغالب من غرفتين صغـيرتين غير مشيدتين بالجص ولا مفروشتين بالبسط والطنافس . أما الأكواخ التى دخلت اليها فلم يكن فيها من الأثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ وحصير يقوم مقام الفراش وجرة مملوءة من طعام الذرة » . وقال موظف بريطانى من موظفى مصلحة الصحة فى الهند يصف حالة الفلاح الهنـدى . « لابد للرائى أن يرى كل عائلة تسكن مخدعاً صغيراً جدرانه وأرضه من الطين ، مشتملاً على ساحة صغيرة أمامه ، فيها الأقذار كوماً هنا وهناك ، وزريبة الماشية ، وبئر تملأها الأمطار والمياه الجارية اليها من على وجه الساحة الوضرة . وهـذه الأكواخ لصيق بعضها ببعض بحيث تتألف منها قرى ومدن كبيرة على هذه الصفة » .

والحالة فى المدن شر منها فى الأقاليم ، لأن مزدحمات الساكن فى مدن الشرق تفوق تلك التى فى مدن الغرب . وقد وصف الكاتب الفرنسى لويس برتران هـذه المزدحمات فى بعض مدن الشرق مثل القاهرة والقسطنطينية وبيت المقدس وصفاً وافيا يضيق المقام عن ايراده كله فنجتزى بذكر بعضه . قال الكاتب فى شأن مزدحم الساكن فى القاهرة : «لعل الخصاصة والفاقة فى بيوت الطبقة الفقيرة فى القاهرة وسائر بلاد مصر أشـد منها فى سائر الأقطار الشرقية ، فمثل هـذه البيوت مؤلف فى الغالب من غرفتين أو ثلاث لانوافـذ لها لدخول نور الشمس والهواء النقى ، متصلة بايوان لايقل ظلمة عنها ، وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجـدران الخشبية النخرة على أرض المسكن الوسخة . والهوام

والحشرات مستقرة على الحصر والفرش » .

وهكذا الحالة فى الهند . قال فيشر : « كانت قد نشأت قضية ازدحام السكان وقد اشتد التشاح على السكنى فى مدن الهند قبلما أخذت الصناعة فى النشوء والنمو المطرد . فلما انتشرت المعامل الصناعية باتت ألوف من العمال والعاملات ، يشتغلون ليل نهار ، بحيث لايستطعون بعد الفراغ من عملهم الابتعاد كثيراً من المعمل للمبيت بسبب نهاكة قواهم وشدة اعيائهم ، فلذلك تراهم يعيشون فى البيوت والمساكن القريبة المطبقة بعضها فوق بعض وهم يزدحمون فيها ازدحاماً شديداً ، وإذ لامتسع لسكنى الجميع فمن منهم لايتيسر لهم المبيت فى هذه البيوت القريبة ، ينتشرون فى الأسواق و يتخذونها بيوتاً ومساكن . وقد بلغ ثمن الفدان الواحد من الأرض حيث الأماكن الغاصة فى كلكتا منذ عشرين سنة (أى منذ سنة ١٩٠٠) ٢٠٠،٠٠٠ ريال » وقال كاتب غربى يصف كلكتا بأنها منقطعة النظير فى سوء الحال فى الشرق « العمال على اختلافهم يعيشون فى المزدحمات الفاسدة الهواء عيشة أشبه بعيشة الخنازير . فالبيوت انما هى منتشر الأبخرة الضارة ، والبلاليع والأقنية ملأى بسوائل الأوضار والفضلات . والطرق متدمنة بما ارتص فوقها من الأقذار . والابقار تشرب من الآبار المستقرة فيها تلك الأوساخ ولبست الأفران والتنانير بأقل سوءاً من سائر مرافق المساكن » . والحالة فى سائر المدن والمراكز الصناعية فى الهند على غرار واحد . فقد ذكر موظف وطنى من موظفى مصلحة الصحة فى تقرير له بشأن مزدحمات الساكن فى بومبىء سنة ١٩٠٤ مايأتى : « فى هذه البيوت والمساكن التى هى منشأ الجراثيم المختلفة ، ومرتكب الجرائم ، ومستقر الأمراض والأوبئة والفاقة والرذيلة ، يعيش أناس فيهم المارض والفاجر ومدمن الخمرة والجاهل والغبى ، قطعاناً أشبه بقطعان الحيوانات فى زرائبها ، يزحم بعضهم بعضا » .

زد على ذلك ان الحالة فى المدن تزداد سوءاً لاتحسناً كما هو ظاهر . يتضح من جميع هذا أن قضية ازدحام الساكن تعظم شأناً أكثر من أية قضية سواها فى الشرق . ففى مفتتح هذا القرن كان الازدحام فى المدن التى هى اليوم مراكز صناعية فى الهند مثل كلكتا وبومبىء ولكناو ، على نسبة تفوق نسبة ازدحام لندن ثلاثة أضعاف . ثم جاءت الحرب الكونية العامة فأقامت وأقعدت . و زادت ضائقة السكنى شدةً . وقد كان من شأن هذه

الحرب العامة فى الشرق كما فى الغرب أن سببت استحكام حلقات الضيق حتى تلاشت به أسباب الكسب وضاقت أبواب الرزق ، فتغيرت الحال . فباتت الألوف المؤلفة من الخلق تؤم المدن والحواضر ابتغاء وسائل المعيشة فاكتظت هذه بمن لجأ اليها ، ووقفت أعمال تشييد المنازل والبيوت والمساكن بسبب غلاء الأجور والأثمان والنفقة غلاء فاحشاً غير مسبوق المثيل ، فنجم عن جميع ذلك ارتفاع أجور السكنى الى حد غير محتمل مماوافق هوى أصحاب العقار ، فانطلقوا يستنزفون أموال الناس بهذه الوسيلة وأمثالها . قال فيشر : « قد ارتفعت أجور المساكن ٣٠٠ بالمئة ، ولم تر الحكومة من ذريعة للقضاء على ذلك فاضطرت الى مماشاته بما سنته من القوانين ووضعته من الأنظمة . فاجتمعت ألوف الناس فى بومبئ يحتجون على هذه الحال ، الأمر الذى حمل الحكومة على اتخاذ التدابير المانعة لزيادة استفحال الأجور ، فعينت الحد الأعلى لها فيما يتعلق بمساكن العمال وأهل الحرف والمهن . ولكن هذا العمل إن هو الا من قبيل تخفيف الوطأة وليس من شأنه أن يزيد عدد المساكن والمنازل » .

ولا يندّن عن البال ان غلاء أجور السكنى هذا الغلاء الفاحش انما هو جزء من جملة الضيق الذى عمت بلواه الحياة بأسرها وهو ماانفك يتصاعد فى الأقطار الشرقية منذ عشرات من السنين ثم شرع يستفحل منذ سنة ١٩١٤ . كتب برتران فى وصف الحال فى الشرق الأدنى منذ بضع عشرة سنة فقال : « أينما كنت أسير فى الشرق الأدنى ، فى القسطنطينية أو أزمير أو دمشق أو بيروت كنت أسمع التذمر من شدة غلاء المعيشة من جميع الجمهور وطنيين وأجانب » . أما الحالة اليوم فأدهى وأمر . قال السر فالنتين تشيرول فى وصفه الحالة فى مصر منذ الحرب : « ان ارتفاع أجور العمال هذا الارتفاع الهائل لم يكن على مقدار متناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث ان العامل غدا لايستطيع مماشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات المعيشة ، وهذه الحال هى أشد ما يكون فى المدن والمراكز الصناعية ، حيث أهل الطبقات الدنيا من عملة وساقة وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم البتة على احتمالها » . فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الاجرام والجنايات . وقامت دلائل عديدة على نشوء القلق الاجتماعى والاضطرابات الثورية والهياج الفكرى ، مما نبسط الكلام عليه فى الفصل الآتى .

الفصل التاسع

القلق الاجتماعي والبلشفية

ان القلق والاضطراب ، هما المصاحبان الطبيعيان للتطورات والانقلابات لاسيما الفجائية منها . فكل انتقال من حالة قديمة الى أخرى جديدة ، وان كان ذلك من القسم المعتاد ومما لابد منه ولا مندوحة عنه ، من شأنه أن يتكيف بالضرورة على مقتضى تلك الحالة الجديدة التي من خصائصها الشعور بالاختلال والاضطراب الى أجلٍ ما ، الى أن يجرى التكيف الى مستقر له وتستحكم صبغته ويثبت لونه . فلذلك ليس فى القلق المرافق للتطور شئ من الغرابة ، ولا ذلك التطور بجملته خارج عن السنة الطبيعية ، بل القلق مستقر فى طبائع كل مجتمع من المجتمعات البشرية التى لم تنته الى الدرك الأسفل من الانحطاط والندلى بعد . ثم ان هذا القلق اذا كان على مقدار قليل اعتبر دليلاً على الارتقاء الاجتماعى الصحيح وبرهاناً على النمو العمرانى السليم ، ولا يصح أخذه أمارةً من أمارات الاعتلال ولا علة من علل السقم . واعتبر فوق جميع هذا انه اذا كان هذا القلق ضيق الدائرة بحيث لم يجاوز الحد الأدنى ، فلا يعرف فى الغالب هذه المعرفة التى ذكرناها ، ولا يفهم على هذه الصفة ، بل يعتبر عارضاً من جملة العوارض المسببة عن النشوء الطبيعى والارتقاء المعتاد . وفى مثل هذه الحالات يعمل الجهاز الحى فى الجسم الاجتماعى عمله ويقوم بوظيفته ، على حد مايعمل الجهاز الحى فى جسم الفرد الانسانى ، وهى أبداً دون انقطاع فى دثور وتجدد واضمحلال وظهور ، ايلافاً لتطورات الحياة ، وملائمة لبيئتها على مايقتضيه عامل التكيف . ولهذه التحولات على الجملة شأن خطير . وهى من التدرج والسير شيئاً فشيئاً بحيث انها تحدث وتتم على صورة يكاد لايشعر بها ، ووجه لايدركه الا المستبطن الحكيم والعارف اللبيب . فالعضوية الحية السليمة ، الصحيحة العنصر من حيث هى ، الملائمة لمقتضى البيئة ، انما هى على

الدوام قابلة للتكيف والتبدل ، ومستعدة استعداداً طبيعياً لاتخاذ شكل جديد واكتساب صورة غير صورتها المعهودة ، وهى بسائق السنة والهداية تسير فى سبيلها متلمسة بمشاعرها التطورات التى تقضى بها عليها البيئة ، وتستوى معها بالملاءمة وتجانسها بالايلاف ، حتى تكون سالمةً من شائبة الاختلال ، ناجية من الفوضى وعواقبها الضارة ونتائجها المفسدة .

ولكن ليست كذلك صفة القلق الناشئ عن التبدل العنيف والتغير المفاجئ . فان التبدل والتغير اللذين من هذا النوع يدلان على تطور سريع ، يحدث ويجرى مجراه ساحياً جارفا ماهو أمامه ، وانقلابٍ بديه من القديم الفانى الى الجديد الواقع ، فيعتل التكيف ويختل التلاؤم ، اللذان تقتضيهما عوامل البيئة الجديدة، لقصر مابين الاضمحلال والفناء ، والظهور والكيان . ذلك بعبارة أخرى ، ان القلق العنيف ، الشديدة الحركة ، دليل لامشاحة فى صحته على الاعتلال الاجتماعى ، المنذر بامكان وقوع البحران ، والذى يظهر فى المجتمع على حين غفلة ، ذلك البحران المعروف « بالثورة » .

ان تاريخ الشرق الاسلامى ليصح أن يتمثل فيه معنى المفاجأة الذى تقدم فقد كان عصر تكون الحضارة العربية ونشوئها متصفا بسرعة التطور والانقلاب الفكرى العظيم وتلك فرقة المعتزلة قد اشتملت تعاليمها (١) على ضروب عديدة من منازع الأفكار والآراء حتى ذهب الغلاة من هذه الفرقة فى تعاليمهم الدينية والسياسية والاجتماعية مذهباً تجلت فيه خصائص الانتقال الفجائى ، والاستحالة الثورية العنيفة . غير أن ذلك العصر ، عصر الانقلاب والتغير ، والتطور الى حد بعيد ، قد كان قصير الأمد . فلما تستطع الحيوية العربية والروح الاسلامية بما فيهما من العوامل ، أن تخمرا ما كان فى الشرق القديم عهدئذ من القوى النامية المكتنفة بطبائع وأمزجة مختلفة تخميراً باقى الأثر طويلا . لهذا لم تلبث السنن التقليدية أن عادت فانتشرت وتمكنت ، وعليها غشاء من أثر التطور العرضى ، والعناصر الاصلية لتلك السنن ظلت على صفتها دون أن يتناولها مؤثر يغير من جوهرها . ثم أخذت الحضارة العربية ، وقد عراها جمود وكهامة ، وفشا فيها الانحلال ، تتقلص وتنقبض ، فتلاشت بواعث التطور وسكنت عوامل التغير وضعفت روح التجدد

(١) اقرأ التعليق الوارد على المعتزلة فى آخر هذا الكتاب . (المعرب)

واضمحلت العلامات الدالة على سير الانقلاب ، ولم يبق بعد طموس معالم تلك الحضارة الا تقاليد الغلاة ، تلك السنن التى احتفظ بها فى بعض المواضع العربية ، وكانت تنحدر تحدراً خفيا فى بعض الاقوام كفرق الخوارج [١] الناهضة من قلب شبه الجزيرة ، ودراويش البكطاشية [٢] غيرأن هذا جميعه لم يزد على كونه من العوارض المستترة ، دون أن يكون لها أهمية كلية .

فلما تبدلت تباشير اليقظة الاسلامية فى مفتتح القرن التاسع عشر ، طفقت الدلائل تكثر على تجدد الحركة الاجتماعية ، وظهور ما فى الهيئة الاسلامية من القوى بعد هجعتها الطويلة . فنشأت الوهابية ولم يكن غرضها الاصلاح الدينى فحسبُ ، بل الاجتماعى أيضا ، فشرعت تنعى على المجتمع الاسلامى المعاصر انحطاطه وتدليه ، وتنزع منزعا شديداً الى القيام بالاصلاحين معا . وفى كثير من حالاتها اتخذت الوهابية الفتنة أو الثورة الاهلية شكلا لخروجها على الحكومات الحاضرة . ومثل هذا كان غرض الحركة البابية [٣] فى ايران الحركة المشابهة للوهابية فى الغاية ، و بين منشأ الحركتين عهد قريب .

ومن المعلوم أن هذا القلق المتجدد فى العالم الاسلامى كان الباعث له والسبب فيه هو تدفق المؤثرات الغربية من آراء وأفكار وأساليب فى كل أفق من آفاق الحياة ، وهذه المؤثرات لم تفتأ طيلة القرن التاسع عشر تنتشر فى الشرق وتنبث فى جميع أقطاره بدون انقطاع . ومن أراد البرهان فليعلم أن ليس هناك من باعث على الاضطراب أشد وأقوى ، وهائج للقلق أمضى وأفعل ، مما هو حاصل اليوم من التطور والانقلاب فى الشرق ـ التطور والانقلاب اللذين هما من السرعة والأهمية ، واقتضاء التكيف ، بحيث أن ماهيتهما تدل دلالة صريحة على انهما أطبق على صفة الانقلاب الثورى المفاجئ ، مما هما على شكل النشوء والترقى . وقد بسطنا الكلام وافيا على مجارى هذه التطورات العميقة من جميع وجوهها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى ما يصاحبها بطبيعة الحال من الهياج والحركة فى الخواطر ، ومن الأزمة والبحران فى كل طبقة من طبقات المجتمع الاسلامى ، فى هذا الدور العصيب .

---

(١) اقرأ التعليق الوارد على الخوارج فى آخر هذا الكتاب . (المعرب)

(٢) اقرأ التعليق الوارد على البكطاشية فى آخر هذا الكتاب . (المعرب)

(٣) اقرأ التعليق الوارد على البابية فى آخر هذا الكتاب . (المعرب)

وقد وصف اقتصادى بريطانى كيفية الانقلاب الثورى الحادث فى الهند وصفاً شافيا وأوضح سعة الشقة بين سوى المدن والحواضر، والسوى القروى فقال : « ان أقاليم الهند لم تبرح على حال من بساطة العمران والتأخر المدنى كالتى عرفت فى القرون الوسطى فالمدن والحواضر قد انتشرت فيها أساليب هذا العصر وفنونه حتى باتت أشبه بمدن الغرب وحواضره » . وفى هذه المدن والحواضر الهندية تجد الحياة على الطراز الغربى « مستوفية كل نسق جديد ، مع جميع المرافق المستحدثة ، وذلك ظاهر فى حياة أرباب المصارف والمعامل حتى باعة الحلوى والماعون . فعظم الاختلاف وطالت شقة التباين بين الحياتين ، حياة المدينة وحياة الاقليم . ومن المؤكد الذى لامراء فيه ان هذا البون لم يكن له مثيل قط فى جميع التاريخ الاقتصادى المعروف الى اليوم ، اذ لاتجد بلاداً سوى الهند قد جمعت بين هاتين الحالتين المختلفتين ، حالة المدن والحواضر ، وحالة القرى والاقاليم ، فى أى عصر من عصور التاريخ الاقتصادى فى العالم » . تصور لك دوراً مثل هذا فى أوروبة فيما لو قدر اجتماع أوربى حديث مع آخر قديم من القرون الوسطى ، وكلاهما نقيض الآخر رأيا وفكراً فما أوسع المغايرة بينهما وما أعظم الاختلاف . لكن هذا لا يقع فى أوروبة اذ كان تقدمها الاقتصادى ناشئا بالتدريج يرتقى ارتقاء طبيعياً » . وقد دامت هذه الحال قروناً . وليس كذلك التدرج الاقتصادى فى الهند ، فانه ثورى فجائى .

ومن يستقص طبائع هذا الانقلاب فى الهند اليوم يعلم حق العلم مبلغه من المواثبة والسرعة ويدرك أنه حركة ثورية .

« ان أقاليم الهند وان كانت لم تزل على حال السذاجة ، فقد انتشر فيها كثير من الآراء والأفكار والمبادئ الناقضة لتلك الصبغة الباقية منذ القديم . فلما نشأت الصناعة فى البلاد صارت أجور المنافسة تبارى الاجور المحدودة فى البلاد منذ أزمان طويلة ، وأضحت الأثمان تارة يحددها العرف والعادة ، وتارة تحددها العوامل والأسباب الاقتصادية الحرة . وأخذ العمال الذين لم يكن من شأنهم ولا شأن آبائهم وأجدادهم من قبل ، الانتقال والهجرة ابتغاء أسباب المعيشة ، ينزحون من اقليم الى اقليم سعياً وراء الأجور الحسنة . ثم انتشرت أسباب وعوامل اقتصادية فجأة فى موضع موضع ، وشرعت تعمل عملها فى مجتمع لم تبرحه صبغة السذاجة منذ قرون . هذه هى الحالة فى الاقاليم . اما الحالة فى المدن والحواضر فتكاد

لا تختلف عنها من حيث انتشار العوامل الاقتصادية ، ولكنّ هناك اختلافاً فى بعض الوجوه . . . ان هذا الانتشار فى المدن والحواضر لم يكن من شأنه الامتزاج بتلك الهيئة القديمة امتزاجاً تاماً . فبات النظامان القديم والجديد يتناحران أشدّ التناحر .

« فالهند ، وهذه حالها اليوم ، تجتاز ثورة اقتصادية هائلة ، وهذه الثوره متناولة كل طبقة من طبقات المجتمع المتعدد الأوصاف . واعلم فوق هذ ان الدور الوحيد الماضى ، الذى تشبه فيه أوروبة الهندالجديدة بعض الشبه انما هو دور ثورتنا الصناعية التى لم يهدأ ثائرها فى الغرب حتى اليوم ، ولا استقرت حالها استقراراً مكيناً . ولما لم يكن حدوث الحركة الفكرية العقلية التى ظهرت فى الثورة الفرنسية معاصراً لحدوث الثورة الصناعية ، فقد حصل لأوروبة من ذلك لطف عظيم ، اذ لو حدثت الثورتان معاً لكان من المحتمل ان المجتمع الاوروبى قد انهار ودُكت أركانه دكاً حتى الآساس . ولكن بعد أن أضحت الثورة الفرنسية خائرة القوى مسلوبة المنة ، بسبب كثرة الحروب النابليونية ، نشبت الثورة الصناعية فألهبت المجتمع نار سخط مستطيرة. انه لمن المعلوم الذى لاريب فيه ، أنه متى قضى التطور الاقتصادى على شعب كامل ، بأن يبدّل على اختلاف طبقاته معيشته تبديلاً رامياً الى التحسين والترقية ، كان لابد لجانب من هذا الشعب من أن يعانى الالم والضنك فيشتعل غضبه اشتعالاً . ثم تظهر على أثر ذلك الحركات السياسية العنيفة ، وتنتشر عوامل الخراب والبوار فى المجتمع . فما نشأ عن الثورة الصناعية ليس ثورة سنة ٤٨ ، فحسبُ ، بل نشأ الحزب الاشتراكى أيضاً .

« على ان تلك الثورة فى أوروبة ، ما كانت جارفةً مثل الثورة القائمة اليوم فى الهند . فان استكشاف البخار واختراع الآلات المحركة فى أوروبة ، كان يتدرج الى الكمال شيئاً فشيئاً طيلة قرون . وخلال هذه المدة كانت التجارة والصناعة على امتداد وانتشار دون انقطاع ، وكانت رؤوس المال تنمو وتتراكم ، وكانت القواعد والأصول الاقتصادية تزداد ثباتاً ورسوخاً . . . أما الثورة الاقتصادية فى الهند فهى أعظم شأناً ، وكان مثارها أوسع مضطرباً من ثورتنا الصناعية . فالمسالك الحديدية قد أنشئت فى طول البلاد وعرضها حتى وصلت بين الأقاليم التى كانت الأسفار فيها من قبل غير مستطاعة والطرق غير معروفة . وشيدت المعامل وملئت بعمال لم يسبق لهم مران على القيام بالأعمال

الصناعية . وطفقت رؤوس المال تتدفق على الهند ، البلاد التى لم تكن على استعداد لأن تستحث هذا الاستحثاث الهائل فى سبيل التقدم والترقى . فماذا كانت نتائج جميع هذا ترى ؟ تفككت أوصال النظام الاجتماعى فى الهند تفككاً تاماً وتقوض بنيانه تقوضاً . وانقضى الزمن الذى كان فيه البراهمة كهنة وسادة ، وفلاحو الهندويين عبيد الأرض وارقاءها ، والمرابون الهندويون أرباب رؤوس المال المحتجنة بين أيديهم . وباتت الآلات المستحدثة تهدد الحاكة اليدويين بالقضاء على صناعتهم ، وصار النحاسون لايستطيعون جنى المكاسب من وراء مهنهم ، فما اعظم هذا الانحلال الذى سببه التطور الفجائى ، وما أكثر الذين حال التطور بينهم و بين الانكماش والجد فى حرفهم الموروثة ، ثم قارن ذلك بما حصل من نوعه فى أوربة ، والثورة الصناعية فى أوروبة كانت أضيق نطاقاً ، تعلم للحال حق العلم ماهية العوامل الكبرى والبواعث العظمى فى هذا الاضطراب السياسى . وليس هذا بداعى العجب بل داعى العجب كون الاضطراب لم يكن أشد وأقوى . انه لو لم تكن الهند لعمرى بلاداً شرقية اسيوية لكانت ثورتها هذه قد اشتعلت نارها من قبل هذا العهد بزمن طويل . »

ان هذه السطور قد دبجها كاتبها الاقتصادى فى مفتتح القرن العشرين قبلما اربد جو العالم بسحب الكارثة العظمى ، وزلزلت الارض زلزالها بهذه الحرب الجارفة ، ونشبت الثورات الاجتماعية الآكلة فى روسية الآسيوية . على أن بعض علماء الشرق الأعلام كانوا قبل الحرب ينذرون العالم بنشوب ثورات اجتماعية لا تبقى ولا تذر فى اقطار المشرق . قال الزعيم الهندوى الوطنى الكبير بيبن شندراپال : « ان هذا الاضطراب ليس فى الحقيقة سياسياً ، ولكنه بحقيقة جوهره نهضة فكرية عقلية روحانية ، تُعدُّ بشير ثورة اجتماعية عظيمة ، يتلوها نظام جديد وفلسفة جديدة فى الحياة » . وقال الكاتب الفرنسى شلى فى شأن الهند أيضاً : « ستحدث سلسلة من الثورات الاقتصادية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وسيصحبها بالضرورة شدة هائلة وألم عظيم يعانيهما الشعب » .

وكأنما الضيق المزداد فى احوال المعيشة قبل الحرب ، مع الاقبال الكثير على انتحال الأساليب الغربية فى الرغادة والنزوع الى ضروب المرافق الجديدة على حسب ما يقتضيه المستوى الجديد ، كل ذلك كان باعثاً على اشتداد المزاحمة بين طبقات كل شعب من

الشعوب الشرقية . فقد كتب خبير صحى بريطانى سنة ١٩١١ يقول : « الفاقة والشقاءُ هما علة العلل فى الاضطراب السياسى فى الهند » . و بعد أن وصف الكاتب ما تعانيه عامة الهند من البؤس الشديد قال ورب قائل يبتدر القول ان هذه الحالة ليست بحديثة فى الهند بل هذه صفتها منذ الازمان الطويلة ، فلذا ليس من شأنها ان تكون اليوم أبعث على القلق والاضطراب منها فيما مضى . غير ان الحقيقة على ما أرى هى بخلاف ذلك . اذ ان القلق والاضطراب كانا ثائرين على الدوام ثوراناً مستتراً يستبينه كل من تدبر سير الانقلاب قليلاً . زد على ذلك ان عامة الطبقات الدنيئة كانت فيما مضى ، من رقة الحال وشدة الفاقة ، بحيث كادت تكون النسبه بينها و بين غيرها من الطبقات السعيدة ، مفقودةً . اما اليوم فتستطيع هذه الطبقات ان تفخر بشأنها وتقارن بين حال مزدحمات ساكنها ومحلاتها الوطنية التى تقيم فيها و بين محلات سكنى البريطانيين وأكثر منازلهم ترتيباً ، بل و بين منازل الموسرين والوجهاء من سائر ابناء البلاد . فتلك الفاقة كانت أبداً سبب الاسباب فى نشوء القلق العام ... وما الاجتماعات التى يظهر فيها الهرج والمرج والثرثرة السياسية وتصعد منها نفثات الصدور ، الا مظاهر ابتدائية يتلوها اضطراب عميق الغور بعيد المرمى وقلق راسى الجذور رحب الافق ».

لا ريب ان من الاسباب الكبيرة فى حصول هذا التزاحم والتكالب الاجتماعيين الآخذين فى الازدياد والتعاظم ، هو ماينقص المشارقة على العموم من حب التعاون الاجتماعى ، وقلة اكتراثهم بمقاسمة بعضهم بعضاً الضراء ، و بعدهم من التساهم فى تحمل البلاء ، واعراض كل جانب منهم عن مديد النصرة الى الجانب الآخر ، وشأنهم هذا معروف لا سيما حيث لا تجمع أواصر القربى وصلات الارحام بين فريق وفريق ، ولا تربط بينهما مرتبة أو طائفة أو عرف أو عادة . فالتعاون الاجتماعى بمعناه الغربى يكاد يكون مفقوداً فى جميع البلدان الشرقية . على ان بعض العلماء الشرقيين ما كانوا ليغيب عنهم العلم بهذا النقص الذى فى مجتمعهم ، فقد قال كاتب هندى فى كلام له على حياة الهندى فى المدن والحواضر : « ان التعاون الاجتماعى ليس معروفاً عندنا على مقدار يصح القياس عليه ... ان الاصلاح الاجتماعى فى الهند لم يبرح حتى اليوم مقصوراً على نطاق حياة الفرد أو الأسرة ، أما الاصلاح الذى يجب أن يتناول سواد الجمهور بصفة كونه مجتمعاً انسانياً ، وان يتناول أهل المدن

على الخصوص وهم أقل أهل البلاد مروءة صحيحة ، فلم يبشر بانجيله بعد » (من كلام ايوسف على فى كتابه « الحياة والعمل فى الهند » لندن سنة ١٩٠٧) وقال عالم أميركى من علماء العمران الاجتماعى يشير الى تزايد الشرور الناشئة عن حال مزدحمات المساكن فى جميع الاقطار الشرقية التى انتشرت فيها الثورة الصناعية : « ان الخطر الاكبر ناشئ بلا ريب عن عدم شعور الشرقيين شعوراً مثل شعور الغربيين بما لحياة الفرد مجتمعاً مع غيره من الشأن وما عليه من الواجب . فمجتمع الشرقيين على الجملة فاقد لتلك الصفات التى يشتمل عليها جهورنا الراقى الذى ايقظه وهذبه استمرار التنازع الصناعى فى الغرب طيلة قرن . وما دام الشرقيون يجهلون هذا النقص ولا يتلافونه بالدواء الناجع فان الشرور لمستفحلة استفحالاً ما عرف مثله فى الغرب .

ان جميع هذا القلق الاجتماعى المنتشر فى الشرق مستقر فى موضعين حديثى الظهور : الأول الطبقة الراقية المهذبة على الاساليب الغربية ، والآخر الطبقات الدنيا التى منها عمال المعامل الصناعية فى المدن . وقد أسلفنا الكلام على المنازع الثورية التى عرفت بها الطبقات الراقية ولا سيما منها الجانب الناقص العلم ، وهو الجانب ذو الشأن الكبير فى ايقاد نار الثورات والاضطرابات فى الشرق الجديد من شمال افريقية حتى الصين . أما طبقات عمال الصناعة فقد يرى فريق من الكتاب ان ليس هناك كبير أمل فى صيرورتها عاملاً ثوريا مهماً لما هى عليه من الاستمساك بسنن التقاليد والجهل والبلادة ، ولأنه ليس هناك صلات حقيقية تصل بينها و بين أهل الطبقات الراقية ، المنبعث منهم القلق الاجتماعى على قدر جسيم . وممن يذهبون هذا المذهب فى الرأى ، « البرت ماتان » الاقتصادى الفرنسى ، فانه قد أبان هذا ابانةً حسنةً فى شأن الهند فقال : « انما قوام النهضة الوطنية هو الطبقات الوسطى ، وهذه الطبقات لا تقوم بشئ يذكر من المقاومة لاصحاب رؤوس المال وأهل المشروعات وأرباب الاملاك ، الذين جميعاً لا ينالهم ضرر من الوجهة الاقتصادية » وأما طبقات العمال الصناعيين : « فلا يأملون ترقية حالهم وتحسين شأنهم بل هم مثل عمال الزراعة ، لا تلمح فيهم أمارة من أمارات الثورة . فالى من يلجأون ترى ؟ أما المراتب الاجتماعية القائمة على سنن التقاليد فمغلقة فى وجوههم ولا مطمح لهم فى الارتقاء اليها . فتراهم اذ لا أمل لهم بمنصب قومى ، يحتقرون من فوقهم من أرباب الحرف والمهن الذين

يعتزون بمراتبهم الطائفية ، ولكن قد قضت الصناعة الآلية على صناعتهم اليدوية . أما الهندوى فيرى ان من اكبر العار عليه ان ينزل الى مهنة العامل الصناعى ، وعمال المعامل لم يبلغوا بعد من عددهم حداً يستطيعون عنده التواثق فيما بينهم على صيانة مصالحهم واعزاز شأنهم ازاء المجتمع القديم . ولا عبرة لما يقومون به من الاعتصاب والاضراب فانهم لم يزالوا بعداء من ان ينهجوا منهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، بُعدَهم من الطوائف العليا التى يستحيل عليهم الارتقاء اليها . وهم بعد كل هذا لا يستطيعون القبض على أزمة مجموعهم وربط بعض حلقاتهم ببعض بحيث يتألف منهم قوة أدبية معنوية لها شأن ومكانة ، لأن النهضة الوطنية ليست قائمة على الطبقات الوضيعة ، وهى ابداً تستفيد قوة من أرباب رؤوس المال .

« يُعلم من هذا أن الصناعة الهندية لم تزل وليدة فى المهد . فالارتقاء المادى الذى تظهر آثاره بتشييد المعامل والمصانع ، والارتقاء الاجتماعى الذى تميز به طبقات العمال ، لم يبرح فى أول دور من أدوار الظهور ، بحيث ان الارتقاء العقلى الذى من شأنه أن يبعث على وضع الخطط المنظمة لنيل المطالب الاجتماعية لم يظهر بعد » .

على أن كثيراً من أهل العلم فى الشؤون الصناعية الهندية لايتفقون مع ألبرت ماتان فيما ذهب اليه . فقد قال زعيم العمال البريطانى ج . رمزى مكدونلد : « أما التصور الذى يتصوره بعضهم من أن العمال الهنود المنحطين سائرون اليوم فى سبيل الارتقاء الى مصاف الطبقات العليا فهو ضرب من الوهم ، غير انى لاأصدق بتةً أن الحال هذه تدوم طويلاً ، والسبب فى ذلك : أن تقدم صناعة المعامل فى الهند قد نشأت بسببه طبقات من العمال الذين لاأرض لهم يملكونها ولاموطن يستقرون فيه ، فاذا تدبرت شأنهم وجدتهم لامثيل لهم بهذا الاعتبار فى أى بلد اقتصادى قامت فيه رؤوس المال . وأما التصور بأن عمال المعامل الصناعية فى الهند سيظلون هكذا بعداء عن أن يكون لهم شأن مذكور ووزن مقام فى السياسة الهندية ، فليس الى احتمال ذلك من سبيل . فالعمال قد أخذوا يجنحون الى انتهاج مناهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، وانشاء جمعيات من هذا النوع ، فاعتادوا القيام بالاعتصاب والاضراب ، ومن مرامى بعض حركات الاصلاح الاجتماعى التى يقوم بها أهل الفكر من الهنود ، انشاء نقابات صناعية وتجارية متواثقة ، ونشر الآراء والأفكار الشبيهة

بآراء دعوة التضامن الصناعى عندنا . فلو قام أرباب رؤوس المال بسياسة مالية لمناهضة العمال ، لم يكن ذلك مستحسنا شديداً لجمعيات التضامن الصناعى فقط ، كما جرى مثل ذلك فى اليابان من قبل ، بل لعجزت سياسة مثل هذه السياسة فى الهند عن القضاء على نقابات العملة ، ولن تفلح كما أفلحت فى اليابان على يد القوانين المسنونة . فالعمال فى الهند حالتهم آخذة بالتبدل والارتقاء ، ولن يمضى ردح من الزمن طويل حتى ينظموا شؤونهم تنظيماً صحيحاً ينهجون فيه مناهج العمال فى البلاد الاقتصادية الراقية . ومتى مايقظ العمال يقظتهم السياسية كان ذلك بدء السبيل الذى لن يكون لهم وليجة عن سلوكه ، فيدبرون أحوالهم تدبيراً حسنا ويشرعون فى اعزاز شانهم اعزازاً كبيراً » .

ونعود الآن الى الشرق الأدنى . فمنذ أكثر من عقد قال كاتب اشتراكى فرنسى مشيراً الى شدة الوطأة التى يعانيها سواد المصريين فى أحوال المعيشة ، ومنبها الى ظواهر القلق الاجتماعى ، ومنذراً باضطراب هائل ، ما يأتى : « قد نشأت طبقات من العمال بنشوء الصناعة واتساع نطاقها اتساعا سريعا صحبه النجح العاجل ، أما غلاء المعيشة فقد بلغ مبلغا ماعرفت مصر مثله من قبل . بينما الأجور لم ترتفع الا قليلا ، فاشتدت الفاقة وعمت بلوى الحاجة . فاذا ظلت الحال سائرة هذا السير فسيأتى يوم تثور فيه سواكن هذا الشعب من جراء هذه الشدة المستولية عليه ثورانا أعمى ، حتى تغدو دلتا النيل الظاهرة عليها آثار الرخاء والنجح فى حال غير حال . من الممكن أن تدفق الأجانب على البلاد وتدفق أموالهم معهم يبعد قليلا تلك الساعة من الدنو ، وهى الساعة التى يدرك فيها العامل المصرى ، فى كل مدينة وريف الحال التى سبق اليها ، وهو لعله اليوم لايدرى ما للاشتراكية من القوة التهذيبية . على أن استيقاظه وانتباهه سيكونان فى عهد أقرب مما يخاله بعضهم . اذ ليس ذلك الجانب من المصريين أرباب النجاح والفلاح ، هم وحدهم ذوى العقول الزكية والمدارك العالية ، بل ان العمال المصريين أيضاً ، الآخذة أجورهم بالتناقص المتوالى ، لايقلون ذكاء وفطنة عن سائر أبناء بلادهم ، ولذا قد بات من المتوقع الذى لاريب فيه مجئ الساعة لانبثاق الاشتراكية الاسلامية فى بلاد المسلمين لأول مرة[1] » . وقال رحالة بلجيكى قبيل الحرب العامة يشير الى تباشير الصباح ليقظة طبقات العمال فى الجزائر ، وسرعة انتشار الآراء

(١) اقرأ التعليق الوارد على المبادئ الاشتراكية فى الاسلام ، فى آخر هذا الكتاب — المعرب

والافكار الغربية : « ان الاسلام ليرى متمزقا تمزق الثوب البالى على أرصفة ثغر الجزائر : فعمال المرفأ ، ونقلة الفحم ، وساقة الآلات البخارية ، على اختلاف جنسيتهم ، عادوا لا يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأورو بيين راسخة ، وهم يشتركون مع زملائهم العمال الغربيين فى السعى وراء الغرض ونيل الغاية ، اشتراكاً قائماً على أساس واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس المال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً مراً . فلو كان فى الجزائر معامل مثل تلك التى فى أوروبة ، لاختفى الاسلام السنى من تلك الديار المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة وثورتها الكبرى[1] » .

على أن هناك أمراً لامراء فيه ، على اختلاف ماهية المطامح التى ترمى اليها حركات العمال المنظمة ، الحديثة الظهور ، السريعة النشوء فى الشرق ، هو ان القلق الذى قد انتشر فى غالب أقطار الشرق فى السنوات التى قبل الحرب العامة ، كان اجتماعياً لاسياسياً فقط . قالت صحيفة بريطانية هندية من كبريات صحف الهند أواخر سنة ١٩١٣ متشائمة : « قد هبطنا مهبطاً سافلا أفضى بنا الى الانهيار والخراب . فقد غدت بعض الأقاليم التى كانت من قبل أكثر أقاليم البلاد الهندية قطينا ، يهجرها الاغنياء اليوم لقلة الأمن على متاعهم وحطامهم . وقد اشتد مقت الناس للقانون اشتداداً هائلاً لأنه أصبح ذريعة يستعين بها أهل السجس للاعتداء على الابرياء . وباتت القبائل الافغانية عند الحدود تقترف أهول الفظائع . وكثرت اجتماعات الجماهير ، وانتشر الهرج والمرج بداعى التدخل فى شؤون ليس من شأن الشعب المخلد الى السكينة التدخل فيها . فليس هناك من قضية تدخل فى

---

(١) من قبل الحرب العامة بكثير كان الاشتراكيون الفرنسيس لاسيما الغلاة منهم ينتصرون لأهل الجزائر وتونس وسكان المستعمرات ، وكان للزعيم الاشتراكى جوريس منزلة عالية فى قلوب أهالى تلك الأقطار . ولكن اشتدت هذه الرابطة بعد الحرب العامة كثيراً عن ذى قبل لا سيما بين الشيوعيين الفرنسيس والعملة والفلاحين من المغاربة لأن العملة والاكرة فى المغرب الأوسط هم فى مستوى واحد من الشقاء بسبب تسلط المستعمرين . وقد تأسست نقابات لهؤلاء العملة تجمع الذين منهم فرنسيس الى الذين منهم مغاربة وكذلك ظهرت لهم جرائد فى تونس والجزائر كثيراً ماتعطلها الحكومة الفرنسية وتحذر كبار المغاربة من سوء مغبة الشيوعة ولكنها تتغافل عن ان اليأس الذى يدفع فقراء الجزائر وتونس الى الانضمام الى الفرقة الشيوعية انما هو أثر ظلم الادارة الفرنسوية ونتيجة تحكم المستعمرين فى الأهالى وانه لا يمكن الجمع بين هذه الادارة الغاشمة الاستعمارية وبين منع المبادئ الثورية . (ش)

نطاق السياسة الأجنبية فضلاً عن الوطنية الا ويهب الناس أفواجاً للحال ، يريدون أن يكون لهم فيها يد مشتركة ، على حين ذلك بجملته لايعنيهم . وصار أحقر شأن يؤخذ سببا للاشتكاء والسخط . وغدا الموظفون فى الأقاليم يعانون الشدائد المرة بسبب كثرة الاختلال الناشئ عن اباء الأهالى لطاعة القانون . وقد تألفت جمعيات التضامن المختلفة لصيانة المصالح الأهلية . ويشكو ضباط الجيش والشرط من أن صنف المجندين الجدد أقل طاعة من الصنف الذى كان قبلهم وأعند عند التدريب وأكثر تعنتا وسخطاً .

ثم جاءت الحرب العامة فزادت فى هياج الشرق زيادةً عظيمةً . فجمعت الحال فى جميع الاقطار ولا سيما غالب الشرق الأدنى ، بين استحكام حلقات الشدة والضيق ، والمطامح الوطنية الكبيرة ، والسخط المشتعل ، فظهر المجتمع الشرقى كأنه على شفا جرف هار . وبينما الشرق هذه مراجله غالية تفور ، اذا بالبلشفية الروسية تدب وتنتشر فى الشرق ، وتمتد الى أقطاره المربدّة الجواء بالسحب السوداء ، وطفقت تهيمن وتسيطر على هذه الحالة ، وتنظم حركات القلق والاضطراب ، وتدبر أسباب الشغب والهياج ، بطرق متسعة وأساليب منظمة ، ابتغاء الوصول الى غرض هو نصب عينها وادراك غاية تتوخاها . ولا غرو فالبلشفية قد انبرت الى الميدان على رؤوس الاشهاد تريد ايقاد ثورة عالمية ، ودك أركان الحضارة الغربية دكاً يبقيها أثراً بعد عين . ولتحقيق هذا الغرض لم يكتف قادة البلشفية باثارة الحملات الشعواء على الغرب مباشرةً فحسب ، بل قاموا بأكثر من ذلك ، اذ دبروا أمر القيام بحركات التفاف فى آسية وافريقية ، لأنهم اعتقدوا ان الشرق اذا استطيع الهابه بنار الثورات الآكلة ، كانت نتيجة ذلك ليس زيادة اعزاز البلشفية ورسوخ قدمها واشتداد بأسها فقط ، بل أيضاً القضاء على حياة الغرب الاقتصادية المتزعزعة الجوانب المنهوكة القوى بسبب الحرب العامة ، وذلك قضاءً أخيراً يعقبه تلاشى صناعة الغرب واضمحلالها ، ثم تتقد نار الثورة العمياء فى أوروبة مندلعة الألسنة الى كل جانب من جوانب القارة .

وانتشرت مساعى الدعوة البلشفية فى العالم كله ، فعم نطاقها وانبثت تعاليمها فى كل رقعة من رقاع الكرة الأرضية ، فلم تخلُ زاوية من زوايا الأرض من مكايد دعاة البلشفية ودسائسهم ، وهؤلاء لم يغادروا وسيلةً الا استعانوا بها لبلوغ المأرب الذى اتخذوه قبلةً يركبون فى سبيلها كل مركب . وما كانت تعاليم « الحمر » الرامية الى انهاض طبقات العمال

الدنيا الى مستوى السيادة والحكم فى كل بلاد ، سوى ذريعة من ذرائعهم التى لاتحصى ونوع من أنواع أسلحتهم التى لاتعد". ولما كان مرادهم فى المقام الأول قلب نظام العالم الحالى ، فقد بات كل عمل ، ولو كان بعيداً من التعاليم البلشفية بمقدار ، ولكن من مقتضاه مقاومة ذلك النظام ، أداةً من أدوات البلاشفة يلجأون اليها و يستعينون بها . ثم راح دعاة البلشفية ينبثون فى كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية فى آسية وأفريقية واسترالية والاماركتين فضلاً عن أوروبة ، يهمسون فى آذان الشعوب المغلوبة على أمرها الناقمة الساخطة ، انجيل البلشفية الجديد وآياته الحديثة ، حملاً لهذه الشعوب على الهياج والشغب ، ثم الانتقاض والثورة . فكل حركة وطنية ، ومطمح قومى ، وسخط سياسى ، ومظلمة اجتماعية وتحكم جنس فى جنس ، جميع ذلك من الوسائل التى يتخذها البلاشفةوقيدا لنار الهياج ، فالانتقاض ، فالحرب .

وقد كانت تربة أقطار الشرق الأدنى والأوسط أخصب الأقطار لزراعة البلشفية ، وأكثرها استعداداً لها ، فنمت البلشفية فى هذه الأقطار نمواً كبيراً ، ولبيان ذلك نقول : لما كانت هذه الأقطار الشبيهة بالمرجل الغالى . والتى تتقد فيها نيران الفتن والثورات على اختلافها ، مرامى للاطماع الاستعمارية التى ابتغتها روسية القيصرية منذ عهد طويل ، فقد سبق للدعاة الروسيين من قبل فدرسوا شؤونها درساً وافياً مشتملا على سر الفتح السامى فلما انهارت أركان روسية القيصرية وقامت البلشفية على أنقاضها ، لقيت البلشفية أمامها مهيعاً معبداً ، وطريقاً ممهداً ، لبلوغ أغراضها . فلما قام تروتسكى ولنين يضرمان نار الهياج والثورة فى تركية وايران وأفغانستان والهند ، تقويضاً لمكانة بريطانية على الأخص لم يحتاجا الى خطط التوطئة وطرق التمهيد ، لأن روسية القيصرية كانت قد سعت فى هذا السبيل عقوداً من السنين طويلة ، فكان من نتائج هذا السعى جمع المعلومات الوافية فى هذا الموضوع وايداعها سجلات الحكومة السابقة فى بتروغراد ، وكان عدد كبير من رجال الحكومة القيصرية الذين انقلبوا للحال يستأنفون أعمالهم السابقة بعد ذهاب روسية القيصرية وانشاء البلشفية ، لم يزالوا يعلمون كثيراً من أمور البلدان المذكورة التى كانت تحوم حولها وفوقها المطامح القيصرية .

على انه يجب علينا عند اعتبار الدعوة البلشفية المنتشرة فى الشرق قاصيه ودانيه

أن نفرق بين الغرضين الأكبرين اللذين يجدّ دعاة البلشفية فى سبيلهما اليوم غاية المستطاع : الغرض العاجل وهو محو التفوق الغربى سياسياً واقتصادياً محواً تاماً . والغرض الآجل وهو بلشفة الشعوب الشرقية ، وما يتلو ذلك من القضاء الأخير على الطبقات العليا والوسطى من أهل كل بلاد ، على نحو ماقد تم فى روسية وما هو مدبر للممالك الغربية . اما فى الدور الأول فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لاحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية فى الشرق . وأما فى الدور الآخر فالأديان ، مثل الاسلام ، فستقوض تقويضاً . وأما قادة النهضات الوطنية ، مثل مصطفى كمال ، فسيرمون من حالق الى رتبة العمال ويوسمون بميسمهم . وهانحن نبين للقارئ الكريم كيف تقوم السياسة البلشفية بمساعيها المتنوعة فى سبيل الغاية التى ترمى اليها .

لما قامت الحكومة البلشفية فى روسية وقبضت على أزمة الأحكام أواخر سنة ١٩١٧ ، سرعان مابادرت الى وضع الخطط والبرامج لسياستها التى اعتزمت اتباعها فى الشرق . ثم انقضت سنة ١٩١٨ وكانت سنة اعداد وتجهيز . فنظم البلاشفة مشروع الدعوة تنظيماً تاما وافياً ، قوامه الخبراءُ على صنوف مختلفة . وأتى بعدد من رجال الحكومة القيصرية البائدة من دعاة وساسةٍ راسخين علماً بالشؤون الشرقية ، وحُملوا على أن ينتظموا فى سلك الدعوة وقد أمدّ المسلمون الروس ، مثل التتر فى روسية الجنوبية والتركمان فى آسية الوسطى الحكومة البلشفية بكثير من الخبراء العارفين . وكان أنفع الجميع وأخدمهم للغاية ، أولئك الذين فروا الى روسية من تركية وايران والهند عند ختام الحرب العامة ، وفيهم قادة الحكومة التركية الحليفة للدول المركزية ، مثل أنور وجمال وطلعت وكثير غيرهم [١] ، فانهم لجأوا الى روسية هرباً من أن يقعوا فى أيدى دول الحلفاء الظافرة. وكذلك فقد فر الى حكومة لينين عظماء القادة الهنود الذين كانوا مشايعين لألمانية خلال الحرب ويتلقون منها الأموال للقيام بالدعوة . وعند أواخر سنة ١٩١٨ كان ديوان الدعوة الشرقية فى الحكومة البلشفية قد نظم أحسن تنظيم ، فقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول للأقطار الاسلامية ، والثانى للهند ، والثالث للشرق الأقصى . أما مساعى البلاشفة وأعمالهم وكيفية نشر دعوتهم فى الشرق الأقصى فليس من غرضنا البحث فى ذلك فى هذا الكتاب ، ولكن على القارئ

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن الوارد فى آخر هذا الكتاب على الشهيد أنور ورفقائه — المعرب

أن يعلم خطورة الأعمال التى قام بهـا البلاشـفة فى تلك الأقطار ، وعظم الدور الذى لعبه الصينيون فى تاريخ روسية فى المدة الحديثة . أما القسمان الأولان من أقسام ديوان الدعوة المختصان بالأقطار الاسلامية والهند ، فقد طفق أربابهما يجهدون فى سبيل الغاية جهداً كبيراً فترجموا مئات الكتب البلشفية الى مختلف اللغات الشرقية ، ودربوا عدداً كبيراً من الرواد السريين والدعاة والرسل للقيام بالأمر العظيم ، وانطلقوا يتوسلون بما استطاعوا لاستثارة العناصر الثورية فى تلك الأقطار .

وفى أوائل سنة ١٩١٩ بانت مساعى البلاشفة وأعمالهم منتشرة فى جميع الشرق الأدنى والأوسط انتشاراً كبيراً لاخفاء فيه . وليعلم الحكيم المصنف أن انكار الحلفاء على شعوب الشرق الأدنى حقها فى مصالحها القومية [١] ، ووقوفهم فى وجه نهضاتها الوطنية موقف الصادّ المقاوم ، قد كان وسيلةً من خير الوسائل التى اعتضدت بها الدعوة البلشفية . وقد أسلفنا الكلام فى موضع تقدم كيف أخذت حكومة موسكو تمد يد النصرة والعون الى مصطفى كمال وسائر القادة الوطنيين فى تركية وايران ومصر وغيرها . على أن نجح البلاشفة فى الشرق الأدنى لم يكن أقل منه فى الشرق الأوسط . ولا غرو فقد كانت يد حكومة موسكو ظاهرةً أجلى ظهور فى فوران ذلك النيار من الفتن والانتقاضات ، مما طبق شمالى الهند فى ربيع سنة ١٩١٩ [٢] وليس ذلك جميع ماقامت به الدعوة البلشفية بل قد امتدت الى أكثر من ذلك ، فأنزلت الضربة العظمى ببريطانية ، تلك الضربة التى قصمت ظهر الانكليز فى أفغانستان . فان هذه البلاد التى من شنشنة قطينها الجبليين الشغب والهياج ، والتى هى بجملتها أشبه بالصاعقة المتوقع نزولها أبداً على الحدود الشمالية الغربية ، قد ظلت خلال الحرب هادئةً ساكنةً . وغالب السبب فى هذا السكون وقوف حاكمها الأمير حبيب الله خان موقف الموالاة لبريطانية . بيد أن هذا الأمير اغتيل فى سنة ١٩١٩ اغتيالاً لم يعرف حتى اليوم هل كان للبلشفيين يد فيه أم لا ولكن على كل فقد طفق هؤلاء البلاشفة ينتهزون الفرصة التى سنحت لهم بعد ذلك ، إذ خلف حبيب الله خان أحد أنجاله وهو الأمير أمان الله خان المشهور بشدة عداوته وشنآنه لبريطانية ، والذى كانت له صلات بدعاة الترك والألمان خلال الحرب

(١) راجع الفصل الخامس .

(٢) راجع الفصل السادس .

العامة. فلما تسلم أزمة الحكم، واستقام له الأمر، جعل يباشر إنشاء الصلات بينه و بين موسكو[١]. فلم ينقض سوى اليسير من الزمن حتى اهتبل السانحة عند ماطبق الاضطراب وعمت الفتنة فى بلاد البنجاب الهندية ، فأعلن الحرب على بريطانية ، ثم أخذت جيوشه المؤلفه من رجال القبائل الشديدة الشكيمة الحمية الأنف ، تتدفق على الحدود الشمالية الغربية فألهبت جميع تلك البلاد نار حرب ضروس . و بعد أن دارت رحى القتال شديداً مدة من الزمن ، استطاعت بريطانية أن تصد تيار الاجتياح الأفغانى ، فردت جيوش القبائل على أعقابها . فاضطر من بعد ذلك أمان الله خان الى الكف عن القتال ، ثم لم يكن له من وليجة عن عقد الصلح . ولكن ما كانت بريطانية لتجسر قط على التشدد مع الأمير ، بل وافقت على أن له الحق بمقتضى شروط الصلح أن يكون فى حل من القيد الذى كان مقيداً به من قبل ، وهو أن لاينشئ صلات سياسية مع أمة أجنبية ما سوى الهند البريطانية . أما الآن فشرع الأمير يعتز بالاستقلال و يتباهى به ذائداً عنه بقوة تلك الصلات التى عقد عروتها بينه و بين

---

(١) سنة ١٩٢٠ كان جمال باشا ذهب الى موسكو ومعه بدرى بك وذلك أثناء ما كانت أسرى الروس تعاد من المانيا الى الروسية ، فاندسا بين أولئك الاسرى متنكرين خوفاً من أن يعرف أمرهما فيقبض عليهما الانكليز الذين كانت لهم سفائن تفتش عن الركاب الذين يمرون من بحر البلطيك الى جهة الروسية . ولما وصلا الى موسكو اجتمعا فيها مع أنور باشا واتفق الجميع على مفاوضة البلاشفة فى عقد محالفة بين هؤلاء من جهة والاسلام من جهة أخرى ، وأن يكون مرمي تلك المحالفة مقاومة دول الحلفاء لاسيما انكلترة فى آسية . وكان سبق للبلاشفة مداخلات مع أمير الافغان لعقد اتفاق معه ولكن لم يكن تم شئ منه . فارسلت حكومة السوفيت جمال باشا الى افغانستان ممهداً لسياسة الاتفاق مع الاسلام وانجاز المعاهدة التى كان سبق السعى فيها بين الروسية وافغانستان . فذهب أولا الى طاشقند فى التركستان ومنها قصد كابول عن طريق هرات ، ولما وصل الى كابول حظى لدى الامير وبعد وصوله بمدة وجيزة وفق الى تعجيل البت فى أمر المعاهدة مع الروس على شروط ، من جملتها امداد البلاشفه للافغان بمقدار من الأسلحة ، وان تعاد مقاطعة كوشكه الافغانية التى كان الروس اغتصبوها من يد الافغان منذ ٤٥ سنه اذا رضى أهلها بالرجوع الى دولتهم الأصلية ، وان تخول الروسية حق تعيين معتمد فى كابول كما يكون معتمد للافغان بموسكو ، وكذلك تعين الروسية أربعة قناصل فى أربع مدن من افغانستان ، وتعين افغانستان قناصل فى طاشقند وغيرها من المدن التى فى حوزة الروسية ، وان تعترف الروسية باستقلال امارتى بخارى وخيوه داخلا وخارجاً وغير ذلك من الشروط المهمة . وقد كان لهذه المعاهدة بين الروس والافغان وقع عظيم فى انكلترة ، فحسب لها الانكليز الف حساب وأفادت أمير الافغان كثيراً بحيث أسرع الانكليز الى مصالحته وقبول أكثر مطالبه ، كما انها أفادت البولشفيك فى مفاوضتهم السياسية والتجارية مع انكلترة اذ قد رضيت انكلترة بعقد معاهدة تجارية معهم ، اشترطت فيها أن يمتنع الروس عن تسريب السلاح الى الافغان أو غيرها من العالم الاسلامي ، وعن بث الدعوة الشيوعيه فى آسية . (ش)

موسكو . وقد كان البلاشفة فى ذلك الوقت قد أنشأوا لهم مركزاً آخر خطيراً فى تركستان الروسية لنشر دعوتهم ، وهو لايبعد كثيراً من الحدود الأفغانية ، وكان مرمى هذا المركز الجديد وغاية أعماله ؟ ليس بلشفة أفغانستان فحسب بل أيضاً بلاد الهند المترامية الأطراف .

وخلال سنة ١٩٢٠ غدت أعمال البلاشفة ومجاهيدهم الكبرى أكثر انتشارا ، وأظهر للعيان ، وأعز شأناً فى جميع الشرقين الأدنى والأوسط . وقد اطلعنا فى موضع تقدم على كيف أخذت روسية البلشفية تقوم بعضد الحركات الوطنية والنهضات القومية فى تركية وايران عضداً شديداً . وفى الواقع ان سياسة الحلفاء القائمة على الطيش والخفة وقصر النظر قد كان من شأنها أن حملت العدد الكبير من القادة الوطنيين على الجنوح والانحياز الى لينين ، فى حين أن هؤلاء القادة أنفسهم ما كانوا ليروا غايات حكومة موسكو ومنازعها ومراميها البعيدة فيما يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب رائقة لهم . مثال ذلك أن رئيس البعثة الأفغانية التى شخصت الى موسكو ، قد صرح حقيقة الأسباب التى حملت حكومته على التعاهد مع روسية السوفيانية على الصداقة والولاء تصريحاً بيناً ، فى مقابلة رسمية ، كما نشرت هذا جريدة « ازفستيا » لسان حال الحكومة السوفيانية ، فقال رئيس البعثة : « انى لست على مذهب الشيوعية ولا الاشتراكية ، انما خطتى السياسية هى طرد الانكليز من آسية ، وانى لعدو عنيد لرؤوس المال الأوروبية الاستعمارية فى آسية ، التى أعظمها وأشدها استنزافا هى البريطانية . فمن هذا القبيل أوافق الشيوعيين على مبدإهم وأصرح لهم اننا محالفوهم فى هذا السبيل . . . ان أفغانستان ، وشأنها شان الهند ، ليست بدولة فى حوزتها رؤوس المال الاستعمارية ، ومن البعيد أن تستقر الأنظمة النيابية فيها فى عهد قريب . ومن الصعب الشديد التكهن بكيفية تقلب الشؤون واختلاف مجاريها فى المستقبل انما أعلم حق العلم أن النداء المشهور الذى وجهته الحكومة السوفيانية الى جميع الأمم والشعوب مستصرخة اياها لمقاومة رؤوس المال الاستعمارية ودك صروحها دكا (ومعنى كلمة رأس المال عندنا بات مرادفا لمعنى كلمة الأجنبى أو بالأحرى الانكليزى) قد كان له عندنا وقع عظيم وشان كبير . غير أن هناك قضية أحللناها المحل الارفع ألا وهى الغاء روسية السوفيانية لجميع المعاهدات السرية التى عقدتها حكومات التوسع الاستعمارى ،

واعلانها الحق واعترافها به لجميع الأمم والشعوب ، دون اعتبار القلة مهما كانت ، فى اختيار حكمها وتقرير مصيرها . هـذا هو السبب الذى حمل جميع الشعوب المستعمرة المستنزفة فى آسية ، حتى الشعوب البعيدة من مذهب الاشتراكية ، على الالتفاف من حول روسية السوڤياتية » . [١] ولكننا لما كنا نعلم مبلغ ماهم عليه دعاة البلشفية من المهارة والتفنن فى النشر والبث ، فلا يسعنا التسليم بأن السياسى الافغانى قد صرح حقاً مثل هذا التصريح كما نشرته صحيفة « ازفستيا » البلشفية . ولكن على فرض ان فى هذه المقابلة كذباً واختلاقاً ، فان هذا البيان المعزو على صورته هذه الى رئيس البعثة ، انما يفصح عن شعور العدد الكبير من الشرقيين ، ويجلو السبب الأكبر فى نجاح الدعوة البلشفية النجاح العظيم فى الأقطار الشرقية .

ولا غرو البتة ان لقيت الدعوة البلشفية هـذا النجاح الكبير حتى غدا الزعماء البلاشفة يجدّون فى سبيل غايتهم وادراك مبتغاهم ، وينادون البدار البدار جهراً وعلانية. فان موسكو فى بادئ الأمر قد وقفت موقف المعين الناصر للشعوب الشرقية لمقاومة التوسع الاستعمارى الغربى ، وكانت توجه صرخاتها الواحدة تلو الأخرى الى أمم تعدها على مستوى لا تفاوت فيه ، وتولى وجه صيحاتها شطر أقوام هى عند البلاشفة لا اختلاف منازل وطبقات فيها ، وقد اعترفت مراراً بحق كل أمة لتقرير مصيرها ، ووعدت باحترام الآراء والمنازع والأنظمة والقوانين الوطنية . مثال ذلك فقد جاء فى منشور بلشفى بعث به الى الترك أواخر سنة ١٩١٩ موقعاً من لنين مايلى : «يامسلمى العالم !! الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا !! ان روسية قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ، تلك السياسة الضارة الخبيثة التى كانت تتمشى عليها الحكومة السابقة . ان روسية اليوم تمد يدها اليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطانى . ان روسية تطلق لكم الحرية الدينية وحق الحكم الاستقلالى ، وتعترف بحدود بلادكم الحدود المعروفة قبل الحرب ، وان توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الارمن ، وتبقى مضايق الدردنيل فى أيديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامى . ويمنح المسلمون فى روسية الحكم الذاتى التام . انما

---

(١) أقرأ التعليق الوارد فى آخر هذا الكتاب على الأمم الاسلامية ازاء البلاشفة والدعوة البلشفيه .
المعرب

جميع مانطلبه منكم لقاء هـذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم أبداً استنزاف بلادكم وجعلها مستعمرةً لبوناً يحتلبون ضروعها احتلاباً » .

هكذا كان شأن روسية فى توجيهها النداء بعد النداء الى الشعوب الاسيوية ، حتى الى شعبها الذى فى بلادها ، فقـد كانت تسمعه هذه النغمات عينها على مسمع من أهـل الشرق ، فقد جاء فى أمر أصدر الى الجنود الروسية المرابطة فى « پامير » مايلى : « ياجنود فرقة پامير ! ! اعلموا انـكم قد انتدبتم للقيام بعمل جليل وأمر خطير . فان الجمهورية السوڤياتية قد أرسلتكم حراسا الى پامير التى عند حدود البلادين المواليتين وهما افغانستان والهند . ان پامير وسهولها المرتفعة وصعدانها الرحبة هى البلاد الفاصلة بين روسية الثورية والهند تلك البلاد التى فيها أكثر من ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من القطين تستعمرهم فئة قليلة من رجال الانـكليز وتذلهم بجميع وسائل القهر . فعلى تلك الانجاد يجب على رواد الثورة منـكم أن يرفعوا الراية الحمراء ، راية الجيش المحرر من رق العبودية . سيعلم أهل الهنـد الذين يقاتلون الانـكليز المعتدين المغتصبين ، أنـكم أهل النجدة والغوث على مقربة منهم طيبوا أنفساً وقروا عيونا بحبكم لقبائل الهند الشمالية عاشقة الحرية والاستقلال . . . قوّوا روحها بأقوالـكم وانصروا حركتها بأعمالـكم حتى تنطلق فى سبيل الثورة . وأعرضوا عن الأراجيف التى يشيعها عنا والملزات التى يلمزنا بها رواد التحكم واللوردية والصيارفة البريطانيون . ليحي التحالف الوثيق العرى ، تحالف الشعوب الثورية فى أوروبة وآسية ! ! »

على هذا المنوال كانت تنسج الدعوة الباشفية فى دورها الاول . ثم شرعت تختلف صفة ولونا ، داخلة دوراً جديداً وقد كان من شأنها فى دورها الجديد هذا اثارة الحملات على الاستعمار والاستنزاف الغربى كما فى الدور الأول . ولـكن هناك صرخات مفرغة فى قالب حديث أخذت تسمع ، من حيث كانت هناك صرخات شبيهة بها توجه الى سـواد الأمم الأوروبية ، مشتملة على تحريض الحكومة السوڤياتية لاهل الشرق حتى يهبوا لمقاومة أرباب رؤوس المال والطبقات العليا والوسطى ، سواء كانوا من الوطنيين أم من الاجانب ، وعلى وعد البلاشـفة المكرر للطبقات العاملة الدنيا بتحسين حالهم ورفع شأنهم واعزاز مقامهم . والى القارئ بعض ماجاء فى منشور بلشفى وجه الى سواد الترك وعامتهم فى صيف

١٩٢٠ وهو كما يظهر مختلف عن ذاك الذي وجه اليهم السنة التي قبل اختلافاً كبيراً : « ان العمال على اختلاف طبقاتهم وهم أهل النصب والعناء ، ليقاتلون اليوم الاغنياء والمتمولين قتالاً شديداً في كل قطر و بلاد . فان أرباب رؤوس المال والى جانبهم الأشراف والأعيان يحاولون الآن جهدهم لتصفيد العامل التركي الناصب اللاغب باغلالهم الثقيلة وقيودهم المرهقة . ان الاغنياء والسراة الاورو بيين هم هم الذين قد جروا الويل والبوار على تركية . فيا أيها الزملاء الرفقاء ! هلموا بنا نوحد الغاية والغرض ، ونسعى وراءهما سعياً متحداً في جميع أقطار العالم . فان لم نفعل ذلك اليوم قضى علينا بالخيبة الدائمة والسقوط الى الدرك الأسفل . أي أبطال الثورة التركية ! البلشفية تمد اليكم يد الاتحاد فمدوا يدكم اليها فتجتمع الكلمة ويقوى البنيان . ليحي المؤتمر الشعوبي الثالث ، وان الله على كل شيء قدير ! ! » .

ولما بلغ شأن موسكو هذا المبلغ ، عادت هي لاتكتفي بالاقوال ، بل شرعت في انفاذ خطتها الى حيز العمل . وقد كان أهل تركستان الروسية أول أمة شرقية تبلشفت ولبست الحلة السوفيانية . وخبر ذلك ان البلاشفة لما تسلموا أزمة الحكم أواخر سنة ١٩١٧ منحوا تركستان الحق التام في تقرير المصير ، فولى أهل البلاد الامراء الوطنيين حكاما عليهم ، وجددوا انشاء وحدات دولهم السابقة تجديداً فيه شيء من الصلة الاتحادية الواهية التي تربطهم بروسية . وفي سنة ١٩٢٠ وجدت الحكومة السوفيانية أن تركستان قد غدت ناضجة تمام النضوج لالهابها نار الثورة الاجتماعية ، فخلعت الامراء الوطنيين ونصبت مكانهم حكاما من متبلشفة أهل البلاد ونقلت اليهم جميع السلطة السياسية بعد أن جعلت عليهم مراقبين ومشرفين من الروس ، وسلبت الملكية من أيدي الطبقتين العلياوالوسطى وخضدت شوكة المقاومين الذين كانوا يقاومون بصورة غير منظمة وذلك بأن قتلت بعضاً وعذبت بعضاً ، بحيث قد تجلى في ذلك كل ضرب من ضروب المحن المشتملة على أهول الفظائع البلشفية . ثم اتقدت نار الثورة الاجتماعية في القوقاس كما في تركستان عند ما شرعت حكومة موسكو تبلشف اذربيجان . فان جمهورية اذربيجان التترية هذه كانت من قبل جزءاً من بلاد عبر القوقاس الروسية التي أعلنت استقلالها عند تلاشي الامبراطورية القيصرية سنة ١٩١٧ . ولما كانت اذربيجان واقعة موقعا جغرافياً في

شرقى عبر القوقاس بالقرب من بحر قزوين ، فقد كانت عاصمتها مدينة باكو المشهورة بينابيع زيت البترول ، فتقدمت صناعة هذه المدينة تقدما كبيراً حتى صارت مركزاً صناعياً على الطراز الغربى . فكثر سا كنها وعمالها وهم من أصول اسيوية وروسية مختلطة ، واذ وجد البلاشفة متسعاً لانفاذ خطتهم هناك حيث نشأت طبقات من المتمولين والعمال ، قلبوا الحكومة الوطنية فى ربيع سنة ١٩٢٠ وأتوا بقوة روسية بلشفية استعانوا بها على بلشفة اذربيجان وتحويلها جمهورية سوڤياتية ، ثم جرى ما يصاحب الثورة الاجتماعية بطبيعة الحال : من سلب ونهب وتقتيل لأهل الطبقتين الوسطى والعليا ، ومن نشر الرعب والهول وضبط الاملاك ومصادرة الارزاق والتصرف بها فى سبيل منفعة العمال الصناعيين والزراعيين . على هذا المنوال شرعت البلشفية أوائل سنة ١٩٢٠ تدخل دور العمل فى أقطار الشرقين الادنى والاوسط .

ولما رسخت قدم البلشفية فى الشرق ، وجد السوڤيانيون ان قد حان الوقت لحسر اللثام ، والانبراء الى الميدان بدون خوف ولا وجل . ففى خريف سنة ١٩٢٠ عقدت الحكومة السوڤياتية الروسية مؤتمراً فى باكو دعته «مؤتمر الشعوب الشرقية» كان الغرض منه ليس تحرير الشرق من رق الغرب فحسب ، بل بلشفته أيضاً دون مرد . ولم يكن السعى وراء هذه الغاية الكبرى على شئ من الاستتار بل كانت الوسائل المتوسل بها لبلوغ الغرض من الغرابة بمكان ، فيجدر بنا الوقوف على بعض منها .

ففى المقام الأول أصدر «المؤتمر الثالث فى موسكو» منشوراً عاماً دعا فيه الشعوب الشرقية الى حضور هذا المؤتمر ، مؤتمر الشعوب الشرقية ، وكان توجيه المنشور هذا الى الفلاحين والعمال فى الأقطار الشرقية ، وهذه صورته : —

« أيها الفلاحون والعمال فى ايران ! ان رجال الحكومة القاجارية فى طهران ، وحكامها وأمراءها «الخانات» ، مابرحوا جميعاً يستلبون أموالكم وامتعتكم واغذيتكم طيلة قرون عديدة . فان الارضين التى هى ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة الاسلامية قد امتلكها لصوص حكومة طهران ، وهم الآن يتصرفون بها ويتجرون على مايهوون ويشاؤون ويرهقونكم بالضرائب الباهظة والمكوس الواقرة . ولما بلغوا من افساد التدبير والادارة والحكم بحيث عادوا لايستطيعون احتلاب البلاد وامتكاك عظمها ،

باعوا ايران السنة الماضية من أرباب رؤوس المال البريطانيين بمبلغ ٢٠٠٠،٠٠٠،٢ ليرة بيعا من مقتضاه أن تقوم بريطانية بتنظيم جيش فى البلاد لزيادة استذلالكم واستعبادكم واستنزاف قواكم واستلاب أموالكم بحجة الضرائب اللازمة لحكومة طهران و « خاناتها » . وقد باعوا ينابيع الزيت فى جنوبى ايران حتى ينزلوا بالبلاد الضربة القاضية لاقيام لكم من بعدها .

« أيها الفلاحون فى العراق ! ! قد أعلن البريطانيون ان بلادكم مستقلة ، ولكن هناك ٨٠،٠٠٠ جندى انكليزى يحتلون بلادكم ، وينهبون و يسلبون ، ويقتلون ويجوسون خلال ديارکم ، و يهتكون حرمات نسائكم .

« أيها الفلاحون فى الاناضول ! ! ان الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية قد احتلت القسطنطينية وجعلتها تحت افواه المدافع ، وطفقت تمتهن كرامة السلطان وتعامله معاملة أسير رقيق ، وتكرهه اكراها شديداً على النزول على ارادتها ورغبتها فى تجزئة البلاد التركية البحتة ، وفى تسليم مالية البلاد الى أيدى أرباب رؤوس المال الأجانب ، الذين يسهل عليهم اذ ذاك استنزاف دم الأمة التركية المنهوكة القوى من جراء خطوب الحرب التى خضتم غمارها ست سنوات ، وقد وضعت هذه الحكومات أيديها على مناجم هرقلية ، واحتلت موانئكم ، وهى الآن تسوق الجيوش الى بلادكم للاجتياح والتدويخ .

«أيها الفلاحون والعمال فى أرمينية ! كم من الضحايا البشرية التى ذهبت منكم خلال هذه العقود الأخيرة من السنين بسبب مكايد المتمولين الأجانب ودسائسهم ، الذين كانوا يداهنونكم بأقوال واحتجاجات يظهرون بها استهجانهم لقيام الكرد بتعذيبكم وتقتيلكم، من حيث كانوا يحرضونكم على الانتقاض على السلطان لكيما يتسنى لهم بهراقة دمائكم الحصول على الامتيازات الجديدة والمنافع الاقتصادية الدائمة من السلطان . وقد وعدوكم خلال الحرب العامة بمنحكم الحكم الذاتى ثم جعلوا يحرضون تجاركم وأساتيذكم وقسيسيكم لتطلبوا ضم جانب من بلاد الفلاح التركى الى بلادكم ، والغرض من ذلك انما هو ادامة النزاع بين العنصرين الترك والأرمن ، فيستطيعون بذلك أبداً جنى الثمار والاستفادة من هذا العداء ، الذى مادامت ناره مشتعلة بينكم و بين الترك ، استطاع أرباب رؤوس المال البريطانيون والفرنسيس والاميركيون عرقلة النهضة التركية ، بتهديدهم الحكومة التركية

بانتقاضكم عليها ، كما انهم يتخذونكم مطية لهم فى سبيل مطامعهم الاستعمارية ، بتهديدكم بقيام الكرد عليكم .

« أيها الفلاحون فى سورية و بلاد العرب ! ان بريطانية وفرنسة قد وعدتاكم بالاستقلال التام وهذه جيوشهما اليوم تحتل بلادكم ، والانكليز والفرنسيس يحكمونكم ويسنون لكم الانظمة والقوانين كما يشاءون ، وأنتم الذين تحررتم من السلطان التركى وحكومة القسطنطينية ، قد غدوتم عبيداً ارقاء لحكومتى باريس ولندن اللتين انما تختلفان عن حكومة السلطان بكونهما أشد حولاً وأعظم هولاً وأقدر على استعمار بلادكم واستعبادكم .

« انكم جميعاً أيها الملأ لتعرفون هذا حق المعرفة . فالعمال والفلاحون فى ايران قد انتقضوا على حكومة طهران الغاشمة الخائنة ودكوها دكا ، والفلاحون فى العراق يشعلون نار الثورة على غير انقطاع ، ويقاتلون الجنود البريطانية أشد قتال ، وانكم يافلاحى الانضول الذين قد انضوى بعضكم الى بعض تحت راية كمال باشا لتقاتلوا المجتاح الأجنبى أصدق القتال ، قد سمعنا انكم تبذلون وسعكم لانشاء حزب لكم هو حزب العامة والفلاحين ، يكون على استعداد لمقاتلة كل رأسمالى مستنزف حتى « الباشوات » أنفسهم اذا ما أقدموا على عقد صلح مع المستنزفين الأجانب . ان سورية قائمة قاعدة لا أمن فيها ولا سلم .

«وأنتم يافلاحى الأرمن ، الذين نكث الحلفاء بالوعود التى قطعوها لكم فتركوكم وشأنكم تذهبون فريسة المجاعات والمساغب الفتاكة بكم فتكا ذريعاً حتى ينيلوكم حكما أصلح ! ! اعلموا وثقوا بأن خلاصكم الذى ترجونه على يد أرباب رؤوس المال الأجانب انما هو ضرب من المستحيل الذى لايدرك . واعلموا زيادة على جميع ذلك أن حكومتكم الطاشناقية ، التى هى صنيعة الحلفاء لتستغيث بحكومة العمال والفلاحين فى روسية وتستمد منها الرفد والسلام .

« أيها الفلاحون والعمال فى الشرق الأدنى ! انكم اذا نظمتم شؤونكم وأنشأتم حكوماتكم ، حكومة العمال والفلاحين ، وذدتم عن حياضكم بسلاحكم ، واتحدتم بالجيش الروسى الأحمر ، جيش العمال والفلاحين، استطعتم أن تقضوا على المستنزفين البريطانيين والفرنسيس والاميركان القضاء الأخير ، وان تناقشوا من بعد ذلك المستنزفين الوطنيين

الحساب ، ووجدتم متسعاً رحباً وانتم اذ ذاك أحرار أن تتحدوا مع جمهوريات العمال فى العالم ، لصيانة مصالحكم وترقيتها ، هذا اذا عرفتم كيفية استثمار بلادكم بأيديكم فى سبيل منافعكم ومنافع الطبقات العاملة فى العالم بأسره تلك الطبقات التى تبادلكم حاصلات بلادكم ومنتجاتها مبادلة النظير مع نظيره والند مع نده .

« وبعد ، فاننا نود التباحث والتناقش معكم فى جميع هذه القضايا والشؤون ، فى مؤتمر باكو ، فابذلوا غاية مستطاعكم وجهدكم للحضور الى باكو عدداً كبيراً بحيث تكونون فيه فى اليوم الاول من أيلول (سبتمبر) فاستحثوا مطاياكم واستخفوا بمصاعب السفر ومشقة الانتقال ، وجوبوا الصحارى والفيافى ، والاغوار والانجاد ، واموّا هذا المكان المقدس الذى فيه تستطيعون العمل فى سبيل احياء ماضيكم واحترام شرائع أديانكم . فاسلكوا السباسب والقفار ، وتسلقوا الجبال ، واعبروا الانهار ، واقدموا علينا فاننا نرتقب مقدمكم لنعمل معاً يداً واحدةً فى سبيل نجاتكم وخلاصكم من رق العبودية المرة ، ان كنتم تريدون أن تحيوا حياة الحرية والعدل والمساواة » .

من هذا الخطاب يفهم المتدبر صفة مؤتمر باكو وماهيته . المؤتمر الذى انما كان فى الواقع مؤتمرا لايقاد نار الثورة الاجتماعية أكثر منه لتحقيق الغايات القومية والآمال الوطنية . وقد بلغ عدد أعضاء الوفود التى أمت باكو لحضور هذا المؤتمر ١٩٠٠ عضو ، فيهم ما يقرب من ١٣٠٠ من الشيوعيين . وأكبر الوفود هى التى قدمت من تركية وفارس وأرمينية والاقطار القوقاسية ، ولم تكن وفود بلاد العرب والهند ، حتى وبلاد الشرق الاقصى بالقليلة . وعلى كل فقد كانت الحكومة الروسية السوفياتية هى سيدة المؤتمر تنظم الجلسات وتضبط الواقعات . وقد تضمن الخطاب الذى ألقاه الزعيم البلشفى الكبير زينوفيف ، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعوبى الثالث فى موسكو ، خلاصة موضوع المؤتمر ، فقد وقف فى الوفود خطيبا ، وقال : —

« اننا نعتقد أن هذا المؤتمر هو حقاً من الواقعات الكبرى التى يدونها التاريخ لانه ليس برهانا فقط على أن دعوة الايقاظ متمشية الآن فى عالم العمال والفلاحين فى أوروبة واميركا ، بل على ان الاستيقاظ الذى شرع يستيقظه هؤلاء لعظيم ، ونحن نرى ذلك لعهدنا هذا بلا ريب ، وليس عدد هؤلاء الناهضين من أهل طبقات العمال بالقليل ، بل هم

يعدون بمئات الالوف والملايين فى جميع الامم والشعوب الشرقية ، منهم تتألف الكثرة الساحقة باعتبار مجموع سكان العالم ، وهم من القوة والبأس بحيث يستطيعون ان يشعلوا بينهم و بين المتمولين حرباً ضروساً يكون بها القضاء الاخير على رأس المال . . . .

« ان المؤتمر الدولى الشيوعى قد صرح للملأ منذ أول انشائه : أن قطين أسية يفوقون بعددهم قطين أوروبة أربعة أضعاف وان قد وضعنا نصب أعيننا تحرير جميع الشعوب وجميع العمال . . . اننا نعلم أن أهل الطبقات العاملة فى الشرق على انحطاط بمقدار ، لكنهم ليسوا بالملومين فى ذلك ، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ، يعتقدون بالاساطير والخرافات والارواح الشريرة ، لا يقفون على الصحف ولا يعلمون ماجريات العالم ، ولا يفقهون شيئاً من أصول حفظ الصحة . أيها الرفاق ! قد بحث مؤتمرنا الذى عقد فى موسكو فى امكان القيام بثورة اجتماعية فى جميع اقطار المشرق قبلما تدخل هذه الاقطار فى دور سلطان المال ، وتغدو فريسة تمزّقها مخالب المتمولين . ومن معلومكم ان هناك اعتقاداً طويلاً فى الناس ماهيته ان لا بد لكل بلاد من ان تجتاز دور سلطان المال فى حياتها . . . قبلما تولد الاشتراكية وتحيا حق الحياة . اننا على يقين ان هذا الاعتقاد أمسى فاسداً باطلاً . والبرهان على يقيننا فى ذلك انما هو روسية التى امتهدت للعالم السبيل ليقفو أثرها ، ومذ انشأنا نظامنا الحديث أخذنا نتحقق ان الصين والهند وتركية وفارس وأرمينية جميعها قادرة على النسج على منوال النظام السوفياتى من حيث ان ذلك واجب عليها ولو تكبدت فى سبيله ما تكبدت . فعلى هذه البلاد ان تتأهب وتستعد لتكون جمهوريات سوفياتية .

« وانى أقول اننا آخذون بنصرة كل جماعة من الناس وان لم يعتقدوا آراءنا ، بل لو كانوا من مخالفينا فى بعض الأمور والقضايا . وفى مثل هذه الحال قامت الحكومة السوفياتية بعضد كمال فى تركية ، مع اننا لم نكن بالجاهلين ان هذه الحركة التى على رأسها مصطفى كمال ليست شيوعية . هذا نعرفه حق المعرفة . ولدى طائفة من صور المقررات التى وُضعت فى الجلسة الأولى من جلسات المجلس الوطنى فى انقرة ، وقد قال كمال نفسه « شخص الخليفة مقدس معصوم » ، والقصد الذى ترمى اليه الحركة الكمالية هو تنجية

« الخليفة المقدس » من ايدى العدو . هذه غاية الوطنيين الترك فى الاناضول ولكن هل تلتئم مع المبدإ السوفياتى ؟ كلا . اننا نحترم للجمهور والعامة معتقداتهم الدينية ونعلم الطرق التى يجدر بنا اتباعها فى انتشالهم من متخبط الجهل والغباوة ولكن ذلك لا يتم الا على توالى الأيام وكر السنين

« اننا نحذر أشد الحذر ونبلغ من العناية الغاية ، متى ماأمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة فى طبقة العمال فى الشرق كما فى غيره . ولكن نرانا فى هذا المؤتمر لامفر لنا من القول انه يجب عليكم ألا تفعلوا ماتفعله الحكومة الكمالية فى تركية . يجب عليكم ألا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعتكم الى ذلك داعيات دينية . يجب عليكم أن تقووا ساعدكم ولا تكونوا من الانقياد الى عدوكم بحيث يجعلكم تسيرون القهقرى رغم أنوفكم . اننا على يقين أن ساعة السلطان قد دنت[١]. فيجب عليكم أن تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية فى بلادكم . وأن تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان . وأن تجاهدوا حق الجهاد حتى تنالوا نظام الحكم على الطراز السوفياتى . ان الروسيين كانوا مثلكم فيمامضى أشداء الايمان بالقيصر ، ولكن لما فتقت ريح الفتنة وهب الشعب بسلاحه تبدد ذلك الايمان أيما تبدد واضمحل حتى لم يبق منه ذرة . ومثلما حدث فى روسية سيحدث فى تركية وفى سائر المشرق متى ماشرعت ثورة الفلاحين تقذف حمماً فتنشق الأرض و يقول الانسان مالها . عندذلك يفنى ايمان الشعب بالسلطان و بسادته القابضين منه على الرقاب . ثم نؤكد لكم القول ان السياسة التى تتمشى عليها حكومة الشعب فى تركية اليوم ليست متفقة مع سياسة المؤتمر الشيوعى الدولى التى هى سياستنا وقد اتخذناها قبلة لنا . وعلى هذا كله فاننا نصرح أننا على استعدادٍ لعضد كل حركة ثورية يقام بها مقاومةً للحكومة البريطانية .

« أجل ! اننا ننظم جنودنا ونعبئ صفوفنا لصراع متمولة الانكليز حتى نأخذ

---

(١) من أجل هذا قد قيل ان فصل الخلافة عن السلطنة والغاء مقام السلطنة فى تركية هو منزع بلشفى ، وقد رأيت البلاشفة مغتبطين بهذا الأمر . لكننى لاأعتقد أصلا أن حكومة انقرة اقتلعت السلطنة من بنى عثمان لمجرد الاقتداء بحكومة موسكو ، بدليل أن حكومة أنقرة لاتزال تعارض المبادئ البلشفية ، وتمنع نشرها فى تركية . فمسئلة الغاء السلطنة هى مسئلة قائمة بذاتها ، ليس لها أدنى تعلق بالدعوة الشيوعية.(ش)

برقابهم تحت مواطئ الأقدام . ان الضربة الكبرى يجب أن تنزل بهؤلاء المتمولة قضاء مبرما يجعلهم أثراً بعدعين . ثقوا بهذا وأيقنوا ولكن يجب علينا فى الحين نفسه أن نورد طبقة العمال فى الشرق موارد العلم والتهذيب حتى يهبوا جميعاً لمقاتلة أهل الثروة على اختلافهم لافرق بين طبقاتهم وجنسياتهم . وليعلم مريد العلم أن الغاية فى هذه الثورة القائمة سوقها اليوم فى الشرق ليست هى طرد متمولة الانكليز بحيث تحل محلهم متمولة الترك ، كلا ، ان غايتنا هى تطهير البلاد من كل متمول مستنزف حتى يتلاشى المترفون فينا وأهل الظلم والطغيان ، فيتحرر الشعب ويسود العمال أنفسهم »

وقد كان مؤتمر باكو السهم الأول الذى أطلقه البلاشفة منذراً بشروعهم فى بلشفة الشرق توصلا للغاية التى جعلوا يشدون اليها الرحال فى كل سبيل وقد تلا ذلك كثير من المساعى السوفياتية المشتملة على ضروب الوسائل ومختلف الذرائع . وأكثر ذلك كان فى بلاد القوقاس حيث تمت بلشفة بلاد الكرج وأرمينيا فى ربيع سنة ١٩٢٠ .

على أن هذا النجاح الذى لقيه البلاشفة فى هذه الأقطار ، قد كان من شأنه حمل تلك الأقوام الوطنية الداخلة فى حماية روسية السوفياتية على زيادة السخط والغضب . فان جميع الأحزاب الوطنية الشرقية التى كانت قد تلقت نصرة موسكو لها بعظيم الحماسة والغيرة نكاية بالدول المتحالفة ، شرعت تتحقق الآن أن البلشفية الروسية لايبعد أن تكون ويلاً عليها بل أشد من ويل الاستعمار الغربى ، وكلاهما قاضٍ على المطامح الوطنية والمنازع القومية شر قضاء . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين لم يبرحوا منذ أول الأمر يدركون الغاية الكبرى التى ترمى اليها حكومة موسكو اذ كانوا من القوة والحزامة بحيث جعلوا يتناولون نصرة روسية بلاثمن يؤدونه لموسكو . ولكن تبدلت الحال الآن غير الحال ان تنبه العمال فى الشرق قد يكون على مقدار وقد تكون الفلسفة الشيوعية مما لاتفقهه عقول العمال الشرقيين ولاتعى كنهه مهما كان بسيطاً . على أن وجود روسية السوفياتية خطر يقام له ويقعد ولاعجب ، مادامت الاقلية الشيوعية التى لايزيد عددها حسب اقرارها على ٦٠٠٠٠٠ تتحكم فى ١٧٠٠٠٠٠٠٠ من الناس تحكم القهر والاستبداد . أما البلاد الأوروبية الغربية فانها تعوّل فى مقاومة البلشفية على مبلغ التهذيب الذى عليه شعوبها وعلى شدة استمساكهم بتقاليدهم النامية فى ظل الحرية المنظمة وليس للشرق سلاح مثل

هـذا السلاح ، وهو أشبه بروسية من حيث استعداده لقبول البلشفية وتخييم الجهل فوق ربوعه وفقـده الطبقات الوسطى القوية الشكيمة ، وايلافه تقاليد الاستبـداد ، وانقياده لحـكم الأقلية المرهقة وخنوعه لها خنوعاً أعمى . وقدكان لنا بباشفة تركستان واذربيجان مصـداق لذلك . وبالتالى أيقن القادة الوطنيون وزعماء النهضات فى الشرق أن مصيـدة البلاشفة جرارة غرّارة يجب الحذر منها كل الحذر .

وترى الحال على هذه الصفة فى سائر المشرق . ففى آسية الصغرى قبضت حكومة مصطفى كمال على رسل الدعوة البلشفية [١] بينما الجنود التركية أخذت تتناوش مع الجنود الروسية عند حدود القوقاس المختلف فيها . وقد مر معنا فى الـكلام على مصر كيف كان وجل القادة الوطنيين من ثورة اجتماعية يوقد نارها المحرضون وأهل السجس فى طبقـة الفلاحين سببا فى تسهيل التفاهم بين اللورد ملنر والزعماء الوطنيين ، تفاهماً قائما على حب الوفاق . وكتب السر فالنتين تشيرول فى ربيع سنة ١٩١٨ يبين مبلغ العبرة التى اعتـبرها الرأى العام الهندى فى انهيار روسية القيصرية وظهور البلشفية ظهورها الرائع ، ومما قاله : « ان عقلاء الهنود ليعجبون كيف عجزت الطبقة الراقية فى روسية (وهى تفوق الطبقة الراقية فى الهند عدداً واستعداداً) عن تدبير شـؤون الطبقة الجاهلة وحكمها حق الحـكم بعد تمزق الحـكومة شر ممزق » . وفى افغانستان أخذ الامير يبدل محبته لحليفه السوفياتى بنفرة متزايدة . فان تدفق سيل المهاجرين من تركستان السوفياتية على افغانستان هرباً من ويل البلاشفة وجورهم ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أمير بخارى ، وهو نسيب لأمان الله خان ، جعل أمان الله يفـكر فى سـوء العقبى ، وزاد الامر خطراً عصيان الجنود الافغانية عصياناً شـديداً على الحدود الروسية طالبين أن يمنحوا الحق بانشـاء مجالس عسكرية على الطراز الروسى . قد يبذل البلاشفة جهدهم فى اغراء الامير والتسويل له بأن يقوم بغزو الهند غزوة كبيرة ، ولـكنه يكون من الحـكمة والبصر بالعواقب أن يعـلم ان غزوة الهند اذا قام بها لا تجديه نفعاً مادام هو نفسه معرضا لغزو رعيته العاصية التى ستفتك حينئذ به . ويتضح من جميع ما تقـدم ان القادة والزعمـاء الوطنيين الشرقيين ، وفيهم

---

(١) تقدم لنا ذكر قصة مصطفى صبحى البلشفيكى التركى ورفاقه ، ومؤخراً قبضت الحـكومة التركية فى استانبول على بعض أتراك بتهمة البلشفة وزجتهم فى السجن . (ش)

المحافظون وسواهم ، أخذوا على توالى الايام بالتعاقد معاً والاصطفاف جنبا الى جنب للوقوف فى وجه البلشفية والحذر الشديد منها . ولو لم تكن الاقطار الشرقية معرضة لخطر الاستعمار الغربى أى لو كانت بمأمن من غوائل الحلفاء ، لكانت صدت تقدم الجيوش الحمراء صداً ولقنت رسل الدعوة البلشفية درساً ماؤه العبر الكبرى

ولكن من سوء الطالع أن القادة الشرقيين يرون أنفسهم فى برزخ مربد الجو طرفه الأول متصل بهول البلاشفة والآخر بهول الاستعمار الغربى المنقطع النظير ، فكانت النتيجة انهم جعلوا يقاتلون كل فريق بالآخر ، تارة يولون وجوههم شطر موسكو اذ استفحل جور المستعمرين ، وطوراً ينظرون الى الدول الغربية اذ قلب لهم لينين ظهر المجن . هذه حقيقة لاريب فيها . فعلى ساسة الغرب أن يتحققوها ويعلموا العلم اليقين ان ليس زعيم رسل الدعوة البلشفية هو زينوفيف وهو يخطب فى جماهير الوفود فى مؤتمر باكو ، ولكنه هو الجنرال غورو قائد الكتائب السنغالية الذى يحكم فى سورية والبلاد العربية الداخلية حكماً قائماً على طرق « القوة والحديد والنار » .

ومن المعلوم ان انتشار البلشفية فى الشرق انتشاراً واسع النطاق بعيد الأفق ، سيكون بلا ريب جائحةً رائعةً يتزلزل الشرق بها وسائر العالم معا . فاذا كان انتصار البلشفية فى الغرب معناه انتصار البربرية ، فهو فى الشرق الهمجية المطبقة لا تبقى ولا تذر . وان تحرر الطبقات العامة فى الشرق ممن لم يبرحوا فى الجهل والغباوة طفرة بدون تدريج ، من ربق التقاليد الدينية والعادات القديمة وسائر القيود القاعدة بهم عن النهوض الصحيح ، واغتمار الطبقتين العليا والوسطى فى الثورة الاجتماعية الآكلة الحاطمة من كل جانب ، ذلك من شأنه نسف الحضارة الشرقية والتهذيب الشرقى نسفا ينزل بالشرق أفدح النوازل فيستغرق فى الفوضى استغراقا لا يستقر به على حال أعصراً وقروناً .

خاتمة

هنا ينتهى وصفنا العام للتطور الحادث اليوم فى الشرقين الأدنى والأوسط . فهل هناك شئ أحرى بالتدبر وأجدر بالاعتبار مما جاء فى هذا الوصف الذى أتينا عليه من جميع وجوهه ؟ لا جرم انه تبدل وتغير ، واستحالة وانقلاب . فقد تحرك « الشرق الجامد » أخيراً حتى القرارة القصوى من أعماقه ، وهو اليوم فى أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران ، وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصور . فالعالم الاسلامى الذى ظلت قواه العقلية والروحانية هاجعةً ما يقرب من ألف سنة ، قد استيقظ مرة أخرى وطفقت قواه تعمل عملها العجيب ـ وغدا المسلمون يعظمون شأناً من جديد ويعلون منزلة فى الأرض .

أما ماذا سيكون ؟ والى أين المصير ؟ ذلك لا يعلمه الا علام الغيوب . فليس منا من يستطيع التنبوء ماذا عسى يكون نتاج هذا التطور الشديد سياسياً واقتصاديا واجتماعيا ودينيا وغير ذلك من أطوار الحياة . بل كل ما نستطيع الجهر به هو أن نعلم علما صحيحا ونصف وصفا سليما مطابقا ، ونحلل مختلف العناصر التى يتألف منها هذا الانقلاب العظيم تحليلا لا نعرف فيه غير الصدق ولا نبغى منه سوى الحق

وهذا حقا ليس بالقليل فان النظر بعين التدبر والعقل فى هذا التحول الحادث الذى لا مثيل له ، وربط مظاهره وصفحاته المتنوعة بعضها ببعض وجمعها تحت صورة عامة تظهر بها الأسباب والنتائج سلسلة آخذاً بعضها برقات بعض ، وتتبع الطرق العديدة التى يسير فيها هذا الانقلاب تتبعا نقف به على أصول كل حالة من حالاته ، ووجه من وجوهه ، انما الغرض منه هو العلم الصحيح بالواقع ، والادراك التام لاهمية ماينجم عن هذا التبدل فى المستقبل .

فالمعرفة تأملٌ وأملٌ ، فاذا عرفتَ فتأملْ وأملْ ـ أمّل ان هذا المخاض الشديد الذى لا يفهم كنهه الا من أوتى علماً كبيراً ، ورزق عقلاً صافياً ، وقلباً واعياً ، ان هو الا مولد لشرق جديد فى عالم جديد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

خداع الاوربيين للعرب والمسلمين

للأمير شكيب

طالما نصح عقلاء الشرق الدول المستعمرة بان يقلعوا عن سياسة الفتح والغزو فى الشرق بعد الحرب العامة ، فلم يعر رجال هـذه الدول كلامهم آذاناً واعيـة ، حرصا على الفتوحات وطمعا وشرهاً وجرياً على السياسة القديمة الاستعمارية ، ومن تعود شيئا صعب عليه الاقلاع عنه . ولولا كون الشرقيين لم يزالوا يأملون الخلاص من الاستعمار رأسا بدون واسطة لمد جميعهم أيديهم الى مصافحة السوفييت المسكوفيين ، واقتدوا فى ذلك بالترك والعجم والافغان ، الذين اعتضدوا بالروس بدون اقتباس نار البلشفة . ولـكن الشرقيين ولا سيما العرب فضلوا المطالبة والمراجعة والتوسل بالتدابير القانونية والطرق السياسية ، على المبادرة الى التدابير القصوى . على أن المثل السائر « آخر الدواء الـكى » هو عربى

***

فى هذا المقام يحسن أن ننشر البلاغات التى نشرها الانـكليز فى أيام الحرب متزلفين بها الى العرب ليفصلوهم عن الترك ويأمنوا ثورة المسلمين . وعندما نقرأ هـذه البلاغات ونقابلها بما بدا من الانـكليز وحلفائهم بعد الحرب بحق هؤلاء العرب الذين ادعوا صداقتهم يخطر ببالنا ذلك البيت :

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه حتى قضاه فلا صلى ولا صاما

ولـكن نسى الانـكليز والحلفاء أن من أصح الأحاديث النبوية عنـد المسلمين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

البلاغ الأول من الانـكليز الى العرب ١٣ شباط سنة ١٣٣٤

الى أصدقائنا سكان بلاد العرب

قد علمتم تماما أننا معشر الانـكليز لم نخض غمار هذه الحرب الطاحنة ضد ألمانيا الا

لأنها اعتدت على الممالك الصغيرة المتاخمة لها وهاجتها لغير ما ذنب مع ان ألمانية نفسها قد كفلت ضمان استقلال تلك الممالك بالعهود والمواثيق الأكيدة ولا يغيب عنكم ان ألمانيا لما اكتنفتها الاخطار وأحاطت بها الازمات احتالت بدهائها على الحكومة التركية لتأخذ بناصرها وتشد أزرها وقد استطاعت أن تصل الى مآربها بفضل المبالغ الطائلة من المال والأماني الكاذبة وكانت ترمى بذلك الى الحصول على أمر بالجهاد من سلطان تركيا ضدنا وضد حلفائنا لان رايتنا تظل الملايين العديدة من المسلمين الذين انضم الى جيوشنا الآلاف المؤلفة منهم وأصبحوا يحاربون معنا ضد الالمان جنبا الى جنب وهى ترجو من وراء ذلك أن ينقلب المسلمون ويكونوا علينا لا لنا ولا شك فى أن كل مسلم صميم ملأت العقيدة الاسلامية قلبه يربأ بنفسه من أن يستخف بعقيدته ويكون ألعوبة فى يد دولة أجنبية تجعله قربانا على مذابح مطامعها الاشعبية وليس جميع المسلمين من رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا والروسية وحليفاتها وحدهم قد أظهروا آيات الاخلاص والولاء بارسال زهرة شبانهم لمساعدتنا فى ميدان القتال ضد تركيا وغيرها بل ان الطبقة الرشيدة من الأتراك سخطت على سوء سلوك تركيا الى هذا الحد ولعل بينكم من يتسأل عن نوايانا بعد أن تطفأ جذوة هذه الحرب فلدفع الالتباس نصرح بما يأتى :

ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند قررت انه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون شبه جزيرة بلاد العرب ترفل فى ثياب الحرية وتستعيد رقيها القديم ونضرتها الأولى . بربكم أفلم يكفكم ذلك ؟ لقد صرح لنا بعض مشايخ العربان برغبتهم فى التخلص من يد الأتراك و بعضهم يشد اليوم أزر جيوشنا بحد سيوفه أما الذين يرغبون فينا منكم ويخافون المجاهرة بما فى نفوسهم فاليهم نسوق حديثنا هذا

لا يداخلكم ريب من جانبنا وترقبوا سنوح الفرصة المناسبة فهى آتية لاريب فيها وعندها تخلعون عنكم رداء الظلم وتنفضون عن كاهلكم غبار الاستبداد وانا لا نألو جهداً فى مد يد المساعدة اليكم كما انا نعدكم وعداً صادقا بأنكم ستصيرون بحول الله وقوته أمة متمتعة بكل معانى الاستقلال . انتم على شوق الى معرفة نوايانا من جهة دينكم الكريم الا فاعلموا ان الديانة الاسلامية قد احترمتها الانكليز أجل الاحترام وأكبرتها كل

الا كبار والتاريخ أكبر شاهد على صدق ما نقول وما فتئنا لهذا السبب نمد يد المساعدة لسلطان تركيا ونزيد آصرة الالفة والود بيننا و بينه تمكينا . وأما الآن فقد حمله بعض وزرائه على نكران كل جميل صانعناه به وعلى مناوأتنا بعد طول الصداقة بيننا و بينه فليس عليه الا أن يرضخ لمشيئتهم و يقبل عاقبة ما كان . ولكن سياستنا سياسة الاحترام والصداقة للاسلام والمسلمين لا يطرأ عليها أدنى تغير وان أقرب برهان على ما ذكرنا هو رغبتنا فى مساعدة سكان الاراضى الحجازية بمقادير من الحبوب ولكن ضباط الالمان والاتراك صادروا هذه المقادير حال وصولها الى جدة والجأونا الى عدم متابعة ارسال الحبوب لاعدائنا ليسدوا ما بهم من ألم المسغبة فى حين أن الفقراء خماص البطون يتضورون من الجوع . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فالحكومة الانكليزية بعد ما سمعت ما يتكبده الحجاج وسكان بلاد العرب الابرياء من آلام الجوع لندرة المأكولات قد حركتها عوامل الشفقة والصداقة السرمدية نحو العرب أجمع فقرر التسريح بجلب المأكولات الى جدة عن طريق البحر فليتأكد العرب أنفسهم أن هذه المؤن الغذائية هى قوت لهم ولعائلاتهم وليجتهدوا فى منع مصادرتها من هؤلاء الذين يعملون على نقيض القواعد المتبعة ابان الحروب و يخطفون لقمة الجائع من فمه

ملك بريطانيا وامبراطور الهند
جورج الخامس

البلاغ الثانى ٤ ذى القعدة ١٣٣٥

ان الحكومة البريطانيـة تعلن للملأ انه ليس فى نية الدولة البريطانيـة العظمى أن تقوم بأعمال حربيـة لا براً ولا بحراً ضـد بلاد العرب أو موانيها الا اذا كانت الأعمـال الحربية لازمة لأجل حماية مصالح العرب من اعتداء الاتراك أو غيرهم أو لأجل تأييد العرب الذين يودون أن يتحرروا من نير الاتراك . ثم ان الحكومة البريطانيـة تعلن للملأ أيضا انها تعترض حرية التجارة فى البحر الأحمر لانها من أهم وسائل معاش العرب وانه لم يحصل أقل تغيير فى علائق بريطانية العظمى الودية مع العرب بوجه عام .

ملك بريطانية
وامبراطور الهند
جورج الخامس

البلاغ الثالث ٧ ذى الحجة ١٣٣٥

ان الحرمين الشريفين والمعاهد المقدسة السالفة الذكر ومن ضمنها ثغر جـدة ستبقى أثناء هذه الحرب التى لادخل للدين فيها فى أمان من أى هجوم أو اضرار من جهة القوى العسكرية البرّية أو البحرية حتى لايلحق الحجاج الهنود الذين قصدوا زيارة الحرمين المذكورين مايوجب أذيتهم وبناء على طلب الحكومة البريطانيـة تعهدت الحكومتان الفرنسوية والروسية بمثل ماتعهدت به حكومة جلالة ملك بريطانية .

ملك بريطانية
وامبراطور الهند
جورج الخامس

تاريخ الممالك الاسلامية الهندية

الأمير شكيب

يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنى الذى يقول له مؤرخونا محمود بن سبكتكين ، لم يكن أفغانياً بل تركياً ، و بين الجنسين فرق لايخفى ، لأن الترك تورانيون والأفغان ايرانيون ، وانما يمكن أن يعد أفغانياً باعتبار مملكته لأنه أسس ملكه فى غزنة من بلاد الأفغان ، وأصل هذه القضية أن جد محمود ، وهو المسمى آلب تكين ، وهو بطل تركى ، كان شأنه الغزو والقتال وكان فى خدمة الملوك السامانيين الفرس الذين تولوا خراسان وما وراء النهر ، لخصلت وحشة أوجبت انفصاله عنهم ، فقدم الى مدينة غزنة وهى من أحصن مدن العالم موقعاً ، عدا مالها من الأسوار ، وفيها من الحصون ، وحولها من الخنادق ، وتبوأها نحو سنة ٩٦٢ وتبعه شرذمة من أحلاس الخيل ومغاوير الحروب ، ممن جاءوا معه مما وراء النهر ، فكانوا نواة جيشه ثم انضم اليهم جند وافر من الأفغان الذين يشبهون الترك كثيراً فى الغرام بالقتال ، فانبسطت بهم مملكة البتكين ، ثم مملكة ولده سبتكين الذى خلفه (٩٧٦) وفتح كابول التى هى مفتاح معابر جبال الهندكوش وقندهار قلعة الاسكندر ، وأتم فتح البلاد الأفغانية واستظهر على مغازيه بهذا الشعب الأفغانى الباسل الذى لم يخضع لشعب فى العالم . وساعد على اتحاد الأتراك والأفغان كون الفريقين على عقيدة السنة والجماعة ، حال كون الفرس شيعة متعصبين . ثم انه فى سنة ٩٩٧ أقطع السامانيون سبكتكين بلاد ماوراء النهر ، مكافأة له على نجدته إياهم فى ثورة ثارت عليهم فى بلادهم ، فقوى سلطان سبكتكين وطمع فى غزو الهند مطمح نظره ، وشن الغارات على البنجاب مقدمة الهند ، وما زال يتحرش بالهند حتى احتشدت راجوات لاهور ، ودلهى ، واجمير ، وقنوج ، وكالنجار ، ومشتصوب الأفغان بجميع أفيالها و ١٠٠ ألف من فرسانها ، فنصر الله سبكتكين ومزق الهنود شر ممزق ، ولم يكن للهنود أن يملكوا نظام الترك فى الحروب

(١) راجع صفحة ١٨٠ من هذا الجزء

والترك هم الذين ألف على مزاياهم العسكرية الامام الجاحظ شيخ كتاب العرب كتابه المسمى « فضائل الاتراك » فى أيام المأمون ولا أن يقاوموا الافغان وهم هم الذين لم يوجد قوم مثلهم للحرب والضرب، ثم خلف سبكتكين ولده محمود المعدود من أشهر أبطال الاسلام وهو الفاتح الأعظم للهند .

وبدأ غزواته بفتح الملتان سنة ١٠٠٥ مسيحية ، وأراد أن يوغل فى الهند فحشد راجا لاهور عليه جميع عساكر الهند ، متحداً مع راجوات دلهى واجمير وقنوج وكفاليور وكاليجار واوجايين ، فقام العالم البرهمى من أوله الى آخره ، وانتظرهم محمود فى سهل « باننداه » ودارت رحى الحرب فقضى الله بكسر الهنود بالرغم من تفوقهم فى العدد ، وفرّت أفيالهم لاتلوى على شئ ، وغنم محمود بعد هذه المعركة مالا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ونهب هيكل « ناغاركوت » (١٠٠٩) وسنة ١٠١٤ فتح بلاد دواب وسنة ١٠١٩ فتح قنوج وطرد أميرها و وضع مكانه أميراً تابعاً له . وسنة ١٠٢١ فتح كشمير ، ومازال يوالى مغازيه و يلقى الرعب فى قلوب الهنود الى أن تألب عليه ملوك البراهمة مرة أخرى سنة ١٠٢٤ فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل لاهور وخلع سلطانها سقبال بن داننقبال ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته فكانت المحطة الأولى من طريق الاسلام الى الهند . ثم هاجم كاليجارا وكفاليور فالتزم ملوكها أن يؤدوا له الجزية . وقال فى صبح الأعشى : انه فتح بهاضية سنة ٣٩٦ وسار الى بيدا ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة بكاليجار فحاصره فيها حتى صالحه على مال فأخذ المال وألبسه خلعته ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك فشدها على كره . وسنة ١٠٢٥ مسيحية غزا ساحل الكوجرات وهدم صنم سومنات الشهير . و بهذه الفتوحات كلها التى فتحت للاسلام أبواب الهند أطلق عليه الخليفة العباسى القادر بالله لقب سلطان وسماه يمين الدولة و يمين الملة . قال بعض مؤرخى الافرنجة ان محموداً كان اسكندر الاسلام ، فانه فتح الهند كما فتحها اسكندر ، الا ان فتوحات اسكندر ذهبت بذهابه أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت الى اليوم . وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه ، وقلع عبادة الأصنام منه ، الا انه مع هذا الفوز المعنوى فاز بغنائم من الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل فى حوزة أحد من قبله .

ويعترف مؤرخو الافرنجة بأن محمود الغزنى لم يكن فاتحاً غازياً عالى المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل انه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيساً ، ناظماً بين حاشيتى المادة والمعنى ، جامعاً بين دولتى السيف والقلم ، ويعللون ذلك بأن بفتحه العراق العجمى واستيلائه على اصبهان والرى التى انتزعها من بنى بويه ، وعلى نيسابور وطوس وهراة ، فضلاً عما كان بيده من ملك خراسان وأفغانستان ، قد قام بتمثيل دور مدنى يليق بملوك العجم ، وأنه أعطى أبهة الملك حقها ، وفى زمانه حصلت نهضة فارس العقلية وصارت غزنة هذه التى كانت عبارة عن قلعة حربية ، مركزاً للعلم والعرفان ومشرقاً لأشعة الحكمة والآداب ، وامتلأت مدارس وجوامع ومكاتب ، واليها شدت رحالها الحكماء والعلماء والشعراء ، ان لم يكن منهم الا الفيلسوف الأعظم أبو نصر الفارابى ، والشاعر الأكبر هوميروس العجم الفردوسى لكفى . وقد كان السلطان محمود هو المقترح على الفردوسى نظم الشاهنامة ووعده بأن يكافئه على كل دوبيت (بيتين) بقطعة من الذهب ، الا أن ذلك أثار حسد الحساد ، فوشوا به الى السلطان فبدل له الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسى وفر خفية بعد أن فرق الفضة على عبيده وهجا السلطان هجواً مراً . وذهب الى بغداد ثم الى شيراز ، وكان محمود قد أرسل فى أثره من يستعطفه ويبين له ندم السلطان على مافرط منه فكان الفردوسى قد مات . ولزم باب الغزنى من شعراء الفرس أيضاً العنصرى والفروخلى والاسجودى ، وكان هناك العلامة الكبير أبو الريحان البيرونى صاحب الجغرافية ، وفى أيامه نبغ الكاتبان الأعظمان فرقداً سماء البلاغة أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وكان الهمذانى عامل السلطان على هراة . ومن الذين اشتهروا فى ذلك الدور ، وكان اليد اليمنى لابن سبكتكين فى المآثر والمبار والمفاخر الكبار ، وزيره المايماندى . وقد ألف الكاتب العتبى تاريخاً خاصا بمحمود بن سبكتكين ، كما انه مترجم فى تآليف كثيرة من أشهرها وفيات الأعيان لابن خلكان

وخلف محموداً الغزنى بعد وفاته ابنه مسعود (١٠٣٠ الى ١٠٤٠) وفتح من الهند بلاد الأوض ودخل بنارس. وورد فى صبح الأعشى ان ابراهيم بن مسعود فتح أيضاً حصوناً كثيرة فى سنة احدى وخمسين وأربعمائة .

وسنة وفاة محمود على مافى صبح الأعشى بالتاريخ الهجرى هى ٤١١ قال : وملك بعده ابنه محمد بن محمود بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه مسعود بن محمود

وملكوه عليهم و بقى حتى قتل فى سنة ٤٣٢ ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل فى عامه ، وملك بعده ابن أخيه مودود بن مسعود وتوفى سنة ٤٤١ وملك بعده عمه عبدالرشيد ابن محمود وقتل سنة ٤٤٤ وملك بعده فرخذاد بن مسعود بن محمود وتوفى سنة ٤٥١ وملك بعده أخوه الملك المؤيد ابراهيم بن مسعود (السابق ذكره فى الفتوحات) وتوفى سنة ٤٨١ وملك بعده ابنه مسعود بن ابراهيم وتوفى سنة ٥٠٨ وملك بعده ارسلان شاه بن مسعود ثم ملك بعده بهرام شاه بن مسعود ، وملك بعده ابنه خسرو شاه بن بهرام وتوفى سنة ٥٥٥ وملك بعده ابنه ملكشاه بن خسرو شاه بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سبكتكين . ثم انتقل الملك الى الغورية . انتهى

و بعد وفاة محمود بن سبكتكين ظهرت الاتراك السلجوقية على خراسان وانتقصوا ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور فى الهند وما زالت أمورهم فى انحطاط الى أن غلب على ملكهم الغوريون الافغان ، والله وارث الارض ومن عليها .

وهؤلاء الغوريون هم أمراء فيروزكوه أو بيروزكوه وهى قاعدة بلاد الغور على مافى كتاب « تقويم البلدان » والغور (بضم المعجمة) — على مافى (اللباب) — هى بلاد فى الجبال بقرب هراة . وقال فى « المشترك » : ان بيرزكوه هى دار مملكة جبال الغور وهى قلعة حصينة وبها كان مستقراً بنو سام خان ملوك الغور . «وقال فى معجم البلدان»: « بناها بنو سام ملوك الغورية.وقال فى صبح الأعشى : و بلاد الغور وغزنة وما والاها وان عدها فى « مسالك الأمصار » من مملكة التورانيين فانها ليست من أصل مملكة توران وانما تغلب عليها ملوكها من مملكة ايران فلذلك أثبتها فى مملكة ايران » . انتهى

وقال فى « المشترك » ، ومعنى بيروزكوه الجبل الأزرق .

وأول من ملك من الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين ، ملك عند انقراض الدولة الغزنية واستضاف عزنة وما جاورها الى الغور سنة ٥٥٥ ولقب بالملك المعظم . وملك بعده غياث الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين ، ثم ملك أخوه شهاب الدين وفى أيام هذا ، أى فى عهد الستمائة للهجرة ، كان الامام حجة الاسلام فخر الدين الرازى ، وكان يذهب الى هذا السلطان و يعظه . وملك بعده علاء الدين محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين أما الفاتح الأعظم من هؤلاء والذى مكانه فى التاريخ العام عين مكان ابن سبكتكين

فهو السلطان محمد أبو المظفر بن الحسين الغورى .

وقال « رينه غروسه » صاحب تاريخ آسية المستخاص من مئات من التواريخ : « ان الغوريين استولوا على جميع ما كان يملكه الغزنيون ، ومن ثمة كان بدهياً أن يجروا على أثرهم فى غزو الهند . فبعد أن أزال محمد الغورى ملك آل سبكتكين ، زحف نحو الهند فجمع له ملوك البراهمة ثلاثمائة ألف فارس ، وثلاثة آلاف فيل ، فزق شملها ودخل الهند وكانت معركة فاصلة وفتحاً قل أن اتسق مثله للاسلام (١١٩٣ مسيحية) ضمن للاسلام بعدها سلطنة الهند مدة خمسة قرون متوالية ، وأدال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم من براهما . فدخل محمد دلهى وميرات وآغرا واستضافها الى ملكه رأساً . وفى السنة التالية فتح قنوج (١١٩٤) ومملوكه ايبك فتح بنارس و بلاد أوض ، وسنة ١١٩٦ ضرب الجزية على مملكة كفاليور ، وسنة ١١٩٧ استلحق بلاد كوجرات ، وسنة ١٢٠٢ خلع راجا كاليجار واستضاف الى المملكة الغورية بلاد بوندكهاند . وان أحد رفاق ايبك بختيار قلجى الافغانى انتزع من يد دولة « ماغدها » البوذية بلاد بهار والبنغاله سنة ١٢٠٢ » انتهى قول غروسه ملخصاً .

وقال فى صبح الأعشى : فتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغورى مدينة لهاور (أى لاهور) سنة ٥٤٧ (وابن الاثير يقول ٥٧٩ وهو أصح لأن ذلك فى زمان ابن الاثير) واتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، و بلغ من النكاية فى ملوكهم مالم يبلغه أحد من ملوك الاسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دلهى (يقال دهلى ودلهى ودلى) التى هى قاعدة الهند . و بعث ايبك عساكره فلكت من الهند أماكن مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين . ثم قال : ثم فتح سنة ٥٩٧ نهر واله . وتوالت ملوك الاسلام وفتوحاتهم فى الهند الى أن كان محمد بن طغلقشاه فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند وكثرت عساكره وأخذ فى الفتوح حتى فتح معظم الهند . انتهى

قال غروسه ان محمود الغورى أسس ملكا عظيما ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول الاسلامية التى جاءت بعده من ترك وافغان وطاغلاقيين وسادات ولوديين وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة وحق الاسلام فى السلطنة العامة على الهند مما بقى الى

زمان استيلاء البريطانيين . وهو الذى نقل كرسى السلطنة من لاهور الى دلهى لأن لاهور لا تضمن الا ملك البنجاب ، حال كون دلهى تدعو الى ملك جميع سهول القنج وأقاليم الدكان ، ولما كان الغزنيون فى لاهور لم يكونوا الا نظير راجاوات فى أحد أقاليم الهند أما الغوريون فى دلهى ومن ورثهم من آل طاغلاق وآل السيد وسلالة تيمور فكانوا بالفعل سلاطين الهند باسرها .

ثم قال ما محصله : ان امبراطورية الغوريين كانت لم تزل قائمة بالسيف ، وكان الهنود الوطنيون غير طائعين الا بسبب توالى الزحوف من الشمال ، وكان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك . وكان شأن هؤلاء المماليك فى الهند شأنهم بمصر حذو القذة بالقذة . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة اندمجوا فى الجيش فامتازوا بالبسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة الى درجة الى أن ينال الامارة وأحياناً السلطنة كما كان يقع بمصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون ابقاء المآثر والطمع فى تخليد الذكر ، فكما ان سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة ، فالسلطان المملوك فى الاصل ايبك الذى خلف محمد الغورى ، بنى فى دلهى الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » وبنى فى اجمير الجامع المنسوب اليه . وكما هو الشأن فى دول المماليك قلما كان يتولى الابن مكان أبيه بل كان يغلب على الملك مملوك آخر يكون أوفر حزماً ، وأشد عزماً من الولد الذى كان يجب أن يرث أباه ، لهذا لما مات ايبك تغلب على سلطنة الهند مملوك تركى اسمه آلتامش (١٢١١ – ١٢٣٦) فكان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة وأكمل فتح الهند الشمالية بأخذ بلاد المالفا. وأعلى من هذا كله انه حفظ الهند من جائحة المغول ، لانه فى زمان التامش هذا زحف الجنكيزيون على ايران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الامير جلال الدين مانكبردى الخوارزمى شريداً ملتجئاً الى التامش ، فكان من حسن تدبير هذا انه رد غارة المغول على البنجاب ولكنه لم يتهور فى اصراخ جلال الدين الى محاولة اعادة ملكه له وشن الغارة على المغول ، مما لم تكن تؤمن عاقبته . الا أن المغول كروا أيضاً على البنجاب بعد موت التامش فردهم مملوك تركى آخر كان التامش رقاه تدريجاً الى امارة الجيش اسمه « بالبان » فحفظ بالبان الهند من غارة

المغول فكافأته الامة بأن رقته الى السلطنة (١٢٦٦ - ١٢٨٧) .

وسنة ١٢٩٠ مسيحية انتقلت سلطنة الهند من أيدى المماليك الى آل قيلجى الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان علاء الدين الذى كسب المسلمين فتوحات جديدة فاخضع بهوبال واجتاح بلاد المهرات (فى بلاد بمباى الحاضرة) وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدناً وقفل بغنائم كثيرة . وعام ١٢٩٧ زحف ١٠٠ الف مغولى مما وراء النهر يقودهم امير من ذرية جنكيز قاصدين البنجاب فالتقاهم علاء الدين وهزمهم شر هزيمة بقرب لاهور فعادوا سنة ١٣٠٥ وتقدموا نحو دلهى فكسرهم علاء الدين كسرة اشنع من الأولى ، واسر منهم جانباً رماهم تحت ارجل الفيلة فداستهم . ثم عاد علاء الدين الى اتمام فتح الهند الوسطى، فاستولى على مملكة كوجرات ، ثم غزا مملكة تشيتور ، و بعد حرب ضروس التجأ ملكها الى جبال آرافالى ، فلم يرجع علاء الدين عنه الا بعد أن أقر له بالطاعة . وسنة ١٣٠٨ سير علاء الدين أحد قواده الملك كافور لغزو مملكة دكان ، وامتنع راجا مملكة المهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده وغزا مملكة تلينغانا وفتح عنوة عاصمتها فارانغال ، واستولى على خزائن ملكها . وسنة ١٣١٠ غزا مملكة مايسور واجتاح مدينة هاليبيد العظيمة . ثم فى اثناء ايابه الى دلهى قتل راجا المهرات الذى عاود العصيان ، وضم المهرات الى سلطنة دلهى . اما فتح الدكان فلم يتيسر لا للاسكندر ولا لمحمود الغزنى ولا لمحمد الغورى وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل الى بلاد الدكان فى غزواته .

الا انه فى عام ١٣٢١ تنزى على سلطنة دلهى بنو طغلق الاترك ، وازالوا الدولة الافغانية من هناك ، وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معاً ، فانتبذ كل امير فى مملكة واعلن انفصاله عن سلطنة دلهى . فملك فى الدكان ، وملك فى مالفا ، وملك فى البنغال وملك فى كوجرات ، وملك فى أوض . وكلهم اصبحوا مستقلين بانفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهى سوى دواب والبنجاب ، وهذه أيضاً تعرضت لفادحة كبرى وهى غارة المغول . انتهى .

قال فى صبح الاعشى . ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكة سلطان من اقارب اسمه فيروزشاه و بقى فى الملك نحو اربعين سنة ثم تنقلت المملكة فى بيتهم الى ان كان من تمرلنك ما كان من فتح دلهى ونهبها . انتهى .

فان المغول كانوا قصدوا الهند مراراً وصدتهم الهند وانكفأوا عنها خاسرين، الا انهم لما دخلوا فى الاسلام ، وتوطد ملكهم فى فارس والعراق وافغانستان ، و بعد ان كانوا اعداء الاسلام صاروا حماته ـ ولولا ذلك مارسخت قدمهم فى هذه البلدان خلافا لما يظن بعضهم ـ جددوا العزم على غزو الهند اقتفاء لأثر غيرهم ممن ملكوا أفغانستان كالغزنيين والغوريين وفى سنة ١٣٩٨ مسيحية زحف تمرلنك بعساكر جرارة على الهند ، فدخل البنجاب ، وصمد الى دلهى فالتقاه سلطانها محمود الثالث فى بانيبات ، فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تمرلنك دلهى ظافراً فاتحاً ، وأعلن نفسه سلطاناً على الهند كلها فى الجامع الأعظم ، ولكنه استبقى سلاطين دلهى الأصليين بصفة تبع له ، فسقطت مكانتهم وصاروا كسائر ملوك الهند . فصارت ممالك الهند الاسلامية هى سلطنة دلهى ومملكة الدكان ومملكة البنغالة ومملكة جاونبور ومملكة مالفا ومملكة كوجرات . أما مملكة البنغالة فأسسها بختيار قيلجى الافغانى على انقاض دولة «ماغادها» البوذية و بقى كيانها محفوظاً مع تعاقب الدول الافغانية والتركية والمغولية على الهند الى أواسط القرن السادس عشر للمسيح . وأما مملكة جاونبور فقد انشأها احد وزراء محمود الثالث سلطان دلهى فى أثناء غزوة تمرلنك ، وكان لها بلاد أوض وولاية بنارس ، وقد تركت مآثر باهرة مثل جامع « اتالا » المبنى سنة ١٤٠٨ والمسجد الاعظم المبنى سنة ١٤٥٠ ولكن لم يطل عمر هذه الدولة ، اذ كان تأسيسها سنة ١٣٩٤ وانقراضها سنة ١٤٧٧ بحرب وقعت مع سلطنة دلهى التى استلحقتها رأساً . وأما مملكة مالفا التى قاعدتها مدينة ماندو ، فقد وضع أساسها رجل افغانى كان والياً هناك سنة ١٤٠١ فى خلال غارة المغول ، فعاشت الى سنة ١٥٣٤ اذ استولى عليها ملك كوجرات . وأما مملكة كوجرات وعاصمتها أحمد آباد فقد أسسها أيضاً واليها فى تضاعيف زحفة تمرلنك . وفى الربع الأول من القرن السادس عشر كان قد وصل البرتغاليون الى الهند بعد أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، فحاولوا النزول بكونكان فاستصرخ ملوك كوجرات الاتراك العثمانيين سنة ١٥٠٨ فأرسلوا اسطولهم لينضم الى اسطول كوجرات فى حرب البرتغال ، فكانت الغلبة للاميرال البرتغالى « فرانسز كودالمايده » ونزل البرتغاليون بساحل ديو سنة ١٥١٣ . وأعظم مملكة انشقت عن امبراطورية دلهى هى الدكان ، أسسها الباهمانيون وهم افغان ، وكانت قاعدتها « كولبارغه » بقرب حيدر آباد ، وتشتمل على

ملك نظام حيدر آباد الحالى مضافاً اليه برار وبلاد المهرات . وكان بجانبها مملكتان هنديتان قويتان احداهما «فارانغال» والثانية «فيجاياناغار» الى الطرف الجنوبى من الدكان . فكانت سلطنة الدكان عبارة عن جهاد دائم مع هاتين المملكتين . وسنة ١٤٢٤ افتتح أحمد الأول الباهمانى صاحب الدكان فارانغال ودمرها تدميراً . وكان معظم شوكة الباهمانيين فى زمان محمد الثانى (١٤٦٣ – ١٤٨٢) بهمة وزيره محمود قاوان الذى افتتح بلد « غوا » من مملكة فيجاياناغار وسواحل سيركار من ملك راجا أوريسا . وفى أيامه امتدت سلطة الدكان من خليج البنغالة الى بحر عمان . ولكن بعد موت محمد الثانى الباهمانى تقسمت هذه السلطنة أيدى سبا ، فتشعبت منها خمس دول مستقلة كل عن الأخرى : الأولى دولة باريدشاد فى بيدار (١٤٩٠ – ١٦٥٧) وأصل ملوكها كرج . الثانية دولة عماد شاه فى برار (١٤٨٤ – ١٥٧٢) أصلهم هنود وأسلموا . الثالثة دولة نظام شاه فى أحمد ناغار (١٤٩٦ – ١٦٠٠) وهذه أيضاً أصل مؤسسيها من الهنود المهتدين . الرابعة دولة قطب شاه فى غولكوند (١٥١٢ – ١٦٨٧) وهذه أصلها فارسى . الخامسة دولة عادل شاه فى بيجابور (١٤٨٩ – ١٦٨٦) ويقال ان مؤسسها يوسف عادل كان من أولاد السلطان مراد الثانى العثمانى ، ساقته الأقدار بعد اقامة طويلة بفارس الى بلاد الهند حيث استقل بامارة بيجابور وكان متعصبا للفرس وللشيعة بخلاف أهله آل عثمان . فنشر الأدب الفارسى فى مملكته وجعل التشيع دين الدولة الرسمى وخلفه ولده اسماعيل فاحتذى على مثاله .

ومما لايخفى على الناقد البصير ان خمس دول كهذه ، متشعبة من مملكة واحدة أشبه بملوك الطوائف بالاندلس ، أو ملوك مصر والشام بعد صلاح الدين ، أو ملوك ايطالية قبل وحدتها الأخيرة الخ كان بعضها مع بعض فى نزاع مستمر ، والحروب بينهم لاتكاد تنقطع . فكانت الفائدة من ذلك لجيرانهم الهندوس ، وتقوى بخلافهم راجا «فيجاياناغار» واشتدت جرأته مرة الى أن اجتاح مملكة أحمد ناغار بحجة الصريخ لمملكة بيجابور . فغلبت على الملكين المتنازعين حمية الاسلام وتصالحا وانضم اليهما ملكا بيدار ، وغولكوند ، وزحف الأربعة على فيجاياناغار ، ونعثوا هذه المملكة العظيمة ، وقتلوا الراجا فى واقعة تاليكوت ، وأتوا على عاصمته من القواعد (١٥٦٥) . قال المؤرخ رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من منابع التاريخ وعليه اعتمدنا فى أكثر هذا النقل : ان الجهاد

الاسلامى الذى بدأه محمود الغزنى فى نحو سنة ألف للمسيح فى الهند ، انتهى فى أواخر القرن السادس عشر على حدود مايسور ، ولمع الهلال من ثلوج حملايا الى ساحل كرنات » .

ونعود الى سلطنة المغول فى دلهى ، فنقول ان أحد احفاد تمرلنك الشهير واسمه بابر ولقبه ظهير الدين محمد ، قد انتهز فرصة بعض الحوادث التى وقعت بدلهى ، فزحف من كابول ، حيث كان أميراً الى عاصمة الهند . وكان بابر هذا ابن المسمى عمر الشيخ ملك فرغانه ، وبذلك ابن حفيد ميرانشاه ثالث أولاد تيمورلنك وكانت أمه الأميرة قوتلق نيغار آخر من بقى من سلالة جغتاى الجنكيزية ، كما أنه ينتسب الى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الأب أيضاً . ومعلوم ان الانتساب الى جنكيز هو فى العالم الطورانى أقصى ما تخيله الامانى لملك أو سلطان أو أمير أو خان من الخانات ، كما هو الشأن عند العرب فى الانتساب الى آل البيت . بل كل منسوب فى المغول أو الترك الى جنكيز أو تيمور يرى لنفسه حقاً شرعياً فى الملك . فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعى والمجد الأثيل . وبعد وفاة والده سنة ١٤٩٤ (٥ رمضان ٨٩٩) آل اليه ملك فرغانة وكان عمره ١٢ سنة ، وسنة ١٤٩٧ ضم اليه مملكة ماوراء النهر ، ولكن غلب عليه محمد الشيبانى خان الاوزبك مؤسس الدولة الشيبانية فى بخارى ، فانهزم الى افغانستان يحاول ملكاً أو يموت فيعذر . فوفق الى امارة كابول سنة ١٥٠٤ واستولى على قندهار سنة ١٥٠٧ وكان نظير محمود بن سبكتكين قد تبعه جماعة من الاتراك من مساعير الحروب ، واعصوصب حوله فئام من الافغان الذين أحلى شئ عندهم القتال والنزال ، فاول شئ كان يخطر ببال مثل هؤلاء وهم فى كابول وقندهار ، هبوط الهند كما هبطها من قبلهم محمود الغزنى ومحمد الغورى . وبينما هم يحفزون بابر على هذه الغزاة التى وراءها الصيت البعيد وخزائن الهند ، اذ لاحت لذلك الغرة فان السلطان ابراهيم الثانى صاحب دلهى وهو من السلاطين اللوديين من سلالة افغانية كان اختلف مع عمه اعلم فالتجأ هذا الى كابول ، وبهذا تسنى لبابر أن يشن الغارة على البنجاب (١٥٢٥) بجيش لايتجاوز ١٣ ألف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذين فى الحروب ذوى البصائر فى القتال ، وقد جر بابر معه المدافع التى لم تكن معروفة يومئذ فى الهند ، فنهد اليه السلطان ابراهيم بمائة ألف مقاتل وألف فيل ، ودارت رحى الحرب فى سهل بانيبات فى ٢١ ابريل (نيسان) عام ١٥٢٦ أو نهار الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢ فاقام بابر فى وجه الفيلة

حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع ، بحيث أبطل عمل الأفيال ومن الجهة الأخرى كان عنده رماة بالمدافع يتقنون الرمى على نمط العثمانيين فى القرن السادس عشر . فالقت قذائفهم الرغب فى قلوب الهنود فهلك ابراهيم فى الواقعة وهلك معه ٢٥ ألفا من جنوده وتشتت الباقى . ودخل بابر دلهى ظافراً ونودى به ملك ملوك الهند فى جامع دلهى الأعظم ، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر .

فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة ، وأخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة رانا (لقب أكبر من راجا) سانغا ملك تشيتور فحشد معه راجا مارفار ، وراجا آمبر ، وراجا أجير ، وراجا كفاليور ، وراجا تشنديرى ، وانضم اليهم محمود اللودى أخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة ألف مقاتل من أفرس خيالة الشرق والتقى الجمعان فى سهل كانفاها على مقربة من آغرا ، فانتهت المعركة بدبرة الهنود ، وكانت الكلمة للمدفع كما فى المعركة السابقة فمات رانا تشيتور غماً . وزحف بابر يستصفى الممالك فحصر قلعة تشنديرى ، وضيق عليها ، فلما أيقن أهلها بقرب سقوطها كان منهم أن ذبحوا نساءهم وأولادهم أولاً ، ثم قتل بعضهم بعضاً ، بحيث عند مادخلها بابر (سنة ١٥٢٨) لم يجد الاجثثا وأشلاء . أما السلطان محمود اللودى فكان لايزال فى مملكة أوض فقصده بابر فانهزم الى البنغالة ، فانتصر له ملك البنغالة وهو أفغانى مثله فتغلب عليه بابر وأجبره على الدخول فى طاعته . وهكذا بقى بابر خمسة أعوام يجالد ويجاهد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التى استمرت قرنين فى الهند وكان لها تاريخ طويل عريض .

ومات بابر (سنة ١٥٣٠) بعد أن أبقى ذكراً خالداً ولم يكن بابر سلطاناً فاتحاً فقط ، بل كان على طراز كثير من سلاطين آل عثمان محمد الفاتح أو سليم وأحمد يجمع بين السيف والقلم ولا يكتفى بالحكم دون الحكم . فكان فيه صلابة أجداده الجنكيزيين ، وغرام الترك بالفتوح ، ودماثة أخلاق الفرس وشغفهم بالآداب ، وبالجملة فقد جمع بين شدة البأس ورقة الأدب ، وحرر خاطراته بقلمه فكان لها شهرة عظيمة وترجمت الى اللغات الأوروبية فقال فيها رنان الفيلسوف الفرنسى مايأتى :

« ان هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق فى الرواية ، وعند مايفكر الانسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السلبقى هومؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لايعود قادراً

على ترك الكتاب من يده ، لأنه يحس بذلك تلك الحالة النفسية التى كانت تجيش بتلك السلائل التترية المالكة التى ملأت آسيا وقائعها منذ القرون الوسطى الى أيامنا هذه . فتجد فى تلك الأسطر كلاما معقولاً مع اصالة الرأى ، ورقة الطبع ، وشدة الجلد بدون تعصب دينى ، ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام (مما لايصح أن ينساه القارىء أن من الصفات التى ترتاح اليها نفس أكثر الأوربيين هو أن يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه هذا هو مقياس الحب عندهم) الا فى أحايين يظهر عليه فيها أثر التدين . وبالاجمال يتجلى من كلامه حرية الفكر ، والدهاء ، والعدل ، وعدم الانقياد للأوهام ، ممالاتجده فى فاتح آخر من الفاتحين المسلمين ، فكان أول أولئك السلاطين الحكماء الذين لمع ملكهم كثيراً فى الهند بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر » انتهى كلام رنان .

وكان من حفاظ شعر عمر الخيام ، والحافظ الشيرازى ، وكان هو بنفسه شاعراً فمن قوله :

« ماالطف دخول النيروز وماأطلى كأس الطلاء ولكن أحلى منهما نغمة الحب » .

وفى دائرة المعارف الاسلامية : أن شجاعة بابر واقدامه كانا فوق وصف الواصفين ، وانه لما فتح سمرقند ثانى مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلا لاغير وقطع الهندكوش فى وسط الشتاء وهو أمر خارق العادة . وكان شاعراً له ديوان بالتركى ، وكتب خاطرات حياته « بابرنامه » وقد طبعت هذه فى قازان سنة ١٨٥٧ وترجمها الى الفارسى عبدالرحيم ميرزا خان ومن النسخة الفارسية نقلت الى اللغات الأوربية .

ولما استقر همايون بن بابر على كرسى السلطنة صمد الى محمود اللودى الأفغانى صاحب اوض فقهره فى معركة لوكنو (١٥٣١) ولكنه عجز عن قهر أمير أفغانى آخر كان فى قلعة تشونار حاكما على ولاية بنارس ، فترك حصار هذه القلعة وانقلب على عقبيه قاصداً قتال بهادر شاه ملك كوجرات ومالغا . فبينما هو فى هذه العزيمة اذ بلغه أن صاحب قلعة تشونار هذا ، وكان اسمه شيرخان ، قد استولى على البنغالة وعلى بهار وأوض وصار ذا دولة وصولة ، يقدر فيها أن يجاذب الدولة التيمورية بحبل . فأغذ السير إلى البنغالة ، وهزم شير خان وتراجع الى مكانه ، لكن شير خان عاد فاسترد جميع المدن التى كان أخلاها ، فعاد همايون اليه وانتصب الميزان بينهما فى بوكسار على القنج شرقى بنارس ، فانكسر همايون

(١٥٣٥) ثم جدد الحملة على شير خان سنة ١٥٤٠ فالتقيا فى قنوج فانهزم ثانية ، وخسر مدافعه ورجاله وكنوزه وفر من الهند شريداً قاصداً جبال افغانستان التى انحدر منها أبوه قبل هذه الواقعة بثلاث عشرة سنة لحاول هناك أن يملك كما كان أولا ، فاذا باخوته يأبون النزول له عن شئ ، فوقعت بينه و بينهم وقائع اضطر أن يلتجئ بسببها الى شاه العجم فسير الشاه معه جيشاً أعانه على فتح قندهار (١٥٤٥) وفتح كابول (١٥٥٠) .

أما شير خان الأفغانى فدخل دلهى وآغرا ، واستصفى ملك بابر وأعاد الدولة الأفغانية الهندية ، واستوسق له الأمر الى أن مات (١٥٤٥) فوقع النزاع بين أولاده وأخذ كل يجذب الحبل من جهة ، فرأى همايون صيده سانحاً وحشد ١٥ ألف فارس وهبط بها البنجاب . وكان خليفة شيرخان فى دلهى هو اسكندر شاه ، فصمد اليه بثمانين ألف مقاتل و بضع مئات من الفيلة ، فكان اللقاء فى سهل سير هند ، بين دلهى ولاهور ، وقضى الله بالنصر لهمايون (١٥٥٥) ودخل دلهى مسترجعاً ملكه الذى كان فقده قبل ذلك العهد بثلاث عشرة سنة ثم بعد ظفره هذا لم يلبث أن مات ، فدفن بالقبة التى كان بناها لنفسه فى دلهى ، والتى تعد من أعاجيب الدنيا ، وخلف همايون ولده أكبر أبو الفتح جلال الدين محمد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولكنه كان قد نبغ قبل بلوغ أشده وكان مولده فى السند فى ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢ وتتويجه فى البنجاب سنة ١٦٥٦ ووفقه الله بوزير مجرب اسمه بيرم وكان الأفغان لم يفقدوا فى الهند جميع ملكهم بل كان باقياً بأيديهم نصيب صالح مثل أوض و بهار والبنغالة وكان لدى ملكهم محمد عادل قائد فائق الأقران اسمه هيمو . ففى سنة ١٥٥٦ تمكن هيمو هذا من استرداد دلهى ، ومطاردة أكبر الى البنجاب . وكان مع هيمو مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، على حين لم يكن بقى مع اكبر ووزيره بيرم الا ٢٠ ألف مقاتل فالتقى الجمعان فى سهل « بانيبات » الذى اشتهر بعدة معارك فاصلة . فكان من مساعدة القدر لاكبر أن وقع هيمو صريعاً ، فوقع الرعب فى قلوب رجاله التى كانت تتقوى بشخصه و ولوا الأدبار على حين كان المظنون ان الدائرة ستدور على اكبر . فعاد هذا الى بلاد « دواب » ودخل دلهى ثم والى الهزائم على الأفغان ، فانتزع من أيديهم أوض و بهار ، وحمل الملك الأفغانى صاحب البغالة على طاعته . ولكن بقى عليه تدويخ راجاوات الهندوس الاباة للضيم المعروفين بالشمم العظيم . وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند ، وضربوا عليهم

الجزى ، ولكن لم يقدروا فى وقت من الأوقات على ملاشاتهم ، ولا على كسب قلوبهم . ففكر اكبر فى اتقاء خطر هؤلاء القوم باستصلاح قلوبهم ونيل مودتهم ، وحمل من يعاند منهم على السيف . فجرت بينه و بينهم وقائع استولى بعدها على جفاليور (١٥٥٨) وعلى اجير (١٥٦٠) وهاجم سنة ١٥٦٧ رانا ميفار واسطة عقد الراجاوات ، فانهزم الرانا الى جبال « آرافالى » تاركا الدفاع عن عاصمته تشيتور لقائد بطل من قواده اسمه « جاى مال ». وجاء اكبر بنفسه يضيق الخناق بالمدينة فسدده الله الى سهم رماه هو بيده من جعبته فأصاب من نفس جاى مال مقتلا ، واختلط بعده أمر المحصورين فذبحوا نساءهم وأولادهم بأيديهم ، وجعلوا منهم ركاماً أشعلوا فيه النار ، ثم اصطفوا حول تلك النار وفتحوا أبواب المدينة ينتظرون دخول العدو حتى يبلوا فيه الى آخر نفس من أنفاسهم ، فتذهب أرواحهم غالية وكان اكبر بحكمته أدرك مرادهم فبدلاً من أن يرميهم برجاله ، و يعرض من هؤلاء للقتل ألوفاً ساق عليهم أفياله فجعلتهم أشلاء وأجزاء وفتح المدينة (١٥٦٨) . وسنة ١٥٦٩ فتح رانتابور ثم كالنجار . وسنة ١٥٧٠ قدم له الطاعة راجا مارفار ثم راجا بيكانير . و بعد ذلك ببضع سنين انتقض راجا مارفار ، فزحفت اليه جيوش دهلى وفتحت قلعة بلاده سيفانا (١٥٧٦) فانضم كثير من الراجاوات الى رانا تشيتور ، وناشبوا سلطان دهلى الحرب ولم تبرح نارها متقدة الى سنة ١٦١٤ إذ قدم « آمرا سينغ » بن « برتاب سينغ » رانا تشيتور الطاعة لسلطان الاسلام فأعيد اليه ملكه . وأعقابه مالكون هناك الى اليوم .

و يقول مؤرخو الهند من الافرنجة ان سلطان دهلى عرف كيف يستولى على راجاوات الهند و يستأسر قلوبهم لأنه كان شهماً وفياً عالى الجناب ، تام المروءة ، حفيظاً للعهود ، ملاّ كا للأفئدة بشرف خصاله ونبل فعاله . وكانت هذه البيوتات المالكة فى آمبر ومارفار و بيكانير ، الأمثلة العليا فى النبالة والاصالة وحب المجد و وفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان اكبر ماشاهدوه من المكارم والمعالى ، محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، و بذلوا من دونه أرواحهم ، و وقفوا على مناصحته غدوهم ور واحهم ، فاستخلصهم هو لنفسه ، وعول عليهم فى مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم و بأبنائهم الأبواب السلطانية و رجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم ردءاً له فى المواقف لاسيما راجا آمبر المسمى « بيهارى مال » و ولده « باخفان داس » وحفيده « مان سينغ » الذى كان أخاً

لاكبر فى الرضاع . وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » لاكبر اليد اليمنى فى أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغالة . ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه . ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار اكبر بزواج بعضهم من بعض . وبدأ فى ذلك بنفسه ، فعقد لنفسه نكاح أخت الراجا باخفان داس ، ولولده جهانكير على حفيدة راجا مارفار . وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة فى بيكانير واجير . ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية . فتوطدت دولته وأمن شر العواقب وبسبب راحة فكره من جهة الهنود ، أمكنه أن يستصفى ما كان بقى فى الهند من ممالك الاسلام فأسر شاه كوجرات (١٥٧٣) وضم ملكه الى سلطنة دهلى . واستلحق أيضاً البنغالة (١٥٨٠) وكشمير (١٥٨٦) والسند (١٥٩٢) وكانت الدكان لاتزال مقسمة الى خمس ممالك كما سبق الذكر ، الا أن ملك أحمد ناغار فتح مملكة بيدار سنة ١٥٧٢ وضمها الى ملكه ، فنزل عدد تلك الممالك الى أربع ، وصارت مملكة أحمد ناغار قوة خطيرة . فاعتزم اكبر فتحها سنة ١٥٩٥ وكان على رأس هذه المملكة ملكة من خوارق الدهر فى العزم والحزم والاقدام ، وهى السلطانة « شانده » الملقبة « ببيضاء الدكان » وهى بالفعل بيضة الزمان ، فردته عن مملكتها مكفوحاً وأذهبت جميع حملاته سدى ولم يقدر اكبر على أحمد ناغار الا بعد موت هذه السلطانة القهرمانة فاستلحق مملكة أحمد ناغار (١٦٠٠) واضطرب سائر ملوك الدكان خوفاً فأهرعوا الى دهلى مقدمين الطاعة .

وكانت نهاية اكبر سنة ١٦٠٥ بعد أن ملأ الهند مآثر ومفاخر ، وادار السلطنة ادارة قل من سدد لمثلها فى الاوائل والاواخر ، لأنه الى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير متركنة على قواعد ثابتة ، ولا سائرة بانظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، واهواء الاشخاص هى الغالبة . فسير اكبر دولته هذه على اصول ادارة جديدة ، فارسية مغولية ، غاية فى الضبط والدقة ، ورفع استبداد الامراء ، وازال الفوضى من البلاد ، وجذب الى الابواب السلطانية أولئك الامراء والملوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا فارضاهم واراح الرعايا من ضررهم ، صنيع لويس الرابع عشر فى فرنسا . وشكل الدولة على النسق الحالى المتبع بهذا الوقت فى العالم فهناك الوكيل أى رئيس النظار (والاتراك الى اليوم يسمون الناظر وكيلا والصدر الاعظم رئيس الوكلاء) ثم الوزير وهو ناظر المالية

وخان قانان أى ناظر الحربية . وكان عنده ناظر البلاط السلطانى (نظير مشير المابين الهمايونى عند آل عثمان) وناظر العدلية وكان اسمه الصدر ، وغير ذلك من المناصب . واما البلاد فكانت ١٨ ولاية كبرى كل منها تنقسم الى ما يشبه اليوم الالوية وهلم جرّاً . وكانت الادارة الملكية فى ايدى الفرس كما ان الجيش كان بايدى المغول والهنود . وكان عدد الجيش الدائم ١٤٠ الفاً وهذا شئ غير معهود فى ذلك الوقت واما دخل الخزانةالسلطانية فكان نحو مليارين أى ١٠٠ مليون جنيه ، وهذا أيضاً شئ هائل بالنسبة الى ذلك الزمن . وعامل اكبر الهنود برفق عظيم ، ورفع عنهم ضروب الاهانات . ويقول مؤرخو الافرنجة ان اكبر لم يبال بما يفرضه الاسلام من اهانة الكافر واذلاله وامتهانه ، وانه نسخ تلك العادات ولم يعامل الهنود معاملة الغالب للمغلوب . ومن جملة من غمزوا الاسلام من هذه الجهة رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية. ونحن نقول ان اكبر احسن صنعاً ، لأنه ما يخدم ملك من ملوك الاسلام ملته بمثل العدل والله تعالى يقول « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا » و يقول « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وظاهر انه ينهى عن ظلم العدو لكونه عدواً ولا يخصص العدل بالحكم بين المسلمين وحدهم ، بل جعل الحكم بالعدل بين الناس . وكلمة الناس تشمل المسلم وغير المسلم كما لا يخفى . فان كان من أمراء المسلمين من لم يعمل بهذه المبادئ فهو اما عن جهل بروح الاسلام ، أو عن هوى واستخفاف باوامر الله ونواهيه ، كما يوجد فى كل الملل وانما نحن نود لو كان رينيه غروسه وأمثاله ينصحون حكوماتهم الأوربية ومن جملتها فرنسا ، بأن لايعاملوا أهالى المستعمرات معاملة الغالب للمغلوب ، ولا يرهقوا الجزائريين ، والتونسيين ، والسودانيين الخ بضروب الاهانة ، ويحرموهم المساواة فى الحقوق مع الاوربيين ، كما لا يقدر أحد أن ينكره . فان فاتحى الهند من ملوك الاسلام وقواده كان عذرهم ممهداً نوعاً فى الازدراء بالهنود بعد مارأوا من عبادتهم للأصنام ، واحراق النساء أنفسهن لموت بعولتهن ، وغير ذلك مما تقشعر له أبدان الذين أشربوا توحيد الحى القيوم ، ولم تتسع لهضمه عقولهم اتساع عقل السلطان أكبر . ولكن ياليت شعرى ماهو عذر الأمم الاوروبية فى تحقير أهالى المستعمرات كالعرب والبربر الذين هم من أكرم الأمم ، ومن أشرف الاعراق الى الحد الذى نراه ، وسن قوانين خاصة بهم كأنهم طبقات دنيا لايليق أن تسوى مع الاوروبيين فى أمر من الأمور حتى قد

قتل أوربى أوربيا آخر فى الجزائر ، فعند المحاكمة سئل عن سبب قتله ، فقال كان يرود حول بيتى مساء فظننته لصاً واشتبهت بكونه عربياً . فعد القضاة الفرنسيس ذلك من الأسباب المخففة للجرم . فياليت الحكومات الأوربية المتمدنة العصرية السابقة فى حلبة المدنية والهذب والأدب فى القرن العشرين ، تقتدى باكبر الذى كان سلطان الهند فى القرن السابع عشر ، وهو ذلك السلطان الآسيوى المغولى ، فتعامل مغلو بيها كما كان ذلك العاهل يعامل مغلو بيه . وياليت منتقدى الاسلام من مؤرخى الافرنجة يتأملون قليلا فى رد الفيلسوف الفرنساوى غستاف لوبون على المسيو لوروا بوليو Leroy - Beaulieu أحد أساتذة كلية « كوليج دوفرانس » الذى يشير بحمل عرب الجزائر على التفرنس بجميع الوسائل القاهرة . قال غستاف لوبون : وهذه هى الافكار السائدة فى فرنسا فيما يتعلق بالجزائر . ثم قال : وان الطريقة السياسية المتبعة الى هذا اليوم لأجل تفرنس المسلمين أو اكتسابهم من الوجهة الأدبية هى من البربرية بمكان لايقل عن طريقة الاميركيين الأولين مع قبائل الجلود الحمراء التى كانوا ينتزعون منها أراضيها ، ويتركون لها الحرية أن تموت جوعاً . وقد وصف المسيو فينيون Vignion طريقة دحر العرب التى اتخذتها الحكومة الفرنسوية طريقتها الادارية فى الجزائر فقال : ان ولاة الفرنسيس كانوا عند كل ثورة فى الجزائر يستولون على أراضى الاهالى ويسلمونها للمستعمرين (الكولون) ويطردون الاهالى دحراً نحو الصحراء . فكان يتكاثر عدد الاوربيين فى تلك النواحى ، ويضطر الأهالى أن يهجروا تلك الأراضى التى هى مساقط رؤوسهم ، ومواطن أجدادهم ، ويتفرقوا . فكانت نتيجة هذه السياسة التى استمرت ثلاثين سنة ان العرب الذين لم يعودوا آمنين على أراضيهم وأملاكهم تركوا الحرث والزرع وهاموا فى البرارى . وكيف يمكنهم أن يزرعوا وقد طردوا من الأراضى الجيدة التى تسيل فيها العيون والغدران ، ودحروا الى الأماكن التى لايأمنون فيها أن زرعوا أن يسترجعوا الحب الذى بذوره فحرموا بالسكنى فى تلك البرارى الزرع والضرع ، وازدادت بذلك البغضاء والاحنة بين العرب والكولون ، وصارت بين الفريقين هوة يتعذر سدها . وكانوا يسمون هذه الطريقة بطريقة المطاردة أولا ، ثم أطلقوا عليها بالتالى اسما آخر وهو « التملك لاجل المنفعة العمومية » وهذا الاسلوب يمتاز بعلامتين : الاولى انه لايملك الكولون أرضاً الا من أملاك العرب ، والثانية انه يوجد دوائر يجب ان

تستخلص جميعها للاور بيين حتى من يبقى من الاهالى مالكا يقصى عن تلك الجهات ، بحيث كل ذلك يعوذ بفقر الاهلين الخ . ثم يعود الاستاذ غستاف لوبون فيقول : وان من أغرب استبدادات الحكومة فى الجزائر مايسمونه بالاستعمار الرسمى ، وذلك انهم ينتزعون الاراضى من أيدى العرب ويوزعونها مجاناً على سفلة سقاط من جميع الاجناس ، بدعوى انهم سيحيونها بالزراعة ، وهم أقرب أن يدرسوا لغة السنسكريت من أن يحسنوا حرثا أو زرعا . فلم تمض مدة على ذلك حتى رأيت تلك المسماة بالقرى الرسمية خاوية على عروشها ، بعد أن كلفت الأموال الطائلة . ولم يكف ذلك رجال ادارتنا درساً حتى قام بعضهم منذ سنوات يقترح التفويض باعطاء ٥٠ مليونا لنزع أملاك العرب ، وتأسيس قرى أخرى غير التى أخفق مشروعها . فلحسن الحظ رد المجلس (البارلمان) هذا الاقتراح الذى كان لو نفذ يحفز المسلمين على الثورة ، عدا مايجشم الحكومة من انفاق الملايين الخ . ثم قال : منذ فتحنا للجزائر لم تبرح سياستنا فيها سائرة بعاملين أحدهما نزع أملاك العرب واقصاؤهم الى الصحراء ، والثانى حملهم على التفرنس باجبارهم على قبول شرائعنا . فلم نفلح لافى ذا ولا فى ذا . أولا لان العرب لم يمكنهم الرحيل الى الصحراء حيث لايوجد شى يقتاتون به فيها ، ولاشك فى ان عدة ملايين لايرضون أن يموتوا جوعاً بدون مقاومة . ثانيا لانهم لا يقبلون أن يتفرنسوا اذ لم يعهد أن أمة نبذت قواعدها العقلية الاساسية واتخذت قواعد أمة غريبة عنها الخ . لا أقدر أن أستوفى تعريب جميع ماقاله بهذا المقام غستاف لوبون المؤلف الفيلسوف الشهير فى كتابه المسمى علم النفس فى السياسة Psychologie Politique وما أوردت الذى أوردته هنا الا من قبيل التمثيل مذكراً أولئك الذين يطرون السلطان أكبر من مؤلفى الانكليز والفرنسيس على تسويته بين المسلمين والهنود فى كل الحقوق ، واقامته العدل فى رعيته كلها، لماذا لاينصحون هم حكوماتهم باتباع ذلك السنن ؟ وهل مايعمله الانكليز فى الهند اليوم وما عملوه من قبل ، مطابق لما كان يعمله أكبر ؟ وهل ائتم بسياسة أكبر ذلك القائد الانكليزى الذى رمى منذ ثلاث أو أربع سنوات جماعة من المتظاهرين فى الشوارع بنيران القنابر فقتل منهم مئات أو ألوفاً ثم أجبر الآخرين على الدبيب على أيديهم بين يديه كما تدب الحيوانات ؟ فهل هذه هى سياسة الامم التى يطنب مؤرخوها بكيفية احتقار المسلمين للهنود ؟ عليك بما عدّده من هذا القبيل مؤخراً الاستاذ العلامة الكاتب الشهير

المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى رده على جريدة المورنن بوست الانكليزية التى انتقدت الشرع الاسلامى بعدم انطباقه على العدالة الاوربية .

عود الى تاريخ اكبر خان * وصدرت الاوامر الى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين فى استئداء الاموال الاميرية ، بل يقوّوهم من بيت المال فى سنى القحط . كذلك توسل اكبر بوسائل ناجعة فى قتال المجاعات التى تكثر فى الهند فى الاعوام التى يحتبس فيها الغيث . وكان يعاقب الأمراء الذين يظلمون الاكرة الذين هم قائمون بخدمة اراضيهم . ومع شدة ميله الى البراهمة ، ومراعاته لهم ، عارضهم فى قضية احراق النساء اللاتى مات بعولتهن ، وعادة ابقاء النسوة اللاتى تموت ازواجهن وهن فى سن العاشرة أرامل طول الحياة لا يحق لهن ان يتزوجن . ثم منع التبكير فى الزواج فكان لا يسمح بزواج الشاب قبل سن ١٦ ولا بزواج الفتاة قبل سن ١٣ .

وكانت اللغات المعروفة فى الهند ، عدا لغات الهنود الاصليين ، ثلاثاً : العربية لغة الدين الاسلامى ، والتركية لغة الأسرة التيمورية ، والفارسية لغة البلاط والدولة . فوضع اكبر لغة « الاوردو » التى تشتمل على كثير من العربى والفارسى والتركى مع الهندى ؛ فسهل التفاهم بين الامم الهندية واتسعت هذه اللغة تدريجاً حتى انه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة . وقالوا ان اكبر فيلسوفاً كان اعظم منه سلطانا ، مع أن اكبر كان من أكبر سلاطين العالم وأحقهم بمكانة عليا فى التاريخ . وأطرى مؤرخو الافرنجة تحوله عن مذهب السنة الى مذهب الشيعة وشدة وطأته على علماء السنة ، والغاءه اللسان العربى من البلاط ، واقامة الفارسى مقامه ؛ وعدوا ذلك من معالى افكار اكبر ومنزعه الى الحرية . وقالوا انه كان ميالاً الى التصوف ، وان التصوف هو أرقى طريقة اسلامية . وذكروا انه قرب اليه فتح الله الشيرازى من اكابر علماء الشيعة ، جاء من فارس وأوطن فى بيجابور ، فاستدعاه اكبر اليه وصار مستشاره الشرعى . وكذلك حظى عنده العالم الشيعى المسمى مبارك ووالداه ابو الفائز ، وكان شاعراً متصوفاً ، وابو الفضل وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية عظيما ، من جملة ما يروى عنه أنه هتف قائلا : « يا رب من رأى حكماء المغول ، ونساك جبل لبنان ، ولا ماوات التبت ، وقسوس البرتغال ، وكهنة المجوس ، وعلماء الزندافستا (معناه الكلمة الحية وهى كتب ديانة الفرس والعرب يقولون الايستا كتاب زرادشت) رأى

الناس فى جميع الهياكل تطلبك ، وبجميع الالسنة تستعين بك . التوحيد هو انت . الاسلام هو انت . وكل ديانة فى الدنيا تقول : انت وحدك لا شريك لك . ان كان جامع كانت هناك جماعة تناجيك بالصلاة . أو كنيسة كانت أجراس تقرع لشرفك . ازور احياناً الجامع وآونة الكنيسة وفى كل معبد لا انشد الاك . واصفياؤك ليس لهم علاقة بالسنة ولا بالبدعة لانه ولا واحدة منهما ملكت قدسية الحق. فأنا أترك الديانة لاهل الجماعة ، والبدعة لاهل الفرقة ، ونظير تاجر الطيب ، ترتاح نفسى الى شم جميع الورود »

ويظهر أن اكبر كان على هذه الطريقة . وكانت له عقائد أخرى منها عدم خلود الانفس بالنار ، اذ كان يرى ذلك مخالفاً للعدل الالهى . ومنها تناسخ الارواح الذى أخذه عن البراهمة . وقيل انه كان يبيح الخمر واكل الخنزير (فلا عجب اذا رضى الاوربيون عنه كل هذا الرضى) وأنه أنكر قدم القرآن ومعجزات الرسول ﷺ وأبطل كون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . ثم انه فى سنة ١٥٩٣ أصدر امراً بأن كل من أجبر من الهنود على الاسلام فى مدة أسلافه يمكنه الرجوع الى دينه . وذكر رينيه غروسيه الفرنساوى فى هذا الباب جملة فيها شئ من الانصاف فقال « لا يمكن مقايسة هذا الأمر بالامر المعروف بأمر نانت » يشير الى الأمر الذى أصدره لويس الرابع عشر مانعاً أى دين كان فى فرنسا غير دين الكثلكة . الا أن رينيه غروسه لا يعلم أن اكبر خان بهذا الامر لم يخرج عن الاسلام لأن الشرع يمنع دخول الناس فى الاسلام قسراً (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغيّ) وأن الاسلام ليس فيه ديوان تفتيش كما كان باسبانية . . . هذا وقد قال الكونت نوير مؤلف تاريخ اكبر « ان اكبر لم يخلق اكبر منه فى الشعور الحقيقى بالانسانية » .

وأمر أكبر بترجمة كتب البراهمة الفيدا ، والراميانه ، والماهبارانه ، الى الفارسية وسائر أصول الفلسفة الهندية . وكان يقضى ساعات طوالا من الليل يستفسر البراهمى العظيم «دابى» أحد أعلام الحكمة الهندية عن عقائد « تريمورتى » وكان ميله الى عقيدة الاشراق الصوفية يحبب اليه فلسفة البراهمة . كذلك تبحر كثيراً فى مذهب بوذا وكان يجله و يعظمه والمظنون أن ما كان عليه أكبر من عقيدة المساواة بين جميع الناس وبره بالمخلوقات كلها وتحرجه من أكل لحوم الحيوانات نظير أبى العلاء المعرى انما كان مما رشح الى دماغه من

التعاليم البوذية . ولم يغفل أكبر عن النصرانية ففي سنة ١٥٨٠ أرسل الى رهبان البرتغال الذين كانوا فى « غوا » يستقدم منهم من يفقهه فى عقيدتهم فلبوا دعوته ، وأرسلوا اليه بانجيل أمر بنقله الى الفارسية ليفهمه . و بعد ذلك عهد الى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد . ثم أذن للجزويت بفتح مدارس فى آغرا ولاهور وكامباى . وكان يذهب الى كنائسهم و يقول مؤرخوهم انه كان يجثو فيها على ركبه . وكذلك وفق الجزويت الى تنصير أناس كثيرين فى كامباى فى أيامه . و يقال ان تهافت أكبر على كل دين وأخذه بكل عقيدة ونزوعه الى كل فلسفة كانت فيه حالة نفسية فطرية ناشئة عن شفوف صفحة طبيعته وسرعة انفعاله وكون روحه الى النفس الأخير نظير روح «غوته» شاعر الألمان بقيت تتطلب زيادة الانوار وتتامس اكتناه الأسرار . وانه كان يعتقد باشراق الالوهية على كامل الوجود و بأن كل دين من الأديان هو عبارة عن بارقة من هذا الحق المنبث فى الكون . ولم يبعد عن عقله امكان التأليف بين المذاهب قاطبة ، وتصور عقد مجمع دينى لهذه الغاية ، وأمل أن يوحد بين جميع العقائد الدينية فى نقطة عامة ، وهذه النقطة العامة كانت عنده على ما يقال مجوسية فارس . هكذا روى رينيه غروسه فى الفصل الثالث من تاريخ آسية الذى خصه من ستة وثلاثين تاريخا على الهند أكثرها بالانكليزية ، و بعضها بالفرنساوية ، ومن هذا البعض كتاب « مدنية الهند » لغستاف لو بون و « آثار الهند » للعلامة المشار اليه . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنساوية بشأن عقيدة أكبر ما يأتى :

« يمكن أن تكون محبة أكبر للبحث عن الحق أكثر من عبقريته السياسية قد جعلت له كل هذه الشهرة . فانه مما لا مشاحة فيه كونه ترك الاسلام و وضع عقيدة سماها « التوحيد الألهى » وهى اعتقاد مجرد بالاله مما اتفقت عليه كل المذاهب . ولكن لما كان الناس يريدون رمزا . وأكبر تحقق بنفسه أنهم يريدون رمزاً فهو يوصيهم بأن يجعلوا الشمس رمزاً للاله . وعلى الأرض النار التى هى من طبيعة الشمس . فأما مبلغ نجاح هذه الدعوة خارجا عن البلاط السلطانى فلا نعرفه . وانما نعرف من بطانة أكبر ثمانية عشر شخصاً قيدوا أسماءهم فى سجل المؤمنين أكثرهم أدباء وشعراء ومنهم أمير اسمه عزيز كوكا ، كان سبب خروجه من الاسلام ما رآه وهو فى موسم الحج من الأحوال المؤسفة كتبليص الحاج من أموالهم . وذهب بعضهم الى أن مبارك الناقورى وأولاده ممن كانوا

على فلسفة الصوفية هم الذين أبعدوا أكبر من مذهب السنة والجماعة . وقيل ان مارآه من شدة تعنت أهل السنة نفره منهم . وقيل ان حرية مذهب التصوف أثرت فيـه كثيراً وفى بطانته التى كان فيها كثير من الفرس فكان لهم ميل خاص الى عقيدة الشمس الفارسية . ثم قال فى دائرة المعارف الاسلامية : الا أنه لم توجد ديانة شرقية جذبته بمثل ماجذبته النصرانية الكاثوليكية . على أن الشيخ نور الحق الذى لم يكن أسيراً للتقليد نظير أبى الفضل العلامى وعبد القادر البداعونى يقول فى أكبر : ان السلطان أراد أن يمحص الطيب من جميع الآراء المختلفة ، وانه ما كان هدفه فى ذلك الا الوصول الى الحق . والذى انتهى اليه أخيراً هو قبول مصاص الأديان كلها ، وعقيدة الانسان الأصلية مضافة اليها طريقة سلوك بسيطة» انتهى . تشير دائرة المعارف بهذا النقل الى الشيخ نور الحق صاحب « زبدة التواريخ » والى عبد القادر البداعونى صاحب « منتخب التواريخ » والى أبى الفضل العلامى صاحب « اكبرنامه» . وممن أخذت عنهم دائرة المعارف ترجمة هـذا السلطان محسن فانى صاحب « دابستان المذاهب » وشمس العلماء مولوى محمد حسين صاحب كتاب «دربارى أكبر» وغيرهم . ومن غرائب ما روت عن هذا السلطان الذى كانت كل حياته غرائب أنه كان يجهل القراءة والكتابة . وقالت ان ذلك عجيب فى بيت مثل بيتهم موروثة فيه الكتابة وآداب اللغات خلفا عن سلف . وأعجب منه أنه كان عشيراً لأميرتين من أشهر أديبات زمانهما ، احداهما زوجته سليمة سلطان ، والثانية عمته كل بادان ، ويظهر أنه لما كان أبوه معروفا بضعف العزيمـة ، ثم مات وهو يافع ، لم يحسنوا تعليمه الكتابة . وأنه لما بلغ سن الرشد ثم شب واكتهل ، أهمل عمداً تعلم الكتابة ، اذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى ولعل أكبر آثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية . انتهى

ولقد ترك هذا العاجز الى القراء الحكم على حقيقة هذا السلطان الذى أخذ الى ذلك الأمد بمجامع قلوب الأوربيين ، ولست ممن ينكر أنه مع تخبط الوساوس اياه من الجهة الدينية ، وانطباع قلبه بكل مؤثر يطرأ عليه من الخارج ، يجوز أن يكون من أعاظم السلاطين فى حزمه وسداد ارادته ، ووفور محبته للرعية . ولكن عند ما يقرأ الانسان أنه كان لا يجد بدأ من الرمز لوجود الالوهية ، وأن ذلك الرمز يلزم أن يكون الشمس أو النار ، وعنـد ما يروى غروسه أنه استقدم اليه من كوجرات الموبذان أردجير ليعلمه كتاب آفستا ،

وأنه اتخذ التقويم المجوسى وصار يحتفل بأعيادهم ، وأنه جئ اليه فى قصره بالنار المقدسة المحفوظة بلهيبها من عصر الى عصر منذ أيام رعاة الايرانيين الأقدمين ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق فى بلاط الملك الى غير ذلك مما رواه ، يعرف أن الرجل قد تمجس وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن تجده من جهة أخرى معجبا بالبراهمية ، وبالبوذية ، ثم بالنصرانية ، ثم بالتصوف ، ثم بالتشيع ، وهذا التشيع كما لا يخفى يقتضى الاسلام لأن الشيعة لم يخرجوا عن كونهم مسلمين . فتعلم أن الرجل وان كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة ، فهو مختلط العقل فى المسئلة الالهية ، والجنون كما قيل فنون . وأما تقييد ١٨ شخصا من حاشيته أنفسهم فى سجل المؤمنين بدعوته ، فقد ذكرنا بذلك الذى روى عنه الشهرستانى فى « الملل والنحل » أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه قال له مناظره : أترى البارى تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك . ثم من يدرى هل ثمانية عشر أكبر تبعوه اقتناعا أم تزلفا ؟ فان أكثر بطانة السلاطين معلومة أطوارهم . . . وأما الاعتذار عن أكبر بأنه كان يرى فى الشمس والنار رمز الألوهية ، فياليت شعرى لماذا تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار ، أفليست كل مخلوقات الله تعالى رمزاً وآية ، أو لا يكون تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار مفضيا الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود والعياذ بالله ؟

أما ابنه سليم الملقب بجهانكير الذى خلفه سنة ١٦٠٥ واستمر على كرسى الملك الى سنة ١٦٢٧ فقد نبذ كل ما كان عليه أبوه من التخبط ، واعتصم بمذهب السنة والجماعة ، ولكنه استبقى الفارسى لسانا رسمياً للدولة . وكانت لجهانكير امرأة بارعة الحسن مفرطة الذكاء اسمها « نور محل » فاستولت على قلبه ، وتصرفت بالسلطنة كما شاءت فساءت الأحوال ، وجارت العمال ، وانتقض ملك اسمه ملك عمبر فى الدكان ، ولم يقدروا عليه . ثم خرج على جهانكير ابنه خرّم ومعه قائد اسمه مهابت خان ، وقبضا على السلطان وحجرا عليه ، فأنقذته السلطانة الحسناء بدهائها وبهائها ، واصطلحت مع ولده خرم .

وفى تلك الأثناء مات جهانكير فصعد خرم على كرسى السلطنة وتلقب بشاهجهان . وبدأ بتدويخ الثائرين فى الدكان ، فسير عليهم جيشاً عقد لواءه لولده الثالث اورنغزيب . فقهر هذا العصاة ومهد الدكان ، وكان داهية دهماء فأراد محو السلطنات الثلاث التى كانت

باقية هناك ، وهي غولكوند ، و بيدار ، و بيجابور ، فقصدها الواحدة بعد الاخرى ، ولكن كان كلما قرب فتح كل منها جاءه الأمر من والده بأن يمسك ولا يدخل . وكان الحامل للسلطان على تلك الأوامر هو ولده الأكبر دارا . فوقعت الفتنة بين الاخوة واستمال أورنغزيب أخويه شجاع ومراد فاتحدوا كلهم على دارا الذي كان الأقرب الى قلب أبيه ، وبرزوا للحرب فالتقاهم دارا فانكسر وزحف الاخوة الى آغرا يحاصرونها ، وكان أورنغزيب بدهائه أرسل الى أبيه يؤكد له بأنه اذا مكنهم من دخول البلدة لايتغير عليه شيء فآمن شاه جهان بكلامه ، فلما دخل أورنغزيب قبض على والده وجعله في إحدى غرف القصر تحت الحجر . ثم فعل ماهو أفحش من ذلك بأن انقلب على أخيه مراد ، إذ اتهمه بخيانة كذباً وميناً ، وأمر بمحاكمته والحكم عليه بالقتل ، وأجرى الحكم وأكمل مكيدته بأن أخذ يبكي على أخيه هذا الذي كان عضداً له . كذلك بعد أن وقع أخوه دارا في قبضته دق عنقه وأرسل برأسه الى والده المسكين المحبوس في قصره (١٦٥٩) ثم طرد أخاه شجاع من ولايته في البنغالة ، ولم يطل الأمر أن مات هذا فبقي ذلك الجبار مستبداً بالسلطنة وحده ، وطال سلطانه من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٧ وكان كما قال مؤرخو الانكليز يقصد غاية قصوى ، وغرضاً بعيد المرمى ، وذلك بجعل حدود السلطنة حدود الهند الطبيعية وكانت بقيت في الدكان سلطنتان اسلاميتان هما غولكوند ، و بيجابور ، وسلطنة ثالثة هندية براهمية هي سلطنة المهرات ، وكانت هذه الأخيرة تكاشح الاسلام بالعداوة حتى بلغ من جرأة أحد ملوكها « سيفاجي بونسلا » أن نهب قافلة الحجاج وهي على وشك الاقلاع من سورات الى مكة . فساق أورنغزيب عليه جيشاً فخضع أولا ، ثم خرج ثانية واعتصم بجبال « بونا » حيث بقي عاصياً يقاتل الى أن مات . ففي سنة ١٦٨٥ زحف أورنغزيب بجيش جرار الى الدكان فاستولى على مملكتي غولكوند و بيجابور وأخذ « سمباجي ابن سيفاجي » ملك المهرات أسيراً وضرب عنقه . وسنة ١٦٦٠ كان استولى على آصام وسنة ١٦٦٦ على آراكان وهما ممالك بين الهند والهند الصينية .

(آصام هذه بلاد واقعة في شرقي البنغالة استضافها الانكليز الى الهند منذ عهد غير بعيد أي سنة ١٩٠٥ وجعلوها ولاية باسم شرقي البنغال وآصام . وكان عدد سكانها منذ نحو عشرين سنة ستة ملايين و ١٢٦ ألف نسمة من أصلهم مليون وخمسمائة و ٨١ ألفاً مسلمون أكثرهم

فى مقاطعة « سيلهت » وفى سيلهت هذا قبر شاه جلال الذى يعظمونه جداً بكونه هوالفاتح المسلم الأول لتلك البلاد وأن أصله من اليمن . أما آراكان فهى مقاطعة فى أقصى الشرق من ولاية بيرمانيا من الهند الصينية كان عدد أهلها سنة ١٩٠١ سبعمائة و ٧٢ ألف نسمة من أصلهم ١٦٢ ألف مسلم).

ولم تبلغ السلطنة الاسلامية المغولية من العز والبسطة ، مابلغته فى أيام أورنغزيب ، فكانت حدودها من كابول الى أراكان ، ومن الحملايا الى الكارنات (أقصى جنوبى الهند) و زاد ارتفاع الخراج العقارى من ٥٠٠ مليون الى مليار ضعف ماكان فى زمان اكبر . وزادت سائر الجبايات والضرائب على مليار . الا أن روايات مؤرخى الافرنجة هى كون أورنغزيب بدأ يخبط الأهالى بعصا عسفه و يفحش فى الجبايات والمكوس ، وأنه آسف البراهمة بحملهم على الاسلام . وتحويل كثير من هياكلهم جوامع لاسيما هياكلهم المعظمة مثل هيكل بنارس . ففى بنارس الآن المسجد الأعظم ذو القباب البيضاء والمنابر الشامخة البيضاء التى ترى على ضفة النهر ، قد بنى فى مكان هيكل كان معدوداً أقدس معبد عند الهنود . وكان أورنغزيب أطلق على بنارس اسم محمد آباد . قالوا وانه حبس أرملة راجا جوهبور وأولادها مع أن ذلك الراجا كان من أصدق الأمناء لدولة المغول فانتقضت بلاد جوهبور واوديبور وزحف اليها أورنغزيب فأحرق ودمر وقتل وسبى ، وانتهى الأمر بان أولئك الملوك خضعوا له ، ولكنه كان جرحاً التأم على دغل. قال المؤرخون الأوروبيون وكان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشرى ، فاطماً للشهوات يصوم ويتقشف و يعيش معيشة الزهاد و يراقب آخرته . وكان أورنغزيب آخر العظام من سلاطين المغول فى الهند ، إذ بعد موته استقلت عن امبراطورية دلهى ممالك كثيرة ، فقامت دولة حيدر آباد الدكان (١٧٢٤) ودولة بنغاله (١٧٠٧) ودولة أوض (١٧٢٤) ، ولم يبق للمغول الا دلهى وآغرا و بلاد دواب . وهذه من الدول الاسلامية . كما أنها استقلت من أمم الهند أمة السيك ومملكة المهرات .

أما السيك فهم فرقة من البراهمة يعدهم هؤلاء مبتدعين، لان رجلا اسمه نا ناك (١٤٦٩) كان قد تخرج على المصلح الهندى كابير ، فشرع من بعده فى تطهير البراهمية من عبادة الأصنام وتعدد الآلهة ، وقضية الطبقات فى الهيئة الاجتماعية ، و بتقريبها من

الاسلام فى عقيدة التوحيد . وقد ثار السيك على سلاطين المغول لانهم من أشد أمم الارض بأساً . وجرت بين الفريقين محاربات طويلة بطش فيها المغول بالسيك ولكنهم لم يطيعوا طاعة تامة الى أن ضعف شأن دهلى فاستولى السيك على لاهور والبنجاب (١٧٦٤) .

وأما ثورة المهرات التى استمرت مدة طويلة ، فقد انتهت باعتراف سلطنة دهلى باستقلال هذه الأمة . و بعد موت السلطان أورنغزيب توج « ساهوجى بن سامبوجى بن سيفاجى بونسلا » ملكاً على المهرات فى« ساتارا » ولكن انتقل ملك المهرات من أيدى هؤلاء الى أيدى آخرين ، يقال لهم « البشفا » كانوا فى الأصل وزراء عندهم ، فملك البشفا هؤلاء من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧٩٥ وفى أيام أحدهم « باجى راو » انتزعوا من أيدى المسلمين ثلاث ممالك : بيرار ومالفا وكوجرات . فتقاسمها أربعة بيوتات من المهرات وهم « الهولكار » و « السنديا » و « البونسلا » و « الكويكوفار » وتأسست هناك أربع حكومات كلها تعترف بسيادة البشفا الذى كرسيه فى مدينة « بونا » وكان بعضها يقاتل بعضاً الا أن الجميع كانوا يصيرون لبدأ على المسلمين بمجرد مايلمع لهؤلاء نجم ، ففى سنة ١٧٦٠ عند مازحف أحمد الدرانى أمير الأفغان على الهند وفتح دهلى ، حسب البراهمة حساب دولة اسلامية جديدة تستأنف فيهم عمل الغزنيين والغوريين والتيموريين فتألبوا من كل جهة ولا سيما المرات ودارت رحى الحرب فى بانيبات ، فهذه المرة أيضاً كان الفوز للاسلام ودارت الدائرة على الهنود فى ٧ يناير (كانون الثانى) سنة ١٧٦١ .

الا أن الدرانى قفل الى أفغانستان ولم يكمل فتوحاته ، وأبقى نواباً من قبله فى دهلى . وكان فى ذلك الوقت قد ظهر من الأسرة المالكة فى كفاليور واوجايين من بلاد المهرات ملك فى غاية الحزم والدهاء اسمه « مادهافاراو » انتبه قبل جميع ملوك الهند الى تنظيم جيشه على النسق الاوربى ، واتخاذ المدافع ، واستجاد لذلك ضباطا من الفرنسيس والانكليز ، فعظمت شوكته ، واشتدت صولته ، وزحف الى دهلى فطرد منها نواب ملك الافغان ، ومن حسن سياسته أنه لم يحاول حيازة هذه السلطنة ، بل أعاد اليها السلطان أعلم الثانى المغولى حفيد أورنغزيب وصار هو القابض على زمام الأمور فولاه اعلم أمارة الجيوش كلها وأصبحت أمبراطورية المغول بكفالته .

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن غزوة نادرشاه الى الهند سنة ١٧٣٩ قد قصمت

ظهر الدولة المغولية فلم تقم لها من بعدها قائمة . وقداقتفى أثره أحمد الدرانى صاحب أفغانستان وفتح البنجاب ودلهى وكسر المهرات فى معركة بانيبات الثالثة سنة ١٧٦١ ولكن السلطنة المغولية كان قد حم أجلها . ولما أراد أعلم شاه فيما بعد أن يسترجع البنغالة ، وقعت الحرب بينه و بين الانكليز ، فاضطر بعد وقائع وأهوال أن يترك لهؤلاء ادارة « الديوانى » أى جباية الأموال فى البنغالة و بيهار وأوريسا ، وأن يأخذ عنها مقطوعا مليونين و ٦٠٠ الف روبية . وسنة ١٧٨٨ حصل له حادث زاده خبالا ، وهو أن أحد ضباط جيشه قلع عينيه فأصبح كأنه ألعوبة . وأخيراً عين له الانكليز ٩٠ الف روبية شهرياً ، وتركوا له من السلطنة الاسم فقط . ومات سنة ١٨٠٦ وقام بعده محمد أكبر ابنه (١٨٠٦ الى ١٨٣٧) وخلف هذا بهادر شاه (١٨٣٧ الى ١٨٥٧) وكل منهما لم يكن له من السلطنة الا الاسم مع جراية تؤديها له شركة الهند الانكليزية . الا أن بهادر شاه باشتراكه فى ثورة سنة ١٨٥٧ قبض عليه الانكليز واعتقلوه فى رانغون حيث مات سنة ١٨٦٢ وهو آخر سلاطين دلهى . أما أكثر أمراء المسلمين فى الهند فاما بغضاً بالهنود واما حباً بالمنافع المادية ، واما اعتقادا بأن الانكليز لابد أن تكون لهم الغلبة أخيراً فقد عضدوا الانكليز عضداً مبيناً ، ونصروهم نصراً عزيزاً ، و يعترف الانكليز بأنه لولاهم كان تحرج مركز الانكليز تحرجاً لايعلم أحد عاقبته . فلما انتقل الحكم من الشركة الى المملكة رأساً كوفئ كثير من هؤلاء الملوك باقطاعات جديدة ، وكان أكثر من نصروا الانكليز منهم نظام حيدر آباد وصاحب بهوبال وصاحب رامبور .

انه من سنة ١٢٠٦ مسيحية الى سنة ١٥٢٦ تولى سلطنة دلهى ٣٤ سلطاناً ينتسبون الى خمس دول فدولة المماليك من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٩٠ ودولة آل قالجى من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ وآل طغلق من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٣ والسادات من سنة ١٤١٣ الى سنة ١٤٥١ واللوديون من سنة ١٤٥١ الى سنة ١٥٢٦ ثم جاءت دولة المغول فاستمرت من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٨٥٧ وسلاطينها كما مارأيناهم بابر ، ثم همايون ، ثم أكبر ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان ، ثم أورنغزيب ، ثم محمد شاه ، ثم شاه أعلم ، ثم محمد أكبر ، ثم بهادر شاه .

أما عظمة تلك السلطنة ومابلغته من البسطة والثروة والشوكة فقد تقدم شئ منه فى

الكلام على أكبر وارنغزيب ومن قبلهما . واقرأ مثالا منه مما جاء فى كتب العرب قال فى « مسالك الأبصار » قال الشيخ مبارك النباتى ـ عند ذكر محمد بن طغلقشاه ـ وأول مافتح منه مملكة تلنك (تلنغا) وهى واسعة البلاد كثيرة القرى عدة قراها تسعمائة الف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكر وبها سبعون مدينة جليلة على البحر . ثم فتح بلاد لكنوتى وهى كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دوا كير ولها أربع وثمانون قلعة جليلات . ونقل الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزى أن بها الف الف قرية ومائتى الف قرية . ثم فتح بلاد المعبر وهو اقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر . وذكر انه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التى فتحها مالا يكاد السامع يصدقه ، فحكى عن الشيخ برهان الدين المقدم ذكره أنه حاصر ملكا على حد بلاد الدواكير فسأله أن يكف عنه على أن يرسل اليه من الدواب مايختار ليحمله مالا ، فسأله عن مقدار ماعنده من المال فقال انه كان قبلى سبعة ملوك جمع كل واحد منهم سبعين الف صهريج متسعة من المال . فأجابه الى ذلك وختم على تلك الصهاريج باسمه .

وجاء فى صبح الاعشى نقلا عن الشيخ تاج الدين بن أبى المجاهد السمرقندى أنه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ماوجد له من الذهب الف الف مثقال وسبعة وثلاثين الف مثقال . وقال نقلا عن ابن الحكيم الطيارى أن شخصاً قدم لهذا السلطان كتباً ففتى له حشية من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون الف مثقال من الذهب . الى غير ذلك .

قلنا هذه روايات أشبه بحكايات قصاصى الأسمار أو أقاصيص الف ليلة وليلة منها بالتواريخ . ومثل هذا التى على روايات مؤلفى العرب والشرقيين عموماً شبه المؤرخين الأوربيين الذين محصوا التاريخ وجعلوا النقد معياره . حتى انه لوجاء المؤلف الشرقى بالرواية الصحيحة لاشتبهوا فيها ، من شدة ماعتادوا مبالغات مؤلفينا الأولين الا من رحم ربك . وقد أطال ابن خلدون امام فلسفة التاريخ فى نقد طريقة التقليد الأعمى هذه ، وتلقف أى خبر مهما كان بعيداً عن العقل ، منقوضاً بالأدلة المحسوسة . ولو قرأ رحمه الله الروايات المتقدمة لأقطعها من نقده مالا يقل عما شرحه فى نقد الروايات التى استشهد بها فى مقدمته . فانه ورد هنا مرتين ذكر مليون قرية (الف الف) أوما يقرب منه . وذلك عن بعض

أقسام من بلاد الهند . والحال أنه لو قدر أن كل قرية لا تحتوى على أكثر من ١٠٠ نسمة كان من ذلك مائتا مليون ، فاذا كان هذا عدد سكان بعض ممالك من الهند فماذا يكون عدد اهل الهند بأسرها يومئذ ؟ مع أنه لا يعقل أن يكون عدد أهل الهند يومئذ أحصى مما هو اليوم . وأما عبارة الصهاريج التى هى سبعون ألفا كلها ملأى بالاموال فهذه لا تليق بان تؤثر فى كتب جليلة مثل صبح الأعشى فأما ما ورد فى مسالك الابصار من كون الجيوش التى كانت عند السلطان محمد بن طغلقشاه عدتها ٩٠٠ ألف فارس ، منهم من هو بحضرته ومنهم من هو فى سائر البلاد يجرى عليهم كلهم ديوانه ، وان عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الاجناس ، فهذا ليس ببعيد عن العقل بل ليس بكثير على سلطنة دلهى فى أيام تلك العنجهية و باشتمالها على جميع الهند . قلنا على أن المبالغة وما تبعها من الغلو والاغراق لا تتعلق الا بما له اصل متجاوز الحد ، ولولا الكثرة الهائلة والعظمة البالغة ما لهجت الالسن بالاعداء التى لا يقبلها العقل والمقادير التى لا تثبت على معيار النقد . فالسلطنة الاسلامية فى الهند قد بلغت من تزخر الجيوش ، وامتلاء الخزائن ، وسعة الفتوحات ، ما يندر أن يعرف مثله التاريخ العام . وان ما قاله قاضى القضاة سراج الدين الهندى من أن السلطان محمد طغلقشاه مع كثرة العطاء ، وسعة البذل ، وما ينفقه فى جيوشه لا ينفق نصف دخل بلاده ، لا يعد من جملة المبالغات . وكذلك ما يقال من أنه كان فى خدمته ثمانون خاناً فأكثر ، وان لكل واحد منهم من الاتباع ما يناسبه ، للخان عشرة آلاف فارس ، وللملك الف فارس ، وللامير مائة فارس ، وللاصفهسلارية دون ذلك ، وان للسلطان عشرة آلاف مملوك اتراك ، وعشرة آلاف خادم خصى وأن له مائتى الف عبد ركابية تلبس السلاح ، وتمشى فى ركابه وتقاتل رجالة بين يديه ، وان له الفا ومائتى طبيب ، والف بازدار تحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة الخيل ، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نديم ، والف مملوك لتعليم الغناء ، والف شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوى الذوق اللطيف ، يجرى على جميع ذلك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة فى الظاهر والباطن . هكذا فى صبح الاعشى بالحرف فليس فى هذا شئ مستحيل عرفا ولا يستبعد ذلك الا من لم يتصور عظمة الهند ولا سعة أقاليمها ولا وفور كنوزها وخيراتها ، ولقد عرفنا أن بعض الأمراء فى بلادنا كان عندهم عدد عديد من حملة البزان وكانوا اذا ذهبوا الى الصيد مشى معهم عدة مئات

لتحصيل الصيد . وهم لو قيسوا بسلطان الهند لكانوا له من بعض الاتباع والخول فما ظنك بسلطان عدد رعيته مئتان أو ثلاثمائة مليون نسمة . فليس بكثير أن يكون عنده الف بازدار ولا ثلاثة آلاف رجل ينشون الصيد واذا وقع فى مخالب البازى يحصلونه .

بعد ايرادنا هذه الأمثلة على عظمة سلطنة الاسلام فى الهند ، لنعد الى موضوع الحكومات الاسلامية الحاضرة وقد تقدم لنا فى حواشى كتاب ستودارد هذا لمحة فيها من ذلك شدو . ثم آثرنا أن نوضحه هنا قليلا نقلاً عن بعض المؤلفات الخاصة بالهند فنقول : انه يعدّل اليوم مقدار الممالك الهندية التى تديرها أمراؤها ، وليست بتابعة للادارة البريطانية رأساً ، بنحو خمسى الهند ، حال كون الذى تديره انكلترة رأساً هو ثلاثة أخماس الهند . هذا هو قول الانكليز الذين قد يعدّون أقل إدارة وطنية امارة ذات حكم ذاتى مهما كان من استئثارهم بجميع أمورها . لذلك اختلفت روايتهم عن رواية بعض أدباء الهند من البراهمة الذين أكدوا لنا أن الممالك التى يصح أن تعد من ذوات الحكم الذاتى لاتزيد على ربع الامبراطورية الهندية . وقد أحصى المؤلفون الانكليز عدد امارات الهند التى يتولاها الملوك والأمراء الوطنيون تحت حماية بريطانية العظمى ٦٩٣ حكومة من أصلها عدد من الحكومات الاسلامية وهى كما يأتى :

حيدر آباد الدكان وعدد سكانها ١٣ مليوناً و ٣٧٤ ألف نسمة ، ودخلها السنوى مليون و ٧٦٠ ألف ليرة انكليزية ، وعلاقتها هى مع حكومة الهند البريطانية رأساً . وليس لغيرها امتياز كهذا بل جميع الممالك والامارات الأخرى فيها نواب من قبل الانكليز يكونون هم الواسطة بين تلك الحكومات الوطنية و بين حكومة الهند الانكليزية . ثم كالات من بلوجستان عددها ٣٥٩ ألفا ودخلها السنوى ٥١ ألف ليرة . ثم لاس بيلا وعددها ٦١ ألفاً ودخلها ١٥ ألف ليرة . ثم خيربور وعددها ٢٢٣ ألفا ودخلها ١٠٨٠٠ ليرة . ثم جوناغار وعددها ٤٣٤ ألفا ودخلها ١٧٥ ألف ليرة . ثم بالانبور وعددها ٢٢٦ ألفا ودخلها ٤٨ ألف ليرة . ثم كامباى وعددها ٧٢ ألفا ودخلها ٣٧ ألف ليرة . ثم جانديرا وعددها ٨٨ ألفا ودخلها ٤٠ ألف ليرة . ثم رادنهابور وعددها ٦٥ الفا ودخلها ٢٦ الف ليرة . ثم بالاسينور وعددها ٤٠ ألفا ودخلها ٨ آلاف ليرة . ثم ساجين وعددها ١٩ الفا ودخلها ٢٠ الف ليرة . ثم سافانور وعددها ١٨ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . ثم ثلاث حكومات صغيرة تؤدى مالا

سنو يا لمهراج كايكفار وهى « دابها » ودخلها السنوى ٢٦٦ ليرة و « بونادرا » ودخلها ألف ليرة . و « راماس » ودخلها ٢٠٠ ليرة . وأمراء هذه الحكومات الثلاث هم من سلالة راجا اسمه هارزنجى كان فى خدمة محمود بيغارا سلطان كوجرات وأسلم سنة ١٤٨٣ .

وفى الهند الوسطى بهوبال فيها ٧٣٠ ألفا ودخلها ٢٠٠ الف ليرة. ثم جاورا وعددها ٧٥ ألفا والوارد لها ٦٠ الف ليرة . ثم باونى وفيها ٢٠ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . وفى الهند الوسطى ١٥٣ حكومة ذاتية بعضها تحت ولاية أمراء مسلمين مثل كورفاى التى سكانها ١٨ ألفا ودخلها ٢٥٠٠ ليرة . وبازودا التى تتبع مهراج كفاليور لكنها فى الواقع لا تدفع له شيئا وكل سكانها ٤٦٣٠ نسمة ودخلها السنوى ١٢٦٦ ليرة [1] . ثم محمد كار وأهلها ٢٨٦٣ نسمة ودخلها ٢٦٦ ليرة . ثم باتارى وأهلها ٣٨٦٦ نسمة ودخلها ٦٠٠ ليرة . ويوجد امارات أصغر من هذه على مافى دائرة المعارف الاسلامية و ياليت شعرى ماذا تكون تلك الامارات التى هى أصغر من هذه ؟ وهل يوجد أصغر من هذه الا الميكروبات ؟ فان مامر من هذه الحكومات التى يقول الانكليز انها متمتعة بالحكم الذاتى هو عبارة عن مديريات نواح أو مشيخات قرى . ولهذا كثر عدد الحكومات الوطنية بحسب احصاء الانكليز وما دامت هذه أقدارها فلا عجب أن تعد بالمئات . ومن الغريب أن أكثر أهالى هذه الامارات التى يليها أمراء مسلمون هم من البراهمة ، والمسلمون بينهم قلائل أحياناً تراهم نحو الثلث وأحياناً الربع وآونة السدس الى العشر . وأكثر مسلمى الهند بالنسبة الى سائر السكان هم فى الحدود الشمالية الغربية ، حيث المسلمون بالنسبة الى مجموع السكان ٩٣ فى المائة . كذلك يكثر المسلمون فى الجهة المقابلة ، أى بلاد البنغالة ، فهناك مجموع السكان ٤٥ مليونا ونصف المليون ومن أصلهم ٢٤ مليونا مسلمون ثم كشمير أهلها ٣ ملايين ومائة وخمسون الفا منهم مليونان و ٤٠٠ الف مسلمون ، وأما فى البنجاب فالمسلمون أكثر من نصف السكان . وتجد بعكس ذلك فى المقاطعات الموحدة التى كانت مركز السلطنة المغولية الأصلى فهناك نيف وسبعة وأربعون مليون نسمة المسلمون بينهم ستة ملايين وستمائة وخمسون ألفا فقط . وأغرب منه مملكة ما يسور التى كان فيها حيدر على وتيبو سلطان من أعظم المجاهدين فى نشر الاسلام فلا يوجد بين الخمسة الملايين والثمانمائة الف التى تسكن تلك المملكة سوى

(١) فماذا تقدر أن تدفع لذلك المهراج

٣٠٠ الف و ١٥ الف مسلم . وانما استوى على تلك المملكة حيدر على بفرط بسالته واقدامه وهو رجل ممن يذكر فى تاريخ الهند كان مولده سنة ١٧٢٢ وكان أبوه يدعى فتح محمد خان ولما شب حيدر دخل فى جيش مايسور ، وظهرت شجاعته فى حصار مدينة « دفاهالى » التى أخذها راجا مايسور عام ١٧٤٩ فجعله الراجا قائداً لخمسين فارساً ومائتى راجل ، هكذا كان مبدأ ترقيه ثم صار فوجداراً فى «دنديغول» ثم جاكردارا فى بنغالور . ثم كسب صيتا بعيداً فى ظفرته بالمهرات عام ١٧٥٩ وتلقب بعد ذلك بفتح حيدر بهادر ، واستقطع راجا مايسور بلاداً طويلة عريضة من مملكته ، وصار هو السيد المطلق فى مايسور ، ولما وقع النزاع بين الانكليز والفرنسيس فى الهند انحاز حيدر الى الفرنسيس وجرد جيشه للقتال فى صفهم فانتهز تلك الفرصة « خاندرافا » وزير الراجا للتخاص من حيدر وتغلب عليه أولا ، ولكن حيدر بدهائه واقدامه استرجع مكانته ثم قبض على الوزير وصار هو الألف والياء فى مايسور وأبقى على الراجا فى الصورة فقط و بعد موت الراجا جعل ابنه فى قبضته لا يملك معه شيئاً . وضرب حيدر السكة باسم نفسه ، وفتح بلاداً ضمها الى ما يسور وأسس دار صنعة لبناء السفن ، وجرت بينه و بين المهرات وقائع كثيرة وكذلك بينه و بين الانكليز اذ كان أكثر الوقت ينتصر للفرنسيس عليهم . ومات فى معسكره بآركات فى ٧ ديسمبر سنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه تيبو صاحب . وكان هذا لا يقل عن أبيه فى شئ حزماً وعزما وغشمشية ومضاء ، كان مولده سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٧٩٩ وتثقف فى الفنون العسكرية على أيدى ضباط فرنسويين ، وأتقن الرياضة البدنية وامتاز فى الحروب التى وقعت بين مايسور والمهرات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٧٩ كذلك فى الحروب مع الانكليز من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٧٨٤ اذ ظفر بهم فى عدة معارك فأحبه أبوه وقومه حبا جا ، وعند ما خلف أباه عام ١٧٨٢ فتح « بدنور » و بالرغم من ترك الفرنسيس حلفائه قتال الانكليز لم يزل يكافح و ينافح حتى انعقد الصلح بينه و بين الانكليز سنة ١٧٨٤ بمعاهدة « مانغالور » وقد رتب أمور بلاده ترتيبا حسنا ، ولأجل أن تدرى جلال قدر هذا الرجل يكفى أن تعلم أنه كان أوصل عدد جيشه الى ١٥٠ الف جندى مع ألفى مدفع وسبعمائة فيل ، وادخر مقداراً طائلا جداً من المؤن والعدد والذخائر الحربية ، وكان يخمن بيت ماله بمليارين من الفرنكات . وروى موريس قال صاحب قاموس الاعلام الفرنساوى أن تيبو صاحب حاول حمل

المسيحيين والبراهمة على الاسلام وأظهر فى ذلك غلظة زائدة ، ولكن أقصى آماله كان طرد الانكليز من الهند ، وكان اللورد كورنفاليس حرك عليه نظام حيدر آباد من جهة والمهرات من أخرى ، فهاجم تيبو مملكة « ترافانكو » سنة ١٧٩٠ فهاجمه الانكليز والمهرات وجيش النظام من أربع جهات فقاتل قتالا نادر المثال فى البطش والمهارة وكسر الكولونل الانكليزى فلويد واجتاح المنطقة الانكليزية وبقى موغلا فى سيره الى جوار مادراس ، حتى اضطر الانكليز أن يسوقوا عليه جحفلاً جرّاراً تحت قيادة اللورد كورنفاليس نفسه فردوا تيبو صاحب الى الوراء ودخلوا بانغالور وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس تيبو صاحب الصلح فأجيب اليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويؤدى غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك ، وتم ذلك سنة ١٧٩٢ الا أن تيبو صاحب بقى حاقداً على الانكليز متحفزاً للاخذ بالثأر ، ولبث يراسل الفرنسيس . ولما قدم بونابرت الى مصر بعث اليه رسله فوجه الانكليز معظم قوتهم لقتاله ، وشهر الوالى الجديد الانكليزى ولسلى عليه الحرب سنة ١٧٩٩ وتقدم الجنرالان هاريس وستوارت فحاصرا مدينة « سرينغاباتام » فمات تيبو صاحب أثناء الحرب من شدة غمه ، واستولى الانكليز بعده على مايسور وعينوا لأولاده جارياً جزيلا فأقاموا بمدينة « فللور » وكان تيبو صاحب وأبوه حيدر على من أعاظم الرجال الذين أنجبهم الاسلام .

ان المدنية الاسلامية فى الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة ، اذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والمغولية ، والصينية ، والهندية ، والبوذية وغيرها . ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر حتى صارت الهند بواسطة الاسلام كأنها قطعة من ايران . واشتهر من شعراء الفارسية فى الهند الأمير خسرو الدهلوى (١٢٥٣ الى ١٣٢٥) الذى كان يتحدى السعدى والنظامى والشاعر حسن الدهلوى المتوفى عام ١٣٢٦ ، وكان يحذو حذو عمر الخيام والحافظ الشيرازى . ولم يمكن الأدب الهندى أن يجارى الأدب الفارسى فى ميدان ، لا سيما أن ملوك الاسلام لبثوا مترفعين عن الهنود فى هيئتهم الاجتماعية ، منفردين بأنديتهم ومجالسهم الخاصة ، ولم يكن لسان كلسان الفرس يطيب للمجالس الملوكية وأحاديث الخواص ، فاذا استثنيت اللغة العربية لا تجد

فى العالم الاسلامى لغةً وثقافة تضارعان اللغة الفارسية وثقافتها . وان المغول أنفسهم مع كونهم يختلفون عن الفرس أصلاً كانوا بعد أن ولوا بلاد العجم قد تحولوا فى لسانهم وآدابهم فرساً . فلما فتحوا الهند نشروا فيها المذهب الفارسى والأدب الايرانى ، ونبغ فى أيامهم أدباء ومؤلفون وشعراء كالباداعونى وأبى الفضل وأبى فيضى والشاعر عرفى الشيرازى وخوجه حسين وحسنى الأصفهانى وقاسم ايكاهى . وكانوا جميعاً ينظمون وينثرون بالفارسى ويتحدون الجامى والحافظ والنظامى . ثم ان شعراء لغة الاوردو بهذه اللغة الجديدة كانوا ينسجون أيضاً على منوالهم . وهم مثل فالى ، وسا آودا ، ومير ، وحاتم وحسن وغيرهم. اما من جهة الطراز المعمارى ، فكان لمسلمى الهند دوران الدور الأول هو الغزنى والغورى ، والدور الثانى هو الدور التيمورى .فأما فى الدور الأول فكان ملوك الاسلام قد اكتفوا بالطراز الهندى المسمى « جاينا » وأضافوا اليه القسىّ الحادة العربية . فكان يوجد فى نسق البناء شبه كبير بين جوامع السلاطين ايبك والتامش وعلاء الدين فى اجمير ودهلى ، و بين معابد الهنود الا أن المسلمين لم يلبثوا أن نزعوا الى طرازهم المعمارى الأصلى وهو العربى الفارسى ، فان الباب المسمى باب علاء الدين فى دهلى هو بناء فارسى تقريباً .أما فى زمان بنى طغلق فكان الطراز الهندى هو الغالب على الأبنية مع منزع ظاهر الى البساطة . ولكن من بعد فتح بابر التيمورى تولد أسلوب خليط من الطراز الهندى والطراز الايرانى صار قائماً بذاته . وهناك فروق ناشئة من طبيعة البلاد ففى الهند لم يمكن ايجاد صنعة القاشانى الغالبة فى الأبنية الفارسية ، فجعلوا مكان القاشانى المرمر والحجر الصلد . فكانت المبانى المغولية أفخم وأمتن وأثبت على الدهر ، فبينما جوامع اصبهان تتداعى الى الخراب تجد « تاج محل » فى الهند يغالب بمتانته الزمان ويقاوم الحدثان . وجميع مبانى بابر وهمايون كانت على الأسلوب الايرانى وذلك مثل مدفن همايون فى دهلى . أما اكبر فمبانيه كانت بين الأسلو بين العجمى والهندى ترى ذلك فى الجامع الأعظم فى فتحبور . ونظيره جامع آغرا وقصر السلطانة التركية . وأما مدفن اكبر فى سيكوندره فاذا تأملت سطوحه المرصوفة بالحجر الأحمر ، والمرمر الأبيض ، وأطنافه وأفاريزه والأشكال الهرمية التى فيه تظن أنك بازاء أسلوب بوذى مطبق على رسم اسلامى . وفى أيام جهانكير بنى مدفن اعتماد الدولة فى آغرا ، وجامع لاهور ، وهذا فيه

قاشانى كثير كأنه من مساجد أصفهان ، أما مدفن اعتماد الدولة فهو طراز نسيج وحده . وفى أيام شاه جهان بنى القصر السلطانى فى دلهى ذو البهو الأعظم المسمى « بديوان خاص » الذى قال أرباب الفن من الأورببين انه آية تبهر الناظرين . وكذلك أنشئ جامع الوزير فى لاهور والمسجد الكبير فى آغرا والجامع المسمى « جامع مسجد » فى دلهى ، وجامع اللؤلؤة فى آغرا . وهذا الأخير من أعجب عجائب الهند على كثرة عجائبها ، تدخل اليه من مربع فيه حياض الوضوء ، ثم تفيض منه الى دهليز معقود بالقناطر ، ممتد من ثلاث جهات وفى الجهة الرابعة قبالة الباب الأكبر يتجلى لك الجامع بعظمة فائقة الوصف ، قائماً على غاب أشب من المرمر المنقوش الباهر فى صنعته ، تعلو من فوقه تلك القبة المنقطعة النظير الضاربة الى العلاء ، تناطح القبة الزرقاء . قال جاكمونت : ان هذا العالم الصغير من المرمر الناصع يظهر لك كأنه واحة سلام وسكون فى وسط معركة الحياة ، إذ لاترى من العالم الخارجى سوى رأس شجرة فينانة جعلها التصادف فى وجه الباب يلعب الهواء بأغصانها تحت أشعة الشمس . فهذا المسجد هو مشهد سكينة تامة وصفاء لطيف ليس فى محاسن سائر الآثار العظام التى فى آغرا مايضاهيها ، نعم ان جميع هاتيك المبانى لما يبهر النواظر ولكن لؤلؤة المساجد تلك شئ آخر .

مع هذا « تاج محل » فى آغرا أشهر من مسجد اللؤلؤة . وكان السلطان جهان شاده سنة ١٦٣٠ مدفناً لحظيته التى كان قد ملك هواها قلبه « الأميرة ممتاز محل » وكانت قد ماتت وهى نفساء فى مقتبل العمر فناشدت السلطان الله أن يخلد اسمها فى بناء عظيم الشأن فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بالتاج وكله من الخارج من مرمر ناصع البياض ، ومن الداخل منحوت منقوش مخرم مرصع بالصنعة التى تحار لها العقول وتذهب بها الألباب ، مع ماهناك من الفسيفساء وأصناف الرخام والمرمر الأزرق الصافى ، والعقيق اليمانى ، وغير ذلك من الحجارة النفيسة النادرة . وفوقه قبة لطيفة حواليها منابر ضاربة فى السماء ، وعلى الدائر مشبكات من الحجر تصرفت بها أيدى الصناع بالتخريم تصرف النجارين بالخشب . وهذا بأجمعه وسط جنة فيحاء غناء ، فيها من الحياض والنوافر المتصاعدة مياهها بين مخارف السرو ، وتحت ظلال أشجار البرتقال مايتعذر احصاؤه . ومما يذكر من عجائب مآثر الهند

الجامع الأعظم في بيجابور في الدكان بدأ بعمارته على الأول سنة ١٥٥٧ وقبة السلطان ابراهيم التي انتهى بناؤها سنة ١٦٢٠ وقصر الطباق السبع الذى بناه السلطان محمد ومدفنه وطراز هذه الأبنية كله فارسي . وهذه نبذة ضئيلة عما خلفه ملوك الاسلام من المبانى المدهشة فى الهند فمن شاء التوسع فعليه بكتاب « الهندسة العربية » Architecture des Arabes تأليف غستاف لوبون إذ أتى فيه على جميع المآثر الاسلامية فى البناء . وعلى كتاب دراسة الفن المعمارى الاسلامى للمسيو سلادين Saladin وعلى تصانيف كثيرة لكتاب الانكليز على الهند . وبالاجمال فمن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الأخبار ، يعلم أن الاسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش أعصراً زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بها سائر الأمم ، على شرط أن يقتدوا بأوائلهم . هذا ما آثرنا تلخيصه عن دول الاسلام فى الهند .

فرقة المعتزلة

للأمير شكيب

المعتزلة فرقة[١] من مفكرى الاسلام ، يرى فيهم علماء أوربا دائما طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتماص من قيود التقليد المشهور فى الاسلام بالشدة ، والباعث بشدته ووقوفه ، غير متقدم ولا متأخر ، الى هذا الجمود الذى رسا عليه المجتمع الاسلامى .

ويقال ان سبب تسميتهم بالمعتزلة ، أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ أولاً على الحسن البصرى ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياة ، والعلم ، والارادة والقدرة ، وقالوا انه حى بذاته ، عالم بذاته ، مريد بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حى بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بارادة ، بحيث ان الصفة هى غير الموصوف وأما العدل فلكونهم يقولون ان العبد انما يثاب و يعاقب على طاعته ومعصيته ، لانه هو الخالق لأفعال نفسه ، دون الله تعالى الذى ينزّه عن أن يضاف اليه خلق الشر . واذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس « القدرية » . ولما سمعوا الحديث المروى عن النبى ﷺ وهو « القدرية مجوس هذه الأمة » أوّلوا الحديث بأن معناه القائلون بسبق القدر . وكان مرة أحد أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى « الحمد لله الذى تنزه عن الفحشاء » . فقال السنى : « الحمد لله الذى لايقع فى ملكه الا مايشاء » . فقال المعتزلى : « أيريد ربك أن يعصى ؟ » فقال السنى : « أيعصى ربك جبراً ؟ » من هذه النكتة تفهم الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال . هذا وان كان جمهور أهل السنة فرقوا بين الكسب و بين خلق الأفعال ، وجعلوا للانسان جزءاً اختياريا هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذى يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملا على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى . فذهب الى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاصى ،

(١) راجع صفحة ٢٥٤ من هذا الجزء

فالسلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا أباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب فى وصول أذى ذلك العامل الى الرعية لانه لولا تولية السلطان إياه ماتمكن من ظلمهم وهذا هو مثل من الأمثال ، وان كان البحث دقيقاً جداً ، وكان جمهور المتكلمين من المسلمين ، واللاهوتيين من المسيحيين يتفقون على أن الله هو مالك الملك ، خالق الخلق ، يفعل بخلقه مايشاء ، وأنه حر فى أفعاله لايسئل عما يفعل .

وقد اشتهر من أئمة المعتزلة واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وابراهيم النظام ، و بشر بن المعتمر ، ومعمر بن عباد ، وأبو عثمان الجاحظ ، وأبو على الجبائى ، وابنه أبو هاشم والزمخشرى صاحب الكشاف فى تفسير القرآن . وممن كان يقول بأقوالهم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، أخذ ذلك عن الجعد بن درهم من المعتزلة ، فقيل له مروان الجعدى . و يقال ان الصاحب بن عباد كان يميل الى مذهبهم . ثم ان كثيراً من متكلمى الشيعة تعول على كثير من آراء المعتزلة . ومن جملة أقوال المعتزلة ، اذا كان الأمر مفروغاً منه فاماذا يسعى الانسان وفيم يجتهد ؟ وهم يؤولون قوله تعالى « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » والحديث الشريف « اعملوا فكل امرىء ميسر لما خلق له » .

أما أبو على الجبائى ، فقد كان حامل لواء الاعتزال فى عصره أخذ عن أبى يعقوب يوسف شيخ معتزلة البصرة ، ثم انتهت اليه رئاستهم الى أن مات (سنة ٣٠٣ أو ٩١٥) ، وصنف كتاباً فى الأصول ، وكانت له مناظرات مع الراوندى ، والنظام وغيرهما ، وهو الذى قرأ عليه أبو الحسن الأشعرى ، ثم بعد ذلك ناظره الأشعرى وألف كتاباً فى الرد على أستاذه الجبائى ، واعتزل الاعتزال ، وصار ناصراً للسنة ، حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية فى علم الكلام . واشتهر أبو هاشم الجبائى اشتهار والده بالاعتزال لكنه حاول فى مسئلة الصفات الالهية التوفيق بين المعتزلة وأهل السنة ، بأن يجعل هذه الصفات أحوالاً ، ومعنى ذلك أنها صفات أشد اتصالا بالجوهر من العوارض غير الملازمة ، بحيث يكون لها سبق فى القضاء والقدر . وقد أراد أبو هاشم بهذا أن يؤلف بين التوحيد الالهى والصفات ، زاعماً أن الكيفيات ليست جواهر بل أنواع من المظاهر . وقد ردوا عليه فى رأيه هذا ورأوه متناقضاً . ومات أبو هاشم عام ٣٢١ .

وأما الأشعرى — وهو على بن اسماعيل ، بن اسحق ، بن سالم ، بن اسماعيل ، بن

عبدالله ، بن موسى ، بن بلال ، بن أبي بردة الأشعرى ، المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ — فقد بقى الى الأربعين من عمره ملازماً للجبائى ، آخذاً برأيه ، الا أنه لحظ فى آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لاتلتئم مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف ، وعد منها ابن عساكر ٩٠ تأليفاً ، وذكر كثيراً منها بروكلمان Brokelmann الألمانى فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وسنة ١٣٢١ هجرية طبع فى حيدر آباد من مؤلفات الأشعرى « الابانة عن أصول الديانة » وسنة ١٣٢٣ طبع منها رسالة فى استحسان الخوض فى الكلام .

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، أنه يعود للأشعرى الفضل باستعمال المنطق والجدل فى العقيدة ، خلافاً لعاماء الاسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الاسلامية أى علم الكلام . قالت: « ولما كان الأشعرى شافعياً لم ينتشر مذهبه عند قوم انتشاره عند الشافعية » قلنا : يقول عبد الوهاب السبكى فى طبقات الشافعية ان المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة . أما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدى ، وهو يتفق فى الأساس مع الأشعرى ، ويباينه فى نقاط ثانوية . وأماالحنابلة ، فيردون كلام الأشعرى ويأخذون العقيدة بمثل ماأخذها السلف أى بدون فلسفة وقديفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم . وممن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهرى . ومما لامشاحة فيه أن أعظم متكلمى الاسلام وسيوف السنة ، هم من الأشاعرة وذلك مثل الباقلانى ، والقشيرى ، والاسفرائينى وامام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، ولو لم يكن منهم الاحجة الاسلام الغزالى لكفى .

فرق الخوارج

للأمير شكيب

عند ماطال النزاع بين أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، واشتدت الحرب واتسع الخرق ، مل كثير من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم فى طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء . فكانت هذه الطريقة هى التحكيم الذى كثير من عقلاء الأورباويين يجاهدون اليوم فى جعله هو الواسطة لفض المنازعات الدولية ، وان كانوا الى هذه الساعة لم يوفقوا الى جعله المرجع الأول فيما شجر بين الدول ، بل كان لايزال أمره ضئيلا وأكثر مايرجعون اليه فى المشكلات الخفيفة .

فهذه الفئة التى سئمت الحرب ، حملت علياً رضى الله عنه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، وأشارت باقامة أبى موسى الأشعرى حكماً عنه فى خبر طويل ليس هنا تفصيله ، مع أن عمراً بن العاص داهية زمانه أقيم حكماً عن معاوية ، فخدع عمرو أباموسى بأن اتفق معه على أن يخلعا علياً ومعاوية جميعاً ، ويريحا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه . ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له فى الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما . وجاء الدور الى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية . وكانت لهذه الخدعة رنة فى الاسلام لاتزال الناس تتذاكرها الى اليوم . وبطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين ، فخرجت تلك الفئة من طاعة على ومعاوية معاً ، وانفردت برأى غير رأى الجماعة ، وهو أنه لاحكم الا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماهم الناس من أجل ذلك خوارج[1] . ثم ذهبوا الى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على مايروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد اليهم على وما زال يقاتلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، الى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى اليمن . هذا أصل الخوارج ،

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ويقال لهم أيضا الشراة لقولهم اننا شرينا أنفسنا فى طاعة الله أى بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة .

وعمود مذهبهم انكار الخلافة وأن الحكم يستمد من القرآن رأسا فلا حاجة الى الخليفة . وأنهم يمنعون التأويل فيه . و بعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هى قصة من القصص . و بعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالاصرار على الصغائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبدالرحمن بن ملجم ذلك الشقى الذى قتل عليا ، وفعل قطام فى اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة ، عبداً ، وقينة ، وقتل على . ومنهم من يجوز نصب الامام ولكن لايشترطون فيه النسب القرشى (وقد ذهب الى مثل ذلك غيرهم ومنهم من كبار علماء السنة مثل أبى بكر الباقلانى) . وهم فرق متعددة منها :

المحكمة ، وهم الذين يمنعون التحكيم .

ثم الازارقة ، وهم اتباع نافع بن الازرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن الزبير ، وقاتلهم المهلب بن أبى صفرة ، وهم يكفرون عليا مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزانى المحصن وحد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون ان التقية غير جائزة .

ثم النجدات ، وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغائر دون فعل الكبائر ، من غير اصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .

ثم البيهسية ، وهم أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر يرون أنه لاحرام الا ما وقع عليه النص بقوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الىّ محرما » الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الامام .

ثم العجاردة ، وهم الذين ينفون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون انما هى قصة من القصص .

ثم الميمونية ، وهم الذين يقولون ان الله مريد الخير دون الشر . ويقال انهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الاخوة والاخوات . ورد ذلك فى بعض

الكتب ومن جملتها « صبح الاعشى » . ولكن عهدنا « صبح الاعشى » ينقل روايات عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض فرق مخالفة لأهل السنة ، وليس فى تلك الروايات شئ من الصحة ، بحيث قد ضعفت الثقة فيما ترويه تلك الكتب عن فرق أخرى . والذى يظهر أن اختلاف العقيدة يورث من التباغض والتنافر ما ينتهى بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وبترويجها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسلمة . ولهذا شواهد ، كثيرة ليس هنا موضع ذكرها .

ثم الاباضية ، يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفيهم من الاسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغى . وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون انهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، ويقال انهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة . وهم لا يذكرون بعد الرسول ﷺ من الخلفاء الا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلى فلا يعجبانهم اذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم . ويقولون بوجوب نصب الامام بين المسلمين اذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وان القرشية ليست بشرط فى الخلافة ؛ بل يكفى أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته . فان انحرف عنهما وجب خلعه . ويقولون ان القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسى . وانه تعالى لا يرى بالابصار فى الجنة ، وان الثواب والعقاب أبديان ولافناء للنعيم ولا للجحيم . وان الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر الا بالتوبة . وهم يرجعون الى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالاجماع والقياس ، بل عندهم محلهما الرأى . وهم يقولون : ان كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وان على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الدينى خسر حقه فى حنو اخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو الى أن يتوب وينيب . هذا ولما كان أكثر فرق الخوارج انتشاراً هم هؤلاء الأباضية ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الاسلام الكبرى ، فسنعود فى آخر هذا الفصل الى تاريخهم السياسى .

ثم الثعالبة ، وهم يرون الولاية على الصغير الى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه .

ثم الصفرية ، ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أمّا ما كان من الكبائر فيه حد كالزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .

هذه أشهر فرق الخوارج ، ومن شاء التوسع فى هذا الموضوع فعليه « بالملل والنحل » للشهرستانى ، وكتاب « الفهرست » وكتاب « كشف الغمة فى أخبار الامة » ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ، وكتاب « الملل والنحل » لابن حزم وغيرها .

ونعود الى الاباضية فنقول : هؤلاء ينتسبون الى عبد الله بن اباض ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الاباضية فى زمان مروان الثانى الأموى ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حمزة (١٢٩ هجرية) وزحف عبد الله من حضرموت الى صنعا فاستولى عليها ، وسير أبا حمزة بجيش الى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما ، فأرسل مروان جيشاعقد لواءه لعبد الملك بن عطية ، فقاتل أباحمزة وهزمه فى وادى القرى ، فالتجأ الى مكة ، فجدّ فى أثره وما زال يقاتله حتى قبض عليه وقتله . وكذلك انتهى أمر عبد الله ابن يحيى بصنعاء اليمن . وسنة ١٣٤ للهجرة ، ثار الاباضية فى عمان ، فسار اليهم خازم بن خزيمة من قبل بنى العباس ، فنكل بهم ، ولكن المذهب الاباضىّ وجد فى بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيلولة الفلوات من جهة ، والبحار من أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، و بسط جناحيه بدون زعج فى قاصيتها ، ومازال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب فى بلاد عمان ومنها امتد الى زنجبار . أما فى شمالى افريقية فان مذهب الأباضية ظهر فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية . وكان أول دعاتهم فى شمالى افريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الحميرى اليمانى ، خرج فى جبل نفوسة ، وهو أول امام للاباضية فى تلك الأقطار . ويقولون انه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الاباضية « حملة العلم » ، وكانت مبايعة الاباضية له فى جبل نفوسة ونواحى طرابلس سنة ١٤٠ هجرية . وزحفوا بعدها الى مدينة طرابلس ،

واضطروا العامل الذى كان فيها من قبل بنى العباس على الفرار بنفسه . ثم سار منهم ستة آلاف تحت قيادة أبى الخطاب هذا ، وافتتحوا قابس ، ثم ساروا الى القيروان فحاصروها وفى صفر سنة ١٤١ فتحوها وذبحوا أهلها . وعاد أبو الخطاب الى طرابلس بعد أن أبقى على القيروان من قبله عبد الرحمن بن رستم . وفى ذى الحجة من سنة ١٤١ ولى الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى محمداً بن الاشعث الخزاعى على مصر ، فأرسل هذا جيشا تحت قيادة العوام بن عبد العزيز البجلى الى افريقية لدوخ الخوارج ، فزحف أبو الخطاب بنفسه للقاء جيش الخليفة ، وأرسل من قبله جريدة تسبقه مع مالك بن سهران الحوارى فانكسر جيش الخليفة أول مرة فى سرت ، فأرسل ابن الأشعث جيشاً آخر بقيادة أبى الأحوز عمر بن الأحوز العجلى ، فانكسر أيضا ، فزحف ابن الاشعث بنفسه بأمر من الخليفة ، فالتقاه أبو الخطاب بجيش البربر فى « تاورغا » فى صفر سنة ١٤٤ ودارت معركة تشيب لها الأطفال وانتهت بهلاك أبى الخطاب و ١٢ الفا ويقال ١٤ الفا من أشياعه ، وفى جمادى دخلت عساكر الخليفة القيروان .

ولكن لم تلبث فتنة الخوارج فى تلك الأقطار أن تجددت ، اذ فى نحو عام ١٥٦ ظهر أبو حاتم يعقوب بن حبيب المزوزى ، وقيل ان أباه كان اسمه لبيد بن مدين من قبيلة هوارة العظيمة ، فجمع أبو حاتم هذا جموعا من الأباضية والصفرية وأصناف البرابر ، وجاء يحاصر عامل افريقية عمر بن هزار مرد فى بلدة تبنة ، فبعد وقائع شديدة تمكن عمر من الخروج من تبنة واللحاق بالقيروان عاصمة افريقية فى ذلك العصر ، ورد جميع مهاجمات البربر ، وصبر على الجوع ونفاد الأقوات ، وبينما هو يدافع عن البلدة اذ بلغه كون الخليفة سرح جيشا تحت قيادة يزيد بن حاتم ، الذى ولاه على افريقية محل عمر ، فباغ من عمر اليأس مبلغه وخرج فقاتل حتى قتل فى ذى الحجة سنة ١٥٤ ، فاستولى البربر على البلدة وجمعوا جيوشهم لملاقاة جيش الخليفة . وكان فى هذا عساكر من خراسان ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومن بقايا الأجناد التى كانت بافريقية ، ومن الهوارة أنفسهم . فالتقى الجمعان فى جندوبة ، وانتهت المعركة بانتصار جيش الخلافة ، وهلك أبو حاتم ومعه ٣٠ الف مقاتل من أتباعه ، وذلك فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٥٥ (٧ مارس سنة ٧٧٢) ويقال ان هذه الواقعة الكبرى كانت خاتمة ٣٧٥ واقعة نشبت بين الخوارج وجند الخلافة .

ولقد تأسست دولة أباضية فى تاهرت استمرت ١٣٠ سنة ، الى أن أزالتها الدولة الفاطمية على يد أبى عبد الله الشيعى (٢٩٦ للهجرة) ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة فى الغرب ، وانما منهم أعداد وافرة فى وارغلة ، وميزاب ، وجبل نفوسة ، وزوارة ، وجزيرة جربة . وهم مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا شديداً ، ولهم علاقات مع أباضية عمان ، وزنجبار وتجدهم يتدارسون تاريخهم وفقههم وأدبهم بكل اعتناء . ومن أعيان الأباضيين فى زماننا هذا الشيخ سليمان البارونى الذى جاهد فى حرب طرابلس الغرب جهاداً عظيما على رأس اباضية الجبل الغربى ، وكان مبعوثا فى مجلس الأمة بالاستانة ، ثم جعلته الدولة العثمانية عضواً فى مجلس الاعيان مكافأة له على جهاده .

ثم نعود الى أباضية عمان فنقول : ان الخروج على الدولة شنشنة قديمة لذلك القطر ، فقد عصى أهالى عمان لعهد بنى أمية ، فسير عليهم الحجاج بن يوسف الثقفى جيشا فهزموه ، وكان عليهم يومئذ سليمان وسعيد من أولاد الجاندى الذى كان يلى عمان عند ظهور الاسلام . فأرسل عليهم الحجاج جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفر الأخوان سليمان وسعيد الى بلاد الزنج (زنجبار) ، فكانت الى هذا اليوم منتدحا لأهل عمان ولكن تنحى بلاد عمان عن الأمصار الكبرى كما تقدم الكلام عليه ، هيأ فيها سهولة الانتقاض ، فان العمانيين لم يلبثوا أن ثاروا وبايعوا بالامامة الجلندى بن مسعود . فأرسل أبو العباس السفاح جيشا لقتال الجلندى هذا ، فانهزم العمانيون وهلك امامهم ، ولكن لم تعد عساكر الخليفة الى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الأهالى الى عقد اجتماع وانتخاب امام على حسب أصول المذهب الخارجى المنتسب الى عبد الله بن أباض التميمى . فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان ، فباشر الامامة نحو سنتين ، فلم يحسن العمل فخلعوه ، وأقاموا مكانه الوارث بن كعب . وفى زمان هذا أرسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئا . ومات الوارث بن كعب فى حادثة غريبة ، وهى أنه كان فى إحدى الوقائع ثقف عدداً من الأسرى ، وصادف أن جرى سيل فى المكان الذى كان الاسرى فيه موثقين ، فذهب بنفسه يجتهد فى تخليصهم فأخذه السيل وذهب شهيد مروءته ووجدت جثته ثانى يوم بعد أن انكشفت الأرض متعلقة بشجرة . وخلفه غسان بن عبد الله ، وقد طهر تلك البلاد من معرة لصوص البحر ، وتأثرهم على طول الساحل من بلاد العرب

الى بلاد العجم الى الهند ومات سنة ٢٠٧ .

فوقع الاختيار على عبد الملك بن حميد ، فلما بلغ من الكبر عتيا أهتر وأصبح لا يعقل من الكبر ، فلم يريدوا خلعه ولكنهم وضعوا له مدبراً اسمه الشيخ موسى . ولما مات عبد الملك سنة ٢٦٢ أقاموا مكانه المهنا بن جعفر ، وبعدة هذا استضافت عمان بلاد المهرة ، وكانت من قبل تؤدى اتاوة سنوية . ومات المهنا هذا فى سنة ٢٣٧ وخلفه الصلت ابن مالك ، ومات سنة ٢٧٣ فخلفه رشيد بن النضر ، فاختلت الأمور وانتثر النظام فى أيام هذين حتى اضطر الأهالى لمراجعة الخليفة المعتضد العباسى ، وكان رجل اسمه عزان الخاروسى حاول أن يحكم بالقهر والعسف فلم يتسق له الأمر وصارت الناس فوضى . فذهب اثنان من الأهالى الى البحرين يتكامان مع محمد بن نور عامل الخليفة على البحرين فى الاستيلاء على عمان وازالة الفوضى التى فيها ، وقد قصد أحدهما بغداد لمخاطبة الديوان فى هذا الأمر، فتقرر الزحف الى عمان ، وسار محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطىء ، ففتح نزوة عاصمة عمان ، وقتل عزان ، وفر كثير من الأهالى الى البصرة والى شيراز والى مدينة هرمز ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل وتكاثروا عليه ، فترك مقره ولحق بالساحل ، الى أن أدركته نجدة عظيمة من مرتدفة مضر ، فتمكن من قمع الثورة وأرهف الحد فى الأهالى ، وقطع الأيدى وصلم الآذان ، وعطل قنى المياه التى يشرب منها الخلق ، وأحرق الكتب ، وعمل بالأهالى العملين ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً ، اذ ما كاد يرجع الى البحرين محل عمالته ، حتى ثار الأهالى ثانية وقتلوا العامل الذى استخلفه على عمان ، وذهب دم هذا هدرا ، لأن الخلافة عدلت عن ولاية عمان وناهت عن ايدابها . فعاد الأهالى الى انتخاب أئمتهم ، وتوالت عدة أئمة ، مثل محمد بن الحسن الخاروسى ، وعزان بن الحزر ، وعبد الله ابن محمد الهدانى ، والصلت بن قاسم ، وحسن بن سعيد الحوارى بن مطرف . ولم تطل مدة هؤلاء ، بل استمرت الفتن فى البلاد الى أن ظهر القرامطة ، فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها ، واختير للامامة محمد بن يزيد الكندى . وفى مدته سرحت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندى من وجهه ، فانتخب العمانيون سعيد بن عبد الله ، فمات فى سنة ٣٢٨ فانتدبوا رشيداً بن الوليد وأطاعه الجميع . الا أنه فى آخر الأمر اضطرب حبله ، ومال جماعة الى حكم الخليفة ، فانهزم الامام وفارقه أصحابه ، و بقيت عمان تحت

حكم الخلافة الى سنة ٤٠٠ اذ ضعفت الدولة فى بغداد عن ادارة هاتيك البلاد . فتوالت الأئمة نوبة ثانية كالخليل بن شدهان ، ورشيد بن سعيد الذى كانت وفاته سنة ٤٤٥ وابنه حفص ثم رشيد بن على ، ثم أبى جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩ ثم استولى على القطر بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة . وفى أيامهم حاول الايرانيون أن يستولوا على عمان ، وجاء فخر الدين أحمد بن الداية بجيش من شيراز ، فاجتاح سواحل عمان ، ثم ان أمير هورمز محمود بن أحمد الكوسى ، وكان عربى المحتد قد اجتاح بلاد عمان أيضا بمساعدة المغول الذين كان انضم اليهم ، ووصل بجيشه الى ظفار ، الا أنه نشب مع عساكره فى رمال تلك الصحراء فهاجه العرب ، وقتلوا من كان باقيا من عساكره ؛ ولا تزال قبورهم ظاهرة الى هذا اليوم يقال لها قبور الترك ، مما يدل على أنه كان فى جيشه مرتزقة من الأتراك . وفى أيام بنى نبهان ، دخل فى عمان غراس شجرة « المانغا » يقال ان الذى أدخلها هو الفلاح بن محسن الذى كانت عاصمته مدينة مقنيات التى خربها الوهابيون سنة ١٨٠٠

ثم أخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الأهالى حكمهم ، وانتخبوا إماماً من قبيلة الازد ، وانتهى ملك بنى نبهان فى نحو ٨٣٩ للهجرة . وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكاً كثيرة فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شدهان بن الصلت ، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة رده الى بيت المال .

ولم يتأثل الملك وترسخ قواعده الا فى أيام ناصر بن مرشد بن سلطان سنة ١٠٣٤ هجرية وفق (١٦٢٤ م) وهو من نبعة عربية صريحة ومن أقدم الارومات الاباضية .

ولما تسلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة فى الداخل بايدى زعماء يلقبون أنفسهم ملوكاً ، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها . ولم يكن بقى من الثغور البحرية بأيدى الأهالى سوى فرضة « لاوة » والباقى كان دخل فى حكم أمير هرمز (يقول ياقوت الحموى ان هرمز بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم وبعدها زاى مدينة فى أقصى مكران قريبة من ساحل بحر الهند . ولكن المعروف أن هرمز هى جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس ، ورد فى قاموس موريس قال ان دورها لايتجاوز عشرين كيلو متراً ، وهى صخرة جرداء . قال : وكان فيها أمراء مسلمون قد حصنوها ففى سنة ١٥١١ هاجمها

البرتغاليون بقيادة البوقرق Albuguerke واستولوا عليها ، وصارت من محاطهم المشهورة الى سنة ١٦٢٢ إذ استرجعها الشاه عباس وهدمها ولم يبق فيها الا قرية حقيرة) .

وكان فى ذلك الوقت قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلاد الشرق وصارت لأساطيلهم الكلمة العليا ، كما هى كلمة الانكليز اليوم . واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوقرق ، ولد فى الهندرة بقرب اشبونة ، وتربى فى بلاط الملك الفونس الخامس ، وسنة ١٥٠٣ كانت أولى غزواته الى الهند بثلاث بوارج حربية ، وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند واستولى على « غوا » واجتاح ساحل المليبار ، واحتل مدينة « ملقا » مفتاح الهند الصينية وهو الذى منع الترك العثمانيين من الدخول فى الهند ، ودمر عدن مرتين بالمدافع ، واستولى على جزيرة هرمز ، وبنى فى جزيرة سقطرى حصناً ليحافظ على أهلها الذين كانوا نصارى نساطرة ، وعقد محالفة مع ملك الحبشة ، وحدثته نفسه بالاتفاق معه بتحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن من تدمير القطر المصرى . وبالجملة فكان فى وقته الآفة العظمى على الاسلام ، ومن جملة مغازيه سواحل عمان ، التى كان البرتغاليون فتحوا قسماً من مراسيها ، وتركوا القسم الآخر بأيدى الأهالى مكتفين منهم باتاوة يؤدونها اليهم سنوياً أما المدن البحرية التى كان فيها حاميات برتغالية عظيمة ، فكانت مسقط ، وصحار ، والمطرح ، وقريات . فسار ناشد بن مرشد أولاً الى لاوة ، فاستعان أهلها بالبرتغال ، فأمدوهم بالمال والسلاح ، ولكن ناصراً تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم أنفس البرتغال فى المدن التى كانوا فيها ، فانتزعها من أيديهم ، وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ، ليس لها أيد تمتد الى البلاد ، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة . وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيراً لأجل الاستقرار فى قلعة مسقط ، أن يؤدوا للامام ناصر جزية ، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أدائها ، فزحف اليهم ودارت رحى الحرب ، فانتهت بصلح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون ، فى المطرح والقلاع الخارجية فى مسقط ، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية . ثم افتتح ناصر مدينتى صور وقريات ، وطرد الأجانب منها . وبالاختصار فانه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير بلاده من المعرة الأجنبية ، وفهم فى ذلك الوقت ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام ، من كون الأجنبى الأوروبى اذا أنشب براثنه فى محل لم ينته منه الا باستخلاص

جميع البلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وأن الأولى بالعاقل توقى هذا المرض قبل أن ينشب ، والمبادرة الى اقتلاعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل .

وجرت ثورات فى زمان ناصر ، فاطفأ ثائرتها بحزمه وحكمته ، ومات سنة ١٠٥٩ وفق ١٦٤٩ وقد أكمل عملاً عظيماً . وبنى مملكة عمان على بوانيها ، وحررها من السلطة الأجنبية ، الا بقايا بقلعتى مسقط والمطرح وحصن صحار . واستمر ملكه ٢٦ سنة وكان حازما جاداً ، شائحاً فى الأمور ، فاضلاً تقياً ، أحبه الأهالى لمناقبه هذه ، وان كانوا قد عابوا شحه وكزازة يده .

وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ، فنسج على طرازه فى الاشتغال باجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال فى سواحل عمان . وكانت له عيون على هؤلاء ، يفضون اليه بعوراتهم فأرسل اليه سراً رجل هندى كان وكيلاً لأمورهم ، وموضع ثقتهم ، أنهم فى غفلة لاهون اذا طرقهم العدو أخذهم من حيث لايشعرون . فكبسهم وهم على تلك الحالة واستخلص منهم الحصنين الخارجين ، فبرز أحد البرتغاليين المدعو « كابريتا » ومعه شرذمة من أصحابه وحاول استرداد المدينة فاستؤصلوا جميعاً . وكانت بارجتان للبرتغال فى البحر تمدان الحامية فقصدهما العرب بالقوارب وذبحوا من فيهما . ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال فى بلاده حتى قصدهم الى بلاد الهند فأرسل بوارج حربية تغزوهم فى ساحل كوجرات فى الهند ، فاجتاحت عساكره « ديو » و « دامان » ، وقفلت بغنائم وافرة ، وآنية كثيرة ، مما كان فى الكنائس . ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويج التجارة ، وعمارة أسواق الأخذ والعطاء ، واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه ، وأنفق فى هذا السبيل أموالاً طائلة وجدد قلعة نزوة ، وترك آثاراً صالحة ، وتوفى فى سنة ١٠٧٩ هجرية الموافقة سنة ١٦٦٨ وكان من أفراد الملوك فى حسن سيرته فى الرعية ، وسداد آرائه ، وصواب أنحائه ، وتوافت الناس بداراً الى مراضيه ، وتسارعت الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكل ذلك بسائق المحبة والأمانة ، وجاذب الاخلاص والمناصحة ، إذ كان يخرج كسائر الناس ، ويغشى الجامع ، ويختلط بالعامة ، وهو بدون خفير ولا قرين ، بل خفارته من ثقته بمحبة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله واجلالهم لقدره . وخلفه ابنه « بلعرب » وكان هذا محباً للعلم والعلماء . بنى مدرسة فى يبرين ، وجعل اقامته بها . وثار على بلعرب أخوه سيف ، وعضد هؤلاء الفقهاء ،

فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين أولاً ، ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب وكان هذا سخياً جواداً مواسياً للفقراء ، فلقبوه « أبا العرب » لكرمه فلما طالت الفتنة بينه و بين أخيه واضطرب حبله صاروا يلقبونه « بلا العرب » .

والناس من يلق خيراً قائلون له   مايشتهى ولأم المخطئ الهبل

وأخيراً استصفى سيف أكثر البلاد ، ولم يبق لبلعرب الا يبرين . و بينما أخوه يحاصره إذ قبض ، فاستراح واستراح بموته أخوه ، وصفا الوقت لسيف ، وتوفرت همته كأسلافه على مكافحة البرتغاليين ، فأجلاهم عن مومبازه Mombasa (ثغر من ثغور شرقى افريقية واقع فى جزيرة من سواحل زنجبار تملكها البرتغال ، ثم سلطان مسقط ، ثم سلطان زنجبار ، ثم سنة ١٨٩٠ استولى عليها الانكليز الذين هدموا بنيان هذه المملكة وورثوا أنقاضها وصارت مومبازه عاصمة لمستعمرة شرقى افريقية الانكليزية وفيها ٣٠ ألفاً من السكان) وعن جزيرة بمبا (هذه أيضاً جزيرة من سواحل زنجبار سكانها ٤٠ ألفاً صارت أيضاً تحت الحماية الانكليزية مثل زنزيبار) وغيرهما من الجزر والسواحل التى كان العمانيون قد أحرزوها فى شرقى أفريقية ، فجاء البرتغاليون وأخذوها من أيديهم فى نحو سنة ١٥٠٣ فكان استردادها على يد سيف بن سلطان فى سنة ١٦٩٤ .

واجتاح أسطول سيف جزيرة سلزيت ، بقرب بمباى الهند ، وكذلك مدينتى بارسالور ، ومانغالور ، ولم يقدر راجا كارنانيك أن يذب عنهما .

وكان سيف حكيماً ، مدبراً ، محبا للعمران ، بصيراً بالاصلاح ، فانتظم بادارته جمهور المرافق والمصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناجح ، وهو الذى شرع فى بلاده بحفر قنى المياه تحت الأرض لأجل الرى (نظير القنى التى بغوطة الشام منها فى قصبة دومة ومنها مابين الاشرفية وصحنايا ، ويوجد قناة من هذا القبيل طولها أكثر من ساعتين تفيض على جيرود فى القلمون الأدنى وغير ذلك) ويسمون ذلك فى بلاد عمان فلجاً . (الفلج بضم الفاء واللام فى اللغة الساقية التى تجرى الى البستان ، والفلج بفتحتين النهر الصغير) ففاضت الخيرات بهذه القنى ، وترقت الزراعة ترقياً بالغاً ، واعتنى سيف أشد الاعتناء بغراس النخيل ، واستجلب أصنافه ، و بالغ فى ذلك غاية الاعتزام وأمد الالتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ، ونعمة لاتحصى ، قيل انه كان يملك ثلث نخيل عمان ، وكانت حاضرة سيف مدينة

رستاق ، وتوفى بها فى ٣ رمضان سنة ١١٢٣ (١٧١١) وخلفه ابنه سلطان بن سيف وهو المعروف بسلطان الثانى .

فنقل هذا كرسى المملكة الى مدينة الحزم ، وانتزع البحرين من أيدى العجم الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٦٢٢ منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز . ومات سلطان تاركا ولدين : أحدهما اسمه سيف ، وكان يافعاً ، والآخر مهنا وكان بالغاً رشيداً . فانقسم الناس فى أمر الخلف ، اذ بعضهم أرادوا انتخاب سيف اماماً ، والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه وأرادوا مهناً ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع مهنا . وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة ، نافذ القول ، اسمه الشيخ عدى بن سليمان ، تدخل فى الأمر اتقاء الفتنة ، فنادى بسيف اماماً ، ولكنه كان يلفظ ذلك بفتح الهمزة فيقول « أمام » بدلا من « إمام » وسكن بذلك العامة ريثما انقضت تلك الهيعة ، فأدخلوا مهنا الى القلعة سراً ، وجعلوه إماما (١١٣١ - ١٧١٨) وكان مهنا على جانب عظيم من الحذق والمهارة ، وطول الباع فى الادارة ، فانه بدأ بجعل مسقط مرفأ حراً ، بأن أسقط فيها المكوس وسائر مايؤخذ على البضائع ، مما زاد حركة الأخذ والعطاء ، و بشر بمستقبل عظيم الا أنه افتلت بأمر لم يكن يفطن له ، وهو أن أهالى رستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الامامة ليعروب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا إلى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا ، فاعتصم بقلعة رستاق ، ثم داخلوه فى الأمان ، فأمن للثائرين وسامهم القلعة ، فلما حصل فى أيديهم باقوه وقتلوه (١١٣٣) وتولى الأمر يعروب فى البداية باسم سيف الصغير ، ثم جعل نفسه اماما أصيلا ، وأخذ حكما شرعيا من قاضى ذلك الوقت ، بأنه أحرز الامامة بحق ، وانه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب حتى ان الأموال التى اغتصبها هى حل له بحجة أن التوبة تكفر عن الذنب .

ولكن كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، فقام بلعرب بن ناصر بامر سيف الصغير وزحف الى رستاق ، ففر يعروب الى تروة ، وقتل القاضى عدى بن سليمان وطيف بجثته فى الأسواق . وتفاقمت الفتنة ، فتوسط أناس فى الأمر ، فتحول يعروب الى يبرين وأقام بقلعتها . وأقيم سيف بن سلطان إماما بكفالة عمه بلعرب ، وقيل انه لما جاءت وفود القبائل تهنئ الامام الجديد بالملك ، أساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بنى غافر

وقيل انه توعده ، فانصرف محمد هذا مغاضبا ، وداخل يعروب فى الاتفاق على سيف وعمه بلعرب . ثم انتقض محمدبن ناصر على الامام ظاهراً ، واستولى على رستاق ، ثم أسر الامام واستبقاه رهنا فى قبضته . ومازال أمره يقوى حتى دخلت جميع عمان فى حوزته ، ماعـدا مسقط وقلعة برقة . ومات فى أثناء ذلك يعروب الذى كان محمـد بن ناصر يقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس فى وجـه محمد بن ناصر سوى خلف بن مبارك المسمى « بالقصـير » بالتشديد . فوقعت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة ، فحاصره ابن ناصر فلم يقدر على أخذه ولست بقين من محرم سنة ١١٣٧ أو ٢ اكتوبر سنة ١٧٢٤ نودى بمحمد بن ناصر إماما فى نزوة . ولـكن خلفا بن مبارك بقى يجاذبه الحبـل . وزحف الى رستاق ، والنخل ، وصحار ، واستولى عليها ، فصمد اليـه محمد بن ناصر برجاله ، واشتعلت الحرب ، فوقع خلف قتيلا فى حصار صحار . و بينما محمد بن ناصر قد ظن أن الأمر قد اتسق له ، وانه تخلص من عدوه ، اذ أصابته رصاصة من جهة القلعة أودت بحياته . فرجع الناس الى سيف بن سلطان وبايعوه فى أول رمضان سـنة ١١٤٠ أو ٢ ابريل سـنة ١٧٢٨ وكان سيف بلغ سن الرشد وحكم القاضى بصحة إمامته شرعا .

وما مضى على ذلك مدة حتى قام اهالى الزاهرة وبايعوا ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاشتعلت الحرب بينهما فلم يقدر سيف ان ينال من ابن عمه وطرا ، فالتجأ الى نادرشاه صاحب فارس . وكان سيف بن سلطان محتاجا الى مشير يعتمد على رأيه فاشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاسـتقامة اسمه احمـد بن سعيد من عـترة يقال لها البوسعيد . فتولى هذا مدينة صحار واحسن ادارتها وحمد الناس طريقته ، فحسده سيف على المنزلة التى نالها فى قلوب الاهالى ، و اراد ان يقبض عليه الا ان الناس أصلحوا بينهما . ولـكن سيفا بقى يخشى ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاستمد العجم كما تقدم فانجدوه بجيش تقدم الى الزاهرة ومعهم سيف بجماعته فتغلبوا على بلعرب وافحشوا فى القتل والنـكاية ، حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه اهون من صداقة العجم ، فانحاش الى مسقط . ولبث العجم يجتاحون البلاد ويوقعون بالاهالى ، حتى قام بنو غافر على بلعرب واجبروه على التخلى عن دعواه فى الامارة ، ومبايعة سيف بدون منازعة . فلما اتفقت كلمة العمانيين ثقلت الحملة على الاعاجم ، فجلوا عن البلاد ، الا الجيش الذى كان امام صحار ،

فانه بقي يحاصرها . وفي هاتيك الاثناء قام رجل في مدينة النخل اسمه سلطان ابن مرشد من بني يعروبة ، فادعى الامامة (١١٥٠ - ١٧٣٨) وانتزع ا كثر البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جلتها مسقط . فاستغاث سيف بالعجم ثاني مرة ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار ان ضمنوا له الاستقلال بالامامة ، فسرح العجم جيشا الى مسقط استولى على البلد والحصون ، ولكنهم لم يسلموها الى سيف فذهب هذا الى بلدة الحزم ، ومات بعد ذلك بقليل . اما سلطان بن مرشد فمات على اثر جراحة اصابته في قتال العجم على صحار فلم يبق من الزعماء الا أحمد بن سعيد الذي كان له الفضل الاكبر في امتناع صحار ، واجلاء الايرانيين عنها . ثم ان احمد هذا لم يكتف بتخلص صحار حتى استولى على برقة وحاصر مسقط ، فارسل الايرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف الى الشاه يلتمسون منه الامر بتسليم حصون مسقط الى ماجد ، فاصدر الشاه الامر اللازم الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون اليه ، فوقع الأمر باتفاق غريب في يد احمد بن سعيد فابلغه الى الحامية وخرج هؤلاء على انهم سلموا الحصون الى احمد بن سعيد باسم ماجد ، والحقيقة ان احمد تسلمها بالخديعة . و بعد ذلك صنع وليمة عظيمة للايرانيين في برقة ، كانت نهايتها أن الاهالي هجموا عليهم و ذبحوهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل فارس ، ولما كان ملاحة السفن هم من العرب ، احرقوا السفن لاهلاك الايرانيين الذين كانوا منهزمين بها الى بلادهم ، وقذفوا هم أنفسهم في اليم ، ونجوا سباحة الى الشاطئ ومهارة العمانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة . وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عمان .

ولما تم استخلاص بلاد عمان على يد أحمد بن سعيد ، اجتمع الرؤساء والاعيان ببلدة رستاق ونصبوه اماماً (١١٥٤ - ١٧٤١) فاحسن التدبير ، وسن للمملكة قوانين مالية ، وتجارية واستبقى لنفسه امارة الجيش البرى ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الاسطول ، ونظم جيشا دائما . و بينما هو دائب في تدبير الامور اذ برز بلعرب بن حمير ودعا لنفسه ، واعصوصب حوله كثير من الناس ، فاراد أحمد بن سعيد ان يمتحن قومه و يعلم هل يثبتون معه الى الآخر ام لا ، فتخبأ في كسر بيت عند احدى العجائز ، وشاع خبر موته فاشتد عزم بلعرب ، وذهب بعشرين الف مقاتل يحاصر نزوة ، فبرز أحمد بن سعيد من مخبأه فوجد قومه على ولائهم له ، فزحف الى بلعرب بجيش كثيف وتغلب عليه وسقط بلعرب قتيلاً في

المعركة . وسنة ١١٧٠ وفق ١٧٥٦ استولى العجم على البصرة ، فذهب أحمد بعشر سفائن حربية تجر عددا كبيراً من القوارب حمل عليها ١٠ آلاف مقاتل ، وهزم الايرانيين ، ونصر الدولة العثمانية نصر مؤزرا ، فسرت الدولة منه واجرت عليه راتباً سنوياً كان لا يزال جارياً على ائمة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان من جملة اسطوله طراد اسمه « الرحمانى » هو الذى كسر سلسلة الحديد التى وضعها الايرانيون فى شط العرب ، لمنع اسطول عمان من الدخول الى البصرة ، فارسله أحمد ابن سعيد الى مانغالور فى جنوبى الهند سائلا عن السبب فى حجز مؤونة الارز التى كانت ترد عمان كل سنة ، فاستقبل تيبو صاحب عامل السلطان اعلم فى مملكة غرناتيك ، مندوب امام عمان بكل حفاوة ، واخبره ان السبب فى ذلك هو من متلصصة البحر الذين بساحل المالابار ، فقصدهم الطراد الى ديارهم وقتل زعيمهم .

وكانت بلاد الزاهرة بمكانها من داخلية البلاد لم تخضع تماماً لأحمد بن سعيد . وكان علو الكلمة فيها لبنى غافر ، فثار فيها أحدهم ناصر بن محمد واشتعلت الحرب بينه و بين أحمد ، فساق عليه هذا عساكره من العمانيين ومن المرتزقة من البلوجيين والمكرانيين . فانكسروا وأخيراً تصالح الفريقان على أن تبقى بلاد الزاهرة فى يد بنى غافر ، و يعترفوا بسيادة اسمية للامام أحمد بن سعيد . وكانت قلعتا النخل والحزم لاتزالان فى أيدى بنى يعروبة ، فحاول انتزاعهما من أيديهم بدون جدوى . ولم يكف كون بنى غافر مستقلين بالزاهرة و بنى يعروبة مالكين بعض الحصون حتى ثار على أحمد ولداه سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة برقة ، ثم تماديا فى الجرأة حتى أخذا الحصون التى بظاهر مسقط ، ولكن أحمد أخذ هذه المسئلة بالتؤدة وانتهت بينه و بين بنيه بسلام . ومات هو فى ذى القعدة سنة ١١٨٨ أو يناير سنة ١٧٧٥ وقد ملك مدة ٣٤ سنة كريتا . وكان خلاص عمان من غارة العجم على يده . وكانت الامامة فى عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج . والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة والجماعة أيضاً ، ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكا عضوضاً الى مبايعة الوارث الذى يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك فى عمان أيضا ، فبعد أحمد بن سعيد تولى ابنه سعيد . وكان بعض الأهالى فضلوا ابنه هلالاً لفضل ذكائه وحذقه ، الا انه كان كفيفاً ، فأقرت أكثر البلاد بامامة سعيد ، ثم

غاظ الأهالى من سعيد كثرة ماقارف من الاحتكارات ، وأحدث من البدع ، فأرادوا خلعه ونصب أخيه قيس الذى كان فى صحار ، فلم يتسق لهم ذلك . الا ان حامداً بن سعيد استولى على مسقط وعجز أبوه عنه ، و بقى إماماً بالاسم فقط فجعل حامد مسقط هى العاصمة بدلاً عن رستاق ، وعظمت مسقط فى أيامه ، وتولى الأمر عشر سنوات ومات فى ١٨ رجب سنة ١٢٠٦ وكان وقع خلاف بينه و بين عمه سيف ، وفصل سيف هذا الى مستعمرات عمان فى شرقى افريقية ، فتتبعه حامد الى هناك ثم مات سيف وعقب ذلك موت حامد وكان سعيد الامام الأصلى لايزال حياً ، فاسترجع الأمر الى يده بوفاة ابنه المتغلب عليه . ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين اخوته وأولاده ، وصار بعضهم يقاتل بعضاً . وانتزع سلطان أخوه مدينة برقة من يد على بن هلال . ، ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور . وسنة ١٧٩٨ فى ١٢ أغسطس انعقدت معاهدة بين شركة الهند الانكليزية و بين سلطان على بعض مسائل تجارية ، وتبعها معاهدة أخرى بينه و بين الانكليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بموجبها يحق لانكلترة اقامة معتمد بمسقط .

وأخذ سلطان يمدّ سلطته فى البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغرى السويق والمصنع وافتتح جزائر قشم ، وهورمز ، والبحرين فى الخليج الفارسى ، وجعل ابنه سالماً أميراً عليها . الا ان قبيلة العتوب التى كانت تلى أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها ، وفى هاتيك الايام غزا الوهابيون عمان ، واجتبوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية ، ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب ، وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد فى المقيم المقعد ، فعقد مجمعاً قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية عجل بالانصراف ، وظهر ان الأمر استوسق لسلطان . الا انه بقضاء الله وقدره هالك بعد ذلك بقليل فى قصة عجيبة ، وهى انه زار البصرة و بينما هو قافل منها ، نزل من سفينته فى مرسى لنجة وركب قارباً قاصداً بندر عباس ، وكان الوقت ليلا ، فالتقاه ثلاثة قوارب عليها رجال من بنى الشويحى سكان رأس موسى نديم ، فأرادوا أن يقبضوا عليه ، فتقاتلوا ثم أرجأوا البراز الى الصباح ، فبينما كان سلطان بشدة بأسه وابسال نفسه على وشك الظفر بهم ، إذ فالته أحدهم بضربة كانت القاضية ، وذلك فى ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

وكان سعيد لايزال فى رستاق على امامته الاسمية ، وكانت البلاد أشبه بالفوضى ، والأمراء كانوا متعددين ، عدا كون الوهابيين لهم جند فى «البريمى» . وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان فى لم الشعث ، وجمع الكلمة ، فأجمعا أخيراً على استصراخ فتح على شاه صاحب فارس ، وتعهدا له بتقديم المؤونة اللازمة للتجريدة التى يريدانها ، فأمدهما بثلاثة آلاف فارس ، ركبت البحر من بندر عباس الى برقة ، وهناك وقع القتال بينها و بين الوهابيين فلم يفز أحد بالآخر .

وكان قرصان رأس الخيمة الذين يقال لهم القواسم ، قد تمادوا فى العيث ، وطالما اكتسحوا سواحل الهند ، فأرسلت شركة الهند الانجليزية أسطولاً دمر وكرهم فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٩ وساقت رئيسهم حسناً بن رحمة أسيراً . و بعد ذلك استعان السيد سعيد بالانكليز على أخذ قلعة شيناس التى كانت تصدر منها الغارات على بلاد صحار ، فتمكن سعيد من القلعة فى ١ يناير ١٨١١ وقفل الانكليز الى الهند بعد أن نصحوا سعيداً بالقفول الى بلاده ، فلم يتقبل النصيحة فوافاه مطلق المطيرى قائد الوهابيين ، فهزمه وألزمه دفع الزكاة السنوية لابن سعود .

ولما خضد ابراهيم باشا ابن محمد على صاحب مصر شوكة الوهابية ، وأخذ الدرعية سنة ١٨١٨ تخلص سيد عمان من حكم هؤلاء ، وغزا جزيرة البحرين فصده العتوب أصحابها عنها وقتلوا أخاه وجمعاً من أصحابه . وكان قرصان رأس الخيمة عادوا الى عيثهم ، فغزاهم الجنرال كير Keir الانكليزى من بمباى بقوة ، وظاهره عليهم السيد سعيد ، فانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الانكليز وحليفهم سيد عمان من جهة و بين زعماء رأس الخيمة وجوارها من جهة أخرى . وسار السيد وحلفاؤه الانكليز لقتال عرب جعلان الذين كانوا نبذوا مذهب الاباضية وتوهبوا ، وكان مع السيد ثمانية مدافع والفا بدوى ، فكسرهم الجعلانيون وجرح السيد سعيد فى يده (٩ نوفمبر ١٨٢٠) .

وفى ذلك الوقت توفى الامام سعيد بن أحمد بن سعيد الذى هو آخر من لقب من رؤساء عمان بالامام ، وهو عم سعيد الذى اصطلحوا على تلقيبه بالسيد وأخيه السيد سلطان الذى كان عضداً لأخيه السيد سعيد . ولم يحدث موت الامام سعيد فراغاً كبيراً لأن أمر عمان كان بيد سعيد منذ مدة طويلة . وتوفرت همته على توسيع مستعمرات عمان فى

سواحل افريقية الشرقية فذهب الى جزيرة زنزيبار ، وغزا جزيرة مومباسه بقوة عظيمة ، وما زال يشدد عليها القتال حتى افتتحها ، وعالج فتوح بلاد أخرى فاغتنم فرصة غيابه الطويل بعض أعدائه مثل القواسم ، فرفعوا رؤوسهم واستولوا على بعض المراسى ، وأخذ حمود بن عزان صحار وهلال بن محمد بلدة السويق . واضطر السيد سعيد الى استمداد حلفائه الانكليز فأرسلوا أسطولاً الى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم ، ووقع القتال بين السيد سعيد وابن عزان على صحار ، واستعان سعيد على هذا بالوهابيين ، وبعد وقائع يطول شرحها دخل الانكليز بينهما ، وأخذوا من ابن عزان عهداً بأنه لا يأتى بحركة . ولكن لم تمض مدة حتى أراد هذا أن يوسع اطاعه فنصحه الانكليز بالسكون . وكان ابن عزان قد اعتزل الامر وترك صحار فى يد ابنه سيف ، فامتنع هذا من ايتائه جانباً من الخراج لمعيشته واشتد الجفاء بينهما الى أن ائتمر ابن عزان وبعض خواصه بابنه سيف وقتلوه ، فأرسل السيد سعيد الى ابنه توينى بان يقبض على حمود بن عزان ويطلس به فى السجن ، فقبض عليه واعتقله فى قلعة حيث مات . وخلف حمود على صحار أخوه قيس ، وأراد أن يرفع رأسه فزحفت اليه جموع سعيد ، واضطرته الى الطاعة ، وانما عوضه السيد سعيد من صحار بولاية رستاق على أن ينصح فى الخدمة ويقلع عن الجبر والخنزوانة وكان ذلك سنة ١٨٥٢ .

وعام ١٨٥٤ احتل العجم بندر عباس ومواقع أخر من ساحل كرمان ، واجلوا العمانيين عنها بعد أن شغلها هؤلاء نحو مائة سنة بحجة انهم مستأجرون أرضها ، واحيانا بقولهم انهم ينوبون فيها عن شاه العجم . فشق ذلك على السيد سعيد وأرسل قوة تحت قيادة ابنه توينى استردت بندر عباس وغيرها ، فارسل ناصر الدين شاه قوة كثيفة من الداخل ومنع الانكليز السيد سعيداً من امرار جنود فى البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم بحجة انهم لا يسمحون بحركات حربية فى ذلك البحر . فسقط فى يد السيد سعيد واضطر الى مصالحة العجم فى شعبان سنة ١٢٧٢ أو ابريل سنة ١٨٥٦ وترك لهم جزيرتى هورمز وقشم وغيرهما . ومات سعيد بعد ذلك على ظهر بارجة كانت ذاهبة به الى زنزيبار (١٩ اكتوبر ١٨٥٦) وقد خلف ١٥ ولداً ، فدعا ماجد الرابع من أولاده لنفسه ، وكان توينى بكر أولاده والى عمان فى حياة أبيه ، فوقع الخلاف بينهما وانتهى أول مرة بان يبقى

ماجد سلطاناً على زنجبار و يؤدى اتاوة سنوية الى أخيه توينى فى مسقط . ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز توينى اسطولاً عظيماً لغزو زنجبار ، و بلغ الخبر الحكومة الانجليزية فتوسطت فى الأمر وحكمت اللورد كانينغ Canning والى الهند الاعظم فيما شجر بين الاخوين ، فتقرر انه لما كان الانتخاب هو أساس السلطة عند الاباضية فان أهالى زنجبار قد اختاروا ماجداً اماماً لهم ، كما ان اهالى عمان قد اختاروا توينى ، فيكون كل منهما سلطاناً فى محله . و يؤدى ماجد اتاوة سنوية الى أخيه بدلاً من حقوق عمان على زنجبار وافريقية الشرقية (سنة ١٨٦٢) وهكذا انحسمت هذه الفتنة . ولكن جدّت فتنة ثانية ، وثالثة ، وصار توينى على حد قول القائل : كلما داويت جرحاً سال جرح . فان تركى ولد سعيد الثالث كان والياً فى صحار ، فثار باخيه توينى وألجىء هذا الى استصراخ الوهابيين لقمع ثورته . وسنة ١٨٦٤ نزى عزان بن قيس على توينى واعلن الطاعة لابن سعود ، ولما كان الانكليز يعلمون ان الوهابية دعوة وان الدعوات الدينية لا سيما الى مبادئ السلف من الاسلام يخشى منها ، اهتموا بصدهم عن بلاد عمان ، وامدّوا توينى بالمدافع والاعتاد ، وأشاروا الى رؤساء البلاد بان ينضووا تحت لواء السيد توينى ، على شريطة ان لا يسيروا برجالهم بحراً - قد سبق لانكلترة هذا المنع فى النزاع الذى وقع بين ناصر الدين شاه والسيد سعيد ، فكأن انكلترة لا تطيق ان ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلاً واحداً ان لم يكن تحت رايتها -

ثم ان توينى بن سعيد وجد مقتولاً ، قيل اغتاله بعضهم وهو نائم بمؤامرة ابنه سالم وجلس سالم مكان أبيه وتودد الى الانكليز ، واعترف هؤلاء به أميراً بحجة انه لم تثبت عليه تهمة قتل أبيه ، و بأن أهالى البلاد قد بايعوه ، فليس للغريب أن يدخل فيما لايعنيه . أما تركى أخو توينى فانه أخذ بمناوأة ابن أخيه ، واستولى على صحار والمطرح ، وكاد يدخل مسقط لولا كون الانكليز أرسلوا بارجة حربية وقفته عند حده ، ثم أخذوه الى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقاً يقوم بأوده . ثم ثار السيد حامد بن سالم من أبناء عمومتهم ، و بعد وقائع بينه و بين سالم جرى الصلح بينهما . ثم انتقض عزان بن قيس ودخل مسقط ، ففر سالم منها والتمس من المعتمد البريطانى فى خليج العجم امداده ليعود الى كرسى حكمه ، فأبى المعتمد المشار اليه اجابة طلبه ، فحاول استرداد مركزه بقوته الخاصة ، فلم يفلح وظهر

أن الانكليز قد خذلوه ورجحوا عليه تركى أخا توينى ، الذى كان مقيما بالهند كما سبق ، فجاء من بمباى الى مسقط وتسلم زمام الامارة ، وطرد عزان بن قيس ، وكان الوهابيون ردءا له فى حركته هذه واستوسقت له الأمور منذ سنة ١٨٧٤ وحصلت وقائع بينه و بين أهالى بلاده فتغلب على الثائرين بعضد انكلترة التى صارت هى ذات الحول والطول فى القطر العمانى . وسنة ١٨٨٨ خلفه ولده السيد فيصل بن تركى ، وذلك بموافقة انكلترة التى أصبح أمير مسقط لايصدر الا عن رأيها ، وهى منذ سنة ١٨٧٣ أخذت على نفسها دفع الاتاوة السنوية المفروضة على زنجبار لمسقط ، وصارت بمثابة الولى على هذه البلاد .

ولما كانت انكلترة منذ وضعت يدها على مصر طمعت فى الاستيلاء على جزيرة العرب بأسرها ، وعملت لذلك برنامجاً خفياً منذ مدة مديدة ، تحقق منه قسم والقسم الثانى هى شارعة فى تمهيد عقباته ، وكانت ترى أن أعظم عامل فى استيلائها على مصر وعجز أهالى هذا القطر عن دفعها عنه بوجه من الوجوه ، هو فقدهم للسلاح المادى الذى هو واسطة الدفاع الوحيدة ، فقد باشرت مشروع تقليم أظفار العرب ، وحظرت على تجارها بيع الأسلحة من أهالى اليمن ، مع كونهم يومئذ تابعين للدولة العثمانية ، و بديهى أن ذلك ليس لأجل تسهيل ادارة اليمن على الدولة العثمانية ، بل لأجل تسهيل استيلاء انكلترة على اليمن فى أول فرصة تقع ، وحرمان قبائل اليمن من أسباب الدفاع عن حوضهم ، عند ماتريد العساكر الانكليزية أن توغل من عدن ولحج الى داخل اليمن . وقد أرادت أن تجرد من السلاح أيضا قبائل العراق التى كانت اطماعها تحوم حوله من قبل الحرب العامة بزمن طويل ، فكانت ترسل من قبلها من يبتاع البنادق من عرب العراق ، و يؤدى الى البدوى عن البندقية الواحدة ضعف ثمنها ، والبدو لايعلمون ماوراء الاكمة ، ولا يشعرون بماهو مخبأ لهم وراء هذه المكايد الخفية من الائتمار بكيانهم ، والعمل لنزع كل وسيلة لحفظ استقلالهم . وقد نبهنا الأمة العربية مراراً فى مقالاتنا العديدة منذ بضع عشرة سنة الى السر الحقيقى فى منع بيع السلاح من أهل اليمن ، وفى انتزاع البنادق الحديثة الطراز من أيدى عرب العراق بصورة الشراء . وكان يحول دون سماع النصيحة الجهل الفاشى ، والغفلة المطبقة من جهة ، وسعى اجراء الأجانب فى البلاد العربية ، والضاربين على أوتار الانكليز ممن يدعون أنهم من مفكرى العرب فى ترويج السياسة الأجنبية الاستعمارية من جهة

أخرى . ولقد كشفت نتيجة الحرب العامة حقائق تلك الدعاوى والحمد لله ، وفضحت أسرار تلك السياسة الخفية ، وعرف كل من عنده حصاة من عقل مرمى الدول المستعمرة من تجريد العرب من السلاح ، وكونها انما تريد منذ زمن طويل أن تطبق فى جزيرة العرب سياستها فى مصر ، وان لم يتسق لها أن تؤسس لخفر السواحل العربية ادارة كادارة خفر السواحل المصرية ، وتفحش فى مجازاة من توجد عنده بندقية ممنوعة ، وتجزل مكافأة كل من يخبر بوجود بندقية ممنوعة عند جاره ، فانها كانت ولاتزال تنوى الوصول الى هذه الغاية من سبيل أخرى ، الى أن يتيسر لها فيما بعد تطويق جزيرة العرب كلها بادارة خفر فعلية ، تمنع وصول أى سلاح الى العرب ولو من طريق الجو . ولقد كان من جملة مواد معاهدات الحلفاء فيما بينهم بعد الحرب العامة ، منع تسريب السلاح ، وحظر بيع السلاح الى كل مملكة من ممالك الأعداء بتاتاً ، ولما رأوا أنه قد يعترض عليهم بأن مملكة الحجاز مثلا هى من جملة ممالك الحلفاء ، وان مملكة العجم ، ومملكة عمان ، ومملكة أفغانستان مثلاً ، وان لم تكن من ممالك الحلفاء فليست من ممالك الأعداء ، والحال أن الدول الاستعمارية تعد جميع البلاد الاسلامية بدون استثناء ممالك أعداء ثم انه يجوز أن هذه الممالك تسعى فى شراء أسلحة من أوروبا فيصعب فيما بعد ابتلاعها أوكسرها ، فقد احتاط الحلفاء لذلك بوضع مادة فى تلك المعاهدة قيل فيها « ويمنع بيع الأسلحة أيضاً من الممالك التى مدنيتها من الدرجة الثانية » فدخلت فى حكم هذا المنع جميع الممالك الاسلامية الباقية على الاستقلال تماما أو نوعا . والمقصود من ذلك غير خاف ولا على الطفل الصغير وهو ان البلاد الاسلامية صديقة للحلفاء أوعدوة لهم محكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلايجوز لها أن تسلح . وأما مملكة عمان فقبل الحرب العامة بسنتين حاولت انكلترة تجريد أهلها من سلاحهم حتى تريح بالها من جهتهم ، وتأمن كل انتقاض فيما لو زادت بسط سلطتها عليهم ، فأوعزت الى تيمور أمير مسقط بجمع الأسلحة من أيدى الأهالى ، وأصرت عليه بذلك . فلما حاول هذا الأمر انتقض عليه الأهلون ، وبايعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب ، وزحف الثوار الى مسقط وحصروا الأمير ، وكادوا يوقعون به لولا أن وردته نجدة انكليزية حفظت له حياته ، وصدت الأهالى عن مسقط ، ولم تنته هذه الفتنة التى استمرت نحو سنتين الا باقلاع الأمير عن فكرة جمع السلاح ، واقتناع انكلترة بان

سهمها فى هـذه القضية طائش عن المرمى ، وانها لاتقدر الا على منع دخـول السلاح من طريق البحر ، فأما أخـذ الأسلحة من أيدى العرب فى أرضهم فليس من الأمانى الانـكليزية التى يمكن تحقيقها .

هـذه مملـكة عمان التى كانت أقوى دولة بحرية فى آسية ، لافى بلاد العرب وحـدها والتى قرأت فى بعض المؤلفات الأوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ بارجة حربية ، قد آل أمرها بتلاعب انـكلترة بأمورها الى أن سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجوناً وصارت امارة صغيرة لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا يقدر أميرها أن يأتى بأمر مهما كان تافهاً الا اذا أشار به المعتمد البريطانى . فنزف هذه الحقيقة الى أولئك البله الذين من أبناء جلدتنا لا يزالون يحلمون بأن انـكلترة لابد أن تؤسس لهم دولة عربية . . . .

وأما زنجبار والمستعمرات التى كانت لعمان فى شرقى أفريقية ، فقد تقاسمتها انـكلترة مع ألمانيا وايطالية ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنزيبار سوى اسم السلطنة فقط . وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من أخصب البقاع ، وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ، ومعاصر الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ، ومن الواحاديمو أى أهـل الجزيرة الأصليين ، ومن البانيان أى الهنود الشماليين . وكانت زنزيبار مع جزائر بمبا Pemba ومافيه Mafia ولامو Lamou والسواحل الافريقية المقابلة لها مملـكة عربية ، أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط ، بعـد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون ، فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانـكلترة سلطنة زنزيبار التى هى عبارة عن جزيرتى زنزيبار و بمبا وما يقابلهما من الساحل من « اوانغا » Auanga الى كيسمايو Kismayou .

وأن يكون لألمانيـة جزيرة « مافيه » والساحل الذى بين اومبه Oumba ورافومه Ravouma وأن يكون لايطالية بعض ثغور فى السواحل .

وأهم هـذه النقاط هى زنزيبار ، وفى الجزيرة مدينة باسم زنزيبار أيضاً أهلها ١٠٠ ألف نسمة وهى مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادرها ووواردها بنحو ٦٠ مليون فرنك وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً وأثلوا مدينـة وشادوا مدارس . وقرأت بعض

أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية فى زنزيبار .

وخاتمة سلاطين زنجبار اسماً وفعلاً ، كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الأمر فى ٧ اكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، و بقى فى الملك الى أن توفى فى ٧ مارس سنة ١٨٨٨ ، وكان برغش قد نازع أخاه ماجداً الملك وأخذه الانكليز الى بمباى حيث أقام سنتين ثم تصالح مع أخيه وعاد الى زنزيبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسى الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانية العظمى أى مآربها الاستعمارية . وفى ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٥ أجبرته انكلترة على امضاء معاهدة الغاء الرقيق فى بلاده ، فأمضاها ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترة فزارها ، وزار فرنسا والبرتغال . وفى سنة ١٨٨٥ ألقت ألمانية دلوها فى الدلاء وأرادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التى كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، و وضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية . وقبل وفاته بقليل اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيه ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى مابعد وفاته حتى جرى التحديد بين الالمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفى آخر حياته ذهب الى وطنه الأصلى عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنزيبار ومات وخلفه أخوه خليفة .

وكان برغش متوقد الذهن ، عالى الهمة ، صعب المقادة ، أبىّ النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للاوربيين الذين كانت لاتخفى عليه مقاصدهم ، وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة فى تلك الجزائر الخصيبة ، والسواحل الطويلة العريضة الا بالاسم ، لأن الاوربيين لاسيما الانكليز التزموا هدم أركان القوة العربية فى تلك الديار ، حتى لايبقى لهم معارض ولا منازع فى استعمارها ، وكما انهم أوهنوا الأصل الذى هو عمان ، فقد أسقطوا الفرع الذى هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جوانب الاوقيانوس الهندى هى قذىً فى أعينهم ، وخطر على الهند فى نظرهم ، ويجدون انهم لايقدرون أن يعلوا فى تلك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل : ــ

وكم قائل مالى رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

وسيأتى ذكر سواحل زنجبار ومستعمرة الشرق الافريقية التى كانت لالمانية ثم انتقلت الى يد انكلترة وجزائر القومور مما كان الحكم فيه كله للعرب فابتزته منهم الدول المستعمرة الأوربية .

البكطاشية

للأمير شكيب

البكداشية أو البكطاشية[١]، طريقة من الطرق الاسلامية ، تنسب الى أحد الأولياء المسمى « الحاج بكطاش ولى » ، الذى يقولون انه ولد « بنيسابور » وجاء الى الاناضول ، وهدى الانكشارية الى الاسلام ، فى زمان السلطان « أرخان » ، وكانت له كرامات وخوارق عظيمة ، وهو الذى أسس الطريقة المعروفة به . ولكن كثيراً من المحققين يرتابون بوجود الحاج بكطاش هذا ، ويقولون ان المؤسس الحقيقى لهذه الطريقة ، هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هجرية ، والذى يلقبه الدراويش البكطاشية بالقطب الثانى . ولقد ثبت وجود هذه الطريقة منذ أوائل القرن السادس عشر للمسيح فى الاناضول ، ثم انتشرت فى الروملى وأكثر من مال اليها أمة الأرناؤوط ، حتى يقال ان أكثر هذه الأمة بكطاشيون . وان الفرقة المعروفة بالاناضول ، وببلاد الأكراد بقزل باش أو على الهى ، هى على عقائد تشابه مذهب البكطاشية وان كان هؤلاء جميعاً يدعون كونهم من أهل السنة والجماعة ، فالحقيقة ليست كذلك ، وهى انهم من غلاة الشيعة ، يعتقدون بامامة الاثنى عشر من آل البيت ، ويعظمون كثيراً جعفر الصادق ، ويقولون بالأربعة عشر ولداً معصوماً ، الذين أكثرهم ماتوا شهداء من أولاد على . ويزورون قبور الأولياء ، ويصلون ويدعون عندها. ويزعم مؤرخو الافرنج انه لابد أن يكون البكطاشيون فى الأصل نصارى ، بحجة ان عندهم التثليث ، وذلك بقولهم : « الله : محمد . على . » وان عندهم نوعاً من الاعتراف بالذنوب يذهبون الى مشايخهم ويسردون لديهم ذنوبهم ، والشيخ يحل من الذنب نظير القسيس عند النصارى. وهم يبيحون الخمر ، والنساء لايسدلن النقاب ، وكثير من البكطاشية يتبتلون ويعيشون مجردين من الأزواج ، مما جميعه يدل على كون أصل هذه الطريقة غير اسلامى وأكثر المتبتلين منهم كانوا ينقطعون فى تكية « قيزل دلى سلطان » بقرب « ديموطوقة »

---

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

من ولاية أدرنه . و يعتقد البكطاشية بالعدد لاسيما عدد أربعة ، و يقرأون كتاب فضل الحروف المسمى « باجاويدان » و يقولون بالتناسخ ، والشائع عنهم انهم لايقومون بفرائض الدين الاسلامى ، فلا صلاة . ولا زكاة ، ولا صوم ، ولا حج ، وانهم وقد رفعوا هذه التكاليف ، بحجة انها تجب على المبتدئ لا المنتهى ، وانه بعد الوصول يصبح الانسان فى حل منها .

والشيخ الأكبر للطريقة يقيم بتكية « بيرأوى » أى بيت القطب ، فى المحل الذى يقال له « حاجى بكطاش » بين « قيرشهر » و « قيصرية » . وليست هذه الرئاسة ارثية فى الأصل ، وانما هى منذ ١٥٠ سنة فى بيت واحد تنتقل من الأب الى الابن ، وللبكطاشية المتبتلين شيخ كبير أيضا ، مركزه التكية المسماة « مجرد بابا سى » أى « أبو المتبتلين » . و يسمى شيخ كل تكية « بابا » ، والدرويش المقيم بالتكية « مريداً » والعامى الذى له تعلق بالطريقة « منتسباً » .

وكان للبكطاشية شأن كبير ، وكانوا على رَباعهم فى أيام « وجاق الانكشارية » الذين كان البكطاشية لهم شيوخاً ومرشدين ، حتى أصبح اسم « بكطاشية » يطلق على الانكشارية كلهم . وكان فى ثكنة الأورطة الرابعة والتسعين ، وكيل مقيم للطريقة معروف رسماً ، لذلك كان كلما ثار الانكشارية يشترك مريدو الطريقة البكطاشية معهم فى الثورة الى سنة ١٨٢٦ ، إذ استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية ، فانقضت صواعق نقمته على جماعة الحاج بكطاش ، فتهدم قسم كبير من تكاياهم ، لاسيما ماجاور منها الاستانة وقتل بعض رؤسائهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية « مردفان كوى » .

ثم استأنفت الطريقة البكطاشية بعض ما كان لها من الشأن والحول ، ولها من التكايا فى الاناضول غير مركز القطب الأكبر ، وغير تكية المتبتلين تكية « عثمانجق » فى الشمال . وتكية بقرب ضريح الشيخ بطال ، من جوار اسكيشهر ، و يقال ان لها تكية بجبل المقطم بمصر .

البابية

لامير شكيب

البابية، نسبة الى «الباب»[١]، طريقة شهيرة، ظهرت فى بلاد العجم، بل هى من أشهر الفرق الاسلامية التى ظهرت فى العصر الأخير، وتميزت بكون أتباعها لم ينحصروا فى الشرق والعالم الاسلامى، بل وجد منهم فى أوربا وأميركا أيضا. ولفظة الباب متداولة كثيراً عند الصوفية، وعند بعض الفرق الباطنية، يطلقونها على بعض أركان دعوتهم، بمعنى أنهم هم واسطة الدخول، وسبب الوصول، من قبيل قوله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلى بابها.» والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد فى داخل البناء من البدائع والنفائس وحزرات الأنفس، مما كان يبقى مجهولا عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب فالباب عند المتصوفة وعند هذه النحل، هو رمز الدخول، والابتداء، والواسطة والملح، والمعرفة، وجميع أنواع المقاصد العالية، وقد شاع استعمال لفظة الباب فى هذه المقامات كلها عند جميع الأقوام الذين يعتمدون على اللغة العربية، وامتد الى غيرهم. «فالباب العالى» هو مكان الوزارة، لأنها هى الواسطة بين الراعى والرعية. والكتاب المؤلف يقسمونه الى أبواب، فيقولون الباب الأول، والباب الثانى، والباب العاشر، والباب العشرون، اذ بهذه الابواب يطلع القارئ على ما يتضمنه الكتاب. ويقولون أبواب الرزق، بمعنى وسائله، وأبواب الخير بمعنى الطرق المؤدية اليه، وقولهم: «يامفتح الابواب» يعنون به ياميسر الاسباب. والفقراء يقفون عند أبواب الكبار وأبواب الملوك، والسائل الذى يستجدى ويتكدى يقال انه «على باب الله» وقد أخذ الطليان هذه الجملة من العربية فى لغتهم «Ala Baballa» بمعنى السائل. والحاصل ان الباب من أكثر الالفاظ العربية تداولا، وقد كنى بها الكثيرون عن الوسيلة والواسطة، ولكن لم يشهرها أحد بمثل ما شهرها به السيد على محمد الشيرازى، الذى سمى نفسه «الباب»، بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية، وتبعه اناس تلقبوا من أجله بالبابية.

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ولد السيد المشار اليه فى غرة محرم الحرام سنة ١٢٣٦ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ وتوفى والده وهو صغير ، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ الرشد ، فشرع يشتغل بتجارة والده ، ولكنه منذ نعومة أظفاره كان مغرما بالبحث فى الامور الاعتقادية ، نازعا الى النسك ، حتى قيل انه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال فى عين الشمس حاسراً عن رأسه . ثم زار كربلاء ، ولقى هناك بعض رجال الطريقة الشيخية ، فتلقى عنهم ، وسمعت انه أخذ عن رجل يقال له الشيخ البحرينى . ولما عاد الى شيراز شرع يقرأ فى المساجد ، ويحمل فى الجدال على رجال الدين ، فمال كثيرون الى مذهبه ، وحطبوا فى حبله ، ثم ذهب الى الحج من طريق أبو شير ، فسقط فالبحر الاحمر . وأثناء رحلته الى الحج الف بعض رسائل يقال ان اتباعه يعتقدون ما فيها وحياً أو الهاماً . ومن جملة ما نسب اليه انه قال ان عليا هو قبل نبيل . ونبيل هو عندهم اسم محمد ﷺ وقد أطلعنى بعض أدباء العجم على مؤلف بالعربية لا أعلم درجة مطابقته لتعاليم البابية ، لاننا تعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقا أو غرباً وفى الاسلام أو فى النصرانية ، انه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيهة . يقول فى ذلك المؤلف ان الانبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ، وبعد آدم نوح ، وبعد نوح ابراهيم ، وبعد ابراهيم موسى ، وبعد موسى عيسى ، وبعد عيسى محمد (صلوات الله عليه وعليهم جميعاً) وبعد محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية . فما انتشرت تعاليم الباب حتى ثار الناس وكثرت القالة ، وكرث الامر الحكومة الفارسية ، فأرسلت رجلا يقال له يحيى الدارابى للتحقيق عن هذه العقيدة الجديدة ، فذكروا أنه هو نفسه اعتقد بها وتحول بابيا ، ثم ظهر وباء الريح الاصفر فى شيراز فبرح أكثر الاهالى المدينة ، وتحول الباب الى اصفهان ، وكان حاكمها رجلا يقال له « معتمد الدولة » فألقى الله فى قلبه الرحمة على الباب فدفع عنه الاذى بقدر استطاعته ، الا أنه توفى بعد ذلك بقليل ، فصدر الامر خلفه بالقبض على الباب واعتقاله ، فأرسلوه الى قلعة « ماكو » باذربيجان .

وكان رجل يسمى حسين البشروى ، قد تبع مذهب الباب ، وأخذ يبث له الدعوة ، فكان ممن قبلوا هذه الدعوة فى طهران الاخوان « ميرزا يحيي نورى » الملقب بعد ذلك

« بصبح أزل » و « ميرزا حسين على نورى » الملقب فيما بعد ببهاء الله ، وهما فرعان من دوحة كريمة وكذلك خاتون اسمها « زرين تاج » ولقبها « قرة العين » كريمة الملا صالح البارا كانى من قزوين كانت بارعة فى الجمال متناهية فى الذكاء ، اتبعت المذهب البابى على أثر مراسلات سبقت لها مع الباب . وأخذ يستفحل شأن الباب شيئا فشيئا حتى أجمع اتباعه على عقد اجتماع للتشاور فى بدخت من خراسان ، وعقب هذا الاجتماع أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا المدافعة عن أنفسهم بالسلاح ، واعتصم الملا حسين البشروى فى مقام الشيخ الطبرزى فحاصره جند الحكومة، وهلك فى اثناء الحصار واشتد الضيق بالبابية المحصورين ، وعضهم الجوع بنابه ، فطلبوا الامان ، ولكن لم يكادوا ينتهون من الاتفاق على التسليم ، حتى غدر بهم الجند فذبحوهم على بكرة أبيهم (١٢٦٥ هجرية).وثاروا فى بلدة يقال لها زنجان،واستولوا على قلعة على مردنخان،وجعلوا لانفسهم متاريس ، و لكنهم اخيراً استسلموا الى جند الدولة . وذهب يحى الدارابى الى ناريز ، وكان ، اهلها ناقمين على الدولة أموراً فانضموا اليه واعتصموا بالقلعة . ووصل بعض البابيين الى شاه العجم قاصدا قتله ، وكأن الله اراد موته على يد واحد منهم لكن فى اجل آخر اما فى المرة الاولى فانه أصيب بجرح ، وحماه اجله من الموت ، وعند ذلك صحت عزيمته على النقمة ، واشتغر الامر ، وكان ذلك فى ٢٨ شوال سنة ١٢٦٨ الموافق ١٦ أغسطس ١٨٥٢ ، فتعقبوا البابيين فى كل سهل وجبل وجدوا فى أثرهم الى كل وبر ومدر ، واخرجوا صبح ازل واخاه بهاء الله الى بغداد ، ثم ارسلا الى ادرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ثم وقع الخلف بين الاخوين ، فارسلت الدولة بهاء الله الى قلعة عكا ، وصبح ازل الى جزيرة قبرص . وقيل بل قبض على بهاء الله ثم أطلق سبيله فاستأذن فى الذهاب الى كربلاء واقام اولا ببغداد . وقبضت الحكومة الفارسية على الملا كاظم بتهمة انه من البابية وقتل فى اصفهان ، وقتل ايضا ميرزا أشرف الآبادى ، وذلك فى عهد متأخر (سنة ١٨٨٨) وقتل عدد كبير سوى هؤلاء ، وانهزم كثيرون من البابيين الى عشق آباد فى الاراضى الروسية ، وبنوا هناك جامعاً خاصاً بهم واما قرة العين فانهم اخرجوها لعهد الباب نفسه الى بغداد ، و انزلوها فى بيت الآلوسى مفتى بغداد ، فاقامت مدة طويلة عنده ، و كان من يطعنون فى البابية يشنعونها ، ويقولون فيها ، الاقاويل ، كما هى العادة فى حق من فارق الجماعة ، الا أن الآلوسى قال فيما بلغنى :

«ماعهدت عليها من سوء » وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، حتى قال لى المرحوم عباس افندى الملقب بعبد البهاء ، ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها ، ان قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتى الآلوسى على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله . وانشدنى الامير فرمان فرما عبد الحسين ابن عم شاه مظفر الدين وصهره والذى تولى الصدارة فى فارس ، ابياتاً بديعة من نظم قرة العين على اسلوب غريب ومأخذ طريف ، البيت منها ما سداه فارسى ولحمته عربية ، وهى ابيات فى مناجاة الحضرة الالهية مطلعها عربى كله ثم تشفعه بابيات محبوكة من اللغتين ، اما المطلع فهو : —

لمحات وجهك اشرقت وجمال طلعتك اعتلى

وكان الامير فرمان فرما يحفظ شعر قرة العين ولده الامير فيروز خان ، (الذى صار ناظراً للخارجية بعد الحرب العامة) ويستنشده اياه وهو بعد فى عهد الطلب عند ما قدم فرمان فرما الى سورية واصطاف بجبل لبنان منذ نحو خمس وعشرين سنة ، واتيح لنا يومئذ حظ معرفته وصحبته .

أما الباب فانه لما تعاظمت فتنة البابية وسالت فيها الدماء جئ به من قلعة ماكو الى تبريز وقررت الحكومة قتله مع صاحبه محمد على اليزدى ، فرفعوه واوثقوه بحبل ثم رموه بالرصاص ، فاصابت الرصاصة نفس الحبل فانقطع ، وسقط الباب حياً ، فعد ذلك اتباعه من كراماته ، ثم عاق ثانية ونفذ فيه أمر الله ، وطرحت تجاليده فى حفرة ، فجاء اتباعه واخذوا جسده الى طهران ، حيث أبقى مخبأ على ما يقال تسعاً وعشرين سنة ، وبعد ذلك دفن بفارس ، ، وقيل ان بهاء الله بعث فأتوه بالجثة الى عكا ، حيث دفنها هناك وكان قتل الباب فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠

أما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الأقوال كثيراً ، وطعن فيها اناس كثيرون ، من جلتهم السيد جمال الدين الافغانى . ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شريعة جديدة ، حال كون الشرائع كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية . فاما اذا تلقاها الانسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن فى الطرق الصوفية المتعددة ، فانه يجد فيها كثيراً من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة . وعلى كل حال فاننا لا نتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل ، اذ كان ما قرأناه فى باب البابية نقلا عما حرره فى هذا الباب بعض المؤرخين نأثره

كما وجدناه ، تاركين عهدته على رواته . قال المسيو هوارت Huart المستشرق الفرنساوى المشهور ، فى فصل له على البابية ، فى الانسيكلو بيدية الاسلامية الفرنسوية ما يأتى : « ان الباب تحت اسم اصلاح فى الاسلام وضع ديانة جديدة ذات عقائد ومبادئ ، ورشحها لهيئة اجتماعية جديدة . فالله واحد ، وعلى محمد الباب هو المرآة التى ينعكس بها النور الالهى ، ويمكن كلاً ان يشاهده بها . قال الباب : «ينبغى ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرائى حتى لا تروا فى هذه المرائى سوى الشمس التى تحبونها » هكذ ورد فى كتابه « البيان العربى » . ثم ان الله خلق العالم بسبع صفات تسمى « احرف الحق » وهى القدر والقضاء ، والارادة ، والمشيئة ، والاذن ، والاجل ، والكتاب . ولحساب الجمل دور عظيم ، وعدد ١٩ هو عدد مقدس ، اذ تجده حاصلاً من كلمة « واحد » وكلمة « وجود » . وبحسب ما ورد فى بيان الباب تنقسم السنة الى ١٩ شهراً كل شهر منها ١٩ يوماً . ويجب أن تكون ادارة امور الفرقة بيد جمعية مؤلفة من ١٩ شخصاً ، والى هذه الجمعية تدفع سنوياً ضريبة مقدارها خمس الاموال ، هذا اذا لم يطرأ على رأس المال نقص تلك السنة . وواجب على المؤمن ان يؤدى هذه الضريبة ، الا انه لايحق للسلطة الدينية ولا للسلطة الدنيوية ان تجبره على دفعها بالقوة . وجميع اصناف العقوبات ممنوعة الا الغرامة والحيلولة بين الرجل والمرأة فترةً من الزمن . والتجارة حرة ، والعقود فى التجارة مرعية ، ودفع فائدة على البضائع التى تباع الى اجل معين مباح . ثم ان الزواج من بعد سن الحادية عشرة أمر مفروض (كان يمكن الظن أن الناقل ذكر سن الحادية عشر سهواً لأنه باكر جداً ولكنه ذكر ذلك بالحروف لا بالارقام واشار الى وروده فى الصفحة ١٨٧ من بيان « الباب » والله أعلم) والطلاق مكروه (وهذا من السنة : ما من حلال أشد كرهاً عند الله من الطلاق) ويعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا . والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما أن يستأنفا زوجيتهما بعد شهر من الطلاق وذلك الى حد ١٩ مرة . والارامل من الرجال والنساء عليهم ان يتزوجوا بعد الترمل بمدة مضروبة للرجال ٩٠ يوماً وللنساء ٩٥ يوماً والا فالغرامة . ولا يجوز ضرب الصبى فى الكتاب قبل سن الخامسة ، واما من بعد هذه السن فيجوز ضربه على شرط أن لا يتجاوز ذلك خمس ضربات ، وان يوضع غطاء على محل الضرب . والادب من الوصايا الملتزمة عند البابية . ويسوغ لبس الحلى والجواهر ولو تجاوز

ذلك ما حدده الشرع . ويجب كل سنة صيام شهر واحد ١٩ يوماً من مشرق الشمس الى مغربها . والتكليف يقع من سن ١١ الى سن ٤٢ سنة . والوضوء مستحب وليس بفرض . ولا بد من وجود حمام للاغتسال فى كل حارة . ويجوز رؤية جميع النساء بدون نقاب ، والكلام معهن بدون حرج ، الا انه لا بد من الحشمة والاقتصاد فى الكلام معهن ، و يستحب أن لا يزيد كلام الرجل مع المرأة الغريبة على ٢٨ كلمة . ويجب أن يزار البيت الذى ولد فيه الباب ويبنى هناك مسجد ، وكذلك البيت الذى اعتقل فيه و بيوت الكبار من اصحابه . ولا يستحب السفر الا فى تجارة ، ولا ركوب البحر الا فى حج أو اتجار ، ولا تلزم صلاة الجماعة الا على الجنائز ، ولكن الوعظ فى الجوامع مندوب . ولا يوجد رجس بعد الايمان بل كل من اتبع هذا المذهب فقد تطهر بمجرد اتباعه اياه ، وكل ما تحوزه يده صار طاهراً واما الماء فهو طاهر ومطهر . ثم يجب على البابى ان يقرأ كل يوم ١٩ آية من بيان « الباب » ، ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة . ويدفن الاموات فى قبور من البلور أو من حجارة منحوتة ومصقولة . ويوضع فى يد الميت اليمنى خاتم منقوش عليه « لكيلا يستوحش الموتى فى قبورهم » ولا يجوز لاحد ان يعتدى على احد ولا ان يكسر خاطر احد . واذا خاطبك احد أو كاتبك فلا بد لك من أن تجاوبه . واذا استودعك احد كتاباً لترسله أو توصله فعليك بتأدية هذه الامانة . وان الاشربة المتخمرة والمسكرات غير جائزة . وكلما مضت ١٩ يوما فلا بد للمؤمن من دعوة ١٩ رجلاً الى طعام أو شراب ، ولو لم يكن سوى الماء القراح . ولا يجوز الاستعطاء ولا اعطاء السائل ، بل التصدق على السائل اثم . اما تقسيم تركة الميت فيؤخذ منها من رأس العرمة نفقات الجنازة ، ثم يأخذ الاولاد تسعة انصبة و المرأة ثمانية والاب ٧ والام ٦ والاخ ٥ والاخت ٤ والمعلم ٣ ولا يرث وارث غير هؤلاء .

ولعلى محمد الباب عدة كتب منها « البيان » هذا بالعربى والفارسى ، وكتاب « بين الحرمين » و « تفسير سورة يوسف » انتهى .

هذا تعريب كلام المسيو هوارت الذى يقول انه اخذه من بيان الباب مشيراً فى كل وصية من هذه الوصايا الى الصفحة التى قرأها فيها .

ثم ترجم المسيو هوارت نفسه بهاء الله ميرزا حسين على نورى فى حرف ب ﻫ من

دائرة المعارف المذكورة فقال : ـ

« انه ولد فى نور من بلاد المازندران فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه لأمه ميرزا يحيي الملقب بصبح ازل قد أخذ بهذه العقيدة من قبل . ولم يشاهد بهاء الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مريديه بل سبق الجميع فى هذه العقيدة ، وشحط الاولين والآخرين فى هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلى بعد الامام فى المحراب . وفى سنة ١٨٥٢ أبعدته الحكومة الفارسية الى بغداد على أثر محاولة أحد البابيين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فأقام بنواحى السليمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً الى أنه هو الرجل الذى بشر بمجيئه الباب فى قوله « من يظهره الله » و وضع هناك قواعد الدعوة التى قصد جعلها ديانة عامة . ثم نقل الى أدرنة سنة ١٨٦٤ ، ثم الى قلعة عكا فى شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ حيث أدركته المنية فى ٢٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ ، تاركا خلافته الروحية الى ولده الاكبر عباس افندى الملقب عبد البهاء .

«وأما عقيدته فقائمة بأن لا يؤذى الانسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضا ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا الا بالخير ، وأن يوطئوا اكنافهم ويعنوا بأمر المرضى . هذه هى مبادئ البهاء وهى كما ترى صدى النصرانية . والغاية من هذه الحياة هى السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التى يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للاجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء يقال لها « بيت العدل » ويكون دخل هذا البيت من التركات التى لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ فى المائة على رأس المال ، يؤدى مرة واحدة لا غير . وممنوع فى مذهبه التقشف والتبتل ، لان الله خلق الانسان وأحل له الطيبات من الرزق . وللبهاء تآليف أهمها «الكتاب الاقدس » (طبع فى بمباى و بطرسبرغ) وكتاب « الايقان» (ترجمه دريفوس وحبيب الله الشيرازى فى باريز سنة ١٩٠٤) ، وطرازات كلمات فردوسية واشراقات وتجليات (ترجمت فى كتاب قواعد البهائية سنة ١٩٠٦) «وكلمات مكنون» (مطبوع بباريز سنة ١٩٠٥) و « دروس عكا » التى جمعتها مادام كليفورد بارناى Mm.Cliford Barney و « النور الابهى » (مطبوع

بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجمه عن الاصل الفارسى المسيو دريفوس

وأما كلمات البهاء الأخيرة فقد نشرها تومانسكى فى بطرسبرج سنة ١٨٩٢ . ولدريفوس المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعى وقد ذكرها براون Eda.G.Brawne فى كتابه : « سنة بين العجم » . انتهى

هذا ما نقله المستشرق هوارت عن البابيـة والبهائية أثرناه كما هو وعربناه بدون زيادة ولا نقصان ، والعهدة فى كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم .

ومما لا جدال فيـه أن البهاء وأولاده بمقامهم هـذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالى بلادنا المعرفـة التامة . بحيث صفا جوهرهم عن أن تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد الالسنة . فاما البهاء فقد أجمع أهل عكا على أنه كان يقضى وقته معتزلا معتـكفا ، وانه ما اطلع له أحـد على سوء ، ولا مظنة نقد ، ولا مدعاة شبهة فى أحواله الشخصية كلها . وقيل انه عرضت خصومة بين ولده عباس أفندى و بعض المتمولين على حدود أرض فوصلت الى المرافعة فـكتب البهاء الى ولده : « ياعباس أتتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟ » فترك عباس الدعوى من فوره .

وأما أولاده فـكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد على ، وضياء ، وبديع الله ، وقـد اعتبط منهـم ضـياء شابا وفى عام ١٩٢٢ انتقل الى الدار الآخرة عبـد البهاء عباس ، وقـد ذرّف على الثمانين . وكان آية من آيات الله بما جمع الله فيـه معانى النبالة ، ومنازع الاصالة والمناقب العديدة ، التى قـل أن ينال منها أحد مناله ، أو يبلغ فيها كماله ، من كرم عريض وخلق سجيح ، وشغف بالخير ، وولوع باسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ، وتعاهد المساكين بالرفد بدون ملل ، وقضاء حاجات القاصدين بدون برم ، هـذا مع علو النفس ، وشغوف الطبع ، ومضاء الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وسرعة الخاطر وسداد المنطق ، وسعة العلم ووفور الحـكمة ، و بلاغة العبارة ، حتى كأن فصاحته صوب الصـواب ، وأقواله فصـل الخطاب ، وكتاباته الديباج المحبر ، وفصوله الوشى المنمنم ، يفيض بيانه جوامع كلم ، وتسيل عارضته سيل عارض منسجم ، ويود اللبيب لو أقام العمر بمجلسه يجنى من زهر أدبه البارع ويرد من منهل حكمته الطيبة المشارع استولى من المعقول على الامد الاقصى ، وأصبح فى

الالهيات المثل الأعلى ، و بلغ من قوة الحجة ، واصالة الرأى ، و بعد النظر ، الغاية التى تفنى دونها المنى حتى لو قال الانسان انه كان أعجو بة عصره ، ونادرة دهره ، لما كان مبالغا ولو حكم بأنه من الافذاذ الذين قلما يلدهم الدهر الا فى الحقب الطوال ، لكان قوله سائغا ولقد كان يمكن أن يكون محيط فضله أوسع ، وأفق علمه أنأى ، لو عاش فى احدى العواصم الكبر التى يتسع فيها المجال لمثله ، ويكون فيها المحيط على نسبة نباهة قدره ، وسراوة نبله ولكن ضاق الميدان على الفارس ، وصغر الكرسى عن الجالس ، واعتاض من سعة المحيط وعظمة المقر ، بحسن أخلاق أهالى عكا وكرم طبائعهم وكونهم قدروه وأهله قدرهم ، وعرفوا نبلهم وأحلوهم المحل اللائق بهم ، فرفه بذلك عيشهم ، و وفرت حرمتهم وذهبت حرشة غربتهم ، ولانت خشونة نبوتهم ، ورافقهم الى منفاهم هذا نحو مائة وخمسين شخصا من اتباع طريقتهم من الايرانيين ، ليس فيهم الا صاحب صنعة أو عمل ، وهم جميعاً قائمون على خدمة هذا البيت الكريم ، قد هجروا أوطانهم حباً بجواره . وكان عباس افندى يكنفهم بظله و يتعاهد جميعهم بفضله ، وكان أحسن الله منقلبه مستوفيا شروط الرئاسة ، ذا وقار فى رسوخ الجبال ومهابة يقف عندها الرئبال ، وحشمة لا ترى الا فى الملوك أو فى صناديد الرجال ، ومع هذا كله فكانت مجالس حكمته مطرزة باللطائف ، ومحاضر جده مهلهلةً بالرقائق ، وكانت رسائله على كثرتها تتلى وتؤثر ، وتحفظ حفظ النفائس فى الخزائن وتدخر ، واننى لا حفظ له كلمات من كتاب مداعبة بعث به الى أحد أصحابه من شعراء بيروت وهى « من صيدك فى صيدا ، وحيفك فى حيفا ، ونفخك فى الصور ، ونقرك فى الناقور » تعلم من هذه الكلمات المعدودة ملكته الأدبية ، وقدرته على التصرف بزمام العربية ، مع انها ليست لغته الأصلية . ولو وسع المكان لاوردنا له كثيراً من بدائع الترسل الدالة على تمام ملكته ، وسمو طبقته . وكانت له مع هذا العاجز مراسلات متصلة باتصال حبل المودة ، وعمران جانب الصداقة ، ومراراً قصدت عكا ولا غرض لى فيها سوى الاستمتاع بأدبه الغض والاغتراف من علمه الجم ، وداورته مرة على الكلام فى موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجئ اليه من باب المعاريض استطراقا ، وأحاول أن أحمله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما اذا كان من الممكن تمثيل الصفات الهية فى أحد البشر اشارة بدون تصريح ، الى ما يقال من كون الباب أو

البهاء هو مجلى الصفات الربانية على الأرض ، فأجابنى بأن الصفات معان ، والمعانى لاتتجسم ولا تتشخص ، وان المجردات لا تتجسد ، وأفاض فى هذا الموضوع بالنفى وتبيين وجوه الاستحالة . فأجبته : « فلماذا يقال اذاً ان بعض البشر يمثلون الصفات الالهية على الأرض أو انهم مظهر الالوهية فى الخلق ؟ » فقال لى : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده . » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس هى مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهى تقتبس من النور القدسى بقدر صفائها . وان هذا مبلغ عقيدتهم فى الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس افندى نفسه ، الذى كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من البابيين . وانى أتذكر أنه كان يشرح مرةً عقيدة القضاء والقدر فقلت له . « الا أن هناك من يقول فى التعريف ماهو كذا وكذا » فقال « هؤلاء هم العوام » . قلت له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » . فقال : و « العلماء فيهم عوام أيضاً » .

ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فنهم من يقول انهم زهاء مائة ألف نسمة فى العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً . ويقال ان منهم بالهند ، وبمصر ، بين الايرانيين المقيمين بهذه الحاضرة . ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا وأنها قد ترجمت عقيدته الى الانكليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون . وان من جملة دعاة هذا المذهب رجلاً مسيحياً من أدباء لبنان من قرية بحمدون . وقيل ان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة البابية بأمريكا كانوا يراسلون دائماً عبد البهاء عباس افندى ، ويستفتونه فى المسائل ، ويستوضحون رأيه فى المشكلات الدينيه ، ومنهم من جاء من أميركا حاجاً اليه ليفوز برؤيته . ومما نعلمه أن عباس افندى بعد إعلان الدستور العثمانى وانطلاق حريته أن يذهب أين شاء ، سافر الى أميركا ، وتعاهد المريدين الذين له هناك . وبعد أن أقام بها مدة يخطب ويعظ ويبث الدعوة ، جاء الى أوربا وطاف على المريدين الذين فيها ، ثم قفل الى عكا ، وبقى فيها الى أن لبى دعوة باريه فى حيفا سنة ١٩٢٢ .

ولسنا نعلم عدد البابيين الذين بأميركا ، فيقال انهم صاروا بضعة عشر ألف نسمة . أما فى أوربا فاننى كنت سنة ١٩١٩ بمدينة برن كرسى حكومة سويسرة ، وأثناء ذلك انعقدت فى هذه المدينة مؤتمرات اشتراكية وشعوبية ، على أثر الحرب ، ومن جملتها مجمع اسمه المؤتمر السلمى الشعوبى ، كنت ممن شهده وخطب فيه مرتين ، وقد حضره أناس من

أمم مختلفة ، ومن جلتهم رجل المانى اسمه البروفسور يك ، كان يتردد كثيرا الى الاستانة أيام الحرب ، وكان يلزق بأمبراطور المانيـة ، وهو الذى أسس فى الاستانة نادياً سموه «نادى الولاء التركى الالمانى» ، فالاستاذ «يك» هذا قدم لى رجلاً ليست بطاقةاسمه بين يدى هذه الساعة ، وانما أتذكر أنه قنصل حكومة نورويج فى شتوتغارت عاصمة ورتمبرغ كما أن «يك» هو نفسه من هـذه المدينة ، فعرفت من القنصل المذكور أنه رئيس الجماعة البابية فى شتوتغارت ، وكلفنى فيما لو كتبت الى عبد البهاء أن أكتب اليه سلامه ، واستعلمت منه عن عدد الفرقة فى بلدهم ، فزعم أنهم يناهزون أربعـة آلاف نسمة ، وأن محل اجتماعهم هو فى بيته وأن ميعاد اجتماعهم نهار الأحد كل أسبوع . وسألتـه عما اذا كان يوجد منهم فى غير شتو تغارت من ألمانية ، فقال لى ربما وجـد فى غيرها شذاذ ، ولكن معظم الفرقة هو فى شتو تغرت ، وعلمت منه أن عبد البهاء عباساً زارهم على أثر رجوعه من أميركا.

بقى ثمة شئ لو أهملناه لكان خللا بواجب المؤرخ ، وجديراً بأن ينسب الى الضلع ، وهو أنه بعد انتقال بهاء الله الى الدار الباقية ، وقع الخلف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد على افندى ، وضياء افندى ، وبديع الله افندى ، من جهة ثانية . وهؤلاء الثلاثة هم أشقاء ، فاشتدت الشحناء وعجز الأحباء عن اصلاح ذات البين ، واتخذها من لايخلو منهم مكان من عقارب الشر ، ليحطبوا فيما بينهم بالفساد ، وكانت دعوى عبد البهاء أن اخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى اخوته أنه خالف وصايا والدهم فى كثير من الأمور . ولم يكن يخلو عباس افندى لعظم أنفته ، وشفوف حسه ، من حفيظة طبع ، وسرعة انفعال ، تذهبان به الى حد الحدة ، وتنبوان به عن درجة الحلم ، كأنما جاء ذلك عوذةً لمحاسنه ، وتميمة لتمام نبله ، فأبى فى آخر الأمر قبول اخوته ، وتمكنت النفرة من قلبه ، لما كان صدر منهم بحقه ، وأصر على الجفاء ، حتى بعد أن ساموا له ، وما زال على الصرم والهجران الى أن توفاه باريه فى السنة الماضية ولم يعقب ولداً ذكراً ، فيقال انه لم يستخلف أحداً من أخويه الباقيين ، وانه أشف عليهما حفيده من أولاد بنته فوقع الخلاف أيضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائيـة الى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لايرى له حقاً فى ذلك ، ويوجب انتقال الزعامة الى أخيه السيد محمد على افندى ، الذى هو من الرشد . والعقل . والعلم . والفضل . وسعة الصدر . وطهارة الأخلاق . وجميع أدوات الرئاسة . بالمقام الذى يقر به كل من عرفه . والذى لايدانيـه فيه أحـد من البهائية فيما نعلم .

المبادىء الاشتراكية فى الاسلام

للأمير شكيب

فى الشريعة الاسلامية مبادىء اشتراكية ، عظيمة[١]، متينة ، تفترق عن المبادىء الاشتراكية المعروفة فى أوربا . بكون المبادىء الاشتراكية الاسلامية أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لانها فى أوربا أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم . حال كونها فى الاسلام أوامر إلهية لامحيد للمسلم عن انفاذها اذا أراد أن يبقى مسلماً . فان الزكاة الشرعية هى من أركان الاسلام . وهى أخت الصلاة . وقد ورد ذكر الزكاة مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة فى القرآن الكريم كما لايخفى . فلو قام المسلمون بايتاء الزكاة على الوجه الشرعى . وأدوا واحداً من عشرة من غلات أراضيهم . واثنين ونصفاً فى المائة من نقودهم وواحداً من أربعين من حيواناتهم . أو كما هو مبسوط فى كتب الفقه . لم يبق على وجه الأرض مسلم واحد يصح أن يسمى فقيراً . وكان الأولى بمن يدعون المسلمين الى الاشتراكية ويبثون هذه الروح فيما بينهم لتكون سبباً للبغض والشحناء واثارة حرب الطبقات . الثائر عجاجها فى أوربا واميركا . أن يدعوهم الى إقامة هذا الركن العظيم من أركان دينهم الذى هو الزكاة . بشرط أن ينظموا جمعها وكيفية انفاقها . وتجعل لها الحكومات الاسلامية نظارة خاصة بها . وتحمل الأمة كافة عليها . فكان ينتفى بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين . ويقل تفاوت الطبقات فى درجات الرفاهية . وتتوفر وسائل التمريض . والمؤاساة والتعليم . وتشمل نعماؤها الجميع بدون منة غنى على فقير . ولا اعتداد كبير على صغير . لأنه كما لايجوز لمسلم أن يمن ويعتد بكونه يصلى . لايقدر أن يمن ويستطيل بكونه يزكى . ولكن نقول مع الأسف الشديد . ان المسلمين . الا النادر . أهملوا الزكاة . وتهاونوا بفرائض الدين ولذلك هم مهددون اليوم بخطر الاشتراكية . والشيوعية التى لابد من أن تنفذ مبادئها

(١) راجع صفحة ٢٦٢ من هذا الجزء

اليهم مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها الى الشرق . واننا لانرى مجناً تتقى به هيئة الاسلام الاجتماعية هذه الفتنة القادمة عليها لاريب فيها سوى القيام بفرض الزكاة على الوجه الشرعى . على شريطة أن يكون لها وزارة أو ادارة فى كل حكومة اسلامية . تنظم أمر استيفائها . وطريقة انفاقها . تنظيما بحيث اذا دخلت الاشتراكية على بلادالاسلام . دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق. بل كانت سبباً لاحياء فرض من أقدس فروض الدين الا وهو الزكاة . ومما لاينبغى أن ننساه ان الاشتراكية تتفق مع الاسلام فى نفى الجنسية والقومية . إذ كما ان المسلم لابد أن يعترف باخاء المسلم أياً كان أصله وفصله . فالاشتراكى لابد أن يتضامن مع الاشتراكى فى أى وطن كان . ومن أى أمة كان . وان فضل الوطنية على الاشتراكية . كان شأنه شأن المسلم الذى يفضل القومية على الاسلام .

الشهيد أنور باشا ورفقاؤه

لأمير شكيب

انه لما أخلى الجيش البلغارى جبهة الحرب أواخر صيف عام ١٩١٨ ، طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالغة خمسمائة ألف مقاتل ، سقط فى يد دولة اوستريا ـ هنكاريا فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، نخافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا[1] ناظر الحربية يحشد من بقى من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها أكثر العسكر الذى كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو و بلاد اذربيجان وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى أن يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل على القلوب واعتقاد معظم الاتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون ، فتبقى كل أمة مالكة للبلاد التى أكثر سكانها هم منها ، كل ذلك أحبط مساعى أنور باشا فى الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأى العام حتى من الاتحاديين أنفسهم الى طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير احمد عزت باشا الارناؤطى ومعه رؤوف بك ناظراً للبحرية ، وفتحى بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالى الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغباً فى عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فأنفذت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً فى أول الأمر ، لكنها صارت خفيفة جداً فيما بعد . عند مادخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو أقامت الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به فى أثناء الحرب وما تعهدوا به فى نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً وكان من جملة ما قرره الاتحاديون فى أثناء الهدنة برأى رئيسهم طلعت باشا ، الغاء

(١) راجع صفحة ٢٦٦ من هذا الجزء

فرقة الاتحاد والترقى وتأليف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جملة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسى ، بدون ابقاء الاسم الذى كان من شأنه تنفير الدول الغالبة ، وتجفل الرأى العام فى ذلك الوقت . وكان مرادهم اعتزال الحكومة موقتاً ، الى أن تكون انتهت تلك الأزمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب أجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلاؤهم على الطرق براً وبحراً ، جاء من أنبائهم بأن السلطان وحيد الدين الذى كان من الأصل ناقماً عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز ، فيلقى القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلبون ، بحجة قتل الأرمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً فى بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقى ، والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت. وأنور . وجمال . وعزمى والى بيروت الأسبق ، وبدرى مدير البوليس الأسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكرى ناموس جمعية الاتحاد والترقى ، وكان هذا صديقاً حميماً لطلعت ألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه فى نفسه لايميل الى السفر وانما أراد أن يرافقه حبا ووفاء فقال له : «ان كنت لاترغب فى الباطن فى هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلى » . فبقى مدحت شكرى بك فى الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة المانية ، جاعلين وجهتهم القريم .

ووقع ذلك فى أوائل نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٨ ، وبلغنى من أحدهم انهم فى الطريق تذاكروا فيما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التى حاقت بهم ، وبالأمة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لايشكون فى الأهوال التى ستبطش بالاتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التى دارت على ألمانيــة وحلفائها . فذهب أنور الى أنه يجب أن ينضموا الى البلاشفة ، ويثيروا تركستان . والقوقاس . ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتى الله بالفرج أو يموتوا . فخالفه طلعت فى هذا الرأى وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققنا غضب الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق أمامنا هو أن نذهب الى أوربا . ونقبع فى زوايا العزلة . ولا نأتى بأدنى حركة ولا نطمع فى شئ . بل ننظر الى مايأتى به الدهر . فان لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام وكر العشى . اهتبلناها . ولكننا فى الوقت الحاضر لايليق بنا الا الانزواء والاعتزال . وترك النضال والنزال . فقد

أردنا أن ننقذ أمتنا ونرقى وطننا . فلم يسعفنا القدر . فلنترك هـذا الأمر لغيرنا . ويظهر ان الباقين أجمعوا على رأى طلعت وما زالوا يدوكون فى ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهيأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانيـة فوصلوا الى محطة كان لابد لهم أن يبيتوا فيها . فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم . وعلموا أنه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق . مصمماً على ماكان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة وكانت وجهة أنور القوقاس . حيث كان أخوه نورى ومعه طائفة صالحة من الجند . وكان يؤمل اثارة المسلمين الذين فى اذربيجان وفى الطاغستان . وقـد قال لى عزمى بك والى بيروت : « لو كاشفنى أنور بمـا فى نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته . ولـكننا أصبحنا فوجـدناه قد مضى « فأما الستة الباقون فجاءوا الى ألمانية كما سيأتى خبر ذلك فى محله .

وأما أنور فبعد أن سار مسافة فى البر ، وصـل الى مرسى من مراسى القريم ، ولما لم تـكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقل قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاس ومعه خدمه :— ففى أثناء الطريق ، ثار البحر وكاد يقلد عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك أن يقذفوا فى اليم جميع الحقائب التى كانت معهم ، ورجعوا أدراجهم الى ساحل القريم . فنزل أنور ملتاث المزاج مما أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقى متخبئا فى تلك البلاد الى أن أبل من ذات الرئة التى حصلت له ، فجاء أولا الى المانية لم يعلم به أحد الا اثنان أو ثلاثة ، بل عمس خبره حـتى عن رفاقة طلعت وجمال وعزمى الخ . وكان أنور كتـامة لا يوجد أقدر منه على اخفاء مافى نفسه ، وكتم حركته ، وذلك بخـلاف طلعت ، الذى وان كان أدهى من أنور ، وأعلى كعباً منه فى السياسة ، فقد كان فاووهة يبيح بكل مافى نفسه . وبقى أنور متخبئاً تارةً ببرلين ، وطوراً باحدى المزارع فى أرباضها ، طلع سنة ، والناس لايعلمون من أمره شيئا وثيقا ، والجرائد الانـكليزية تـكتب أنه ظهر فى القوقاس ، وأحيانا أنه فى التركستان ، وآونة أنه فى كردستان ، وغير ذلك وهو فى الحقيقة فى ألمانية لم يبرحها بعد ، الى أن جاء «رادك» الزعيم البولشفيكى المشهور الى برلين ، فعرف به أنور وطلعت وتلاقيا معه ، وأجمعا على الحركة مع البولشفيكى . ولما كانت الطرق يومئذ بين ألمانية والروسية مسدودة ، استصحب أنور الدكتور بهاءالدين شاكراً ، واستقلا طيارة قاصدين

الروسية ، فقبل أن وصل بهما ربان الطيارة الى الروسية ضل الحدود ونزل بهما الى الأرض ، ظناً بأنه نازل بأرض روسية ، فاذا بهم نزلوا بأرض « لتونيا » وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، ووقفتهم ، فادعى بهاء الدين شاكر أنه طبيب ذاهب الى الروسية من قبل الهلال الأحمر العثمانى لمعالجة أسرى الأتراك ، وقال أنور انه ممرض من مستخدمى الهلال الأحمر ، فعرّف ألو الأمر فى لتونيا عنهما المؤتمر الذى كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كلمنصو رئيس المؤتمر . بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريز ، فأخذوا الصور والأجوبة التى جاوباها واعتقلوهما منتظرين ورود الجواب من كليمنصو . وفى أثناء ذلك كان أنور بعث الى الألمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الألمانية لايزال محتلاً بلاد البلطيك فأجابوه بأنهم يرسلون اليه طيارة يمكنه أن يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان وكان أنور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطى مساح . فلما كان اليوم المعين خرجا على عادتها للنزهة ، وتوجها الى المكان الذى ستأتى اليه الطيارة بحسب تعريف الألمان لهما سراً ، فأبطأت الطيارة فى الوصول حتى كادا يقطعان الأمل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قد ظهرت فى الجو ثم اسفت ولمست الأرض فأقبلا عليها هما والشرطى الذى معهما كأنهما ينظران ماخطبها ، ولما قربا منها وجدا فيها جندياً معه بندقية ، ثم أخذا يتأملان فى أدواتها ويتخللان داخلها والشرطى لايشك فى كونهما محبين للاستطلاع ، الى أن استقلا مقعدها وبدأت تنطاد ، فعرف الشرطى أنهما قد فرا وأن الأمر مدبر ، ففى الحال صوب نحوه أنور البندقية منذراً اياه بالرمى ان أتى بحركة ، فأبلس الشرطى أولا ، ثم أطلق عليهم فيما بعد بندقيته ، ولكن الطيارة كانت قد علت فى الهواء أمداً بعيداً . وبهذه الكيفية نجا أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطيارة الى المانية ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريز ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما أنور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لايتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع أن الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبر قبل أن تحقق من هما . ثم ركب أنور طيارة ثانية قاصداً موسكو ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض فى الجو ، وكادا يهلكان فأسفا الى الأرض . ثم استقل طيارة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وأنزله

البولشفيك فى قصر قبالة « السكرملين » لا أظن يوجد مثله فى أوربا فخامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يداً واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترة ، ثم جاء الى موسكو جمال وبدرى فدخلا فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الألف (التدبير على العدو من حيث لايعلم) على انكلترة . وفى هاتيك الأيام جاءت عائلة أنور الى برلين من الاستانة ، فجاء هو من موسكو الى برلين وشاهد حليلته التى هى ابنة أخى السلطان ، ولم يلبث أن عاد الى موسكو ، ولكنه هذه المرة ذهب فى البر من طريق Réval عاصمة استونيه . وكان معه رجل روسى شيوعى فقبض عليهما فى ريفال وطلس بهما فى السجن ، تحت شبهة أنهما من دعاة البولشفيك . وادعى أنور أنه من مأمورى الهلال الأحمر التركى فلم يثقوا فى قوله وأخذوا رفيقه المسكوبى يضربونه ضربا أليما حتى يقر من هو هذا التركى الذى معه فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقر بشئ ، ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيماء انور وشمائله وحسن صورته ، شيئا ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول . ولذلك كانت تاح عليه فى الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصرا على الكتمان ، الى ان خطر لهم أن يضربوه يوما كما ضربوا الروسى رفيقة و بينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التى كانت هناك تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم « مثل هذا لايجوز ضربه » فخلوا بعد ذلك سبيله . وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكاونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فاقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بينى وبينه حينما كنت فى سويسرة . ثم ذهب ايضا الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ، وكانت سفرته هذه فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ ثم عاد الى برلين اول مرة ثم ذهب وعاد ثانى مرة وذلك فى اواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩٢١ وهذا آخر عهده رحمه الله بأسرته . وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة اشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف فى آخر الامر مع البولشفيك واثار التركستان عليهم ، واستشهد فى هذه الحرب فى اوائل اغسطس سنة ١٩٢٢ . وتحرير الخبر انه كان بين انور ومصطفى كمال وحشة من قبل ، فلما اسس مصطفى كمال حكومة انقرة ، كان انور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لها فروعا فى الاناضول ، فعارض مصطفى كمال فى انتشار هذه الفروع بحجة انها قد تؤدى الى الخلاف والشقاق

حال كون الدفاع الوطني يقضي بتوحيد الكلمة . فنقم انور عليه هذه المعارضة وعدها استبداداً ونفاسة ، وازداد الجو بينهما سفوراً بحيث انه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقا الى طرابزون ، بادر مصطفى كمال باخراجه منها ، وكذلك عند ماورد عزمى بك والى بيروت الاسبق مدينة ارضروم ، ارسل اليه بأن يبرحها حالا ، ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لانور ، فكان انور يحتقد عليه هذه الامور كلها وكنا ننصحه ان لا يوسع هذا الخلاف ولا يدع للقالة سبيلاً واحدى المرار كنا عنده مجتمعين بمنزله فى غرونفالد بظاهر برلين فبينت له وجوب الوئام مع مصطفى كمال مادامت هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه فى العالم الاسلامى جميعاً ، وأيد كلامى هذا الدكتور ناظم ، فلم يجاوب انور لاسلباً ولا ايجابا ، وكان من اقدر خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق ، ولم يكن انور ممن يستطيره الغضب ، ولا ممن ينطلق لسانه بطعن ولا لعن ، ولا قذيعة ، لم يعهد احد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاتما ، وكان عجيباً فى هذا الامر لا يباريه احد فيه ، واذا اراد أن يتشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى الاشارات ، بدون سلاطة لسان ، فكان قصارى قوله فى مصطفى كمال ان الادارة فى الاناضول غير سائرة على مبدأ العدل ولا المساواة وان الامة لم تتحمل استبداد السلطان عبدالحميد وهو ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره . وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هذا القبيل مايثير حفيظته ، فكنت ابين له دائما مايلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة ، ولو كان على حق فى بعض مايشكو منه . ولما فارقته فى موسكو فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ لم انس وانا على ثنية الوداع الاخير ، ان احذره من التهور فى الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة فى ذلك الوقت الذى يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك ، ويظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى حكومة موسكو يشكو من حركات انور ، ويلتمس منها ان لاتمد انور بشىء مما كانت وعدته به من مال وسلاح . فامسك السوفييت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك عذراً لهم بعدم الامداد ، وانا ما صدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضبع أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالرويغة ويمنونه الامانى ليبقى فى يدهم ، وليهددوا به انكلتره ، وينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سريانها الى مسلمى الروسية الكثيرى

العـدد . لا سيما ان انور اعلن الحكومة الحراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعه بينـه و بين البولشفيك هى مقاومة الحلفاء لا غـير . والحال ان البولشفيكيين لا يركنون الا الى من كان شيوعيا مثلهم قولا وفعلاً . وكنت نبهته مراراً الى خطر اقامته بموسكو قائلا له . « ان الحمر لا يجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسـلامية اليوم وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانـكليز لها أو اكثر ، لأن فى الروسية لا أقل من ٣٥ مليون مسـلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض و بسائر بلاد الاسـلام ، وهم يذكرون ماضى ملـكهم وسابق عزهم ، فلا شك ان الروس يحسبون الف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع اخص . وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الاسيوى استعدادهم لمناصرته ، وتحفزهم لمعاضدته ، فى موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الاسلام وهو على قواعده الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسى ما يرى الانـكليز على الهنـد ، فـكان انور يجاوبنى اننى انا تعهـدت لهم بأن لا آتى بحركة اسلامية فى ارضهم واقنعتهم بأن عندنا شغلا آخر مع غـيرهم ، وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانـكليز ولقـد علموا أنه لما ثار بهم أخى نورى فى القوقاس وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم ، واعلنت عـدم رضاى عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فـكنت اقول له « الا أن ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأى عندى ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل أن يقع الخلاف بينك و بينهم ، فاما أن تقيم هـذه المدة بالمانية ، وأما أن تذهب الى بلد مثـل افغانستان حيث يستقبلك أميرها براً وترحيباً » . وكان الامير امان الله خان قد أرسل الى انور باعلى رتبة فى مملـكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعنى هو عليه قد أوسعه به لطفا وتشريفا . فلم أقدر على اقناعه بترك موسكو ووقع الذى حذرناه . اذ لما يئس انور من حمل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقا خلباً ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا به الانـكليز و يجعلوه رقيبا لمصطفى كمال حتى اذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور ، بدأ انور يضمر العداوة للحمر ، وفتح اذنه لاقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما فى انفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لاملاكهم واموالهم وسعيهم فى بلشفة المسلمين واهدارهم دماء الألوف ، وعشرات الالوف منهم ، فى اذربيجان ، وقازان ،

وتركستان وطاغستان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التى بذلوها باعطاء هذه البلاد الاسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة الروسية القومية ، و بطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين ، الى غير ذلك مما وقر فى نفس أنور ، وحداه على تغيير سياسته ، والرجوع الى سياسة أخيه نورى ، الذى كان يعذله على ممالأته للبولشفيك . فصار أنور يترقب فرصة للتملص من موسكو ، و ينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذى أنزلوه به حبسا . الى أن زحف اليونانيون نحو أنقرة وصار الأتراك يتقهقرون الى الوراء ، وخيف من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلا : « اذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، أو سقطت انقرة ، فلا يسعنى الا تجنيد من يمكننى تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعده البولشفيك بالسفر وانخدعوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقبا الاخبار عن الأناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك فى معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الوراء علم أن لم يبق محل لدخوله الأناضول ، فولى وجهه شطر تركستان ، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض ببزلاء ، و يعالج مرتقى عقبة كأداء . اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمى بك والى طرابزون الاسبق [1] يوصيه بتعهد أمور عائلته ببرلين و يقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا وهذا دليل على انه كان موطنا نفسه على الموت . وكان ذهابه من باطوم فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢١ متنكراً ومعه رفيق واحد يدرعان الظلماء و يتلحفان السماء . وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد أيام ، وكان هو أجمع فى نفسه على الانفصال عنهم ، و برئت قائبةً من قوب . ولست أعلم ماذا جرى معه فى تركستان تفصيلا ، ولا أى طريق سلك الى هناك وقصارى ما علمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميرى ، و بطش بدعاة البلشفة وأولئك الذين يقال لهم « مجددى » أى الحزب الجديد الذين يمشون بين أيدى الحمر ، وانها استجمعت له هناك جميع الأمور وأخذ الأمر كله بيده ، وانضم اليه السواد الأعظم من الأمة ، وأرسل فى تلك الاثناء صورته بالزى البخارى الى أهله وشاهدتها عندهم ببرلين ، وكان فى نيته أن يستقدم السلطانة امرأته عن طريق الهند وافغانستان .

---

(١) هو الذى اغتاله الارمن مع بهاء الدين شاكر شتاء سنة ١٩٢٢ فى برلين

ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له أمور مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التى كانت فتنتها لم تخمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة أكثر التركستان ، وهاجم أنور عساكر البلاشفة فى مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع واعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الأوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحبابه ، لا بل المسلمون جميعا ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكننى كنت متوجسا عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقفه وقلق وضينه . وفى هاتيك الايام شاع أن البولشفيك دعوه الى الصلح ، فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط . وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى لعلمى بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عند ما كنا فى جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية ، قابلت تشيتشرين الذى كان رئيس الوفد الروسى فى المؤتمر وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، و بعد أن أبدينا وأعدنا فى القضية العربية ، سألته عن خطب أنور ، ولم أكتم عنه انه لم يكن من الحكمة أن يفلتوا مثل أنور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضاؤه بشىء من الأشياء . فأخذ يشرح لى عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأقعده من أحوال تركستان ، وكيف ألقى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سببا فى هذه المصائب التى سالت فيها الدماء الخ فتكلمت معه فيما لو كان ممكنا تأليف ذات البين ، فأجابنى انهم هم أحب شىء اليهم الصلح . فقلت له : «ولكن مثل أنور لايرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف » . قال : « وماذا يريده أنور » . قلت : « والله لا أعلم ماذا يريده ، وليس بينى و بينه مراسلة ، ولا أعلم شيئا من أحواله الراهنة اليوم ، وانما أقرأ أخباره فى الجرائد . فكلامى هو رأى من عندى أقدمه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم و بينه لا غير ، وهو : انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلا وخارجا ، فتتركون أنور يصلح أمور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب . و يتم الاتفاق بينكم و بينه على أن لا يتعرض للتركستان الروسى ، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق . قال تشيتشرين « وماذا يكون منصبه فى بخارى أأميراً أم وزيراً ؟ » قلت له : « هذا عائد لرأى أهالى بخارى ، فان لم يكن أميراً ، يكون رئيسا للوزارة وقائدا

عاما . أو يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية » . قال : « لالا هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها فى هذه القضية . ولكننى سمعت من أحد أصحابى الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون فى دعوة أنور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا فى هذا الامر كانوا يقولون للحمر فى موسكو : « مهما بذلتم فى مرضاة أنور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ان شاء سكنها ، وان شاء هيجها ، وهى قائمة به وحده » . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحماقة ، لأنه جعل البولشفيك يعتقدون أن الاهالى كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص الذى تسبب لهم بمجرد ارادته ، بكل هاتيك الخسائر وأخرج أكثر تلك الأقاليم من طاعتهم . ولست على ثقة من خبر القوة التى ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون فى الكلام على الجحافل الجرارة التى بثها الروس فى التركستان لاخماد نار الثورة ، ولخضد شوكة أنور . وما مضت مدة حتى روت الجرائد أن أنور تقهقر الى الوراء أمام القوة الجسيمة التى لم يكن له قبل بها . ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه وبعث يقول له : « أنا محتاج الى مثلك لأجل رئاسة جيشى . فأقدم علىّ فلن تجد عندى أعز ولا أغلى منك » . ولكن أنور كان مغرما بالحرب ، وكما قال على فؤاد بك رئيس أركان الحرب فى سورية ، فى أثناء الحرب العامة ، وذلك فى كتاب له على حملة ترعة السويس عربه الكاتب الأديب نجيب افندى الارمنازى : « ان حال السلم عند أنور عدد منفى وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقوم فى ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب . ويموت فيها شريفا » ولقد أصاب على فؤاد فى قوله هذا كما أصاب فى أكثر ما أورده بكتابه . فان أنور كان حلس قتال لا يمله ، ولكنه كان من أقدر الناس على الادارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه فى الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد فى العمل ، يعلم أنه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوعه ، فى التدبير ، والترتيب وأساليب العمارة ، فكان فى هذه الساحة فذاً . الا أنه لم يكن سياسياً كبيرا مع فرط ذكائه وأتذكر أنه رغب الى أن أذهب الى ألمانية لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧ فلما ودعته قال

لى : « لا يكفينى أن تخبرنى بما هو كائن هناك بل أعطنى على ماتشاهده رأيك الخاص » . فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه فى السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لايوجد آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفى أوائل أغسطس من عام ١٩٢٢ ، كان أنور ، كما سبق القول ، فى بلدة يقال لها بالجوان شرقى بخارى ، وكان أكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقى فى شرذمة من أعوانه ، فهاجمته خيالة الروس فى عسكر مجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل حتى قتل رحمه الله . وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ومن رآه يظن أنه فى نحو الثلاثين لوضاءة جماله ، ورونق شبابه . وانتشر الخبر فى الدنيا كلها ، ولولوع الشرقيين بأنور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما أنه ورد من القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا عام أول فى رومة ، فقلت لأول وهلة : هذا الذى كنت أستوقعه له ، وعزمى بك والى بيروت كان قال لى : أنور هذه المرة اما أن يعلو كثيراً أو يموت . على أن موته شهيداً فى سبيل تحرير قومه هو أشرف ميتة ، وأنوه منية . ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً . ولكننى كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت أخاه كامل بك وأهله ، فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغانى ، وهم لايشكون انه آت بمكتوب منه . فسألتهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بنى على كتاب جاء من نفس أنور بعد تلك الاشاعة ، فعلمت أنه لم يرد منه بعد الاشاعة شئ . فعند ذلك هجس فى فكرى انه لو كان حياً لأسرع بالكتابة الى أهله تكذيباً للاشاعة ، اذ لابد من أن يكون بلغه ماقيل . ثم كلفونى أن استقصى لهم الخبر من سفير أفغانستان الذى كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فأحفونى على سؤاله من قبلى أنا فلما سألته بصورة خاصة ، قال لى ان الخبر صحيح ولكنه لايريد أن يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لأنور . وهوالذى أخبرنى عما أصاب الأمير أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح الى كابول فأبى . فلما عادوا يسألوننى عما سمعت من سفير الافغان ، أجبتهم ان السفير لايقول شيئاً ولكننى أنا شخصياً فى قلق من سكوته المطلق ، وأرى انه مادام الباشا لا يكتب كالعادة بخطه الى السلطانة فيخشى من أن يكون هناك قضاء واقع . وما زالوا يعللون

أنفسهم بالآمال و يسمعون لأقوال من يروى لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور حى ، وعن القادم الفلانى من تلك الديار بأنه وقع تشابه بينه و بين قتيل آخر ، وان الذى وجدت جثته وكان ظن أولا انه أنور ظهر بالتالى انه غير أنور الى غير ذلك من الأخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » ، الى أن قدم ضابط من القوقاس لقينى فى لوزان فى هـذا الشتاء ، وأخبرنى بالقصة التى كنت عرفتها من سفارة الأفغان ببرلين قبل مجىء هـذا الضابط بأشهر . ومع هـذا فغرام الشرقيين بأنور كان يحـدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أمير الالاى على رضا بك نائب أنور بياناً فى الجرائد الهنـدية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازى أنور باشا الذى كان يجاهد لتحرير تركستان فهو اليوم ليس فى أفغانستان ولا فى ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذى جاهد لمرضاته بماله ، ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هـذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى أنقرة ، فرجاؤنا من مسامى الهنـد أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الـكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » .

هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذى مهما قيل عن هناته وأغلاطه ، فلم تخرجه عن كونه عظيما . وان فيما ختمه الله له من الشهادة فى سبيل أمته ، ما يكفر عن سيئاته ان كانت هناك سيئات تذكر . لاسيما انه قـد دعاه أمير الأفغان لأعظم منصب فى دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعـلم مقدار قوة الدولة الروسية التى وقف فى وجهها . وقد اتفق الناس ، من قصرى وعمى ، على كون أنور بطلا من الأبطال ، ليس فى هـذا العصر بين المسلمين ، من يدانيه فى علو الهمة ، و بعد مرتمى العزم ، واتقاد الحمية ، وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمشمية ، من جهة ، والحياء والرقة والتواضع من جهة أخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الانسان فيه وداعة الحمام ، فى شكاسة الأسد . وقلما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشربه الا أحبه وهفا قلبه عليه ، وكثيراً ما صرح لنا أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنآناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار فى صـدورهم بردا وسـلاماً ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو وكان يقول لى: أكره الـكلام الـكبير .وأكثر ما نقم الناس على أنور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانيـة فى الحرب العامة . وكان أنور يرى أن الحلفاء تقاسموا

بلاد الدولة فيما بينهم شق الأبلمة ، قبل الحرب العامة . ففرنسة وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره فى مجلس الشيوخ الفرنساوى جواباً على المسيو بيرار فى العام الماضى . وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، أنه لو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطنة العثمانية أثرا بعد عين . لأنه مما لاينكر ان الاستيلاء على الاستانة كان أول أهداف الروسية فى دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الأناضول . ولقد اعترف الحلفاء أنه لو لم تدخل تركية الحرب و بقى الدردنيل مفتوحاً بين الروسية وحلفائها لما انهارت الروسية . وكذلك ثبت أن بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على ألمانية تقسيم السلطنةالعثمانية ، وأن تكون حصة هذه الأناضول فهذه الأسباب كلها ، مع غيرها مما ليس هنا محل شرحه ، جعلت أنور وطلعت أمام هذه القضية يقولان : ان تأبينا الانضمام الى ألمانية نخشى اما أن تنتهى الحرب بالاتفاق علينا ، وألمانية من الجملة بما نكون قد تركناها . واما أن يتم النصر للحلفاءوحينئذ فيقع تقسيمنا بين هؤلاء فيما بينهمهم فعلى الحالين نكون من الغابرين . أما اذا انضممنا الى الالمان فنحن بين أمرين : اما أن تفوز ألمانية فنخاص نحن من الخطر الذى يتهددنا من جهة الحلفاء . واما أن تنكسر ألمانية فلا يصيبنا شئ أكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع كونهما لم يتوقعا لألمانية الدائرة التى دارت عليها . إذ لم يكن متوقعاً دخول أميركا فى الحرب وربما قيل ان الحلفاء عرضوا على تركية شروطاً مفيدة تؤمن لها استقبالها فيما لو لزمت الحياد . والجواب أن تلك الشروط التى عرضها الحلفاء لم يكن فيها شئ من الاهمية ولا تعهدت روسيا بعدم مهاجمة تركية فوق ثلاثين سنة . ولعمرى لو عقد الحلفاء مائة عهد لتركية ثم خرجوا من الحرب ظافرين فمن الذى كان فى استطاعته اقامتهم على عهودهم ؟ أفلم يعاهدوا الشريف حسيناً على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فماذا جرى ؟

كانت معرفتى بأنور يوم التقينا فى ظاهر درنة فى حرب طرابلس . ويظهر اننى لما فصلت من مصر قاصداً طرابلس ، أبرق أناس الى أنور — ولا يوجد أكثر من السعاة والمفسدين وياللأسف — يحذرونه منى ، ولا أعلم الى الآن ماذا زينوا له بل علمت فيما بعد أنه بناء على هذه البرقيات المتواردة عليه أصدر أمره الى أدهم باشا الحلبى قائد معسكر طبرق ، بأن يردنى من طبرق الى السلوم . ولما كان أدهم باشا رجلا منجذاً قديما ، أجابه

بأنه لايعتقد أنني مظنة سوء . وان رده اياى بعد أن وصلت الى المعسكر والتف حولى العرب قد يؤثر فى هؤلاء تأثيراً سيئاً ، فالأحسن ان أمكن من الوصول الى معسكر أنور بعين منصور فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، فان رأى هو مايريبه منى كانت معه سعة من الوقت لاخراجى من هناك . فاقتنع أنور بهذا الجواب وتركنى أكمل السير الى عين منصور وأنا لاعلم لى بشىء مما وقع . و بعد أيام من وصولى وملاقاتى به مراراً . وأخذنا بأطراف الأحاديث من كل موضوع ، علم أن الأخبار التى وردته هى دسائس محضة ، أو ناشئة عن خدعة وحيلة ، من أناس قصدوا أن يدسوها لأغراض لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة أكيدة ، واستمرت الى أن صار ناظراً للحربية ، فكان كلما علا رتبة ازداد تواضعاً بعكس ماعليه كثيرون من قومه . وفى تضاعيف الحرب رغب الى أن أذهب الى ألمانية أول مرة لمراقبة الأحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال أنور لأحمد نسيمى بك ناظر الخارجية « كم أنفذنا الى ألمانية رجالا من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال وأقاموا أشهراً فلم يقم أحد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير الىّ) فى ١٥ يوماً » ثم لما رأى مارأى من الحفاوة التى أظهرها الألمان بى عند مازرت ألمانية سنة ١٩١٧ اعتقد اننى أقدر من غيرى على حل المشكلات المتعلقة بينهم و بين الأتراك ، فلما وقع الخلاف بين الفريقين من أجل باكو والقوقاس والأسطول الروسى فى البحر الأسود قال لى : « ان هؤلاء القوم يجلونك كثيراً و يعتقدون ميلك الخاص اليهم ، فأرجو منك أن تذهب الى برلين ، وتسعى فى نظارة الخارجية فيها فى اعتراف ألمانية باستقلال أذر بيجان والطاغستان ، كما اعترفت باستقلال كرجستان . وأسر الىّ غير ذلك من الأمور . فقلت له : « كنت على أوفاز الى سورية ، ولكن لأجل خاطرك هذا أذهب ألمانية أولاً » . فقال لى : « يكفيك فى برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوماً ثم تعود الى هنا وتسافر الى سورية » ففصلت من الاستانة فى أوائل يونيو وأنا عازم على أن لاأمكث فى برلين فوق ٣٠ يوماً . وها أنا ذا فى أوربا منذ ذلك الوقت ، وهى مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسر لى فيها أن أضع رجلى فى الشرق ، ومجنون من يظن أن المرء فى حياته مخير لامسير . أما قضية الخلاف بين ألمانية والأتراك ، فكنا على وشك انهائها لا بل قرر الألمان إجابة الترك الى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال أذر بيجان . وألححت عليهم انا بناء على طلب الوفد الطاغستانى

الذى كان اعتمد على فى قضية بلاده ، أن يسوّوا فى هـذا الاعتراف بين كرجستان ، والطاغستان ، وأذربيجان بل يعترفوا أيضاً باستقلال جهورية أريفان الأرمنية و بينما نحن فى هـذا الصدد إذ دهمنا خبر طلب البلغار المتاركة ، وارسالهم وفداً الى معسكر الحلفاء بسلانيك وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الألمانية ، والنمسوية ، والعثمانية ، فطلبت كل من أوستريا ـ هنكاريا ، وتركية ، الهدنة وتبدلت الوزارة بالاستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل جاءنى الى برلين برقية رقمية من أنور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحث بها رجوعى الى الاستانة ، فلم أبادر الى السفر مترقباً سير الحوادث الهائل يومئذ ، إذ فى تلك الأيام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخى يتهيأ للانسان . وكان يتم فى الجمع مالا يتم فى الحقب ، ولا فى القرون . ففى نحو خمسة عشر يوماً رأيت سلطنة أوستريا والمجر التى كانت ٥٥ مليون نسمة ، قد تساقطت حتاتاً ، وتفرقت أشتاتاً ، و بعد مضىّ عشرين يوماً على برقية أنور قصدت الاستانة من طريق رومانيا وركبت الباخرة من برايلا فلما وصلت بنا الباخرة الى كوستنجه ، وردها الأمر بأن لاتكمل سيرها الى الاستانة ، وأن تنقلب على عقبيها قاصدة أودسا : فشق ذلك علىّ ، ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فان عدم تمكنى وقتئذ من دخول الاستانة ، أنقذنى مما وقع فيه أكثر زملائى الذين نفوا وغربوا وشربوا مياه مالطة . فلما وصلنا الى أدوسا سألنا عن باخرة تذهب الى الاستانة فقيل لنا ان باخرة ألمانيـة اشتراها الأتراك ، أتت من الاستانة بعساكر ألمانية ، كانت بدأت تعود الى بلادها بحسب شروط الهدنة التى انعقدت فى مودوروس فهذه الباخرة ستذهب لانزال العساكر المذكورة فى نيقولايف ، وتعود الى دار السعادة . فتحوّلنا الى تلك الباخرة ، وذهبنا بها الى مرسى نيقولايف فنزل العسكر الألمانى الذى فيها الى البر ، و بتنا هناك على أن نقلع ثانى يوم الى الاستانة . فى اليوم التالى ، بينما الباخرة على وشك السفر إذ وقع منى نظرة على رصيف الميناء فبصرت بعمائم بيض فأسرعت أرى من هناك ، فاذا بالمرحوم الأستاذ الشيخ صالح الشريف التونسى ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسى وعبد الحميد بك سعيد المصرى والدكتور أحمد فؤاد المصرى ، وابراهيم بك راتب ، ويوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جملتهم ستة عشر شخصاً ، يقصدون ألمانية وسويسرة منهم من توارى

من وجه الحلفاء الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعلل نفسه بعقد صلح على مبادئ ويلسون ، إذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذ . وقد علمت من بعضهم أن الحكومة الجديدة فى الاستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، إذ لو تعرض لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصرى وذاك تونسى ، ما كان يمكن الحكومة العثمانية فى هاتيك الأيام الصعبة أن تحميهم كما أن واحداً منهم أسرّ الىّ بأشارة من رأس الحكومة الجديدة بأن أبقى فى أوربا تلك المدة ، وأجاهد فى القضية العربية على موجب برنامج ويلسون فأطلعت هذا الواحد على برقية أنور الواردة الىّ . فقال لى : وأين أنور ؟ قد انسلوا من الاستانة خيفةً : أنور وطلعت وجمال الخ .

فبعد هذا الحديث قررت السفر آيبا الى المانية ، ومنها الى سويسرة ، وجئنا جميعا من طريق الروسية الى برلين . ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر ١٩١٨ الى أوائل سنة ١٩٢٠ . وعدت الى منيخ فبرلين ، وهناك تلاقيت بأنور عائداً من موسكو . وكان يلح علىّ دائما فى الذهاب معه الى موسكو وأنا اعتذر له عن مشقة ذلك علىّ الى أن رضيت اخيراً بان أذهب على شرط أن لا أقيم فوق جمعتين وكان مرادى مشاهدة حالة الحمر بنفسى والفحص عما اذا كان يصح الاعتماد عليهم فى المسائل التى نحن فيها أم لا ؟ وعما اذا كان هناك من أمل بأن نستفيد منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقمت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسى التحقيقات التى أردتها . وفى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور وهذا آخر عهدى به ،

يودع بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هام الاوالى

أما خبر طلعت فانه وصل الى برلين ، وتوارى فى مصحة (ساناتوريوم) بظاهر تلك العاصمة وكان عقب فرارهم من الاستانة حصل هيجان بين الطلبة الاتراك فى برلين ، والتمس هؤلاء من الحكومة الالمانية تسليمهم الى الحكومة العثمانية . وأخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد الى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم . فاما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسل الى الطلبة انه حاضر لمقابلتهم ، وجاء فيما بلغنى منهم جماعة ليوبخوه على سوء ادارته وأسباب سقوط الدولة على يده وأيدى رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الارم ، فلما شاهدوه وسمعوا الدفاع الذى دافعه عن نفسه والاسباب التى بسطها لهم سكتوا ، وكان

سريع الدمعة لا سيما اذا تكلم فى المسائل الوطنية غلب عليه البكاء فلما أجهش امامهم زال ماكان من حدتهم وانصرفوا عنه . وأما الحكومة الالمانية فانها كانت تعلم أن الحلفاء لا بد أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جميعا وجوب مفارقة المانية ، ولم تستثن الا طلعت وأنور . وكنت لقيت تصادفاً كلا من عزمى و بدرى فى منيخ ، فعلمت منهما أن الحكومة فى برلين انذرتهم بأنهم ان لم يبرحوا أرضها سلمتهم الى الحلفاء . وسألت عن انور وطلعت فأجابنى عزمى : « بونلر مستثنى : أى انهما مستثنيان » و يظهر أن الحكومة الالمانية أبلغت جمالاً وعزمى و بدرى والدكتور ناظما والدكتور بهاء الدين شاكر أسباب سخطها عليهم، وعينت لكل واحد ذنو به فجمال باشا وعزمى بك غضبت عليهما لاجل المسئلة العربية ، لأن عزمى استشهد بى وقال لى : انت كنت فى سورية فهل علمتنى مسؤولا بشئ فيما أجراه جمال ؟ قلت لا . ولكننى عاتبته على أمور أخرى ليست من هذا الباب وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسره و يظهر ان جمالا دخل سويسرة متنكراً ولم نشعر بذلك وقتئذ ، بل علمناه من خاطراته التى انتشرت مؤخرا . ثم انه رجع الى المانية بعد أن سكنت الزعازع واقام بمنيخ حيث كان بعض قواد الالمان الذين كانوا بمعيته فى سورية هم من ذوى الأمر والنهى بمنيخ .

و بقى طلعت متواريا عن الانظار مدة ثم بدأ يخرج وذهب الى هولانده ومعه نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذى كان مبعوثاً عن ازمير وكان يلازم طلعت فى غربته ثم تلاقى طلعت مع هويمانس الاشتراكى البلجيكى وحصل بينهما حديث طويل ، فسأله عن قضية الارمن ، فاجابه طلعت بالواقع ولم يجتهد أن يتنصل مما فعل . فقال له هويمانس Huymans : « كان يجب أن تكتب هذه القصة كلها وتنشرها لتنير الرأى العام الاوربى عليها لأنه لا يعرفها كما تقول » فوقع فى نفس طلعت أن يحرر خاطراته فحررها من الاول الى الآخر بالتركية ولم يغبب فى الامور التى قصها ، ولا ستر حتى على اخوانه . ونال فيها من أنور ومن جمال فى بعض الموضوعات . ثم طبع الكتاب وقبل أن وزعه كان أنور قدم الى برلين فبلغه الأمر ، فأخذ عليه ماكتب . فأجابه طلعت انه هو لم يكتب هاتيك العبارات التى فيها نيل من أنور ، وانما أضافها أحد أصحابه ، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه ، ومع هذا فانه سيجمع نسخ الكتاب و يحرقها . وجمعها طلعت يومئذ

ولم يوزعها . ولكن أنور لم يقبل منه ذلك التعليل ووقعت الوحشة بينهما باطنا ، واسرّ الىّ أنور بعض أمور عن طلعت علمت منها غيظه منه ، وكنت أهوّن الأمر عليه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقى طلعت يجالس أنور ويحالسه . وكان طلعت يراسل مصطفى كمالا ويؤازر سياسته من بعيد ، بخلاف أنور . وورده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوض اليه أمر السياسة فى أوربا ويؤكد له ثقته فيه . ولم يقعد طلعت بدون حركة فى برلين ، فأقام فى شارع هاردنبرغ نمرة ٤ و ٥ تحت اسم « ساعى بك » وكان يختلف اليه كثير من أصحابه الألمان ومن رجال السياسة من غيرهم . وكان يأتى أحياناً الى سويسرة والى رومة ، ويقابل فيهما من بينه وبينهم موعد . وأسس محلا خاصاً أشبه بدار قراءة كان يختلف اليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوخى وغيرهم للمذاكرة والمطالعة ، وكنا نذهب الى هناك أنا والأستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش ، والمرحوم محمد الباشهانبه التونسى ، الذى فقدناه أحوج ما كنا اليه ، اذ كان من أفراد شبان العالم الاسلامى علما وذكاء ، وعلوهمة ، وطهارة أخلاق ، وكنا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه على الباشهانبه ، الذى كان رئيس دائرة التشكيلات فى نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه فى كل مزية . فكان هذان الصنوان من مفاخر تونس ، وماتا فى الغربة ، وهما يندبان وطنهما كما أن وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادئ ذى بدء الى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع « رادك » أحد زعمائهم وتفاءل خيراً بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب الى موسكو . ولكن قبل قتله بقليل رأيته زاهداً فى مودتهم وصرح لى قائلا : « إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، أفلا ترى كيف فعلوا باذربيجان وضموها ثانية الى الروسية ، بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها . وبناء على اقتراح طلعت تأسس فى برلين النادى الشرقى ليكون مجمعاً للشرقيين قاطبةً ، بدون تفريق بين الأجناس والأديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين فى البداية واقترح أن يكون هذا العاجز رئيس المؤسسين ، ووافقه الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادى والتأمت الجمعية العمومية لانتخاب مجلس الادارة بالاقتراع السرى ، انتخبت رئيساً باتفاق الآراء ، وكان طلعت ممن سعى فى ذلك . ثم اجتمعنا فى

النادى للمذاكرة فى أمر بناء المقبرة الاسلامية ببرلين ، فانتخب الجمهور لجنة وأول من اقترح أن أكون أنا رئيسها كما حصل هو طلعت . وكان لايصدر عن رأى الا شاورنى فيه أثناء مقامنا فى عاصمة الألمان . وكان يختلف الى صاحب بولونى كان أبوه ياوراً لساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ، وأتاح له الزمن المجىء الى سورية ولبنان وتعرف بآل أرسلان منذ أكثر من ٤٥ سنة . فلما شاهدنى ببرلين وهو مهاجر اليها من الروسية ، وأنا مهاجر اليها من الشرق ، صار يتردد على هو وابنه ، ثم توفى الوالد وبقى الولد على العهد ، وكان بين هذا وبين بعض رجال البعثة البريطانية ببرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغبنى فى الملاقاة مع بعضهم ويبين لى مافى ذلك من الفوائد لمصلحة بلادى . فكنت أجاوبه : « لاأرى فى ذلك مصلحة ولا أعتقد أنهم يريدون من مواجهتى سوى الاطلاع على الأخبار ، وبقيت متأبيا الاجتماع معهم مدة ، والبولونى يغادينى ويراوحنى ، الى أن شاورت طلعت فأشار علىّ بأن أقبل الملاقاة معهم لنرى ماذا يريدون ، ولعل هناك خيراً . فلما عاد البولونى إلىّ أجبته الى الملاقاة ، وذلك فى الفندق « كونتيننتال » الذى يسكنه البولونى نفسه ، وحصلت المواجهة وطالت نحو ساعتين . وقد جرى البحث فى المسئلتين العربية والتركية ، فأبديت أفكارى فى كل منهما ، وصرحت بما يخالج ضميرى من التعجب لسياسة بريطانيا العظمى الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم ترنا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف انها تخدم بعكس ماتنوى السياسة البولشيفيكية فى الشرق . وليس هنا محل سرد مادار بيننا وبينهم من المناقشات ، اذ ذلك يطول ولكن هناك نقطة لابد من تعيينها : كان الانكليز يريدون أن لايرجعوا الى الوراء فى مسئلة معاهدة سيفر التى كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون اقناع الترك بقبول المعاهدة مبدأ ثم تعديل مايلزم تعديله منها فيما بعد ، لكن على شكل يقال له تعديل فى كيفية التطبيق . فأخذوا يبينون لى استحالة النكول عن معاهدة سيفر ، واصرار انكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدأ بها . فأجبتهم اننى لاأرى امكاناً لامضاء الترك هذه المعاهدة ، اذلم تبق لهم من أدوات الاستقلال شيئاً وكان يمكن الدول أن تقول للاتراك : ان كنتم لاتمتثلون لهذه المعاهدة فاننا نسلب من يدكم البقية الباقية فعليكم أن تختاروا أهون الشرين . هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون

بعد هذه المعاهدة على شئ تسلبونهم اياه . فأما وقد جردتهم هذه المعاهدة من كل أسباب الملك فلاتقدرون بعد الآن أن تهددوهم ولاأن تنذروهم بخطر أعظم . اذ يكون جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئا زيادة على ماسنفقده بقبول هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الأقل شرفنا . فكان جواب الانكليز لى « كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الاستانة . وكان ممكناً اخراجهم منها » فقلت : « بموجب هذه المعاهدة لايبقى للأتراك حكم حقيقى لافى الاستانة ولافى غيرها » . ثم قلت لهم : « انكم تناقشوننى فى أمر معاهدة سيفر فأنا أقول لكم بصراحة تامة انه لما دار البحث على المسئلة العربية ، جاو بتكم جواب رجل ذى علاقة وصلاحية لأننى عربى وكثير من العرب يوافقون على ماأقول ، وقد كنت من نواب الأمة العربية فى الندوة العثمانية . فأما الجواب على المسئلة التركية فمهما كان من ارتباطى مع هؤلاء الجماعة سواء برابطة الاسلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فأقول لكم ليس لى أن أبدى فيها رأياً . والرأى فيها انما هو للاتراك أنفسهم » . قالوا : « وهل يوجد من نقدر أن نتذاكر معه من الأتراك ذوى الصلاحية للكلام » . قلت : « وهل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت » ؟ وقد كانوا هم يعرفون أنه فى برلين ، ويعلمون علاقة أحدنا بالآخر . ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف « فقالوا : وهل يمكنك أن تجعل بيننا و بينه ملاقاة ؟ » قلت : « ينبغى أن أسأله أولاً ثم أجاوبكم » . و بعد أيام دعوتهم ودعوت طلعت الى الغداء عندى ، ودار بحث طويل وسألوا طلعت فى نهاية الحديث هل اذا أعيد الى الصدارة العظمى يقدر أن ينفذ معاهدة سيفر ؟ فأجاب : « ان بقى الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا أنا ولا غيرى يقدر على انفاذها . وان كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجة الى عودتى الى الصدارة لأجل تقرير الصلح » نعم وعدهم طلعت أنه اذا رضيت انكلترة بتغيير المعاهدة يذهب هو الى أنقرة ويجتهد فى اقناع الكماليين بالصلح . وأتذكر أنه شاورنى بعد انصراف الجماعة قائلا : « هل تذهب معى الى انقرة فيما لورضى الانكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدنى فى اقناع الحكومة الملية بالصلح ؟ » . قلت له : « أذهب معك بشرط أن يعطينا الانكليز ورقة رسمية بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وانهم يدعون تركية الملية الى الصلح ، والا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول ، لأننا نعلم أن رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ثم لاقل سبب

يتنصلون مما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه . فليكن بيدنا وثيقة نتوكأ عليها فى أنقرة فقال « هذا لا ريب فيه » . ويظهر أن الانكليز وقتئذ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنون أن اليونانيين غالبون للترك لا محالة ، فلويد جورج الذى كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطة له ، كان لا يزال منتظرا نتيجة الحرب الاناضولية فلذلك كتب الانكليز الذين واجهونا كل مادار بيننا و بينهم الى لندن التى كان منها صدور الأمر بمقابلتنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر وأما نحن فأرسلنا الى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة . وبقى المأمور الانكليزى يجتهد بابقاء الحبل معنا موصولا ، فتوالت الولائم وتبودلت الزيارات ، وارتاح طلعت كثيرا الى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المعارفة ، وصادف أثناء ذلك احدى جيئات أنور الى برلين ، فلم يسعنى ولم يسع طلعت الا وقوفه على ما جرى بيننا و بين البعثة البريطانية . فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : « كل هذه المفاوضات خداع فى خداع » . وأظهر اصراره على العمل بالاتفاق مع الروس . ولما رجع الى موسكو قال للبلشفيك ان طلعت اتصل بالانكليز وعول على صحبتهم . وفعلا كنت أرى طلعت فى تلك المدة مقلعا تماما على فكرة البلشفة ، يراها مضرة بالترك والاسلام ، كضرر الاستعمار لا سيما بعد أن ثبت له أن الحمر عادوا فاستردوا الحرية التى كانوا أعطوها للأمم التى أعلنت استقلالها عن الروسية . ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية حتى نهبوا معها الاموال وقتلوا الرجال وأهلكوا الحرث والنسل . وكان لطلعت معرفة بمجلس نواب انكلترة محب لتركية منذ القديم يناضل عنها كلما لاحت له فرصة . فلما فر طلعت الى ألمانية بعد الكسرة ، أرسل الى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته فى ألمانية أو هولاندة ، أملا بحمله على السعى فى مصلحة تركية ، فأجابه الانكليزى « ان النيران الآن على تركية شديد ، فلا أقدر أن أصنع لكم شيئا ، ولكن بمجرد ما أحس استعداد القوم لقبول الكلام ، لا أتأخر عن الدفاع عنكم » فلما رأى طلعت انه قد حصلت بينه و بين الانكليز هذه الصلة ، كلف المأمور الانكليزى الذى كان يختلف الينا أن يسبر له غور هذه المسئلة و يعرف له ، هل يمكنه أن يتلاقى بذلك « السير الأنكليزى » صاحبه وكان هذا الكلام امامى ، لأنه من الأول الى الآخر ما جرى منهم اليه ولا منه اليهم حديث الا كنت حاضره ، والقسيم المشارك لطلعت فى الرأى فيه . فأبرق

الانكليزى الى نظارة الخارجية بما وقع فاستدعوا ذلك المبعوث وأوعزوا اليه بأن يجيز المانش ويقابل طلعت فى جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة . وأبرقوا بالجواب الى الرجل الذى كان الكلام معه فى برلين فجاء هذا الى وطلب منى ابلاغ مآل البرقية الى طلعت باشا حالا ، اذا كان لا يريد أن يخلف الميعاد . وكان طلعت ذهب الى منيخ لتبديل الهواء وأبقى عندى عنوانه موصيا اذا جد نبأ مهم ان ابرق اليه بالأوبة . فأبرقت اليه بأن صاحبه الانكليزى الذى يبغى هو لقاءه جاء الى مدينة «هام» فى الرين ينتظر مجيئه . فخف طلعت الى برلين وجاء رأساً الىّ وذهبنا الى الانكليزى الذى كان هو الوسيط فكرر له مآل البرقية التى وردته وذهب طلعت الى هام ، وتلاقى مع صاحبه المبعوث وعقدا جلستين طويلتين وتفارقا ، وعاد طلعت الى برلين فأعاد علىّ كل ماجرى بينهما من المذاكرات . وكان من جملة كلام المبعوث الانكليزى قوله هذا : اننى أنا أشهد ان حكومتى تابعت نحو تركية سياسة خطأ قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعد الحرب ، وان سياسة انكلترة العوجاء نحو تركية فى السنين الأخيرة هى التى ساقت الاتراك رغما الى محالفة الألمان . ولقد بينت لقومى مراراً خطل هذه السياسة فلم يسمع وياللاسف لقولى ، لأن الأكثرية هى ضد تركية . والآن لست آتيا من قبل حكومتى ، ولا أنا منها ، ولكننى أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وأن اعضدها بقدر استطاعتى . ولا لزوم لايراد ماقاله طلعت لأنه معروف انه كان يطلب الغاء معاهدة سيفر ، واعادة استقلال تركية مع تراقية وازمير ، وكل بلاد أكثرية أهلها ترك ، وينزل عن كل حق للدولة العثمانية فى مصر وبلاد العرب ، وبعد ذلك تمشى تركية مع انكلترة بحسب مبادئ الصداقة القديمة ، وان لزم عقد محالفة فتركية متهيئة لذلك . ووقعت هذه المقابلة فى أواخر فبراير (شباط) سنة ١٩٢١ . وفى ٩ مارس عقد الطلبة المصريون احتفالا كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبت أنا خطبة هنأنى عليها ولم أشاهده بعدها .

اذ فى ١٥ مارس (آذار) نحو الظهيرة تلفن الى أحد أصحابى من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية فى برلين قائلا « ان رجلا ارمنيا قتل الصدر الأعظم الأسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار . وما مضى دقيقة حتى دخل علىّ الشيخ عبد الرحمن سيف الايرانى صاحب مجلة « آزادى شرق » ومعه اثنان افغانيان ، ليخبرانى بالحادثة ، ثم وصل

الشيخ عبد العزيز جاويش ، وذهبنا الى محل الفقيد معا . وكان لا يبعد عن منزلى أكثر من عشر دقائق ، كما أن القتل وقع فى نفس الشارع الذى كان يسكن فيه طلعت غير بعيد عن بيته ، اذ كان هو يسكن فى نمرة ٤ الى ٥ والقتل حصل امام نمرة ١٧ . وكان لذلك وقع عظيم ببرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الامبراطورى ندبت طلعت ، وتأسفت عليه وذكرت مزاياه ، وانه كان مع أنور السبب فى محالفة تركية الألمانية . وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فغمزته . وعرضت بمسئلة الارمن ونسيت صداقته لالمانية . وأقيم له مأتم حافل حضره كثير من الألمان مع الجالية الشرقية ، وأودعت جثته محلا فى مقبرة ألمانية الى أن أكملنا المسجد والابنية التى أنشأناها فى الجبانة الاسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز و بمساعى امام السفارة العثمانية حافظ شكرى افندى . فنقلت التجاليد الى مستودع الاجساد الذى بنيناه فيها لأجل ايداع الاجساد التى يراد نقلها الى وطنها الأصلى . فهى هناك مع تجاليد جمال عزمى بك والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالهما الأرمن بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً . أما قتل هؤلاء كلهم فكان كله غيلةً وخلسة من الوراء بحيث لم يكونوا يشعرون الا وهم صرعى . وقد كان طلعت فى البدء بلغه ترصد الأرمن له ، فكان يدارى ويرامق ولا يخرج وحده ، ولكن ما مضت أشهر حتى استرسل واستهتر وأخذ يخرج وحده فى النهار الواحد مرتين وثلاثاً . فلما بلغ الأرمن ذلك أرسلوا اليه شاباً مصاباً بالسل موتوراً فيما يقال بقتل أهله اسمه تاليريان ، فقالوا له أنت لا تعيش أكثر من سنة ، فاذا كان لا بد من أن تفارق الحياة قريبا فالأحسن أن لا تفارقها قبل أن تقتل طلعت هذا الذى قتل أمة بأسرها من الارمن . وقيل انهم تعهدوا له اذا قتل طلعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة احدى الدول الكبرى ذات الكلمة العليا . ومن المحقق انهم سعوا فى ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما انه يقال كثيرا ان سفير هاتيك الدولة سعى بمزيد نفوذه فى برلين بتخلية سبيل القاتل المذكور ، وأخلى سبيله لشهرين من حبسه . فنقم الترك ذلك على الالمان الى هذا اليوم ، وعند ما طلب الحلفاء فى مؤتمر لوزان بهذه الايام تصفية أملاك الالمان التى فى تركية لحساب الحلفاء أجابوهم حالا الى طلبهم . ولما عوتبوا على ذلك من جهة الألمان أجابوا : « اننا لم ننس اطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه . ويكون من باب الفضول أن نقول ان طلعت كان عصاميا

فكل أحد يعلم انه رقى فى مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ، بمعاش الف وخمسمائة قرش فى الشهر ، الى الصدارة العظمى . ولا جرم أن سرعة هذا الترقى كانت بسبب الانقلاب واعلان الدستور ، ونفوذ جمعية الاتحاد والترقى التى كانت هى سبب الانقلاب ، وكان طلعت من أعضائها . ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلا خارق العادة فى ذكائه ، ومضائه ، وحزمه ، وعزمه ، لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقى بلا منازع ، فقد تصرفت هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة ، وتصرف طلعت بزمام هذه الجمعية جميع هذه المدة . وكان هو دائما روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلى ، ولو لم يكن كل الاحيان رئيسها الرسمى . وكان هو المرجع الاول والاخير للدولة من قبل أن يتولى الصدارة ، بل لحظت أن الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرت شيئامن ضعفه ، وخطأت فى نفسى رأيه بقبولها . وأظن أن الذين حفزوه الى ذلك هم رفاقه مدحت شكرى ، والدكتور ناظم ، والبهاء شاكر ، وضيا كوك الب ، والدكتور رسوحى هؤلاء الذين كانوا أثناء الحرب عماد المركز العمومى للجمعية. وبالجملة فلوكان فى جميع أعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو يقادره ، مع كثرة عددهم وطموح الكثيرين منهم الى المعالى ، لما انفرد هو بالرئاسة على جميعهم ، وقد قلت لما مات ان هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق انهم لم يجدوا من بعده رئيساً يتفقون عليه ويضم شملهم . ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم فى المكاتب العالية ، بل كان جميع عرفانه شدواً من هنا ومن هناك ، والتقاطاً من عشرائه الذين كان منهم عدة نفر من أتم الناس تحصيلا ، ولكن كان طلعت يجبر ما نقصه من العلم المسموع بالعلم المطبوع ، ويسد جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه . وهناك مزية أخرى ضمنت له حفظ تلك الرئاسة على أقرانه وهى معرفته أن يعصم نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطاعم الوبيئة ، وعدم استخدامه شيئا من نفوذه الطائل ، فى افادة مال ، أو جمع ثروة ، بحيث سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته ، ومكن له ذلك دعائم رئاسته ، بينما كثيرون من زملائه قد غمسوا أصابعهم فى أدهان المنافع ، منهم من اشتط ومنهم من اقتصر . وكان يقول : «أفلا يكفى كون هذه الأمة تحملتنى على جهلى ، أفأحملها أيضاً على سرقتى واغلالى؟» نعم تولى طلعت أمور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها شائبة اغلال ولا اسلال ،

وستر كثيراً من عيوبه وكفر عن كثير من أغلاطه ، بعفة نفسه ، ونزاهة طبعه . ولما وصل الى ألمانية سنة ١٩١٨ كان فى جيبه ٥٠ الف مارك فاما نفدت أرسل اليه أحد أصحابه ممن أثرى بسبب انتسابه الى طلعت مبلغ ٢٠٠ الف مارك ، كان ينفق منها ، فلما مات كان باقياً منها شئ يسير . ووجدت عنده بعض علب ذهبية وقطع نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض اخوانه ، كان قد ادخرها للبيع فيما لو انبتت به أسباب المعيشة . أما خاطرات طلعت فقد كانت احدى شركات الطبع بألمانية تقدمت لشرائها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية ، وتنقلها الى سائر اللغات ، ولكن أرملة طلعت لم تبتّ الى اليوم فى أمر هذه الخاطرات شيئاً .

أما جمال فقد تقدم شيء من ذكره وكيف كانت حركته بعد الحرب العامة ، وكيف ذهب الى افغانستان وحظى عند ملك الافغان بمنزلة سامية ، وذلك انه تولى تنظيم الجيش الافغانى ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثمانى ، وأفلح فى ترتيب الجيش وتدريبه ووزعه على الانماط العصرية الحديثة ، بحيث كان عند ظن الملك فيه . وبعد أن أقام بكابول نحو سنة جاء الى اوربا لمشاهدة عائلته التى كان تركها فى مونيخ وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة افغانستان ، وكان قد انتدب ما يسنر باشا الالمانى ، رئيس مهندسى السكة الحجازية سابقاً للذهاب الى افغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاختصاصيين ، لفحص البلاد فحصا مدققاً وعمل برامج للطرق الحديدية ، والاعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن وغير ذلك وقد لبى مايسنر باشا الطلب ، وانتدب لكل فن من أربابه من يوثق بعلمه وعمله . وليس أسهل من وجود هذه الطبقات فى المانية ، لاسيما بعد الحرب العامة التى قلت فيها الاعمال وتوفر العمال . ولكن ابت الحكومة الالمانية ان تنفق على هذه البعثة من مالها أو ترسلها من قبلها ــ ربما كان ذلك خوفاً من انكلترة ، التى تحذر جداً من تثقيف افغانستان على الطرق العصرية ــ فذهب جمال الى مونيخ واتخذ واسطة للدخول الى فرنسا ، وسمحوا له بالذهاب الى باريز ، وقيل انه قابل المسيو بوانكاره وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسوية ، بشرط أن ترضى هى بالانفاق على البعثة الفنية من مالها ويكون للفرنسيس فيها بعد حق الرجحان على غيرهم فى العمل . فرضيت الحكومة الفرنسوية باقتراح جمال كما اخبرنى هو نفسه حيث لقيته ببرلين بعد ايابه من فرنسا ، وان

كنت لم اسمع الى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت الى كابولى لهذا الغرض ، بل سمعت بذهاب بعثة فنية ايطالية . ثم ان جمال عاد قاصداً افغانستان من طريق موسكو ، وكان ذلك بعد أن تولى انور كبر الثورة فى تركستان على الروس ، فلم يتوقف جمال عن المرور من الروسية اتكالا على كونه من رجال الحكومة الافغانية ، لايقدر الروس أن يمسوه بسوء ولكن السوفييت وضعوه تحت المراقبة كما كانوا وضعوا الدكتور ناظما وخليلا عم انور . فتمكن جمال بذكائه أن يقنعهم باستيائه من حركة انور ، وأعلن ذلك فى الجرائد وطعن فى سياسة انور ثم اتفق معهم على أن يذهب هو الى انقرة ، ويتكلم مع الحكومة المليةفى عمل قرار يمنع انور من الاستمرار على عداء الروسية . فذهب جمال قاصداً الاناضول ، وهبط أولا تفليس عاصمة كرجستان وأخذ يجول فى الشوارع مطمئناً ظاناً انه باستصحابه مرافقين يأمن شر الغيلة فكان الارمن هيأوا له من يغتاله هو وصاحبيه . وجاء خبر قتله الى اوربا فى نحو ٢٥ يوليو (تموز) عام ١٩٢٢ على أن قتله وقع فى ١٨ أو ١٩ من ذلك الشهر واتذكر اننا كنا يومئذ فى لندن ، نحتج على القرار الذى اصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد منطوق المعاهدة السرية التى بين انكلترا وفرنسا ، بشأن سورية وفلسطين تلك المعاهدة التى اعطوها اسم «انتداب» فدخل جنرال انكليزى علينا ونحن فى فندق سسيل وهو فرح مستبشر قائلا « قد قتل جمال باشا ، وعسى أن يلحق به انور» فلم أرد أن أعرفه بنفسى لا علم ماذا يقول ، وانما علمت منه ومن غيره من الانكليز ، ومن لهجة الجرائد انه مع كل بغضاء الانكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا فى المصارعة التى وقعت بين أنور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار أنور . هذه هى الحقيقة . و بعبارة أخرى يرون فى انكلترة الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البلشفى ، فيجب على المسلمين والشرقيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأن لها معنى كبيراً . فيكون بين موت جمال وموت أنور ، نحو جمعتين فقط ، و بينهما و بين طلعت نحو سنة وأربعة أشهر الى سنة وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرفوا بازمة الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ، وكان لهم دور فى التاريخ العام كله ، اصبحوا فى مدة سنة واشهر كهشيم المحتظر . والبقاءلله وحده . واختلفت الروايات فى كيفية غيلة جمال ، فقيل ان البلاشفة وان كانوا اذنوا له بالذهاب الى الاناضول فقد كانوا غير واثقين به ، ويخافون أن ينقلب عليهم كما انقلب أنور

أو أن يقاوم سياستهم فى افغانستان بعد رجوعه اليها فاذنوا له بالمسير الى أنقرة من جهة ، ودبروا له مكيدة القتل من جهة أخرى بواسطة الارمن الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا استراحوا من غوائله . وقيل بل جمعيات الارمن التى قتلت طلعت وجمال عزمى والبهاء شاكرا والامير سعيد حليما الصدر الاعظم الاسبق ، هى التى قتلته . وترى البلاشفة يتنصلون كثيراً من تهمة قتله قائلين . « لماذا نسعى فى قتل رجل كان يسعى فى مصالحنا؟ » وقد قبضوا على اناس كثيرين من المتهمين بقتل جمال ، ولكننى ما سمعت أنه قتل منهم أحد الى اليوم . وكان جمال ذكى الفؤاد ، متوقد الذهن ، سريع الفهم ، ماضى العزم كالسيف الصارم مهاب الطلعة ، لائقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسداد تدابيره . ولكنه كان سريع الانفعال جداً ، متكهرب الاعصاب ، شديد الخنزوانه ، مغرما بالمجد ، مولعا باكتساب دوى الذكر ، متنفجاً ، متغطرساً ، جباراً ، مفتوناً بأن يوصف بالجبروت ، محباً للانتقام والبطش ، جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليما مطلقاً ، مع ما فى نحيزته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة بخمرة النهى والأمر ، فمضى فى شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر الى شئ من العواقب . وكان بعض المتملقين له و بعض المتهورين فى السياسة التركية الطورانية يزينون له أعماله ، ويثيرون من نخوته ، بقولهم له ان الآمال انما هى منعقدة به لا بغيره . فكانت تزيده هذه الأماديح طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشك مع هذا فى كون الحرب ستنتهى ان لم يكن بظفر المانية وتركية ، فبصلح يضمن لكل فريق مكانه ولم يكن من غروره يعتقد أصلا بأن بلاد العرب يمكن أن تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الاسباب التى حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق ، ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقى مدة أيام وهو لا يصدق الخبر ويظن أن أولاده انما خرجوا من المدينة وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وانه متى بلغ الشريف الخبر يردهم الى الطاعة . وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الأمر وأن رهبة الشريف من جمال تمنعه منه ، والحاصل أنه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمام حريته فى العمل وانطلاق يده بما شاء غروراً وسكراً ، أيام كان فى سورية . فخرج عن دائرة المعقول فى كثير من الامور . ووصل الى أن صار يجمع أعيان بلدة بلدة ، ويحصى عددهم ، وينفى منهم ١٠ فى المائة

آخذاً اياهم بالقرعة ، أو ترتفع الاوراق الى قيمة الذهب . أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسئلة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن ثار الشريف على الدولة ، ولا انشق العرب على الترك ، فليس بصحيح . اذ علاقة الشريف بالانكليز وتحفزه للقيام على الدولة فى أول فرصة تلوح يرجعان الى أيام السلطان عبد الحميد نفسه ، الذى كان يعلم ذلك . ولما أخذ الاتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم : « انني ابرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لانني أعرف حقيقته » . وقد كانت مداخلات الشريف لانكلترة فى أمر الثورة من قبل الحرب العامة وسنة ١٩١٢ توجه أحد الأمراء المصريين الى لندرة مفوضاً اليه أن يسعى فى اتفاق بين الانكليز والعرب على أن انكلترة تقدم للعرب السلاح وهم ينتقضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لانكلترة فى المستقبل . ولما عرض ذلك الامير المصرى ــ وهو حى يرزق الآن ــ هذا الاقتراح على الانكليز تلكأت نظارة الخارجية بلندرة عن قبوله ، ولم تكتم السبب فى رفضها هذا المشروع وهو : « ان انكلترة تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحاً . وبالفعل كان الانكليز منذ سنين قد بدأوا يمنعون تجارهم من مبيع السلاح الى عرب اليمن . وعرب عمان ، وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبثون اناساً يشترون البنادق التى فى أيديهم بزيادة على ما تساوى ، وكل هذا حتى اذا أرادت انكلترة احتلال تلك الاقطار ، وجدت أهلها عزلا مقامى الاظفار . ثم ان الشريف راجع انكلترة فى مشروع التحالف العربى الانكليزى لاول الحرب ، فلم يجيبوا نداءه أملا باستغنائهم عنه فلما تمطت الحرب عليهم بصلبها ، وناءت بكلكلها ، شعر الانكليز بالاحتياج الى العرب ، فعادوا الى قبول اقتراح الشريف وعلى كل حال فليست قسوة جمال فى سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف . وعلى فرض أن جمالا لم يفعل ما فعله ، فكانت الثورة واقعة ، وكان ما ظهر من نفور الاهالى من الترك ، وشماتة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة على المانية وتركية ، لا بل فرح كثيرين من العرب ، لا سيما فريق الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصارى الكاثوليك بانتصار فرنسا ، والنصارى الارثوذكس بانتصار انكلترة والمسلمين أيضاً من ذلك الحزب الممالئ للشريف بظفر الحلف العربى الانكليزى . كل هذا

كان وقع كما وقع سواء قتل جمال من قتلهم أو لم يقتلهم ، ينبغى لنا أن نعترف بذلك ان كنا نتوخى حقيقة وتاريخاً ، ولكن خطأ جمال فى رأيه وجنايته الكبرى على العرب والترك فى فعله هما من الوجوه الآتية : —

أولا — ان فريقا من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم فى الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقى ، والقانون العثمانى لا يعرف الاتحاد والترقى بل السلطنة العثمانية .

ثانيا — إن فريقا آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائن قطعية تذهب فى جزائهم الى درجة القتل . وقد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفى بأنه من باب « القتل السياسى » مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس أو نفى على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً — على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأى ، فتح هذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة أناس قد عفا عنهم ونكء القروح التى كانت قد سكنت نوعاً ، واثارت عواطف العرب وحفائظهم واظهار كون الترك يريدون الانتقام فى هذه الفرصة التى سنحت لهم للبطش ، وتعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً — ان الألوف الذين نفاهم الى الأناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم فى الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هى السياسة ، فضلا عن أن يكونوا قائمين للدولة فكان تغريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ليرة شهرياً فكان خطأ جمال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية ، وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الأجنبية الكثيرين فى الشرق ، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جمال وموبقاته فكان الذين يتذكرون فضل الدولة العثمانية اليوم « وبضدها تتبين الأشياء » لا يجدون الأجوبة التى يجاوبها الآن سعاة السيطرة الأجنبية ، المدينون بهذه الأسلحة المعنوية لأحمد جمال وحده . فجمال خدم الحلفاء فى بلاد العرب أثناء الحرب كما أن الحلفاء خدموا الأتراك فى بلاد العرب بعد الحرب . . . .

هذا هو أهم خطأ جمال وجنايته على هاتين الامتين . ولقد خصصنا لهذه المسألة كتابا عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخراً تناقلتها الجرائد ، فلا نجد لزوما أن نزيد هنا من هـذا الموضوع على ما ذكرناه . وقد نشر جمال أثناء وجوده بسورية كتابا بالتركى والعربى شرح فيه الأسباب التى دعته الى محاكمة الذين قبض عليهم وقتل من قتل منهم ، ونفى من نفى واستظهر على حقية ذلك بالوسائل والشهادات مما رآه كافيا للقصاص. وان كان من يقرأ الـكتاب لايرى كل تلك البراهين نواصع ، ولا جميع أولئك الشهود مقانع . كما أنه قبل موته بقليل كان نشر خاطراته ، وتـكلم فيها على الحرب العامة وعلى ثورة ملك الحجاز ومقدماتها ومصايرها وعلى مسألة سورية ، والأسباب التى حملته على القتل ، والصلب والنفى من الأرض ، ومآلها خيانة هؤلاء للجامعة الاسلاميـة وتألبهم مع الأجانب أعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للأجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربمـا كان بعض ما قاله صحيحا ان لم يكن كله ، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالى بجامعة اسلامية ولا شرقية ومن يعتقد أن انتصار انـكلترا هو انتصار العرب ولـكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهريا وقالوا بالقومية التركية البحتة أن يعاقبوا بالقتل من العرب من نبذ الجامعة الاسلامية وقال بالقومية العربية البحتة أفتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم

هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم ممـا عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالأذن ، فيكون ذا قيمة عند الخلف الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى فى الحرب العامة وفيما بعدها لأنه بيان عن عيان . وقد علمت الخلق التجارب ، انه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد على الحوادث ، زيد فى الأخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والابدال الى أن تصبح الأخبار فى واد والحوادث الحقيقية فى واد ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعاً ، فالخبر أمانة فى ذمة المعاصر للحادث ، ولا سيما المطلع والمشاهـد ، ينبغى أن تؤدى تلك الأمانة على أصلها ، نصحاً بالرواية وحرصاً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .

* * *

بعد تحرير ما حررناه من خبر المرحوم أنور بنحو شهرين أو أكثر ، قدم الى الاستانة الملازم محيي الدين بك أحد مصاحبى (ياورية) أنور باشا ، ومعه ضابط آخر اسمه محيي الدين من فرغانة ، فأما الأول فقد عرفته جيداً فى موسكو ، عند ما ذهبت اليها بناء

على رجاء أنور كما تقدم عن ذلك الخبر فى محله .

وقد أفضى الضابطان المذكوران الى جريدة (توحيد أفكار) عددها المؤرخ فى ١٢ تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ بالمعلومات الآتية ننشرها تتمة لترجمة ذلك البطل وتصديقا بين يدى ما قدمناه . قالا : ـ

«ان أنور باشا رحمه الله بعد انتهاء الحرب العامة اتفق مع الروس البولشفيين ، بناء على مواعيدهم له بانقاذ العالم الاسلامى ، ولكنه ما عتم أن لحظ بعد عودته الأخيرة من ألمانية (وهى التى ألحّ علينا فيها أن نأتى معه الى موسكو) أن الروس كانوا يخدعونه وانهم بدلاً من أن ينقذوا المسلمين ، كانوا يلحقون بهم فنون الأذى ، وأنواع العذاب ، فلحق بتركستان ، وأثار عليهم الأهالى هناك ، وما استقرت قدمه فى تلك البلاد ، حتى نظم فيها قوة عصرية الشكل واشتغل بترقية أحوال الاهلين العلمية ، والصحية ، والأدبية والمادية ، فانضم اليه الأهالى من كل جانب ، وانسلوا من كل حدب لا سيما مهما كانوا يعانون من قسوة الروس ، والتحقت بجيشه خمسة آلاف فارس من فرسان تلك الأقطار ، وأسس معملا لصنع القرطاس النارى (الخرطوش) ، فأزاح بذلك علة عظيمة ، ومع نقصان الأعتاد والأسلحة بدأ الحرب ، وهزم الروس فى وقائع عديدة ، وغنم منهم واحتلت جنوده خمس ولايات من أصل الولايات التسع التى تتركب منها بلاد تركستان فعند ذلك ارتاعت الحكومة البولشفية ، وساقت عليه ٨٠ ألف مقاتل تحت قيادة قامانيف .

قالا : ولم يكن بامكان الروس مع ذلك أن يتغلبوا على أنور باشا . لو توفرت عنده عدة القرطاس ، فلما نفذت العدة من بين يديه اضطر أن يتقهقر الى الوراء ، فبلغ بلد « باجوان » وهناك وقع فى مأزق آخر ، وهو أن جيشه لقلة الضباط أصبح لا يقدر على ادارة جناحيه فتمكن العدو من خرق ميمنة أنور ، فجاء المرحوم بنفسه وتولى قيادتها ، وكان ممتطيا جواده وهو يباشر الحرب والقيادة بنفسه . وكان الروس قد خبأوا رشاشات لم يعلم بها ، ووقعت الواقعة أمام ثكنة (آب دره) فى باجوان فأصابه رصاص من تلك الرشاشات أرداه شهيداً ، وذلك فى الساعة التاسعة والدقيقة ٣٠ صباحا من أول يوم من أيام عيد الأضحى سنة ١٣٣٨ و بذلك انهزمت القوة التى كانت معه ، مع أنه الى تلك الدقيقة التى سقط بها كان النصر مرافقا له ، وكان تابور كامل من الروس قد استسلم له و بعد الواقعة باربع

وعشرين ساعة اجتمع نحو ٣٠ ألف من الأهالى وعملوا له مأتماً حافلا جداً ، جرت به العبرات سيولا ، وحملوا نعشه على الأكتاف ، وواروه التراب فى مكان يقال له « جكن » و بنوا عليه قبة وجعلوا يزورونه أفواجا والآن يقرأ القرآن عند قبره ١٢ حافظا بالتناوب بصورة دائمة وكان برنامجه الحربى لولم يقع شهيدا التراجع بانتظام الى (پامير) والاعتصام بجبل قلعة خوم حيث كان يترقب فرصة الكرة على العدو . ولم يكن معه عدد عديد من ضباط الترك بل كان معه ملازمان نافع وخليل خلصا من تلك الواقعة وقريباً يحضران الى تركيا . وقد استمرت حرب أنور للروس ١١ شهراً وأحبه أهالى تلك البلاد حباً جا ، لما رأوه من تواضعه ودماثة أخلاقه وتوطئة كنفه لخاصتهم وعامتهم ، وقد أحدثت ثورته هذه انتباهاً لا يوصف فى تلك البلاد ولا تزال الثورة مشتعلة ، ولا يشك أحد من سكان تلك الأقطار بأنهم لا بد من أن ينالوا استقلالهم » انتهى كلامهما

وقالت جريدة توحيد افكار التى يرأس تحريرها وليد بك أبو الضيا من كبار مفكرى الأتراك : ان المرحوم أنور باشا لم يحسن الادارة فى تركيا ، وألحق بوطنه أضراراً لا تنكر ، ولكن له فى جانب تلك المضار منافع عظيمة ، فقد خدم خدمة فائقة فى حرب البلقان وفى حرب طرابلس الغرب ، ثم فى تنسيق الجيش وكان شجاعاً ، ديّناً ، عفيف المئزر ، حر السجية ، ثم استمطر عليه الوليد رحمة ربه ورضوانه .

ومما ذكروا عنه أنه وجد فى جيبه ساعة شهادته كتابان من زوجته الأميرة ناجية ابنة الأمير سليمان أخى السلاطين عبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس . ووجد مصحف صغير كان مربوطاً بذراعه تحت القميص ، وكان لا يفارقه . رحمه الله وأكرم مثواه .

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين

سيدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه

للامير شكيب

— ١ —

بعد أن أرسلت الى المطبعة تكملة سيرة السيد احمد الشريف (١) رضى الله عنه بما تجدّد من أخباره منذ الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى حين فراقه هذه الدنيا اتفق لى أن اجتمعت بجعفر باشا العسكرى سفير العراق فى لندن وهو الذى كان بطل المعارك التى وقعت بين السنوسية والانكليز فى جهات مرسى مطروح فى أثناء الحرب العامة فسألته أن يروى لى من فمه تلك الوقائع ولو على وجه الاجمال لأن روايتى الأولى كانت عما سمعته من فم السيد السنوسى وقد تكون ثمة أمور فاتت السيد ولم تفت القائد العسكرى . فأخبرنى جعفر باشا بكل ما وقع وهو لا يختلف عما قاله لى السيد الا فى بعض تفاصيل حربية

فالقوة التى كانت تحت امرة السيد فى جوار السلوم هى ١٢ ألف مقاتل وكان عدد المقاتلة التى زحفت الى أرض مصر خمسة آلاف مقاتل وكانوا شطرين شطراً مع السيد نزلوا عند البئر المسماة ببير تونس وشطراً وصلوا الى مرسى مطروح تحت قيادة جعفر العسكرى ونورى أخى أنور . فجاء الانكليز أولاً وقاتلوا الفئة التى كانت عند مرسى مطروح وكانوا خمسة آلاف جندى بين مشاة وخيالة ومدفعية وأحاطوا منها بشرذمة لا تزيد على ٨٠٠ رجل اعتصمت بأكام منيعة عند الوادى المسمى وادى ماجد فدافعت عن نفسها دفاع المستميت ولم يقدر الانكليز عليها لوعورة الارض . و بقى القتال نحواً من ١٠ ساعات وخسر الانكليز أكثر من أربعمائة رجل بين قتلى وجرحى ونكصوا الى الوراء و بيناهم مشغولون بقتلاهم وجرحاهم تمكن العرب الذين كانوا مع جعفر ونورى من الانسحاب الى الوراء بعد أن

---

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى وصفحات ٣٧٤ — ٣٧٦ من الجزء الثالث

دفنوا قتلاهم وحملوا جرحاهم وكان قتلى العرب ذلك اليوم ١٥٠ مجاهداً والجرحى مائتين

أما الفرقة التى كانت مع السيد عند بير تونس فهاجتها قوة نظير القوة التى جاءت الى مرسى مطروح ودارت رحى الحرب واستشهد من العرب ٧٠ مجاهداً وجرح ضعف هذا العدد ولكن خسائر الانكليز كانت أعظم فشغلوا بقتلاهم وجرحاهم وجاءتهم نجدات كان يمكنهم بها ان يحيطوا بالعرب لا سيما ان المكان حول بير تونس بسيط مستو ليس فيه شئ من وعورة وادى ماجد . الا ان الله رحم العرب بمزنة سخيّة أوحلت بها الارض وعاقت سير الدبابات والاثقال الانكليزية فتمكن العرب من الانسحاب الى جهات سيدى برّانى وتلاقوا من فلّ مرسى مطروح فزحف اليهم الانكليز بجميع قواتهم وكانت بارجة حربية تمطر العرب قنابرها من البحر وهناك تغلبوا على العرب بكثرة العدد والعدد فمنهم من انهزم الى السلوم وعبر الحدود قافلاً ومنهم من استشهد ومنهم من جرح ومنهم من استسلم و بقى جعفر باشا يقاتل ومعه جماعة الى أن جرحوا بالسيوف وسقطوا فثقفهم الانكليز اسرى واتوا بجعفر الى الاسكندرية

وأما المرحوم السيد فانه انصرف بعد واقعة بير تونس الى واحة سيوه و بعد هذه الواقعة جرت معه الحوادث التى ذكرناها فى ترجمة حاله

— ٢ —

منذ انطوى استاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبى فيما عدا المصائب التى رزئت بها فى أفراد عائلتى ماأشعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذى نقل الى الآفاق نعى الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف الباتر السائر على هدى الصحابة الكرام فى العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل فى أيام الأواخر سيدى أحمد الشريف ابن سيدى الشريف ابن سيدى محمد بن على السنوسى رضى الله عنه وعن سلفه وأرضاهم وجعل فى جوار قدسه مأواهم (١)

إن فجيعة العالم الاسلامى بهذا الرجل الكبير من رجاله بل بهذا الجبل الراسى من جباله هى من الحوادث التى تشغل مكاناً خاصاً فى تاريخ مصائب الاسلام الذى أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب ، وان هذا الفقيد العظيم لو عاش فى زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية

(١) كتب عطوفة الأمير هذه المقالة والتي تليها فى جريدة الجهاد الغراء بمناسبة نعى الفقيد رحمه الله

والفتوحات العمرية لما كان مكانه فى ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الاسلام فى الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون الى جدار الصين . فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله ووقف مدة عشرين سنة فى وجه دولة من الدول العظام فى عصر دثرت فيه معالم الجهاد وانطفأت جذوة الاسلام حتى لم يبق منها الا الرماد واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوربية ضرباً من ضروب الحماقة وعم ذلك جوعهم الحاضر منهم والباد.وانتشر فى الربى والوهاد . ومع هذا فان سيدى أحمد الشريف السنوسى قد أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين فى قطر لايتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الارادة وثبات العزم ومضاء الصريمة وإباء الضيم وترجيح المعنى على المادة وإيثار الشرف على الترف وامتلاء القلوب بالايمان ووقف النفوس على اعتزام عزائم الاسلام ان تثبت مدة ٢٤٠ شهراً بازاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليوناً مجهزة بجميع ماهى مجهزة به عظميات دول العالم المتمدن لها من فيالق البر وأساطيل البحر وسيارات الكهرباء والمحلقات فى الفضاء مالا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة فى الصف الأول فى ممالك الأرض .

وقد يقول المتعنتون الذين فى قلوبهم مرض والذين لايروقهم إلا أن يروا الاسلام ذليلاً مهيناً : وماذا أفادنا قيام السيد السنوسى فى وجه ايطاليا وهل كان ذلك إلا سبباً فى زيادة قهر المسلمين وإرهاقهم بأفانين الظلم وأساليب الاستئصال فى طرابلس الغرب ؟ فلو كان هؤلاء الأهالى قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التى قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتها عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذى هم فيه والخطوب التى أبادت خضراءهم وما أشبه ذلك من الأعاليل التى تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبى أياً كان .

وجوابنا على ذلك بسيط وهو :إننا مارأينا أمة أوربية مهما قل عددها وانقطع مددها قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوربية عظيمة مهما علا سلطانها وغلظت ملكتها فى الأرض بل القاعدة عند الاوربيين ــ الذين هم قدوة الشرقيين الآن فى جميع المآخذ والمتارك ــ هى أن الأمة المستقلة لابد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع عن شرفها الى النسمة الأخيرة من حياتها . وان الذى يموت بغير دفاع فالموت أولى به من الحياة بلا نزاع . وان

بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة الى الذل ولو كانت كالجراد المنتشر . وقد حققت الحوادث وأيدت التجاريب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء وأن قول الشاعر :

قاتل عدوك باللسا ن وان قدرت فبالسنان
إن العداوة ليس يص لحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث كما دانت بها دول العالم القديم . ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لايطاليا لما كان لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم ، وامتداد أيدي الأوربيين بدون أدنى تردد الى كل قطر من الاقطار الاسلامية قياسا على قضية طرابلس واعتقادا بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهي لا تبدي ولا تعيد ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام لأنه ما لجرح بميت ايلام

قد استشهدنا على صحة مبدإ المقاومة ولو كان المعتدى قويا والمعتدى عليه ضعيفا بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حربا وسلما وعملا وعلما ولم نتعرض الى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاهم كتابهم عن الخضوع للاجنبيين عنهم ويقول لهم « إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ولم يكن تقديمنا الحجة الاولى لكوننا أشد بها اقتناعا من الحجة الثانية ولكن لمعرفتنا أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الاوربية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية وإنك ان لم تستظهر عليهم بكتاب أوربي أو سنة غربية لم يفدك الاخذ والرد معهم شيئاً

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الاسلام الى هذا الوقت قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة والامير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا ١٧ سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد بن عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة توافق فيها مع دولتي فرنسا وأسبانيا

معا وجها لوجه وزلزلنا فى حربه زلزالا شديداً ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله لكانت ايطاليا استصفت قطرى طرابلس وبرقة من الشهر الاول من غارتها الغادرة عليهما واننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الاوربية عن الحملة الايطالية يوم جردتها على ذينك القطرين اذ قال بعضهم ان ايطاليا ستقبض على ناصية الامر وتستكمل هذا الفتح فى مدة ١٥ يوما وقال أشدهم تشاؤما وأقلهم تخيلا وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور ان هذا الفتح الذى يستسهله الناس على ايطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالاقل . . . . فليتأمل أولو الالباب كيف ان هذه الثلاثة الاشهر امتدت عشرين عاما ورزأت الدولة الايطالية بمائة وخمسين الف عسكرى قتلى عدا الجرحى وبثلثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح . هذا كان مجموع خسائر ايطاليا منذ ستين بحسب الاحصاءات الرسمية . وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند

نعم لم تأكل ايطاليا فى اعتدائها الفظيع هذا مريئا ولم تشرب هنيئا وعلق فى حلقها من سمك الاسلام حسك لا يزول فى الاحقاب ولا فى القرون وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قدكان يفهم الاسلام حق الفهم ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة ولم يكن فى قلبه شئ من الدنيا بجانب الآخرة وكانت جميع حطام هذا العالم الفانى لاتوازى عنده جناح بعوضة فى جانب الواجب الاسلامى وهذا الرجل هو السيد السنوسى الكبير الذى لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئا ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً . وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار الا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف وقائداً من قواده

قلت ان السيد السنوسى لوكان فى عصر السلف لكان يلزفى صف أعاظم أبطال المسلمين فكيف وهو فى عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب . وان هذه المقابلة تذكرنى بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما قام أحد بأمر الاسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المدينى المحدث الشهير : ولا أبو بكر الصديق ؟ فأجاب ولا أبو بكر الصديق . وذلك لان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان له رجال وأعوان وان أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان وانما كان يناضل بقوة نفسه وحدها

ونحن نقول لو كانت الدولة العثمانية قاومت ايطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من ايطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بموالاة الهزائم عليه لما كان فى ذلك مايقضى بالعجب . ولكن الذى قام هـذا المقام الشريف و وقف هذا الموقف التاريخى النادر النظير هو رجل لايملك سوى قوة إرادته ومتانة إيمانه و إيمان رجاله وعزة أنفسهم بالاسلام وصبرهم فى البأساء وحين البأس . و بينهم و بين عـدوهم فى الأعتدة والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة مالا يحتمل التنظير فى قليل ولا كثير . ففضله إذن أعظم جـداً من فضل الدولة العثمانية فى جهادها وان كان فضلها عظيماً . وهو وحده كان مصدر هـذه الارادة التى أنشأت باذن الله هـذا الجهاد الطويل العريض وحفظت شرف الاسـلام المعتدى عليه فى طرابلس وغـير طرابلس لانه مما يجب أن لا نتمارى فيـه أن أوربا لاتعرف فى ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً أن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة ، وأن سيرة السيد أحمد الشريف هى بذاتها تاريخ . وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف عـلم من أخلاقه وورعه وحامـه وعامه وزهـده فى الدنيا وحبـه لمعالى الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومؤاساته للفقراء وحنـانه على الضعفاء وشـدته مع ذلك فى الدين وانحصار كل همومـه فى استتباب أمر المسلمين ومحافظته على الفـرائض والسـنن وغـير ذلك من الأخـلاق العاليـة والهمم الشماء والمنازع القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام ولا أقول هذا فى مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة وأن يحملهم الموت على طى الهنات وتناسى السيئات بل أقول انه كان هذا لسان جميع من خالطوه والفقيد رحمه الله ملآن حياة وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها و يعرف أكثر منها . وطالمـا كان يقول الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم : ان الأمة الاسلامية والدولة العثمانية لم تقدرا هذا الرجل حق قدره .

ولقد ترجمت السيد احمد الشريف فى حياته فى الجزء الأول من حاضر العالم الاسلامى فى ثمانى عشرة صفحة مطبوعة بالحرف الرفيع أوردت فيها خلاصة مواقف المرحوم فى الحرب الطرابلسية من بدايتها الى أن قضت عليه الأحوال بمغادرة طرابلس فى غواصة ألمانية الى الاستانة الى آخر مدة إقامته بتركيا ، ولما عزمنا مؤخراً على طبع هـذا الكتاب استئنافاً وأضفنا اليه هذه المرة ضعف الحواشى التى علقناها فى المرة الفائتة ألحقنا بهـذه الترجمة عدة

صفحات عن بقية تاريخ المرحوم بعد مفارقتى إياه فى مرسين وكيفية رحيله الى الشام فالحجاز حيث ألقى عصا التسيار ولم يزل يتردد فى تلك البقاع المباركة الى أن لقى ربه

فهذا التاريخ الزاهر قد كتبناه فى حياته ولا نخشى فيه لومة لائم ولا قولة قائل إننا أعطينا السيد أكثر من حقه . ولست مقتنعاً بما حررته فى «حاضر العالم الاسلامى» من سيرة هذا المجاهد العظيم الذى لا ينجب مثله الدهر فى مئات من السنين فى علو الهمة مع التواضع وشدة الأنفة مع الخشوع والتناهى فى التقوى مع مزيد الكياسة والاسراف فى الخير واكرام الضيف مع الاقتصاد على النفس والجمع بين الاضداد التى كانت تجتمع بمقاييس ولا شك أوسع فى جده أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أقول جده على بن أبى طالب لأنه ثابت بقدر ما يمكن ثبوت الانساب أن السادة السنوسية أبناء هذا البيت الكريم هم خطابيون أدارسة من ذرية إدريس صاحب المغرب حفيد الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام . فلا بد لى إن شاء الله من أن أجمع مناقب الفقيد فى كتاب خاص أنشره فى العالم الاسلامى شرقا وغربا وأسميه « التعريف بمناقب سيدى أحمد الشريف » وأفصل فيه ما أجملته فى الترجمة السابقة وذلك لأن الجميع لايتسنى لهم أن يقتنوا «حاضر العالم الاسلامى» أربعة مجلدات وأرى من مصلحة هذه الأمة أن تقرأ سير مثل هؤلاء الرجال حتى تقتدى بهديهم وترى ما كانوا عليه من احتقار هذه الدنيا فى سبيل الواجب المقدس . إذ ليس هذا الخلق بكثير مع الأسف فى هذا العصر الذى تكالب الناس فيه على المادة وعبدها الكثيرون من دون الله وكذلك أرى من الواجب على نشر هذه السيرة الشريفة لأننى أوسع الناس اطلاعا على أحوال هذا الامام الذى كنت له خليلا وكان بحق إمام السيف والقلم ولأن سيرته هى جزء من التاريخ العام الذى لا يمكن أن يكتب بانصاف إن لم تتسع منه صفحات حافلة بأعمال السيد أحمد الشريف السنوسى قدس الله روحه

ولذلك ترانى فى هذه المقالة مقتصراً على هذه اللمحة الدالة تاركا التفصيل لما بعد . وانما أحب أن أذكر من مناقبه بعض الشئ الذى اطلعت عليه تمام الاطلاع أيام إقامتى بمدينة مرسين ملازما له . فانى بعد استقلال تركيا كنت عزمت على السكنى فى الاستانة فرحاً بجلاء الأجانب عنها وانكشاف تلك الغمة ولله الحمد وكان السيد يومئذ ساكناً فى مرسين . فعند ما علم بورودى الاستانة أسرع بالكتابة الى يلتمس منى أن أسكن بقربه فى

مرسين لأنني كنت من قبل فى مراسلة متصلة معه من أيام ذهابى الى الجهاد فى برقة ، وكان بعد التجربة الطويلة لا يثق بأحد ثقته بى وكان يفضى الى بكل ما فى نفسه وكنت أنا أقوم بتبليغ الدولة أكثر ما يهمه من مهامه وكنت وسيطه الدائم لدى صديقى أنور رحمه الله وهذا كله قبل أن تعارفنا بالوجوه . فلما حصلت أنا فى الاستانة سنة ١٩٢٣ لم يكن أسرع منه إلى دعوتى الى السكنى بجواره فى مرسين لتتم بيننا المعارفة . وكانت الحكومة التركية قد أنزلته فى دار فسيحة ذات حديقة غناء فى ظاهر مرسين وجئت أنا فاكتريت داراً فى البلدة وكنت أختلف الى السيد كل يومين مرة أجلس فيها و إياه ساعات طوالا فى ذلك القصر المشرف على الرياض والبساتين فكان كل منا يأنس بالآخر مالا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل ومن بعد . وما من أحد تعمق فى معرفة حقيقة هذا الرجل الا ازداد له حرمة وتوقيراً . فكانت معارفة الوجوه بيننا سببا لزيادة الحرمة وتضاعف الاغتباط بالصحبة وما أمتن الوداد اذا كنت تحترم من تحبه وتحب من تحترمه

و إنى لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان فى مرسين وذلك سنة ١٣٤٢ فكنت أفطر فى منزلى بالبلدة ثم أذهب الى خرستيان كوى حيث يقيم السيد ونصلى وراءه العشاء والتراويح . وكان يجتمع المغاربة الذين فى مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً . فكان يختم القرآن الكريم فى كل خمس ليال مرة أى كان يقرأ خمس القرآن فى كل صلاة وكنت صليت وراءه التراويح مرة أو مرتين فرأيته يبقى فيها زيادة على ساعتين ، فعجزت عن ذلك وصرت أقتصر على صلاة العشاء وكانوا هم يصلون التراويح وبعد الصلاة نجلس إلى السحور ، وكان فى القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف ولا يتردد ولا يتلعثم وكنت أقضى من ذلك العجب العجاب وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين والستين من العمر وتحمل من الهموم والأثقال ماتنوء به الجبال وهو لايزال يتذكر كتاب الله كله ويقرأه عن ظهر قلبه كقراءته للفاتحة . لم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله الى آخره وفى الختمات الست التى ختمها لكتاب الله توقف فى القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات كان يقف قليلا ليتذكر الآية وكان وراءه شاب تونسى حافظ فيسرع بالتلقين إياها له فيمضى فى القراءة مضاء السهم وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن وانطوى على ذلك الهم العظيم من فراق الأوطان وتنوع الأشجان وجور الحدثان .

ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا الا بأمر هذه الأمة ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالا أجابنى : قد صاروا الآن رجالا وما أنا بمفكر فى أمرهم . وانما يهمنى أمر هذه الأمة المعذبة فى طرابلس . وكان فى قلبه من أمر طرابلس مالا يعلمه إلا الله ولكنه كان من إيمانه فى ثبات الجبال وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الاسلام .

وقد أنشر فى الكتاب الذى أخصصه به صور مكتوباته الى هذا الفقير الى ربه فانه لايزال محفوظاً عندى لأقل من عشرين كتاباً وان كان فقدمنها الكثير بتوالى الأسفار .

وكم من مرة تزلفت اليه ايطاليا بأصناف المواعيد والتعهدات على أن تبقيه على رياسته الدينية والنظارة العامة على جميع الزوايا السنوسية وأوقافها فى جميع البر الطرابلسى وأن تكون كلمته هى العليا الخ . . وكانت أجوبته كلها واحدة وفى احدى المرار حررت الجواب أنا بقلمى وهو طلب الاستقلال التام فى الداخل وعقد اتفاق مع ايطاليا لايمس الاستقلال فى شئ . وغاية ما كان يتساهل به هو توكيل ايطاليا فى العلاقات الخارجية . وأما سبب خروجه من تركيا فقد كنت أريد أن لاأتعرض لبيانه الآن حتى لاأشوب جلالة هذا التأبين بنشر أحدوثة مستهجنة ان كانت قد رضيت بها حكومة أنقرة لنفسها فلا شك أن الأمة التركية الكريمة لن ترضى بها ولا بد أن يأتى يوم يناقش فيه الأتراك الكرام جماعة أنقرة الحساب على معاملتهم لرجل كانوا لجأوا اليه قبل أن اتسق أمرهم واستنجدوه فى أحرج الأوقات ودعوه وهو فى بروسه أن ينضم اليهم واستفادوا من نفوذه فى فتنة قونية وفى فتنة الأكراد الأولى حتى عرضوا عليه الخلافة الاسلامية بالحاح مكان السلطان وحيد الدين وامتنع عن قبولها ولم تزل أنقرة تبره وتكرمه وتتودد اليه الى أن أمنت على نفسها بعد معاهدة لوزان فقلبت له ظهر المجن واتخذت لاخراجه من تركيا وسيلة واهية وهى أن شيخا تركيا من مريدى الطريقة السنوسية ألح على الاستاذ المرحوم فى اعطائه توصية الى الأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد ليذهب الى بيروت ويتعرف الى الأمير بهذه الوصاة . فدافعه السيد كثيراً وقال له إنه ليس بينى و بين الأمير سليم مكاتبة . ولكن هذا الشيخ كان ساذجا لايفهم تلك القصص ولما كان السيد بسائق فطرته من كرم الأخلاق والحلم بحيث لا يكسر خواطر المنكسرين وكنت أنا غائبا حينئذ فى جنيف فكتب له سطرين الى الأمير سليم وختمهما بالآية الكريمة (والله مع الصابرين) فقبضت الشرطة

على حدود سور يا على هذا الرجل ووجدت معه هذا المكتوب فبعثت به الى أنقرة وهناك كانوا ينتظرون سبباً . ليتخلصوا من السنوسى بعد أن انقضت حاجتهم اليه ومن أحبك لحاجة أبغضك عند انقضائها فصدر الأمر فى الحال الى والى مرسين باخراجه من تركيا ونسيت أنقرة جميع ماسبق من جليل خدماته للدولة والملة ولتركيا الانقرية نفسها وكافأته بهذه النهاية التى تبقى سبة على الدهر فى حقها . لا بل نشروا فى جرائدهم انه قد خان حكومة تركيا ! ! وأما هو فلما حصل فى الشام ثم فى الحجاز لم يكن يقول فيهم إلا الخير وكان يذكر حسن صنيعهم ويدعو لهم بالهداية والتوفيق ولم يكن يمن عليهم بخدماته ولا يعتد بشئ من أعماله وكان أكمل من أن يذكر شيئا من ذلك . وقال لأخى حسن يوم خروجه من مرسين : لو كان أخوك هنا ماهفونا هذه الهفوة

ذكر الأخ السيد محمد على الطاهر صاحب الشورى قصة المكتوب الذى كنت أرسلته فى الأيام الأخيرة جوابا للفقيد على كتاب جاءنى منه منذ أشهر وكلفت الأخ أبا الحسن صاحب الشورى بارساله الى السيد بواسطة ذكرتها له . وفى الحقيقة لست أعلم ان كانت هذه الرسالة بلغته قبل وفاته أم بقيت فى الطريق وسأعلم ذلك . وسواء بلغته أم لم تبلغه فقد كنت معه وكان معى وكان يهمنى من أمره مايهمنى من أمر نفسى وكان بين نفوسنا بريد دائم والأرواح جنود مجندة كما ورد فى الحديث الشريف

اللهم انه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق وانه كان القدوة المثلى بين خلائقك والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذى أدى الى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب عليه لدينه ولقومه ولناسه وللانسانية التى كان لها مثالا ، فأعل درجته يارب فى جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه فى عقباه المقام الكريم الذى يليق بكرمك العميم و بثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم واستحقوا النعيم المقيم انك أنت الرحمن الرحيم آمين

— ٣ —

فى الطبعة الجديدة من حاضر العالم الاسلامى التى تتم من الآن الى شهرين يجد القارئ ترجمة للمرحوم سيدى أحمد الشريف أوفى معلومات من الترجمة التى فى الطبعة الاولى

ومن جملة ذلك الكتب التى وردت على السيد من اللورد كيتشنر والجنرال ماكسويل وغيرهما من رجال الانكليز ومنها تتجلى المساعى التى سعتها انكلترة لاستجلاب مودة السيد والمحافظة على رضاه وهى مكتوبات لم تنشر فى محل ولن يجدها أحد إلا فى «حاضر العالم الاسلامى» الطبعة الجديدة

وبرغم جميع ما بذلته انكلترة للسيد من وسائل الاستعطاف فلما بلغ السيد أن بعض الناس يتهمونه بموالاة الانكليز وبالتلكؤ عن الزحف الى مصر زحف الى مصر مجتازا السلوم بالقوة التى معه وهو واثق بأنه لا بعددها ولا بعددها تقدر أن تقاوم القوة الانكليزية التى كانت مرصدة لها

ولولا شجاعة العرب خارقة العادة لوقع الخمسة آلاف مقاتل الذين كانوا مع السيد فى الأسر بأجمعهم ووقع السيد نفسه أسيراً كما أن البطل جعفر باشا العسكرى — سفير العراق اليوم بلندن — جرح وأسر ذلك اليوم وما أمكن العرب أن يخلصوا من خطر إحاطة القوة الانكليزية بهم إذ كانت هذه القوة ثلاثين ألف مقاتل إلا بمعجزات من البسالة واشتغال الجيش البريطانى بدفن الالوف من قتلاه وحمل الالوف من جرحاه . وهكذا تمكن السيد ومن معه من العرب أن يخلصوا من الوقوع فى يد العدو ويقطعوا السلوم راجعين وأفات نورى أخو أنور بأعجوبة .

وبعد هذه الحملة قلب الانكليز للسيد ظهر المجن وزحفوا لقتاله فاضطر أن يتقهقر الى سيوه فقصدوه الى سيوه بقوة عظيمة فدافع السيد تلك القوة دفاع المستميت ودحرها وخرب كثيراً من دبابات الانكليز المصفحة وانتهز فرصة ارتداد الانكليز الى الوراء ففارق سيوه الى جغبوب الى آخر القصة مما ذكرناه فى تلك الترجمة وانتهى الأمر بذهاب السيد فى غواصة من ساحل العقيلة الى الأستانة .

وقد كان من نتائج عمل السيد هذا أن ضبطت السلطة الانكليزية أملاكه فى سيوه وفى الواحات الدواخل وأن باعتها جزاء له على مهاجمة مصر .

ولما جرى الصلح فى لوزان سنة ١٩٢٣ بين تركيا ودول الحلفاء وأعاد الانكليز جميع ما ضبطوه للاتراك فى أيام الحرب كان من الواجب على تركيا أن تسترجع أيضا أملاك السيد أحمد الشريف السنوسى التى لم تضبطها انكلترة إلا بسبب حرب أصلاها إياها السيد بينما الانكليز يتزلفون اليه . وذلك قد كان من السيد لاجل خاطر تركيا وكان مصطفى كمال باشا وعد السيد عند انعقاد مؤتمر لوزان بأن الاتراك سيجعلون من شروط المعاهدة اعادة أملاك السيد بمصر .

فاما انعقدت المعاهدة لم يجد عصمة باشا ومن معه حاجة للاهتمام بالكلام فى قضية أملاك السيد مع كونهم استرجعوا جميع ما كان الانكليز ضبطوه من أملاك التركة ، ولم تكن هذه المسألة عبئا ثقيلا عليهم لانها طلب حق لا يقدر الانكليز أن يقولوا فيه شيئاً .

ولما تم امضاء معاهدة لوزان ذهب السيد الى أنقرة مهنئا وقابل الغازى ومن جملة الكلام سأله عما فعلوه من جهة أملاكه حسبما كان الغازى وعده به . فوجد السيد أنهم أهملوا هذه القضية لان الغازى ارتبك فى الجواب وأحاله على عصمة باشا . ولما تكلم السيد مع هذا فى القضية لحظ أنهم لم يفتحوا هذا البحث فى لوزان . وأخذ عصمة يقول له انهم يقدرون أن يراجعوا الانكليز ولو بعد عقد المعاهدة .

أخبرنى المرحوم السيد بهذا فى مرسين . فقلت له : أفسألتهم مرة ثانية هل راجعوا الانكليز فى هذا الأمر ؟ فان هذا حق لك ومن الواجب على تركيا أن تسترد لك أملاكا ذهبت عليك بسببها .

فقال لى السيد : كلا ما راجعتهم ولن أراجعهم ولن أتلفظ بعد كلمة فى هذا الموضوع . نعم يمكننى أن أسعى لدى الحكومة المصرية فى رد هذه الاملاك لى فان ردوها لى فذاك والا فلست معاودا الكلام لاجلها مع أنقرة وكان من الأنفة بحيث لم يكن يريد أن يحمل نفسه على مراجعة أنقرة فى قضية كانوا وعدوه بها وأهملوها .

وهذه الاملاك تساوى مائة الف جنيه بالاقل . وقد بلغنى فيما بعد أن الحصة التى للمرحوم فى سيوه استردها له الامير ادريس ابن عمه . ولا أعلم ماذا جرى بالاملاك التى فى

الواحات الدواخل . فعسى أن تكون الحكومة المصرية أعادتها للسيد أيضا .

وخلاصة القول أن حكومة أنقرة كافأت السيد أحمد الشريف على مواقفه العظام فى جانب تركيا عموما وجانب أنقرة هى نفسها بجائزتين :

احداهما اهمال قضية أملاكه فى مؤتمر لوزان مع معرفتها أنه انما خسرها بسبب تركيا ومع استردادها أملاك جميع الاتراك الذين كان الانكليز ضبطوا أملاكهم فى أيام الحرب ..

الثانية الأمر له بالخروج من تركيا بسبب مكتوب للأمير سليم العثمانى كتبه بناء على الحاح أحد مريدى طريقته من الأتراك . وكان ساعة كتابته هذا المكتوب كارها ولم يقل فى هذا المكتوب شيئاً يمس تركيا سوى أن هذا الرجل طلب منى هذه الوصاة ولم أجد بداً من اجابة طلبه . وختم المكتوب بآية « والله مع الصابرين »

ولما كان الواجب التعريف بهذه الحقائق ألحقت هذا الخبر بالترجمة السابقة

الاسيف

جنيف ٣ ذى الحجة « شكيب أرسلان »

محاسن المساعى

فى مناقب

الامام أبى عمرو الاوزاعى

رضى الله عنه ونفعنا به

نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه وتصديره بمقدمة

عن الامام الأوزاعى و بتراجم العلماء له

الأمير شكيب ارسلان

المجاهد الاسلامى الكبير

قاموس آيات القرآن الكريم

يعد نسيج وحده وفذا فى بابه فان مؤلفه الفاضل جمع آيات القرآن مبينا عددها وما قيل فيها وضم كل نوع منها الى مثيله منبها على السورة التى هى منها مع ذكر فوائد جليلة فى العلوم الكونية وغيرها

لطائف المعارف

تأليف الشيخ الامام الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلى

وهو فى المواعظ مرتب على شهور العام الهجرى ، ذكر فى كل شهر مافيه من الوظائف ومايطلب فيه من نوافل الصلاة والصيام وغيرذلك ممحصا ماورد فى ذلك من الأدلة مميزا بين صحيحها وسقيمها ليكون مريد العبادة على بصيرة مما ياتى به

حاضر الشرق

دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

بقلم الكاتب الكبير

محمد لطفى جمعه المحامى وعضو المجمع العلمى العربى

كتاب متمم لحاضر العالم الاسلامى وفى نفس الموضوع وقد احتاج المؤلف لمراجعة ٥٠ كتاب بعدة لغات ليصل الى الحقائق التى دونها والاستاذ لطفى جمعه غنى عن التعريف لكثرة مؤلفاته وكتاباته المتوالية فى امهات الصحف العربية

الجامع اللطيف

في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف

تاأليف مولانا المرحوم جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبى بكر بن على بن ظهيرة القرشى المخزومى

كتاب عنوانه يدل على بعض محتوياته وهو جامع لتاريخ مكة المكرمة التى بها البيت المعظم فتاريخها أهم شئ ينظر اليه المعتنون بالدين * وهذا الكتاب لأهميته طبعت فى أوربا الكراسات القليلة التى وجدت منه ولما وجد المرحوم والدنا أثناء حجه المقبول هذه النسخة فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل التحية أحضرها معه وخدمناها خدمة لامثيل لها بعمل فهارس لأسماء الرجال والنساء والأماكن هذا بخلاف فهرست الكتاب العمومى وقد جاءت هذه الطبعة كافية مستوفية وهو مطبوع فى حجم الربع وعدد صفحاته يزيد عن الأربعمائة صفحة ولا يستغنى عنه كل من يهمه أمر مكة المكرمة وتاريخها

نظرات الشوري

للاستاذ الـكبير السيد محمد على الطاهر

صاحب جريدة الشورى الغراء

هى خواطر ونظرات فى الشؤون الشرقية فاض بها قلب كاتبها الغيور لما تعطلت جريدته فمن شعر بفقد حملات جريدة الشورى الغراء فى حملتها على الاستعمار وخدمتها للعالم الاسلامى والعرب والشرق واشتاق الى ابا الحسن صاحب الشورى وتحفه ونقداته للاستعمار وروحه الخفيفة الجذابة التى تسيطر على كتاباته أن يطلب نسخة من نظرات الشورى فيجدها تحفه تهدى وخير ما يقرأ

بهجة الحاوى

لعلامة زمانه . وفريد عصره وأوانه زين الدين

أبى حفص عمر بن الوردى . قدس الله

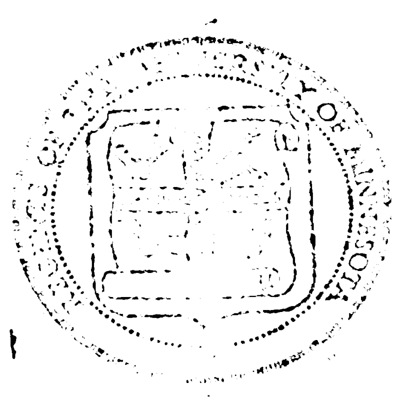
روحه ونوّر ضريحه

وبهامشه كتابان

التيسير نظم متن التحرير ، والتدريب نظم غاية التقريب

وكلاهما للعمريطى

ثلاثة متون فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه جامعة لأصول المذهب مختصرة مفيدة سهلة الحفظ وقد وضعنا للكتاب فهرسا مطولا ليسهل المراجعة فيه وطبعناه على ورق ناعم بحروف كبيرة مشكولة شكلا كاملا ليتجنب الطالب التحريف ويحفظ على صحة كما جعلنا ثمنه زهيدا حبا فى نشر مذهب امامنا الشافعى رضى الله عنه



قاموس الاعلام

للاستاذ العالم المحقق خير الدين الزركلي

هو معجم تراجم لنحو ٨ آلاف شخص بين رجال ونساء من العرب والمستعربين من العصر الجاهلي الى سنة ١٣٥٠ هـ و ١٩٣١ ومن مزايا هذا القاموس المبتكر فى بابه باللغة العربية أنه وضع على الطريقة الجديدة اختصار وايجاز وتحقيق ومما يزيده أهمية أنه لايترجم الاحياء وهو يقع فى ٣ مجلدات ضخمه

مسئلة ترجمة القرآن

تأليف سماحة الشيخ مصطفى صبرى افندى شيخ الاسلام سابقا فى الدولة العثمانية

وهو يبرهن على أنه لايصح ـ بناء ماحدث فى تركيا الجديدة ـ الصلاة بالترجمة على أى مذهب اسلامى وقد دحض شبه الكاتبين فى جوازها ونقض مساندهم الفقهية والاجتماعية فى ١٤٦ صفحة كبيرة وقد شهدت له مجلات مصر الدينية المحترمة بالمنزلة الفريدة الممتازة

تفسير الجلالين مشكول الآيات

للامامين جلال الدين محمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى جزآن وبهامشه أربعة كتب حلينا بها هذه الطبعة الصحيحة

(الأول) فى أسباب النزول للسيوطى (والثانى) فى معرفة الناسخ والمنسوخ لأبى عبد الله محمد بن حزم (والثالث) رسالة جليلة تتضمن ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل للامام أبى القاسم بن سلام (والرابع) ألفية الامام أبى زرعة فى غريب القرآن وقد رتبت أحسن ترتيب



